مختارات إسلامية

المجلد الثالث

الفكر اللبناني - بيروت



سلسلة مختارات إسلامية

القدس في البال

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

القدس في البال

« المقدسات الاسلامية في فلسطين والآيات القرآنية والأحاديث
النبوية حول القدس »

عن المقدسات الاسلامية
في فلسطين

الناشر : دار الفكر اللبناني
تلفون : ٩٥٠-٢٣٧ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس : ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



كلمـــة

خلاصة موجزة عن المساجد والمعابد والمقدسات التي دافع المسلمون عنها في مختلف العصور وبذلوا في سبيل حفظها أرواح مئات الألوف من الشهداء الأبرار وأبقوها وديعة في أعناق المسلمين والعرب .

المسجد الأقصى المبارك

إليه أسرى الله بنبيه محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس ، ومنه كان المعراج الشريف إلى السموات العلى ، إلى سدرة المنتهى . فقد خصّه الله تعالى بهذه المعجزة الباهرة ، معجزة الإسراء والمعراج ، وجعله سبحانه قبلة الاسلام الأولى ، إليه ولى النبي ﷺ والمسلمون وجوههم في صلواتهم حيناً من الدهر قبل تحويل القبلة إلى الكعبة ، فهو أولى القبلتين ، وثالث المسجدين ، الذي نوّه الله تعالى بقدره ومكانته في قوله عزّ وجل ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير﴾ : سورة الإسراء .

وأخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه « أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أخواله من الأنصار ، وأنه صلى قبل بيت المقدس » الحديث : رواه البخاري .

وروى الطبري في تاريخه عن قتادة قال « كانوا يصلون نحو بيت المقدس ورسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة . وبعدما هاجر رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم وجه بعد ذلك نحو الكعبة البيت الحرام » .

وقال النبي ﷺ « لا تشدَّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، ومسجد الحرام ، ومسجد الأقصى » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي (التاج) .

ورواه البخاري رواية أخرى بلفظ « لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : مسجد الحرام ، ومسجد الأقصى ، ومسجدي » هكذا أخرجه البخاري بتقديم المسجد الأقصى على مسجده الشريف . (البخاري) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال « سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال « المسجد الأقصى » : الحديث : رواه البخاري ومسلم والنسائي (التاج) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتيت بالبراق فركبته ، حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم عرج بنا إلى السماء » الحديث رواه مسلم في صحيحه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط ، فرفعه الله لي (أي بيت المقدس) أنظر إليه ما يسألونني عن شيء إلاّ أنبأتهم به . وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء (يعني في بيت المقدس) فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني نفسه ﷺ فحانت الصلاة فأممتهم ، فلما فرغت من الصلاة قال قائل : يا محمد ، هذا مالك صاحب النار فسلم عليه ، فالتفت إليه فبدأني بالسلام » رواه مسلم (التاج) .

وعن زهير بن محمد بلاغاً عن النبي ﷺ : « إن الله تعالى بارك ما بين العريش والفرات ، وخص فلسطين بالتقديس » رواه إبن عساكر ، وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير برقم حديث ١٧٠١ ، قال العزيزي شارح الجامع الصغير أي بارك في البقعة ـ أو الأرض ـ التي بين العريش والفرات أ . هـ .

وعن معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يا معاذ ، إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشأم من بعدي من العريش إلى الفرات ، رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة ، فمن إختار منكم ساحلاً من سواحل الشام أو بيت المقدس فهو

في جهاد إلى يوم القيامة » . أخرجه القاضي مجير الدين الحنبلي المقدسي في الأنس الجليل .

وعن ميمونة مولاة النبي ﷺ أنها قالت : يا رسول الله ، أفتنا في بيت المقدس . فقال : « أئتوه فصلوه فيه ، فإن لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بزيت يسرج في قناديله » . رواه أبو داود في السنن ، وأخرجه إبن ماجة بسند صالح .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل في بيته بصلاة ، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة ، وصلاة في المسجد الذي يجتمع فيه بخمسمائة صلاة ، وصلاة في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة ، وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » رواه إبن ماجة . وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب .

وعن أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أهلَّ بحجة أو عمرة من الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » أو « وجبت له الجنة » رواه أبو داود في سننه . ثم قال : يرحم الله وكيعاً أحرم من بيت المقدس (يعني إلى مكة) سنن أبي داوود ورواه البيهقي وإبن حبان في صحيحه وإبن ماجة . وأخرجه المنذري .

ورواه إبن حبان في صحيحه ولفظه : سمعت رسول الله ﷺ

يقول : « من أهلَّ من المسجد الأقصى بعمرة غفر له ما تقدم من ذنبه » قال : فركبت أم حكيم إلى بيت المقدس حتى أهلت منه بعمرة . أخرجه المنذري في الترغيب ج ٢ ص ١٢٠ .

جماعة من الصحابة اقترحوا دفن النبي ﷺ بجانب المسجد الأقصى

بلغ من عناية أصحاب النبي ﷺ بمكانة فلسطين الدينية ، وتقديسهم للمسجد الأقصى وما حوله من مقدسات وديار مباركة ، أن جماعة منهم رأوا أن ينقل جثمان النبي ﷺ إلى بيت المقدس ليدفن بجانب المسجد الأقصى بجوار مدافن أخوانه من النبيين قبله .

جاء في كتاب (حياة محمد ﷺ) تأليف الدكتور محمد حسين هيكل باشا « اختلف المسلمون حين توفى النبي ﷺ على المكان الذي يدفن فيه ، فقال جماعة من المهاجرين : يدفن في مكة مسقط رأسه ، وقال غيرهم : بل يدفن في بيت المقدس حيث دفن الأنبياء قبله » . أ هـ .

أولى القبلتين

هذه نبذة مختصرة مما حفلت به كتب الحديث والتفسير وكتب تاريخ الإسلام من فضائل المسجد الأقصى وما حوله من ديار

مباركة . وإلى جانب هذه المكانة الدينية التي امتاز بها فإنه يمتاز أيضاً بأبنيته الأثرية وقبابه العظيمة الباهرة ، ولا سيما قبة الصخرة المشرفة وما فيها من النقوش والأعمدة والفسيفساء والزخرفة النادرة التي تبهر أبصار كبار المهندسين فضلاً عن غيرهم ، مما يدل على عظمة المسلمين إبان دولتهم ، وبراعتهم الهندسية والمعمارية .

ولقد كان من ألقاب الخلفاء سلاطين آل عثمان ونعوتهم التي ينعتون بها في خطب الجمعة من على منابر بلاد المسلمين في مختلف الأقطار أن يقول الخطباء في وصف الخليفة « خادم الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى أولى القبلتين » .

مكان البراق النبوي الشريف

في بيت المقدس

وفي الجدار الغربي من المسجد الأقصى يوجد مكان البراق النبوي الشريف ، حيث ترجل رسول الله ﷺ من فوق البراق حين وصوله إلى بيت المقدس ليلة الإسراء به عليه السلام من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس . وهذا المكان المقدس فيه موضع الحلقة التي ربط بها البراق الشريف ، وهو مكان مبارك يزوره المسلمون منذ القديم ، وهو جزء من جدار المسجد الأقصى من الجهه الغربية .

أخرج الحافظ أبو الفتح إبن سيد الناس في كتابه عيون الأثر في سيرة النبي ﷺ من طريق أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها في حديث الاسراء ووصف البراق الشريف ، أن رسول الله ﷺ قال « فأتاني جبريل عليه السلام فذهب بي إلى باب المسجد ، فإذا دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل مضطرب الأذنين ، فركبته فكان يضع حافره مدَّ بصره وجبريل لا يفوتني ، حتى انتهينا إلى بيت المقدس ، فأوثقه بالحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها » الحديث : عيون الأثر .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة من طريق أنس وأبي سعيد رضي الله عنهما « حديث ربط البراق الشريف بالحلقة التي كانت تربط فيها الأنبياء » رواه السهيلي في شرحه على سيرة النبي ﷺ لإبن هشام .

قبور الأنبياء والمرسلين وأضرحتهم الطاهرة

وفي بيت المقدس وما حوله توجد أضرحة ومقابر الكثيرين من أنبياء الله ورسله الكرام :

فعلى مقربة من الأقصى بمدينة القدس يوجد ضريح نبي الله داود عليه السلام ، وبجانبه (مسجد كبير) كانت تقام فيه الصلوات الخمس قبل أن يقع في حوزة اليهود وسيطرتهم .

وحول القدس أضرحة ومقامات كريمة لبعض النبيين الكرام عليهم السلام ، وفيها مساجد أثرية كانت تقام فيها الصلوات والشعائر الاسلامية إلى حين وقوعها في حوزة اليهود ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن السلطان صلاح الدين زار بعضها حين قدم القدس بعد انتصاره على الصليبيين في (حطين) .

وشرقي القدس يوجد مقام نبي الله موسى الكليم عليه السلام ، وعليه (مسجد كبير) ، وحواليه أبنية وآثار إسلامية من بناء الملك الظاهر بيبرس ومن جاء بعده من ملوك المسلمين وسلاطينهم .

المسجد الابراهيمي

وجنوبي القدس تقع (مدينة الخليل) وفيها المسجد الابراهيمي الشريف حيث يوجد الغار الشريف الذي تضم قبر نبي الله إبراهيم الخليل وقبر زوجته السيدة سارة وأضرحة وقبور أبنائه النبيين إسحاق ويعقوب ويوسف وزوجاتهم الطاهرات عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه . وفوق هذا الغار المبارك جامع عظيم شاهق البناء هو (جامع-مدينة الخليل) وما حولها تقام فيه الصلوات الخمس وصلوات الجمع والأعياد ، وهو من أعظم الآثار والأبنية الاسلامية الجليلة .

وعلى مقربة من قبور نبي الله إبراهيم وآل بيته الكرام يوجد. مقام نبي الله (يونس) عليه السلام في بلدة حلحول قرب مدينة الخليل ، وعليه مسجد أثري تقام فيه الصلوات .

بني نعيم

وفي قرية بني نعيم شرقي الخليل يوجد مقام نبي الله لوط عليه السلام ، وفيه مسجد أثري تقام فيه الصلوات وشعائر الاسلام ، وبجواره يوجد مزار اليقين وفيه مسجد أثري ، وبجواره مقبرة قديمة تضم قبور جماعة من آل بيت النبي ﷺ وقبور جماعة من الصالحين .

وفي كثير من مدن فلسطين الأخرى وقراها تقوم أضرحة جماعة من النبيين قرب مدينة الرملة وغيرها وعليها مساجد ولها أوقاف واسعة .

قبور صحابة النبي ﷺ

منذ فتحت جيوش المسلمين فلسطين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأصحاب النبي ﷺ يفدون إليها لزيارتها ، والصلاة في مسجدها الأقصى ، وليحرموا منه بالحج

أو العمرة ، وليشاهدوا ما حوله من آثار وديار مباركة ، ومنهم كثيرون استوطنوا فلسطين أو جاؤ ها للجهاد في سبيل الله فماتوا فيها شهداء أبراراً فقد استشهد من الصحابة رضي الله عنهم طائفة كبيرة في معارك اليرموك ،وأجنادين بقرب الرملة وفحل قرب بيسان ، ودفنوا في أرض فلسطين وانتشرت قبورهم في سهولها وسائر أرجائها .

وفي طاعون عمواس سنة ١٨ هـ مات ٢٥ ألفاً من المسلمين بينهم كثيرون من المجاهدين ، وفيهم جماعة من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ، وبعض التابعين وسواهم .

ولا تزال قبور وأضرحة بعض الصحابة موجودة إلى هذا الزمان في فلسطين ، مثل قبر الفضل بن العباس إبن عم النبي ﷺ في مدينة الرملة وعليه جامع أثري جليل ، وضريح سلمة بن هشام المخزومي الصحابي في بلدة سلمة قرب يافا ، وعليه مسجد كانت تقام فيه الصلوات قبل أن يقع في حوزة اليهود وسيطرتهم ، وبجانب بلدة سلمة توجد مقبرة الصحابة من شهداء (معركة أجنادين) بين الروم والمسلمين ، وهي تعرف بإسم « مقبرة النحام » فيها قبور الصحابة الشهداء عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب بن هاشم القرشي إبن عم النبي ﷺ وطليب بن عمير القرشي إبن السيدة أروى بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ وأبان بن سعيد بن العاص الأموي وتميم بن الحارث

السهمي وأخيه قيس بن الحارس السهمي والحارث بن أوس بن عتيك وهبار بن الأسود المخزومي القرشي وهشام بن العاص بن وائل أخي عمرو بن العاص ، ونعيم بن عبد الله بن النحام وإليه تنسب هذه المقبرة ، ولعله أول صحابي دفن فيها .

وفي مقبرة باب الرحمة في بيت المقدس توجد قبور جماعةً من الصحابة الذين سكنوا القدس وماتوا فيها ويعرف إلى هذا الزمان من قبورهم رضي الله عنهم قبر شداد بن أوس الصحابي عالم بيت المقدس وقبر عبادة بن الصامت الأنصاري أحد نقباء الأنصار وأول قاض مسلم في فلسطين ، وهما بجانب السور الشرقي للمسجد الأقصى .

وفي بلدة بيت جبرين غربي الخليل يوجد ضريح تميم بن أوس الداري الصحابي الجليل ، وعليه مسجد أثري ، وحواليه مزارع زيتون وقف عليه ، وهو الآن في حوزة اليهود .

وفي بلدة يبتا قرب مجدل عقلان يوجد ضريح الصحابي عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر وحاكمها في خلافة عثمان إبن عفان .

وفي عسقلان يوجد مسجد الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وفيه المقام الذي كان فيه رأسه الشريف قبل نقله إلى ضريحه بمصر .

ويوجد في مدينة غزة ضريح سيدنا هاشم عبد مناف جد النبي

ﷺ ، وعليه مسجد أثري جليل القدر ، وبه مدرسة تدرس فيها علوم القرآن .

وفي مقابر عكا والرملة وعسقلان وغزة وسواها من بلاد فلسطين توجد قبور طائفة من الصحابة الذين سكنوها بعد الفتح الاسلامي وماتوا فيها .

جماعة من أصحاب النبي ﷺ
يحرمون بالحج أو العمرة من بيت المقدس

منهم الخليفة العادل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أحرم من المسجد الأقصى كما في الأنس الجليل .

وسعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة وقائد جيش المسلمين في القادسية ، قدم بيت المقدس وأحرم منه بعمرة : الأنس الجليل .

وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما . أهلَّ بعمرة من بيت المقدس ، رواه الامام الشافعي في مسنده ج ٦ ص ٢٦٨ بهامش كتاب الأم . وفي رواية أن إبن عمر قدم بيت المقدس ومعه جماعة ، ويظهر أنهم جاءوا معه للإحرام منه بالحج أو العمرة (مثير الغرام بفضائل القدس والشام) ، (والأنس الجليل) .

ويظهر من قصة إبن عمر وأصحابه أنه كان من عادة الصحابة رضي الله عنهم أن يأتوا جماعة إلى بيت المقدس لزيارته والإحرام منه ، ويدل لذلك ما رواه الإمام الشافعي رحمه الله عن عبد الله بن أبي عمار أنه أقبل مع معاذ بن جبل وكعب الأحبار في أناس محرمين من بيت المقدس بعمرة ، حه الشافعي في الأم) .

وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما قدم بيت س وأهلَّ منه بحج أو عمرة في زمن الشتاء - الأنس الجليل . ومثير الغرام .

ومحمود بن الربيع الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه قدم بيت المقدس وأهل منه بحج وعمرة ، مثير الغرام والأنس الجليل .

وهناك كثيرون من أصحاب رسول الله ﷺ غير من ذكرنا قدموا لزيارة بيت المقدس والمسجد الأقصى والإحرام منه بحج أو عمرة عملاً بالحديث النبوي الشريف .

جماعة من التابعين

يقدمون لزيارة بيت المقدس وما حوله من مقدسات

وقد حفلت كتب التاريخ والتراجم والطبقات بأخبار رحلة الألوف من أئمة الإسلام والملوك والسلاطين وكبار الأئمة من

الفقهاء والمحدثين والصوفية والزهاد والصالحين ، أقبلوا من أقصى الأرض إلى بيت المقدس لزيارته والصلاة فيه والتبرك بالمسجد الأقصى وما حوله من ديار وآثار إسلامية بارك الله فيها ، أو للجهاد والمرابطة في تلك الأراضي المقدسة .

وقد أسلفنا أخبار قدوم طائفة من أصحاب النبي ﷺ من الحجاز إلى بيت المقدس بقصد زيارته والإحرام بحج أو عمرة من المسجد الأقصى .

وقد تابعهم في العمل بهذه السنة الشريفة جماعات من التابعين قدموا إلى بيت المقدس لزيارته والصلاة فيه ، منهم التابعي الجليل أويس القرني قدم بيت المقدس ، واجتمع فيه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه . روى صاحب مثير الغرام في فضائل القدس والشام : « عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن أويساً أتى بيت المقدس عام حج ، ولقى فيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وفي رواية أخرى أن أويساً اجتمع بعمر بن الخطاب في موسم الحج في الحجاز ـ فقال لعمر : قد حججت واعتمرت وصليت في مسجد رسول الله ﷺ ، ووددت أني صليت في المسجد الأقصى ، فجهزه عمر رضي الله عنه فأحسن جهازه فأتى المسجد الأقصى فصلى فيه « مثير الغرام في فضائل القدس والشام » الأنس الجليل .

ويعلى بن شداد بن أوس أو ثابت الأنصاري من تابعي أهل

الشام حضر فتح بيت المقدس وروى عن أبيه شداد بن أوس الصحابي الجليل . الأنس الجليل .

وجبير بن نفير الحضرمي التابعي . أتى بيت المقدس فصلى فيه ، وهو من الطبقة الأولى من التابعين ، أدرك زمن النبي ﷺ وأسلم زمن أبي بكر رضي الله عنه . روى له مسلم وأصحاب السنن ، مات جبير سنة ٧٥ وقيل سنة ٨٠ هـ (مثير الغرام والأنس الجليل) .

وإبراهيم بن أبي عبلة العقيلي التابعي الجليل . روى عن أبي أمامة وأنس ، وروى عنه الإمامان مالك وإبن المبارك وخلق كثير من العلماء قال : « كنت أنا وإبن الديلمي في مسجد بيت المقدس ، فدخل واثلة بن الأسقع وعبد الله بن أم حرام الصحابيات فقمت إلى عبد الله وقام إبن الديلمي إلى واثلة بن الأسقع ، فأخبرني عبد الله أنه صلى مع رسول الله ﷺ إلى القبلتين (مثير الغرام والأنس الجليل ج) . توفي إبراهيم إبن أبي عبلة سنة ١٥٢ كما في تاريخ دول الإسلام للحافظ الذهبي .

وأم الدرداء هجيمة زوجة الصحابي الجليل أبي الدرداء ، كانت تأتي إلى بيت المقدس من دمشق وتقيم نصف سنة في بيت المقدس وبدمشق نصف سنة ، وكانت أثناء زيارتها للقدس تجالس الفقراء والمساكين وتحسن إليهم ، وقد خطبها معاوية بعد

وفاة أبي الدرداء فأبت . وحدث أنها كانت مرة في مسجد الصخرة في بيت المقدس وكان الخليفة عبد الملك بن مروان جالساً في المسجد فأذن المؤذن لصلاة المغرب ، فقامت أم الدرداء تتوكأ على عبد الملك حتى أدخلها إلى مكان النساء في المسجد ومضى فصلى بالناس : (مثير الغرام والأنس الجليل) .

وروى ضمرة عن الأوزاعي قال « كان قبيصة بن ذؤيب ، وعبد الله بن محيريز ، وهانىء بن كلثوم (التابعيون) يقصرون الصلاة من الرملة إلى بيت المقدس » وهؤلاء كلهم عباد زهاد . فقبيصة كان عالماً ربانياً مات سنة ٨٦ هـ ، وإبن محيريز قرشي جمحي نزل بيت المقدس ، قال رجاء بن حيوة : « إن فخر علينا أهل المدينة بعابدهم إبن عمر فإنا نفخر بعابدنا إبن محيريز » . وأما هانىء فقد عرضت إمارة فلسطين عليه فامتنع زهداً (مثير الغرام والأنس الجليل) .

وخالد بن معدان الكلاعي التابعي أتى بيت المقدس ونزل منه على ستة أميال (مثير الغرام والأنس الجليل) .

ورجاء بن حيوة الكندي كان هو القائم ببناء قبة الصخرة المشرفة ، ثم كان وزيراً لعمر بن عبد العزيز . (مثير الغرام) .

ومحمد بن واسع الزاهد الصالح جمعته الطريق ومالك بن دينار وعبد الواحد بن زيد وهم سائرون إلى بيت المقدس . وروى محمد عن أنس بن مالك ومطرف بن الشخير ، مات سنة ١٢٣ هـ (مثير الغرام) .

أبو شعيب الواسطي الزاهد الصالح

يحرم بالحج من بيت المقدس سبعين مرة

وروى العلامة صاحب كتاب مثير الغرام ص ٥٦ أن صالح إبن يوسف أبا شعيب الواسطي الزاهد التقى الصالح المتوفي بمدينة الرملة بفلسطين سنة ٢٨٢ هـ قد حج سبعين حجة في كل حجة منها كان يحرم من صخرة بيت المقدس .

الخلفاء الأمويون

قدم معاوية بن أبي سفيان إلى بيت المقدس سنة ٤١ هـ . قال الليث بويع معاوية بايليا بيت المقدس في رمضان بيعة الجماعة (مثير الغرام) . وعبد الملك بن مروان باني قبة الصخرة ببيت المقدس قدم إلى المسجد الأقصى وصلى فيه (مثير الغرام) .

الخليفة العادل عمر بن العزيز قدم بيت المقدس وصلى فيه (مثير الغرام) .

والوليد بن عبد الملك قال إبراهيم بن أبي عبلة التابعي المقدسي : كان الوليد يعطيني قصاع الفضة أقسمها على قراء مسجد بيت المقدس (مثير الغرام) .

والخليفة سليمان بن عبد الملك أتى بيت المقدس وأتته الوفود

بالبيعة ، كان يجلس في صحن مسجد بيت المقدس فيما يلي الصخرة فيدخل إليه الناس لقضاء حوائجهم . وكان سليمان قد هم بالإقامة في بيت المقدس واتخاذها منزلاً وعاصمة لدولته بدلاً من دمشق (مثير الغرام) .

الخلفاء العباسيون

الخليفة أبو جعفر المنصور قدم بيت المقدس سنة ١٤١ هـ زائراً ، واجتمع فيه بالامام الليث بن سعد . قال الليث لما ودعت أبا جعفر ببيت المقدس قال « أعجبني ما رأيت من شدة عقلك ، فالحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك » . (مثير الغرام والأنس الجليل) .

والخليفة المهدي بن المنصور قدم بيت المقدس وصلى فيه وأمر ببناء ما تشعث من المسجد الأقصى (مثير الغرام) .

جماعة من أئمة الإسلام المجتهدين
يزورون بيت المقدس والمسجد الأقصى

كان أئمة المسلمين من العلماء المجتهدين والزهاد والصالحين حريصين على العمل بحديث النبي ﷺ في شدّ الرحال إلى المسجد الأقصى لزيارته والصلاة فيه ، فقد قدم بيت المقدس من

الكوفة الإمام (سفيان الثوري) إمام أهل العراق في عصره المجمع على جلالته وزهده وورعه ، صلى في المسجد الأقصى بموضوع الجماعة . وقال صدقة بن يزيد : لقيت سفيان الثوري في مسجد الجماعة في بيت المقدس فقلت له : أتيت القبة قبة الصخرة ؟ فقال : نعم وختمت فيها القرآن . (الأنس الجليل ومثير الغرام) .

والإمام الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو أحد الأئمة الإعلام وفقيه أهل الشام ومجتهدهم ، وكان رأساً في العلم والعبادة ، قدم بيت المقدس وزار المسجد الأقصى (الأنس الجليل ومثير الغرام) .

الامام الليث بن سعد عالم مصر وإمامها في عصره قدم بيت المقدس سنة ١٤١ هـ لزيارته والصلاة فيه ، واجتمع فيه بالخليفة أبي جعفر المنصور العباسي . مات الإمام الليث في مصر سنة ١٧٥ هـ (فتوح البلدان للبلاذري والأنس الجليل ومثير الغرام) .

والإمام الشافعي محمد بن إدريس عالم قريش أحد الأئمة الأربعة ، ولد في مدينة غزة بفلسطين سنة ١٥٠ هـ وقدم بيت المقدس فصلى فيه وقال : سلوني ما شئتم أخبركم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ (الأنس الجليل ومثير الغرام) .

والإمام وكيع بن الجراح قدم بيت المقدس وأحرم منه إلى

مكة ، وكان وكيع من أئمة الحديث الاعلام ، روى عنه إسحق والإمام أحمد بن حنبل وقال : ما رأيت أوعى للعلم منه ولا أحفظ (الأنس الجليل ومثير الغرام) .

جماعة من شيوخ الصوفية

وكبار الأولياء الصالحين

كان الصالحون من المسلمين منذ فجر الاسلام حريصين على الرحلة إلى بيت المقدس من أقصى الأرض من مختلف أقطار الشرق والغرب ، وقد حفلت كتب التاريخ بأسماء جماعات من أعيان لا يحصيها العد ممن قدموا في مختلف العصور إلى فلسطين لزيارة المسجد الأقصى والتبرك به وبما حوله من مقدسات وديار مباركات . فمن كبار الصالحين الذين قدموا بيت المقدس لزيارته والصلاة في المسجد الأقصى المبارك (إبراهيم بن أدهم) أحد كبار الزهاد ، كان من أتباع التابعين وثقاتهم ، قدم بيت المقدس زائراً ونام بالصخرة . وله قصة في ذلك .

إن إبن أدهم من كبار شيوخ الطريقة الاعلام له قدم صدق في التقوى والورع والزهد والدعوة إلى تهذيب النفس ترك الامارة ورحل من بلده بلخ فجاء إلى بلاد الشام ومنها إلى بيت المقدس للزيارة والعبادة ومكث فيه مدة ، وتوجد في بيت المقدس

(الزاوية الأدهمية) نسبة إلى إبن أدهم ، ويجانبها قبور جماعة من الصالحين من أتباع طريقته ، وموضع قبورهم في مغارة بأسفل جبل (مقبرة باب الساهرة) بالقدس ، وهو مكان يزوره المسلمون .

وقد رابط إبن أدهم في حصون عكة وعسقلان وسواها من سواحل فلسطين مجاهداً في سبيل الله حتى أدركه الموت سنة ١٦١ هـ وهو مرابط ، وقبره في مدينة جبلة بالشام مشهور رحمه الله (الأنس الجليل . ومثير الغرام ومختصر تاريخ إبن عساكر . وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني) .

وذو النون المصري أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الصالح المشهور ، أحد رجال الطريقة الصوفية ، وكان أوحد وقته علماً وورعاً وأدباً ، قدم بيت المقدس وقال : وجدت على صخرة بيت المقدس « كل عاص مستوحش ، وكل مطيع مستأنس » إلخ . . . (وفيات الأعيان والأنس الجليل ومثير الغرام) .

وبشر بن الحارث الحافي أحد رجال الطريقة الصوفية من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين ، قدم بيت المقدس وقيل له : لم يفرح الصالحون ببيت المقدس ؟ قال : لأنها تذهب الهم ، ولا تشتغل النفس بها . وقال : ما بقي عندي من لذات الدنيا إلاّ أن أستلقي على جنبي تحت السماء بجامع بيت المقدس (وفيات الأعيان والأنس الجليل) .

والسرى بن المغلس السقطي أحد رجال الطريق كان أوحد أهل زمانه في الورع والتوحيد ، وهو خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه . قدم السرى بيت المقدس زائراً وقال خرجت من الرملة إلى بيت المقدس فمررت بمشرفة وغدير ماء وعشب . ثم ذكر قصة له في ذلك (وفيات الأعيان ومثير الغرام والأنس الجليل) .

وجعفر بن محمد النيسابوري المحدث قدم بيت المقدس وحدث به سنة ٢٧٠ (مثير الغرام) .

والإمام محمد بن الوليد الطرطوشي الأندلسي المالكي قرأ على إبن حزم ، كان إماماً عالماً زاهداً قدم بيت المقدس في حدود سنة ٤٧٠ هـ وحج ثم سكن الشام (مثير الغرام) .

والامام حجة الاسلام (الغزالي) . قدم أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي بيت المقدس زائراً ، وأقام في جوار المسجد الأقصى مدة غير قصيرة ، ونزل في (الزاوية الغزالية) في باب الرحمة على الجدار الشرقي للمسجد الأقصى ، وفيه صنف كتاب (إحياء علوم الدين) وسواه من المصنفات العلمية المشهورة .

قال الحافظ أبو محمود المقدسي في كتابه (مثير الغرام بفضائل القدس والشام) : وانتقل الغزالي إلى بيت المقدس مجتهداً في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة ، وأخذ في التصانيف

المشهورة ببيت المقدس مثل (إحياء علوم الدين) ـ و (القسطاس) و (محك النظر) وغيرها : توفي الغزالي بطوس سنة ٥٠٥ هـ (مثير الغرام والأنس الجليل وتاريخ إبن كثير) .

والإمام أبو بكر بن العربي الأندلسي الأشبيلي الحافظ المشهور ، لقى الطرطوشي وتفقه عليه وصحب الغزالي . وقدم الامام أبو بكر إلى بيت المقدس في حدود سنة ٤٨٥ ورأى به خلقاً كثيراً من العلماء ، وزار أثناء ذلك بلد الخليل عليه السلام ومقام النبي يونس عليه السلام في بلدة حلحول قرب الخليل على طريق القدس ، وقد ذكر ذلك في كتابه أحكام القرآن . مات أبو بكر سنة ٥٤٣ هـ بأشبيلية (الأنس الجليل ومثير الغرام) .

والإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني الشافعي . قدم بيت المقدس زائراً له وهو في أيدي الصليبيين (كما في الأنس الجليل ومثير الغرام) .

أبو بكر الجرجاني من أهل جرجان من أعمال نيسابور كان عابداً صالحاً ، توجه هو وأبو سعد السمعاني إلى زيارة بيت المقدس فذهبا ولم يفترقا حتى رجعا إلى العراق . قال إبن السمعاني في حقه : كان نعم الصاحب والرفيق ، وهو شيخ صادق صالح ، قائم بكتاب الله ، دائم البكاء كثير الحزن ، له أوقات حسنة ، جاور بمكة سنين وخدم المشايخ الكبار . مولده سنة ٤٦٥ ووفاته سنة ٥٤٠ (مثير الغرام) .

ومنذ فجر الاسلام والأتقياء والصالحون من المسلمين يقدمون من أقصى الأرض إلى بيت المقدس للاحرام منه بحج أو عمرة عملاً بحديث النبي ﷺ ليفوزوا بمغفرة ذنوبهم جزاء إحرامهم من المسجد الأقصى بحج أو عمرة كما أخبر الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه .

وإلى هذا الزمان كان الكثيرون من أتقياء المسلمين يأتون إلى بيت المقدس من الهند الأفغان وجاوة (أندونيسيا) وبلاد المغرب وسواها من أقطار الإسلام في آسيا وأفريقيا وبعض أرجاء أوروبا وسائر بلاد الاسلام في الشرق والغرب يقدمون للاحرام بالحج أو العمرة من المسجد الأقصى قبل سفرهم إلى مكة والمدينة وقام عدد كبير من العلماء والصالحين من المغاربة والمشارقة والهنود والأفغانيين والأتراك وسواهم قد أهلوا بالتلبية بحج أو عمرة في المسجد الأقصى بعد أن تجردوا من ثيابهم المخيطة وارتدوا أردية الأحرام البيضاء النقية عاملين بالسنة النبوية ليفوزوا بالآجر الجزيل المنوه عنه بقول النبي ﷺ « من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » أو « وجبت له الجنة » الحديث .

قبور شهداء المسلمين وأضرحتهم

منذ الفتح الاسلامي استشهد في فلسطين مئات الألوف من شهداء المسلمين ، تنتشر قبورهم وأضرحتهم في المدن والقرى

الفلسطينية ، وفي القدس بمقبرة ماملا (مأمن الله) التي هي الآن تحت سيطرة اليهود توجد قبور وأضرحة سبعين ألف شهيد من قتلى المسلمين في حروب الصليبيين ، منهم طائفة من العلماء والقادة والصالحين من المجاهدين استشهدوا بداخل المسجد الأقصى وما حوله من جنبات القدس وشوارعها ، وقد عبث اليهود أخيراً بهذه المقبرة وانتهكوا حرمة شهداء المسلمين ، وفتحوا في هذه المقبرة شوارع وداسوا فوق عظام الشهداء بأقدامهم وسياراتهم ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

ولا تخلوا مدينة من مدن فلسطين وقراها الكبرى من مقبرة للشهداء ، ولقد قدر عدد من استشهدوا في فلسطين من المسلمين في (الحروب الصليبية) التي استمرت أكثر من مائتي عام بما يزيد عن مليون شهيد قدموا من أنحاء العالم الاسلامي للدفاع عن فلسطين المقدسة ومسجدها الأقصى المبارك فاستشهدوا فيها .

وفي عين جالوت قرب مدينة بيسان شمال فلسطين استشهدت طائفة كبيرة من أبطال الإسلام في قتال التتار حين هزمهم في عين جالوت جيش مصر بقيادة الملك المظفر قطز والظاهر بيبرس ، فحملوا فلسطين ومصر من عادية التتار .

وفي الثورات والحروب التي قام بها أهل فلسطين من المسلمين والعرب ضد عدوان الانجليز واليهود خلال ثلاثين سنة

استشهدوا فيها ألوف من رجال فلسطين وشبابها المجاهدين قتلوا برصاص الانجليز واليهود وقنابلهم ، ومئات منهم شنقهم الانجليز بعد أن قبضوا عليهم وأعدموهم ، ويضاف إلى ذلك الألوف من الشهداء الذين ماتوا في حرب فلسطين أخيراً (سنة ١٩٤٨ ـ سنة ١٩٤٩) بعد دخول الجيوش العربية إليها وما أسفرت عنه من كارثة فاجعة .

ومن حين احتل الانجليز فلسطين وهم يعملون بكل حيلة ووسيلة مدة ثلاثين سنة لتهويدها ومحو صبغتها الاسلامية والعربية ، بقصد جعلها يهودية محضة ، ففشلوا بسبب قوة إيمان أهل فلسطين وثباتهم في مقاومة سياسة الانجليز واستمساكهم بحقهم في وطنهم وديارهم ، إلى أن قرر الانجليز الجلاء عن فلسطين ، ونفذوا مؤامرتهم مع اليهود فسلموهم أكبر المدن ، مثل حيفا ويافا واللد والرملة ، ومكنوهم بذلك من السيطرة على القسم الأكبر من فلسطين ، وهو عبارة عن ١٢ مدينة كبرى ، وحوالي ٧٠٠ قرية فيها ما يزيد على ألف مسجد وجامع ـ الكثير منها بني في عهد عمر بن الخطاب ومن جاء بعده من خلفاء المسلمين وملوكهم وسلاطينهم وحكامهم ، ومن تلك الجوامع والمساجد جوامع يافا وحيفا وعكا وصفد وطبريا والناصرة وبيسان وسمخ وقاقون وقيسارية والشيخ مونس وسيدنا علي والرملة واللد والمجدل وعسقلان والفالوجة وبئر سبع وبيت جبرين وعراق المنشية وما حول تلك البلاد من القرى التي كانت إسلامية عربية

محضة يسكنها نحو مليون مسلم عربي ، إلى أن غزاها اليهود وفقاً لخطة الانجليز والأمركيين وغيرهم من أعداء الاسلام فشردوا أهلها منها ، وأجلوهم عنها ، وسيطروا على أراضيها وجميع ممتلكات المسلمين والعرب ، كما سيطروا على جميع مساجدها ومعابدها وسائر ما فيها من مقدسات المسلمين وآثارهم فيها .

الزوايا الصوفية والتكايا الاسلامية

وإلى جانب المساجد والجوامع في بلاد فلسطين توجد مئات عديدة من الزوايا والتكايا والخانقاهات الصوفية منتشرة في مدن فلسطين وقراها ، من أشهرها (الخانقاه الصلاحية) التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي في مدينة القدس . و (زاوية الشيخ بدر الدين الحسيني) بظاهر القدس بما فيها من أضرحة الشيخ بدر وآل بيته وجماعة من الصالحين . وفي مدينة القدس (زاوية الشيخ جراح) و (الزاويـة النقشبنديـة) و (زاوية القادرية) و (الزاوية الخلوتية) و (الزاوية الأدهمية) و (الزاوية الهندية) و (الزاوية الرفاعية) و (الزاوية الأفغانية) و (الزاوية الفخرية) و (زاوية أبي مدين) و (زاوية المغاربة) وغير ذلك من الزوايا الصوفية التي تقام فيها الصلوات والأذكار وتقرأ فيها الأوراد الصوفية .

وفي مدينة الخليل زوايا صوفية كثيرة العدد ، منها (زاوية

الشـرفـاء) و (زاويـة الـرفـاعيـة) و (زاويـة الخلوتيـة) و (القواسمة) و (زاوية الأدهمية) وسوها .

وتوجد زوايا صوفية كبيرة في يافا وحيفا وعكا وصفد وبيسان وطبريا والرملة واللد والمجدل ونابلس وطولكرم وقلقيلية وقاقون والشيخ مونس وعراق المنشية ونوبا وغيرها من البلاد .

المدارس العلمية الاسلامية

وفي القدس والرملة واللد والخليل ويافا ونابلس وصفد والمجدل وغزة وسواها من مدن فلسطين وبلادها توجد (مدارس أثرية اسلامية) أنشأها ملوك المسلمين وسلاطينهم في مختلف العصور ، وتخرج منها طائفة من العلماء والصالحين من رجال الدين كالمدرسة (المأمونية) و (مدرسة قايتباي) ، و (مدرسة تنكز)، و (مدرسة الجاولية) ، و (المدرسـة العمريـة) ، و (الرصاصة) وغيرها . وفي مدينة عكا توجد (المدرسة العلمية الدينية) في جامع أحمد باشا الجزار كانت قبل استيلاء اليهود على عكا عامرة بالعلماء المدرسين وطلاب العلم الديني الذين كانوا يقصدونها من مختلف بلاد فلسطين وغيرها ، وكان خريجوها يقومون بوظائف الامامة والخطابة وسواها من الوظائف الدينية . وفي (جامع الجزار) بعكا توجد (المكتبة الاسلامية) المحتوية على نفائس الكتب الدينية اللغوية والتاريخية ، منها

طائفة من المخطوطات الأثرية في علوم التفسير والحديث النبوي والفقه ، وتوجد فيها نسخة خطية من كتاب (الجامع الكبير) في الحديث الشريف تأليف الحافظ جلال الدين السيوطي وهي نسخة نادرة الوجود ، وقد أمست هذه المكتبة والمدرسة وجامع الجزار وسائر ما في عكا من مساجد المسلمين ومعابدهم تحت سيطرة اليهود .

وتوجد (مكتبات إسلامية) في معظم مدن فلسطين وقراها الكبيرة تحتوي على عشرات الألوف من الكتب الدينية من خطية ومطبوعة في مختلف العلوم والفنون .

الأراضي والعقارات الوقفية الاسلامية

التي استولى عليها اليهود بفلسطين

وفي حين فتح المسلمون فلسطين وعلى مر العصور وهم يشيدون في مدنها وقراها المساجد والمعابد والمدارس العلمية والتكايا والزوايا للصوفية ، والأربطة والمساكن للزائرين والغرباء القادمين من أنحاء العالم الاسلامي لزيارة القدس وما حولها من أماكن مباركة . وقد كان خلفاء المسلمين وملوكهم وسلاطينهم والحكام والأمراء والأعيان والتجار والأغنياء وأتقياء المسلمين من أصحاب البر والاحسان يتنافسون في تشييد تلك المساجد والمعابد والمدارس وسواها من آثار إسلامية ما زالت قائمة في أرجاء

فلسطين ، وقد وقفوا عليها مئات القرى العقارات ، والمساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية في أنحاء البلاد والقرى الفلسطينية ، مشترطين أن يصرف ريعها وناتج محصولاتها وأجرة عقاراتها في عمارة تلك المساجد والمعابد والمدارس والزوايا والأربطة وفي مصالحها بحسب شروط الواقفين ورغباتهم الخيرية . وتحتوي سجلات محاكم فلسطين الشرعية - وبخاصة سجلات محاكم القدس والخليل ونابلس وصفد وعكا ويافا وحيفا - وثائق تلك الوقفيات . وبعد العدوان اليهودي على فلسطين أمسى القسم الأكبر من تلك المساجد والمعابد والأراضي الوقفية الاسلامية في حوزة اليهود وتحت سيطرتهم ، ووضعوا أيديهم على ناتجها ومحصولاتها ، وبذلك تعطل صرف ريعها في الوجه الشرعي الذي وقفت عليه بموجب شروط واقفيها . وتقدر الأراضي الوقفية الاسلامية التي يستولي عليها اليهود بما يزيد على مليون دونم من أخصب أراضي فلسطين وأحسنها موقعاً ، وبينها كثير من المزارع والحدائق والبساتين والعقارات الثمينة في مختلف بلاد فلسطين .

واليوم فلسطين كلها بيد اليهود ومعها أقسام من الأراضي العربية التابعة لمصر والأردن وسوريا ولبنان . وأحفاد الأبطال العرب صامتون . . .

عمر في بيت المقدس

الدنيا مشرقة على الطريق التي يأتي منها والعيون متطلعة إلى الجهة التي يسير فيها وعبر الصحراء الممتدة بين المدينة المنورة وبيت المقدس يمشي بعير الهوينى وفوقه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يلبس مرقعته وبها أربع عشرة رقعة ميمماً بيت المقدس وقد أبى حاكمها وكاهنها أن يسلمها إلاّ لعمر بن الخطاب نفسه .

بالله ما يلقى عمر في سفره وما يتأمل في رحلته وهو الذي أقام العدل في المدينة ونشر العسر في الرعية وقال لئن عشت لأسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرمقونها إلي وإما هم فلا يصلون إليّ فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين والله لنعم الحول هذا .

وهذا طراز من رحلته ، أشار عليه المسلمون أن يغير ثوبه المرقع وألبس ثوباً أبيض من نسج مصر يساوي خمسة عشر درهماً وطرحوا على عاتقه منديلاً من كتان ثم قدموا له برذوناً أشهب من براذين الروم فلما امتطاه جعل البرذوز يقفز فنزل عنه عمر مسرعاً وقال « أقيلوا عثرتي قال الله عثرتكم يوم القيامة فقد كان أميركم أن يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر واني سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من

الكبر ولقد كاد يهلكني ثوبكم الأبيض وبرذونكم المهملج » .

ونزع الثوب الأبيض وارتدى مرقعته وأشرف بعيره على أسوار بيت المقدس يمشي وئيداً وئيداً يحمل رجلاً جليلاً مهيباً يخفض رأسه خشوعاً فلما نظر إلى بيت المقدس بدأ كأنه يحتبس في عينه دموعاً يشرق وجهه بالنور ويرى في صفحتيه خطان أسودان تركهما بكاؤه من خشية ربه .

وحينما رآه البطريق « صفرانيوس » صاح بأعلى صوته قدوس قدوس . هذا والله صاحب محمد بن عبد الله .

وتعالى الآذان في بيت المقدس ودقت أجراس الكنائس وشهدت الدنيا موكب ما له على ظهر الأرض من نظير وصلى عمر تحية المسجد بالمسجد الأقصى ودخل إلى كنيسة القيامة وأدركته الصلاة عند الخشبة التي ولد فيها المسيح عليه السلام فصلى عندها وكتب سجلاً ألاّ يصلي في هذا الموضع أحد من المسلمين إلاّ رجلاً بعد رجل فلا يجتمعوا فيه للصلاة ولا يؤذنوا عليه خشية أن يتخذوه مسجداً .

وتلا الناس عهد عمر لأهل بيت المقدس أن لهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يمس شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم لا يسكن ببيت المقدس معهم أحد من اليهود وأشهد عليه كبار صحابة رسول الله ﷺ .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

الجيش في الإسلام

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

الجَيش في الإسْلاَم

دار الفكر اللبناني



في فجر الإسلام قضى العرب على الروم والفرس ، أعظم قوتين هيمنتا على العالم آنذاك ، وامتدت الجيوش العربية في أرجاء العالم القديم تنشر أعلام العزة والكرامة فوق الحصون .

هذا الكتاب يعيد إلى الأجيال العربية الجديدة ثقتها بنفسها وبتاريخها العريق بعد محاولة القوى المهيمنة إذلال النفوس العربية وطمس الحقائق .

الجيش في الإسلام

الحرب قبل الإسلام وبعده

يَجِدُ كُلُّ مَن يُطالِع أخبارَ الجاهلية ، أمثلةً كثيرةً من حروب العرب . وكانت هذه الحروبُ تَدورُ بين القبائل العربية بكثرة ، تجعلُ الباحثَ المؤرّخ في حَيْرةٍ تامَّة من أمرها ، أحربٌ هذه أم خصامٌ أهلي ، أم جزءٌ لازم من حياة أمَّة ، يتكرَّر حدوثُهُ كما تتكرَّر الفصول وتتعاقب الأيام .

وكان من أغراض تلك الحروب أمران رئيسيَّان : الثأر والغزو . فكم جَرَّ الأخذُ بالثأر على العرب في الجاهلية من حروبٍ طاحنة ، امتدَّت عدداً كبيراً من السنين . وكم دفعتهم ضَرورةُ الحياةِ البدويَّة إلى اكتساب معيشتهم عن طريق الغَزْو . وكم كان من نتائج هذا كُلّه من إفناء للنفوس ، وإتلاف للأموال .

إلاَّ أنه لا يَصِحُّ إطلاقُ كلمة (الحرب) على المنازعات الجاهلية ، إلاَّ من قبيل المَجاز . إذ لم تكن في حقيقتها ، سوى مُناوشات أفرادٍ ، أو مُنازعات قبائل تَدُورُ بين عدد قليل من الأشخاص ، قد لا يتجاوزُ عددُهم العشرةَ أحياناً ، أو المئةَ أحياناً أخرى . هذا من جهة نِطاق الحروب ، وعددِ المتحاربين . أما من جهة الزمن ، فالحربُ لم تكن تَدُورُ يوماً بعد يوم ، أو شهراً بعد شهر ، مُتَّصِلَةً بلا انقطاع ، كما نعهد ذلك في حروب العُصور الحديثة . بل كانت تَدورُ في فصلٍ ، ثم تقفُ في آخر ، بلا إعلان هدنة ، أو وصول إلى نتيجةٍ حاسمة . ثم لا تلبث الحرب أن تَسْتَعِرَ مرةً أخرى ، بلا إعلان أو إنذار .

تطور نظام الحرب

ولما جاءَ الإِسلام ، دخلت الحربُ عند العرب في طَوْرٍ جديد ، إذ نَشَأَ عن طبيعةِ الدَّعْوَةِ الاسلامية ، وضرورةِ نَشْرِها من جهةٍ ، وعنِ الحالة التي كان عليها العربُ في الجزيرة ، والأممُ المجاورةُ من جهةٍ أخرى ، أنْ تَطَوَّرَ نِظامُ الحرب تطوُّراً كبيراً سريعاً .

كان العربُ يحاربون للغزو أو للثأر ، أو لغير ذلك من

الأسباب ، التي لا صِلَةَ لها بالمُثُل العُلْيا . فجاءَ الاسلامُ ونَهى عن الحرب للثأرِ ، أو لِلنَّهْب ، ودعا العربَ المسلمينَ إلى نوعٍ جديدٍ من الحرب ، يُعلنونها كلما دَعَتِ الحاجةُ إلى ذلكَ . وهذا النوعُ الجديدُ من الجرب ، هو حَرْبُ الدِّفاع عن النفس ، وعن المَبادىء التي جاءَ بها الدينُ الجديد . هو حَرْبُ الدِّفاع عن النفس ، وعن المَبادىء التي جاءَ بها الدينُ الجديد . أي أن الإسلام نَهى عن حربِ الإعتدَاء لِكَسْب المتاعِ ، أو المرعى ، أو الدوابّ ، وحَلَّلَ حربَ الدفاع عن هذه كلِّها ، وشَرَعَ الدفاعَ عن الدين ومبادئه ، والدعوةِ إلى الدخول فيه .

بداية النظام الحربي

ربما صَحَّ اعتبارُ الهِجْرَةِ النبويَّة ، إبتداءً حقيقيّاً لنظام الحرب عند المسلمين ، إذ طَفِقَ يخرجُ المهاجرون والأنْصارُ لملاقاة قوافل قُرَيْش ، في طريقها من مَكَّةَ وإليها . وكانت هذه البعوثُ الحربيةِ في بادىء الأمر ، قليلةَ العدد : عشرين رجلاً أو ثلاثين رجلاً أو ستين . لكنها ما لبثت إن زادت في عدد أفرادِها ، وفي قُوَّةِ سلاحها ، بالاضافة إلى قوة إيمانها . فقد إشترك مثلاً في مَعْرَكَةِ بَدْر ثلاثُمئة من المسلمين ، وفي معركة أُحُد ألفُ منهم . فيهم الفرسان والمشاةُ ، وفيهم المسلَّحون

وغيرُ المسلحين . أما سَرِيَّةُ مؤتة ، فقد اشترك فيها ثلاثةُ آلافِ رجل . وكان يتألَّفُ المحاربون في كل هذه الحالات ، من أبناء القبائل البدوية ، الذين كانوا يعودون إلى أعمالهم العاديَّة ، بحال انتهاء واجباتهم الحربيَّة .

أما الجيوشُ التي أرْسَلَهَا أبو بكر لمحاربة أهل الرِّدَّة ، بعد وفاة النبي (صلعم) ، فلم تكن قويَّةً بكثرة عدد أفرادها . لكنها كانت قوية في صدق الإيمان ، أضِفْ إلى ذلك أنَّ الجنود أخذوا معهم أسَرَهم مُستعدِّين بذلك لحرب طويلة المَدَى ، ومستمدِّين من وجود نسائهم ، العونَ على الحياة والحماسَة في القتال .

٣٠ ألفاً لليرموك والقادسية

تختلفُ كتبُ التاريخ العربيّ ، في تقدير عدد الجنود ، الذين خرجوا لفتح الشام والعراق ومصر . لكنه يظهر ، أنَّ عدد الجنود المسلمين الذين لاقوا الروم في اليرموك ، كان حوالي عشرين ألفاً ، وعدد الذين لاقوا الفرس في القادسية ، كان حوالي عشرة آلاف ، ومثلُ ذلك عددُ الذين كانوا في مصر عند فتحها . . وعليه يجوز لنا تقديرُ مجموع عدد الجنود أثناء الفُتوح الكبرى ، في زمن الخلفاء الراشدين ، نحواً من أربعين ألفاً . وهذا لعمري قليل جداً ، إذا قيس بمقاييس العصور

المتوسطة والحديثة . وهو قليل كذلك إذا قيس بمقاييس تلك الأيام . . يقول الطبريُّ مثلاً ، إنَّ عدد الروم في معركة اليرموك كان مئةً وأربعين ألفاً . . ومهما بولغ في هذا العدد ، فإن كتب التاريخ العربي ، تُجْمِعُ على شيءٍ واحد ، وهو أن المسلمين كانوا فئةً قليلة ، وقد غلبت فئةً كبيرة بإذن الله .

كيف نشأت البصرة

لكن هذا العدد قد زاد بازدياد سلطان الإسلام ، وإتّساع نطاق الدولة العربية ، ودخول العناصر الأجنبية فيها . . ولنأخذ على ذلك بعض الأمثلة : أرسل عُمَرُ بن الخطاب نحو ثمانمئة جنديّ عربي ، حامِيَةً إلى العراق ، وأنزلَ هؤلاء ومعهم نساؤهم وعيالُهم ، في المكان الذي أصبح بعد ذلك مدينة البصرة . وقد أقاموا أوّلاً في الخيام ، ثم بَنوا لأنفسهم البيوت والقُرى ، بعضها إلى جانب بعض . ومن ازدياد عددهم وتكاثر عيالهم وبناء بيوتهم ، وما يتبع ذلك من إتساع في وسائل المعيشة ، نشأت مدينةُ البصرة . وأصبحت هذه المدينة بعد رُبْع قَرْنٍ ، في زمن حكم زِيَاد إبن أبيه ، مدينةً كبيرةً ، فيها مئتا ألفٍ من السكان .

كان الغَرَض من إنشاء هذه الحامية ، مثلَ الغَرَض من إنشاء أختها في الكوفة ، ـ حراسة الحدود الشرقيَّة ، للدولة

الاسلامية العربية ، ثم صار من أغراضها ، توسيعُ نطاق الدولة بالفَتْح ، في فارس وأذْرَبيجان وخُراسان . . وكانت هذه الجيوش في هذا الدور كلّها من العرب الأقْحاح ، أو العربِ الذين جاءوا من الجزيرة ، فهم بحق (مادَّةُ الإسلام) كما كان يُسَمِّيهم عُمَرُ بنُ الخطاب .

الموالي في الجيش العربي

غير أن دخول غيرِ العرب في الإسلام ، فَتَحَ الباب لهؤلاء ، ليشاركوا العرب في وسائل معيشتهم وإدارة دولتهم . ومن ذلك كان دخول المَوالي في الجيش ، وخصوصاً في الأزمنة التالية . ولا يَظُنَّنَّ أحدٌ ، أن دخول الموالي في الجيش ، لم يَتِمّ إلاّ في زمن الدولة العباسية ، كما هو المعروف . لأن عدداً لا يُسْتَهان به من الموالي ، قد دخل الجيش ، في إبَّان مجد بني أُمَيَّة ، وهم الذين عُرفوا بالتمسك بالعُروبة ، والتعصُّب لها . . ونأخذ على ذلك مثالين اثنين : أحدهما ، أن معاوية بن أبي سفيان ، عامل عثمان بن عفان على سوريا والجزيرة ، أرسل قوة مُكَوَّنَةً من ثمانية آلاف محارب من أهل تلك البلاد إلى أرمينيا ، وعَزَّزَ هذه القوة ببعض الرجال من أهل الكوفة ، بعد أن لاقى هؤلاء مقاومة كبيرة . والمثال الآخر ، إن قُتَيْبَةَ ويَزيدَ إبنَ المُهَلَّب ، جَعَلَ كُلُّ منهما قسماً من جيشه ، مُكَوَّناً من مُتَطَوِّعَةِ المَوالي في بُخاري وخُراسان .

هذا كُلُّهُ يتعلَّق بالجيوش المحاربة . أما الجيوش التي استُخدمت لحفظ النظام الداخلي ، أو لإخماد الفتن المحليَّة ، فعدد أفرادها لم يكن لِيقِلَّ عن عدد تلك . وقد جاء في بعض كتب التاريخ العربي ، إن عدد أفراد كلٍّ من الجيشين المتحاربين في صِفّين لم يكن أقلَّ من تسعين ألفاً . . إن هذا العدد لا يخلو من المبالغة ، لكنه يبقى كبيراً ، مهما أنقصنا منه ، احتياطاً لهذه المبالغة . ولنَذْكر كذلك الجيوش الجرَّارة التي أرسلها الخلفاء لمحاربة الخَوَارج ، وخصوصاً الأزارقة في حروبهم مع الحجَّاج التي لزم لها ما لا يَقِلُّ عن خمسين ألفاً ، من أحسن المحاربين العرب والموالي .

دوافع المحاربين

كان الدافع الأكبر للمحاربين الأوَّلين من المسلمين ، رضى الله والجَنَّة في الآخرة . وكان هذا الانتظام في الفِرَق المحاربة تَطَوُّعاً بلا مقابلٍ ماديّ . وكان هذا من أهَمّ عواملِ نجاح الفُتوح الاسلامية ، على قِلّةِ عدد الجنود ، وبساطة سلاحهم ، لأنهم كانوا يحاربون بدافع روحيّ قبل كل شيء آخر . إلّا أنَّ الحملات الصغيرة إذا اتسع نطاقها ، لا بُدَّ فيها من نفقة للسلاح والرَّكائب وغير ذلك ، وهذا ما تمَّ فعلاً في حالة المسلمين ، إذ لزم للتوسُّع في الفتح مالٌ وأسلحةٌ ، لم تَدْعُ

الحاجةُ إليها من قبلِ في الغَزَوَات البسيطة . وتذكر المصادِرُ الموثوق بها ، إن عُثمان بن عَفَّان ، كان أولَ الذين تَبرَّعوا بالمال ، للإنفاق على غَزَوات الرسول ، كما كان أكثرَهم تبرعاً ، لغناه ولإخلاصه للدَّعوة ، رَضيَ الله عنه . ولكن الفتوح في عهد الخلفاء الراشدين ودولة بني أُمَيَّة ، قد حلَّت المسألة المالية حَلاً تامّاً ، لأنه لا يمكن دائماً الاعتمادُ على التبرُّع الفَرْدِيّ لتموين الجيوش ، والإتفاق على حَمَلات واسِعة النطاق .

أجور الجند

كان المال الحاصل من الفتوح بأقسامه المختلفة (الفَيْء والخراج والجِزية) والمال الحاصل من زَكاة المسلمين ، يُوزّع بطريقة بسيطة عادلة عمليّة . وهذا النظام المالي لجمع الضرائب وانفاق المال ، يُعْزَى وضْعُهُ إلى عمر بن الخطاب . فبحسب هذا النظام ، كانت المُرَتَّبات تدفع للمحاربين الذين اشتركوا في الفتح ، وتدفع أيضاً لجميع أفراد الأمة من المهاجرين والأنصار في الجزيرة نفسها . كان عطاءُ المحارب أربعة آلاف درهم في السنة ، يُنفقها على أهله أثناء غيابه وعلى تجهيز نفسه ورفيق له معاون في القتال . ويُعْزَى إلى عمر بن الخطاب أيضاً نظامٌ يشبه نظام التقاعد العسكري ، وبحسبه

يدفع مرتب خاص لكل محارب شهد القادسيّة وما جاء بعدها ، ويعرف هذا بنظام (العرافة) الذي تطور مع تطور الدولة العربية ، وسبب لبعض الخلفاء متاعب جمَّة .

الغنائم والمحاربون

صحيح أن قسماً كبيراً من الغنائم الحربية ، كان يوزع على المحاربين ، وإن إقطاعات من الأرض كانت تعطي لبعض الجنود والمحاربين . إلاَّ أن النظام السائد ، هو الذي أشرنا إليه فيما سبق . حتى يجمع مال الخراج ومال الجزية ومال الفَيْىء كله في بيت المال ، ومنه كانت تدفع مرتبات الجنود ، وتؤخذ النفقات العادية . حتى إذا جاء العهد الأموي ، أصبح عطاء الجنود أهم مادة في مالية الدولة . ففي زمن معاوية مثلاً ، كان في مصر المشهورة بغناها أربعون ألفاً من الجند ، يدفع لكل منهم مئتا دينار من بيت المال . وبعد هذه النفقة لم يبق من مجموع الضرائب السنوية شيء يذكر ، لإيداعه الخزينة العامة . هذا في ولاية غنية مهمة كمصر ، وقس على ذلك باقي الولايات .

مساعدات لرؤساء القبائل

وهنالك نوع آخر من النفقة الحربية ، ابتدعه بنو أمية أو لجأوا إليه عن حاجة . . إذ المعلوم أن حروبهم كانت كثيرة ، وغير مقصورة على قُطْرٍ واحد من المملكة ، ومنها الحروب الداخلية والحروب الخارجية . لهذا كانوا دائماً يخصصون المساعدات المالية لرؤساء القبائل ، بحيث يمدُّون الدولة بالرجال في وقت الحاجة . . يذكر المسعودي في كتاب مُروج الذهب ، ان قبائل قَحْطان في سوريا كانت تمدُّ الخلفاء الأولين من بني أمية بألفي رجل عند الطلب ، وفي مقابل هذا ، كان الخلفاء يدفعون لكل شيخ قبيلة الأموال الكثيرة ، ما دام في هذه المشيخة ، فإذا مات أو قُتل ، دفعوها إلى خلفه ، وثبّتوا هذا الخلف في مشيخته ، واعترفوا به وحكموه في شؤون عشيرته الداخلية . . وفعل خلفاء بني العباس مثل هذا . فقد كان المنصور مثلاً يرسل المحاربين من قبائل العراق لحراسة الثغور على حدود الدولة البيزنطية ، وكان يعطيهم علاوات خاصة فوق مرتباتهم المقررة . وكان هذا النظام يُطَبَّق بدقة تامة ، بحيث إذا عجزت قبيلة عن إرسال العدد المتفق عليه من المحاربين ، وجب عليها أن تدفع جُعُلاً لاستئجار من يقوم مقامهم .

عمل تطوعي

نستطيع الاستنتاج مما تقدم من القول ، أن العمل في الجيش الاسلامي حتى أوائل بني أمية كان تطوعاً على وجه الإجمال ، حتى إن المرتبات التي صارت تدفع إلى المحاربين ، لم تكن سوى مكافأة على شجاعة أو تعويضاً عن غياب ، ولم تكن هناك أنظمة مكتوبة للخدمة الاجبارية . فالعمل في الجيش كان واجباً دينياً أولاً ، والتخلف عنه عار وبعيد من الرجولة ثانياً . والأمثلة كثيرة على ما كان يُعانيه بعض الرجال من الألم ، إن تخلفوا أو لم يَدْعَوا للقتال . لكن يظهر أن اتساع نطاق الفتوح ، وموت كثير من الصحابة والتابعين ، ودخول عدد كبير من غير العرب في الاسلام ، وغير ذلك من العوامل ، قد جعل اتخاذ طرق الإجبار أمراً ضرورياً في بعض الأحيان .

القهر لجمع الجيوش

يذكر إبن الأثير ، أنَّ الحجاج ، عامِلَ عبد الملك على العراق ، لجأ إلى طرق القهر في جمع جيوشه . ففي سنة ثمانين للهجرة ، جمع من كل من البصرة والكوفة عشرين ألفاً ، أرسلهم لنجدة الجيوش في بلاد فارس . وبعد ذلك

بثلاث سنين ، جمع مثل ذلك العدد من الكوفة نفسها ، وأعلن للناس ، أن كل جندي يتأخر عن اللحاق بفرقته ثلاثة أيام بعد أخذ عطائه ، يعرض نفسه للإعدام . . وهناك أمثلة أخرى على استعمال هذه الطريقة لجمع الجيوش لمحاربة الخوارج .

ربما كانت طريقة القهر في حشد الجيوش ، من أسباب الفشل الذي لقيه الحجاج مرة بعد أخرى في حرب الخوارج . . ربما كان من أسباب ذلك الفشل أيضاً ، تلك الشجاعة الخارقة التي اتّصف بها الخوارج ، وتلك الحماسة المتأججة في صدورهم لِعقيدتهم . . ولكن الباحث يلمس في هذا الجو شيئاً من الفتور في الشعب ، ربما كان من أسبابه فتور في حماسته الدينية لبني أمية ، أو ابتعاد عن ضرورة محاربة المسلم لأخيه المسلم .

المكافآت والأرزاق المنتظمة

أما جيش الدولة الأساسي ، الذي كان يحمي حدودها ويقوم بالفتوح ، فما زال مؤلفاً كالسابق من أبناء القبائل التي تتناول المكافآت المالية والأرزاق بانتظام ، ومن الذين يتناولون مساعدة خاصة عند اللزوم ، وكذلك من عدد من المتطوعين يهرعون للقتال من تلقاء أنفسهم ، ويتحملون نفقة سلاحهم وركائبهم ، ولا يأخذون شيئاً من بيت المال ، إلا ما ينالونه من

الغنائم الحربية . أي انه بقي عدد من الناس لا يطمعون من وراء الحرب في مغنم دنيوي ، بل كان غرضهم نيل شرف الخدمة في سبيل الله .

عدد أفراد الجيش

يُقَدَّر عدد أفراد الجيش الاسلامي في معركة أحد بألف محارب ، وعدده في سرية مؤتة بثلاثة آلاف ، وفي عهد الفتوح في أيام الخلفاء الراشدين بنحو أربعين ألفاً . أما في زمن بني أمية فقد بلغ من القوة والعدد حداً بعيداً . وللتدليل على ذلك ، أذكر مثالين من أواخر حكم الأمويين . فقد أرسل مروان آخِرُ بني أمية ثمانين ألفاً لإخماد ثورة في الحجاز ، أي أن القوة هذه ، كانت ضعفي ما كان عند الخلفاء الراشدين من قوة . . ويقدر المؤرخون عدد الجيش الذي حشده الأمويون في معركتهم الأخيرة مع بني العباس ، بنحو مئة وخمسين ألفاً ، معظمهم من أبناء القبائل العربية في سوريا .

من هنا يظهر التطور السريع الذي تم في تكوين الجيوش الاسلامية ، إذ في مدة مئة سنة (من وفاة الرسول إلى أواخر حكم بني أمية) زاد عدد الجيوش زيادة كبيرة ، من نحو ألف رجل في أحد ، إلى عشرات الألوف في معركة الزَّاب ، بين بني أمية وبني العباس ، ودخل أيضاً في تكوين الجيوش ،

مظاهر جديدة من جهة النفقة والتنظيم والسلاح ، وظهرت أسباب جديدة للحرب ، غير الدفاع عن الدين والدعوة إليه ، مثل قمع الفتن الداخلية ، والنزاع الدنيوي على السلطة .

للدفاع عن الدين

تعدُّ غزوات الرسول (صلعم) بَدْأ للأنظمة الحربية في الاسلام ، منها نشأت فكرة الدفاع عن الدين والدعوة إليه ، ومنها تطورت إلى فتح وتوسع في زمن الخلفاء الراشدين وبني أمية . ويمكننا أن نقول أن الجيش الاسلامي ، كان في أساسه عربياً بحتاً في أثناء هذا الدور ، أي القرن الأول من تاريخ الاسلام ، ويعد انتهاء الدور الأموي ، انتهاء للدور الأول في تاريخ الجيش ، إذ حدث بظهور بني العباس ، ما يشبه الانقلاب ، لا التطور في هذا الباب .

الجيش الاسلامي ـ الجيش العربي

سنتناول هنا بحث النظم العسكرية الاسلامية ، منذ إبتداء حكم بني العباس ، والاشارة إلى الانقلاب السريع الذي تم في تكوين الجيوش وأنظمتها وأغراضها ، ودرس بعض نواحي هذا الانقلاب ومعانيه .

يقول الطبري ، أن جيش الخلفاء الأولين من بني العباس ،

كان معظمه من قبائل خراسان . . كان أبو مسلم يجمع الجنود ويستبقيهم على الإخلاص والولاء ، بما كان يصرفه لهم من العطاء بين حين وآخر . ويقول الطبري أيضاً ، أن الجنود الذي جمعهم أبو مسلم ، ولاقى بهم جيوش بني أمية في معركة الزّاب ، كان عددهم عشرين ألفاً . . وظلت قوة بني العباس الحربية تعتمد على خراسان نحو قرن ، في أثنائه قاموا بعدة حملات على الدولة البيزنطية ، وأخذوا على عاتقهم حفظ النظام الداخلي وحراسة الخليفة .

العرب قوام الجيش

ومع هذا ، فجيش بني العباس في القرن الأول من حكمهم ، لم يكن كله خراسانياً . . ففي زمن المنصور دخل عدد كبيرٍ من العرب من أنصار بني أمية في الجيش ، كما دخل فيه أيضاً عدد كبير من أبناء قبائل العرب المشهورة ، كمضر وربيعة . ويذكر على سبيل المثال ، أن عدداً من أبناء القبائل العربية فيٍ العراق وسوريا ، انتظم في حملةٍ بحرية على الهند ، وأنّ الأمين جمع جيشاً من عرب سوريا ، يوم نشبت الحرب بينه وبين أخيه المأمون .

كان الجيش الاسلامي عربياً بحتاً في عهد الرسول ، وخلفائه الراشدين ، ومعظم أيام بني أمية . صحيحٌ أنه دخل بعض الموالي في جيش بني أمية في أواخر عهدهم ، ولكن

الجيش بقي عربياً بكثرته ، وروحه ، وتقاليده . لكنه لا يصح أن نطلق هذه الصفة على الدور الأول من حكم بني العباس . فالجيش كان اسلامياً خراسانياً لا عربياً ، مع أن جمهوراً من العرب دخل في صفوفه . ولم يقف الأمر عند حد كون جيش بني العباس خراسانياً في أساسه ، إذ لم ينقض القرن الأول من حكم بني العباس ، حتى حدث انقلاب آخر في نظام الجيش في خلافة المعتصم .

الترك والجيش العباسي

تذكر بعض كتب التاريخ ، أن دخول الترك في الجيش العباسي ، حدث فجأة في زمن المعتصم . . لكن الحقيقة ، أن هذا الأمر كان بعد مدة قصيرة من التطور التدريجي في هذه الناحية . فالثابت أن بعض الجنود الأتراك المستأجرين حاربوا مع (اللَّيْث بن رافع) ضد المأمون ، وحارب غيرهم من بخاري وخوارزم مع المأمون ضد أخيه الأمين .

فالجنود الأتراك كانوا طبقة من المرتزقة ، تحارب مع كل من يعطيها المال والهدايا والامتيازات . ولم يكن هؤلاء كلهم من عنصر تركي صحيح ، بل كان هذا الإسم يشمل عدة عناصر من بلاد مختلفة . فلما جاء المعتصم وشعر بما كان يدبره الفرس من المؤامرات ، لجأ إلى هؤلاء الأتراك ، وألَّف منهم

جيشه ، وأدخل فيه عناصر من فرغانة ومصر والمغرب . ومما يدلنا على اعتماده التام عليهم أنه وكل إليهم اكتساح آسيا الصغرى وحصار عمورية المشهور .

معنويات الجيش

ومن الوسائل التي لجأ إليها المعتصم لإيجاد المال لجنوده ، أنه منع عطاء الجنود العرب بمصر ، فخلت تلك البلاد منهم ، إلى عهد أحمد بن طولون . وصارت المرتبات المخصصة للجنود الأتراك ، من أهم مشكلات الدولة العباسية . وكاد دفع هذه المرتبات ، يستنزف خزانة الدولة من زمن المتوكل ، وجرَّ عليه وعلى الذين خلفوه البلاء والثورات . . وكثيراً ما كان يلجأ الخلفاء إلى منح القطائع لرؤساء الجنود ، وأشهر مثال يمكن أن يقدم على ذلك ، إقطاع بعض الأراضي في مصر لأحد قواد الترك ، وهذا بدوره ، عيَّن عليها مديراً اسمه أحمد بن طولون ، وهو الذي استأثر بالأملاك بعد موت سيده ، وتمكن من حكم جميع مصر بعدئذٍ .

شهدنا في ما تقدم ، تأسيس جيش دائم ، وتخصيص المرتبات لأفراده ، واعتماد الخليفة على عناصر ليست عربية ، وكانت حديثة عهدٍ بالإسلام . وقد كان هذا مع غيره من العوامل التي أوقعت العباسيين في مأزق حرج ، وعرَّض

سلطان العرب ومكانة الاسلام لأخطار الفوضى والانقلاب فقتل الخلفاء ونهب المدن وتخريب القرى ، شواهد عليه ، ردَّدتها كتب التاريخ في كل سنة من سنوات هذا العهد . وللبرهان على سوء نظام الجند من وجهةٍ عسكرية ، وعدم اتصافهم بالشجاعة والايمان نذكر مثالين : أحدهما ـ انه لم يقم جيش الدولة هذا بحملات لحمايتها أو لتوسيع حدودها ، مع أن عدد الجنود المسجلين في ديوان العطاء لتناول المرتبات ، كان مئة ألف في زمن المهدي . والآخر ـ أن القرامطة يوم هجموا على بغداد ، كان عددهم ثلاثة آلاف أو يزيد قليلاً ، فلاقاهم ما لا يقل عن ثمانين ألفاً من جيش الخليفة . . ومع ذلك فقد غلب هذا الجيش الجرار ، لفقدان الروح المعنوية ، ولعدم كفاية قيادته . .

النظام في الجيش

ويمكن الاشارة هنا إلى ناحية مهمة من نواحي هذا البحث ، وهي النظام في الجيش ، في أيام عزِّ الخلافة وسلطانها . لم يكن الخليفة إلاَّ قائداً عاماً وآمراً مطاعاً . وأن الذي يتصفح كتب التاريخ العربي يجد مادة كافية لإقناعه بحسن نظام الجيوش وإدارتها في ذلك الزمن . وقد كان كلُّ شيء منوطاً بما يسمى (ديوان الجيش) أو (وزارة الدفاع) بلغة هذا الزمان .

كان ديوان الجيش هو المسؤول عن جمع الجند ، ودفع مرتباتهم ، وإدارة شؤونهم العامة ، وإصدار الأنظمة لهم ، وكان الخليفة أو وزيره يقوم بذلك ، فهو الذي يعلن الحرب ، وهو الذي يوافق على إعلان انتهائها . بإسمه يعمل القواد ، ومنه يتلقون الأوامر . وفي الأيام الأولى كان يقود الجيوش بنفسه ، يتبعه حرسه الخاص . وكان حرس الخليفة يؤلف قسماً مهماً من الجيش ، لأن عدد أفراده كان يزداد حين إعلان الحرب ، بما كان ينضمُّ إليه من أبناء القبائل ، يعمل كلٌّ في المعركة تحت لواء رئيس من قبيلته .

نهاية النظام الموحد

يمكن اعتبار أول المئة الثالثة للهجرة ، نهاية لنظام موحد لجيش اسلامي عربي ، يأمره الخليفة ، ويسوقه في سبيل إعلاء شأن الإسلام والعرب . أي أن الجيش قد عُمِّر ما يقرب من قرنين فقط . في القرن الأول كان عربياً ثم إسلامياً ، وفي القرن الثاني كان إسلامياً ثم عربياً . وبعد هذا الزمن أي بعد سنة ٢١٨ للهجرة (وهي سنة تولّي المعتصم) ينفرط عقد النظام وتشيع الفوضى ، ويصبح البحث في الجيش ، بحثاً في عدة جيوش ، لا رابطة عنصرية أو دينية تربطها ، ولا جامعة هدف أو غاية تجمعها .

لكن الباحث يلاحظ في هذا الظلام الدامس ، بصيصاً من

النور الاسلامي والحماسة العربية . فكان في العالم الاسلامي دائماً رجال مؤمنون ، يجيئون لنصرة الدين والدولة كلما داهمها الخطر . كان الجيش الاسلامي كله متطوعاً في عهد الرسول وخلفائه الأولين ، وكان فيه عدد كبير من المتطوعة في عهد بني أمية ، وزاد عدد هؤلاء في زمن بني العباس ، وكان هؤلاء المتطوعة ، كلما داهم الاسلام خطر خارجي من جانب بيزنطية . يحمون الثغور على الحدود ويحملون على الروم حملات صادقة من تلقاء أنفسهم ، ولا يحملون جيش الخليفة مؤونة القيام بذلك . ولم يقتصر ذلك على المسلمين المتاخمين لبيزنطية ، بل كان المتطوعون يجيئون من كل البلاد عند إعلان النفير ، لنجدة إخوانهم في الثغور ، وحماية البلاد برد العدوان عنها ، ومقابلة الغزو بغزو أشد منه هولاً وأبقى أثراً .

الروح العصبية في الجيش

يظهر لكل من يتدبَّر تاريخ النُّظُم العسكرية الاسلامية ، أن مدة الازدهار كانت قصيرة ، ويمكن إجمال هذا التاريخ بكلمات قليلة . عُمِّرَ جيش الخلافة مدة تقرب من قرنين . ففي القرن الأول كان عربياً ثم إسلامياً . وفي القرن الثاني كان إسلامياً ثم عربياً . هذا كله من جهة العناصر التي تكون منها الجيش ، لا من جهة الروح التي كانت تشيع في أقسامه ، فهي

إسلامية في زمن الرسول وخلفائه الأولين . عصبية عربية في زمن بني أمية . عصبية إسلامية في صدر بني العباس . وأخيراً عصبية فوضى ، لا هي إسلامية ولا هي عربية ، في الأدوار التالية من حكم بني العباس . ثم جاء عصر بني بُوَيْه ، وسلطة هؤلاء كما هو معلوم كانت مستمدة من قوتهم الحربية ، وقوتهم الحربية كانت تعتمد على قبائل الدَّيْلَم التي تحارب لأجل الغنائم ، فينضم إلى جموعها أفراد من أبناء البلاد المقهورة ، مدفوعين إلى ذلك بحب المال والرغبة في النهب .

بنو بُوَيْه والسلجوقيون

ويعد بني بُوَيْه ، يجيء دور السلجوقيين ، ويدخل تاريخ الجيوش الاسلامية المختلفة بذلك في دور جديد ، تزداد في أثنائه الفوضى ويشيع التنافس على السلطان ، وتكاد تمحى كل صفة عسكرية كان يتصف بها الخليفة . فالجيوش لم تكن إسلامية في إسمها ولا في أغراضها ، إلاّ في بعض الأحيان ، كحرب مع الدولة البيزنطية ، أو رد لغارة صليبية .

يذكر الوزير نظام المُلْك في كتابه (سياسة نامه) وهو كتاب يبحث في الحكومة ، أن الجيش يجب أن يؤلف من أمم مختلفة ، لكل أمة وحدة منه مستقلة عن الوحدة الأخرى . ويقول الوزير أن هذا الترتيب ، يمنع حدوث ثورة أو فوضى .

ويقول أيضاً أن الحرس الخاص بالملك أو الخليفة ، يجب أن يتكون من الدَّيْلم والخُراسانيين وغيرهم من الأمم الأعجمية . فإذا قيس هذا الكلام بميزان ذلك العصر ، وُجِدَ أنه مستمد من العرف والعادة ، فهو صورة لما كانت عليه الحالة في الدول الاسلامية وجيوشها ، فجيش محمود الغزنوي مثلاً ، كان مؤلفاً من الترك والخراسانيين والعرب والديلم والهنود وغيرهم . وكان لكل أمة أو عنصر ، وحدة جيش خاصة بها ، تحارب هذه الوحدة في موضع خاص ، منفصلة عن غيرها ، تحت قيادة رئيس من أبنائها ، ولا تربط الوحدات المختلفة ، رابطة نظام عملي بقائد عام معروف . ولن نسترسل في البحث بعد هذا الدور ، وبذلك نكون قد وصلنا بالبحث إلى أول القرن الحادي عشر للميلاد . ونبحث الآن بدلاً من تاريخ الجيش بعد ذلك القرن ، في بعض نظم الجيش وتركيبه وتدريبه وأسلحته .

قيادة الجيش

ومن المباحث المهمة في هذه الناحية ، مسألة القيادة . كان الخليفة يحسب القائد الأعلى للجيش ، يعمل بذلك عمل النبي (صلعم) لما كان على قيد الحياة . وكان الخليفة ، أي القائد العام ، يعين قواداً للجيش ، قد يكون بعضهم من أقربائه أو أبنائه ، ولكنه كان يشترط فيهم قبل كل شيء الخِبْرَة الواسعة

في أمور الحرب . وهؤلاء القواد كانوا بدورهم يعينون الضباط المجربين .

يُعزى إلى عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إنشاء نظام الجيش ، كما يعزى إليه إنشاء كثير من الأنظمة السياسية والمالية والادارية في الدولة الاسلامية . والحقيقة أن عظمة هذا الرجل تزداد كلما زاد علمنا بتاريخ أنظمة الدولة الاسلامية ، ولا يمكن أن يكون هذا الإجماع على إرجاع أساس معظم النظم الاسلامية إليه عبثاً لا يقوم على أساس حق . فهذا مثل غيره يدلنا على عظمة عمر وفضله على الاسلام .

تنظيم الجيش

كتب ، رضي الله عنه ، إلى قائد جيشه في القادسية : أن يقسمه إلى عشرة أقسام ، وأن يعين له (العرفاء) و (الأمراء) وأن يسيره بحسب قوانين (التعبئة) على الوجه الآتي : ـ كل عشرة جنود يؤلفون وحدة (تسمى عرافة) ورئيسها (عريف) . وكل عدد معين من (العرافات) عليه (قائد) . والجيش كله عليه (أمير) ـ هو القائد العام بلغة هذا الزمان .

يذكر الطبريُّ أنه كان يرافق الجيش بالاضافة إلى شيوخ القبائل على رأس رجالهم المحاربين : عدد من حاملي

اللواء ، وعدد من الأطباء ، (وقاضٍ) عمله توزيع الغنائم الحربية ، (وداعية) عمله يشبه عملَ المحامي في عرض قضايا الناس ، (ورائدٌ) عمله اختيار أماكن الاقامة للجنود ، (ومترجم) عمله واضح ، (وكاتب) لتسجيل الوقائع وكتابة الرسائل .

الاستراتيجية الحربية

لا يجد الباحث كثيراً من التفاصيل عن تدريب الجيش . إلاّ أنه يمكن قسمة المحاربين إلى قسمين من هذه الجهة : وهما المحاربون من أبناء القبائل العربية ، وهؤلاء كانوا يحاربون بحسب ما تعوَّدوه من كرٍّ وفرٍّ في غزواتهم ، ولم تكن هناك حاجة لتدريبهم تدريباً خاصاً . وحرس الخليفة الذين كانوا من أهم أقسام الجيش في العصور التالية . هؤلاء كانوا يدربون ويمرنون بكل دقة واتقان .

وكانت التعبئة بهذه الصورة : (١) القلب وهو مكوَّن من الجيش الذي يقوده الأمير . (٢) الجناح الأيمن . (٣) الجناح الأيسر وفيهما القواد . (٤) وأمام القلب تماماً تكون (المقدمة) وعليها قائدها ولها علمها . (٥) أما الساقة فهي في المؤخرة لحماية الجيش وللعناية بالذخيرة والمؤونة . فالتعبئة بهذه الصورة كانت بهيئة خطين متقابلين ، لكنه كان يرافق مثل هـذه

الجيوش ، جنود مسلحـون خفاف منفصلون عن التعبئـة الأساسية ، ويعرفون بإسم (المجرَّدة) ، وكذلك فرق تسمى (الطلائع) .

إن من يدقّق في هذه الأسماء ووظائف القائمين بها ، ليعجب كيف أن أهل ذلك الزمن ، كانوا يهتمون هذا الاهتمام الظاهر بسرعة الحركة والخفة بالسلاح وتأمين مؤخرة الجيش ، اهتمام أهل العصور الحديثة بها .

كانت طريقة التعبئة التي أشرنا إليها الآن ، متبعة منذ أيام النبي (صلعم) . ويـرجع بعض النجـاح الذي صـادفه (صلعم) بعد قوة إيمانه بالله وتفاني أعوانه في سبيله ـ إلى هذه التعبئة خصوصاً ، لأن قبائل قريش ، كانت تحارب بلا نظام معروف .

الكرّ والفـرّ

كانت طريقة الكَرّ والفَرّ (الهجوم والتراجع السريع على التعاقبُ) أحبَّ الطرق إلى العربي في الحرب عند ظهور الاسلام . وقد سار عليها المهاجرون والأنصار في تصديهم لقوافل قريش . . يلتقي الرجال فيتبادلون الرمي بالسهام ، ثم يتراجعون دون أن يصيبهم أو يصيب أعداءهم ضرر كبير . ولكن الرسول (صلعم) أدخل نظام التعبئة لأول مرة في معركة بَدْر ، فنجحت نجاحاً كبيراً .

وظلَّ نظام التعبئة معمولاً به ، مع قليل جداً من التغيير ، في كل عصور الفتوح الاسلامية ، وقد طرأ عليه نظام الفرسان ، ففي معركة بدر ، لم يكن سوى فارس واحد . أما في اليرموك فكان معظم المحاربين من الفرسان . وهذا التغيير تمَّ في نحو عشر سنوات . أما بنو أمية فكان جيشهم يحارب بالمشاة يساعدهم الفرسان ، حتى إذا جاء بنو العباس ، قَلَّ استخدام المشاة وفشا استخدام الفرسان إلى حدٍّ كبير . ومن الأمور التي تستوجب الإعجاب ، تلك السهولة التي كان الفارس ينقلب فيها راجلاً في الحرب ، إذا كانت طبيعية الأرض لا تمكّن الخيل من السير ، أو إذا دَعَت الضرورة الحربية إلى ذلك . وقد ذكر الطبري مثلاً على ذلك ، أن فرسان بني العباس ترجلوا في معركة الزاب لمقابلة رجال بني أمية ، وقد التحم الفريقان بالنبال .

الكراديس

ومن الأنظمة الجديدة التي طرأت على الحرب ، نشوء ما يسمى بالكراديس (مفردها ـ كُردوس ، من فعل كَرْدَسَ أي جَمَعَ) . ويعزو بعض المؤرخين نشوء هذا النظام إلى خالد بن الوليد ، وبعضهم يعزوه إلى مروان آخر خلفاء بني أمية . ويتكون الكردوس من نحو أربعين رجلاً . وتقول كتب التاريخ ، أن خالد بن الوليد ، قسم كل وحدة من جيش العرب

في اليرموك إلى كراديس ، لما رأى الروم يهاجمون وهم مقسمون على تلك الصورة . وقد نجح عمله هذا نجاحاً باهراً ، جعل العرب يدخلون بنظام الكراديس في أصول التعبئة الحربية ، وأصبح كلُّ قسمٍ من أقسام الجيش الخمسة (المقــدمـة والقلب والجنــاح الأيمن والجنـاح الأيســر والساقة) ـ مقسماً إلى كراديس مرنة الحركة سريعتها . أما أقسام الجيش الخمسة الأساسية فبقيت على حالها ، ولكنها اكتسبت بإدخال نظام الكراديس عليها ، مرونة في الحركة ، وشدة فاعلية عند الشروع في القتال .

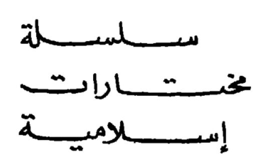
سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أعياد وتواريخ إسلامية

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

« لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ »

صدق الله العظيم

الهـلال

الهلال يظهر .

اليوم أول الشهر .

الهلال يظهر اثنتي عشرة مرة في السنة .

ولهذا نقول إن في السنة إثني عشر شهراً .

أسماء هذه الأشهر عشر هي :

محرم ،
صفر ،
ربيع الأول ،
ربيع الثاني ،
جمادي الأولى ،
جمادي الآخرة ،
رجب ،
شعبان ،

رمضان ،
شوال ،
ذو القعدة ،
ذو الحجة .

هذه الشهور الإثنا عشر نسميها السنة الهجرية .

ولنا في السنة الهجرية أعياد كثيرة ، ومواسم عديدة .

ونحن نحتفل بهذه المواسم والأعياد .

ولكننا ننسى أصلها ،
وننسى الأحداث التي وقعت فيها ،

وننسى المعاني التي تدل عليها .

ننسى ذلك كله ، ولا نذكر إلاّ راحة العطلة ، ولذة الطعام ، وبهاء الزينة ، وجمال الموكب .

هذه الأعياد والمواسم يجب أن تذكرنا بجهاد آبائنا وأجدادنا .

يجب أن تذكرنا بالمعاني التي كافحوا من أجلها .

يجب أن تذكرنا بالمحن التي مرّوا بها ،

يجب أن تذكرنا بالتضحيات التي بذلوها ،

يجب أن تذكرنا بماضينا لنستمد منه القوة لحاضرنا ، والأمل في مستقبلنا .

يجب أن تذكرنا بأن أجدادنا سلَّموا لنا الدنيا خيراً مما تسلموها من آبائهم .

ونحن يجب أن نسلمها لأولادنا خيراً مما تسلمناها منهم .

رأس السنة الهجرية

ورأس السنة الهجرية عيد من أهم أعيادنا .

عيد يذكرنا بالنبي محمد ﷺ ، حين قام في مكة يدعو الناس إلى ترك عبادة الأصنام وإلى الإيمان بإله واحد ، ولكن الناس رفضوا أن يستمعوا لدعوته ، وأخذوا يحاربونه ويعتدون عليه .

وتحمل النبي كل هذا ، ومضى يدعوهم إلى الحق ومكارم الأخلاق .

وأخيراً ضاقوا به وأخذوا يفكرون في التخلص منه .

ودبروا مؤامرة لقتله في بيته .

فأمره الله أن يترك مكة ويهاجر إلى المدينة ، ففعل .

وفي نفس الليلة التي حددها الكفار لقتله ترك بيته وأهله

وأصحابه ، وسار قاصداً إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق .

وهجم الكفار على بيت الرسول ، ولكنهم لم يجدوه .

فجن جنونهم ، وخرجوا يبحثون عنه .

بحثوا عنه في السهول ،

بحثوا عنه في الجبال ،

بحثوا عنه في الكهوف ،

بحثوا عنه في كل مكان .

ولكن الله نجاه ووصل إلى المدينة بأمان .

وصل الرسول إلى المدينة ، ومعه صديقه أبو بكر .

واستقبلهما أهل المدينة بالفرح وهم يغنون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحباً يا خير داع

هذا هو يوم الهجرة .

يجب أن نذكره دائماً ونحتفل به .

يجب أن نذكره ونذكر معه جهاد النبي وأصحابه .

يجب أن نذكر الاضطهاد الذي تحملوه ، والأموال التي تركوها ، والأهل والأولاد الذين هجروهم .

يجب أن نذكر أن الأذى لم يؤثر فيهم ، وأن العدوان لم يضعفهم ، وأن فراق الأهل والأولاد لم يغير عزيمتهم .

إنهم كانوا يعملون بعقيدة ثابتة وإيمان قوي ليجعلوا حياتهم وحياة أولادهم أسعد وأفضل .

عاشوراء

أول شهر في السنة الهجرية هو شهر المحرم .

كان العرب يحرمون القتال فيه ؛ ولذلك سموه المحرم .

وفي العاشر من هذا الشهر نحتفل بيوم عاشوراء .

فنصنع طعاماً مخصوصاً ، وندعو الله أن ينصر الحق ، ويزيد الخير .

وفي هذا اليوم يحتفل كثير من المسلمين بذكرى الإمام الحسين بن علي .

كان أنصار أبيه في العراق قد دعوه إلى الحضور ليقودهم في المطالبة بإقامة العدل وإحقاق الحق . فأخذ أهله وأولاده وسافر

بهم إلى هناك . وعلى الحدود تعرض له جنود يزيد بن معاوية وأرغموه على القتال . فقاتل حتى مات .

مولد النبي

بعد المحرم يأتي شهر صفر ،

وبعده شهر ربيع الأول .

وفي هذا الشهر نحتفل بمولد النبي .

فتنور المآذن في الليل ،

وتقام الاحتفالات الدينية ،

وتظهر العرائس واللعب في الدكاكين ،

وتطوف المواكب في القرى ،

ويستمع المسلمون إلى تلاوة القرآن ، وإلى قصة الرسول عليه السلام .

فيذكرون كيف كان قائدهم مثالاً للصدق ، والأمانة ، والعفة ، والجهاد في سبيل العقيدة والرأي .

ليلتان مباركتان

وتمر الأشهر واحداً بعد واحد :

شهر ربيع الآخر ،

فشهر جمادي الأول ،

فشهر جمادي الآخرة ،

حتى يأتي شهر رجب .

وفي ليلة السابع والعشرين من رجب يحتفل المسلمون بليلة مباركة ، هي ليلة الإسراء .

فيوسعون على أنفسهم ، وعلى عيالهم ،

ويشكرون الله على ما أنعم به عليهم ، ويحمدونه على ما كرم به نبيهم وقائدهم :

« سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

وبعد رجب يأتي شعبان .

وفيه يحتفل المسلمون بليلة أخرى ، هي ليلة النصف من شعبان .

إنها أيضاً ليلة مباركة ،

يجتمع فيها المسلمون في المساجد والجوامع ، ويتجهون بقلوبهم إلى الله ،

يصلون ويبتهلون ،

ويطلبون العفو والرحمة والمغفرة .

إنها ليلة تذكر بضعف المخلوق أمام الخالق .

العيد الصغير

ثم يجيء شهر رمضان ،

شهر الصوم والعبادة ،

شهر الصبر وتربية العزيمة ،

شهر البر والعطف والرحمة ،

شهر الزكاة والصدقات .

في هذا الشهر يصوم المسلمون عن كل ما يغضب الله ، ويتلون القرآن ويفكرون فيما أمرهم به ،

ويتبادلون الزيارات ،

ويتصدقون على الفقراء .

ليلة القدر

وفي هذا الشهر يحتفل المسلمون بليلة القدر .

فيقضون الليل في الصلاة ،

ويدعون الله أن يحقق مطالبهم .

فليلة القدر خير من ألف شهر ،

تنزل الملائكة والروح فيها ،

بإذن ربهم من كل أمر ،

سلام هي حتى مطلع الفجر .

عيد الفطر

وعندما ينتهي رمضان يأتي شوال بالعيد ، عيد الفطر أو العيد الصغير .

وفيه يتبادل المسلمون التهاني ،

ويزور بعضهم بعضاً .

فيجب أن نذكره دائماً ،

يجب أن نذكر معه فقراءنا بالبر والإحسان ، ويجب أن نذكر

معه أهلنا وأصدقاءنا وجيراننا وأهل بلدنا .

يجب أن نذكرهم بالمودة والرحمة والأخوة ؛ فديننا أمرنا بذلك .

وبعده شوال يأتي شهر ذي القعدة .

وفي شهر ذي القعدة يستعد الحجاج لحج بيت الله .

فيجهزون ملابسهم ،

ويحصلون على الإذن بالسفر ،

ويحصنون أنفسهم من الأمراض ،

ويحجزون أماكنهم للسفر .

وبعضهم يسافر بالطائرة ،

وبعضهم يسافر بالباخرة .

وعند السفر يخرج أهلهم وأصدقاؤهم لوداعهم ، يسألونهم الدعوات .

العيد الكبير

آخر شهر في السنة هو شهر ذي الحجة .

فيه يجتمع المسلمون من كل الدنيا .

يجتمعون كلهم في مكة ،

ويقفون على جبل عرفات ،

لا فرق بين عربي وأعجمي ،

لا فرق بين غني وفقير ،

لا فرق بين عظيم وحقير .

كلهم متساوون أمام الله ،

وكلهم يدعون الله أن يغفر لهم ، وأن ينشر الأمن والسلام على المسلمين .

وبعد وقفة عرفات بيوم .

يجيء العيد الكبير أو عيد الأضحى .

ويحتفل المسلمون بهذا العيد في الدنيا كلها .

فيذبحون الأضاحي ، ويذكرون سيدنا إبراهيم .

أراد الله أن يمتحن إيمان إبراهيم ،

فطلب منه أن يذبح إبنه قرباناً لله .

فاستشار إبراهيم إبنه فقال له :

« يا أبت إفعل ما تؤمر ، ستجـدني إن شاء الله من الصابرين » .

ولما رفع إبراهيم يده ليذبح إبنه أرسل الله له كبشاً عظيماً افتدى به إسماعيل .

فلنحتفل جميعاً بهذا العيد .

لنذكر آبائنا وأمهاتنا ،

ولنعمل على كسب حبهم ورضاهم ،

لنذكر فقراءنا وضعافنا ،

ولنعمل على مساعدتهم والعطف عليهم .

لنذكر أهلنا وأصدقاءنا ،

ولنعمل على مودتهم .

ولندخل السرور على صغارنا وكبارنا .

هذه أعيادنا ومواسمنا الدينية .

وكل شهر يمر يذكرنا بيوم من أيام الإسلام .

ولكل يوم شأن عظيم في الإسلام .

التاريخ الهجري

الهجرة هي هجرة النبي من مكة إلى يثرب التي سُمِّيَت من ثم المدينة . وقد هاجر مع النبي أتباعه فَسَمُّوا بالمهاجرين . ومنها بدء التاريخ الإسلامي أو الهجري . وأوله ١٥ أو ١٦ تموز سنة ٦٢٢ .

الأنصار هم رجال المدينة الذين قبلوا النبي بعد هجرته من مكة وناصروه على أعدائه .

أشهر السنة الهجرية أو القمرية .

١ محرّم	٣٠ يوماً
٢ صفر	٢٩ يوماً
٣ ربيع الأول	٣٠ يوماً
٤ ربيع الثاني	٢٩ يوماً
٥ جمادي الأولى	٣٠ يوماً
٦ جمادي الآخرة	٢٩ يوماً
٧ رجب	٣٠ يوماً
شعبان	٢٩ يوماً
٩ رمضان	٣٠ يوماً
١٠ شوال	٢٩ يوماً

١١ ذو القعدة	٣٠ يوماً
١٢ ذو الحجة	٢٩ يوماً

الخلفاء الراشدون

أبو بكر الصديق	٦٣٢ ـ ٦٣٤ م
عُمَر بن الخطاب	٦٣٤ ـ ٦٤٤ م
عثمان بن عفان	٦٤٤ ـ ٦٥٦ م
علي بن أبي طالب	٦٥٦ ـ ٦٦١ م

الخلفاء الأمويون ٦٦٠ ـ ٧٥٠

معاوية بن أبي سفيان	٦٦٠ ـ ٦٨٠ م
يزيد بن معاوية	٦٨٠ ـ ٦٨٣ م
مروان بن الحكم	٦٨٣ ـ ٦٨٥ م
عبد الملك بن مروان	٦٨٥ ـ ٧٠٥ م
الوليد بن عبد الملك	٧٠٥ ـ ٧١٥ م
سليمان بن عبد الملك	٧١٥ ـ ٧١٧ م
عُمَر بن عبد العزيز	٧١٧ ـ ٧٢٠ م
يزيد الثاني بن عبد الملك	٧٢٠ ـ ٧٢٤ م

هشام بن عبد الملك	٧٢٤ ـ ٧٤٣ م
الوليد الثاني بن يزيد الثاني	٧٤٣ م
يزيد الثالث بن الوليد بن عبد الملك	٧٤٤ م
إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	٧٤٤ م
مروان الثاني بن محمد بن مروان	٧٤٤ ـ ٧٥٠ م

ولما قضى العباسيون على بني أمية في الشرق وانتزعوا منهم الخلافة وأعملوا فيهم السيف نجا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وهرب إلى الأندلس فأقام فيها الدولة الأموية بين ٧٥٦ و ١٠٣١ بعد أن جعلوا قرطبة عاصمة لهم . وعددهم ستة عشرة . أشهرهم عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل (٧٥٦ ـ ٧٨٨) عبد الرحمن الثالث الناصر (٩١٢ ـ ٩٦١) اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين وهو من أكبر ملوك القرون الوسطى .

الخلفاء العباسيون ٧٥٠ ـ ١٢٥٨

أبو العباس السفاح	٧٥٠ م
أبو جعفر المنصور	٧٥٤ م
المهدي بن المنصور	٧٧٥ م
الهادي بن المهدي	٧٨٥ م

هارون الرشيد بن الهادي	٧٨٦ م
الأمين بن الرشيد	٨٠٩ م
المأمون بن الرشيد	٨١٣ م
المعتصم بن الرشيد	٨٣٣ م
الواثق	٨٤٢ م
المتوكل	٨٤٧ م
المنتصر	٨٦١ م
المستعين	٨٦٢ م
المعتز	٨٦٥ م
المهتدي	٨٦٩ م
المعتمد	٨٧٠ م
المعتضد	٨٩٢ م
المكتفي	٩٠٠ م
المقتدر	٩٠٨ م
القاهر	٩٣٢ م
الراضي	٩٣٤ م
المتقي	٩٤٠ م
المستكفي	٩٤٤ م
المطيع	٩٤٦ م
الطائع	٩٧٤ م
القادر	٩٩١ م

القائم	١٠٣١ م
المقتدي	١٠٧٥ م
المستظهر	١٠٩٤ م
المسترشد	١١١٨ م
الراشد	١١٣٥ م
المقتفي	١١٣٦ م
المستنجد	١١٤٦ م
المستضيء	١١٧٠ م
الناصر	١١٨٠ م
الظاهر	١٢٢٥ م
المستنصر	١٢٢٦ م
المستعصم	١٢٤٢ م

وهو آخر الخلفاء العباسيين قتله هولاكو .

الدينار والدرهم

الدينار لفظة يونانيّة لاتينيّة معربة تدلّ على نقد من ذهب ضربه الملك أو الأمير . وكان الدينار البيزنطي يصل عرب الحجاز قبل الاسلام ومن بعده وبه يتعاملون .

ثم عمد معاوية الخليفة الأموي إلى ضرب دينار عربي ،

على ما ذكر المقريزي ، لكن قطعة واحدة من ضربه لم تصل إلينا . وضرب عبد الملك بن مروان في سنة ٧٦ هـ . أول دينار وصل إلينا وهو يقلّد الدينار البيزنطي في صوره وقطعه ووزنه . ثم عمد إلى حذف الصور واكتفى بالكتابة . وفي دينار محفوظ منه نُقش على الوجه في المركز : « الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد . » وفي الطوق المحيط بالوجه : « بسم الله ضُرب هذا الدينر في سنة سبع وسبعين » .

ووزن الدينار العربي مثقال كما عند البيزنطي أي ٤,٢٦٥ غرام بتفاوت يسير بين الدنانير المحفوظة . وعيار الذهب فيه مرتفع غالباً ، بقدر ما كانت تنجح طرق تصفية الذهب . فمنه ما وُجد بعيار ٢١ من ٢٤ ضُرب في ١٠٤ هـ . ومنه ما وُجد باسم الرشيد بعيار ٢٣,٥ . وقطره قريب من عشرين مليمتراً .

وضرب العرب أيضاً إلى جانب الدنانير أنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً من الدينار . وكانوا في معاملاتهم يزنون الدنانير ولا يأخذون بعددها تحسباً من الغش في ثقلها ، وينقدونها : والنقد صنعة النقّاد الذي كان يعرف من لون الدينار ورنّته ومن حكّة عيار الذهب فيه . وكانت عشرة دنانير تكفي العائلة المتوسّطة الحال في الشهر الواحد أيام العباسيين .

الدرهم نقد من فضة . وكانت الدراهم ترد على العرب قبل

الإسلام من بلاد العجم والعراق الواقع آنئذ تحت الحكم العجمي :

ووزن الدرهم العربي سبعة أعشار الدينار أي ٢,٩٨٥ غرام . وكانت قيمة الذهب في بدء الاسلام ١٤ مثلاً من قيمة الفضة ، ثم تغيّرت النسبة مع الأيام دون أن تستقرّ . ويسمي العرب النقد الذهبي عيناً والنقد الفضي ورقاً .

اليوم أول الشهر

فجن جنونهم وخرجوا يبحثون عنه

ويستمع المسلمون إلى قصة الرسول

ويتصدقون على الفقراء

ويقفون على جبل عرفات

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
١ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

تأملات في الإسلام

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

تأملات في الإسلام

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـواتِ وَالْأَرضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الألْبَابِ ﴿﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

صدق الله العظيم

على الله فليتوكل المؤمنون

الاسلام : « أن يسلم لله قلبك »، « الوحيد »: « أياك نعبد واياك نستعين »، اسلام الوجه لله ، وذلك يقتضي التوكل على الله كجزء لا يتجزأ من الاسلام .

ويتلون التوكل بحسب درجاته ويأخذ اسما تبعا لدرجته فيكون : توكلا ، ويكون « تسليما » ويكون « تفويضا ».

والتوكل بداية هـذا المقام الـروحي والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية ان كان للثقة في الله نهاية ومع ذلك فان كلمة « التوكل »، تطلق على كل درجاته ، وتستعمل في كل انواعه . وعلى هذا الوضع يامر سبحانه وتعالى به جاعلا منه صفة لا تنفك عن الايمان قائلا :

« وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » ويأمر سبحانه به امرا مطلقا كل مؤمن فيقول :
وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

واذا توكل الانسان على الله سبحانه فان ثمرة ذلك امران :
الامر الاول هو : حب الله له ، يقول سبحانه :
« ان الله يحب المتوكلين ».

والامر الثاني هو كفاية الله له ، يقول سبحانه :

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه ».

لقد سئل يحيي بن معاذ ـ وهو من ائمة الصوفية ـ: متى يكون الرجل متوكلا ؟

فقال : اذا رضي بالله تعالى وكيلا .

ويتحدث القرآن الكريم عن بعض الظروف التي ظهر فيها ان المؤمنين الصادقين هم الذين يتخذون الله وكيلا ، يقول سبحانه وتعالى عن المؤمنين في غزوة احد :

الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم : فزادهم ايمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

ماذا كانت النتيجة ، انها ما عبر الله سبحانه عنها بقوله :

« فانقلبو بنعمة من الله وفضل ، لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ».

من هم هؤلاء ؟ انهم :

الذين استجابوا الله والرسول من بعد ما اصابهم القرح » ما

هي قصتهم ! ان مشركي مكة لما أصابوا ما اصابوا من المسلمين يوم أحد أخذوا في العودة إلى مكة فلما استمروا في سيرهم ندموا : لِمَ لم يجهزوا على أهل المدينة ويجعلوها الفيصل ، وكان من كلامهم :

لا محمدا قتلتم ، ولا الكواعب اردفتم بئسما صنعتم ، ارجعوا .

وأرادوا العودة الى المدينة .

ولكن أبا سفيان لم ينسى يوم بدر ، ولم ينس ان الفئة القليلة يوم بدر غلبت ثلاثة امثالها مع وفرة العدة في الكثرة : فأحب اولا ان يعجم عود المسلمين ، وكان من المصادفات ان مر به ركب من عبد القيس ، فقال : اين تريدون ؟ ، قالوا نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل انتم مبلغون عني محمدا رسالة ارسلكم بها اليه واحمل لكم هذه غدا زبيبا بعكاظ اذ وافيتمونا ، قالوا : نعم ، قال فاذا وافيتموه فاخبروه انا قد اجمعنا المسير اليه والى اصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بحمراء الاسد ، فاخبروه بالذي قال ابو سفيان واصحابه فقالوا ـ النبي وصحبه ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

قالوا : ذلك واستعدوا مباشرة للقتال من جديد : من كان مجروحا ضمد جرحه من جديد ، ومن كان قد كل سيفه احده ،

ومن كان امره متفرقا في نفسه او ماله اصبح امره جميعا . .
واستعدوا لخوض المعركة بكل ما يملكون من وسائل وكان ابو سفيان ينتظر نتيجة الرسالة وما تحدثه من صدى :

ورجع واحد من وفد عبد القيس يقول لابي سفيان :
لقد رأيتهم كالاسد الموتورة عازمة على الاخذ بالثأر .

ولما سمع أبو سفيان ذلك أخذ في العودة إلى مكة طلباً للسلامة .

والتوكل اذن والمتوكلون يتخذون الاسباب ويستعدون كاكمل ما يكون الاستعداد وادق ما يكون الاستعداد .

ومن اجل ذلك يقول الامام التشيري ـ من ائمة الصوفية ـ:

واعلم ان التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد ان التقدير من قبل الله تعالى ، فان تعسر شيء فبتقديره ، وان اتفق شيء فبتيسيره .

التقدير من قبل الله تعالى : اذا آمن الانسان بذلك ـ ولا بد ان يؤمن به ـ فهو متوكل .

والان نسير مع السيرة النبوية الشريفة بعد غزوة احد لنصل الى غزوة الاحزاب فنرى الحق تبارك وتعالى يقول :

« ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم الا ايمانا وتسليما » .

لقد زادتهم رؤ ية الاحزاب ـ الجيوش الجرارة التي اتت لتهدم المدينة وتقتل من فيها ـ ايمانا وتسليما .

ماذا فعلوا ، لقد سهروا ليلا ، واقاموا نهارا من وراء الخندق يرقبون حركات العدو ويستعدون لكل شأن من شئونه ، لقد لبسوا دروعهم ، وتسلحوا بسيوفهم واقواسهم وسهامهم لقد احكموا كل امر من امور الحرب بحسب طاقتهم . . . ولكن الامر ، فيما يسلمون به ، الله كله : اليه يرجع الامر كله . . وما زادهم الا ايمانا وتسليما ، ايمانا قلبها وتسليما قلبيا . وان من الملاحظات التي لا تخفى على قارئى القرآن ان آية الاحزاب هذه يسبقها مباشرة قوله تعالى :

« لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثيرا » .

ولقد تابع المؤمنون الرسول ﷺ في توكله وأتبعوه مسلمين في استعداده وتأهبه ، لقد اتخذوه أسوة .

ويقول الامام سهل بن عبد الله ـ من ائمة التصوف ـ هذه الكلمات الجميلة حقا ، الصادقة حقا :

التوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سنته ، فمن بقى على حاله ، فلا يتركن سنته .

اما كيف عرف سهل نفسه التوكل ؟
فانه قال :

التوكل : الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

وهي كلمة نفيسة : الاسترسال مع الله على ما يريد في كل ما اراد سبحانه : في الجهاد في الضرب في الارض طلبا للمعرفة والعلم .

انه الاسترسال مع الله على ما يريد وهذا يقتضي ان يسكن الانسان الى النتائج بعد ان يكون قد اتخذ الاسباب بقدر طاقته .
ويقتضي امرا آهخر هو :
الابتعاد عن كل مالا يريد سبحانه :

وهذا ألتعريف لسهل رضي الله عنه يتناسق مع تعريف الامام حمدون القصار - من كبار الصوفية . حيث سئل عن التوكل فقال :

التوكل هو الاعتصام بالله تعالى . انه الاعتصام بالله تعالى في اتباع اوامره ، وهو الاعتصام بالله تعالى في اجتناب نواهيه ، وهو الاعتصام بالله تعالى في الحركة ، وهو الاعتصام بالله في النتائج اي السكون اليه في كل ذلك مع السكينة فيما يتعلق بالنتائج .

وقصة ثالثة يقصها القرآن الكريم : قصة رجل مؤمن صادق الايمان وقف ناصحا في وجه الطغيان والجبروت يدعو الى الله ويبشر بالتعاليم الصادقة وينذر ويهدد بعقاب في اسلوب قوي لا يخشى فيه لومة لائم : تلك هي قصة مؤمن آل فرعون الذي بعد ان نصح وبشر وانذر قال :

فستذكرون ما اقول لكم وافوض امري الى الله ان الله بصير بالعباد ».

وكانت النتيجة ما قصة الله تعالى بقوله :

« فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعـون سوء العذاب .

ومن كل ما تقدم ننتهي كما بأنا بأن التوكل جزء لا يتجزأ من الايمان والصورة المثلى جزء لا يتجزأ من الايمان والصورة المثلى فيه هي صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان امام المتوكلين وكان امام المناضلين ومن بعده صورة أبي بكر رضي الله عنه والصحابة الاجلاء الذين كانوا متوكلين وكانوا مناضلين في الحرب وفي التجارة وفي الزراعة .

وبعد فيقول الله تعالى : « ان الله يحب المتوكلين ». ويقول سبحانه :

« وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا »■

الاسلام والعلم

بدأت الحضارة الاوربية الحديثة حينما اتجهت اوربا ـ في العلم ـ الى منهج التجربة والملاحظة والاستقراء ، وحدد هذا المنهج دائرة العلم في العرف الاوربي : انه المادة يراها او نلمسها او نتذوقها . . او نفترضها ، وفي هذه الحالة يبقى الافتراض

مظنونا الى أن تثبته التجربة او تنفيه ، والعلم اذن ـ فيما يرى الاوربيون ـ هو هـذه القواعـد والقوانـين التي هي نتيجة الاستقراء ، ودائرة العلم اذن : الكون المادي سماواته وارضه وما بين السماء والارض .

ما موقف الاسلام من هذا المجال المادي ؟

ان اسلافنا رضوان الله عليهم يطلقون على علم الطبيعة : « علم الكشف عن سنن الله الكونية »، وهي تسمية جميلة ودقيقة ، انهم يعتبرون كل كشف عن قانون في الطبيعة انما هو كشف عن سنة من سنن الله في الكون ، والكون كله سنن من سنن الله وكلما كشفنا عن سنة من سنن الله فيه وجهنا الكشف نحو مجهولات لا بد من كشفها ، وكلما اتسعت دائرة الانسان في العلم المادي كان اكثر تقديرا لكثرة المجهولات اي اكثر اعترافا بجهله .

ان العلم ـ وهذا لا يحتاج الى استدلال ـ لا يسير سيرا عشوائيا ، وانما يسير تبعا لقوانين ثابتة متطورة وكل شيء فيه مقدر تقديرا دقيقا : انه اسباب ونتائج ، علل ومعلولات . . انه قوانين . .

ولقد حثنا الاسلام على الاخذ في اكتشاف مجاهيل الكون ، وبين الله سبحانه وتعالى انه سخر هذا الكون للانسان ، ويمتن الله سبحانه على الانسان بان جعل له الارض ذلولا ليجوب في

مناكبها : يجوبها طلبا للرزق ، ويجوبها لينظر آثار السابقين وماذا كانت نتيجة ما صنعوا وما كسبت ايديهم ، ويجوبها للعظة والاعتبار ، وفي هذا الجانب من التسخير ياخذ البحث عن الاثار زاوية ثانية ، وتبقى منه زوايا اخرى كثيرة .

والله سبحانه يسمى علم التاريخ : العلم بايام الله في الشدة والرخاء ، في البأساء والضراء ، في الهزيمة والنصر . والعلم بأسباب ذلك كله لنستفيد منه .

ويمتن الله علينا في هذا الجانب ـ جانب تذليل الارض ـ بان ذلل لنا البحار والانهار لنستفيد منها في الغذاء ونستخرج منها حليا للزينة ، ولتجري الفلك فيها : تسير باسم الله مجريها ومرساها شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا .

ويمتن علينا سبحانه بان سخر لنا الشمس والقمر والليل والنهار ، والنجوم والكواكب يقول تعالى :

وتسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره ، وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار .

ويقول سبحانه :

الم تر أن الله سخر لكم ما في الارض .

ويقول تعالى :

وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعا منه .

وهذا الامتنان منه سبحانه يعني انه ينبغي علينا ان نستجيب لهذا التوجيه الالهي فنستفيد من كل ذلك ، من السماء : كواكبها ، واقمارها ، ونجومها ، ومن الارض بحارها وانهارها وجبالها ووديانها وسهولها ، ونستفيد مما بين السماء والارض : الحو والسحب والرياح . .

وهذه الاستجابة معناها العمل الدائب للوصول الى ما احبه الله منه : الكشف عن سنته واستخدام قوانينه بالوسائل والاسباب الطبيعية .

على ان امرا اخر كان من اكبر العوامل في توجيه المسلمين نحو الكشف عن سنن الله الكونية : هو هذه الدعوة الملحة الى العلم : آيات من القرآن الكريم آمرة وباعثة وناصحة بالاتجاه نحو العلم واحاديث نبوية شريفة في فضل العلم والحث عليه والامر به . وكان اثر ذلك اندفاعا من المسلمين نحو البحث في زوايا العالم وخفاياه ، فكان هؤلاء الافذاذ في كل مجال امثال ، جابر بن حيان ، والكندي وابن الهيثم ، والرازي ، وابن النفيس وعشرات غيرهم في مجال سنن الله الكونية .

واستخدم هؤلاء منهج الاستقراء ولو قبض الله سبحانه للحضارة الاسلامية ان تسير في طريقها دون عوائق لكان

المسلمون هم الذين غزوا الفضاء ، وكانوا هم الذين وصلوا الى القمر والى غيره مما سخره الله للانسان من كواكب .

والمسلمون بتخلفهم هذا في العلم بسنن الله الكونية انما ينحرفون عن الخط الاسلامي الصريح ، وينحرفون عن خدمة الوطن ، فهم بهذا التخلف آثمون دينيا واثمون وطنية . وهذا المنهج الذي نهض بأوربا هو منهج اسلامي : وضع المسلمون ـ متابعين للتوجيه الالهي ـ مبادئه وارسوا قواعده ، وجاء الغربيون فتتلمذوا على المسلمين فيه ، وساروا على قواعده ، فكانت الحضارة الاوربية التي اسس المنهج التجريبي فيها « روجيه بيكون ».

من اين استفاد « روجروجيه بيكون » منهجه ؟ من هو الملهم له ؟

يقول الكاتب الانجليزي الاستاذ : « بريفولت » في كتابه النفيس : « بناء الانسانية » ليس « روجيه بيكون » ولا « لفرانسيس بيكون » الذي جاء بعده الحق في ان ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن « روجيه بيكون » الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو نفسه لم يمل قط من التصريح ، بأن تعلم معاصريه في اوربا اللغة العربية ، وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

ويقول في مكان اخر من كتابه : ولقد كان العلم اهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث .

ويقول ايضا :

ولم يكن العلم العربي وحده هو الذي اعاد الى اوربا الحياة ، بل ان مؤثرات كثيرة من الحضارة الاسلامية بعثت باكورة اشعتها الى الحياة الاوربية .

ويستفيض المؤلف فيما يتعلق بما للعرب ، وبما للمنهج العربي من أثر فيما يتعلق بالحضارة الحديثة .

لا اريد ان الليل في سرد نصوصه ، وهي كثيرة كلها تثبت ان هذا المنهج التجريبي ، انما هو المنهج الذي قامت عليه الحضارة العربية ، وان اوربا ، انما اخذته من العرب ، ولم تبتدعه ابتداعا ، ولم تكتشفه اكتشافا .

هذا فيما يتعلق بالمنهج .

اما فيما يتعلق بالموضوع ، فان المؤلف نفسه الذي الف هذا الكتاب ، الذي تحدثنا عن بعض آرائه يقول في صراحة ، لا لبس فيها : « ان العلم الاوربي ، مدين للعلم الاسلامي العربي في كثير من موضوعاته » من هذا نرى انه ليس مدينا في المنهج فحسب ، وانما في الموضوعات أيضا .

امة واحدة

الاسرة البشرية التي استخلفها الله في الارض ترجع في اصل نشأتها الى مبدأ واحد وتدين في وجودها الى خالق واحد وهذه الوحدة في الخلق والخالق هي الرابطة التي تجمع بين الناس على اختلاف السنتهم والوانهم وتباين بيئاتهم وتباعد اوطانهم . هذه الوحدة في الشعور والمشاعر هي هدف الرسالات السماوية جاءت كلها تدعو اليها وتعمق مجرى الايمان بها وتهتف بالبشرية ان يلتفوا حول رايتها « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون » .

غير ان قوى البشر تميل بكثير من الناس من الجادة فتفرقهم طرائف ، وتمزقهم شيعا واحزابا وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا .

ولا يشك احد في ان الجماعة التي تؤمن بالوحدة وتسير على هديها وتترسم خطاها وتصل الى تحقيقها املا وعملا هذه الامة تعيش قوية الاركان متينة البنيان شامخة الذرى يلين لها العصا وتذلل امامها العقبات وتدنو العصى منها الغايات البعيدة وتهابها الجماعات الاخرى وتخطب ودها الامم .

واذا عاشت الجماعة لم تستشعر معنى الوحدة فضلت عن

طريقها ولم تعمل لايجادها بين صفوفها هانت على نفسها وكانت على عدوها اهون . وتناثر عقدها وتفرق شملها . ووهنت قوتها وفتحت الثغرات بينها للدخلاء والمستغلين ولا حياة لها في مجتمع لا يعترف بغير القوة سلاحا .

من أجل هذا جاء الاسلام بعمق معنى الوحدة في نفوس اتباعه . ويدعو الناس جميعاً إلى كلمة سواء في آله واحد هو الله سبحانه وتعالى « والهكم آله واحد لا إلّه إلا هو » وطوى مشاعرهم كلها في شعور واحد هو الأخوة : « إنما المؤمنون أخوة » وجمع مناهجهم في منهج واحد هو البر « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » وشهدهم إليه بميثاق واحد هو الايمان .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » واتاح لهم الفرص المتكافئة على قدم المساواة « أن اكرمكم عند الله اتقاكم » ووجه جهودهم الى هدف واحد هو التمكين للحق والعدل ومقاومة الباطل والظلم « كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ».

ولقد رعى النبي ﷺ هذا المنهج التربوي في الوحدة فاستحث الهمم اليها بقوله يد الله مع الجماعة وصور قوتها واثرها بقوله « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وحذر من الخروج عليها بمثل قوله « انما يأكل الذئب من الغنم القاصية » وحكم

بقتل الخارج عليها بقوله من جاء يفرق امر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان .

في ظل هذه الوحدة الطاهرة التي اجتمعت عليها القبائل وانصهرت في بوتقتها الاحساب والانساب والالوان واللغات حمل العرب مشغل الهداية فاناروا الطريق وحطموا الاغلال وانطلقوا الى ميادين العلم والاقتصاد والعمران وسائر الميادين فاتوا بالاعاجيب .

ولقد جدت للجماعة الاسلامية والأمة العربية أحداث مختلفة انفرط بعدها عقدهم وتقلص ظلهم وتداعي الغاصبون على دولتهم فانقفقصوا أطرافها وتحكموا في أمرها واقتسموا أوطانها ومكنوا لأنفسهم فيها وأثاروا الحقد في نفوس أبنائها وبعثوا العصبيات بين رجالها واختلفت دول وقامت إمارات ونصبوا حكاماً فاختلفوا أهواء وتصارعوا أهدافاً ونسوا ماضيهم زمناً وعاشوا في فرقة وحلاف .

ولكن إذن الله لهذه الأمة أن تنهض من عثرتها وأن تقوم من كبوتها فتلاقي الأحرار واجتمع المخلصون فتحررت الأرض وتقلص ظل الاستعمار ونهضت الامة ولكن الاستعمار يعلم علم اليقين قوة العرب والمسلمين اذا اتحدت كلمتهم وتوحدت قلوبهم ومشوا صفا واحدا يبنون مستقبل امتهم كما كان اباؤهم من قبل .

لم ينس الاستعمار ان في كل وحدة للصف وتجمع للقوم نهاية لاطماعه فكلما لاحت بشريات الوحدة مشى اعداء الامة بالوقيعة والنميمة بين-ابنائها حتى لا تعود الى الوجود ايام كايام صلاح الدين فهو يحاربنا اليوم بمنطق الوحدة فاتحد الاعداء حولنا وقاتلونا بسلاحنا .

واليوم صيحة الحق والوحدة تعلو تعلن بعث امة . هي في اشد الحاجة الى وحدتها الاولى امام عدو شرس لن ترده عن اطماعه الا وحدة اصيلة استمدت قوتها من السماء ورسخت اصولها ثابتة لتؤتى اكلها كل حين باذن ربها فقام اتحاد الجمهوريات العربية نواة لوحدة اشمل واتحاد اكمل .

ومن حسن الطالع ان يستمد الاتحاد من روح الله قوته ومن تأييد الله نصرته فيعلن في دستوره ان الشريعة الاسلامية مصدر التشريع فيه . وبذلك ياخذ الاتحاد من المقومات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والتشريعية اساسا لانطلاقة تحقق النصر المبين .

واذا كانت وحدة الامة العربية شهدت اول ايامها بظهور دعوة الاسلام فوحدت بشعائرها قلوب المؤمنين في وحدة تامة في كل ما فرضه الله فانطلق ابناؤها يعلنون بالحق كلمة الله وينشرون في الارض نور الحق ويقيمون في الدنيا صرح العدل . فاذا بها تشهد اليوم على نفس الطريق وحدة الامة العربية وحدة مؤمنة بعقيدتها

متمسكة بدينها مستهدية هدى ربها . فالدين مقوم اساسي في صرح هذه الوحدة بجانب المقومات المادية الاخرى التي تبنى عليها صرحها القوي والتي يحرص عليها الاسلام ولا يعارضه .

فليبذل كل مواطن عربي على هذه الارض الطيبة غاية جهده لتقوى اركان هذه الوحدة وليتسع نطاقها حتى تشمل الامة العربية كلها ولنسر جميعا صفا واحدا لنحقق اول اهدافنا واعز امالنا وهو النصر على عدو الله وعدونا وليطرح ابناء الامة العربية خلافاتهم وليوحدوا صفوفهم وليجمعوا رأيهم حتى يستحقوا خطاب ربهم لهم « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون »□

الايمان

ان الايمان لازم للجماعة لانه العقيدة التي تعطيه القوة التي ينبعث بها ويتابع مسيرة التقدم والرفعة .

والايمان يجب ان تتوفر فيه خصلتان :

احداهما : ان يكون ايمانا بمباديء سامية رفيعة ، حتى تستطيع ان ترفعه بمكانتها . فمن يتابع غرضا عاليا ترتفع همته بقدر علو هذا الهدف ورفعته . ويعلو في انسانيته حتى يبلغ مكانة هذا الهدف ومرتبته . ومن يتابع غرضا دنيئا ينحدر الى مستواه ويقف جهده عند بلوغه . فيقف منحصرا عند حدود الانانية والاشباع الذاتي بدلا من العلو الى مدارج الانسانية وادراك القيم المعنوية .

ثانيا ـ ان يكون الشعور بالمبدأ قويا في القلب . فبقدر اليقين والايمان بالمبدأ بقدر ما يكون الانفعال به والتقدم بسببه . والايمان بمبدأ لا يصلح كمقوم اجتماعي الا اذا كان « قيمة شعبية » والقيمة هي الشيء العزيز الغالي الذي يضحي الانسان في سبيله بكل ما عداه . فلا يصبح أن نقول أن عقيدة معينة قد أصبحت « قيمة شعبية أو اجتماعية » إلا إذا وصل الأمر إلى الاستعداد التام للفناء في سبيل الدفاع عن هذه القيمة وتضحية الروح والمال في سبيلها .

اما اذا قلنا ان لهذا الامر قيمة اجتماعية ، ولم يكن لدى الناس استعداد للتضحية التامة في سبيله فاننا في الواقع نقول بالستنا ما ليس فى قلوبنا .

والقيمة الاجتماعية هي اعز واعلى « المقومات الاجتماعية » والمقومات الاجتماعية هي العناصر المختلفة التي تجعل لمجتمع معين مرتبة معينة بين الجماعات .

فالجماعة تقيم او تقوم ـ اي تحسب قيمتها ـ حسب عناصر مختلفة كمقدار ما تحوز الجماعة من المال والثروة ، ومن الثقافة ، ومن المبادىء والاخلاق ، ومن الامكانيات العديدة التي تسندها عناصر تاريخية وجغرافية ولغوية وغير ذلك . فهذه العناصر هي التي تعطي للمجتمع درجته ورتبته . واغلى هذه العناصر واثمنها

هو عنصر « القيمة الشعبية » اي المبدأ او العقيدة التي تحيا بها نفوس الجماعة .

وقد اهتم الاسلام بأن يجعل للجماعة الاسلامية « قيمة » عليا هي الايمان بالله تعالى وحده ، وبالتالي تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه وهي أعلى القيم لأن « الله المثل الأعلى » ومن المعلوم أن المبادىء تتدرج صعوداً من اعتناق العدوانية والاجرامية ، بأن يكون الانسان عدواً لنفسه والجماعة وذلك كدأب دولة كالتتر أيام جانكيز خان حينما رفعت على الناس راية التخريب والتدمير . ثم إلى الأنانية والانحصارية والعصبية ، وذلك كدأب الدولة الاستعمارية والدول التي رفعت شعار العنصرية كألمانيا النازية وايطاليا الفاشيستية . ثم إلى الانسانية واستهداف المقاصد المعنوية المجردة وأسماها ما هو مستمد من أسماء الله الحسنى باعتباره العدل الحق العليم الرحيم . فكل هذه أهداف لو تحلى بها الانسان سما في مقاصده .

كما اعتنى الاسلام بأن تظل هذه القيمة حية مشبوبة مستعرة في القلوب ، وذلك بالعبادات . فبعضها يومي كالصلاة ، أو أسبوعي كالجمعة أو سنوى كالصوم والزكاة أو عمرى كالحج وبذلك قام الاسلام على هذه الأركان الخمسة التي تظل بها حمية العقيدة قوية مشتعلة في القلوب ثم ربط أحكام الدنيا بالعقيدة عن طريق هذه العبادات . بأن جعل لأمور الدنيا أوصافاً من

أمور الآخرة فيكون البيع أو الزواج أو غيرهما فرضاً أو حلالاً أو حراما أو مكروهاً أو مندوباً بسبب هذا الربط بين الدنيا والآخرة .

والعلم ألزم للجماعة من الايمان . لأن الايمان يأتي عن طريق العلم . قال الامام البخاري رضي الله عنه « العلم قبل القول » « النطق بالشهادة » والعمل « بمقتضاها » لقول الله تعالى : ﴿ فاعلم انه لا إله إلا الله . فبدأ بالعلم ﴾ .

فاذا علمت الجماعة سبب العقيدة وسبب الاقتناع بها ، تمسكت بها اشد التمسك وصارت « قيمة اجتماعية » تغنى في سبيلها .
وغاياته .

ثم ياتي بعد ذلك دور اخر لازم للعلم .

فان العلم هو الذي يجعل العقيدة قابلة للتطبيق ويحيلها من الشعار المجرد الى التنفيذ الملزم .

وبدون هذا التطبيق يظل المبدأ اعلانا ولافتة تصلح للهتافات والخطب الرنانة فحسب . ولا يفيد الناس منها شيئا .

ونضرب لذلك مثالان :

احدهما من التطبيق الاشتراكي ، فانه من المقرر ان الاشتراكية التي لا تصحبها خطة هي اشتراكية خيالية وانها لا

تصبح ذات قيمة عملية الا اذا وضعت لها خطة عملية . وان لينين لم يفلح في ارساء قواعد النظام البلشفي الا بعد ان وضع السياسة الاقتصادية الجديدة « ن ي ب » فعند ذلك تبدو مساندة العلم للمبدأ ويتيسر تطبيقه ، بوضع تشريعات الثورة والخطة العملية الناجحة اقتصاديا واجتماعيا لتيسير تطبيق مبادئها .

وثانيا من التطبيق الدستوري عموما . فان النص في الدستور على الحريات يقتضي المبادرة الى مساندة هذه النصوص بالتشريعات المكملة للدستور ، وذلك كما لاحظ المؤتمر القومي في جلسته الاخيرة . فلا بد للعون العلمي من ان يدرك المبدأ ويسنده . وكذلك فان النص على هيمنة الشريعة الاسلامية على النظام القانوني واستمراره منها يقتضي ان يبذل علماء الدين والقانون والاقتصاد والاجتماع جهودهم المتضافرة المتحالفة لتيسير تطبيق هذا النص . وهذا يتطلب منهم مجهودا شاقا مخلصا بالعرق والدم . لانه بقدر ما فرطنا في حق هذه الشريعة وتخلفنا عن تغذيتها بالجهود المتصلة بقدر ما يجب ان تعوض هذا التاخير بالجهد الصادق المخلص .

وان الذي رزقنا بمالك وابي حنيفة والشافعي وابن حنبل في صدر الاسلام لقادر على ان يرزقنا الان بمن يقومون بحق الله وحق الامة ويحيلون هذا النص القرآني الذي نرجو من الله صدوره ـ الى تطبيق عملي ممكن التنفيذ .

العبادات علاج للقلق

العبادة ، لغة الطاعة او الفعل الذي يقصد به تعظيم الغير . وقد كلف الله المسلم بعبادات معينة تشمل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج . وفي كل عبادة منها يتحقق معنى الطاعة لله وتعظيمه تعالى والتقرب اليه . . ولما كان الله هو خالقنا . فانه لا ينبغي التوجه بالعبادة الى ما سواه عملا بقوله تعالى « وقضى ربك الا نعبدوا الله الا اياه » وتتضمن كل عبادة من تلك العبادات ايضا التزام ا الانسان باوامر الله ونواهيه . وهذا يعني من ناحية اخرى مخالفة الانسان لاهوائه وشهواته التي يميل اليها بطبعه كل الميل . والتي من شانها ان تنحرف به الى الاضرار بنفسه او بالمجتمع . والى هذا المعنى يشير الجرجاني في تعريفة للعبادة بقوله « فعل المكاف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه ».

ومن هنا يمكن القول بان من اهم اهداف العبادات في الاسلام على اختلاف صورها تهذيب الفرد اخلاقيا . وتربية المجتمع التربية المثلى لانها تمد افراد المجتمع بطاقات روحية خلاقة لا حصر لها تعينهم على انجاز ما هو نافع من الاعمال وتحول بينهم ويين مسالك الشر واسباب الانحرافات .

وثمة ارتباط وثيق بين العبادات والايمان ، فهي بالنسبة

للمؤمن المظهر العملي لايمانه المستقر في قلبه المسيطر على شعوره ووجدانه ولعلك تدرك هنا عمق المعنى في قوله تعالى « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر ». وقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام « انني انا الله لا اله الا انا فاعبدني » امره بعد التوحيد بالعبودية . لان التوحيد اصل والعبودية فرع . وان شئت قلت : العبودية هي ثمرة التوحيد .

ومن هنا اعتبر علماء الاسلام عقائد الايمان اصولا ، والعبادات وسائر احكام الشريعة العملية فروعا تنبنى على تلك الاصول .

ومما تجدر اليه الاشارة هنا ان الايمان يزيد قوة وفاعلية في نفس الانسان اذا واظب على العبادات .

وهذا امر تحكم به خبرة لانسان ومن الملاحظ ان الانسان يتصرف دائما وفق ما يعتقد . فاذا عمل بما يعتقد قويت عقيدته وصار اكثر حماسا لها واستعدادا للتضحية في سبيلها وكذلك الامر في مجال الدين فهو اذا ادى عباداته الدينية مدركا الحكمة منها تقوى ايمانه . وهذا يفسر لك ذكر العمل في القران مقترنا بالايمان في مثل قوله تعالى « وبشر الذين امنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات » وقوله تعالى « الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ».

وكما يكمل الايمان بالطاعات فانه ينقص بالمعاصي لان الانسان اذا ترك العمل بمعتقده ضعف هذا المعتقد في نفسه بالتدريج واذا به في النهاية يتحلل مه ، ولا يعود ينعكس على سلوكه ولناخذ لذلك مثلا الذي يتكاسل عن اداء الصلاة فهو اول الامر يؤديها وهو لا يعقل منها شيئا فتثقل بذلك على نفسه واذا به يؤديها مرة . ويغفل عنها اخرى ثم يتوقف تماما عن ادائها وقد يصاحب ذلك كله ايمان من نوع ما ولكنه ايمان ضعيف لا فائدة منه واخطر مرحلة يصل اليها هذا الغافل عدم الاعتقاد بفرضية الله لها فيتركها عمدا ، عندئذ ينخلع تماما من الايمان وتأمل جيدا قوله تعالى « فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » وقول الرسول ﷺ « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة ».

ومن الملاحظ بعد ذلك ان عبادات الاسلام ميسورة الاداء ، فالله تعالى لا يريد ان يشق علينا او يكلفنا بما لا يطاق . وهي لا تعوق الانسان عن القيام بواجبات حياته في المجتمع وما تحفل به من اعباء .

ومحاله دلالة على سهولة عبادات الاسلام وسائر تكاليفه ان الاعرابي كان يجيء احيانا الى الرسول ﷺ فيعلمه احكام الاسلام في مجلس واحد ، فيقول الرسول ﷺ . بعد ان يعاهده الاعرابي على العمل بها لا يزيد عليها ولا ينقص منها شيئا « افلح ان صدق ».

وهذا يفسر لنا انتشار الاسلام انتشارا واسعا . لان عقيدته من ناحية تتميز بالوضوح . ولان عباداته من ناحية اخرى سهلة الاداء .

ومن سمات عصرنا المميزة له شيوع القلق الذي يمزق النفوس نتيجة انصراف كثير من الناس عن عقائد الدين وعباداته ومعاملاته الى الاخذ ب بفلسفات مادية . تقوم كل شيء بمعيار المادة وحدها . واضرار ذلك شديدة لان الانسان اذا لم بر لحياته وقع في صراع نفسي مؤلم يفقده طعم الحياة .

ونحن لو نظرنا الى القلق الذي يعاني منه انسان العصر لوجدنا انه في اغلب الاحيان نتيجة شعوره بالانحراف عن قيم ثابتة يراها محققة لانسانيته ، وبعبارة اخرى هو نتيجة الصراع بين ميوله .وعواطفه ونزواته وبين مبادىء الاخلاق او الاوضاع الاجتماعية المتعارف عليها انسانيا . وكلما راى الانسان نفسه يسير بعيدا عن طريق الصواب والحق كلما زاد صراعه النفسي الداخلي واشتدت عليه الامة . ومهما برر لنفسه وللاخرين مواقفه وتصرفاته فانه يظل يعلم عن نفسه ما لا يعلمه عنه الغير . وهو انه منحرف عن الجادة القويمة .

وما اعمق المعنى في قول ابن عطاء الله السكندري لمريده في الحكم . « الناس يمدحونك لما يظنونه فيك ، فكن انت ذاما لنفسك لما تعلمه منها »

وفي الحقيقة ان القلق مرحلة يجب ان يتجاوزها الانسان الى الايمان ، وبهذا ينجو من الضياع يتحقق بالاستقرار النفسي ويستشعر معنى السعادة .

وليس علاج القلق في ممارسة الحرية التي تدعوا اليها بعض المذاهب العبثية المعاصرة . وهي حرية الانسان في صنع قيمة ومعاييره وحريته في رفض كل وضع اجتماعي لان مثل هذه الحرية وهمية يؤذي الى تردي الانسان في هوة العدم وتجعله عبدا لشهواته واهوائه .

لقد اراد الاسلام لنا عن طريق العبادات أن نتخلص من كل قلق ممكن ومن كل استسلام لشهواتنا وضعف نفوسنا ونزواتنا . فيتحقق لنا الاستقرار النفسي .

ولنتأمل فيما يقوله الامام فخر الدين الرازي عن اهمية العبادات في علاج القلق « واعلم ان العبادة والعبودية مقام عال شريف ويدل عليه ايات الاولى : قوله تعالى في اخر سورة الحجر « ولقد نعلم انه يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى ياتيك اليقين » .

والاستدلال بها من وجهين .

احدهما انه قال « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » فامر محمدا عليه الصلاة والسلام بالمواظبة على العبادة الى ان يأتيه الموت

ومعناه انه لا يجوز له الاخلال بالعبادة في شيء من الاوقات وذلك يدل على غاية جلالة امر العبادة وثانيها انه قال « ولقد نعلم انه يضيق صدرك بما يقولون » ثم انه تعالى امره باربعة اشياء التسبيح وهو قوله « فسبح » والتحميد . وهو قوله « بحمد ربك » والسجود ، وهو قوله « وكن من الساجدين » والعبادة وهو قوله « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

وهذا يدل على ان العبادة تزيل ضيق القلب وتفيد انشراح الصدر وما زاك الا لان العبادة توجب الرجوع من الخلق الى الحق وذلك يوجب زوال ضيق القلب » .

عبادات الاسلام اذن علاج حاسم لازمات النفس خصوصا في هذا العصر .

ولكن هل يكفي ان نعلم احكامها وحكمة تشريعها من الكتب ليتحقق لنا شفاء النفس .

جوابنا على هذا ان العبادات لا تتحقق فائدتها الا بالممارسة العملية وهي أشبه شيء بالدواء لا يكفي أن تعلم تركيبة علماً نظريا مجردا . وانما لا بد من تناوله بانتظام ليتحقق الشفاء .

ومن هنا وجب على المسلم ان يمارس العبادات ممارسة حقيقية لا شكلية وعندئذ فقط يمكنه ادراك جدواها واسرارها ادراكا حقيقيا .

الحياة .. والموت

ولما كنت شديد الايمان بان الموت هو العتبة المفضية الى الحياة الباقية وبما انه لم يعد لي اي مطمع في هذه الدنيا ، فالله شهيد على انني ما توسلت الى الله وانا في صميم محنتي بين الحياة والموت ان يبقيني حيا ، وانما فوضت امري اليه ، وقلت له : انا عبدك الراضي بقضائك ، وانت تعلم ما لا اعلم ، ولست اعرف اين الخير ، فابقيني حيا اذا كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كان الموت خيرا لي .

وشاءت ارادة الله ان اظل على قيد الحياة عاجزا وكما قلت في مقالي السابق فلست فقط راضيا بقضاء الله بل انني شاكر ومسبح بحمده اناء الليل واطراف النهار ، فما دمنا احياء فهذا دليل على ان الله يريدنا كذلك لغاية يعرفها هو .

عودة الوعي :

ومع عودة الوعي الي ، وما دمت قد بقيت على قيد الحياة ، اجابة مشكلاتها ، واؤدي دوري في تحمل نصيب كل كائن حي من مسئولياتها فقد اصبحت تواقا للشفاء بعد ان من الله عليَّ بطلائعه ، والعودة الى الكلام والحركة والوقوف والمشي ، لا من اجل نفسي ولكن من اجل الاخرين من شباب الجيل مزعزعي

الايمان وضيعيفي الثقة بالله ، والافها حاجتي للحركة والنشاط ، في مرحلة الفكر والتأمل .

ارتداد شاب

اعرف شابا من المتصلبين بي كان متدينا ، لا يدع الصلاة فلما اصابني ما اصابني ، ترك ذلك كله وانتقل من اقصى اليمين الى الشمال وراح يجدف قائلا : كيف يحدث ؟ . . ما حدث ؟ . . وقد كنت « يقصدني انا » من عباد الله الشاكرين رافعي لواء الايمان والتوحيد ، ثم ينكبك من دون السقة والمجرمين والكافرين بهذه النكبة ؟ . . .

وطبعا لم يكن لديّ القدرة لاناقشه وارده الى الجادة .

فالمرض والموت والحوادث والمصائب هي من لزوميات الحياة ، ولم يقطع الله على نفسه عهدا ، الا يصيب اولياءه بسوء ، بل على العكس من ذلك ، نبهنا الله الى ان هذه الدنيا ، دار ابتلاء وامتحان واشاء في القرآن الكريم الى ان المؤمنين ليسوا بمنجاة من المصائب ، بل ان آية ايمانهم ان يصبروا على قضاه الله .

ولنبونكم بشيء من الخوف والجرع . ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة . واولئك هم المهتدون ».

فانت ترى ان المصائب والكوارث والنكبات في هذه الحياة الدنيا ليست وقفا على الاشرار ولكنها تحل على الاخسار على سبيل الابتلاء والامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب .

ولقد عشت طول عمري اردد هذه الاية واعلمها للناس فكان لا مناص ان يختبرني الله ويمتحنني ، وتقول لي شريكة حياتي واكبر نعم الله على ، ان لساني لم يكف عن حمد الله حتى تعطل فيما تعطل من جوارحي وغرقت في الغيبوبة ، وبمجرد ان افقت عدت الى تكرار الحمد ، وانا اقص ذلك لانه من باب التحدث بنعمة الله ، فليس في الدنيا كلها اعظم من نعمة ان يكون العبد عبدا شكورا ، بحمد الله في السراء والضراء .

مناجاة ودعاء

فانت تعلم يا ربي من امري انني بهداية منك وتوفيق من عبادك الشاكرين وراضي بكل قضائك حلوة ومرة ، ولو ظللت على حالتي التي انا عليها ، فانا ادرك ما فيها من نعم ، ولن يتغير شعوري ، فالايمان والرضا يجريان مني مجرى الدم ، ولكني عشت طول عمري مجاهدا في سبيلك ، ولست اريد ان يكون ما أصابني إلا سبيلاً لتعزيز الايمان بك ، وطريقاً لتأكيد الدعوة إليك . فسامحني يا رب إذا كنت بعقلي القاصر وإدراكي المحدود الذي هو بدوره نعمة منك ، أن أتطفل على قدسك وأن أسألك الشفاء من أجل أمثال هذا الشاب العزيز الذي تزعزع إيمانه

لمرضى ، فنحن في عصر غلب فيه الشك ، وتفشت الدعوة إلى المادية والإلحاد .

آية من آياتك

اني اسألك يا ربي ، ان تتدرني على الوقوف من جديد ، على الحركة على المشي ، على الكلام ، لا لانني انا شخصيا في حاجة اليها ، ولكن لاخفف الحمل على من حولي من الاحباب والاصدقاء وليزدادوا ايمانا على ايمانهم .

فما اكثر ما يهزونني من الاعماق عندما يقسمون بك انك ستشفيني وتعيدني كما كنت ، وعبثا اقول لهم ان ما انا فيه هو نعمة من النعم .

ولكي اكون احد اياتك لضعاف النفوس ومزعزعي الايمان ، ان يروني صحيحا سليما بعد المرض ، قادرا بعد العجز .

واني اعوذ بك واستغفرك يا رب ، اذا كان فيما سبق من قول من زلل او خطأ ، فانت اعرف بعبادك مني ، وما يصلحهم او يفسدهم فما كان الكافر والملحد بالذين يعتبرون او يتعظون بالايات ، فما اكثر آياتك التي تغص بها الحياة ، ومع ذلك فالذين في قلوبهم مرض عنها معرضون ، ذلك ان الهداية منك « انك لا تهدي من احببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ».

واعود لما بدأت به من انني راض ، راض بقضائك متمثل لمشيتك وهي خير كلها .

والله اكبر ولله الحمد

حكمة الله في خلقه

خلق الله جميع المخلوقات بقدرته ، ونظم خلقها بحكمته ، سبحانه لا شريك له بيده الامر كله له واليه وحده تصير الامور .

ومع ان الجميع تشرف بشرف الصنعة للصانع الاكبر ، والقادر الاعظم فقد اقتضت حكمته تعالى . ان يفضل بعض هذه المخلوقات على بعض فضل مكة ، فجعلها ام القرى ، وشرفها ببيت الله الحرام ، فجعلها قبلة للمسلمين جميعا يتجهون اليه مصلين . وحاجين ومعتمرين ، ويبتغون فضلا من الله ورضوانا وانبثق منها نور الهداية ، بارسال رسول من اهلها ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

وميز المسجد الحرام . فضاعف ثواب الصلاة فيه ، وجعل الصلاة في المسجد تفضل على الصلاة في غير المسجد .

وتفضل سبحانه وتعالى فاعظم ثواب الاعمال في ساعة السحر ، واجر الحسنات يوم الجمعة وفضل بعض الناس على بعض في كثير من نعمه . في المال ، والصحة ، والبين ، فالسعيد منهم من شكر النعمة ، وادى حق الله والناس فيها ،

حتى كان من الذين قال الله فيهم « ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة ، وقنا عذاب النار اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ».

والشقى من كفر بنعمة الله ، وغرته الحياة الدنيا ، وابتغى فيما آتاه الله الدنيا وزينتها ، ونسى نصيبه من الاخرة ، حتى كان من الذين قال الله فيهم « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا ، وما له في الآخرة من خلاق ».

وفضل بعض الانبياء على سائر الانبياء فاختص محمدا ﷺ بالشفاعة العظمى ، وجعلت له الارض مسجدا وطهورا وكانت رسالته للناس كافة ، وجعل امته خير الامم وجعلها امة وسطا شهيدة على الناس ، وهو عليه السلام شهيد على امته .

وفضل شهر رمضان على سائر الشهور . فانزل فيه القرآن الكريم هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وتم فيه الفتح الاعظم فتح مكة ، وانتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى التي كانت الحد الفاصل بين الحق والباطل ، وجعله شهر الصيام ، شهر البر والجود والاحسان : ووقاية من الشرور والاثام وموسما لتربية الفضائل ومكارم الاخلاق .

وقد جاء في خطبة للرسول عليه السلام في اخر يوم من شعبان « انه شهر الصوم والصبر وثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد فيه رزق المؤمن ، وشهر اوله رحمة ، واوسطه مغفرة ،

وآخره عتق من النار » وفي هذا الشهر العظيم المبارك ليلة خير من الف شهر ، هي ليلة القدر والشرف والمكانة الرفيعة ، نزل فيها الدستور الدائم الخالد الذي نظم مسيرة الحياة ، وهي ليلة السلام ، والتجلي الاعظم على الصائمين القائمين الراكعين الساجدين تنزل الملائكة فيها ومعهم جبريل الامين تحيي في المسلمين الصائمين جهادهم ، وتنشر السلام والرحمة وتدخل كل البيوت الا بيوتا فاجرة عابسة .

وكان الرسول عليه السلام يجد في التماسها في الوتر في العشر الاواخر من رمضان .

وقد اقتضت حكمته تعالى ان يخفى هذه الليلة ولا يحددها ليجتهد الناس في الطاعة ويطلبوها في اكثر من ليلة .

وللعلماء اقوال في تحديدها ، واصح هذه الليلة ولا يحددها ليجتهد الناس في الطاعة ويطلبوها في اكثر من ليلة . وللعلماء اقوال في تحديدها ، واصح هذه الاقوال انها ليلة السابع والعشرين . فقد روى أن الرسول عليه السلام قال : « من كان منكم متجرياً فليتحرها ليلة السابع والعشرين» وروى أيضاً عن أبي بن كعب انه قال :

« والله الذي لا اله الا هو ، انها لفى رمضان ، والله اني لا علم اي ليلة هي ، هي التي امرنا الرسول بقيامها ، ليلة سبع

وعشرين وامارتها ان تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع فيها ».

واحياء هذه الليلة ، بالتوبة والاستغفار والدعاء والعبادة مطلوب . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا . غفر له ما تقدم من ذنبه ».

وسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله قائلة يا رسول الله . ان ادركتني ليلة القدر ، ماذا اقول فيها قال . قولي :

« اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عني » فيا اخي المسلم . لا تعكر صفو هذه الليلة بصخب ، او عبث ، او ضجيج واتجه الى ربك في هذه الليلة المباركة ، خاشعا ، تائبا ، مستغفرا داعيا منضرعا ، ان يمنح ابناءناالمجاهدين المرابضين في ساحة المجد والشرف ، وشعوب الامة العربية والاسلامية ، القوة والسلام .

« يا مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين ».

هذا دعاء خالد ماثور عن رسول الله ﷺ ، كان يقوله عند لقاء الاعداء .

فيا اهل الايمان ويا جنود الرحمن ، اجعلو هذا الدعاء شعاركم في كل وقت وقولوا دائما : « ربنا لا تؤ اخذنا ان نسينا او اخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا

ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

الانسان والمستقبل

ان القرن العشرين ، الذي يرى تجمعات بشرية في صورة دول ضخمة الحجم تبسط كيانها على مساحات شاسعة مخططة ، اصبح يقدم كمثل اعلى . لطريقة النمو ، عملاقية الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، الدولتان المؤسستان لفصيلة العماليق التي دجلت في كنفها ـ منذ عهد قريب ـ الصين الشعبية ، وحيث تريد الدخول اوروبا الغربية .

يرى هذا القرن ، كنتيجة لهذا التكتل البشري السياسي الضخم ، تكتلا لحاجات وامكانيات على درجة غير معتادة ، تنشأ منه شبه اختصاصات تتخصص بها تلك الكتل ، بحيث تصبح كل واحدة ذات اختصاص في نوع من المشكلات العلمية او الصناعية او الاجتماعية ، حسب هوايتها ومزاجها وظروفها الخاصة .

ولا يبعد اننا سوف نرى ، الى آخر القرن ، كتلة تسيطر على مجال الفضاء واخرى على مجال الذرة ، واخرى على علم الكيميا او النبات او على مجال الفن .

وهكذا تحقق كل كتلة لنفسها مكان التبريز والصدارة في نوع

من انواع النشاط البشري وقد لا يرى المسلم يومئذ ، حظه في هذا التوزيع التاريخي للمسئوليات والاختصاصات العالمية ، الا اذا قرر ، منذ المرحلة الراهنة ، اي ياخذ على عاتقه مشكلة الانسان ، وفي النواحي او الناحية التي لا تضطر الى تدارك مسافات اصبحت ، في نواحي اخرى ، نضع بين العالم نواح اخرى ، تضع بين العالم بونا شاسعا لا يستطيع تداركه كما يبدو ذلك من ميدان الفضاء على سبيل المثال .

ولاننا اذا دققنا النظر في الاشياء نجدان المشكلات الجديرة لتكون من اختصاص المسلم موجودة ، لحسن الحظ ، وليست موجودة فحسب ، ولكنها تنمو في المجال النفسي بقدر ما يزيد التقدم التكنولوجي في توسيع الخرق الاخلاقي ، وتعميق القلق الذي يجتاح المجتمعات التي تنجز ذلك التقدم كما شاهدنا ذلك في الهزات الاجتماعية السياسية التي اعترت ، منذ سنتين ، ما يسمى « مجتمع الاستهلاك » .

بحيث اذا لم يخف على المسلم تخلفه ، تخلفا لا يقبل التدارك في بعض المجالات ، فانه يرى من ناحية اخرى تخلف المجتمعات المتقدمة في مجال الانسان ، تخلفا لاستدركه « العلوم الانسانية » المدروسة في جامعاتنا .

لا شك ان الانسان اصبح من الناحية « الموضوعية » مدروسا ، ومعلوما الى حد كبير ، من جوانبه الاقتصادية

والعضوية والانثربولوجية من ذوي الاختصاصات في هذه العلوم ، فانهم يعرفون ويقدرون متوسط الدخل السنوي من الدولارات الذي يلزمه لاقتناء الثلاجة ، او ما يتعاطاه من مخدر « ل س د » وما يستحق من وحدات حرارية في اليوم .

فان المسلم مسبوق في كل هذه المجالات ، كشأنه في كل ما يتعلق بالتنقية ، لكن هناك ، في هذا القرن العشرين وجهات من مشكلة الانسان زهد فيها العلم الحديث ، بل احتقرتها حضارة الكم .

وانسان هذه الحضارة قد تورط في الوضع المناقض للانسانية ، الذي اسسه هو في العالم على درجة لا تسوغ له القيام ببعث القيم الانسانية اليوم .

فهو متورط في عالم الاشياء الذي صنعه بعقله ويده ، تورطا لا يسوغ له القيام بمهمة تخليص الانسانية من ورطتها في الشيئية .

وهذا المجال ، الذي يخص الانسان من جوانبه الكيفية ، هو بالذات الذي يبدو مجالا لاختصاص جديد قد يكون اختصاص المسلم لانه ، في نقطة البدء ، غير متورط في عالم الاشياء المطبوع بطابع المادية في سلوك طبقة البرجوازية الكبيرة والصغيرة ، وفي تفكير الجناح الآخر من المجتمع المتمدن .

ولكن هذا الشرط اللازم بالنسبة لمهمة المسلم ليس بكاف

وحده ، فلا يكفي تجزيء الكثيرون ، لكي يدخل في عداد « جيجر التاريخ » ان يكون فحسب طليقا ، بل يجب ان تكون وجهته وحركته في مجال العمل المعزى اليه .

ولا يمكن للمسلم المتملص من جاذبية الاشياء ، ان يستوفي شروط مهمته الا باستيقاظ ضميره الى الظروف الاجتماعية ـ التاريخية التي يمر بها العالم اليوم .

فهذا العالم تسكنه ، انسانية متحضرة فقدت انسانيتها ، فاصبحت تصوغ مشكلة الانسان بمنطق الاشياء ، فتقدر مصيره بالثلاجة ومتوسط الدخل السنوي .

ومن طنجة الى جاكرتا تسكنه انسانية متخلفة ، ولكنها متحررة بحكم تخلفها من ربقة الاشياء .

فاصبحت هذه الثنائية مصدر كل الاسباب لعدم التوازن المتفشي في ارجائه ، ولكل معطيات مشكلة الانسان .

ومن طبيعة الوضع الراهن ان الحل للمشكلة لا يمكن ان يكون سوى ارجاع التوازن المفقود او المنعدم ، بوضع ثقل حضارة جديدة في احدى كفتي التاريخ ، حضارة ترفع الانسان المتخلف للمستوى الاجتماعي الذي يتمتع به انسان حضارة الاشياء اليوم ، وترفع هذا الاخير الى المستوى الاخلاقي الذي تفرضه الانسانية .

فلكي يعالج المسلم المرض العالمي ، من الزاوية التي تهم اختصاصه ، يجب ان يقدم لهذا المريض ما يشفيه من فقره الروحي ، ولذلك المريض ما يشفيه من التدهور الاجتماعي .

ولكن ، ومن كلا الجانبين ، لا يجوز ان تصوغ المشكلة بالطريقة المثالية ، كأي قصة ، ولكن بالطريقة العلمية على انها مشكلة القرن ، مشكلة الساعة .

وعلى هذا الاساس فقط قد يكون المسلم جديرا بحلها بطريقة فعالة ، اذ يكون ايمانه باختصاصه في هذه المهمة قائما على حقيقة يؤمن بها عقله .

وعندما يتم هذا الشرط في نفسه ، سيجد فعلا انه الاول في مجال من التطور العلمي لم يسبقه اليه احد .

وسيرى ان المستقبل ليس تحت نفوذ الصاروخ ، والذرة والثلاجة وانما هو تحت نفوذ غير انساني متجدد .

آيات الأحكام

وَلَا تَقْفُ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ مَسْئُولاً . وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرِحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تِبْلُغَ

الْجِبَالَ طُولا . كُلُّ ذَلِكَ كان سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا .

الآيات : ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ من سورة الاسراء

الملكات مسئولية

السمع ، والبصر ، والفؤاد ـ وهو القلب ـ هي مراكز الحياة الانسانية في الانسان ، وحلقات اتصاله بالوجود وبالناس ، اخذا واعطاء . . فاذا فقد الانسان بعضا منها ، فاته شيء كثير مما كان يمكن أن يحصله من العلم والمعرفة وانقطع عنه مورد عذب كان يغذيه ويرويه .

وفي قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » دعوة إلى ألا يقدم الانسان على أمر من الأمور حتى يتبين موارده ومصادره . . فهذا هو شأن الراشدين من الناس ، وتلك هي سبيل الأنبياء ، والحكماء والعلماء : « قل هذه سبيلي : أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني » .

وهذا يعني أن يعمل الانسان جاهداً لتحصيل كل ما يمكن أن يبلغه جدهه ، وتعينه عليه ملكاته ، من العلم والمعرفة . . فإذا عرف الانسان هذه الحقيقة ، وانعقدت نيته على العمل لها ، وجد بين يديه الأدوات التي يوجهها إلى العمل ، والتي يتوسل بها إلى ما يطلب من علم ومعرفة ، وهذا ما يجده في قوله تعالى :

« إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤ ولاً » . . فهذه هي أدوات التحصيل للعلم والمعرفة .

ثم أن الانسان مسؤ ول عن تلك الجوارح ، فإن هو عطلها ، أو وجهها إلى وجوه الشر والفساد ، كان مسؤ ولاً عنها ، محاسباً على تفريطه أو إفراطه فيها .

وقوله تعالى : « ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » هو الميزان الذي تنضبط عليه معاملة الانسان مع جوارحه ، ومع ما تمده به من أسباب السمو العقلي والنفسي ، فقد يحصل الانسان من العلم والمعرفة قدراً يرى به من نفسه أنه قد بلغ غاية لم يبلغها أقرانه ومعاشروه ، فيركبه الغرور ، فيتطاول على الناس تيهاً ، في زينته . . وهذا كفر بنعمة الله . ولو كان صاحب هذا العلم المزهو به ، على شيء من العلم الصحيح ، لعلم أنه لم يؤت من العلم إلاّ قليلاً ، وأنه بعلمه هذا قطرة في بحر ، أو ذرة في سفح جبل ولن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً . . ان الأرض لا تكاد تحس بوجوده عليها ، وأن الجبال لا تكاد ترى له شخصاً عند قدميها !!

تعقبه دوراً ، دورا ، أو طوراً وطورا ، أو مرحلة مرحلة . تحدث عنه حينما لم يكن شيئاً مذكوراً « هل أتي على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » ثم أورد في آية واحدة ، كل ما

يصيب الانسان منذ يرى النور ، حتى يوارى التراب : « فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم في علقة ثم من مضغة فحلقة ، وغير فحلقة ، لنبين لكم ونقر في الأرحام ، ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » ونكر هذه الأطوار ، هو في واقع الأمر ، ودعوة لعقل الانسان وقلبه ، للتأمل فيها ، والتأمل بذرة التفكير المقدسة والتفكير سبيل البحث والاستقرار ، المهد ، والبحث هو أبو العلم ، والعلم هو شقيق المعرفة الأرشد ، العلم وسيلته العقل والحواس ، والمعرفة سبيلها كل ذلك والوجدان أيضاً .

ولم يتحدث كتاب عن ضعف الانسان وقوته ، كما تحدث القرآن ، والغريب الذي قد تخطئه بعض العيون وهي تقرأ هذا الكتاب ، ان الله تعالى حينما يتحدث في كتابه المنزل على نبيه المرسل ، عن ضعف الانسان يبدو لك انه تعالى يتحدث عن قوة الانسان التي تواجه في ثبات كل عوادي الزمن ، ومواطن الفتنة والفتنة والغواية والهلاك ، وحينما يتحدث عز وعلا عن قوة الانسان ، يكشف عن ضعفه المنبعث من غروره واستكباره ، ونسيانه لاصله : « اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه » على ان الذي تفرد به القرآن الكريم ، من بين كتب السماء ، وكتب البشر ، هو قصة خلق آدم ، وأمر الملائكة ان يسجدوا له ، بعد خلقه

مباشرة ، مع التصريح بأنه خلق من طين او طين لازب او من صلصال ، او حما مسنون . وان الملائكة ، خلقوا من نور ، وان الشيطان ، عدو الانسان ، خلق من نار . وقصة خلق آدم ، وما جرى بين الله تبارك ، وبين الملائكة ، وابليس ، ليست مجرد حكاية بعدد الخلق ، ولا تقرير هذه الحقائق الالهية ، عن الملائكة وآدم ، وابليس ، انما هي من العقيدة الاسلامية ، اصل من الاصول ، انبتت عليه احكام هذا الدين الذي وضع فوق أعلى اعلامه ، واسمى راياته : « ولقد كرمنا بنى آدم ».

وقد يحسن أن نعلم بادىء ذي بدء ، ان الملائكة وصفوا في القرآن بانهم « لا يعصون الله ما امرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون » فهم مخلوقات معصومة من الخطأ ، تعيش في طاعة الله وتحيا لعبادته ، فلما فضت إرادة الله ، أنَّ يكون له خليفة في الأرض ، كان الملائكة أحق بهذه الخلافة من مخلوق جديد ، خلق بعد خلقهم ، وجمع في خلقه أمرين ، يبدوان لغير الخالق متنافرين فقد خلقه الله بيده . وخلقه من طين . فهو بالأولى ، قد ظفر بكل تكريم ، وهو بالثانية ، جدير بالتشكك في صلاحيته لخلافة الله في الأرض .

والخلافة هذه ، بذاتها ، معنى من المعاني التي لم تشر اليه ، ولم تقرره عقيدة اخرى ، وهي بداية من بدايات العقيدة الاسلامية . فالانسان الذي خلقه الله بيده من طين ، هو الامين على كل ما فرضه الله ، للحياة في الارض ، من قوانين

واحكام ، اي ما قال عنه القرآن الكريم « سنة الله في خلقه ».

ولم يرو كتاب الله تعالى ، فيما رواه ، من انباء الغيب اي الماضي ، ان الملائكة خرجوا عن طاعة الله ، ولو بالاستفسار عن شيء فرضه ، الا في مشهد واحد ، ذلك حينما انبأهم الخالق « بأنه جاعل في الارض خليفة » وعرفوا ان الله قد اختار لهذه الرسالة العظمى آدم ، فقالوا باذنه : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ولا حاجة بنا لاضاعة الوقت او الجهد في تعرف كيف استنتج الملائكة ان (آدم) سيكون مفسدا وسافكا للدماء ، وهو غيب - أي مستقبل - والغيب علمه عند الله وحده ، فاما ان يكون الله قد اعلمهم بخصائص هذا المخلوق الجديد وصفاته ، وانه على غير شاكلتهم ، غير معصوم من المعصية والخطأ ، وانه لا قبل له بمداومة العبادة الأمر الذي ظفروا به ، وإما أن يكونوا قد استشفوا من المادة التي خلق منها ، ومن انه خلق من الأرض ، ليعيش فيها ، فلا يشارك الملائكة ما خصهم الله به ، من رسالات ، ولا يرتفع الى العالم الذي يخلقون فيه ، انه ضعيف ، وان ضعفه يفضي الى الفساد والجريمة ، وعلى كل حال ، قد استنتج « ابليس هذا كله ، وما يفطن اليه ابليس ، يمكن ان يهتدي اليه الملائكة ، وقد ظهر هذا كله من قوله تعالى : « واذا قال ربك للملائكة اني خلق بشرا من صلصال من حما مسنون ، فاذا سويته ونفحت فيه من

روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم اجمعون ، الا أبليس ابى أن يكون مع الساجدين قال يا ابليس مالك الا تكون مع الساجدين ، قال لم اكن اسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون »، وفي موضع آخر قال الله تعالى : « ما منعك الا تسجد اذ امرتك ، قال انا خير منه خلقتني من نار ، وخلقه من طين »، واحتجاج الملائكة والشيطان معا له ما يبرره ، لانه اعتراض قائم على المعايير غير الالهية فحكمه الله قد خفيت عنهم جميعا ، ولكنه سبحانه لم يلبث حتى اطلعهم على هذه الحكمة فقد قال تعالى : « وعلم مدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم ، قال يآدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض ، واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ».

وفي هذه الايات ، خلاصة ما فرضه الاسلام للانسان من تكريم واعزاز واعلاء للشأن ، وزبدة حكمته في خلق الانسان ، وما أعد له في هذه الارض ، من رسالة التعليم والتعليم ، والابداع والتعمير ، وتحول من الضعف الى القوة ومن الجهل الى الدراية . ومن الخوف الى الشجاعة ، وهذه تحولات ممتنعة على الملائكة بحكم كونهم قد بلغوا مرتبة الكمال ، واعفاهم الله ، من عناء المحاولة والبحث .

فالانسان ، على الرغم من تعرضه للمعصية واتيان الذنوب ، قابل للانتفاع باخطائه ، والارتفاع فوق قصوره ، اي أنه قابل للعلم ، وراغب فيه ، وهو بهذه الميزة ، احق بالتقديم ، واولى ، بالرعاية . فالناقص الراغب في الكمال ، افضل من الكامل ، الذي لا يطمح في المزيد . والانسان الذي تتعثر خطاه ، والذي يشقى برذائله ، فيقتل أهله وأعداءه معاً ، ويدمر ما بناه ، ويهدم ما خلقه ، هو بلا شك أرقى من النحل والنمل ، اللذين يعيشان في خلاياهما ، يسودهما نظام لم يهتد اليه اعظم المشرعين ، والى استقرار وتعاون ، لم تسمع بهما اقوى الدول . ولكن النحل والنمل ، بقيا على حالهما القرون بعد القرون ، لا يهبطان عن كمالهما قيد شعرة ، ولا يتجاوزانه ، مقدار انمله ، اما الانسان فقد خرج من الكهف الى اعماق السماء ، واغوار الماء ، وعلم عن نفسه والافاق والاكوان ، ما جعله سيد هذه الارض بحق .

واذا كان ابليس قد نجح في غواية آدم وزوجه ، فطرد آدم وحواء من الجنة ، ولكنهما لم يطردا من رحمة الله بل ان خالقهما عز وعلا قال : « اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو فاما يأتيكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » . فالانسان بقى مغمورا برعاية الله ، مشمولا بعنايته ، ذلك لانه قادر على ان يقف بعد التعثر ، ويستقيم على السبيل ، بعد الاضطراب ،

ويثوب إلى الحق بعد الانجذاب للباطل وخلاصة هذا في قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . فالانسان بمواهبه وملكاته ، مهيأ لأن يحلق في السماء ، ويبدع الروائع ، ويعلو فوق الفواجع ، الا ان حرصه على بقاء الفرد وبقاء الجنس ، اي حاجته الى الطعام والتناسل ، يهبطان الى اسفل سافلين ، مالم ترفعه عقدته ، وتحرره مثله ، ويعلو به طموحه . وهو بين هذا وذلك (الانسان) الذي حقق في هذه الارض ، ما كان الملائكة عاجزين عن اقامته فيها ، اذ لا طمع عندهم ولا صراع بينهم ولا علم يلتمسونه ولا جهالة يشكون منها ، وانما ثبات لا يتغير ودوام لا يحول . واذا كانت الملائكة قد فطرت على الطاعة والانقياد ، فان عقل الانسان وجد للعلم واستشراف للحقيقة ، وفهمه للمعرفة الذي لا يشبع ، وفضوله الذي لا يهدأ ، واجتهاده الذي لا ينقطع قادر على ان يصل به الى الطاعة ، وان يحسن العبادة ، مجتهدا ساعيا ، متحملا في اجتهاده ، الالام والاوجاع ، فيفتر عزمه حينا ، ولكنه لا يلبث حتى يبدأ من جديد ، سعيه ، ويصل ما انقطع من جهده . وقد اهتدى الانسان فعلا بعقله الى استحقاقه دون غيره ، وقد اختير للخلافة ، بالنهوض بامانة هذه الخلافة : قال الله تعالى : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال ، فابين ان يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

وما الامانة ، الا حرية الانسان ، اي حرية ارادته ، في الاختيار بين السبل ، والمفاضلة بين الامور ، وهي حرية رفضتها النباتات والجمادات ، بلسان الحال ، اي بسبب عجزهم عن التطور الذاتي ، فذهب الانسان ، سن هذه الارض بحق ، سخرت له الانهار والبحار ، والسموات والارض وما بينهما .

الاسلام وللناس

ماذا يريد الاسلام للناس في ايامنا هذه ، وهل في وسعه - وسط المشكلات ا المتفاقمة ، والازمات المتلاحقة ، ان يقيم لهم بناء يبين لهم اساليب العيش والتفكير ، في مجالات السياسة والاقتصاد ، والادارة والعلم . وعلى الرغم من ان اجابة هذا التساؤ ل ، تحد ، ليس باليسير ، فان محاولة الرد عليه ، جديرة - بان يبذل في سبيلها جهد . واذا تصورنا ان هذا البناء يتكون من لبنات اساسية ، وانها لا تزيد عن عشر ففي الوسع ان نقول :

ركن الزاوية ، او حجزها - في هذا البناء - هو ان رب المسلمين ، هو رب العالمين ، فهو رب الناس كافة : رب اليهود والمسيحيين ، والمشركين والكفار ، والوثنيين وآكلي لحوم البشر يشملهم جميعا برعايته ، ويفتح لهم ابواب الهداية اي التقدم والتحرر والقوة ، يغفر لهم ذنوبهم ، الا الشرك لانه يقفل في وجوههم ابواب العلم والتفكير ، ويرميهم في احضان الجهالة والاوهام . وان كان الله رب المسلمين ، الا انه لا يحابيهم ، ولا

يعطيهم فوق ما يستحقون ، ولا ينصرهم على اعدائهم ولو كانوا كفارا ، الا اذا عرفوا سنن هذا الكون ، وكشفوها ، وعملوا بما تقضي ، وتحلوا بالاخلاق التي يامر بها : الشجاعة عند المعركة والثبات وقت المحنة والاستعداد لكل شيء .

واللبنة الثانية : ان الانسانية كلها ، قديمها وحديثها ، في المشارق والمغارب ، من نحب ومن نكره أمة واحدة ، والتفاضل بين أبنائها ، كالتفاضل بين شعوبها وأممها لا بالحسب ولا بالنسب وإنما بالعمل الصالح : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

واللبنة الثالثة : لقد ضم الله رسالات السماء بكتاب قرر مبدأين يحلقان من اعلى عليين على رموس البشر :

الاول : الانبياء جميعا اسرة واحدة ، يدعون الى دين واحد : آمن الرسول بما انزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين احد من رسله » فابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، هم انبياء المسلم ، يحبهم ويوقرهم .

الثاني : ان مصير الانسان ، بين يديه ، لا يقيده الا سنن الكون وقوانينه ، التي ان اهتدى اليها الانسان ادار هذا الكون ، وانتفع منه وبه : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » فلا عذر للانسان ، ان لم يفرض سلطانه ، على هذا

الكون بسمائه ومائه ، وبحاره وانهاره ، وطاقاته وثرواته ، وسبله ونجاجه ، واعماقه وامواجه .

اللبنة الرابعة : ان الحاكم المسلم ، ينتخب دائما ولا يعين ، ينتخبه الناس احرارا طلقاء . فالحكم لا يورث في الاسلام ابدا . والاسلام يعبر عن الانتخاب بلفظ ارق وادق ، هو « البيعة » فالحكم تفويض من الشعب وتوكيل . وهذا يستتبع حق من بايع في المراقبة والمحاسبة ، وانزال العقاب اذ يقول الحديث الشريف : اذا رايتم الظالم ولم تاخذوا على يديه يوشك ان يعمكم الله بعذاب ».

اللبنة الخامسة : الشورى بين الحاكم ، واهل الرأي ، فريضة تكاد تبلغ مبلغ العبادات لزوما وقدسية . على الحاكم ان يلتمسها غير مقصر ، وعلى ائمة الشعب وقادته ، ان يبذلوها وان ينصحوا للحاكم ، ولو كلفتهم الحياة والرزق « فالدين النصيحة ».

اللبنة السادسة : وليتم التناصح بين الحاكم والمحكوم ، او الراعي والرعية ، لا بد من اقامة راي عام ، نشيط حساس ، شجاع يقظ رافض للظلم ، كاره للفساد ، قادر على رفع الصوت ، يتصدره العلماء والائمة ، ولكنه جيش لجب ، يضم الناس جميعا و لبناء هذا الراي الساهر الشاهر لسلاحه قال الله تعالى : لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » وقال

تعالى في وصف المؤنين : والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون » كما قال الرسول عليه السلام : « اذا لم تستطع امتي ان تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها » اي اصبح ميئوسا منها .

اللبنة السابعة : ان المصدر الوحيد عند المسلمين للمال ، هو العمل ، فالمال لا يلد مالا ولذلك فالفائد مهما قلت هي ربا يعاقب عليه ويرفض والمال اصلا مال الله ، والناس مستخلفون فيه فهو وديعة بين ايديهم وملكيته وظيفة :

« آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

اللبنة الثامنة : ان الغاية في الشرع الاسلامي هي تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم فحيث توجد مصلحة الناس فثم شرع الله . ومن هنا يكون للحاكم اذا قضت الضرورة ان يخطط لكل نشاط الرعية ، ويوجه كما يكون له ان يسعد ويؤمم .

اللبنة التاسعة ـ المسلمون مامورون رجالا ونساء ، بطلب العلم من المهد الى اللحد ، وعلم ساعة ـ عندهم كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام خير من عبادة ستين سنة . ومداد العلماء خير ـ كما قال ايضا ـ من دماء الشهداء .

اللبنة العاشرة : المدخل لكل هذا البناء ، عقيدة ترهف الضمير الانساني ، وتجعله رقيبا للفرد والجماعة في السر والعلن ، في السراء والضراء ، في الضعف والقوة . ■

العلمانية

يروى تشرشل في مذكراته ، انه اجتمع مع روزفلت رئيس الولايات المتحدة ولتفيسنوف ، سفير الاتحاد السوفيتي في واشنطن ليضعوا اعلان الامم المتحدة الذي نشر في اول يناير سنة ١٩٤٢ ، فاعترض السفير السوفيتي على عبارة « الحرية الدينية » التي وردت في المشروع فانبرى له روزفلت والقى محاضرة طويلة : عن الموت والنشور ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، فاغرقه في بحر طام من العلم اللاهوتي ، فلم ير السفير بداً من أن يسحب معارضته نجاة بنفسه من موجة أخرى من التلقين الديني . ويقول تشرشل أنه مازح روزفلت قائلاً له : لقد كنت مشفقاً عليك من نتائج انتخابات الدورة الثانية لرياستك ، أما الآن فلا خوف عليك ، ولو لم يعد الأمريكون انتخابك . فسيكون البريطانيون سعداء إذا قبلت أن تعين كبيراً للأساقفة في بلادهم . فبلاغتك في الوعظ ، وعلمك بالدين يؤهلانك لذلك وهذه القصة الصغيرة على طرافتها ، تتضمن من المعاني ما يحسن سوقه للذين يؤمنون (بعلمانية الدولة) . فماذا تكون هذه العلمانية أولاً !

والعلمانية اصطلاح حديث يقصد به ما ليس دينيا او كهنوتيا ، ولعله مشتق من لفظ (العالم) وترجع اصول العلمانية ، الى ردود الفعل ، لثورة مارتن لوثر في سنة ١٥٢٠

على البابا ، وانتقاده العنيف اياه لبيع صكوك الغفران للعصاة والخاطئين من المسيحيين مقابل مال كثير يدفع للبابا ، فيضمن لهم دخول الجنة ، ولسخط لوثر على عبادة القديسيين ودعوته الى العمل بالكتاب المقدس وحده ، ولم تلق هذه الدعوة اول الامر استجابة ذات شأن ولكن لما اخذ اتباع لوثر يكثرون سلطت عليهم الكنيسة والامراء الذين انحازوا لها ما يصفه جوستاف لوبون بقوله ، ابيد الشيوخ والنساء والاطفال ، وصار رئيس برلمان (اكس) البارون (دويين) مثالا يحتذى لقتله في عشرة ايام ثلاثة آلاف شخص وتدمير ثلاث مدن ، واثنتين وعشرين قرية . فهل كفت الدول ـ لا سيما في غرب اوروبا ـ حقا عن النشاط الديني ، وغسلت يديها منه ؟ـ يهمنا في الاجابة على هذا السؤال ، الجانب الخارجي من نشاط الدول (العلمانية) فالثابت من تاريخ الاستعمار الاوروبي الغربي في اسيا وافريقيا ، ان هذه الدول اتخذت من الدين وسيلة لتبرير استعمارها ولنهب ارزاق اهل المستعمرات ، وحرمانهم من ثقافتهم الوطنية ، ومن نفض نير الاستعمار عن اعناقهم . واذا اردنا ان نضرب الامثلة على زيف هذه (العلمانية) وكذبها ، تزاحمت بين ايدينا الامثلة ، حتى لا ندري ايها ناخذ وايها ندع ، ولكن احسب ان ما جرى في الجزائر ، فضلا عن اتصاله بنا ، لوقوعها في محيطنا العربي والاسلامي ، فهو نموذج صارخ لعلمانية الغرب ، وسننقل المثل التالي من كتاب الكاتبين الفرنسيين كوليت

وفرانسيس جانسون المعنون « الجزائر خارج القانون » قالا :

« لعل العبث بالدين الاسلامي كان هو المجال المفضل لدى القائد (روفيجو) ليعيث فيه فسادا واستهتارا ، فقد وقف هذا القائد الفاجر ونادى بين قومه بانه يلزمه اجمل مسجد في مدينة الجزائر ليجعل منه معبدا لاله المسيحيين ، وطلب من اعوانه اعداد ذلك في اقرب وقت ممكن واشار لهم الى جامع القشاوة لانه كما قال اجمل جوامع الجزائر طرازا وحدد يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٣٢ لانجاز هذا العمل وفي الموعد المحدد ، تقدمت بطاريات الجيش تزحف الى المسجد فاذا بداخله اربعة آلاف مسلم اعتصموا به خلف المتاريس فاندفعت نحوهم القوة العسكرية ودحرتهم بالسناكي . . » ثم وضع في هذه الكاتدرائية منبر كان يعرف في الجزائر بأنه (منبر الرسول) وهو آية في النقش العربي ، وعلى هذا المنبر وقف الحاكم (موجو) يقول : ان آخر ايام الاسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما ، لن يكون للجزائر اله غير المسيح ».

وهو بطبيعة الحال غير المسيح الذي يؤمن به المسلمون ، كما امرهم بذلك دينهم ، ولا هو المسيح الناصري الذي قال للناس ، احبوا اعدائكم ، باركو لاعينكم . . . الخ » ونحمد الله اذ اعفى الجنرال ديجول ، بلاده فرنسا ، موطن الثورة ، والانسانية من هذه الوصمة الكاذبة فلنر ، في الجانب الاخر ،

كيف حقق الاسلام ، كل ما عقد على (العلمانية) من آمال لم تتحقق لافي داخل الدول ولا خارجها .

اولا ـ ليس في الاسلام هيئة ولا طبقة تحترف صناعة الدين ، او تستأثر بشرح احكامه ، فكل مسلم مدعو لقراءة الدين والتفقه فيه ، وله الحرية في ان يفهم ما يشاء ، مادام يفهم لنفسه وله ان يستعين بمن هم ارسخ منه قدما في اللغة ، واقدر منه لثقافتهم وعلمهم لياخذوا بيده ، فليست تلاوة القرآن حكرا لاحد ، ولا هي ممنوعة من احد . بل انها مستحبة كلما تيسرت للانسان . والانسان يصلي وحده بلا رقيب ولا موجه واذا اجتمع المسلمون ، تقدم احدهم فامهم ما دام يعرف اصول الصلاة ، ولو كان اشعث اغبر لا يؤ به له .

وفي هذا المعنى يقول الشيخ شلتوت : قد اتصلت بالقرآن ، بعد ان التحق الرسول بربه ، افهام العلماء ، والائمة فيها لم تكن من اياته نص في معنى واحد وكثرت الاراء والمذاهب في النظريات والعمليات ، لا على انها دين يلزم وانما هي آراء وافهام » .

ثانيا ـ عبادة المسلمين وصلاتهم جائزة في كل شبر من كل ارض فالله تعالى قال : « فاينما تولوا فثم وجه الله » وقال الرسول عليه افضل السلام « .. وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا » .

ثالثا ـ ونبى المسلمين ورسول الله اليهم ، بشر مثلهم ، يأكل الطعام ، ويمشي في الاسواق ، وكان له كل نشاط الادميين ، فتزوج وانجب ، وصام وافطر وحارب وسالم وعاهد ، وعرف اليتم والثكل ، ماتت له زوجات وبنات وبنون واكد القرآن والحديث بشريته ووصفه القرآن ، بانه عبد يأكل كما يأكل العبد ، ويجلس كما يجلس العبد » ففي القرآن « سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » وفيه « قل لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله »، وفي الحديث « لست ملكا ولا جبارا ، انما انا ابن امرأة تأكل القديد في مكة ، والرسل جميعا ـ عند الاسلام ـ ليسوا الا مبلغين لرسالات الله ووظيفتهم الارشاد والتعليم عن طريق الوحي ، وفي علماء المسلمين من يقول ان الرسول ﷺ . يجوز عليه من الخطأ والصواب فيما عدا ما خصه الله به ـ ما يجوز على اي فرد من البشر .

رابعا ـ الاصل في الاشياء الاباحة ولا تحريم الا بأمر الله ، في نص من القرآن او نص من الحديث قطعي الورود فالاباحة والتحريم من حقوق الله وحده ، ولا يشاركه في ذلك شريك من رسول او خليفة ، او هيئة او جماعة او طنقة او فئة . وبالتالي لا يوجد من يغفر الذنوب الا الله ، وكل مسئول عن عمله لا تنفع احدا عند الله قرابة حتى للرسول الكريم فقد قال عليه السلام « يا معشر قريش اشتروا انفسكم لا اغنى عنكم من الله شيئا » وقال لو سرقت فاطمة ـ بنته رضي الله عنها ـ لقطعت يدها .

ـ واخيرا يساوى الاسلام بين رسل الله جميعا ، واديانهم « آمن الرسول بما انزل ا اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله ؟

وقد أمر الاسلام المسلمين ، ان يعاشروا اهل الكتاب بالحسنى وان ياكلوا طعامهم ، ويتزوجوا نساءهم كما امرهم « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن ».

وقد نشأ من كل ذلك جو من حرية الرأي اتاح للمسلمين واخوانهم من اهل الكتاب والاخاء الانساني ، والتعاون الاخوي مسيحين ويهود ، ان يتعاونوا في انشاء حضارة انسانية ، بقي التسامح ، وكراهية القسر والعنف ، طابعها المميز حتى في ادوار انحلالها ، وقد روى مصطفى كامل في كتابه الشهير « المسألة الشرقية » انه لما فتحت القسطنطينية على يد محمد الفاتح السلطان التركي ، وانتخب المسيحيون الروم بطريركا قال له السلطان محمد : كن بطريركا لليونان والله يحميك ، وفي كل الاحوال والظروف اعتمد على مساعدتي وتمتع بكل الامتيازات التي كانت لاسلافك من قبل »

فهل علمانية كائنة ما كانت قادرة على ان تحقق هذا او شيئا قريبا منه ؟■

الناس

لم يجتمع في نص ادبي . في كتب السماء المنزلة ، او كتب البشر الخالدة لفظ الجلالة ، اسم الله العظيم ، مع لفظ (الناس)، كما اجتمع في السورة الثانيــة من القرآن الكريم : قل اعوذ برب (الناس)، ملك (الناس) اله (الناس)، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور (الناس) من الجنة و(الناس) فالقرآن الكريم هو كتاب الناس ، كما هو كتاب الانسان .

ورد فيه لفظ (الناس) مائتين واربعين مرة على ما يقول معجم المجمع اللغوي ، في حين ورد فيه لفظ (الانسان) خمسا وستين مرة . وهذا الفارق بين العددين ، يكشف في يسر ، عن نظرة الاسلام الى الانسان « الفرد »،

والناس « الجماعة ». فمع شدة احتفال القران بالانسان ، وتكريمه ، فان الناس ، مجتمعين ، يتقدمون على (الانسان) الواحد .

وقد انشعبت المذاهب الحديثة الى شعبتين : شعبة تؤمن بالفرد ، وتجعله ركن الزاوية في المجتمع الانساني وتغار عليه من لمس الحرير ، ومن مر النسيم . تدعه حرا في ماله ، يجمعه كيف يشاء ، وينفقه كيف أراد ، وفي رأيه يقول ما يحب ، وفي نشاطه

كله يوجهه بلا قيد ولا حد ، ويقيمون مبدأهم على ان نشاط الافراد الطليق ، هو ضمان التقدم ، وان التنافس بين الافراد ، هو الذي يضع الحدود المانعة من الشرور .

وشعبة ، تخاف من النشاط الفردي وتعتبره سبيلا الى استكثار المال الحلال والحرام ، والاستزادة من السلطة بالطريق المشروع وغير المشروع ، وان ضحية حرية الافراد : الفقراء والضعفاء ، ولذلك فالضمان ان تكون الجماعة ، هي الهدف ، نقيمها ، ونجعل كلمتها هي العليا ، ونضحي بالفرد في سبيلها : حريته وماله ورأيه . لانه سيخرج من هذا البناء الجديد حرية حقيقية ، لانها ستكسو العاري ، وتطعم الجائع ، وتعلم الفقير ، وتجعل للرأي قيمة .

اما الاسلام ، فلم يجد صعوبة في ان يوفق بين المذهبين ، وان يجمع بين الحسنيين ، فالانسان كله حرام على المسلمين : ماله ودمه وعرضه ، لا يقتل ، ولا يحبس ، ولا يسجن ، ولا يؤخذ منه درهم او دينار ، الا بحقه ويحقه ، يعني بامر الشارع الاكبر الله ، كما بينه في القرآن سنة الرسول ، وكما قرر الحاكم استهداء بالقرآن والسنة واجماع فقهاء المسلمين والضمان الذي لا يجعل الفرد ، غولاً يتضخم ، ويثرى ، فلا يقوى حاكم على ردعه ، ولا حكم على تقويمه وصده ، أن تكون مصلحة المسلمين ، أي مصلحة الجماعة ، هي هدف كل كلمة وحرف وكل حركة

وسكون ، وكل درهم يكتسب وكل قرش يتفق . فالجماعة أولاً والمسلم من بعد ذلك .

قال رسول الله يوما لبعض اصحابه فاربوا وسددوا ، فلن ينجو احد بعمله . فقال اصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام : ولا انت ؟ فقال ولا أنا ، الا ان يتغمدني الله برحمته ورضوانه .

ومعنى ذلك ان الرسول دعا المسلمين الى ان يلتزموا احكام الدين لان كل انسان سيحاسب بعمله ، ولن يفلت من التوبة عند الاحسان ، ومن العقوبة عند الاساءة فسأله المسلمون ، حتى أنت ، فقال حتى انا . وهذا هو الحاكم الاعلى الموحي اليه مباشرة من الله . وقد حدث أن المسلمين اسروا في احدى الغاوات ابا العاص بن الربيع زوج السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ ، وافلت ابو العاصى من الاسر ، ولاذ بمنزل السيدة زينب في المدينة فاستجار بها ، فأجارته ـ فلما كانت صلاة الفجر ، صرخت زينت من صفة النساء ، أيها الناس أني قد أجرت أبا العاصي من الربيع » ودهش الرسول لأنه لم يسمع عن فرار أبي العاصي من الأسر ولا ملجؤه إلى ابنته فقال بأعلى صوته ليسمع جميع المسلمين ، أما والذي نفسي محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، وقد نفى الرسول علمه بأن أعلنته ابنته ، حتى لا يظن ظان ، انه اتفق معها على أن تورط

المسلمين ، تحرصاً من الرسول وابنة الرسول ، ثم ترك لهم أن ينفذوا في زوج ابنته ما سينفذونه في سائر الأسرى ، يخضونه برعاية وواضح من القصة ان إبن العاص كان حتى هذه الحادثة على دين آبائه لم يدخل الاسلام وأن زوجته تركته وتركت مكة ، وهاجرت إلى المدينة حيث رسول الله ، والدها الكريم .

ففي دولة الاسلام ، القانون يسرى على الحاكم قبل المحكوم ، ويقيد القوي ، قبل الضعيف ، ويعلو على الدولة ، ولا تعلو عليه ، فليس القانون ، وسيلة الحاكم ، وانما الحاكم خادمه المطيع ، يلتزمه ، وينزل على مقتضاه ، ولا يغيره على هواه ، فرسول الله ، لا يملك ان يعدل نصا من نصوص القرآن . اذ احرجته حادثة ، او ضيقت عليه الخناق ازمة قل ما يكون لي ان ابغله من تلقاه نفسي ، سورة يونس .

وفي ظل القانون الاسلامي يمارس غير المسلمين ، ديانتهم وعبادتهم ومذهبهم علنا ، ، لا يتوارون ، ولا يتقون غضب الجماعة ، بل ان عمر أأدب مشرفا على معبد يهودي ، لانه اهمل المعبد ، وتركه حتى طمره التراب ، فخلعه ثوبه ، واخذ يزيح عنه التراب بكفيه ، واحتذى حذوه من كان معه من الصحابة الاجلاء .

وقد نص القرآن في اكثر من موضع على شأن الجماعة ، وعلى علو مقامها ففي سورة الانفال قال تعالى : « هو الذي ايدك

بنصره وبالمؤمنين » فجاء تأييد المؤمنين للرسول ، بعد نصر الله ، لا يفصل بينهما فاصل ، وفي سورة آل عمران : « شهد الله انه لا اله الا هو ، والملائكة واولوا العلم » فسلك شهادته سبحانه وتعالى وشهادة العلماء من ابناء ادم في نظم واحد ، وفي آل عمران ايضا : « أولئك جزاؤ هم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين » ومرة اخرى ينتظم غضب الله ، وغضب الناس ، سباق واحد ، وكان القران يقول ان شهادة العلماء ، من قبل الانسان ، فرع من شهادة الله عز وعلا ، وان غضب الناس اجمعين من غضب الله . . هذه هي الجماعة عند القرآن والاسلام . فهو بحق دين الناس بقدر ما هو دين الانسان .

الممتحنات

« سورة الممتحنات »

نزلت بعد عقد هدنة الحديبية ، في اواخر السنة السادسة للهجرة .

قبلها في ذي القعدة ، كان الرسول (عليه الصلاة والسلام) قد خرج من دار هجرته في نحو الف من اصحابه المهاجرين والانصار ساعين الى البيت الحرام معتمرين ، لا يريدون قتالا .

: وفي مرحلة من الطريق ، جاءهم الخبر بأن قريشا قد سمعت بمسيرهم الى مكة ، فعبأت الرجال والخيل والسلاح ،

وخرجوا يترصدون لركب المصطفى في « ذي طوى » ليصدوه عن المسجد الحرام ، وقد تعاهدوا على الا يدعوه يدخل مكة عليهم ابدا .

ولم يرجع المصطفى (عليه الصلاة والسلام) بل سلك بمن معه طريقا غير الطريق التي اخذتها قريش ، حتى نزلوا بالحديبية - من اسفل مكة ، فلمحتهم خيل قريش وكانت لهم بمرصد . وجاءت قريش متوعدة بقتال .
: وتتابعت النذر : ليرجعن محمد باصحابه من حيث جاءوا ، او فلتكن الحرب !

واذ لم يجد مع المؤمنين وعيد ولا نذير ، لم تر قريش مفرا من المفاوضة على هدنة لعشر سنين ، وندبت « سهيل بن عمرو » ممثلا لها في التفاوض مع محمد « عليه الصلاة والسلام) على شروط الصلح ، واولها ان يرجع عامة هذا عن مكة ، فوالله لا تتحدث العرب انه دخلها على قريش عنوة ابدا .

وقد أقر المصطفى من شروط ذلك الصلح بالحديبية ، ما يرسخ اقرار الاسلام لحرية العقيدة والارادة .

: : :

: كان من شروط الهدنة :

« انه من محمدا من قريش بغير اذن وليه ، رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه » .

وكيف يكره احدا على البقاء معه ؟.. واي خير يرجى من مكره على البقاء حيث لا يريد ؟

اما الذين ياتونه من قريش ويرددهم ، فليكن الامر فيهم محنة ابتلاء : يثبت فيها على عقيدته من يؤمن بها ولو بذل حياته فداء له ، ويخرج منها من لا طاقة له على احتمال الفتنة ، والصبر على البلاء .

: وكان من شروطها كذلك : « أنه من احب ان يدخل في عقد محمد وعهده ، دخل فيه . ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم ، دخل فيه ».

الاختيار اذن متروك للقوم ، آمنين من ان يضاروا بهذا الاختيار .

: : :

: ثم لم تم الاتفاق على شروط الهدنة وآن ان تكتب ، دعا المصطفى (عليه الصلاة والسلام) ابن عمه « على ابن ابي طالب » (رضي الله عنه) وبدأ يملي عليه ما اقر الطرفان من عقد الحديبية ، قال :

اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم »....

فاعترض سهيل بن عمرو قائلا : « لا اعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ».

فقال (عليه الصلاة والسلام) لعلي :

اكتب : « باسمك اللهم .

هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » . . .
وكتبها « علي »

وللمرة الثانية ، اعترض سهيل قائلا :

« لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك ، ولكن اكتب اسمك
واسم ابيك : « محمد بن عبد الله » .
قال (عليه الصلاة والسلام)

انا رسول الله ، وانا محمد ابن عبد الله .

ثم قال لعلي بن ابي طالب :
امح « رسول الله » .

وكان « علي » هو الذي توقف هذه المرة ، وقد شق عليه ان
يمحو كلمة « رسول الله » ، وان امره (عليه الصلاة والسلام)
بمحوها .

قال رضي الله عنه ، معتذرا :
« لا والله لا امحوك ابداً » .

فاخذ المصطفى الصحيفة ، فمحا الكلمة التي اعترض عليها
ممثل قريش ، سهيل بن عمرو . . ثم مضى يملي ، حتى تمت

كتابة عقد الهدنة ، واشهد عليه رجالا من المسلمين ومن المشركين .

: : :

● قبل أن يجفف مداد وثيقة الهدنة ، بدأت محنة الابتلاء :

جاء ابو جندل بن سهيل بن عمرو يوسف في الحديد ، قد انفلت من قريش الى رسول الله (ﷺ) وهم المسلمون بأن يمنعوه من ابيه الذي قام اليه فضرب وجهه وقال للمصطفى (عليه الصلاة والسلام) :

ـ قد لجت القضية بيني وبينك قبل ان ياتيك هذا

واندفع يجره وهو يصرخ باعلى صوته :

ـ يا معشر المسلمين ،أأرد الى المشركين يفتنوني في ديني ؟

فلم يملك المسلمون ان يمنعوه ، ورسول الله (عليه الصلاة والسلام) يقول :

« يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، واعطيناهم على ذلك عهد الله ، وانا لا نغدر بهم ».

وقال مثل ذلك ، لأبي بصير عتبة بن اسيد ، وآخرين ممن خرجوا من قريش ، بغير اذن اوليائهم .

: ثم كان هؤلاء المستضعفون هم الذين تمردوا على طاغوت الوثنية الباغية .

نزل ابو بصير قرب « ذي المروة » واجتمع اليه نحو سبعين رجلا ممن اكرهوا على العودة الى قريش ، فقطعوا طريقها الى الشام ، وبلغ بها الخوف منهم ان كتبت الى محمد (ﷺ)، ترجوه ان يؤويهم فلا حاجة لها فيهم !

واواهم المصطفى (عليه الصلاة والسلام) . . .

: : :

: لكن الوضع بالنسبة الى النساء كان مختلفا : نص الحديبية عام ، لم يستثنهن من الشرط ، فهل تعاد مؤمنة الى زوج مشرك ؟ قد تتمسك قريش بعموم نص الهدنة .

وقد يكون من المهاجرات الى المسلمين ، من خرجت من قريش لاي سبب غير الاسلام ، كان تتخلص من زوج مشرك لا تحبه ، او تلحق بذي رحم لها بين المسلمين .

: وبدا الموقف معقدا حين جاءت نساء مهاجرات ، وشرط الحديبية قائم .

وحسم القرآن الموقف بآية الممتحنة : يمتحنهن الرسول ليعلم ايمانهن بأن يسألهن فيم جئن ، ويكتفى منهن بشهادة الاسلام دون تعرض لنواياهن ، فالامر فيها مفوض الى الله تعالى « هو اعلم بايمانهن ».

واباحت الآية للمؤمنين الزواج ممن فرق الاسلام بينهن وبين الكفار على أن يدفعوا لهن ما تكلفوا من نفقة وصداق .

: وكما لم يحل الاسلام ارجاع مؤمنة لكافر ، لم يحل للمؤمنين ان يمسكوا بعصم الكوافر ، لفساد الزوجية بين اثنين احدهما كافر والآخر مؤمن .

: مع تسوية عادلة للجانب المالي : فيسترد الذين فرق الاسلام بينهم وبين نسائهم ما تكلفوا من صداقهن ونفقتهن ، على وجه المساواة بين الطرفين .

« ذلكم حكم الله يحكم بينكم . والله عليم حكيم »

صدق الله العظيم

أبو لهب وأبو طالب

كلاهما من اعمام محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام . ومات كلاهما ، على دين آبائه .

وما ابعد الفرق بينهما ، رغم القربى والشرك ! احدهما ذهب بلعنة الله ورسوله والمؤمنين ، ولصقت به الكنية الرهيبة : « ابو لهب » تبت يداه .

والاخر شرف في تاريخ الاسلام بان ارخت السيرة النبوية بعام وفاته ووفاة السيدة خديجة ام المؤمنين الاولى ، فسمته عام الحزن .

بلغ رسول الله ﷺ رسالة ربه ، وانذر عشيرته الاقربين كما امر ، ثم ترك لكل منهم ان يختار لنفسه الطريق .

وقد اقام عمه « حمزة بن عبد المطلب ، على الشرك زمنا ، لم يكرهه المصطفى على دينه ، حتى آمن من تلقاء نفسه .

واختار « عبد العزى بن عبد المطلب » دين آبائه ، ثم مضى على غلوائه يؤذي المسلمين ويحرض على اذاهم . والقى بكل ثقله في الفتنة والاضطهاد ، فما عرف الناس هاشميا اشد عداوة للاسلام واقسى على المسلمين وطأة ، من عبد العزى ابي لهب . وقد بلغ من ضراوة عدوانه ، ان كان يحض تجار مكة على ان يغالوا في السعر على اصحاب محمد ، في محنة الحصار والمقاطعة ، حتى لا ينالوا منهم شيئاً . يرجع التجار إلى أبي لهب فيؤدي لهم ثمن البضاعة مضاعفاً ويرجع أصحاب محمد إلى عيالهم وليس بأيديهم ما يدفعون به عنهم قسوة الجوع والبرد .

وحقت اللعنة على أبي لهب ، بما صد عن سبيل الله وما قاتل المؤمنين وأخرجهم من ديارهم وظاهر على إخراجهم .

وفيه ، وفي أمرأته أم جميل بنت حرب ، نزلت سورة المسد :

« تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وأمرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد » .

على النقيض تماما ، كان موقف اخيه : ابي طالب بن عبد المطلب .

بقي على دين آبائه ، لكنه ابي ان يخذل ابن اخيه او يقبل عليه مساومة من قريش . وظل الى اخر لحظة من عمره ، يمنعه من بغى طواغيت قومه ويحميه من اذاهم ، ما وسعه الجهد .

وقد طالت مفاوضاتهم معه وطالت المساومة ، ليكف ابن اخيه عن دعوته او يخلى بينهم وبينه ، فما استجاب .

جاءوا اول الامر فقالوا :

ـ يا أبا طالب ، ان ابن اخيك قد سب الهتنا وعاب ديننا ويسفه احلامنا وضلل اباءنا . فاما أن تكفه عنا واما ان تخلى بيننا وبينه ، فانك على ما نحن عليه من خلافة .

فترفق بهم أبو طالب وردهم ردا جميلا ، عساه ان يكف اذاهم عن ابن اخيه .

واذ مضى المصطفى على تبليغ رسالته ، عاودوا الكلام مع عمه فقالوا :

ـ يا أبا طالب ، ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وانا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب الهتنا ، حتى تكفه عنا او ننازله واياك في ذلك حتى يهلك احد الفريقين .

ولم يهن عليه خذلان ابن اخيه . لكنه خاف عليه من شر قومه ، وعظم عليه فراقهم فقال للمصطفى :

ـ يا ابن اخي ، ان قومك قد جاؤ ني فقالوا لي ما قالوا ، فأبق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الامر ما لا اطيق .

فظن عليه الصلاة والسلام ان عمه يوشك ان يخذله . او انه قد ضعف عن نصرته . فقال له :

« يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ، ما تركته ».

وقام ينصرف ، وقد استعبر باكيا لم يملك دمعة من فرط حزنه على فراق عمه الذي كفله صبيا ورعاه شابا ، وكان له على اختلاف الدين والدا وصديقا وراعيا .

لكن عمه لم يلبث ان ناداه :
ـ أقبل يا ابن اخي .
فلما اقبل عليه ، قال له :

ـ اذهب يا ابن اخي فقل ما احببت ، فوالله لا اسلمك لشيء ابدا . .

: واذا ايقنت قريش الا سبيل الى خذلان ابي طالب ابن اخيه ، تعلق رجاؤ ها بان تساومه ، ولدا بولد ! مشوا اليه بعمارة

بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، فقالوا له :

ـ يا ابا طالب ، هذا عمارة بن الوليد ، انهد فتى في قريش واجمله فخذه ، فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك . واسلم الينا ابن اخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه احلامهم ، فنقتله ، فانما هو رجل برجل .

رد أبو طالب وقد ادرك ان قومه اضاعوا رشدهم :

ـ والله لبئس ما تسومونني ! اتعطونني ابنكم اغذوه لكم ، واعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله مالا يكون ابدا .

: ثم كان هو الذي دعا بني عبد المطلب وآل هاشم ، ليمنعوا محمد ابن عبد الله ويقوموا دونه .

انهكتم قريش بحلف المقاطعة المشئوم ، وابوا مع ذلك ان

● ● ●

أنهكتهم قريش بحلف المقاطعة المشئوم ، وأبوا مع ذلك أن يخذلوه أو يسلموه .

وحين اشتكى أبو طالب في مرض الموت ، خيل لقريش انها تستطيع أن تنال في منه في وهن مرضه ما لم تنله في صحته من خذلان إبن أخيه . جاءه وفد من طواغييها فقالوا :

ـ يا أبا طالب ، انك منا حيث علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك . وقد علمت الذي بيننا وبين إبن أخيك ، فأدعه فخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه .

وبعث أبو طالب إلى المصطفى فجاءه وسمع من القوم ما أرادوا أن يقولوه ، ورد عليهم بأن ليس بينه وبينهم إلا كلمة واحدة ، لا إله إلا الله . فانصرفوا يائسين وهم يقولون : اجعل الإلهة إلَهاً واحداً ؟ ان هذا لشيء عجاب !

وقال أبو طالب : والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً .

فتلهف المصطفى على إسلام عمه ، وجعل يدعوه : « أي عم فأنت فقلها ، استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » .

ورد عمه : يا إبن أخي ، والله لولا مخافة أن تظن قريش اني انما قلتها جزعاً من الموت ، لقلتها ، لا أقولها إلاّ لأسرك بها !

في الخبر ، أن « العباس بن عبد المطلب » نظر إلى أخيه أبي طالب يحرك شفتيه ، قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، فأصغى إليه بأذنه ثم قال للمصطفى عليه الصلاة والسلام : يا إبن أخي ، والله لقد قال أخي الكلمة التي سألته أن يقولها .

فرد عليه الصلاة والسلام : لم أسمع !

ومات أبو طالب ، ومن قبله ماتت أم المؤمنين الأولى .

وكتب إبن هشام في [السيرة النبوية] من روايـة إبن اسحاق ، يؤرخ لعام الحزن ، قبل الهجرة بثلاث سنوات :

« ثم أن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكاً في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صديق على الاسلام ، وبهلك عمه أبي طالب ، وكان عضداً وحرزاً في أمره ، وناصراً على قومه . . فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تطمع به في حياة أبو طالب . . وكان يقول : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » .

نور الكلمة !

في ليلة القدر ، نزلت الكلمة الاولى من الوحي ، فنسخت بنورها ليل الجاهلية البشرية ، ويبدأ بهذه الكلمة عصر الانسان .

في الليل ، كان « محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي » قد انسحب من زحام المجتمع المكي ، الى غار حراء يلتمس في العتمة الداجية شعاعا من الهدى ، وينشد في خلوته راحة اليقين ، كما لون عادته منذ ان انكر الاوثان التي تكدست في حرم البيت العتيق .

وخرج مع الفجر من غار حراء ، مبعوثا بختام الرسالات .

واخذ ﷺ طريقه الى بيته في جوار الحرم ، ليتلو في الناس الكلمة التي وجهت تاريخ الانسانية على مسار الزمان .

خرج من الغار ونور الكلمة ملء قلبه ومسمعه :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق » وما كان بقارىء ،

ولا كان من قبل يدري ما الكتاب وما الايمان . . ولطالما اجهدته حيرة التفكير في امره وامر قومه :

يراهم على سفه وضلال ، ولكن ، من سواهم من اصحاب الملل الاخرى ، على حق وهدى ؟

المجوسية ؟

وهل تفترق عن وثنية العرب ، وان لهب نارها ليسطع من معابد المجوس ، فيغشى ابصارهم ويعمى بصائرهم ، فينكفئون على وجوههم لها عابدين . .

اليهودية ؟

ان في يثرب وما حولها من شمال الحجاز ، عصابات من يهود ، يزعمون انهم اهل كتاب ، وانهم ليعيثون في الارض فسادا ، ويستنزفون كل خيرها ، يؤمنون بقاءهم فيها بايقاد نار

الفتنة وسعير الحرب ، بين اهلها العرب : الاوس والخزرج . وقد طرأوا على المنطقة فارين من نقمة الرومان الساحقة ، مطاردين بلعنة خبثهم المدمر ، وأكلهم الربا ، وقتلهم الأنبياء .

النصرانية ؟

انه ليعلم ان فيها قسيسين اتقياء ورهبانا ورعين بررة ، فما بال اتباعها ، فيما يصل الى الحجاز من انباء نجران والحيرة والحبشة ومصر ، قد مزقتهم التفرقة المذهبية ، فبعضهم لبعض عدو ، وكل طائفة اخرى بالاكفر . .

وتجلى نور الكلمة :

اقرأ باسم ربك الذي خلق »

فعرف ربه الخالق ، واهتدى بعد طول قلق وحيرة . .

« خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم ».

الكلمة موجهة الى الانسان نورا وهدى ، وبينات من الفرقان .

وهل سواه من يقرأ ويقي .

هو وحده ، دون سائر الكائنات في ارض أو سماء ، الذي

يختص بالقراءة ويعرف القلم ، ويتعلم ما لم يكن يعلم .

وهذه هي آية الانسان ، بها اكرمه الخالق .

وبها يتميز ، لا عن عامة الكائنات فحسب ، بل عن عموم جنسه في الحيوان على اختلاف انواعه وفصائله ، وتفاوت رتبتها .

كل البهم والدواب والحشرات تشترك معه في حيوانيته النامية الاكلة للقوت المحتاجة الى النوم والمأوى .

وكلها على الاطلاق : من ذكر وانثى ، وبقاء نوعها ، مثله ، بالتزاوج والتوالد . . هو وحده ، هذا الانسان ، القارىء المفكر المتعلم ، الناطق الواعي المبين !

ومن ليلة القدر

الى عصر القمر وعصور تاتي بعده ، تظل هذه هي آية الانسان وجوهر انسانيته الناطقة ، اذا تعطلت فيه بجهل وغفلة ، او ضلال وعمى بصيرة ، مسخت انسانيته وهبط الى دونية الدواب العجماء ، بل هو شر منها واضل :

ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »

« لهم قلوب لا فقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان

لا يسمعون بها ، اولئك كالانعام بل هم اضل ، اولئك هم الغافلون ».

لان الدواب لم تتهيأ لها القدرة على القراءة والفقه والوعي ، ولا هي بحيث يمكن ان تعرف العلم فتسأل عن تعطيله بالغفلة والجهل .

وللانعام قلوب واعين وآذان لكنها فيها اجهزة عضوية فحسب اما في الانسان ، فهي وسائل فقه وبصر وقراءة وعلم ، ونطق وتمييز . .

من غار حراء تجلى نور الكلمة في غشية الجاهلية والعصر كله عصر بداوة . .

وبها استهلت آيات « تاب » ومعجزة النبي الامي المبعوث بختام رسالات الدين ، والقوم اميون لا يدرون ما الكتاب وما الايمان .

وعلى نور الكلمة ، بدأ عصر هذا الانسان الذي اقتحم بالعلم غيابة الفضاء ، وحقق آية انسانيته فيما سخر له الخالق :
كل ما في السموات وما في الارض .
وصدقت آيات الله فينا :

« هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته

ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ».

اصر الكهنوتية

من تحرير القرآن الكريم لعقيدة الانسان ، ابطال الكهنوتية التي تسلطت على العقيدة الدينية بالقهر والتحكم ، بما اخذت من صفة الوساطة بين العبد وخالقه ، وما ادعت من حقوق الهية تمنح بها صكوك الغفران ، او تصدر قرار التكفير والحرمان .

وفي كتاب الاسلام لا وسيطين العبد وخالقه ، وهو سبحانه « الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ».

« واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ».

كما ليس لاحد ان يوزع بطاقات محجوزة لدخول جنة او نار ، او يحدد لمخلوق مكانه من الدار الاخرة فالله تعالى هو الذي يدري وحده اين يضع رحمته .

يقول سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن اهتدى ».

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ، ان ربك هو اعلم بمن ضل سبيله وهو اعلم بالمهتدين .

ولعل عداء بعض المذاهب المحدثة للدين ، انما نشأ اصلا بسبب ما انتحلته الكهنوتية في الناس من سلطة الهية بررت باسم الدين البغى والاستغلال ، وهادنت الرجعية والفساد والطغيان ، واستنزفت اموال المؤمنين الكادحين ثمنا للمغفرة او فدية من غضب الله .

وهو داء ابتليت به البشرية من قديم ، وزاده عبدة المال من احبار يهود ضراوة نبه اليها كتاب الاسلام ليرفع عن المؤمنين اصر الكهنوتية والاغلال ، ويكشف عن بصيرتهم الغطاء فترى ما وراء الاقنعة من شر وباطل :

يا ايها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

ومن عجب ان حركة الاصلاح الديني التي دعا اليها « مارتن لوثر » تاثرت بمبادىء الاسلام في ابطال سلطة الكهنوتية والغاء صكوك الغفران .

ثم يكون من بيننا من يمارس في امة الاسلام هذا الحق المزعوم ، فيدعى لنفسه وصاية على الجنة والنار ، وينتحل من سلطة الغفران والحرمان ، ما استاثر به الله سبحانه ، لم يعطه احدا من رسله فضلا عن ان يعطيه غيرهم ، وما يدري احد موضعه من رضوان الله او غضبه :

فينا كتاب الاسلام ، يؤكد عقد الامر كله بمشيئة الله وحده ، سبحانه : « يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ».

ويفسح امام عباده الامل في عفوه ، دون وساطة او وكالة ، ويحميهم من القنوط من رحمته مهما يسرفوا على انفسهم : « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ».

فينا كتاب الاسلام ، نتلو من آياته المحكمات كلمات الله لرسوله المصطفى :

« فذكر انما انت مذكر . لست عليهم بمسيطر ».

« وكذب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل ».

« قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وما انا عليكم بحفيظ ».

« اتبع ما اوحى اليك من ربك الا اله الا هو ، واعرض من المشركين . ولو شاء الله ما اشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظا

وما انت عليهم بوكيل ».

فهل كان على الرسول الا البلاغ ؟

كرامة القلم
وايمان الكاتب

ذكر الله عباده بنعمه القلم التي جعلها احدى آياته في قوله تعالى « اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » واقسم به تعالى في قوله « ن . والقلم وما يسطرون ».

ولا يذكر الله الا بنعمة جديدة انعم بها على الانسان ولا يقسم الله عز وجل الا بامر خطير ، له في حياة عباده ابلغ الاثار . فاذا نحرى الكاتب الصدق فيه تخط يمينه جرت مع القلم آثار العلم ونفحات الايمان . فعظمت الفائدة ، وتحققت رسالة القلم في نفع العباد ، وهدايتهم الى طريق الهدى والرشاد .

وما تخطه الاقلام انما هو صورة لما تنفث صدور اصحابها مما كن في اعماقها ، وما انطبعت عليه سجاياهم وذلك مصداق القول المأثور ان الاسلوب هو الرجل .

حتى ا الالفاظ المختارة والعبارات المؤلفة تبدو فيها طوابع اصحابها واخلاقهم ، ولهذا كان الكبار الكتاب طرائقهم في الكتابة ، واساليبهم المتميزة في التعبير .

ومعنى ذلك ان نوازع النفس تجد سبيلها الى المداد الذي يجري على القراطيس ، ليعكس عليها اثار العالميات ونوازع النفوس ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، وهنالك مقياس من اهم المقاييس عند النقاد يقدرون على اساسه صناعة الأدب وصناع الكلام ، وهذا هو مقياس « الصدق » في التعبير عن المشاعر والعواطف والانفعالات التي يحسها الكاتبون ، ويصدقون في التعبير عن انفسهم ومشاعرهم .

ومن هنا تستشعر الاقلام حاجتها الى ايمان اصحابها بما يكتبون وصدقهم في التعبير عن ذلك الايمان ، لان لذلك اثره في تصديق الناس لما يكتب الكاتب ، وفي تقبلهم لما يقول ، وذلك يؤدي الى الثقة به ، والى سمو منزلته ، وارتفاع قدره بين الناس .

والايمان هو سلامة الاعتقاد ، واطمئنان القلب الى ما تكشف له من اسباب الايمان . ومعنى ذلك ان الرأي هو الذي يمثل عقيدة صاحبه وان هذه العقيدة هي التي تنسج الرأي وتوجهه وتجليه ، وهي التي تمنحه بعد ذلك صفة الثبات والاستقرار .

اما الرأي الذي لا يرفده اعتقاد ولا يعضده ايمان ، فلا يوصف الا بانه شقشقة لسان ، وتنسيق الفاظ ، وتزوير كلام ، ولا يستساغ وصفه بالرأي ، لانه فقد صلته باليقين في نفس صاحبه ، قبل ان يفقد اليقين في نفوس الناس .

وقد يكون لفقد اليقين علامات منها انك ترى في احاديث اللسان او القلم التي تنبع من القلب ، ولم تنبعث من اعتقاد ان القول يهدم في اخره ما حاول أن يبنى في اوله ، وينقض في حديث لاحق ما اراد ان يبرم في حديث سابق ، لانه لا عبرة عند صاحبه بحقيقة يتحراها ، او اعتقاد يدفع الى القول ، ويشد نواحيه بعضها الى بعض .

ومن علامات ذلك ايضا ان يختلف منطق القول عن منطق العمل ، لانه لا قيمة للايمان من غير العمل الذي يدل عليه ويؤكده ، فكأن الكاتب حينئذ يحاول ان يدون ما يعجب الناس او ما يظن انه يعجبهم ، من غير ان ينبع ذلك الاعجاب من ذاته . وهذا هو السر في ان اكثر ما يقرأ الناس وما يسمعون لا يقع من قلوبهم الموقع الذي يلائم بلاغة العبارة وفصاحة الاسلوب ، لان ذلك لم يجاوز حدود الصناعة التي تدرب عليها الكاتبون او المتكلمون . وذلك شعبة من النفاق الذي كرهه الله عز وجل ، وكبر عنده مقتا ، فقد كان الرجل يجيء الى النبي ﷺ ، فيقول : فعلت كذا وكذا ، وما فعل ، وكان يقول قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ، ولم يطعن ، وصبرت ، ولم يصبر ، فانزل الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لم تقولوا ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » !

ان نظرة واحدة الى كثير من الكتابات توقفنا على أن الكتابة ـ

وهي صناعة شريفة ـ اصبحت حرفة ممتهنة ووسيلة الى كسب الخير ودفع الضر وستر النفاق بقدرة اصحاب هذه الصناعة الشريفة على التقلب بين المبادىء والتنقل بين الموارد :

عندئذ يصبح القلم اداة للكذب والتمويه فيحيد عن الغاية المرجوة ويتنكب الطريق السوى .

ولذلك كان الصالحون يتحاشون كثرة الكلام إلاّ إذا كان صادرا عن طبع وإيمان ، لأنهم لا يريدون به إلا وجه الله ، ولا يعنيهم أحد سواه .

نظرات اسلامية

ليلة القدر

١ ـ لم سميت هذه الليلة ليلة القدر اختلف اهل العلم في تعليل تسميتها بذلك : فقال بعضهم ان القدر معناه التقدير وما يمضيه الله من الاحكام الخاصة باحوال العباد . واحداث الكائنات ، فهذه الليلة ليلة تقدير الامور والاحكام ، روى عطاء عن عباس ان الله يقدر في هذه الليلة كل ما يكون في تلك السنة من مطر ورزق واحياء واماته الى مثلها في السنة الثانية : وليس المقصود ان الله ينشىء تقدير الامور والاحكام في تلك الليلة انشاء بل المقصود ان الله يظهر الملائكة على ذلك في اللوح ال المحفوظ ليعلموا عالم الدنيا بمقتضى تسخيرهم في تصريفه وانفاذه .

اما بدء تقدير امور الخلق واحكامهم فقد كان سابقا في الازل من قبل ايجاد الخلق بخمسين الف سنة ـ كما وردت بذلك بعض الاحاديث : والتقدير بخمسين الف سنة ليس جدا نكنه ـ في نظرنا ـ تعبير عن طول المدة المتعاظم الوجود في باطن الازل .

وقال « الزهري » المراد بالقدر : الشرف والعظم ، ماخوذ من قولهم لفلان في عشيرته قدر ، اي مكانة وشرف فهذه الليلة ذات قدر وشرف بين الليالي .

قال ابو بكر الوراق : انما سميت ليلة القدر : لانه انزل فيها كتاب ذو قدر ، على لسان ملك ذي قدر ، على امة ذات قدر .

والقدر ـ فيما ذهب اليه « الزهري » اما ان يكون راجعا الى صاحب العبادة فيها فيكون عمله بالعبادة فيها سببا لزيادة شرفه وقدره بمزيد رضوان الله عليه : واما ان يكون راجعا الى العبادة نفسها . بزيادة الاجر والثواب على فعلها .

في هذه الليلة خاصة دون سائر الليالي . الحاصلة في سير الزمان وهذا في نظرنا الاقرب لما تدل النصوص الاتية ـ

وقد اخفى الله تعيين ليلة القدر هذه ـ ليجتهد الطالب في العبادة بطلبها فيتسع له ليالي العبادة وتزداد له اسباب الطاعة كما اخفى لمثل هذا السبب كثيرا من مواطن الخير والابتلاء فاخفى رضاه في الطاعات ليرغبوا في الكل ، واخفى غضبه في المعصية

ليحرزوا عن الكل ، واخفى وليه في الناس ليعظموا الكل ، واخفى الصلاة الوسطى ليحافظ المكلفون على سائر الصلوات . فكذلك اخفى تعيين ليلة القدر ليعظم المسلمون كل ليالي رمضان باحيائها واجتناب المجازفة في تصرفاتهم فيها .

٢ ـ موضوع ليلة القدر من ليالي العام .

اولا : اختلف اهل العلم فيها اذا كانت ليلة القدر باقية للمسلمين مع امتداد الزمان في كل عام ـ ام انها وجدت مرة واحدة لسبب نزول القران وانقطعت فهي لا تكرر .

فذهب الخليل بن احمد ـ الى القول بأن فضلها انما كان لفضل نزول القرآن فيها ، ثم انقطعت بانقطاع تكرر نزول القرآن في مثلها من الليالي .

وذهب جمهور العلماء الى انها باقية متكررة بتكرر الاعوام ، ثم اختلف هؤلاء ثانيا ، في تعيين موضعها من الزمان فروى عن « ابن مسعود » انها موجودة بغير تعيين على مدار السنة : وقال : من يقم الحول يصبها .

وذهب الجمهور الى انها مختصة بشهر رمضان « بدليل قوله تعالى » شهر رمضان الذي انزل فيه القران « مع قوله انا انزلناه في ليلة القدر فتعين ان تكون ليلة القدر التي انزل فيها القران هي من شهر رمضان : وهو الظاهر الذي يصعب العدول عن المصير اليه .

ثم ان هؤلاء ـ ايضا ـ اختلفوا في اقوالهم اختلافا ثالثا .

وقال ابن رزين : ليلة القدر هي الليلة الاولى من رمضان : ولعل حجته في ذلك ـ مما استطعنا استخلاصه من كلام المحتجين له ـ ان رمضان افضل الشهور وان ليلته افضل الليالي لما روى وهب بن منيه : ان صحف « ابراهيم » انزلت عليه في اليوم الاول من رمضان : وهو ـ كما ترى ـ دليل لا يغني :

وقال الحسن « ـ رضي الله عنه انها ليلة السابع عشر من رمضان لان صبيحتها كانت غزوة بدر .

قال تعالى :

انا انزلناه في ليلة القدر وما ادراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من الف شهر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر سلام هي حتى مطلع الفجر

صدق الله العظيم »

وعن انس ـ رضي الله عنه ـ انها ليلة التاسع عشر : ويحكى عن علي وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ وقال محمد بن اسحق : « هي الليلة الحادية والعشرين ».

وعن ابن عباس ليلة الثالث والعشرين . .

وعن ابن مسعود هي ليلة الرابع والعشرين .

وقال ابو زر الغفازي هي ليلة الخامس والعشرين .

وقال ابي بن كعب وجماعة من الصحافة : هي ليلة السابع والعشرين ـ وهو القول الذي استقرت على العمل به عامة المسلمين اليوم .

ولعل اقرب الاقوال الى مرجاة العبد في فضل الله ـ غير ما ذكرنا من الاقوال هو مانبه اليه « ابن كثير » من انها ـ ليلة القدر ـ حاصلة في كل ايام رمضان مستشهدا لذلك بما رواه سعيد بن جبير عن عبد الله بن عمر مرفوعا . قال : سئل رسول الله ـ ﷺ وانا اسمع عن ليلة القدر ، فقال : « هي في كل ايام رمضان قال « ابن كثير » اسناد رجاله ثقات ، غير انه نقل عن ابي « داود » القول بوقفه : ونقل عن ابي حنيفة ما يوافق هذا القول : وقوله : انها ترتجى في كل شهر رمضان .

٣ ـ عظم ليلة القدر .

تعظيم ليلة القدر . هل هو مستمد من نزول القران فيها . نقول نعم ولكن كيف يكون القران معظما بانزاله فيها ـ ولا عظمة لها الا بسبب احتوائها على هذا الانزال ، هذا ما لم ينتبه لذكره العلماء والذي يظهر لي في كشف هذا الاستدراك ، ان الله من اجل عظمة القران اضفى على هذه الليلة تعظيما خاصا بها من لدنه فلم تكن عظمتها مستمدة من القران بحكم المجاورة بينهما

في الزمان : وبهذا الايضاح يمكننا ان نتصور : ان ليلة القدر معظمة بانزال القرآن فيها والقران معظم بنزوله فيها : واحد الامرين ليس متوقفا على الاخر : مرة اخرى نقول لان عظمة القران قائمة بذاته استقلالا وعظمة ليلة القدر قائمة بها استقلالها ـ وان كانت اعطيت هذه العظمة من الله اعظاما لجلال القران .

٤ ـ عناصر عظمة ليلة القدر وعظمة القران .

وقد عظم الله ليلة القدر هذه بوجوه من التعظيم .

الوجه الاول : اختيار صيغة الكلام التي دل بها الخطاب على انزال القران حيث قال « انا انزلناه في ليلة القدر » ففي هذه الدلالة النص على عظمة القران : لانه تعالى اضاف « الانزال » الى ذاته بصيغة الجمع الدالة على وصف المنزل بالعظمة . واذا كان المنزل عظيما . فالقران المنزل بفعله يكون عظيما بعظمته ثم انه تعالى لم يصرح باسم القران ظاهرا بل اكتفى بذكر ضميره فقال « انا انزلناه » ـ اي القران : والاعتماد على تعريف الشيء بضميره ـ لا باسمه الظاهر دال على ان هذا الشيء قد بلغ غاية النباهة والشهرة ، والمعلومية العامة بحيث اذا ذكر ضميره ـ مع الاستغناء به عن الافصاح باسمه الظاهر انصرفت اليه الاذهان اذ لم يكن عندها ما هو اشد تقررا وشموخا غيره ثم ذكر انه اختص انزاله بليلة القدر فهذه اية شرف ليلة

القدر وعظمتها ـ اذا لو لم تكن كذلك لم تكن الاشارة الى تعظيم القران بنزوله فيها فائدة تقتضي النص على ذكرها . ووصفها بما سياتي بعد .

والمراد بانزال القران فيها . . هو ابتداء انزاله في ليلة القدر . وليس المراد انزال جميع القران : اذ من المعلوم ان القران نزل منجما بحسب الحوادث على مدى ثلاث وعشرين سنة قاله « الشعبي » .

ليلة القدر

وقال ابن عباس المراد : انزال القران كله من بيت « العزة » الى السماء الدنيا ولما كانت السماء الدنيا بناء مشتركا بيننا وبين الملائكة : اذ هي لهم مسكن ولنا سقف : جاز القول بنزوله الينا لقربه منا ـ كما تقول حضر الامير البلد ويكون قد حضر قريبا منها قربا كانه دخلها .

ورأى الشعبي عندنا احب واظهر . الوجه الثاني : انه كرر الحديث عن ليلة القدر بعبارة تفيد ان سير ابعادها في العظمة والشرف ، مما يوكل الى تصورات الاذهان في انطلاقها في اماد الرؤى . والخيال : فليس فضلها مما يعبر عنه بالالفاظ ذات المعاني المحدودة : قال « وما ادراك ماليلة القدر « اي ما ابعد الاسباب التي تمكن لخيالك وتصورك ادراك حقيقة فضل ليلة

القدر وعظمها فذلك ما يصعب دركه وزاد هذا المعنى بشيء من الايضاح بقوله « ليلة القدر خير من الف شهر ».

٥ ـ تفضيل فضل ليلة القدر .

اخبر القران ان ليلة القدر خير من الف شهر : معناه ان العبادة فيها اكثر ثوابا من العبادة في الف شهر ومعناه ايضا ـ ان ليلة القدر خير من الف شهر ليس فيها « ليلة قدر » لاننا لو افترضنا عكس ذلك ، لادى الكلام الى الحكم بتفضيل الشيء على نفسه في شروط متحدة ـ وهو ممتنع عقلا واختلف الناس في سبب عطاء الامة المحمدية هذه الليلة التي هي خير من الف شهر .

فقال « مجاهد » كان في الامم المتقدمة رجل يقول الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسى : فعل ذلك الف شهر فتعجب رسول الله والمسلمون معه من ذلك : فانزل الله هذه الاية تنبيها على ان الله جعل له ولامته هذه الليلة خيرا من الف شهر ذلك العابد الذي استقللتم عبادتكم بالنسبة له .

وقال مالك : ارى رسول الله اعمار الناس فاستقصر اعمار امته : فخاف ان يبلغوا من الاعمال ما بلغته الامم الاخرى : فاعطاه الله ليلة القدر ـ وهي خير من الف شهر لسائر الامم وروى القاسم بن فضل « عن عيسى ابن مازن » قال قلت للحسن بن علي . عليه السلام ـ عمدت الى هذا الرجل فبايعت

له ـ يعني معاوية ـ فقال ان رسول الله ـ ﷺ ـ « رأى في منامه بني امية يطأون منبره واحداً بعد واحد ، وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة »

فشق ذلك عليه : فانزل الله تعالى : « انا وانزلناه في ليلة القدر » ـ الى قوله ـ خير من الف شهر » يعني زمان ملك بني « امية » : قال القاسم « فحسبنا ملك بني امية فاذا هو الف شهر ».

ولعل هذا الحديث مصنوع من دموع احباب السادة الاطهار من ال بيت المنفجعين على مظالمهم ، وماسيهم : ولا حلة له بالسورة .

الوجه الثالث : اخبر القران ان من فضائل هذه الليلة انه « يتنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر . والمراد : يتنزل الملائكة فوجا بعد فوج بعضهم نازلون . وبعضهم بعد استيفاء دورهم عائدون الى السماء : وانما يتنزلون لتحية اهل الارض في العيد السنوي الالهي لنزول القران العظيم والمراد بـ« الروح » ـ جبريل عليه السلام ـ لقوله تعالى في اية اخرى « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين »: وانما خصص جبريل بالذكر بين عموم الملائكة في هذا المقام لخصوصية اتصاله بالقران فقد كان هو السفير الامين القوي المكين عند ذي العرش ـ كما وصفه القران بذلك الذي نزل به

على قلب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو اولى الذوات بالاعلام في حضور الاحتفال ب بعيد القران الذي سفر به بين السماء ، والارض ولعله ـ ايضا ليطمئن على هذا المنشور الالهي الاعظم الذي اصلح الدنيا في بكرة نزوله . ويرى ما يتجدد له على مر الزمان ونكوص نفوس المسلمين عنه ـ من احوال واحداث عطلت طريقه في الناس ـ وردت البصائر عن نور هدايته :

وخص القران نزول الملائكة بحصول الاذن لهم من الله بذلك ـ للتنبيه على أن الملائكة وهم لا يفعلون الا ما يؤذنون فيه ـ كانوا على شوق ومحبة للقاء المسلمين في هذا اليوم وانما كانوا يتطلعون للاذن المسوغ لافواجهم المتتالية ان نزل لتحية اهل القران في عيد القران : وهم ينزلون بذلك الاذن من اجل تنفيذ كل امر من امور القدر واحكامه التي اظهرهم الله عليها في تلك الليلة من خير او شر ـ كما قدمنا لك ـ في معنى القدر من كلام ابن « عباس ».

الوجه الرابع : ما وصفت به من قوله تعالى : « سلام هي حتى مطلع الفجر وذكر المفسرون في شرح تلك اللفظة اقوالا :

احدها بان ليلة القدر من ابتداء ليلها الى مطلع فجرها ظرف يفيض بالسلام من الملائكة على المؤمنين مع كثرتهم وترادف افواجهم واعلم ان سلام الملائكة على البشر المؤمنين ذو منفعة

عظيمة لهم . لان التقاء الارواح الطاهرة الطاهرة القوية كارواح الملائكة بارواح البشر يزيدها طهرا . وقوة ، ويشفى امراضها ، ونقائصها .

وثانيها : وصف الليلة ذاتها بانها سلام اي هي سالمة من نزول الشرور والافات فيها حيث تنزل فيها الملائكة بالخير والبركات وانواع السعادات على الناس . ولم ينزل فيها من تقدير المضار شيء .

وثالثها : هي سلام لا يستطيع الشيطان فيها سوءا : وغير ذلك : والذي نراه من عمل المفسرين في هذه اللفظة : انه يمكن تفسيرها بما يشمل اقوالهم المذكورة ـ لانها تفسيرات بمعان غير متضاربة فلا يمتنع الجمع بينها تحت لفظ يناسبها جميعا .

ثم ينتهي الاحتفال الالهي العظيم بالقران العظيم بطلوع فجر هذه الليلة العظيمة . مع ايات السلام وبنعمة السلام لعامة المسلمين .

وقل الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى .

الاسلام
. . والاقتصاد

الاقتصاد في عصرنا الراهن هو المحور الذي تدور حوله حياة الافراد والشعوب ، بل ان المثل العليا ـ التي تسود هذا العصر ان

تميزت بشيء فذلك انها ترتكز على مذاهب اقتصادية ومهما اختلفت في وسائلها فانهاتتحدفي غاياتها التي هي ـ اولا واخيرا ـ الرفاهية الاقتصادية .

ولقد اثبت النظام الاقتصادي في الاسلام انه يتصدر كل النظم الاقتصادية ، انه اعطى الحضارة العالمية كل مقوماتها واعظم النتائج الاقتصادية السليمة المربحة ، التي وطدت الثقة في نفوس المتعاملين والجماهير ، فهو أكثر النظم فائدة ورخاء وخيزاً للمجتمعات والشعوب ، يقول جاك اوستروى في كتابه « الاسلام امام التطور الاقتصادي » الذي نشر عام ١٩٦١ في باريس ـ ص ١١٢ ـ ان الاسلام يم يتمتع بامكانيات هائلة ، واذا ما وجد الطريق الصحيح امامه مفتوحا فان كثيرا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده ، لانه اقدر على ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد » .

واذا كانت جوافز الربح وحدها هي اساس كل المحركات للاقتصاد الغربي ، فان المحرك الاول للاقتصاد في الاسلام هو الرغبة الصادقة في نشر الرخاء بين الناس ، وفي ازدهار التقدم والحضارة في العالم .

والاقتصاد الاسلامي انساني النزعة ، نبيل الهدف في غاياته وجوهره ، يقود المجتمع الى التكامل والخير والايثار والمسئولية ، وتقرير الحقوق والالتزامات المتساوية بين الناس .. وتؤكد

نظرية الاسلام في الاقتصاد ان الرابطة بين المصلحة الفردية والجماعية وثيقة من حيث فطرتهما ، فمن الواجد ان تسودهما المعاونة والموافقة لا الممايعة والمزاحمة ، ففي رفاهية الفرد رفاهية الجماعة ، والعكس بالعكس . وهذه الموازنة العادلة اساسها ان يكون بين ايثار الافراد واثرتهم تناسب سليم متزن . ومن ثم جمع نظام الاقتصاد في الاسلام شمل الامة كلها في نطاق نبيل من المحبة والاخاء والتعاون والعمل المثمر والحرية الفردية ، من اجل تقدم الانسان وتجدد الحضارة . .

حسبنا ان لا نجد في مذاهب الاقتصاد العالمية اية فلسفة خاصة تفوق نظرة الاسلام الى الامور الانسانية فلقد جاء باحكام نبيلة تعترف بالملكية الخاصة وتهذبها بفرض الزكاة وتحريم الفائدة الثابتة وتضع قواعد العدالة الاقتصادية التي تكفل السلام بين الافراد والطبقات والشعوب .

وإذا كانت النظرية الغربية تقول : « من كل وفقاً لمقدرته إلى كل وفقاً للعمل المنجز » ، وتقول النظرية الشرقية « من كل وفقاً لمقدرته إلى كل وفقاً لحاجته » ، فإن عمر بن الخطاب يقول : « والله ما من أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه في الاسلام ، والرجل وقدمه في

الاسلام ، والرجل وغناؤه في الاسلام ، والرجل وحاجته » وهذا كلام واضح في إثبات المساواة الاقتصادية ، ثم في تحكيم الكفاية والمقدرة في نصيب الفرد من هذه المساواة ، ثم في الرجوع إلى مدى الحاجة البشرية المطلوب دفعها .

يقرر الاسلام منع الاحتكار وكنز الأفوال ، والاستغلال بدون عمل ، ويقرر أن يتداول المجتمع الثروة ولا تكون دولة بين الأغنياء ، ويجعل الدولة وبجوارها الجماعة ، مسؤولين عن توفير أسباب المعيشة لجميع رعاياها .

ولقد كان الناس في عصر الاستعمار يصفون تشريعات الاسلام بأنها تعوق المعاملات الاقتصادية ، ولا تسمح بتنظيم الشركات والمصارف ، ولم يمض جيل واحد حتى سمعنا أصحاب قوانين أخرى يصيحون بأن الرأسمالية نكبة على الانسانية ، وعائق من عوائق الحرية الكريمة والعمل النافع ، ثم سمعنا المعسكر الغربي يصف مذاهب المعسكر الشرقي الاقتصادية بأسوأ من هذه النعوت وأشد .

وإذا نادى آدم سميث في كتابه « ثروة الأمم » بأن الثروة مفهوم مادي خالص ، فإن سيسموندي (ـ ١٨٤٢ م) ينكر عليه ذلك ، أما الاسلام فيضع الثروة في خدمة الفرد والمجتمع والأمة ، وخدمة التقدم الانساني ، لنشر الرخاء ، وتوفير العمل وجعله حقاً لكل أحد ، وكفالة الدولة لجميع مرافق الأمة لخدمة .

الرعية ، في حرص شديد على العدالة والمساواة والتعاون والشعور بالمسؤولية ومساعدة الدولة لكل محتاج بقدر ما يسد حاجته ، والايثار وحب الخير والاحسان والصدقة للفقير وتوقير الفقير للغني ، وشعور كل منهما بالحاجة للآخر وبأخوته ، كل ذلك مما يحرك الاقتصاد الاسلامي نحو غاياته النبيلة .

وحين حرم الاسلام الفائدة ، وجاء النظام الاقتصادي الغربي الذي أرست دعائمه بيوت المال اليهودية تقررها ، فقد شاهدنا النازية ، وكذلك المادية الشيوعية أول الأمر ، تحرمان نظام الفائدة الربوية ، التي يجعلها كثير من الاقتصاديين السبب الجوهري في الاضطراب الاقتصادي الراهن ، وقد قامت بنوك للادخار على أساس المشاركة في الربح التي هي الأساس الأول في الاقتصاد الاسلامي فلقيت نجاحاً كبيراً ، وسيقوم قريباً بنك اسلامي برأس مال تسهم فيه الدول الاسلامية تحقيقاً للنظرية الاقتصادية في الاسلام ، ونظام المشاركة لا الفائدة يكفل النهوض باقتصاديات العالم من أجل سد احتياجاته من الانتاج والمشروعات وتحقيق العمالة الكاملة ، مع ارتباط ذلك كله بالجانب الروحي والانساني الذي يوليه الاسلام الكريم كل عنايته .

إن السند الاسلامي للنظام الاقتصادي يقوم على فريضة الزكاة وما يتصل بها من مصارف مالية موجهة في الاسلام نحو

الخير والمصلحة العامة ، كالمصروفات وكفريضة الأرزاق التي كان الخليفة عمر إبن الخطاب يطبقها تطبيقاً تاماً شاملاً ، بالاضافة إلى ما في الفقه الاسلامي من ثروة تشريعية في جميع جوانب الاقتصاد ، وكأحكامه في الشركات والمضاربة والاجارة والبيوع والرهن والوقف والمواريث والهبة والوصية وسواها ، وقد فرض الاسلام على كل مسلم أن يجعل لله حقاً معلوماً في ماله « والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » (٢٤ و ٢٥ المعارج) .

ويطيب لبعض المتجاهلين أن يطعن في شريعة الزكاة في الاسلام ، هذه الشريعة المحتومة التي جعلها أبو بكر في مقدمة الأسباب التي حارب المرتدين من أجلها . . ويكفينا للرد على ذلك ما جاء في كتاب « اتجاه الاسلام » لجب نقلاً عن ماسينيون المستشرق الفرنسي المعروف : « يمتاز الاسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة ، بمساهمة كل أفراد الشعب بالعشر في موارد الجماعة (الزكاة) ومبادىء الاسلام تبذل التبادل الغير المقيد ، كما تنادى بالعداء الأموال المصرفية (الربا) والضرائب الغير المباشرة على ضروريات الحياة ، في حين أنه شديد التمسك بحقوق الولد والزوج وبالملكية ورؤوس الأموال التجارية ، فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية والرأسمالية والشيوعية ، والاسلام كذلك كم قام بخدمات أخرى أداها للانسانية ، وله ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس

هناك مجتمع آخر مثل ما للاسلام من ماض كله نجاح في جمع كلمة الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات .

ان الاسلام يقف بين المذاهب الاقتصادية الكبرى الراهنة رسالة سماوية هادية فيها الخير للبشرية كافة ، ولم يكن الحاج عبد الكريم جرمانوس المستشرق المجري بأقل شعوراً بمسؤوليته حينما قال : « تأثرت أعمق التأثر ببساطة الاسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه . انه لا يوجد في تعاليم الاسلام كلمة واحدة ، أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من النور والمعرفة والقوة » .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

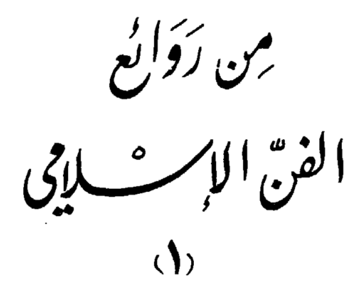
سلسلة مختارات إسلامية

من روائع الفن الإسلامي

(١)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية



دار الفكر اللبناني



مسجد الرسول في المدينة أبو المساجد

شرع الرسول في انشاء مسجده في المدينة لبضعة شهور من هجرته اليها ولم يستغرق انشاؤه وقتا طويلا ، فتم في نحو شهرين في العام الاول للهجرة ٦٢٢م ، ولم يكن هذا اول مسجد بناه الرسول ، فقد سبقه الى الوجود مسجد قباء الذي انشأه سعد بن خيثمة بناء على رأي الرسول وترسيمه ، وقد تم انشاء مسجد قباء واستعمل للصلاة فعلا بعيد انتقال الرسول من قباء الى منازل بني عدي بن النجار في وسط المدينة وقد افتتحه الرسول وصلى فيه مع صحابته ، وقد ورد ذكر هذا المسجد في القرآن الكريم في سورة التوبة .

استوحى الرسول الهيئة والخطة في بناء مسجده من روح الاسلام . فالاسلام دين سهل واضح ، وهو طريق بين العبد وخالقه . والمسجد ـ على هذا ـ مجرد مكان طاهر يلتقي فيه العبد بالخالق ، فهو مساحة نظيفة مستوية مطهرة يحيط بها سور وظيفته تعيين حدود ذلك المكان المطهر المخصص للصلاة ، ولم تكن هناك حاجة الى تغطية هذه المساحة بسقف ، فاكتفى بتسقيف

جزء منها ـ في مقدمتها ـ على نحو بسيط جدا : جذوع نخل نصبت صفين بموازاة الجدار الشمالي ، ثم غطى ما فوقها بعريش من خشب وسعف وغصون شجر . وفي الجهة المقابلة اقيم عريش مماثل . ولكن مساحة المسجد لم تكن صغيرة فكانت في اول الأمر ٧٠×٦٣ ذراعا ، وكانت جذوع النخل في كل من العريشين صفين ، في كل صف ستة جذوع ، ثلاثة على اليمين وثلاثة على اليسار ، ثم وسع المسجد ايام الرسول ، فاضيف اليه ١٠ اذرع في العرض و٢٠ في الطول ، وزيدت جذوع النخل او الاساطين اثنين في العرض واضيف صف ثالث منها في كل من الشمال والجنوب عند العريشين ، اي ان المساحة الكلية للمسجد كانت في السنوات الاخيرة ومن حياة الرسول ٥٦٧٠ ذراعا مربعا اي ٣٢٨٠ر٨٦ مترا تقريبا .

وفي الركن الجنوبي الشرقي لصحن المسجد ابتنى الرسول حجراته التي عاش فيها ذلك الحين وقد ذهب بعض الاثريين الى ان هذه الغرف بنيت خارج الجامع ملاصقة لجداره ، ولكن من الثابت ان ابواب حجرات الرسول كانت داخل المسجد الى يسار الداخل من باب ابي بكر ، ثم ان الغرف لم تكن لها ابواب ، وانما اسدلت عليها ستر تحجب داخلها عن الخارج ، وهذا لا يكون الا اذا كانت الغرف داخل سور المسجد .

وهذه قصة بناء هذا المسجد المشرّف كما رواها محمد بن مسلم بن شهاب الزهري .

بركت ناقة رسول الله ﷺ عند موضع مسجده ، وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين ، وكان مربدا لتيبيس الزرع لسهل وسهيل ، وهما علامان يتيمان من الانصار ، وكانا في حجر اسعد بن زرارة .

ثامنهما رسول الله ﷺ فيه ، فقالا : بل نهبه لك . يا رسول الله فابى رسول الله ﷺ حتىّ ابتاعه منهما بعشرة دنانير .

وكان جدارا ليس له سقف وقبلته الى بيت المقدس .

وجعل طوله مما يلي القبلة الى مؤخرة مائة ذراع ، وفي الجانبين مثل ذلك او دونه ، وجعل اساسه قريبا من ثلاثة اذرع ، ثم بنوه باللبن . وكان رسول الله ﷺ يبني معهم ، وينقل اللبن والحجارة بنفسه ويقول : اللهم لا عيش الا عيش الاخرة فاغفر للانصار والمهاجرة .

وجعل قبلته من اللبن ، وقيل من الحجارة ، وجعلها الى بيت المقدس .

- بني المسجد في العام الاول للهجرة (٦٢٢م) مقاييسه الاولى ٧٠ ذراعا طولا (١) في ٦٣ ذراعا عرضا . عريش القبلة - وهو بيت الصلاة - صفان من النخيل موازيان الجدار القبلة ، في كل صف ٦ جذوع نخل تقوم مقام الاساطين ، ٣ منها على اليمين و٣ على اليسار ، عريش الجدار المقابل للقبلة

(مقام اهل الصفة) مساو لعريش القبلة في الهيئة والمقاييس .

الزيادة في عهد الرسول :

زيد المسجد ١٠ اذرع في الشرق و٢٠ في الغرب .

وزيدت جذوع نخلة اي اساطينه واحدا في الشرق واثنين في الغرب .

جدده ابو بكر على نفس الهيئة . استبدل بجذوع النخل القديمة جذوعا جديدة سنة ١٢ هـ/ ٦٣٣م .

جدده عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ .

واستبدل بجذوع النخل اساطين من لبن ، وسقف العريشين بجريد ثم بخشب .

واوصى البناء بالا يحمر او يصفر ، حتى لا يفتتن الناس ، وزاد المسجد في الطول ، فقدم جدار القبلة ١٠ أذرع ، وكذلك مده من الناحية المقابلة ، فاصبح طول المسجد ١٣٠ ذراعا . ووسعه في العرض فاصبح ١٢٠ ذراعا .

جدد بناءه عثمان بن عفان تجديدا كاملا سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م وزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة اي المنحوتة ، وطلى الجدران بالقصّة اي الجبس ، وجعل عمده من الحجارة بدل اللبن . صارت مقاييسه : ١٦٠×١٣٠ ذراعا . وزاد في

ارتفاع جدران المسجد ، وفتح نوافذ في اعلى الجدار قرب السقف على اليمين والشمال في بيت الصلاة .

اعاد بناءه الوليد بن عبد الملك فيما بين سنتي ٨٨ و٩١هـ/ ٧٠٦ و ٧٠٩م ، وتم ذلك على يد واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز .

اعيد البناء على نفس هيئة المسجد التي كان عليها ايام عثمان بن عفان ، ولم يزد المسجد الا في العرض ، فاصبح ١٦٥ ذراعا ، ولكن البناء زاد جمالا ومتانة .

اعاد بناءه وزاد فيه المهدي ثالث الخلفاء العباسيين سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٨م . فزاد المسجد من ناحية الشمال نحو ٦٥ ذراعا ، وزخرفت المجنبة الخلفية (المقابلة لبيت الصلاة) بالفسيفساء .

وقد احترق هذا المسجد سنة ٦٥٤هـ ١٢٥٦م فاعاد السلطان الظاهر بيبرس بناءه على نفس هيئته السابقة ، وقد تم العمل على ايدي معماريين وعرفاء وبنائين مصريين ارسلوا لهذا الغرض .

وقد رمم المسجد المكرم واعيد بناؤه اكثر من مرة خلال العصرين المملوكي والعثماني .

ـ ثم اعيد بناء مسجد رسول الله ﷺ وسلم للمرة الاخيرة . واخذ صورته الجميلة الحالية في ايامنا هذه .

وهذا البناء الجديد ـ الذي جعل مسجد الرسول ﷺ آية من آيات فن العمارة العالمية في القرن العشرين فقد صدر قرار التوسعة الجديدة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود في شعبان سنة ١٣٦٨ الموافق يونيو ١٩٤٩ ،

ووضع حجر الاساس في ربيع الاول ١٣٧٣/ نوفمبر ١٩٥٣ .

وتم البناء في الخامس من ربيع الاول ١٣٧٥/ ٢٣ اكتوبر ١٩٥٥ في عصر الملك سعود بن عبد العزيز .

اصبحت مساحة المسجد ١٦٣٢٦ مترا مربعا ، اي بزيادة ٦٠٢٤ مترا مربعا على مساحته الاصلية .

وارتفاع المئذنتين في الجو ٧٠ مترا .

وتكلف البناء فوق خمسين مليونا من الريالات السعودية .

وقد استخدمت في البناء ارفع المواد واغلاها من المرمر والرخام الملون وغير الملون والاخشاب النفيسة والمعادن الغالية .

المساجد الجامعة الاولى

وهي اربعة :

ـ مسجد البصرة ، اختطه عتبة بن غزوان سنة ١٤هـ/

٦٣٥م ، وكان مجرد مساحة مسقفة بالقصب يقوم سقفها على عمد من جذوع نخل وخشب ، ولم يكن له جدار بل احاط به خندق .

ـ مسجد الكوفة ، اختطه سعد بن ابي وقاص سنة ١٥هـ/٦٣٦م او ١٧هـ/٦٣٨م . وكان في اول امره ايضا مسجدا من قصب ، وقد احاط بسور من قصب ايضا . اعاد بناءه باللبن زياد بن ابيه سنة ٥١هـ/ ٦٧٠م .

ـ مسجد الفسطاط ، اختطه عمرو بن العاص سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م ، وكانت مقاييسه الاولى ٥٠×٣٠ ذراعا .

وقد قام سقف بيت صلاته على عمد من جذوع نخل مسقفة بالخشب ، ولم يكن له صحن متسع .

وقد وسع هذا المسجد واعيد بناؤه ١٦ مرة والمبنى الحالي للمسجد حديث ، بني في اوائل العشرينات والصلة قليلة بين هندسته الحالية وهندسته الاولى .

ـ مسجد عقبة بن نافع في القيروان ، وهو أبو مساجد الجناح الغربي لمملكة الاسلام . بناه عقبة بن نافع عندما اختط القيروان بين سنتي ٥٠ و٥٥هـ/ ٦٧٠ و ٦٧٥م .

وقد جدد بناء هذا المسجد خمس مرات ، حتى وصل الى صورته الثابتة

غار حراء مسجد قبل الاسلام

والناس ـ في العادة ـ يبدءون تاريخ المساجد من المسجد الحرام ، فهو اول بيت وضع للناس ، وهو قبلة ابراهيم ابي الانبياء المسلم الحنيف . وهو اول مسجد قام فيه رسول الله ﷺ .

ولكن غار حراء هو مسجد الاسلام الاول دون شك .

هنا صلى رسول الله وتحنث وعبد الله قبل ان يتنزل عليه الوحي .

وفي غار حراء نزلت الآيات الخمس الاولى من سورة العلق ، وهي اول ما انزل من قرآن .

وهو جدير بان يعد في المساجد وان سبق عصر المساجد .

المسجد الحرام اول بيت وضع للناس .

وعلى ٧ كيلومترات جنوب غرب غار حراء تقوم مكة ، وفي قلبها يقوم المسجد الحرام .

المسجد ، والكعبة في وسطه ، وشعائر الله الاخرى التي يلم بها الناس في الحج والعمرة انما هي قلب الحرم الملكي ، ارض الله الحرام ، وحدود هذا المسجد الاكبر تعينها اعلام الحرم المنصوبة على الطرق الى مكة من كل ناحية ؛ وهذه الاعلام .

في هذه المساحة تنتشر المساجد المكرمة كانها النجوم حول الكوكب الاعظم ، وهو المسجد الحرام . انه اقدم مساجد الاسلام ، وهو دون شك أوسع مساجد الدنيا ، ان يكن لم أوسع معبد ديني على الاطلاق ، في الحديث هنا عن صحنه الفسيح المحيط بالكعبة وبيوت صلاته المتعددة تحت البوائك المحيطة بالحرم . القبلة هنا في الكعبة المشرفة ، ذلك المبنى المكعب الجليل الذي يقوم خالداً تحت ستاره المخملي الأسود توشيه أُزر من الآيات القرآنية .

هيئة الحرم الحالية ترجع الى ايام المماليك ثم الاتراك .

وقد كانت عناية سلاطين المماليك بالحرم عظيمة ، فمنذ ان اعاد بناء الكعبة والحرم السلطان الظاهر بيبرس الى ايام قلاوون ، لم يكف هؤلاء السلاطين عن العناية بالحرمين ، المكي والمدني . اخر مرة اعاد فيها المماليك بناء الحرم الملكي كله كانت سنة ٨٦٨/ ١٤٦٤ . وعندما دخلت الاراضي المقدسة في رعاية سلاطين آل عثمان انتقل اليهم امر رعاية الحرم ، ولم يضمروا في ذلك ، بدأ ذلك العمل الجليل السلطان سليم ، ولكن سليمان ٩٢٦ ـ ٩٧٣/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٥ وهو الذي اعاد بناء الكعبة والحرم واعطاهما الهيئة الباقية الى اليوم على وجه التقريب ، ومن حسن الحظ ان الحكومة السعودية حافظت على ذلك التصميم واضفت عليه ولا وثراء وفخامة .

هذا التصميم ـ او التخطيط ـ من عمل المهندس العثماني الاشهر سنان باشا . ولم يعش سنان ليرى تنفيذ مشروعه فقام به تلميذه محمد اغا بحسب هذا التخطيط اتسع الحرم حول الكعبة حتى اصبحت مقاييسه ٢٠٠×٢٠٠ متر= ٤٠٫٠٠٠ متر مربع على وجه التقريب ، نحو عشرة أفدنة واعيد انشاء البوائك المحيطة بالحرم ، فازيلت الاعمدة الرخامية القديمة ووضعت مكانها دعائم من الرخام عددها ٨٩٢ ، وبين هذه الدعاءات وضعوا اعمدة من الحجر الرملي لتحمل البوائك والسقف والقباب الصغيرة التي بنيت من الحجر ، وكانت قبل ذلك من الخشب .

وفي سنة ٩٤٤/ ١٥٨٦ بطنت جدران المسجد بالرخام الملون وجددت قنايله واضيفت ثريات في هيئة رؤ وس النخيل ، وبنيت للحرم بمآذن كبراها مستديرة على الطراز العثماني ذات ثلاث شرفات للآذان . تحت هذه المئذنة الكبرى ـ أنشأ السلطان سليمان مدرسة للفقه ، هي السليمانية التي ظلت تقوم بعملها زمناً طويلاً .

وفي سنة ١٠٣٩/ ١٦٢٩ جاء سيل عارم وهدم ركنين من اركان الكعبة ، فلم يعد هناك ما يمنع من ازالة البناء كله واعادته جديدا مع وضع الحجر الاسود في مكانه .

وقد قام بالامر مهندسون وعرفاء وبناءون اتوا من الآستانة

والقاهرة ، وعندما جاء دور وضع الحجر الاسود في مكانه ، فعل القضاة الاربعة والمهندسون واشراف مكة ما فعلته قريش عندما اعادت بناء الكعبة ايام النبي ﷺ وقبل بعثته : وضعوه في ثوب ورفعوه جميعا من الاطراف ، وقد حرص المعماريون على ان يستعملوا في البناء نفس احجار الكعبة ، لانه قيل ان بعضها يرجع الى ايام النبي ﷺ ، واحتفظوا بالقاعدة المبنية بحجارة من البازلت الاخضر ، لانهم قالوا ان تلك هي الحجارة التي بني بها ابراهيم واسماعيل عليهما السلام البيت المكرم ، وهذه القاعدة هي المعروفة بالشاذروان وهي ملبسة بالرخام .

كذلك احتفظوا بالاعمدة الخشبية التي ترفع سقف الكعبة ، بعد ان عالجوا خللها ودهنوها بمزيج من الزعفران واللبان ، واعيد وضع الباب الصغير الذي كان السلطان سليمان قد صنعه للكعبة ، وكان مغطى بصفائح الذهب والفضة ، وصنع للكعبة ميزاب جديد من الذهب المزخرف بالمينا الزرقاء ، وبطنوا داخل الكعبة بالحرير الاحمر ، وغطوها من الخارج بالحرير الاسود ، وقد صنعت هذه الستر في مصر واتى بها الى مكة وفد من مصر ، كما كانت العادة الى حين قريب .

وقد ظل هذا البناء مكانه حتى اوائل القرن الثامن عشر ، فقام والي مصر والحجاز محمد علي باعادة بناء الحرم المكي كله ، وجدد اعمدته وحجارته ورخامه واصلح مآذنه ، وكان ذلك سنة ١٨٢١ .

اما تجديد مباني الحرم المكي كله وعمارته على الهيئة التي نراها اليوم فقد بدأت في فبراير ١٩٥٨ ايام الملك سعود بن عبد العزيز ، وقد اشرف عليها منذ البداية اخوه الملك فيصل بن عبد العزيز وكان اذ ذاك وليا للعهد ، وما زالت الاعمال مستمرة الى يومنا هذا ، وقد اخذ الحرم المكرم بهذه السارة الجديدة صورة فريدة في بابها من الجمال والرواء .

اصبحت مساحة المسجد الآن ٧٥٠٠٠ متر مربع بعد ان كانت ٣٠,٠٠٠ وبهذا اتسعت لحوالي نصف مليون مصل ، ويحيط بالحرم شارع عرضه ثلاثون مترا ، وانشئت ممرات المسعى من طابقين وجعل عرضه عشرين مترا وجعلت له ثمانية ابواب ، ونظم السير فيه في اتجاه واحد .

الحرم النبوي في المدينة :

اما ثاني المساجد الكبرى ، فمسجد الرسول ﷺ ،

لم يتجدد العناية بذلك المسجد المكرم بصورة جديرة بالذكر الا ايام المماليك ، فقد قاموا بتجديده مرة بعد مرة ، وكانت هناك ادارة مصرية خاصة بالحرمين الملكي والمدني . واخر من اعاد بناء المسجد النبوي كله من سلاطين مصر كان السلطان سيف الدين لاشين سنة ١٤٨١/٨٦٨ .

ثم تولى الامر سلاطين آل عثمان ابتداء من سليم الاول ، ثم

رحمه وجدده سليمان القانوني عندما جدد الحرمين كليهما سنة ١٥٢٩/٩٤٠ ، ولا يزل جزء كبير من تجديد سليمان باقيا الى اليوم عند باب السلام في الواجهة الغربية للمسجد المكرم ؛ ويعتبر المنبر الذي اهداه سليمان لمسجد النبي ﷺ من آيات صنعه الحفر في الخشب عند المسلمين .

وقد اصلح الجامع مرة اخرى سنة ١٥٣٣/٩٩٤ ثم سنة ١٧١٥/١١٢٧ وفي سنة ١٧٨٢/١١٩٦ صنع للمسجد محراب جديد من المرمر الملون ورفعت فوق موضع المحراب قبة جميلة .

وقد اهدى سلاطين مصر وتركيا والهند وأمراؤ ها ونفر كبير من الاتقياء هدايا بديعة للمسجد المكرم ما زالت باقية في ذخائره الى اليوم ، ولعل اغلاها من ناحية القيمة المادية تلك الاهلة الذهبية المرصعة بالجواهر ، وفي داخل كل هلال نجم ذهبي مرصع ايضا ، وبين هذه الجواهر قطع من الماس تزن بضعة قراريط ولا تقدر بثمن ، وهذه الذخائر معلقة بداخل الروضة الشريفة وفي روضه السيدة فاطمة الزهراء .

ففي سنة ١٨٤٩/١٢٦٦ قام محمد علي والي مصر باعادة بناء المسجد كله وقام السلطان عبد الحميد الاول المتوفي سنة ١٢٧٧/ ١٨٦٠ ـ بتبطين المسجد كله بالرخام الوردي وكان هذا السلطان ـ الذي توفي في التاسعة والثلاثين من عمره ـ يسأل وهو على سرير الموت عما اذا كانت عمارة مسجد الرسول قد تمت ،

ويقال انهم عندما ابلغوه ان العمل قد تم قرت عينه وصعدت روحه الى بارئها . وبسبب الرخام الوردي الذي لبست به جدران المسجد اصبح يسمى كله الوردي .

وما زال مبنى الحرم النبوي المملوكي العثماني باقيا الى اليوم ، بالاضافة الى التوسعة العظيمة التي امر بعملها الملك عبد العزيز آل سعود في أيامنا هذه ، فقد اضافت هذه التوسعة للمسجد المكرم ابوابا جديدة تفضي الى بيت صلاة رائع يقوم على اعمدة فخمة من المرمر وكسيت الارضية كلها بالمرمر ، ويبلغ عدد هذه الاعمدة الجديدة ٢٣٢ عمودا ، وانشئت لهذه الزيادة كذلك واجهة بديعة عرفة بواجهة الملك عبد العزيز ، تزينها مئذنتان ارتفاع كل منهما ٧٥ مترا مربعا . وقد اضيفت الى المسجد بهذه الزيادة مساحة كبيرة ، فاصبح اتساعه يزيد عن ١٦٠,٠٠٠ متر مربع تتسع لما يزيد عن ٣٠٠٠٠٠ من المصلين .

مسجد قباء ، ومساجد أخرى

تحفل مكة والمدينة وما بينهما بالمساجد التاريخية ، وكل هذه المساجد جميلة بسيطة يزينها رواء من التقي والحب ومعظمها من بناء سلاطين المماليك والعثمانيين وامرائهم وبعض اهل الخير من اهل الحجاز . ويكاد ان يكون من العسير ان نتحقق من عمرها على مر الزمن ؛ فلناخذها كما هي ولنعتبرها كلها مساجد جليلة لانها تقوم في الارض المقدسة .

ولكن مسجد قباء ينفرد من بين هذه المساجد ، فنحن نعرف ان الرسول ﷺ بناه لاول وصوله الى قباء ضاحية المدينة التي تقع على ثلاثة كيلومترات جنوبها ، فهو اول مسجد بني في الاسلام ، ولابد ان المسجد رمم واعيد بناؤه مرارا قبل ان ياخذ صورته الحالية التي ترجع الى سلطان مصر الاشرف قايتباي في سنة ١٥٨٠/٨٨٨ ، فقد اعيد بناء هذا المسجد كله واضيف اليه محراب جديد من الرخام ، اما منبر الجامع فهو المنبر الذي كان قايتباي قد اهداه للحرم النبوي ، وقد نقل الى قباء عندما وضع في المسجد النبوي المنبر البديع اهداه له السلطان مراد .

ومئذنة المسجد ترجع الى العصر العثماني ، واغلب الظن انها عملت في ايام السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤٥ / ١٨٢٥ وكان الذي قام بها محمد علي والي مصر وعرفاء وبناءون من مصر ، وقد اكملت هذه العمارة ايام السلطان عبد المجيد .

اما المبنى الصغير داخل الصحن فيقال انه يعين موضع مبرك ناقة لرسول ﷺ .

وما زال المسجد يحتفظ بطابع البساطة الذي كان يميز مساجد الاسلام الاولى ، ونعتقد ان صورته الحالية هي نفسها التي كانت ايام جده عمر بن عبد العزيز ، وهو اول من جعل له مئذنة وبيت صلاة ذا اعمدة ورواقات .

مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط .

يعتبر جامع عمرو بن العاص في مصر رابع مسجد جامع اقيم في الاسلام - بعد مساجد المدينة والكوفة والبصرة - فقد اقيم سنة ٦٤٢/٢١ اربعة عشر قرنا الى ثمانية وعشرين عاما هجرية .

وقد انشأ فاتح مصر مسجده المنسوب اليه في الفسطاط بعد تمام فتح مصر على يديه ، وكان في اول امره مسجدا بالغ البساطة : مساحة طولها ٢٥ مترا وعرضها ١٥ مترا مغطاة بظلة من الخشب وسعف النخل قائمة على اعمدة من جذوع النخل .

وقد ازاله مسلمة بن مخلد - والي مصر لمعاوية بن ابي سفيان - واعاد الناقة من جديد سنة ٦٧٢/٥٣ ، فضاعف حجمه وجعل له سورا من ونر وترك جزءا كبيراً من الزيادة الجديدة صحنا مكشوفاً . وجعل للمسجد اربع مآذن في اركانه ، ويقال ان هذه كانت اقدم مآذن اقيمت في الاسلام .

ثم جدده عبد العزيز بن مروان سنة ٦٩٨/٧٩ .

ثم هدمه من اساسه واعاد بناءه كله قرة بن شريك سنة ٧١٠/٩٣ على ساعة واسعة ، وجعل له جدرانا عالية وسقفا من الخشب . وقرة هو الذي انشأ له المحراب المجوف - وهو اول محراب من نوعه في مصر - واضاف اليه منبرا خشبيا جميلا .

وفي سنة ٧٥٠/١٣٣ اتم الوالي العباسي صالح بن علي ؛ وهو عم ابي جعفر المنصور) عمل قرة واعطى الجامع صورته

التي بقي عليها بعد ذلك لقرون طويلة .

وفي سنة ٢١٢ / ٨٢٧ بلغ الجامع مساحته الحالية على يد عبده بن طاهر والي المامون ، وقد ثبت الجامع على تلك المساحة الى الآن وهي ١١٢,٥×١٢٠ مترا على وجه التقريب= ١٥,٠٠٠ متر). وهذا المسجد الذي اتمه عبد الله بن طاهر هو الذي يعتبر الآن المسجد الاصلي الذي يجتهدون في المحافظة عليه .

واحترق جزء كبير من جامع عمرو ايام خمارويه بن احمد بن طولون فاعيد بناؤه . واكمل محمد بن طفج الاخشيد عمل خمارويه .

ثم جدد المسجد مرات كثيرة ايام الفاطميين حتى بلغ ذروة جماله القديم ايام الخليفة المستنصر ، وذكر انه يقوم على ٤٠٠ عمود من الرخام ، وجدار المحراب كله مغطى بالرخام الابيض كتبت عليه آيات القرآن بخط جميل ، يضيئه بالليل من الداخل تنور (أي مصباح ضخم ، ثريا) اهداه اليه الخليفة الحاكم بامر الله ، وزنه سبعة قناطر من الفضة ، بالاضافة الى اكثر من ٧٠٠ قنديل ، وكان المسجد مفروشا بعشر طبقات من الحصير الملون بعضها فوق بعض ، وقال انه كان من اعمر المساجد بالناس والحركة ، ولا يقل الموجودون فيه ـ من الصباح الى صلاة العشاء ـ عن خمسة الآف شخص ، ما بين مصلين وشيوخ اساتذة وطلاب . علم وكتاب يحررون الصكوك والمبايعات للناس .

وقد احترق جانب من هذا المسجد سنة ١١٦٨/٥٦٤ عندما اشعل شاور النيران في الفسطاط فظلت مشتعلة فيها ٥٤ يوما . فلما جاء صلاح الدين الأيوبي أصلحه وجدده سنة ١١٧٢/٥٦٨ وأعاد بناء صدر الجامع والمحراب الكبير ورخمه ورسم عليه ثم اعاد تعميره الظاهر بيبرس سنة ١٢٨٨/٦٦٦ ، وتوالت عليه اعمال الترميم حتى كان آخر من جدده من المماليك مراد بك سنة ١٧٩٨/١٢١٣ ، وقد ادخلت على المسجد بعد ذلك اصلاحات وترميمات كثيرة كان اخرها سنة ١٩٢٢ . وكانت نتيجة هذه العمليات الكثيرة ان اصبح ذلك المسجد الجليل اليوم من اقل المساجد الكبرى وحدة فنية واقلها انسجاما ، والمسجد الحالي هائل الحجم ، تحمل سقفه مئات الاعمدة وفي وسطه صحن مكشوف غير منتظم الهيئة تزينه قبة صغيرة .

قبة الصخرة

هذا مبنى مساجدي فريد في بابه في عالم الاسلام . وقد انشىء خاصة لتكريم وتخليد الصخرة واظهار موضع الصخرة التي عرج بمحمد - ﷺ - عندها الى السماء ، وحمايتها من الشمس والمطر وعدوان الايام .

امر عمر بن الخطاب بانشاء ظلة من الخشب فوق الصخرة حماية الصخرة ، لحمايتها في مكانها حتى جاء عبد الملك بن

مروان ورأى ان يستبدل بها عملا فنيا يتناسب مع ما للصخرة من مكانة في قلوب المسلمين .

شرع عبد الملك بن مروان في انشاء مبنى قبة الصخرة سنة ٦٨٨/٩٩ ـ ٦٨٩ ، وكان الفراغ من انشائه سنة ٧٢/ ٦٩١ ـ ٦٩٢ .

المبنى قاعة واسعة من ستة اضلاع ، ترتفع فوقها قبة نصف دائرية جميلة تقوم على هيكل من الخشب ، وهي مجصصة من الداخل والخارج ، وداخل مزين بنقوش بيزنطية بديعة ، وخارجها ملون بماء الذهب .

والصخرة تقوم داخل المبنى ، تحيط بها دائرة من البوائك ، تقوم على صفود مدببة ، مرفوعة على دعائم حجرية واعمدة من الرخام بالتوالي . وفوق الصفود ـ التي تدور حول الصخرة ـ يقوم جدار مستدير مرتفع مجصص ومزين بنقوش وزخارف بيزنطية الطابع ، وفوق هذه الجدار تقوم رقبة القبة مزينة بشماسات ذات زجاج ملوّن ، والفراغات بين الشماسات مغطاة بالزخارف . والقبة تقوم فوق ذلك كله ، فهي معتمدة على العقود التي ذكرناها ، لا على الجدار الخارجي . وتدور حول القبة ـ بين الأعمدة ـ طارة من الخشب الملبّس بالنحاس ، تحول بين الناس والصخرة .

وبين العقود والجدار الخارجي لمبنى القبة مطاف جميل يدور حول الصخرة جدار المبنى الخارجي مسدس الأضلاع كما قلنا ، كل ضلع منها محلى بعقود زخرفية عددها سبعة ، العقد الأوسط في أربعة منها فيه باب للدخول . والجدران الخارجية كلها ملبسة بالرخام إلى ارتفاع النوافذ ، ثم تغطى بعد ذلك بالفسيفساء ذات البريق الزجاجي والقاشاني التركي ، هذا القاشاني يرجع إلى سنة ١٥٥٤ ، أما القبة الحالية فقد رفعت في القرن الثاني عشر ، على نمط القبة القديمة بعد تجديد هيكلها الخشبي .

المسجد الاقصى

ترجع بدايات هذا المسجد المكرم الى عمر بن الخطاب الذي امر ببناء مسجد في الحرم القدسي غير بعيد من موضع الصخرة التي بنيت عليها القبة . وهناك من يقولون ان مسجد عمر اقيم في جزء من معبد روماني قديم ينسب الى هيورد وهدمه الامبراطور تيتوس .

ولكن الوليد بن عبد الملك كان اول من انشأ المسجد الاقصى في مكانه الحالي ، وكان ذلك في سنة ٩٧/٧١٥ و٧١٦ ، ولم يبق من مسجد الوليد هذا الا العقود القائمة على اعمدة من الرخام على يمين القبة الصغيرة عند المدخل ويسارها .

وقد تهدم معظم مسجد الوليد هذا في زلزال وقع سنة

١٣٠/ ٧٤٧ ٧٤٨ فاعاد بناءه الخليفة المنصور حوالي سنة ١٤٠ على الاغلب بعد ان اقتلع الذهب عن ابوابه لينفق عليه . ثم تهدم مرة اخرى ورفع الامر الى المهدى فقال : رث هذا المسجد وطال وخلا من الرجال انقصوا من طوله زيدوا في عرضه وهكذا تك انشاؤه بامر الخليفة المهدي العباسي (سنة ١٦٣/ ٧٤٧) الذي اعطى المسجد صورته وحجمه الحاليين ، ومن اسف ان معظم بناء المهدي تهدم في زلزال وقع في مطلع القرن الثالث فوزع الخليفة المامون بناءه على امراء الاطراف يبني كل منهم رواقا على نفقته ، وتولى بناء عبد الله بن طاهر بعد سنة ٢١٠هـ وقد زلزل هذا البناء ايضا سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م ولكن المقدسي الرحالة احتفظ لنا بجانب من وصفه قال : ان بيت صلاته كان يتكون من ستة وعشرين رواقا تشرع كلها من جدار القبلة الى انصحن ، اما ابواب المسجد فكانت سبعا اكبرها هو الاوسط وكان الباب الرئيسي ملبسا بالنحاس ، وكانت تتوسط الرواق الاوسط قبة لطيفة .

وأعيد بناء المسجد بعد زلزال سنة ١٠٣٣/٤٢٤ الذي ذكرناه ، وكان الذي بناه هو الخليفة الفاطمي الظاهر سنة ١٠٣٥/٤٢٦ ، وقد ذهب جزء كبير من بناء الخليفة الظاهر الفاطمي اثناء الحروب الصليبية وما اصاب القدس خلالها من احداث . ولكن بقي منه الهيكل العام المكون من سبعة اروقة عمودية على القبلة . وجوف بيت الصلاة الذي يتكون من ١١

صفاً ـ من العقود الموازية لجدار القبلة .

والرواق الاوسط ـ او المجاز الاعظم ـ ضعف بقية الاروقة في الاتساع ، وتقوم فوق البلاطة الاخيرة منه قبة صغيرة فوق المدخل مباشرة ، هناك قبة اخرى اكبر من هذه فوق البلاطة المؤدية الى المحراب .

وفي وسط الرواق الاوسط باتجاه القبلة يقوم مربع بديع يحمل القبة الكبرى مرفوعاً على اعمدة رخامية سامقة الارتفاع ، تعلوها عقود تقوم على ارجل ، يعدل ارتفاعها ارتفاع العمد ، والجدار الحامل للقبة فوق العقود مزين بنوافذ منبره على هيئة بوائك صغيرة . وهذا الارتفاع العظيم للسقف هو الذي حدا بالمعماري الى ان يربط الاعمدة باوتاد خشبية سميكة .

والمسجد الاقصى الحالي ، عمل معماري يجمع بين البساطة والجلال على صورة تندر في غيره من المساجد ، فان بناءه رغم ضخامته مبنى فالجدران الحاملة للقبة الكبرى لا تتميز بضخامة ، والقبة نفسها تقوم على هيكل خشبي . وزينة الجدران نفسها قليلة ، والقبلة بسيطة رغم زخارفها ولكن يضيف الى روائها ان الجدار ـ الى يمينها ويسارها الى ارتفاع المحراب ـ مغطى بالقاشاني المزخرف . وجزء كبير من فخامة الجامع يرجع الى سعة بيت الصلاة التي تملأ النفس روعة وبهجة . وهذه السنة هي التي جعلت المعماري يكتفي بتسقيفه بالخشب .

المسجد الجامع في القيروان

هذا ابو مساجد الجناح الغربي لمملكة الاسلام .

بدأ عقبة بن نافع بناء ذلك المسجد سنة ٥٠/٧٨٠ (وهو تاريخ احكام القيروان رابعة العواصم الاسلامية الاولى)، وفرغ منه ومن القيروان سنة ٥٥/٦٧٥ .

كان مكوناً من بيت صلاة مسقف بعريش يقوم على جمع النخل وصحن مكشوف في نفس حجمه . وقد حرص الذين جددوه على ان يحافظوا على هيئته الاولى .

وقد جدد المسجد وزيد فيه مراراً عديدة .

وتقدم قبة المسجد الكبيرة - التي تقوم فوق البلاطة المؤدية الى المحراب على ٣٢ عموداً جميلاً من الرخام (بينها الساريتان الحمراوان) وهي منقوشة من الداخل بزخارف في غاية الجمال . وعقود القبة من طراز هورس المدبب وحذوة الحصان ، اما القبة نفسها فتتألف من ٢٤ عقداً مدبباً يسمى كل منها ضلعاً ، وهي مثمنة .

ويمتاز جامع القيروان بالضوء الذي يفيض فيه والاشراق الروحي الذي يحس به الانسان اذا وقف تحت قبة المحراب وتامل العقود الجميلة والجدران الرخامية المزينة من اعلى بوحدات زخرفية في غاية الجمال .

فطول جدار القبلة ٧٢ متراً وجوف (عمق) بيت الصلاة ٣٦ متراً تنقسم الى سبعة اساكيب ، اما البلاطات ـ اي الاروقة ـ المؤدية إلى جدار القبلة فعددها ١٧ رواقاً، الأوسط منها أوسع من الاروقة الاخيرة ويؤدي الى المحراب ، ولهذا المسجد صحن واسع يبلغ طوله ٩٠ متراً وعرض ٧٠ والعقود مستديرة تقوم على اعمدة من الرخام مقواة بدعائم .

بيت الصلاة عميق يغطي نصف مساحة المسجد كله تقريباً ، والمجنبات قليلة العمق فكل منها رواقان ، والمئذنة بناء مستقل شبيه بالبرج يقوم في الجدار المواجه لجدار القبلة وهو خارج سور المسجد .

وهذه المئذنة تعتبر من نوادر المآذن واجملها ـ مع قدمها ـ فهي في الحقيقة برج من ثلاث طبقات كلها مربعة ، والسفلى اكبرها حجماً وتليها الثانية فالثالثة . وضلع بدن المئذنة من اسفل ١٠,٦٧ امتار وارتفاعه ١٨,٨٧ مترا فهو على هذا مبنى ضخم يكاد حجمه ان يكون حجم بيت كامل . وارتفاع الطبقة الثانية ٥ أمتار والثالثة ٧,٥٠ أمتار . فالإرتفاع الكلي للمئذنة يصل إلى ٣١,٣٧ متراً أي ما يقرب من ارتفاع بيت من تسعة أدوار في المباني الحديثة .

مسجد الاموي في دمشق

انشيء مسجد دمشق الاموي في جزء من معبد كان هناك للاله الروماني جوبتر وكان المسيحيون ايضاً يستخدمون اجزاء

من المعابد الرومانية القديمة كنائس ومصليات ، وخاصة في عصور الاضطهاد الاولى .

في معبد جوبتر هذا كان المسيحيون قد اقاموا مصلى او كنيسة ونسبوه للقديس يوحنا . فلما جاء المسلمون ورأوا سعة هذا المعبد المهجور في معظم أجزائه ، رغبوا في الاستفادة من الأحجار والرخام والارض المبلطة لهذا المبنى القديم ، ورأى رجال عبد الملك بن مروان انهم يستطيعون تحويل المبنى كله الى مسجد ، وتراضوا مع النصارى على تعويضهم عن المصلي الصغير الذي كان لهم ، وفي عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٧ ـ ٧١٥) بدأ بناء المسجد سنة ٧٠٦ م ولم يتم الا سنة ٧١٥م .

وجعل المهندسون باب بيت الصلاة المؤدي الى الصحن باباً فخماً كانه باب مسجد كامل ، خاصة وهو يؤدي الى الرواق الاوسط ـ او الحجاز الاعظم ـ الذي ينتهي بالقبلة . ويبلغ طول جدار القبلة حوالي ١٩٠ متراً . وعدد بلاطاته ـ اي أروقته ـ اثنتين وعشرين بلاطة ، مقسمة على قسمين : كل منهما إحدى عشرة بلاطة ، على يمين الرواق الاوسط وشماله . ويفتح بيت الصلاة على الصحن بسلسلة من العقود عددها عدد البلاطات ، وهي عقود مستديرة ، وتزين الجدار ـ أعلى العقود ـ سلسلة من نوافذ ذات عقود مستديرة وتقوم كل هذه النوافذ أزواجاً : كل اثنتين منها فوق عقد من العقود . ويحيط بالصحن ـ من شرق

وغرب ـ مجنبتان ، لها هيئة أروقة بيت الصلاة . وتقوم فوق الرواق الأوسط ـ في وسطه رقبة صغيرة ولكنها آية في الجمال .

وبالرغم من أن العمارة البيزنطية كانت مصدراً اساسياً من مصادر الصلاة الاسلامية الناشئة في ذلك الحين فان الجامع الاموي بني وفق مخطط مسجد الرسول الاول بساحته المكشوفة الفسيحة وقد جعل حرم الصلاة مغلقاً واقيم على اعمدة واقواس بسبب جو دمشق الممطر في الشتاء وكانت هندسة الجامع المتفقة مع شعائر الدين الجديد اساساً لبناء الجوامع الكبرى التي بنيت من بعد في مختلف بلاد الاسلام .

والملامح البيزنطية في عمارته انما تمثلت في اقواسه وفي تزييناته من الفسيفساء وتعتبر مآذن الجامع الأموي اول محاولة لاقامة المآذن في الشام . وهي مآذن ثلاث . وكان في ركني المعبد القديم الذي بني عليه المسجد في الجنبين الجنوبيين الشرقي والغربي برجان مربعان فأعاد الوليد بناءهما ليكون من فوقهما الأذان ثم انشىء على شكلهما مئذنة ثالثة في منتصف الواجهة الشمالية للجامع . والبناء الحالي لهذه المآذن يعود إلى العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية والمئذنة الغربية منها هي الأجمل والأرشق وقد بين من السلطان قايتباي (القرن الخامس عشر) .

وقد احترق الجامع خمس مرات اولها سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م . وآخرها سنة ١٨٩٣م ايام السلطان عبد الحميد الثاني . والبناء

الحالي باعمدته وشكله يرجع الى عهد هذا السلطان . على أن جميع الترميمات التي توالت على هذا الجامع حافظت تماماً على مخططه المعماري الاول وعلى هندسته الاموية دون تعديل . فللجامع الى اليوم : حرم مغطى مستطيل تتوسطه قبة تقوم فوق سقف مثلث وتسمى قبة النسر واما باحة المسجد فمحاطة من اركانها الثلاثة (في الشرق والشمال والغرب) بأروقة تحملها اقواس تقوم على الأعمدة ، وللجامع اربعة ابواب أهمها البابان الشرقي (باب جيرون) والغربي (باب البريد) اللذان يقومان على أساس بوابتين فخمتين قديمتين . وبقايا الفسيفساء القديمة ما تزال موجودة في أجزاء هامة منها في داخل باب البريد الغربي .

وفي باحة الجامع نحو الغرب بناء يقوم على عدة اعمدة يقال ان مال الجامع كان يودع فيه وكان في القرن الماضي مستودعاً للخشب والمخطوطات .

مسجد قرطبة الجامع

مسجد قرطبة الجامع من اروع ما أنشأ المسلمون من الاعمال المعمارية ، وهو ـ باعتراف مؤرخي العمارة من الاوروبيين ـ قمة من قمم الفن المعماري العالمي على مر العصور ، لقد تم بناء هذا المسجد خلال قرنين ونصف قرن على وجه التقريب ، فقد بدىء في انشائه على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ / ٧٨٦ ، واستغرق انشاء الجزء الأول منه سبع سنوات .

ثم توالت عليه أعمال الزيادة والتجميل والتوسيع الى اوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي .

حين بدأ عبد الرحمن الداخل بانشائه سنة ١٧٠/٧٨٦ ، كانت مقاييسه ٧٥ مترا في العرض و٦٥ في الطول اي في عمق بيت الصلاة ، يضاف الى ذلك صحن فسيح تعدل مساحته مساحة بيت الصلاة تقريباً .

كان المسجد مكوناً من ١٢ رواقاً موازية لجدار المجرات وتسع بلاطات عمودية على جدار القبلة وكانت البلاطة الوسطى اوسع من الاخريات وتؤدي الى المحراب .

وفي سنة ١٨٠ / ٧٩٦ أضاف هشام الرضى ـ ابن عبد الرحمن الداخل وخليفته ـ اسكوبا لبيت الصلاة من ناحية الصحن .

وقد اهتم عبد الرحمن الاوسط ـ رابع امـراء بني امية الاندلسيين ـ بالمسجد اهتماماً كبيراً ، فزاد فيه سنة ٢٦٨ / ٨٣٣ ززيادة صغيرة ، ثم تبين بعد ذلك ان عدد المصلين زاد زيادة كبيرة بسبب اتساع قرطبة ، ولهذا فقد بدأ في سنة ٢٣٤ / ٨٤٨ في زيادة عمق بيت الصلاة باضافة ثمانية أساكيب في اتجاه القبلة (أي نحو الجنوب في اتجاه نهر الوادي الكبير) ونقل جدار القبلة الى موضع الجدار الجديد ، وصنع للمسجد محرابا جميلا فأصبحت مقاييس المسجد ١٣٠×٧٥ مترا بما في ذلك الصحن .

والغالب ان العقود المزدوجة ظهرت اثناء هذه الزيادة الكبيرة ، لان المعماريين وجدوا عند تخطيطها ان ارتفاع المسجد لن يكون متناسبا مع مساحته الجديدة ، فابتكروا تعلية السقف عن طريق وضع دعامات حجرية فوق الأعمدة الأولى ، واضافة عقود ثانية ثم رفع السقف فوق ذلك ، ولهذا جعلوا السقف من الخشب حتى يكون خفيفا ، وغطوه بالقرميد الأحمر ، واكمل هذه الزيادة وقام بزخرفة الجامع الأمير محمد بن عبد الرحمن الاوسط في سنة ٢٤١/٨٥٥ ، وأضاف هذا الامير الى المسجد المقصورة الى يمين المحراب ثم قنطرة فوق المحجة العظمى ، وفي سنة ٣٤٠/٩٥١ انشأ عبد الرحمن الناصر صومعة ـ أي مئذنة ـ جديدة في اقصى جدار الصحن ناحية الشمال ، وقد جعلها على هيئة برج ضخم ذي شرفتين للأذان ويُصعد الى هاتين الشرفتين بسلم داخلها . وهذه المئذنة ما زالت باقية الى اليوم ، وان كانت قد حولت الى برج نواقيس ، وكذلك اضاف الناصر الى المسجد زخارف كثيرة .

ورأى عبد الرحمن الناصر انه لا بد من توسعة المسجد مرة ثالثة ، سنة ٣٥١/ ٩٦١ . وكانت هذه الزيادة جهة الجنوب مثل الزيادة السابقة ، اسفل جدار المحراب ٣٥ مترا الى الجنوب ، وبذلك وصل المسجد الى ضفة النهر بزيادة ١٢ اسكوبا جديداً ، ثم عمل محراباً جديداً يعد آية من آيات من المعمار والنحت في تاريخ العمارة الاسلامية واصبح جوف بيت الصلاة ٧٥ مترا

ويصبح طول المسجد اذا اضفنا الصحن ١٠٥ امتار وزيد هذا المسجد مرة رابعة على يد المنصور محمد بن ابي عامرة الذي استبد بحكم الأندلس أيام الخليفة هشام المؤيد ، وقد تمت هذه الزيادة سنة ٣٧٧/ ٩٨٧ ، وكانت بطول المسجد كله من ناحية الشرق . تحرى المنصور أن تكون الزيادة متفقة في الهيئة والروح العام مع بقية بنيان المسجد . ومع ان هذه الزيادة لا تمتاز بالاصالة التي تمتاز بها اجزاء المسجد الثلاثة الاخرى ، الا أنها اعطته عمقا وسعة زاد فيهما على كل مسجد معروف في بلاد الاسلام ، فَبِها أصبح عدد اروقة المسجد الذاهبة الى جدار القبلة ١٩ رواقا ، وأصبح عدد أساكيبه - أي اروقته الموازية لجدار القبلة ٣٥ اسكوبا ، وأصبحت مقاييس المسجد ١٢٥×١٨٠ مترا ، اي أن مساحته الكلية - بما في ذلك الصحن - ٢٢,٥٠٠ متر أي خمسة افدنة ، يشغل بيت الصلاة وحده منها ثلاثة افدنة ، وهذا اضخم بيت صلاة بني في الاسلام ، واجمل ما في الموضوع انه باق الى اليوم شاهدا على ما بلغت أمة العرب من أوج في فن الهندسة والمعمار .

وصحن ذلك المسجد وحده قطعة فنية ، فهو محاط بسور تشقه سبعة ابواب ، وفي جهته الشمالية تقوم الصومعة التي ذكرناها . وقد زرع الناس شجار النارنج في الصحن ، ولهذا يسمى بصحن النارنج ، وقد تناقش الفقهاء طويلا فيما اذا كان يجوز زرع الاشجار في صحون المساجد ، وافتى شيوخ المالكية

الأندلسيون بجواز ذلك ، لأن الاشجار تفيء ظلا على المصلين . وفي الناحية الشرقية من الصحن تقوم الميضأة البديعة التي أنشأها منصور محمد بن ابي عامر واجرى لها الماء في قناة تحت الأرض ، وهذه القناة تصب في حوض واسع مقسم الى تسعة احواض كانت تقوم فوقها تسع قباب صغيرة ؛ والغالب أن المتوضىء كان ينزل بضعة سلالم حتى يكون في مستوى الماء .

وثد حول ذلك المسجد إلى كاتدرائية عندما استولى الاسبان على قرطبة سنة ١٢٣٦ . وفي القرن الرابع عشر أنشئت في الجانب الغربي منه ـ في زيادة عبد الرحمن الأوسط ـ كاتدرائية صغيرة امر ببنائها الملكان الكاثوليكيان فرناندو وايزابيلا . وفي القرن السادس عشر ـ وعلى وجه التحديد سنة ١٥٢٣ ـ أنشئت في قلب الجامع كاتدرائية كبيرة كاملة شوهت وسط الجامع تشويهاً مؤسفاً ، وقد انكر الامبراطور كارلوس الخامس ـ المعروف عندنا بشرلكان ـ هذا البناء المقحم على المسجد العظيم ، الذي اخذ الصورة الرائعة التي كان بيت الصلاة في هذا المسجد يمتاز بها .

ومن غريب الأمر أن بيت الصلاة لا يزال محتفظا ـ الى اليوم ـ بمعظم بهائه وجماله . وجدير بالذكر أن اروقة المسجد كلها كانت تفتح على الصحن المكشوف ، مما كان يأذن للضوء في ان يغمر داخل المسجد ويلفت الناس الى جماله . وقد أقفلت هذه الأروقة بجدار سميك عندما حول الجامع الى كنيسة ، ويقول القسس ان داخل الكنائس ينبغي أن يغلب عليه الظلام فذلك ـ في رأيهم ـ يجعل للمعبد رهبة وهيبة .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

من روائع الفن الإسلامي

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

من روائع الفن الإسلامي

(٢)

دار الفكر اللبناني



مسجد سوسة الجامع

انشيء هذا المسجد سنة ٢٣٦/٨٥١ ، أيام أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد الاغلبي ، وهو يعتبر من أجمل وأكبر المساجد العتيقة الباقية الى اليوم ، رغم أنه يقل في الشهرة عن أمثاله من تلك المساجد الجليلة .

والمسجد يقوم على شبه جزيرة داخلة في البحر قرب باب البحر ، من أبواب سوية القديمة ، شمال شرق ذلك البلد التونسي الجميل .

ولم يدخل على المسجد تغيير كبير منذ بنائه ، ولهذا فهو بع يعد من اكبر المعالم في تاريخ عمارة المساجد والمسجد واسع المساحة اذ هو مستطيل ـ على وجه التقريب ـ طوله ٥٧ مترا وعرضه ٥٠ مترا ، فمساحته الكلية ـ على هذا ـ ٢٨٥٠ مترا ، يتوسطه صحن مستطيل تبلغ مساحته ٣٣٤ متراً ، تحيط به ثلاث مُجَنَّبات عرض كل منها رواق واحد .

ومنظر الجامع ـ من الصحن ـ جميل فان بيت الصلاة

والمجنبات تطل عليه بعقود حذوة الفرس ، تقوم على دعامات حجرية . وبيت الصلاة عميق يتكون من ستة أساكيب ، اما بلاطاته ؛ أو أروقته) فعددها ثلاث عشرة والوسطى منها أكثر سعة وهي الرواق الأوسط الذي يؤدي الى المحراب . وفوق بلاطة المحراب قبة صغيرة ، وهناك قبة مماثلة لها تماما فوق الرواق ايضا ، في وسط ابيت الصلاة . وموضع هذه القبة الاخيرة يعين جدار الرواق ايضا ، في وسط بيت الصلاة . وموضع هذه القبة الاخيرة يعين جدار قبلة المسجد القديم ، فقد كان جوف بيت صلاته ثلاثة اساكيب ثم وسع بعد ذلك الى الجنوب باضافة اربعة اساكيب اخرى ، ونقل جدار الجامع الى موضعه الحالي وانشىء له محراب جديد .

وفي ركني المسجد الشمالي والجنوبي ـ من ناحية الغرب ـ يقوم برجان مستديران يصل ارتفاعهما الى مستوى سطح الجامع . والشمالي منهما كان يستعمل مئذنة ، لأن له سلما داخليا يدخل اليه من داخل المسجد وفي أعلى كل من البرجين جوسق تقوم عليه قبة .

جامع القرويين في فاس

يقع جامع القرويين يقع في عدوة القرويين ، وهو أكبر من جامع فاس الذي يقع في عدوة الاندلسيين وسنتحدث عنه .

الجامع هو زينة فاس واجمل ما فيها ، والبناء الحالي للمسج ينص تاريخاً طويلاً يؤكد الحقيقة التي ذكرناها مراراً في هذه الدراسة ، وهي ان المساجد الجامعة تقدم لنا في تاريخها صفحات طويلة من التاريخ السياسي والاجتماعي للجماعات التي أنشأتها .

بدأ جامع القرويين صغيراً يسمى جامع الشرفاء بناه ادريس الثاني في عدوة القرويين من فاس عند أول انشائها ويرجح أن جامع الاشراف هذا بني هو وجامع الأشياخ الذي قام في عدوة الأندلس في نفس الوقت أي سنة ١٩٢/ ٨٠٨ .

وقد ظل هذان الجامعان على حالهما حتى سنة ٢٤٥/٨٥٩ عندما اتسعت العمارة في العدوتين القروية والأندلسية نتيجة للرخاء الذي سار المغرب الشمالي اذا ذاك في ذلك الحين توفي في فاس رجل من عرب لقيروان يسمى محمد بن عبد الله الفهري كان قد هاجر الى المغرب وكسب مالاً عريضاً ورثته بنتاه فاطمة ومريم . اهتمت فاطمة بجامع القرويين ورأت أن تنفق مالها في تجديد بنائه وتوسعته فتضاعف حجمه وزاد بيت صلاته عمقاً بما أضيف اليه من الأساكيب الجديدة ، ووسع الصحن أيضاً وأعيد بناء المجنبات ، وانشىء للجامع محراب ومنبر جديدان ، وبنيت المئذنة التي ما زالت تستوقف الأنظار ـ الى اليوم ـ بارتفاعها الشامخ وخطوطها الهندسية الرائعة . وقد أعيد بناء هذه المئذنة

عندما وسع الجامع للمرة الثانية فيما بين سنتي ٣٤٤ و٣٤٥هـ/ ٩٥٥ و٩٥٦م ، فاصبح كل ضلع من أضلاع قاعدتها خمسة امتار ، وارتفعت في الجو ٢٠ متراً وكُسِيَتْ بالقاشاني ، وزين رأسها بتفافيح صغيرة موشاة بالذهب .

وفي عهد الأمير علي بن يوسف المرابطي ، زيدت في جامع القرويين زيادة كبيرة ، فيما بين سنتي ٥٢٨/١١٣٣ و ٥٣٩/١١٤٣ ، فأصبحت بلاطات بيت الصلاة عشراً بعد أن كانت سبعاً ، وصنع للجامع محراب ومفر جديدان في الغاية من الجمال ، وأعيد بناء أبواب الجامع - وخاصة باب الفخارين الذي يسمى اليوم بباب الشماعين - فأصبحت هذه الابواب من أجمل ما أنشأ المسلمون من هذا الطراز ، فقد كسيت الأبواب حسبية بالنحاس ، وأقيم على كل باب قبة صغيرة ، وأنشئت فوق بلاطة الصراب قبة من الجص المقرنص زينت بالنقوش الذهبية والملونة ، وان من يتامل زخارف شماسات القبة ليرى فيها اعمالاً فنية تعتبر قمة من قمم الفن المعماري الاسلامي ، وقد اشترك في هذه الأعمال معماريون ومزخرفون من الاندلس .

ومن أجمل ما يميز تلك الزيادة المرابطية القباب الصغيرة المقرنصة التي اقيمت في سقف رواق المحراب ، ومقرنصات هذه القباب فريدة في بابها نظراً لرقتها واحكام صنعتها ، وعليها زخارف نباتية في غاية الذة والانسجام .

ومنبر الجامع من أجمل المنابر المعروفة الى اليوم ، فهو مصنوع من الأخشاب النبيلة كالصندل والآبنوس والحور ، وزخارفه مطعمة بالعاج وزخارف جوانبه تعتبر نماذج للزخارف الهندسية العربية من كل صنف والتوريقات النخلية التي تحير العين ، وقد اشترك في صناعتها فنيون اندلسيون فهو ـ على هذا ـ نموذج للفن المغربي الاندلسي .

وقد أخذت المئذنة صورتها النهائية في سنة ١٢٨٩/٦٨٨ اذ أمر الأجر أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المريني بتبييضها وكسوتها بالجص والقاشلتي وتدعيم وصلات أحجارها وصقلها حتى أصبحت كالمرآة .

وهكذا يعتبر هذا الجامع الفريد سجلاً لتاريخ المغرب ، فقد اشتركت في بنائه جميع الدول التي تعاقبت على حكم المغرب ، حتى بنو امية الأندلسيون شاركوا في عمارته عندما نشروا سلطانهم على شمال المغرب أيام الخليفة الحكم المستنصر وابنه هشام المؤيد ، بل بذل الفرنسيون جهوداً كبيرة في الحفاظ عليه ودراسته وتبيان نواحي امتيازه الفني ، والكثير مما كتبناه عنه هنا مستقي من دراسات الأثري الفرنسي جورج مارسيه في كتابه عن العمارة الاسلامية .

إن هذا المسجد ـ الذي بناه المولى إدريس في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني ـ أصبح بحق علماً من أعلام الحضارة

الاسلامية فهو كتاب حافل في تاريخ الفن الاسلامي ، وقد أصبح ـ منذ عنيت بتجديد بنائه فاطمة بنت محمد الفهرية ـ جامعة ، يلقي الشيوخ دروسهم عند قواعد اعمدته ، فهو ـ على هذا ـ أقدم جامعة في الدنيا ، وهذا الجامع الجليل يقف على قدم المساواة مع الجامع الأزهر ومسجد قرطبة الجامع وجامع القروان والمسجد الأموي في دمشق ، فكلها مراكز (عبادة) ومنارات عرفان ، وقد ساير جامع القرويين الزمان فتحول في أيامنا هذه الى جامعة حديثة تدرس فيها علوم الاسلام وعلوم العصر الحديث .

ويزين فاس جامع آخر يشبه جامع القرويين ولكنه يقل عنه في الحجم والشهرة والجمال ، وهو جامع الأندلس بفاس الذي يرجع الى عصر ادريس الثاني ايضاً ، فقد كان يعرف بمسجد الأشياخ ، ثم عنيت بأمره مريم بنت محمد الفهري ـ أخت فاطمة التي ذكرناها ـ فجددته وزادت فيه سنة ٢٤٥/٨٥٩ . وفي سنة ٣٥٤/٩٦٥ بنيت له مئذنة شبيهة بمئذنة جامع القرويين ، وان كانت تقل عنها رواء . وقد أخذ الجامع شكله الحالي أيام الموحدين ، فقد عني بأمره الخليفة الموحدي الرابع محمد الناصر وأمر باعادة بنائه سنة ٦٠٠/١٢٠٤ ، وقد دخلت عليه بعد ذلك زيادات وتجديدات كثيرة ، ولا يزال يعد من المعالم الكبرى في تاريخ العمارة الاسلامية المغربية .

من روائع الفن الاسلامي

اسوار القاهرة وابوابها

تعتبر القاهرة المدينة الاسلامية الوحيدة التي اقيم حولها ثلاثة اسوار على فترات تاريخية متعاقبة فقد بني السور الاول جوهر القائد والثاني امير الجيوش بدر الجمالي والثالث صلاح الدين الايوبي الذي سور القاهرة والقطائع والعسكر والفسطاط جميعا .

وكان سور القاهرة الأول مبنياً من الطوب اللبن بسمك مترين ويشكل مربعاً منتظمًا يحيط مساحة ٤٠٠ فدان وقد ضم هذا السور جميع المنشآت بالقاهرة من قصر الخليفة ودواوين الحكومة ومساكن العسكر .

وكان غرض جوهر القائد من بناء هذا السور هو حماية القاهرة من هجمات العباسيين والقرامطة .

ولم يعمر هذا السور اكثر من ثمانين حتى جاء امير الجيوش بدر الجمالي الذي انشأ سورا اخر وسع به رقعة القاهرة بعض الشيء وقد احضر ثلاثة من الاخوة من ارمينيا اسهموا في بناء هذا السور من الحجارة المنحوتة المصقولة ومثبتة في مداميك منتظمة . التي لا تزال اجزاء منها باقية حتى الان . . تشيد بعظمة العمارة الاسلامية .

وقيل أن كل اخ بني بوابة من البوابات الثلاث الرئيسية الباقية حتى الان .

اولاها باب النصر الذي انشىء في السور الحجري بين برجين مربعين تقريبا نقشت على احجارهما رسوم تمثل بعض آلات القتال وفوق الباب المرتفع ٢٣ مترا فتحت فتحة لتصب منها المواد الحارقة على العدو المهاجم وانشىء لكل برج درج يوصل الى دورين آخرين فوق الدور الارضي المصمت ويعلو مدخل الباب عتب من الصنج الحجرية المعشقة في شكل زخرفي . .

اما باب الفتوح فقد انشىء في نفس السنة وهو يختلف عن باب النصر في ان برجيه مقوسا القاعدة وقد حليت جوانب البرجين بعقدين مغلقين نحتت حجارتهما على شكل وسائد حجرية صغيرة متلاصقة وتظهر هذه الزخارف لاول مرة في القاهرة ويعتقد انها مأخوذة من العمارة المغربية .

وقد اخذت صورة هذا الباب رمزا للقاهرة الحديثة اما باب زويلة فقد انشىء مع السور الجنوبي بعد اتمام الشمالي وابوابه الاثنان وكان اكثر علوا مما هو الآن فقد هدم اعلاهما الملك المؤيد ليقيم عليهما مئذنتي مسجده . . ويسمى بوابة المتولي حيث كان يجلس في مدخله متولي حسبة القاهرة .

وكان للقاهرة ثمانية ابواب : باب النصر وباب الفتوح وباب

زويلة الذي كان له بابان بنتهما قبيلة زويلة وباب الفرج في الجهة الجنوبية .

وفي الجهة الشرقية جهة المقطم باب القراطين الذي كان يوجد بجواره سوق المواشي والاغنام وكان يجلس بجواره القراطون الذين يبيعون القرط اي البرسيم وسمي بعد ذلك بباب المحروق بسبب ما فعله ٧٠٠ مملوك اثناء هروبهم من القاهرة تاركين ديارهم عام ٦٥٢هـ وقد وجدوا هذا الباب مغلقا فاوقدوا فيه النار ، وباب البرقية الذي نسب الى جنود برقة .

اما الجهة الغربية المطلة على الخليج الكبير فقد كان فيه باب سعادة وباب القنطرة أو الجسر وقد عرف بذلك الاسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج وفي اواخر العصر الفاطمي كان حريق الفسطاط والعسكر حتى لا تقع في ايدي الفرنجة .

ثم جاء صلاح الدين الايوبي الذي اتجه الى تحصين القاهرة فبنى سورا ضخما استخدم فيه مجموعة كبيرة من اسرى الفرنجة وبناه من الحجارة وكان يقصد ان يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سورا واحداً ولكن امله لم يتحقق لوفاته وكانت أهم ابواب السور باب الخوخة وباب البحر وباب الشعرية والباب الجديد وباب الصفاء . . . والفسطاط .

الجامع الأزهر

شرع جوهر الصقلي ـ قائد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله ـ في إنشاء الجامع الأزهر في ٢٤ جمادي الأولى ٣٥٩/٤ أبريل ٩٧٠ ، وتم تشييده وبدأت الصلاة فيه ظهر يوم من أيام رمضان ٣٦١/ يونيو ـ يوليو ٩٧٢ .

وكان حجمه إذ ذاك نصف حجمه اليوم .

ومنذ تلك الصلاة أصبح هذا المسجد جزءاً من تاريخ مصر ، موطناً مصرياً ساير ذلك التاريخ يوماً بحيث نستطيع أن نؤرخ لمصر تتبع تاريخ الأزهر ، فندر أن وقع في مصر حادث له شأن الا كانت في الازهر بدايته او منتهاه ، وإذا أنت دخلت الجامع اليوم من بابيه الكبيرين المتجاورين ـ المعروفين ببابي المزينين ـ في ميدان الأزهر وطفت بارجاء الجامع حتى تخرج من باب الجوهرية في الضلع الشمالي للجامع الذي يفتح على شارع الشنواني خلف المسجد ، فإنك تكون قد مررت بألف سنة من تاريخ مصر .

وأول ما يستوقف نظرك عدد الخلفاء والسلاطين والأمراء ومشايخ الازهر الذين حرصوا على ترميمه واصلاحه والاضافة اليه ، فهم عشرات يحتاج احصاؤ هم واحصاء ما عملوه الى مجلد كامل ، لأن هذا الجامع سجل حامل تاريخ مصر السياسي

والعلمي ، فكما تقرأ في تاريخه اسماء المعز لدين الله الفاطمي والعزيز والحاكم الفاطميين وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس وسيف الدين لاجين وبرقوق وغيرهم من سلاطين المماليك ، ومحمد علي وعباس حلمي ومن اليهما من الحكام الذين تعاقبوا على حكم مصر خلال عشرة القرون الماضية ، فأنت تمر في تاريخه بأسماء نفر كبير من أقطاب التاريخ الفكري لمصر والعالم الاسلامي خلال تلك القرون .

وأول الاساتذة الذين تولوا التدريس في الأزهر هو القاضي ابو الحسن بن النعمان بن محمد المتوفي سنة ٣٧٤/٩٨٤ .

وعندما قامت دولة صلاح الدين أوقف التدريس في الأزهر ، لأن التدريس كان مرتبطاً بالمذهب الاسماعيلي الذي ابطله صلاح الدين ، عندما أعاد السُّنِّية الى مكانها التقليدي في مصر ، واتجهت همته في انشاء المدارس لتقوم بتدريس الفقه السُّنيّ ، وبقي الأزهر خاملاً من الناحية العلمية حتى نهاية الدولة الأيوبية .

وستعاد الأزهر مكانته العلمية في العصر المملوكي وتحول الى جامعة حقيقية : يضم الأساتذة والمدرسين والمعيدين والطلاب ، ويجري فيه العمل العلمي على نظام علمي كامل ، ترعاه وتنفق عليه الدولة حسب نظام مقرر مرسوم ، واتسع الجامع ـ تبعاً لذلك ـ فقامت فيه الأروقة والزيادات المختلفة حتى وصل إلى

حجمه الحالي ، وهو يكاد يكون مدينة قائمة بذاتها ، فقد ضمت ملحقات الجامع التعليمية ما يشبه المدينة الجامعية الكاملة ، فهي مكونة من مبان كل منها يسمى رواقات وقد يضم مبنى الرواق الطلبة الوافدين من نواح مختلفة من مصر او من العالم الاسلامي . مثل : رواق الاكراد ، ورواق الهنود ، ورواق البغداديين ، والبريتون (القادمين من البرنو في تشاد الحالية) واليمنية ، والجَبَرْتية (جَبَرْت ناحية من نواحي الحبشة) والسنارية (نسبة الى سِنَّار في السودان)، والجاوية والشوام ، والصعايدة ، والشراقوة (نسبة الى محافظة الشرقية في مصر) والفيومية والبحاروة ، والشفوانية وما الى ذلك . ولم يكن الطلاب ينامون في هذه الأروقة المنسوبة اليهم ، بل كان الرواق اشبه بسكرتارية ومكتبة لهم وخزائن لكتبهم الخاصة ؛ ولهذا نجد أيضاً رواقاً خاصاً بالحنابلة واخر للحنفية ، والمراد الطلاب الذين يدرسون فقه هذه المذهبين .

وأشهر هذه الأروقة الرواق العباسي ، وهو حديث بني في عهد خديوي مصر عباس حلمي الذي تولى الخديوية حتى سنة ١٩١٤ ، وقد افتتح في شوال ١٣١٥/ ١٨٩٧؛ وكان شبيهاً بإدارة عامة للأزهر فكان يضم مقراً لمجلس إدارة الأزهر ومشيخته ومكتبته وطبيبه ومحفوظاته ، وكانت فيه أيضا بعض أروقة للطلاب . ومبنى الرواق العباسي قطعة من العمارة والفن الاسلامي في أواخر العصر التركي .

اما الطلاب الغرباء فكانوا يسكنون في حارات حول الأزهر خصصت لهم وعددها ثلاث عشرة ، مثل : حارة العفيفي والزرافة والبنتته والسليمانية والجيزاوية والزهار والمناصرة ، وما اليها .

وقد كان عدد عظيم ممن قاموا بالنهضة الفكرية في مصر والعالم العربي من طلاب الأزهر ، وهم كثيرون جداً ؛ عبد الرحمن الجبرتي ورفاعة رافع الطهطاوي ، وعلي مبارك ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، ورشيد رضا ، وعبد الله النـديم ، وطه حسين ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، واحمد حسن الزيات ، وعلي عبد الرزاق ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمد مصطفى المراغي .

وفي سنة ١٩٦١ دخل الأزهر في طور جديد من تاريخه ، اذ صدر القانون الذي حوله إلى جامعة حديثة تحتفظ في نفس الوقت بالدراسات التقليدية للأزهر ، وهي دراسات الاسلام واللغة العربية . وأنشئت له الكليات الحديثة وتضاعف عدد طلابه ، حتى أصبح مؤسسة دينية علمية فريدة في بابها من كل وجه .

ولا يضارع الأزهر معهد آخر في الدنيا ، في الخدمات العلمية التي قام بها منذ انشائه قبل نيف وألف سنة الى اليوم ، فقد كانت وفود الطلبة تقبل عليه اركان الدنيا كلها ، فيجاورون في الأزهر ثم يعودون الى بلادهم شيوخاً يقومون بدورهم بانشاء المعاهد

الدينية الاسلامية في بلادهم ، وحيثما نزلت في العالم الاسلامي وجدت الأزهريين ، من أقصى الفلبين الى المحيط الاطلسي وقلب افريقية . والى الأزهر يعود جانب كبير من الفضل فيما تمتعت به مصر على مر العصور كمركز من مراكز العلم والعرفان في الدنيا .

وقد كان المبنى الأول للأزهر ـ كما أنشأه جوهر ـ يتكون من مسجد لا يزيد حجمه عن نصف الجامع الحالي وملحقاته ، وكان يتكون من الصحن الحالي المكشوف الذي تحف به العقود المدببة ، وبيت الصلاة الذي يقع الى شماله ، وكانت له مجنبتان : يمنى ويسرى ، لكل منهما ثلاثة اروقة ، ثم توالت الاضافات بعد ذلك ، حتى أصبح الجامع القديم محصوراً في قلب الجامع الحالي .

والإضافات مجموعة من الأبنية ، ما بين أروقة جديدة ومدارس ومحاريب ومآذن وميضآت . وقد فقد الجامع ـ نتيجة لهذه الزيادات والتعديلات ـ هيئته الاصلية ووحدته الفنية ، ولهذا فالجامع الأزهر ـ اليوم ـ شبيه بمعرض واسع للفن الاسلامي في مصر ، من بداية العصر الفاطمي الى اليوم .

وإذا دخل الانسان من باب المزينين ـ وهو الباب الرئيسي للجامع ويقع في ميدان الأزهر ـ سار في ممر طويل ، فعلى يمينه مبنى المدرسة الأقبغاوية ، التي بناها الأمير المملوكي علاء الدين أقبغا عبد الواحد سنة ١٣٣٩/٧٤٠ في جزء من ساحة الأزهر

وجعلها ملحقة به . وهذا الأمير كان من أكبر من اهتموا بعمارة الأزهر ، فقد أنشأ لمدرسته تلك بيت صلاة وقبلة ومنارة ؛ ويقول المقريزي إن هذه المدرسة من أشد المدرس ظلاماً في داخلها لأن الأمير الذي بناها فعل ذلك بأموال اغتصبت من الناس وسخر العمال في بنائها . وكان أقبغا هذا مقدم المماليك في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقد استعملت هذه المدرسة ـ الى حين قريب ـ مكتبة للأزهر .

وعلى يسار الممر يقوم مبنى المدرسة الطيبرسية القديمة ، نسبة الى الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش بمصر في دولة الناصر محمد بن قلاوون ، وقد بنيت قبل المدرسة الاقبغاوية في سنة ٧١٩/ ١٣١٩ ، وكان طيبرس على خلاف أقبغا اميراً صالحاً ، وقد بنى هذه المدرسة وجعلها مسجداً في نفس الوقت ، وتأنق في بنائها وأنفق مالاً جزيلاً في اتقانها وزخرفتها ، وكان مبنى هذه المدرسة من الداخل قطعة من الفن الاسلامي في أحسن صورة ، ولكنها اتخذت في سنة ١٣١٤/ ١٨٩٦ ملحقاً لمكتبة الازهر فإذا فرغ الزائر من ذلك الممر بين المدرستين أفضى إلى صحن الجامع ، وهو صحن فسيح تحيط به البوائك من كل جهاته ، وهذا الصحن قبل جامع القديم ، ويليه بيت الصلاة الذي ينتهي بجدار القبلة القديم ، تليه بعد ذلك زيادة عبد الرحمن كتخدا وكان من كبار أمراء المماليك في مصر العثمانية ، فقد قام هذا الرجل في سنة ١١٦٧/١٧٥٣ بترميم مباني

الأزهر ، وأضاف اليه زيادة كبيرة شمال بيت الصلاة الأصلي ؛ وتبلغ هذه الزيادة أكثر من نصف حجم الجامع الأصلي ، وهي بيت صلاة كامل بقبلته ومحرابه يقوم على خمسين عموداً ، يقوم عليه خمسون عقداً من نفس طراز نفوذ الأزهر الأصلية ، وأنشأ في جدار القبلة الجديد محراباً بديعاً ، ورفع قبة جميلة فوق بلاطة المحراب ، وصنع لهذه الزيادة منبراً بديع الصنع ، والى جوار المحراب يقوم محراب أصغر منه يسمى بمحراب الدردير ، ثم محراب آخر ثابت حديث الصنع . وبهذه الزيادة أصبح بيت صلاة الأزهر من أكبر بيوت الصلاة في مساجد مصر .

وأنشأ مبنى واسعاً له باب يؤدي الى حارة كتانة ، وهذا الباب هو المشهور اليوم باسم باب الصعايدة ، وهو باب فخم جميل أنشأ عبد الرحمن كتخدا بأعلاه غرفة تقوم على اعمدة رخامية خصصها لتحفيظ الصبيان القرآن ، وداخل الرحبة أقام كتخدا ضريحه وصهريجاً وسبيل ماء ، وفوق ضريحه تقوم قبة صغيرة . وأنشأ الى جانب باب الصعايدة المئذنة المنسوبة اليه ؛ وإليه يرجع الفضل في القاء الباب الرئيسي للأزهر ، وهو المعروف الآن بباب المزينين .

وللأزهر اليوم خمس مآذن مختلفة الطرز ، لأنها بنيت في عصور متفاوتة ، منها اثنان من إنشاء عبد الرحمن كتخدا ، وواحدة تنسب الى السلطان قايتباي ذات جوسقين وعمامتين ، وهي أكبر مآذن الأزهر .

وكان للجامع ثلاثة عشر محراباً ، بقي منها ستة ، أقدمها محراب ايوان القبلة القديمة عند جدار المسجد الاول . وهذه المحاريب تتفاوت في الجمال واتقان الصنعة .

وللأزهر ثلاث قباب ، أجملها واكبرها تلك التي تقوم فوق المدرسة الجوهرية الملحقة بالأزهر ، وتقوم على رقبة ذات شماسات ثم عقود مدببة مزينة من الخارج بنقوش عربية غاية في الجمال .

جامع أحمد بن طولون .

يقع هذا المسجد الهائل المساحة شرق حي السيدة زينب جنوب القاهرة ، في موقع مدينة القطائع التي أنشأها أحمد بن طولون لتكون معسكراً لجنده ومقراً لحكومته . شرع ابن طولون في بناء هذا المسجد ٨٧٩/٢٦٥ ، وكان تخطيطه ـ ولا يزال ـ تخطيط حصن ، فهو مسجد حصن وله مئذنة ملوية .

وقد توالت أعمال التجديد والبناء في جامع ابن طولون ، ولكنه لا يزال محتفظاً ـ الى اليوم ـ بهيئته الأصلية ، سواء في هيكله العام أو تفاصيله المعمارية . وهو قائم على تل مرتفع ، فلا يوصل اليه إلا بواسطة سلم ، والمسجد مربع مقاييسه ١٦١.٥×١٦٢.٥ متراً ، أي أن مساحة ٢٦١٤٣ متراً مربعاً تقريبا ، فهو ـ على هذا ـ من أضخم المساجد في عالم الاسلام ؛ وفي وسطه صحن مكشوف تربيعه ٩١,٨٠×٩٢,٥ متراً .

وجوف بيت الصلاة يتكون من خمسة أساكيب تقوم على عقود مدببة من الحجر والآجر ، ترتكز على دعائم ضخمة من الآجر ، وعدد أروقفته - أي بلاطاته - الشارعة من الصحن إلى جدار القبلة ١٧ ، كلها على نفس النسق مما يعطي بيت صلاة المسجد جمالاً فريداً . وقد أقيمت في أركان الدعائم أعمدة زخرفية محلاة بالزخارف ، وغطيت العقود بزخارف جصية متنوعة ، ويدور بجدران بيت الصلاة إزار خشبي ، نقشت عليه بالخط الكوفي البارز سورتا البقرة وآل عمران . والجدران الداخلية للمسجد محلاة بشبابيك ذات عقود مدببة عددها ١٢٩ مغطاة بالجص المزين بالنقوش من كل نوع .

والمسجد متعدد المحاريب ، وعدد محاريب جامع ابن طولون خمسة ، اكبرها وأهمها الأوسط وهو محراب مجوف عمل أيام لسلطان المملوكي سيف الدين لاجين ، وهو مزخرف بالفسيفساء الزجاجية والمذهبة الملونة وقد نقشت بينها الشهادتان . وطاقية المحراب - أي أعلاه - مصنوعة من الخشب المزين بالزخارف الملونة ؛ أما بقية المحاريب فمسطحة .

وصحن المسجد الفسيح يملأ النفس اجلالاً ، فهو شاسع رفيع الجدران تطل عليه البوائك من كل ناحية ، إذ يحيط به بيت الصلاة ، ومجنبتان يسرى ويمنى كل منهما من رواقين ، ومجنبته الخلفية من رواقين ايضاً ، فمتوسط الصحن قبة كبيرة تشوب

بوضعها جمال الصحن الفسيح ، وقد نشئت هذه القبة مرة بعد مرة ، والقبة الحالية ـ التي تقوم على بناء مربع نشأها السلطان سيف الدين لاجين سنة ١٢٩٧/٦٩٦ .

أما مئذنة الجامع فهي الثانية من طرازها في العالم فهي ذات مصعد خارجي يدور حول بدنها حتى أعلاها ، وهي توأمة مئذنة مسجد سامر الجامع ، وتقوم غرب الجامع مستقلة عنه ، ويدور بها المصعد الحلزوني الذي ذكرناه ، وهي تتكون من أربع طبقات ، الأولى مربعة ، والثانية مثمنة ، والثالثة مثمنة والرابعة على نفس الهيئة تعلوها قبة صغيرة .

وأهم ما يميز هذا المسجد هيئته المربعة وتماثل اجزائه ، فإن الناظر الى جدرانه تستوقف نظره صفوف الشبابيك المتراصة تعلوها الشرافات الجميلة التي تكون إفريزاً جميلاً للسقف الكبير .

بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسم الله

الجامع العتيق باسنا

إسنا مدينة مصرية قديمة بالصعيد الأعلى ، ذكرها جويتية فقال ، ان اسمها المقدس (Hat Khno Umou) معناها الإله خنومو وهي ترمز للسماء وكذلك في العصر الفاطمي قاعدة كورة إسنا وفي العصر المملوكي كانت من أعمال ولاية جرجا . وفي

سنة ١٨٣٣ أصبحت إسنا قاعدة مأمورية قائمة بذاتها ، وكانت هذه المأمورية تضم أحياناً الى قنا ويتكون منهما مديرية واحدة . وفي سنة ١٨٦٨ فصلت إسنا عن قنا وأصبحت مديرية إسنا ، وكانت تتكون من أربعة أقسام وهي إسنا وأدفو والكنوز وحلفا . ولما ظهرت أخطار الثورة المهدية في السودان أالغيت مديرية إسنا وأضيفت الى مديرية قنا وكان ذلك سنة ١٨٨٨ م .

كانت اسنا ولا تزال مدينة عظيمة بلغ عدد منازلها في القرن (١٤) ثلاثة عشر الف منزل مبنية بالاجر ، وكان بها سبعون حارة كبيرة . وكان بها ثلاثمائة وسبعون فدانا مغروسة نخيلا وكرما وقصبا قال الادفوي : انه كان يتحصل سنويا من اسنا اربعون الف اروقصبا قال الادفوي : انه كان يتحصل سنويا من اسنا اربعون الف اردب تمر واثنا عشر الف اردب زبيبا . وكان بها كثير من المتاجر والحوانيت والحانات ترد اليها البضائع من القاهرة والاقاليم القبلية واهمها الاقمشة ، كالبرد والاردية المسماة الشقق الخاصة بالرجال والنساء ، وكان بها كثير من الحرف كصناعة المنسوجات الصوفية السميكة المعروبة (بالكليم) وصناعة المقاطف ونحوها مما يصنع من سعف النخيل . كذلك ف كان يرد الى اسنا القوافل الاتية من منار تحمل اليها الحاصلات السودانية كما كانت تشتهر بابراج الحمام .

ومن الاحداث التاريخية الهامة التي وقعت باسنا وذكرها ابن

ثغري بردي ، خروج ابن الصوفي العلوي بالصعيد ودخوله اسنا سنة ٢٥٥هـ فنهبها وقتل اهلها . وكان الوالي على مصر في ذلك الوقت هو احمد بن طولون ، فبعث اليه بجيش التقى مع ابن الصوفي في ناحية (هو) فانهزم جيش ابن طولون ، فارسل اليه جيشا آخر فالتقيا باخميم وانهزم ابن الصوفي وفر الى اسوان ثم الى مكة .

ويقيم باسنا عدد غير قليل من الاقباط ، ولذلك فاننا نجد بها الكثير من الكنائس والاديرة ولعل اهمها دير وكنيسة منعزلان عنها ومن الجهة القبلية ، وتعرف الكنيسة بمقتلة النصارى نسبة لاستشهاد كثير منهم بها في العصر الروماني ، كما ان ديرها كان من اشهر اديرة الصعيد الاعلى .

وبالمدينة كثير من المساجد الجامعة اقدمها الجامع العمري الكبير الذي يحتوي على لوحة تاسيسية منقوش عليها اسم بدر الجمالي سنة ٤٧٠هـ في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي .

ومن المساجد الهامة هناك ، جامع الضوى نسبة الى الشيخ الضوى المدفون بقبة متصلة بالجامع . وكان باسنا كثير من البيوتات المعروفة بالاصالة والرياسة والفضل حتى قيل انه كان بها في وقت واحد سبعون شاعرا ، وخرج منها جمع كبير من اهل العلم والأدب . ومن بيوتها العريقة بنو السديد وبنو الخطيب وبنو أشواق وبنو النضر ، فقد تولى معظم أعضائها مراكز رئيسية وهم

الذين بنوا جامع الخطبة سنة ٤٢٠ هـ ، ثم أضافوا اليه زيادة سنة ٤٩٥ هـ ، وإن كانت يد الاصلاح والتعمير قد توالت عليه فلم تترك للمبنى القديم . وكان المذهب الشيعي منتشراً باسناً حتى العصر المملوكي ، وقد استطاع الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطي عندما وفد اليها أن يخفف من حدة التشيع .

الجامع العتيق

ومن اهم مساجد اسنا الجامع العتيق ويعرف كذلك باسم الجامع العمري ، وهذه التسمية الاخيرة تكاد تطلق على اقدم مسجد في كل اقليم او منطقة من مناطق مصر وذلك نسبة الى ان جامع عمرو بن العاص هو اول مسجد انشىء في مصر الاسلامية .

يرجع تاريخ هذا المسجد الى العصر الفاطمي ، وقد تهدم المسجد القديم وجدد عدة مرات فتغيرت معالمه الاصلية ولم يبق منه غير المئذنة التي تقع في الركن القبلي من الواجهة الغربية للمسجد . وقد طرأ على قاعدتها بعض التغير اثناء العمارة التي اجريت للباب الغربي سنة ١٢٩٥هـ . وعلى قاعدة المئذنة مزولة من عمل خليل افندي ابراهيم مهندس الخريطة الفلكية سنة ١٢٨٧هـ . وقد ثبت على يمين المحراب لوح من الرخام مقاسه ٢٩×٥٨ سم مكتوب عليه بالخط الكوفي « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر واقام

الصلاة واتى الزكاة ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين . صلوات الله وبركاته على مولانا وسيدنا الامام المستنصر بالله امير المؤمنين وعلى آبائه الطاهرين وابنائه الاكرمين . امر بعمارة هذا الجامع المبارك السيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام ناصر الامام ابو النجم بدر المستنصرى أدام الله قدرته . وأعلى كلمته القاضي أبا الحسن علي إبن أحمد بن محمد بن النضر فأسس في النصف من ذي الحجة سنة تسع وستين وأربع مائة وسقف في النصف من شهر ربيع أول سنة سبعين وأربع مائة وفقه الله لمرضاته واعانة على طاعته كما يصرف اهتمامه الى عمارته .

وقد احتوى النص التذكاري اسم (ابن النضر) على اعتبار انه قام بعملية التعمير من قبل بدر الجمالي ، ويحدثنا الادفوى عن بني النضر فيقول « وبنوا جامع الخطبة باسنا بعد العشرين واربعمائة » ويضيف على ذلك فيقول « وبنى الزيادة التي فيه على بن محمد منهم « اي من بنى النضر كذلك » في سنة تسع وخمسين واربعمائة ، وكان ذلك ناظر الاجباش بالأعمال القوصية » .

يتبين لنا من هذا النص الاخير ان الذي عمر هذا الجامع هم بنو النضر سنة ٤٢٠هـ ثم زادوا في عمارته سنة ٤٥٩هـ ، وليس بدر الجمالي كما يقول حسن عبد الوهاب ، ولكن من المرجح ان يكون بدر الجمالي قد اعاد بعض اجزائه كما هو ثابت في اللوحة

التاسيسية وتصادف كذلك ان كان منفذ امر بدر الجمالي في عمارة المسجد هو على بن النضر .

وتعتبر مئذنة جامع اسنا من اقدم المآذن المؤرخة في مصر الاسلامية ، وعلى غرارها انشئت مآذن الوجه القبلى ، كما بقيت اللوحة التذكارية لانشائها وهي مثبتة على يسار المحراب مكتوبة بالخط الكوفي نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين هذا مما امر بانشاء هذه المئذنة الاجل المنتخب فخر الملك سعد الدولة تاج المعالي ذو العز بن حسام امير المؤمنين ابو منصور سارتكين الجيوشي نصرة الله وظفرة ووفقة واحسن عونه في شهور سنة اربع وسبعين واربعمائة ، ابتغاء مرضاة الله تعالى وثوابه ورجاء الدار الاخرة والامن من عقابه رحمة الله تعالى وحشره مع مواليه الطاهرين صلوات الله عليهم اجمعين ورحم من ترحم عليهم آمين يا رب العالمين »■

مسجد ابي الحجاج الاقصري

عرف الصعيد المصري في القرن السابع الهجري السيد يوسف بن عبد الرحيم ابن غزى المشهور بابي الحجاج الاقصري

المتوفي سنة ٦٤٢هـ ـ ١٢٤٤ ميلادية علما من اعلام التصوف وشيخا من شيوخ التربية الروحية الذي تخرج على يديه الالاف من ابناء الصعيد ومسجده الذي يحتل الجانب الشرقي من معبد امون بالاقصر يعتبر من اهم المساجد الاثرية في مصر فقد شيد على انقاض كنيسة كانت قد انشات في هذا المكان في اوائل عصور المسيحية وقد ذكر ابو جعفر الادفوي في الطالع الصعيد ان الذي بنا الضريح الذي على الشيخ الاقصري هو ميلادية لكن المنار الاثرية التي تقع بالجهة البحرية من هذا الضريح قد اختلف المؤرخون وعلماء الاثار فيمن بناها .

فالاثري البريطاني المستر كريزول يقول في مؤلفه ان هذه المنارة قد بنيت في عصر بدر الجمالي الوزير الفاطمي المتوفي سنة ٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤ ميلادية وأردف قائلاً أنها فاطمية الطراز وتشبه الى حد كبير منارة الجيوش بالقاهرة والراجح أن هذه المنارة وأن كانت فاطمية الطراز إلا أنها لم تشيّد في عصر بدر الجمالي .

من هذا القول نستطيع ان نقول ان المآذن والمنارات التي في مدن الصعيد كاسنا والاقصر وقوص من عمل الامير الافرم وهي متشابهة من حيث التصميم والبناء ومما يؤكد لنا هذا القول بالنسبة لمنارة أبي الحجاج الاقصري بصفة خاصة هو انه احد احفاد ابي الحجاج وهو الولي الصالح يوسف احمد النجم كان قد رحل الى مصر المحروسة لزيارة جده الامام الحسين في زمن الملك

العادل زين الدين كتبغا فسمع به الامير الافرم هذا وكان محبا للعلماء والصالحين فاجتمع به واكرم وفادته وبني له جامعا بباب البحر واوقف عليه اوقافا كثيرة واكرم اولاده بالاقصر وكان من ماثر كرمه ان اصلح مسجد ابي الحجاج فانشأ به هذه المنارة الخالدة .

وقد وصف المؤرخ البريطاني المستر كريزول هذه المنارة قائلا انها مبنية من الطوب اللبن ومقواة بدعائم خشبية موضوعة على كل جانبية في مستويات ثلاث وقد بنيت قنطرتها من الطوب الاجر وسلمها عرضه ٧٥سم .

وقد زار هذا الاثر الاسلامي الكثير من الامراء والسلاطين في مختلف العصور وعدد من المؤرخين والرحالة العرب كابن بطوطة والادفوي وشهاب الدين الفلقسندي والعالم النجوي مرتضى الزبيري . وقد شملت يد الاصلاح هذا المسجد على تباين العصور ففي عهد الخديو عباس حلمي الثاني الذي حكم مصر سنة ١٨٩٣ هـ ـ ١٩١٤ م جدد عمارة هذا المسجد وأنشأ به المئذنة الحالية التي تقع بالجانب الغربي من ضريح الشيخ وقد اتجهت أنظار علماء الآثار المصريين في العصور السابقة الى هدم هذا المسجد الأثري لتسنى لهم الكشف عن بقية أثار معبد آمون بالأقصر . ففي سنة سبعة قرون متعاقبة ١٩٤٨ أنشيء مسجد على الطراز الأندلسي يحمل اسم أبي الحجاج كان الغرض من

انشائه هو نقل جثمان الشيخ اليه بغية التنقيب عن الاثار المصرية لكن هذه المحاولة باءت بالفشل وفي عصرنا الحالي يتوالى عليه الاصلاح .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان يظل هذا المسجد رابضا فوق اطلال معبد امون بالاقصر رغم تلك الجهود التي بذلت في العهود السابقة نحو هدمه ولئن وصف بانه مسجد متواضع من الناحيتين الفنية والمعمارية الا انه يمثل في هذا المكان الوحدانية على مدى

وعلى اثر ذلك اكتسب هذا المسجد بدلالته التاريخية هذه شهرة واسعة النطاق في مختلف العواصم الاوربية حتى ان السائحين الاجانب الذين يفدون الى الاقصر لزيارة معالمها الاثرية يزورون هذا الاثر الاسلامي الخالد ويلتقطون لانفسهم صورا تذكارية بالقرب منه .

جامع الرصد

بجبل الرصد
أو اسطبل عنتر
جنوب مصر القديمة

كان لعلم النجوم اثر كبير في توجيه سياسة بعض خلفاء الدولة الاسلامية الذين كانوا يعتمدون على التنجيم في تنفيذ سياستهم ، فقد اعتمد ابو جعفر المنصور على النجوم في تاسيس

مدينة بغداد بعد ان استشار منجمه ابا سهل بن نوبخت . كما احتار الاسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم في بلاد اليمن لانهم عرفوا عن طريق النجوم انه سيكون له شأن في نشر هذه الدعوة في تلك البلاد . وكذلك حذا الفواطم حذو العباسيين في الاعتماد على التنجيم فقد ذكر ابن دقماق أن مدينة القاهرة سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذي يسمى (القاهر) .

ومهما يكن من الامر فاننا لسنا في مجال التحقيق او الاستقراء ، ولكن الذي نستطيع ان نقول به ونؤكده ، هو ان الفاطميين اهتموا بالنجوم ورصدها واستدعوا لذلك الكثير من المنجمين . فعندما دخل المعز لدين الله مصر قدم معه منجمه محمد بن عبد الله بن محمد العتقي ورفع العزيز بالله المنجم ابا عبد الله بن القلانسي الى ان توفي سنة ٣٨٦هـ . وأنشأ الحاكم بالمقطم منزلا يرصد فيه النجوم وعمل له منجمه ابو الحسن علي بن يونس الزيج الحاكمي في أربعة مجلدات .

وصف الجامع

نستفيد مما تقدم أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد بنى مرصدا على سفح جبل المقطم ، ومن المرجح ان يكون الجرف الذي بنى عليه الحاكم مرصده قد اصبح كما يفهم ذلك من رواية المقريزي عن جامع الفيلة اذ يقول : جامع فيلة يقع بسطح الجرف المطل على

بركة الحبش المعروف الان بالرصد . وقد بنى هذا الجامع الافضل شاهنشاه بن امير الجيوش بدر يعرف منذ ذلك الوقت باسم جبل المرصد الجمالي في شعبان سنة ثمان وتسعين واربعمائة وبلغت النفقة على بنائه ستة آلاف دينار .

ويكمل المقريزي تاريخ بناء الجامع فيقول : ولما كمل بناء الجامع قام في خطابته الشريف الزكي امين الدولة وابو جعفر محمد بن هبة الله الحسيني ، الذي ولي قضاء عسقلان وغيرها ثم قدم الى مصر فولى الحكم بالمحلة وولى ديوان الاحباش وكان احد الاعيان الادباء العارفين بالنسب ومن المجيدين و والنحاة اللغويين . ولد بطرابلس الشام سنة ٤٦٢هـ وقدم الى القاهرة سنة ٥٠١هـ ومدح الافضل شاهنشاه فرشح للنقابة بمصر ولم ينلها مع تطلعه اليها ، فلما عينه الافضل في خطابة جامع الفيلة عز عليه ان يكون هذا جزاءه ، فلما رقى المنبر لاول خطبة تلقى في هذا الجامع ارتج عليه فلم يدر ما يقول وكان هناك الشيخ ابو القاسم علي بن منجب ابن الصيرفي في الكاتب وولده مختص الدولة وغيرهما من وجوه الدولة ، فلما اضجر من حضر نزل عن المنبر وقد حم فتقدم قيم الجامع وصلى ومضى الشريف الزكي الى داره فاعتل وبقي مريضا حتى مات سنة ٥١٧هـ .

ولعل في اهتمام الافضل شاهنشاه بعلم الفلك ورغبته القوية في عمل زيج يفوق الزيج الحاكمي مما يؤ يد ما رجحناه من أنه قد

أقام مسجد الرصد مكان مرصد الحاكم بأمر الله . فقد ذكر المقريزي ، انه عمل للافضل مائة تقويم لاستقبال سنة ٥٠٠هـ فوجد بينها اختلافا كثيرا فانكر ذلك ، فلما كان غره سنة ٥١٣ سألهم عن السبب في الاختلاف بين التقاويم فقالوا : الشامي يحسب ويعمل على رأي الزيج الماموني ، ونحن نعمل على رأي الزيج الحاكمي لقرب عهده وبين المتقدم والمتأخر تفاوت ، ثم اشاروا عليه بعمل رصد مستجد . فنشط في اقامة المرصد وساعده جميع المهندسين وعلماء االحساب والتنجيم الى ان قتل الافضل سنة ٥١٥هـ وولى الوزارة المامون البطائحي فأحب ان يتم هذا الرصد على ان يعرف بالرصد المأموني المصحح واستمر العمل الى ان قتل الوزير البطائحي سنة ٥١٨ فوقف العمل به .

واود قبل ان اختم الكلام عن مسجد الرصد ان اذكر اهمية الرصد بالنسبة للدولة الفاطمية من الناحية الدينية . فمن المعروف ان من المسائل الفرعية التي يختلف فيها الشيعة الاسماعيلية عن مذهب اهل السنة هو ابتداء شهر الصوم ، بينما يذهب جمهور اهل السنة الى ضرورة رؤ ية الهلال لبداية الصوم فقد لجأ الفاطميون الى الفلك والحساب فعملوا تقويما قمريا يحسبون بمقتضاه سير القمر ويقدرون منازله حتى يعرفوا ان هلال رمضان قد اهل حقا . كذلك فسروا قول النبي الكريم « صوموا لرؤ يته وافطروا لرؤ يته انها رؤ ية استبصار ولا رؤ ية ابصار » . ☐

من روائع الفن الاسلامي

الاسواق والوكالات

تعد اسواق مصر من اشهر الاسواق العالمية فقد كانت تعتبر ملتقى تجارة الشرق والغرب واستمر ازدهار هذه الاسواق بعد الفتح الاسلامي وانشاء مدينة الفسطاط والقطائع والعسكر ثم القاهرة الفاطمية . . حتى العصر العثماني .

وكان استمرار عمران القاهرة في ازدياد داخل اسوارها وخارجها فاقيمت المباني الفخمة والاسواق الكبيرة والدكاكين التجارية المتعددة التي كانت ملكا خاصا للخلفاء والامراء حكام مصر .

وكانوا يفخرون اذا شيدوا وكالة او سوقا يعود عليهم من ايجارها بالمال الوفير . . وكان يتراوح ايجار الغرفة او الدكان بين دينارين وعشرة دنانير في الشهر . .

وكان بالقاهرة القديمة اكثر من خمسين سوقا . . تسقف بالحصير او الخشب وتطل عليها النوافذ والمشربيات .

ومن اشهر الاسواق التي ذكرها المقريزي سوق القصبة وكانت اعظم اسواق مصر في عصره ، فقد احتوت على اثني عشر الف

دكان حيث امتدت السوق من حي الحسينية الى المشهد النفيس .

كانت هذه الدكاكين تغص بانواع المآكل والمشارب والامتعة التي تبهج رؤ يتها النفس .

وقد تفرعت على هذه الاسواق اسواق صغيرة اخرى اهمها سوق باب الفتوح وسوق حارة برجوان وسوق الشماعين وسوق الدجاجين وسوق بين القصرين ومن الاسواق المشهورة سوق السلاح وكان يمتد بين جامع ومدرسة الظاهر بيبرس وبين باب قصر بشتاك وقد جددت بعد الدولة الفاطمية وجعلت لبيع انواع والات السلاح .

كما كان سوق باب الزهومة وسوق اللحميين وسوق الجوخيين وسوق الحلاويين وسويقة امير الجيوش وسوق الصنادقيين والحريريين والعنبريين والخراطين والقرابين والنحاسين وغير ذلك من السويقات العديدة مشهورة في جميع مشارق ومغارب العالم الاسلامي حيث كان ياتي لها التجارة من الهند والصين وايران والعراق والشام وتركيا والمغرب وايطاليا واليونان واسبانيا

وكان امراء المماليك يفاخرون بما يشيدون من وكالات واسواق وهكذا سار المعمار في العصر العثماني على نهج المعمار المملوكي في بناء الوكالات من حيث وجود صحن اوسط كبير

مكشوف تحيط به بوائك تؤدي لحواصل تخزين البضائع تعلوها حجرات لعرض البضائع ويعلوها طابق اخر لمعيشة التجار فترة اقامتهم بالوكالة .

ولم تتعد الوكالات القاهرة الفاطمية القديمة فجميعها موجود بحي الازهر وبين القصرين والخرنفش والدرب الاصفر وباب النصر وكلها مناطق متقاربة وهي نفس الاماكن التي بها كثير من الوكالات القديمة التي ازدهرت في العصر المملوكي مثل وكالة قوصون ووكالة قايتباي ووكالة الغوري بالتبليطة التي تستعمل حاليا مركزا ثقافيا وفنيا هاما .

واستمر تشييد الوكالات في هذه المناطق ما عدا وكالة سليمان باشا ببولاق ووكالة وقف التونجي بالصليبية وبالرغم من ذلك احتفظت القاهرة القديمة باسواقها ووكالاتها وكيانها كحي المال والتجارة .

وفي عام ٩٠٣هـ امر والي القاهرة بان ينادي باسم السلطان بان سكان الاسواق والوكالات والحارات يعملون عليها دوربا وبوابات وذلك منعا لتعدد حوادث السرقة وعين عليها البوابين والحراس وكانت تغلق عقب صلاة العشاء وبعضها كان يغلق عقب الغروب .

بقي من هذه الدروب والبوابات ما هو موجود على سوق تحت

الربع وعلى سوق احمد بن طولون وعلى سوق امير الجيوش .

وحينما كانت تقع اضطرابات او قلاقل كانت تغلق ابواب الدروب . . وبقيت تلك الابواب فترة طويلة تؤدي وظيفتها حتى القرن التاسع عشر .

وكان في القاهرة الكثير من مباني الاسواق والوكالات ذات المباني الرائعة التي كتب عنها المؤرخون . . لقد كانت القاهرة مدينة رائعة الجمال فخمة البناء جميلة العمارة متجانسة في طرزها وزخارفها الاسلامية

من روائع الفن الاسلامي

مسجد الصالح طلائع

انشأ هذا الجامع ابو الغاوات الملقب بالملك الصالح طلائع ابن رزيك عام ٤٩٥هـ على رأس تقاطع شارع الدرب الأحمر امام باب زويطة ، وكان الملك الصالح وزيرا للفائز بنصر الله الخليفة الفاطمي ويعتبر اخر جامع انشىء في عهد الدولة الفاطمية .

وقد شيد هذا الجامع خصيصا لتدفن فيه راس الحسين بن علي رضي الله عنه ولكن الخليفة الفائز اصر على دفنها داخل القصور الزاهرة حيث المشهد الحسيني الان .

ويعتبر جامع الصالح طلائع من المساجد المعلقة لإرتفاعه عن مستوى الشارع بحوالي اربعة امتار فوق مجموعة من الدكاكين اسفل ثلاثة من واجهاته الحجرية ، ويقع الباب الرئيسي للجامع في وسط الواجهة الرابعة الغربية . . التي تعد اجملها . . ولا سيما من ناحية التصميم .

وقد اقيم امامه رواق محمول على اربعة عمد رخامية جليت عقودها بزخارف جميلة وقد حلي صدر الرواق وجانباه بزخارف على شكل مروحة نقشت بافاريزه آيات قرآنية كتبت بالخط الكوفي المزهر .

وكان للجامع باب خشبي من مصراعين صفح وجهاها بالنحاس المزخرف اما ظهر المصراعين فمن الخشب المحفور بزخارف فاطمية .

يتكون من الداخل من اربعة اواوين بتوسطها صحن فسيح به صهريج كان يملأ وقت الفيضان من الخليج عند باب الخرق « باب الخلق » .

ايوان القبلة يتكون من ثلاثة أروقة ويتكون كل من الاواوين الثلاثة الاخرى من رواق واحد وعقود هذه الاروقة محمولة على عمد رخامية .

ويمتاز محراب الجامع ببساطته وحيط به عمودان من الرخام الاحمر والى يمين المحراب منبر رائع دقت حشواته بالاويمة الدقيقة

المتقنة الصنع بامر الامير كندار عام ٦٩٩هـ وكان قد جدد مئذنته عقب سقوطها بسبب الزلزال .

بالجامع بعض بقايا الزخارف الجصية والاخشاب المنقوشة بزخارف هندسية يشيع فيها مجموعة كبيرة من الكتابات الكوفية المزهرة التي تدل على مدى ما وصل اليه فن الزخرفة من رقي في العصر الفاطمي .

كما تمثل الصرر الزخرفية المستدير أهم العناصر الزخرفية بهذا الجامع التي تنتشر في أرجائه .

وكان الصالح طلائع شاعرا تقيا وسياسيا حكيما ارمني الاصل . . ومات ضحية نساء القصر اللاتي ارسلن اليه بعض الرجال فكمنوا له في دهاليز القصر وضربوه حتى سقط مغشيا عليه وحمل جريحا .

وكان آخر ما فاه به ندمه على انه لم يستخلص بيت المقدس من ايدي الفرنجة ونصح ابنه ان يحذر « شاور » حاكم الوجه القبلي من دخول ملك بيت المقدس البلاد المصرية التي حدثت فعلا بعد ذلك باعوام .

مسجد ساهرا الجامع

بدأ الخليفة المعتصم بالله (٨٣٣ ـ ٨٤٢) في إنشاء سامرا سنة ٨٣٦ ، ولم يكن يريدها ان تكون مدينة ملكية كما فعل عبد الرحمن الناصر عندما نشأ مدينة الزهراء ، وانما اراد أن تكون

معسكراً يؤوي جنده التركي ويبعدهم عن بغداد بعد أن ضاقت بهم وآذوا سكانها . فكل مبانيها لا تمتاز بجمال او أناقة ، وإنما تمتاز بالضخامة والمتانة حتى تتحمل الأعداد الضخمة من الجنود والحرس ، ولم يبق من المدينة الآن أطلال بالية ، والكلام كله قائم على استنتاجات بنت على ما كشف من بقايا أساسات المباني .

هذا ينطبق على ما كشفت آثاره من مباني سر من رأي ، مثل الجوسق الخاقاني الذي بناه الخليفة لسكناه ، وقصر بلكوارا الذي بني لسكنى أحد بلاد المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١) ، اما مسجد سامرا الجامع الذي بناه المتوكل ، وهو دون شك أوسع ما بنى المسلمون من مساجد ، وقد بقيت أجزاء من جدرانه التي تشبه أسوار الحصون ، وبقيت مئذنة ذات المصعد اللولبي الخارجي التي تذكر الانسان بفكرة برج بابل : المسجد كله مبني بالآجر (الطوب المحروق) ويبلغ سمك الجدار أكثر من مترين ونصف متر ، تؤيده ـ على مسافات متساوية ـ دعامات خارجية نصف دائرية يزيد قطر الواحدة منها عن ٣,٥ امتار ، وتبعد الواحدة عن الاخرى ١٥ متراً وتقوم أربع منها عند الأركان .

والمسجد مستطيل ، مقاييسه ١٥٦×٢٤٠ متراً ، أي أن مساحته كانت ٣٧٤٤ متراً . ويذكر المؤرخون انه أضيفت إليه فيما بعد زيادات جعلت مقاييسه ٤٤٤×٣٧٦ متراً ، أي أن

مساحته بزيادته بلغت ١٦٧,٩٤٤ متراً اي اضيف الأربعين فداناً ، وهذه مساحة مدينة صغيرة لا مجرد مسجد جامع .

وكان جوف (عمق) بيت الصلاة ٦٢ متراً ، يتألف من تسعة أساكيب تقوم على تسعة صفوف من الدعامات ، في كل صف ٢٤ دعامة . وكانت تلك الدعامات مبنية بالآجر ، وضلع الدعامة الواحدة متران وارتفاعها عشرة أمتار ونصف . وكانت تحيط بالصحن مجنبات في الجهات الثلاثة يتألف كل منها من ثلاثة اروقة . وكان للمسجد ١٦ باباً . أما مئذنته ـ المعروفة بالملوية ـ فكانت تقوم على قاعدة مربعة ضلعها ٣٣ متراً ، ويبلغ ارتفاعها في الجو ٥٠ متراً فوق القاعدة المربعة ، أي أن ارتفاعها يعدل ارتفاع بيت حديث عن عشرين دوراً على وجه التقريب .

جامع الكُتُبِيَّة في مراكش

تعتبر مراكش ، درة المدن الاسلامية في أفريقيا من أجمل مدن الاسلام بل مدن الدنيا على الاطلاق ، وهي تمتاز بمساجدها ومدارسها وروضاتها الأثرية ثم القطع الباقية من أسوارها القديمة ، ولكن درتها الكبرى هي مسجد الكتيبة الذي يكاد يكون مدرسة للفن أو متحفا للابتكار المعماري جمع كل عجيبة .

هذا الجامع من إنشاء عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين ، شرع في بنائه سنة ٥٤٨/ ١١٥٣ ، أي في نفس

الوقت الذي أنشىء فيه جامع تينملل ، وهو ثالث الآثار المعمارية الموحدية الكبرى ، بعد تينملل ورباط تازا الذي أنشىء سنة ١١٣٣/٥٢٧ .

وجامع الكتيبة فسيح مستطيل الشكل ، وبيت الصلاة من اوسع بيوت الصلاة التي نعرفها ، وقد كانت اروقته في الأصل تسعة عمودية على جدار المحراب ، والرواق الأوسط ـ أو البلاطة الوسطى ، او رواق المحراب ـ آية في الروعة والجمال ، فان عقوده ـ كبقية عقود الجامع ـ تقوم على دعائم حجرية ، والعقد على هيئة حذوة الفرس مع تدبيب في أعلاها وانتفاخ في جانبيها ، وهي ـ على هذا ـ ت نموذج للعقود الموحدية في كل بلد من بلاد المغرب .

وفوق رواق المحراب ست قباب صغيرة ، وكذلك نجد فوق أسكوب جدار المحراب خمس قباب ، وكل هذه مزينة في داخلها بالمقرنصات والزخارف من كل نوع .

وأجمل ما يمتاز به جامع الكتيبة مئذنته ، وهي اروع مآذن المساجد الباقية ، ارتفاعها في الجو ٦٧,٥ مترا أي ارتفاع بيت من ٢٠ طابقا ، ومركزها أو قاعدتها بناء ضخم من ستة طوابق فيها غرف كثيرة ، حتى اذا وصلنا إلى شرفة الأذان ـ أو بيت المؤذن ـ انطلقت بقية المئذنة مستقيمة ، وجدرانها كلها مغطاة بأفاريز متوالية من الزخارف التي تحيرّ الألباب ، والنوافذ ذات

عقود من كل صنف ، منسقة على هيئة تتمشى مع السلم الداخلي الذي يصل الى أعلى هذه المئذنة .

مسجد سيدي عقبة .

يعتبر هذا المسجد أقدم مساجد المغرب بعد مسجد القيروان ، ويعتقد أنه نشأ أول الأمر ضريحاً ـ أو روضة ـ في الموضع الذي استشهد فيه عقبة الصحابي الفاتح العظيم .

والمكان الذي استشهد فيه عقبة مع أصحابه هو قرية تهودة ، والزمان سنة ٦٣ هجرية ، وتهودة تقع الى الجنوب قليلاً من بسكْرةَ في الجزائر الحالية . ويقوم المسجد في سهل فسيح قليل السكان غير بعيد من مجرى نهر صغير يسمى وادي الأبيوض ، ولا شك أن المسجد قد تناولته يد الترميم مرة بعد مرة قبل أن يصل الى شكله الحالي ، ولكنه ما زال محتفظاً بهيئته البسيطة التي ترجع الى عصوره الأولى .

والمسجد يقوم في واحة صغيرة تحمل اسم سيدي عقبة ، وهو يضم روضة صغيرة للمجاهد العظيم ، وبيت صلاة ذا أروقة فسيحة تقوم فوقها عقود مستديرة ترتفع على دعائم صغيرة من الآجر ، وكل الاعمدة والعقود في غاية من البساطة ما عدا عقود عقود رواق المحراب فهي مزينة بعض الشيء ، والمحراب بسيط مجوف مزخرف بطريقة بسيطة جدا لا تكلف فيها . وللجامع صحن مستطيل تحيط به البوائك . ورغم أن المعماري الذي

أنشأ المسجد في صورته الأخيرة تلك لم يتكلف أي زينة ، إلا أن المسجد ـ مع ذلك ـ يبهر الانسان بما يفيض فيه من النور ، وبعض أروقة قاعة الصلاة لا تكاد تتسع إلا لاثنين من المصلين ، ولكن مجنبات الصحن فسيحة رائعة يشعر الانسان اذا جلس فيها بفيض من الايمان يملأ نفسه .

وروضة عقبة ـ في الحقيقة ـ روضتان ، ففهيا أيضا دفن فرسه الخالد الذي دخل به إلى صدره في ماء المحيط الأطلسي ، وأشهد الله على أنه وصل براية الاسلام إلى آخر المعمور .

ومئذنة جامع سيدي عقبة شبيهة ببرج متوسط الارتفاع ، ولكنه غريب في هيئته . ويظهر بوضوح أن المعماري البسيط الذي أنشأها بذل اقصى جهده في الوصول بمعلوماته المعمارية البسيطة الى أقصاها ، فوفق في هذا توفيقا كبيرا .

مسجد المرابطين في مدينة الجزائر .

أمر ببناء هذا المسجد الجميل يوسف بن تاشفين أول أمراء المرابطين ، ويرجح أن الشروع في إنشائه كان سنة ٤٧٥/١٠٧٢ وقد أعيد ترميم هذا الجامع مراراً عديدة على طول تاريخه ، وإذا كان بعض زخارفه يرجع إلى عصور متأخرة فإن هيكله العام وأجزاءه الرئيسية ترجع إلى العصر المرابطي وهو من أجمل عمائر هذا العصر .

وبيت صلاة هذا الجامع يتألف من احدى عشرة بلاطة وخمسة أساكيب ، وتحيط بالصحن ثلاث مجنبات يتألف كل من المجنبتين منها من ثلاثة أروقة ، أما المجنبة الخلفية فتتألف من رواق واحد ، وعقود المسجد تقوم على دعائم حجرية . أما عقود الأروقة المؤدية الى جدار القبلة فمدببة منفوخة ، في حين أن عقود الأساكيب الموازية لجدار القبلة مفصصة على هيئة حذوة الفرس ، وفصوص هذه العقود متعددة ومثقلة بالزخارف .

وبوائك ذلك الجامع المطلة على الصحن آية في الجمال والتناسق ، وفصوصها من أجمل ما صنعه الفنانون المسلمون من هذا الطراز ، وكل جدران العقود مزينة بالزخارف المتداخلة المتشابكة .

وهذا المسجد يعتبر من المساجد المرابطية القليلة الباقية الى اليوم ، لأن مساجدهم الأولى التي أنشئوها في مراكش ـ لأول بنائها ـ وفي غيرها من بلاد دولتهم الشاسعة قد زال بعضها وبعضها الآخر أعيد بناؤه على أيدي الموحدين ومن جاء بعدهم .

مسجد أبي مدين وروضته في العباد

زهد ابو مدين ، شعيب بن الحسين الاندلسي (١١٢٦ ـ ١١٩٦) وبدأ حياة طويلة من الحج والسياحة والعبادة حتى توفي

في قرية العُباد فاقام له ابو الحسن المريني المسجد والروضة ؛ وقبره في مدين يعتبر اليوم من اعظم مزارات المغرب .

وروضة ابي الحسن عمل معماري بديع رغم صغر حجمها ، يدخل اليها من بوابة أندلسية تظلها شماسة مغطاة بالقرميد ثم تهبط السلالم المزينة بالزليج وتنتهي الى مكان القبر في قاعة مزينة كلها الزليج أيضاً .

أما المسجد المجاور لها فأندلسي الطراز ، وهو صغير الحجم نسبياً ولكن صحنه الصغير الأنيق تزينه نافورة في وسطه ، ويعتبر هذا الصحن ـ رغم صغر حجمه ـ من أجمل صحون المساجد في المغرب ، ونفس البوائك المغربية الطراز التي تحيط بالصحن تمتد في بيت الصلاة الصغير الجميل . هنا نجد العقود المستديرة تعتمد على دعامات مربعة من الحجر ، مزينة بزخارف حصية تذكرنا بزخارف الحمراء في غرناطة ، ورغم بساطة هذه العقود فإنها تروع النفس ببياض لونها وانتظام هيئتها ، والمحراب أندلسي منقول عن محراب مسجد قرطبة الجامع . وفوق بلاطة المحراب يرتفع سقف محدب يحل محل القبة . وتعتبر مئذنة الجامع التي بناها أبو الحسن سنة ١٣٣٩ من أجمل المآذن المغربية ذات الطراز الأندلسي في المغرب الأوسط .

جامع علي بنشين في مدينة الجزائر

بني هذا المسجد على الارجح سنة ١٠٣١/ ١٦٢٢ ، فهناك

وثيقة أوقاف خاصة به حررت بمعرفة القاضي الحنفي في ذلك التاريخ . ومنشىء المسجد ـ كما يتضح من تلك الوثيقة ـ رجل مسيحي هداه الله للاسلام وأصبح من كبار قواد الجيوش العثمانية . والمسجد صغير الحجم نسبياً ، ولكن بيت صلاته ينطق بالأثر التركي فهنا نجد قبة عثمانية الطراز مثمنة الأضلاع تقوم فوق قلب بيت الصلاة مرتكزة على اربع دعائم ضخمة ، وبيت الصلاة مقسم إلى ايوانات تزين الجانبين منها عشرون قبة صغيرة .

وقد أستولى الفرنسيون على هذا المسجد في ٢٨ مارس سنة ١٨٤٢ وحولوه الى كاتدرائية سموها سيدتنا مولاة الانتصارات .

وقد أراد الله له أن يخرج من اسره فعاد مسجدا مطهرا بعد الاستقلال .

جامع الحواتين

الحوّاتون هم صيادو السمك ، وهذا المسجد انشىء في منطقة تنسب اليهم ، وهو مسجد جميل يطل على البحر بواجهة هي الغاية في الجمال والرواء ، وهو أجمل نموذج للمساجد الجزائرية العثمانية الطراز .

وتقول وثيقة مؤ رخة في سنة ١٠٧٠/ ١٦٦٠ أن من أنشأ هذا الجامع رجل يسمى الحاج حبيب ، أنشأه بأموال تبرع بها

الحواتون والجنود واهل الخير . والمسجد يتبع في خطوطه العامة طريقة مسجد أيا صوفيا ، أي ان مركزه كله هي القبة التي تقوم فوق وسط بيت الصلاة ، وهي تقوم على اربع دعائم ضخمة من الحجر الملبس بالرخام ، وارتفاع القبة ٢٤ مترا تحيط بها قباب اصغر تقوم على ايوانات بيت الصلاة .

أما مئذنة المسجد فمغربية الطراز ، وهذا هو وجه الجمال في ذلك المسجد الذي يجمع بين طرازين مختلفين ، وهي مئذنة أنيقة ترتفع في الجو ببدن منسرح على هيئة مكعب ينتهي عند شرفة الأذان ثم يكتمل بجوسق جميل .

من روائع الفن الاسلامي
المدارس الاسلامية

ظهرت المدارس لاول مرة عندما تولى صلاح الدين الايوبي حكم البلاد عندما اخذ على عاتقه محو المذهب الشيعي من البلاد ونشر المذهب السني ، الذي اقتضى انشاء مجموعة من المدارس لتدريس الفقه على المذاهب الاربعة .

وقد كانت هذه المدارس في الواقع فتحا جديدا في العمارة القاهرية فحتى ذلك الوقت كانت المساجد ذات شكل واحد اساسه الصحن ورواق القبلة واروقة جانبية معدة كلها لصلاة الجماعة او مخصصة للاساتذة يستعملونها فصولا للدراسة في

شكل حلقات أو مأوى يلتجيء إليه الفقراء وأبناء السبيل ينامون تحت سقوفها ولكن على يدي صلاح الدين نشأ طراز المدرسة في العمارة الأيوبية وهو طراز يقوم على وجود مربع صغير في الوسط كان يحيط به أيوانان فقط استوحاهما من طراز الصناعة في العمارة الفاطمية ثم تطور الى أيوانات أربعة متعامدة وكأنها أجنحة للمسجد فأما الجناح الشرقي وهو أطولها فيخصص ايوانه للصلاة وفيه المحراب وتخصيص أحد الأروقة للحنفية والثاني للشافعية والثالث للمالكية والرابع للحنابلة .

ولم يكن نظام المدرسة التي بدأها صلاح الدين في القاهرة من مبتكراته وانما هي فكرة نقلها عن سورية حيث اقام مولاه نور الدين المعاهد السنية لنشر المذهب الحنفي في دمشق وغيرها من المدن وكان نور الدين قد حذا في ذلك حلو السلطان السلجوقي ملكشاه الذي بنى له وزيره العظيم نظام الملك .

المدرسة النظامية في بغداد والمهم ان هذا الطراز الذي بدأه الايوبيون في العمارة القاهرية ظل نقطة هامة في تخطيط المساجد واول مدرسة احدثت بديار مصر المدرسة الناصرية للشافعية والمدرسة القممية للمالكية بجوار جامع عمرو ثم المدرسة السيوفية بالقاهرة للمذهب الحنفى وقد عدد لنا المقريزي مجموعة كبيرة من المدارس الأيوبية زال معظمها ولم يبق لنا إلا المدرسة الصالحية بالنحاسين التي أنشأها الصالح نجم الدين .

وظهر في عصر المماليك نظام المدارس ذات اليوانات المتعامدة على صحن أوسط مكشوف . وكان أول مثل وصل الينا متكاملاً هو مدرسة السلطان منصور قلاوون سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) .

ومن اشهر المدارس مدرسة الناصر محمد ومدرسة ال ملك الجوكندار ومدرسة حرغتمش ومدرسة السلطان حسن ومدرسة ام السلطان شعبان ومدرسة الجاي اليوسفي .

وقد أضيف للمدارس منذ نشأتها بالقاهرة ضريح للمنشىء وتمتاز مدارس العصر المملوكي البحرية بالضخامة والاتساع في البناء والمساحة وعمق ايوان القبلة واتساع الصحن المكشوف .

وقد الحق بالمدارس وحدتان معماريتان على جانب كبير من الاهمية في الحياة العامة الا وهما السبيل والكتاب .

وقد استمر نظام المدارس ذات الايوانات المتعامدة على صحن اوسط خلال العصر الجركسي وان كان المعمار قد بدأ يناسب بين اجزاء المدرسة فاصبحت صغيرة واكثر رشاقة عن ذي قبل وصغر حجم الصحن وأمكن تغطيته بسقف من الخشب يتوسطه شخشيخة . وبالتالي اختفت الميضاه من وسط الصحن واصبح يدخل لها من باب جانبي بالصحن .

ومن اشهر مدارس العصر البرجي مدرسة الاشراف قايتباي

ومدرسته ايضا بقلعة الكبش ومدرسة الامير ازبك اليوسفي ولم يكتف المعمار ببناء نظام المدارس ذي الاربعة ايوانات متعامدة على صحن اوسط بل نراه يصمم طرازا اخر ذا ايوانية وهذا الطراز يعتبر رجعة للسنة القديمة التي نراها في المدرسة الكاملية ٦٢٢هـ .

ونجد هذا النظام في العصر المملوكي البحري في كل من مسجد احمد كوهيه وجامع شرف الدين .

واستمر ايضا في عصر المماليك الجراكسة ونراه في مدرسة انيال اليوسفي والمدرسة المحمودية .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

من روائع الفن الإسلامي

(٣)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

من روائع الفن الإسلامي

(٣)

دار الفكر اللبناني



جامع علاء الدين أغلو
بمدينة برجا بآسيا الصغرى

في بداية القرن (٨)هـ ـ اغار المغول على دولة السلاجقة في آسيا الصغرى واستولوا عليها ، وقد افاد من ذلك عثمان بن طغرل جد الاتراك العثمانيين ، فاستقل بالمقاطعة التي كان يتولاها من قبل السلاجقة ، وهكذا قامت الدولة العثمانية التي عملت على مد سلطانها بعد ذلك على آسيا الصغرى ثم على معظم شبه جزيرة البلقان باوروبا حتى وصلت حدودها الغربية الى نهر الطونة .

وقد توج الاتراك نتصاراتهم بفتح القسطنطينية سنة (١٤٥٣) م وقضوا بذلك على الدولة البزنطية ، ثم اتجه العثمانيون الى الشرق والجنوب فبسطوا سلطانهم على بلاد العراق والشام وما لبث سلاطينهم أن اتخذوا لقب الخلافة .

وفي اوائل القرن (٢٠)م استقلت عنها كل البلاد العربية بما

فيها شمال افريقيا . وقد تاثرت الحضارة التركية في اوائل الامر بالحضارة الاسلامية في ا ايران الامر بالحضارة الاسلامية في ايران وذلك عن طريق هجرات الايرانيين الذين فروا من وجه المغول واستقروا في آسيا الصغرى . ولما استولى الاتراك على البلاد العربية في القرن (١٦)م تاثرت الدولة العثمانية بالحضارة الاسلامية السائدة في تلك البلاد نتيجة للسنة التي ساروا عليها ، وهي نقل الممتازين من صناع وفناني البلاد المفتوحة .

على انه سرعان ما هضمت تركيا كل تلك الطرز واخرجت منها طرازا اسلاميا عثمانيا ، لم يؤثر على العالم الاسلامي فحسب بل على معظم دول اوروبا .

ومن اقدم المدن التي استولى عليها وسكنها آل عثمان مدينة (برجا) التي تقع في وسط آسيا الصغرى ، ولذلك فانها تحتوي على آثار اسلامية ترجع الى النصف الاول من القرن (٨)هـ .

ويعتبر مسجد (علا) بمدينة برجا اشهر آثار المدينة واقدمها في العصر العثماني ، أنشأه علاء الدين اغلو في القرن (٨)هـ ، ولذلك فهو متاثر الى حد كبير بطراز العمارة السلجوقية .

والمسجد يتكون من صحن مكشوف وتحيط به الازوقة من جميع الجهات ، والجهات التي بها المحراب اكبرها وتحتوي على ثلاث بوائك من الاعمدة والعقود موازية بالنقوش المحفورة في الحجر والتي تمثل حائط القبلة . وتزخرف واجهة الجامع الطراز السلجوقي احسن تمثيل .

ومن اهم مميزات جامع (علاء) محرابه المكون من مستطيل تزخرفه بلاطات من القاشاني معظمها باللون الترجوازي الجميل وبها زخارف نباتية وهندسية غاية في الدقة والابداع . وفي وسط المستطيل حنية عقدها على شكل مثلث مكون من بلاطات على شكل المقرنصات الصغيرة المتدلية ، وهي باللون الذهبي والاسود وعلى جانبي هذه الحنية عمودان ويلاصق الركن الشمالي الغربي لمسجد (علا) ببرجا ، مقبرة علاء الدين اغلو ويعلو مربع غرفة الضريح قبة ترتكز على رقبة مثمنة . وقد زخرف داخل الضريح ببلاطات من القاشاني الترجوازي والاسود اما الجزء العلوي مٌن الجدران فمغطى بالفسيفساء ، اما القبة فمكسوة ببلاطات من القاشاني الاحمر مما يضفي اشعاعات تشبه الوان (قوس قزح). وتتكون القبة من الخشب ومغطاة من الخارج بطبقة من القصدير ، وهي تشبه في ذلك قبة الامام الشافعي في القاهرة . وكتب على عتبة باب الضريح تاريخ انشاء المسجد والمقبرة وهو سنة ٧٣٤هـ .■

الجامع الازرق

جامع آن سنقر

قام بتشييد الجامع الامير ان سنقر الناصري احد مماليك الناصر محمد بن فلاوون عام ٧٤٧هـ « ١٣٤٧م » وانشأ بجواره مكتبا وسبيلا ومكانا ليدفن فيه .

كان الامين ان سنقر مهتما ببناء هذا الجامع حتى انه كان يقوم بالاشراف على عمارته بنفسه .

وضع تصميمه على طراز المساجد الجامعة المتبعة في عصر المماليك البحرية وهذا الطراز يتكون من صحن اوسط مكشوف تحيط به اربعة روقة اعمقها رواق القبلة وقد استمر هذا النظام الى عصر المماليك البرجية والجراكسسة .

وللجامع ثلاثة ابواب في واجهاته الغربية والبحرية والقبلية وميضاته منعزلة عنه .

وقد اقام الامير طوفان الدوادار فسقية في وسط الصحن نصفها محمول على اعمدة رخامية لم يبق لها .اثر اليوم . .

وتعد الواجهة الغربية اهم واجهاته وبها الباب الرئيسي المحمول عقده على كوابيل طريفة اما عتب الباب فليس بمزررات رخامية خضراء كالموجودة ايضا باعتاب الشبابيك وتنتهي الواجهة بمنارة مكونة من ثلاث دورات بدن الدورة الاولى مستديرة وبدن الثانية محلى بقنوات مستطيلة والثالثة مسدسة فوقها خوذة خشبية مغلفة بالرصاص .

وقد تمت بالمسجد اضافات وتجديدات اهمها ما قام به ابراهيم اغا مستحفظان عام ١٠٦١هـ ١٦٥٠م « ١٦٥٠م ».

ويعتبر الايوان . . الشرقي اكبر الايوانات وهو يشمل على

رواقين كانت عقودهما محمولة على اكتاف حجرية مثمنة وسقفها معقودة وما زال الرواق امام المحراب محتفظة فاصلة لم يتغير . . اما الرواق الثاني فقد استبدلت بسقف من الخشب ، وبقي طرفاه على اصلهما واندلت دعائمه عمد رخامية واكتاف حجرية مربعة وكذلك الرواق القبلي والبحري اما الرواق الغربي فمحتفظ بكثير من تفاصيله القديمة .

وكان من ضمن التجديدات التي قام بها ابراهيم اغا مستحفظان كسوة الجدار الشرقي حتى السقف بالقاشاني الملون الجميل ومما يزيد هذه المجموعة اهمها اتربة لها عملت خصيصا لهذا الجامع المرسوم خاصة . . ولذلك عرف الجامع « بالجامع الازرق » نسبة الى مجموعة القاشاني الرائعة الزرقاء الموجودة به .

ومما يزيد المسجد اهمية منبره الرخامي الملون ودرابزينه الجميل المحلى بالزخارف البارزة المورقة وعناقيد العنب ويعتبر اقدم منبر من الرخام باق في مساجد القاهرة حتى الان يليه منبر جامع السلطان حسن وبجوار المنبر محراب كبير كسي باشرطة دقيقة من الرخام والصدف وقبته وغطاؤه المعبر عنه بالطاقية . . رخامي محلى بزخارف نباتية ملونة بارزة تعتبر الوحيدة من نوعها . .

صلاة الجمعة في مسجد قرطبة

(١) صلاة

كانت لفتة كريمة من الاخوة المسيحيين في قرطبة ان جعلوا من برنامج المؤتمر الاسلامي المسيحي العالمي الاول (١٠ ـ ١٥

سبتمبر ١٩٧٤) أداء صلاة الجمعة في مسجد قرطبة الكبير .

واحتاج القرار الى شجاعة أدبية ، وصمود امام بعض الضغوط والمخاوف ، وارتفاع افق جديد واصيل من آفاق السماحة تمثل في اسقف قرطبة ، الذي وافق على ذلك عندما عرضه عليه رئيس جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية واعضاء مجلس ادارتها المسلمون والمسيحيون في اسبانيا . وكانوا في استقبالنا ـ مشكورين ـ عند دخولنا المسجد ظهر يوم الجمعة ١٣ من سبتمبر ١٩٧٤ الموافق ٢٦ من شعبان سنة ١٣٩٤ .

كان أمر الصلاة قد انشر مع بدء انعقاد المؤتمر . وفي ضحى يوم الجمعة هبطت في مطار قرطبة طائرة من مدريد تحمل سفراء الدول الاسلامية في اسبانيا ، وطائرات من أقطار المغرب العربي تحمل صفوة من علمائها وكبار الشخصيات الاسلامية فيها . والتقى الجميع في المسجد في المناسبة التاريخية تنظمهم صفوف الصلاة .

(٢) الراكعون الساجدون

وتمر عيني على صفوف المصلين . . عباءات من المشرق . برانس من المغرب . رؤس حاسرة . عمائم ولحى بيضاء فيها جلال المشيب . كهول مكتملون . شباب متفتح ومن حولنا وقف الاخوة المسيحيون وفي نظراتهم مودة وتطلع الى هذا المشهد الجديد القديم .

وصوت القارىء يرتفع بالقرآن . . ومن حولك الراكعون الساجدون . . وترى الدموع وتسمع النشيج تطلقه روعة الذكرى ويكتمه جلال الموقف وقد انطوى كل عابد على نفسه في عالمه بذكرياته وحاضره . .

وتمتد الاعين الى الايات الصامتة على جدران المسجد والمحراب . . وتقرأ « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق » (الاعراف ٤٣) ظلت هذه الايات صامتة على الجدران ثمانية قرون حتى تردد من الحناجر في يوم الجمعة المشهود . .

ويرتفع صوت الاذان الله اكبر . . الله اكبر ويزداد معه الحزن والبكاء وتتذكر الاذان الاول . . آذان بلال في المدينة المنورة . . وكيف حملته القلوب والايدي والالسنة المؤمنة عبر الصحاري والجبال والبحار والقارات حتى ارتفع من صومعه مسجد قرطبة وظل يتردد فيها قرونا . .

وتستمع الى خطبة الامام عن الحضارة الاسلامية وسماحتها واخائها ويرتفع صوته داعيا الله ان يحفظ للقلوب صفاءها ونقاءها وان يجمعها على الهدى والمحبة ، وان يوثق التعاون لترتفع اعلامه النقية .

(٣)

ومسجد قرطبة درة في جبين العمارة الاسلامية . . وضع عبد

الرحمن الداخل صقر قريش ـ أول حجر فيه عام ٧٨٠ ميلادية . . وكان آخر فيه على رأس الالف الاولى الميلادية . . مائتان وعشرون عاما في استكمال عمل فني ممتاز تحس حين تراه كأن المعماريين الذين اسهموا فيه كانوا فريقا واحدا يقوده عقل واحد .

والراجح أن المسجد بني على أرض عذراء . . بدأ قسمه الأول في عهد عبد الرحمن الداخل وجاءت توسعته الثانية في عهد عبد الرحمن الأوسط وولده الحكم الثاني وهذه التوسعة الثالثة هي قمة عالية من قمم الفن الاسلامي وصل بها المحراب إلى ضفة نهر الوادي الكبير . . وكأن ملك بني أمية والمسجد كانا على موعد ، فبعد هذه التوسعة بدأ الضعف في الدولة وفي توسعة المسجد معاً . .

وجاءت التوسعة الاخيرة على يد الحاجب المنصور بن ابي عامر ولم يكن امامه الا التوسع شرقا على طول المسجد .

وظل عامرا بالصلاة والقضاء وتدارس العلم والادب حتى سقوط قرطبة عام ١٢٣٦ عندما خرجنا من هناك وتركنا المسجد وحيدا يلقى صروف الزمان . .

(٤) عودة الحياة

ولقد تحول جزء من المسجد تبلغ مساحته نحو ١٥٪ الى كتدرائية وتحولت صومعة المسجد (المئذنة) الى برج اجراس . .

ومن اجل ذلك ازيل ثمانون عمودا وقوسا وما فوقها من سقف . . واغلقت أبواب كانت مفتوحة تدخل قدرا من الضوء أراده الفنان الذي صمم المسجد . . . ولم يكن التداخل المعماري محل رضا الدين أمروا به . . وجاء غير متناسب مع الوحدة الهندسية للبناء والحلول المعمارية التي ابتكرها العقل الذي ظل مسيطرا على البناء اكثر من قرنين حتى أتمه بهذه الصورة العبقرية التي لم تتكرر . .

فليس هناك مسجد غيره في أرض الاسلام اعتمد على فكرة العقود المزدوجة . . . وانت لا تجد عمودا يزيد قطره عن خمسة وعشرين سنتيمتراً وتنتهي الاعمدة بعقود وعلى رأس العمود تجد قاعدة جديدة اقام عليها المعماري عموداً آخر وتتشابك الاعمدة بعقود غاية في الدقة والرشاقة . . فاذا نطرت اليها رأيت نفسك في حديقة من حدائق الايمان . . كأن الاعمدة اشجار والعقود فروع اثقلتها الثمار . . او كأنها نافورات تجمد ماؤ ها . . وتمتد امامك وتمتد الى مالا نهاية كانها ترتبط بمساجد الشرق . . هناك في مصر والجزيرة العربية والشام . .

والمحراب آية اخرى من آيات الفن وهو عبارة عن حجرة صغيرة . . او مسجد صغير سقفه من قطعة واحدة من الحجر على هيئة صدفة . . وفوق بلاطة المحراب والبلاطتين المحيطتين بها عن يمين وشمال ثلاث قباب صغيرة بلغت الذروة من الجمال ودقة الفن . .

واستخدام الضوء كان ينسب تتوازن مع ما يدخل من الابواب . . وهنا تحت القباب كانت قراءة القرآن . . نور القلب . . تحت نور السماء . . . وفيض النور المتدفق من الابواب . . نور على نور . . وفي الجزء الشمالي من المسجد صحن مكشوف تغطية اشجار البرتقال . واذا كنت في المسجد ناظرا الى الخارج رأيت التداخل بين الاعمدة الرشيقة واشجار الحديقة .

وفي الزيارات التي قمت بها شكرا لاسقف قرطبة وكبار المسئولين المدنيين دار الحديث حول المسجد والكاتدرائية . . وهناك اتجاه في اسبانيا يرمي الى نقل الكاتدرائية الى مكان مجاور للمسجد ، واعادة المسجد الى صورته التي كان عليها وقد وجدت هذه الفكرة قبولاً لدى نفر من المثقفين الاسبان . . فالمسجد في كماله واكتماله عمل عبقري لن يجود بمثله الزمان . . والذين يفدون الى قرطبة انما يفدون اساسا لزيارة المسجد . . حتى تستطيع القول بأن قرطبة نفسها « ضاحية » المسجد وقد جرت احاديث بين الاسبان وبعض الشخصيات العربية المسئولة الكبيرة حول التعاون على تنفيذ مشروع النقل ليعود المسجد الى صورته الاولى .

واذا كان الامر يحتاج الى بعض الوقت لتتقبله الجماهير . . فان الصورة المقترحة والتي اطلعت على بعض دراساتها لما يساعد

كثيرا على أن تصبح لكل من المسجد والكاتدرائية شخصيته الواضحة الكاملة ويعطي بعدا جديدا تطبيقا من ابعاد التعاون بين العالم الاسلامي والعالم المسيحي . .

اني احس وأومن اننا نسير على طريق جديد من طرق التعاون والمحبة رأينا بعض ثماره وكلنا في انتظار المزيد . .

وتحية الى قرطبة السمحة والى اخوة مسلمين ومسيحيين اعطوا النموذج الكريم والخطوط الرئيسية لتعاون اسلامي مسيحي عالمي . ■

مسجد كنشاوة

يقوم هذا المسجد المشهور في حي كنشاوة من أحياء مدينة الجزائر ، ويرجع تأسيسه الى سنة ١٠٢١/١٦١٢ ، ثم أعاد ترميمه واكمله الباشا حسن سنة ١٢٠٩/١٧٩٤ .

وبيت الصلاة في هذا المسجد الصغير الأنيق مربع طول كل من اضلاعه ٢٤ مترا ، وتقوم القبة الكبيرة في وسط بيت الصلاة على أربع دعائم ضخمة تبعد كل منها عن الاخرى ١١,٥ مترا ، وهذه الدعائم تحمل عقودا مستديرة ترتفع فوقها قبة ذات ستة أضلاع ؛ وداخل المسجد كله مبطن بالرخام .

وهذا المسجد ايضا كانت الكنيسة الفرنسية قد استولت عليه وحولته الى كنيسة ، وأدخلت عليه تحويرات شتى افسدت

هيئتـه ، واضافت اليـه اجزاء اخـرى لاستكمال الشكـل الكنسي ، وقد أعيد الى الاسلام بعد الاستقلال .

مسجد صلاح باي في عنابة

يعتبر هذا المسجد من أجمل ما خلفه العصر التركي في القطر الجزائري ، وقد بناه الباي صلاح سنة ١٢٠٦/١٧٩١ ـ ١٧٩٢ في الناحية الجنوبية من بونة المعروفة اليوم بعنابة . والرسم العام لبيت الصلاة عثماني مغربي في آن واحد ، فهو مكون من ثلاثة أروقة تتجه نحو جدار القبلة ، وفي وسط بيت الصلاة ـ فوق الرواق الأوسط ـ تقوم قبة كبيرة تجاورها على اليمين والشمال قبتان أصغر حجمًا ، وفي جدران بيت الصلاة نوافذ كبيرة مزينة بالزجاج الملون ، وبفضل هذه النوافذ يفيض داخل الجامع بالنور ، وعقود بيت الصلاة تقوم على أعمدة طويلة من الرخام .

وللجامع صحن تحيط به البوائك المستديرة ، وجدران المسجد مزينة في الداخل بالزليج (مربعات الخزف) المغربي الجميل .

مسجد سوق الغزال في قسنطينة

وهذا مسجد آهر جميل خلفه العصر التركي في الجزائر ، وهو يزين مدينة قسنطينة وهو تركي الطراز ، ولكن بيت صلاته يتكون من سبعة اروقة ذاهبة نحو جدار القبلة ، وفي وسط كل

رواق قبة مغربية ذات اربعه اضلاع في هيئة الهرم ، وهي مغطاة بالقرميد .

جامع الجيوشي (١٠٨٥)

يقوم هذا المسجد الحزين وحيدا فريدا في طرف من أعلى جبل المقطم المطل على القاهرة . منشيء هذا المسجد هو امير الجيوش (١) بدر الجمالي ، منشيء بوابات القاهرة ومنقذ الدولة الفاطمية ، ولهذا يوصف جامع الجيوشي بأنه « مشهد » أي ضريح شهيد ، ويظن ان بدرا الجمالي أراد أن يجعل منه مشهدا للامام علي كرم الله وجهه . المسجد صغير المساحة ، ولكن بيت صلاته يمتاز بزخارف حصية جميلة تتكون من ورق العنب وعنقوده . المئذنة صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن القبة كثيرا . المسجد كله في حاجة إلى ترميم كبير حتى يبدو في جماله الحقيقي . هيئته اليوم أشبه بمقبرة في الخلاء لا تؤنسها إلا هذه الشجرة المذعورة .

الجامع الأقمر (٥١٩/ ١١٢٥)

يعتبر هذا المسجد من أجمل مساجد العصر الفاطمي واكملها من الناحية الفنية ، وهو كذلك ينطق بطابعه الفاطمي ، وخاصة إذا قارنا بوائكه ببوائك صحن الجامع الأزهر . وقد أمر بانشائه الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله بن المستعلى سابع خلفاء

الفاطميين في مصر سنة ١٠٩٧/٤٩٠ ، وهو في شارع امير الجيوش قرب باب الفتوح في حي الجمالية بالقاهرة ، وقد كمل المسجد سنة ١١٢٥/٥١٩ .

والجامع الأقمر بسيط في تخطيطه ، فهو يتكون من بيت صلاة يشتمل على أربعة أروقة (أي بلاطات) عمودية على جدار القبلة وأربعة موازية لجدار القبلة أي اساكيب ، والرواق المجاور للقبلة فسيح . وللمسجد صحن مكشوف مربع ، ويحيط بالمسجد كله سور عريض ومدخله الرئيسي معقد بعض الشيء تطل عليه الحنايا . واهم ما يميز المسجد ـ كما قلنا ـ وحدته الفنية التي تبدو من أي زاوية نظرنا اليه ، وقد أشرنا الى ذلك بما فيه الكفاية فيما سبق من الكلام .

وكما قلنا فيما يتصل بكثير من المساجد المصرية ، يحتاج المسجد الى ترميم كبير وعناية ورعاية حتى يتجلى جماله الحقيقي .

روضة أبي منصور اسماعيل بن ثعلب (١٢١٦)

أثر مساجدي فريد في الطريق إلى مسجد الامام الشافعي ، وهو ـ كغيره من الأضرحة والروضات ـ مسجد صغير أو مصلى أنيق ـ بناه هذا القائد الايوبي في سنة ١٢١٦ في عصر بقيت لنا منه آثار معمارية قليلة . والحق أن العصر الأيوبي كله فقير في منشآته سواء في مصر أو الشام ، خاصة إذا ذكرنا غنى العصر الذي سبقه

(الفاطمي) واللاحق عليه (المملوكي).

محراب المصلي ، مزين بكتابة على الخشب فيها اسم صاحب الضريح وتاريخ انشائه . نصف هذه القطعة الخشبية وفي متحف الفن الاسلامي في القاهرة ونصفها الآخر في متحف فكتوريا والبرت في لندن . والمحراب كله من الآجر ، وقد أبدى المعماري مهارة فائقة في استخدام هذه المادة في البناء والزخرفة . لاحظ الأثريون ان المعماري اقتبس هذه الزخرفة من المسجد الاقمر وخاصة أعلى حنية المحراب والكوات المعينية الشكل فوقها .

مسجد وروضة السلطان قايتباي بالقاهرة (١٤٧٢ و١٤٧٤)

يقوم هذا المبنى الجميل في منطقة مقابر الخلفاء جنوب القاهرة وهو آخر ما أنشأه هذا السلطان واكثره جمالا .

أظهر ما يمتاز به هو التناسق الرائع بين أجزائه : مئذنته الرفيعة السامقة تتوازن تماما مع القبة العالية المزينة بالزخارف البديعة في خارجها . طالما ترنم الأثري الفرنسي جاستون ويت بجمال هذه القبة ونقوشها وقال انها انشودة من الخطوط والاشكال . كل ما في هذا المسجد يكاد أن يكون مقطعات من نفس الأنشودة : البوابة العالية ، السلالم الرخامية ، الأعمدة

والأقواس التي تحملها ، شبابيك الزجاج الملون ، وكل ما تقع عليه العين داخل هذا الأثر البديع .

جامع ومدرسة انجى في دفريجي بالاناضول

وأقدم عمائر الطراز التركي في العمارة الاسلافة يرجع الى القرن والثاني عشر الميلادي ، ومن ذلك أولوجامع ـ أي جامع أولو ـ والمارستان الملحق به في بلدة دفريجي في الأناضول ، وقد أمر ببنائه سنة ٦٢٦/١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ أحمد شاه الأمير الاقطاعي لدفريجي .

وضع تصميم هذا المسجد المعلم خرم شاه الأخلاطي ، وهو مبني بالحجر المصقول المتقن الرصف ، وسقفه محمول على عقود حجرية متشابكة ، وعقد البلاطة الثالثة في رواق القبلة يقوم فوق حوض رخامي تصب فيه نافورة ، وهذه البلاطة ذات النافورة رمز على الصحن الذي استغنى عنه المعماري في ذلك المسجد بسبب برودة الجو . والباب الشمالي لهذا المسجد مشهور بزينته الجصية المثقلة وزخارفه ،وهي تذكرنا بالزخارف المحفورة على الخشب .

أما المارستان فمقتبس من المارستان النوري في دمشق ، وسقفه يقوم على عقود حجرية تقوم على دعائم وأعمدة ، وهنا أيضا نجد نافورة تشبه التي ذكرناها في وسط المسجد

مسجد الحاكم بأمر الله (٩٩٧/ ١٠٢١)

هذا المسجد ـ الذي يعتبر علما بارزا في تاريخ العمارة الاسلامية ـ يتداعى ويفقد بهجته منذ زمن طويل ، لأن الموكلين بشئون الآثار الاسلامية لا يشعرون نحوها بالحب الكافي ، والحب حقيق بأن يعوض نقص الاعتمادات المالية الذي طالما شكوا منه . وهم ينسون أنه في مسائل الفن يقوم الحب في المكان الأول ثم يأتي دور المال ، فهناك قطعا مال كاف لصيانة هذه الجدران وتنظيفها وحمايتها ورم ماوهي منها ، ولكن الذي ينقص هو القلب . مساجد العصر الفاطمي استمرار لتقاليد المساجد الطولونية من ناحية ، ومظهر من مظاهر الحضارة المغربية التي جلبها الفاطميون الى مصر من ناحية اخرى ، فان مساجد المغرب الأولى اقرب إلى الحصون ، مآذنها أبراج ، ومسجد الحاكم نموذج لذلك ، والجدران التي تراها هناك شبيهة بأسوار بلد ، وكذلك المئذنة ، وكان نصفها الأعلى قد سقط إثر زلزال ، فصنعوا لها هذا العوض على شكل قبة ؛ فبدت مئذنة قبة ؛ هذا الطراز من المآذن المجبورة كثير في القاهرة . داخل جامع الحاكم يملأ النفس رهبة بمظهر الخراب الذي يسوده ، ودعاماته الضخمة المبنية بالآجر لتحمل العقود ، تدل على أن المعماري لم يجرؤ بعد ـ في مصر ـ على رفع السقف كله على عقود تقوم على دعائم .

المسجد الجامع ـ أو مسجد الجمعة ـ في إصفاهان

هذا المسجد الجامع في اصفاهان يحكي تاريخ إيران بما مر عليه من احداث وصروف ، فقد انشأه الفاتحون المسلمون سنة ٦٤٤ في موضع معبد للنار المجوسية عندما دخلوا البلد ، وكان اول امره مسجدا صغيرا بسيطا ثم هدم وبنى مرارا حتى جاء السلاجقة فأعادوا بناءه على الصورة التي ظل عليها الى اليوم ، رغم التعديلات الكثيرة التي ادخلت عليه .

وصاحب الفضل في بناء المسجد الحالي هو السلطان ملكشاه السلجوقي .

ولم يبق من المسجد الجامع السلجوقي في اصفاهان إلا جدرانه ، أما القاشاني والقباب والمآذن التي تزين المسجد فترجع إلى العصور التالية ، فقد مرت بإصفاهان ـ كما مرت بايران كلها ـ دول التيموريين وايلخانات فارس ثم الصفويين والقاجاريين ، واخيرا البهلويين قبل الثورة الأخيرة .

والمسجد مبنى من الآجر والحجر ، وبيت صلاته ينقسم إلى أربعة أواوين ، لأن الكثير من المساجد الايرانية استغنت عن تكوين بيت الصلاة من أروقة تقوم على صفوف من أعمدة تنتهي بجدار القبلة ، واتخذت الأواوين وهي قاعات فسيحة تقوم سقوفها على عقود واسعة مستديرة ، وتتصل الايوانات بعضها ببعض عن طريق عقود مدببة ، وقد سارت المساجد الايرانية

والعثمانية والهندية على هذا الطراز ، ويقوم المحراب - في العادة - في الايوان الأوسط .

والمبنى الحالي يرجع إلى عصر السلطان ملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) وهو الذي أنشأ قبته البديعة سنة ١٠٨٠ ، وقد اجتهد خلفاء ملكشاه في تزيين هذا المسجد بالقاشاني الملون ، وأضافوا اليه زيادات كثيرة حتى أصبح وكأنه متحف للفن الايراني . وقد اضاف إليه السلطان أولجايتو محمد خدابنده - من سلاطين ايلخانات ايران - قسما كبيرا فيما بين سنتي ١٣٠٣ - ١٣١٦ ، وعهد إلى وزيره محمد صافي بعمل محراب جميل يعتبر من أجمل المحاريب الايرانية ، وهو قطعة من فن التزيين بالخزف والقاشاني .

مسجد الشيخ لطف الله

تأنق المعماري الايراني في انشاء وزينة جامع الشيخ لطف الله ، حتى ليبدو وكأنه تحفة فنية في كل جزء من أجزائه .

ويعتبر مؤرخو الفن الايراني ان مسجد الشيخ لطف الله اجمل اثر معماري صفوي ، وقد أمر بانشائه الشاه عباس قبالة قصره الكبير المسمى عالي قبو ، واستمر بناؤه من ١٦٠٢ الى ١٦١٨ .

ويسمى هذا المسجد بالمسجد الشاهاني ، لأنه في الحقيقة ليس مسجدا جامعا وانما هو مسجد خاص للمناسبات الرسمية ،

وليس في المسجد صحن ولا مآذن ، وكان الشيخ لطف الله كبير شيوخ المذهب الشيعي في عصر الشاه عباس ، واصله من جبل عامل في لبنان واستقدمه الشاه عباس واحاطه بكرامة عظيمة وأنشأ له هذا المسجد .

وأجمل ما في هذا المسجد الخزف ذو البريق المعدني الذي يزين جدرانه وكل جزء فيه ، وبينما يبرز الخزف في مسجدي شاه أزرق أخضر خزف مسجد الشيخ لطف الله ورديا ، ويتجلى ذلك بصفة خاصة في قبته ، ويحيط بالمسجد روض بديع تزينه زهور وردية تزيد من جمال المسجد كله ، اما بوابة الجامع فتزدان بالخزف الأزرق .

ومن جلائل أعمال الفن في إصفاهان مدرسة شهرياق وهي مسجد في نفس الوقت ،.وهي مدرسة سلطانية أنشأها الشاه حسين الصفوي سنة ١٧٢٢ ، ه وتذكر هنا لأن قبتها ومئذنتها تعتبران من أروع ما خلفه المعماريون المسلمون من اعمال تلبيس المنشآت بالقاشاني والخزف المزين بالزخارف والكتابات .

مسجدي شاه في اصفهان

يعتبر هذا المسجد اعظم منشآت الشاه عباس الأكبر ، وقد وضع تصميمه المعماري أستاذ على أكبرى اصفاهاني . يقوم ذلك المسجد الفسيح جنوب ميدان بخشى جهان ، وهذا

المسجد الجليل يعتبر مجموعة مبان في مبنى واحد ، فان بوابته وحدها ـ التي تقوم على جانبيها مئذنتان ـ تعتبر أثرا فنيا كاملا قائما بذاته ، وصحنه الفسيح تطل عليه البوائك ذوات العقود المدببة المزدوجة في النفس احساسا عميقا بالايمان .

أما بيت صلاته فآية من آيات الفن ، وأروقته الرصينة ذات العقود المدببة وقبلته المزينة بالقاشاني الأزرق التقليدي في إيران الصفويين ، ثم محرابه الذي يعتبر آية من آيات الفن ، كل هذه تبدو لناظرها وكأنها معرض للفن المعماري لا تشبع العين من استجلاء محاسنه .

أما قبته الزرقاء السامقة فتقوم على رقبة دائرية محلاة بالنقوش والكتابات ، والقبة نفسها مغطاة بالقاشاني الأزرق الضارب إلى الخضرة ومحلاة بنقوش ورسوم تعتبر قمة من قمم فن الزخرفة الاسلامية .

ويتميز هذا المسجد كله بنماذج زخرفية هي الغاية في حسن الذوق والانسجام . وهذه الزخارف تقوم في كل جزء من أجزاء الجامع تقريبا ، من البوابة الرائعة الى قمة القبة الفريدة في بابها .

وقد تتجاوز الزخارف الحد في التأنق ، لأن المسجد الاسلامي ـ بطبعه ـ لا يحتمل كل هذا التزويق ، ولكن لمتأمل لزخارف مسجد الشاه في اصفاهان لا يكاد يشعر بهذا الاغراق في

الزخرفة ، لان هناك روحا من التقي والتدين تتمشى في كل ما تقع عليه العين في ذلك الاثر الجليل .

وبيت صلاة هذا المسجد يقوم على نظام الايوانات لا الاروقة ، والواقف فيه لا يجد نفسه في غابة من الأعمدة وانما في أبهاء فسيحة تقوم سقوفها على دعائم ضخمة تحمل عقودا مدببة . والايوان الأوسط هو إيوان القبلة والمحراب ، وكل ما في الرواق ملبس بالخزف والقاشاني والرخام ، وأنت تشعر بأن المسجد كله ـ على ضخامته ـ عمل فني واحد متكامل ـ كأنما صاغه فنان واحد في وقت واحد .

وصحن الجامع فسيح تطل عليه البوائك من كل ناحية ، وبيت الصلاة يطل على الصحن بواجهة جميلة ملبسة بالقاشاني ، وهي وحدها عمل فني كامل ، وتزين واجهة الجامع مئذنتان جميلتان مستديرتان ، تنتهي كل منهما بجوسق تعلوه اسطوانة وعمامة .

محراب مسجدي جامع في كرمان

بني هذا المسجد سنة ١٩٤٩ ، وهو يعتبر من أجمل نماذج العمارة الايرانية في عصر إيلخانات المغول في إيران ، وأجمل ما يميزه هو محرابه الفريد في بابه ، إذ هو يحتل كل جدار القبلة ، وقد صممه المعماري الفنان قطعة واحدة فجاء رائعة من روائع الأعمال الفنية في تاريخ الفن الاسلامي .

إن هذا المحراب يقف في الصف الاول من محاريب المساجد ، فمحراب المسجد الجامع في كرمان جدار هائل مسطح وفي وسطه تقوم الحنية . فكأن الجدار كله إطار للمحراب ، وهو مكون من ازارات تحيط بالمحراب بعضها مزين بالكتابة الجميلة ، وبعضها مزين بالزخارف البديعة من كل نوع ، ويسود فيها اللون الأزرق الضارب إلى الخضرة وهو اللون التقليدي في المنشآت الايرانية عموما . ولا بد - لنقدر جمال المحراب - من أن اخذ كل قطعة منه على حدة وتأمل تصميمها الزخرفي ، فان وصف ذلك الجدار كان كتابا كاملا في فن الزخرفة الاسلامية الايرانية ؛ التي عملت على قطع من القاشاني الايراني البديع ثم وضعت في اماكنها بدقة وحساب كبيرين .

المسجد الجامع العتيق في شيراز

لا تقل شيراز عن اصفاها كمركز من مراكز الفن الايراني ، وربما كان مكانها في عالم الفكر أعظم .

كانت شيراز من أقدم عواصم إيران ، فقد اتخذها يعقوب بن الليث الصفار عاصمة له عندما استقل عن الدولة العباسية سنة ٨٢٧ ميلادية ، فكان منشىء اول دولة مستقلة في ذلك القطر ذي التاريخ الطويل . وقد خلّد يعقوب بن الليث الصفار استقلاله عن الخلافة العباسية وانتصاره على جيوشها سنة ٢٨١ / ٨٩٤ بانشاء ذلك المسجد الجامع في شيراز ، ويلقب بالجامع

العتيق ، واعيد بناء هذا الجامع وترميمه مرة بعد مرة حتى فقد شكله الأصلي وأصبح شيئا جديدا ، وصورته الحالية تمت في ايامنا هذه .

والمسجد مبنى على أساس الايوانات لا الأروقة ، فبيت صلاته يتكون من عدد من « الشابستانات » أي الايوانات ، أما صحنه ففسيح مبلط كله بالرخام تحيط به البوائك من كل جهة ، ويمتاز هذا الجامع ببواباته البديعة التي يبلغ عددها ستا موزعة على جوانبه الاربعة ، والبوابات ضخمة مبنية بالآجر أو الحجر الرملي ، ومزينة بالقاشاني تحف بكل منها مئذنتان قصيرتان ، لكل واحدة منهما جوسق وعمامة .

روضة شاهي سراج

قد تكون روضة شاهي سراج اجمل روضة في ايران ، ولهذا سميت بسراج الملوك (شاهي سراج) . وقد أنشئت لتكون قبرا للسيد أحمد بن الامام موسى الكاظم ، الامام السابع في سلسلة الأئمة ، وروضته في مشهد هي أجمل وأقدس مزارات الشيعة في إيران .

وسبب اقامة الروضة في ذلك الموضع تقصه حكاية يرويها الجنيد الشيرازي المؤرخ ، يقول : إن بستانيا رأى ومضات من نور تخرج من تل ، فأمر أمير الناحية بحفر التل ، وهناك عثروا

على رفات الامام الجليل ، وقد عرفوه من الخاتم الذي كان في أصبعه ، فأمر بانشاء تلك الروضة البديعة التي تمتاز بواجهتها الرائعة الملبسة بالخزف الزخرفي ، تزينها الآيات القرآنية ، وتطل عليها قبة لا نظير لزخارفها الخزفية البديعة .

مسجد الوكيل في شيراز

انشأ مسجد الوكيل في شيراز كريم خان زند منشىء أسرة زند (١٧٥٨ ـ ١٧٧٩)، فهو من عصر الدولة القاجارية التي أنشأها نادر شاه . ويسمى هذا المسجد ـ أيضا ـ بالمسجد السلطاني .

وأروع ما في هذا المسجد بيت صلاته الذي تزدحم فيه عقود حجرية مدببة تقوم على دعائم مزخرفة بخطوط حلزونية ، ومنبر المسجد ـ الى جوار المحراب ـ يقوم على أربع عشرة درجة ترمز ـ في رأي منشئها ـ الى رسول الله ﷺ وابنته فاطمة الزهراء والأئمة الاثنى عشر . وقد صنع هذا المنبر في المراغة في آذربيجان ، ثم نقل الى شيراز بأمر كريم خان زند .

مسجد لندن الجديد ومسجدها القديم

في لندن مسجد جديد تشترك في انشائه كل البلاد الاسلامية ، واقيمت لوضع تصميمه مسابقة عالمية اشترك فيها خمسون مهندساً معمارياً من سبع عشرة دولة ، ووقع الاختيار على المشروع الذي تقدم به المعماري الانجليزي الكبير سير

فردريك جيبارد وشركاؤه في مكتبه الهندسي الكبير في لندن ، ولهذا المسجد قصة جديرة بأن تحكى والقصة ترجع الى سنة ١٩٤٤ عندما استجابت انجلترا لطلب الجالية الاسلامية الكبيرة في لندن لانشاء مسجد جامع يلحق به مركز ثقافي اسلامي في عاصمة بريطانيا ، فقدم ملك بريطانيا قصراً من قصوره تحيط به ارض مساحتها فدانان انجليزيان في حي ريجنت في لندن ، فاجتهد المسلمون في تحويل القصر القديم الى مسجد وتم ذلك واخذ ذلك المسجد صورة هندية تتجلى في مدخله ، واقاموا الى جانبه المركز الثقافي الاسلامي الذي يعرفه كل زوار لندن من المسلمين .

ثم زاد حجم الجالية الاسلامية زيادة كبيرة في انجلترا وفي لندن بصفة خاصة وزاد مركز بلاد الاسلام قوة في العالم بعد استقلالها وتقدمها في ميدان الحضارة ، وزادت ثروات بلاد الاسلام وخاصة المنتجة للنفط فزاد في وزن العالم الاسلامي . محل سفراء الدول العربية الاسلامية في لندن على تحقيق فكرة انشاء المسجد ووافقت الحكومة البريطانية وكان على مصمم البناء ان يوفق بين طراز الحي العائد الى سنة ١٨٠٠ وبين المتميز بالطابع الاغريقي وبين تصميم المسجد . فقدمت مشروعات كثيرة فاز من بينها المشروع الذي تقدم به السير فردريك جيبارد ، وهو مشروع انيق بديع يتألف من بيت صلاة صغير بعض الشيء تعلوه قبة مغطاه بالنحاس تقوم على رقبة ذات قمريات ، وقد

قصد المعماري الى مجاراة قبة الصخرة بهذه القبة النحاسية ، ويفتح بيت الصلاة على صحن الجامع بصف من البوائك التي لا تمتاز بأي جمال وليس فيها اي طابع عربي اسلامي .

وصحن المسجد فسيح مغطى بمربعات من الرخام الصناعي والمفروض انه يغطى بالسجاد في مناسبات الصلوات العامة ، وبدلاً من المجنبتين وضع المصممون مبنيين ذوي طابع حديث صرف ، واحد للمكتبة والثاني للمركز الثقافي .

أما المئذنة فأنبوبية طويلة تعلوها شرفة أذان ، وهي أقرب الى العمود التذكاري منها إلى المئذنة ، وبالفعل سيكون بداخلها مصعد يصعد فيه من يريد أن يلقي نظرة على الجامع كله وعلى ما حوله من المباني .

والمسجد انيق في جملته ولكنه يخلو من الطابع العربي الاسلامي تماماً ولأمر ما يبدو للناظر فقيراً رغم المبالغ الكبيرة المرصودة من أجله ، وإذا كانت شركة السير جيبارد هيئة معمارية ذات شهرة عالمية فان مشروع المسجد الذي وضعته غير موفق ، وقد اعترض عليه الكثيرون ، الذين تمنوا ان يكون مبنى هذا المسجد معرضاً للفن الاسلامي المعماري الجميل لا مجرد مبنى حديث تعلوه قبة ومئذنة ، وقد تنبه السير جيبارد لذلك فقرر أن تكون كل زينة المسجد الداخلية شرقية اسلامية فجلب مربعات القاشاني المحلي بالفسيفساء من تركيا ، والسجاجيد من ايران ،

اما أعمال الزخرفة على الجدران والاخشاب فسيقوم بها فنانون متخصصون من مصر والمملكة المغربية والجزائر وتونس .

ويتسع بيت الصلاة لألف مُصلٍ ، وهو عدد قليل ـ فيما نحسب ـ ولكنهم يقولون إن الصحن يتسع لأربعة آلاف من المصلين ، وبداخل بيت الصلاة شرفة أنيقة لصلوات النساء .

مسجد باريس وقصة تاريخه

آنق مساجد اوروبا هو المسجد الجامع في باريس ، وهو مؤسسة ذات تاريخ طويل حافل بالمتاعب ، فقد كان أول من فكر في انشاء مسجد في باريس هو السلطان عبد الحميد فكر فيه جزءاً من سياسته الاسلامية العربية التي انتهجها عندما أحس بأن الأرض غير ثابتة تحت قدميه ، وان الثورة عليه وعلى نظامه قادمة بلا ريب على يد الأحرار والشباب من أبناء تركيا والعالم العربي ، فافضى برغبته تلك الى حكومة فرنسا ، ووضعتها فرنسا موضع الاعتبار ، وكان يرى في ذلك وسيلة لاظهار اهتمامه بامور العقيدة الاسلامية في صورة ملموسة في عاصمة من اكبر عواصم الدنيا .

وعزل السلطان عبد الحميد بعد ذلك سنة ١٩٠٩ وخلفه محمد (رشاد) الخامس ثم محمد السادس وهو المعروف عندنا بالسلطان عبد الحميد (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) ثم عزل السلطان

وحيد الدين والغيت الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ وأصبحت تركيا دولة علمانية ونام المشروع .

وبعد الحرب العالمية الأولى فكر نفر من الفرنسيين في انشاء مسجد في باريس تذكاراً للآلاف من الجزائريين الذين ماتوا خلال الحرب مدافعين عن فرنسا ، وفي ١٩ اغسطس ١٩٢٠ وبناء على اقتراح مقدم من ادوار هيو عمدة مدينة ليون الشهير وعضو مجلس شيوخ فرنسا في ذلك الحين وافقت السلطات الفرنسية على انشاء مؤسسة اسلامية في باريس واعتمدت الحكومة للمشروع ما قيمته ١٥٠ مليونا من الفرنكات ، وعلى أثر ذلك تبرعت بلدية باريس بمبلغ ١٦ مليونا للمشروع مع قطعة ارض مساحتها هكتار ، اي عشرة آلاف متر في حي جوسيو ، وهو جزء من الحي اللاتيني ، وكان في موضع هذه الأرض مبنى لمستشفى قديم مهجور يسمى مستشفى الرحمة ، وشرع في انشاء المسجد ومجموعة المباني الملحقة به وهي معهد للدراسات الاسلامية ومطعم وسوق وحديقة جميلة .

والمسجد وملحقاته يعتبر هيئة مستقلة تديرها هيئة خاصة بها يرأسها مدير جزائري باسم بلدية باريس .

والمسجد قطعة فنية بديعة من الفن المغربي الاندلسي وقد عني المعماري الذي وضع الرسم باظهار اجمل ما في الفن المغربي الاندلسي من رقة وجمال واناقة واشراق واستعمال حسن العوامل

الطبيعة من خضرة وماء كأجزاء من عمارة المسجد ، وسواء آنت في بيت الصلاة او في الصحن او تحت المجنبات التي تتألف من عقود اندلسية فان كل ما تقع عليه عينك يذكرك بمباني الحمراء الاندلسية ، وتذكرك ببدائع الفن المغربي في فاس ومكناس ومراكش وتفتح هذه العقود على أبهاء مكشوفة ، في وسطها نوافير ماء ، ويغطي حوائطها الزليج الجميل ، والخضرة تراها في كل مكان ، اما المنبر فقد صنع في مصر وهو هدية من الملك احمد فؤاد لمسجد باريس .

من الناحية الفنية الاسلامية الصرفة يفوق هذا المسجد مسجد لندن الجديد بمراحل ، فأنت هنا في مسجد باريس في جو عربي اسلامي خالص ، اما في مسجد السير جيبارد فأنت في مبنى انجليزي من طراز شرفات ناشى ، وعليه قبة ومئذنة هما شبيهان بمئذنة مصنع .

مسجد واشنطون

كان في واشنطون وغيرها من كبريات بلاد الولايات المتحدة وكندا وامريكا الوسطى والجنوبية مساجد صغيرة هي في الغالب شقة في بيت أو قاعة في مطعم او مخزناً تؤجر لهذا الغرض . وفي العادة تلجأ الجاليات الاسلامية الكبيرة الحجم الى استئجار قاعة واسعة في احد المطاعم او المنشآت المخصصة للحفلات لتقيم فيها صلاة الجمعة وخاصة صلاة العيدين .

ولكن حادثا وقع في سنة ١٩٤٥ نبه مسلمي واشنطون الى ضرورة انشاء مسجد في العاصمة الامريكية ، فقد توفي السفير التركي فجأة وتحير المسلمون في امر اقامة صلاة الجنازة عليه وتقبل العزاء فيه ، فتحرك محمود حسن سفير مصر في واشنطون اذ ذاك واتصل بمقاول مسلم امريكي من اصل لبناني هو احمد يوسف حوار واتفقا على ضرورة تحقيق مشروع المسجد ، وجرت اتصالات كثيرة بين سفراء البلاد الاسلامية التي كانت ممثلة في واشنطن في ذلك الحين وعددها احدى وعشرون وتبرعت الحكومة الامريكية بقطعة ارض واسعة في شارع ماساتشوستس وهو من اجمل شوارعها لكي يقام عليها مسجد ومركز اسلامي يليق بمقام الجماعة الاسلامية والعاصمة الامريكية في آن واحد .

وتسارعت البلاد الاسلامية في التبرع والعمل لانشاء هذا المسجد ، فاخذ المكتب الهندسي على عاتقه اقامة المسجد وفق المتطلبات المعماري في المنطقة وبالنسبة الى اماكن العبادة القائمة في المدينة فاقام المئذنة في وضع تبدو معه وكانها فوق المدخل وبناها على الطراز المصري ذي البدن المربع ، وجعل مدخل المسجد واسعا يرقى اليه الداخل على سلالم من رخام ، وجعل المدخل نفسه خمسة عقود تقوم على اربعة اعمدة من الرخام .

والمسجد كله بيت صلاة فسيح رفيع الذرى يقوم سقفه على اعمدة ضخمة من الرخام تحمل فوقها بوائك عالية من الطراز

الذي استحدثه ماريو روسي في جامع ابي العباس وتكرر بعد ذلك كثيرا في مساجد عديدة اعظمها المسجد النبوي المكرم في المدينة . وقد شاع استعمال هذا الطراز الجميل من العقود لأنه يتيح للمعماري رفع السقف الى اعلى مستوى يستطعه عن طريق تلك العقود المرتفعة التجويف السميكة الطبقات تبعا لذلك ، وتمتاز عقود داخل مسجد واشنطون بانها مفصصة كبيرة الفصوص ، والمحراب من الرخام شبيه بمحراب مسجد الرفاعي في القاهرة ، وقد صنع المنبر في القاهرة على طراز منبر جامع محمد علي .

وقد احتاج المسجد الى اربع سنوات لوضع رسمه واشرف على العمل السيد يوسف حوار ، وشاركت في عمارته وزخرفته معظم بلاد الاسلام فالقاشاني من تركيا وهو من طراز بديع ازرق وابيض ، وقدمت ايران السجاجيد ومن بينها سجادة رائعة لا تقدر بثمن مقاييسها ۳۰ قدما في اربعين ، والثريا الكبرى وتزن طنين من النحاس صنعت في مصر وكذلك المنبر ، واستقدمت هيئة الانشاء عشرات العمال الفنيين من مصر وتركيا وايران والسعودية ، وبلغ عدد القطع التي يتألف منها المنبر اثنى عشر الف قطعة من الابنوس كلها صنعت في مصر ثم ركبت على الهيكل الخشبي . وقدمت السعودية اموالا وافدة وكذلك ساهمت في النفقات شركة ارامكو وشركات بترولية اخرى . وقدم السيد

يوسف حوار هدايا كثيرة للمسجد منها النافورة الرخامية التي تتوسط ردهة المبنى والى يمينها ويسارها مبنى المركز الاسلامي الثقافي وبيت الصلاة امامها : وقد قام بتحديد اتجاه القبلة فلكي متخصص من اعضاء الجمعية الجغرافية الامريكية اما حجارة المسجد فقد قطعت من جبال الباما ذات الحجارة البيضاء الصافية . وقد قام بعملية القطع والصقل فنيون اتوا من مصر والشام خاصة . وقد بلغت تكاليف البناء وحده ١,٢٥٠٠٠٠ دولارا بخلاف القطع الفنية الكثيرة المشار اليها واستغرق انشاؤه سبع سنوات ، وتم افتتاحه في ٢٨ يونيو ١٩٥٧ وحضر حفل الافتتاح الرئيس دوايت ايزنهاور .

وبيت صلاة المسجد يتسع لثلاثة آلاف من المصلين ويزيد في بهاء المسجد قيامه وسط خضرة جميلة تحيط به من كل جانب ، والمركز الاسلامي الملحق بالمسجد يعتبر من اعظم المراكز الاسلامية من هذا النوع خارج عالم الاسلام . وفيه مكتبة اسلامية محترمة .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

من قاموس الصائم

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية



من قاموس الصائم

دار الفكر اللبناني

صيام الناس والشاك

من تناول طعاما ناسيا انه صائم فصومه صحيح عند الشافعية . وباطل عند المالكية . ولذلك فيجب عليه القضاء . وفائدة النسيان عند المالكية انه يرفع الاثم عن صاحبه . ومن اكل او شرب ظانا ان الشمس قد غربت ثم تبين انها لم تغب بطل صومه ووجب القضاء ، وكذلك من اكل شاكا في طلوع الفجر ثم تبين انه اكل بعد طلوع الفجر فيجب عليه الامساك بقية اليوم لحرمة الشهر . ثم يقضي اليوم مستقبلا . واذا جامع شاكا في الفجر فعليه القضاء والكفارة اذا تبين خطأه هذا عند الحنابلة وغيرهم يلزمونه بالقضاء فقط كما تقدم اذ لا فرق عندهم بين الجماع والاكل والشرب . وعلة الحنابلة ان الجماع يمكن الاستغناء عنه بخلاف الاكل .

حديث شريف

الانتماء الى غير الاباء

في « كتاب الايمان » من صحيح مسلم ، عن « ابي ذر الغفاري » رضي الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« ليس من رجل ادعى لغير ابيه وهو يعلمه الا كفر ، ومن ادعى قوما ليس له فيهم نسب فليتبوا مقعده من النار » .

صيام المغمى عليه

اذا اغمى على الشخص يوما كاملا من الطلوع الى الغروب او اغمى عليه اكثر اليوم . فان صومه باطل ويجب عليه القضاء سواء كان مدركاً عند الفجر أم غير مدرك وإذا أغمى عليه نصف اليوم أو أقل اليوم فإن كان صحيحاً عند الفجر ونوى الصوم قبل حدوث الاغماء فصيامه صحيح ولا قضاء عليه وأن لم يكن مدركاً بأن حدث الاغماء قبيل الفجر واستمر إلى نصف اليوم أو أقل منه فالصوم باطل ويجب عليه القضاء .

حديث شريف

فذلك البهتان

في « الموطأ » ان رجلا سال رسول الله ﷺ : ما الغيبة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :

« ان تذكر من المرء ما يكره ان يسمع » قال : يا رسول الله وان كان حقا ؟ قال عليه الصلاة والسلام :

« اذا قلت باطلا ، فذلك البهتان » .

صيام الطهاة وربات البيوت

يجوز للطاهي ان يذوق الطعام الذي يطهوه ـ وهو صائم ـ اذا كان من يعد له الطعام لا يتسامح في مواصفات معينة ، يحبها في الطعام . واذا كان للطاهي مهارة في ضبط المقادير وجودة الصنع فينبغي الاكتفاء بها . وكذلك ربات البيوت يجوز لهن ذوق فوق ما يطهون بنفس الشروط . كما اجاز الفقهاء لمن يريد ان يشتري سلعة يخشى ان يغش فيها فوق ما يريد شراءه . وفي كل حالة ينبغي التحرز الشديد من تسرب شيء مما يذاق الى الحلق ، والا وجب القضاء .

حديث شريف

خصال النفاق

عن « عبد الله بن عمرو » عن رسول الله ﷺ ، قال :

« أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق ، حتى يدعها :

أذا اؤتمن خان ، واذا حدث كذب واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر ».

« البخاري »

صيام الشيوخ والاطفال

الشيوخ الطاعنون في السن ، رجالا ونساء ، اذا اجهدهم الصوم ، واصابتهم مشقة بالغة بسببه فانه يجوز لهم الافطار ، وكذلك الذي اهزله المرض وانهكته العلل ، واذا حصل الافطار لهذا العذر فيكفي المفطر فدية طعام مسكين عن كل يوم افطره وان زاد على طعام المسكين فخير . ويرى بعض المفسرين ان هذا معنى قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية . . » ويطيقونه . . يتجشمونه ويؤدونه بمشقة بالغة . والدين يسر . اما الاطفال الذين بلغوا مرحلة التمييز فيكره صيامهم لئلا يتظاهروا به ويتناولون سرا ما يبطل الصوم . خاصة في ايام القيظ . ولا بأس بتدريبهم على الصوم شتاء .

حديث شريف :

لله ما أخذ ، وله ما أعطى

حدث « اسامة بن زيد » قال : ارسلت ابنة النبي ﷺ اليه ، ان ابنا لها قبض . فأرسل يقرىء السلام ويقول :

« ان لله ما أخذ وله ما اعطى ، فلتصبر ولتحتسب »

ثم قام ﷺ ومعه « سعد بن عبادة » ورجال من الصحابة فرفع الصبي الى رسول الله ﷺ ففاضت عيناه . فقال سعد : يا رسول الله ، ما هذا ؟ فقال :

« هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء » .

من (صحيحي البخاري ومسلم)

صيام المغتاب والنمام

الغيبة والنميمة من اخطر الامراض الاجتماعية ، وهما حرامان شرعا . وبعض العلماء يرى ان الغيبة ، والنميمة تبطلان صوم المغتاب والنمام ، معتمدا على اثر ثبت ضعفه هو : « خمس يفطرون الصائم » وذكر منها الغيبة والنميمة . من هؤلاء الامام الاوزاعي القائل يبطلان صوم المغتاب ووجوب القضاء عليه ، ومنهم ابن حزم الظاهري الذي ذهب الى ان الصوم يبطل بكل معصية تقع اناءه سواء كانت فعلا او قولا . والاصح انهما لا تبطلان الصوم . وينبغي على الصائم محاذرتهما ويكفي لما في الغيبة من الله شبه المغتاب بمن ياكل لحم اخيه ميتاً . وليس هذا فن طبائع البشر .

حديث شريف
لا ترجعوا بعدى كفارا

عن « جرير بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر » ان النبي ﷺ قال :

« لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ».
(البخاري ، ومسلم)

فتوى : افطار الحامل

زوجتي حامل في شهرها السابع ونسأل هل يجوز لها شرعا افطار شهر رمضان ؟

: مذهب الامام ابي حنيفة يبيح لها و« للمرضع » افطار شهر رمضان . . اذا خافت الحامل او المرضع تاثير الصيام على « نفسها » او « على الجنين » او « الولد ».

: وعند قدرتها الصحية على الصيام بعد رمضان تصوم بدل الايام التي افطرتها خلال شهر رمضان ولا تخرج اية فدية من مدة الافطار .

: ويرى الحنابلة ان خوف المرأة « الحامل » او « المرضع » التي تحتمل صحتها الصيام اذا كان خوفها من تاثير الصيام على

« الجنين » او على « الولد الذي يرضع » فان الشرع يبيح لهما الافطار .

: ولكنه يلزمها بالصيام بدل ايام الافطار بعد شهر رمضان كما يلزمها بتقديم « فدية » عن كل يوم افطرتا فيه بتقديم طعام « وجبتين كاملتين » للفقير او المحتاج او دفع بدل نقدى عن الوجبتين والله اعلم .

الشيخ محمد خاطر

حديث شريف

عن « عبد الله بن عمرو » رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العلماء ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا واضلوا » .

(من صحيح البخاري)

التقيوء

لي صديقان صائمان :

« احدهما » مصاب « بالكحة » خرج البلغم من خلقه الى فمه ثم رجع الى خلفه وأمعائه . .

و« الثاني » تعمد اخراج القيء وهو صائم . .

و« انا » غلبني القيء وخرج رغما عني . . فما راى الشرع الاسلامي في صيام كل واحد منا ؟

: يرى فقهاء المالكية ان رجوع البلغم الى حلق صاحبك الاول مرة اخرى لا يفسد صومه .

: اما صاحبك الثاني فيرى فقهاء الحنفية ان الذي يتعمد اخراج القيء من جوفه اذا كان ذاكرا انه صائم ـ ليس عن سهو ولا نسيان ـ وكذلك اذا احس بالقيء خرج كرها عنه وملأ فمه فأعاده بنفسه وهو يذكر تماماً أنه صائم فإنه في الحالتين « اصبح مفطرا » ويجب عليه بعد رمضان صيام يوم بدل اليوم الذي افطره .

ويرى الحنابلة والشافعية انه ما دام عامدا عالما مختارا فقد افطر وعليه قضاء صيام يوم اخر حتى ولو لم يملا القيء فمه اما اذا كان « ناسياً » وحدث هذا سهوا عنه فانه « يتمم صوم اليوم » ولا يصبح مفطرا في هذه الحالة .

: اما انت صاحب السؤال : فقد قرر الفقهاء انك لم تفطر وصومك صحيح لان الشخص الذي « يغلبه القيء » فيلقى م في بطنه قهرا عنه ـ ودون ارادة منه ـ لا يفسد صومه ولا شيء

عليه . قال رسول الله ﷺ : ؟ من ذرعه ـ أي غلبه ـ القيء فليس عليه قضاء ومن استقاه عمدا فليقض ».

حديث شريف

الدين يسر

في صحيح البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : « بينا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، هلكت .

قال : ما لك ؟

قال : وقعت على امراتي وانا صائم .

فقال رسول الله ﷺ : قد تجد رغبة تعتقها .

قال : لا .

قال : فهل تستطيع ان تصوم شهرين متتابعين ؟

قال : لا

فمكث عند النبي ﷺ ، فبينا نحن على ذلك اتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر ـ والعرق : المكتل ـ

قال : اين السائل ؟

فقال : انا

قال : خذ هذا فتصدق به

فقال الرجل : اعلى افقر مني يا رسول الله ؟ فوالله ما بين الحرتين اهل بيت افقر من اهل بيتي .

فضحك النبي ﷺ وسلم قال : اطعمه أهلك » .

عجوز ضعيف

رجل كبير السن ضعيف القوى لا يقدر على الصوم فهل يجوز له الفطر في رمضان ؟

المفتي

: هذا الرجل الطاعن في السن والمرأة الطاعنة في السن العاجزان عن الصيام الان واللذان لا يستطيعان الصيام بعد رمضان لان ضعفهما يزداد كلما كبر سنهما يجوز لهما الفطر . . ولا يصومان بعد رمضان .

: واذا كان الشخص المفطر لكبر سنه « فقيرا » او محتاجا فلا يقدم فدية عن ايام افطاره .

: أما اذا كان قادرا ماديا على الفدية فان الشرع يوجب عليه ان يقدم لله فدية ، وهي ان يطعم فقيرا او مسكينا او اي محتاج « وجبتين كاملتين » عن كل يوم يفطره في رمضان والله تعالى يقول « وعلى الذين يطيقونه فدية » .

: واباح الامام ابو حفيفة ان ندفع « بدل الطعام » نقدا للفقير او المحتاج . والله تعالى اعلم .

حديث شريف

نصيحة نبوية

اقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل فان استطعت ان تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن .

فتوى

هذا لا يفطر الصائم

: الاكتحال ووضع القطرة في العين ، سواء اوجد طعمه في الحلق ، ام لم يوجد ، لان العين ليست بمنفذ الى الجوف .

: الاستحمام ، وصب الماء على الرأس .

: النسيان في الاكل والشرب
العضد والرعاف ونحوهما

: تقبيل الزوجة لمن كان قادرا على ضبط نفسه . . والاولى تركها عند الاحناف والشافعية .

: الاحتلام في النوم

: التداوي بالحقن الطبية على اختلاف انواعها . . تحت الجلد وفي الفصل وفي الوريد . . كذلك حقن التقوية مثل الفيتامينات والكلسيوم وغيرها .

: الحقن الشرجية . . فحكمها مثل من يصاب باسهال .

محمد نعيم

أهل الجنة

أهل الجنة ثلاثة . ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى مسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال

حديث شريف

س و ج

المرض والصوم

: لم أتمكن من صوم رمضان في العام الماضي لمرضى ، ولم اتمكن من القضاء حتى جاء هذا العام فما حكم صيامي ؟

ـ عليك صوم رمضان الحاضر ، واما ما فاتك من صوم رمضان السابق فعليك قضاؤه بعد انتهاء رمضان وعليك ايضا

مع صوم القضاء اطعام مسكين عن كل يوم تصومه .

« إذا كانَ يَومْ صَوْمِ أحَدكم فلا يَرفثْ وَلا يصخَبْ ، فان سَابّه أحَدٌ أو قاتَله فليقَل إنيّ صَائِم » .

: ما هو حكم صلاة التراويح ولماذا اختصت بشهر رمضان وما عدد ركعاتها ؟

ـ صلاة التراويح في رمضان مستحبة وقد رغب فيها الشارع فقد قال ﷺ : من قام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

واختصت برمضان لانه شهر عبادة وهو افضل الشهور لذلك كان نهاره عبادة وليلة كذلك وقد صلاها رسول الله عليه السلام ثماني ركعات غير الشفع والوتر وفي عهد عمر رضي الله عنه رأى أن يجمع الناس على صلاتها عشرين ركعة عدا الشفع والوتر .

« اذا جَاءَ رَمضَانُ فتّحِتْ أبَوابُ الجَنّة ، وَغْلّقِتَ أبَوابُ النّار وصُفّدَتِ الشّيَاطين » .

كل الكتب نزلت فيه

: ما علاقة الصوم بشهر رمضان ، ولماذا فرض الصوم في هذا الشهر بالذات ؟

ـ شهر رمضان فضله الله سبحانه على سائر .شهور فجعله شهر رحمة وغفران وعتق من النار فما من كتاب سماوي الا وانزله

الله فيه ، وفيه انزل القرآن الكريم على رسول الله الامين الى خير امة اخرجت للناس .

لذلك كان سيد الشهور واعظمها عند الله تعالى فمن صامه ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تاخر .

ولما كان لهذا الشهر هذه المكانة خصه الله تعالى بفريضة الصوم فيه التي هي دعامة من دعائم الاسلام وركن من اركانه يقول الله تعالى : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

« مَن صَامَ رمضَانَ ايمَاناً واحتِسَاباً غُفِرَ لهُ مَا تقدَّمَ مِن ذنبِه » .

امراض عصبية

: هل يجب قضاء ايام رمضان بالنسبة لمرضى الامراض العقلية بعد شفائهم ؟

ـ المجنون غير مكلف بشيء ، فلا يجب عليه صوم ولا غيره مما يكلف به العاقلون ، فاذا افاق من جنونه فلا قضاء عليه فيما فاته ، كما هو مذهب بعض الائمة ، وذهب بعض آخر الى انه يجب عليه القضاء لما فاته اذا كان جنونه استمر خمس سنوات فاقل ، اما اذا زاد على ذلك فلا قضاء عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَا بنّى انها إن تَك مِثقَالَ حَبّة مِن خَردَلٍ فَتَكنُ في صَخرَة أوفى السّماوات أوفى الأرض يأتِ بِهَا الله إنّ الله لَطِيفٌ خَبِيرُ * يَا بُنَىَّ أقِمْ الصَّلاةَ وأمُرْ بالمعرُوفِ وَانْهَ عَنِ المنكَرِ واصبر عَلى مَا أصابكَ إنَّ ذَلكَ مِن عَزْمِ الأمُور * ولا تُصَعّر خَدَّكَ للنّاس وَلَا تَمش فِي الأرْضِ مرحاً إنّ الله لَا يُحِبّ كلَّ مُخْتَالٍ فَخُور * واقصِد فِي مَشِيكَ واغْضُضْ مِن صَوتِكَ إنّ انكَرَ الأصواتِ لَصَوتُ الحَميرْ *»

اصحاب المقاهي

ما الرأي في صاحب المقهى والمطعم الذي يفتح محله في نهار رمضان ويقدم فيه الشراب والطعام لغير الصائمين مع أنه هو نفسه صائم ؟

هؤلاء الذين يفتحون المطاعم والمقاهي في رمضان نهارا ليقدموا الآكل والشراب للمفطرين هم منتهكون لحرمة هذا الشهر الكريم وهم بذلك اثمون لانهم في الحقيقة شركاء لهؤلاء المفطرين لان الانسان يجب عليه ازالة المنكر اما بيده ان استطاع والا فبلسانه ان قدر والا فبقلبه فان لم يفعل ذلك كان شريكا لمرتكب المنكر عليه الاثم والزر .

أما صوم هؤلاء الذين يفتحون مطاعمهم او مقاهيهم نهارا فلاحظ لهم من صومهم الا حرمانهم من الجوع والعطش ولا ثواب لهم في من هذا الصوم .

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّ اللهَ يأمُرُكمْ أنْ تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا وإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ ، انَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، انَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصيراً » .

صدق الله العظيم

خلع الضرس

: ما الحكم اذا خلع الصائم ضرسه في نهار رمضان بعد أن حقنه الطبيب تحت الضرس ، ثم وضع في فمه بعض الادوية بعد الخلع ؟

ـ خلع الضرس في نهار رمضان غير مفطر للصائم والحقنة اذا لم يصل منها شيء للحلق لا تفطر ومثلها الدواء بعد الخلع الذي يتمضمض به بشرط الا يبالغ في المضمضمة كيلا يصل شيء ما للحلق .

بسم الله الرحمن الرحيم

« بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الاَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * » .

صدق الله العظيم

النوم والصيام

: عملي يستغرق الليل كله ، ولذلك فانني انام طول النهار في رمضان فهل يصح صيامي .

ـ نومك النهار كله لا يفسد صومك ، بل هو صوم صحيح بشرط ان تبيت وانت تنوي الصيام .

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ *»

صدق الله العظيم

الصوم والعمل

انني ومجموعة من زملائي نقوم بعمل شاق في النهار ، لا نقدر على أدائه مع الصيام وكذلك لا نستطيع الكف عن العمل نظراً لحاجتنا ولأنه مورد رزقنا الوحيد فهل يجوز لنا الافطار ؟

ـ العمال الفقراء المحتاجون للعمل عليهم ان يصبحوا صائمين واذا تعبوا اثناء النهار افطروا وعليهم قضاء ما افطروا فيه بعد انتهاء رمضان .

بسم الله الرحمن الرحيم

« فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُواً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * » .

صدق الله العظيم

الطبيب بعد الصيام

○ هل يصح للسيدة المريضة أن تعرض نفسها على الطبيب في نهار رمضان وما حكم صيامها أن هي فعلت ذلك ؟

ـ السيدة المضطرة لكشف جسدها امام الطبيب صومها صحيح وان كان الافضل لها ان تتوجه الى الطبيب بعد المغرب .

بسم الله الرحمن الرحيم

« واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ على شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون * » .

صدق الله العظيم

الأطفال . .
لا يصومون

: ما الرأي في صوم الاطفال وهل الافضل منعهم من الصيام حتى يبلغوا الحلم ؟

ـ الاطفال الذين لم يبلغوا الحلم يكره في حقهم الصوم لان الصوم شاق عليهم فلو صاموا رمضان كرهوه فيعتادوا كراهيته عند البلوغ .

وايضا ربما افطروا فيه خفية ثم يظهرون انهم صائمون حتى الغروب فيعتادون ذلك بعد بلوغهم .

والصوم خلاف الصلاة لانها خفيفة عليهم لذلك يؤمرون بها اذا بلغوا سبع سنين ويضربون على تركها اذا بلغوا عشرا من السنين .

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * » .

صدق الله العظيم

الموائد العامرة

: هل من الضروري ان تكون موائد الافطار في رمضان عامرة بمختلف اصناف الطعام بحجة الصيام ؟

ـ الاسراف في كل شيء مذموم شرعا والفضيلة هي الاقتصاد بين الاسراف والحرمان .

يقول الله تعالى : « وكان بين ذلك قواما » ويقول الرسول ﷺ : لا عال من اقتصد .

ومن ثم فينبغي للصائم عند فطره التقليل من المأكل والمشرب بحيث لا يرهق المعدة فيحصل له الضرر لان المقصود بالصوم طهارة الارواح وصحة الأبدان .

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ا الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » .

صدق الله العظيم

فم الصائم

: لماذا كانت رائحة فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك كما يقولون ؟

ـ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لخلو فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك ».

ك وهذا مما يدل على رضاء الله ومحبته للصائم لانه ترك الطعام والشراب امتثالا لامر ربه وتقربا اليه سبحانه الذي يعلم السر والنجوى . .

والصائم لا رقيب عليه الا الله عز وجل ولذلك يقول الله : « الصوم لي وأنا اجزى به ». .

واذا أثر ترك الطعام والشراب في تغيير رائحة الفم فان ذلك محبوب عند الله تعالى وهو اطيب من ريح المسك عنده وذلك لتطبيب نفس الصائم وتبشيرها بقبول صومها ورضاء الله عنها .

الشيخ صالح شرف

بسم الله الرحمن الرحيم

« قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ».

صدق الله العظيم

الصوم بعد رمضان

: هل يجب قضاء الايام التي يفطرها الانسان مضطرا في رمضان عقب انتهاء الشهر مباشرة وهل يجب تتابع ايام الصيام ؟

ـ لا يجب قضاء ايام من رمضان على الفور ، وان كان يستحب لمن افطر في رمضان التعجيل بقضاء ما افطر فيه ، خوفا من حدوث ما يمنعه من القضاء واذا اخر القضاء الى دخول رمضان الثاني بدون عذر فانه يكون آثما وعليه اطعام مسكين عن كل يوم يقضيه . .

هذا ولا يجب في القضاء تتابع ايام الصيام .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ : « اياكم والكذب ، فان الكذب تهدي الى الفجور ، والفجور يَهدي الى النار ، وتحرّوا الصدقَ ، فان الصدق يهدى الى البرِ والبر يهدي الى الجنة ».

الورثة يصومون

: ما هو حكم من مات وعليه قضاء أيام افطرها في رمضان ؟

ـ من مات وعليه قضاء أيام من رمضان ، يرى بعض الفقهاء انه يصح لبعض ورثته ان يصوم عنه تلك الايام نيابة عنه لقول الرسول عليه الصلاة والسلام لمن جاءته قائلة يا رسول الله ان امي ماتت وعليها صوم نذر ، فقال لها أرأيت لو كان على امك دين فقضيته اكان يؤدي ذلك عنها ؟ قالت : نعم فقال : فدين الله أحق بالقضاء .

وقال آخرون ان الصوم عبادة بدنية كالحج لا تنفع فيهما النيابة لقوله تعالى « وان ليس للانسان الا ما سعى » وهذا الذي مات قبل رمضان لا شيء عليه لانه ترك مستحبا وهو تعجيل القضاء .

الشيخ صالح شرف

قال الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوادين احساناً .

وقال تعالى : فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » .

الوضوء . . لماذا ؟

ـ لماذا يتوضا المسلم خمس مرات يوميا . . مرة عند كل صلاة . . وما الحكمة في ذلك ؟

: الاسلام هو الدين الوحيد من بين الاديان الذي يهتم بسلامة الاجسام مثل اهتمامه بسلامة النفوس والارواح .

لذلك اهتم بالوضوء الذي شرعه الله ليحقق بعض هذه المقاصد .

واول ما يطالعنا من حكم الوضوء واسراره ان يكون الانسان على قدر مناسب من جمال المظهر وحسن الهيئة ولا يتم ذلك الا بتعهد ما اصاب اعضاء الجسم التي يشملها الوضوء وازالة ما علق بها من ملامسة الاشياء وتطهير هذه الاعضاء مما يحمله الهواء من التراب وتنقيتها مما تخرجه المسام من العرق وتقذفه المنافذ من اوساخ . . وبهذا يبدو الانسان نظيفا طاهرا والنظافة ركن من اركان الحسن والجمال وحينما يبدو الانسان هكذا فان الناس يحبونه ويألفونه فضلا عن حب الله له وقد جاء فى الحديث الصحيح ان النبي ﷺ قال : « إن الله جميل يحب الجمال » .

والحكمة الثانية ان في المحافظة على الوضوء نوعا من انواع الطب الوقائي . فقد ثبت طبيا ان كثيرا من الامراض تدخل في

الجسم من المنافذ التي يغسلها الانسان عند الوضوء فإذا أزيل ما علق بهذه المنافذ من العرق وغيره مما يعتبر بيئة خصبه للميكروبات كان ذلك وقاية من أسباب المرض وكان فيه السلامة وحفظ الصحة .

ويحقق الوضوء وعيا ويقظة للانسان الذي يدرك انه سيقف بين يدي الله العظيم ، فتقدم الوضوء على الصلاة بمثابة الاعداد والتهيئة لتجميع القوى الروحية وحشدها .

الشيخ سيد سابق

قال الله تعالى : « تلك الدّار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعافية للمتقين » .

هذه المراقبة

ـ هل يقدم من صدق مع الله في صومه وراقبه فيه مخلصا على غش الناس ومخادعتهم ؟

هل يسهل عليه ان يراه الله وهو يأكل اموال الناس بالباطل ؟

هل يحتال على الله في منع الزكاة ؟ وعلى اكل الربا ؟

يجيب الامام محمد عبده على هذه الاسئلة قائلا :

كلا . . فإن الصوم يحدث لصاحبه ملكه المراقبة لله تعالى والحياء منه سبحانه ، وفي هذه المراقبة أكبر معد للنفوس مهيء لها السعادة في الآخرة والاستقامة في الدنيا .

ان صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي ، اذ لا يطول امد غفلته عن الله ، واذا نسى والم بشيء منها كان سريع التوبة ، قريب الاوبة « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ».

قال رسول الله ﷺ :

« ان العفو لا يزيد العبد الا عزاً فاعفوا يعزكم الله ، وان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله وان الصدقة لا تزيد المال الا نماء فتصدقوا يزدكم الله ».

معنى ليلة القدر

: ما معنى ليلة القدر . . وما معنى انها خير من الف شهر ؟

ـ يقول الله تعالى : (ليلة القدر خير من الف شهر) ومعنى كونها ليلة القدر انها ليلة الشرف والرفعة فقد رفع الله من شأنها وفضلها على جميع الليالي وهي أيضاً خير على المسلمين القائمين فيها بذكر الله تعالى وعبادته شاكرين نعم الله عليهم بتوفيقهم إلى طاعته .

وأهم نعمة انعمها على البشرية جميعا هي انه سبحانه انزل فيها القرآن الكريم على رسوله الامين محمد عليه الصلاة والتسليم . انزله عليه ليخرج الناس من الظلمات الى النور .

والعبادة في هذه الليلة خير من العبادة في غيرها يضاعف الله للقائمين فيها الاجر والثواب كما قال تعالى « ليلة القدر خير من الف شهر »

وقد حث رسول الله عليه السلام على احيائها فقال : من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

قال رسول الله ﷺ : « من قام ليلة القدر ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ».

الملائكة . . في القتال

: كيف انتصر المسلمون في غزوة بدر مع أنهم كانوا قلة بالنسبة لاعدائهم ، وهل كان امداد الله تعالى المسلمين بالملائكة يمثل مشاركة حسية او معنوية في القتال .

ـ غزا رسول الله وصحابته غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان وكان عدد المسلمين في هذه الغزوة ثلث عدد الكفار ، غير أن المسلمين وان كانوا قلة الا انهم نصروا الله فنصرهم مصداقا لقوله تعالى : (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) . . فقد نصروا الله بالاعتماد عليه وبالثبات على الحق والثقة بوعد الله لهم بالنصر او بالاستشهاد وهو احب اليهم من حياة الذلة والمهانة .

لذلك كانوا يحرصون على الموت لما بعده من خير وسعادة ابدية وجنات عرضها السموات والارض فوهب الله لهم الحياة والعزة ونصرهم على أعدائهم تحقيقا لوعده فامدهم الله بجنود من عنده ، امدهم بالملائكة فقاتلوا معهم قتالا حسيا كما يشهد بذلك صريح القرآن اذ يقول الله تعالى : « اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين امنوا سالقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ». ويقول : « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فوركم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » .

فهذه الآيات صريحة في المدد الحسي والضرب الحسي ولا داعي الى تأويلها بغير ذلك فالله قادر على كل شيء والله اعلم .

الشيخ صالح شرف

قال الله تعالى :

« ومن يتوكّل على الله فهو حسبه ».

العمرة في رمضان
اصلها وشروطها

العمرة في الاصل اللغوي الزيارة التي يقصد بها عمارة المكان وعمارة القلوب الود ، وتلاقيها على الصفاء والمحبة

والاخلاص . وقد خصها الاسلام بزيارة بيت الله الحرام . وتلاقي النفوس فيه على مودة ورحمة واخاء .

وهي سنة مؤكدة عند المالكيـة والحنيفية وفـرض عند الشافعية . وواجبة عند الحنابلة . . ويجوز تاديتها في اي وقت من اوقات السنة الا انها تكره تحريما في يوم عرفة وفي يوم النحر ، وفي ايام التشريق .

وورد في عدة احاديث ذكرها المنذري في الترغيب والترهيب ومنها ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال اراد رسول الله ﷺ الحج فقالت امرأة لزوجها احججني مع رسول الله ﷺ فقال : ما عندي احججك عليه . . فقالت : احججني على جملك فلان . قال ذاك حبيس في سبيل الله عز وجل ، فاتى رسول الله ﷺ فقال : ان امرأتي تقرأ عليك السلام ورحمة الله وانها سألتني الحج معك . فقلت ما عندي ما احججك عليه ، فقالت : احججني على جملك فلان . فقلت ذاك حبيس في سبيل الله عز وجل فقال : اما انك لو احججتها هيه كان ذلك في سبيل الله قال : وانها امرتني ان اسألك ما يعدل حجة معك قال رسول الله ﷺ اقرئها السلام ورحمة الله وبركاته واخبرها انها تعدل حجة معي عمرة في رمضان »

ثواب العمرة

وفي حديث اخر عن ابن عباس رضي الله عنه قال . . قال

رسول الله ﷺ لامرأة من الانصار : ما منعك ان تحجي معنا . قالت كان لنا ناضح « جمل » فركبه ابو فلان وابنه ـ تعني زوجها وابنها ـ وترك ناضحا ننضح عليه . . » فقال صلوات الله وسلامه عليه . . « إذا جاء رمضان فاعتمري فيه ، فإن عمرة في رمضان تعدل حجة » . . قال ابن الجوزي في الحديث أن ثواب العمل يزيد بزيادة شرف الوقت ، كما يزيد بحضور القلب وبخلوص القصد .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ « العمرة الى العمرة كفارة » بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة »

وعن جابر رضي الله عنه : ان النبي صلوات الله وسلامة عليه قال : « هذا البيت دعامة الاسلام فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج او معتمر ، كان مضمونا على الله ، ان قبضه ان يدخله الجنة ، وان رده . . رده باجر وغنيمة » . . . ووردت احاديث اخرى كثيرة وكلها تدل على كثرة الثواب في عمرة رمضان

ولا تجزى عنه حجة الاسلام . . وهذا افضل من الله ونعمة حيث ادركت العمرة منزلة الحج بانضمام رمضان اليها .

اركان العمرة
وكيفية ادائها

ويشترط للعمرة ما يشترط للحج واركانها ثلاثة : الاحرام ،

والطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، وزاد الشافعية الترتيب والحلق والتقصير .

وميقات الحج هو ميقات العمرة وهو . . الجحفة « رابغ » لاهل مصر وما كان بمكة فميقاته في العمرة الحل « وهو ما عدا الحرم الذي يحرم فيه الصيد » فافضل الحل الجعرانة ثم .

فالقادم من خارج مكرة بحرم بها من ميقات الحج ثم يطوف حول البيت ثم يسعى بين الصفا والمروة ثم يحلق او يقصر . وبهذه الاعمال تنتهي العمرة .

محمد نعيم

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠١٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

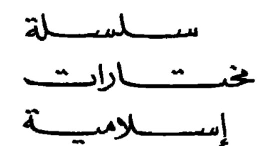
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

قصص إسلامية

(١)

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

قصص إسلامية

١

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً * فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ العِلْمِ ، إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى » .

صدق الله العظيم

عمر والأرملة
كيس الدقيق

حدَّث عبد الله بن العباس عن أبيه قال :

خرجت في ليلة غاب قمرها وحلك ظلامها واشتد قرها (بردها) وأممت دار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وما وصلت إلى نصف الطريق وأنا أتلمس سبيلي في العتمة حتى رأيت شخصاً أعرابيّاً يسير بخطى حثيثة لم أتبينه من أول وهلة فتابعت سيري . فما كان منه إلاّ أن جذبني من طرف ثوبي وقال : إلزمني ، يا عبّاس . » .

فالتفت إليه وتأملته فإذا هو أمير المؤمنين وكان قد تنكّر فقلت له وأنا لا أعي :

ـ إلى أين ، يا مولاي ، في هذا الليل الدامس والليلة الباردة ؟

ـ أريد جولة بين أحياء العرب لأتفقّد شؤ ون رعيتي وأتعرف على أحوالها في هذه الليلة القارسة . »

أذعنت لطاعته . فسار وسرت وراءه . وجعل يجول بين خيام العرب ويتأملها . يتوقف من حين إلى حين ثم يواصل سيره إلى أن أتى على جميعها . فالسكوت يُـخيم على الأحياء والقوم نيام . فالتفت إلـيَّ وقال : « عُدْ بنا ، يا عباس ، قد اطمأن الآن بالي . والله لما كان في استطاعتي أن أذوق طعم النوم لو أن أحداً من أبنائي يقرسه البرد ويعضّه الجوع . »

ولما هممنا بالعودة استرعى نظرنا خيمة انفردت عن الحي يلوح منها ضوء شاحب نحيل يعلو تارة ويخبو أخرى ويان لنا أمرأة عجوز وحولها صبية تعلقوا بأهداب ثوبها يقتفون خطاها كيفما اتجهت . وطرق مسمعنا بكاؤ هم وعويلهم وهم يرددون : « نحن جياع ، يا جدتنا . لا نستطيع النوم قبل أن نشبع جوعنا . » فتلاطفهم المرأة وتهون عليهم : « القدر على النار ، يا أولادي ، طوِّلوا بالكم . قليلاً وينضج الطعام فتأكلون وتنامون نوماً هادئاً . »

سمَّـرنا هذا المشهد في مكاننا وجعل عمر يحدق إلى العجوز تارة وينظر إلى الأولاد أخرى وقد استولى عليه العجب : « ترى ما الذي قعد بهذه المرأة عن أن تهيء الطعام لأولادها في حينه وتُعشّيهم ؟ لقد تقدم الليل ولم يستو الطعام بعد . »

فقلت لأمير المؤمنين : « هلـمّ بنا ، يا مولاي ، لقد طال مكوثنا وما لنا في الأمر حيلة . لا بدّ أن ينضج الطعام أخيراً فيأكل الصبيان ويرقدوا .

ـ لا والله ، يا عباس ، لن أترك مكاني حتى أرى المرأة قد سكبت الطعام للصبية فتعشوا واكتفوا . »

ولما نفذ صبرنا قال لي عمر : « ما هذا الطعام الذي تطبخه هذه العجوز ؟ إنَّ في الأمر لَسِرّاً . هَلُم بنا ندخل عليها ونستفسرها عن الأمر . لن يهدأ لي بال قبل أن أجلو هذا السر وأعرِف الحقيقة . »

فدخل ودخلت معه . فقال لها : « السلام عليك يا خالة فردت علينا السلام أحسن رد .

قال لها عمر : يا خالة ما بال هؤلاء الصبية يتصارخون ويبكون .

إنهم يتصارخون ويبكون لما هم فيه من الجوع .

ـ ولِمَ لا تطعمينهم مما في القدر بدلاً من أن ترددي عليهم : « رويداً ، رويداً ، يا بني ، قليلاً وينضج الطعام ؟ أما حان لهذا الطعام أن ينضج بعد هذا الوقت الطويل ؟ » .

فأجابت العجوز وهي تضبط نفسها : « وماذا في القدر حتى

أطعمهم ؟ هي حيلة أحتال بها عليهم إلى أن يتعبوا من البكاء ويضجروا من العويل فيغلبهم النوم . وأبقى أنا مسهدة (لا أستطيع النوم) تحرق الدموع عيني ويدمي الألم قلبي . » .

هال الخليفة هذا الكلام الذي سمعه وتقدم إلى القدر وكشف غطاءها فإذا فيها حصباء وعليها الماء يغلي . فدهش عمر لما رأى والتفت إلى العجوز قال : « عجيب أمرك ، يا أمرأة . لقد خفي علي مرادك .

ـ الأمر في غاية البساطة . أنا أمرأة مقطوعة لا أخ لي ولا أب ولا زوج ولا قرابة وهؤلاء الصبية هم أحفادي . مات والدهم فكفلتهم . أعمل عندما يتيسر لي عمل فأعود إليهم ببعض القوت يسد جوعهم ويمسك رمقهم . ويوم لا يتيسر لي عمل ألجأ إلى هذه الحيلة فأوهمهم أن في القدر شيئاً يطبخ أعللهم به حتى إذا سئموا الانتظار وتغلب عليهم النعاس استسلموا إلى الرُّقاد .

ـ لِمَ لم تعرضي أمرك على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيجري عليك رزقاً يقوم بأودك وأود هؤلاء الأطفال .

ـ لا حيّا الله عمر ، بل نكس الله أعلامه وقبّح وجهه . هو الذي ظلمني .

إرْتاع الخليفة لما سمع مقالتها وقال لها بهدوء : « يا خالة ، بماذا ظلمك عمر » ؟

ـ يدّعي معرفة رعيته فرداً فرداً ويزعم أنه يسهر على راحتها ويتركني أنا وهؤلاء الصغار نتخبط في الفاقة والشقاء ولا معين لنا ولا معيل .

ـ وهل يرجم عمر بالغيب من أين يعلم بحالك وما أنت به من الفاقة وكثرة الصبية ؟ كان عليك أن تتقدمي وتعلميه بأمرك . فإن تنكّر لك وتقاعس عن مساعدتك حق لك أن تلوميه وتشتميه .

ـ لا والله لست على رأيك . بل عليه هو أن يفتش عن احتياجات رعيته . وهل تعتقد أن كل صاحب حاجة يتقدم إلى الخليفة ليعرض عليه حاجته ؟ فالحياء والعنفوان وعزة النفس تجعل المرء يفضل أن يموت من أن يعرض نفسه لذلّ السؤال . أما تعرف القول المأثور : ولكن ما الفائدة من هذا الكلام وأين أنا من عمر لأسمعه صوتي ؟

ـ قد تكونين على حق ، يا خالة . أستحلفك ألاّ تدعي الصبية ينامون والساعة آتيك » . قال هذا وخرج وخرجت وراءه .

أما الخليفة فقد غادر الخيمة وكان قد بقي من الليل ثلثه فمشينا والكلاب تنبحنا وأنا أطردها وأدفعها عني وعنه .

حتى وصلنا إلى دار الخلافة فتوجهنا توّاً إلى بيت المونة ففتحه

ودخلنا . فعمد عمر إلى كيس من الدقيق يحتوي ثلاثين رطلاً ويزيد وقال لي : « يا عباس ، حول هذا الكيس على ظهري . » فترددت وهممت بحمله فمنعني : « إمتثل أمري . » فامتثلت وحملته إياه . ثم قال لي : « إحمل أنت جرة السمن هذه » وأشار إلى جرّة هناك ، فحملتها وخرجنا وأقفل الباب .

وصلنا إلى خيمة العجوز بعد أن أجهدنا التعب فحوًل عمر كيس الدقيق عن ظهره ووضعت جرة السمن وانتظرت أوامره .

كان الأولاد نائمين فقال عمر للمرأة : « قد وفيت بوعدي ، يا خالة ، وأتيتك بطعام لك ولأولادك . دعيهم نائمين ريثما أحضر لهم الطعام فيأكلون » وباشر بالعمل على الفور دون أن يأبه لي أو يطلب مساعدتي .

تقدم من الموقد وأخذ القدر وكب ما فيها ووضع فيها السمن وجعل بجانبه كيس الدقيق .

وبعد جهد جهيد أتّقدت النار وارتفع لهيبها وذاب السمن في القدر وابتدأ غليانه وحين نضج الطعام أنزل القدر عن الموقد وطلب من العجوز صحفة ثم قال : « أيقظي الأولاد ليأكلوا . »

حينئذ قالت العجوز : « قد خجّلتني ، يا ابني . فإنّ لساني يعجز عن شكرك . وحتى الآن لا أعلم ما الذي حملك على أن تعمل ما عملت ولا أعرف إسمك . فهل تبوح لي به حتى أذكرك في دعائي مع هؤلاء الصغار ؟ إنّك غمرتني بفضلك .

ـ يكفيك ، يا خـالة ، أن تعـرفي أنّي من أقربـاء أمير المؤمنين . . . »

ما إن لفظ عمر هذه العبارة حتى امتقع لون العجوز وارتعشت لأنها تذكرت مقالتها في الخليفة فقالت وهي تتلعثم : « أعتذر إليك ، يا ابني ، مما صدر عني في حق أمير المؤمنين . والله هي الفاقة وهو الجوع وهي المرارة التي أنطقتني بهذا الكلام . أنا عجوز شبعت من الحياة وأنتظر أن ألقي وجه ربي من يومٍ إلى يوم . ولكن مرأى هؤلاء الصغار اليتامى يتضوّرون جوعاً كان يؤلمني . . . »

فقاطعها قائلًا : لا تخافي يا خالة إنّ أمير المؤمنين رحب الصدر ، واسع الحلم ، لن يؤاخذك بما فرط منك . وأعدك بأنني لم أنقل إليه فهت به في سورة من الغضب دفعك إليه الضيق والحرمان . عليك أن توافي دار الخلافة من صباح غد ، فتجديني هناك . خير إن شاء الله . » ثم ودعناها وانصرفنا .

بلغنا دار الخلافة ودخلنا وقبل أن نفترق قال لي عمر : « يا عباس ، أشهد الله (آخذه شاهداً علي صدق كلامي) أن هذا اليوم أو قل هذه الليلة هي أسعد أوقات حياتي . ترى كم عانيت من التعب وحملت نفسي من العناء ، كلّ ذلك أحلى على قلبي من العسل . » ثمّ استودعني الله ولجأ إلى فراشه .

في اليوم التالي وفدت العجوز على دار الخلافة فاستقبلها

عمر . فلما وقعت عيناها عليه حتّى ارتعبت وانعقد لسانها . فلاطفها عمر وقرّبها وهدّأ روعها وجعل لها ولأولادها راتباً من بيت المال تستوفيه شهراً فشهراً . وبعد أن اطمأنت وانشرح خاطرها صرفها قائلاً : « لقد فتحت عيني ، يا خالة وأيقظت ضميري . منذ الآن لن أنتظر حتى يأتي إليَّ صاحب الحاجة ليعرض حاجته علي . بل سأفتش عنه لأقضيها له وأجنبه ذل السؤال . » فقالت العجوز ووجهها يضحك فرحاً : « بارك الله فيك ، يا عمر ، ورفع أعلامك » .

عمر بن الخطاب (٦٣٤ - ٦٤٤)

بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبو بكر الصديق . وهو أول من سمي بأمير المؤمنين . اشتهر بالشجاعة والعدل وبساطة العيش . نظّم الدولة الاسلامية وكانت في بدء عهدها . إفتتح العرب في أيام خلافته بلاد فارس وبلاد الشام وفلسطين ومصر .

أنشأ مدينتي البصرة والكوفة في العراق ومدينة الفسطاط في مصر .

مات مقتولاً بطعنة خنجر في خاصرته .

الأمـــان

أسر جنود عمر الهرمزان وهو أحد عظماء الفرس وأتوا به إلى الخليفة فهمّ بقتله . فاستمهله الهرمزان بعض الوقت واستسقى

ماء فأتوه بقدح . فأمسكه وقد بدا الخوف عليه واضطربت يده . ثم التفت إلى الخليفة وقال : « أخاف أن تقتلني وأنا أشرب . »

فأجابه عمر : « لا بأس عليك حتى تشرب . » حينئذ رمى الهرمزان القدح من يده فانكسر . فأمر عمر من حضر قال : « خذوه واقتلوه . » فقال له الهرمزان : « يا أمير المؤمنين ، هل تخلف بوعدك وقد قلت : لا بأس عليك حتى تشرب . ترى أنني لم أشرب . » فعجب عمر من دهائه وقال : « قد أخذ أماناً ولم نشعر به . » وعفا عنه .

حالة الغضب

قيل : رأى عمر رجلاً سكران فانتهره وأمر مرافقيه أن يحملوه إلى دار الخلافة لينزل به الحد (القصاص) . فهزأ به السكران وشتمه . فقال عمر : « دعوه » فانذهلوا ولكنهم امتثلوا أمره . وسأله أحدهم : « يا أمير المؤمنين ، لـمّا شتمك تركته .

ـ تركته لأنه أغضبني فأنفت أن أؤدبه وأنا في حالة غضب فلا أتبين هل أثور للحق أم أثور لنفسي . » فسكتوا وعجبوا منه .

العين الساهرة

يحكى أن عمر دعا ليلة أحد المقربين إليه وقال له : « نمى إليَّ أن قافلة قد نزلت بباب المدينة لتقضي ليلتها هناك . إني أخشى

إذا ناموا أن يسطو أحد على شيء من متاعهم . هلم معي لنقوم على حراستهم . والله إني أكره أن يقال أن أحداً سلبه اللصوص وهو في حمى عمر . » فمضيت معه ولما وصلنا أبى علي إلّا أن أنام ويسهر هو فانصعت لأمره . فقضى ليلته ساهراً يحرس القافلة .

العدل والأمان

حكي أن القيصر ملك الروم أرسل رسولاً إلى عمر بن الخطاب . فوفد الرسول بموكب فخم . فلما دخل المدينة سأل أحدهم « أين ملككم ؟ » فأجاب : « ما لنا ملك يملك علينا بل لنا أمير يرعى شؤوننا ويسهر على راحتنا .

ـ أين يُقيم ؟

ـ قد خرج إلى ظاهر المدينة . » وقاده إلى عمر .

كان الرسول يحسب أن الخليفة يقيم في قصر فخم في ضواحي المدينة فإذا به يراه نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد توسد عباءته والعرق يسقط من جبينه إلى أن بلّ الأرض . فتعجب عندما رآه على تلك الحالة لا حراس يحرسونه ولا حجاب يحجبونه . فيصل إليه من يشاء ويجلس إليه من يريد . فقال الرسول في نفسه : « عدل الخليفة فأمّن فنام واستغنى عن الحراس والحجاب . »

السيف الضائع

يروى أن سيف عمر قد ضاع . فرآه الخليفة مع أحد أفراد الرعية . طالبه به فرفض الشخص المذكور وزعم أن السيف سيفه . فترافعا أمام المحكمة وجلسا كلاهما أمام القاضي .

سأل القاضي عمر عن قضيته فأجاب : « هذا السيف الذي ترى هو سيفي وقد فُقِدَ . لا أُثبت أن المدعى عليه سرقه . قد أكون ضيعته فوجده ولم يرده . » فاحتج المدَّعى عليه قال : « إني أُنكر هذا الادعاء فالسيف يخصني وقد ورثته عن أبي . وهو أعز شيء عندي . »

فالتفت القاضي إلى عمر وسأله : « هل لك أن تقيم الحجة على ما تقدمت به ؟

ـ كلاّ ، يا سيدي القاضي . ليس عندي بينة أُدلي بها فأُفحمه . » حينئذ قال القاضي : « بطل زعمك لأنه يفتقر إلى دليل (برهان) وحكمنا بالسيف للمدّعى عليه . » فأمَّن عمر على حكم القاضي وانسحب من المحكمة .

بينما هو في نصف الطريق إذ لحق به المدّعى عليه وارتمى عند قدميه يستغفره ويستميح عفوة : « لقد كذبت ، يا مولاي . فالسيف سيفك وقد سرقته . ناشدتك الله أن تتجاوز عن جرمي وتصفح عني . » فأنهضه عمر وقال له : « قد عفوت عنك . إحْذر أن تعاود » وتخلّى له عن السيف .

وشاية سارق

كان الخليفة هارون الرشيد بالكوفة (مدينة في العراق) يصرِّف بعض شؤون الدولة عندما دخل عليه منارة وقال له : « في الباب رجل يطلب مقابلة أمير المؤمنين . لم يبح باسمه ولم يفصح عن غايته (لم يعبِّر عنها ـ لم يعلنها) .

ـ أدخله . »

مثل الرجل بين يدي الخليفة واختلى به فترة من الزمن . ما إن انصرف حتى دعا الرشيد منارة وقال له : « أردتك لأمر لا يقوم به سواك » .

ـ وما هو ، يا أمير المؤمنين ؟

ـ بلغني خبر رجل في دمشق من بقايا بني أمية عظيم المال كثير الجاه . له أولاد وحشم ومماليك (عبيد) يركبون الخيل ويحملون السلاح . فعظم علي أمره .

ـ وبم تأمر ، يا مولانا ؟

ـ أُخرج الساعة إلى دمشق قاصداً ذلك الرجل . قيّده وجئني به . خذ ما تحتاج إليه من الخيل والزاد والرجال . تصل سير الليل بسير النهار . أجّلتك لذهابك ستة أيام (أعطيتك مهلة) ولإيابك ستة أيام ويوماً لمقامك . وهذا كتاب تسلمه إليه .

ـ وإذا عصى ؟

ـ تتوكل به أنت ومن معك (تقوم بحراسته) لئلا يهرب . وتنفذ رسولاً إلى أمير دمشق يسلمه هذه الرسالة فيمدك بالرجال (ينصرك) لتلقي القبض عليه . وعندماتعود به تخبرني بما دار بينكما من حديث حرفاً بحرف . وتطلعني على جميع حركاته وسكناته وإيّاك أن يشذ عنك (يفوتك ـ تسهو عن) شيء ممّا يقوله أو يبدر منه .

سمعاً وطاعة ، يا مولاي .

ـ إنطلق على بركة الله . »

قبَّل منارة الأرض بين يدي الخليفة وودعه وانصرف . راح يجدّ في سيره لا يلوي على شيء إلى أن بلغ دمشق في صباح اليوم السابع . قصد من ساعته دار الرجل فأبصر الحرس على الباب الخارجي . دخل ولم يستأذن . فهاج هؤلاء وسألوا بعض أتباعه : « من الرجل ؟

ـ هو منارة ، رسول أمير المؤمنين إلى سيّدكم . » فسكن اضطرابهم .

لما صار منارة في صحن الدار رآها تعـجّ بالخدم والحشم (تزدحم بهم) فقال في نفسه : « لم أشهد مثل ذلك إلاّ في قصر الخليفة . » فأوجس خيفة (أحسَّ بالخوف) وتوقّع شراً . كيف يقدر أن يستقوي على هذا الرجل الجبّار ؟

دخل غرفة فسيحة وقد اجتمع فيها جماعة ظن أنَّ طلبته بينهم (الرجل الذي جاء بطلبه) . عندما رأوه قاموا ورحّبوا به . فسألهم : « هل فيكم فلان ؟

ـ كلّا . نحن أولاده وهو في الحمّام .

ـ إستعجلوه . » ففعلوا .

طال به المقام ولم يأت الرجل فرابه الأمر وتملّكه القلق . قد يتوارى من باب خلفي فيخفق في مهمته . وفيما تجول في خاطره هذه الأفكار وتساوره الهواجس إذ رأى شيخاً تلوح عليه إمارات النُبل يمشي بوقار وقد خفَّ الحاضرون (قاموا من ساعتهم) وأحاطوا به . أما هو فتقدّم من منارة وسلّم عليه ثم جلس . فأتوه بأطباق فاكهة . التفت وقال : « تقدَّم ، يا منارة ، وكل معنا .

ـ ما لي إلى ذلك من سبيل . »

فلم يلح عليه . أكل هو ومن معه ثم غسل يديه ودعا بالطعام . مدَّت أمامه مائدة فاخرة عليها من ألوان الطعام ألذّها وأشهاها . إلتفت وقال : « يا منارة ، ساعدنا على الأكل . » فامتنع . لم يعاوده .

كان الأموي يبدو هادئاً مطمئناً . أمّا منارة فكان على أحرَّ من الجمر وقد حيّره هذا الرجل وغاظه منه تصرُّفه . فيتساءل :

« هل يستخف بي ؟ يخاطبني كما يخاطبني الخليفة . يدعوني إلى الطعام ولا يكرر الدعوة . يبدو كأنه لا يأبه لي (يكترث لي - يعبأ بي) ، لا بل يتجاهلني . »

فيداخله الخوف . أنّى له أن ينفذ أمر الخليفة إذا امتنع الرجل من الشخوص معه ؟ لن يقدر أن يتوكّل بحفظه ريثما ينجده أمير دمشق . والله لو كان معه جيش كامل العدة لتعذر عليه أن يتغلب على الدمشقيّ .

وكان يخيّل إليه أنه يتباطأ في الأكل ليتسنى لذويه أن يدبروا له مكيدة فيوقعوا به . ولكن ما العمل ؟ لا بدّ من الانتظار .

ما رأيك ، أيها القارىء العزيز ، هل يدبّر الدمشقي مكيدة لمنارة ؟

لما فرغ صاحبنا من الأكل غسل يديه وقام فصلّى الظهر . ثم أقبل على رسول الخليفة قال : « ما أقدمك علينا ، يا منارة ؟ » .

أخرج منارة كتاب أمير المؤمنين ودفعه إليه ففضّه وقرأه . ولما أتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فسارعوا إليه والتفوا حوله . فأيقن رسول الخليفة أنه هالك لا محالة ، ولم يستطع أن يخفي قلقه . التفت إليه الرجل وقد لاحظ اضطرابه قال : « لا تجزع ، يا منارة ، نحن من خدام أمير المؤمنين ومن أخلص الناس له . » فاستحيا منارة ولم ينبس ببنت شفة .

نظر الدمشقي إلى ذويه قال : « هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالشخوص إليه مكبَّلاً . أنصاع لأمره فوراً . أوصيكم بالهدوء والسكينة . ولست بحاجة أن يصحبني أحد . » ثم التفت إلى منارة وقال : « هات قيودك ، يا منارة » . ومدَّ رجليه . فقيده وأمر من معه أن يحملوه .

جمد الحاضرون وقد اعترتهم الدهشة وخيَّم عليهم السكوت وبدت على وجوههم إمارات السُّخط والحنق . لكنهم تمالكوا وأذعنوا لأمر سيِّدهم (خضعوا له ـ رضخوا له) . فلم يفه أحد بكلمة ولم يأت شخص بحركة .

حمل الغلمان الأمويّ وجعلوه في شقة من المحمل وقعد منارة في الشقة الأخرى وقد تنفس الصعداء وانفرجت أسارير وجهه . لقد ظفر ببغيته .

أما الدمشقي فكان مرتاح البال أخذ يذكر لمنارة ما يملكه من بساتين وجنائن وما فيها من أشجار مثمرة وما تغلّ له كل سنة . ويحدثه عن المزارع التي تخصه وعما تدرُّ عليه من خيرات (تفيض عليه من غلات) . إلى أن قال :

« هل تعرف ، يا منارة ، أنّ العمال الذين يعملون في مزارعي يربو عددهم على الخمسة الآلاف عامل (يزيد على . .) وجميعهم يبغون رضاي ويأتمرون بأمري ؟ » .

أسخط منارة هذا الكلام ونسب إلى صاحبه الخفّة وسخافة العقل فأجابه بحدّة :

« ما أصفى بالك ، يا رجل ! ألا تعلم أنّ ما تذكره لي هو الذي أقلق أمير المؤمنين فأرسلني إليك على جناح السرعة لأخرجك من أهلك فريداً مغلولاً (وحيد ـ مقيَّد) ؟

« وقد أمرني أن أحفظ ما تقوله فأُردده على مسامعه كلمة كلمة لا أخرم حرفاً (لا يفوتني منه حرف) فيعود حديثك وبالاً عليك . وقد يأمر الخليفة بسجنك أو بقطع رأسك ، من يدري ؟ وأنت بدلاً من أن تفكر في ما يؤول إليه أمرك (في ما يكون مصيرك) تبدو خالي الهم ، منشرح الصدر . هل تعتقد ، يا هذا ، أن أمير المؤمنين يدعوك إلى وليمة يولمها على شرفك ؟ تبصَّر في ما جرى لك من أحداث ، ذلك أصلح لك . »

سكت منارة وهو يظن أنه أخجل الرجل وأفحمه .

أجابه الدمشقي بهدوء : « حسبتك ، يا منارة ، رجلاً راجح العقل ، كامل الفهم ، ثاقب الرأي . وحسبت أن هذه الصفات وأمثالها أهّلتك لتكون من المقربين إلى الخليفة . لقد خاب ظني فيك . تراني خالي الهم فارغ القلب ، ولِـمَ لا يكون الأمر كذلك ؟ » .

ثم رجع (قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون) وتابع حديثه : « لقد سلَّمت أمري إلى الله الذي خلقني ورزقني وأحياني . وكما قبلت منه الحياة أقبل من يده الموت .

« ثم اعْلَمْ ، يا منارة ، أنّي واثق بعدل أمير المؤمنين . أي جرم اقترفت (جريمة ارتكبت) فيعاقبني عليه ، وأي ذنب ارتكبت فيؤاخذني به (يحاسبني عليه) ؟

« أما وقد عرفت مبلغ فهمك (مقداره) فلن أكلمك بعد الآن كلمة واحدة حتى يفصل بيننا الخليفة . » قال هذا واعتصم بالصمت .

أمّا منارة فكان يقول كلما روى هذه القصة : « لقد عظم هذا الرجل في عيني حتى أصبحت كلا شيء . وددت والله لو انشقت الأرض وابتلعتني لما اعتراني من الخجل . »

في الوقت المعين أي في اليوم الثالث عشر شارف الموكب الكوفة ودخلها عند العصر .

وكل منارة حراسة الأموي إلى رجال ثقة وتوجه توّاً إلى قصر الخليفة . دخل عليه وقبّل الأرض بين يديه . بادره الرشيد بقوله :

« هات ما عندك ، يا منارة . قصّ علي الخبر بحذافيره (بتفاصيله) . إيّاك أن تغفل عن كلمة من كلماته أو تفوتك حركة من حركاته . »

روى له القصة من أولها إلى آخرها وهو يحرص كل الحرص على أن يكون غاية في الأمانة . فذكر له ما ساوره من القلق

والخوف باديء بدء عندما رأى نفسه وجماعة الدمشقي تحيط به ولا طاقة له بمقاومتهم . وتضاعف خوفه وقلقه عندما توهّم أن الأموي يتباطأ لييسر لجماعته الايقاع به .

كان الرشيد يصغي إليه باهتمام بالغ . فبدا عليه الانفعال والغضب . لكنّه ما لبث أن انفرجت أسارير وجهه عندما انتهى منارة إلى ذكر ما فعله الدمشقي بعد أن تلا كتاب أمير المؤمنين .

ولم يتمالك الخليفة من الضحك لما نقل إليه حديثهما في المحمل وقال : « لقد أخجلك هذا الرجل . » فعلا الاحمرار وجه منارة . فطمأنه الرشيد وقال : « لا عليك ، يا منارة . ما هذا الأموي إلاّ محسودٌ على النعمة . لقد أزعجناه وروعنا أهله . إنزع قيوده وأحضره الساعة . » .

فكّ منارة قيود الرجل وأدخله على الخليفة . سلّم الدمشقي فرد عليه الرشيد رداً جميلاً وهش له (إبتسم له) وأمره بالجلوس . وأقبل عليه يسأله عن حاله وعياله إلى أن قال :

« ما بلغنا عنك حبّب إلينا أن نراك ونسمع كلامك ونقضي حاجتك فاذكرها . »

فأجاب الدمشقي بتأدُّب : « ليس لي عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة .

ـ مقضية . فما هي ؟

ـ أن تردّني إلى ولدي وأهلي ليسكنوا إلى سلامتي . تركتهم وهم لا يدرون ما يؤول إليه أمري .

ـ نفعل ذلك . أذكر حاجتك .

ـ أرجو من كرم أمير المؤمنين أن يجمعني بالذي سعى به إليه .

ـ وهذه رغبة نحققها . يا منارة ، أحضر الرجل . »

دخل الرجل وهو يرعد ما وقع بصر الأموي عليه حتى قال :

« يا مولاي ، هذا أحد غلماني . إختلس ثلاثة آلاف دينار ولاذ بالفرار . »

غضب الخليفة غضباً شديداً لـمّا سمع هذا المقال وهدَّد الغلام بالضرب والتعذيب . خرَّ هذا إلى الأرض وهو يرتعش من الخوف وقال متلعثماً :

« لقد صدق ، يا مولاي . أنا أحد غلمانه . سلبت المال الذي ذكره ووشيت به ليقتل فأسلم من الوقوع في يده . »

حينئذ قال الدمشقي وقد رق له قلبه : « صفحت عنه ، يا أمير المؤمنين ، وأبرأت ذمته من المال . وأمرت له بمثله . »

قال الخليفة وقد أكبر نبل أخلاقه ورحابة صدره : « ما على ما فعلت من الكرم مزيد . أذكر حاجتك .

ـ يكفيني عطفك ورضاك ، يا مولاي . »

دعا الرشيد منارة وقال : « إحمل الرجل من وقتك وسر به راجعاً إلى أهله . حتى إذا انتهيت إلى ذويه ودّعته وقفلت راجعاً . »

وصل الرجل إلى داره فاستقبله ولده وحاشيته فرحين . وكلما جرى ذكر الأموي كان الخليفة يردد :

« ما رأيت قط مثل هذا الرجل . »

الرشيد والمحكوم عليه بالموت

غضب الرشيد على أحد رعاياه فحكم عليه بالموت ودعا السيّاف لينفذ الحكم . فبكى المحكوم عليه بالموت . فقال له الخليفة : « ما يبكيك ؟

ـ والله ، يا أمير المؤمنين ، ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه . وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط عليّ . »

قيل : فضحك الرشيد وعفا عنه .

الرشيد وجعفر والشيخ البدويّ

ممّا يحكى أن الرشيد خرج يوماً من الأيام هو وجعفر البرمكي وسارا في الصحراء . فرأيا شيخاً متكئاً على حماره فسأله جعفر :

من أين جئت ؟

ـ من البصرة

ـ وإلى أين سيرُك ؟

ـ إلى بغداد .

ـ وما تصنع فيها ؟

ـ ألتمس دواء لعيني .

فقال الرشيد لجعفر : مازِحْهُ .

ـ إذا مازحته أسمع منه ما أكره .

ـ بحقي عليك ، يا جعفر ، أن تمازحه .

فقال جعفر للشيخ : « إن وصفت لك دواء ينفعك فما الذي تكافئني به ؟

ـ الله تعالى يكافئك عني بما هو خير لك من مكافأتي .

ـ إنصت إلي حتى أصف لك دواء شافياً .

ـ وما هو ؟

ـ خذ لك ثلاث أواق من هبوب الريح وثلاث أواق من شعاع الشمس وضعها في هاون بلا قعر ودقها من الصباح حتى المساء .

ثم استعمل هذا الدواء كلَّ يوم عند النوم واستمر على ذلك خمسة أيام . فإنَّك تعافي بإذن الله . »

فلما سمع الشيخ كلام جعفر قال له : « وهو كذلك . لا عافاك الله يا صفيق الوجه (وقح) . خذ مني هذه اللطمة مكافأة على وصفك هذا الدواء وبادره بضربة على أمّ رأسه . فضحك الرشيد حتى استلقى وأمر لذلك الرجل بثلاثة آلاف درهم .

الرشيد والذكّي

يحكى أن رجلاً استأذن هارون الرشيد فقال : « إني أصنع ما تعجز عنه الخلائق . » فقال الرشيد : « هات » .

أخرج الرجل أنبوبة فصب منها إبراً عدة . ثم وضع واحدة في الأرض وقام على قدميه . وجعل يرمي إبرة إبرة من قامته فتقع كل إبرة في عين الإبرة الموضوعة حتى فرغ من جميعها . فأمر الرشيد بضربه مائة سوط وأمر له بمائة دينار . فسأله الحاضرون : « يا أمير المؤمنين ، جمعت بين الكرامة والهوان (أكرمته وأذللته) .

ـ وصلته لجودة ذكائه (أعطيته) وأدّبته لكي لا يصرف فرط ذكائه في الفضول .

الرشيد وطبيبه

يروى أن الرشيد قال لطبيبه جبريل بن بختيشوع وهو حاج في مكة : « يا جبريل ، علمت منزلتك عندي .

ـ يا سيدي ، وكيف لا أعلم ؟

ـ دعوت لك والله دعاء كثيراً . » ثم التفت إلى من حوله وقال : « عسى أنكرتم قولي له » فأجابوه : يا سيدنا ، إنه ذمّـي (نصراني) .

ـ نعم . ولكن صلاح بدني به وصلاح المسلمين بي . فصلاحهم بصلاحه وبقائه .

ـ صدقت ، يا أمير المؤمنين .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠١

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

قصص إسلامية

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

قِصَصٌ إسْلَامِيَّة

٢

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« لا تَجِدُ قَوْماً يؤْمِنُونَ باللهِ وَالْيَوم الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ في قلُوبِهِمُ الإِيمانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خَالِدِينَ فيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللهِ ألاَ إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المفْلِحُونَ * »

صدق الله العظيم

المعتصم والحطّاب

قَرَّر المعتصم ـ وهو ثامنُ الخلفاء العباسيين ـ أن يقوم برحلة صيد .

كانت رحلات الصيد عند الملوك والأمراء من المواسم المشهودة . يعدون لها العدة ويدعون إليها أعيان الحاشية ووجوه البلاد . وكانت لياليهم وأسمارهم تعمر بالحديث عن تلك الرحلات وما رافقها من أحداث مثيرة ومفاجآت غريبة .

في غداة يوم من الأيام خرج المعتصم مع أصحاب له وبعض الجنود في طلب الصيد في الشمال الغربي من مدينة « سُرَّ من رأى » وهي المدينة التي أنشأها المعتصم .

وتحرك الموكب . كان صهيل الخيل يختلط مع حداء الفرسان وبعض الأصوات التي ترتفع منبهة إلى وحش يهرب أو غزال شارد حيث تنصبّ عليه السهام كالمطر فيروح يخبط في الأرض يخضّبه دمه ، وتجرّه الكلاب وقد شعرت بفرح الفوز .

ويتابع الرَّكْب سيره باحثاً عن الطرائد . ولا يلبث الصيادون أن يتفرّقوا كلٌّ في أمر طريدة يحاول الظفر بها .

أما الخليفة فقد لاح له من بعيد غزال هارب فطارده على متن حصانه وجدّ في أثره .

إستحث جواده فانطلق يسابق الريح لا يكل ولا ينثني حتى لحق بالغزال الذي نهكه التعب فسقط أرضاً . فترجّل المعتصم وأسرع إليه يربطه من قائمتيه الأماميتين بغية حمله معه وإضافته إلى ما في حدائق القصر من حيوانات غريبة تُضفي الجمال على الحدائق والقصر لغرابتها وتنوُّعها وأطوارها .

بينما هو في طريق العودة إذ لمح مشهداً شده إليه شدّاً ، فانعطف صوبه فإذا شيخٌ حطابٍ جعدت الأيام جبينه وبانت عروق يديه ، ذو لحية بيضاء تتدلّى على صدره . كان التعب قد نهكه والعرق تصبّب منه وهو يحاول أن ينهض حماراً زلق في أرض موحلة وعلى ظهره حِـمْـل من الحطب .

آلم الخليفة مشهد هذا الحـطّاب الطاعن في السنّ يجهد نفسه لينتشل حماره من الأوحال ولا يفلح . فأشفق عليه وخفّ إلى مساعدته يربط صدر الحمار بحبل أخذه عن جواده ثم شد بالحبل فرفع الحمار من الوحل وأخرجه .

فقال له الخليفة : « رافقتك السلامة ، يا عم ، آمل ألاّ تتعرض مرة أخرى إلى مثل هذا العذاب . »

قال الشيخ : « لا أعرف كيف أشكر لك صنيعك ، أيها الشاب اللطيف . رضي الله عنك وأمد بعمرك وأقرّ عيني والديك بك . هلا بحت لي باسمك فأذكرك في دعائي صباح مساء وأدعو لك بالتوفيق . » وأردف قائلاً : « أرى علامات النُبل على محياك (وجهك) . والله ما عهدت مثل هذا العطف والمروءة في أمثالك . »

ابتسم المعتصم وقال : « هذا أقلُّ ما يجب علي من كان بمنزلتي ، يا عـمّاه . أمّا اسمي فلا حاجة لك بمعرفته . المهم أنك استرحت الآن فاذهب بهذا الحطب إلى بيتك . وأسألك أن تقول لي اسمك وأين تقطن علّني أستطيع مساعدتك في المستقبل . » .

وفيما الشيخ يهمّ بالذهاب بعد أن أجاب الشاب إلى طلبه إذا به يرى جنوداً مقبلة . وما دنوا من الشاب حتى ترجلوا وسلموا بسلام الخلافة . فأوشك العجوز أن ينهار وصار يرتعد خوفاً محاولاً أن يعتذر ولكنه عبثاً يحاول فالكلمات تخونه .

لاحظ المعتصم اضـطرابـه فـلاطفـه وهـدّأ من روعـه وقال : «لا بأس
عليك ، أيها الشيخ ، هدِّىء من اضطرابك . المهم أننا قدرنا على مساعدتك . » وأردف قائلاً : « أصدقني الخبر . ماذا يقول الناس عن حكم المعتصم » ؟

ـ يرى الناس فيك ، يا مولاي ، الحاكم العادل الذي لا يؤخذ بقوة القوي ولا يحتقر ضعف الضعيف . الناس يكبرون فيك المروءة والشجاعة ويدعون لك : أمدَّ الله بعمر مولانا الخليفة ونصره على أعدائه » .

سَرَّ الخليفة مقال الحطّاب وطاب له أن يتابع الحديث مع هذا الشيخ الوقور فسأله : « ما الذي حملك على مغادرة بيتك في مثل هذا اليوم ، أليس عندك في العائلة من يكفيك مؤونة هذا العمل المضني وقد تقدمت في السن وحق لك أن تتقاعد عن العمل ؟

ـ بَلَى ، يا سيدي . لي ولد شاب ـ بارك الله فيه ـ إنّه يحدب علي ويجنبني كل تعب وعناء . إنّما أصابه مرض منذ أيام ألزمه الفراش . فجئت أنا أحتطب لأبعث الدفء في البيت علّ هذا يساعد ولدي ويخفف عنه بعضاً مما يقاسيه في مرضه .

ـ وهل استدعيت طبيباً يداوي ولدك ؟

ـ كلا ، يا مولاي ، لا سبيل إلى ذلك .

ـ لا تجزع سننظر في أمرك وأمر ولدك . »

حينئذ أمر المعتصم للحطاب بمبلغ من المال يخفف عنه وطأة الفاقة ويضفي على البيت مسحة من السعادة والفرح . ثم أشار إلى واحد من رجاله قائلاً : « أسرع إلى القصر وادع أحد أطبائي

لمعالجة الشاب المريض . » وأوعز إلى بعض رجاله أن يرافقوا الشيخ ويوصلوه إلى بيته .

ما إن وصلوا إلى البيت حتى عاد رجال الخليفة أدراجهم ودخل الشيخ فشاهد ولده يتلوّى على فراش الألم ونظر إلى أمرأته فرآها شاخصة إلى المريض وهي تذرف الدموع . فاقترب منها وهمس في أذنها كلمات انفرجت لها أساريرها وبرق في عينيها بارق أمل . وما هي إلاّ لحظات حتى وافاهم طبيب الخليفة ففحص الشاب ووصف له الدواء وطمأنهم إلى سلامة إبنهم وانْصرف . وقصّ الشيخ على امْرأته وأولاده ما حدث له في نهاره فشكروا الله على نعمته ودعوا للخليفة بدوام العزّ والسلطان .

المعتصم ٨٣٣ ـ ٨٤٢

المعتصم هو ثامن الخلفاء العباسيين ، إبن الخليفة هارون الرشيد وأخو الخليفة المأمون تولى الخلافة بعد موت أخيه . وقد أسند ـ تحت تأثير أمه التركية ـ المناصب الهامة في الادارة والجيش إلى الأتراك . فأصبحوا مع الوقت أصحاب النفوذ في الدولة وأصحاب الحل والربط .

قام بعدة حروب ضد الروم (الامبراطورية الرومانيـة

الشرقية) وأشهرها حصار عمورية وهي حصن حصين في الأناضول (تركية) فدخلها وأعمل السيف في سكانها (٨٣٨) . وسار إلى القسطنطينية عاصمة الروم يريد افتتاحها . لكن ثورة نشبت في بلاده أجبرته على العودة دون أن يحقق مقصده .

« سُرَّ من رأى »

بنى المعتصم مدينة « سُرَّ من رأى » . وجعلها عاصمة لحكمه . ويتناقل الناس حادثة طريفة جرت له في تلك المدينة . كان مرَّة في ديوانه وفي يديه جوهرتان وهّاجتان (تتقدان كأنهما جمرتان) قدمتا له وكان معجباً بهما أشدَّ الإعجاب .

وما إن دخل عليه شاعره حتى بادره المعتصم بالجوهرة في اليد اليمنى . فطمع الشاعر بأختها فاعتدل في جلسته وأنشد على الفور :

بِسُرَّ مرّا لنا إمامٌ
تَغرِفُ مِنْ جُودِهِ البِحارُ
لَمْ تَأتِ يُمْناهُ شيئاً
إلّا أتتْ مِثلها اليَسارُ

فضحك الخليفة وقد أعجبته النُّكتة فرمى الشاعر بالجوهرة في اليد اليسرى وقال : « قاتلك الله ما أطمعك » .

الخارجيّ والمعتصم

أُلقي القبض على رجل من الخوارج (خرج على الخليفة فعصاه فهو خارجيّ) فأتي به المعتصم وهو في مجلسه ، فحكم عليه بالموت ودعا بالسيّاف ليقطع رأسه . أما الخارجيّ فبقي رابط الجأش لم تظهر عليه علامات الجزع والخوف . فأُعجب به الخليفة وقال : « أما تهاب الموت ؟ إذا كان لك حجة تدفع بها الموت عنك فأدل بها (أُذكرها) .

ـ وماذا أقول ، يا أمير المؤمنين ؟ عظمت جريرتي (جرمي - ذنبي) وانقطعت حجتي ولا أمل لي إلّا برحابة صدرك وعفوك . فالموت أمر محتوم .

ولكنَّ خَلْفي صِبْيَةً قد تركتُهم
وأكبادُهم من حَسْرةٍ تَتَفَتَّتُ

قيل : بكى المعتصم وقال له : « وهبتك لصبيتك وأمرت لك بصلة . إياك أن تعاود فتخالف الحكام في شؤونهم . » فشكره وانصرف .

المعتصم وطبيبه

إختار المعتصم لنفسه سلمويه الطبيب ـ وكان نصرانياً ـ وأكرمه إكراماً يفوق الوصف وكان يسميه أبي . وكان يقول :

« سلمويه طبيبي أكبر عندي من قاضي القضاة لأن هذا يحكم في مالي وذاك يحكم في حياتي . وحياتي أشرف من مالي وملكي » . ولما اعتل سلمويه واشتدت عليه العلة عاده الخليفة وبكى عنده . وعندما بلغه خبر وفاته امتنع من الأكل يومه كله وأمر بأن تقام جنازته في دار الخلافة ويصلّى عليه بالشمع والبخور على زيّ النصارى وشهد هو جنازته . داخله لموته حزن عميق وقال : « لن أعيش بعده طويلاً » . ولم يعش بعده تمام السنة .

كرم المعتصم

وهذه أبيات امتدح بها أبو تمام الخليفة المعتصم :

تَعـوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتّى لَـوَ أنَّـهُ
أرادَ انْقِبـاضـاً لَمْ تُـطِعْـهُ أنـامِلُهْ
هُـوَ البَحْـرُ مِنْ أيِّ النَّـواحي أتَيتَـهُ
فلُجَّتُـهُ المَعْـروفُ والجُـودُ سـاحِلُهْ
وَلَـو لَمْ يَكُنْ في كفِّهِ غيـرُ رُوحِـهِ
لَـجَـادَ بهـا فَـلْيَـتَّـقِ اللهَ سـائِـلُهْ

رائحة الثوم

في يوم من الأيام وفد على الخليفة المعتصم أعرابي يقول

الشعـر . إستأذن الأعـرابي في الدخـول فحجبه الحـاجب (منعه) . ولما لم يكن يعرف أحداً من الحاشية يسهل له السبيل وقف في الباب ينتظر ولكن دون جدوى . لبث بمكانه حتى المساء ولم يلتفت إليه أحد . عاد في اليوم الثاني فمنعه الحاجب من الدخول وعاد في الأيام التالية فأصابه ما أصابه في اليومين السابقين . فقال في نفسه « والله لن أعود إلى الصحراء قبل أن أصل إلى الخليفة . سآتي بابه كل يوم حتى يمل الحاجب فيسمح لي بالدخول . »

وأخيراً لطف به الحظ وانتهى أمره إلى المعتصم فقال لخادمه : « أحضر الأعرابيّ . » فجاءه الخادم وقال : « إنّ أمير المؤمنين يدعوك . » فقام من ساعته ودخل فحيّا الخليفة ثم قال : « قلت أبياتاً في أمير المؤمنين إذا أذن لي في إنشادها .

ـ هات ما عندك . »

فأنشد أبياتاً استحسنها الخليفة وأجازه عليها .

وتتابعت الأيام وكان الأعرابـيّ لا يفارق باب المعتصم . وكان يتاح له أن يدخل إليه الفينة بعد الفينة فينشده شعراً ويروي له أيام العرب فيصغي إليه بانبساط ويغدق عليه الهبات وقد أعجب بفصاحة لسانه وسعة إطّلاعه . وأخيراً قربه وأدناه وجعله نديمه حتى أصبح أول داخل على أمير المؤمنين وآخر خارج من دار الخلافة . وكان الخليفة يستشيره في شتّـى شؤون الدولة

فيستصوب رأيه ويعمل به . وكلّما ازداد به خبرة ازداد به تعلقاً وقد رأى فيه رجلاً ثاقب الرأي ، عالي الهمة ، خالي الغرض .

وتوالت الأيام وتوثقت الصلات بين الخليفة والأعرابي فقلق الوزير لهذه الحالة . رأى أن الخليفة ينصرف عنه ويقبل على الأعرابي فيرفع مقامه يوماً بعد يوم ويحط من منزلته من يوم إلى يوم . فغار منه وتنكر له وحاول أن يوقعه في ورطة أو يأخذه بزلة فلم يفلح . وكان كلما مثل بحضرة الخليفة يغمز على الأعرابي فيتجاهل الخليفة كلامه ولا يقيم له وزناً .

وأخيراً فتقت له وسيلة شيطانية ارتاح لها : « والله سأكيد له مكيدة تودي بحياته » فانبسطت أساريره وانكشف غمه ونام ملء أجفانه .

نهض في الصباح جذلاً نشيطاً وأمّ دار الخلافة .

وعندما التقى الأعرابي هشّ له ولاطفه وتودد إليه ودعاه إلى طعام الغداء في اليوم التالي فقبل دعوته عن طيب نفس وهو يفكر : « ماذا طرأ على الوزير حتى بدّل موقفه مني ؟ » في الوقت المعين أقبل الأعرابي فخفّ الوزير إلى استقباله وأدخله داره وأكرمه واحتفى به . وكان أعدّ له وليمة فاخرة حوت ما لذ وطاب من ألوان الأطعمة وقد أكثر فيها من الثوم ، والثوم من التوابل يطيب الطعام ، فأكلا بشهية . وبعد أن فرغا جلسا يتجاذبان أطراف الحديث .

عندما أزفت الساعة الثالثة استأذن الأعرابي وهمّ بالذهاب فشيعه الوزير حتى مدخل الدار . وقال له وهو يودعه : « لي إليك نصيحة : إذا أتيت دار الخلافة إحذر أن تقرب من أمير المؤمنين فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك ويتنكر لك فإنه يكره رائحة الثوم أشد الكره ويتقزز منها . » فشكر له نصيحته وانصرف إلى بيته .

فما كان من الوزير إلاّ أن أسرع إلى الخليفة قبل أن يفد الأعرابي وقد عبس وجهه وقطب حاجبيه وبدا عليه القلق والاضطراب . فما إن دخل حتى لاحظ الخليفة اضطرابه فأنكر ذلك وصاح به : « ويحك ، أي خبر شؤم تحمل إليّ ؟

ـ والله ، يا أمير المؤمنين ، هو خبر شؤْم ، أخلني (أريد أن أكلمك على انفراد) .

ـ قل ، ليس علينا رقيب . »

تردد الوزير قليلاً ثم قال : « أخباري لا تسرك ، يا مولاي . أسألك أن تعفيني من الكلام .

ـ لا أمّ لك ، ماذا تقول ؟

ـ أخاف إن أفضيت إليك بما قاله الأعرابيّ أن يشق عليك مقاله ويكدر صفو عيشك .

ـ أعزم عليك أن تصدقني الخبر .

قفل الأعرابي راجعاً إلى منزله وحمل الوزير الرسالة ومضى .

بعد سفر دام يوماً واحداً بلغ الوزير البلد الذي يقصده وتوجه لتوه إلى دار عامل الخليفة . ما إن علم هذا بقدومه حتى هبّ لاستقباله وأدخله القصر وبالغ في إكرامه والحفاوة به . وعندما استقرّ بهما المقام قال الحاكم للوزير : « شرَّفتنا ، يا سيدي الوزير ، خير مقدمك ، إن شاء الله .

ـ خير بإذن الله . هذه رسالة بعث بها إليك أمير المؤمنين وأوعز إلي بأن أسلمك إياها يداً بيد . وها أنا أقوم بالمهمة الموكولة إليّ . » وسلّمه الرسالة .

تناول العامل الرسالة وقبّلها ثم فض ختمها وقرأها . راعه مضمونها ولكنه ضبط نفسه وأعاد قراءتها مرتين وثلاثاً وهو لا يكاد يصدق ما ورد فيها . كتاب وجيز العبارة ، واضح الفحوى يتضمن أمراً نافذاً على الفور . فنادى « يا غلام » . فأقبل الغلمان يتسارعون . فأومأ إلى رئيسهم وأسرَّ إليه بكلمات لم يسمعها أحد سواه . ثم التفت إلى الوزير وقال : « سننفذ أمر أمير المؤمنين بحذافيره . هوذا رئيس الغلمان يرافقك إلى جناح الضيافة ويقوم بخدمتك ويسهر على راحتك ريثما نهيء الجواب عن رسالة الخليفة . »

أعاد الحاكم قراءة الرسالة وقد جاء فيها : « تقطع رأس حامل هذا الكتاب دون إبطاء أو مراجعة . » فتساءل : « ما

الذي أغضب المعتصم على وزيره فحكم عليه بالموت حكماً مبرماً ؟ في يده الأمر والنهي وحكمه نافذ لا مرد له . وإلى من تستأنف حكماً أصدره أمير المؤمنين ؟ . . . »

دخل إليه رئيس الشرطة وقطع عليه مجرى أفكاره وقال: « نفذ الأمر ، يا مولاي . . » .

أما الأعرابي فقد امتثل أمر الوزير وقبع في منزله يترقب عودته . يجد نفسه في ورطة . لا يجرؤ أن يمثل بحضرة الخليفة فيسأله عن مصير الرسالة فيتعذر عليه الجواب ولا يمكنه أن يصارحه بالحقيقة فيغضب عليه وعلى الوزير . فما بقي إلاّ الانتظار . وطال غياب الوزير .

أمّا الخليفة فانشغل باله لا على الأعرابي وهو يحسبه في عالم الأموات بل على الوزير الذي لم يأت القصر منذ ثلاثة أيام بينما كان يؤمّه مرتين في النهار . استعلم عنه فقيل له : « سافر في مهمة » .

ـ سافر في مهمة ! ومن وكلها إليه وكيف يسافر من غير إذني ؟ كنت كلّفت الأعرابي بأمر . . .

ـ إن الأعرابي مقيم في بيته .

ـ أحضروه على جناح السرعة .

دخل الأعرابي على الخليفة وقبّل الأرض بين يديه ووقف ينتظر

وهو يرتجف من الخوف . صعد الخليفة فيه بصره وقد بدت عليه الدهشة وقال : هذا أنت ؟

ـ نعم ، يا مولاي ، أنا عبدك وخادمك .

ـ وهل أبلغت الرسالة صاحبها ؟

فتردد وتلعثم . فقال له المعتصم : « أصدقني الخبر وأنت آمن » فأفرخ روعُه وقص عليه قصة الرسالة وأضاف : « استميح عفوك ، يا مولانا . أمرني الوزير بأن أسلمه الرسالة فلم أستطع أن أخالف أمره . »

طيّب الخليفة خاطره وسأله : « بقي أن تبين لي لماذا سترت فمك بكمك في آخر مرّة حضرت مجلسي .

ـ لئلا تتأذى من رائحة الثوم .

ـ ومن قال لك أنـي أتأذّى من رائحة الثوم ؟

فسرد له خبره مع الوزير . أطرق الخليفة برهة ثم قال : إحمد الله على سلامتك ، يا ابْني . ذهب الوزير في سفرة لن يعود منها . لذلك استوزرتك بدلاً منه . قاتل الله الحسد فإنه يقتل صاحبه .

عبد الله بن الزبير ومعاوية

كان لعبد الله بن الزبير أرض وكان له فيها عبيد يعملون

فيها . وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون فيها . فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير فكتب عبد الله كتاباً إلى معاوية يقول فيه : أما بعد . يا معاوية ، إن عبيدك قد دخلوا في أرضي فانْهَهم عن ذلك ، وإلاّ كان لي ولك شأن والسلام .

فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه دفعه إلى ولده يزيد ، فلما قرأه قال له معاوية : « يا بني ، ما ترى ؟

ـ أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوّله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه .

ـ بل غير ذلك خير منه ، يا بني .

ثم أخذ ورقة وكتب فيها : أما بعد ، فقد وقفت على كتابك وساءني ما ساءك والدنيا بأسرها هيّنة عندي في جنب رضاك . نزلت عن أرضي لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال . والسلام .

فلما وقف عبد الله بن الزبير على كتاب معاوية كتب إليه : قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه . ولا أعدمه الرأي الذي أحلّه من قريش هذا المحلّ . والسلام .

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به إلى إبنه يزيد ، فلما قرأه تهلّل وجهه وأسفر . فقال له أبوه : يا

بني ، من عفا ساد ومن حلم عظم ومن تجاوز استمال إليه القلوب . فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء فداوه بمثل هذا الداء .

الهدية

بلغ عبد الملك عن عامل من عماله انه يقبل الهدايا فأشخصه إليه . فلما دخل عليه قال له : « أقبلت هدية منذ وليت ؟

ـ يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة وخراجك موفور ورعيتك على أفضل حال .

ـ أجب فيما سألناك عنه . أقبلت هدية منذ وليت ؟

ـ نعم .

ـ لئن كنت قبلت ولم تعوّض انك للئيم . ولئن كنت أنلت مهديها من غير مالك أنك لخائن جائر . وما فيما أتيت أمر تخلو به من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع . » وأمر بصرفه من عمله .

(من نوابغ الحكم : ان البرطيل تقصر الأباطيل) .

أريد الخلوة بك

قال لعبد الملك بعض جلسائه يوماً : « أريد الخلوة بك » . فلما خلا به قال له عبد الملك : « بشرط أن تترك ثلاث خصال :

لا تُطِر نفسي عندي فأنا أعلم بها منك ، ولا تغتب عندي أحداً فإني لست أسمع منك ، ولا تكذبني فلا رأي لمكذوب » . قال : « أتأذن لي بالانصراف ؟ » . قال : « إذا شئت . »

ما ترك الأعرابي لنا عذراً

قيل أن بعض وفود العرب قدموا على عمر إبن عبد العزيز رضي الله عنه ، وكان فيهم شاب فقام وتقدم وقال : يا أمير المؤمنين ، أصابتنا سنون ، سنة أذابت الشحم وسنة جرّدت اللحم وسنة تعرّقت العظمْ ، وفي أيديكم فضول أموال . فإن كانت لنا فعلام تمنعونها عنا ؟ وإن كانت لله ففرّقوها على عباد الله . وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا ، إن الله يجزي المتصدقين . . . فقال عمر بن عبد العزيز : ما ترك الأعرابي لنا عذراً في واحدة .

إبراهيم بن سليمان

لما أفضت الخلافة إلى بني العباس اختفى رجال بني أمية ومنهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك . وكان إبراهيم رجلاً عالماً عاملاً أديباً كاملاً وهو في سن الشبيبة . فأخذوا له أماناً من السفاح . فقال له يوماً : حدثني عما مر بك في اختفائك .

قال : « كنت ، يا أمير المؤمنين ، مختفياً في الحيرة في منزل بشارع على الصحراء . فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت إلى أعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فتخيّلت أنها تريدني . فخرجت من الدار متنكراً حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحداً أختفي عنده ، فبقيت في حيرة . فإذا أنا بباب كبير رحبته واسعة فدخلت فيها . فإذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس فدخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه . فقال : « من أنت ، وما حاجتك ؟ »

فقلت : « رجل خائف على دمه وقد استجار بمنزلك . » فأدخلني منزله ثم صيّرني في غرفة تلي حرمه . وكنت عنده في ذلك على ما أحب من مطعم ومشرب وملبس لا يسألني عن شيء من خلالي . إلّا أنه كان يركب كل يوم ركبة . فقلت له : « أراك تدمن الركوب ففيم ذلك ؟ »

فقال : « إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبراً وقد بلغني أنه مختفٍ فأنا أطلبه لأدرك منه ثأري . » فكثر والله تعجبي وقلت : ساقني القدر إلى حتفي في منزل من يطلب دمي ، وكرهت الحياة . فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه فأخبرني ، فعلمت أن الخبر صحيح وأنا الذي قتلت أباه .

فقلت : « يا هذا ، قد وجب عليّ حقُّك . ومن حقك أن أدلك على خصمك وأقرب إليك الخطوة .

ـ وما ذاك ؟

ـ أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك فخذ بثأرك .

ـ أحسبك رجلاً قد مضّه الاختفاء فأحببت الموت .

ـ لا والله ، ولكن أقول كل الحق ، يوم كذا وكذا بسبب كذا وكذا . »

فلما علم صدقي تغـيّر لونه واحمرّت عيناه وأطرق ملياً ثم قال : « أما أنت فستلقي أبي عند حكم عدل فيأخذ بثأره . وأما أنا فغير مخفر ذمتي فأخرج عني فلست آمن عليك من نفسي . » وأعطاني ألف دينار فلم آخذها منه وانصرفت عنه . فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين .

أبو جعفر المنصور

كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل متكتماً وكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث . فلما أفضت الخلافة إليه قدم أزهر عليه فرحب به وقربه وقال : ما حاجتك ، يا أزهر ؟ »

فقال : « يا أمير المؤمنين ، داري متهدمة وعلي أربعة آلاف درهم وأريد أزوج ابني محمداً . » فوصله باثني عشر ألف درهم

وقال : « قد قضينا حاجتك ، يا أزهر ، فلا تأتنا بعد هذا طالباً . » فأخذها وارتحل .

فلما كان بعد سنة أتاه فقال له أبو جعفر : « ما حاجتك ، يا أزهر ؟ » قال : « جئت مسلماً . » فقال : « لا والله ، بل جئت طالباً . وقد أمرنا لك باثني عشر ألف درهم فلا تأتنا طالباً ولا مسلّماً . » فأخذها ومضى .

فلما كان بعد سنة أتاه فقال : « ما حاجتك ، يا أزهر ؟ » قال : « أتيت عائداً . » فقال : « لا والله ، بل جئت طالباً وقد أمرنا لك باثني عشر ألفاً ، فاذهب ولا تأتنا بعد لا طالباً ولا مسلّماً ولا عائداً . » فأخذها وانصرف .

فلما مضت السنة أقبل فقال له : « ما حاجتك ، يا أزهر ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، دعاء كنت أسمعك تدعو به جئت لأكتبه . » فضحك أبو جعفر وقال : « الدعاء الذي تطلبه غير مستجاب . فإني دعوت الله به أن لا أراك فلم يستجب لي . وقد أمرنا لك باثني عشر ألفاً وتعال إذا شئت ، لقد أعيتنا الحيلة فيك . » .

الصبر والرزق الحلال

دخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد ، وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد : أمسك علي بغلتي . فأخذ الرجل

لجامها ، ومضى وترك البغلة ؛ فخرج علي وفي يده درهمان ليكافىء بهما الرجل على إمساكه بغلته ، فوجد البغلة واقفة بغير لجام ؛ فركبها ومضى ، ودفع لغلامه الدرهمين يشتري بهما لجاماً ؛ فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين ، فقال علي رضي الله عنه : إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ، ولا يزداد على ما قدر له .

أتدري من أنا

خرج المهدي يتصيد فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي . فقال : « يا أعرابي ، هلٍ من قرى ؟ » فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلاً من لبن فسقاه ، ثم أتاه بنبيذ في ركوة فسقاه . فلما شرب قال : « أتدري من أنا ؟

ـ لا .

ـ أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة .

ـ بارك الله لك في موضعك . » ثم سقاه مرّة أخرى فشرب . فقال :

« يا أعرابي ، أتدري من أنا ؟

ـ زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة .

ـ لا ! أنا من قوّاد أمير المؤمنين .

ـ رحبت بلادك وطاب مرادك . » ثم سقاه الثالثة فلما فرغ قال :

« يا أعرابي ، أتدري من أنا ؟

ـ زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين .

ـ لا ! ولكنني أمير المؤمنين . »

فأخذ الأعرابي الركوة فوكأها وقال : « إليك عني . فوالله لو شربت الرابعة لادّعيت أنك رسول الله . » فضحك المهدي حتى غشي عليه . ثم أحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأعيان والأشراف فطار قلب الأعرابي . فقال له : « لا بأس عليك ولا خوف . » ثم أمر له بكسوة ومال جزيل .

الإيثــار

عن حذيفة العدوى ؛ أنه قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب إبن عم لي في القتلى ؛ ومعي شيء من الماء ، وأنا أقول . إن كان به رمق سقيته . فإذا أنا به محتضر بين القتلى ، فقلت له : أأسقيك ؟ فأشار إلـيّ أن نعم . فإذا برجل يقول آه . فأشار إلـيّ إبن عمي أن أنطلق إليه وأسقه . فإذا هو هشام بن العاص ؛ فقلت : أأسقيك ؟ فأشار إلـيّ أن نعم ؛ فسمع آخر يقول آه ؛ فأشار إلـيّ أن أنطلق إليه ؛ فجئته فإذا هو قد مات ؛

فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ؛ فرجعت إلى إبن عمي فإذا هو قد مات .

وحكى أبو محمد الأزدي قال لما احترق المسجد بمرو ؛ ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه ؛ فأحرقوا خاناتهم ؛ فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات ؛ وكتب رقاعاً ؛ فيها القطع ، والجلد ، والقتل ؛ ونثرها عليهم ؛ فمن وقعت عليه رقعة فعل به ما فيها ؛ فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل ؛ فقال : والله ما كنت أبالي لولا أم لي . وكان بجنبه بعض الفتيان ؛ فقال له : في رقعتي الجلد وليس لي أم ؛ فخذ أنت رقعتي وأعطني رقعتك . ففعل فقتل ذلك الفتى ، وتخلص هذا الرجل ! .

حلم الملوك

إشترى الرشيد فصاً ثميناً من الياقوت الأحمر بمئة ألف دينار . ثم ورثه المأمون وسلمه يوماً إلى صائغ كي يصوغه على كيفية مثلها له . فانصرف ولم يحضره . فاستبطأه المأمون واستدعاه . فدخل الصائغ وهو يرتعد وقد امتقع لونه . ففهم المأمون بالفراسة أن الفصَّ قد كسر منه . فولى عنه وجهه . فلما سكن جأشه أقبل عليه المأمون وقال له : أين الفص . فأخرج الرجل الفص أربع قطع وقال بخوف عظيم : سقط من يدي على السندان . فقال له

المأمون : لا بأس عليك يا هذا اجعله أربعة خواتم ولا تحمل هماً لما كان ، وألطف له في الكلام حتى ظن الحاضرون أنه كان يشتهي الفص هكذا .

هكذا تكون الصداقة

حدَّث واقد بن أبي مسلم قال : كان لي صديقان هاشميٌّ وتميمي ، وكنا في الصداقة كنفس واحدة . فنالتني في بعض السنين ضيقة عظيمة . فقالت لي امرأتي : يا هذا ترى العيد قد حضر وليس لنا شيء نعيد به ، أما نحن فنستطيع الصبر على الشدة وأما أولادنا فلا لأنهم يرون أولاد جيراننا ومعارفنا وقد تزينوا بالملابس الجديدة وهم فرحون بما اشتراه لهم أهلهم . فتقطع قلبي بكلامها لأني رأيته صواباً .

فكتبت إلى صديقي الهاشمي ووصفت له حالي وسألته أن يسعفني بما يمكنه من المال . فأنفذ إلي خريطة فيها ثلاثون ديناراً ، فلم أكد أستلمها حتى كتب لي صديقي التميمي يشكو إلي مثل ما شكوت أنا إلى صديقنا الهاشمي . فأرسلت إليه الخريطة على حالها وبقيت في بيتي حيران لا أدري ما أفعل . فبينما أنا كذلك إذ دخل علي الصديقان وبيد الهاشمي الخريطة ، فدعوتهما إلى الجلوس فجلسا ، ثم قال لي الهاشمي وقد علم ما جرى : يا صاح حيث إننا كلنا في ضيقة وليس لثلاثتنا غير هذا المال فهلم

نفتسمه . ثم إنه فتح الخريطة وقسم الدنانير ثلاثة أقسام كل منا أخذ حصته وتفرقنا . وبعد أيام اتصلت قصتنا بالمأمون ، فاستدعانا وأثنى على فعلنا وأمر لكل منا بألف دينار .

التقوى خير زاد

لما حضرت عبيد الله بن شداد الوفاة دعا ابنه محمداً وأوصاه وقال له : يا بني أرى داعي الموت لا يقلع ويحق أن من مضى لا يرجع ومن بقي فإليه ينزع . يا بني ليكن أولى الأمور بك تقوى الله في السر والعلانية والشكر لله وصدق الحديث والنية فإن للشكر مزيداً والتقوى خير زاد كما قال الحطيئة :

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً
وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد أن يأتي قريب
ولكن الذي يمضي بعيد

بلال وأبو ذر

[كان] النبي ﷺ ، جالساً يوماً مع أصحابه . فإذا بلال ، مؤذن النبي ، مقبل وهو غضبان . فسلم ثم قال :

ـ يا نبي الله ! لقد جرى بيني وبين أبي ذر كلام .

فقال لي يا إبن الحمراء . وما أتم كلامه ، حتى جاء أبو ذر .

فقال له النبي : يا أبا ذر ! بلغني أنك اليوم عيّرت أخاك بأمه .

فقال : نعم .

فلامه النبي بقوله : إنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلاّ أن تفضله بعمل .

فخاف أبو ذر من غضب النبي ، وعلم انه أساء إلى بلال . فرمى بنفسه على الأرض ، وقال لبلال : قم برجلك على خدي .

فأسرع بلال إليه وقبله

قال : قم يا أبا ذر ! غفر الله لك .

متى استعبدتم الناس

[جاء] رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا مستجير بك من الظلم .

قال عمر : وماذا جرى لك ؟

قال الرجل : جاريت إبن عمرو بن العاص ، فجعل يضرب رأسي ، ويقول : أنا ابن الأكرمين !!

فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، يأمره أن يحضر مع إبنه فقدما من مصر إلى المدينة .

فقال عمر : أين المصري ؟ خذ العصا ، وأضرب إبن الأكرمين .

فأخذ يضربه أمام والده حتى انتهى .

فقال له عمر : ضعها على رأس أبيه .

فقال المصري : يا أمير المؤمنين ، إنما إبنه الذي ضربني ،

فقال عمر لعمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً !!

فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، لم أعلم بما جرى ، ولم يشك ذلك إلي .

لا سمعاً ولا طاعة

[أرسل] إلى عمر بن الخطاب قماش ليوزعه على المسلمين ، فأعطى كل رجل منه ما يكفي ثوباً واحداً . وأخذ عمر حصته

مثل واحد منهم . ثم خاطه ثوباً ، ولبسه ، وصعد المنبر في يوم جمعة يخطب في الناس .

فقال : أيها الناس .

فأجابه رجل : لا سمعاً ولا طاعة .

فقال عمر ولم يا رجل .

قال : لأنك أعطيت كل رجل من القماش ثوباً واحداً ، وأخذت أنت منه ما يكفي ثوبين ، ولهذا نرى ثوبك طويلاً .

فقال عمر : لا تعجل ، يا عبد الله بن عمر ! أجبه .

قال عبد الله : إني أعطيت ألي حصتي من القماش . ولهذا جاء ثوبه طويلاً .

فقال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة .

هكذا يكون الرجال

(ذهب) حذيفة العدوي ، بعد حرب اليرموك يفتش عن إبن عم له بين القتلى ، ومعه قليل من الماء فوجده يكاد يموت .

فقال له أسقيك ؟

فأشار إليه : نعم .

فإذا برجل بقربه يقول : آه .

فأشار إلى إبن عمه أن يذهب ويسقيه .

فذهب حذيفة حتى يسقيه ،

فسمعا رجلاً آخر يقول : آه .

فأشار إليه أن يذهب ويسقيه . فذهب حذيفة حتى يسقيه فوجده قد مات . .

فعاد حذيفة لابن عمه ، فوجده قد مات .

وجاء إلى الرجل الآخر فوجده قد مات أيضاً .

فقال : هكذا يكون الرجال .

خالد البطل

[أمر] أبو بكر الصديق خالداً بن الوليد ، أن يسير من العراق إلى الشام لمساعدة العرب في حرب الروم . فصمم خالد أن يقطع الصحراء هو وجنده . ولكن الطريق في الصحراء كانت طويلة وخطرة .

إختار خالد رجلاً اسمه رافع الطائي ، ليكون دليل الجيش في الصحراء .

وقال رافع لخالد : لا نقدر أن نسير في الصحراء بلا ماء .

فقال له خالد : إفعل ما ترى .

فأحضر رافع عدداً كبيراً من الجمال السمان الكبيرة وعطشها ، ثم سقاها حتى رويت ، وامتلأت كروشها ، وكمم أفواهها حتى لا تجتر .

ثم قال لخالد : سر بالجيش .

فكان كلما نزلوا في محطة ، ذبح بعض الجمال ، وأخرج الماء من كروشها ، وخلطها باللبن ، وسقى الخيل . وأما الناس فكانوا يشربون مما حملت الجمال من ماء في القرب .

وفي آخر يوم خاف خالد على الجيش ، وقال لرافع : ما عندك ؟

فأجابه : لا تخف فقد وصلت الماء ، وإذ نهر اليرموك يجري أمامهم ، والمسلمون حوله ففرح الجميع فرحاً عظيماً .

صبي بيع في السوق

أُختطف صبي في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي . فحزنت عليه أمه حزناً شديداً ورفعت أمرها إلى السلطان وهي

تبكي وتندب ولدها . فرق لها قلبه ودمعت عيناه فأمر بالبحث عن الولد ، وإذ هو قد بيع في سوق القاهرة ، فأرسل في الحال بمن دفع ثمنه إلى المشتري ولم يزل واقفاً حتى جيء الغلام ، فسلمه إلى أمه وحملها على فرس إلى قومها مكرّمة قريرة العين .

المرشد الأمين بالتعظيم فمين

كان من عادة الوزير نظام الملك أنه إذا دخل عليه أكابر المملكة يقوم لهم ثم يعود فيجلس في محله ، وكان له مرشد إذا دخل عليه يقوم ويجلسه في مكانه ويجلس هو بين يديه .

فقيل له في ذلك . فقال : إن أولئك إذا دخلوا عليَّ يمدحونني بما ليس فيَّ فيزيدني كلامهم عجباً وكبراً وأتمادى في المعاصي ، وأما هذا فيذكرني عيوبي ويرشدني إلى الخير فتنكسر نفسي لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٣٢٠١٠١

سلسلة مختارات اسلامية

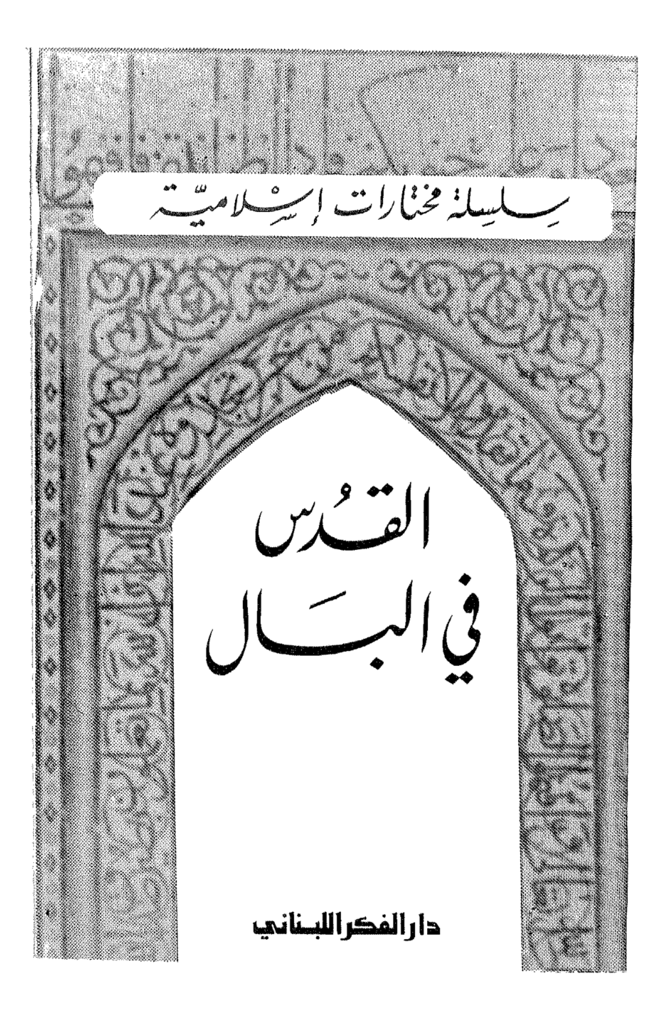
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

مختارات إسلامية

مختارات إسلامية

المجلد الثالث

ر الفكر اللبناني - بيروت


سلسلة مختارات إسلامية
القدس في البال
دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

القُدسُ في البَال

« المقدسات الاسلامية في فلسطين والآيات القرآنية والأحاديث النبوية حول القدس »

عن المقدسات الاسلامية
آي فلسطين

الناشر : دَار الفكر اللبناني
تلفون : ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس : ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



كلمــة

خلاصة موجزة عن المساجد والمعابد والمقدسات التي دافع المسلمون عنها في مختلف العصور وبذلوا في سبيل حفظها أرواح مثات الألوف من الشهداء الأبرار وأبقوها وديعة في أعناق المسلمين والعرب .

المسجد الأقصى المبارك

إليه أسرى الله بنبيه محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس ، ومنه كان المعراج الشريف إلى السموات العلى ، إلى سدرة المنتهى . فقد خصّه الله تعالى بهذه المعجزة الباهرة ، معجزة الإسراء والمعراج ، وجعله سبحانه قبلة الاسلام الأولى ، إليه ولى النبي ﷺ والمسلمون وجوههم في صلواتهم حيناً من الدهر قبل تحويل القبلة إلى الكعبة ، فهو أولى القبلتين ، وثالث المسجدين ، الذي نوّه الله تعالى بقدره ومكانته في قوله عزّ وجل ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير﴾ : سورة الإسراء .

وأخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه « أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أخواله من الأنصار ، وأنه صلى قبل بيت المقدس » الحديث : رواه البخاري .

وروى الطبري في تاريخه عن قتادة قال « كانوا يصلون نحو بيت المقدس ورسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة . وبعدما هاجر رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم وجه بعد ذلك نحو الكعبة البيت الحرام » .

وقال النبي ﷺ « لا تشدُّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، ومسجد الحرام ، ومسجد الأقصى » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي (التاج) .

ورواه البخاري رواية أخرى بلفظ « لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : مسجد الحرام ، ومسجد الأقصى ، ومسجدي » هكذا أخرجه البخاري بتقديم المسجد الأقصى على مسجده الشريف . (البخاري) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال « سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال « المسجد الأقصى » : الحديث : رواه البخاري ومسلم والنسائي (التاج) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتيت بالبراق فركبته ، حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم عرج بنا إلى السماء » الحديث رواه مسلم في صحيحه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط ، فرفعه الله لي (أي بيت المقدس) أنظر إليه ما يسألونني عن شيء إلاّ أنبأتهم به . وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء (يعني في بيت المقدس) فإذا موسى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني نفسه ﷺ فحانت الصلاة فأممتهم ، فلما فرغت من الصلاة قال قائل : يا محمد ، هذا مالك صاحب النار فسلم عليه ، فالتفت إليه فبدأني بالسلام » رواه مسلم (التاج) .

وعن زهير بن محمد بلاغاً عن النبي ﷺ : « إن الله تعالى بارك ما بين العريش والفرات ، وخص فلسطين بالتقديس » رواه إبن عساكر ، وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير برقم حديث ١٧٠١ ، قال العزيزي شارح الجامع الصغير أي بارك في البقعة ـ أو الأرض ـ التي بين العريش والفرات أ . هـ .

وعن معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يا معاذ ، إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي من العريش إلى الفرات ، رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة ، فمن إختار منكم ساحلاً من سواحل الشام أو بيت المقدس فهو

في جهاد إلى يوم القيامة » . أخرجه القاضي مجير الدين الحنبلي المقدسي في الأنس الجليل .

وعن ميمونة مولاة النبي ﷺ أنها قالت : يا رسول الله ، أفتنا في بيت المقدس . فقال : « أئتوه فصلوه فيه ، فإن لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بزيت يسرج في قناديله » . رواه أبو داود في السنن ، وأخرجه إبن ماجة بسند صالح .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة الرجل في بيته بصلاة ، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة ، وصلاة في المسجد الذي يجتمع فيه بخمسمائة صلاة ، وصلاة في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة ، وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » رواه إبن ماجة . وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب .

وعن أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أهلَّ بحجة أو عمرة من الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » أو « وجبت له الجنة » رواه أبو داود في سننه . ثم قال : يرحم الله وكيعاً أحرم من بيت المقدس (يعني إلى مكة) سنن أبي داوود ورواه البيهقي وإبن حبان في صحيحه وإبن ماجة . وأخرجه المنذري .

ورواه إبن حبان في صحيحه ولفظه : سمعت رسول الله ﷺ

يقول : « من أهلَّ من المسجد الأقصى بعمرة غفر له ما تقدم من ذنبه » قال : فركبت أم حكيم إلى بيت المقدس حتى أهلت منه بعمرة . أخرجه المنذري في الترغيب ج ٢ ص ١٢٠ .

جماعة من الصحابة اقترحوا دفن النبي ﷺ بجانب المسجد الأقصى

بلغ من عناية أصحاب النبي ﷺ بمكانة فلسطين الدينية ، وتقديسهم للمسجد الأقصى وما حوله من مقدسات وديار مباركة ، أن جماعة منهم رأوا أن ينقل جثمان النبي ﷺ إلى بيت المقدس ليدفن بجانب المسجد الأقصى بجوار مدافن أخوانه من النبيين قبله .

جاء في كتاب (حياة محمد ﷺ) تأليف الدكتور محمد حسين هيكل باشا « اختلف المسلمون حين توفى النبي ﷺ على المكان الذي يدفن فيه ، فقال جماعة من المهاجرين : يدفن في مكة مسقط رأسه ، وقال غيرهم : بل يدفن في بيت المقدس حيث دفن الأنبياء قبله » . أ هـ .

أولى القبلتين

هذه نبذة مختصرة مما حفلت به كتب الحديث والتفسير وكتب تاريخ الإسلام من فضائل المسجد الأقصى وما حوله من ديار

كة . وإلى جانب هذه المكانة الدينية التي امتاز بها فإنه يمتاز
ا بأبنيته الأثرية وقبابه العظيمة الباهرة ، ولا سيما قبة الصخرة
رقة وما فيها من النقوش والأعمدة والفسيفساء والزخرفة
رة التي تبهر أبصار كبار المهندسين فضلاً عن غيرهم ، مما
على عظمة المسلمين إبان دولتهم ، وبراعتهم الهندسية
مارية .

ولقد كان من ألقاب الخلفاء سلاطين آل عثمان ونعوتهم التي
رن بها في خطب الجمعة من على منابر بلاد المسلمين في مختلف
طار أن يقول الخطباء في وصف الخليفة « خادم الحرمين
يفين والمسجد الأقصى أولى القبلتين » .

مكان البراق النبوي الشريف
في بيت المقدس

في الجدار الغربي من المسجد الأقصى يوجد مكان البراق
ي الشريف ، حيث ترجل رسول الله ﷺ من فوق البراق
وصوله إلى بيت المقدس ليلة الإسراء به عليه السلام من
جد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس . وهذا
ن المقدس فيه موضع الحلقة التي ربط بها البراق الشريف ،
مكان مبارك يزوره المسلمون منذ القديم ، وهو جزء من
المسجد الأقصى من الجهة الغربية .

أخرج الحافظ أبو الفتح إبن سيد الناس في كتابه عيون الأ
سيرة النبي ﷺ من طريق أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله
في حديث الاسراء ووصف البراق الشريف ، أن رسول الله
قال « فأتاني جبريل عليه السلام فذهب بي إلى باب المس
فإذا دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل مضطرب الأذ
فركبته فكان يضع حافره مدُّ بصره وجبريل لا يفوتني ،
انتهينا إلى بيت المقدس ، فأوثقه بالحلقة التي كانت الأنبياء
بها » الحديث : عيون الأثر .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة من طريق أنس وأبي
رضيَ الله عنهما « حديث ربط البراق الشريف بالحلقة التي
تربط فيها الأنبياء » رواه السهيلي في شرحه على سيرة النبي
لإبن هشام .

قبور الأنبياء والمرسلين وأضرحتهم الطاهر

وفي بيت المقدس وما حوله توجد أضرحة ومقابر الكثيرين
أنبياء الله ورسله الكرام :

فعلى مقربة من الأقصى بمدينة القدس يوجد ضريح نبي
داود عليه السلام ، وبجانبه (مسجد كبير) كانت تقام
الصلوات الخمس قبل أن يقع في حوزة اليهود وسيطرته

وحول القدس أضرحة ومقامات كريمة لبعض النبيين الكرام عليهم السلام ، وفيها مساجد أثرية كانت تقام فيها الصلوات والشعائر الاسلامية إلى حين وقوعها في حوزة اليهود ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن السلطان صلاح الدين زار بعضها حين قدم القدس بعد انتصاره على الصليبيين في (حطين) .

وشرقي القدس يوجد مقام نبي الله موسى الكليم عليه السلام ، وعليه (مسجد كبير) ، وحواليه أبنية وآثار إسلامية من بناء الملك الظاهر بيبرس ومن جاء بعده من ملوك المسلمين وسلاطينهم .

المسجد الابراهيمي

وجنوبي القدس تقع (مدينة الخليل) وفيها المسجد الابراهيمي الشريف حيث يوجد الغار الشريف الذي تضم قبر نبي الله إبراهيم الخليل وقبر زوجته السيدة سارة وأضرحة وقبور أبنائه النبيين إسحاق ويعقوب ويوسف وزوجاتهم الطاهرات عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه . وفوق هذا الغار المبارك جامع عظيم شاهق البناء هو (جامع مدينة الخليل) وما حولها تقام فيه الصلوات الخمس وصلوات الجمع والأعياد ، وهو من أعظم الآثار والأبنية الاسلامية الجليلة .

وعلى مقربة من قبور نبي الله إبراهيم وآل بيته الكرام يوجد. مقام نبي الله (يونس) عليه السلام في بلدة حلحول قرب مدينة الخليل ، وعليه مسجد أثري تقام فيه الصلوات .

بني نعيم

وفي قرية بني نعيم شرقي الخليل يوجد مقام نبي الله لوط عليه السلام ، وفيه مسجد أثري تقام فيه الصلوات وشعائر الاسلام ، وبجواره يوجد مزار اليقين وفيه مسجد أثري ، وبجواره مقبرة قديمة تضم قبور جماعة من آل بيت النبي ﷺ وقبور جماعة من الصالحين .

وفي كثير من مدن فلسطين الأخرى وقراها تقوم أضرحة جماعة من النبيين قرب مدينة الرملة وغيرها وعليها مساجد ولها أوقاف واسعة .

قبور صحابة النبي ﷺ

منذ فتحت جيوش المسلمين فلسطين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأصحاب النبي ﷺ يفدون إليها لزيارتها ، والصلاة في مسجدها الأقصى ، وليحرموا منه بالحج

أو العمرة ، وليشاهدوا ما حوله من آثار وديار مباركة ، ومن كثيرون استوطنوا فلسطين أو جاؤها للجهاد في سبيل الله فمات فيها شهداء أبراراً فقد استشهد من الصحابة رضي الله عنه طائفة كبيرة في معارك اليرموك ،وأجنادين بقرب الرملة وفحل قرب بيسان ، ودفنوا في أرض فلسطين وانتشرت قبورهم سهولها وسائر أرجائها .

وفي طاعون عمواس سنة ١٨ هـ مات ٢٥ ألفاً من المسلمين بينهم كثيرون من المجاهدين ، وفيهم جماعة من أصحاب النبي ﷺ منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ، وبعض التابعين وسواهم .

ولا تزال قبور وأضرحة بعض الصحابة موجودة إلى هذا الزمان في فلسطين ، مثل قبر الفضل بن العباس إبن عم النبي ﷺ في مدينة الرملة وعليه جامع أثري جليل ، وضريح سلمة بن هشام المخزومي الصحابي في بلدة سلمة قرب يافا ، وعليه مسجد كانت تقام فيه الصلوات قبل أن يقع في حوزة اليهود وسيطرتهم ، وبجانب بلدة سلمة توجد مقبرة الصحابة من شهداء (معركة أجنادين) بين الروم والمسلمين ، وهي تعرف بإسم « مقبرة النحام » فيها قبور الصحابة الشهداء عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب بن هاشم القرشي إبن عم النبي ﷺ وطليب بن عمير القرشي إبن السيدة أروى بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ وأبان بن سعيد بن العاص الأموي وتميم بن الحارث

السهمي وأخيه قيس بن الحارث السهمي والحارث بن أوس بن عتيك وهبار بن الأسود المخزومي القرشي وهشام بن العاص بن وائل أخي عمرو بن العاص ، ونعيم بن عبد الله بن النحام وإليه تنسب هذه المقبرة ، ولعله أول صحابي دفن فيها .

وفي مقبرة باب الرحمة في بيت المقدس توجد قبور جماعة من الصحابة الذين سكنوا القدس وماتوا فيها ويعرف إلى هذا الزمان من قبورهم رضي الله عنهم قبر شداد بن أوس الصحابي عالم بيت المقدس وقبر عبادة بن الصامت الأنصاري أحد نقباء الأنصار وأول قاض منتظم في فلسطين ، وهما بجانب السور الشرقي للمسجد الأقصى .

وفي بلدة بيت جبرين غربي الخليل يوجد ضريح تميم بن أوس الداري الصحابي الجليل ، وعليه مسجد أثري ، وحواليه مزارع زيتون وقف عليه ، وهو الآن في حوزة اليهود .

وفي بلدة يبنا قرب مجدل عقلان يوجد ضريح الصحابي عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر وحاكمها في خلافة عثمان إبن عفان .

وفي عسقلان يوجد مسجد الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وفيه المقام الذي كان فيه رأسه الشريف قبل نقله إلى ضريحه بمصر

ويوجد في مدينة غزة ضريح سيدنا هاشم عبد مناف جد النبي

ﷺ ، وعليه مسجد أثري جليل القدر ، وبه مدرسة تدرس فيها علوم القرآن .

وفي مقابر عكا والرملة وعسقلان وغزة وسواها من بلاد فلسطين توجد قبور طائفة من الصحابة الذين سكنوها بعد الفتح الاسلامي وماتوا فيها .

جماعة من أصحاب النبي ﷺ

يحرمون بالحج أو العمرة من بيت المقدس

منهم الخليفة العادل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أحرم من المسجد الأقصى كما في الأنس الجليل .

وسعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة وقائد جيش المسلمين في القادسية ، قدم بيت المقدس وأحرم منه بعمرة : الأنس الجليل .

وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما . أهلَّ بعمرة من بيت المقدس ، رواه الامام الشافعي في مسنده ج ٦ ص ٢٦٨ بهامش كتاب الأم . وفي رواية أن إبن عمر قدم بيت المقدس ومعه جماعة ، ويظهر أنهم جاءوا معه للإحرام منه بالحج أو العمرة (مثير الغرام بفضائل القدس والشام) ، (والأنس الجليل) .

ويظهر من قصة إبن عمر وأصحابه أنه كان من عادة الصحابة رضي الله عنهم أن يأتوا جماعة إلى بيت المقدس لزيارته والإحرام منه ، ويدل لذلك ما رواه الإمام الشافعي رحمه الله عن عبد الله بن أبي عمار أنه أقبل مع معاذ بن جبل وكعب الأحبار في أناس محرمين من بيت المقدس بعمرة ا حه الشافعي في الأم) .

وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما قدم بيت ' س وأهلَّ منه بحج أو عمرة في زمن الشتاء · الأنس الجليل . ومثير الغرام .

ومحمود بن الربيع الأنصا، ى الخزرجي رضي الله عنه قدم بيت المقدس وأهل منه بحج وعمرة ، مثير الغرام والأنس الجليل .

وهناك كثيرون من أصحاب رسول الله ﷺ غير من ذكرنا قدموا لزيارة بيت المقدس والمسجد الأقصى والإحرام منه بحج أو عمرة عملاً بالحديث النبوي الشريف .

جماعة من التابعين

يقدمون لزيارة بيت المقدس وما حوله من مقدسات

وقد حفلت كتب التاريخ والتراجم والطبقات بأخبار رحلة الألوف من أئمة الإسلام والملوك والسلاطين وكبار الأئمة من

الفقهاء والمحدثين والصوفية والزهاد والصالحين ، أقبلوا من أقصى الأرض إلى بيت المقدس لزيارته والصلاة فيه والتبرك بالمسجد الأقصى وما حوله من ديار وآثار إسلامية بارك الله فيها ، أو للجهاد والمرابطة في تلك الأراضي المقدسة .

وقد أسلفنا أخبار قدوم طائفة من أصحاب النبي ﷺ من الحجاز إلى بيت المقدس بقصد زيارته والإحرام بحج أو عمرة من المسجد الأقصى :

وقد تابعهم في العمل بهذه السنة الشريفة جماعات من التابعين قدموا إلى بيت المقدس لزيارته والصلاة فيه ، منهم التابعي الجليل أويس القرني قدم بيت المقدس ، واجتمع فيه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه . روى صاحب مثير الغرام في فضائل القدس والشام : « عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن أويساً أتى بيت المقدس عام حج ، ولقي فيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وفي رواية أخرى أن أويساً اجتمع بعمر بن الخطاب في موسم الحج في الحجاز ـ فقال لعمر : قد حججت واعتمرت وصليت في مسجد رسول الله ﷺ ، ووددت أني صليت في المسجد الأقصى ، فجهزه عمر رضي الله عنه فأحسن جهازه فأتى المسجد الأقصى فصلى فيه « مثير الغرام في فضائل القدس والشام » الأنس الجليل .

ويعلى بن شداد بن أوس أو ثابت الأنصاري من تابعي أهل

الشام حضر فتح بيت المقدس وروى عن أبيه شداد بن أوس الصحابي الجليل . الأنس الجليل .

وجبير بن نفير الحضرمي التابعي . أتى بيت المقدس فصلى فيه ، وهو من الطبقة الأولى من التابعين ، أدرك زمن النبي ﷺ وأسلم زمن أبي بكر رضي الله عنه . روى له مسلم وأصحاب السنن ، مات جبير سنة ٧٥ وقيل سنة ٨٠ هـ (مثير الغرام والأنس الجليل) .

وإبراهيم بن أبي عبلة العقيلي التابعي الجليل . روى عن أبي أمامة وأنس ، وروى عنه الإمامان مالك وابن المبارك وخلق كثير من العلماء قال : « كنت أنا وابن الديلمي في مسجد بيت المقدس ، فدخل واثلة بن الأسقع وعبد الله بن أم حرام الصحابيات فقمت إلى عبد الله وقام ابن الديلمي إلى واثلة بن الأسقع ، فأخبرني عبد الله أنه صلى مع رسول الله ﷺ إلى القبلتين (مثير الغرام والأنس الجليل ج) . توفي إبراهيم ابن أبي عبلة سنة ١٥٢ كما في تاريخ دول الإسلام للحافظ الذهبي » .

وأم الدرداء هجيمة زوجة الصحابي الجليل أبي الدرداء ، كانت تأتي إلى بيت المقدس من دمشق وتقيم نصف سنة في بيت المقدس وبدمشق نصف سنة ، وكانت أثناء زيارتها للقدس تجالس الفقراء والمساكين وتحسن إليهم ، وقد خطبها معاوية بعد

وفاة أبي الدرداء فأبت . وحدث أنها كانت مرة في مسجد الصخرة في بيت المقدس وكان الخليفة عبد الملك بن مروان جالساً في المسجد فأذن المؤذن لصلاة المغرب ، فقامت أم الدرداء تتوكأ على عبد الملك حتى أدخلها إلى مكان النساء في المسجد ومضى فصلى بالناس : (مثير الغرام والأنس الجليل) .

وروى ضمرة عن الأوزاعي قال « كان قبيصة بن ذؤيب ، وعبد الله بن محيريز ، وهانىء بن كلثوم (التابعيون) يقصرون الصلاة من الرملة إلى بيت المقدس » وهؤلاء كلهم عباد زهاد . فقبيصة كان عالماً ربانياً مات سنة ٨٦ هـ ، وإبن محيريز قرشي جمحي نزل بيت المقدس ، قال رجاء بن حيوة : « إن فخر علينا أهل المدينة بعابدهم إبن عمر فإنا نفخر بعابدنا إبن محيريز » . وأما هانىء فقد عرضت إمارة فلسطين عليه فامتنع زهداً (مثير الغرام والأنس الجليل) .

وخالد بن معدان الكلاعي التابعي أتى بيت المقدس ونزل منه على ستة أميال (مثير الغرام والأنس الجليل) .

ورجاء بن حيوة الكندي كان هو القائم ببناء قبة الصخرة المشرفة ، ثم كان وزيراً لعمر بن عبد العزيز . (مثير الغرام) .

ومحمد بن واسع الزاهد الصالح جمعته الطريق ومالك بن دينار وعبد الواحد بن زيد وهم سائرون إلى بيت المقدس . وروى محمد عن أنس بن مالك ومطرف بن الشخير ، مات سنة ١٢٣ هـ (مثير الغرام) .

أبو شعيب الواسطي الزاهد الصالح

يحرم بالحج من بيت المقدس سبعين مرة

وروى العلامة صاحب كتاب مثير الغرام ص ٥٦ أن صالح إبن يوسف أبا شعيب الواسطي الزاهد التقى الصالح المتوفي بمدينة الرملة بفلسطين سنة ٢٨٢ هـ قد حج سبعين حجة في كل حجة منها كان يحرم من صخرة بيت المقدس .

الخلفاء الأمويون

قدم معاوية بن أبي سفيان إلى بيت المقدس سنة ٤١ هـ . قال الليث بويع معاوية بايليا بيت المقدس في رمضان بيعة الجماعة (مثير الغرام) . وعبد الملك بن مروان باني قبة الصخرة ببيت المقدس قدم إلى المسجد الأقصى وصلى فيه (مثير الغرام) .

الخليفة العادل عمر بن العزيز قدم بيت المقدس وصلى فيه (مثير الغرام) .

والوليد بن عبد الملك قال إبراهيم بن أبي عبلة التابعي المقدسي : كان الوليد يعطيني قصاع الفضة أقسمها على قراء مسجد بيت المقدس (مثير الغرام) .

والخليفة سليمان بن عبد الملك أتى بيت المقدس وأتته الوفود

بالبيعة ، كان يجلس في صحن مسجد بيت المقدس فيما يلي الصخرة فيدخل إليه الناس لقضاء حوائجهم . وكان سليمان قد هم بالإقامة في بيت المقدس واتخاذها منزلاً وعاصمة لدولته بدلاً من دمشق (مثير الغرام) .

الخلفاء العباسيون

الخليفة آبو جعفر المنصور قدم بيت المقدس سنة ١٤١ هـ زائراً ، واجتمع فيه بالامام الليث بن سعد . قال الليث لما ودعت أبا جعفر ببيت المقدس قال « أعجبني ما رأيت من شدة عقلك ، فالحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك » . (مثير الغرام والأنس الجليل) .

والخليفة المهدي بن المنصور قدم بيت المقدس وصلى فيه وأمر ببناء ما تشعث من المسجد الأقصى (مثير الغرام) .

جماعة من أئمة الإسلام المجتهدين
يزورون بيت المقدس والمسجد الأقصى

كان أئمة المسلمين من العلماء المجتهدين والزهاد والصالحين حريصين على العمل بحديث النبي ﷺ في شدّ الرحال إلى المسجد الأقصى لزيارته والصلاة فيه ، فقد قدم بيت المقدس من

الكوفة الإمام (سفيان الثوري) إمام أهل العراق في عص
المجمع على جلالته وزهده وورعه ، صلى في المسجد الأقص
بموضوع الجماعة . وقال صدقة بن يزيد : لقيت سفيان الثور
في مسجد الجماعة في بيت المقدس فقلت له : أتيت القبة
الصخرة ؟ فقال : نعم وختمت فيها القرآن . (الأنس الجا
ومثير الغرام) .

والإمام الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو أحد الأئمة الإعا
وفقيه أهل الشام ومجتهدهم ، وكان رأساً في العلم والعبادة
قدم بيت المقدس وزار المسجد الأقصى (الأنس الجليل وم
الغرام) .

الامام الليث بن سعد عالم مصر وإمامها في عصره قدم بي
المقدس سنة ١٤١ هـ لزيارته والصلاة فيه ، واجتمع فيه بالخل
أبي جعفر المنصور العباسي . ماتت الإمام الليث في مصر م
١٧٥ هـ (فتوح البلدان للبلاذري والأنس الجليل وم
الغرام) .

والإمام الشافعي محمد بن إدريس القريشي أحد الأئ
الأربعة ، ولد في مدينة غزة بفلسطين سنة ١٥٠ هـ وقدم بي
المقدس فصلى فيه وقال : سلوني ما شئتم أخبركم من كتاب
وسنة رسوله ﷺ (الأنس الجليل ومثير الغرام) .

والإمام وكيع بن الجراح قدم بيت المقدس وأحرم منه

مكة ، وكان وكيع من أئمة الحديث الاعلام ، روى عنه إسحق والإمام أحمد بن حنبل وقال : ما رأيت أوعى للعلم منه ولا أحفظ (الأنس الجليل ومثير الغرام) .

جماعة من شيوخ الصوفية

وكبار الأولياء الصالحين

كان الصالحون من المسلمين منذ فجر الاسلام حريصين على الرحلة إلى بيت المقدس من أقصى الأرض من مختلف أقطار الشرق والغرب ، وقد حفلت كتب التاريخ بأسماء جماعات من أعيان لا يحصيها العد ممن قدموا في مختلف العصور إلى فلسطين لزيارة المسجد الأقصى والتبرك به وبما حوله من مقدسات وديار مباركات . فمن كبار الصالحين الذين قدموا بيت المقدس لزيارته والصلاة في المسجد الأقصى المبارك (إبراهيم بن أدهم) أحد كبار الزهاد ، كان من أتباع التابعين وثقاتهم ، قدم بيت المقدس زائراً ونام بالصخرة . وله قصة في ذلك .

إن إبن أدهم من كبار شيوخ الطريقة الاعلام له قدم صدق في التقوى والورع والزهد والدعوة إلى تهذيب النفس ترك الامارة ورحل من بلده بلخ فجاء إلى بلاد الشام ومنها إلى بيت المقدس للزيارة والعبادة ومكث فيه مدة ، وتوجد في بيت المقدس

(الزاوية الأدهمية) نسبة إلى إبن أدهم ، وبجانبها قبور جماعة من الصالحين من أتباع طريقته ، وموضع قبورهم في مغارة بأسفل جبل (مقبرة باب الساهرة) بالقدس ، وهو مكان يزوره المسلمون .

وقد رابط إبن أدهم في حصون عكة وعسقلان وسواها من سواحل فلسطين مجاهداً في سبيل الله حتى أدركه الموت سنة ١٦١ هـ وهو مرابط ، وقبره في مدينة جبلة بالشام مشهور رحمه الله (الأنس الجليل . ومثير الغرام ومختصر تاريخ إبن عساكر . وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني) .

وذو النون المصري أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الصالح المشهور ، أحد رجال الطريقة الصوفية ، وكان أوحد وقته علماً وورعاً وأدباً ، قدم بيت المقدس وقال : وجدت على صخرة بيت المقدس « كل عاص مستوحش ، وكل مطيع مستأنس » إلخ . . . (وفيات الأعيان والأنس الجليل ومثير الغرام) .

وبشر بن الحارث الحافي أحد رجال الطريقة الصوفية من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين ، قدم بيت المقدس وقيل له : لم يفرح الصالحون ببيت المقدس ؟ قال : لأنها تذهب الهم ، ولا تشتغل النفس بها . وقال : ما بقي عندي من لذات الدنيا إلّا أن أستلقي على جنبي تحت السماء بجامع بيت المقدس (وفيات الأعيان والأنس الجليل) .

والسرى بن المغلس السقطي أحد رجال الطريق كان أو
أهل زمانه في الورع والتوحيد ، وهو خال أبي القاسم الجنيد
وأستاذه . قدم السرى بيت المقدس زائراً وقال خرجت من الر
إلى بيت المقدس فمررت بمشرفة وغدير ماء وعشب . ثم
قصة له في ذلك (وفيات الأعيان ومثير الغرام والأنس الجليل).

وجعفر بن محمد النيسابوري المحدث قدم بيت المقد
وحدث به سنة ٢٧٠ (مثير الغرام) .

والإمام محمد بن الوليد الطرطوشي الأندلسي المالكي قرأ
إبن حزم ، كان إماماً عالماً زاهداً قدم بيت المقدس في حدود سـ
٤٧٠ هـ وحج ثم سكن الشام (مثير الغرام) .

والامام حجة الاسلام (الغزالي) . قدم أبو حامد محمد
محمد الغزالي الطوسي بيت المقدس زائراً ، وأقام في جـ
المسجد الأقصى مدة غير قصيرة ، ونزل في (الزاوية الغزالية)
باب الرحمة على الجدار الشرقي للمسجد الأقصى ، وفيه صنف
كتاب (إحياء علوم الدين) وسواه من المصنفات العلم
المشهورة .

قال الحافظ أبو محمود المقدسي في كتابه (مثير الغرام بفضا
القدس والشام) : وانتقل الغزالي إلى بيت المقدس مجتهداً
العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة ، وأخذ في التصانيف

المشهورة ببيت المقدس مثل (إحياء علوم الدين) و (القسطاس) و (محك النظر) وغيرها : توفي الغزالي بطوس سنة ٥٠٥ هـ (مثير الغرام والأنس الجليل وتاريخ إبن كثير) .

والإمام أبو بكر بن العربي الأندلسي الأشبيلي الحافظ المشهور ، لقي الطرطوشي وتفقه عليه وصحب الغزالي . وقدم الامام أبو بكر إلى بيت المقدس في حدود سنة ٤٨٥ ورأى به خلقاً كثيراً من العلماء ، وزار أثناء ذلك بلد الخليل عليه السلام ومقام النبي يونس عليه السلام في بلدة حلحول قرب الخليل على طريق القدس ، وقد ذكر ذلك في كتابه أحكام القرآن . مات أبو بكر سنة ٥٤٣ هـ بأشبيلية (الأنس الجليل ومثير الغرام) .

والإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني الشافعي . قدم بيت المقدس زائراً له وهو في أيدي الصليبيين (كما في الأنس الجليل ومثير الغرام) .

أبو بكر الجرجاني من أهل جرجان من أعمال نيسابور كان عابداً صالحاً ، توجه هو وأبو سعد السمعاني إلى زيارة بيت المقدس فذهبا ولم يفترقا حتى رجعا إلى العراق . قال إبن السمعاني في حقه : كان نعم الصاحب والرفيق ، وهو شيخ صادق صالح ، قائم بكتاب الله ، دائم البكاء كثير الحزن ، له أوقات حسنة ، جاور بمكة سنين وخدم المشايخ الكبار . مولده سنة ٤٦٥ ووفاته سنة ٥٤٠ (مثير الغرام) .

ومنذ فجر الاسلام والأتقياء والصالحون من المسلمين يقدمون من أقصى الأرض إلى بيت المقدس للاحرام منه بحج أو عمرة عملاً بحديث النبي ﷺ ليفوزوا بمغفرة ذنوبهم جزاء إحرامهم من المسجد الأقصى بحج أو عمرة كما أخبر الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه .

وإلى هذا الزمان كان الكثيرون من أتقياء المسلمين يأتون إلى بيت المقدس من الهند الأفغان وجاوة (أندونيسيا) وبلاد المغرب وسواها من أقطار الإسلام في آسيا وأفريقيا وبعض أرجاء أوروبا وسائر بلاد الاسلام في الشرق والغرب يقدمون للاحرام بالحج أو العمرة من المسجد الأقصى قبل سفرهم إلى مكة والمدينة وقام عدد كبير من العلماء والصالحين من المغاربة والمشارقة والهنود والأفغانيين والأتراك وسواهم قد أهلوا بالتلبية بحج أو عمرة في المسجد الأقصى بعد أن تجردوا من ثيابهم المخيطة وارتدوا أردية الأحرام البيضاء النقية عاملين بالسنة النبوية ليفوزوا بالأجر الجزيل المنوه عنه بقول النبي ﷺ « من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » أو « وجبت له الجنة » الحديث .

قبور شهداء المسلمين وأضرحتهم

منذ الفتح الاسلامي استشهد في فلسطين مئات الألوف من شهداء المسلمين ، تنتشر قبورهم وأضرحتهم في المدن والقرى

الفلسطينية ، وفي القدس بمقبرة ماملا (مأمن الله) التي هي الآن تحت سيطرة اليهود توجد قبور وأضرحة سبعين ألف شهيد من قتلى المسلمين في حروب الصليبيين ، منهم طائفة من العلماء والقادة والصالحين من المجاهدين استشهدوا بداخل المسجد الأقصى وما حوله من جنبات القدس وشوارعها ، وقد عبث اليهود أخيراً بهذه المقبرة وانتهكوا حرمة شهداء المسلمين ، وفتحوا في هذه المقبرة شوارع وداسوا فوق عظام الشهداء بأقدامهم وسياراتهم ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

ولا تخلوا مدينة من مدن فلسطين وقراها الكبرى من مقبرة للشهداء ، ولقد قدر عدد من استشهدوا في فلسطين من المسلمين في (الحروب الصليبية) التي استمرت أكثر من مائتي عام بما يزيد عن مليون شهيد قدموا من أنحاء العالم الاسلامي للدفاع عن فلسطين المقدسة ومسجدها الأقصى المبارك فاستشهدوا فيها .

وفي عين جالوت قرب مدينة بيسان شمال فلسطين استشهدت طائفة كبيرة من أبطال الإسلام في قتال التتار حين هزمهم في عين جالوت جيش مصر بقيادة الملك المظفر قطز والظاهر بيبرس ، فحملوا فلسطين ومصر من عادية التتار .

وفي الثورات والحروب التي قام بها أهل فلسطين من المسلمين والعرب ضد عدوان الانجليز واليهود خلال ثلاثين سنة

تشهدوا فيها ألوفاً من رجال فلسطين وشبابها المجاهدين قتلوا
صاص الانجليز واليهود وقنابلهم ، ومئات منهم شنقهم
نجليز بعد أن قبضوا عليهم وأعدموهم ، ويضاف إلى ذلك
لوف من الشهداء الذين ماتوا في حرب فلسطين أخيراً (سنة
١٩١ ـ سنة ١٩٤٩) بعد دخول الجيوش العربية إليها وما
فرت عنه من كارثة فاجعة .

ومن حين احتل الانجليز فلسطين وهم يعملون بكل حيلة
سيلة مدة ثلاثين سنة لتهويدها ومحو صبغتها الاسلامية
ربية ، بقصد جعلها يهودية محضة ، ففشلوا بسبب قوة إيمان
ل فلسطين وثباتهم في مقاومة سياسة الانجليز واستمساكهم
قهم في وطنهم وديارهم ، إلى أن قرر الانجليز الجلاء عن
سطين ، ونفذوا مؤامرتهم مع اليهود فسلموهم أكبر المدن ،
، حيفا ويافا واللد والرملة ، ومكنوهم بذلك من السيطرة على
سم الأكبر من فلسطين ، وهو عبارة عن ١٢ مدينة كبرى ،
والي ٧٠٠ قرية فيها ما يزيد على ألف مسجد وجامع ـ الكثير
ا بني في عهد عمر بن الخطاب ومن جاء بعده من خلفاء
لمين وملوكهم وسلاطينهم وحكامهم ، ومن تلك الجوامع
ساجد جوامع يافا وحيفا وعكا وصفد وطبريا والناصرة وبيسان
مخ وقاقون وقيسارية والشيخ مونس وسيدنا علي والرملة واللد
جدل وعسقلان والفالوجة وبئر سبع وبيت جبرين وعراق
بية وما حول تلك البلاد من القرى التي كانت إسلامية عربية

محضة يسكنها نحو مليون مسلم عربي ، إلى أن غزاها اليهود وفقاً لخطة الانجليز والأمركيين وغيرهم من أعداء الاسلام فشردوا أهلها منها ، وأجلوهم عنها ، وسيطروا على أراضيها وجميع ممتلكات المسلمين والعرب ، كما سيطروا على جميع مساجدها ومعابدها وسائر ما فيها من مقدسات المسلمين وآثارهم فيها .

الزوايا الصوفية والتكايا الاسلامية

وإلى جانب المساجد والجوامع في بلاد فلسطين توجد مئات عديدة من الزوايا والتكايا والخانقاهات الصوفية منتشرة في مدن فلسطين وقراها ، من أشهرها (الخانقاه الصلاحية) التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي في مدينة القدس . و (زاوية الشيخ بدر الدين الحسيني) بظاهر القدس بما فيها من أضرحة الشيخ بدر وآل بيته وجماعة من الصالحين . وفي مدينة القدس (زاوية الشيخ جراح) و (الزاوية النقشبندية) و (زاوية القادرية) و (الزاوية الخلوتية) و (الزاوية الأدهمية) و (الزاوية الهندية) و (الزاوية الرفاعية) و (الزاوية الأفغانية) و (الزاوية الفخرية) و (زاوية أبي مدين) و (زاوية المغاربة) وغير ذلك من الزوايا الصوفية التي تقام فيها الصلوات والأذكار وتقرأ فيها الأوراد الصوفية .

وفي مدينة الخليل زوايا صوفية كثيرة العدد ، منها (زاوية

الشـرفـاء) و (زاويـة الـرفـاعيـة) و (زاويــة الخلوتيـة) و (القواسمة) و (زاوية الأدهمية) وسوها .

وتوجد زوايا صوفية كبيرة في يافا وحيفا وعكا وصفد وبيسان وطبريا والرملة واللد والمجدل ونابلس وطولكرم وقلقيلية وقاقون والشيخ مونس وعراق المنشية ونوبا وغيرها من البلاد .

المدارس العلمية الاسلامية

وفي القدس والرملة واللد والخليل ويافا ونابلس وصفد والمجدل وغزة وسواها من مدن فلسطين وبلادها توجد (مدارس أثرية اسلامية) أنشأها ملوك المسلمين وسلاطينهم في مختلف العصور ، وتخرج منها طائفة من العلماء والصالحين من رجال الدين كالمدرسة (المأمونية) و (مدرسة قايتباي) ، و (مدرسة تنكز)، و (مدرسة الجاولية) ، و (المدرسـة العمريـة) ، و (الرصاصة) وغيرها . وفي مدينة عكا توجد (المدرسة العلمية الدينية) في جامع أحمد باشا الجزار كانت قبل استيلاء اليهود على عكا عامرة بالعلماء المدرسين وطلاب العلم الديني الذين كانوا يقصدونها من مختلف بلاد فلسطين وغيرها ، وكان خريجوها يقومون بوظائف الامامة والخطابة وسواها من الوظائف الدينية . وفي (جامع الجزار) بعكا توجد (المكتبة الاسلامية) المحتوية على نفائس الكتب الدينية اللغوية والتاريخية ، منها

طائفة من المخطوطات الأثرية في علوم التفسير والحديث النبوي والفقه ، وتوجد فيها نسخة خطية من كتاب (الجامع الكبير) في الحديث الشريف تأليف الحافظ جلال الدين السيوطي وهي نسخة نادرة الوجود ، وقد أمست هذه المكتبة والمدرسة وجامع الجزار وسائر ما في عكا من مساجد المسلمين ومعابدهم تحت سيطرة اليهود .

وتوجد (مكتبات إسلامية) في معظم مدن فلسطين وقراها الكبيرة تحتوي على عشرات الألوف من الكتب الدينية من خطية ومطبوعة في مختلف العلوم والفنون .

الأراضي والعقارات الوقفية الاسلامية

التي استولى عليها اليهود بفلسطين

وفي حين فتح المسلمون فلسطين وعلى مر العصور وهم يشيدون في مدنها وقراها المساجد والمعابد والمدارس العلمية والتكايا والزوايا للصوفية ، والأربطة والمساكن للزائرين والغرباء القادمين من أنحاء العالم الاسلامي لزيارة القدس وما حولها من أماكن مباركة . وقد كان خلفاء المسلمين وملوكهم وسلاطينهم والحكام والأمراء والأعيان والتجار والأغنياء وأتقياء المسلمين من أصحاب البر والاحسان يتنافسون في تشييد تلك المساجد والمعابد والمدارس وسواها من آثار إسلامية ما زالت قائمة في أرجاء

فلسطين ، وقد وقفوا عليها مئات القرى العقارات ، والمساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية في أنحاء البلاد والقرى الفلسطينية ، مشترطين أن يصرف ريعها وناتج محصولاتها وأجرة عقاراتها في عمارة تلك المساجد والمعابد والمدارس والزوايا والأربطة وفي مصالحها بحسب شروط الواقفين ورغباتهم الخيرية . وتحتوي سجلات محاكم فلسطين الشرعية ـ وبخاصة سجلات محاكم القدس والخليل ونابلس وصفد وعكا ويافا وحيفا ـ وثائق تلك الوقفيات . وبعد العدوان اليهودي على فلسطين أمسى القسم الأكبر من تلك المساجد والمعابد والأراضي الوقفية الاسلامية في حوزة اليهود وتحت سيطرتهم ، ووضعوا أيديهم على ناتجها ومحصولاتها ، وبذلك تعطل صرف ريعها في الوجه الشرعي الذي وقفت عليه بموجب شروط واقفيها . وتقدر الأراضي الوقفية الاسلامية التي يستولي عليها اليهود بما يزيد على مليون دونم من أخصب أراضي فلسطين وأحسنها موقعاً ، وبينها كثير من المزارع والحدائق والبساتين والعقارات الثمينة في مختلف بلاد فلسطين .

واليوم فلسطين كلها بيد اليهود ومعها أقسام من الأراضي العربية التابعة لمصر والأردن وسوريا ولبنان . وأحفاد الأبطال العرب صامتون . . .

عمر في بيت المقدس

الدنيا مشرقة على الطريق التي يأتي منها والعيون متطلعة إلى الجهة التي يسير فيها وعبر الصحراء الممتدة بين المدينة المنورة وبيت المقدس يمشي بعير الهوينى وفوقه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يلبس مرقعته وبها أربع عشرة رقعة ميمماً بيت المقدس وقد أبى حاكمها وكاهنها أن يسلمها إلّا لعمر بن الخطاب نفسه .

بالله ما يلقى عمر في سفره وما يتأمل في رحلته وهو الذي أقام العدل في المدينة ونشر العسر في الرعية وقال لئن عشت لأسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرمقونها إلى وإما هم فلا يصلون إليّ فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين والله لنعم الحول هذا .

وهذا طراز من رحلته ، أشار عليه المسلمون أن يغير ثوبه المرقع وألبس ثوباً أبيض من نسج مصر يساوي خمسة عشر درهماً وطرحوا على عاتقه منديلاً من كتان ثم قدموا له برذوناً أشهب من براذين الروم فلما امتطاه جعل البرذوز يقفز فنزل عنه عمر مسرعاً وقال « أقيلوا عثرتي قال الله عثرتكم يوم القيامة فقد كان أميركم أن يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر واني سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من

الكبر ولقد كاد يهلكني ثوبكم الأبيض وبرذونكم المهملج » .

ونزع الثوب الأبيض وارتدي مرقعته وأشرف بعيره على أسوار بيت المقدس يمشي وئيداً وئيداً يحمل رجلاً جليلاً مهيباً يخفض رأسه خشوعاً فلما نظر إلى بيت المقدس بدأ كأنه يحتبس في عينه دموعاً يشرق وجهه بالنور ويرى في صفحتيه خطان أسودان تركهما بكاؤه من خشية ربه .

وحينما رآه البطريق « صفرانيوس » صاح بأعلى صوته قدوس قدوس . هذا والله. صاحب محمد بن عبد الله .

وتعالى الآذان في بيت المقدس ودقت أجراس الكنائس وشهدت الدنيا موكب ما له على ظهر الأرض من نظير وصلى عمر تحية المسجد بالمسجد الأقصى ودخل إلى كنيسة القيامة وأدركته الصلاة عند الخشبة التي ولد فيها المسيح عليه السلام فصلى عندها وكتب سجلاً ألاّ يصلي في هذا الموضع أحد من المسلمين إلّا رجلاً بعد رجل فلا يجتمعوا فيه للصلاة ولا يؤذنوا عليه خشية أن يتخذوه مسجداً .

وتلا الناس عهد عمر لأهل بيت المقدس أن لهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يمس شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم لا يسكن ببيت المقدس معهم أحد من اليهود وأشهد عليه كبار صحابة رسول الله ﷺ .

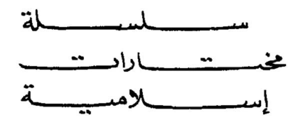
سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

الجيش في الإسلام

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

الجيش في الإسلام

دار الفكر اللبناني



في فجر الإسلام قضى العرب على الروم والفرس ، أعظم قوتين هيمنتا على العالم آنذاك ، وامتدت الجيوش العربية في أرجاء العالم القديم تنشر أعلام العزة والكرامة فوق الحصون .

هذا الكتاب يعيد إلى الأجيال العربية الجديدة ثقتها بنفسها وبتاريخها العريق بعد محاولة القوى المهيمنة إذلال النفوس العربية وطمس الحقائق .

الجيش في الإسلام

الحرب قبل الإسلام وبعده

يَجِدُ كُلُّ مَن يُطالِع أخبارَ الجاهلية ، أمثلةً كثيرةً من حروب العرب . وكانت هذه الحروبُ تَدورُ بين القبائل العربية بكثرة ، تجعلُ الباحثَ المؤرّخ في حَيْرةٍ تامَّة من أمرها ، أحربٌ هذه أم خصامٌ أهلي ، أم جزءٌ لازم من حياة أُمَّة ، يتكرَّر حدوثُهُ كما تتكرَّر الفصول وتتعاقب الأيام .

وكان من أغراض تلك الحروب أمران رئيسيَّان : الثأر والغزو . فكم جَرَّ الأخذُ بالثأر على العرب في الجاهلية من حروبٍ طاحنة ، امتدَّت عدداً كبيراً من السنين . وكم دفعتهم ضَرورةُ الحياةِ البدويَّة إلى اكتساب معيشتهم عن طريق الغَزْو . وكم كان من نتائج هذا كُلّه من إفناء للنفوس ، وإتلاف للأموال .

إلاَّ أنه لا يَصِحُّ إطلاقُ كلمة (الحرب) على المنازعات الجاهلية ، إلاَّ من قبيل المَجاز . إذ لم تكن في حقيقتها ، سوى مُناوشات أفرادٍ ، أو مُنازعات قبائل تَدُورُ بين عدد قليلٍ من الأشخاص ، قد لا يتجاوزُ عددُهم العشرةَ أحياناً ، أو المئةَ أحياناً أخرى . هذا من جهة نِطاق الحروب ، وعددِ المتحاربين . أما من جهة الزمن ، فالحربُ لم تكن تَدُورُ يوماً بعد يوم ، أو شهراً بعد شهر ، مُتَّصِلَةً بلا انقطاعٍ ، كما نعهد ذلك في حروب العُصور الحديثة . بل كانت تَدورُ في فصلٍ ، ثم تقفُ في آخر ، بلا إعلان هدنة ، أو وصول إلى نتيجةٍ حاسمة . ثم لا تلبث الحرب أن تَسْتَعِرَ مرةً أخرى ، بلا إعلان أو إنذار .

تطور نظام الحرب

ولما جاءَ الإِسلام ، دخلت الحربُ عند العرب في طَوْرٍ جديد ، إذ نَشَأَ عن طبيعةِ الدَّعْوَةِ الاسلامية ، وضرورةِ نَشْرِها من جهةٍ ، وعنِ الحالة التي كان عليها العربُ في الجزيرة ، والأممُ المجاورةُ من جهةٍ أخرى ، أنْ تَطَوَّرَ نِظامُ الحرب تطوُّراً كبيراً سريعاً .

كان العربُ يحاربون للغزو أو للثأر ، أو لغير ذلك من

الأسباب ، التي لا صِلَةَ لها بالمُثُل العُلْيا . فجاءَ الاسلامُ ونَهى عن الحرب للثأرِ ، أو لِلنَّهْب ، ودعا العربَ المسلمين إلى نوعٍ جديدٍ من الحرب ، يُعلنونها كلما دَعَتِ الحاجةُ إلى ذلكَ . وهذا النوعُ الجديدُ من الجرب ، هو حَرْبُ الدِّفاعِ عن النفس ، وعن المَبادئِ التي جاءَ بها الدينُ الجديد . هو حَرْبُ الدِّفاع عن النفس ، وعن المَبادىء التي جاءَ بها الدينُ الجديد . أي أن الإسلام نَهى عن حربِ الإعتدَاء لِكَسْب المتاعِ ، أو المرعى ، أو الدوابِّ ، وحَلَّلَ حربَ الدفاع عن هذه كلِّها ، وشَرَّعَ الدفاعَ عن الدين ومبادئه ، والدعوةِ إلى الدخول فيه .

بداية النظام الحربي

ربما صَحَّ اعتبارُ الهِجْرَةِ النبويَّة ، إبتداءً حقيقيّاً لنظام الحرب عند المسلمين ، إذ طَفِقَ يخرجُ المهاجرون والأنْصارُ لملاقاة قوافل قُرَيْش ، في طريقها من مَكَّةَ وإليها . وكانت هذه البعوثُ الحربيةُ في بادىء الأمر ، قليلةَ العدد : عشرين رجلاً أو ثلاثين رجلاً أو ستين . لكنها ما لبثت إن زادت في عدد أفرادِها ، وفي قُوَّةِ سلاحها ، بالاضافة إلى قوة إيمانها . فقد إشترك مثلاً في مَعْرَكَةِ بَدْر ثلاثُمئة من المسلمين ، وفي معركة أُحُد ألفٌ منهم . فيهم الفرسان والمشاةُ ، وفيهم المسلَّحون

وغيرُ المسلحين . أما سَرِيَّةُ مؤتة ، فقد اشترك فيها ثلاثةُ آلافِ رجل . وكان يتألَّفُ المحاربون في كل هذه الحالات ، من أبناء القبائل البدوية ، الذين كانوا يعودون إلى أعمالهم العاديَّة ، بحال انتهاء واجباتهم الحربيَّة .

أما الجيوشُ التي أرْسَلَهَا أبو بكر لمحاربة أهل الرِّدَّة ، بعد وفاة النبي (صلعم) ، فلم تكن قويَّةً بكثرة عدد أفرادها . لكنها كانت قوية في صدق الإيمان ، أضِفْ إلى ذلك أنَّ الجنود أخذوا معهم أسَرَهم مُستعدِّين بذلك لحرب طويلة المَدَى ، ومستمدِّين من وجود نسائهم ، العونَ على الحياة والحماسَة في القتال .

٣٠ ألفاً لليرموك والقادسية

تختلفُ كتبُ التاريخ العربيّ ، في تقدير عدد الجنود ، الذين خرجوا لفتح الشام والعراق ومصر . لكنه يظهر ، أنَّ عدد الجنود المسلمين الذين لاقوا الروم في اليرموك ، كان حوالي عشرين ألفاً ، وعدد الذين لاقوا الفرس في القادسية ، كان حوالي عشرة آلاف ، ومثلُ ذلك عددُ الذين كانوا في مصر عند فتحها . . وعليه يجوز لنا تقديرُ مجموع عدد الجنود أثناء الفُتوح الكبرى ، في زمن الخلفاء الراشدين ، نحواً من أربعين ألفاً . وهذا لعمري قليل جداً ، إذا قيس بمقاييس العصور

المتوسطة والحديثة . وهو قليل كذلك إذا قيس بمقاييس تلك الأيام . . يقول الطبريُّ مثلاً ، إنَّ عدد الروم في معركة اليرموك كان مئةً وأربعين ألفاً . . ومهما بولغ في هذا العدد ، فإن كتب التاريخ العربي ، تُجْمِعُ على شيء واحد ، وهو أن المسلمين كانوا فئةً قليلة ، وقد غلبت فئةً كبيرة بإذن الله .

كيف نشأت البصرة

لكن هذا العدد قد زاد بازدياد سلطان الإسلام ، وإتّساع نطاق الدولة العربية ، ودخول العناصر الأجنبية فيها . . ولنأخذ على ذلك بعض الأمثلة : أرسل عُمَرُ بن الخطاب نحو ثمانمئة جنديّ عربي ، حامِيَةً إلى العراق ، وأنزلَ هؤلاء ومعهم نساؤهم وعيالهم ، في المكان الذي أصبح بعد ذلك مدينةَ البصرة . وقد أقاموا أوّلاً في الخيام ، ثم بَنوا لأنفسهم البيوت والقُرى ، بعضها إلى جانب بعض . ومن ازدياد عددهم وتكاثر عيالهم وبناء بيوتهم ، وما يتبع ذلك من إتساع في وسائل المعيشة ، نشأت مدينةُ البصرة . وأصبحت هذه المدينة بعد رُبْعِ قَرْنٍ ، في زمن حكم زِيَاد إبن أبيه ، مدينةً كبيرةً ، فيها مئتا ألفٍ من السكان .

كان الغَرَض من إنشاء هذه الحامية ، مثلَ الغَرَض من إنشاء أختها في الكوفة ، ـ حراسة الحدود الشرقيَّة ، للدولة

الاسلامية العربية ، ثم صار من أغراضها ، توسيعُ نطاق الدولة بالفَتْح ، في فارس وأذْرَبيجان وخُراسان . . وكانت هذه الجيوش في هذا الدور كلُّها من العرب الأقْحاح ، أو العربِ الذين جاءوا من الجزيرة ، فهم بحق (مادَّةُ الإسلام) كما كان يُسَمِّيهم عُمَرُ بنُ الخطاب .

الموالي في الجيش العربي

غير أن دخول غيرِ العرب في الإسلام ، فَتَحَ الباب لهؤلاء ، ليشاركوا العرب في وسائل معيشتهم وإدارة دولتهم . ومن ذلك كان دخول المَوالي في الجيش ، وخصوصاً في الأزمنة التالية . ولا يَظُنَّنَّ أحدٌ ، أن دخول الموالي في الجيش ، لم يَتِمّ إلاَّ في زمن الدولة العباسية ، كما هو المعروف . لأن عدداً لا يُسْتَهان به من الموالي ، قد دخل الجيش ، في إبَّان مجد بني أُمَيَّة ، وهم الذين عُرفوا بالتمسك بالعُروبة ، والتعصُّب لها . . ونأخذ على ذلك مثالين اثنين : أحدهما ، أن معاوية بن أبي سفيان ، عامل عثمان بن عفان على سوريا والجزيرة ، أرسل قوة مُكَوَّنَةً من ثمانية آلاف محارب من أهل تلك البلاد إلى أرمينيا ، وعَزَّزَ هذه القوة ببعض الرجال من أهل الكوفة ، بعد أن لاقى هؤلاء مقاومة كبيرة . والمثال الآخر ، إن قُتَيْبَةَ ويَزيدَ إبنَ المُهَلَّب ، جَعَلَ كُلُّ منهما قسماً من جيشه ، مُكَوَّناً من مُتَطَوِّعَةِ المَوالي في بُخاري وخُراسان .

هذا كُلُّهُ يتعلَّق بالجيوش المحاربة . أما الجيوش التي استُخدمت لحفظ النظام الداخلي ، أو لإخماد الفتن المحليَّة ، فعدد أفرادها لم يكن لِيقِلَّ عن عدد تلك . وقد جاء في بعض كتب التاريخ العربي ، إن عدد أفراد كلٍّ من الجيشين المتحاربين في صِفّين لم يكن أقلَّ من تسعين ألفاً . . إن هذا العدد لا يخلو من المبالغة ، لكنه يبقى كبيراً ، مهما أنقصنا منه ، احتياطاً لهذه المبالغة . ولنَذْكر كذلك الجيوش الجرَّارة التي أرسلها الخلفاء لمحاربة الخَوَارج ، وخصوصاً الأزارقة في حروبهم مع الحجَّاج التي لزم لها ما لا يَقِلُّ عن خمسين ألفاً ، من أحسن المحاربين العرب والموالي .

دوافع المحاربين

كان الدافع الأكبر للمحاربين الأوَّلين من المسلمين ، رضى الله والجَنَّة في الآخرة . وكان هذا الانتظام في الفِرَق المحاربة تَطَوُّعاً بلا مقابلٍ ماديّ . وكان هذا من أهَمّ عواملِ نجاح الفُتوح الاسلامية ، على قِلّةِ عدد الجنود ، وبساطة سلاحهم ، لأنهم كانوا يحاربون بدافع روحيّ قبل كل شيء آخر . إلّا أنَّ الحملات الصغيرة إذا اتسع نطاقها ، لا بُدَّ فيها من نفقة للسلاح والرَّكائب وغير ذلك ، وهذا ما تَمَّ فعلاً في حالة المسلمين ، إذ لزم للتوسُّع في الفتح مالٌ وأسلحةٌ ، لم تَدْعُ

الحاجةُ إليها من قبلِ في الغَزَوَاتِ البسيطة . وتذكر المصادِرُ الموثوق بها ، إن عُثمان بن عَفَّان ، كان أولَ الذين تَبرَّعوا بالمال ، للإنفاق على غَزَواتِ الرسول ، كما كان أكثرَهم تبرعاً ، لغناه ولإخلاصه للدَّعوة ، رَضيَ الله عنه . ولكن الفتوح في عهد الخلفاء الراشدين ودولة بني أُمَيّة ، قد حلَّت المسألة المالية حَلاًّ تامّاً ، لأنه لا يمكن دائماً الاعتمادُ على التبرُّع الفَرْدِيّ لتموين الجيوش ، والإتفاق على حَمَلات واسِعة النطاق .

أجور الجند

كان المال الحاصل من الفتوح بأقسامه المختلفة (الفَيْء والخراج والجِزية) والمال الحاصل من زَكاة المسلمين ، يُوزَّع بطريقة بسيطة عادلة عمليّة . وهذا النظام المالي لجمع الضرائب وانفاق المال ، يُعْزَى وضْعُهُ إلى عمر بن الخطاب . فبحسب هذا النظام ، كانت المُرَتَّبات تدفع للمحاربين الذين اشتركوا في الفتح ، وتدفع أيضاً لجميع أفراد الأمة من المهاجرين والأنصار في الجزيرة نفسها . كان عطاءُ المحارب أربعة آلاف درهم في السنة ، يُنفقها على أهله أثناء غيابه وعلى تجهيز نفسه ورفيق له معاون في القتال . ويُعْزَى إلى عمر بن الخطاب أيضاً نظامٌ يشبه نظام التقاعد العسكري ، وبحسبه

يدفع مرتب خاص لكل محارب شهد القادسيّة وما جاء بعدها ، ويعرف هذا بنظام (العرافة) الذي تطور مع تطور الدولة العربية ، وسبب لبعض الخلفاء متاعب جمّة .

الغنائم والمحاربون

صحيح أن قسماً كبيراً من الغنائم الحِربية ، كان يوزع على المحاربين ، وإن إقطاعات من الأرض كانت تعطي لبعض الجنود والمحاربين . إلاَّ أن النظام السائد ، هو الذي أشرنا إليه فيما سبق . حتى يجمع مال الخراج ومال الجزية ومال الفَيْىء كله في بيت المال ، ومنه كانت تدفع مرتبات الجنود ، وتؤخذ النفقات العادية . حتى إذا جاء العهد الأموي ، أصبح عطاء الجنود أهم مادة في مالية الدولة . ففي زمن معاوية مثلاً ، كان في مصر المشهورة بغناها أربعون ألفاً من الجند ، يدفع لكل منهم مئتا دينار من بيت المال . وبعد هذه النفقة لم يبق من مجموع الضرائب السنوية شيء يذكر ، لإيداعه الخزينة العامة . هذا في ولاية غنية مهمة كمصر ، وقس على ذلك باقي الولايات .

مساعدات لرؤساء القبائل

وهنالك نوع آخر من النفقة الحربية ، ابتدعه بنو أمية أو لجأوا إليه عن حاجة . . إذ المعلوم أن حروبهم كانت كثيرة ، وغير مقصورة على قُطْرٍ واحد من المملكة ، ومنها الحروب الداخلية والحروب الخارجية . لهذا كانوا دائماً يخصصون المساعدات المالية لرؤساء القبائل ، بحيث يمدُّون الدولة بالرجال في وقت الحاجة . . يذكر المسعودي في كتاب مُروج الذهب ، ان قبائل قَحْطان في سوريا كانت تمدُّ الخلفاء الأولين من بني أمية بألفي رجل عند الطلب ، وفي مقابل هذا ، كان الخلفاء يدفعون لكل شيخ قبيلة الأموال الكثيرة ، ما دام في هذه المشيخة ، فإذا مات أو قُتل ، دفعوها إلى خلفه ، وثبَّتوا هذا الخلف في مشيخته ، واعترفوا به وحكموه في شؤون عشيرته الداخلية . . وفعل خلفاء بني العباس مثل هذا . فقد كان المنصور مثلاً يرسل المحاربين من قبائل العراق لحراسة الثغور على حدود الدولة البيزنطية ، وكان يعطيهم علاوات خاصة فوق مرتباتهم المقررة . وكان هذا النظام يُطَبَّق بدقة تامة ، بحيث إذا عجزت قبيلة عن إرسال العدد المتفق عليه من المحاربين ، وجب عليها أن تدفع جُعُلاً لاستئجار من يقوم مقامهم .

نستطيع الاستنتاج مما تقدم من القول ، أن العمل في الجيش الاسلامي حتى أوائل بني أمية كان تطوعاً على وجه الإجمال ، حتى إن المرتبات التي صارت تدفع إلى المحاربين ، لم تكن سوى مكافأة على شجاعة أو تعويضاً عن غياب ، ولم تكن هناك أنظمة مكتوبة للخدمة الاجبارية . فالعمل في الجيش كان واجباً دينياً أولاً ، والتخلف عنه عار وبعيد من الرجولة ثانياً . والأمثلة كثيرة على ما كان يُعانيه بعض الرجال من الألم ، إن تخلفوا أو لم يَدْعَوا للقتال . لكن يظهر أن اتساع نطاق الفتوح ، وموت كثير من الصحابة والتابعين ، ودخول عدد كبير من غير العرب في الاسلام ، وغير ذلك من العوامل ، قد جعل اتخاذ طرق الإجبار أمراً ضرورياً في بعض الأحيان .

القهر لجمع الجيوش

يذكر إبن الأثير ، أنَّ الحجاج ، عامِلَ عبد الملك على العراق ، لجأ إلى طرق القهر في جمع جيوشه . ففي سنة ثمانين للهجرة ، جمع من كل من البصرة والكوفة عشرين ألفاً ، أرسلهم لنجدة الجيوش في بلاد فارس . وبعد ذلك

بثلاث سنين ، جمع مثل ذلك العدد من الكوفة نفسها ، وأعلن للناس ، أن كل جندي يتأخر عن اللحاق بفرقته ثلاثة أيام بعد أخذ عطائه ، يعرض نفسه للإعدام . . وهناك أمثلة أخرى على استعمال هذه الطريقة لجمع الجيوش لمحاربة الخوارج .

ربما كانت طريقة القهر في حشد الجيوش ، من أسباب الفشل الذي لقيه الحجاج مرة بعد أخرى في حرب الخوارج . . ربما كان من أسباب ذلك الفشل أيضاً ، تلك الشجاعة الخارقة التي اتّصف بها الخوارج ، وتلك الحماسة المتأججة في صدورهم لِعقيدتهم . . ولكن الباحث يلمس في هذا الجو شيئاً من الفتور في الشعب ، ربما كان من أسبابه فتور في حماسته الدينية لبني أمية ، أو ابتعاد عن ضرورة محاربة المسلم لأخيه المسلم .

المكافآت والأرزاق المنتظمة

أما جيش الدولة الأساسي ، الذي كان يحمي حدودها ويقوم بالفتوح ، فما زال مؤلفاً كالسابق من أبناء القبائل التي تتناول المكافآت المالية والأرزاق بانتظام ، ومن الذين يتناولون مساعدة خاصة عند اللزوم ، وكذلك من عدد من المتطوعين يهرعون للقتال من تلقاء أنفسهم ، ويتحملون نفقة سلاحهم وركائبهم ، ولا يأخذون شيئاً من بيت المال ، إلا ما ينالونه من

الغنائم الحربية . أي انه بقي عدد من الناس لا يطمعون من وراء الحرب في مغنم دنيوي ، بل كان غرضهم نيل شرف الخدمة في سبيل الله .

عدد أفراد الجيش

يُقَدَّر عدد أفراد الجيش الاسلامي في معركة أحد بألف محارب ، وعدده في سرية مؤتة بثلاثة آلاف ، وفي عهد الفتوح في أيام الخلفاء الراشدين بنحو أربعين ألفاً . أما في زمن بني أمية فقد بلغ من القوة والعدد حداً بعيداً . وللتدليل على ذلك ، أذكر مثالين من أواخر حكم الأمويين . فقد أرسل مروان آخِرُ بني أمية ثمانين ألفاً لإخماد ثورة في الحجاز ، أي أن القوة هذه ، كانت ضعفي ما كان عند الخلفاء الراشدين من قوة . . ويقدر المؤرخون عدد الجيش الذي حشده الأمويون في معركتهم الأخيرة مع بني العباس ، بنحو مئة وخمسين ألفاً ، معظمهم من أبناء القبائل العربية في سوريا .

من هنا يظهر التطور السريع الذي تم في تكوين الجيوش الاسلامية ، إذ في مدة مئة سنة (من وفاة الرسول إلى أواخر حكم بني أمية) زاد عدد الجيوش زيادة كبيرة ، من نحو ألف رجل في أحد ، إلى عشرات الألوف في معركة الزّاب ، بين بني أمية وبني العباس ، ودخل أيضاً في تكوين الجيوش ،

مظاهر جديدة من جهة النفقة والتنظيم والسلاح ، وظهرت أسباب جديدة للحرب ، غير الدفاع عن الدين والدعوة إليه ، مثل قمع الفتن الداخلية ، والنزاع الدنيوي على السلطة .

للدفاع عن الدين

تعدُّ غزوات الرسول (صلعم) بَدْأً للأنظمة الحربية في الاسلام ، منها نشأت فكرة الدفاع عن الدين والدعوة إليه ، ومنها تطورت إلى فتح وتوسع في زمن الخلفاء الراشدين وبني أمية . ويمكننا أن نقول أن الجيش الاسلامي ، كان في أساسه عربياً بحتاً في أثناء هذا الدوز ، أي القرن الأول من تاريخ الاسلام ، ويعد انتهاء الدور الأموي ، انتهاء للدور الأول في تاريخ الجيش ، إذ حدث بظهور بني العباس ، ما يشبه الانقلاب ، لا التطور في هذا الباب .

الجيش الاسلامي ـ الجيش العربي

سنتناول هنا بحث النظم العسكرية الاسلامية ، منذ إبتداء حكم بني العباس ، والاشارة إلى الانقلاب السريع الذي تم في تكوين الجيوش وأنظمتها وأغراضها ، ودرس بعض نواحي هذا الانقلاب ومعانيه .

يقول الطبري ، أن جيش الخلفاء الأولين من بني العباس ،

كان معظمه من قبائل خراسان . . كان أبو مسلم يجمع الجنود ويستبقيهم على الإخلاص والولاء ، بما كان يصرفه لهم من العطاء بين حين وآخر . ويقول الطبري أيضاً ، أن الجنود الذي جمعهم أبو مسلم ، ولاقى بهم جيوش بني أمية في معركة الزّاب ، كان عددهم عشرين ألفاً . . وظلت قوة بني العباس الحربية تعتمد على خراسان نحو قرن ، في أثنائه قاموا بعدة حملات على الدولة البيزنطية ، وأخذوا على عاتقهم حفظ النظام الداخلي وحراسة الخليفة .

العرب قوام الجيش

ومع هذا ، فجيش بني العباس في القرن الأول من حكمهم ، لم يكن كله خراسانياً . . ففي زمن المنصور دخل عدد كبير من العرب من أنصار بني أمية في الجيش ، كما دخل فيه أيضاً عدد كبير من أبناء قبائل العرب المشهورة ، كمضر وربيعة . ويذكر على سبيل المثال ، أن عدداً من أبناء القبائل العربية في العراق وسوريا ، انتظم في حملةٍ بحرية على الهند ، وأنّ الأمين جمع جيشاً من عرب سوريا ، يوم نشبت الحرب بينه وبين أخيه المأمون .

كان الجيش الاسلامي عربياً بحتاً في عهد الرسول ، وخلفائه الراشدين ، ومعظم أيام بني أمية . صحيحٌ أنه دخل بعض الموالي في جيش بني أمية في أواخر عهدهم ، ولكن

الجيش بقي عربياً بكثرته ، وروحه ، وتقاليده . لكنه لا يصح أن نطلق هذه الصفة على الدور الأول من حكم بني العباس . فالجيش كان اسلامياً خُراسانياً لا عربياً ، مع أن جمهوراً من العرب دخل في صفوفه . ولم يقف الأمر عند حد كون جيش بني العباس خراسانياً في أساسه ، إذ لم ينقض القرن الأول من حكم بني العباس ، حتى حدث انقلاب آخر في نظام الجيش في خلافة المعتصم .

الترك والجيش العباسي

تذكر بعض كتب التاريخ ، أن دخول الترك في الجيش العباسي ، حدث فجأة في زمن المعتصم . . لكن الحقيقة ، أن هذا الأمر كان بعد مدة قصيرة من التطور التدريجي في هذه الناحية . فالثابت أن بعض الجنود الأتراك المستأجرين حاربوا مع (اللَّيْث بن رافع) ضد المأمون ، وحارب غيرهم من بخاريَ وخوارزم مع المأمون ضد أخيه الأمين .

فالجنود الأتراك كانوا طبقة من المرتزقة ، تحارب مع كل من يعطيها المال والهدايا والامتيازات . ولم يكن هؤلاء كلهم من عنصر تركي صحيح ، بل كان هذا الإسم يشمل عدة عناصر من بلاد مختلفة . فلما جاء المعتصم وشعر بما كان يدبره الفرس من المؤامرات ، لجأ إلى هؤلاء الأتراك ، وألَّف منهم

جيشه ، وأدخل فيه عناصر من فرغانة ومصر والمغرب . ومما يدلنا على اعتماده التام عليهم أنه وكل إليهم اكتساح آسيا الصغرى وحصار عمورية المشهور .

معنويات الجيش

ومن الوسائل التي لجأ إليها المعتصم لإيجاد المال لجنوده ، أنه منع عطاء الجنود العرب بمصر ، فخلت تلك البلاد منهم ، إلى عهد أحمد بن طولون . وصارت المرتبات المخصصة للجنود الأتراك ، من أهم مشكلات الدولة العباسية . وكاد دفع هذه المرتبات ، يستنزف خزانة الدولة من زمن المتوكل ، وجرّ عليه وعلى الذين خلفوه البلاء والثورات .. وكثيراً ما كان يلجأ الخلفاء إلى منح القطائع لرؤساء الجنود ، وأشهر مثال يمكن أن يقدم على ذلك ، إقطاع بعض الأراضي في مصر لأحد قواد الترك ، وهذا بدوره ، عيّن عليها مديراً اسمه أحمد بن طولون ، وهو الذي استأثر بالأملاك بعد موت سيده ، وتمكن من حكم جميع مصر بعدئذٍ .

شهدنا في ما تقدم ، تأسيس جيش دائم ، وتخصيص المرتبات لأفراده ، واعتماد الخليفة على عناصر ليست عربية ، وكانت حديثة عهدٍ بالإسلام . وقد كان هذا مع غيره من العوامل التي أوقعت العباسيين في مأزق حرج ، وعرّض

سلطان العرب ومكانة الاسلام لأخطار الفوضى والانقلاب فقتل الخلفاء ونهب المدن وتخريب القرى ، شواهد عليه ، ردَّدتها كتب التاريخ في كل سنة من سنوات هذا العهد . وللبرهان على سوء نظام الجند من وجهةٍ عسكرية ، وعدم اتصافهم بالشجاعة والايمان نذكر مثالين : أحدهما ـ انه لم يقم جيش الدولة هذا بحملات لحمايتها أو لتوسيع حدودها ، مع أن عدد الجنود المسجلين في ديوان العـطاء لتناول المرتبات ، كان مئة ألف في زمن المهدي . والآخر ـ أن القرامطة يوم هجموا على بغداد ، كان عددهم ثلاثة آلاف أو يزيد قليلاً ، فلاقاهم ما لا يقل عن ثمانين ألفاً من جيش الخليفة . . ومع ذلك فقد غلب هذا الجيش الجرار ، لفقدان الروح المعنوية ، ولعدم كفاية قيادته . .

النظام في الجيش

ويمكن الاشارة هنا إلى ناحية مهمة من نواحي هذا البحث ، وهي النظام في الجيش ، في أيام عزِّ الخلافة وسلطانها . لم يكن الخليفة إلاَّ قائداً عاماً وآمراً مطاعاً . وأن الذي يتصفح كتب التاريخ العربي يجد مادة كافية لإقناعه بحسن نظام الجيوش وإدارتها في ذلك الزمن . وقد كان كلُّ شيء منوطاً بما يسمى (ديوان الجيش) أو (وزارة الدفاع) بلغة هذا الزمان .

كان ديوان الجيش هو المسؤول عن جمع الجند ، ودفع مرتباتهم ، وإدارة شؤونهم العامة ، وإصدار الأنظمة لهم ، وكان الخليفة أو وزيره يقوم بذلك ، فهو الذي يعلن الحرب ، وهو الذي يوافق على إعلان انتهائها . بإسمه يعمل القواد ، ومنه يتلقون الأوامر . وفي الأيام الأولى كان يقود الجيوش بنفسه ، يتبعه حرسه الخاص . وكان حرس الخليفة يؤلف قسماً مهماً من الجيش ، لأن عدد أفراده كان يزداد حين إعلان الحرب ، بما كان ينضمُّ إليه من أبناء القبائل ، يعمل كلٌّ في المعركة تحت لواء رئيس من قبيلته .

نهاية النظام الموحد

يمكن اعتبار أول المئة الثالثة للهجرة ، نهاية لنظام موحد لجيش اسلامي عربي ، يأمره الخليفة ، ويسوقه في سبيل إعلاء شأن الإسلام والعرب . أي أن الجيش قد عُمِّر ما يقرب من قرنين فقط . في القرن الأول كان عربياً ثم إسلامياً ، وفي القرن الثاني كان إسلامياً ثم عربياً . وبعد هذا الزمن أي بعد سنة ٢١٨ للهجرة (وهي سنة تولّي المعتصم) ينفرط عقد النظام وتشيع الفوضى ، ويصبح البحث في الجيش ، بحثاً في عدة جيوش ، لا رابطة عنصرية أو دينية تربطها ، ولا جامعة هدف أو غاية تجمعها .

لكن الباحث يلاحظ في هذا الظلام الدامس ، بصيصاً من

النور الاسلامي والحماسة العربية . فكان في العالم الاسلامي دائماً رجال مؤمنون ، يجيئون لنصرة الدين والدولة كلما داهمها الخطر . كان الجيش الاسلامي كله متطوعاً في عهد الرسول وخلفائه الأولين ، وكان فيه عدد كبير من المتطوعة في عهد بني أمية ، وزاد عدد هؤلاء في زمن بني العباس ، وكان هؤلاء المتطوعة ، كلما داهم الاسلام خطر خارجي من جانب بيزنطية . يحمون الثغور على الحدود ويحملون على الروم حملات صادقة من تلقاء أنفسهم ، ولا يحملون جيش الخليفة مؤونة القيام بذلك . ولم يقتصر ذلك على المسلمين المتاخمين لبيزنطية ، بل كان المتطوعون يجيئون من كل البلاد عند إعلان النفير ، لنجدة إخوانهم في الثغور ، وحماية البلاد برد العدوان عنها ، ومقابلة الغزو بغزو أشد منه هولاً وأبقى أثراً .

الروح العصبية في الجيش

يظهر لكل من يتدبّر تاريخ النُّظُم العسكرية الاسلامية ، أن مدة الازدهار كانت قصيرة ، ويمكن إجمال هذا التاريخ بكلمات قليلة . عُمِّرَ جيش الخلافة مدة تقرب من قرنين . ففي القرن الأول كان عربياً ثم إسلامياً . وفي القرن الثاني كان إسلامياً ثم عربياً . هذا كله من جهة العناصر التي تكون منها الجيش ، لا من جهة الروح التي كانت تشيع في أقسامه ، فهي

إسلامية في زمن الرسول وخلفائه الأولين . عصبية عربية في زمن بني أمية . عصبية إسلامية في صدر بني العباس . وأخيراً عصبية فوضى ، لا هي إسلامية ولا هي عربية ، في الأدوار التالية من حكم بني العباس . ثم جاء عصر بني بُوَيْه ، وسلطة هؤلاء كما هو معلوم كانت مستمدة من قوتهم الحربية ، وقوتهم الحربية كانت تعتمد على قبائل الدَّيْلَم التي تحارب لأجل الغنائم ، فينضم إلى جموعها أفراد من أبناء البلاد المقهورة ، مدفوعين إلى ذلك بحب المال والرغبة في النهب .

بنو بُوَيْه والسلجوقيون

وبعد بني بُوَيْه ، يجيء دور السلجوقيين ، ويدخل تاريخ الجيوش الاسلامية المختلفة بذلك في دور جديد ، تزداد في أثنائه الفوضى ويشيع التنافس على السلطان ، وتكاد تمحى كل صفة عسكرية كان يتصف بها الخليفة . فالجيوش لم تكن إسلامية في إسمها ولا في أغراضها ، إلاّ في بعض الأحيان ، كحرب مع الدولة البيزنطية ، أو رد لغارة صليبية .

يذكر الوزير نظام المُلْك في كتابه (سياسة نامه) وهو كتاب يبحث في الحكومة ، أن الجيش يجب أن يؤلف من أمم مختلفة ، لكل أمة وحدة منه مستقلة عن الوحدة الأخرى . ويقول الوزير أن هذا الترتيب ، يمنع حدوث ثورة أو فوضى .

ويقول أيضاً أن الحرس الخاص بالملك أو الخليفة ؛ يجب أن يتكون من الدَّيْلم والخُزاسانيين وغيرهم من الأمم الأعجمية . فإذا قيس هذا الكلام بميزان ذلك العصر ، وُجِدَ أنه مستمد من العرف والعادة ، فهو صورة لما كانت عليه الحالة في الدول الاسلامية وجيوشها ، فجيش محمود الغزنوي مثلاً ، كان مؤلفاً من الترك والخراسانيين والعرب والديلم والهنود وغيرهم . وكان لكل أمة أو عنصر ، وحدة جيش خاصة بها ، تحارب هذه الوحدة في موضع خاص ، منفصلة عن غيرها ، تحت قيادة رئيس من أبنائها ، ولا تربط الوحدات المختلفة ، رابطة نظام عملي بقائد عام معروف . ولن نسترسل في البحث بعد هذا الدور ، وبذلك نكون قد وصلنا بالبحث إلى أول القرن الحادي عشر للميلاد . ونبحث الآن بدلاً من تاريخ الجيش بعد ذلك القرن ، في بعض نظم الجيش وتركيبه وتدريبه وأسلحته .

قيادة الجيش

ومن المباحث المهمة في هذه الناحية ، مسألة القيادة . كان الخليفة يحسب القائد الأعلى للجيش ، يعمل بذلك عمل النبي (صلعم) لما كان على قيد الحياة . وكان الخليفة ، أي القائد العام ، يعين قواداً للجيش ، قد يكون بعضهم من أقربائه أو أبنائه ، ولكنه كان يشترط فيهم قبل كل شيء الخِبْرَة الواسعة

في أمور الحرب . وهؤلاء القواد كانوا بدورهم يعينون الضباط المجربين .

يُعزى إلى عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إنشاء نظام الجيش ، كما يعزى إليه إنشاء كثير من الأنظمة السياسية والمالية والادارية في الدولة الاسلامية . والحقيقة أن عظمة هذا الرجل تزداد كلما زاد علمنا بتاريخ أنظمة الدولة الاسلامية ، ولا يمكن أن يكون هذا الإجماع على إرجاع أساس معظم النظم الاسلامية إليه عبثاً لا يقوم على أساس حق . فهذا مثل غيره يدلنا على عظمة عمر وفضله على الاسلام .

تنظيم الجيش

كتب ، رضي الله عنه ، إلى قائد جيشه في القادسية : أن يقسمه إلى عشرة أقسام ، وأن يعين له (العرفاء) و (الأمراء) وأن يسيره بحسب قوانين (التعبئة) على الوجه الآتي : ـ كل عشرة جنود يؤلفون وحدة (تسمى عرافة) ورئيسها (عريف) . وكل عدد معين من (العرافات) عليه (قائد) . والجيش كله عليه (أمير) ـ هو القائد العام بلغة هذا الزمان .

يذكر الطبريُّ أنه كان يرافق الجيش بالاضافة إلى شيوخ القبائل على رأس رجالهم المحاربين : عدد من حاملي

اللواء ، وعدد من الأطباء ، (وقاضٍ) عمله توزيع الغنائم الحربية ، (وداعية) عمله يشبه عملَ المحامي في عرض قضايا الناس ، (ورائدٌ) عمله اختيار أماكن الاقامة للجنود ، (ومترجم) عمله واضح ، (وكاتب) لتسجيل الوقائع وكتابة الرسائل .

الاستراتيجية الحربية

لا يجد الباحث كثيراً من التفاصيل عن تدريب الجيش . إلاّ أنه يمكن قسمة المحاربين إلى قسمين من هذه الجهة : وهما المحاربون من أبناء القبائل العربية ، وهؤلاء كانوا يحاربون بحسب ما تعوّدوه من كرٍّ وفرٍّ في غزواتهم ، ولم تكن هناك حاجة لتدريبهم تدريباً خاصاً . وحرس الخليفة الذين كانوا من أهم أقسام الجيش في العصور التالية . هؤلاء كانوا يدربون ويمرنون بكل دقة واتقان .

وكانت التعبئة بهذه الصورة : (١) القلب وهو مكوَّن من الجيش الذي يقوده الأمير . (٢) الجناح الأيمن . (٣) الجناح الأيسر وفيهما القواد . (٤) وأمام القلب تماماً تكون (المقدمة) وعليها قائدها ولها علمها . (٥) أما الساقة فهي في المؤخرة لحماية الجيش وللعناية بالذخيرة والمؤونة . فالتعبئة بهذه الصورة كانت بهيئة خطين متقابلين ، لكنه كان يرافق مثل هـذه

الجيوش ، جنود مسلحـون خفاف منفصلون عن التعبئـة الأساسية ، ويعرفون بإسم (المجرَّدة) ، وكذلك فرق تسمى (الطلائع) .

إن من يدقّق في هذه الأسماء ووظائف القائمين بها ، ليعجب كيف أن أهل ذلك الزمن ، كانوا يهتمون هذا الاهتمام الظاهر بسرعة الحركة والخفة بالسلاح وتأمين مؤخرة الجيش ، اهتمام أهل العصور الحديثة بها .

كانت طريقة التعبئة التي أشرنا إليها الآن ، متبعة منذ أيام النبي (صلعم) . ويـرجع بعض النجـاح الذي صـادفه (صلعم) بعد قوة إيمانه بالله وتفاني أعوانه في سبيله - إلى هذه التعبئة خصوصاً ، لأن قبائل قريش ، كانت تحارب بلا نظام معروف .

الكرّ والفـرّ

كانت طريقة الكَرّ والفَرّ (الهجوم والتراجع السريع على التعاقبُ) أحبَّ الطرق إلى العربي في الحرب عند ظهور الاسلام . وقد سار عليها المهاجرون والأنصار في تصديهم لقوافل قريش . . يلتقي الرجال فيتبادلون الرمي بالسهام ، ثم يتراجعون دون أن يصيبهم أو يصيب أعداءهم ضرر كبير . ولكن الرسول (صلعم) أدخل نظام التعبئة لأول مرة في معركة بَدْر ، فنجحت نجاحاً كبيراً .

وظلَّ نظام التعبئة معمولاً به ، مع قليل جداً من التغيير ، في كل عصور الفتوح الاسلامية ، وقد طرأ عليه نظام الفرسان ، ففي معركة بدر ، لم يكن سوى فارس واحد . أما في اليرموك فكان معظم المحاربين من الفرسان . وهذا التغيير تمَّ في نحو عشر سنوات . أما بنو أمية فكان جيشهم يحارب بالمشاة يساعدهم الفرسان ، حتى إذا جاء بنو العباس ، قَلَّ استخدام المشاة وفشا استخدام الفرسان إلى حدٍّ كبير . ومن الأمور التي تستوجب الإعجاب ، تلك السهولة التي كان الفارس ينقلب فيها راجلاً في الحرب ، إذا كانت طبيعية الأرض لا تمكّن الخيل من السير ، أو إذا دَعَت الضرورة الحربية إلى ذلك . وقد ذكر الطبري مثلاً على ذلك ، أن فرسان بني العباس ترجلوا في معركة الزاب لمقابلة رجال بني أمية ، وقد التحم الفريقان بالنبال .

الكراديس

ومن الأنظمة الجديدة التي طرأت على الحرب ، نشوء ما يسمى بالكراديس (مفردها ـ كُردوس ، من فعل كَرْدَسَ أي جَمَعَ) . ويعزو بعض المؤرخين نشوء هذا النظام إلى خالد بن الوليد ، وبعضهم يعزوه إلى مروان آخر خلفاء بني أمية . ويتكون الكردوس من نحو أربعين رجلاً . وتقول كتب التاريخ ، أن خالد بن الوليد ، قسم كل وحدة من جيش العرب

في اليرموك إلى كراديس ، لما رأى الروم يهاجمون وهم مقسمون على تلك الصورة . وقد نجح عمله هذا نجاحاً باهراً ، جعل العرب يدخلون نظام الكراديس في أصول التعبئة الحربية ، وأصبح كلّ قسمٍ من أقسام الجيش الخمسة (المقدمة والقلب والجناح الأيمن والجناح الأيسر والساقة) ـ مقسماً إلى كراديس مرنة الحركة سريعتها . أما أقسام الجيش الخمسة الأساسية فبقيت على حالها ، ولكنها اكتسبت بإدخال نظام الكراديس عليها ، مرونة في الحركة ، وشدة فاعلية عند الشروع في القتال .

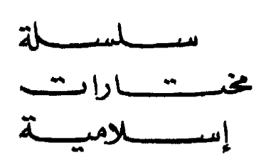
سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أعياد وتواريخ إسلامية

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

أعياد وتواريخ إسلاميّة

دار الفكر اللبناني

بسم الله الرحمن الرحيم

« لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ »

صدق الله العظيم

الهـلال

الهلال يظهر .

اليوم أول الشهر .

الهلال يظهر اثنتي عشرة مرة في السنة .

ولهذا نقول إن في السنة إثني عشر شهراً .

أسماء هذه الأشهر عشر هي :

محرم ،
صفر ،
ربيع الأول ،
ربيع الثاني ،
جمادي الأولى ،
جمادي الآخرة ،
رجب ،
شعبان ،

رمضان ،
شوال ،
ذو القعدة ،
ذو الحجة .

هذه الشهور الإثنا عشر نسميها السنة الهجرية .

ولنا في السنة الهجرية أعياد كثيرة ، ومواسم عديدة .

ونحن نحتفل بهذه المواسم والأعياد .

ولكننا ننسى أصلها ،
وننسى الأحداث التي وقعت فيها ،

وننسى المعاني التي تدل عليها .

ننسى ذلك كله ، ولا نذكر إلّا راحة العطلة ، ولذة الطعام ، وبهاء الزينة ، وجمال الموكب .

هذه الأعياد والمواسم يجب أن تذكرنا بجهاد آبائنا وأجدادنا .

يجب أن تذكرنا بالمعاني التي كافحوا من أجلها .

يجب أن تذكرنا بالمحن التي مرّوا بها ،

يجب أن تذكرنا بالتضحيات التي بذلوها ،

يجب أن تذكرنا بماضينا لنستمد منه القوة لحاضرنا ، والأمل في مستقبلنا .

يجب أن تذكرنا بأن أجدادنا سلّموا لنا الدنيا خيراً مما تسلموها من آبائهم .

ونحن يجب أن نسلمها لأولادنا خيراً مما تسلمناها منهم .

رأس السنة الهجرية

ورأس السنة الهجرية عيد من أهم أعيادنا .

عيد يذكرنا بالنبي محمد ﷺ ، حين قام في مكة يدعو الناس إلى ترك عبادة الأصنام وإلى الإيمان بإله واحد ، ولكن الناس رفضوا أن يستمعوا لدعوته ، وأخذوا يحاربونه ويعتدون عليه .

وتحمل النبي كل هذا ، ومضى يدعوهم إلى الحق ومكارم الأخلاق .

وأخيراً ضاقوا به وأخذوا يفكرون في التخلص منه .

ودبروا مؤامرة لقتله في بيته .

فأمره الله أن يترك مكة ويهاجر إلى المدينة ، ففعل .

وفي نفس الليلة التي حددها الكفار لقتله ترك بيته وأهله

وأصحابه ، وسار قاصداً إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق .

وهجم الكفار على بيت الرسول ، ولكنهم لم يجدوه .

فجن جنونهم ، وخرجوا يبحثون عنه .

بحثوا عنه في السهول ،

بحثوا عنه في الجبال ،

بحثوا عنه في الكهوف ،

بحثوا عنه في كل مكان .

ولكن الله نجاه ووصل إلى المدينة بأمان .

وصل الرسول إلى المدينة ، ومعه صديقه أبو بكر .

واستقبلهما أهل المدينة بالفرح وهم يغنون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحباً يا خير داع

هذا هو يوم الهجرة .

يجب أن نذكره دائماً ونحتفل به .

يجب أن نذكره ونذكر معه جهاد النبي وأصحابه .

يجب أن نذكر الاضطهاد الذي تحملوه ، والأموال التي تركوها ، والأهل والأولاد الذين هجروهم .

يجب أن نذكر أن الأذى لم يؤثر فيهم ، وأن العدوان لم يضعفهم ، وأن فراق الأهل والأولاد لم يغير عزيمتهم .

إنهم كانوا يعملون بعقيدة ثابتة وإيمان قوي ليجعلوا حياتهم وحياة أولادهم أسعد وأفضل .

عاشوراء

أول شهر في السنة الهجرية هو شهر المحرم .

كان العرب يحرمون القتال فيه ؛ ولذلك سموه المحرم .

وفي العاشر من هذا الشهر نحتفل بيوم عاشوراء .

فنصنع طعاماً مخصوصاً ، وندعو الله أن ينصر الحق ، ويزيد الخير ..

وفي هذا اليوم يحتفل كثير من المسلمين بذكرى الإمام الحسين بن علي .

كان أنصار أبيه في العراق قد دعوه إلى الحضور ليقودهم في المطالبة بإقامة العدل وإحقاق الحق . فأخذ أهله وأولاده وسافر

بهم إلى هناك . وعلى الحدود تعرض له جنود يزيد بن معاوية وأرغموه على القتال . فقاتل حتى مات .

مولد النبي

بعد المحرم يأتي شهر صفر ،

وبعده شهر ربيع الأول .

وفي هذا الشهر نحتفل بمولد النبي .

فتنور المآذن في الليل ،

وتقام الاحتفالات الدينية ،

وتظهر العرائس واللعب في الدكاكين ،

وتطوف المواكب في القرى ،

ويستمع المسلمون إلى تلاوة القرآن ، وإلى قصة الرسول عليه السلام .

فيذكرون كيف كان قائدهم مثالاً للصدق ، والأمانة ، والعفة ، والجهاد في سبيل العقيدة والرأي .

ليلتان مباركتان

وتمر الأشهر واحداً بعد واحد :

شهر ربيع الآخر ،

فشهر جمادي الأول ،

فشهر جمادي الآخرة ،

حتى يأتي شهر رجب .

وفي ليلة السابع والعشرين من رجب يحتفل المسلمون بليلة مباركة ، هي ليلة الإسراء .

فيوسعون على أنفسهم ، وعلى عيالهم ،

ويشكرون الله على ما أنعم به عليهم ، ويحمدونه على ما كرم به نبيهم وقائدهم :

« سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

وبعد رجب يأتي شعبان .

وفيه يحتفل المسلمون بليلة أخرى ، هي ليلة النصف من شعبان .

إنها أيضاً ليلة مباركة ،

يجتمع فيها المسلمون في المساجد والجوامع ، ويتجهون بقلوبهم إلى الله ،

يصلون ويبتهلون ،

ويطلبون العفو والرحمة والمغفرة .

إنها ليلة تذكر بضعف المخلوق أمام الخالق .

العيد الصغير

ثم يجيء شهر رمضان ،

شهر الصوم والعبادة ،

شهر الصبر وتربية العزيمة ،

شهر البر والعطف والرحمة ،

شهر الزكاة والصدقات .

في هذا الشهر يصوم المسلمون عن كل ما يغضب الله ، ويتلون القرآن ويفكرون فيما أمرهم به ،

ويتبادلون الزيارات ،

ويتصدقون على الفقراء .

ليلة القدر

وفي هذا الشهر يحتفل المسلمون بليلة القدر .

فيقضون الليل في الصلاة ،

ويدعون الله أن يحقق مطالبهم .

فليلة القدر خير من ألف شهر ،

تنزل الملائكة والروح فيها ،

بإذن ربهم من كل أمر ،

سلام هي حتى مطلع الفجر .

عيد الفطر

وعندما ينتهي رمضان يأتي شوال بالعيد ، عيد الفطر أو العيد الصغير .

وفيه يتبادل المسلمون التهاني ،

ويزور بعضهم بعضاً

فيجب أن نذكره دائماً ،

يجب أن نذكر معه فقراءنا بالبر والإحسان ، ويجب أن نذكر

معه أهلنا وأصدقاءنا وجيراننا وأهل بلدنا .

يجب أن نذكرهم بالمودة والرحمة والأخوة ؛ فديننا أمرنا بذلك .

وبعده شوال يأتي شهر ذي القعدة .

وفي شهر ذي القعدة يستعد الحجاج لحج بيت الله .

فيجهزون ملابسهم ،

ويحصلون على الإذن بالسفر ،

ويحصنون أنفسهم من الأمراض ،

ويحجزون أماكنهم للسفر .

وبعضهم يسافر بالطائرة ،

وبعضهم يسافر بالباخرة .

وعند السفر يخرج أهلهم وأصدقاؤهم لوداعهم ، يسألونهم الدعوات .

العيد الكبير

آخر شهر في السنة هو شهر ذي الحجة .

فيه يجتمع المسلمون من كل الدنيا .

يجتمعون كلهم في مكة ،

ويقفون على جبل عرفات ،

لا فرق بين عربي وأعجمي ،

لا فرق بين غني وفقير ،

لا فرق بين عظيم وحقير .

كلهم متساوون أمام الله ،

وكلهم يدعون الله أن يغفر لهم ، وأن ينشر الأمن والسلام على المسلمين .

وبعد وقفة عرفات بيوم .

يجيء العيد الكبير أو عيد الأضحى .

ويحتفل المسلمون بهذا العيد في الدنيا كلها .

فيذبحون الأضاحي ، ويذكرون سيدنا إبراهيم .

أراد الله أن يمتحن إيمان إبراهيم ،

فطلب منه أن يذبح إبنه قرباناً لله .

فاستشار إبراهيم إبنه فقال له :

« يا أبت إفعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .

ولما رفع إبراهيم يده ليذبح إبنه أرسل الله له كبشاً عظيماً افتدى به إسماعيل .

فلنحتفل جميعاً بهذا العيد .

لنذكر آبائنا وأمهاتنا ،

ولنعمل على كسب حبهم ورضاهم ،

لنذكر فقراءنا وضعافنا ،

ولنعمل على مساعدتهم والعطف عليهم .

لنذكر أهلنا وأصدقاءنا ،

ولنعمل على مودتهم .

ولندخل السرور على صغارنا وكبارنا .

هذه أعيادنا ومواسمنا الدينية .

وكل شهر يمر يذكرنا بيوم من أيام الإسلام .

ولكل يوم شأن عظيم في الإسلام .

التاريخ الهجري

الهجرة هي هجرة النبي من مكة إلى يثرب التي سُمِّيَت من ثم المدينة . وقد هاجر مع النبي أتباعه فَسَمُّوا بالمهاجرين . ومنها بدء التاريخ الإسلامي أو الهجري . وأوله ١٥ أو ١٦ تموز سنة ٦٢٢ .

الأنصار هم رجال المدينة الذين قبلوا النبي بعد هجرته من مكة وناصروه على أعدائه .

أشهر السنة الهجرية أو القمرية .

١ محرّم	٣٠ يوماً
٢ صفر	٢٩ يوماً
٣ ربيع الأول	٣٠ يوماً
٤ ربيع الثاني	٢٩ يوماً
٥ جمادي الأولى	٣٠ يوماً
٦ جمادي الآخرة	٢٩ يوماً
٧ رجب	٣٠ يوماً
شعبان	٢٩ يوماً
٩ رمضان	٣٠ يوماً
١٠ شوال	٢٩ يوماً

١١ ذو القعدة	٣٠ يوماً
١٢ ذو الحجة	٢٩ يوماً

الخلفاء الراشدون

أبو بكر الصديق	٦٣٢ - ٦٣٤ م
عُمَر بن الخطاب	٦٣٤ - ٦٤٤ م
عثمان بن عفان	٦٤٤ - ٦٥٦ م
علي بن أبي طالب	٦٥٦ - ٦٦١ م

الخلفاء الأمويون ٦٦٠ - ٧٥٠

معاوية بن أبي سفيان	٦٦٠ - ٦٨٠ م
يزيد بن معاوية	٦٨٠ - ٦٨٣ م
مروان بن الحكم	٦٨٣ - ٦٨٥ م
عبد الملك بن مروان	٦٨٥ - ٧٠٥ م
الوليد بن عبد الملك	٧٠٥ - ٧١٥ م
سليمان بن عبد الملك .	٧١٥ - ٧١٧ م
عُمَر بن عبد العزيز	٧١٧ - ٧٢٠ م
يزيد الثاني بن عبد الملك	٧٢٠ - ٧٢٤ م

هشام بن عبد الملك	٧٢٤ - ٧٤٣ م
الوليد الثاني بن يزيد الثاني	٧٤٣ م
يزيد الثالث بن الوليد بن عبد الملك	٧٤٤ م
إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	٧٤٤ م
مروان الثاني بن محمد بن مروان	٧٤٤ - ٧٥٠ م

ولما قضى العباسيون على بني أمية في الشرق وانتزعوا منهم الخلافة وأعملوا فيهم السيف نجا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وهرب إلى الأندلس فأقام فيها الدولة الأموية بين ٧٥٦ و ١٠٣١ بعد أن جعلوا قرطبة عاصمة لهم . وعددهم ستة عشرة . أشهرهم عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل (٧٥٦ - ٧٨٨) عبد الرحمن الثالث الناصر (٩١٢ - ٩٦١) اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين وهو من أكبر ملوك القرون الوسطى .

الخلفاء العباسيون ٧٥٠ - ١٢٥٨

أبو العباس السفاح	٧٥٠ م
أبو جعفر المنصور	٧٥٤ م
المهدي بن المنصور	٧٧٥ م
الهادي بن المهدي	٧٨٥ م

هارون الرشيد بن الهادي	٧٨٦ م
الأمين بن الرشيد	٨٠٩ م
المأمون بن الرشيد	٨١٣ م
المعتصم بن الرشيد	٨٣٣ م
الواثق	٨٤٢ م
المتوكل	٨٤٧ م
المنتصر	٨٦١ م
المستعين	٨٦٢ م
المعتز	٨٦٥ م
المهتدي	٨٦٩ م
المعتمد	٨٧٠ م
المعتضد	٨٩٢ م
المكتفي	٩٠٠ م
المقتدر	٩٠٨ م
القاهر	٩٣٢ م
الراضي	٩٣٤ م
المتقي	٩٤٠ م
المستكفي	٩٤٤ م
المطيع	٩٤٦ م
الطائع	٩٧٤ م
القادر	٩٩١ م

القائم	١٠٣١ م
المقتدي	١٠٧٥ م
المستظهر	١٠٩٤ م
المسترشد	١١١٨ م
الراشد	١١٣٥ م
المقتفي	١١٣٦ م
المستنجد	١١٤٦ م
المستضيء	١١٧٠ م
الناصر	١١٨٠ م
الظاهر	١٢٢٥ م
المستنصر	١٢٢٦ م
المستعصم	١٢٤٢ م

وهو آخر الخلفاء العباسيين قتله هولاكو .

الدينار والدرهم

الدينار لفظة يونانيّة لاتينيّة معربة تدلّ على نقد من ذهب ضربه الملك أو الأمير . وكان الدينار البيزنطي يصل عرب الحجاز قبل الاسلام ومن بعده وبه يتعاملون .

ثم عمد معاوية الخليفة الأموي إلى ضرب دينار عربي ،

على ما ذكر المقريزي ، لكن قطعة واحدة من ضربه لم تصل إلينا . وضرب عبد الملك بن مروان في سنة ٧٦ هـ . أول دينار وصل إلينا وهو يقلّد الدينار البيزنطي في صوره وقطعه ووزنه . ثم عمد إلى حذف الصور واكتفى بالكتابة . وفي دينار محفوظ منه نُقش على الوجه في المركز : « الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد . » وفي الطوق المحيط بالوجه : « بسم الله ضُرب هذا الدينر في سنة سبع وسبعين » .

ووزن الدينار العربي مثقال كما عند البيزنطي أي ٤,٢٦٥ غرام بتفاوت يسير بين الدنانير المحفوظة . وعيار الذهب فيه مرتفع غالباً ، بقدر ما كانت تنجح طرق تصفية الذهب . فمنه ما وُجد بعيار ٢١ من ٢٤ ضُرب في ١٠٤ هـ . ومنه ما وُجد باسم الرشيد بعيار ٢٣,٥ . وقطره قريب من عشرين مليمتراً .

وضرب العرب أيضاً إلى جانب الدنانير أنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً من الدينار . وكانوا في معاملاتهم يزنون الدنانير ولا يأخذون بعددها تحسباً من الغش في ثقلها ، وينقدونها : والنقد صنعة النقّاد الذي كان يعرف من لون الدينار ورنّته ومن حكّة عيار الذهب فيه . وكانت عشرة دنانير تكفي العائلة المتوسّطة الحال في الشهر الواحد أيام العباسيين .

الدرهم نقد من فضة . وكانت الدراهم ترد على العرب قبل

الإسلام من بلاد العجم والعراق الواقع آنئذ تحت الحكم العجمي .

ووزن الدرهم العربي سبعة أعشار الدينار أي ٢,٩٨٥ غرام . وكانت قيمة الذهب في بدء الاسلام ١٤ مثلاً من قيمة الفضة ، ثم تغيّرت النسبة مع الأيام دون أن تستقرّ . ويسمي العرب النقد الذهبي عيناً والنقد الفضي ورقاً .

اليوم أول الشهر

فجن جنونهم وخرجوا يبحثون عنه

ويستمع المسلمون إلى قصة الرسول

ويتصدقون على الفقراء

ويقفون على جبل عرفات

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
١ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

تأملات في الإسلام

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

تأملات في الإسلام

دار الفكر اللبناني

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنَّ في خَلْقِ السَّمَـواتِ وَالأرْض وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

صدق الله العظيم

على الله فليتوكل المؤمنون

الاسلام : « أن يسلم لله قلبك »، « الوحيد »: « أياك نعبد واياك نستعين »، اسلام الوجه لله ، وذلك يقتضي التوكل على الله كجزء لا يتجزأ من الاسلام .

ويتلون التوكل بحسب درجاته ويأخذ اسما تبعا لدرجته فيكون : توكلا ، ويكون « تسليما » ويكون « تفويضا ».

والتوكل بداية هذا المقام الروحي والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية ان كان للثقة في الله نهاية ومع ذلك فان كلمة « التوكل »، تطلق على كل درجاته ، وتستعمل في كل انواعه . وعلى هذا الوضع يامر سبحانه وتعالى به جاعلا منه صفة لا تنفك عن الايمان قائلا :

« وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » ويأمر سبحانه به امرا مطلقا كل مؤمن فيقول :
وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

واذا توكل الانسان على الله سبحانه فان ثمرة ذلك امران :
الامر الاول هو : حب الله له ، يقول سبحانه :
« ان الله يحب المتوكلين » .

والامر الثاني هو كفاية الله له ، يقول سبحانه :

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .

لقد سئل يحيي بن معاذ ـ وهو من ائمة الصوفية ـ: متى يكون الرجل متوكلا ؟

فقال : اذا رضي بالله تعالى وكيلا .

ويتحدث القرآن الكريم عن بعض الظروف التي ظهر فيها ان المؤمنين الصادقين هم الذين يتخذون الله وكيلا ، يقول سبحانه وتعالى عن المؤمنين في غزوة احد :

الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم : فزادهم ايمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

ماذا كانت النتيجة ، انها ما عبر الله سبحانه عنها بقوله :

« فانقلبو بنعمة من الله وفضل ، لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

من هم هؤلاء ؟ انهم :

الذين استجابوا الله والرسول من بعد ما اصابهم القرح » ما

هي قصتهم ! ان مشركي مكة لما أصابوا ما اصابوا من المسلمين يوم أحد أخذوا في العودة إلى مكة فلما استمروا في سيرهم ندموا : لِمَ لم يجهزوا على أهل المدينة ويجعلوها الفيصل ، وكان من كلامهم :

لا محمدا قتلتم ، ولا الكواعب اردفتم بئسما صنعتم ، ارجعوا .

وأرادوا العودة الى المدينة .

ولكن أبا سفيان لم ينسى يوم بدر ، ولم ينس ان الفئة القليلة يوم بدر غلبت ثلاثة امثالها مع وفرة العدة في الكثرة : فأحب اولا ان يعجم عود المسلمين ، وكان من المصادفات ان مر به ركب من عبد القيس ، فقال : اين تريدون ؟ ، قالوا نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ، قال : فهل انتم مبلغون عني محمدا رسالة ارسلكم بها اليه واحمل لكم هذه غدا زبيبا بعكاظ اذ وافيتمونا ، قالوا : نعم ، قال فاذا وافيتموه فاخبروه انا قد اجمعنا المسير اليه والى اصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بحمراء الاسد ، فاخبروه بالذي قال ابو سفيان واصحابه فقالوا ـ النبي وصحبه ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

قالوا : ذلك واستعدوا مباشرة للقتال من جديد : من كان مجروحا ضمد جرحه من جديد ، ومن كان قد كل سيفه احده ،

ومن كان امره متفرقا في نفسه او ماله اصبح امره جميعا . .
.واستعدوا لخوض المعركة بكل ما يملكون من وسائل وكان ابو سفيان ينتظر نتيجة الرسالة وما تحدثه من صدى :

ورجع واحد من وفد عبد القيس يقول لابي سفيان :

لقد رأيتهم كالاسد الموتورة عازمة على الاخذ بالثأر .

ولما سمع أبو سفيان ذلك أخذ في العودة إلى مكة طلباً للسلامة .

والتوكل اذن والمتوكلون يتخذون الاسباب ويستعدون كاكمل ما يكون الاستعداد وادق ما يكون الاستعداد .

ومن اجل ذلك يقول الامام التشيري ـ من ائمة الصوفية ـ:

واعلم ان التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد ان التقدير من قبل الله تعالى ، فان تعسر شيء فبتقديره ، وان اتفق شيء فبتيسيره .

التقدير من قبل الله تعالى : اذا آمن الانسان بذلك ـ ولا بد ان يؤمن به ـ فهو متوكل .

والان نسير مع السيرة النبوية الشريفة بعد غزوة احد لنصل الى غزوة الاحزاب فنرى الحق تبارك وتعالى يقول :

« ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم الا ايمانا وتسليما » .

لقد زادتهم رؤ ية الاحزاب ـ الجيوش الجرارة التي اتت لتهدم المدينة وتقتل من فيها ـ ايمانا وتسليما .

ماذا فعلوا ، لقد سهروا ليلا ، واقاموا نهارا من وراء الخندق يرقبون حركات العدو ويستعدون لكل شأن من شئونه ، لقد لبسوا دروعهم ، وتسلحوا بسيوفهم واقواسهم وسهامهم لقد احكموا كل امر من امور الحرب بحسب طاقتهم . . . ولكن الامر ، فيما يسلمون به ، الله كله : اليه يرجع الامر كله . . وما زادهم الا ايمانا وتسليما ، ايمانا قلبها وتسليما قلبيا . وان من الملاحظات التي لا تخفى على قارئى القرآن ان آية الاحزاب هذه يسبقها مباشرة قوله تعالى :

« لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثيرا » .

ولقد تابع المؤمنون الرسول ﷺ في توكله وأتبعوه مسلمين في استعداده وتأهبه ، لقد اتخذوه أسوة .

ويقول الامام سهل بن عبد الله ـ من ائمة التصوف ـ هذه الكلمات الجميلة حقا ، الصادقة حقا :

التوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سنته ، فمن بقى على حاله ، فلا يتركن سنته .

اما كيف عرف سهل نفسه التوكل ؟

فانه قال :

التوكل : الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

وهي كلمة نفيسة : الاسترسال مع الله على ما يريد في كل ما اراد سبحانه : في الجهاد في الضرب في الارض طلبا للمعرفة والعلم .

انه الاسترسال مع الله على ما يريد وهذا يقتضي ان يسكن الانسان الى النتائج بعد ان يكون قد اتخذ الاسباب بقدر طاقته .
ويقتضي امرا آهخر هو :
الابتعاد عن كل مالا يريد سبحانه :

وهذا التعريف لسهل رضي الله عنه يتناسق مع تعريف الامام حمدون القصار ـ من كبار الصوفية . حيث سئل عن التوكل فقال :

التوكل هو الاعتصام بالله تعالى . انه الاعتصام بالله تعالى في اتباع اوامره ، وهو الاعتصام بالله تعالى في اجتناب نواهيه ، وهو الاعتصام بالله تعالى في الحركة ، وهو الاعتصام بالله في النتائج اي السكون اليه في كل ذلك مع السكينة فيما يتعلق بالنتائج .

وقصة ثالثة يقصها القرآن الكريم : قصة رجل مؤمن صادق الايمان وقف ناصحا في وجه الطغيان والجبروت يدعو الى الله ويبشر بالتعاليم الصادقة وينذر ويهدد بعقاب في اسلوب قوي لا يخشى فيه لومة لائم : تلك هي قصة مؤمن آل فرعون الذي بعد ان نصح وبشر وانذر قال :

فستذكرون ما اقول لكم وافوض امري الى الله ان الله بصير بالعباد » .

وكانت النتيجة ما قصة الله تعالى بقوله :

« فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعـون سوء العذاب .

ومن كل ما تقدم ننتهي كما بأنا بأن التوكل جزء لا يتجزأ من الايمان والصورة المثلى جزء لا يتجزأ من الايمان والصورة المثلى فيه هي صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان امام المتوكلين وكان امام المناضلين ومن بعده صورة أبي بكر رضي الله عنه والصحابة الاجلاء الذين كانوا متوكلين وكانوا مناضلين في الحرب وفي التجارة وفي الزراعة .

وبعد فيقول الله تعالى : « ان الله يحب المتوكلين » .
ويقول سبحانه :

« وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا »■

الاسلام والعلم

بدأت الحضارة الاوربية الحديثة حينما اتجهت اوربا ـ في العلم ـ الى منهج التجربة والملاحظة والاستقراء ، وحدد هذا المنهج دائرة العلم في العرف الاوربي : انه المادة يراها او نلمسها او نتذوقها . . او نفترضها ، وفي هذه الحالة يبقى الافتراض

مظنونا الى أن تثبته التجربة او تنفيه ، والعلم اذن ـ فيما يرى الاوربيون ـ هو هـذه القواعـد والقوانـين التي هي نتيجة الاستقراء ، ودائرة العلم اذن : الكون المادي سماواته وارضه وما بين السماء والارض .

ما موقف الاسلام من هذا المجال المادي ؟

ان اسلافنا رضوان الله عليهم يطلقون على علم الطبيعة : « علم الكشف عن سنن الله الكونية »، وهي تسمية جميلة ودقيقة ، انهم يعتبرون كل كشف عن قانون في الطبيعة انما هو كشف عن سنة من سنن الله في الكون ، والكون كله سنن من سنن الله وكلما كشفنا عن سنة من سنن الله فيه وجهنا الكشف نحو مجهولات لا بد من كشفها ، وكلما اتسعت دائرة الانسان في العلم المادي كان اكثر تقديرا لكثرة المجهولات اي اكثر اعترافا بجهله .

ان العلم ـ وهذا لا يحتاج الى استدلال ـ لا يسير سيرا عشوائيا ، وانما يسير تبعا لقوانين ثابتة متطورة وكل شيء فيه مقدر تقديرا دقيقا : انه اسباب ونتائج ، علل ومعلولات . . انه قوانين . .

ولقد حثنا الاسلام على الاخذ في اكتشاف مجاهيل الكون ، وبين الله سبحانه وتعالى انه سخر هذا الكون للانسان ، ويمتن الله سبحانه على الانسان بان جعل له الارض ذلولا ليجوب في

مناكبها : يجوبها طلبا للرزق ، ويجوبها لينظر آثار السابقين وماذا كانت نتيجة ما صنعوا وما كسبت ايديهم ، ويجوبها للعظة والاعتبار ، وفي هذا الجانب من التسخير ياخذ البحث عن الاثار زاوية ثانية ، وتتبقى منه زوايا اخرى كثيرة .

والله سبحانه يسمى علم التاريخ : العلم بايام الله في الشدة والرخاء ، في البأساء والضراء ، في الهزيمة والنصر . والعلم بأسباب ذلك كله لنستفيد منه .

ويمتن الله علينا في هذا الجانب ـ جانب تذليل الارض ـ بان ذلل لنا البحار والانهار لنستفيد منها في الغذاء ونستخرج منها حليا للزينة ، ولتجري الفلك فيها : تسير باسم الله مجريها ومرساها شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا .

ويمتن علينا سبحانه بان سخر لنا الشمس والقمر والليل والنهار ، والنجوم والكواكب يقول تعالى :

وتسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره ، وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار .

ويقول سبحانه :

الم تر أن الله سخر لكم ما في الارض .
ويقول تعالى :

وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعا منه .

وهذا الامتنان منه سبحانه يعني انه ينبغي علينا ان نستجيب لهذا التوجيه الالهي فنستفيد من كل ذلك ، من السماء : كواكبها ، واقمارها ، ونجومها ، ومن الارض بحارها وانهارها وجبالها ووديانها وسهولها ، ونستفيد مما بين السماء والارض : الجو والسحب والرياح . .

وهذه الاستجابة معناها العمل الدائب للوصول الى ما احبه الله منه : الكشف عن سننه واستخدام قوانينه بالوسائل والاسباب الطبيعية .

على ان امرا اخر كان من اكبر العوامل في توجيه المسلمين نحو الكشف عن سنن الله الكونية : هو هذه الدعوة الملحة الى العلم : آيات من القرآن الكريم آمرة وباعثة وناصحة بالاتجاه نحو العلم واحاديث نبوية شريفة في فضل العلم والحث عليه والامر به . وكان اثر ذلك اندفاعا من المسلمين نحو البحث في زوايا العالم وخفاياه ، فكان هؤلاء الافذاذ في كل مجال امثال ، جابر بن حيان ، والكندي وابن الهيثم ، والرازي ، وابن النفيس وعشرات غيرهم في مجال سنن الله الكونية .

واستخدم هؤلاء منهج الاستقراء ولو قيض الله سبحانه للحضارة الاسلامية ان تسير في طريقها دون عوائق لكان

المسلمون هم الذين غزوا الفضاء ، وكانوا هم الذين وصلوا الى القمر والى غيره مما سخره الله للانسان من كواكب .

والمسلمون بتخلفهم هذا في العلم بسنن الله الكونية انما ينحرفون عن الخط الاسلامي الصريح ، وينحرفون عن خدمة الوطن ، فهم بهذا التخلف آثمون دينيا واثمون وطنية . وهذا المنهج الذي نهض بأوربا هو منهج اسلامي : وضع المسلمون ـ متابعين للتوجيه الالهي ـ مبادئه وارسوا قواعده ، وجاء الغربيون فتتلمذوا على المسلمين فيه ، وساروا على قواعده ، فكانت الحضارة الاوربية التي اسس المنهج التجريبي فيها « روجيه بيكون » .

من اين استفاد « روجروجيه بيكون » منهجه ؟ من هو الملهم له ؟

يقول الكاتب الانجليزي الاستاذ : « بريفولت » في كتابه النفيس : « بناء الانسانية » ليس « روجيه بيكون » ولا « لفرانسيس بيكون » الذي جاء بعده الحق في ان ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن « روجيه بيكون » الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو نفسه لم يمل قط من التصريح ، بأن تعلم معاصريه في اوربا اللغة العربية ، وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

ويقول في مكان اخر من كتابه : ولقد كان العلم اهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث .

ويقول ايضا :

ولم يكن العلم العربي وحده هو الذي اعاد الى اوربا الحياة ، بل ان مؤثرات كثيرة من الحضارة الاسلامية بعثت باكورة اشعتها الى الحياة الاوربية .

ويستفيض المؤلف فيما يتعلق بما للعرب ، وبما للمنهج العربي من أثر فيما يتعلق بالحضارة الحديثة .

لا اريد ان الليل في سرد نصوصه ، وهي كثيرة كلها تثبت ان هذا المنهج التجريبي ، انما هو المنهج الذي قامت عليه الحضارة العربية ، وان اوربا ، انما اخذته من العرب ، ولم تبتدعه ابتداعا ، ولم تكتشفه اكتشافا .

هذا فيما يتعلق بالمنهج .

اما فيما يتعلق بالموضوع ، فان المؤلف نفسه الذي الف هذا الكتاب ، الذي تحدثنا عن بعض آرائه يقول في صراحة ، لا لبس فيها : « ان العلم الاوربي ، مدين للعلم الاسلامي العربي في كثير من موضوعاته » من هذا نرى انه ليس مدينا في المنهج فحسب ، وانما في الموضوعات أيضا .

امة واحدة

الاسرة البشرية التي استخلفها الله في الارض ترجع في اصل نشأتها الى مبدأ واحد وتدين في وجودها الى خالق واحد وهذه الوحدة في الخلق والخالق هي الرابطة التي تجمع بين الناس على اختلاف السنتهم والوانهم وتباين بيئاتهم وتباعد اوطانهم . هذه الوحدة في الشعور والمشاعر هي هدف الرسالات السماوية جاءت كلها تدعو اليها وتعمق مجرى الايمان بها وتهتف بالبشرية ان يلتفوا حول رايتها « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون ».

غير ان قوى البشر تميل بكثير من الناس من الجادة فتفرقهم طرائف ، وتمزقهم شيعا واحزابا وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا .

ولا يشك احد في ان الجماعة التي تؤمن بالوحدة وتسير على هديها وتترسم خطاها وتصل الى تحقيقها املا وعملا هذه الامة تعيش قوية الاركان متينة النبيان شامخة الذرى يلين لها العصا وتذلل امامها العقبات وتدنو العصى منها الغايات البعيدة وتهابها الجماعات الاخرى وتخطب ودها الامم .

واذا عاشت الجماعة لم تستشعر معنى الوحدة فضلت عن

طريقها ولم تعمل لايجادها بين صفوفها هانت على نفسها وكانت على عدوها اهون . وتناثر عقدها وتفرق شملها . ووهنت قوتها وفتحت الثغرات بينها للدخلاء والمستغلين ولا حياة لها في مجتمع لا يعترف بغير القوة سلاحا .

من أجل هذا جاء الاسلام بعمق معنى الوحدة في نفوس اتباعه . ويدعو الناس جميعاً إلى كلمة سواء في آله واحد هو الله سبحانه وتعالى « والهكم آله واحد لا إله إلا هو » وطوى مشاعرهم كلها في شعور واحد هو الأخوة : « إنما المؤمنون أخوة » وجمع مناهجهم في منهج واحد هو البر « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » وشهدهم إليه بميثاق واحد هو الايمان .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » واتاح لهم الفرص المتكافئة على قدم المساواة « أن اكرمكم عند الله اتقاكم » ووجه جهودهم الى هدف واحد هو التمكين للحق والعدل ومقاومة الباطل والظلم « كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ».

ولقد رعى النبي ﷺ هذا المنهج التربوي في الوحدة فاستحث الهمم اليها بقوله يد الله مع الجماعة وصور قوتها واثرها بقوله « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وحذر من الخروج عليها بمثل قوله « انما يأكل الذنب من الغنم القاصية » وحكم

بقتل الخارج عليها بقوله من جاء يفرق امر هذه الآمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان .

في ظل هذه الوحدة الطاهرة التي اجتمعت عليها القبائل وانصهرت في بوتقتها الاحساب والانساب والالوان واللغات حمل العرب مشغل الهداية فانارو الطريق وحطموا الاغلال وانطلقوا الى ميادين العلم والاقتصاد والعمران وسائر الميادين فاتوا بالاعاجيب .

ولقد جدت للجماعة الاسلامية والأمة العربية أحداث مختلفة انفرط بعدها عقدهم وتقلص ظلهم وتداعي الغاصبون على دولتهم فانقفقصوا أطرافها وتحكموا في أمرها واقتسموا أوطانها ومكنوا لأنفسهم فيها وأثاروا الحقد في نفوس أبنائها وبعثوا العصبيات بين رجالها واختلفت دول وقامت إمارات ونصبوا حكاماً فاختلفوا أهواء وتصارعوا أهدافاً ونسوا ماضيهم زمناً وعاشوا في فرقة وحلاف .

ولكن إذن الله لهذه الأمة أن تنهض من عثرتها وأن تقوم من كبوتها فتلاقي الأحرار واجتمع المخلصون فتحررت الأرض وتقلص ظل الاستعمار ونهضت الامة ولكن الاستعمار يعلم علم اليقين قوة العرب والمسلمين اذا اتحدت كلمتهم وتوحدت قلوبهم ومشوا صفا واحدا يبنون مستقبل امتهم كما كان اباؤهم من قبل .

لم ينس الاستعمار ان في كل وحدة للصف وتجمع للقوم نهاية لاطماعه فكلما لاحت بشريات الوحدة مشى اعداء الامة بالوقيعة والنميمة بين ابنائها حتى لا تعود الى الوجود ايام كايام صلاح الدين فهو يحاربنا اليوم بمنطق الوحدة فاتحد الاعداء حولنا وقاتلونا بسلاحنا .

واليوم صيحة الحق والوحدة تعلو تعلن بعث امة . هي في اشد الحاجة الى وحدتها الاولى امام عدو شرس لن ترده عن طماعه الا وحدة اصيلة استمدت قوتها من السماء ورسخت صولها ثابتة لتؤتى اكلها كل حين باذن ربها فقام اتحاد الجمهوريات العربية نواة لوحدة اشمل واتحاد اكمل .

ومن حسن الطالع ان يستمد الاتحاد من روح الله قوته ومن تأييد الله نصرته فيعلن في دستوره ان الشريعة الاسلامية مصدر التشريع فيه . وبذلك ياخذ الاتحاد من المقومات التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والتشريعية اساسا لانطلاقة تحقق النصر المبين .

واذا كانت وحدة الامة العربية شهدت اول ايامها بظهور دعوة الاسلام فوحدت بشعائرها قلوب المؤمنين في وحدة تامة في كل ما فرضه الله فانطلق ابناؤها يعلنون بالحق كلمة الله وينشرون في الارض نور الحق ويقيمون في الدنيا صرح العدل . فاذا بها تشهد اليوم على نفس الطريق وحدة الامة العربية وحدة مؤمنة بعقيدتها

متمسكة بدينها مستهدية هدى ربها . فالدين مقوم اساسي في صرح هذه الوحدة بجانب المقومات المادية الاخرى التي تبنى عليها صرحها القوي والتي يحرص عليها الاسلام ولا يعارضه .

فليبذل كل مواطن عربي على هذه الارض الطيبة غاية جهده لتقوى اركان هذه الوحدة وليتسع نطاقها حتى تشمل الامة العربية كلها ولنسر جميعا صفا واحدا لنحقق اول اهدافنا واعز امالنا وهو النصر على عدو الله وعدونا وليطرح ابناء الامة العربية خلافاتهم وليوحدوا صفوفهم وليجمعوا رأيهم حتى يستحقوا خطاب ربهم لهم « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون »□

الايمان

ان الايمان لازم للجماعة لانه العقيدة التي تعطيه الفوة التي ينبعث بها ويتابع مسيرة التقدم والرفعة .

والايمان يجب ان تتوفر فيه خصلتان :

احداهما : ان يكون ايمانا بمبادىء سامية رفيعة ، حتى تستطيع ان ترفعه بمكانتها . فمن يتابع غرضا عاليا ترتفع همته بقدر علو هذا الهدف ورفعته . ويعلو في انسانيته حتى يبلغ مكانة هذا الهدف ومرتبته . ومن يتابع غرضا دنيئا ينحدر الى مستواه ويقف جهده عند بلوغه . فيقف منحصرا عند حدود الانانية والاشباع الذاتي بدلا من العلو الى مدارج الانسانية وادراك القيم المعنوية .

ثانيا ـ ان يكون الشعور بالمبدأ قويا في القلب . فبقدر اليقين والايمان بالمبدأ بقدر ما يكون الانفعال به والتقدم بسببه . والايمان بمبدأ لا يصلح كمقوم اجتماعي الا اذا كان « قيمة شعبية » والقيمة هي الشيء العزيز الغالي الذي يضحي الانسان في سبيله بكل ما عداه . فلا يصبح أن نقول أن عقيدة معينة قد أصبحت « قيمة شعبية أو اجتماعية » إلا إذا وصل الأمر إلى الاستعداد التام للفناء في سبيل الدفاع عن هذه القيمة وتضحية الروح والمال في سبيلها .

اما اذا قلنا ان لهذا الامر قيمة اجتماعية ، ولم يكن لدى الناس استعداد للتضحية التامة في سبيله فاننا في الواقع نقول بالستنا ما ليس في قلوبنا .

والقيمة الاجتماعية هي اعز واعلى « المقومات الاجتماعية » والمقومات الاجتماعية هي العناصر المختلفة التي تجعل لمجتمع معين مرتبة معينة بين الجماعات .

فالجماعة تقيم او تقوم ـ اي تحسب قيمتها ـ حسب عناصر مختلفة كمقدار ما تحوز الجماعة من المال والثروة ، ومن الثقافة ، ومن المبادىء والاخلاق ، ومن الامكانيات العديدة التي تسندها عناصر تاريخية وجغرافية ولغوية وغير ذلك . فهذه العناصر هي التي تعطي للمجتمع درجته ورتبته . واغلى هذه العناصر واثمنها

هو عنصر « القيمة الشعبية » اي المبدأ او العقيدة التي تحيا بها نفوس الجماعة .

وقد اهتم الاسلام بأن يجعل للجماعة الاسلامية « قيمة » عليا هي الايمان بالله تعالى تعالى وحده ، وبالتالي تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه وهي أعلى القيم لأن « الله المثل الأعلى » ومن المعلوم أن المبادىء تتدرج صعوداً من اعتناق العدوانية والاجرامية ، بأن يكون الانسان عدواً لنفسه والجماعة وذلك كدأب دولة كالتتر أيام جانكيز خان حينما رفعت على الناس راية التخريب والتدمير . ثم إلى الأنانية والانحصارية والعصبية ، وذلك كدأب الدولة الاستعمارية والدول التي رفعت شعار العنصرية كألمانيا النازية وايطاليا الفاشيستية . ثم إلى الانسانية واستهداف المقاصد المعنوية المجردة وأسماها ما هو مستمد من أسماء الله الحسنى باعتباره العدل الحق العليم الرحيم . فكل هذه أهداف لو تحلى بها الانسان سما في مقاصده .

كما اعتنى الاسلام بأن تظل هذه القيمة حية مشبوبة مستعرة في القلوب ، وذلك بالعبادات . فبعضها يومي كالصلاة ، أو أسبوعي كالجمعة أو سنوى كالصوم والزكاة أو عمرى كالحج وبذلك قام الاسلام على هذه الأركان الخمسة التي تظل بها حمية العقيدة قوية مشتعلة في القلوب ثم ربط أحكام الدنيا بالعقيدة عن طريق هذه العبادات . بأن جعل لأمور الدنيا أوصافاً من

أمور الأخرة فيكون البيع أو الزواج أو غيرهما فرضاً أو حلالاً أو حراماً أو مكروهاً أو مندوباً بسبب هذا الربط بين الدنيا والآخرة .

والعلم ألزم للجماعة من الايمان . لأن الايمان يأتي عن طريق العلم . قال الامام البخاري رضي الله عنه « العلم قبل القول » « النطق بالشهادة » والعمل « بمقتضاها » لقول الله تعالى . ﴿ فاعلم انه لا إله إلا الله . فبدأ بالعلم ﴾ .

فاذا علمت الجماعة سبب العقيدة وسبب الاقتناع بها ، تمسكت بها اشد التمسك وصارت « قيمة اجتماعية » تغنى في سبيلها .
وغاياته .

ثم ياتي بعد ذلك دور اخر لازم للعلم .

فان العلم هو الذي يجعل العقيدة قابلة للتطبيق ويحيلها من الشعار المجرد الى التنفيذ الملزم .

وبدون هذا التطبيق يظل المبدأ اعلانا ولافتة تصلح للهتافات والخطب الرنانة فحسب . ولا يفيد الناس منها شيئا .

ونضرب لذلك مثالان :

احدهما من التطبيق الاشتراكي ، فانه من المقرر ان الاشتراكية التي لا تصحبها خطة هي اشتراكية خيالية وانها لا

تصبح ذات قيمة عملية الا اذا وضعت لها خطة عملية . وان لينين لم يفلح في ارساء قواعد النظام البلشفي الا بعد ان وضع السياسة الاقتصادية الجديدة « ن ي ب » فعند ذلك تبدو مساندة العلم للمبدأ ويتيسر تطبيقه ، بوضع تشريعات الثورة والخطة العملية الناجحة اقتصاديا واجتماعيا لتيسير تطبيق مبادئها .

وثانيا من التطبيق الدستوري عموما . فان النص في الدستور على الحريات يقتضي المبادرة الى مساندة هـذه النصوص بالتشريعات المكملة للدستور ، وذلك كما لاحظ المؤتمر القومي في جلسته الاخيرة . فلا بد للعون العلمي من ان يدرك المبدأ ويسنده . وكذلك فان النص على هيمنة الشريعة الاسلامية على النظام القانوني واستمراره منها يقتضي ان يبذل علماء الدين والقانون والاقتصاد والاجتماع جهودهم المتضافرة المتحالفة لتيسير تطبيق هذا النص . وهذا يتطلب منهم مجهودا شاقا مخلصا بالعرق والدم . لانه بقدر ما فرطنا في حق هذه الشريعة وتخلفنا عن تغذيتها بالجهود المتصلة بقدر ما يجب ان تعوض هذا التاخير بالجهد الصادق المخلص .

وان الذي رزقنا بمالك وابى حنيفة والشافعي وابن حنبل في صدر الاسلام لقادر على ان يرزقنا الان بمن يقومون بحق الله وحق الامة ويحيلون هذا النص القرآني الذي نرجو من الله صدوره ـ الى تطبيق عملي ممكن التنفيذ .

العبادات علاج للقلق

العبادة ، لغة الطاعة او الفعل الذي يقصد به تعظيم الغير . وقد كلف الله المسلم بعبادات معينة تشمل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج . وفي كل عبادة منها يتحقق معنى الطاعة لله وتعظيمه تعالى والتقرب اليه . . ولما كان الله هو خالقنا . فانه لا ينبغي التوجه بالعبادة الى ما سواه عملا بقوله تعالى « وقضى ربك الا نعبدوا الله الا اياه » وتتضمن كل عبادة من تلك العبادات ايضا التزام ا الانسان باوامر الله ونواهيه . وهذا يعني من ناحية اخرى مخالفة الانسان لاهوائه وشهواته التي يميل اليها بطبعه كل الميل . والتي من شانها ان تنحرف به الى الاضرار بنفسه او بالمجتمع . والى هذا المعنى يشير الجرجاني في تعريفة للعبادة بقوله « فعل المكاف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه » .

ومن هنا يمكن القول بان من اهم اهداف العبادات في الاسلام على اختلاف صورها تهذيب الفرد اخلاقيا . وتربية المجتمع التربية المثلى لانها تمد افراد المجتمع بطاقات روحية خلاقة لا حصر لها تعينهم على انجاز ما هو نافع من الاعمال وتحول بينهم وبين مسالك الشر واسباب الانحرافات .

وثمة ارتباط وثيق بين العبادات والايمان ، فهي بالنسبة

للمؤمن المظهر العملي لايمانه المستقر في قلبه المسيطر على شعوره ووجدانه ولعلك تدرك هنا عمق المعنى في قوله تعالى « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر ». وقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام « انني انا الله لا اله الا انا فاعبدني » امره بعد التوحيد بالعبودية . لان التوحيد اصل والعبودية فرع . وان شئت قلت : العبودية هي ثمرة التوحيد .

ومن هنا اعتبر علماء الاسلام عقائد الايمان اصولا ، والعبادات وسائر احكام الشريعة العملية فروعا تنبنى على تلك الاصول .

ومما تجدر اليه الاشارة هنا ان الايمان يزيد قوة وفاعلية في نفس الانسان اذا واظب على العبادات .

وهذا امر تحكم به خبرة لانسان ومن الملاحظ ان الانسان يتصرف دائما وفق ما يعتقد . فاذا عمل بما يعتقد قويت عقيدته وصار اكثر حماسا لها واستعدادا للتضحية في سبيلها وكذلك الامر في مجال الدين فهو اذا ادى عباداته الدينية مدركا الحكمة منها تقوى ايمانه . وهذا يفسر لك ذكر العمل في القران مقترنا بالايمان في مثل قوله تعالى « وبشر الذين امنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات » وقوله تعالى « الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ».

وكما يكمل الايمان بالطاعات فانه ينقص بالمعاصي لان الانسان اذا ترك العمل بمعتقده ضعف هذا المعتقد في نفسه بالتدريج واذا به في النهاية يتحلل مه ، ولا يعود ينعكس على سلوكه ولناخذ لذلك مثلا الذي يتكاسل عن اداء الصلاة فهو أولُ الامر يؤديها وهو لا يعقل منها شيئا فتثقل بذلك على نفسه واذا به يؤديها مرة . ويغفل عنها اخرى ثم يتوقف تماما عن ادائها وقد يصاحب ذلك كله ايمان من نوع ما ولكنه ايمان ضعيف لا فائدة منه واخطر مرحلة يصل اليها هذا الغافل عدم الاعتقاد بفرضية الله لها فيتركها عمدا ، عندئذ ينخلع تماما من الايمان وتأمل جيدا قوله تعالى « فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » وقول الرسول ﷺ « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة ».

ومن الملاحظ بعد ذلك ان عبادات الاسلام ميسورة الاداء ، فالله تعالى لا يريد ان يشق علينا او يكلفنا بما لا يطاق . وهي لا تعوق الانسان عن القيام بواجبات حياته في المجتمع وما تحفل به من اعباء .

ومحاله دلالة على سهولة عبادات الاسلام وسائر تكاليفه ان الاعرابي كان يجيء احيانا الى الرسول ﷺ فيعلمه احكام الاسلام في مجلس واحد ، فيقول الرسول ﷺ . بعد ان يعاهده الاعرابي على العمل بها لا يزيد عليها ولا ينقص منها شيئا « افلح ان صدق ».

وهذا يفسر لنا انتشار الاسلام انتشارا واسعا . لان عقيدته من ناحية تتميز بالوضوح . ولان عباداته من ناحية اخرى سهلة الاداء .

ومن سمات عصرنا المميزة له شيوع القلق الذي يمزق النفوس نتيجة انصراف كثير من الناس عن عقائد الدين وعباداته ومعاملاته الى الاخذ ب بفلسفات مادية . تقوم كل شيء بمعيار المادة وحدها . واضرار ذلك شديدة لان الانسان اذا لم بر لحياته وقع في صراع نفسي مؤلم يفقده طعم الحياة .

ونحن لو نظرنا الى القلق الذي يعاني منه انسان العصر لوجدنا انه في اغلب الاحيان نتيجة شعوره بالانحراف عن قيم ثابتة يراها محققة لانسانيته ، وبعبارة اخرى هو نتيجة الصراع بين ميوله .وعواطفه ونزواته وبين مبادىء الاخلاق او الاوضاع الاجتماعية المتعارف عليها انسانيا . وكلما راى الانسان نفسه يسير بعيدا عن طريق الصواب والحق كلما زاد صراعه النفسي الداخلي واشتدت عليه الامة . ومهما برر لنفسه وللاخرين مواقفه وتصرفاته فانه يظل يعلم عن نفسه ما لا يعلمه عنه الغير . وهو انه منحرف عن الجادة القويمة .

وما اعمق المعنى في قول ابن عطاء الله السكندري لمريده في الحكم . « الناس يمدحونك لما يظنونه فيك ، فكن انت ذاما لنفسك لما تعلمه منها »

وفي الحقيقة ان القلق مرحلة يجب ان يتجاوزها الانسان الى الايمان ، وبهذا ينجو من الضياع يتحقق بالاستقرار النفسي ويستشعر معنى السعادة .

وليس علاج القلق في ممارسة الحرية التي تدعوا اليها بعض المذاهب العبثية المعاصرة . وهي حرية الانسان في صنع قيمة ومعاييره وحريته في رفض كل وضع اجتماعي لان مثل هذه الحرية وهمية يؤذي الى تردي الانسان في هوة العدم وتجعله عبدا لشهواته واهوائه .

لقد اراد الاسلام لنا عن طريق العبادات أن نتخلص من كل قلق ممكن ومن كل استسلام لشهواتنا وضعف نفوسنا ونزواتنا . فيتحقق لنا الاستقرار النفسي .

ولنتأمل فيما يقوله الامام فخر الدين الرازي عن اهمية العبادات في علاج القلق « واعلم ان العبادة والعبودية مقام عال شريف ويدل عليه ايات الاولى : قوله تعالى في اخر سورة الحجر « ولقد نعلم انه يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى ياتيك اليقين ».

والاستدلال بها من وجهين .

احدهما انه قال « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » فامر محمدا عليه الصلاة والسلام بالمواظبة على العبادة الى ان يأتيه الموت

ومعناه انه لا يجوز له الاخلال بالعبادة في شيء من الاوقات وذلك يدل على غاية جلالة امر العبادة وثانيهما انه قال « ولقد نعلم انه يضيق صدرك بما يقولون » ثم انه تعالى امره باربعة اشياء التسبيح وهو قوله « فسبح » والتحميد . وهو قوله « بحمد ربك » والسجود ، وهو قوله « وكن من الساجدين » والعبادة وهو قوله « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

وهذا يدل على ان العبادة تزيل ضيق القلب وتفيد انشراح الصدر وما زاك الا لان العبادة توجب الرجوع من الخلق الى الحق وذلك يوجب زوال ضيق القلب » .

عبادات الاسلام اذن علاج حاسم لازمات النفس خصوصا في هذا العصر .

ولكن هل يكفي ان نعلم احكامها وحكمة تشريعها من الكتب ليتحقق لنا شفاء النفس .

جوابنا على هذا ان العبادات لا تتحقق فائدتها الا بالممارسة العملية وهي أشبه شيء بالدواء لا يكفي أن تعلم تركيبة علماً نظريا مجردا . وانما لا بد من تناوله بانتظام ليتحقق الشفاء .

ومن هنا وجب على المسلم ان يمارس العبادات ممارسة حقيقية لا شكلية وعندئذ فقط يمكنه ادراك جدواها واسرارها ادراكا حقيقيا .

الحياة . . والموت

ولما كنت شديد الايمان بان الموت هو العتبة المفضية الى الحياة الباقية وبما انه لم يعد لي اي مطمع في هذه الدنيا ، فالله شهيد على انني ما توسلت الى الله وانا في صميم محنتي بين الحياة والموت ان يبقيني حيا ، وانما فوضت امري اليه ، وقلت له : انا عبدك الراضي بقضائك ، وانت تعلم ما لا اعلم ، ولست اعرف اين الخير ، فابقيني حيا اذا كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كان الموت خيرا لي .

وشاءت ارادة الله ان اظل على قيد الحياة عاجزا وكما قلت في مقالي السابق فلست فقط راضيا بقضاء الله بل انني شاكر ومسبح بحمده اناء الليل واطراف النهار ، فما دمنا احياء فهذا دليل على ان الله يريدنا كذلك لغاية يعرفها هو .

عودة الوعي :

ومع عودة الوعي الي ، وما دمت قد بقيت على قيد الحياة ، اجابة مشكلاتها ، واؤدي دوري في تحمل نصيب كل كائن حي من مسئولياتها فقد اصبحت تواقا للشفاء بعد ان من الله عليّ بطلائعه ، والعودة الى الكلام والحركة والوقوف والمشي ، لا من اجل نفسي ولكن من اجل الاخرين من شباب الجيل مزعزعي

الايمان وضيعيفي الثقة بالله ، والافما حاجتي للحركة والنشاط ، في مرحلة الفكر والتأمل .

ارتداد شاب

اعرف شابا من المتصلبين بي كان متدينا ، لا يدع الصلاة فلما اصابني ما اصابني ، ترك ذلك كله وانتقل من اقصى اليمين الى الشمال وراح يجدف قائلا : كيف يحدث ؟ . . ما حدث ؟ . . وقد كنت « يقصدني انا » من عباد الله الشاكرين رافعي لواء الايمان والتوحيد ، ثم ينكبك من دون السقة والمجرمين والكافرين بهذه النكبة ؟ . . .

وطبعا لم يكن لديّ القدرة لاناقشه وارده الى الجادة .

فالمرض والموت والحوادث والمصائب هي من لزوميات الحياة ، ولم يقطع الله على نفسه عهدا ، الا يصيب اولياءه بسوء ، بل على العكس من ذلك ، نبهنا الله الى ان هذه الدنيا ، دار ابتلاء وامتحان واشاء في القرآن الكريم الى ان المؤمنين ليسوا بمنجاة من المصائب ، بل ان آية ايمانهم ان يصبروا على قضاه الله .

ولنبونكم بشيء من الخوف والجرع . ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة . واولئك هم المهتدون » .

فانت ترى ان المصائب والكوارث والنكبات في هذه الحياة الدنيا ليست وقفا على الاشرار ولكنها تحل على الاخسار على سبيل الابتلاء والامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب .

ولقد عشت طول عمري اردد هذه الاية واعلمها للناس فكان لا مناص ان يختبرني الله ويمتحنني ، وتقول لي شريكة حياتي واكبر نعم الله على ، ان لساني لم يكف عن حمد الله حتى تعطل فيما تعطل من جوارحي وغرقت في الغيبوبة ، وبمجرد ان افقت عدت الى تكرار الحمد ، وانا اقص ذلك لانه من باب التحدث بنعمة الله ، فليس في الدنيا كلها اعظم من نعمة ان يكون العبد عبدا شكورا ، بحمد الله في السراء والضراء .

مناجاة ودعاء

فانت تعلم يا ربي من امري انني بهداية منك وتوفيق من عبادك الشاكرين وراضي بكل قضائك حلوة ومرة ، ولو ظللت على حالتي التي انا عليها ، فانا ادرك ما فيها من نعم ، ولن يتغير شعوري ، فالايمان والرضا يجريان مني مجرى الدم ، ولكني عشت طول عمري مجاهدا في سبيلك ، ولست اريد ان يكون ما أصابني إلا سبيلاً لتعزيز الايمان بك ، وطريقاً لتأكيد الدعوة إليك ، فسامحني يا رب إذا كنت بعقلي القاصر وإدراكي المحدود الذي هو بدوره نعمة منك ، أن أتطفل على قدسك وأن أسألك الشفاء من أجل أمثال هذا الشاب العزيز الذي تزعزع إيمانه

لمرضى ، فنحن في عصر غلب فيه الشك ، وتفشت الدعوة إلى المادية والإلحاد .

آية من آياتك

اني اسألك يا ربي ، ان تتدرني على الوقوف من جديد ، على الحركة على المشي ، على الكلام ، لا لانني انا شخصيا في حاجة اليها ، ولكن لاخفف الحمل على من حولي من الاحباب والاصدقاء وليزدادوا ايمانا على ايمانهم .

فما اكثر ما يهزونني من الاعماق عندما يقسمون بك انك ستشفيني وتعيدني كما كنت ، وعبثا اقول لهم ان ما انا فيه هو نعمة من النعم .

ولكي اكون احد اياتك لضعاف النفوس ومزعزعي الايمان ، ان يروني صحيحا سليما بعد المرض ، قادرا بعد العجز .

واني اعوذ بك واستغفرك يا رب ، اذا كان فيما سبق من قول من زلل او خطأ ، فانت اعرف بعبادك مني ، وما يصلحهم او يفسدهم فما كان الكافر والملحد بالذين يعتبرون او يتعظون بالايات ، فما اكثر آياتك التي تغص بها الحياة ، ومع ذلك فالذين في قلوبهم مرض عنها معرضون ، ذلك ان الهداية منك « انك لا تهدي من احببت ، ولكن الله يهدى من يشاء » .

واعود لما بدأت به من انني راض ، راض بقضائك متمثل لمشيتك وهي خير كلها .

والله اكبر ولله الحمد

حكمة الله في خلقه

خلق الله جميع المخلوقات بقدرته ، ونظم خلقها بحكمته ، سبحانه لا شريك له بيده الامر كله له واليه وحده تصير الامور .

ومع ان الجميع تشرف بشرف الصنعة للصانع الاكبر ، والقادر الاعظم فقد اقتضت حكمته تعالى . ان يفضل بعض هذه المخلوقات على بعض فضل مكة ، فجعلها ام القرى ، وشرفها ببيت الله الحرام ، فجعلها قبلة للمسلمين جميعا يتجهون اليه مصلين . وحاجين ومعتمرين ، ويبتغون فضلا من الله ورضوانا وانبثق منها نور الهداية ، بارسال رسول من اهلها ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

وميز المسجد الحرام . فضاعف ثواب الصلاة فيه ، وجعل الصلاة في المسجد تفضل على الصلاة في غير المسجد .

وتفضل سبحانه وتعالى فاعظم ثواب الاعمال في ساعة السحر ، واجر الحسنات يوم الجمعة وفضل بعض الناس على بعض في كثير من نعمه . في المال ، والصحة ، والبين ، فالسعيد منهم من شكر النعمة ، وادى حق الله والناس فيها ،

حتى كان من الذين قال الله فيهم « ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة ، وقنا عذاب النار اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ».

والشقى من كفر بنعمة الله ، وغرته الحياة الدنيا ، وابتغى فيما آتاه الله الدنيا وزينتها ، ونسى نصيبه من الاخرة ، حتى كان من الذين قال الله فيهم « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا ، وما له في الآخرة من خلاق ».

وفضل بعض الانبياء على سائر الانبياء فاختص محمدا ﷺ بالشفاعة العظمى ، وجعلت له الارض مسجدا وطهورا وكانت رسالته للناس كافة ، وجعل امته خير الامم وجعلها امة وسطا شهيدة على الناس ، وهو عليه السلام شهيد على امته .

وفضل شهر رمضان على سائر الشهور . فانزل فيه القرآن الكريم هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وتم فيه الفتح الاعظم فتح مكة ، وانتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى التي كانت الحد الفاصل بين الحق والباطل ، وجعله شهر الصيام ، شهر البر والجود والاحسان : ووقاية من الشرور والاثام وموسما لتربية الفضائل ومكارم الاخلاق .

وقد جاء في خطبة للرسول عليه السلام في اخر يوم من شعبان « انه شهر الصوم والصبر وثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد فيه رزق المؤمن ، وشهر اوله رحمة ، واوسطه مغفرة ،

وآخره عتق من النار » وفي هذا الشهر العظيم المبارك ليلة خير من الف شهر ، هي ليلة القدر والشرف والمكانة الرفيعة ، نزل فيها الدستور الدائم الخالد الذي نظم مسيرة الحياة ، وهي ليلة السلام ، والتجلي الاعظم على الصائمين القائمين الراكعين الساجدين تنزل الملائكة فيها ومعهم جبريل الامين تحيي في المسلمين الصائمين جهادهم ، وتنشر السلام والرحمة وتدخل كل البيوت الا بيوتا فاجرة عابسة .

وكان الرسول عليه السلام يجد في التماسها في الوتر في العشر الاواخر من رمضان .

وقد اقتضت حكمته تعالى ان يخفى هذه الليلة ولا يحددها ليجتهد الناس في الطاعة ويطلبوها في اكثر من ليلة .

وللعلماء اقوال في تحديدها ، واصح هذه الليلة ولا يحددها ليجتهد الناس في الطاعة ويطلبوها في اكثر من ليلة . وللعلماء اقوال في تحديدها ، واصح هذه الاقوال انها ليلة السابع والعشرين . فقد روى أن الرسول عليه السلام قال : « من كان منكم متجرياً فليتحرها ليلة السابع والعشرين» وروى أيضاً عن أبي بن كعب انه قال :

« والله الذي لا اله الا هو ، انها لفى رمضان ، والله اني لا علم اي ليلة هي ، هي التي امرنا الرسول بقيامها ، ليلة سبع

وعشرين وامارتها ان تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع فيها ».

واحياء هذه الليلة ، بالتوبة والاستغفار والدعاء والعبادة مطلوب . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا . غفر له ما تقدم من ذنبه ».

وسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله قائلة يا رسول الله . ان ادركتني ليلة القدر ، ماذا اقول فيها قال . قولي :

« اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عني » فيا اخي المسلم . لا تعكر صفو هذه الليلة بصخب ، او عبث ، او ضجيج واتجه الى ربك في هذه الليلة المباركة ، خاشعا ، تائبا ، مستغفرا داعيا منضرعا ، ان يمنح ابناءناالمجاهدين المرابضين في ساحة المجد والشرف ، وشعوب الامة العربية والاسلامية ، القوة والسلام .

« يا مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين ».

هذا دعاء خالد ماثور عن رسول الله ﷺ ، كان يقوله عند لقاء الاعداء .

فيا اهل الايمان ويا جنود الرحمن ، اجعلو هذا الدعاء شعاركم في كل وقت وقولوا دائما : « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا

ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

الانسان والمستقبل

ان القرن العشرين ، الذي يرى تجمعات بشرية في صورة دول ضخمة الحجم تبسط كيانها على مساحات شاسعة مخططة ، اصبح يقدم كمثل اعلى . لطريقة النمو ، عملاقية الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، الدولتان المؤسستان لفصيلة العماليق التي دجلت في كنفها ـ منذ عهد قريب ـ الصين الشعبية ، وحيث تريد الدخول اوروبا الغربية .

يرى هذا القرن ، كنتيجة لهذا التكتل البشري السياسي الضخم ، تكتلا لحاجات وامكانيات على درجة غير معتادة ، تنشأ منه شبه اختصاصات تتخصص بها تلك الكتل ، بحيث تصبح كل واحدة ذات اختصاص في نوع من المشكلات العلمية او الصناعية او الاجتماعية ، حسب هوايتها ومزاجها وظروفها الخاصة .

ولا يبعد اننا سوف نرى ، الى آخر القرن ، كتلة تسيطر على مجال الفضاء واخرى على مجال الذرة ، واخرى على علم الكيميا او النبات او على مجال الفن .

وهكذا تحقق كل كتلة لنفسها مكان التبريز والصدارة في نوع

من انواع النشاط البشري وقد لا يرى المسلم يومئذ ، حظه في هذا التوزيع التاريخي للمسئوليات والاختصاصات العالمية ، الا اذا قرر ، منذ المرحلة الراهنة ، اي ياخذ على عاتقه مشكلة الانسان ، وفي النواحي او الناحية التي لا تضطر الى تدارك مسافات اصبحت ، في نواحي اخرى ، نضع بين العالم نواح اخرى ، تضع بين العالم بونا شاسعا لا يستطيع تداركه كما يبدو ذلك من ميدان الفضاء على سبيل المثال .

ولاننا اذا دققنا النظر في الاشياء نجدان المشكلات الجديرة لتكون من اختصاص المسلم موجودة ، لحسن الحظ ، وليست موجودة فحسب ، ولكنها تنمو في المجال النفسي بقدر ما يزيد التقدم التكنولوجي في توسيع الخرق الاخلاقي ، وتعميق القلق الذي يجتاح المجتمعات التي تنجز ذلك التقدم كما شاهدنا ذلك في الهزات الاجتماعية السياسية التي اعترت ، منذ سنتين ، ما يسمى « مجتمع الاستهلاك ».

بحيث اذا لم يخف على المسلم تخلفه ، تخلفا لا يقبل التدارك في بعض المجالات ، فانه يرى من ناحية اخرى تخلف المجتمعات المتقدمة في مجال الانسان ، تخلفا لاستدركه « العلوم الانسانية » المدروسة في جامعاتنا .

لا شك ان الانسان اصبح من الناحية « الموضوعية » مدروسا ، ومعلوما الى حد كبير ، من جوانبه الاقتصادية

والعضوية والانثربولوجية من ذوي الاختصاصات في هذه العلوم ، فانهم يعرفون ويقدرون متوسط الدخل السنوي من الدولارات الذي يلزمه لاقتناء الثلاجة ، او ما يتعاطاه من مخدر « ل س د » وما يستحق من وحدات حرارية في اليوم .

فان المسلم مسبوق في كل هذه المجالات ، كشأنه في كل ما يتعلق بالتنقية ، لكن هناك ، في هذا القرن العشرين وجهات من مشكلة الانسان زهد فيها العلم الحديث ، بل احتقرتها حضارة الكم .

وانسان هذه الحضارة قد تورط في الوضع المناقض للانسانية ، الذي اسسه هو في العالم على درجة لا تسوغ له القيام ببعث القيم الانسانية اليوم .

فهو متورط في عالم الاشياء الذي صنعه بعقله ويده ، تورطا لا يسوغ له القيام بمهمة تخليص الانسانية من ورطتها في الشيئية .

وهذا المجال ، الذي يخص الانسان من جوانبه الكيفية ، هو بالذات الذي يبدو مجالا لاختصاص جديد قد يكون اختصاص المسلم لانه ، في نقطة البدء ، غير متورط في عالم الاشياء المطبوع بطابع المادية في سلوك طبقة البرجوازية الكبيرة والصغيرة ، وفي تفكير الجناح الآخر من المجتمع المتمدن .

ولكن هذا الشرط اللازم بالنسبة لمهمة المسلم ليس بكاف

وحده ، فلا يكفى تجزىء الكثيرون ، لكي يدخل في عداد « جيجر التاريخ » ان يكون فحسب طليقا ، بل يجب ان تكون وجهته وحركته في مجال العمل المعزى اليه .

ولا يمكن للمسلم المتملص من جاذبية الاشياء ، ان يستوفي شروط مهمته الا باستيقاظ ضميره الى الظروف الاجتماعية - التاريخية التي يمر بها العالم اليوم .

فهذا العالم تسكنه ، انسانية متحضرة فقدت انسانيتها ، فاصبحت تصوغ مشكلة الانسان بمنطق الاشياء ، فتقدر مصيره بالثلاجة ومتوسط الدخل السنوي .

ومن طنجة الى جاكرتا تسكنه انسانية متخلفة ، ولكنها متحررة بحكم تخلفها من ربقة الاشياء .

فاصبحت هذه الثنائية مصدر كل الاسباب لعدم التوازن المتفشي في ارجائه ، ولكل معطيات مشكلة الانسان .

ومن طبيعة الوضع الراهن ان الحل للمشكلة لا يمكن ان يكون سوى ارجاع التوازن المفقود او المنعدم ، بوضع ثقل حضارة جديدة في احدى كفتي التاريخ ، حضارة ترفع الانسان المتخلف للمستوى الاجتماعي الذي يتمتع به انسان حضارة الاشياء اليوم ، وترفع هذا الاخير الى المستوى الاخلاقي الذي تفرضه الانسانية .

فلكي يعالج المسلم المرض العالمي ، من الزاوية التي تهم اختصاصه ، يجب ان يقدم لهذا المريض ما يشفيه من فقره الروحي ، ولذلك المريض ما يشفيه من التدهور الاجتماعي .

ولكن ، ومن كلا الجانبين ، لا يجوز ان تصوغ المشكلة بالطريقة المثالية ، كأي قصة ، ولكن بالطريقة العلمية على انها مشكلة القرن ، مشكلة الساعة .

وعلى هذا الاساس فقط قد يكون المسلم جديرا بحلها بطريقة فعالة ، اذ يكون ايمانه باختصاصه في هذه المهمة قائما على حقيقة يؤمن بها عقله .

وعندما يتم هذا الشرط في نفسه ، سيجد فعلا انه الاول في مجال من التطور العلمي لم يسبقه اليه احد .

وسيرى ان المستقبل ليس تحت نفوذ الصاروخ ، والذرة والثلاجة وانما هو تحت نفوذ غير انساني متجدد .

آيات الأحكام

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ

الْجِبَالَ طُولا . كُلُّ ذَلِكَ كان سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا .

الآيات : ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ من سورة الاسراء

الملكات مسئولية

السمع ، والبصر ، والفؤاد ـ وهو القلب ـ هي مراكز الحياة الانسانية في الانسان ، وحلقات اتصاله بالوجود وبالناس ، اخذا واعطاء . . فاذا فقد الانسان بعضا منها ، فاته شيء كثير مما كان يمكن أن يحصله من العلم والمعرفة وانقطع عنه مورد عذب كان يغذيه ويرويه .

وفي قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » دعوة إلى ألا يقدم الانسان على أمر من الأمور حتى يتبين موارده ومصادره . . فهذا هو شأن الراشدين من الناس ، وتلك هي سبيل الأنبياء ، والحكماء والعلماء : « قل هذه سبيلي : أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني » .

وهذا يعني أن يعمل الانسان جاهداً لتحصيل كل ما يمكن أن يبلغه جدهه ، وتعينه عليه ملكاته ، من العلم والمعرفة . . فإذا عرف الانسان هذه الحقيقة ، وانعقدت نيته على العمل لها ، وجد بين يديه الأدوات التي يوجهها إلى العمل ، والتي يتوسل بها إلى ما يطلب من علم ومعرفة ، وهذا ما يجده في قوله تعالى :

« إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » . . فهذه هي أدوات التحصيل للعلم والمعرفة .

ثم أن الانسان مسؤول عن تلك الجوارح ، فإن هو عطلها ، أو وجهها إلى وجوه الشر والفساد ، كان مسؤولاً عنها ، محاسباً على تفريطه أو إفراطه فيها .

وقوله تعالى : « ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » هو الميزان الذي تنضبط عليه معاملة الانسان مع جوارحه ، ومع ما تمده به من أسباب السمو العقلي والنفسي ، فقد يحصل الانسان من العلم والمعرفة قدراً يرى به من نفسه أنه قد بلغ غاية لم يبلغها أقرانه ومعاشروه ، فيركبه الغرور ، فيتطاول على الناس تيهاً ، في زينته . . وهذا كفر بنعمة الله . ولو كان صاحب هذا العلم المزهو به ، على شيء من العلم الصحيح ، لعلم أنه لم يؤت من العلم إلاّ قليلاً ، وأنه بعلمه هذا قطرة في بحر ، أو ذرة في سفح جبل ولن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً . . ان الأرض لا تكاد تحس بوجوده عليها ، وأن الجبال لا تكاد ترى له شخصاً عند قدميها ! !

تعقبه دوراً ، دورا ، أو طوراً وطورا ، أو مرحلة مرحلة . تحدث عنه حينما لم يكن شيئاً مذكوراً « هل أتي على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » ثم أورد في آية واحدة ، كل ما

يصيب الانسان منذ يرى النور ، حتى يوارى التراب : « فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم في علقة ثم من مضغة فحلقة ، وغير فحلقة ، لنبين لكم ونقر في الأرحام ، ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » ونكر هذه الأطوار ، هو في واقع الأمر ، ودعوة لعقل الانسان وقلبه ، للتأمل فيها ، والتأمل بذرة التفكير المقدسة والتفكير سبيل البحث والاستقرار ، الممهد ، والبحث هو أبو العلم ، والعلم هو شقيق المعرفة الأرشد ، العلم وسيلته العقل والحواس ، والمعرفة سبيلها كل ذلك والوجدان أيضاً .

ولم يتحدث كتاب عن ضعف الانسان وقوته ، كما تحدث القرآن ، والغريب الذي قد تخطئه بعض العيون وهي تقرأ هذا الكتاب ، ان الله تعالى حينما يتحدث في كتابه المنزل على نبيه المرسل ، عن ضعف الانسان يبدو لك انه تعالى يتحدث عن قوة الانسان التي تواجه في ثبات كل عوادي الزمن ، ومواطن الفتنة والفتنة والغواية والهلاك ، وحينما يتحدث عز وعلا عن قوة الانسان ، يكشف عن ضعفه المنبعث من غروره واستكباره ، ونسيانه لاصله : « اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه » على ان الذي تفرد به القرآن الكريم ، من بين كتب السماء ، وكتب البشر ، هو قصة خلق آدم ، وأمر الملائكة ان يسجدوا له ، بعد خلقه

مباشرة ، مع التصريح بأنه خلق من طين او طين لازب او من صلصال ، او حما مسنون . وان الملائكة ، خلقوا من نور ، وان الشيطان ، عدو الانسان ، خلق من نار . وقصة خلق آدم ، وما جرى يبين الله تبارك ، وبين الملائكة ، وابليس ، ليست مجرد حكاية بعدد الخلق ، ولا تقرير هذه الحقائق الالهية ، عن الملائكة وآدم ، وابليس ، انما هي من العقيدة الاسلامية ، اصل من الاصول ، انبتت عليه احكام هذا الدين الذي وضع فوق أعلى اعلامه ، واسمى راياته : « ولقد كرمنا بني آدم ».

وقد يحسن أن نعلم بادىء ذي بدء ، ان الملائكة وصفوا في القرآن بانهم « لا يعصون الله ما امرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون » فهم مخلوقات معصومة من الخطأ ، تعيش في طاعة الله وتحيا لعبادته ، فلما قضت إرادة الله ، أن يكون له خليفة في الأرض ، كان الملائكة أحق بهذه الخلافة من مخلوق جديد ، خلق بعد خلقهم ، وجمع في خلقه أمرين ، يبدوان لغير الخالق متنافرين فقد خلقه الله بيده . وخلقه من طين . فهو بالأولى ، قد ظفر بكل تكريم ، وهو بالثانية ، جدير بالتشكك في صلاحيته لخلافة الله في الأرض .

والخلافة هذه ، بذاتها ، معنى من المعاني التي لم تشر اليه ، ولم تقرره عقيدة اخرى ، وهي بداية من بدايات العقيدة الاسلامية . فالانسان الذي خلقه الله بيده من طين ، هو الامين على كل ما فرضه الله ، للحياة في الارض ، من قوانين

واحكام ، اي ما قال عنه القرآن الكريم « سنة الله في خلقه ».

ولم يرو كتاب الله تعالى ، فيما رواه ، من انباء الغيب اي الماضي ، ان الملائكة خرجوا عن طاعة الله ، ولو بالاستفسار عن شيء فرضه ، الا في مشهد واحد ، ذلك حينما انبأهم الخالق « بأنه جاعل في الارض خليفة » وعرفوا ان الله قد اختار لهذه الرسالة العظمى آدم ، فقالوا باذنه : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ولا حاجة بنا لاضاعة الوقت او الجهد في تعرف كيف استنتج الملائكة ان (آدم) سيكون مفسدا وسافكا للدماء ، وهو غيب ـ أي مستقبل ـ والغيب علمه عند الله وحده ، فاما ان يكون الله قد اعلمهم بخصائص هذا المخلوق الجديد وصفاته ، وانه على غير شاكلتهم ، غير معصوم من المعصية والخطأ ، وانه لا قبل له بمداومة العبادة الأمر الذي ظفروا به ، وإما أن يكونوا قد استشفوا من المادة التي خلق منها ، ومن انه خلق من الأرض ، ليعيش فيها ، فلا يشارك الملائكة ما خصهم الله به ، من رسالات ، ولا يرتفع الى العالم الذي يخلقون فيه ، انه ضعيف ، وان ضعفه يفضى الى الفساد والجريمة ، وعلى كل حال ، قد استنتج « ابليس هذا كله ، وما يفطن اليه ابليس ، يمكن ان يهتدي اليه الملائكة ، وقد ظهر هذا كله من قوله تعالى : « واذا قال ربك للملائكة اني خلق بشرا من صلصال من ضما مسنون ، فاذا سويته ونفحت فيه من

روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم اجمعون ، الا أبليس ابى أن يكون مع الساجدين قال يا ابليس مالك الا تكون مع الساجدين ، قال لم اكن اسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون »، وفي موضع آخر قال الله تعالى : « ما منعك الا تسجد اذ امرتك ، قال انا خير منه خلقتني من نار ، وخلقه من طين »، واحتجاج الملائكة والشيطان معا له ما يبرره ، لانه اعتراض قائم على المعايير غير الالهية فحكمه الله قد خفيت عنهم جميعا ، ولكنه سبحانه لم يلبث حتى اطلعهم على هذه الحكمة فقد قال تعالى : « وعلم مدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم ، قال يآدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض ، واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ».

وفي هذه الايات ، خلاصة ما فرضه الاسلام للانسان من تكريم واعزاز واعلاء للشأن ، وزبدة حكمته في خلق الانسان ، وما أعد له في هذه الارض ، من رسالة التعليم والتعليم ، والابداع والتعمير ، وتحول من الضعف الى القوة ومن الجهل الى الدراية . ومن الخوف الى الشجاعة ، وهذه تحولات ممتنعة على الملائكة بحكم كونهم قد بلغوا مرتبة الكمال ، واعفاهم الله ، من عناء المحاولة والبحث .

فالانسان ، على الرغم من تعرضه للمعصية واتيان الذنوب ، قابل للانتفاع باخطائه ، والارتفاع فوق قصوره ، اي أنه قابل للعلم ، وراغب فيه ، وهو بهذه الميزة ، احق بالتقديم ، واولى ، بالرعاية . فالناقص الراغب في الكمال ، افضل من الكامل ، الذي لا يطمح في المزيد . والانسان الذي تتعثر خطاه ، والذي يشقى برذائله ، فيقتل أهله وأعداءه معاً ، ويدمر ما بناه ، ويهدم ما خلقه ، هو بلا شك أرقى من النحل والنمل ، اللذين يعيشان في خلاياهما ، يسودهما نظام لم يهتد اليه اعظم المشرعين ، والى استقرار وتعاون ، لم تسمع بهما اقوى الدول . ولكن النحل والنمل ، بقيا على حالهما القرون بعد القرون ، لا يهبطان عن كمالهما قيد شعرة ، ولا يتجاوزانه ، مقدار انمله ، اما الانسان فقد خرج من الكهف الى اعماق السماء ، واغوار الماء ، وعلم عن نفسه والافاق والاكوان ، ما جعله سيد هذه الارض بحق .

واذا كان ابليس قد نجح في غواية آدم وزوجه ، فطرد آدم وحواء من الجنة ، ولكنهما لم يطردا من رحمة الله بل ان خالقهما عز وعلا قال : « اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو فاما يأتيكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » . فالانسان بقى مغمورا برعاية الله ، مشمولا بعنايته ، ذلك لانه قادر على ان يقف بعد التعثر ، ويستقيم على السبيل ، بعد الاضطراب ،

ويثوب إلى الحق بعد الانجذاب للباطل وخلاصة هذا في قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . فـالانسـان بمـواهبـه وملكـاتـه ، مهيـأ لأن يحلق في السماء ، ويبدع الروائع ، ويعلو فوق الفواجع ، الا ان حرصه على بقاء الفرد وبقاء الجنس ، اي حاجته الى الطعام والتناسل ، يهبطان الى اسفل سافلين ، مالم ترفعه عقدته ، وتحرره مثله ، ويعلو به طموحه . وهو بين هذا وذلك (الانسان) الذي حقق في هذه الارض ، ما كان الملائكة عاجزين عن اقامته فيها ، اذ لا طمع عندهم ولا صراع بينهم ولا علم يلتمسونه ولا جهالة يشكون منها ، وانما ثبات لا يتغير ودوام لا يحول . واذا كانت الملائكة قد فطرت على الطاعة والانقياد ، فان عقل الانسان وجد للعلم واستشراف للحقيقة ، وفهمه للمعرفة الذي لا يشبع ، وفضوله الذي لا يهدأ ، واجتهاده الذي لا ينقطع قادر على ان يصل به الى الطاعة ، وان يحسن العبادة ، مجتهدا ساعيا ، متحملا في اجتهاده ، الالام والاوجاع ، فيفتر عزمه حينا ، ولكنه لا يلبث حتى يبدأ من جديد ، سعيه ، ويصل ما انقطع من جهده . وقد اهتدى الانسان فعلا بعقله الى استحقاقه دون غيره ، وقد اختير للخلافة ، بالنهوض بامانة هذه الخلافة : قال الله تعالى : « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال ، فابين ان يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

وما الامانة ، الا حرية الانسان ، اي حرية ارادته ، في الاختيار بين السبل ، والمفاضلة بين الامور ، وهي حرية رفضتها النباتات والجمادات ، بلسان الحال ، اي بسبب عجزهم عن التطور الذاتي ، فذهب الانسان ، سن هذه الارض بحق ، سخرت له الانهار والبحار ، والسموات والارض وما بينهما .

الاسلام وللناس

ماذا يريد الاسلام للناس في ايامنا هذه ، وهل في وسعه ـ وسط المشكلات ا المتفاقمة ، والازمات المتلاحقة ، ان يقيم لهم بناء يبين لهم اساليب العيش والتفكير ، في مجالات السياسة والاقتصاد ، والادارة والعلم . وعلى الرغم من ان اجابة هذا التساؤ ل ، تحد ، ليس باليسير ، فان محاولة الرد عليه ، جديرة ـ بان يبذل في سبيلها جهد . واذا تصورنا ان هذا البناء يتكون من لجنات اساسية ، وانها لا تزيد عن عشر ففي الوسع ان نقول :

ركن الزاوية ، او حجزها ـ في هذا البناء ـ هو ان رب المسلمين ، هو رب العالمين ، فهو رب الناس كافة : رب اليهود والمسيحيين ، والمشركين والكفار ، والوثنيين وآكلي لحوم البشر يشملهم جميعا برعايته ، ويفتح لهم ابواب الهداية اي التقدم والتحرر والقوة ، يغفر لهم ذنوبهم ، الا الشرك لانه يقفل في وجوههم ابواب العلم والتفكير ، ويرميهم في احضان الجهالة والاوهام . وان كان الله رب المسلمين ، الا انه لا يحابيهم ، ولا

يعطيهم فوق ما يستحقون ، ولا ينصرهم على اعدائهم ولو كانوا كفارا ، الا اذا عرفوا سنن هذا الكون ، وكشفوها ، وعملوا بما تقضي ، وتحلوا بالاخلاق التي يامر بها : الشجاعة عند المعركة والثبات وقت المحنة والاستعداد لكل شيء .

واللبنة الثانية : ان الانسانية كلها ، قديمها وحديثها ، في المشارق والمغارب ، من نحب ومن نكره أمة واحدة ، والتفاضل بين أبنائها ، كالتفاضل بين شعوبها وأممها لا بالحسب ولا بالنسب وإنما بالعمل الصالح : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

واللبنة الثالثة : لقد ضم الله رسالات السماء بكتاب قرر مبدأين يحلقان من اعلى عليين على رموس البشر :

الاول : الانبياء جميعا اسرة واحدة ، يدعون الى دين واحد : آمن الرسول بما انزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين احد من رسله » فابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، هم انبياء المسلم ، يحبهم ويوقرهم .

الثاني : ان مصير الانسان ، بين يديه ، لا يقيده الا سنن الكون وقوانينه ، التي ان اهتدى اليها الانسان ادار هذا الكون ، وانتفع منه وبه : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » فلا عذر للانسان ، ان لم يفرض سلطانه ، على هذا

الكون بسمائه ومائه ، وبحاره وانهاره ، وطاقاته وثرواته ، وسبله ونجاجه ، واعماقه وامواجه .

اللبنة الرابعة : ان الحاكم المسلم ، ينتخب دائما ولا يعين ، ينتخبه الناس احرارا طلقاء . فالحكم لا يورث في الاسلام ابدا . والاسلام يعبر عن الانتخاب بلفظ ارق وادق ، هو « البيعة » فالحكم تفويض من الشعب وتوكيل . وهذا يستتبع حق من بايع في المراقبة والمحاسبة ، وانزال العقاب اذ يقول الحديث الشريف : اذا رايتم الظالم ولم تاخذوا على يديه يوشك ان يعمكم الله بعذاب » .

اللبنة الخامسة : الشورى بين الحاكم ، واهل الرأي ، فريضة تكاد تبلغ مبلغ العبادات لزوما وقدسية . على الحاكم ان يلتمسها غير مقصر ، وعلى ائمة الشعب وقادته ، ان يبذلوها وان ينصحوا للحاكم ، ولو كلفتهم الحياة والرزق « فالدين النصيحة » .

اللبنة السادسة : وليتم التناصح بين الحاكم والمحكوم ، او الراعي والرعية ، لا بد من اقامة راي عام ، تشيط حساس ، شجاع يقظ رافض للظلم ، كاره للفساد ، قادر على رفع الصوت ، يتصدره العلماء والائمة ، ولكنه جيش لجب ، يضم الناس جميعا و لبناء هذا الراي الساهر الشاهر لسلاحه قال الله تعالى : لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم » وقال

تعالى في وصف المؤنين : والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون » كما قال الرسول عليه السلام : « اذا لم تستطع امتي ان تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها » اي اصبح ميئوسا منها .

اللبنة السابعة : ان المصدر الوحيد عند المسلمين للمال ، هو العمل ، فالمال لا يلد مالا ولذلك فالفائد مهما قلت هي ربا يعاقب عليه ويرفض والمال اصلا مال الله ، والناس مستخلفون فيه فهو وديعة بين ايديهم وملكيته وظيفة :

« آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ».

اللبنة الثامنة : ان الغاية في الشرع الاسلامي هي تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم فحيث توجد مصلحة الناس فثم شرع الله . ومن هنا يكون للحاكم إذا قضت الضرورة ان يخطط لكل نشاط الرعية ، ويوجه كما يكون له ان يسعد ويؤمم .

اللبنة التاسعة ـ المسلمون مامورون رجالا ونساء ، بطلب العلم من المهد الى اللحد ، وعلم ساعة ـ عندهم كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام خير من عبادة ستين سنة . ومداد العلماء خير ـ كما قال ايضا ـ من دماء الشهداء .

اللبنة العاشرة : المدخل لكل هذا البناء ، عقيدة ترهف الضمير الانساني ، وتجعله رقيبا للفرد والجماعة في السر والعلن ، في السراء والضراء ، في الضعف والقوة .■

العلمانية

يروى تشرشل في مذكراته ، انه اجتمع مع روزفلت رئيس الولايات المتحدة ولتفيسنوف ، سفير الاتحاد السوفيتي في واشنطن ليضعوا اعلان الامم المتحدة الذي نشر في اول يناير سنة ١٩٤٢ ، فاعترض السفير السوفيتي على عبارة « الحرية الدينية » التي وردت في المشروع فانبرى له روزفلت والقى محاضرة طويلة : عن الموت والنشور ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، فاغرقه في بحر طام من العلم اللاهوتي ، فلم ير السفير بداً من أن يسحب معارضته نجاة بنفسه من موجة أخرى من التلقين الديني . ويقول تشرشل أنه مازح روزفلت قائلاً له : لقد كنت مشفقاً عليك من نتائج انتخابات الدورة الثانية لرياستك ، أما الآن فلا خوف عليك ، ولو لم يعد الأمريكون انتخابك . فسيكون البريطانيون سعداء إذا قبلت أن تعين كبيراً للأساقفة في بلادهم . فبلاغتك في الوعظ ، وعلمك بالدين يؤهلانك لذلك وهذه القصة الصغيرة على طرافتها ، تتضمن من المعاني ما يحسن سوقه للذين يؤمنون (بعلمانية الدولة) . فماذا تكون هذه العلمانية أولاً !

والعلمانية اصطلاح حديث يقصد به ما ليس دينيا او كهنوتيا ، ولعله مشتق من لفظ (العـالم) وترجـع اصول العلمانية ، الى ردود الفعل ، لثورة مارتن لوثر في سنة ١٥٢٠

على البابا ، وانتقاده العنيف اياه لبيع صكوك الغفران للعصاة والخاطئين من المسيحيين مقابل مال كثير يدفع للبابا ، فيضمن لهم دخول الجنة ، ولسخط لوثر على عبادة القديسيين ودعوته الى العمل بالكتاب المقدس وحده ، ولم تلق هذه الدعوة اول الامر استجابة ذات شأن ولكن لما اخذ اتباع لوثر يكثرون سلطت عليهم الكنيسة والامراء الذين انحازوا لها ما يصفه جوستاف لوبون بقوله ، ابيد الشيوخ والنساء والاطفال ، وصار رئيس برلمان (اكس) البارون (دويين) مثالا يحتذى لقتله في عشرة ايام ثلاثة آلاف شخص وتدمير ثلاث مدن ، واثنتين وعشرين قرية . فهل كفت الدول ـ لا سيما في غرب اوروبا ـ حقا عن النشاط الديني ، وغسلت يديها منه ؟ـ يهمنا في الاجابة على هذا السؤال ، الجانب الخارجي من نشاط الدول (العلمانية) فالثابت من تاريخ الاستعمار الاوروبي الغربي في اسيا وافريقيا ، ان هذه الدول اتخذت من الدين وسيلة لتبرير استعمارها ولنهب ارزاق اهل المستعمرات ، وحرمانهم من ثقافتهم الوطنية ، ومن نفض نير الاستعمار عن اعناقهم . واذا اردنا ان نضرب الامثلة على زيف هذه (العلمانية) وكذبها ، تزاحمت بين ايدينا الامثلة ، حتى لا ندري ايها ناخذ وايها ندع ، ولكن احسب ان ما جرى في الجزائر ، فضلا عن اتصاله بنا ، لوقوعها في محيطنا العربي والاسلامي ، فهو نموذج صارخ لعلمانية الغرب ، وسننقل المثل التالي من كتاب الكاتبين الفرنسيين كوليت

وفرانسيس جانسون المعنون « الجزائر خارج القانون » قالا :

« لعل العبث بالدين الاسلامي كان هو المجال المفضل لدى القائد (روفيجو) ليعيث فيه فسادا واستهتارا ، فقد وقف هذا القائد الفاجر ونادى بين قومه بانه يلزمه اجمل مسجد في مدينة الجزائر ليجعل منه معبدا لاله المسيحيين ، وطلب من اعوانه اعداد ذلك في اقرب وقت ممكن واشار لهم الى جامع القشاوة لانه كما قال اجمل جوامع الجزائر طرازا وحدد يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٣٢ لانجاز هذا العمل وفي الموعد المحدد ، تقدمت بطاريات الجيش تزحف الى المسجد فاذا بداخله اربعة آلاف مسلم اعتصموا به خلف المتاريس فاندفعت نحوهم القوة العسكرية ودحرتهم بالسناكي . . » ثم وضع في هذه الكاتدرائية منبر كان يعرف في الجزائر بأنه (منبر الرسول) وهو آية في النقش العربي ، وعلى هذا المنبر وقف الحاكم (موجو) يقول : ان آخر ايام الاسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما ، لن يكون للجزائر اله غير المسيح ».

وهو بطبيعة الحال غير المسيح الذي يؤمن به المسلمون ، كما امرهم بذلك دينهم ، ولا هو المسيح الناصري الذي قال للناس ، احبوا اعدائكم ، باركو لاعينكم . . . الخ » ونحمد الله اذ اعفى الجنرال ديجول ، بلاده فرنسا ، موطن الثورة ، والانسانية من هذه الوصمة الكاذبة فلنر ، في الجانب الاخر ،

كيف حقق الاسلام ، كل ما عقد على (العلمانية) من آمال لم تتحقق لافي داخل الدول ولا خارجها .

اولا ـ ليس في الاسلام هيئة ولا طبقة تحترف صناعة الدين ، او تستأثر بشرح احكامه ، فكل مسلم مدعو لقراءة الدين والتفقه فيه ، وله الحرية في ان يفهم ما يشاء ، مادام يفهم لنفسه وله ان يستعين بمن هم ارسخ منه قدما في اللغة ، واقدر منه لثقافتهم وعلمهم لياخذوا بيده ، فليست تلاوة القرآن حكرا لاحد ، ولا هي ممنوعة من احد . بل انها مستحبة كلما تيسرت للانسان . والانسان يصلي وحده بلا رقيب ولا موجه واذا اجتمع المسلمون ، تقدم احدهم فامهم ما دام يعرف اصول الصلاة ، ولو كان اشعث اغبر لا يؤ به له .

وفي هذا المعنى يقول الشيخ شلتوت : قد اتصلت بالقرآن ، بعد ان التحق الرسول بربه ، افهام العلماء ، والائمة فيما لم تكن من اياته نص في معنى واحد وكثرت الاراء والمذاهب في النظريات والعمليات ، لا على انها دين يلزم وانما هي آراء وافهام » .

ثانيا ـ عبادة المسلمين وصلاتهم جائزة في كل شبر من كل ارض فالله تعالى قال : « فاينما تولوا فثم وجه الله » وقال الرسول عليه افضل السلام « .. وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا » .

ثالثا ـ ونبى المسلمين ورسول الله اليهم ، بشر مثلهم ، يأكل الطعام ، ويمشي في الاسواق ، وكان له كل نشاط الادميين ، فتزوج وانجب ، وصام وافطر وحارب وسالم وعاهد ، وعرف اليتم والثكل ، ماتت له زوجات وبنات وبنون واكد القرآن والحديث بشريته ووصفه القرآن ، بانه عبد يأكل كما يأكل العبد ، ويجلس كما يجلس العبد » ففي القرآن « سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » وفيه « قل لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله »، وفي الحديث « لست ملكا ولا جبارا ، انما انا ابن امرأة تأكل القديد في مكة ، والرسل جميعا ـ عند الاسلام ـ ليسوا الا مبلغين لرسالات الله ووظيفتهم الارشاد والتعليم عن طريق الوحي ، وفي علماء المسلمين من يقول ان الرسول ﷺ . يجوز عليه من الخطأ والصواب فيما عدا ما خصه الله به ـ ما يجوز على اي فرد من البشر .

رابعا ـ الاصل في الاشياء الاباحة ولا تحريم الا بأمر الله ، في نص من القرآن او نص من الحديث قطعي الورود فالاباحة والتحريم من حقوق الله وحده ، ولا يشاركه في ذلك شريك من رسول او خليفة ، او هيئة او جماعة او طنقة او فئة . وبالتالي لا يوجد من يغفر الذنوب الا الله ، وكل مسئول عن عمله لا تنفع احدا عند الله قرابة حتى للرسول الكريم فقد قال عليه السلام « يا معشر قريش اشتروا انفسكم لا اغنى عنكم من الله شيئا » وقال لو سرقت فاطمة ـ بنته رضي الله عنها ـ لقطعت يدها .

ـ واخيرا يساوى الاسلام بين رسل الله جميعا ، واديانهم « آمن الرسول بما انزل ا اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله ؟

وقد أمر الاسلام المسلمين ، ان يعاشروا اهل الكتاب بالحسنى وان ياكلوا طعامهم ، ويتزوجوا نساءهم كما امرهم « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن ».

وقد نشأ من كل ذلك جو من حرية الرأي اتاح للمسلمين واخوانهم من اهل الكتاب والاخاء الانساني ، والتعاون الاخوي مسيحين ويهود ، ان يتعاونوا في انشاء حضارة انسانية ، بقي التسامح ، وكراهية القسر والعنف ، طابعها المميز حتى في ادوار انحلالها ، وقد روى مصطفى كامل في كتابه الشهير « المسألة الشرقية » انه لما فتحت القسطنطينية على يد محمد الفاتح السلطان التركي ، وانتخب المسيحيون الروم بطريركا قال له السلطان محمد : كن بطريركا لليونان والله يحميك ، وفي كل الاحوال والظروف اعتمد على مساعدتي وتمتع بكل الامتيازات التي كانت لاسلافك من قبل »

فهل علمانية كائنة ما كانت قادرة على ان تحقق هذا او شيئا قريبا منه ؟■

الناس

لم يجتمع في نص ادبي . في كتب السماء المنزلة ، او كتب البشر الخالدة لفظ الجلالة ، اسم الله العظيم ، مع لفظ (الناس)، كما اجتمع في السورة الثانيـة من القرآن الكريم : قل اعوذ برب (الناس)، ملك (الناس) اله (الناس)، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور (الناس) من الجنة و(الناس) فالقرآن الكريم هو كتاب الناس ، كما هو كتاب الانسان .

ورد فيه لفظ (الناس) مائتين واربعين مرة على ما يقول معجم المجمع اللغوي ، في حين ورد فيه لفظ (الانسان) خمسا وستين مرة . وهذا الفارق بين العددين ، يكشف في يسر ، عن نظرة الاسلام الى الانسان (الفرد »،

والناس « الجماعة ». فمع شدة احتفال القران بالانسان ، وتكريمه ، فان الناس ، مجتمعين ، يتقدمون على (الانسان) الواحد .

وقد انشعبت المذاهب الحديثة الى شعبتين : شعبة تؤمن بالفرد ، وتجعله ركن الزاوية في المجتمع الانساني وتغار عليه من لمس الحرير ، ومن مر النسيم . تدعه حرا في ماله ، يجمعه كيف يشاء ، وينفقه كيف أراد ، وفي رأيه يقول ما يحب ، وفي نشاطه

كله يوجهه بلا قيد ولا حد ، ويقيمون مبدأهم على ان نشاط الافراد الطليق ، هو ضمان التقدم ، وان التنافس بين الافراد ، هو الذي يضع الحدود المانعة من الشرور .

وشعبة ، تخاف من النشاط الفردي وتعتبره سبيلا الى استكثار المال الحلال والحرام ، والاستزادة من السلطة بالطريق المشروع وغير المشروع ، وان ضحية حرية الافراد : الفقراء والضعفاء ، ولذلك فالضمان ان تكون الجماعة ، هي الهدف ، نقيمها ، ونجعل كلمتها هي العليا ، ونضحي بالفرد في سبيلها : حريته وماله ورأيه . لانه سيخرج من هذا البناء الجديد حرية حقيقية ، لانها ستكسو العاري ، وتطعم الجائع ، وتعلم الفقير ، وتجعل للرأي قيمة .

اما الاسلام ، فلم يجد صعوبة في ان يوفق بين المذهبين ، وان يجمع بين الحسنيين ، فالانسان كله حرام على المسلمين : ماله ودمه وعرضه ، لا يقتل ، ولا يحبس ، ولا يسجن ، ولا يؤخذ منه درهم او دينار ، الا بحقه وبحقه ، يعني بامر الشارع الاكبر الله ، كما بينه في القرآن سنة الرسول ، وكما قرر الحاكم استهداء بالقرآن والسنة واجماع فقهاء المسلمين والضمان الذي لا يجعل الفرد ، غولاً يتضخم ، ويثرى ، فلا يقوى حاكم على ردعه ، ولا حكم على تقويمه وصده ، أن تكون مصلحة المسلمين ، أي مصلحة الجماعة ، هي هدف كل كلمة وحرف وكل حركة

وسكون ، وكل درهم يكتسب وكل قرش ينفق . فالجماعة أولاً والمسلم من بعد ذلك .

قال رسول الله يوما لبعض اصحابه فاربوا وسددوا ، فلن ينجو احد بعمله . فقال اصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام : ولا انت ؟ فقال ولا أنا ، الا ان يتغمدني الله برحمته ورضوانه .

ومعنى ذلك ان الرسول دعا المسلمين الى ان يلتزموا احكام الدين لان كل انسان سيحاسب بعمله ، ولن يفلت من التوبة عند الاحسان ، ومن العقوبة عند الاساءة فسأله المسلمون ، حتى أنت ، فقال حتى انا . وهذا هو الحاكم الاعلى الموحي اليه مباشرة من الله . وقد حدث أن المسلمين اسروا في احدى الغاوات ابا العاص بن الربيع زوج السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ ، وافلت ابو العاصى من الاسر ، ولاذ بمنزل السيدة زينب في المدينة فاستجار بها ، فأجارته ـ فلما كانت صلاة الفجر ، صرخت زينت من صفة النساء ، أيها الناس أني قد أجرت أبا العاصي من الربيع » ودهش الرسول لأنه لم يسمع عن فرار أبي العاصي من الأسر ولا ملجؤه إلى ابنته فقال بأعلى صوته ليسمع جميع المسلمين ، أما والذي نفسي محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، وقد نفى الرسول علمه بأن أعلنته ابنته ، حتى لا يظن ظان ، انه اتفق معها على أن تورط

المسلمين ، تحرصاً من الرسول وابنة الرسول ، ثم ترك لهم أن ينفذوا في زوج ابنته ما سينفذونه في سائر الأسرى ، يخضونه برعاية وواضح من القصة ان إبن العاص كان حتى هذه الحادثة على دين آبائه لم يدخل الاسلام وأن زوجته تركته وتركت مكة ، وهاجرت إلى المدينة حيث رسول الله ، والدها الكريم .

ففي دولة الاسلام ، القانون يسرى على الحاكم قبل المحكوم ، ويقيد القوي ، قبل الضعيف ، ويعلو على الدولة ، ولا تعلو عليه ، فليس القانون ، وسيلة الحاكم ، وانما الحاكم خادمه المطيع ، يلتزمه ، وينزل على مقتضاه ، ولا يغيره على هواه ، فرسول الله ، لا يملك ان يعدل نصا من نصوص القرآن . اذ احرجته حادثة ، او ضيقت عليه الخناق ازمة قل ما يكون لي ان ابغله من تلقاه نفسي ، سورة يونس .

وفي ظل القانون الاسلامي يمارس غير المسلمين ، ديانتهم وعبادتهم ومذهبهم علنا ، ، لا يتوارون ، ولا يتقون غضب الجماعة ، بل ان عمر أادب مشرفا على معبد يهودي ، لانه اهمل المعبد ، وتركه حتى طمره التراب ، فخلعه ثوبه ، واخذ يزيح عنه التراب بكفيه ، واحتذى حذوه من كان معه من الصحابة الاجلاء .

وقد نص القرآن في اكثر من موضع على شأن الجماعة ، وعلى علو مقامها ففي سورة الانفال قال تعالى : « هو الذي ايدك

بنصره وبالمؤمنين » فجاء تأييد المؤمنين للرسول ، بعد نصر الله ، لا يفصل بينهما فاصل ، وفي سورة آل عمران : « شهد الله انه لا اله الا هو ، والملائكة واولوا العلم » فسلك شهادته سبحانه وتعالى وشهادة العلماء من ابناء ادم في نظم واحد ، وفي آل عمران ايضا : « أولئك جزاؤ هم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين » ومرة اخرى ينتظم غضب الله ، وغضب الناس ، سباق واحد ، وكان القران يقول ان شهادة العلماء ، من قبل الانسان ، فرع من شهادة الله عز وعلا ، وان غضب الناس اجمعين منّ غضب الله . . هذه هي الجماعة عند القرآن والاسلام . فهو بحق دين الناس بقدر ما هو دين الانسان .

الممتحنات

« سورة الممتحنات »

نزلت بعد عقد هدنة الحديبية ، في اواخر السنة السادسة للهجرة .

قبلها في ذي القعدة ، كان الرسول (عليه الصلاة والسلام) قد خرج من دار هجرته في نحو الف من اصحابه المهاجرين والانصار ساعين الى البيت الحرام معتمرين ، لا يريدون قتالا .

: وفي مرحلة من الطريق ، جاءهم الخبر بأن قريشا قد سمعت بمسيرهم الى مكة ، فعبأت الرجال والخيل والسلاح ،

وخرجوا يترصدون لركب المصطفى في « ذي طوى » ليصدوه عن المسجد الحرام ، وقد تعاهدوا على الا يدعوه يدخل مكة عليهم ابدا .

ولم يرجع المصطفى (عليه الصلاة والسلام) بل سلك بمن معه طريقا غير الطريق التي اخذتها قريش ، حتى نزلوا بالحديبية - من اسفل مكة ، فلمحتهم خيل قريش وكانت لهم بمرصد . وجاءت قريش متوعدة بقتال .
: وتتابعت النذر : ليرجعن محمد باصحابه من حيث جاءوا ، او فلتكن الحرب !

واذ لم يجد مع المؤمنين وعيد ولا نذير ، لم تر قريش مفرا من المفاوضة على هدنة لعشر سنين ، وندبت « سهيل بن عمرو » ممثلا لها في التفاوض مع محمد « عليه الصلاة والسلام) على شروط الصلح ، واولها ان يرجع عامة هذا عن مكة ، فوالله لا تتحدث العرب انه دخلها على قريش عنوة ابدا .

وقد أقر المصطفى من شروط ذلك الصلح بالحديبية ، ما يرسخ اقرار الاسلام لحرية العقيدة والارادة .

: : :

: كان من شروط الهدنة :

« انه من محمدا من قريش بغير اذن وليه ، رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه » .

وكيف يكره احدا على البقاء معه ؟ . . واي خير يرجى من مكره على البقاء حيث لا يريد ؟

اما الذين ياتونه من قريش ويرددهم ، فليكن الامر فيهم محنة ابتلاء : يثبت فيها على عقيدته من يؤمن بها ولو بذل حياته فداء له ، ويخرج منها من لا طاقة له على احتمال الفتنة ، والصبر على البلاء .

: وكان من شروطها كذلك : « أنه من احب ان يدخل في عقد محمد وعهده ، دخل فيه . ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم ، دخل فيه ».

الاختيار اذن متروك للقوم ، آمنين من ان يضاروا بهذا الاختيار .

: : :

: ثم لم تم الاتفاق على شروط الهدنة وآن ان تكتب ، دعا المصطفى (عليه الصلاة والسلام) ابن عمه « على ابن ابي طالب » (رضي الله عنه) وبدأ يملي عليه ما اقر الطرفان من عقد الحديبية ، قال :

اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » . . . .

فاعترض سهيل بن عمرو قائلا : « لا اعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ».

فقال (عليه الصلاة والسلام) لعلي :

اكتب : « باسمك اللهم .

هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » . . .
وكتبها « علي »

وللمرة الثانية ، اعترض سهيل قائلا :

« لو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك ، ولكن اكتب اسمك
واسم ابيك : « محمد بن عبد الله » .
قال (عليه الصلاة والسلام)

انا رسول الله ، وانا محمد ابن عبد الله .

ثم قال لعلي بن ابي طالب :
امح « رسول الله » .

وكان « علي » هو الذي توقف هذه المرة ، وقد شق عليه ان يمحو كلمة « رسول الله »، وان امره (عليه الصلاة والسلام) بمحوها .

قال رضي الله عنه ، معتذرا :
« لا والله لا امحوك ابداً » .

فاخذ المصطفى الصحيفة ، فمحا الكلمة التي اعترض عليها ممثل قريش ، سهيل بن عمرو . . ثم مضى يملي ، حتى تمت

كتابة عقد الهدنة ، واشهد عليه رجالا من المسلمين ومن المشركين .

: : :

● قبل أن يجفف مداد وثيقة الهدنة ، بدأت محنة الابتلاء :

جاء ابو جندل بن سهيل بن عمرو يوسف في الحديد ، قد انفلت من قريش الى رسول الله (ﷺ) وهم المسلمون بأن يمنعوه من ابيه الذي قام اليه فضرب وجهه وقال للمصطفى (عليه الصلاة والسلام) :

ـ قد لجت القضية بيني وبينك قبل ان ياتيك هذا

واندفع يجره وهو يصرخ باعلى صوته :

ـ يا معشر المسلمين ، أأرد الى المشركين يفتنوني في ديني ؟

فلم يملك المسلمون ان يمنعوه ، ورسول الله (عليه الصلاة والسلام) يقول :

« يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، واعطيناهم على ذلك عهد الله ، وانا لا نغدر بهم » .

وقال مثل ذلك ، لأبي بصير عتبة بن اسيد ، وآخرين ممن خرجوا من قريش ، بغير اذن اوليائهم .

: ثم كان هؤلاء المستضعفون هم الذين تمردوا على طاغوت الوثنية الباغية .

نزل ابو بصير قرب « ذي المروة » واجتمع اليه نحو سبعين رجلا ممن اكرهوا على العودة الى قريش ، فقطعوا طريقها الى الشام ، وبلغ بها الخوف منهم ان كتبت الى محمد (ﷺ) ، ترجوه ان يؤويهم فلا حاجة لها فيهم !

واواهم المصطفى (عليه الصلاة والسلام) . . .

: : :

: لكن الوضع بالنسبة الى النساء كان مختلفا : نص الحديبية عام ، لم يستثنهن من الشرط ، فهل تعاد مؤمنة الى زوج مشرك ؟ قد تتمسك قريش بعموم نص الهدنة .

وقد يكون من المهاجرات الى المسلمين ، من خرجت من قريش لاي سبب غير الاسلام ، كان تتخلص من زوج مشرك لا تحبه ، او تلحق بذي رحم لها بين المسلمين .

: وبدا الموقف معقدا حين جاءت نساء مهاجرات ، وشرط الحديبية قائم .

وحسم القرآن الموقف بآية الممتحنة : يمتحنهن الرسول ليعلم ايمانهن بأن يسألهن فيم جئن ، ويكتفى منهن بشهادة الاسلام دون تعرض لنواياهن ، فالامر فيها مفوض الى الله تعالى « هو اعلم بايمانهن » .

واباحت الآية للمؤمنين الزواج ممن فرق الاسلام بينهن وبين الكفار على أن يدفعوا لهن ما تكلفوا من نفقة وصداق .

: وكما لم يحل الاسلام ارجاع مؤمنة لكافر ، لم يحل للمؤمنين ان يمسكوا بعصم الكوافر ، لفساد الزوجية بين اثنين احدهما كافر والآخر مؤمن .

: مع تسوية عادلة للجانب المالي : فيسترد الذين فرق الاسلام بينهم وبين نسائهم ما تكلفوا من صداقهن ونفقتهن ، على وجه المساواة بين الطرفين .

« ذلكم حكم الله يحكم بينكم . والله عليم حكيم »

صدق الله العظيم

أبو لهب وأبو طالب

كلاهما من اعمام محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام . ومات كلاهما ، على دين آبائه .

وما ابعد الفرق بينهما ، رغم القربى والشرك ! احدهما ذهب بلعنة الله ورسوله والمؤمنين ، ولصقت به الكنية الرهيبة : « ابو لهب » تبت يداه .

والاخر شرف في تاريخ الاسلام بان ارخت السيرة النبوية بعام وفاته ووفاة السيدة خديجة ام المؤمنين الاولى ، فسمته عام الحزن .

بلغ رسول الله ﷺ رسالة ربه ، وانذر عشيرته الاقربيين كما امر ، ثم ترك لكل منهم ان يختار لنفسه الطريق .

وقد اقام عمه « حمزة بن عبد المطلب ، على الشرك زمنا ، لم يكرهه المصطفى على دينه ، حتى آمن من تلقاء نفسه .

واختار « عبد العزى بن عبد المطلب » دين آبائه ، ثم مضى على غلوائه يؤذي المسلمين ويحرض على اذاهم . والقى بكل ثقله في الفتنة والاضطهاد ، فما عرف الناس هاشميا اشد عداوة للاسلام واقسى على المسلمين وطأة ، من عبد العزى ابي لهب . وقد بلغ من ضراوة عدوانه ، ان كان يحض تجار مكة على ان يغالوا في السعر على اصحاب محمد ، في محنة الحصار والمقاطعة ، حتى لا ينالوا منهم شيئاً . يرجع التجار إلى أبي لهب فيؤدي لهم ثمن البضاعة مضاعفاً ويرجع أصحاب محمد إلى عيالهم وليس بأيديهم ما يدفعون به عنهم قسوة الجوع والبرد .

وحقت اللعنة على أبي لهب ، بما صد عن سبيل الله وما قاتل المؤمنين وأخرجهم من ديارهم وظاهر على إخراجهم .

وفيه ، وفي أمرأته أم جميل بنت حرب ، نزلت سورة المسد :

« تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وأمرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد » .

على النقيض تماما ، كان موقف اخيه : ابي طالب بن عبد المطلب .

بقي على دين آبائه ، لكنه ابي ان يخذل ابن اخيه او يقبل عليه مساومة من قريش . وظل الى اخر لحظة من عمره ، يمنعه من بغى طواغيت قومه ويحميه من اذاهم ، ما وسعه الجهد .

وقد طالت مفاوضاتهم معه وطالت المساومة ، ليكف ابن اخيه عن دعوته او يخلى بينهم وبينه ، فما استجاب .

جاءوا اول الامر فقالوا :

ـ يا أبا أبا طالب ، ان ابن اخيك قد سب الهتنا وعاب ديننا ويسفه احلامنا وضلل اباءنا . فاما أن تكفه عنا واما ان تخلى بيننا وبينه ، فانك على ما نحن عليه من خلافة .

فترفق بهم أبو طالب وردهم ردا جميلا ، عساه ان يكف اذاهم عن ابن اخيه .

واذ مضى المصطفى على تبليغ رسالته ، عاودوا الكلام مع عمه فقالوا :

ـ يا أبا طالب ، ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وانا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب الهتنا ، حتى تكفه عنا او ننازله واياك في ذلك حتى يهلك احد الفريقين .

ولم يهن عليه خذلان ابن اخيه . لكنه خاف عليه من شر قومه ، وعظم عليه فراقهم فقال للمصطفى :

ـ يا ابن اخي ، ان قومك قد جاؤ ني فقالوا لي ما قالوا ، فأبق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الامر ما لا اطيق .

فظن عليه الصلاة والسلام ان عمه يوشك ان يخذله . او انه قد ضعف عن نصرته . فقال له :

« يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هذا الامر حتى بظهره الله او اهلك فيه ، ما تركته » .

وقام ينصرف ، وقد استعبر باكيا لم يملك دمعة من فرط حزنه على فراق عمه الذي كفله صبيا ورعاه شابا ، وكان له على إختلاف الدين والدا وصديقا وراعيا .

لكن عمه لم يلبث ان ناداه :
ـ أقبل يا ابن اخي .
فلما اقبل عليه ، قال له :

ـ اذهب يا ابن اخي فقل ما احببت ، فوالله لا اسلمك لشيء ابدا . .

: واذا ايقنت قريش الا سبيل الى خذلان ابي طالب ابن اخيه ، تعلق رجاؤ ها بان تساومه ، ولدا بولد ! مشوا اليه بعمارة

بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، فقالوا له :

ـ يا ابا طالب ، هذا عمارة بن الوليد ، انهد فتى في قريش واجمله فخذه ، فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك . واسلم الينا ابن اخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه احلامهم ، فنقتله ، فانما هو رجل برجل .

رد أبو طالب وقد ادرك ان قومه اضاعوا رشدهم :

ـ والله لبئس ما تسومونني ! اتعطونني ابنكم اغذوه لكم ، واعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله مالا يكون ابدا .

: ثم كان هو الذي دعا بنى عبد المطلب وآل هاشم ، ليمنعوا محمد ابن عبد الله ويقوموا دونه .

انهكتم قريش بحلف المقاطعة المشئوم ، وابوا مع ذلك ان

● ● ●

أنهكتهم قريش بحلف المقاطعة المشئوم ، وأبوا مع ذلك أن يخذلوه أو يسلموه .

وحين اشتكى أبو طالب في مرض الموت ، خيل لقريش انها تستطيع أن تنال في منه في وهن مرضه ما لم تنله في صحته من خذلان إبن أخيه . جاءه وفد من طواغييها فقالوا :

ـ يا أبا طالب ، انك منا حيث علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك . وقد علمت الذي بيننا وبين إبن أخيك ، فأدعه فخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه .

وبعث أبو طالب إلى المصطفى فجاءه وسمع من القوم ما أرادوا أن يقولوه ، ورد عليهم بأن ليس بينه وبينهم إلا كلمة واحدة ، لا إله إلا الله . فانصرفوا يائسين وهم يقولون : اجعل الإلهة إلهاً واحداً ؟ ان هذا لشيء عجاب !

وقال أبو طالب : والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً .

فتلهف المصطفى على إسلام عمه ، وجعل يدعوه : « أي عم فأنت فقلها ، استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » .

ورد عمه : يا إبن أخي ، والله لولا مخافة أن تظن قريش أني انما قلتها جزعاً من الموت ، لقلتها ، لا أقولها إلّا لأسرك بها !

في الخبر ، أن « العباس بن عبد المطلب » نظر إلى أخيه أبي طالب يحرك شفتيه ، قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، فأصغى إليه بأذنه ثم قال للمصطفى عليه الصلاة والسلام : يا إبن أخي ، والله لقد قال أخي الكلمة التي سألته أن يقولها .

فرد عليه الصلاة والسلام : لم أسمع !

ومات أبو طالب ، ومن قبله ماتت أم المؤمنين الأولى .

وكتب إبن هشام في [السيرة النبوية] من روايـة إبن اسحاق ، يؤرخ لعام الحزن ، قبل الهجرة بثلاث سنوات :

« ثم أن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكاً في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صديق على الاسلام ، وبهلك عمه أبي طالب ، وكان عضداً وحرزاً في أمره ، وناصراً على قومه . . فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تطمع به في حياة أبو طالب . . وكان يقول : ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » .

نور الكلمة !

في ليلة القدر ، نزلت الكلمة الاولى من الوحي ، فنسخت بنورها ليل الجاهلية البشرية ، ويدأ بهذه الكلمة عصر الانسان .

: : :

في الليل ، كان « محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي » قد انسحب من زحام المجتمع المكي ، الى غار حراء يلتمس في العتمة الداجية شعاعا من الهدى ، وينشد في خلوته راحة اليقين ، كما لون عادته منذ ان انكر الاوثان التي تكدست في حرم البيت العتيق .

وخرج مع الفجر من غار حراء ، مبعوثا بختام الرسالات .

واخذ ﷺ طريقه الى بيته في جوار الحرم ، ليتلو في الناس الكلمة التي وجهت تاريخ الانسانية على مسار الزمان .

: : :

خرج من الغار ونور الكلمة ملء قلبه ومسمعه :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق » وما كان بقارىء ،

ولا كان من قبل يدري ما الكتاب وما الايمان . . ولطالما اجهدته حيرة التفكير في امره وامر قومه :

يراهم على سفه وضلال ، ولكن ، من سواهم من اصحاب الملل الاخرى ، على حق وهدى ؟

المجوسية ؟

وهل تفترق عن وثنية العرب ، وان لهب نارها ليسطع من معابد المجوس ، فيغشى ابصارهم ويعمى بصائرهم ، فينكفئون على وجوههم لها عابدين . .

اليهودية ؟

ان في يثرب وما حولها من شمال الحجاز ، عصابات من يهود ، يزعمون انهم اهل كتاب ، وانهم ليعيثون في الارض فسادا ، ويستنزفون كل خيرها ، يؤمنون بقاءهم فيها بايقاد نار

الفتنة وسعير الحرب ، بين اهلها العرب : الاوس والخزرج . وقد طرأوا على المنطقة فارين من نعمة الرومان الساحقة ، مطاردين بلعنة خبثهم المدمر ، وأكلهم الربا ، وقتلهم الأنبياء .

النصرانية ؟

انه ليعلم ان فيها قسيسين اتقياء ورهبانا ورعين بررة ، فما بال اتباعها ، فيما يصل الى الحجاز من انباء نجران والحيرة والحبشة ومصر ، قد مزقتهم التفرقة المذهبية ، فبعضهم لبعض عدو ، وكل طائفة اخرى بالاكفر . .
وتجلى نور الكلمة :

اقرأ باسم ربك الذي خلق »

فعرف ربه الخالق ، واهتدى بعد طول قلق وحيرة . .

« خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم ».

الكلمة موجهة الى الانسان نورا وهدى ، وبينات من الفرقان .

وهل سواه من يقرأ ويقي .

هو وحده ، دون سائر الكائنات في ارض أو سماء ، الذي

يختص بالقراءة ويعرف القلم ، ويتعلم ما لم يكن يعلم .

وهذه هي آية الانسان ، بها اكرمه الخالق .

وبها يتميز ، لا عن عامة الكائنات فحسب ، بل عن عموم جنسه في الحيوان على اختلاف انواعه وفصائله ، وتفاوت رتبتها .

كل البهم والدواب والحشرات تشترك معه في حيوانيته النامية الاكلة للقوت المحتاجة الى النوم والمأوى .

وكلها على الاطلاق : من ذكر وانثى ، وبقاء نوعها ، مثله ، بالتزاوج والتوالد . . هو وحده ، هذا الانسان ، القارىء المفكر المتعلم ، الناطق الواعي المبين !

: : :

ومن ليلة القدر

الى عصر القمر وعصور تاتي بعده ، تظل هذه هي آية الانسان وجوهر انسانيته الناطقة ، اذا تعطلت فيه بجهل وغفلة ، او ضلال وعمى بصيرة ، مسخت انسانيته وهبط الى دونية الدواب العجماء ، بل هو شر منها واضل :

ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »

« لهم قلوب لا فقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان

لا يسمعون بها ، اولئك كالانعام بل هم اضل ، اولئك هم الغافلون ».

لان الدواب لم تتهيأ لها القدرة على القراءة والفقه والوعي ، ولا هي بحيث يمكن ان تعرف العلم فتسأل عن تعطيله بالغفلة والجهل .

وللانعام قلوب واعين وآذان لكنها فيها اجهزة عضوية فحسب اما في الانسان ، فهي وسائل فقه وبصر وقراءة وعلم ، ونطق وتمييز . .

: : :

من غار حراء تجلى نور الكلمة في غشية الجاهلية والعصر كله عصر بداوة . .

وبها استهلت آيات « تاب » ومعجزة النبي الامي المبعوث بختام رسالات الدين ، والقوم اميون لا يدرون ما الكتاب وما الايمان .

وعلى نور الكلمة ، بدأ عصر هذا الانسان الذي اقتحم بالعلم غيابة الفضاء ، وحقق آية انسانيته فيما سخر له الخالق : كل ما في السموات وما في الارض .
وصدقت آيات الله فينا :

« هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته

ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ».

اصر الكهنوتية

من تحرير القرآن الكريم لعقيدة الانسان ، ابطال الكهنوتية التي تسلطت على العقيدة الدينية بالقهر والتحكم ، بما اخذت من صفة الوساطة بين العبد وخالقه ، وما ادعت من حقوق الهية تمنح بها صكوك الغفران ، او تصدر قرار التكفير والحرمان .

وفي كتاب الاسلام لا وسيطيين العبد وخالقه ، وهو سبحانه « الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ».

« واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ».

كما ليس لاحد ان يوزع بطاقات محجوزة لدخول جنة او نار ، او يحدد لمخلوق مكانه من الدار الاخرة فالله تعالى هو الذي يدري وحده اين يضع رحمته .

يقول سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن اهتدى ».

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ، ان ربك هو اعلم بمن ضل سبيله وهو اعلم بالمهتدين .

ولعل عداء بعض المذاهب المحدثة للدين ، انما نشأ اصلا بسبب ما انتحلته الكهنوتية في الناس من سلطة الهية بررت باسم الدين البغى والاستغلال ، وهادنت الرجعية والفساد والطغيان ، واستنزفت اموال المؤمنين الكادحين ثمنا للمغفرة او فدية من غضب الله .

وهو داء ابتليت به البشرية من قديم ، وزاده عبدة المال من احبار يهود ضراوة نبه اليها كتاب الاسلام ليرفع عن المؤمنين اصر الكهنوتية والاغلال ، ويكشف عن بصيرتهم الغطاء فترى ما وراء الاقنعة من شر وباطل :

يا ايها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم بحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

ومن عجب ان حركة الاصلاح الديني التي دعا اليها « مارتن لوثر » تاثرت بمبادىء الاسلام في ابطال سلطة الكهنوتية والغاء صكوك الغفران .

ثم يكون من بيننا من يمارس في امة الاسلام هذا الحق المزعوم ، فيدعى لنفسه وصاية على الجنة والنار ، وينتحل من سلطة الغفران والحرمان ، ما استاثر به الله سبحانه ، لم يعطه احدا من رسله فضلا عن ان يعطيه غيرهم ، وما يدري احد موضعه من رضوان الله او غضبه :

فينا كتاب الاسلام ، يؤكد عقد الامر كله بمشيئة الله وحده ، سبحانه : « يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ».

ويفسح امام عباده الامل في عفوه ، دون وساطة او وكالة ، ويحميهم من القنوط من رحمته مهما يسرفوا على انفسهم : « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ».

فينا كتاب الاسلام ، نتلو من آياته المحكمات كلمات الله لرسوله المصطفى :

« فذكر انما انت مذكر . لست عليهم بمسيطر ».

« وكذب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل ».

« قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وما انا عليكم بحفيظ ».

« اتبع ما اوحى اليك من ربك الا اله الا هو ، واعرض من المشركين . ولو شاء الله ما اشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظا

وما انت عليهم بوكيل ».

فهل كان على الرسول الا البلاغ ؟

كرامة القلم
وايمان الكاتب

ذكر الله عباده بنعمه القلم التي جعلها احدى آياته في قوله تعالى « اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » واقسم به تعالى في قوله « ن . والقلم وما يسطرون ».

ولا يذكر الله الا بنعمة جديدة انعم بها على الانسان ولا يقسم الله عز وجل الا بامر خطير ، له في حياة عباده ابلغ الاثار . فاذا نحرى الكاتب الصدق فيه تخط يمينه جرت مع القلم آثار العلم ونفحات الايمان . فعظمت الفائدة ، وتحققت رسالة القلم في نفع العباد ، وهدايتهم الى طريق الهدى والرشاد .

وما تخطه الاقلام انما هو صورة لما تنفث صدور اصحابها مما كن في اعماقها ، وما انطبعت عليه سجاياهم وذلك مصداق القول الماثور ان الاسلوب هو الرجل .

حتى ا الالفاظ المختارة والعبارات المؤلفة تبدو فيها طوابع اصحابها واخلاقهم ، ولهذا كان الكبار الكتاب طرائقهم في الكتابة ، واساليبهم المتميزة في التعبير .

ومعنى ذلك ان نوازع النفس تجد سبيلها الى المداد الذي يجري على القراطيس ، ليعكس عليها اثار العالميات ونوازع النفوس ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، وهنالك مقياس من اهم المقاييس عند النقاد يقدرون على اساسه صناعة الادب وصناع الكلام ، وهذا هو مقياس « الصدق » في التعبير عن المشاعر والعواطف والانفعالات التي يحسها الكاتبون ، ويصدقون في التعبير عن انفسهم ومشاعرهم .

ومن هنا تستشعر الاقلام حاجتها الى ايمان اصحابها بما يكتبون وصدقهم في التعبير عن ذلك الايمان ، لان لذلك اثره في تصديق الناس لما يكتب الكاتب ، وفي تقبلهم لما يقول ، وذلك يؤدي الى الثقة به ، والى سمو منزلته ، وارتفاع قدره بين الناس .

والايمان هو سلامة الاعتقاد ، واطمئنان القلب الى ما تكشف له من اسباب الايمان . ومعنى ذلك ان الرأي هو الذي يمثل عقيدة صاحبه وان هذه العقيدة هي التي تنسج الرأي وتوجهه وتجليه ، وهي التي تمنحه بعد ذلك صفة الثبات والاستقرار .

اما الرأي الذي لا يرفده اعتقاد ولا بعضده ايمان ، فلا يوصف الا بانه شقشقة لسان ، وتنسيق الفاظ ، وتزوير كلام ، ولا يستساغ وصفه بالرأي ، لانه فقد صلته باليقين في نفس صاحبه ، قبل ان يفقد اليقين في نفوس الناس .

وقد يكون لفقد اليقين علامات منها انك ترى في احاديث اللسان او القلم التي تنبع من القلب ، ولم تنبعث من اعتقاد ان القول يهدم في اخره ما حاول أن يبنى في اوله ، وينقض في حديث لاحق ما اراد ان يبرم في حديث سابق ، لانه لا عبرة عند صاحبه بحقيقة يتحراها ، او اعتقاد يدفع الى القول ، ويشد نواحيه بعضها الى بعض .

ومن علامات ذلك ايضا ان يختلف منطق القول عن منطق العمل ، لانه لا قيمة للايمان من غير العمل الذي يدل عليه ويؤكده ، فكأن الكاتب حينئذ يحاول ان يدون ما يعجب الناس او ما يظن انه يعجبهم ، من غير ان ينبع ذلك الاعجاب من ذاته . وهذا هو السر في ان اكثر ما يقرأ الناس وما يسمعون لا يقع من قلوبهم الموقع الذي يلائم بلاغة العبارة وفصاحة الاسلوب ، لان ذلك لم يجاوز حدود الصناعة التي تدرب عليها الكاتبون او المتكلمون . وذلك شعبة من النفاق الذي كرهه الله عز وجل ، وكبر عنده مقتا ، فقد كان الرجل يجيء الى النبي ﷺ ، فيقول : فعلت كذا وكذا ، وما فعل ، وكان يقول قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ، ولم يطعن ، وصبرت ، ولم يصبر ، فانزل الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لم تقولوا ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » !

ان نظرة واحدة الى كثير من الكتابات توقفنا على أن الكتابة ـ

وهي صناعة شريفة ـ اصبحت حرفة ممتهنة ووسيلة الى كسب الخير ودفع الضر وستر النفاق بقدرة اصحاب هذه الصناعة الشريفة على التقلب بين المبادىء والتنقل بين الموارد :

عندئذ يصبح القلم اداة للكذب والتمويه فيحيد عن الغاية المرجوة ويتنكب الطريق السوى .

ولذلك كان الصالحون يتحاشون كثرة الكلام إلّا إذا كان صادرا عن طبع وإيمان ، لأنهم لا يريدون به إلا وجه الله ، ولا يعنيهم أحد سواه .

نظرات اسلامية
ليلة القدر

١ ـ لم سميت هذه الليلة ليلة القدر اختلف اهل العلم في تعليل تسميتها بذلك : فقال بعضهم ان القدر معناه التقدير وما يمضيه الله من الاحكام الخاصة باحوال العباد . واحداث الكائنات ، فهذه الليلة ليلة تقدير الامور والاحكام ، روى عطاء عن عباس ان الله يقدر في هذه الليلة كل ما يكون في تلك السنة من مطر ورزق واحياء واماته الى مثلها في السنة الثانية : وليس المقصود ان الله ينشىء تقدير الامور والاحكام في تلك الليلة انشاء بل المقصود ان الله يظهر الملائكة على ذلك في اللوح ال المحفوظ ليعلموا عالم الدنيا بمقتضى تسخيرهم في تصريفه وانفاذه .

اما بدء تقدير امور الخلق واحكامهم فقد كان سابقا في الازل من قبل ايجاد الخلق بخمسين الف سنة ـ كما وردت بذلك بعض الاحاديث : والتقدير بخمسين الف سنة ليس جدا لكنه ـ في نظرنا ـ تعبير عن طول المدة المتعاظم الوجود في باطن الازل .

وقال « الزهري » المراد بالقدر : الشرف والعظم ، ماخوذ من قولهم لفلان في عشيرته قدر ، اي مكانة وشرف فهذه الليلة ذات قدر وشرف بين الليالي .

قال ابو بكر الوراق : انما سميت ليلة القدر : لانه انزل فيها كتاب ذو قدر ، على لسان ملك ذي قدر ، على امة ذات قدر .

والقدر ـ فيما ذهب اليه « الزهري » اما ان يكون راجعا الى صاحب العبادة فيها فيكون عمله بالعبادة فيها سببا لزيادة شرفه وقدره بمزيد رضوان الله عليه : واما ان يكون راجعا الى العبادة نفسها . بزيادة الاجر والثواب على فعلها .

في هذه الليلة خاصة دون سائر الليالي . الحاصلة في سير الزمان وهذا في نظرنا الاقرب لما تدل النصوص الاتية ـ

وقد اخفى الله تعيين ليلة القدر هذه ـ ليجتهد الطالب في العبادة بطلبها فيتسع له ليالي العبادة وتزداد له اسباب الطاعة كما اخفى لمثل هذا السبب كثيرا من مواطن الخير والابتلاء فاخفى رضاه في الطاعات ليرغبوا في الكل ، واخفى غضبه في المعصية

ليحرزوا عن الكل ، واخفى وليه في الناس ليعظموا الكل ، واخفى الصلاة الوسطى ليحافظ المكلفون على سائر الصلوات . فكذلك اخفى تعيين ليلة القدر ليعظم المسلمون كل ليالي رمضان باحيائها واجتناب المجازفة في تصرفاتهم فيها .

٢ ـ موضوع ليلة القدر من ليالي العام .

اولا : اختلف اهل العلم فيما اذا كانت ليلة القدر باقية للمسلمين مع امتداد الزمان في كل عام ـ ام انها وجدت مرة واحدة لسبب نزول القران وانقطعت فهي لا تكرر .

فذهب الخليل بن احمد ـ الى القول بأن فضلها انما كان لفضل نزول القرآن فيها ، ثم انقطعت بانقطاع تكرر نزول القرآن في مثلها من الليالي .

وذهب جمهور العلماء الى انها باقية متكررة بتكرر الاعوام ، ثم اختلف هؤلاء ثانيا ، في تعيين موضعها من الزمان فروى عن « ابن مسعود » انها موجودة بغير تعيين على مدار السنة : وقال : من يقم الحول يصبها .

وذهب الجمهور الى انها مختصة بشهر رمضان « بدليل قوله تعالى » شهر رمضان الذي انزل فيه القران « مع قوله انا انزلناه في ليلة القدر فتعين ان تكون ليلة القدر التي انزل فيها القران هي من شهر رمضان : وهو الظاهر الذي يصعب العدول عن المصير اليه .

ثم ان هؤلاء ـ ايضا ـ اختلفوا في اقوالهم اختلافا ثالثا .

وقال ابن رزين : ليلة القدر هي الليلة الاولى من رمضان : ولعل حجته في ذلك ـ مما استطعنا استخلاصه من كلام المحتجين له ـ ان رمضان افضل الشهور وان ليلته افضل الليالي لما روى وهب بن منبه : ان صحف « ابراهيم » انزلت عليه في اليوم الاول من رمضان : وهو ـ كما ترى ـ دليل لا يغني :

وقال الحسن « ـ رضي الله عنه انها ليلة السابع عشر من رمضان لان صبيحتها كانت غزوة بدر .

قال تعالى :

انا انزلناه في ليلة القدر وما ادراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من الف شهر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر سلام هي حتى مطلع الفجر

« صدق الله العظيم »

وعن انس ـ رضي الله عنه ـ انها ليلة التاسع عشر : ويحكى عن علي وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ وقال محمد بن اسحق : « هي الليلة الحادية والعشرين » .

وعن ابن عباس ليلة الثالث والعشرين . .

وعن ابن مسعود هي ليلة الرابع والعشرين .

وقال ابو زر الغفازي هي ليلة الخامس والعشرين .

وقال ابي بن كعب وجماعة من الصحافة : هي ليلة السابع والعشرين ـ وهو القول الذي استقرت على العمل به عامة المسلمين اليوم .

ولعل اقرب الاقوال الى مرجاة العبد في فضل الله ـ غير ما ذكرنا من الاقوال هو مانبه اليه « ابن كثير » من انها ـ ليلة القدر ـ حاصلة في كل ايام رمضان مستشهدا لذلك بما رواه سعيد بن جبير عن عبد الله بن عمر مرفوعا . قال : سئل رسول الله ـ ﷺ وانا اسمع عن ليلة القدر ، فقال : « هي في كل ايام رمضان قال « ابن كثير » اسناد رجاله ثقات ، غير انه نقل عن ابي « داود » القول بوقفه : ونقل عن ابي حنيفة ما يوافق هذا القول : وقوله : انها ترتجى في كل شهر رمضان .

٣ ـ عظم ليلة القدر .

تعظيم ليلة القدر . هل هو مستمد من نزول القران فيها . نقول نعم ولكن كيف يكون القران معظما بانزاله فيها ـ ولا عظمة لها الا بسبب احتوائها على هذا الانزال ، هذا ما لم ينتبه لذكره العلماء والذي يظهر لي في كشف هذا الاستدراك ، ان الله من اجل عظمة القران اضفى على هذه الليلة تعظيما خاصا بها من لدنه فلم تكن عظمتها مستمدة من القران بحكم المجاورة بينهما

في الزمان : وبهذا الايضاح يمكننا ان نتصور : ان ليلة القدر معظمة بانزال القرآن فيها والقران معظم بنزوله فيها : واحد الامرين ليس متوقفا على الاخر : مرة اخرى نقول لان عظمة القران قائمة بذاته استقلالا وعظمة ليلة القدر قائمة بها استقلالها ـ وان كانت اعطيت هذه العظمة من الله اعظاما لجلال القران .

٤ ـ عناصر عظمة ليلة القدر وعظمة القران .

وقد عظم الله ليلة القدر هذه بوجوه من التعظيم .

الوجه الاول : اختيار صيغة الكلام التي دل بها الخطاب على انزال القران حيث قال « انا انزلناه في ليلة القدر » ففي هذه الدلالة النص على عظمة القران : لانه تعالى اضاف « الانزال » الى ذاته بصيغة الجمع الدالة على وصف المنزل بالعظمة . واذا كان المنزل عظيما . فالقران المنزل بفعله يكون عظيما بعظمته ثم انه تعالى لم يصرح باسم باسم القران ظاهرا بل اكتفى بذكر ضميره فقال « انا انزلناه » ـ اي القران : والاعتماد على تعريف الشيء بضميره ـ لا باسمه الظاهر دال على ان هذا الشيء قد بلغ غاية النباهة والشهرة ، والمعلومية العامة بحيث اذا ذكر ضميره ـ مع الاستغناء به عن الافصاح باسمه الظاهر انصرفت اليه الاذهان اذ لم يكن عندها ما هو اشد تقررا وشموخا غيره ثم ذكر انه اختص انزاله بليلة القدر فهذه اية شرف ليلة

القدر وعظمتها ـ اذا لو لم تكن كذلك لم تكن الاشارة الى تعظيم القران بنزوله فيها فائدة تقتضي النص على ذكرها . ووصفها بما سياتي بعد .

والمراد بانزال القران فيها . . هو ابتداء انزاله في ليلة القدر . وليس المراد انزال جميع القران : اذ من المعلوم ان القران نزل منجما بحسب الحوادث على مدى ثلاث وعشرين سنة قاله « الشعبي » .

ليلة القدر

وقال ابن عباس المراد : انزال القران كله من بيت « العزة » الى السماء الدنيا ولما كانت السماء الدنيا بناء مشتركا بيننا وبين الملائكة : اذ هي لهم مسكن ولنا سقف : جاز القول بنزوله الينا لقربه منا ـ كما تقول حضر الامير البلد ويكون قد حضر قريبا منها قربا كانه دخلها .

ورأى الشعبي عندنا احب واظهر . الوجه الثاني : انه كرر الحديث عن ليلة القدر بعبارة تفيد ان سير ابعادها في العظمة والشرف ، مما يوكل الى تصورات الاذهان في انطلاقها في اماد الرؤى . والخيال : فليس فضلها مما يعبر عنه بالالفاظ ذات المعاني المحدودة : قال « وما ادراك ماليلة القدر « اي ما ابعد الاسباب التي تمكن لخيالك وتصورك ادراك حقيقة فضل ليلة

القدر وعظمها فذلك ما يصعب دركه وزاد هذا المعنى بشيء من الايضاح بقوله « ليلة القدر خير من الف شهر ».

٥ ـ تفضيل فضل ليلة القدر .

اخبر القران ان ليلة القدر خير من الف شهر : معناه ان العبادة فيها اكثر ثوابا من العبادة في الف شهر ومعناه ايضا ـ ان ليلة القدر خير من الف شهر ليس فيها « ليلة قدر » لاننا لو افترضنا عكس ذلك ، لادى الكلام الى الحكم بتفضيل الشيء على نفسه في شروط متحدة ـ وهو ممتنع عقلا واختلف الناس في سبب عطاء الامة المحمدية هذه الليلة التي هي خير من الف شهر .

فقال « مجاهد » كان في الامم المتقدمة رجل يقول الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسى : فعل ذلك الف شهر فتعجب رسول الله والمسلمون معه من ذلك : فانزل الله هذه الاية تنبيها على ان الله جعل له ولامته هذه الليلة خيرا من الف شهر ذلك العابد الذي استقللتم عبادتكم بالنسبة له .

وقال مالك : ارى رسول الله اعمار الناس فاستقصر اعمار امته : فخاف ان يبلغوا من الاعمال ما بلغته الامم الاخرى : فاعطاه الله ليلة القدر ـ وهي خير من الف شهر لسائر الامم وروى القاسم بن فضل « عن عيسى ابن مازن » قال قلت للحسن بن علي . عليه السلام ـ عمدت الى هذا الرجل فبايعت

له ـ يعني معاوية ـ فقال ان رسول الله ـ ﷺ ـ « رأى في منامه بني امية يطأون منبره واحداً بعد واحد ، وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة »

فشق ذلك عليه : فانزل الله تعالى : « انا وانزلناه في ليلة القدر » ـ الى قوله ـ خير من الف شهر » يعني زمان ملك بني « امية » : قال القاسم « فحسبنا ملك بني امية فاذا هو الف شهر ».

ولعل هذا الحديث مصنوع من دموع احباب السادة الاطهار من ال بيت المنفجعين على مظالمهم ، وماسيهم : ولا حلة له بالسورة .

الوجه الثالث : اخبر القران ان من فضائل هذه الليلة انه « يتنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر . والمراد : يتنزل الملائكة فوجا بعد فوج بعضهم نازلون . وبعضهم بعد استيفاء دورهم عائدون الى السماء : وانما يتنزلون لتحية اهل الارض في العيد السنوي الالهي لنزول القران العظيم والمراد بـ« الروح » ـ جبريل عليه السلام ـ لقوله تعالى في اية اخرى « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين » : وانما خصص جبريل بالذكر بين عموم الملائكة في هذا المقام لخصوصية اتصاله بالقران فقد كان هو السفير الامين القوي المكين عند ذي العرش ـ كما وصفه القران بذلك الذي نزل به

على قلب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو اولى الذوات بالاعلام في حضور الاحتفال ب بعيد القران الذي سفر به بين السماء ، والارض ولعله ـ ايضا ليطمئن على هذا المنشور الالهي الاعظم الذي اصلح الدنيا في بكرة نزوله . ويرى ما يتجدد له على مر الزمان ونكوص نفوس المسلمين عنه ـ من احوال واحداث عطلت طريقه في الناس ـ وردت البصائر عن نور هدايته :

وخص القران نزول الملائكة بحصول الاذن لهم من الله بذلك ـ للتنبيه على أن الملائكة وهم لا يفعلون الا ما يؤذنون فيه ـ كانوا على شوق ومحبة للقاء المسلمين في هذا اليوم وانما كانوا يتطلعون للاذن المسوغ لافواجهم المتتالية ان نزل لتحية اهل القران في عيد القران : وهم ينزلون بذلك الاذن من اجل تنفيذ كل امر من امور القدر واحكامه التي اظهرهم الله عليها في تلك الليلة من خير او شر ـ كما قدمنا لك ـ في معنى القدر من كلام ابن « عباس » .

الوجه الرابع : ما وصفت به من قوله تعالى : « سلام هي حتى مطلع الفجر وذكر المفسرون في شرح تلك اللفظة اقوالا :

احدها بان ليلة القدر من ابتداء ليلها الى مطلع فجرها ظرف يفيض بالسلام من الملائكة على المؤمنين مع كثرتهم وترادف افواجهم واعلم ان سلام الملائكة على البشر المؤمنين ذو منفعة

عظيمة لهم . لان التقاء الارواح الطاهرة الطاهرة القوية كارواح الملائكة بارواح البشر يزيدها طهرا . وقوة ، ويشفى امراضها ، ونقائصها .

وثانيها : وصف الليلة ذاتها بانها سلام اي هي سالمة من نزول الشرور والافات فيها حيث تنزل فيها الملائكة بالخير والبركات وانواع السعادات على الناس . ولم ينزل فيها من تقدير المضار شيء .

وثالثها : هي سلام لا يستطيع الشيطان فيها سوءا : وغير ذلك : والذي نراه من عمل المفسرين في هذه اللفظة : انه يمكن تفسيرها بما يشمل اقوالهم المذكورة - لانها تفسيرات بمعان غير متضاربة فلا يمتنع الجمع بينها تحت لفظ يناسبها جميعا .

ثم ينتهي الاحتفال الالهي العظيم بالقران العظيم بطلوع فجر هذه الليلة العظيمة . مع ايات السلام وبنعمة السلام لعامة المسلمين .

وقل الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى .

الاسلام
. . والاقتصاد

الاقتصاد في عصرنا الراهن هو المحور الذي تدور حوله حياة الافراد والشعوب ، بل ان المثل العليا - التي تسود هذا العصر ان

تميزت بشيء فذلك انها ترتكز على مذاهب اقتصادية ومهما اختلفت في وسائلها فانهاتتحدفي غاياتها التي هي - اولا واخيرا - الرفاهية الاقتصادية .

ولقد اثبت النظام الاقتصادي في الاسلام انه يتصدر كل النظم الاقتصادية ، انه اعطى الحضارة العالمية كل مقوماتها واعظم النتائج الاقتصادية السليمة المربحة ، التي وطدت الثقة في نفوس المتعاملين والجماهير ، فهو أكثر النظم فائدة ورخاء وخيزاً للمجتمعات والشعوب ، يقول جاك اوستروى في كتابه « الاسلام امام التطور الاقتصادي » الذي نشر عام ١٩٦١ في باريس - ص ١١٢ - ان الاسلام يم يتمتع بامكانيات هائلة ، واذا ما وجد الطريق الصحيح امامه مفتوحا فان كثيرا من الصعوبات الاقتصادية سوف يحلها هو وحده ، لانه اقدر على ذلك من غيره من مذاهب الاقتصاد » .

واذا كانت جوافز الربح وحدها هي اساس كل المحركات للاقتصاد الغربي ، فان المحرك الاول للاقتصاد في الاسلام هو الرغبة الصادقة في نشر الرخاء بين الناس ، وفي ازدهار التقدم والحضارة في العالم .

والاقتصاد الاسلامي انساني النزعة ، نبيل الهدف في غاياته وجوهره ، يقود المجتمع الى التكامل والخير والايثار والمسئولية ، وتقرير الحقوق والالتزامات المتساوية بين الناس . . وتؤكد

نظرية الاسلام في الاقتصاد ان الرابطة بين المصلحة الفردية والجماعية وثيقة من حيث فطرتها ، فمن الواجد ان تسودهما المعاونة والموافقة لا الممايعة والمزاحمة ، ففي رفاهية الفرد رفاهية الجماعة ، والعكس بالعكس . وهذه الموازنة العادلة اساسها ان يكون بين ايثار الافراد واثرتهم تناسب سليم متزن . ومن ثم جمع نظام الاقتصاد في الاسلام شمل الامة كلها في نطاق نبيل من المحبة والاخاء والتعاون والعمل المثمر والحرية الفردية ، من اجل تقدم الانسان وتجدد الحضارة . .

حسبنا ان لا نجد في مذاهب الاقتصاد العالمية اية فلسفة خاصة تفوق نظرة الاسلام الى الامور الانسانية فلقد جاء باحكام نبيلة تعترف بالملكية الخاصة وتهذبها بفرض الزكاة وتحريم الفائدة الثابتة وتضع قواعد العدالة الاقتصادية التي تكفل السلام بين الافراد والطبقات والشعوب .

وإذا كانت النظرية الغربية تقول : « من كل وفقاً لمقدرته إلى كل وفقاً للعمل المنجز » ، وتقول النظرية الشرقية « من كل وفقاً لمقدرته إلى كل وفقاً لحاجته » ، فإن عمر بن الخطاب يقول : « والله ما من أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه في الاسلام ، والرجل وقدمه في

الاسلام ، والرجل وغناؤه في الاسلام ، والرجل وحاجته » وهذا كلام واضح في إثبات المساواة الاقتصادية ، ثم في تحكيم الكفاية والمقدرة في نصيب الفرد من هذه المساواة ، ثم في الرجوع إلى مدى الحاجة البشرية المطلوب دفعها .

يقرر الاسلام منع الاحتكار وكنز الأفوال ، والاستغلال بدون عمل ، ويقرر أن يتداول المجتمع الثروة ولا تكون دولة بين الأغنياء ، ويجعل الدولة وبجوارها الجماعة ، مسؤولين عن توفير أسباب المعيشة لجميع رعاياها .

ولقد كان الناس في عصر الاستعمار يصفون تشريعات الاسلام بأنها تعوق المعاملات الاقتصادية ، ولا تسمح بتنظيم الشركات والمصارف ، ولم يمض جيل واحد حتى سمعنا أصحاب قوانين أخرى يصيحون بأن الرأسمالية نكبة على الانسانية ، وعائق من عوائق الحرية الكريمة والعمل النافع ، ثم سمعنا المعسكر الغربي يصف مذاهب المعسكر الشرقي الاقتصادية بأسوأ من هذه النعوت وأشد .

وإذا نادى آدم سميث في كتابه « ثروة الأمم » بأن الثروة مفهوم مادي خالص ، فإن سيسموندي (ـ ١٨٤٢ م) ينكر عليه ذلك ، أما الاسلام فيضع الثروة في خدمة الفرد والمجتمع والأمة ، وخدمة التقدم الانساني ، لنشر الرخاء ، وتوفير العمل وجعله حقاً لكل أحد ، وكفالة الدولة لجميع مرافق الأمة لخدمة .

الرعية ، في حرص شديد على العدالة والمساواة والتعاون والشعور بالمسؤولية ومساعدة الدولة لكل محتاج بقدر ما يسد حاجته ، والايثار وحب الخير والاحسان والصدقة للفقير وتوقير الفقير للغني ، وشعور كل منهما بالحاجة للآخر وبأخوته ، كل ذلك مما يحرك الاقتصاد الاسلامي نحو غاياته النبيلة .

وحين حرم الاسلام الفائدة ، وجاء النظام الاقتصادي الغربي الذي أرست دعائمه بيوت المال اليهودية تقررها ، فقد شاهدنا النازية ، وكذلك المادية الشيوعية أول الأمر ، تحرمان نظام الفائدة الربوية ، التي يجعلها كثير من الاقتصاديين السبب الجوهري في الاضطراب الاقتصادي الراهن ، وقد قامت بنوك للادخار على أساس المشاركة في الربح التي هي الأساس الأول في الاقتصاد الاسلامي فلقيت نجاحاً كبيراً ، وسيقوم قريباً بنك اسلامي برأس مال تسهم فيه الدول الاسلامية تحقيقاً للنظرية الاقتصادية في الاسلام ، ونظام المشاركة لا الفائدة يكفل النهوض باقتصاديات العالم من أجل سد احتياجاته من الانتاج والمشروعات وتحقيق العمالة الكاملة ، مع ارتباط ذلك كله بالجانب الروحي والانساني الذي يوليه الاسلام الكريم كل عنايته .

إن السند الاسلامي للنظام الاقتصادي يقوم على فريضة الزكاة وما يتصل بها من مصارف مالية موجهة في الاسلام نحو

الخير والمصلحة العامة ، كالمصروفات وكفريضة الأرزاق التي كان الخليفة عمر إبن الخطاب يطبقها تطبيقاً تاماً شاملاً ، بالاضافة إلى ما في الفقه الاسلامي من ثروة تشريعية في جميع جوانب الاقتصاد ، وكأحكامه في الشركات والمضاربة والاجارة والبيوع والرهن والوقف والمواريث والهبة والوصية وسواها ، وقد فرض الاسلام على كل مسلم أن يجعل لله حقاً معلوماً في ماله « والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » (٢٤ و ٢٥ المعارج) .

ويطيب لبعض المتجاهلين أن يطعن في شريعة الزكاة في الاسلام ، هذه الشريعة المحتومة التي جعلها أبو بكر في مقدمة الأسباب التي حارب المرتدين من أجلها . . ويكفينا للرد على ذلك ما جاء في كتاب « اتجاه الاسلام » لجب نقلاً عن ماسينيون المستشرق الفرنسي المعروف : « يمتاز الاسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة ، بمساهمة كل أفراد الشعب بالعشر في موارد الجماعة (الزكاة) ومبادىء الاسلام تبذل التبادل الغير المقيد ، كما تنادى بالعداء الأموال المصرفية (الربا) والضرائب الغير المباشرة على ضروريات الحياة ، في حين أنه شديد التمسك بحقوق الولد والزوج وبالملكية ورؤ وس الأموال التجارية ، فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية والرأسمالية والشيوعية ، والاسلام كذلك كم قام بخدمات أخرى أداها للانسانية ، وله ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس

هناك مجتمع آخر مثل ما للاسلام من ماض كله نجاح في جمع كلمة الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات .

ان الاسلام يقف بين المذاهب الاقتصادية الكبرى الراهنة رسالة سماوية هادية فيها الخير للبشرية كافة ، ولم يكن الحاج عبد الكريم جرمانوس المستشرق المجري بأقل شعوراً بمسؤوليته حينما قال : « تأثرت أعمق التأثر ببساطة الاسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه . انه لا يوجد في تعاليم الاسلام كلمة واحدة ، أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من النور والمعرفة والقوة » .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

من روائع الفن الإسلامي

(١)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

مِن رَوَائِع

الفنّ الإسلامي

(١)

دار الفكر اللبناني



مسجد الرسول في المدينة أبو المساجد

شرع الرسول في انشاء مسجده في المدينة لبضعة شهور من هجرته اليها ولم يستغرق انشاؤه وقتا طويلا ، فتم في نحو شهرين في العام الاول للهجرة ٦٢٢م ، ولم يكن هذا اول مسجد بناه الرسول ، فقد سبقه الى الوجود مسجد قباء الذي انشأه سعد بن خيثمة بناء على رأي الرسول وترسيمه ، وقد تم انشاء مسجد قباء واستعمل للصلاة فعلا بعيد انتقال الرسول من قباء الى منازل بني عدي بن النجار في وسط المدينة وقد افتتحه الرسول وصلى فيه مع صحابته ، وقد ورد ذكر هذا المسجد في القرآن الكريم في سورة التوبة .

استوحى الرسول الهيئة والخطة في بناء مسجده من روح الاسلام . فالاسلام دين سهل واضح ، وهو طريق بين العبد وخالقه . والمسجد ـ على هذا ـ مجرد مكان طاهر يلتقي فيه العبد بالخالق ، فهو مساحة نظيفة مستوية مطهرة يحيط بها سور وظيفته تعيين حدود ذلك المكان المطهر المخصص للصلاة ، ولم تكن هناك حاجة الى تغطية هذه المساحة بسقف ، فاكتفى بتسقيف

جزء منها ـ في مقدمتها ـ على نحو بسيط جدا : جذوع نخل نصبت صفين بموازاة الجدار الشمالي ، ثم غطى ما فوقها بعريش من خشب وسعف وغصون شجر . وفي الجهة المقابلة اقيم عريش مماثل . ولكن مساحة المسجد لم تكن صغيرة فكانت في اول الأمر ٧٠× ٦٣ ذراعا ، وكانت جذوع النخل في كل من العريشين صفين ، في كل صف ستة جذوع ، ثلاثة على اليمين وثلاثة على اليسار ، ثم وسع المسجد ايام الرسول ، فاضيف اليه ١٠ اذرع في العرض و٢٠ في الطول ، وزيدت جذوع النخل او الاساطين اثنين في العرض واضيف صف ثالث منها في كل من الشمال والجنوب عند العريشين ، اي ان المساحة الكلية للمسجد كانت في السنوات الاخيرة ومن حياة الرسول ٥٦٧٠ ذراعا مربعا اي ٣٢٨٠ر٨٦ مترا تقريبا .

وفي الركن الجنوبي الشرقي لصحن المسجد ابتنى الرسول حجراته التي عاش فيها ذلك الحين وقد ذهب بعض الاثريين الى ان هذه الغرف بنيت خارج الجامع ملاصقة لجداره ، ولكن من الثابت ان ابواب حجرات الرسول كانت داخل المسجد الى يسار الداخل من باب ابي بكر ، ثم ان الغرف لم تكن لها ابواب ، وانما اسدلت عليها ستر تحجب داخلها عن الخارج ، وهذا لا يكون الا اذا كانت الغرف داخل سور المسجد .

وهذه قصة بناء هذا المسجد المشرّف كما رواها محمد بن مسلم بن شهاب الزهري .

بركت ناقة رسول الله ﷺ عند موضع مسجده ، وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين ، وكان مربدا لتيبيس الزرع لسهل وسهيل ، وهما علامان يتيمان من الانصار ، وكانا في حجر اسعد بن زرارة .

ثامنهما رسول الله ﷺ فيه ، فقالا : بل نهبه لك . يا رسول الله فابى رسول الله ﷺ حتىّ ابتاعه منهما بعشرة دنانير .

وكان جدارا ليس له سقف وقبلته الى بيت المقدس .

وجعل طوله مما يلي القبلة الى مؤخرة مائة ذراع ، وفي الجانبين مثل ذلك او دونه ، وجعل اساسه قريبا من ثلاثة اذرع ، ثم بنوه باللبن . وكان رسول الله ﷺ يبني معهم ، وينقل اللبن والحجارة بنفسه ويقول : اللهم لا عيش الا عيش الاخرة فاغفر للانصار والمهاجرة .

وجعل قبلته من اللبن ، وقيل من الحجارة ، وجعلها الى بيت المقدس .

ـ بني المسجد في العام الاول للهجرة (٦٢٢م) مقاييسه الاولى ٧٠ ذراعا طولا (١) في ٦٣ ذراعا عرضا . عريش القبلة ـ وهو بيت الصلاة ـ صفان من النخيل موازيان االجدار القبلة ، في كل صف ٦ جذوع نخل تقوم مقام الاساطين ، ٣ منها على اليمين و٣ على اليسار ، عريش الجدار المقابل للقبلة

(مقام اهل الصفة) مساو لعريش القبلة في الهيئة والمقاييس .

الزيادة في عهد الرسول :

زيد المسجد ١٠ اذرع في الشرق و٢٠ في الغرب .

وزيدت جذوع نخلة اي اساطينه واحدا في الشرق واثنين في الغرب .

جدده ابو بكر على نفس الهيئة . استبدل بجذوع النخل القديمة جذوعا جديدة سنة ١٢ هـ/ ٦٣٣م .

جدده عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ .

واستبدل بجذوع النخل اساطين من لبن ، وسقف العريشين بجريد ثم بخشب .

واوصى البناء بالا يحمر او يصفر ، حتى لا يفتتن الناس ، وزاد المسجد في الطول ، فقدم جدار القبلة ١٠ أذرع ، وكذلك مده من الناحية المقابلة ، فاصبح طول المسجد ١٣٠ ذراعا . ووسعه في العرض فاصبح ١٢٠ ذراعا .

جدد بناءه عثمان بن عفان تجديدا كاملا سنة ٢٩هـ/ ٦٤٩م وزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة اي المنحوتة ، وطلى الجدران بالقصّة اي الجبس ، وجعل عمده من الحجارة بدل اللبن . صارت مقاييسه : ١٦٠×١٣٠ ذراعا . وزاد في

ارتفاع جدران المسجد ، وفتح نوافذ في اعلى الجدار قرب السقف على اليمين والشمال في بيت الصلاة .

اعاد بناءه الوليد بن عبد الملك فيما بين سنتي ٨٨ و٩١هـ/ ٧٠٦ و ٧٠٩م ، وتم ذلك على يد واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز .

اعيد البناء على نفس هيئة المسجد التي كان عليها ايام عثمان بن عفان ، ولم يزد المسجد الا في العرض ، فاصبح ١٦٥ ذراعا ، ولكن البناء زاد جمالا ومتانة .

اعاد بناءه وزاد فيه المهدي ثالث الخلفاء العباسيين سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٨م . فزاد المسجد من ناحية الشمال نحو ٦٥ ذراعا ، وزخرفت المجنبة الخلفية (المقابلة لبيت الصلاة) بالفسيفساء .

وقد احترق هذا المسجد سنة ٦٥٤هـ ١٢٥٦م فاعاد السلطان الظاهر بيبرس بناءه على نفس هيئته السابقة ، وقد تم العمل على ايدي معماريين وعرفاء وبنائين مصريين ارسلوا لهذا الغرض .

وقد رمم المسجد المكرم واعيد بناؤه اكثر من مرة خلال العصرين المملوكي والعثماني .

ـ ثم اعيد بناء مسجد رسول الله ﷺ وسلم للمرة الاخيرة . واخذ صورته الجميلة الحالية في ايامنا هذه .

وهذا البناء الجديد ـ الذي جعل مسجد الرسول ﷺ آية من آيات فن العمارة العالمية في القرن العشرين فقد صدر قرار التوسعة الجديدة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود في شعبان سنة ١٣٦٨ الموافق يونيو ١٩٤٩ ،

ووضع حجر الاساس في ربيع الاول ١٣٧٣/ نوفمبر ١٩٥٣ .

وتم البناء في الخامس من ربيع الاول ١٣٧٥/ ٢٣ اكتوبر ١٩٥٥ في عصر الملك سعود بن عبد العزيز .

اصبحت مساحة المسجد ١٦٣٢٦ مترا مربعا ، اي بزيادة ٦٠٢٤ مترا مربعا على مساحته الاصلية .

وارتفاع المئذنتين في الجو ٧٠ مترا .

وتكلف البناء فوق خمسين مليونا من الريالات السعودية .

وقد استخدمت في البناء ارفع المواد واغلاها من المرمر والرخام الملون وغير الملون والاخشاب النفيسة والمعادن الغالية .

المساجد الجامعة الاولى

وهي اربعة :

ـ مسجد البصرة ، اختطه عتبة بن غزوان سنة ١٤هـ/

٦٣٥م ، وكان مجرد مساحة مسقفة بالقصب يقوم سقفها على عمد من جذوع نخل وخشب ، ولم يكن له جدار بل احاط به خندق .

ـ مسجد الكوفة ، اختطه سعد بن ابي وقاص سنة ١٥هـ/٦٣٦م او ١٧هـ/٦٣٨م . وكان في اول امره ايضا مسجدا من قصب ، وقد احاط بسور من قصب ايضا . اعاد بناءه باللبن زياد بن ابيه سنة ٥١هـ/ ٦٧٠م .

ـ مسجد الفسطاط ، اختطه عمرو بن العاص سنة ٢١هـ/ ٦٤٢م ، وكانت مقاييسه الاولى ٥٠×٣٠ ذراعا .

وقد قام سقف بيت صلاته على عمد من جذوع نخل مسقفة بالخشب ، ولم يكن له صحن متسع .

وقد وسع هذا المسجد واعيد بناؤه ١٦ مرة والمبنى الحالي للمسجد حديث ، بني في اوائل العشرينات والصلة قليلة بين هندسته الحالية وهندسته الاولى .

ـ مسجد عقبة بن نافع في القيروان ، وهو أبو مساجد الجناح الغربي لمملكة الاسلام . بناه عقبة بن نافع عندما اختط القيروان بين سنتي ٥٠ و٥٥هـ/ ٦٧٠ و ٦٧٥م .

وقد جدد بناء هذا المسجد خمس مرات ، حتى وصل ا صورته الثابتة

غار حراء مسجد قبل الاسلام

والناس ـ في العادة ـ يبدءون تاريخ المساجد من المسجد الحرام ، فهو اول بيت وضع للناس ، وهو قبلة ابراهيم ابي الانبياء المسلم الحنيف . وهو اول مسجد قام فيه رسول الله ﷺ .

ولكن غار حراء هو مسجد الاسلام الاول دون شك .

هنا صلى رسول الله وتحنث وعبد الله قبل ان يتنزل عليه الوحي .

وفي غار حراء نزلت الآيات الخمس الاولى من سورة العلق ، وهي اول ما انزل من قرآن .

وهو جدير بان يعد في المساجد وان سبق عصر المساجد .

المسجد الحرام اول بيت وضع للناس .

وعلى ٧ كيلومترات جنوب غرب غار حراء تقوم مكة ، وفي قلبها يقوم المسجد الحرام .

المسجد ، والكعبة في وسطه ، وشعائر الله الاخرى التي يلم بها الناس في الحج والعمرة انما هي قلب الحرم الملكي ، ارض الله الحرام ، وحدود هذا المسجد الاكبر تعينها اعلام الحرم . المنصوبة على الطرق الى مكة من كل ناحية ؛ وهذه الاعلام .

في هذه المساحة تنتشر المساجد المكرمة كانها النجوم حول الكوكب الاعظم ، وهو المسجد الحرام . انه اقدم مساجد الاسلام ، وهو دون شك أوسع مساجد الدنيا ، ان يكن لم أوسع معبد ديني على الاطلاق ، في الحديث هنا عن صحنه الفسيح المحيط بالكعبة وبيوت صلاته المتعددة تحت البوائك المحيطة بالحرم . القبلة هنا في الكعبة المشرفة ، ذلك المبنى المكعب الجليل الذي يقوم خالداً تحت ستاره المخملي الأسود توشيه أُزُر من الآيات القرآنية .

هيئة الحرم الحالية ترجع الى ايام المماليك ثم الاتراك .

وقد كانت عناية سلاطين المماليك بالحرم عظيمة ، فمنذ ان اعاد بناء الكعبة والحرم السلطان الظاهر بيبرس الى ايام قلاوون ، لم يكف هؤلاء السلاطين عن العناية بالحرمين ، المكي والمدني . اخر مرة اعاد فيها المماليك بناء الحرم المكي كله كانت سنة ٨٦٨/ ١٤٦٤ . وعندما دخلت الاراضي المقدسة في رعاية سلاطين آل عثمان انتقل اليهم امر رعاية الحرم ، ولم يضمروا في ذلك ، بدأ ذلك العمل الجليل السلطان سليم ، ولكن سليمان ٩٢٦ ـ ٩٧٣/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٥ وهو الذي اعاد بناء الكعبة والحرم واعطاهما الهيئة الباقية الى اليوم على وجه التقريب ، ومن حسن الحظ ان الحكومة السعودية حافظت على ذلك التصميم واضفت عليه ولا وثراء وفخامة .

هذا التصميم ـ او التخطيط ـ من عمل المهندس العثماني الاشهر سنان باشا . ولم يعش سنان ليرى تنفيذ مشروعه فقام به تلميذه محمد اغا بحسب هذا التخطيط اتسع الحرم حول الكعبة حتى اصبحت مقاييسه ٢٠٠× ٢٠٠ متر= ٤٠٠٠٠ر٤٠ متر مربع على وجه التقريب ، نحو عشرة أفدنة واعيد انشاء البوائك المحيطة بالحرم ، فازيلت الاعمدة الرخامية القديمة ووضعت مكانها دعائم من الرخام عددها ٨٩٢ ، وبين هذه الدعاءات وضعوا اعمدة من الحجر الرملي لتحمل البوائك والسقف والقباب الصغيرة التي بنيت من الحجر ، وكانت قبل ذلك من الخشب .

وفي سنة ٩٤٤/ ١٥٨٦ بطنت جدران المسجد بالرخام الملون وجددت قنايله واضيفت ثريات في هيئة رؤ وس النخيل ، وبنيت للحرم بمآذن كبراها مستديرة على الطراز العثماني ذات ثلاث شرفات للآذان . تحت هذه المئذنة الكبرى ـ أنشأ السلطان سليمان مدرسة للفقه ، هي السليمانية التي ظلت تقوم بعملها زمناً طويلاً .

وفي سنة ١٠٣٩/ ١٦٢٩ جاء سيل عارم وهدم ركنين من اركان الكعبة ، فلم يعد هناك ما يمنع من ازالة البناء كله واعادته جديدا مع وضع الحجر الاسود في مكانه .

وقد قام بالامر مهندسون وعرفاء وبناءون اتوا من الآستانة

والقاهرة ، وعندما جاء دور وضع الحجر الاسود في مكانه ، فعل القضاة الاربعة والمهندسون واشراف مكة ما فعلته قريش عندما اعادت بناء الكعبة ايام النبي ﷺ وقبل بعثته : وضعوه في ثوب ورفعوه جميعا من الاطراف ، وقد حرص المعماريون على ان يستعملوا في البناء نفس احجار الكعبة ، لانه قيل ان بعضها يرجع الى ايام النبي ﷺ ، واحتفظوا بالقاعدة المبنية بحجارة من البازلت الاخضر ، لانهم قالوا ان تلك هي الحجارة التي بني بها ابراهيم واسماعيل عليهما السلام البيت المكرم ، وهذه القاعدة هي المعروفة بالشاذروان وهي ملبسة بالرخام .

كذلك احتفظوا بالاعمدة الخشبية التي ترفع سقف الكعبة ، بعد ان عالجوا خللها ودهنوها بمزيج من الزعفران واللبان ، واعيد وضع الباب الصغير الذي كان السلطان سليمان قد صنعه للكعبة ، وكان مغطى بصفائح الذهب والفضة ، وصنع للكعبة ميزاب جديد من الذهب المزخرف بالمينا الزرقاء ، وبطنوا داخل الكعبة بالحرير الاحمر ، وغطوها من الخارج بالحرير الاسود ، وقد صنعت هذه الستر في مصر واتى بها الى مكة وفد من مصر ، كما كانت العادة الى حين قريب .

وقد ظل هذا البناء مكانه حتى اوائل القرن الثامن عشر ، فقام والي مصر والحجاز محمد علي باعادة بناء الحرم المكي كله ، وجدد اعمدته وحجارته ورخامه واصلح مآذنه ، وكان ذلك سنة ١٨٢١ .

اما تجديد مباني الحرم المكي كله وعمارته على الهيئة التي نراها اليوم فقد بدأت في فبراير ١٩٥٨ ايام الملك سعود بن عبد العزيز ، وقد اشرف عليها منذ البداية اخوه الملك فيصل بن عبد العزيز وكان اذ ذاك وليا للعهد ، وما زالت الاعمال مستمرة الى يومنا هذا ، وقد اخذ الحرم المكرم بهذه السارة الجديدة صورة فريدة في بابها من الجمال والرواء .

اصبحت مساحة المسجد الآن ٧٥٠٠٠ متر مربع بعد ان كانت ٣٠,٠٠٠ وبهذا اتسعت لحوالي نصف مليون مصل ، ويحيط بالحرم شارع عرضه ثلاثون مترا ، وانشئت ممرات المسعى من طابقين وجعل عرضه عشرين مترا وجعلت له ثمانية ابواب ، ونظم السير فيه في اتجاه واحد .

الحرم النبوي في المدينة :

اما ثاني المساجد الكبرى ، فمسجد الرسول ﷺ ،

لم يتجدد العناية بذلك المسجد المكرم بصورة جديرة بالذكر الا ايام المماليك ، فقد قاموا بتجديده مرة بعد مرة ، وكانت هناك ادارة مصرية خاصة بالحرمين الملكي والمدني . واخر من اعاد بناء المسجد النبوي كله من سلاطين مصر كان السلطان سيف الدين لاشين سنة ١٤٨١/٨٦٨ .

ثم تولى الامر سلاطين آل عثمان ابتداء من سليم الاول ، ثم

رممه وجدده سليمان القانوني عندما جدد الحرمين كليهما سنة ١٥٢٩/٩٤٠ ، ولا يزل جزء كبير من تجديد سليمان باقيا الى اليوم عند باب السلام في الواجهة الغربية للمسجد المكرم ؛ ويعتبر المنبر الذي اهداه سليمان لمسجد النبي ﷺ من آيات صنعه الحفر في الخشب عند المسلمين .

وقد اصلح الجامع مرة اخرى سنة ١٥٣٣/٩٩٤ ثم سنة ١٧١٥/١١٢٧ وفي سنة ١٧٨٢/١١٩٦ صنع للمسجد محراب جديد من المرمر الملون ورفعت فوق موضع المحراب قبة جميلة .

وقد اهدى سلاطين مصر وتركيا والهند وأمراؤ ها ونفر كبير من الاتقياء هدايا بديعة للمسجد المكرم ما زالت باقية في ذخائره الى اليوم ، ولعل اغلاها من ناحية القيمة المادية تلك الاهلة الذهبية المرصعة بالجواهر ، وفي داخل كل هلال نجم ذهبي مرصع ايضا ، وبين هذه الجواهر قطع من الماس تزن بضعة قراريط ولا تقدر بثمن ، وهذه الذخائر معلقة بداخل الروضة الشريفة وفي روضه السيدة فاطمة الزهراء .

ففي سنة ١٢٦٦ / ١٨٤٩ قام محمد علي والي مصر باعادة بناء المسجد كله وقام السلطان عبد الحميد الاول المتوفي سنة ١٢٧٧ / ١٨٦٠ ـ بتبطين المسجد كله بالرخام الوردي وكان هذا السلطان ـ الذي توفي في التاسعة والثلاثين من عمره ـ يسأل وهو على سرير الموت عما اذا كانت عمارة مسجد الرسول قد تمت ،

ويقال انهم عندما ابلغوه ان العمل قد تم قرت عينه وصعدت روحه الى بارئها . وبسبب الرخام الوردي الذي لبست به جدران المسجد اصبح يسمى كله الوردي .

وما زال مبنى الحرم النبوي المملوكي العثماني باقيا الى اليوم ، بالاضافة الى التوسعة العظيمة التي امر بعملها الملك عبد العزيز آل سعود في أيامنا هذه ، فقد اضافت هذه التوسعة للمسجد المكرم ابوابا جديدة تفضي الى بيت صلاة رائع يقوم على اعمدة فخمة من المرمر وكسيت الارضية كلها بالمرمر ، ويبلغ عدد هذه الاعمدة الجديدة ٢٣٢ عمودا ، وانشئت لهذه الزيادة كذلك واجهة بديعة عرفة بواجهة الملك عبد العزيز ، تزينها مئذنتان ارتفاع كل منهما ٧٥ مترا مربعا . وقد اضيفت الى المسجد بهذه الزيادة مساحة كبيرة ، فاصبح اتساعه يزيد عن ١٦٠,٠٠٠ متر مربع تتسع لما يزيد عن ٣٠٠٠٠٠ من المصلين .

مسجد قباء ، ومساجد أخرى

تحفل مكة والمدينة وما بينهما بالمساجد التاريخية ، وكل هذه المساجد جميلة بسيطة يزينها رواء من التقى والحب ومعظمها من بناء سلاطين المماليك والعثمانيين وامرائهم وبعض اهل الخير من اهل الحجاز . ويكاد ان يكون من العسير ان نتحقق من عمرها على مر الزمن ؛ فلناخذها كما هي ولنعتبرها كلها مساجد جليلة لانها تقوم في الارض المقدسة .

ولكن مسجد قباء ينفرد من بين هذه المساجد ، فنحن نعرف ان الرسول ﷺ بناه لاول وصوله الى قباء ضاحية المدينة التي تقع على ثلاثة كيلومترات جنوبها ، فهو اول مسجد بني في الاسلام ، ولابد ان المسجد رمم واعيد بناؤه مرارا قبل ان ياخذ صورته الحالية التي ترجع الى سلطان مصر الاشرف قايتباي في سنة ١٥٨٠/٨٨٨ ، فقد اعيد بناء هذا المسجد كله واضيف اليه محراب جديد من الرخام ، اما منبر الجامع فهو المنبر الذي كان قايتباي قد اهداه للحرم النبوي ، وقد نقل الى قباء عندما وضع في المسجد النبوي المنبر البديع اهداه له السلطان مراد .

ومئذنة المسجد ترجع الى العصر العثماني ، واغلب الظن انها عملت في ايام السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤٥ / ١٨٢٥ وكان الذي قام بها محمد علي والي مصر وعرفاء وبناءون من مصر ، وقد اكملت هذه العمارة ايام السلطان عبد المجيد .

اما المبنى الصغير داخل الصحن فيقال انه يعين موضع مبرك ناقة لرسول ﷺ .

وما زال المسجد يحتفظ بطابع البساطة الذي كان يميز مساجد الاسلام الاولى ، ونعتقد ان صورته الحالية هي نفسها التي كانت ايام جد ه عمر بن عبد العزيز ، وهو اول من جعل له مئذنة وبيت صلاة ذا اعمدة ورواقات .

مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط .

يعتبر جامع عمرو بن العاص في مصر رابع مسجد جامع اقيم في الاسلام - بعد مساجد المدينة والكوفة والبصرة - فقد اقيم سنة ٢١/٦٤٢ اربعة عشر قرنا الى ثمانية وعشرين عاما هجر.ة .

وقد انشأ فاتح مصر مسجده المنسوب اليه في الفسطاط بعد تمام فتح مصر على يديه ، وكان في اول امره مسجدا بالغ البساطة : مساحة طولها ٢٥ مترا وعرضها ١٥ مترا مغطاة بظلة من الخشب وسعف النخل قائمة على اعمدة من جذوع النخل .

وقد ازاله مسلمة بن مخلد - والي مصر لمعاوية بن ابي سفيان - واعاد الناقة من جديد سنة ٥٣/٦٧٢ ، فضاعف حجمه وجعل له سورا من ونر وترك جزءا كبيراً من الزيادة الجديدة صحناً مكشوفاً . وجعل للمسجد اربع مآذن في اركانه ، ويقال ان هذه كانت اقدم مآذن اقيمت في الاسلام .

ثم جدده عبد العزيز بن مروان سنة ٧٩/٦٩٨ .

ثم هدمه من اساسه واعاد بناءه كله قرة بن شريك سنة ٩٣/٧١٠ على ساعة واسعة ، وجعل له جدرانا عالية وسقفا من الخشب . وقرة هو الذي انشأ له المحراب المجوف - وهو اول محراب من نوعه في مصر - واضاف اليه منبرا خشبيا جميلا .

وفي سنة ١٣٣/٧٥٠ اتم الوالي العباسي صالح بـ علي ؛ وهو عم ابي جعفر المنصور) عمل قرة واعطى الجام صورته

التي بقي عليها بعد ذلك لقرون طويلة .

وفي سنة ٨٢٧/٢١٢ بلغ الجامع مساحته الحالية على يد عبده بن طاهر والي المامون ، وقد ثبت الجامع على تلك المساحة الى الآن وهي ١١٢,٥×١٢٠ مترا على وجه التقريب= ١٥,٠٠٠ متر). وهذا المسجد الذي اتمه عبد الله بن طاهر هو الذي يعتبر الآن المسجد الاصلي الذي يجتهدون في المحافظة عليه .

واحترق جزء كبير من جامع عمرو ايام خمارويه بن احمد بن طولون فاعيد بناؤه ، واكمل محمد بن طفج الاخشيد عمل خمارويه .

ثم جدد المسجد مرات كثيرة ايام الفاطميين حتى بلغ ذروة جماله القديم ايام الخليفة المستنصر ، وذكر انه يقوم على ٤٠٠ عمود من الرخام ، وجدار المحراب كله مغطى بالرخام الابيض كتبت عليه آيات القرآن بخط جميل ، يضيئه بالليل من الداخل تنور (أي مصباح ضخم ، ثريا) اهداه اليه الخليفة الحاكم بامر الله ، وزنه سبعة قناطر من الفضة ، بالاضافة الى اكثر من ٧٠٠ قنديل ، وكان المسجد مفروشا بعشر طبقات من الحصير الملون بعضها فوق بعض ، وقال انه كان من اعمر المساجد بالناس والحركة ، ولا يقل الموجودون فيه ـ من الصباح الى صلاة العشاء ـ عن خمسة الآف شخص ، ما بين مصلين وشيوخ اساتذة وطلاب . علم وكتاب يحررون الصكوك والمبايعات للناس .

وقد احترق جانب من هذا المسجد سنة ١١٦٨/٥٦٤ عندما اشعل شاور النيران في الفسطاط فظلت مشتعلة فيها ٥٤ يوما . فلما جاء صلاح الدين الأيوبي أصلحه وجدده سنة ١١٧٢/٥٦٨ « وأعاد بناء صدر الجامع والمحراب الكبير ورخمه ورسم عليه

ثم اعاد تعميره الظاهر بيبرس سنة ١٢٨٨/٦٦٦ ، وتوالت عليه اعمال الترميم حتى كان آخر من جدده من المماليك مراد بك سنة ١٧٩٨/١٢١٣ ، وقد ادخلت على المسجد بعد ذلك اصلاحات وترميمات كثيرة كان اخرها سنة ١٩٢٢ . وكانت نتيجة هذه العمليات الكثيرة ان اصبح ذلك المسجد الجليل اليوم من اقل المساجد الكبرى وحدة فنية واقلها انسجاما ، والمسجد الحالي هائل الحجم ، تحمل سقفه مئات الاعمدة وفي وسطه صحن مكشوف غير منتظم الهيئة تزينه قبة صغيرة .

قبة الصخرة

هذا مبنى مساجدي فريد في بابه في عالم الاسلام . وقد انشيء خاصة لتكريم وتخليد الصخرة واظهار موضع الصخرة التي عرج بمحمد ـ ﷺ ـ عندها الى السماء ، وحمايتها من الشمس والمطر وعدوان الايام .

امر عمر بن الخطاب بانشاء ظلة من الخشب فوق الصخرة حماية الصخرة ، لحمايتها في مكانها حتى جاء عبد الملك بن

مروان ورأى ان يستبدل بها عملا فنيا يتناسب مع ما للصخرة من مكانة في قلوب المسلمين .

شرع عبد الملك بن مروان في انشاء مبنى قبة الصخرة سنة ٦٨٨/٩٩ ـ ٦٨٩ ، وكان الفراغ من انشائه سنة ٧٢/ ٦٩١ ـ ٦٩٢ .

المبنى قاعة واسعة من ستة اضلاع ، ترتفع فوقها قبة نصف دائرية جميلة تقوم على هيكل من الخشب ، وهي مجصصة من الداخل والخارج ، وداخل مزين بنقوش بيزنطية بديعة ، وخارجها ملون بماء الذهب .

والصخرة تقوم داخل المبنى ، تحيط بها دائرة من البوائك ، تقوم على صفود مدببة ، مرفوعة على دعائم حجرية واعمدة من الرخام بالتوالي . وفوق الصفود ـ التي تدور حول الصخرة ـ يقوم جدار مستدير مرتفع مجصص ومزين بنقوش وزخارف بيزنطية الطابع ، وفوق هذه الجدار تقوم رقبة القبة مزينة بشماسات ذات زجاج ملوّن ، والفراغات بين الشماسات مغطاة بالزخارف . والقبة تقوم فوق ذلك كله ، فهي معتمدة على العقود التي ذكرناها ، لا على الجدار الخارجي . وتدور حول القبة ـ بين الأعمدة ـ طارة من الخشب الملبّس بالنحاس ، تحول بين الناس والصخرة .

وبين العقود والجدار الخارجي لمبنى القبة مطاف جميل يدور حول الصخرة جدار المبنى الخارجي مسدس الأضلاع كما قلنا ، كل ضلع منها محلى بعقود زخرفية عددها سبعة ، العقد الأوسط في أربعة منها فيه باب للدخول . والجدران الخارجية كلها ملبسة بالرخام إلى ارتفاع النوافذ ، ثم تغطى بعد ذلك بالفسيفساء ذات البريق الزجاجي والقاشاني التركي ، هذا القاشاني يرجع إلى سنة ١٥٥٤ ، أما القبة الحالية فقد رفعت في القرن الثاني عشر ، على نمط القبة القديمة بعد تجديد هيكلها الخشبي .

المسجد الاقصى

ترجع بدايات هذا المسجد المكرم الى عمر بن الخطاب الذي امر ببناء مسجد في الحرم القدسي غير بعيد من موضع الصخرة التي بنيت عليها القبة . وهناك من يقولون ان مسجد عمر اقيم في جزء من معبد روماني قديم ينسب الى هيورد وهدمه الامبراطور تيتوس .

ولكن الوليد بن عبد الملك كان اول من انشأ المسجد الاقصى في مكانه الحالي ، وكان ذلك في سنة ٩٧/ ٧١٥ و٧١٦ ، ولم يبق من مسجد الوليد هذا الا العقود القائمة على اعمدة من الرخام على يمين القبة الصغيرة عند المدخل ويسارها .

وقد تهدم معظم مسجد الوليد هذا في زلزال وقع سنة

١٣٠/٧٤٧ ٧٤٨ فاعاد بناءه الخليفة المنصور حوالي سنة ١٤٠ على الاغلب بعد ان اقتلع الذهب عن ابوابه لينفق عليه . ثم تهدم مرة اخرى ورفع الامر الى المهدى فقال : رث هذا المسجد وطال وخلا من الرجال انقصوا من طوله زيدوا في عرضه وهكذا تلك انشاؤه بامر الخليفة المهدي العباسي (سنة ١٦٣ / ٧٤٧) الذي اعطى المسجد صورته وحجمه الحاليين ، ومن اسف ان معظم بناء المهدي تهدم في زلزال وقع في مطلع القرن الثالث فوزع الخليفة المامون بناءه على امراء الاطراف يبني كل منهم رواقا على نفقته ، وتولى بناء عبد الله بن طاهر بعد سنة ٢١٠هـ وقد زلزل هذا البناء ايضا سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م ولكن المقدسي الرحالة احتفظ لنا بجانب من وصفه قال : ان بيت صلاته كان يتكون من ستة وعشرين رواقا تشرع كلها من جدار القبلة الى الصحن ، اما ابواب المسجد فكانت سبعا اكبرها هو الاوسط وكان الباب الرئيسي ملبسا بالنحاس ، وكانت تتوسط الرواق الاوسط قبة لطيفة .

وأعيد بناء المسجد بعد زلزال سنة ١٠٣٣/٤٢٤ الذي ذكرناه ، وكان الذي بناه هو الخليفة الفاطمي الظاهر سنة ١٠٣٥/٤٢٦ ، وقد ذهب جزء كبير من بناء الخليفة الظاهر الفاطمي اثناء الحروب الصليبية وما اصاب القدس خلالها من احداث . ولكن بقي منه الهيكل العام المكون من سبعة اروقة عمودية على القبلة . وجوف بيت الصلاة الذي يتكون من ١١

صفاً ـ من العقود الموازية لجدار القبلة .

والرواق الاوسط ـ او المجاز الاعظم ـ ضعف بقية الاروقة في الاتساع ، وتقوم فوق البلاطة الاخيرة منه قبة صغيرة فوق المدخل مباشرة ، هناك قبة اخرى اكبر من هذه فوق البلاطة المؤدية الى المحراب .

وفي وسط الرواق الاوسط باتجاه القبلة يقوم مربع بديع يحمل القبة الكبرى مرفوعاً على اعمدة رخامية سامقة الارتفاع ، تعلوها عقود تقوم على ارجل ، يعدل ارتفاعها ارتفاع العمد ، والجدار الحامل للقبة فوق العقود مزين بنوافذ منبره على هيئة بوائك صغيرة . وهذا الارتفاع العظيم للسقف هو الذي حدا بالمعماري الى ان يربط الاعمدة باوتاد خشبية سميكة .

والمسجد الاقصى الحالي ، عمل معماري يجمع بين البساطة والجلال على صورة تندر في غيره من المساجد ، فان بناءه رغم ضخامته مبنى فالجدران الحاملة للقبة الكبرى لا تتميز بضخامة ، والقبة نفسها تقوم على هيكل خشبي . وزينة الجدران نفسها قليلة ، والقبلة بسيطة رغم زخارفها ولكن يضيف الى روائها ان الجدار ـ الى يمينها ويسارها الى ارتفاع المحراب ـ مغطى بالقاشاني المزخرف . وجزء كبير من فخامة الجامع يرجع الى سعة بيت الصلاة التي تملأ النفس روعة وبهجة . وهذه السنة هي التي جعلت المعماري يكتفي بتسقيفه بالخشب .

المسجد الجامع في القيروان

هذا ابو مساجد الجناح الغربي لمملكة الاسلام .

بدأ عقبة بن نافع بناء ذلك المسجد سنة ٥٠/٧٨٠ (وهو تاريخ احكام القيروان رابعة العواصم الاسلامية الاولى)، وفرغ منه ومن القيروان سنة ٥٥/٦٧٥ .

كان مكوناً من بيت صلاة مسقف بعريش يقوم على جمع النخل وصحن مكشوف في نفس حجمه . وقد حرص الذين جددوه على ان يحافظوا على هيئته الاولى .

وقد جدد المسجد وزيد فيه مراراً عديدة .

وتقدم قبة المسجد الكبيرة ـ التي تقوم فوق البلاطة المؤدية الى المحراب على ٣٢ عموداً جميلاً من الرخام (بينها الساريتان الحمراوان) وهي منقوشة من الداخل بزخارف في غاية الجمال . وعقود القبة من طراز هورس المدبب وحذوة الحصان ، اما القبة نفسها فتتألف من ٢٤ عقداً مدبباً يسمى كل منها ضلعاً ، وهي مثمنة .

ويمتاز جامع القيروان بالضوء الذي يفيض فيه والاشراق الروحي الذي يحس به الانسان اذا وقف تحت قبة المحراب وتامل العقود الجميلة والجدران الرخامية المزينة من اعلى بوحدات زخرفية في غاية الجمال .

فطول جدار القبلة ٧٢ متراً وجوف (عمق) بيت الصلاة ٣٦ متراً تنقسم الى سبعة اساكيب ، اما البلاطات ـ اي الاروقة ـ المؤدية إلى جدار القبلة فعددها ١٧ رواقاً، الأوسط منها أوسع من الاروقة الاخيرة ويؤدي الى المحراب ، ولهذا المسجد صحن واسع يبلغ طوله ٩٠ متراً وعرض٧٠ والعقود مستديرة تقوم على اعمدة من الرخام مقواة بدعائم .

بيت الصلاة عميق يغطى نصف مساحة المسجد كله تقريباً ، والمجنبات قليلة العمق فكل منها رواقان ، والمئذنة بناء مستقل شبيه بالبرج يقوم في الجدار المواجه لجدار القبلة وهو خارج سور المسجد .

وهذه المئذنة تعتبر من نوادر المآذن واجملها ـ مع قدمها ـ فهي في الحقيقة برج من ثلاث طبقات كلها مربعة ، والسفلى اكبرها حجماً وتليها الثانية فالثالثة . وضلع بدن المئذنة من اسفل ١٠,٦٧ امتار وارتفاعه ١٨,٨٧ مترا فهو على هذا مبنى ضخم يكاد حجمه ان يكون حجم بيت كامل . وارتفاع الطبقة الثانية ٥ أمتار والثالثة ٧,٥٠ أمتار . فالإرتفاع الكلي للمئذنة يصل إلى ٣١,٣٧ متراً أي ما يقرب من ارتفاع بيت من تسعة أدوار في المباني الحديثة .

مسجد الاموي في دمشق

انشىء مسجد دمشق الاموي في جزء من معبد كان هناك للاله الروماني جوبتر وكان المسيحيون ايضاً يستخدمون اجزاء

من المعابد الرومانية القديمة كنائس ومصليات ، وخاصة في عصور الاضطهاد الاولى .

في معبد جوبتر هذا كان المسيحيون قد اقاموا مصلى او كنيسة ونسبوه للقديس يوحنا . فلما جاء المسلمون ورأوا سعة هذا المعبد المهجور في معظم أجزائه ، رغبوا في الاستفادة من الأحجار والرخام والارض المبلطة لهذا المبنى القديم ، ورأى رجال عبد الملك بن مروان انهم يستطيعون تحويل المبنى كله الى مسجد ، وتراضوا مع النصارى على تعويضهم عن المصلي الصغير الذي كان لهم ، وفي عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٧ ـ ٧١٥) بدأ بناء المسجد سنة ٧٠٦ م ولم يتم الا سنة ٧١٥م .

وجعل المهندسون باب بيت الصلاة المؤدي الى الصحن باباً فخماً كانه باب مسجد كامل ، خاصة وهو يؤدي الى الرواق الاوسط ـ او الحجاز الاعظم ـ الذي ينتهي بالقبلة . ويبلغ طول جدار القبلة حوالي ١٩٠ متراً . وعدد بلاطاته ـ اي أروقته ـ اثنتين وعشرين بلاطة ، مقسمة على قسمين : كل منهما إحدى عشرة بلاطة ، على يمين الرواق الاوسط وشماله . ويفتح بيت الصلاة على الصحن بسلسلة من العقود عددها عدد البلاطات ، وهي عقود مستديرة ، وتزيين الجدار ـ أعلى العقود ـ سلسلة من نوافذ ذات عقود مستديرة وتقوم كل هذه النوافذ أزواجاً : كل اثنتين منها فوق عقد من العقود . ويحيط بالصحن ـ من شرق

وغرب ـ مجنبتان ، لها هيئة أروقة بيت الصلاة . وتقوم فوق الرواق الأوسط ـ في وسطه رقبة صغيرة ولكنها آية في الجمال .

وبالرغم من أن العمارة البيزنطية كانت مصدراً اساسياً من مصادر الصلاة الاسلامية الناشئة في ذلك الحين فان الجامع الاموي بني وفق مخطط مسجد الرسول الاول بساحته المكشوفة الفسيحة وقد جعل حرم الصلاة مغلقاً واقيم على اعمدة واقواس بسبب جو دمشق الممطر في الشتاء وكانت هندسة الجامع المتفقة مع شعائر الدين الجديد اساساً لبناء الجوامع الكبرى التي بنيت من بعد في مختلف بلاد الاسلام .

والملامح البيزنطية في عمارته انما تمثلت في اقواسه وفي تزييناته من الفسيساء وتعتبر مآذن الجامع الأموي اول محاولة لاقامة المآذن في الشام . وهي مآذن ثلاث . وكان في ركني المعبد القديم الذي بني عليه المسجد في الجنبين الجنوبيين الشرقي والغربي برجان مربعان فأعاد الوليد بناءهما ليكون من فوقهما الأذان ثم انشىء على شكلهما مئذنة ثالثة في منتصف الواجهة الشمالية للجامع . والبناء الحالي لهذه المآذن يعود إلى العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية والمئذنة الغربية منها هي الأجمل والأرشق وقد بين من السلطان قايتباي (القرن الخامس عشر) .

وقد احترق الجامع خمس مرات اولها سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م . وآخرها سنة ١٨٩٣م ايام السلطان عبد الحميد الثاني . والبناء

الحالي باعمدته وشكله يرجع الى عهد هذا السلطان . على أن جميع الترميمات التي توالت على هذا الجامع حافظت تماماً على مخططه المعماري الاول وعلى هندسته الاموية دون تعديل . فللجامع الى اليوم : حرم مغطى مستطيل تتوسطه قبة تقوم فوق سقف مثلث وتسمى قبة النسر واما باحة المسجد فمحاطة من اركانها الثلاثة (في الشرق والشمال والغرب) بأروقة تحملها اقواس تقوم على الأعمدة ، وللجامع اربعة ابواب أهمها البابان الشرقي (باب جيرون) والغربي (باب البريد) اللذان يقومان على أساس بوابتين فخمتين قديمتين . وبقايا الفسيفساء القديمة ما تزال موجودة في أجزاء هامة منها في داخل باب البريد الغربي .

وفي باحة الجامع نحو الغرب بناء يقوم على عدة اعمدة يقال ان مال الجامع كان يودع فيه وكان في القرن الماضي مستودعاً للخشب والمخطوطات .

مسجد قرطبة الجامع

مسجد قرطبة الجامع من اروع ما أنشأ المسلمون من الاعمال المعمارية ، وهو ـ باعتراف مؤرخي العمارة من الاوروبيين ـ قمة من قمم الفن المعماري العالمي على مر العصور ، لقد تم بناء هذا المسجد خلال قرنين ونصف قرن على وجه التقريب ، فقد بدىء في انشائه على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠ / ٧٨٦ ، واستغرق انشاء الجزء الأول منه سبع سنوات .

ثم توالت عليه أعمال الزيادة والتجميل والتوسيع الى اوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي .

حين بدأ عبد الرحمن الداخل بانشائه سنة ١٧٠/٧٨٦ ، كانت مقاييسه ٧٥ مترا في العرض و٦٥ في الطول اي في عمق بيت الصلاة ، يضاف الى ذلك صحن فسيح تعدل مساحته مساحة بيت الصلاة تقريباً .

كان المسجد مكوناً من ١٢ رواقاً موازية لجدار المجرات وتسع بلاطات عمودية على جدار القبلة وكانت البلاطة الوسطى اوسع من الاخريات وتؤدي الى المحراب .

وفي سنة ١٨٠ / ٧٩٦ أضاف هشام الرضى ـ ابن عبد الرحمن الداخل وخليفته ـ اسكوبا لبيت الصلاة من ناحية الصحن .

وقد اهتم عبد الرحمن الاوسط ـ رابع امـراء بني امية الاندلسيين ـ بالمسجد اهتماماً كبيراً ، فزاد فيه سنة ٢٦٨ / ٨٣٣ زيادة صغيرة ، ثم تبين بعد ذلك ان عدد المصلين زاد زيادة كبيرة بسبب اتساع قرطبة ، ولهذا فقد بدأ في سنة ٢٣٤ / ٨٤٨ في زيادة عمق بيت الصلاة باضافة ثمانية أساكيب في اتجاه القبلة (أي نحو الجنوب في اتجاه نهر الوادي الكبير) ونقل جدار القبلة الى موضع الجدار الجديد ، وصنع للمسجد محرابا جميلا فأصبحت مقاييس المسجد ١٣٠×٧٥ مترا بما في ذلك الصحن .

والغالب ان العقود المزدوجة ظهرت اثناء هذه الزيـادة الكبيرة ، لان المعماريين وجدوا عند تخطيطها ان ارتفاع المسجد لن يكون متناسبا مع مساحته الجديدة ، فابتكروا تعلية السقف عن طريق وضع دعامات حجرية فوق الأعمدة الأولى ، واضافة عقود ثانية ثم رفع السقف فوق ذلك ، ولهذا جعلوا السقف من الخشب حتى يكون خفيفا ، وغطوه بالقرميد الأحمر ، واكمل هذه الزيادة وقام بزخرفة الجامع الأمير محمد بن عبد الرحمن الاوسط في سنة ٢٤١/٨٥٥ ، وأضاف هذا الامير الى المسجد المقصورة الى يمين المحراب ثم قنطرة فوق المحجة العظمى ، وفي سنة ٣٤٠/٩٥١ انشأ عبد الرحمن الناصر صومعة ـ أي مئذنة ـ جديدة في اقصى جدار الصحن ناحية الشمال ، وقد جعلها على هيئة برج ضخم ذي شرفتين للأذان ويُصعد الى هاتين الشرفتين بسلم داخلها . وهذه المئذنة ما زالت باقية الى اليوم ، وان كانت قد حولت الى برج نواقيس ، وكذلك اضاف الناصر الى المسجد زخارف كثيرة .

ورأى عبد الرحمن الناصر انه لا بد من توسعة المسجد مرة ثالثة ، سنة ٣٥١/ ٩٦١ . وكانت هذه الزيادة جهة الجنوب مثل الزيادة السابقة ، اسفل جدار المحراب ٣٥ مترا الى الجنوب ، وبذلك وصل المسجد الى ضفة النهر بزيادة ١٢ اسكوبا جديداً ، ثم عمل محراباً جديداً يعد آية من آيات من المعمار والنحت في تاريخ العمارة الاسلامية واصبح جوف بيت الصلاة ٧٥ مترا

ويصبح طول المسجد اذا اضفنا الصحن ١٠٥ امتار وزيد هذا المسجد مرة رابعة على يد المنصور محمد بن ابي عامرة الذي استبد بحكم الأندلس أيام الخليفة هشام المؤيد ، وقد تمت هذه الزيادة سنة ٣٧٧/ ٩٨٧ ، وكانت بطول المسجد كله من ناحية الشرق . تحرى المنصور أن تكون الزيادة متفقة في الهيئة والروح العام مع بقية بنيان المسجد . ومع ان هذه الزيادة لا تمتاز بالاصالة التي تمتاز بها اجزاء المسجد الثلاثة الاخرى ، الا أنها اعطته عمقا وسعة زاد فيهما على كل مسجد معروف في بلاد الاسلام ، فَبِها أصبح عدد اروقة المسجد الذاهبة الى جدار القبلة ١٩ رواقا ، وأصبح عدد أساكيبه ـ أي اروقته الموازية لجدار القبلة ٣٥ اسكوبا ، وأصبحت مقاييس المسجد ١٢٥×١٨٠ مترا ، اي أن مساحته الكلية ـ بما في ذلك الصحن ـ ٢٢,٥٠٠ متر أي خمسة افدنة ، يشغل بيت الصلاة وحده منها ثلاثة افدنة ، وهذا اضخم بيت صلاة بني في الاسلام ، واجمل ما في الموضوع انه باق الى اليوم شاهدا على ما بلغت أمة العرب من أوج في فن الهندسة والمعمار .

وصحن ذلك المسجد وحده قطعة فنية ، فهو محاط بسور تشقه سبعة ابواب ، وفي جهته الشمالية تقوم الصومعة التي ذكرناها . وقد زرع الناس شجار النارنج في الصحن ، ولهذا يسمى بصحن النارنج ، وقد تناقش الفقهاء طويلا فيما اذا كان يجوز زرع الاشجار في صحون المساجد ، وافتى شيوخ المالكية

الأندلسيون بجواز ذلك ، لأن الاشجار تفيء ظلا على المصلين . وفي الناحية الشرقية من الصحن تقوم الميضأة البديعة التي أنشأها منصور محمد بن ابي عامر واجرى لها الماء في قناة تحت الأرض ، وهذه القناة نصب في حوض واسع مقسم الى تسعة احواض كانت تقوم فوقها تسع قباب صغيرة ؛ والغالب أن المتوضىء كان ينزل بضعة سلالم حتى يكون في مستوى الماء .

وثد حول ذلك المسجد إلى كاتدرائية عندما استولى الاسبان على قرطبة سنة ١٢٣٦ . وفي القرن الرابع عشر أنشئت في الجانب الغربي منه ـ في زيادة عبد الرحمن الأوسط ـ كاتدرائية صغيرة امر ببنائها الملكان الكاثوليكيان فرناندو وايزابيلا . وفي القرن السادس عشر ـ وعلى وجه التحديد سنة ١٥٢٣ ـ أنشئت في قلب الجامع كاتدرائية كبيرة كاملة شوهت وسط الجامع تشويهاً مؤسفاً ، وقد انكر الامبراطور كارلوس الخامس ـ المعروف عندنا بشرلكان ـ هذا البناء المقحم على المسجد العظيم ، الذي اخذ الصورة الرائعة التي كان بيت الصلاة في هذا المسجد يمتاز بها . ومن غريب الأمر أن بيت الصلاة لا يزال محتفظا ـ الى اليوم ـ بمعظم بهائه وجماله . وجدير بالذكر أن اروقة المسجد كلها كانت تفتح على الصحن المكشوف ، مما كان يأذن للضوء في ان يغمر داخل المسجد ويلفت الناس الى جماله . وقد أقفلت هذه الأروقة بجدار سميك عندما حول الجامع الى كنيسة ، ويقول القسس ان داخل الكنائس ينبغي أن يغلب عليه الظلام فذلك ـ في رأيهم ـ يجعل للمعبد رهبة وهيبة .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

من روائع الفن الإسلامي

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

من روائع الفن الإسلامي

(٢)

دار الفكر اللبناني



مسجد سوسة الجامع

انشىء هذا المسجد سنة ٢٣٦ / ٨٥١ ، أيام أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد الاغلبي ، وهو يعتبر من أجمل وأكبر المساجد العتيقة الباقية الي اليوم ، رغم أنه يقل في الشهرة عن أمثاله من تلك المساجد الجليلة .

والمسجد يقوم على شبه جزيرة داخلة في البحر قرب باب البحر ، من أبواب سوية القديمة ، شمال شرق ذلك البلد التونسي الجميل .

ولم يدخل على المسجد تغيير كبير منذ بنائه ، ولهذا فهو بع يعد من اكبر المعالم في تاريخ عمارة المساجد والمسجد واسع المساحة اذ هو مستطيل - على وجه التقريب - طوله ٥٧ مترا وعرضه ٥٠ مترا ، فمساحته الكلية - على هذا - ٢٨٥٠ مترا ، يتوسطه صحن مستطيل تبلغ مساحته ٣٣٤ متراً ، تحيط به ثلاث مُجَنّبات عرض كل منها رواق واحد .

ومنظر الجامع - من الصحن - جميل فان بيت الصلاة

والمجنبات تطل عليه بعقود حذوة الفرس ، تقوم على دعامات حجرية . وبيت الصلاة عميق يتكون من ستة أساكيب ، اما بلاطاته ؛ أو أروقته) فعددها ثلاث عشرة والوسطى منها أكتر سعة وهي الرواق الأوسط الذي يؤدي الى المحراب . وفوق بلاطة المحراب قبة صغيرة ، وهناك قبة مماثلة لها تماما فوق الرواق ايضا ، في وسط ابيت الصلاة . وموضع هذه القبة الاخيرة يعين جدار الرواق ايضا ، في وسط بيت الصلاة . وموضع هذه القبة الاخيرة يعين جدار قبلة المسجد القديم ، فقد كان جوف بيت صلاته ثلاثة اساكيب ثم وسع بعد ذلك الى الجنوب باضافة اربعة اساكيب اخرى ، ونقل جدار الجامع الى موضعه الحالي وانشيء له محراب جديد .

وفي ركني المسجد الشمالي والجنوبي ـ من ناحية الغرب ـ يقوم برجان مستديران يصل ارتفاعهما الى مستوى سطح الجامع . والشمالي منهما كان يستعمل مئذنة ، لأن له سلما داخليا يدخل اليه من داخل المسجد وفي أعلى كل من البرجين جوسق تقوم عليه قبة .

جامع القرويين في فاس

يقع جامع القرويين يقع في عدوة القرويين ، وهو أكبر من جامع فاس الذي يقع في عدوة الاندلسيين وسنتحدث عنه .

الجامع هو زينة فاس واجمل ما فيها ، والبناء الحالي للمسجد ينص تاريخاً طويلاً يؤكد الحقيقة التي ذكرناها مراراً في هذه الدراسة ، وهي ان المساجد الجامعة تقدم لنا في تاريخها صفحات طويلة من التاريخ السياسي والاجتماعي للجماعات التي أنشأتها .

بدأ جامع القرويين صغيراً يسمى جامع الشرفاء بناه ادريس الثاني في عدوة القرويين من فاس عند أول انشائها ويرجح أن جامع الاشراف هذا بني هو وجامع الأشياخ الذي قام في عدوة الأندلس في نفس الوقت أي سنة ١٩٢/ ٨٠٨ .

وقد ظل هذان الجامعان على حالهما حتى سنة ٨٥٩/٢٤٥ عندما اتسعت العمارة في العدوتين القروية والأندلسية نتيجة للرخاء الذي سار المغرب الشمالي اذا ذاك في ذلك الحين توفي في فاس رجل من عرب لقيروان يسمى محمد بن عبد الله الفهري كان قد هاجر الى المغرب وكسب مالاً عريضاً ورثته بنتاه فاطمة ومريم . اهتمت فاطمة بجامع القرويين ورأت أن تنفق مالها في تجديد بنائه وتوسعته فتضاعف حجمه وزاد بيت صلاته عمقاً بما أضيف اليه من الأساكيب الجديدة ، ووسع الصحن أيضاً وأعيد بناء المجنبات ، وانشىء للجامع محراب ومنبر جديدان ، وبنيت المئذنة التي ما زالت تستوقف الأنظار ـ الى اليوم ـ بارتفاعها الشامخ وخطوطها الهندسية الرائعة . وقد أعيد بناء هذه المئذنة

عندما وسع الجامع للمرة الثانية فيما بين سنتي ٣٤٤ و٣٤٥هـ/ ٩٥٥ و٩٥٦م ، فاصبح كل ضلع من أضلاع قاعدتها خمسة امتار ، وارتفعت في الجو ٢٠ متراً وكُسِيَتْ بالقاشاني ، وزين رأسها بتفافيح صغيرة موشاة بالذهب .

وفي عهد الأمير علي بن يوسف المرابطي ، زيدت في جامع القرويين زيادة كبيرة ، فيما بين سنتي ١١٣٣/٥٢٨ و ١١٤٣/٥٣٩ ، فأصبحت بلاطات بيت الصلاة عشراً بعد أن كانت سبعاً ، وصنع للجامع محراب ومفر جديدان في الغاية من الجمال ، وأعيد بناء أبواب الجامع ـ وخاصة باب الفخارين الذي يسمى اليوم بباب الشماعين ـ فأصبحت هذه الابواب من أجمل ما أنشأ المسلمون من هذا الطراز ، فقد كسيت الأبواب حسبية بالنحاس ، وأقيم على كل باب قبة صغيرة ، وأنشئت فوق بلاطة الصراب قبة من الجص المقرنص زينت بالنقوش الذهبية والملونة ، وان من يتامل زخارف شماسات القبة ليرى فيها اعمالاً فنية تعتبر قمة من قمم الفن المعماري الاسلامي ، وقد اشترك في هذه الأعمال معماريون ومزخرفون من الاندلس .

ومن أجمل ما يميز تلك الزيادة المرابطية القباب الصغيرة المقرنصة التي اقيمت في سقف رواق المحراب ، ومقرنصات هذه القباب فريدة في بابها نظراً لرقتها واحكام صنعتها ، وعليها زخارف نباتية في غاية الذة والانسجام .

ومنبر الجامع من أجمل المنابر المعروفة الى اليوم ، فهو مصنوع من الأخشاب النبيلة كالصندل والآبنوس والحور ، وزخارفه مطعمة بالعاج وزخارف جوانبه تعتبر نماذج للزخارف الهندسية العربية من كل صنف والتوريقات النخلية التي تحير العين ، وقد اشترك في صناعتها فنيون اندلسيون فهو ـ على هذا ـ نموذج للفن المغربي الاندلسي .

وقد أخذت المئذنة صورتها النهائية في سنة ١٢٨٩/٦٨٨ اذ أمر الأجر أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المريني بتبييضها وكسوتها بالجص والقاشلتي وتدعيم وصلات أحجارها وصقلها حتى أصبحت كالمرآة .

وهكذا يعتبر هذا الجامع الفريد سجلاً لتاريخ المغرب ، فقد اشتركت في بنائه جميع الدول التي تعاقبت على حكم المغرب ، حتى بنو امية الأندلسيون شاركوا في عمارته عندما نشروا سلطانهم على شمال المغرب أيام الخليفة الحكم المستنصر وابنه هشام المؤيد ، بل بذل الفرنسيون جهوداً كبيرة في الحفاظ عليه ودراسته وتبيان نواحي امتيازه الفني ، والكثير مما كتبناه عنه هنا مستقي من دراسات الأثري الفرنسي جورج مارسيه في كتابه عن العمارة الاسلامية .

إن هذا المسجد ـ الذي بناه المولى إدريس في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني ـ أصبح بحق علماً من أعلام الحضارة

الاسلامية فهو كتاب حافل في تاريخ الفن الاسلامي ، وقد أصبح ـ منذ عنيت بتجديد بنائه فاطمة بنت محمد الفهرية ـ جامعة ، يلقي الشيوخ دروسهم عند قواعد اعمدته ، فهو ـ على هذا ـ أقدم جامعة في الدنيا ، وهذا الجامع الجليل يقف على قدم المساواة مع الجامع الأزهر ومسجد قرطبة الجامع وجامع القروان والمسجد الأموي في دمشق ، فكلها مراكز (عبادة) ومنارات عرفان ، وقد ساير جامع القرويين الزمان فتحول في أيامنا هذه الى جامعة حديثة تدرس فيها علوم الاسلام وعلوم العصر الحديث .

ويزين فاس جامع آخر يشبه جامع القرويين ولكنه يقل عنه في الحجم والشهرة والجمال ، وهو جامع الأندلس بفاس الذي يرجع الى عصر ادريس الثاني ايضاً ، فقد كان يعرف بمسجد الأشياخ ، ثم عنيت بأمره مريم بنت محمد الفهري ـ أخت فاطمة التي ذكرناها ـ فجددته وزادت فيه سنة ٨٥٩/٢٤٥ . وفي سنة ٩٦٥/٣٥٤ بنيت له مئذنة شبيهة بمئذنة جامع القرويين ، وان كانت تقل عنها رواء . وقد أخذ الجامع شكله الحالي أيام الموحدين ، فقد عني بأمره الخليفة الموحدي الرابع محمد الناصر وأمر باعادة بنائه سنة ١٢٠٤/٦٠٠ ، وقد دخلت عليه بعد ذلك زيادات وتجديدات كثيرة ، ولا يزال يعد من المعالم الكبرى في تاريخ العمارة الاسلامية المغربية .

من روائع الفن الاسلامي

اسوار القاهرة وابوابها

تعتبر القاهرة المدينة الاسلامية الوحيدة التي اقيم حولها ثلاثة اسوار على فترات تاريخية متعاقبة فقد بني السور الاول جوهر القائد والثاني امير الجيوش بدر الجمالي والثالث صلاح الدين الايوبي الذي سور القاهرة والقطائع والعسكر والفسطاط جميعا .

وكان سور القاهرة الأول مبنياً من الطوب اللبن بسمك مترين ويشكل مربعاً منتظمًا يحيط مساحة ٤٠٠ فدان وقد ضم هذا السور جميع المنشآت بالقاهرة من قصر الخليفة ودواوين الحكومة ومساكن العسكر .

وكان غرض جوهر القائد من بناء هذا السور هو حماية القاهرة من هجمات العباسيين والقرامطة .

ولم يعمر هذا السور اكثر من ثمانين حتى جاء امير الجيوش بدر الجمالي الذي انشأ سورا اخر وسع به رقعة القاهرة بعض الشيء وقد احضر ثلاثة من الاخوة من ارمينيا اسهموا في بناء هذا السور من الحجارة المنحوتة المصقولة ومثبتة في مداميك منتظمة . التي لا تزال اجزاء منها باقية حتى الان . . تشيد بعظمة العمارة الاسلامية .

وقيل أن كل اخ بني بوابة من البوابات الثلاث الرئيسية الباقية حتى الان .

اولاها باب النصر الذي انشىء في السور الحجري بين برجين مربعين تقريبا نقشت على احجارهما رسوم تمثل بعض آلات القتال وفوق الباب المرتفع ٢٣ مترا فتحت فتحة لتصب منها المواد الحارقة على العدو المهاجم وانشىء لكل برج درج يوصل الى دورين آخرين فوق الدور الارضي المصمت ويعلو مدخل الباب عتب من الصنج الحجرية المعشقة في شكل زخرفي . .

اما باب الفتوح فقد انشىء في نفس السنة وهو يختلف عن باب النصر في ان برجيه مقوسا القاعدة وقد حليت جوانب البرجين بعقدين مغلقين نحتت حجارتهما على شكل وسائد حجرية صغيرة متلاصقة وتظهر هذه الزخارف لاول مرة في القاهرة ويعتقد انها مأخوذة من العمارة المغربية .

وقد اخذت صورة هذا الباب رمزا للقاهرة الحديثة اما باب زويلة فقد انشىء مع السور الجنوبي بعد اتمام الشمالي وابوابه الاثنان وكان اكثر علوا مما هو الآن فقد هدم اعلاهما الملك المؤ يد ليقيم عليهما مئذنتي مسجده . . ويسمى بوابة المتولي حيث كان يجلس في مدخله متولي حسبة القاهرة .

وكان للقاهرة ثمانية ابواب : باب النصر وباب الفتوح وباب

زويلة الذي كان له بابان بنتهما قبيلة زويلة وباب الفرج في الجهة الجنوبية .

وفي الجهة الشرقية جهة المقطم باب القراطين الذي كان يوجد بجواره سوق المواشي والاغنام وكان يجلس بجواره القراطون الذين يبيعون القرط اي البرسيم وسمي بعد ذلك بباب المحروق بسبب ما فعله ٧٠٠ مملوك اثناء هروبهم من القاهرة تاركين ديارهم عام ٦٥٢هـ وقد وجدوا هذا الباب مغلقا فاوقدوا فيه النار ، وباب البرقية الذي نسب الى جنود برقة .

اما الجهة الغربية المطلة على الخليج الكبير فقد كان فيه باب سعادة وباب القنطرة أو الجسر وقد عرف بذلك الاسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج وفي اواخر العصر الفاطمي كان حريق الفسطاط والعسكر حتى لا تقع في ايدي الفرنجة .

ثم جاء صلاح الدين الايوبي الذي اتجه الى تحصين القاهرة فبنى سورا ضخما استخدم فيه مجموعة كبيرة من اسرى الفرنجة وبناه من الحجارة وكان يقصد ان يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سورا واحداً ولكن امله لم يتحقق لوفاته وكانت أهم ابواب السور باب الخوخة وباب البحر وباب الشعرية والباب الجديد وباب الصفاء . . . والفسطاط .

الجامع الأزهر

شرع جوهر الصقلي ـ قائد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله ـ في إنشاء الجامع الأزهر في ٢٤ جمادي الأولى ٣٥٩/ ٤ أبريل ٩٧٠ ، وتم تشييده وبدأت الصلاة فيه ظهر يوم من أيام رمضان ٣٦١/ يونيو ـ يوليو ٩٧٢ .

وكان حجمه إذ ذاك نصف حجمه اليوم .

ومنذ تلك الصلاة أصبح هذا المسجد جزءاً من تاريخ مصر ، موطناً مصرياً ساير ذلك التاريخ يوماً بحيث نستطيع أن نؤرخ لمصر تتبع تاريخ الأزهر ، فندر أن وقع في مصر حادث له شأن الا كانت في الازهر بدايته او منتهاه ، وإذا أنت دخلت الجامع اليوم من بابيه الكبيرين المتجاورين ـ المعروفين ببابي المزينين ـ في ميدان الأزهر وطفت بارجاء الجامع حتى تخرج من باب الجوهرية في الضلع الشمالي للجامع الذي يفتح على شارع الشنواني خلف المسجد ، فإنك تكون قد مررت بألف سنة من تاريخ مصر .

وأول ما يستوقف نظرك عدد الخلفاء والسلاطين والأمراء ومشايخ الازهر الذين حرصوا على ترميمه واصلاحه والاضافة اليه ، فهم عشرات يحتاج احصاؤهم واحصاء ما عملوه الى مجلد كامل ، لأن هذا الجامع سجل حامل تاريخ مصر السياسي

والعلمي ، فكما تقرأ في تاريخه اسماء المعز لدين الله الفاطمي والعزيز والحاكم الفاطميين وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس وسيف الدين لاجين وبرقوق وغيرهم من سلاطين المماليك ، ومحمد علي وعباس حلمي ومن اليهما من الحكام الذين تعاقبوا على حكم مصر خلال عشرة القرون الماضية ، فأنت تمر في تاريخه بأسماء نفر كبير من أقطاب التاريخ الفكري لمصر والعالم الاسلامي خلال تلك القرون .

وأول الاساتذة الذين تولوا التدريس في الأزهر هو القاضي ابو الحسن بن النعمان بن محمد المتوفي سنة ٩٨٤/٣٧٤ .

وعندما قامت دولة صلاح الدين أوقف التدريس في الأزهر ، لأن التدريس كان مرتبطاً بالمذهب الاسماعيلي الذي ابطله صلاح الدين ، عندما أعاد السُّنّية الى مكانها التقليدي في مصر ، واتجهت همته في انشاء المدارس لتقوم بتدريس الفقه السُّنيّ ، وبقي الأزهر خاملاً من الناحية العلمية حتى نهاية الدولة الأيوبية .

وستعاد الأزهر مكانته العلمية في العصر المملوكي وتحول الى جامعة حقيقية : يضم الأساتذة والمدرسين والمعيدين والطلاب ، ويجري فيه العمل العلمي على نظام علمي كامل ، ترعاه وتنفق عليه الدولة حسب نظام مقرر مرسوم ، واتسع الجامع ـ تبعاً لذلك ـ فقامت فيه الأروقة والزيادات المختلفة حتى وصل إلى

حجمه الحالي ، وهو يكاد يكون مدينة قائمة بذاتها ، فقد ضمت ملحقات الجامع التعليمية ما يشبه المدينة الجامعية الكاملة ، فهي مكونة من مبان كل منها يسمى رواقات وقد يضم مبنى الرواق الطلبة الوافدين من نواح مختلفة من مصر او من العالم الاسلامي . مثل : رواق الاكراد ، ورواق الهنود ، ورواق البغداديين ، والبريتون (القادمين من البرنو في تشاد الحالية) واليمنية ، والجَبَرْتية (جَبَرْت ناحية من نواحي الحبشة) والسنارية (نسبة الى سِنّار في السودان)، والجاوية والشوام ، والصعايدة ، والشراقوة (نسبة الى محافظة الشرقية في مصر) والفيومية والبحاروة ، والشفوانية وما الى ذلك . ولم يكن الطلاب ينامون في هذه الأروقة المنسوبة اليهم ، بل كان الرواق اشبه بسكرتارية ومكتبة لهم وخزائن لكتبهم الخاصة ؛ ولهذا نجد أيضاً رواقاً خاصاً بالحنابلة واخر للحنفية ، والمراد الطلاب الذين يدرسون فقه هذه المذهبين .

وأشهر هذه الأروقة الرواق العباسي ، وهو حديث بني في عهد خديوي مصر عباس حلمي الذي تولى الخديوية حتى سنة ١٩١٤ ، وقد افتتح في شوال ١٣١٥/١٨٩٧؛ وكان شبيهاً بإدارة عامة للأزهر فكان يضم مقراً لمجلس إدارة الأزهر ومشيخته ومكتبته وطبيبه ومحفوظاته ، وكانت فيه أيضا بعض أروقة للطلاب . ومبنى الرواق العباسي قطعة من العمارة والفن الاسلامي في أواخر العصر التركي .

اما الطلاب الغرباء فكانوا يسكنون في حارات حول الأزهر خصصت لهم وعددها ثلاث عشرة ، مثل : حارة العفيفي والزرافة والببنتته والسليمانية والجيزاوية والزهار والمناصرة ، وما اليها .

وقد كان عدد عظيم ممن قاموا بالنهضة الفكرية في مصر والعالم العربي من طلاب الأزهر ، وهم كثيرون جداً ؛ عبد الرحمن الجبرتي ورفاعة رافع الطهطاوي ، وعلي مبارك ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، ورشيد رضا ، وعبد الله النديم ، وطه حسين ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، واحمد حسن الزيات ، وعلي عبد الرزاق ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمد مصطفى المراغي .

وفي سنة ١٩٦١ دخل الأزهر في طور جديد من تاريخه ، اذ صدر القانون الذي حوله إلى جامعة حديثة تحتفظ في نفس الوقت بالدراسات التقليدية للأزهر ، وهي دراسات الاسلام واللغة العربية . وأنشئت له الكليات الحديثة وتضاعف عدد طلابه ، حتى أصبح مؤسسة دينية علمية فريدة في بابها من كل وجه .

ولا يضارع الأزهر معهد آخر في الدنيا ، في الخدمات العلمية التي قام بها منذ انشائه قبل نيف وألف سنة الى اليوم ، فقد كانت وفود الطلبة تقبل عليه اركان الدنيا كلها ، فيجاورون في الأزهر ثم يعودون الى بلادهم شيوخاً يقومون بدورهم بانشاء المعاهد

الدينية الاسلامية في بلادهم ، وحيثما نزلت في العالم الاسلامي وجدت الأزهريين ، من أقصى الفلبين الى المحيط الاطلسي وقلب افريقية . والى الأزهر يعود جانب كبير من الفضل فيما تمتعت به مصر على مر العصور كمركز من مراكز العلم والعرفان في الدنيا .

وقد كان المبنى الأول للأزهر ـ كما أنشأه جوهر ـ يتكون من مسجد لا يزيد حجمه عن نصف الجامع الحالي وملحقاته ، وكان يتكون من الصحن الحالي المكشوف الذي تحف به العقود المدببة ، وبيت الصلاة الذي يقع الى شماله ، وكانت له مجنبتان : يمنى ويسرى ، لكل منهما ثلاثة اروقة ، ثم توالت الاضافات بعد ذلك ، حتى أصبح الجامع القديم محصوراً في قلب الجامع الحالي .

والإضافات مجموعة من الأبنية ، ما بين أروقة جديدة ومدارس ومحاريب ومآذن وميضآت . وقد فقد الجامع ـ نتيجة لهذه الزيادات والتعديلات ـ هيئته الاصلية ووحدته الفنية ، ولهذا فالجامع الأزهر ـ اليوم ـ شبيه بمعرض واسع للفن الاسلامي في مصر ، من بداية العصر الفاطمي الى اليوم .

وإذا دخل الانسان من باب المزينين ـ وهو الباب الرئيسي للجامع ويقع في ميدان الأزهر ـ سار في ممر طويل ، فعلى يمينه مبنى المدرسة الأقبغاوية ، التي بناها الأمير المملوكي علاء الدين أقبغا عبد الواحد سنة ١٣٣٩/٧٤٠ في جزء من ساحة الأزهر

وجعلها ملحقة به . وهذا الأمير كان من آكبر من اهتموا بعمارة الأزهر ، فقد أنشأ لمدرسته تلك بيت صلاة وقبلة ومنارة ؛ ويقول المقريزي إن هذه المدرسة من أشد المدرس ظلاماً في داخلها لأن الأمير الذي بناها فعل ذلك بأموال اغتصبت من الناس وسخر العمال في بنائها . وكان أقبغا هذا مقدم المماليك في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقد استعملت هذه المدرسة ـ الى حين قريب ـ مكتبة للأزهر .

وعلى يسار الممر يقوم مبنى المدرسة الطيبرسية القديمة ، نسبة الى الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش بمصر في دولة الناصر محمد بن قلاوون ، وقد بنيت قبل المدرسة الاقبغاوية في سنة ٧١٩/ ١٣١٩ ، وكان طيبرس على خلاف أقبغا اميراً صالحاً ، وقد بنى هذه المدرسة وجعلها مسجداً في نفس الوقت ، وتأنق في بنائها وأنفق مالاً جزيلاً في اتقانها وزخرفتها ، وكان مبنى هذه المدرسة من الداخل قطعة من الفن الاسلامي في أحسن صورة ، ولكنها اتخذت في سنة ١٣١٤/ ١٨٩٦ ملحقاً لكتبة الازهر فإذا فرغ الزائر من ذلك الممر بين المدرستين أفضى إلى صحن الجامع ، وهو صحن فسيح تحيط به البوائك من كل جهاته ، وهذا الصحن قبل جامع القديم ، ويليه بيت الصلاة الذي ينتهي بجدار القبلة القديم ، تليه بعد ذلك زيادة عبد الرحمن كتخدا وكان من كبار أمراء المماليك في مصر العثمانية ، فقد قام هذا الرجل في سنة ١١٦٧/١٧٥٣ بترميم مباني

الأزهر ، وأضاف اليه زيادة كبيرة شمال بيت الصلاة الأصلي ؛ وتبلغ هذه الزيادة أكثر من نصف حجم الجامع الأصلي ، وهي بيت صلاة كامل بقبلته ومحرابه يقوم على خمسين عموداً ، يقوم عليه خمسون عقداً من نفس طراز نفوذ الأزهر الأصلية ، وأنشأ في جدار القبلة الجديد محراباً بديعاً ، ورفع قبة جميلة فوق بلاطة المحراب ، وصنع لهذه الزيادة منبراً بديع الصنع ، والى جوار المحراب يقوم محراب أصغر منه يسمى بمحراب الدردير ، ثم محراب آخر ثابت حديث الصنع . وبهذه الزيادة أصبح بيت صلاة الأزهر من أكبر بيوت الصلاة في مساجد مصر .

وأنشأ مبنى واسعاً له باب يؤدي الى حارة كتانة ، وهذا الباب هو المشهور اليوم باسم باب الصعايدة ، وهو باب فخم جميل أنشأ عبد الرحمن كتخدا بأعلاه غرفة تقوم على اعمدة رخامية خصصها لتحفيظ الصبيان القرآن ، وداخل الرحبة أقام كتخدا ضريحه وصهريجاً وسبيل ماء ، وفوق ضريحه تقوم قبة صغيرة . وأنشأ الى جانب باب الصعايدة المئذنة المنسوبة اليه ؛ وإليه يرجع الفضل في القاء الباب الرئيسي للأزهر ، وهو المعروف الآن بباب المزينين .

وللأزهر اليوم خمس مآذن مختلفة الطرز ، لأنها بنيت في عصور متفاوتة ، منها اثنان من إنشاء عبد الرحمن كتخدا ، وواحدة تنسب الى السلطان قايتباي ذات جوسقين وعمامتين ، وهي أكبر مآذن الأزهر .

وكان للجامع ثلاثة عشر محراباً ، بقي منها ستة ، أقدمها محراب ايوان القبلة القديمة عند جدار المسجد الاول . وهذه المحاريب تتفاوت في الجمال واتقان الصنعة .

وللأزهر ثلاث قباب ، أجملها واكبرها تلك التي تقوم فوق المدرسة الجوهرية الملحقة بالأزهر ، وتقوم على رقبة ذات شماسات ثم عقود مدببة مزينة من الخارج بنقوش عربية غاية في الجمال .

جامع أحمد بن طولون

يقع هذا المسجد الهائل المساحة شرق حي السيدة زينب جنوب القاهرة ، في موقع مدينة القطائع التي أنشأها أحمد بن طولون لتكون معسكراً لجنده ومقراً لحكومته . شرع ابن طولون في بناء هذا المسجد ٢٦٥/٨٧٩ ، وكان تخطيطه ـ ولا يزال ـ تخطيط حصن ، فهو مسجد حصن وله مئذنة ملوية .

وقد توالت أعمال التجديد والبناء في جامع ابن طولون ، ولكنه لا يزال محتفظاً ـ الى اليوم ـ بهيئته الأصلية ، سواء في هيكله العام أو تفاصيله المعمارية . وهو قائم على تل مرتفع ، فلا يوصل اليه إلا بواسطة سلم ، والمسجد مربع مقاييسه ١٦٢,٥×١٦١,٥ متراً ، أي أن مساحة ٢٦١٤٣ متراً مربعاً تقريباً ، فهو ـ على هذا ـ من أضخم المساجد في عالم الاسلام ؛ وفي وسطه صحن مكشوف تربيعه ٩٢,٥×٩١,٨٠ متراً .

وجوف بيت الصلاة يتكون من خمسة أساكيب تقوم على عقود مدببة من الحجر والآجر ، ترتكز على دعائم ضخمة من الآجر ، وعدد أروقفته ـ أي بلاطاته ـ الشارعة من الصحن إلى جدار القبلة ١٧ ، كلها على نفس النسق مما يعطي بيت صلاة المسجد جمالاً فريداً . وقد أقيمت في أركان الدعائم أعمدة زخرفية محلاة بالزخارف ، وغطيت العقود بزخارف جصية متنوعة ، ويدور بجدران بيت الصلاة إزار خشبي ، نقشت عليه بالخط الكوفي البارز سورتا البقرة وآل عمران . والجدران الداخلية للمسجد محلاة بشبابيك ذات عقود مدببة عددها ١٢٩ مغطاة بالجص المزين بالنقوش من كل نوع .

والمسجد متعدد المحاريب ، وعدد محاريب جامع ابن طولون خمسة ، اكبرها وأهمها الأوسط وهو محراب مجوف عمل أيام لسلطان المملوكي سيف الدين لاجين ، وهو مزخرف بالفسيفساء الزجاجية والمذهبة الملونة وقد نقشت بينها الشهادتان . وطاقية المحراب ـ أي أعلاه ـ مصنوعة من الخشب المزين بالزخارف الملونة ؛ أما بقية المحاريب فمسطحة .

وصحن المسجد الفسيح يملأ النفس اجلالاً ، فهو شاسع رفيع الجدران تطل عليه البوائك من كل ناحية ، إذ يحيط به بيت الصلاة ، ومجنبتان يسري ويمنى كل منهما من رواقين ، ومجنبته الخلفية من رواقين ايضاً ، فمتوسط الصحن قبة كبيرة تشوب

بوضعها جمال الصحن الفسيح ، وقد نشئت هذه القبة مرة بعد مرة ، والقبة الحالية ـ التي تقوم على بناء مربع نشأها السلطان سيف الدين لاجين سنة ١٢٩٧/٦٩٦ .

أما مئذنة الجامع فهي الثانية من طرازها في العالم فهي ذات مصعد خارجي يدور حول بدنها حتى أعلاها ، وهي توأمة مئذنة مسجد سامر الجامع ، وتقوم غرب الجامع مستقلة عنه ، ويدور بها المصعد الحلزوني الذي ذكرناه ، وهي تتكون من أربع طبقات ، الأولى مربعة ، والثانية مثمنة ، والثالثة مثمنة والرابعة على نفس الهيئة تعلوها قبة صغيرة .

وأهم ما يميز هذا المسجد هيئته المربعة وتماثل اجزائه ، فإن الناظر الى جدرانه تستوقف نظره صفوف الشبابيك المتراصة تعلوها الشرافات الجميلة التي تكون إفريزاً جميلاً للسقف الكبير .

بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسم الله

الجامع العتيق باسنا

إسنا مدينة مصرية قديمة بالصعيد الأعلى ، ذكرها جويتية فقال ، ان اسمها المقدس (Hat Khno Umou) معناها الإله خنومو وهي ترمز للسماء وكذلك في العصر الفاطمي قاعدة كورة إسنا وفي العصر المملوكي كانت من أعمال ولاية جرجا . وفي

سنة ١٨٣٣ أصبحت إسنا قاعدة مأمورية قائمة بذاتها ، وكانت هذه المأمورية تضم أحياناً الى قنا ويتكون منهما مديرية واحدة . وفي سنة ١٨٦٨ فصلت إسنا عن قنا وأصبحت مديرية إسنا ، وكانت تتكون من أربعة أقسام وهي إسنا وأدفو والكنوز وحلفا . ولما ظهرت أخطار الثورة المهدية في السودان أُالغيت مديرية إسنا وأضيفت الى مديرية قنا وكان ذلك سنة ١٨٨٨ م .

كانت اسنا ولا تزال مدينة عظيمة بلغ عدد منازلها في القرن (١٤) ثلاثة عشر الف منزل مبنية بالاجر ، وكان بها سبعون حارة كبيرة . وكان بها ثلاثمائة وسبعون فدانا مغروسة نخيلا وكرما وقصبا قال الادفوي : انه كان يتحصل سنويا من اسنا اربعون الف اروقصبا قال الادفوي : انه كان يتحصل سنويا من اسنا اربعون الف اردب تمر واثنا عشر الف اردب زبيبا . وكان بها كثير من المتاجر والحوانيت والخانات ترد اليها البضائع من القاهرة والاقاليم القبلية واهمها الاقمشة ، كالبرد والاردية المسماة الشقق الخاصة بالرجال والنساء ، وكان بها كثير من الحرف كصناعة المنسوجات الصوفية السميكة المعروبة (بالكليم) وصناعة المقاطف ونحوها مما يصنع من سعف النخيل . كذلك ف كان يرد الى اسنا القوافل الاتية من منار تحمل اليها الحاصلات السودانية كما كانت تشتهر بابراج الحمام .

ومن الاحداث التاريخية الهامة التي وقعت باسنا وذكرها ابن

ثغري بردي ، خروج ابن الصوفي العلوي بالصعيد ودخوله اسنا سنة ٢٥٥هـ فنهبها وقتل اهلها . وكان الوالي على مصر في ذلك الوقت هو احمد بن طولون ، فبعث اليه بجيش التقى مع ابن الصوفي في ناحية (هو) فانهزم جيش ابن طولون ، فارسل اليه جيشا آخر فالتقيا باخميم وانهزم ابن الصوفي وفر الى اسوان ثم الى مكة .

ويقيم باسنا عدد غير قليل من الاقباط ، ولذلك فاننا نجد بها الكثير من الكنائس والاديرة ولعل إهمها دير وكنيسة منعزلان عنها ومن الجهة القبلية -، وتعرف الكنيسة بمقتلة النصارى نسبة لاستشهاد كثير منهم بها في العصر الروماني ، كما ان ديرها كان من اشهر اديرة الصعيد الاعلى .

وبالمدينة كثير من المساجد الجامعة اقدمها الجامع العمري الكبير الذي يحتوي على لوحة تاسيسية منقوش عليها اسم بدر الجمالي سنة ٤٧٠هـ في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي .

ومن المساجد الهامة هناك ، جامع الضوى نسبة الى الشيخ الضوى المدفون بقبة متصلة بالجامع . وكان باسنا كثير من البيوتات المعروفة بالاصالة والرياسة والفضل حتى قيل انه كان بها في وقت واحد سبعون شاعرا ، وخرج منها جمع كبير من اهل العلم والأدب . ومن بيوتها العريقة بنو السديد وبنو الخطيب وبنو أشواق وبنو النضر ، فقد تولى معظم أعضائها مراكز رئيسية وهم

الذين بنوا جامع الخطبة سنة ٤٢٠ هـ ، ثم أضافوا اليه زيادة سنة ٤٩٥ هـ ، وإن كانت يد الاصلاح والتعمير قد توالت عليه فلم تترك للمبنى القديم . وكان المذهب الشيعي منتشراً باسناً حتى العصر المملوكي ، وقد استطاع الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطي عندما وفد اليها أن يخفف من حدة التشيع .

الجامع العتيق

ومن اهم مساجد اسنا الجامع العتيق ويعرف كذلك باسم الجامع العمري ، وهذه التسمية الاخيرة تكاد تطلق على اقدم مسجد في كل اقليم او منطقة من مناطق مصر وذلك نسبة الى ان جامع عمرو بن العاص هو اول مسجد انشىء في مصر الاسلامية .

يرجع تاريخ هذا المسجد الى العصر الفاطمي ، وقد تهدم المسجد القديم وجدد عدة مرات فتغيرت معالمه الاصلية ولم يبق منه غير المئذنة التي تقع في الركن القبلي من الواجهة الغربية للمسجد . وقد طرأ على قاعدتها بعض التغير اثناء العمارة التي اجريت للباب الغربي سنة ١٢٩٥هـ . وعلى قاعدة المئذنة مزولة من عمل خليل افندي ابراهيم مهندس الخريطة الفلكية سنة ١٢٨٧هـ . وقد ثبت على يمين المحراب لوح من الرخام مقاسه ٥٨×٢٩ سم مكتوب عليه بالخط الكوفي « بسم الله الرحمن الرحيم انما بعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر واقام

الصلاة واتى الزكاة ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين . صلوات الله وبركاته على مولانا وسيدنا الامام المستنصر بالله امير المؤمنين وعلى آبائه الطاهـرين وابنائـه الاكرمين . امر بعمارة هذا الجامع المبارك السيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام ناصر الامام ابو النجم بدر المستنصرى أدام الله قدرته . وأعلى كلمته القاضي أبا الحسن علي إبن أحمد بن محمد بن النضر فأسس في النصف من ذي الحجة سنة تسع وستين وأربع مائة وسقف في النصف من شهر ربيع أول سنة سبعين وأربع مائة وفقه الله لمرضاته واعانة على طاعته كما يصرف اهتمامه الى عمارته .

وقد احتوى النص التذكاري اسم (ابن النضر) على اعتبار انه قام بعملية التعمير من قبل بدر الجمالي ، ويحدثنا الادفوى عن بني النضر فيقول « وبنوا جامع الخطبة باسنا بعد العشرين واربعمائة » ويضيف على ذلك فيقول « وبنى الزيادة التي فيه على بن محمد منهم « اي من بنى النضر كذلك » في سنة تسع وخمسين واربعمائة ، وكان ذلك ناظر الاجباش بالأعمال القوصية » .

يتبين لنا من هذا النص الاخير ان الذي عمر هذا الجامع هم بنو النضر سنة ٤٢٠هـ ثم زادوا في عمارته سنة ٤٥٩هـ ، وليس بدر الجمالي كما يقول حسن عبد الوهاب ، ولكن من المرجح ان يكون بدر الجمالي قد اعاد بعض اجزائه كما هو ثابت في اللوحة

التاسيسية وتصادف كذلك ان كان منفذ امر بدر الجمالي في عمارة المسجد هو على بن النضر .

وتعتبر مئذنة جامع اسنا من اقدم المآذن المؤرخة في مصر الاسلامية ، وعلى غرارها انشئت مآذن الوجه القبلى ، كما بقيت اللوحة التذكارية لانشائها وهي مثبتة على يسار المحراب مكتوبة بالخط الكوفي نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين هذا مما امر بانشاء هذه المئذنة الاجل المنتخب فخر الملك سعد الدولة تاج المعالي ذو العز بن حسام امير المؤمنين ابو منصور سارتكين الجيوشي نصرة الله وظفرة ووفقة واحسن عونه في شهور سنة اربع وسبعين واربعمائة ، ابتغاء مرضاة الله تعالى وثوابه ورجاء الدار الآخرة والامن من عقابه رحمة الله تعالى وحشره مع مواليه الطاهرين صلوات الله عليهم اجمعين ورحم من ترحم عليهم آمين يا رب العالمين »■

مسجد ابي الحجاج الاقصري

عرف الصعيد المصري في القرن السابع الهجري السيد يوسف بن عبد الرحيم ابن غزى المشهور بابي الحجاج الاقصري

المتوفي سنة ٦٤٢هـ - ١٢٤٤ ميلادية علما من اعلام التصوف وشيخا من شيوخ التربية الروحية الذي تخرج على يديه الالاف من ابناء الصعيد ومسجده الذي يحتل الجانب الشرقي من معبد امون بالاقصر يعتبر من اهم المساجد الاثرية في مصر فقد شيد على انقاض كنيسة كانت قد انشات في هذا المكان في اوائل عصور المسيحية وقد ذكر ابو جعفر الادفوي في الطالع الصعيد ان الذي بنا الضريح الذي على الشيخ الاقصري هو ميلادية لكن المنار الاثرية التي تقع بالجهة البحرية من هذا الضريح قد اختلف المؤرخون وعلماء الاثار فيمن بناها .

فالاثري البريطاني المستر كريزول يقول في مؤلفه ان هذه المنارة قد بنيت في عصر بدر الجمالي الوزير الفاطمي المتوفي سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ ميلادية وأردف قائلاً أنها فاطمية الطراز وتشبه الى حد كبير منارة الجيوش بالقاهرة والراجح أن هذه المنارة وأن كانت فاطمية الطراز إلا أنها لم تشيّد في عصر بدر الجمالي .

من هذا القول نستطيع ان نقول ان المآذن والمنارات التي في مدن الصعيد كاسنا والاقصر وقوص من عمل الامير الافرم وهي متشابهة من حيث التصميم والبناء ومما يؤكد لنا هذا القول بالنسبة لمنارة أبي الحجاج الاقصري بصفة خاصة هو انه احد احفاد ابي الحجاج وهو الولي الصالح يوسف احمد النجم كان قد رحل الى مصر المحروسة لزيارة جده الامام الحسين في زمن الملك

العادل زين الدين كتبغا فسمع به الامير الافرم هذا وكان محبا للعلماء والصالحين فاجتمع به واكرم وفادته وبني له جامعا بباب البحر واوقف عليه اوقافا كثيرة واكرم اولاده بالاقصر وكان من ماثر كرمه ان اصلح مسجد ابي الحجاج فانشأ به هذه المنارة الخالدة .

وقد وصف المؤرخ البريطاني المستر كريزول هذه المنارة قائلا انها مبنية من الطوب اللبن ومقواة بدعائم خشبية موضوعة على كل جانبية في مستويات ثلاث وقد بنيت قنطرتها من الطوب الاجر وسلمها عرضه ٧٥سم .

وقد زار هذا الاثر الاسلامي الكثير من الامراء والسلاطين في مختلف العصور وعدد من المؤرخين والرحالة العرب كابن بطوطة والادفوي وشهاب الدين الفلقسندي والعالم النجوي مرتضى الزبيري . وقد شملت يد الاصلاح هذا المسجد على تباين العصور ففي عهد الخديو عباس حلمي الثاني الذي حكم مصر سنة ١٨٩٣ هـ - ١٩١٤ م جدد عمارة هذا المسجد وأنشأ به المئذنة الحالية التي تقع بالجانب الغربي من ضريح الشيخ وقد اتجهت أنظار علماء الآثار المصريين في العصور السابقة الى هدم هذا المسجد الأثري لتسنى لهم الكشف عن بقية أثار معبد آمون بالأقصر . ففي سنة سبعة قرون متعاقبة ١٩٤٨ أنشيء مسجد على الطراز الأندلسي يحمل اسم أبي الحجاج كان الغرض من

انشائه هو نقل جثمان الشيخ اليه بغية التنقيب عن الاثار المصرية لكن هذه المحاولة باءت بالفشل وفي عصرنا الحالي يتوالى عليه الاصلاح .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان يظل هذا المسجد رابضا فوق اطلال معبد امون بالاقصر رغم تلك الجهود التي بذلت في العهود السابقة نحو هدمه ولئن وصف بانه مسجد متواضع من الناحيتين الفنية والمعمارية الا انه يمثل في هذا المكان الوحدانية على مدى

وعلى اثر ذلك اكتسب هذا المسجد بدلالته التاريخية هذه شهرة واسعة النطاق في مختلف العواصم الاوربية حتى ان السائحين الاجانب الذين يفدون الى الاقصر لزيارة معالمها الاثرية يزورون هذا الاثر الاسلامي الخالد ويلتقطون لانفسهم صورا تذكارية بالقرب منه .

جامع الرصد

بجبل الرصد
أو اسطبل عنتر
جنوب مصر القديمة

كان لعلم النجوم اثر كبير في توجيه سياسة بعض خلفاء الدولة الاسلامية الذين كانوا يعتمدون على التنجيم في تنفيذ سياستهم ، فقد اعتمد ابو جعفر المنصور على النجوم في تاسيس

مدينة بغداد بعد ان استشار منجمه ابا سهل بن نوبخت . كما احتار الاسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم في بلاد اليمن لانهم عرفوا عن طريق النجوم انه سيكون له شأن في نشر هذه الدعوة في تلك البلاد . وكذلك حذا الفواطم حذو العباسيين في الاعتماد على التنجيم فقد ذكر ابن دقماق أن مدينة القاهرة سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذي يسمى (القاهر) .

ومهما يكن من الامر فاننا لسنا في مجال التحقيق او الاستقراء ، ولكن الذي نستطيع ان نقول به ونؤكده ، هو ان الفاطميين اهتموا بالنجوم ورصدها واستدعوا لذلك الكثير من المنجمين . فعندما دخل المعز لدين الله مصر قدم معه منجمه محمد بن عبد الله بن محمد العتقي ورفع العزيز بالله المنجم ابا عبد الله بن القلانسي الى ان توفي سنة ٣٨٦هـ . وأنشأ الحاكم بالمقطم منزلا يرصد فيه النجوم وعمل له منجمه ابو الحسن علي بن يونس الزيج الحاكمي في أربعة مجلدات .

وصف الجامع

نستفيد مما تقدم أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد بنى مرصدا على سفح جبل المقطم ، ومن المرجح ان يكون الجرف الذي بنى عليه الحاكم مرصده قد اصبح كما يفهم ذلك من رواية المقريزي عن جامع الفيلة اذ يقول : جامع فيلة يقع بسطح الجرف المطل على

بركة الحبش المعروف الان بالرصد . وقد بنى هذا الجامع الافضل شاهنشاه بن امير الجيوش بدر يعرف منذ ذلك الوقت باسم جبل المرصد الجمالي في شعبان سنة ثمان وتسعين واربعمائة وبلغت النفقة على بنائه ستة آلاف دينار .

ويكمل المقريزي تاريخ بناء الجامع فيقول : ولما كمل بناء الجامع قام في خطابته الشريف الزكي امين الدولة وابو جعفر محمد بن هبة الله الحسيني ، الذي ولي قضاء عسقلان وغيرها ثم قدم الى مصر فولى الحكم بالمحلة وولى ديوان الاحباش وكان احد الاعيان الادباء العارفين بالنسب ومن المجيدين و والنحاة اللغويين . ولد بطرابلس الشام سنة ٤٦٢هـ وقدم الى القاهرة سنة ٥٠١هـ ومدح الافضل شاهنشاه فرشح للنقابة بمصر ولم ينلها مع تطلعه اليها ، فلما عينه الافضل في خطابة جامع الفيلة عز عليه ان يكون هذا جزاءه ، فلما رقى المنبر لاول خطبة تلقى في هذا الجامع ارتج عليه. فلم يدر ما يقول وكان هناك الشيخ ابو القاسم علي بن منجب ابن الصيرفي في الكاتب وولده مختص الدولة وغيرهما من وجوه الدولة ، فلما اضجر من حضر نزل عن المنبر وقد حم فتقدم قيم الجامع وصلى ومضى الشريف الزكي الى داره فاعتل وبقي مريضا حتى مات سنة ٥١٧هـ .

ولعل في اهتمام الافضل شاهنشاه بعلم الفلك ورغبته القوية في عمل زيج يفوق الزيج الحاكمي مما يؤ يد ما رجحناه من أنه قد

أقام مسجد الرصد مكان مرصد الحاكم بأمر الله . فقد ذكر المقريزي ، انه عمل للافضل مائة تقويم لاستقبال سنة ٥٠٠هـ فوجد بينها اختلافا كثيرا فانكر ذلك ، فلما كان غره سنة ٥١٣ سألهم عن السبب في الاختلاف بين التقاويم فقالوا : الشامي يحسب ويعمل على رأي الزيج الماموني ، ونحن نعمل على رأي الزيج الحاكمي لقرب عهده وبين المتقدم والمتأخر تفاوت ، ثم اشاروا عليه بعمل رصد مستجد . فنشط في اقامة المرصد وساعده جميع المهندسين وعلماء االحساب والتنجيم الى ان قتل الافضل سنة ٥١٥هـ وولى الوزارة المامون البطائحي فأحب ان يتم هذا الرصد على ان يعرف بالرصد المأموني المصحح واستمر العمل الى ان قتل الوزير البطائحي سنة ٥١٨ فوقف العمل به .

واود قبل ان اختم الكلام عن مسجد الرصد ان اذكر اهمية الرصد بالنسبة للدولة الفاطمية من الناحية الدينية . فمن المعروف ان من المسائل الفرعية التي يختلف فيها الشيعة الاسماعيلية عن مذهب اهل السنة هو ابتداء شهر الصوم ، بينما يذهب جمهور اهل السنة الى ضرورة رؤ ية الهلال لبداية الصوم فقد لجأ الفاطميون الى الفلك والحساب فعملوا تقويما قمريا يحسبون بمقتضاه سير القمر ويقدرون منازله حتى يعرفوا ان هلال رمضان قد اهل حقا . كذلك فسروا قول النبي الكريم « صوموا لرؤ يته وافطروا لرؤ يته انها رؤ ية استبصار ولا رؤ ية ابصار » . □

من روائع الفن الاسلامي

الاسواق والوكالات

تعد اسواق مصر من اشهر الاسواق العالمية فقد كانت تعتبر ملتقى تجارة الشرق والغرب واستمر ازدهار هذه الاسواق بعد الفتح الاسلامي وانشاء مدينة الفسطاط والقطائع والعسكر ثم القاهرة الفاطمية . . حتى العصر العثماني .

وكان استمرار عمران القاهرة في ازدياد داخل اسوارها وخارجها فاقيمت المباني الفخمة والاسواق الكبيرة والدكاكين التجارية المتعددة التي كانت ملكا خاصا للخلفاء والامراء حكام مصر .

وكانوا يفخرون اذا شيدوا وكالة او سوقا يعود عليهم من ايجارها بالمال الوفير . . وكان يتراوح ايجار الغرفة او الدكان بين دينارين وعشرة دنانير في الشهر . .

وكان بالقاهرة القديمة اكثر من خمسين سوقا . . تسقف بالحصير او الخشب وتطل عليها النوافذ والمشربيات .

ومن اشهر الاسواق التي ذكرها المقريزي سوق القصبة وكانت اعظم اسواق مصر في عصره ، فقد احتوت على اثني عشر الف

دكان حيث امتدت السوق من حي الحسينية الى المشهد النفيس .

كانت هذه الدكاكين تغص بانواع المآكل والمشارب والامتعة التي تبهج رؤيتها النفس .

وقد تفرعت على هذه الاسواق اسواق صغيرة اخرى اهمها سوق باب الفتوح وسوق حارة برجوان وسوق الشماعين وسوق الدجاجين وسوق بين القصرين ومن الاسواق المشهورة سوق السلاح وكان يمتد بين جامع ومدرسة الظاهر بيبرس وبين باب قصر بشتاك وقد جددت بعد الدولة الفاطمية وجعلت لبيع انواع والات السلاح .

كما كان سوق باب الزهومة وسوق اللحميين وسوق الجوخيين وسوق الحلاويين وسويقة امير الجيوش وسوق الصنادقيين والحريريين والعنبريين والخراطين والقرابين والنحاسين وغير ذلك من السويقات العديدة مشهورة في جميع مشارق ومغارب العالم الاسلامي حيث كان ياتي لها التجارة من الهند والصين وايران والعراق والشام وتركيا والمغرب وايطاليا واليونان واسبانيا

وكان امراء المماليك يفاخرون بما يشيدون من وكالات واسواق وهكذا سار المعمار في العصر العثماني على نهج المعمار المملوكي في بناء الوكالات من حيث وجود صحن اوسط كبير

مكشوف تحيط به بوائك تؤدي لحواصل تخزين البضائع تعلوها حجرات لعرض البضائع ويعلوها طابق اخر لمعيشة التجار فترة اقامتهم بالوكالة .

ولم تتعد الوكالات القاهرة الفاطمية القديمة فجميعها موجود بحي الازهر وبين القصريين والخرنفش والدرب الاصفر وباب النصر وكلها مناطق متقاربة وهي نفس الاماكن التي بها كثير من الوكالات القديمة التي ازدهرت في العصر المملوكي مثل وكالة قوصون ووكالة قايتباي ووكالة الغوري بالتبليطة التي تستعمل حاليا مركزا ثقافيا وفنيا هاما .

واستمر تشييد الوكالات في هذه المناطق ما عدا وكالة سليمان باشا ببولاق ووكالة وقف التونجي بالصليبية وبالرغم من ذلك احتفظت القاهرة القديمة باسواقها ووكالاتها وكيانها كحي المال والتجارة .

وفي عام ٩٠٣هـ امر والي القاهرة بان ينادي باسم السلطان بان سكان الاسواق والوكالات والحارات يعملون عليها دوربا وبوابات وذلك منعا لتعدد حوادث السرقة وعين عليها البوابين والحراس وكانت تغلق عقب صلاة العشاء وبعضها كان يغلق عقب الغروب .

بقي من هذه الدروب والبوابات ما هو موجود على سوق تحت

الربع وعلى سوق احمد بن طولون وعلى سوق امير الجيوش .

وحينما كانت تقع اضطرابات او قلاقل كانت تغلق ابواب الدروب . . وبقيت تلك الابواب فترة طويلة تؤدي وظيفتها حتى القرن التاسع عشر .

وكان في القاهرة الكثير من مباني الاسواق والوكالات ذات المباني الرائعة التي كتب عنها المؤرخون . . لقد كانت القاهرة مدينة رائعة الجمال فخمة البناء جميلة العمارة متجانسة في طرزها وزخارفها الاسلامية

من روائع الفن الاسلامي

مسجد الصالح طلائع

انشأ هذا الجامع ابو الغاوات الملقب بالملك الصالح طلائع ابن رزيك عام ٤٩٥هـ على رأس تقاطع شارع الدرب الأحمر امام باب زويطة ، وكان الملك الصالح وزيرا للفائز بنصر الله الخليفة الفاطمي ويعتبر اخر جامع انشىء في عهد الدولة الفاطمية .

وقد شيد هذا الجامع خصيصا لتدفن فيه راس الحسين بن علي رضي الله عنه ولكن الخليفة الفائز اصر على دفنها داخل القصور الزاهرة حيث المشهد الحسيني الان .

ويعتبر جامع الصالح طلائع من المساجد المعلقة لإرتفاعه عن مستوى الشارع بحوالي اربعة امتار فوق مجموعة من الدكاكين اسفل ثلاثة من واجهاته الحجرية ، ويقع الباب الرئيسي للجامع في وسط الواجهة الرابعة الغربية .. التي تعد اجملها .. ولا سيما من ناحية التصميم .

وقد اقيم امامه رواق محمول على اربعة عمد رخامية جليت عقودها بزخارف جميلة وقد حلي صدر الرواق وجانباه بزخارف على شكل مروحة نقشت بافاريزه آيات قرآنية كتبت بالخط الكوفي المزهر .

وكان للجامع باب خشبي من مصراعين صفح وجهاها بالنحاس المزخرف اما ظهر المصراعين فمن الخشب المحفور بزخارف فاطمية .

يتكون من الداخل من اربعة اواوين بتوسطها صحن فسيح به صهريج كان يملأ وقت الفيضان من الخليج عند باب الخرق « باب الخلق » .

ايوان القبلة يتكون من ثلاثة أروقة ويتكون كل من الاواوين الثلاثة الاخرى من رواق واحد وعقود هذه الاروقة محمولة على عمد رخامية .

ويمتاز محراب الجامع ببساطته وحيط به عمودان من الرخام الاحمر والى يمين المحراب منبر رائع دقت حشواته بالاويمة الدقيقة

المتقنة الصنع بامر الامير كندار عام ٦٩٩هـ وكان قد جدد مئذنته عقب سقوطها بسبب الزلزال .

بالجامع بعض بقايا الزخارف الجصية والاخشاب المنقوشة بزخارف هندسية يشيع فيها مجموعة كبيرة من الكتابات الكوفية المزهرة التي تدل على مدى ما وصل اليه فن الزخرفة من رقي في العصر الفاطمي .

كما تمثل الصرر الزخرفية المستدير أهم العناصر الزخرفية بهذا الجامع التي تنتشر في أرجائه .

وكان الصالح طلائع شاعرا تقيا وسياسيا حكيما ارمني الاصل . . ومات ضحية نساء القصر اللاتي ارسلن اليه بعض الرجال فكمنوا له في دهاليز القصر وضربوه حتى سقط مغشيا عليه وحمل جريحا .

وكان آخر ما فاه به ندمه على انه لم يستخلص بيت المقدس من ايدي الفرنجة ونصح ابنه ان يحذر « شاور » حاكم الوجه القبلي من دخول ملك بيت المقدس البلاد المصرية التي حدثت فعلا بعد ذلك باعوام .

مسجد ساهرا الجامع

بدأ الخليفة المعتصم بالله (٨٣٣ ـ ٨٤٢) في إنشاء سامرا سنة ٨٣٦ ، ولم يكن يريدها ان تكون مدينة ملكية كما فعل عبد الرحمن الناصر عندما نشأ مدينة الزهراء ، وانما اراد أن تكون

معسكراً يؤوي جنده التركي ويبعدهم عن بغداد بعد أن ضاقت بهم وآذوا سكانها . فكل مبانيها لا تمتاز بجمال او أناقة ، وإنما تمتاز بالضخامة والمتانة حتى تتحمل الأعداد الضخمة من الجنود والحرس ، ولم يبق من المدينة الآن أطلال بالية ، والكلام كله قائم على استنتاجات بنت على ما كشف من بقايا أساسات المباني .

هذا ينطبق على ما كشفت آثاره من مباني سر من رأي ، مثل الجوسق الخاقاني الذي بناه الخليفة لسكناه ، وقصر بلكوارا الذي بني لسكنى أحد بلاد المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١)، اما مسجد سامرا الجامع الذي بناه المتوكل ،وهو دون شك أوسع ما بنى المسلمون من مساجد ، وقد بقيت أجزاء من جدرانه التي تشبه أسوار الحصون ، وبقيت مئذنة ذات المصعد اللولبي الخارجي التي تذكر الانسان بفكرة برج بابل . المسجد كله مبني بالآجر (الطوب المحروق) ويبلغ سمك الجدار أكثر من مترين ونصف متر ، تؤيده ـ على مسافات متساوية ـ دعامات خارجية نصف دائرية يزيد قطر الواحدة منها عن ٣,٥ امتار ، وتبعد الواحدة عن الاخرى ١٥ متراً وتقوم أربع منها عند الأركان .

والمسجد مستطيل ، مقاييسه ١٥٦×٢٤٠ متراً ، أي أن مساحته كانت ٣٧٤٤ متراً . ويذكر المؤرخون انه أضيفت إليه فيها بعد زيادات جعلت مقاييسه ٤٤٤×٣٧٦ متراً ، أي أن

مساحته بزيادته بلغت ١٦٧,٩٤٤ متراً اي اضيف الأربعين فداناً ، وهذه مساحة مدينة صغيرة لا مجرد مسجد جامع .

وكان جوف (عمق) بيت الصلاة ٦٢ متراً ، يتألف من تسعة أساكيب تقوم على تسعة صفوف من الدعامات ، في كل صف ٢٤ دعامة . وكانت تلك الدعامات مبنية بالآجر ، وضلع الدعامة الواحدة متران وارتفاعها عشرة أمتار ونصف . وكانت تحيط بالصحن مجنبات في الجهات الثلاثة يتألف كل منها من ثلاثة اروقة . وكان للمسجد ١٦ باباً . أما مئذنته ـ المعروفة بالملوية ـ فكانت تقوم على قاعدة مربعة ضلعها ٣٣ متراً ، ويبلغ ارتفاعها في الجو ٥٠ متراً فوق القاعدة المربعة ، أي أن ارتفاعها يعدل ارتفاع بيت حديث عن عشرين دوراً على وجه التقريب .

جامع الكُتُبِيَّة في مراكش

تعتبر مراكش ، درة المدن الاسلامية في أفريقيا من أجمل مدن الاسلام بل مدن الدنيا على الاطلاق ، وهي تمتاز بمساجدها ومدارسها وروضاتها الأثرية ثم القطع الباقية من أسوارها القديمة ، ولكن درتها الكبرى هي مسجد الكتيبة الذي يكاد يكون مدرسة للفن أو متحفا للابتكار المعماري جمع كل عجيبة .

هذا الجامع من إنشاء عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين ، شرع في بنائه سنة ٥٤٨/ ١١٥٣ ، أي في نفس

الوقت الذي أنشيء فيه جامع تينملل ، وهو ثالث الآثار المعمارية الموحدية الكبرى ، بعد تينملل ورباط تازا الذي أنشيء سنة ١١٣٣/٥٢٧ .

وجامع الكتيبة فسيح مستطيل الشكل ، وبيت الصلاة من اوسع بيوت الصلاة التي نعرفها ، وقد كانت اروقته في الأصل تسعة عمودية على جدار المحراب ، والرواق الأوسط - أو البلاطة الوسطى ، او رواق المحراب - آية في الروعة والجمال ، فان عقوده - كبقية عقود الجامع - تقوم على دعائم حجرية ، والعقد على هيئة حذوة الفرس مع تدبيب في أعلاها وانتفاخ في جانبيها ، وهي - على هذا - ت نموذج للعقود الموحدية في كل بلد من بلاد المغرب .

وفوق رواق المحراب ست قباب صغيرة ، وكذلك نجد فوق أسكوب جدار المحراب خمس قباب ، وكل هذه مزينة في داخلها بالمقرنصات والزخارف من كل نوع .

وأجمل ما يمتاز به جامع الكتيبة مئذنته ، وهي اروع مآذن المساجد الباقية ، ارتفاعها في الجو ٦٧,٥ مترا أي ارتفاع بيت من ٢٠ طابقا ، ومركزها أو قاعدتها بناء ضخم من ستة طوابق فيها غرف كثيرة ، حتى اذا وصلنا إلى شرفة الأذان - أو بيت المؤذن - انطلقت بقية المئذنة مستقيمة ، وجدرانها كلها مغطاة بأفاريز متوالية من الزخارف التي تحيرّ الألباب ، والنوافذ ذات

عقود من كل صنف ، منسقة على هيئة تتمشى مع السلم الداخلي الذي يصل الى أعلى هذه المئذنة .

مسجد سيدي عقبة .

يعتبر هذا المسجد أقدم مساجد المغرب بعد مسجد القيروان ، ويعتقد أنه نشأ أول الأمر ضريحاً ـ أو روضة ـ في الموضع الذي استشهد فيه عقبة الصحابي الفاتح العظيم .

والمكان الذي استشهد فيه عقبة مع أصحابه هو قرية تهودة ، والزمان سنة ٦٣ هجرية ، وتهودة تقع الى الجنوب قليلاً من بسكْرةَ في الجزائر الحالية . ويقوم المسجد في سهل فسيح قليل السكان غير بعيد من مجرى نهر صغير يسمى وادي الأبيوض ، ولا شك أن المسجد قد تناولته يد الترميم مرة بعد مرة قبل أن يصل الى شكله الحالي ، ولكنه ما زال محتفظاً بهيئته البسيطة التي ترجع الى عصوره الأولى .

والمسجد يقوم في واحة صغيرة تحمل اسم سيدي عقبة ، وهو يضم روضة صغيرة للمجاهد العظيم ، وبيت صلاة ذا أروقة فسيحة تقوم فوقها عقود مستديرة ترتفع على دعائم صغيرة من الآجر ، وكل الاعمدة والعقود في غاية من البساطة ما عدا عقود عقود رواق المحراب فهي مزينة بعض الشيء ، والمحراب بسيط مجوف مزخرف بطريقة بسيطة جدا لا تكلف فيها . وللجامع صحن مستطيل تحيط به البوائك . ورغم أن المعماري الذي

أنشأ المسجد في صورته الأخيرة تلك لم يتكلف أي زينة ، إلا أن المسجد ـ مع ذلك ـ يبهر الانسان بما يفيض فيه من النور ، وبعض أروقة قاعة الصلاة لا تكاد تتسع إلا لاثنين من المصلين ، ولكن مجنبات الصحن فسيحة رائعة يشعر الانسان اذا جلس فيها بفيض من الايمان يملأ نفسه .

وروضة عقبة ـ في الحقيقة ـ روضتان ، ففيها أيضا دفن فرسه الخالد الذي دخل به إلى صدره في ماء المحيط الأطلسي ، وأشهد الله على أنه وصل براية الاسلام إلى آخر المعمور .

ومئذنة جامع سيدي عقبة شبيهة ببرج متوسط الارتفاع ، ولكنه غريب في هيئته . ويظهر بوضوح أن المعماري البسيط الذي أنشأها بذل اقصى جهده في الوصول بمعلوماته المعمارية البسيطة الى أقصاها ، فوفق في هذا توفيقا كبيرا .

مسجد المرابطين في مدينة الجزائر .

أمر ببناء هذا المسجد الجميل يوسف بن تاشفين أول أمراء المرابطين ، ويرجح أن الشروع في إنشائه كان سنة ١٠٧٢/٤٧٥ وقد أعيد ترميم هذا الجامع مراراً عديدة على طول تاريخه ، وإذا كان بعض زخارفه يرجع إلى عصور متأخرة فإن هيكله العام وأجزاءه الرئيسية ترجع إلى العصر المرابطي وهو من أجمل عمائر هذا العصر .

وبيت صلاة هذا الجامع يتألف من احدى عشرة بلاطة وخمسة أساكيب ، وتحيط بالصحن ثلاث مجنبات يتألف كل من المجنبتين منها من ثلاثة أروقة ، أما المجنبة الخلفية فتتألف من رواق واحد ، وعقود المسجد تقوم على دعائم حجرية . أما عقود الأروقة المؤدية الى جدار القبلة فمدببة منفوخة ، في حين أن عقود الأساكيب الموازية لجدار القبلة مفصصة على هيئة حذوة الفرس ، وفصوص هذه العقود متعددة ومثقلة بالزخارف .

وبوائك ذلك الجامع المطلة على الصحن آية في الجمال والتناسق ، وفصوصها من أجمل ما صنعه الفنانون المسلمون من هذا الطراز ، وكل جدران العقود مزينة بالزخارف المتداخلة المتشابكة .

وهذا المسجد يعتبر من المساجد المرابطية القليلة الباقية الى اليوم ، لأن مساجدهم الأولى التي أنشئوها في مراكش ـ لأول بنائها ـ وفي غيرها من بلاد دولتهم الشاسعة قد زال بعضها وبعضها الآخر أعيد بناؤه على أيدي الموحدين ومن جاء بعدهم .

مسجد أبي مدين وروضته في العباد

زهد ابو مدين ، شعيب بن الحسين الاندلسي (١١٢٦ ـ ١١٩٦) وبدأ حياة طويلة من الحج والسياحة والعبادة حتى توفي

في قرية العُباد فاقام له ابو الحسن المريني المسجد والروضة ؛ وقبره في مدين يعتبر اليوم من اعظم مزارات المغرب .

وروضة ابي الحسن عمل معماري بديع رغم صغر حجمها ، يدخل اليها من بوابة أندلسية تظللها شماسة مغطاة بالقرميد ثم تهبط السلالم المزينة بالزليج وتنتهي الى مكان القبر في قاعة مزينة كلها الزليج أيضاً .

أما المسجد المجاور لها فأندلسي الطراز ، وهو صغير الحجم نسبياً ولكن صحنه الصغير الأنيق تزينه نافورة في وسطه ، ويعتبر هذا الصحن ـ رغم صغر حجمه ـ من أجمل صحون المساجد في المغرب ، ونفس البوائك المغربية الطراز التي تحيط بالصحن تمتد في بيت الصلاة الصغير الجميل . هنا نجد العقود المستديرة تعتمد على دعامات مربعة من الحجر ، مزينة بزخارف حصية تذكرنا بزخارف الحمراء في غرناطة ، ورغم بساطة هذه العقود فإنها تروع النفس ببياض لونها وانتظام هيئتها ، والمحراب أندلسي منقول عن محراب مسجد قرطبة الجامع . وفوق بلاطة المحراب يرتفع سقف محدب يحل محل القبة . وتعتبر مئذنة الجامع التي بناها أبو الحسن سنة ١٣٣٩ من أجمل المآذن المغربية ذات الطراز الأندلسي في المغرب الأوسط .

جامع علي بنشين في مدينة الجزائر

بني هذا المسجد على الارجح سنة ١٠٣١ / ١٦٢٢ ، فهناك

وثيقة أوقاف خاصة به حررت بمعرفة القاضي الحنفي في ذلك التاريخ . ومنشىء المسجد ـ كما يتضح من تلك الوثيقة ـ رجل مسيحي هداه الله للاسلام وأصبح من كبار قواد الجيوش العثمانية . والمسجد صغير الحجم نسبياً ، ولكن بيت صلاته ينطق بالأثر التركي فهنا نجد قبة عثمانية الطراز مثمنة الأضلاع تقوم فوق قلب بيت الصلاة مرتكزة على اربع دعائم ضخمة ، وبيت الصلاة مقسم إلى ايوانات تزين الجانبين منها عشرون قبة صغيرة .

وقد أستولى الفرنسيون على هذا المسجد في ٢٨ مارس سنة ١٨٤٢ وحولوه الى كاتدرائية سموها سيدتنا مولاة الانتصارات .

وقد أراد الله له أن يخرج من اسره فعاد مسجدا مطهرا بعد الاستقلال .

جامع الحواتين

الحوّاتون هم صيادو السمك ، وهذا المسجد انشىء في منطقة تنسب اليهم ، وهو مسجد جميل يطل على البحر بواجهة هي الغاية في الجمال والرواء ، وهو أجمل نموذج للمساجد الجزائرية العثمانية الطراز .

وتقول وثيقة مؤرخة في سنة ١٠٧٠ / ١٦٦٠ أن من أنشأ هذا الجامع رجل يسمى الحاج حبيب ، أنشأه بأموال تبرع بها

الحواتون والجنود واهل الخير . والمسجد يتبع في خطوطه العامة طريقة مسجد أيا صوفيا ، أي ان مركزه كله هي القبة التي تقوم فوق وسط بيت الصلاة ، وهي تقوم على اربع دعائم ضخمة من الحجر الملبس بالرخام ، وارتفاع القبة ٢٤ مترا تحيط بها قباب اصغر تقوم على ايوانات بيت الصلاة .

أما مئذنة المسجد فمغربية الطراز ، وهذا هو وجه الجمال في ذلك المسجد الذي يجمع بين طرازين مختلفين ، وهي مئذنة أنيقة ترتفع في الجو ببدن منسرح على هيئة مكعب ينتهي عند شرفة الأذان ثم يكتمل بجوسق جميل .

من روائع الفن الاسلامي
المدارس الاسلامية

ظهرت المدارس لاول مرة عندما تولى صلاح الدين الايوبي حكم البلاد عندما اخذ على عاتقه محو المذهب الشيعي من البلاد ونشر المذهب السني ، الذي اقتضى انشاء مجموعة من المدارس لتدريس الفقه على المذاهب الاربعة .

وقد كانت هذه المدارس في الواقع فتحا جديدا في العمارة القاهرية فحتى ذلك الوقت كانت المساجد ذات شكل واحد اساسه الصحن ورواق القبلة واروقة جانبية معدة كلها لصلاة الجماعة او مخصصة للاساتذة يستعملونها فصولا للدراسة في

شكل حلقات أو مأوى يلتجيء إليه الفقراء وأبناء السبيل ينامون تحت سقوفها ولكن على يدي صلاح الدين نشأ طراز المدرسة في العمارة الأيوبية وهو طراز يقوم على وجود مربع صغير في الوسط كان يحيط به أيوانان فقط استوحاهما من طراز الصناعة في العمارة الفاطمية ثم تطور الى أيوانات أربعة متعامدة وكأنها أجنحة للمسجد فأما الجناح الشرقي وهو أطولها فيخصص ايوانه للصلاة وفيه المحراب وتخصيص أحد الأروقة للحنفية والثاني للشافعية والثالث للمالكية والرابع للحنابلة .

ولم يكن نظام المدرسة التي بدأها صلاح الدين في القاهرة من مبتكراته وانما هي فكرة نقلها عن سورية حيث اقام مولاه نور الدين المعاهد السنية لنشر المذهب الحنفي في دمشق وغيرها من المدن وكان نور الدين قد حذا في ذلك حلو السلطان السلجوقي ملكشاه الذي بنى له وزيره العظيم نظام الملك .

المدرسة النظامية في بغداد والمهم ان هذا الطراز الذي بدأه الايوبيون في العمارة القاهرية ظل نقطة هامة في تخطيط المساجد واول مدرسة احدثت بديار مصر المدرسة الناصرية للشافعية والمدرسة القممية للمالكية بجوار جامع عمرو ثم المدرسة السيوفية بالقاهرة للمذهب الحنفى وقد عدد لنا المقريزي مجموعة كبيرة من المدارس الأيوبية زال معظمها ولم يبق لنا إلا المدرسة الصالحية بالنحاسين التي أنشأها الصالح نجم الدين .

وظهر في عصر المماليك نظام المدارس ذات اليوانات المتعامدة على صحن أوسط مكشوف . وكان أول مثل وصل الينا متكاملاً هو مدرسة السلطان منصور قلاوون سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) .

ومن اشهر المدارس مدرسة الناصر محمد ومدرسة ال ملك الجوكندار ومدرسة حرغتمش ومدرسة السلطان حسن ومدرسة ام السلطان شعبان ومدرسة الجاي اليوسفي .

وقد أضيف للمدارس منذ نشأتها بالقاهرة ضريح للمنشىء وتمتاز مدارس العصر المملوكي البحرية بالضخامة والاتساع في البناء والمساحة وعمق ايوان القبلة واتساع الصحن المكشوف .

وقد الحق بالمدارس وحدتان معماريتان على جانب كبير من الاهمية في الحياة العامة الا وهما السبيل والكتاب .

وقد استمر نظام المدارس ذات الايوانات المتعامدة على صحن اوسط خلال العصر الجركسي وان كان المعمار قد بدأ يناسب بين اجزاء المدرسة فاصبحت صغيرة واكثر رشاقة عن ذي قبل وصغر حجم الصحن وأمكن تغطيته بسقف من الخشب يتوسطه شخشيخة . وبالتالي اختفت الميضاه من وسط الصحن واصبح يدخل لها من باب جانبي بالصحن .

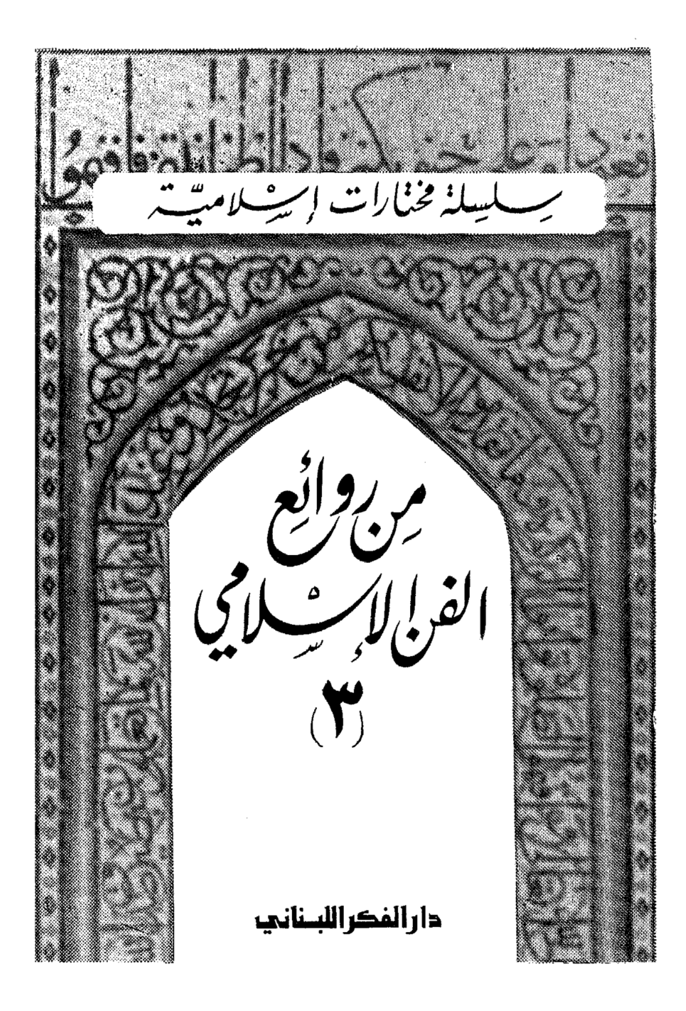
ومن اشهر مدارس العصر البرجي مدرسة الاشراف قايتباي

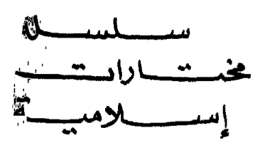
ومدرسته ايضا بقلعة الكبش ومدرسة الامير ازبك اليوسفي ولم يكتف المعمار ببناء نظام المدارس ذي الاربعة ايوانات متعامدة على صحن اوسط بل نراه يصمم طرازا اخر ذا ايوانية وهذا الطراز يعتبر رجعة للسنة القديمة التي نراها في المدرسة الكاملية ٦٢٢هـ .

ونجد هذا النظام في العصر المملوكي البحري في كل من مسجد احمد كوهيه وجامع شرف الدين .

واستمر ايضا في عصر المماليك الجراكسة ونراه في مدرسة انيال اليوسفي والمدرسة المحمودية .

سلسلة مختارات اسلامية


سلسلة مختارات إسلامية
من روائع
الفن الإسلامي
(٣)
دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

من روائع الفن الإسلامي

(٣)

دار الفكر اللبناني



جامع علاء الدين أغلو
بمدينة برجا بآسيا الصغرى

في بداية القرن (٨)هـ ـ اغار المغول على دولة السلاجقة في آسيا الصغرى واستولوا عليها ، وقد افاد من ذلك عثمان بن طغرل جد الاتراك العثمانيين ، فاستقل بالمقاطعة التي كان يتولاها من قبل السلاجقة ، وهكذا قامت الدولة العثمانية التي عملت على مد سلطانها بعد ذلك على آسيا الصغرى ثم على معظم شبه جزيرة البلقان باوروبا حتى وصلت حدودها الغربية الى نهر الطونة .

وقد توج الاتراك نتصاراتهم بفتح القسطنطينية سنة (١٤٥٣) م وقضوا بذلك على الدولة البزنطية ، ثم اتجه العثمانيون الى الشرق والجنوب فبسطوا سلطانهم على بلاد العراق والشام وما لبث سلاطينهم أن اتخذوا لقب الخلافة .

وفي اوائل القرن (٢٠)م استقلت عنها كل البلاد العربية بما

فيها شمال افريقيا . وقد تاثرت الحضارة التركية في اوائل الامر بالحضارة الاسلامية في ا ايران الامر بالحضارة الاسلامية في ايران وذلك عن طريق هجرات الايرانيين الذين فروا من وجه المغول واستقروا في آسيا الصغرى . ولما استولى الاتراك على البلاد العربية في القرن (١٦)م تاثرت الدولة العثمانية بالحضارة الاسلامية السائدة في تلك البلاد نتيجة للسنة التي ساروا عليها ، وهي نقل الممتازين من صناع وفناني البلاد المفتوحة .

على انه سرعان ما هضمت تركيا كل تلك الطرز واخرجت منها طرازا اسلاميا عثمانيا ، لم يؤثر على العالم الاسلامي فحسب بل على معظم دول اوروبا .

ومن اقدم المدن التي استولى عليها وسكنها آل عثمان مدينة (برجا) التي تقع في وسط آسيا الصغرى ، ولذلك فانها تحتوي على آثار اسلامية ترجع الى النصف الاول من القرن (٨)هـ .

ويعتبر مسجد (علا) بمدينة برجا اشهر آثار المدينة واقدمها في العصر العثماني ، أنشأه علاء الدين اغلو في القرن (٨)هـ ، ولذلك فهو متاثر الى حد كبير بطراز العمارة السلجوقية .

والمسجد يتكون من صحن مكشوف وتحيط به الازوقة من جميع الجهات ، والجهات التي بها المحراب اكبرها وتحتوي على ثلاث بوائك من الاعمدة والعقود موازية بالنقوش المحفورة في الحجر والتي تمثل حائط القبلة . وتزخرف واجهة الجامع الطراز السلجوقي احسن تمثيل .

ومن اهم مميزات جامع (علاء) محرابه المكون من مستطيل تزخرفه بلاطات من القاشاني معظمها باللون الترجوازي الجميل وبها ززخارف نباتية وهندسية غاية في الدقة والابداع . وفي وسط المستطيل حنية عقدها على شكل مثلث مكون من بلاطات على شكل المقرنصات الصغيرة المتدلية ، وهي باللون الذهبي والاسود وعلى جانبي هذه الحنية عمودان ويلاصق الركن الشمالي الغربي لمسجد (علا) ببرجا ، مقبرة علاء الدين اغلو ويعلو مربع غرفة الضريح قبة ترتكز على رقبة مثمنة . وقد زخرف داخل الضريح ببلاطات من القاشاني الترجوازي والاسود اما الجزء العلوي من الجدران فمغطى بالفسيفساء ، اما القبة فمكسوة ببلاطات من القاشاني الاحمر مما يضفي اشعاعات تشبه الوان (قوس قزح). وتتكون القبة من الخشب ومغطاة من الخارج بطبقة من القصدير ، وهي تشبه في ذلك قبة الامام الشافعي في القاهرة . وكتب على عتبة باب الضريح تاريخ انشاء المسجد والمقبرة وهو سنة ٧٣٤هـ . ■

الجامع الازرق

جامع آن سنقر

قام بتشييد الجامع الامير ان سنقر الناصري احد مماليك الناصر محمد بن فلاوون عام ٧٤٧هـ (١٣٤٧م) وانشأ بجواره مكتبا وسبيلا ومكانا ليدفن فيه .

كان الامين ان سنقر مهتما ببناء هذا الجامع حتى انه كان يقوم بالاشراف على عمارته بنفسه .

وضع تصميمه على طراز المساجد الجامعة المتبعة في عصر المماليك البحرية وهذا الطراز يتكون من صحن اوسط مكشوف تحيط به اربعة روقة اعمقها رواق القبلة وقد استمر هذا النظام الى عصر المماليك البرجية والجراكسسة .

وللجامع ثلاثة ابواب في واجهاته الغربية والبحرية والقبلية وميضاته منعزلة عنه .

وقد اقام الامير طوفان الدوادار فسقية في وسط الصحن نصفها محمول على اعمدة رخامية لم يبق لها .اثر اليوم . .

وتعد الواجهة الغربية اهم واجهاته وبها الباب الرئيسي المحمول عقده على كوابيل طريفة اما عتب الباب فليس بمزررات رخامية خضراء كالموجودة ايضا باعتاب الشبابيك وتنتهي الواجهة بمنارة مكونة من ثلاث دورات بدن الدورة الاولى مستديرة وبدن الثانية محلى بقنوات مستطيلة والثالثة مسدسة فوقها خوذة خشبية مغلفة بالرصاص .

وقد تمت بالمسجد اضافات وتجديدات اهمها ما قام به ابراهيم اغا مستحفظان عام ١٠٦١هـ ١٦٥٠م « ١٦٥٠م ».

ويعتبر الايوان . . الشرقي اكبر الايوانات وهو يشمل على

رواقين كانت عقودهما محمولة على اكتاف حجرية مثمنة وسقفها معقودة وما زال الرواق امام المحراب محتفظة فاصلة لم يتغير . . اما الرواق الثاني فقد استبدلت بسقف من الخشب ، وبقي طرفاه على اصلهما واندلت دعائمه عمد رخامية واكتاف حجرية مربعة وكذلك الرواق القبلي والبحري اما الرواق الغربي فمحتفظ بكثير من تفاصيله القديمة .

وكان من ضمن التجديدات التي قام بها ابراهيم اغا مستحفظان كسوة الجدار الشرقي حتى السقف بالقاشاني الملون الجميل ومما يزيد هذه المجموعة اهمها اتربة لها عملت خصيصا لهذا الجامع المرسوم خاصة . . ولذلك عرف الجامع « بالجامع الازرق » نسبة الى مجموعة الفاشاني الرائعة الزرقاء الموجودة به .

ومما يزيد المسجد اهمية منبره الرخامي الملون ودرابزينه الجميل المحلى بالزخارف البارزة المورقة وعناقيد العنب ويعتبر اقدم منبر من الرخام باق في مساجد القاهرة حتى الان يليه منبر جامع السلطان حسن ويجوار المنبر محراب كبير كسى باشرطة دقيقة من الرخام والصدف وقبته وغطاؤه المعبر عنه بالطاقية . . رخامي محلى بزخارف نباتية ملونة بارزة تعتبر الوحيدة من نوعها . .

صلاة الجمعة في مسجد قرطبة

(١) صلاة

كانت لفتة كريمة من الاخوة المسيحيين في قرطبة ان جعلوا من برنامج المؤتمر الاسلامي المسيحي العالمي الاول (١٠ ـ ١٥

سبتمبر ١٩٧٤) أداء صلاة الجمعة في مسجد قرطبة الكبير .

واحتاج القرار الى شجاعة أدبية ، وصمود امام بعض الضغوط والمخاوف ، وارتفاع افق جديد واصيل من آفاق السماحة تمثل في اسقف قرطبة ، الذي وافق على ذلك عندما عرضه عليه رئيس جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية واعضاء مجلس ادارتها المسلمون والمسيحيون في اسبانيا . وكانوا في استقبالنا ـ مشكورين ـ عند دخولنا المسجد ظهر يوم الجمعة ١٣ من سبتمبر ١٩٧٤ الموافق ٢٦ من شعبان سنة ١٣٩٤ .

كان أمر الصلاة قد انشر مع بدء انعقاد المؤتمر . وفي ضحى يوم الجمعة هبطت في مطار قرطبة طائرة من مدريد تحمل سفراء الدول الاسلامية في اسبانيا ، وطائرات من أقطار المغرب العربي تحمل صفوة من علمائها وكبار الشخصيات الاسلامية فيها . والتقى الجميع في المسجد في المناسبة التاريخية تنظمهم صفوف الصلاة .

(٢) الراكعون الساجدون

وتمر عيني على صفوف المصلين . . عباءات من المشرق . برانس من المغرب . رؤس حاسرة . عمائم ولحى بيضاء فيها جلال المشيب . كهول مكتملون . شباب متفتح ومن حولنا وقف الاخوة المسيحيون وفي نظراتهم مودة وتطلع الى هذا المشهد الجديد القديم .

وصوت القارىء يرتفع بالقرآن . . ومن حولك الراكعون الساجدون . . وترى الدموع وتسمع النشيج تطلقه روعة الذكرى ويكتمه جلال الموقف وقد انطوى كل عابد على نفسه في عالمه بذكرياته وحاضره . .

وتمتد الاعين الى الايات الصامتة على جدران المسجد والمحراب . . وتقرأ « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق » (الاعراف ٤٣) ظلت هذه الايات صامتة على الجدران ثمانية قرون حتى تردد من الحناجر في يوم الجمعة المشهود . .

ويرتفع صوت الاذان الله اكبر . . الله اكبر ويزداد معه الحزن والبكاء وتتذكر الاذان الاول . . آذان بلال في المدينة المنورة . . وكيف حملته القلوب والايدي والالسنة المؤمنة عبر الصحاري والجبال والبحار والقارات حتى ارتفع من صومعه مسجد قرطبة وظل يتردد فيها قرونا . .

وتستمع الى خطبة الامام عن الحضارة الاسلامية وسماحتها واخائها ويرتفع صوته داعيا الله ان يحفظ للقلوب صفاءها ونقاءها وان يجمعها على الهدى والمحبة ، وان يوثق التعاون لترتفع اعلامه النقية .

(٣)

ومسجد قرطبة درة في جبين العمارة الاسلامية . . وضع عبد

الرحمن الداخل صقر قريش - أول حجر فيه عام ٧٨٠ ميلادية . . وكان آخر فيه على رأس الالف الاولى الميلادية . . مائتان وعشرون عاما في استكمال عمل فني ممتاز تحس حين تراه كأن المعماريين الذين اسهموا فيه كانوا فريقا واحدا يقوده عقل واحد .

والراجح أن المسجد بني على أرض عذراء . . بدأ قسمه الأول في عهد عبد الرحمن الداخل وجاءت توسعته الثانية في عهد عبد الرحمن الأوسط وولده الحكم الثاني وهذه التوسعة الثالثة هي قمة عالية من قمم الفن الاسلامي وصل بها المحراب إلى ضفة نهر الوادي الكبير . . وكأن ملك بني أمية والمسجد كانا على موعد ، فبعد هذه التوسعة بدأ الضعف في الدولة وفي توسعة المسجد معاً . .

وجاءت التوسعة الاخيرة على يد الحاجب المنصور بن ابي عامر ولم يكن امامه الا التوسع شرقا على طول المسجد .

وظل عامرا بالصلاة والقضاء وتدارس العلم والادب حتى سقوط قرطبة عام ١٢٣٦ عندما خرجنا من هناك وتركنا المسجد وحيدا يلقى صروف الزمان . .

(٤) عودة الحياة

ولقد تحول جزء من المسجد تبلغ مساحته نحو ١٥٪ الى كتدرائية وتحولت صومعة المسجد (المئذنة) الى برج اجراس . .

ومن اجل ذلك ازيل ثمانون عمودا وقوسا وما فوقها من سقف . . واغلقت أبواب كانت مفتوحة تدخل قدرا من الضوء أراده الفنان الذي صمم المسجد . . . ولم يكن التداخل المعماري محل رضا الدين أمروا به . . وجاء غير متناسب مع الوحدة الهندسية للبناء والحلول المعمارية التي ابتكرها العقل الذي ظل مسيطرا على البناء اكثر من قرنين حتى أتمه بهذه الصورة العبقرية التي لم تتكرر . .

فليس هناك مسجد غيره في أرض الاسلام اعتمد على فكرة العقود المزدوجة . . . وانت لا تجد عمودا يزيد قطره عن خمسة وعشرين سنتيمتراً وتنتهي الاعمدة بعقود وعلى رأس العمود تجد قاعدة جديدة اقام عليها المعماري عموداً آخر وتتشابك الاعمدة بعقود غاية في الدقة والرشاقة . . فاذا نظرت اليها رأيت نفسك في حديقة من حدائق الايمان . . كأن الاعمدة اشجار والعقود فروع اثقلتها الثمار . . او كأنها نافورات تجمد ماؤها . . وتمتد امامك وتمتد الى مالا نهاية كانها ترتبط بمساجد الشرق . . هناك في مصر والجزيرة العربية والشام . .

والمحراب آية اخرى من آيات الفن وهو عبارة عن حجرة صغيرة . . او مسجد صغير سقفه من قطعة واحدة من الحجر على هيئة صدقة . . وفوق بلاطة المحراب والبلاطتين المحيطتين بهما عن يمين وشمال ثلاث قباب صغيرة بلغت الذروة من الجمال ودقة الفن . .

واستخدام الضوء كان ينسب تتوازن مع ما يدخل من الابواب . . وهنا تحت القباب كانت قراءة القرآن . . نور القلب . . تحت نور السماء . . . وفيض النور المتدفق من الابواب . . نور على نور . . وفي الجزء الشمالي من المسجد صحن مكشوف تغطية اشجار البرتقال . واذا كنت في المسجد ناظرا الى الخارج رأيت التداخل بين الاعمدة الرشيقة واشجار الحديقة .

وفي الزيارات التي قمت بها شكرا لاسقف قرطبة وكبار المسئولين المدنيين دار الحديث حول المسجد والكاتدرائية . . وهناك اتجاه في اسبانيا يرمي الى نقل الكاتدرائية الى مكان مجاور للمسجد ، واعادة المسجد الى صورته التي كان عليها وقد وجدت هذه الفكرة قبولاً لدى نفر من المثقفين الاسبان . . فالمسجد في كماله واكتماله عمل عبقري لن يجود بمثله الزمان . . والذين يفدون الى قرطبة انما يفدون اساسا لزيارة المسجد . . حتى تستطيع القول بأن قرطبة نفسها « ضاحية » المسجد وقد جرت احاديث بين الاسبان وبعض الشخصيات العربية المسئولة الكبيرة حول التعاون على تنفيذ مشروع النقل ليعود المسجد الى صورته الاولى .

واذا كان الامر يحتاج الى بعض الوقت لتتقبله الجماهير . . فان الصورة المقترحة والتي اطلعت على بعض دراساتها لما يساعد

كثيرا على أن تصبح لكل من المسجد والكاتدرائية شخصيته الواضحة الكاملة ويعطي بعدا جديدا تطبيقا من ابعاد التعاون بين العالم الاسلامي والعالم المسيحي . .

اني احس وأومن اننا نسير على طريق جديد من طرق التعاون والمحبة رأينا بعض ثماره وكلنا في انتظار المزيد . .

وتحية الى قرطبة السمحة والى اخوة مسلمين ومسيحيين اعطوا النموذج الكريم والخطوط الرئيسية لتعاون اسلامي مسيحي عالمي . ■

مسجد كنشاوة

يقوم هذا المسجد المشهور في حي كنشاوة من أحياء مدينة الجزائر ، ويرجع تأسيسه الى سنة ١٦١٢/١٠٢١ ، ثم أعاد ترميمه واكمله الباشا حسن سنة ١٧٩٤/١٢٠٩ .

وبيت الصلاة في هذا المسجد الصغير الأنيق مربع طول كل من اضلاعه ٢٤ مترا ، وتقوم القبة الكبيرة في وسط بيت الصلاة على أربع دعائم ضخمة تبعد كل منها عن الاخرى ١١,٥ مترا ، وهذه الدعائم تحمل عقودا مستديرة ترتفع فوقها قبة ذات ستة أضلاع ؛ وداخل المسجد كله مبطن بالرخام .

وهذا المسجد ايضا كانت الكنيسة الفرنسية قد استولت عليه وحولته الى كنيسة ، وأدخلت عليه تحويرات شتى افسدت

هيئتـه ، واضافت اليـه اجزاء اخـرى لاستكمال الشكـل الكنسي ، وقد أعيد الى الاسلام بعد الاستقلال .

مسجد صلاح باي في عنابة

يعتبر هذا المسجد من أجمل ما خلفه العصر التركي في القطر الجزائري ، وقد بناه الباي صلاح سنة ١٢٠٦/١٧٩١ ـ ١٧٩٢ في الناحية الجنوبية من بونة المعروفة اليوم بعنابة . والرسم العام لبيت الصلاة عثماني مغربي في آن واحد ، فهو مكون من ثلاثة أروقة تتجه نحو جدار القبلة ، وفي وسط بيت الصلاة ـ فوق الرواق الأوسط ـ تقوم قبة كبيرة تجاورها على اليمين والشمال قبتان أصغر حجمًا ، وفي جدران بيت الصلاة نوافذ كبيرة مزينة بالزجاج الملون ، وبفضل هذه النوافذ يفيض داخل الجامع بالنور ، وعقود بيت الصلاة تقوم على أعمدة طويلة من الرخام .

وللجامع صحن تحيط به البوائك المستديرة ، وجدران المسجد مزينة في الداخل بالزليج (مربعات الخزف) المغربي الجميل .

مسجد سوق الغزال في قسنطينة

وهذا مسجد آهر جميل خلفه العصر التركي في الجزائر ، وهو يزين مدينة قسنطينة وهو تركي الطراز ، ولكن بيت صلاته يتكون من سبعة اروقة ذاهبة نحو جدار القبلة ، وفي وسط كل

رواق قبة مغربية ذات اربعة أضلاع في هيئة الهرم ، وهي مغطاة بالقرميد .

جامع الجيوشي (١٠٨٥)

يقوم هذا المسجد الحزين وحيدا فريدا في طرف من أعلى جبل المقطم المطل على القاهرة . منشىء هذا المسجد هو امير الجيوش (١) بدر الجمالي ، منشىء بوابات القاهرة ومنقذ الدولة الفاطمية ، ولهذا يوصف جامع الجيوشي بأنه « مشهد » أي ضريح شهيد ، ويظن ان بدرا الجمالي أراد أن يجعل منه مشهدا للامام علي كرم الله وجهه . المسجد صغير المساحة ، ولكن بيت صلاته يمتاز بزخارف حصية جميلة تتكون من ورق العنب وعنقوده . المئذنة صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن القبة كثيرا . المسجد كله في حاجة إلى ترميم كبير حتى يبدو في جماله الحقيقي . هيئته اليوم أشبه بمقبرة في الخلاء لا تؤنسها إلا هذه الشجرة المذعورة .

الجامع الأقمر (٥١٩/ ١١٢٥)

يعتبر هذا المسجد من أجمل مساجد العصر الفاطمي واكملها من الناحية الفنية ، وهو كذلك ينطق بطابعه الفاطمي ، وخاصة إذا قارنا بوائكه ببوائك صحن الجامع الأزهر . وقد أمر بانشائه الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله بن المستعلى سابع خلفاء

الفاطميين في مصر سنة ١٠٩٧/٤٩٠ ، وهو في شارع امير الجيوش قرب باب الفتوح في حي الجمالية بالقاهرة ، وقد كمل المسجد سنة ١١٢٥/٥١٩ .

والجامع الأقمر بسيط في تخطيطه ، فهو يتكون من بيت صلاة يشتمل على أربعة أروقة (أي بلاطات) عمودية على جدار القبلة وأربعة موازية لجدار القبلة أي اساكيب ، والرواق المجاور للقبلة فسيح . وللمسجد صحن مكشوف مربع ، ويحيط بالمسجد كله سور عريض ومدخله الرئيسي معقد بعض الشيء تطل عليه الحنايا . واهم ما يميز المسجد ـ كما قلنا ـ وحدته الفنية التي تبدو من أي زاوية نظرنا اليه ، وقد أشرنا الى ذلك بما فيه الكفاية فيما سبق من الكلام .

وكما قلنا فيما يتصل بكثير من المساجد المصرية ، يحتاج المسجد الى ترميم كبير وعناية ورعاية حتى يتجلى جماله الحقيقي .

روضة أبي منصور اسماعيل بن ثعلب (١٢١٦)

أثر مساجدي فريد في الطريق إلى مسجد الامام الشافعي ، وهو ـ كغيره من الأضرحة والروضات ـ مسجد صغير أو مصلى أنيق ـ بناه هذا القائد الايوبي في سنة ١٢١٦ في عصر بقيت لنا منه آثار معمارية قليلة . والحق أن العصر الأيوبي كله فقير في منشآته سواء في مصر أو الشام ، خاصة إذا ذكرنا غنى العصر الذي سبقه

(الفاطمي) واللاحق عليه (المملوكي).

محراب المصلي ، مزين بكتابة على الخشب فيها اسم صاحب الضريح وتاريخ انشائه . نصف هذه القطعة الخشبية وفي متحف الفن الاسلامي في القاهرة ونصفها الآخر في متحف فكتوريا والبرت في لندن . والمحراب كله من الآجر ، وقد أبدى المعماري مهارة فائقة في استخدام هذه المادة في البناء والزخرفة . لاحظ الأثريون ان المعماري اقتبس هذه الزخرفة من المسجد الاقمر وخاصة أعلى حنية المحراب والكوات المعينية الشكل فوقها .

مسجد وروضة السلطان قايتباي بالقاهرة (١٤٧٢ و١٤٧٤)

يقوم هذا المبنى الجميل في منطقة مقابر الخلفاء جنوب القاهرة وهو آخر ما أنشأه هذا السلطان واكثره جمالا .

أظهر ما يمتاز به هو التناسق الرائع بين أجزائه : مئذنته الرفيعة السامقة تتوازن تماما مع القبة العالية المزينة بالزخارف البديعة في خارجها . طالما ترنم الأثري الفرنسي جاستون ويت بجمال هذه القبة ونقوشها وقال انها انشودة من الخطوط والاشكال . كل ما في هذا المسجد يكاد أن يكون مقطعات من نفس الأنشودة : البوابة العالية ، السلالم الرخامية ، الأعمدة

والأقواس التي تحملها ، شبابيك الزجاج الملون ، وكل ما تقع عليه العين داخل هذا الأثر البديع .

جامع ومدرسة انجى في دفريجي بالاناضول

وأقدم عمائر الطراز التركي في العمارة الاسلافة يرجع الى القرن والثاني عشر الميلادي ، ومن ذلك أولوجامع ـ أي جامع أولو ـ والمارستان الملحق به في بلدة دفريجي في الأناضول ، وقد أمر ببنائه سنة ٦٢٦/١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ أحمد شاه الأمير الاقطاعي لدفريجي .

وضع تصميم هذا المسجد المعلم خرم شاه الأخلاطي ، وهو مبني بالحجر المصقول المتقن الرصف ، وسقفه محمول على عقود حجرية متشابكة ، وعقد البلاطة الثالثة في رواق القبلة يقوم فوق حوض رخامي تصب فيه نافورة ، وهذه البلاطة ذات النافورة رمز على الصحن الذي استغنى عنه المعماري في ذلك المسجد بسبب برودة الجو . والباب الشمالي لهذا المسجد مشهور بزينته الجصية المثقلة وزخارفه ،وهي تذكرنا بالزخارف المحفورة على الخشب .

أما المارستان فمقتبس من المارستان النوري في دمشق ، وسقفه يقوم على عقود حجرية تقوم على دعائم وأعمدة ، وهنا أيضا نجد نافورة تشبه التي ذكرناها في وسط المسجد

مسجد الحاكم بأمر الله (٩٩٧/ ١٠٢١)

هذا المسجد ـ الذي يعتبر علما بارزا في تاريخ العمارة الاسلامية ـ يتداعى ويفقد بهجته منذ زمن طويل ، لأن الموكلين بشئون الآثار الاسلامية لا يشعرون نحوها بالحب الكافي ، والحب حقيق بأن يعوض نقص الاعتمادات المالية الذي طالما شكوا منه . وهم ينسون أنه في مسائل الفن يقوم الحب في المكان الأول ثم يأتي دور المال ، فهناك قطعا مال كاف لصيانة هذه الجدران وتنظيفها وحمايتها ورم ماوهي منها ، ولكن الذي ينقص هو القلب . مساجد العصر الفاطمي استمرار لتقاليد المساجد الطولونية من ناحية ، ومظهر من مظاهر الحضارة المغربية التي جلبها الفاطميون الى مصر من ناحية اخرى ، فان مساجد المغرب الأولى اقرب إلى الحصون ، مآذنها أبراج ، ومسجد الحاكم نموذج لذلك ، والجدران التي تراها هناك شبيهة بأسوار بلد ، وكذلك المئذنة ، وكان نصفها الأعلى قد سقط إثر زلزال ، فصنعوا لها هذا العوض على شكل قبة ؛ فبدت مئذنة قبة ؛ هذا الطراز من المآذن المجبورة كثير في القاهرة . داخل جامع الحاكم يملأ النفس رهبة بمظهر الخراب الذي يسوده ، ودعاماته الضخمة المبنية بالآجر لتحمل العقود ، تدل على أن المعماري لم يجرؤ بعد ـ في مصر ـ على رفع السقف كله على عقود تقوم على دعائم .

المسجد الجامع ـ أو مسجد الجمعة ـ في إصفاهان

هذا المسجد الجامع في اصفاهان يحكي تاريخ إيران بما مر عليه من احداث وصروف ، فقد انشأه الفاتحون المسلمون سنة ٦٤٤ في موضع معبد للنار المجوسية عندما دخلوا البلد ، وكان اول امره مسجدا صغيرا بسيطا ثم هدم وبنى مرارا حتى جاء السلاجقة فأعادوا بناءه على الصورة التي ظل عليها الى اليوم ، رغم التعديلات الكثيرة التي ادخلت عليه .

وصاحب الفضل في بناء المسجد الحالي هو السلطان ملكشاه السلجوقي .

ولم يبق من المسجد الجامع السلجوقي في اصفاهان إلا جدرانه ، أما القاشاني والقباب والمآذن التي تزين المسجد فترجع إلى العصور التالية ، فقد مرت بإصفاهان ـ كما مرت بايران كلها ـ دول التيموريين وايلخانات فارس ثم الصفويين والقاجاريين ، واخيرا البهلويين قبل الثورة الأخيرة .

والمسجد مبنى من الآجر والحجر ، وبيت صلاته ينقسم إلى أربعة أواوين ، لأن الكثير من المساجد الايرانية استغنت عن تكوين بيت الصلاة من أروقة تقوم على صفوف من أعمدة تنتهي بجدار القبلة ، واتخذت الأواوين وهي قاعات فسيحة تقوم سقوفها على عقود واسعة مستديرة ، وتتصل الايوانات بعضها ببعض عن طريق عقود مدببة ، وقد سارت المساجد الايرانية

والعثمانية والهندية على هذا الطراز ، ويقوم المحراب - في العادة - في الايوان الأوسط .

والمبنى الحالي يرجع إلى عصر السلطان ملكشاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) وهو الذي أنشأ قبته البديعة سنة ١٠٨٠ ، وقد اجتهد خلفاء ملكشاه في تزيين هذا المسجد بالقاشاني الملون ، وأضافوا اليه زيادات كثيرة حتى أصبح وكأنه متحف للفن الايراني . وقد اضاف إليه السلطان أولجايتو محمد خدابنده - من سلاطين ايلخانات ايران - قسما كبيرا فيما بين سنتي ١٣٠٣ - ١٣١٦ ، وعهد إلى وزيره محمد صافي بعمل محراب جميل يعتبر من أجمل المحاريب الايرانية ، وهو قطعة من فن التزيين بالخزف والقاشاني .

مسجد الشيخ لطف الله

تأنق المعماري الايراني في انشاء وزينة جامع الشيخ لطف الله ، حتى ليبدو وكأنه تحفة فنية في كل جزء من أجزائه .

ويعتبر مؤرخو الفن الايراني ان مسجد الشيخ لطف الله اجمل أثر معماري صفوي ، وقد أمر بانشائه الشاه عباس قبالة قصره الكبير المسمى عالي قبو ، واستمر بناؤه من ١٦٠٢ الى ١٦١٨ .

ويسمى هذا المسجد بالمسجد الشاهاني ، لأنه في الحقيقة ليس مسجدا جامعا وانما هو مسجد خاص للمناسبات الرسمية ،

وليس في المسجد صحن ولا مآذن ، وكان الشيخ لطف الله كبير شيوخ المذهب الشيعي في عصر الشاه عباس ، واصله من جبل عامل في لبنان واستقدمه الشاه عباس واحاطه بكرامة عظيمة وأنشأ له هذا المسجد .

وأجمل ما في هذا المسجد الخزف ذو البريق المعدني الذي يزين جدرانه وكل جزء فيه ، وبينما يبرز الخزف في مسجدي شاه أزرق أخضر خزف مسجد الشيخ لطف الله ورديا ، ويتجلى ذلك بصفة خاصة في قبته ، ويحيط بالمسجد روض بديع تزينه زهور وردية تزيد من جمال المسجد كله ، اما بوابة الجامع فتزدان بالخزف الأزرق .

ومن جلائل أعمال الفن في إصفاهان مدرسة شهرياق وهي مسجد في نفس الوقت ،.وهي مدرسة سلطانية أنشأها الشاه حسين الصفوي سنة ١٧٢٢ ، ه وتذكر هنا لأن قبتها ومئذنتها تعتبران من أروع ما خلفه المعماريون المسلمون من اعمال تلبيس المنشآت بالقاشاني والخزف المزين بالزخارف والكتابات .

مسجدي شاه في اصفاهان

يعتبر هذا المسجد اعظم منشآت الشاه عباس الأكبر ، وقد وضع تصميمه المعماري أستاذ على أكبرى اصفاهاني . يقوم ذلك المسجد الفسيح جنوب ميدان بخشى جهان ، وهذا

المسجد الجليل يعتبر مجموعة مبان في مبنى واحد ، فان بوابته وحدها ـ التي تقوم على جانبيها مئذنتان ـ تعتبر أثرا فنيا كاملا قائما بذاته ، وصحنه الفسيح تطل عليه البوائك ذوات العقود المدببة المزدوجة في النفس احساسا عميقا بالايمان .

أما بيت صلاته فآية من آيات الفن ، وأروقته الرصينة ذات العقود المدببة وقبلته المزينة بالقاشاني الأزرق التقليدي في إيران الصفويين ، ثم محرابه الذي يعتبر آية من آيات الفن ، كل هذه تبدو لناظرها وكأنها معرض للفن المعماري لا تشبع العين من استجلاء محاسنه .

أما قبته الزرقاء السامقة فتقوم على رقبة دائرية محلاة بالنقوش والكتابات ، والقبة نفسها مغطاة بالقاشاني الأزرق الضارب إلى الخضرة ومحلاة بنقوش ورسوم تعتبر قمة من قمم فن الزخرفة الاسلامية .

ويتميز هذا المسجد كله بنماذج زخرفية هي الغاية في حسن الذوق والانسجام . وهذه الزخارف تقوم في كل جزء من أجزاء الجامع تقريبا ، من البوابة الرائعة الى قمة القبة الفريدة في بابها .

وقد تتجاوز الزخارف الحد في التأنق ، لأن المسجد الاسلامي ـ بطبعه ـ لا يحتمل كل هذا التزويق ، ولكن لمتأمل لزخارف مسجد الشاه في اصفاهان لا يكاد يشعر بهذا الاغراق في

الزخرفة ، لان هناك روحا من التقي والتدين تتمشى في كل ما تقع عليه العين في ذلك الاثر الجليل .

وبيت صلاة هذا المسجد يقوم على نظام الايوانات لا الاروقة ، والواقف فيه لا يجد نفسه في غابة من الأعمدة وانما في أبهاء فسيحة تقوم سقوفها على دعائم ضخمة تحمل عقودا مدببة . والايوان الأوسط هو إيوان القبلة والمحراب ، وكل ما في الرواق ملبس بالخزف والقاشاني والرخام ، وأنت تشعر بأن المسجد كله ـ على ضخامته ـ عمل فني واحد متكامل ـ كأنما صاغه فنان واحد في وقت واحد .

وصحن الجامع فسيح تطل عليه البوائك من كل ناحية ، وبيت الصلاة يطل على الصحن بواجهة جميلة ملبسة بالقاشاني ، وهي وحدها عمل فني كامل ، وتزين واجهة الجامع مئذنتان جميلتان مستديرتان ، تنتهي كل منهما بجوسق تعلوه اسطوانة وعمامة .

محراب مسجدي جامع في كرمان

بني هذا المسجد سنة ١٩٤٩ ، وهو يعتبر من أجمل نماذج العمارة الايرانية في عصر إيلخانات المغول في إيران ، وأجمل ما يميزه هو محرابه الفريد في بابه ، إذ هو يحتل كل جدار القبلة ، وقد صممه المعماري الفنان قطعة واحدة فجاء رائعة من روائع الأعمال الفنية في تاريخ الفن الاسلامي .

إن هذا المحراب يقف في الصف الاول من محاريب المساجد ، فمحراب المسجد الجامع في كرمان جدار هائل مسطح وفي وسطه تقوم الحنية . فكأن الجدار كله إطار للمحراب ، وهو مكون من ازارات تحيط بالمحراب بعضها مزين بالكتابة الجميلة ، وبعضها مزين بالزخارف البديعة من كل نوع ، ويسود فيها اللون الأزرق الضارب إلى الخضرة وهو اللون التقليدي في المنشآت الايرانية عموما . ولا بد ـ لنقدر جمال المحراب ـ من أن اخذ كل قطعة منه على حدة وتأمل تصميمها الزخرفي ، فان وصف ذلك الجدار كان كتابا كاملا في فن الزخرفة الاسلامية الايرانية ؛ التي عملت على قطع من القاشاني الايراني البديع ثم وضعت في اماكنها بدقة وحساب كبيرين .

المسجد الجامع العتيق في شيراز

لا تقل شيراز عن اصفاها كمركز من مراكز الفن الايراني ، وربما كان مكانها في عالم الفكر أعظم .

كانت شيراز من أقدم عواصم إيران ، فقد اتخذها يعقوب بن الليث الصفار عاصمة له عندما استقل عن الدولة العباسية سنة ٨٢٧ ميلادية ، فكان منشىء اول دولة مستقلة في ذلك القطر ذي التاريخ الطويل . وقد خلّد يعقوب بن الليث الصفار استقلاله عن الخلافة العباسية وانتصاره على جيوشها سنة ٢٨١ / ٨٩٤ بانشاء ذلك المسجد الجامع في شيراز ، ويلقب بالجامع

العتيق ، واعيد بناء هذا الجامع وترميمه مرة بعد مرة حتى فقد شكله الأصلي وأصبح شيئا جديدا ، وصورته الحالية تمت في ايامنا هذه .

والمسجد مبنى على أساس الايوانات لا الأروقة ، فبيت صلاته يتكون من عدد من « الشابستانات » أي الايوانات ، أما صحنه ففسيح مبلط كله بالرخام تحيط به البوائك من كل جهة ، ويمتاز هذا الجامع ببواباته البديعة التي يبلغ عددها ستا موزعة على جوانبه الاربعة ، والبوابات ضخمة مبنية بالآجر أو الحجر الرملي ، ومزينة بالقاشاني تحف بكل منها مئذنتان قصيرتان ، لكل واحدة منهما جوسق وعمامة .

روضة شاهي سراج

قد تكون روضة شاهي سراج اجمل روضة في ايران ، ولهذا سميت بسراج الملوك (شاهي سراج). وقد أنشئت لتكون قبرا للسيد أحمد بن الامام موسى الكاظم ، الامام السابع في سلسلة الأئمة ، وروضته في مشهد هي أجمل وأقدس مزارات الشيعة في إيران .

وسبب اقامة الروضة في ذلك الموضع تقصه حكاية يرويها الجنيد الشيرازي المؤرخ ، يقول : إن بستانيا رأى ومضات من نور تخرج من تل ، فأمر أمير الناحية بحفر التل ، وهناك عثروا

على رفات الامام الجليل ، وقد عرفوه من الخاتم الذي كان في أصبعه ، فأمر بانشاء تلك الروضة البديعة التي تمتاز بواجهتها الرائعة الملبسة بالخزف الزخرفي ، تزينها الآيات القرآنية ، وتطل عليها قبة لا نظير لزخارفها الخزفية البديعة .

مسجد الوكيل في شيراز

انشأ مسجد الوكيل في شيراز كريم خان زند منشىء أسرة زند (١٧٥٨ ـ ١٧٧٩)، فهو من عصر الدولة القاجارية التي أنشأها نادر شاه . ويسمى هذا المسجد ـ أيضا ـ بالمسجد السلطاني .

وأروع ما في هذا المسجد بيت صلاته الذي تزدحم فيه عقود حجرية مدببة تقوم على دعائم مزخرفة بخطوط حلزونية ، ومنبر المسجد ـ الى جوار المحراب ـ يقوم على أربع عشرة درجة ترمز ـ في رأي منشئها ـ الى رسول الله ﷺ وابنته فاطمة الزهراء والأئمة الاثنى عشر . وقد صنع هذا المنبر في المراغة في آذربيجان ، ثم نقل الى شيراز بأمر كريم خان زند .

مسجد لندن الجديد ومسجدها القديم

في لندن مسجد جديد تشترك في انشائه كل البلاد الاسلامية ، واقيمت لوضع تصميمه مسابقة عالمية اشترك فيها خمسون مهندساً معمارياً من سبع عشرة دولة ، ووقع الاختيار على المشروع الذي تقدم به المعماري الانجليزي الكبير سير

فردريك جيبارد وشركاؤه في مكتبه الهندسي الكبير في لندن ، ولهذا المسجد قصة جديرة بأن تحكى والقصة ترجع الى سنة ١٩٤٤ عندما استجابت انجلترا لطلب الجالية الاسلامية الكبيرة في لندن لانشاء مسجد جامع يلحق به مركز ثقافي اسلامي في عاصمة بريطانيا ، فقدم ملك بريطانيا قصراً من قصوره تحيط به ارض مساحتها فدانان انجليزيان في حي ريجنت في لندن ، فاجتهد المسلمون في تحويل القصر القديم الى مسجد وتم ذلك واخذ ذلك المسجد صورة هندية تتجلى في مدخله ، واقاموا الى جانبه المركز الثقافي الاسلامي الذي يعرفه كل زوار لندن من المسلمين .

ثم زاد حجم الجالية الاسلامية زيادة كبيرة في انجلترا وفي لندن بصفة خاصة وزاد مركز بلاد الاسلام قوة في العالم بعد استقلالها وتقدمها في ميدان الحضارة ، وزادت ثروات بلاد الاسلام وخاصة المنتجة للنفط فزاد في وزن العالم الاسلامي . محل سفراء الدول العربية الاسلامية في لندن على تحقيق فكرة انشاء المسجد ووافقت الحكومة البريطانية وكان على مصمم البناء ان يوفقٌ بين طراز الحي العائد الى سنة ١٨٠٠ وبين المتميز بالطابع الاغريقي وبين تصميم المسجد . فقدمت مشروعات كثيرة فاز من بينها المشروع الذي تقدم به السير فردريك جيبارد ، وهو مشروع انيق بديع يتألف من بيت صلاة صغير بعض الشيء تعلوه قبة مغطاه بالنحاس تقوم على رقبة ذات قمريات ، وقد

قصد المعماري الى مجاراة قبة الصخرة بهذه القبة النحاسية ، ويفتح بيت الصلاة على صحن الجامع بصف من البوائك التي لا تمتاز بأي جمال وليس فيها اي طابع عربي اسلامي .

وصحن المسجد فسيح مغطى بمربعات من الرخام الصناعي والمفروض انه يغطى بالسجاد في مناسبات الصلوات العامة ، وبدلاً من المجنبتين وضع المصممون مبنيين ذوي طابع حديث صرف ، واحد للمكتبة والثاني للمركز الثقافي .

أما المئذنة فأنبوبية طويلة تعلوها شرفة أذان ، وهي أقرب الى العمود التذكاري منها إلى المئذنة ، وبالفعل سيكون بداخلها مصعد يصعد فيه من يريد أن يلقي نظرة على الجامع كله وعلى ما حوله من المباني .

والمسجد انيق في جملته ولكنه يخلو من الطابع العربي الاسلامي تماماً ولأمر ما يبدو للناظر فقيراً رغم المبالغ الكبيرة المرصودة من أجله ، وإذا كانت شركة السير جيبارد هيئة معمارية ذات شهرة عالمية فان مشروع المسجد الذي وضعته غير موفق ، وقد اعترض عليه الكثيرون ، الذين تمنوا ان يكون مبنى هذا المسجد معرضاً للفن الاسلامي المعماري الجميل لا مجرد مبنى حديث تعلوه قبة ومئذنة ، وقد تنبه السير جيبارد لذلك فقرر أن تكون كل زينة المسجد الداخلية شرقية اسلامية فجلب مربعات القاشاني المحلي بالفسيفساء من تركيا ، والسجاجيد من ايران ،

اما أعمال الزخرفة على الجدران والاخشاب فسيقوم بها فنانون متخصصون من مصر والمملكة المغربية والجزائر وتونس .

ويتسع بيت الصلاة لألف مُصلٍ ، وهو عدد قليل ـ فيما نحسب ـ ولكنهم يقولون إن الصحن يتسع لأربعة آلاف من المصلين ، وبداخل بيت الصلاة شرفة أنيقة لصلوات النساء .

مسجد باريس وقصة تاريخه

آنق مساجد اوروبا هو المسجد الجامع في باريس ، وهو مؤسسة ذات تاريخ طويل حافل بالمتاعب ، فقد كان أول من فكر في انشاء مسجد في باريس هو السلطان عبد الحميد فكر فيه جزءاً من سياسته الاسلامية العربية التي انتهجها عندما أحس بأن الأرض غير ثابتة تحت قدميه ، وان الثورة عليه وعلى نظامه قادمة بلا ريب على يد الأحرار والشباب من أبناء تركيا والعالم العربي ، فافضى برغبته تلك الى حكومة فرنسا ، ووضعتها فرنسا موضع الاعتبار ، وكان يرى في ذلك وسيلة لاظهار اهتمامه بامور العقيدة الاسلامية في صورة ملموسة في عاصمة من اكبر عواصم الدنيا .

وعزل السلطان عبد الحميد بعد ذلك سنة ١٩٠٩ وخلفه محمد (رشاد) الخامس ثم محمد السادس وهو المعروف عندنا بالسلطان عبد الحميد (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) ثم عزل السلطان

وحيد الدين والغيت الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ وأصبحت تركيا دولة علمانية ونام المشروع .

وبعد الحرب العالمية الأولى فكر نفر من الفرنسيين في انشاء مسجد في باريس تذكاراً للآلاف من الجزائريين الذين ماتوا خلال الحرب مدافعين عن فرنسا ، وفي ١٩ اغسطس ١٩٢٠ وبناء على اقتراح مقدم من ادوار هيو عمدة مدينة ليون الشهير وعضو مجلس شيوخ فرنسا في ذلك الحين وافقت السلطات الفرنسية على انشاء مؤسسة اسلامية في باريس واعتمدت الحكومة للمشروع ما قيمته ١٥٠ مليونا من الفرنكات ، وعلى أثر ذلك تبرعت بلدية باريس بمبلغ ١٦ مليونا للمشروع مع قطعة ارض مساحتها هكتار ، اي عشرة آلاف متر في حي جوسيو ، وهو جزء من الحي اللاتيني ، وكان في موضع هذه الأرض مبنى لمستشفى قديم مهجور يسمى مستشفى الرحمة ، وشرع في انشاء المسجد ومجموعة المباني الملحقة به وهي معهد للدراسات الاسلامية ومطعم وسوق وحديقة جميلة .

والمسجد وملحقاته يعتبر هيئة مستقلة تديرها هيئة خاصة بها يرأسها مدير جزائري باسم بلدية باريس .

والمسجد قطعة فنية بديعة من الفن المغربي الاندلسي وقد عني المعماري الذي وضع الرسم باظهار اجمل ما في الفن المغربي الاندلسي من رقة وجمال واناقة واشراق واستعمال حسن العوامل

الطبيعة من خضرة وماء كأجزاء من عمارة المسجد ، وسواء آنت في بيت الصلاة او في الصحن او تحت المجنبات التي تتألف من عقود اندلسية فان كل ما تقع عليه عينك يذكرك بمباني الحمراء الاندلسية ، وتذكرك ببدائع الفن المغربي في فاس ومكناس ومراكش وتفتح هذه العقود على أبهاء مكشوفة ، في وسطها نوافير ماء ، ويغطي حوائطها الزليج الجميل ، والخضرة تراها في كل مكان ، اما المنبر فقد صنع في مصر وهو هدية من الملك احمد فؤاد لمسجد باريس .

من الناحية الفنية الاسلامية الصرفة يفوق هذا المسجد مسجد لندن الجديد بمراحل ، فأنت هنا في مسجد باريس في جو عربي اسلامي خالص ، اما في مسجد السير جيبارد فأنت في مبنى انجليزي من طراز شرفات ناشى ، وعليه قبة ومئذنة هما شبيهان بمئذنة مصنع .

مسجد واشنطون

كان في واشنطون وغيرها من كبريات بلاد الولايات المتحدة وكندا وامريكا الوسطى والجنوبية مساجد صغيرة هي في الغالب شقة في بيت أو قاعة في مطعم او مخزناً تؤجر لهذا الغرض . وفي العادة تلجأ الجاليات الاسلامية الكبيرة الحجم الى استئجار قاعة واسعة في احد المطاعم او المنشآت المخصصة للحفلات لتقيم فيها صلاة الجمعة وخاصة صلاة العيدين .

ولكن حادثا وقع في سنة ١٩٤٥ نبه مسلمي واشنطون الى ضرورة انشاء مسجد في العاصمة الامريكية ، فقد توفي السفير التركي فجأة وتحير المسلمون في امر اقامة صلاة الجنازة عليه وتقبل العزاء فيه ، فتحرك محمود حسن سفير مصر في واشنطون اذ ذاك واتصل بمقاول مسلم امريكي من اصل لبناني هو احمد يوسف حوار واتفقا على ضرورة تحقيق مشروع المسجد ، وجرت اتصالات كثيرة بين سفراء البلاد الاسلامية التي كانت ممثلة في واشنطن في ذلك الحين وعددها احدى وعشرون وتبرعت الحكومة الامريكية بقطعة ارض واسعة في شارع ماساتشوستس وهو من اجمل شوارعها لكي يقام عليها مسجد ومركز اسلامي يليق بمقام الجماعة الاسلامية والعاصمة الامريكية في آن واحد .

وتسارعت البلاد الاسلامية في التبرع والعمل لانشاء هذا المسجد ، فاخذ المكتب الهندسي على عاتقه اقامة المسجد وفق المتطلبات المعماري في المنطقة وبالنسبة الى اماكن العبادة القائمة في المدينة فاقام المئذنة في وضع تبدو معه وكانها فوق المدخل وبناها على الطراز المصري ذي البدن المربع ، وجعل مدخل المسجد واسعا يرقى اليه الداخل على سلالم من رخام ، وجعل المدخل نفسه خمسة عقود تقوم على اربعة اعمدة من الرخام .

والمسجد كله بيت صلاة فسيح رفيع الذرى يقوم سقفه على اعمدة ضخمة من الرخام تحمل فوقها بوائك عالية من الطراز

الذي استحدثه ماريو روسي في جامع ابي العباس وتكرر بعد ذلك كثيرا في مساجد عديدة اعظمها المسجد النبوي المكرم في المدينة . وقد شاع استعمال هذا الطراز الجميل من العقود لأنه يتيح للمعماري رفع السقف الى اعلى مستوى يستطعه عن طريق تلك العقود المرتفعة التجويف السميكة الطبقات تبعا لذلك ، وتمتاز عقود داخل مسجد واشنطون بانها مفصصة كبيرة الفصوص ، والمحراب من الرخام شبيه بمحراب مسجد الرفاعي في القاهرة ، وقد صنع المنبر في القاهرة على طراز منبر جامع محمد علي .

وقد احتاج المسجد الى اربع سنوات لوضع رسمه واشرف على العمل السيد يوسف حوار ، وشاركت في عمارته وزخرفته معظم بلاد الاسلام فالقاشاني من تركيا وهو من طراز بديع ازرق وابيض ، وقدمت ايران السجاجيد ومن بينها سجادة رائعة لا تقدر بثمن مقاييسها ٢٠ قدما في اربعين ، والثريا الكبرى وتزن طنين من النحاس صنعت في مصر وكذلك المنبر ، واستقدمت هيئة الانشاء عشرات العمال الفنيين من مصر وتركيا وايران والسعودية ، وبلغ عدد القطع التي يتألف منها المنبر اثنى عشر الف قطعة من الابنوس كلها صنعت في مصر ثم ركبت على الهيكل الخشبي . وقدمت السعودية اموالا وافدة وكذلك ساهمت في النفقات شركة ارامكو وشركات بترولية اخرى . وقدم السيد

يوسف حوار هدايا كثيرة للمسجد منها النافورة الرخامية التي تتوسط ردهة المبنى والى يمينها ويسارها مبنى المركز الاسلامي الثقافي وبيت الصلاة امامها : وقد قام بتحديد اتجاه القبلة فلكي متخصص من اعضاء الجمعية الجغرافية الامريكية اما حجارة المسجد فقد قطعت من جبال الباما ذات الحجارة البيضاء الصافية . وقد قام بعملية القطع والصقل فنيون اتوا من مصر والشام خاصة . وقد بلغت تكاليف البناء وحده ١,٢٥٠٠٠٠ دولارا بخلاف القطع الفنية الكثيرة المشار اليها واستغرق انشاؤه سبع سنوات ، وتم افتتاحه في ٢٨ يونيو ١٩٥٧ وحضر حفل الافتتاح الرئيس دوايت ايزنهاور .

وبيت صلاة المسجد يتسع لثلاثة آلاف من المصلين ويزيد في بهاء المسجد قيامه وسط خضرة جميلة تحيط به من كل جانب ، والمركز الاسلامي الملحق بالمسجد يعتبر من اعظم المراكز الاسلامية من هذا النوع خارج عالم الاسلام . وفيه مكتبة اسلامية محترمة .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلاميّة

من قاموس الصّائم

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

صيام الناس والشاك

من تناول طعاما ناسيا انه صائم فصومه صحيح عند الشافعية . وباطل عند المالكية . ولذلك فيجب عليه القضاء . وفائدة النسيان عند المالكية انه يرفع الاثم عن صاحبه . ومن اكل او شرب ظانا ان الشمس قد غربت ثم تبين انها لم تغب بطل صومه ووجب القضاء ، وكذلك من اكل شاكا في طلوع الفجر ثم تبين انه اكل بعد طلوع الفجر فيجب عليه الامساك بقية اليوم لحرمة الشهر . ثم يقضي اليوم مستقبلا . واذا جامع شاكا في الفجر فعليه القضاء والكفارة اذا تبين خطأه هذا عند الحنابلة وغيرهم يلزمونه بالقضاء فقط كما تقدم اذ لا فرق عندهم بين الجماع والاكل والشرب . وعلة الحنابلة ان الجماع يمكن الاستغناء عنه بخلاف الاكل .

حديث شريف

الانتهاء الى غير الاباء

في « كتاب الايمان ، من صحيح مسلم ، عن « ابي ذر الغفاري » رضي الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« ليس من رجل ادعى لغير ابيه وهو يعلمه الا كفر ، ومن ادعى قوما ليس له فيهم نسب فليتبوا مقعده من النار » .

صيام المغمى عليه

اذا اغمى على الشخص يوما كاملا من الطلوع الى الغروب او اغمى عليه اكثر اليوم . فان صومه باطل ويجب عليه القضاء سواء كان مدركاً عند الفجر أم غير مدرك وإذا أغمى عليه نصف اليوم أو أقل اليوم فإن كان صحيحاً عند الفجر ونوى الصوم قبل حدوث الاغماء فصيامه صحيح ولا قضاء عليه وأن لم يكن مدركاً بأن حدث الاغماء قبيل الفجر واستمر إلى نصف اليوم أو أقل منه فالصوم باطل ويجب عليه القضاء .

حديث شريف

فذلك البهتان

في « الموطأ » ان رجلا سال رسول الله ﷺ : ما الغيبة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :

« ان تذكر من المرء ما يكره ان يسمع » قال : يا رسول الله وان كان حقا ؟ قال عليه الصلاة والسلام :

« اذا قلت باطلا ، فذلك البهتان ».

صيام الطهاة وربات البيوت

يجوز للطاهي ان يذوق الطعام الذي يطهوه ـ وهو صائم ـ اذا كان من يعد له الطعام لا يتسامح في مواصفات معينة ، يحبها في الطعام . واذا كان للطاهي مهارة في ضبط المقادير وجودة الصنع فينبغي الاكتفاء بها . وكذلك ربات البيوت يجوز لهن ذوق فوق ما يطهون بنفس الشروط . كما اجاز الفقهاء لمن يريد ان يشتري سلعة يخشى ان يغش فيها فوق ما يريد شراءه . وفي كل حالة ينبغي التحرز الشديد من تسرب شيء مما يذاق الى الحلق ، والا وجب القضاء .

حديث شريف

خصال النفاق

عن « عبد الله بن عمرو » عن رسول الله ﷺ ، قال :

« أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق ، حتى يدعها :

أذا اؤتمن خان ، واذا حدث كذب واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر ».

« البخاري »

صيام الشيوخ والاطفال

الشيوخ الطاعنون في السن ، رجالا ونساء ، اذا اجهدهم الصوم ، واصابتهم مشقة بالغة بسببه فانه يجوز لهم الافطار ، وكذلك الذي اهزله المرض وانهكته العلل ، واذا حصل الافطار لهذا العذر فيكفي المفطر فدية طعام مسكين عن كل يوم افطره وان زاد على طعام المسكين فخير . ويرى بعض المفسرين ان هذا معنى قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية . . » ويطيقونه . . يتجشمونه ويؤدونه بمشقة بالغة . والدين يسر . اما الاطفال الذين بلغوا مرحلة التمييز فيكره صيامهم لئلا يتظاهروا به ويتناولون سرا ما يبطل الصوم . خاصة في ايام القيظ . ولا بأس بتدريبهم على الصوم شتاء .

حديث شريف :

لله ما أخذ ، وله ما أعطى

حدث « اسامة بن زيد » قال : ارسلت ابنة النبي ﷺ اليه ، ان ابنا لها قبض . فأرسل يقرىء السلام ويقول :

« ان لله ما أخذ وله ما اعطى ، فلتصبر ولتحتسب »

ثم قام ﷺ ومعه « سعد بن عبادة » ورجال من الصحابة فرفع الصبي الى رسول الله ﷺ ففاضت عيناه . فقال سعد : يا رسول الله ، ما هذا ؟ فقال :

« هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء » .

من (صحيحي البخاري ومسلم)

صيام المغتاب والنمام

الغيبة والنميمة من اخطر الامراض الاجتماعية ، وهما حرامان شرعا . وبعض العلماء يرى ان الغيبة ، والنميمة تبطلان صوم المغتاب والنمام ، معتمدا على اثر ثبت ضعفه هو : « خمس يفطرون الصائم » وذكر منها الغيبة والنميمة . من هؤلاء الامام الاوزاعي القائل يبطلان صوم المغتاب ووجوب القضاء عليه ، ومنهم ابن حزم الظاهري الذي ذهب الى ان الصوم يبطل بكل معصية تقع اناءه سواء كانت فعلا او قولا . والاصح انهما لا تبطلان الصوم . وينبغي على الصائم محاذرتهما ويكفي لما في الغيبة من الله شبه المغتاب بمن ياكل لحم اخيه ميتاً . وليس هذا فن طبائع البشر .

حديث شريف
لا ترجعوا بعدى كفارا

عن « جرير بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر » ان النبي ﷺ قال :

« لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ».
(البخاري ، ومسلم)

فتوى : افطار الحامل

زوجتي حامل في شهرها السابع ونسأل هل يجوز لها شرعا افطار شهر رمضان ؟

: مذهب الامام ابي حنيفة يبيح لها و« للمرضع » افطار شهر رمضان . . اذا خافت الحامل او المرضع تاثير الصيام على « نفسها » او « على الجنين » او « الولد ».

: وعند قدرتها الصحية على الصيام بعد رمضان تصوم بدل الايام التي افطرتها خلال شهر رمضان ولا تخرج اية فدية من مدة الافطار .

: ويرى الحنابلة ان خوف المرأة « الحامل » او « المرضع » التي تحتمل صحتها الصيام اذا كان خوفها من تاثير الصيام على

« الجنين » او على « الولد الذي يرضع » فان الشرع يبيح لهما الافطار .

: ولكنه يلزمها بالصيام بدل ايام الافطار بعد شهر رمضان كما يلزمها بتقديم « فدية » عن كل يوم افطرتا فيه بتقديم طعام « وجبتين كاملتين » للفقير او المحتاج او دفع بدل نقدى عن الوجبتين والله اعلم .

الشيخ محمد خاطر

حديث شريف

عن « عبد الله بن عمرو » رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العلماء ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا واضلوا » .
(من صحيح البخاري)

التقيوء

لي صديقان صائمان :

« احدهما » مصاب « بالكحة » خرج البلغم من خلقه الى فمه ثم رجع الى خلفه وأمعائه . .

و« الثاني » تعمد اخراج القيء وهو صائم . .

و« انا » غلبني القيء وخرج رغما عني . . فما راى الشرع الاسلامي في صيام كل واحد منا ؟

: يرى فقهاء المالكية ان رجوع البلغم الى حلق صاحبك الاول مرة اخرى لا يفسد صومه .

: اما صاحبك الثاني فيرى فقهاء الحنفية ان الذي يتعمد اخراج القبىء من جوفه اذا كان ذاكرا انه صائم ـ ليس عن سهو ولا نسيان ـ وكذلك اذا احس بالقيء خرج كرها عنه وملأ فمه فأعاده بنفسه وهو يدكر تماماً آنه صائم فإنه في الحالتين « اصبح مفطرا » ويجب عليه بعد رمضان صيام يوم بدل اليوم الدي افطره .

ويرى الحنابلة والشافعية انه ما دام عامدا عالما مختارا فقد افطر وعليه قضاء صيام يوم اخر حتى ولو لم يملا القيء فمه اما اذا كان « ناسياً » وحدث هذا سهوا عنه فانه « يتمم صوم اليوم » ولا يصبح مفطرا في هذه الحالة .

: اما انت صاحب السؤال : فقد قرر الفقهاء انك لم تفطر وصومك صحيح لان الشخص الذي « يغلبه القيء » فيلقى م في بطنه قهرا عنه ـ ودون ارادة منه ـ لا يفسد صومه ولا شيء

عليه . قال رسول الله ﷺ : ؟ من ذرعه ـ أي غلبه ـ القيء فليس عليه قضاء ومن استقاه عمدا فليقض » .

حديث شريف

الدين يسر

في صحيح البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : « بينا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، هلكت .

قال : ما لك ؟

قال : وقعت على امراتي وانا صائم .

فقال رسول الله ﷺ : قد تجد رغبة تعتقها .

قال : لا .

قال : فهل تستطيع ان تصوم شهرين متتابعين ؟

قال : لا

فمكث عند النبي ﷺ ، فبينا نحن على ذلك اتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر ـ والعرق : المكتل ـ

قال : اين السائل ؟

فقال : انا

قال : خذ هذا فتصدق به

فقال الرجل : اعلى افقر مني يا رسول الله ؟ فوالله ما بين الحرتين اهل بيت افقر من اهل بيتي .

فضحك النبي ﷺ وسلم قال : اطعمه أهلك » .

عجوز ضعيف

رجل كبير السن ضعيف القوى لا يقدر على الصوم فهل يجوز له الفطر في رمضان ؟

المفتي

: هذا الرجل الطاعن في السن والمرأة الطاعنة في السن العاجزان عن الصيام الان واللذان لا يستطيعان الصيام بعد رمضان لان ضعفهما يزداد كلما كبر سنهما يجوز لهما الفطر . . ولا يصومان بعد رمضان .

: واذا كان الشخص المفطر لكبر سنه « فقيرا » او محتاجا فلا يقدمْ فدية عن ايام افطاره .

: أما اذا كان قادرا ماديا على الفدية فان الشرع يوجب عليه ان يقدم لله فدية ، وهي ان يطعم فقيرا او مسكينا او اي محتاج « وجبتين كاملتين » عن كل يوم يفطره في رمضان والله تعالى يقول « وعلى الذين يطيقونه فدية » .

: وأباح الامام ابو حفيفة ان ندفع « بدل الطعام » نقدا للفقير او المحتاج . والله تعالى اعلم .

حديث شريف

نصيحة نبوية

اقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل فان استطعت ان تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن .

فتوى

هذا لا يفطر الصائم

: الاكتحال ووضع القطرة في العين ، سواء اوجد طعمه في الحلق ، ام لم يوجد ، لان العين ليست بمنفذ الى الجوف .

: الاستحمام ، وصب الماء على الرأس .

: النسيان في الاكل والشرب
العضد والرعاف ونحوهما

: تقبيل الزوجة لمن كان قادرا على ضبط نفسه . . والاولى تركها عند الاحناف والشافعية .

: الاحتلام في النوم

: التداوي بالحقن الطبية على اختلاف انواعها . . تحت الجلد وفي الفصل وفي الوريد . . كذلك حقن التقوية مثل الفيتامينات والكلسيوم وغيرها .

: الحقن الشرجية . . فحكمها مثل من يصاب باسهال .

محمد نعيم

أهل الجنة

أهل الجنة ثلاثة . ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى مسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال

حديث شريف

س و ج

المرض والصوم

: لم أتمكن من صوم رمضان في العام الماضي لمرضى ، ولم اتمكن من القضاء حتى جاء هذا العام فما حكم صيامي ؟

ـ عليك صوم رمضان الحاضر ، واما ما فاتك من صوم رمضان السابق فعليك قضاؤه بعد انتهاء رمضان وعليك ايضا

مع صوم القضاء اطعام مسكين عن كل يوم تصومه .

« إذا كانَ يَومْ صَوْمِ أحَدكم فلا يَرفثْ وَلا يصخَبْ ، فان سَابّه أحَدٌ أو قاتَله فليقل إنيّ صَائِم ».

: ما هو حكم صلاة التراويح ولماذا اختصت بشهر رمضان وما عدد ركعاتها ؟

ـ صلاة التراويح في رمضان مستحبة وقد رغب فيها الشارع فقد قال ﷺ : من قام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

واختصت برمضان لانه شهر عبادة وهو افضل الشهور لذلك كان نهاره عبادة وليله كذلك وقد صلاها رسول الله عليه السلام ثماني ركعات غير الشفع والوتر وفي عهد عمر رضي الله عنه رأى أن يجمع الناس على صلاتها عشرين ركعة عدا الشفع والوتر .

« اذا جَاءَ رَمضَانُ فَتّحِتْ أبَوابُ الجَنّة ، وَغْلّقِتَ أبَوابُ النّار وصُفّدَتِ الشّيَاطين ».

كل الكتب نزلت فيه

: ما علاقة الصوم بشهر رمضان ، ولماذا فرض الصوم في هذا الشهر بالذات ؟

ـ شهر رمضان فضله الله سبحانه على سائر الشهور فجعله شهر رحمة وغفران وعتق من النار فما من كتاب سماوي الا وانزله

الله فيه ، وفيه انزل القرآن الكريم على رسول الله الامين الى خير امة اخرجت للناس .

لذلك كان سيد الشهور واعظمها عند الله تعالى فمن صامه ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تاخر .

ولما كان لهذا الشهر هذه المكانة خصه الله تعالى بفريضة الصوم فيه التي هي دعامة من دعائم الاسلام وركن من اركانه يقول الله تعالى : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

« مَن صَامَ رمضَانَ ايمَاناً واحتِسَاباً غُفِرَ لهُ مَا تقدَّمَ مِن ذنبِه » .

امراض عصبية

: هل يجب قضاء ايام رمضان بالنسبة لمرضى الامراض العقلية بعد شفائهم ؟

ـ المجنون غير مكلف بشيء ، فلا يجب عليه صوم ولا غيره مما يكلف به العاقلون ، فاذا افاق من جنونه فلا قضاء عليه فيما فاته ، كما هو مذهب بعض الائمة ، وذهب بعض آخر الى انه يجب عليه القضاء لما فاته اذا كان جنونه استمر خمس سنوات فاقل ، اما اذا زاد على ذلك فلا قضاء عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَا بنّى انها إن تَك مِثقَالَ حَبّة مِن خَردَلٍ فَتَكنُ في صَخرَة أوفى السّماوات أوفى الأرض يأتِ بِهَا الله إنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرُ * يَا بُنَىَّ أقِمْ الصَّلاةَ وأمُرْ بالّمعرُوفِ وَانْهَ عَنِ المنكَرِ واصبر عَلى مَا أصابكَ إنَّ ذَلكَ مِن عَزْمِ الأمُور * ولا تُصَعّر خَدَّكَ للنّاس وَلَا تَمش فِي الأرْضِ مرحاً إنّ اللّه لَا يُحِبّ كلَّ مُخْتَالٍ فَخُور * واقصِد فِي مَشِيكَ واغْضُضْ مِن صَوتِك إنَّ انكَرَ الأصواتِ لَصَوتُ الحَميرْ *»

اصحاب المقاهي

ما الرأي في صاحب المقهى والمطعم الذي يفتح محله في نهار رمضان ويقدم فيه الشراب والطعام لغير الصائمين مع أنه هو نفسه صائم ؟

هؤلاء الذين يفتحون المطاعم والمقاهي في رمضان نهارا ليقدموا الآكل والشراب للمفطرين هم منتهكون لحرمة هذا الشهر الكريم وهم بذلك اثمون لانهم في الحقيقة شركاء لهؤلاء المفطرين لان الانسان يجب عليه ازالة المنكر اما بيده ان استطاع والا فبلسانه ان قدر والا فبقلبه فان لم يفعل ذلك كان شريكا لمرتكب المنكر عليه الاثم والزر .

أما صوم هؤلاء الذين يفتحون مطاعمهم او مقاهيهم نهارا فلاحظ لهم من صومهم الا حرمانهم من الجوع والعطش ولا ثواب لهم في من هذا الصوم .

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّ اللهَ يأمُرُكمْ أنْ تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا وإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ ، انَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، انَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصيراً ».

صدق الله العظيم

خلع الضرس

: ما الحكم اذا خلع الصائم ضرسه في نهار رمضان بعد أن حقنه الطبيب تحت الضرس ، ثم وضع في فمه بعض الادوية بعد الخلع ؟

ـ خلع الضرس في نهار رمضان غير مفطر للصائم والحقنة اذا لم يصل منها شيء للحلق لا تفطر ومثلها الدواء بعد الخلع الذي يتمضمض به بشرط الا يبالغ في المضمضمة كيلا يصل شيء ما للحلق .

بسم الله الرحمن الرحيم

« بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الاَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * » .

صدق الله العظيم

النوم والصيام

: عملي يستغرق الليل كله ، ولذلك فانني انام طول النهار في رمضان فهل يصح صيامي .

ـ نومك النهار كله لا يفسد صومك ، بل هو صوم صحيح بشرط ان تبيت وانت تنوي الصيام .

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ *»

صدق الله العظيم

الصوم والعمل

انني ومجموعة من زملائي نقوم بعمل شاق في النهار ، لا نقدر على أدائه مع الصيام وكذلك لا نستطيع الكف عن العمل نظراً لحاجتنا ولأنه مورد رزقنا الوحيد فهل يجوز لنا الافطار ؟

ـ العمال الفقراء المحتاجون للعمل عليهم ان يصبحوا صائمين واذا تعبوا اثناء النهار افطروا وعليهم قضاء ما افطروا فيه بعد انتهاء رمضان .

بسم الله الرحمن الرحيم

« فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * » .

صدق الله العظيم

الطبيب بعد الصيام

○ هل يصح للسيدة المريضة أن تعرض نفسها على الطبيب في نهار رمضان وما حكم صيامها أن هي فعلت ذلك ؟

ـ السيدة المضطرة لكشف جسدها امام الطبيب صومها صحيح وان كان الافضل لها ان تتوجه الى الطبيب بعد المغرب .

بسم الله الرحمن الرحيم

« واعْتَصِمُوا بحَبْلِ الله جَميعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنعْمته على شَفَا حُفْرةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كذلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون * » .

صدق الله العظيم

الأطفال . .
لا يصومون

: ما الرأي في صوم الاطفال وهل الافضل منعهم من الصيام حتى يبلغوا الحلم ؟

ـ الاطفال الذين لم يبلغوا الحلم يكره في حقهم الصوم لان الصوم شاق عليهم فلو صاموا رمضان كرهوه فيعتادوا كراهيته عند البلوغ .

وايضا ربما افطروا فيه خفية ثم يظهرون انهم صائمون حتى الغروب فيعتادون ذلك بعد بلوغهم .

والصوم خلاف الصلاة لانها خفيفة عليهم لذلك يؤمرون بها اذا بلغوا سبع سنين ويضربون على تركها اذا بلغوا عشرا من السنين .

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * » .

صدق الله العظيم

الموائد العامرة

: هل من الضروري ان تكون موائد الافطار في رمضان عامرة بمختلف اصناف الطعام بحجة الصيام ؟

ـ الاسراف في كل شيء مذموم شرعا والفضيلة هي الاقتصاد بين الاسراف والحرمان .

يقول الله تعالى : « وكان بين ذلك قواما » ويقول الرسول ﷺ : لا عال من اقتصد .

ومن ثم فينبغي للصائم عند فطره التقليل من المأكل والمشرب بحيث لا يرهق المعدة فيحصل له الضرر لان المقصود بالصوم طهارة الارواح وصحة الأبدان .

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ا الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » .

صدق الله العظيم

فم الصائم

: لماذا كانت رائحة فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك كما يقولون ؟

ـ يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لخلو فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك ».

ك وهذا مما يدل على رضاء الله ومحبته للصائم لانه ترك الطعام والشراب امتثالا لامر ربه وتقربا اليه سبحانه الذي يعلم السر والنجوى . .

والصائم لا رقيب عليه الا الله عز وجل ولذلك يقول الله : « الصوم لي وأنا اجزى به ». .

واذا أثر ترك الطعام والشراب في تغيير رائحة الفم فان ذلك محبوب عند الله تعالى وهو اطيب من ريح المسك عنده وذلك لتطبيب نفس الصائم وتبشيرها بقبول صومها ورضاء الله عنها .

الشيخ صالح شرف

بسم الله الرحمن الرحيم

« قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ».

صدق الله العظيم

الصوم بعد رمضان

: هل يجب قضاء الايام التي يفطرها الانسان مضطرا في رمضان عقب انتهاء الشهر مباشرة وهل يجب تتابع ايام الصيام ؟

ـ لا يجب قضاء ايام من رمضان على الفور ، وان كان يستحب لمن افطر في رمضان التعجيل بقضاء ما افطر فيه ، خوفا من حدوث ما يمنعه من القضاء واذا اخر القضاء الى دخول رمضان الثاني بدون عذر فانه يكون آثما وعليه اطعام مسكين عن كل يوم يقضيه . .

هذا ولا يجب في القضاء تتابع ايام الصيام .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ : « اياكم والكذب ، فان الكذب تهدي الى الفجور ، والفجور يَهدي الى النار ، وتحرّوا الصدقَ ، فان الصدق يهدى الى البرِ والبر يهدي الى الجنة ».

الورثة يصومون

: ما هو حكم من مات وعليه قضاء أيام افطرها في رمضان ؟

ـ من مات وعليه قضاء أيام من رمضان ، يرى بعض الفقهاء انه يصح لبعض ورثته ان يصوم عنه تلك الايام نيابة عنه لقول الرسول عليه الصلاة والسلام لمن جاءته قائلة يا رسول الله ان امي ماتت وعليها صوم نذر ، فقال لها أرأيت لو كان على امك دين فقضيته اكان يؤدي ذلك عنها ؟ قالت : نعم فقال : فدين الله أحق بالقضاء .

وقال آخرون ان الصوم عبادة بدنية كالحج لا تنفع فيهما النيابة لقوله تعالى « وان ليس للانسان الا ما سعى » وهذا الذي مات قبل رمضان لا شيء عليه لانه ترك مستحبا وهو تعجيل القضاء .

الشيخ صالح شرف

قال الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوادين احساناً .

وقال تعالى : فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » .

الوضوء .. لماذا ؟

ـ لماذا يتوضا المسلم خمس مرات يوميا .. مرة عند كل صلاة .. وما الحكمة في ذلك ؟

: الاسلام هو الدين الوحيد من بين الاديان الذي يهتم بسلامة الأجسام مثل اهتمامه بسلامة النفوس والارواح .

لذلك اهتم بالوضوء الذي شرعه الله ليحقق بعض هذه المقاصد .

واول ما يطالعنا من حكم الوضوء واسراره ان يكون الانسان على قدر مناسب من جمال المظهر وحسن الهيئة ولا يتم ذلك الا بتعهد ما اصاب اعضاء الجسم التي يشملها الوضوء وازالة ما علق بها من ملامسة الاشياء وتطهير هذه الاعضاء مما يحمله الهواء من التراب وتنقيتها مما تخرجه المسام من العرق وتقذفه المنافذ من اوساخ .. وبهذا يبدو الانسان نظيفا طاهرا والنظافة ركن من اركان الحسن والجمال وحينما يبدو الانسان هكذا فان الناس يحبونه ويألفونه فضلا عن حب الله له وقد جاء فى الحديث الصحيح ان النبي ﷺ قال : « إن الله جميل يحب الجمال » .

والحكمة الثانية ان في المحافظة على الوضوء نوعا من انواع الطب الوقائي . فقد ثبت طبيا ان كثيرا من الامراض تدخل في

الجسم من المنافذ التي يغسلها الانسان عند الوضوء فإذا أزيل ما علق بهذه المنافذ من العرق وغيره مما يعتبر بيئة خصبه للميكروبات كان ذلك وقاية من أسباب المرض وكان فيه السلامة وحفظ الصحة .

ويحقق الوضوء وعيا ويقظة للانسان الذي يدرك انه سيقف بين يدي الله العظيم ، فتقدم الوضوء على الصلاة بمثابة الاعداد والتهيئة لتجميع القوى الروحية وحشدها .

الشيخ سيد سابق

قال الله تعالى : « تلك الدّار الآخرة نجعلها للدين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعافية للمتقين » .

هذه المراقبة

ـ هل يقدم من صدق مع الله في صومه وراقبه فيه مخلصا على غش الناس ومخادعتهم ؟

هل يسهل عليه ان يراه الله وهو يأكل اموال الناس بالباطل ؟

هل يحتال على الله في منع الزكاة ؟ وعلى اكل الربا ؟

: يجيب الامام محمد عبده على هذه الاسئلة قائلا :

كلا . . فإن الصوم يحدث لصاحبه ملكه المراقبة لله تعالى والحياء منه سبحانه ، وفي هذه المراقبة أكبر معد للنفوس مهيء لها السعادة في الآخرة والاستقامة في الدنيا .

ان صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي ، اذ لا يطول امد غفلته عن الله ، واذا نسى والم بشيء منها كان سريع التوبة ، قريب الاوبة « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ».

قال رسول الله ﷺ :

« ان العفو لا يزيد العبد الا عزاً فاعفوا يعزكم الله ، وان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله وان الصدقة لا تزيد المال الا نماء فتصدقوا يزدكم الله ».

معنى ليلة القدر

: ما معنى ليلة القدر . . وما معنى انها خير من الف شهر ؟

ـ يقول الله تعالى : (ليلة القدر خير من الف شهر) ومعنى كونها ليلة القدر انها ليلة الشرف والرفعة فقد رفع الله من شأنها وفضلها على جميع الليالي وهي أيضاً خير على المسلمين القائمين فيها بذكر الله تعالى وعبادته شاكرين نعم الله عليهم بتوفيقهم إلى طاعته .

وأهم نعمة انعمها على البشرية جميعا هي انه سبحانه انزل فيها القرآن الكريم على رسوله الامين محمد عليه الصلاة والتسليم . انزله عليه ليخرج الناس من الظلمات الى النور .

والعبادة في هذه الليلة خير من العبادة في غيرها يضاعف الله للقائمين فيها الاجر والثواب كما قال تعالى « ليلة القدر خير من الف شهر »

وقد حث رسول الله عليه السلام على احيائها فقال : من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

قال رسول الله ﷺ : « من قام ليلة القدر ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ».

الملائكة . . في القتال

: كيف انتصر المسلمون في غزوة بدر مع أنهم كانوا قلة بالنسبة لاعدائهم ، وهل كان امداد الله تعالى المسلمين بالملائكة يمثل مشاركة حسية او معنوية في القتال .

ـ غزا رسول الله وصحابته غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان وكان عدد المسلمين في هذه الغزوة ثلث عدد الكفار ، غير أن المسلمين وان كانوا قلة الا انهم نصروا الله فنصرهم مصداقا لقوله تعالى : (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) . . فقد نصروا الله بالاعتماد عليه وبالثبات على الحق والثقة بوعد الله لهم بالنصر او بالاستشهاد وهو احب اليهم من حياة الذلة والمهانة .

لذلك كانوا يحرصون على الموت لما بعده من خير وسعادة ابدية وجنات عرضها السموات والارض فوهب الله لهم الحياة والعزة ونصرهم على أعدائهم تحقيقا لوعده فامدهم الله بجنود من عنده ، امدهم بالملائكة فقاتلوا معهم قتالا حسيا كما يشهد بذلك صريح القرآن اذ يقول الله تعالى : « اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين امنوا سالقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ». ويقول : « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فوركم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » .

فهذه الآيات صريحة في المدد الحسي والضرب الحسي ولا داعي الى تأويلها بغير ذلك فالله قادر على كل شيء والله اعلم .

الشيخ صالح شرف

قال الله تعالى :

« ومن يتوكّل على الله فهو حسبه » .

العمرة في رمضان
اصلها وشروطها

العمرة في الاصل اللغوي الزيارة التي يقصد بها عمارة المكان وعمارة القلوب الود ، وتلاقيها على الصفاء والمحبة

والاخلاص . وقد خصها الاسلام بزيارة بيت الله الحرام . وتلاقي النفوس فيه على مودة ورحمة واخاء .

وهي سنة مؤكدة عند المالكيـة والحنيفية وفـرض عند الشافعية . وواجبة عند الحنابلة . . ويجوز تاديتها في اي وقت من اوقات السنة الا انها تكره تحريما في يوم عرفة وفي يوم النحر ، وفي ايام التشريق .

وورد في عدة احاديث ذكرها المنذري في الترغيب والترهيب ومنها ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال اراد رسول الله ﷺ الحج فقالت امرأة لزوجها احججني مع رسول الله ﷺ فقال : ما عندي احججك عليه . . فقالت : احججني على جملك فلان . قال ذاك حبيس في سبيل الله عز وجل ، فاتى رسول الله ﷺ فقال : ان امرأتي تقرأ عليك السلام ورحمة الله وانها سألتني الحج معك . فقلت ما عندي ما احججك عليه ، فقالت : احججني على جملك فلان . فقلت ذاك حبيس في سبيل الله عز وجل فقال : اما انك لو احججتها هيه كان ذلك في سبيل الله قال : وانها امرتني ان اسألك ما يعدل حجة معك قال رسول الله ﷺ اقرئها السلام ورحمة الله وبركاته واخبرها انها تعدل حجة معي عمرة في رمضان »

ثواب العمرة

وفي حديث اخر عن ابن عباس رضي الله عنه قال . . قال

رسول الله ﷺ لامرأة من الانصار : ما منعك ان تحجي معنا . قالت كان لنا ناضح « جمل » فركبه ابو فلان وابنه - تعني زوجها وابنها - وترك ناضحا ننضح عليه . . » فقال صلوات الله وسلامه عليه . . « إذا جاء رمضان فاعتمري فيه ، فإن عمرة في رمضان تعدل حجة » . . قال ابن الجوزي في الحديث أن ثواب العمل يزيد بزيادة شرف الوقت ، كما يزيد بحضور القلب وبخلوص القصد .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ « العمرة الى العمرة كفارة » بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة »

وعن جابر رضي الله عنه : ان النبي صلوات الله وسلامة عليه قال : « هذا البيت دعامة الاسلام فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج او معتمر ، ، كان مضمونا على الله ، ان قبضه ان يدخله الجنة ، وان رده . . رده باجر وغنيمة » . . . ووردت احاديث اخرى كثيرة وكلها تدل على كثرة الثواب في عمرة رمضان

ولا تجزى عنه حجة الاسلام . . وهذا افضل من الله ونعمة حيث ادركت العمرة منزلة الحج بانضمام رمضان اليها .

اركان العمرة
وكيفية ادائها

ويشترط للعمرة ما يشترط للحج واركانها ثلاثة : الاحرام ،

الطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، وزاد الشافعية الترتيب والحلق والتقصير .

وميقات الحج هو ميقات العمرة وهو . . الجحفة « رابغ » لاهل مصر وما كان بمكة فميقاته في العمرة الحل « وهو ما عدا الحرم الذي يحرم فيه الصيد » فافضل الحل الجعرانة ثم .

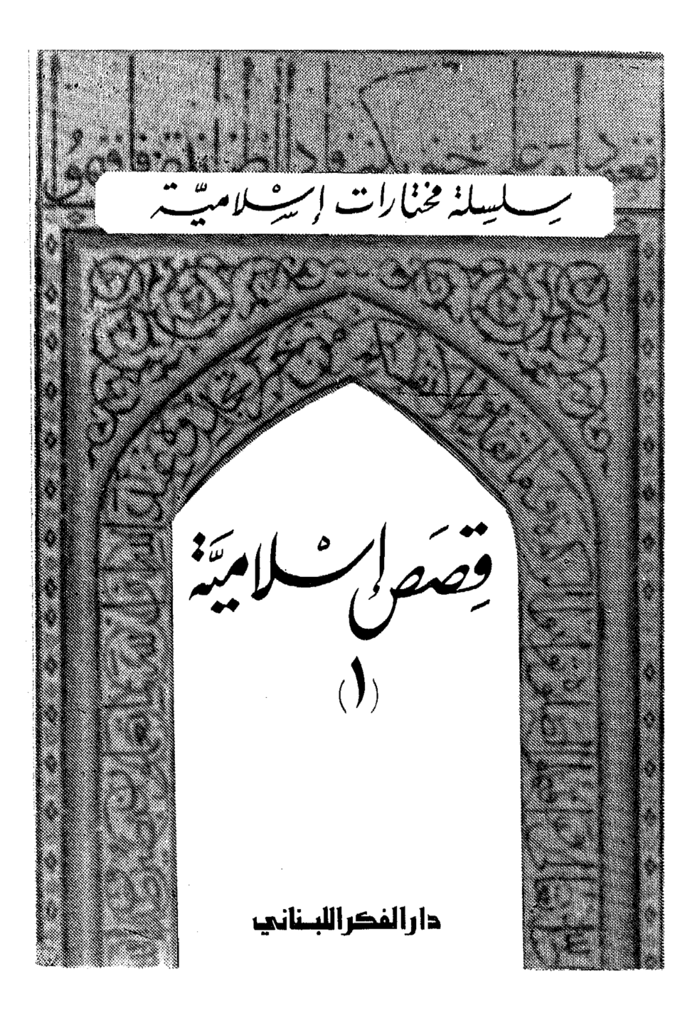
فالقادم من خارج مكرة بحرم بها من ميقات الحج ثم يطوف حول البيت ثم يسعى بين الصفا والمروة ثم يحلق او يقصر . وبهذه الاعمال تنتهي العمرة .

محمد نعيم

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠١

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)


سلسلة مختارات إسلامية
قصص إسلامية
(١)
دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

قِصَص إسلامية

١

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً * فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ العِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى » .

صدق الله العظيم

عمر والأرملة
كيس الدقيق

حدَّث عبد الله بن العباس عن أبيه قال :

خرجت في ليلة غاب قمرها وحلك ظلامها واشتد قرها (بردها) وأممت دار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وما وصلت إلى نصف الطريق وأنا أتلمس سبيلي في العتمة حتى رأيت شخصاً أعرابيّاً يسير بخطى حثيثة لم أتبينه من أول وهلة فتابعت سيري . فما كان منه إلاّ أن جذبني من طرف ثوبي وقال : إلزمني ، يا عبّاس . » .

فالتفت إليه وتأملته فإذا هو أمير المؤمنين وكان قد تنكّر فقلت له وأنا لا أعي :

- إلى أين ، يا مولاي ، في هذا الليل الدامس والليلة الباردة ؟

ـ أريد جولة بين أحياء العرب لأتفقّد شؤون رعيتي وأتعرف على أحوالها في هذه الليلة القارسة . »

أذعنت لطاعته . فسار وسرت وراءه . وجعل يجول بين خيام العرب ويتأملها . يتوقف من حين إلى حين ثم يواصل سيره إلى أن أتى على جميعها . فالسكوت يُـخيم على الأحياء والقوم نيام . فالتفت إلـيّ وقال : « عُدْ بنا ، يا عباس ، قد اطمأن الآن بالي . والله لما كان في استطاعتي أن أذوق طعم النوم لو أن أحداً من أبنائي يقرسه البرد ويعضه الجوع . »

ولما همنا بالعودة استرعى نظرنا خيمة انفردت عن الحي يلوح منها ضوء شاحب نحيل يعلو تارة ويخبو أخرى وبان لنا أمرأة عجوز وحولها صبية تعلقوا بأهداب ثوبها يقتفون خطاها كيفما اتجهت . وطرق مسمعنا بكاؤهم وعويلهم وهم يرددون : « نحن جياع ، يا جدتنا . لا نستطيع النوم قبل أن نشبع جوعنا . » فتلاطفهم المرأة وتهون عليهم : « القدر على النار ، يا أولادي ، طوِّلوا بالكم . قليلاً وينضج الطعام فتأكلون وتنامون نوماً هادئاً . »

سمَّـرنا هذا المشهد في مكاننا وجعل عمر يحدق إلى العجوز تارة وينظر إلى الأولاد أخرى وقد استولى عليه العجب : « ترى ما الذي قعد بهذه المرأة عن أن تهيء الطعام لأولادها في حينه وتُعشِّيهم ؟ لقد تقدم الليل ولم يستو الطعام بعد . »

فقلت لأمير المؤمنين : « هلـمّ بنا ، يا مولاي ، لقد طال مكوثنا وما لنا في الأمر حيلة . لا بدّ أن ينضج الطعام أخيراً فيأكل الصبيان ويرقدوا .

ـ لا والله ، يا عباس ، لن أترك مكاني حتى أرى المرأة قد سكبت الطعام للصبية فتعشوا واكتفوا . »

ولما نفذ صبرنا قال لي عمر : « ما هذا الطعام الذي تطبخه هذه العجوز ؟ إنَّ في الأمر لَسِرّاً . هَلُم بنا ندخل عليها ونستفسرها عن الأمر . لن يهدأ لي بال قبل أن أجلو هذا السر وأعرِف الحقيقة . »

فدخل ودخلت معه . فقال لها : « السلام عليك يا خالة فردت علينا السلام أحسن رد .

قال لها عمر : يا خالة ما بال هؤلاء الصبية يتصارخون ويبكون .

إنهم يتصارخون ويبكون لما هم فيه من الجوع .

ـ ولِمَ لا تطعمينهم مما في القدر بدلاً من أن ترددي عليهم : « رويداً ، رويداً ، يا بني ، قليلاً وينضج الطعام ؟ أما حان لهذا الطعام أن ينضج بعد هذا الوقت الطويل ؟ » .

فأجابت العجوز وهي تضبط نفسها : « وماذا في القدر حتى

أُطعمهم ؟ هي حيلة أحتال بها عليهم إلى أن يتعبوا من البكاء ويضجروا من العويل فيغلبهم النوم . وأبقى أنا مسهدة (لا أستطيع النوم) تحرق الدموع عيني ويدمي الألم قلبي . » .

هال الخليفة هذا الكلام الذي سمعه وتقدم إلى القدر وكشف غطاءها فإذا فيها حصباء وعليها الماء يغلي . فدهش عمر لما رأى والتفت إلى العجوز قال : « عجيب أمرك ، يا أمرأة . لقد خفي علي مرادك .

ـ الأمر في غاية البساطة . أنا أمرأة مقطوعة لا أخ لي ولا أب ولا زوج ولا قرابة وهؤلاء الصبية هم أحفادي . مات والدهم فكفلتهم . أعمل عندما يتيسر لي عمل فأعود إليهم ببعض القوت يسد جوعهم ويمسك رمقهم . ويوم لا يتيسر لي عمل ألجأ إلى هذه الحيلة فأوهمهم أن في القدر شيئاً يطبخ أعللهم به حتى إذا سئموا الانتظار وتغلب عليهم النعاس استسلموا إلى الرُّقاد .

ـ لِمَ لم تعرضي أمرك على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيجري عليك رزقاً يقوم بأودك وأود هؤلاء الأطفال .

ـ لا حيّا الله عمر ، بل نكس الله أعلامه وقبَّح وجهه . هو الذي ظلمني . »

إرْتاع الخليفة لما سمع مقالتها وقال لها بهدوء : « يا خالة ، بماذا ظلمك عمر » ؟

ـ يدّعي معرفة رعيته فرداً فرداً ويزعم أنه يسهر على راحتها ويتركني أنا وهؤلاء الصغار نتخبط في الفاقة والشقاء ولا معين لنا ولا معيل .

ـ وهل يرجم عمر بالغيب من أين يعلم بحالك وما أنت به من الفاقة وكثرة الصبية ؟ كان عليك أن تتقدمي وتعلميه بأمرك . فإن تنكّر لك وتقاعس عن مساعدتك حق لك أن تلوميه وتشتميه .

ـ لا والله لست على رأيك . بل عليه هو أن يفتش عن احتياجات رعيته . وهل تعتقد أن كل صاحب حاجة يتقدم إلى الخليفة ليعرض عليه حاجته ؟ فالحياء والعنفوان وعزة النفس تجعل المرء يفضل أن يموت من أن يعرض نفسه لذلّ السؤال . أما تعرف القول المأثور : ولكن ما الفائدة من هذا الكلام وأين أنا من عمر لأسمعه صوتي ؟

ـ قد تكونين على حق ، يا خالة . أستحلفك ألاّ تدعي الصبية ينامون والساعة آتيك » . قال هذا وخرج وخرجت وراءه .

أما الخليفة فقد غادر الخيمة وكان قد بقي من الليل ثلثه فمشينا والكلاب تنبحنا وأنا أطردها وأدفعها عني وعنه .

حتى وصلنا إلى دار الخلافة فتوجهنا توّاً إلى بيت المونة ففتحه

ودخلنا . فعمد عمر إلى كيس من الدقيق يحتوي ثلاثين رطلاً ويزيد وقال لي : « يا عباس ، حول هذا الكيس على ظهري . » فترددت وهممت بحمله فمنعني : « إمتثل أمري . » فامتثلت وحملته إياه . ثم قال لي : « إحمل أنت جرة السمن هذه » وأشار إلى جرّة هناك ، فحملتها وخرجنا وأقفل الباب .

وصلنا إلى خيمة العجوز بعد أن أجهدنا التعب فحوَّل عمر كيس الدقيق عن ظهره ووضعت جرة السمن وانتظرت أوامره .

كان الأولاد نائمين فقال عمر للمرأة : « قد وفيت بوعدي ، يا خالة ، وأتيتك بطعام لك ولأولادك . دعيهم نائمين ريثما أحضر لهم الطعام فيأكلون » وباشر بالعمل على الفور دون أن يأبه لي أو يطلب مساعدتي .

تقدم من الموقد وأخذ القدر وكب ما فيها ووضع فيها السمن وجعل بجانبه كيس الدقيق .

وبعد جهد جهيد أتّقدت النار وارتفع لهيبها وذاب السمن في القدر وابتدأ غليانه وحين نضج الطعام أنزل القدر عن الموقد وطلب من العجوز صحفة ثم قال : « أيقظي الأولاد ليأكلوا .»

حينئذ قالت العجوز : « قد خجّلتني ، يا ابني . فإنّ لساني يعجز عن شكرك . وحتى الآن لا أعلم ما الذي حملك على أن تعمل ما عملت ولا أعرف إسمك . فهل تبوح لي به حتى أذكرك في دعائي مع هؤلاء الصغار ؟ إنّك غمرتني بفضلك .

ـ يكفيك ، يا خالة ، أن تعرفي أنّي من أقرباء أمير المؤمنين . . . »

ما إن لفظ عمر هذه العبارة حتى امتقع لون العجوز وارتعشت لأنها تذكرت مقالتها في الخليفة فقالت وهي تتلعثم : « أعتذر إليك ، يا ابني ، مما صدر عني في حق أمير المؤمنين . والله هي الفاقة وهو الجوع وهي المرارة التي أنطقتني بهذا الكلام . أنا عجوز شبعت من الحياة وأنتظر أن ألقي وجه ربي من يوم إلى يوم . ولكن مرأى هؤلاء الصغار اليتامى يتضوّرون جوعاً كان يؤلمني . . . »

فقاطعها قائلاً : لا تخافي يا خالة إنّ أمير المؤمنين رحب الصدر ، واسع الحلم ، لن يؤاخذك بما فرط منك . وأعدك بأنني لم أنقل إليه فهت به في سورة من الغضب دفعك إليه الضيق والحرمان . عليك أن توافي دار الخلافة من صباح غد ، فتجديني هناك . خير إن شاء الله . » ثم ودعناها وانصرفنا .

بلغنا دار الخلافة ودخلنا وقبل أن نفترق قال لي عمر : « يا عباس ، أشهد الله (آخذه شاهداً علي صدق كلامي) أن هذا اليوم أو قل هذه الليلة هي أسعد أوقات حياتي . ترى كم عانيت من التعب وحملت نفسي من العناء ، كلّ ذلك أحلى على قلبي من العسل . » ثمّ استودعني الله ولجأ إلى فراشه .

في اليوم التالي وفدت العجوز على دار الخلافة فاستقبلها

عمر . فلما وقعت عيناها عليه حتّى ارتعبت وانعقد لسانها . فلاطفها عمر وقرّبها وهدّأ روعها وجعل لها ولأولادها راتباً من بيت المال تستوفيه شهراً فشهراً . وبعد أن اطمأنت وانشرح خاطرها صرفها قائلاً : « لقد فتحت عيني ، يا خالة وأيقظت ضميري . منذ الآن لن أنتظر حتى يأتي إليَّ صاحب الحاجة ليعرض حاجته علي . بل سأفتش عنه لأقضيها له وأجنبه ذل السؤال . » فقالت العجوز ووجهها يضحك فرحاً : « بارك الله فيك ، يا عمر ، ورفع أعلامك » .

عمر بن الخطاب (٦٣٤ - ٦٤٤)

بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبو بكر الصديق . وهو أول من سمي بأمير المؤمنين . اشتهر بالشجاعة والعدل وبساطة العيش . نظّم الدولة الاسلامية وكانت في بدء عهدها . إفتتح العرب في أيام خلافته بلاد فارس وبلاد الشام وفلسطين ومصر .

أنشأ مدينتي البصرة والكوفة في العراق ومدينة الفسطاط في مصر .

مات مقتولاً بطعنة خنجر في خاصرته .

الأمـــان

أسر جنود عمر الهرمزان وهو أحد عظماء الفرس وأتوا به إلى الخليفة فهمّ بقتله . فاستمهله الهرمزان بعض الوقت واستسقى

ماء فأتوه بقدح . فأمسكه وقد بدا الخوف عليه واضطربت يده . ثم التفت إلى الخليفة وقال : « أخاف أن تقتلني وأنا أشرب . »

فأجابه عمر : « لا بأس عليك حتى تشرب . » حينئذ رمى الهرمزان القدح من يده فانكسر . فأمر عمر من حضر قال : « خذوه واقتلوه . » فقال له الهرمزان : « يا أمير المؤمنين ، هل تخلف بوعدك وقد قلت : لا بأس عليك حتى تشرب . ترى أنني لم أشرب . » فعجب عمر من دهائه وقال : « قد أخذ أماناً ولم نشعر به . » وعفا عنه .

حالة الغضب

قيل : رأى عمر رجلاً سكران فانتهره وأمر مرافقيه أن يحملوه إلى دار الخلافة لينزل به الحد (القصاص) . فهزأ به السكران وشتمه . فقال عمر : « دعوه » فانذهلوا ولكنهم امتثلوا أمره . وسأله أحدهم : « يا أمير المؤمنين ، لـمّا شتمك تركته .

ـ تركته لأنه أغضبني فأنفت أن أؤدبه وأنا في حالة غضب فلا أتبين هل أثور للحق أم أثور لنفسي . » فسكتوا وعجبوا منه .

العين الساهرة

يحكى أن عمر دعا ليلة أحد المقربين إليه وقال له : « نمى إليّ أن قافلة قد نزلت بباب المدينة لتقضي ليلتها هناك . إني أخشى

إذا ناموا أن يسطو أحد على شيء من متاعهم . هلم معي لنقوم على حراستهم . والله إني أكره أن يقال أن أحداً سلبه اللصوص وهو في حمى عمر . » فمضيت معه ولما وصلنا أبى علي إلاّ أن أنام ويسهر هو فانصعت لأمره . فقضى ليلته ساهراً يحرس القافلة .

العدل والأمان

حكي أن القيصر ملك الروم أرسل رسولاً إلى عمر بن الخطاب . فوفد الرسول بموكب فخم . فلما دخل المدينة سأل أحدهم « أين ملككم ؟ » فأجاب : « ما لنا ملك يملك علينا بل لنا أمير يرعى شؤوننا ويسهر على راحتنا .

ـ أين يُقيم ؟

ـ قد خرج إلى ظاهر المدينة . » وقاده إلى عمر .

كان الرسول يحسب أن الخليفة يقيم في قصر فخم في ضواحي المدينة فإذا به يراه نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد توسد عباءته والعرق يسقط من جبينه إلى أن بلّ الأرض . فتعجب عندما رآه على تلك الحالة لا حراس يحرسونه ولا حجاب يحجبونه . فيصل إليه من يشاء ويجلس إليه من يريد . فقال الرسول في نفسه : « عدل الخليفة فأمّن فنام واستغنى عن الحراس والحجاب . »

السيف الضائع

يروى أن سيف عمر قد ضاع . فرآه الخليفة مع أحد أفراد الرعية . طالبه به فرفض الشخص المذكور وزعم أن السيف سيفه . فترافعا أمام المحكمة وجلسا كلاهما أمام القاضي .

سأل القاضي عمر عن قضيته فأجاب : « هذا السيف الذي ترى هو سيفي وقد فُقِدَ . لا أُثبت أن المدعى عليه سرقه . قد أكون ضيعته فوجده ولم يرده . » فاحتج المدَّعى عليه قال : « إني أنكر هذا الادعاء فالسيف يخصني وقد ورثته عن أبي . وهو أعز شيء عندي . »

فالتفت القاضي إلى عمر وسأله : « هل لك أن تقيم الحجة على ما تقدمت به ؟

ـ كلّا ، يا سيدي القاضي . ليس عندي بينة أُدلي بها فأُفحمه . » حينئذ قال القاضي : « بطل زعمك لأنه يفتقر إلى دليل (برهان) وحكمنا بالسيف للمدّعى عليه . » فأمَّن عمر على حكم القاضي وانسحب من المحكمة .

بينما هو في نصف الطريق إذ لحق به المدّعى عليه وارتمى عند قدميه يستغفره ويستميح عفوة : « لقد كذبت ، يا مولاي . فالسيف سيفك وقد سرقته . ناشدتك الله أن تتجاوز عن جرمي وتصفح عنّي . » فأنهضه عمر وقال له : « قد عفوت عنك . إحْذر أن تعاود » وتخلّى له عن السيف .

وشاية سارق

كان الخليفة هارون الرشيد بالكوفة (مدينة في العراق) يصرّف بعض شؤون الدولة عندما دخل عليه منارة وقال له : « في الباب رجل يطلب مقابلة أمير المؤمنين . لم يبح باسمه ولم يفصح عن غايته (لم يعبّـر عنها - لم يعلنها) .

- أدخله . »

مثل الرجل بين يدي الخليفة واختلى به فترة من الزمن . ما إن انصرف حتى دعا الرشيد منارة وقال له : « أردتك لأمر لا يقوم به سواك » .

- وما هو ، يا أمير المؤمنين ؟

- بلغني خبر رجل في دمشق من بقايا بني أمية عظيم المال كثير الجاه . له أولاد وحشم ومماليك (عبيد) يركبون الخيل ويحملون السلاح . فعظم علي أمره .

- وبم تأمر ، يا مولانا ؟

- أُخرج الساعة إلى دمشق قاصداً ذلك الرجل . قيّده وجئني به . خذ ما تحتاج إليه من الخيل والزاد والرجال . تصل سير الليل بسير النهار . أجّلتك لذهابك ستة أيام (أعطيتك مهلة) ولإيابك ستة أيام ويوماً لمقامك . وهذا كتاب تسلمه إليه .

- وإذا عصى ؟

ـ تتوكل به أنت ومن معك (تقوم بحراسته) لئلا يهرب . وتنفذ رسولاً إلى أمير دمشق يسلمه هذه الرسالة فيمدك بالرجال (ينصرك) لتلقي القبض عليه . وعندماتعود به تخبرني بما دار بينكما من حديث حرفاً بحرف . وتطلعني على جميع حركاته وسكناته وإيّاك أن يشذ عنك (يفوتك ـ تسهو عن) شيء ممّا يقوله أو يبدر منه .

سمعاً وطاعة ، يا مولاي .

ـ إنطلق على بركة الله . »

قبَّل منارة الأرض بين يدي الخليفة وودعه وانصرف . راح يجدّ في سيره لا يلوي على شيء إلى أن بلغ دمشق في صباح اليوم السابع . قصد من ساعته دار الرجل فأبصر الحرس على الباب الخارجي . دخل ولم يستأذن . فهاج هؤلاء وسألوا بعض أتباعه : « من الرجل ؟

ـ هو منارة ، رسول أمير المؤمنين إلى سيّدكم . » فسكن اضطرابهم .

لما صار منارة في صحن الدار رآها تعجّ بالخدم والحشم (تزدحم بهم) فقال في نفسه : « لم أشهد مثل ذلك إلاّ في قصر الخليفة . » فأوجس خيفة (أحسَّ بالخوف) وتوقَّع شراً . كيف يقدر أن يستقوي على هذا الرجل الجبّار ؟

دخل غرفة فسيحة وقد اجتمع فيها جماعة ظن أنَّ طلبته بينهم (الرجل الذي جاء بطلبه) . عندما رأوه قاموا ورحّبوا به . فسألهم : « هل فيكم فلان ؟

ـ كلّا . نحن أولاده وهو في الحمّام .

ـ إستعجلوه . » ففعلوا .

طال به المقام ولم يأت الرجل فرابه الأمر وتملَّكه القلق . قد يتوارى من باب خلفي فيخفق في مهمته . وفيما تجول في خاطره هذه الأفكار وتساوره الهواجس إذ رأى شيخاً تلوح عليه إمارات النُّبل يمشي بوقار وقد خفَّ الحاضرون (قاموا من ساعتهم) وأحاطوا به . أما هو فتقدّم من منارة وسلّم عليه ثم جلس . فأتوه بأطباق فاكهة . التفت وقال : « تقدَّم ، يا منارة ، وكل معنا .

ـ ما لي إلى ذلك من سبيل . »

فلم يلح عليه . أكل هو ومن معه ثم غسل يديه ودعا بالطعام . مدَّت أمامه مائدة فاخرة عليها من ألوان الطعام ألذّها وأشهاها . إلتفت وقال : « يا منارة ، ساعدنا على الأكل . » فامتنع . لم يعاوده .

كان الأموي يبدو هادئاً مطمئناً . أمّا منارة فكان على أحرَّ من الجمر وقد حيّره هذا الرجل وغاظه منه تصرُّفه . فيتساءل :

« هل يستخف بي ؟ يخاطبني كما يخاطبني الخليفة . يدعوني إلى الطعام ولا يكرر الدعوة . يبدو كأنه لا يأبه لي (يكترث لي ـ يعبأ بي) ، لا بل يتجاهلني . »

فيداخله الخوف . أنّى له أن ينفذ أمر الخليفة إذا امتنع الرجل من الشخوص معه ؟ لن يقدر أن يتوكّل بحفظه ريثما ينجده أمير دمشق . والله لو كان معه جيش كامل العدة لتعذر عليه أن يتغلب على الدمشقيّ .

وكان يخيّل إليه أنه يتباطأ في الأكل ليتسنى لذويه أن يدبروا له مكيدة فيوقعوا به . ولكن ما العمل ؟ لا بدّ من الانتظار .

ما رأيك ، أيها القارىء العزيز ، هل يدبّر الدمشقي مكيدة لمنارة ؟

لما فرغ صاحبنا من الأكل غسل يديه وقام فصلّى الظهر . ثم أقبل على رسول الخليفة قال : « ما أقدمك علينا ، يا منارة ؟ » .

أخرج منارة كتاب أمير المؤمنين ودفعه إليه ففضّه وقرأه . ولما أتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فسارعوا إليه والتفوا حوله . فأيقن رسول الخليفة أنه هالك لا محالة ، ولم يستطع أن يخفي قلقه . التفت إليه الرجل وقد لاحظ اضطرابه قال : « لا تجزع ، يا منارة ، نحن من خدام أمير المؤمنين ومن أخلص الناس له . » فاستحيا منارة ولم ينبس ببنت شفة .

نظر الدمشقي إلى ذويه قال : « هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالشخوص إليه مكبَّلاً . أنصاع لأمره فوراً . أوصيكم بالهدوء والسكينة . ولست بحاجة أن يصحبني أحد . » ثم التفت إلى منارة وقال : « هات قيودك ، يا منارة » . ومدَّ رجليه . فقيده وأمر من معه أن يحملوه .

جمد الحاضرون وقد اعترتهم الدهشة وخيَّم عليهم السكوت وبدت على وجوههم إمارات السُّخط والحنق . لكنهم تمالكوا وأذعنوا لأمر سيِّدهم (خضعوا له ـ رضخوا له) . فلم يفه أحد بكلمة ولم يأت شخص بحركة .

حمل الغلمان الأمويّ وجعلوه في شقة من المحمل وقعد منارة في الشقة الأخرى وقد تنفس الصعداء وانفرجت أسارير وجهه . لقد ظفر ببغيته .

أما الدمشقي فكان مرتاح البال أخذ يذكر لمنارة ما يملكه من بساتين وجنائن وما فيها من أشجار مثمرة وما تغلّ له كل سنة . ويحدثه عن المزارع التي تخصه وعما تدرُّ عليه من خيرات (تفيض عليه من غلات) . إلى أن قال :

« هل تعرف ، يا منارة ، أنّ العمال الذين يعملون في مزارعي يربو عددهم على الخمسة الآلاف عـامل (يـزيد على . .) وجميعهم يبغون رضاي ويأتمرون بأمري ؟ » .

أسخط منارة هذا الكلام ونسب إلى صاحبه الخفّة وسخافة العقل فأجابه بحدّة :

« ما أصفى بالك ، يا رجل ! ألا تعلم أنّ ما تذكره لي هو الذي أقلق أمير المؤمنين فأرسلني إليك على جناح السرعة لأخرجك من أهلك فريداً مغلولاً (وحيد ـ مقيَّد) ؟

« وقد أمرني أن أحفظ ما تقوله فأردده على مسامعه كلمة كلمة لا أخرم حرفاً (لا يفوتني منه حرف) فيعود حديثك وبالاً عليك . وقد يأمر الخليفة بسجنك أو بقطع رأسك ، من يدري ؟ وأنت بدلاً من أن تفكر في ما يؤول إليه أمرك (في ما يكون مصيرك) تبدو خالي الهم ، منشرح الصدر . هل تعتقد ، يا هذا ، أن أمير المؤمنين يدعوك إلى وليمة يولمها على شرفك ؟ تبصَّر في ما جرى لك من أحداث ، ذلك أصلح لك . »

سكت منارة وهو يظن أنه أخجل الرجل وأفحمه .

أجابه الدمشقي بهدوء : « حسبتك ، يا منارة ، رجلاً راجح العقل ، كامل الفهم ، ثاقب الرأي . وحسبت أن هذه الصفات وأمثالها أهّلتك لتكون من المقربين إلى الخليفة . لقد خاب ظني فيك . تراني خالي الهم فارغ القلب ، ولِـمَ لا يكون الأمر كذلك ؟ » .

ثم رجع (قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون) وتابع حديثه : « لقد سلّمت أمري إلى الله الذي خلقني ورزقني وأحياني . وكما قبلت منه الحياة أقبل من يده الموت .

« ثم اعْلَمْ ، يا منارة ، أنّي واثق بعدل أمير المؤمنين . أي جرم اقترفت (جريمة ارتكبت) فيعاقبني عليه ، وأي ذنب ارتكبت فيؤاخذني به (يحاسبني عليه) ؟

« أما وقد عرفت مبلغ فهمك (مقداره) فلن أكلمك بعد الآن كلمة واحدة حتى يفصل بيننا الخليفة . » قال هذا واعتصم بالصمت .

أمّا منارة فكان يقول كلما روى هذه القصة : « لقد عظم هذا الرجل في عيني حتى أصبحت كلا شيء . وددت والله لو انشقت الأرض وابتلعتني لما اعتراني من الخجل . »

في الوقت المعين أي في اليوم الثالث عشر شارف الموكب الكوفة ودخلها عند العصر .

وكل منارة حراسة الأموي إلى رجال ثقة وتوجه توّاً إلى قصر الخليفة . دخل عليه وقبّل الأرض بين يديه . بادره الرشيد بقوله :

« هات ما عندك ، يا منارة . قصّ علي الخبر بحذافيره (بتفاصيله) . إيَّاك أن تغفل عن كلمة من كلماته أو تفوتك حركة من حركاته . »

روى له القصة من أولها إلى آخرها وهو يحرص كل الحرص على أن يكون غاية في الأمانة . فذكر له ما ساوره من القلق

والخوف بادىء بدء عندما رأى نفسه وجماعة الدمشقي تحيط به ولا طاقة له بمقاومتهم . وتضاعف خوفه وقلقه عندما توهّم أن الأموي يتباطأ ليبسر لجماعته الايقاع به .

كان الرشيد يصغي إليه باهتمام بالغ . فبدا عليه الانفعال والغضب . لكنّه ما لبث أن انفرجت أسارير وجهه عندما انتهى منارة إلى ذكر ما فعله الدمشقي بعد أن تلا كتاب أمير المؤمنين .

ولم يتمالك الخليفة من الضحك لما نقل إليه حديثهما في المحمل وقال : « لقد أخجلك هذا الرجل . » فعلا الاحمرار وجه منارة . فطمأنه الرشيد وقال : « لا عليك ، يا منارة . ما هذا الأموي إلّا محسودٌ على النعمة . لقد أزعجناه وروعنا أهله . إنزع قيوده وأحضره الساعة . » .

فكّ منارة قيود الرجل وأدخله على الخليفة . سلّم الدمشقي فرد عليه الرشيد رداً جميلاً وهش له (إبتسم له) وأمره بالجلوس . وأقبل عليه يسأله عن حاله وعياله إلى أن قال :

« ما بلغنا عنك حبَّب إلينا أن نراك ونسمع كلامك ونقضي حاجتك فاذكرها . »

فأجاب الدمشقي بتأدُّب : « ليس لي عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة .

ـ مقضية . فما هي ؟

ـ أن تردّني إلى ولدي وأهلي ليسكنوا إلى سلامتي . تركتهم وهم لا يدرون ما يؤول إليه أمري .

ـ نفعل ذلك . أُذكر حاجتك .

ـ أرجو من كرم أمير المؤمنين أن يجمعني بالذي سعى به إليه .

ـ وهذه رغبة نحققها . يا منارة ، أحضر الرجل . »

دخل الرجل وهو يرعد ما وقع بصر الأموي عليه حتى قال :

« يا مولاي ، هذا أحد غلماني . إختلس ثلاثة آلاف دينار ولاذ بالفرار . »

غضب الخليفة غضباً شديداً لـمّا سمع هذا المقال وهدَّد الغلام بالضرب والتعذيب . خرَّ هذا إلى الأرض وهو يرتعش من الخوف وقال متلعثماً :

« لقد صدق ، يا مولاي . أنا أحد غلمانه . سلبت المال الذي ذكره ووشيت به ليقتل فأسلم من الوقوع في يده . »

حينئذ قال الدمشقي وقد رق له قلبه : « صفحت عنه ، يا أمير المؤمنين ، وأبرأت ذمته من المال . وأمرت له بمثله . »

قال الخليفة وقد أكبر نبل أخلاقه ورحابة صدره : « ما على ما فعلت من الكرم مزيد . أذكر حاجتك .

ـ يكفيني عطفك ورضاك ، يا مولاي . »

دعا الرشيد منارة وقال : « إحمل الرجل من وقتك وسر به راجعاً إلى أهله . حتى إذا انتهيت إلى ذويه ودّعته وقفلت راجعاً . »

وصل الرجل إلى داره فاستقبله ولده وحاشيته فرحين . وكلما جرى ذكر الأموي كان الخليفة يردد :

« ما رأيت قط مثل هذا الرجل . »

الرشيد والمحكوم عليه بالموت

غضب الرشيد على أحد رعاياه فحكم عليه بالموت ودعا السيّاف لينفذ الحكم . فبكى المحكوم عليه بالموت . فقال له الخليفة : « ما يبكيك ؟

ـ والله ، يا أمير المؤمنين ، ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه . وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط عليّ . »

قيل : فضحك الرشيد وعفا عنه .

الرشيد وجعفر والشيخ البدويّ

ممّا يحكى أن الرشيد خرج يوماً من الأيام هو وجعفر البرمكي وسارا في الصحراء . فرأيا شيخاً متكئاً على حماره فسأله جعفر :

من أين جئت ؟

ـ من البصرة

ـ وإلى أين سيرُك ؟

ـ إلى بغداد .

ـ وما تصنع فيها ؟

ـ ألتمس دواء لعيني .

فقال الرشيد لجعفر : مازحْهُ .

ـ إذا مازحته أسمع منه ما أكره .

ـ بحقي عليك ، يا جعفر ، أن تمازحه .

فقال جعفر للشيخ : « إن وصفت لك دواء ينفعك فما الذي تكافئني به ؟

ـ الله تعالى يكافئك عني بما هو خير لك من مكافأتي .

ـ إنصت إلي حتى أصف لك دواء شافياً .

ـ وما هو ؟

ـ خذ لك ثلاث أواق من هبوب الريح وثلاث أواق من شعاع الشمس وضعها في هاون بلا قعر ودقها من الصباح حتى المساء .

ثم استعمل هذا الدواء كلّ يوم عند النوم واستمر على ذلك خمسة أيام . فإنّك تعافي بإذن الله . »

فلما سمع الشيخ كلام جعفر قال له : « وهو كذلك . لا عافاك الله يا صفيق الوجه (وقح) . خذ مني هذه اللطمة مكافأة على وصفك هذا الدواء وبادره بضربة على أمّ رأسه . فضحك الرشيد حتى استلقى وأمر لذلك الرجل بثلاثة آلاف درهم .

الرشيد والذكّي

يحكى أن رجلاً استأذن هارون الرشيد فقال : « إني أصنع ما تعجز عنه الخلائق . » فقال الرشيد : « هات » .

أخرج الرجل أنبوبة فصب منها إبراً عدة . ثم وضع واحدة في الأرض وقام على قدميه . وجعل يرمي إبرة إبرة من قامته فتقع كل إبرة في عين الإبرة الموضوعة حتى فرغ من جميعها . فأمر الرشيد بضربه مائة سوط وأمر له بمائة دينار . فسأله الحاضرون : « يا أمير المؤمنين ، جمعت بين الكرامة والهوان (أكرمته وأذللته) .

ـ وصلته لجودة ذكائه (أعطيته) وأدّبته لكي لا يصرف فرط ذكائه في الفضول .

الرشيد وطبيبه

يروى أن الرشيد قال لطبيبه جبريل بن بختيشوع وهو حاج في مكة : « يا جبريل ، علمت منزلتك عندي .

ـ يا سيدي ، وكيف لا أعلم ؟

ـ دعوت لك والله دعاء كثيراً . » ثم التفت إلى من حوله وقال : « عسى أنكرتم قولي له » فأجابوه : يا سيدنا ، إنه ذمّي (نصراني) .

ـ نعم . ولكن صلاح بدني به وصلاح المسلمين بي . فصلاحهم بصلاحه وبقائه .

ـ صدقت ، يا أمير المؤمنين .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ - أبو بكر الصديق
٢ - عمر بن الخطاب
٣ - عثمان بن عفان
٤ - علي بن أبي طالب
٥ - رمضانيات (١)
٦ - القدس في البال
٧ - الجيش في الإسلام
٨ - أعياد وتواريخ إسلامية
٩ - أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ - أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ - أدعية وابتهالات
١٢ - كلمات ومواقف خالدة
١٣ - تأملات في الإسلام
١٤ - رمضانيات (٢)
١٥ - معارك إسلامية (١)
١٦ - معارك إسلامية (٢)
١٧ - أحاديث رمضانية
١٨ - قصص إسلامية (١)
١٩ - قصص إسلامية (٢)
٢٠ - الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ - الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ - من قاموس الصائم
٢٥ - من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ - من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ - من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ - ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ - ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ - ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

قصص إسلامية

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

قِصَص إسْلاَمية

٢

دار الفكر اللبناني

بسم الله الرحمن الرحيم

« لا تَجِدُ قَوْماً يؤْمِنُونَ بالِلهِ وَالْيَومِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قلُوبِهِمُ الإيمَانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ الِلهِ أَلَا إنَّ حِزْبَ الِلهِ هُمُ المفْلِحُونَ * »

صدق الله العظيم

المعتصم والحطّاب

قرّر المعتصم - وهو ثامنُ الخلفاء العباسيين - أن يقوم برحلة صيد .

كانت رحلات الصيد عند الملوك والأمراء من المواسم المشهودة . يعدون لها العدة ويدعون إليها أعيان الحاشية ووجوه البلاد . وكانت لياليهم وأسمارهم تعمر بالحديث عن تلك الرحلات وما رافقها من أحداث مثيرة ومفاجآت غريبة .

في غداة يوم من الأيام خرج المعتصم مع أصحاب له وبعض الجنود في طلب الصيد في الشمال الغربي من مدينة « سُرَّ من رأى » وهي المدينة التي أنشأها المعتصم .

وتحرك الموكب . كان صهيل الخيل يختلط مع حداء الفرسان وبعض الأصوات التي ترتفع منبهة إلى وحش يهرب أو غزال شارد حيث تنصبّ عليه السهام كالمطر فيروح يخبط في الأرض يخضّبه دمه ، وتجرّه الكلاب وقد شعرت بفرح الفوز .

ويتابع الرَّكْب سيره باحثاً عن الطرائد . ولا يلبث الصيادون أن يتفرّقوا كلٌّ في أمر طريدة يحاول الظفر بها .

أما الخليفة فقد لاح له من بعيد غزال هارب فطارده على متن حصانه وجدّ في أثره .

إستحث جواده فانطلق يسابق الريح لا يكل ولا ينثني حتى لحق بالغزال الذي نهكه التعب فسقط أرضاً . فترجّل المعتصم وأسرع إليه يربطه من قائمتيه الأماميتين بغية حمله معه وإضافته إلى ما في حدائق القصر من حيوانات غريبة تُضفي الجمال على الحدائق والقصر لغرابتها وتنوُّعها وأطوارها .

بينما هو في طريق العودة إذ لمح مشهداً شده إليه شدّاً ، فانعطف صوبه فإذا شيخٌ حطابٌ جعدت الأيام جبينه وبانت عروق يديه ، ذو لحية بيضاء تتدلّى على صدره . كان التعب قد نهكه والعرق تصبّب منه وهو يحاول أن ينهض حماراً زلق في أرض موحلة وعلى ظهره حِمْل من الحطب .

آلم الخليفة مشهد هذا الحطّاب الطاعن في السنّ يجهد نفسه لينتشل حماره من الأوحال ولا يفلح . فأشفق عليه وخفّ إلى مساعدته يربط صدر الحمار بحبل أخذه عن جواده ثم شد بالحبل فرفع الحمار من الوحل وأخرجه .

فقال له الخليفة : « رافقتك السلامة ، يا عم ، آمل ألّا تتعرض مرة أخرى إلى مثل هذا العذاب . »

قال الشيخ : « لا أعرف كيف أشكر لك صنيعك ، أيها الشاب اللطيف . رضي الله عنك وأمد بعمرك وأقرّ عيني والديك بك . هلا بحت لي باسمك فأذكرك في دعائي صباح مساء وأدعو لك بالتوفيق . » وأردف قائلاً : « أرى علامات النُّبل على محياك (وجهك) . والله ما عهدت مثل هذا العطف والمروءة في أمثالك . »

ابتسم المعتصم وقال : « هذا أقلُّ ما يجب علي من كان بمنزلتي ، يا عـمّاه . أمّا اسمي فلا حاجة لك بمعرفته . المهم أنك استرحت الآن فاذهب بهذا الحطب إلى بيتك . وأسألك أن تقول لي اسمك وأين تقطن علّني أستطيع مساعدتك في المستقبل . » .

وفيما الشيخ يهمّ بالذهاب بعد أن أجاب الشاب إلى طلبه إذا به يرى جنوداً مقبلة . وما دنوا من الشاب حتى ترجلوا وسلموا بسلام الخلافة . فأوشك العجوز أن ينهار وصار يرتعد خوفاً محاولاً أن يعتذر ولكنه عبثاً يحاول فالكلمات تخونه .
لاحظ المعتصم اضـطرابـه فـلاطفـه وهـدّأ من روعـه وقال : «لا بأس
عليك ، أيها الشيخ ، هدِّىء من اضطرابك . المهم أننا قدرنا على مساعدتك . » وأردف قائلاً : « أصدقني الخبر . ماذا يقول الناس عن حكم المعتصم » ؟

ـ يرى الناس فيك ، يا مولاي ، الحاكم العادل الذي لا يؤخذ بقوة القوي ولا يحتقر ضعف الضعيف . الناس يكبرون فيك المروءة والشجاعة ويدعون لك : أمدَّ الله بعمر مولانا الخليفة ونصره على أعدائه » .

سَرَّ الخليفة مقال الحطّاب وطاب له أن يتابع الحديث مع هذا الشيخ الوقور فسأله : « ما الذي حملك على مغادرة بيتك في مثل هذا اليوم ، أليس عندك في العائلة من يكفيك مؤونة هذا العمل المضني وقد تقدمت في السن وحق لك أن تتقاعد عن العمل ؟

ـ بَلَى ، يا سيدي . لي ولد شاب ـ بارك الله فيه ـ إنّه يحدب علي ويجنبني كل تعب وعناء . إنّما أصابه مرض منذ أيام ألزمه الفراش . فجئت أنا أحتطب لأبعث الدفء في البيت علّ هذا يساعد ولدي ويخفف عنه بعضاً مما يقاسيه في مرضه .

ـ وهل استدعيت طبيباً يداوي ولدك ؟

ـ كلا ، يا مولاي ، لا سبيل إلى ذلك .

ـ لا تجزع سننظر في أمرك وأمر ولدك . »

حينئذ أمر المعتصم للحطاب بمبلغ من المال يخفف عنه وطأة الفاقة ويضفي على البيت مسحة من السعادة والفرح . ثم أشار إلى واحد من رجاله قائلاً : « أسرع إلى القصر وادع أحد أطبائي

لمعالجة الشاب المريض . » وأوعز إلى بعض رجاله أن يرافقوا الشيخ ويوصلوه إلى بيته .

ما إن وصلوا إلى البيت حتى عاد رجال الخليفة أدراجهم ودخل الشيخ فشاهد ولده يتلوّى على فراش الألم ونظر إلى أمرأته فرآها شاخصة إلى المريض وهي تذرف الدموع . فاقترب منها وهمس في أذنها كلمات انفرجت لها أساريرها وبرق في عينيها بارق أمل . وما هي إلاّ لحظات حتى وافاهم طبيب الخليفة ففحص الشاب ووصف له الدواء وطمأنهم إلى سلامة إبنهم وانْصرف . وقصّ الشيخ على امْرأته وأولاده ما حدث له في نهاره فشكروا الله على نعمته ودعوا للخليفة بدوام العزّ والسلطان .

المعتصم ٨٣٣ ـ ٨٤٢

المعتصم هو ثامن الخلفاء العباسيين ، إبن الخليفة هارون الرشيد وأخو الخليفة المأمون تولى الخلافة بعد موت أخيه . وقد أسند ـ تحت تأثير أمه التركية ـ المناصب الهامة في الادارة والجيش إلى الأتراك . فأصبحوا مع الوقت أصحاب النفوذ في الدولة وأصحاب الحل والربط .

قام بعدة حروب ضد الروم (.الامبراطورية الرومانية

الشرقية) وأشهرها حصار عمورية وهي حصن حصين في الأناضول (تركية) فدخلها وأعمل السيف في سكانها (٨٣٨) . وسار إلى القسطنطينية عاصمة الروم يريد افتتاحها . لكن ثورة نشبت في بلاده أجبرته على العودة دون أن يحقق مقصده .

« سُرَّ من رأى »

بنى المعتصم مدينة « سُرَّ من رأى » . وجعلها عاصمة لحكمه . ويتناقل الناس حادثة طريفة جرت له في تلك المدينة . كان مرَّة في ديوانه وفي يديه جوهرتان وهّاجتان (تتّقدان كأنهما جمرتان) قدمتا له وكان معجباً بهما أشدَّ الإعجاب .

وما إن دخل عليه شاعره حتى بادره المعتصم بالجوهرة في اليد اليمنى . فطمع الشاعر بأختها فاعتدل في جلسته وأنشد على الفور :

بِسُرَّ مرّا لنا إمامٌ
تَغْرِفُ مِنْ جُودِهِ البِحارُ
لَمْ تَأْتِ يُمْناهُ شيئاً
إلّا أتتْ مِثْلها اليَسارُ

فضحك الخليفة وقد أعجبته النُّكتة فرمى الشاعر بالجوهرة في اليد اليسرى وقال : « قاتلك الله ما أطمعك » .

الخارجيّ والمعتصم

أُلقي القبض على رجل من الخوارج (خرج على الخليفة فعصاه فهو خارجيّ) فأُتي به المعتصم وهو في مجلسه ، فحكم عليه بالموت ودعا بالسيّاف ليقطع رأسه . أما الخارجيّ فبقي رابط الجأش لم تظهر عليه علامات الجزع والخوف . فأُعجب به الخليفة وقال : « أما تهاب الموت ؟ إذا كان لك حجة تدفع بها الموت عنك فأدل بها (أُذكرها) .

ـ وماذا أقول ، يا أمير المؤمنين ؟ عظمت جريرتي (جرمي ـ ذنبي) وانقطعت حجتي ولا أمل لي إلاّ برحابة صدرك وعفوك . فالموت أمر محتوم .

ولكنَّ خَلْفي صِبْيَةً قد تركتُهم
وأكبادُهم من حَسْرةٍ تَتَفَتَّتُ

قيل : بكى المعتصم وقال له : « وهبتك لصبيتك وأمرت لك بصلة . إياك أن تعاود فتخالف الحكام في شؤونهم . » فشكره وانصرف .

المعتصم وطبيبه

إختار المعتصم لنفسه سلمويه الطبيب ـ وكان نصرانياً ـ وأكرمه إكراماً يفوق الوصف وكان يسميه أبي . وكان يقول :

« سلمويه طبيبي أكبر عندي من قاضي القضاة لأن هذا يحكم في مالي وذاك يحكم في حياتي . وحياتي أشرف من مالي وملكي » .
ولما اعتل سلمويه واشتدت عليه العلة عاده الخليفة وبكى عنده .
وعندما بلغه خبر وفاته امتنع من الأكل يومه كله وأمر بأن تقام جنازته في دار الخلافة ويصلّى عليه بالشمع والبخور على زيّ النصارى وشهد هو جنازته . داخله لموته حزن عميق وقال : « لن أعيش بعده طويلاً » . ولم يعش بعده تمام السنة .

كرم المعتصم

وهذه أبيات امتدح بها أبو تمام الخليفة المعتصم :

تَعَــوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتّى لَــوَ أنَّــهُ
أرادَ انْقِبــاضــاً لَمْ تُــطِعْــهُ أنــامِلُهْ
هُــوَ البَحْــرُ مِنْ أيِّ النَّــواحي أتَيتَــهُ
فلُجَّتُــهُ المَعْــروفُ والجُــودُ ســاحِلُهْ
وَلَــو لَمْ يَكُنْ في كفِّهِ غيــرُ رُوحِــهِ
لَــجَــادَ بهــا فَــلْيَــتَّــقِ اللهَ ســـائِــلُهْ

رائحة الثوم

في يوم من الأيام وفد على الخليفة المعتصم أعرابي يقول

الشعـر . إستأذن الأعـرابي في الدخـول فحجبه الحـاجب (منعه) . ولما لم يكن يعرف أحداً من الحاشية يسهل له السبيل وقف في الباب ينتظر ولكن دون جدوى . لبث بمكانه حتى المساء ولم يلتفت إليه أحد . عاد في اليوم الثاني فمنعه الحاجب من الدخول وعاد في الأيام التالية فأصابه ما أصابه في اليومين السابقين . فقال في نفسه « والله لن أعود إلى الصحراء قبل أن أصل إلى الخليفة . سآتي بابه كل يوم حتى يمل الحاجب فيسمح لي بالدخول . »

وأخيراً لطف به الحظ وانتهى أمره إلى المعتصم فقال لخادمه : « أحضر الأعرابيّ . » فجاءه الخادم وقال : « إنّ أمير المؤمنين يدعوك . » فقام من ساعته ودخل فحيّا الخليفة ثم قال : « قلت أبياتاً في أمير المؤمنين إذا أذن لي في إنشادها .

ـ هات ما عندك . »

فأنشد أبياتاً استحسنها الخليفة وأجازه عليها .

وتتابعت الأيام وكان الأعرابـيّ لا يفارق باب المعتصم . وكان يتاح له أن يدخل إليه الفينة بعد الفينة فينشده شعراً ويروي له أيام العرب فيصغي إليه بانبساط ويغدق عليه الهبات وقد أعجب بفصاحة لسانه وسعة إطّلاعه . وأخيراً قربه وأدناه وجعله نديمه حتى أصبح أول داخل على أمير المؤمنين وآخر خارج من دار الخلافة . وكان الخليفة يستشيره في شتّى شؤون الدولة

فيستصوب رأيه ويعمل به . وكلّما ازداد به خبرة ازداد به تعلقاً وقد رأى فيه رجلاً ثاقب الرأي ، عالي الهمة ، خالي الغرض .

وتوالت الأيام وتوثقت الصلات بين الخليفة والأعرابي فقلق الوزير لهذه الحالة . رأى أن الخليفة ينصرف عنه ويقبل على الأعرابي فيرفع مقامه يوماً بعد يوم ويحط من منزلته من يوم إلى يوم . فغار منه وتنكر له وحاول أن يوقعه في ورطة أو يأخذه بزلة فلم يفلح . وكان كلما مثل بحضرة الخليفة يغمز على الأعرابي فيتجاهل الخليفة كلامه ولا يقيم له وزناً .

وأخيراً فتقت له وسيلة شيطانية ارتاح لها : « والله سأكيد له مكيدة تودي بحياته » فانبسطت أساريره وانكشف غمه ونام ملء أجفانه .

نهض في الصباح جذلاً نشيطاً وأمّ دار الخلافة .

وعندما التقى الأعرابي هشّ له ولاطفه وتودد إليه ودعاه إلى طعام الغداء في اليوم التالي فقبل دعوته عن طيب نفس وهو يفكر : « ماذا طرأ على الوزير حتى بدّل موقفه مني ؟ » في الوقت المعين أقبل الأعرابي فخفّ الوزير إلى استقباله وأدخله داره وأكرمه واحتفى به . وكان أعدّ له وليمة فاخرة حوت ما لذ وطاب من ألوان الأطعمة وقد أكثر فيها من الثوم ، والثوم من التوابل يطيب الطعام ، فأكلا بشهية . وبعد أن فرغا جلسا يتجاذبان أطراف الحديث .

عندما أزفت الساعة الثالثة استأذن الأعرابي وهمّ بالذهاب فشيعه الوزير حتى مدخل الدار . وقال له وهو يودعه : « لي إليك نصيحة : إذا أتيت دار الخلافة إحذر أن تقرب من أمير المؤمنين فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك ويتنكر لك فإنه يكره رائحة الثوم أشد الكره ويتقزز منها . » فشكر له نصيحته وانصرف إلى بيته .

فما كان من الوزير إلاّ أن أسرع إلى الخليفة قبل أن يفد الأعرابي وقد عبس وجهه وقطب حاجبيه وبدا عليه القلق والاضطراب . فما إن دخل حتى لاحظ الخليفة اضطرابه فأنكر ذلك وصاح به : « ويحك ، أي خبر شؤم تحمل إليّ ؟

- والله ، يا أمير المؤمنين ، هو خبر شؤم ، أخلني (أريد أن أكلمك على انفراد) .

- قل ، ليس علينا رقيب . »

تردد الوزير قليلاً ثم قال : « أخباري لا تسرك ، يا مولاي . أسألك أن تعفيني من الكلام .

- لا أمّ لك ، ماذا تقول ؟

- أخاف إن أفضيت إليك بما قاله الأعرابيّ أن يشق عليك مقاله ويكدر صفو عيشك .

- أعزم عليك أن تصدقني الخبر .

قصّ عليه الوزير خبر الدعوة التي وجهها إلى الأعرابي والوليمة التي أولمها له وما دار بينهما من حديث . ثم انتهى إلى القول : « قبل أن ينصرف همس في أذني : لا أخفي عليك أنّ أمير المؤمنين أبخر كريه رائحة الفم وهلكت من رائحة فمه . والله لقد تبرمت بمجالسته وتاقت نفسي إلى هجره .

ـ أوَ قالها ! والله لأَنْقعنّه في دمه إذا صحّ كلامك . »

انصرف الوزير من عنده ولسان حاله يقول : « أتت ساعتك أيها الأعرابـيّ اللعين . » .

ظلَّ الخليفة يترقب مقدم الأعرابي وهو على أحر من الجمر وعند الساعة الخامسة أطل الأعرابي على عادته ودخل على الخليفة فهشّ له وقرّبه وأعلى مجلسه . لكن الأعرابي تنحى وجعل كمه على فمه ومخافة أن يشم الخليفة رائحة الثوم . فلما رأى المعتصم ذلك منه كاد يتميز غيظاً لكنه كتم غضبه . وعندما حان وقت الانصراف ودع الأعرابي الخليفة وعاد إلى منزله كالمعتاد خالي البال مطمئناً .

ما خرج الأعرابي حتى استدعى المعتصم كاتبه وأمره بكتابة كتاب إلى أحد عماله في المقاطعات وحرّر الكتاب وضمنه ما أوعز به إليه الخليفة . وعندما سلمه إياه قرأه المعتصم وعلامات الرضى بادية عليه ثم ختمه بخاتمه .

في اليوم التالي أقبل الأعرابي كالمعتاد ودخل على الخليفة . فخلا به فترة قصيرة سلمه فيها الكتاب وأمره بحمله إلى صاحبه . قبّل الأرض بين يدي المعتصم وخرج من عنده باسم الثغر هادىء البال وتوجه إلى بيته ليتهيأ للسفر .

في هذه الأثناء وصل الوزير فلقي الأعرابي خارجاً من القصر فحياه وسأله : « إلى أين ، يا صاحبي ؟ أراك تغادر القصر في ساعة مبكرة .

ـ وَكَلَ إلي الخليفة مهمة ولا بد من إنجازها .

ـ وما هذه المهمة ؟

ـ أمرني بحمل رسالة إلى عامله فلان وتراني أتوجه لأوصلها إليه . »

اضطرب الوزير لدى سماعه هذا الكلام وأيقن أن مسعاه قد باء بالخيبة لكنه تجلد وقال : « أنا على وشك السفر إلى البلد الذي تقصده وسوف أعجل سفري فأوفر عليك التعب والمشقة . هات الرسالة لأحملها إلى صاحبها .

ـ لك ما تريد . أنت صاحب الأمر .

ـ لا ترجع إلى القصر قبل عودتي . » ثم تسلم منه الرسالة وأمر له بمبلغ من المال .

قفل الأعرابي راجعاً إلى منزله وحمل الوزير الرسالة ومضى .

بعد سفر دام يوماً واحداً بلغ الوزير البلد الذي يقصده وتوجه لتوه إلى دار عامل الخليفة . ما إن علم هذا بقدومه حتى هبّ لاستقباله وأدخله القصر وبالغ في إكرامه والحفاوة به . وعندما استقرّ بهما المقام قال الحاكم للوزير : « شرّفتنا ، يا سيدي الوزير ، خير مقدمك ، إن شاء الله .

ـ خير بإذن الله . هذه رسالة بعث بها إليك أمير المؤمنين وأوعز إلي بأن أسلمك إياها يداً بيد . وها أنا أقوم بالمهمة الموكولة إليّ . » وسلّمه الرسالة .

تناول العامل الرسالة وقبّلها ثم فض ختمها وقرأها . راعه مضمونها ولكنه ضبط نفسه وأعاد قراءتها مرتين وثلاثاً وهو لا يكاد يصدق ما ورد فيها . كتاب وجيز العبارة ، واضح الفحوى يتضمن أمراً نافذاً على الفور . فنادى « يا غلام » . فأقبل الغلمان يتسارعون . فأومأ إلى رئيسهم وأسرّ إليه بكلمات لم يسمعها أحد سواه . ثم التفت إلى الوزير وقال : « سننفذ أمر أمير المؤمنين بحذافيره . هوذا رئيس الغلمان يرافقك إلى جناح الضيافة ويقوم بخدمتك ويسهر على راحتك ريثما نهيء الجواب عن رسالة الخليفة . »

أعاد الحاكم قراءة الرسالة وقد جاء فيها : « تقطع رأس حامل هذا الكتاب دون إبطاء أو مراجعة . » فتساءل : « ما

الذي أغضب المعتصم على وزيره فحكم عليه بالموت حكماً مبرماً ؟ في يده الأمر والنهي وحكمه نافذ لا مرد له . وإلى من تستأنف حكماً أصدره أمير المؤمنين ؟ . . . »

دخل إليه رئيس الشرطة وقطع عليه مجرى أفكاره وقال: « نفذ الأمر ، يا مولاي . . » .

أما الأعرابي فقد امتثل أمر الوزير وقبع في منزله يترقب عودته . يجد نفسه في ورطة . لا يجرؤ أن يمثل بحضرة الخليفة فيسأله عن مصير الرسالة فيتعذر عليه الجواب ولا يمكنه أن يصارحه بالحقيقة فيغضب عليه وعلى الوزير . فما بقي إلاّ الانتظار . وطال غياب الوزير .

أمّا الخليفة فانشغل باله لا على الأعرابي وهو يحسبه في عالم الأموات بل على الوزير الذي لم يأت القصر منذ ثلاثة أيام بينما كان يؤمّه مرتين في النهار . استعلم عنه فقيل له : « سافر في مهمة » .

ـ سافر في مهمة ! ومن وكلها إليه وكيف يسافر من غير إذني ؟ كنت كلّفت الأعرابي بأمر . . .

ـ إن الأعرابي مقيم في بيته .

ـ أحضروه على جناح السرعة .

دخل الأعرابي على الخليفة وقبّل الأرض بين يديه ووقف ينتظر

وهو يرتجف من الخوف . صعد الخليفة فيه بصره وقد بدت عليه الدهشة وقال : هذا أنت ؟

ـ نعم ، يا مولاي ، أنا عبدك وخادمك .

ـ وهل أبلغت الرسالة صاحبها ؟

فتردد وتلعثم . فقال له المعتصم : « أصدقني الخبر وأنت آمن » فأفرخ روعُه وقص عليه قصة الرسالة وأضاف : « استميح عفوك ، يا مولانا . أمرني الوزير بأن أسلمه الرسالة فلم أستطع أن أخالف أمره . »

طيَّب الخليفة خاطره وسأله : « بقي أن تبين لي لماذا سترت فمك بكمك في آخر مرّة حضرت مجلسي .

ـ لئلا تتأذى من رائحة الثوم .

ـ ومن قال لك أنّي أتأذّى من رائحة الثوم ؟

فسرد له خبره مع الوزير . أطرق الخليفة برهة ثم قال : « إحمد الله على سلامتك ، يا ابْني . ذهب الوزير في سفرة لن يعود منها . لذلك استوزرتك بدلاً منه . قاتل الله الحسد فإنه يقتل صاحبه .

عبد الله بن الزبير ومعاوية

كان لعبد الله بن الزبير أرض وكان له فيها عبيد يعملون

فيها . وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون فيها . فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير فكتب عبد الله كتاباً إلى معاوية يقول فيه : أما بعد . يا معاوية ، إن عبيدك قد دخلوا في أرضي فانْههم عن ذلك ، وإلاّ كان لي ولك شأن والسلام .

فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه دفعه إلى ولده يزيد ، فلما قرأه قال له معاوية : « يا بني ، ما ترى ؟

ـ أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوّله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه .

ـ بل غير ذلك خير منه ، يا بني .

ثم أخذ ورقة وكتب فيها : أما بعد ، فقد وقفت على كتابك وساءني ما ساءك والدنيا بأسرها هيّنة عندي في جنب رضاك . نزلت عن أرضي لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال . والسلام .

فلما وقف عبد الله بن الزبير على كتاب معاوية كتب إليه : قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه . ولا أعدمه الرأي الذي أحلّه من قريش هذا المحلّ . والسلام .

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به إلى إبنه يزيد ، فلما قرأه تهلّل وجهه وأسفر . فقال له أبوه : يا

بني ، من عفا ساد ومن حلم عظم ومن تجاوز استمال إليه القلوب . فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء فداوه بمثل هذا الداء .

الهدية

بلغ عبد الملك عن عامل من عماله انه يقبل الهدايا فأشخصه إليه . فلما دخل عليه قال له : « أقبلت هدية منذ وليت ؟

ـ يا أمير المؤمنين ، بلادك عامرة وخراجك موفور ورعيتك على أفضل حال .

ـ أجب فيما سألناك عنه . أقبلت هدية منذ وليت ؟

ـ نعم .

ـ لئن كنت قبلت ولم تعوّض انك للئيم . ولئن كنت أنلت مهديها من غير مالك أنك لخائن جائر . وما فيها أتيت أمر تخلو به من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع . » وأمر بصرفه من عمله .

(من نوابغ الحكم : ان البرطيل تقصر الأباطيل) .

أريد الخلوة بك

قال لعبد الملك بعض جلسائه يوماً : « أريد الخلوة بك » . فلما خلا به قال له عبد الملك : « بشرط أن تترك ثلاث خصال :

لا تُطِر نفسي عندي فأنا أعلم بها منك ، ولا تغتب عندي أحداً فإني لست أسمع منك ، ولا تكذبني فلا رأي لكذوب » . قال : « أتأذن لي بالانصراف ؟ » . قال : « إذا شئت . »

ما ترك الأعرابي لنا عذراً

قيل أن بعض وفود العرب قدموا على عمر إبن عبد العزيز رضي الله عنه ، وكان فيهم شاب فقام وتقدم وقال : يا أمير المؤمنين ، أصابتنا سنون ، سنة أذابت الشحم وسنة جرّدت اللحم وسنة تعرّقت العظمْ ، وفي أيديكم فضول أموال . فإن كانت لنا فعلام تمنعونها عنا ؟ وإن كانت لله ففرّقوها على عباد الله . وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا ، إن الله يجزي المتصدقين . . . فقال عمر بن عبد العزيز : ما ترك الأعرابي لنا عذراً في واحدة .

إبراهيم بن سليمان

لما أفضت الخلافة إلى بني العباس اختفى رجال بني أمية ومنهم إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك . وكان إبراهيم رجلاً عالماً عاملاً أديباً كاملاً وهو في سن الشبيبة . فأخذوا له أماناً من السفاح . فقال له يوماً : حدثني عما مر بك في اختفائك .

قال : « كنت ، يا أمير المؤمنين ، مختفياً في الحيرة في منزل بشارع على الصحراء . فبينما أنا على ظهر البيت إذ نظرت إلى أعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فتخيّلت أنها تريدني . فخرجت من الدار متنكراً حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحداً أختفي عنده ، فبقيت في حيرة . فإذا أنا بباب كبير رحبته واسعة فدخلت فيها . فإذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس فدخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه . فقال : « من أنت ، وما حاجتك ؟ »

فقلت : « رجل خائف على دمه وقد استجار بمنزلك . » فأدخلني منزله ثم صيّرني في غرفة تلي حرمه . وكنت عنده في ذلك على ما أحب من مطعم ومشرب وملبس لا يسألني عن شيء من خلالي . إلاّ أنه كان يركب كل يوم ركبة . فقلت له : « أراك تدمن الركوب ففيم ذلك ؟ »

فقال : « إبراهيم بن سليمان قتل أبي صبراً وقد بلغني أنه مختفٍ فأنا أطلبه لأدرك منه ثأري . » فكثر والله تعجبي وقلت : ساقني القدر إلى حتفي في منزل من يطلب دمي ، وكرهت الحياة . فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه فأخبرني ، فعلمت أن الخبر صحيح وأنا الذي قتلت أباه .

فقلت : « يا هذا ، قد وجب عليّ حقّك . ومن حقك أن أدلك على خصمك وأقرب إليك الخطوة .

ـ وما ذاك ؟

ـ أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك فخذ بثأرك .

ـ أحسبك رجلاً قد مضّه الاختفاء فأحببت الموت .

ـ لا والله ، ولكن أقول كل الحق ، يوم كذا وكذا بسبب كذا وكذا . »

فلما علم صدقي تغيّر لونه واحمرّت عيناه وأطرق ملياً ثم قال : « أما أنت فستلقي أبي عند حكم عدل فيأخذ بثأره . وأما أنا فغير مخفر ذمتي فأخرج عني فلست آمن عليك من نفسي . » وأعطاني ألف دينار فلم آخذها منه وانصرفت عنه . فهذا أكرم رجل رأيته بعد أمير المؤمنين .

أبو جعفر المنصور

كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل متكتماً وكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث . فلما أفضت الخلافة إليه قدم أزهر عليه فرحب به وقربه وقال : ما حاجتك ، يا أزهر ؟ »

فقال : « يا أمير المؤمنين ، داري متهدمة وعلي أربعة آلاف درهم وأريد أزوج ابني محمداً . » فوصله باثني عشر ألف درهم

وقال : « قد قضينا حاجتك ، يا أزهر ، فلا تأتنا بعد هذا طالباً . » فأخذها وارتحل .

فلما كان بعد سنة أتاه فقال له أبو جعفر : « ما حاجتك ، يا أزهر ؟ » قال : « جئت مسلماً . » فقال : « لا والله ، بل جئت طالباً . وقد أمرنا لك باثني عشر ألف درهم فلا تأتنا طالباً ولا مسلّماً . » فأخذها ومضى .

فلما كان بعد سنة أتاه فقال : « ما حاجتك ، يا أزهر ؟ » قال : « أتيت عائداً . » فقال : « لا والله ، بل جئت طالباً وقد أمرنا لك باثني عشر ألفاً ، فاذهب ولا تأتنا بعد لا طالباً ولا مسلّماً ولا عائداً . » فأخذها وانصرف .

فلما مضت السنة أقبل فقال له : « ما حاجتك ، يا أزهر ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، دعاء كنت أسمعك تدعو به جئت لأكتبه . » فضحك أبو جعفر وقال : « الدعاء الذي تطلبه غير مستجاب . فإني دعوت الله به أن لا أراك فلم يستجب لي . وقد أمرنا لك باثني عشر ألفاً وتعال إذا شئت ، لقد أعيتنا الحيلة فيك . » .

الصبر والرزق الحلال

دخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد ، وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد : أمسك علي بغلتي . فأخذ الرجل

لجامها ، ومضى وترك البغلة ؛ فخرج علي وفي يده درهمان ليكافىء بهما الرجل على إمساكه بغلته ، فوجد البغلة واقفة بغير لجام ؛ فركبها ومضى ، ودفع لغلامه الدرهمين يشتري بهما لجاماً ؛ فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين ، فقال علي رضي الله عنه : إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ، ولا يزداد على ما قدر له .

أتدري من أنا

خرج المهدي يتصيد فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي . فقال : «يا أعرابي ، هل من قرى؟» فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلاً من لبن فسقاه ، ثم أتاه بنبيذ في ركوة فسقاه . فلما شرب قال : «أتدري من أنا ؟

ـ لا .

ـ أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة .

ـ بارك الله لك في موضعك . » ثم سقاه مرّة أخرى فشرب . فقال :

«يا أعرابي ، أتدري من أنا ؟

ـ زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة .

ـ لا ! أنا من قوّاد أمير المؤمنين .

ـ رحبت بلادك وطاب مرادك . » ثم سقاه الثالثة فلما فرغ قال :

« يا أعرابي ، أتدري من أنا ؟

ـ زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين .

ـ لا ! ولكنني أمير المؤمنين . »

فأخذ الأعرابي الركوة فوكأها وقال : « إليك عني . فوالله لو شربت الرابعة لادّعيت أنك رسول الله . » فضحك المهدي حتى غشي عليه . ثم أحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأعيان والأشراف فطار قلب الأعرابي . فقال له : « لا بأس عليك ولا خوف . » ثم أمر له بكسوة ومال جزيل .

الإيثــار

عن حذيفة العدوى ؛ أنه قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب إبن عم لي في القتلى ؛ ومعي شيء من الماء ، وأنا أقول . إن كان به رمق سقيته . فإذا أنا به محتضر بين القتلى ، فقلت له : أأسقيك ؟ فأشار إلـيّ أن نعم . فإذا برجل يقول آه . فأشار إلـيّ إبن عمي أن أنطلق إلية وأسقه . فإذا هو هشام بن العاص ؛ فقلت : أأسقيك ؟ فأشار إلـيّ أن نعم ؛ فسمع آخر يقول آه ؛ فأشار إلـيّ أن أنطلق إليه ؛ فجئته فإذا هو قد مات ؛

فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ؛ فرجعت إلى إبن عمي فإذا هو قد مات .

وحكى أبو محمد الأزدي قال لما احترق المسجد بمرو ؛ ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه ؛ فأحرقوا خاناتهم ؛ فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات ؛ وكتب رقاعاً ؛ فيها القطع ، والجلد ، والقتل ؛ ونثرها عليهم ؛ فمن وقعت عليه رقعة فعل به ما فيها ؛ فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل ؛ فقال : والله ما كنت أبالي لولا أم لي . وكان بجنبه بعض الفتيان ؛ فقال له : في رقعتي الجلد وليس لي أم ؛ فخذ أنت رقعتي وأعطني رقعتك . ففعل فقتل ذلك الفتى ، وتخلص هذا الرجل ! .

حلم الملوك

إشترى الرشيد فصاً ثميناً من الياقوت الأحمر بمئة ألف دينار . ثم ورثه المأمون وسلمه يوماً إلى صائغ كي يصوغه على كيفية مثلها له . فانصرف ولم يحضره . فاستبطأه المأمون واستدعاه . فدخل الصائغ وهو يرتعد وقد امتقع لونه . ففهم المأمون بالفراسة أن الفصَّ قد كسر منه . فولى عنه وجهه . فلما سكن جأشه أقبل عليه المأمون وقال له : أين الفص . فأخرج الرجل الفص أربع قطع وقال بخوف عظيم : سقط من يدي على السندان . فقال له

المأمون : لا بأس عليك يا هذا اجعله أربعة خواتم ولا تحمل هماً لما كان ، وألطف له في الكلام حتى ظن الحاضرون أنه كان يشتهي الفص هكذا .

هكذا تكون الصداقة

حدَّث واقد بن أبي مسلم قال : كان لي صديقان هاشميٌّ وتميمي ، وكنا في الصداقة كنفس واحدة . فنالتني في بعض السنين ضيقة عظيمة . فقالت لي امرأتي : يا هذا ترى العيد قد حضر وليس لنا شيء نعيد به ، أما نحن فنستطيع الصبر على الشدة وأما أولادنا فلا لأنهم يرون أولاد جيراننا ومعارفنا وقد تزينوا بالملابس الجديدة وهم فرحون بما اشتراه لهم أهلهم . فتقطع قلبي بكلامها لأني رأيته صواباً .

فكتبت إلى صديقي الهاشمي ووصفت له حالي وسألته أن يسعفني بما يمكنه من المال . فأنفذ إلي خريطة فيها ثلاثون ديناراً ، فلم أكد أستلمها حتى كتب لي صديقي التميمي يشكو إلي مثل ما شكوت أنا إلى صديقنا الهاشمي . فأرسلت إليه الخريطة على حالها وبقيت في بيتي حيران لا أدري ما أفعل . فبينما أنا كذلك إذ دخل علي الصديقان وبيد الهاشمي الخريطة ، فدعوتهما إلى الجلوس فجلسا ، ثم قال لي الهاشمي وقد علم ما جرى : يا صاح حيث إننا كلنا في ضيقة وليس لثلاثتنا غير هذا المال فهلم

نفتسمه . ثم إنه فتح الخريطة وقسم الدنانير ثلاثة أقسام كل منا أخذ حصته وتفرقنا . وبعد أيام اتصلت قصتنا بالمأمون ، فاستدعانا وأثنى على فعلنا وأمر لكل منا بألف دينار .

التقوى خير زاد

لما حضرت عبيد الله بن شداد الوفاة دعا ابنه محمداً وأوصاه وقال له : يا بني أرى داعي الموت لا يقلع وبحق أن من مضى لا يرجع ومن بقي فإليه ينزع . يا بني ليكن أولى الأمور بك تقوى الله في السر والعلانية والشكر لله وصدق الحديث والنية فإن للشكر مزيداً والتقوى خير زاد كما قال الحطيئة :

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً
وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد أن يأتي قريب
ولكن الذي يمضي بعيد

بلال وأبو ذر

[كان] النبي ﷺ ، جالساً يوماً مع أصحابه . فإذا بلال ، مؤذن النبي ، مقبل وهو غضبان . فسلم ثم قال :

ـ يا نبي الله ! لقد جرى بيني وبين أبي ذر كلام .

فقال لي يا إبن الحمراء . وما أتم كلامه ، حتى جاء أبو ذر .

فقال له النبي : يا أبا ذر ! بلغني أنك اليوم عيّرت أخاك بأمه .

فقال : نعم .

فلامه النبي بقوله : إنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلّا أن تفضله بعمل .

فخاف أبو ذر من غضب النبي ، وعلم انه أساء إلى بلال . فرمى بنفسه على الأرض ، وقال لبلال : قم برجلك على خدي .

فأسرع بلال إليه وقبله

قال : قم يا أبا ذر ! غفر الله لك .

متى استعبدتم الناس

[جاء] رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا مستجير بك من الظلم .

قال عمر : وماذا جرى لك ؟

قال الرجل : جاريت إبن عمرو بن العاص ، فجعل يضرب رأسي ، ويقول : أنا ابن الأكرمين !!

فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، يأمره أن يحضر مع إبنه فقدما من مصر إلى المدينة .

فقال عمر : أين المصري ؟ خذ العصا ، وأضرب إبن الأكرمين .

فأخذ يضربه أمام والده حتى انتهى .

فقال له عمر : ضعها على رأس أبيه .

فقال المصري : يا أمير المؤمنين ، إنما إبنه الذي ضربني ،

فقال عمر لعمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً !!

فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، لم أعلم بما جرى ، ولم يشك ذلك إلي .

لا سمعاً ولا طاعة

[أرسل] إلى عمر بن الخطاب قماش ليوزعه على المسلمين ، فأعطى كل رجل منه ما يكفي ثوباً واحداً . وأخذ عمر حصته

مثل واحد منهم . ثم خاطه ثوباً ، ولبسه ، وصعد المنبر في يوم جمعة يخطب في الناس .

فقال : أيها الناس .

فأجابه رجل : لا سمعاً ولا طاعة .

فقال عمر ولم يا رجل .

قال : لأنك أعطيت كل رجل من القماش ثوباً واحداً ، وأخذت أنت منه ما يكفي ثوبين ، ولهذا نرى ثوبك طويلاً .

فقال عمر : لا تعجل ، يا عبد الله بن عمر ! أجبه .

قال عبد الله : إني أعطيت ألي حصتي من القماش . ولهذا جاء ثوبه طويلاً .

فقال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة .

هكذا يكون الرجال

(ذهب) حذيفة العدوي ، بعد حرب اليرموك يفتش عن إبن عم له بين القتلى ، ومعه قليل من الماء فوجده يكاد يموت .

فقال له أسقيك ؟

فأشار إليه : نعم .

فإذا برجل بقربه يقول : آه .

فأشار إلى إبن عمه أن يذهب ويسقيه .

فذهب حذيفة حتى يسقيه ،

فسمعا رجلاً آخر يقول : آه .

فأشار إليه أن يذهب ويسقيه . فذهب حذيفة حتى يسقيه فوجده قد مات . .

فعاد حذيفة لابن عمه ، فوجده قد مات .

وجاء إلى الرجل الآخر فوجده قد مات أيضاً .

فقال : هكذا يكون الرجال .

خالد البطل

[أمر] أبو بكر الصديق خالداً بن الوليد ، أن يسير من العراق إلى الشام لمساعدة العرب في حرب الروم . فصمم خالد أن يقطع الصحراء هو وجنده . ولكن الطريق في الصحراء كانت طويلة وخطرة .

إختار خالد رجلاً اسمه رافع الطائي ، ليكون دليل الجيش في الصحراء .

وقال رافع لخالد : لا نقدر أن نسير في الصحراء بلا ماء .

فقال له خالد : إفعل ما ترى .

فأحضر رافع عدداً كبيراً من الجمال السمان الكبيرة وعطشها ، ثم سقاها حتى رويت ، وامتلأت كروشها ، وكمم أفواهها حتى لا تجتر .

ثم قال لخالد : سر بالجيش .

فكان كلما نزلوا في محطة ، ذبح بعض الجمال ، وأخرج الماء من كروشها ، وخلطها باللبن ، وسقى الخيل . وأما الناس فكانوا يشربون مما حملت الجمال من ماء في القرب .

وفي آخر يوم خاف خالد على الجيش ، وقال لرافع : ما عندك ؟

فأجابه : لا تخف فقد وصلت الماء ، وإذ نهر اليرموك يجري أمامهم ، والمسلمون حوله ففرح الجميع فرحاً عظيماً .

صبي بيع في السوق

أُختطف صبي في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي . فحزنت عليه أمه حزناً شديداً ورفعت أمرها إلى السلطان وهي

تبكي وتندب ولدها . فرق لها قلبه ودمعت عيناه فأمر بالبحث عن الولد ، وإذ هو قد بيع في سوق القاهرة ، فأرسل في الحال بمن دفع ثمنه إلى المشتري ولم يزل واقفاً حتى جيء الغلام ، فسلمه إلى أمه وحملها على فرس إلى قومها مكرَّمة قريرة العين .

المرشد الأمين بالتعظيم فمين

كان من عادة الوزير نظام الملك أنه إذا دخل عليه أكابر المملكة يقوم لهم ثم يعود فيجلس في محله ، وكان له مرشد إذا دخل عليه يقوم ويجلسه في مكانه ويجلس هو بين يديه .

فقيل له في ذلك . فقال : إن أولئك إذا دخلوا عليَّ يمدحونني بما ليس فيَّ فيزيدني كلامهم عجباً وكبراً وأتمادى في المعاصي ، وأما هذا فيذكرني عيوبي ويرشدني إلى الخير فتنكسر نفسي لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

مختارات إسلامية

مختارات إسلامية

المجلد الاول



ار الفكر اللبناني - بيروت

سلسلة مختارات إسلاميّة

رمضانيّات

(١)

دار الفكر اللبناني

سلسلة

مختارات

اسلامية



دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهْرِالحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمسْجِدِ الحَرَامِ واخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالفِتْنَةُ اكبَرُ مِنَ القَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِه فَيَمُتْ وهُوَ كافرٌ فأولِئكَحَبَطتْ أعْمَالُهُم فِي الدُّنْيا والآخِرَة ، وأُولِئكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون * إن الذِينَ آمَنُوا وَالّذين هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سبيل اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُون رَحْمَةَ اللهِ ، والله غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

صدق الله العظيم

وانتصر الحق

كلما أقبل علينا شهر رمضان المبارك أقبلت معه ايـاته وذكرياته . وهي الايات الخالدة التي يقرأها الناس في كل عام فتزداد على التكرار حلاوة وطلاوة ، والذكريات العزيزة التي تتجدد معها العبرة والموعظة الحسنة فتجدد مارث من العقدة ، وتقوى ما ضعف من اليقين ، وتزيد المؤمنين ايمانا فاذا هم يستبشرون .

ففي شهر رمضان من العام الثاني الهجري كانت اول معركة كبرى في تاريخ الاسلام-وهي غزوة بدر حيث وقف الحق امام الباطل وجها لوجه ، والتقى الجمعان فئة تقاتل في سبيل الله واخرى كافرة . فانتصر الحق بفضل الله وعلا لواؤه . وخذل الباطل وذوى ثم هوى . . . ، « ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

ولقد كان يوم بدر يوم القصاص تجلى فيه عدل الله مع الظالمين

حيث اخرج الله الظلم من مكمنه ، واقتنصه في مامنه ، ورأى الظالمون باعينهم نكال امرهم ولمسوا عاقبة بغيهم وغدرهم . . « وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد » . . . فأمية بن خلف رأس الكفر والضلال ، يقف في يوم بدر ذليلا خاضعا امام صيحة الحق التي يرتفع بها صوت [عبده القديم] بلال ، وبلال بن رباح ـ وقد تخلص من ذل العبودية لامية ـ يمسك بسيف الحق والايمان ، ويتذكر ما قام به امية نحوه من عسف وطغيان . فتثور نفسه ويصرخ باعلى صوته . . . « أمية بن خلف رأس الكفر والضلال . . . ، لا نجوت ان نجا » .

ويحاول امية بن خلف ان يتوارى عن الانظار يلوذ بالفرار ، ولكن هيهات هيهات . فقد نفذ القضاء وحكم الله بأمره فكان القصاص العادل في الدنيا قبل الاخرة ، وذهب امية بن خلف صريع بغية وعدوانه على يدي بلال . ورأى بلال في امية ما اطفأ ألمه القديم . وكان خير عوض عن حقه المهضوم . . وإن في ذلك لعبرة . . ، وعقبة بن أبي معيط عدو الله ورسوله ، والنضر بن الحارث عدو الله ورسوله ، وابو جهل عدو الله ورسوله . هؤلاء وغيرهم من أئمة الكفر الذين لا ايمان لهم وقفوا في يوم بدر للقصاص . ورأوا باعينهم عاقبة بغيهم وظلمهم . وكانت نهايتهم الاليمة عبرة وعظة سجل التاريخ فيها أن الظلم لا يدوم . وان مرتع البغى وخيم ، وأن المكر السيء لا يحيق الا بأهله . .

وفي شهر رمضان من العام الثامن الهجري اقبل الحق نسعى الى البلد الامين بعد ان اخرجه منها عنت الكفر وطغيان الهوى واستبداد الفسادأجل . اقبل الحق الحق يسعى الى البلد الامين كما يقبل الصيب الهتون فكان الفتح الاعظم الذي اهتزت له بطحاء مكة وربت . واخضر به الوادي الجديب . وتفتحت لاستقباله القلوب ، وبدأت مكة عهدا جديدا توارى فيه شبح الوثنية البغيض إلى غير مآب ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، «وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد ». وبعد ان تم فتح مكة ، واجتمع الناس حول رسول الله ﷺ ـ وكان منهم من ائتمروا به ليتتلوه ، ومن قاتلوه في بدر وفي احد وحصروه في غزوة الخندق وعذبوه واصحابه ـ نظر الرسول اليهم حينئذ وهم جميعا في قبضة يديه ، وحياتهم رهن كلمة ينطق بها . فلم يأخذه العجب والغرور بما وصل اليه من مجد وسلطان ولم يطف بنفسه ما يتملك نفوس الناس ساعة النصر والظفر من ظلم وطغيان .

بل وحتى لم يفكر في الانتقام لنفسه وللمسلمين عما اصابهم على أيدي قريش من الاذى والعدوان . ولكنه نظر اليهم نظرة كلها عفو ورحمة وقال لهم ! « اذهبوا فانتم الطلقاء » وهكذا يكون الخلق الكريم الذي يسمو على السمو نفسه وصدق الله العظيم حينما يقول عن رسوله « وانك لعلى خلق عظيم ».

وفي شهر رمضان وفي يوم الفتح الاعظم دالت دولة الاوثان وحطم الرسول الاصنام فكبت على وجوهها واصبحت حطاما وركاما واعلن رسول الله ﷺ كلمة الحق وقال : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »، « جاء الحق وما يبدىء يبدىء الباطل وما يعيد » . . وبعد توالي القرون وتتابع العصور بما تحمله من قوة وضعف ومن نعمى وبؤس ومن رخاء وشدة ومن اقبال وادبار اقبل علينا اليوم العاشر من رمضان في العام الماضي حيث كان الابطال الصناديد . وابناء مصر الاوفياء لدينهم ووطنهم مع ابناء العروبة والاسلام يقفون على الضفة الغربية للقتال كما يقف الليث المصور اصابة ذئب لئيم في غفلة طارئة . . ويستعدون للوثبة الكبرى لتحطيم الظلم وازهاق الباطل ، يحملون في ايديهم العدة القوية . . ويشرق في قلوبهم الايمان ، وتمتلىء نفوسهم بالذكريات الرائعة لانتصار الحق في شهر رمضان فيتمثلون امامهم رسول الله ﷺ مع اصحابه المخلصين يدكون صروح الظلم والضلال . ويرفعون راية العدل ويعلنون كلمة التوحيد . . يتمثلون ذلك كله امامهم فيعيدون سيرة الرسول واصحابه من جديد . ويرفعون اصواتهم بكلمة التوحيد . . فكان الله معهم بقوته وتأييده ونصره . ومن الهزيمة المخزية الى النصر المؤزر المبين ، وكان الخزى والنكال لليهود ومن عاونهم من اعداء الحق وانصار الباطل واعادها ابطال العرب والمسلمن كما كانت على عهد الرسول صلى ﷺ بدرية

عربية اسلامية لا شرقية ولا غربية .

. . . وقد طالعنا اليوم العاشر من رمضان وقد تجمعت الصفوف وتوحدت القلوب وذاق المسلمون والعرب حلاوة النصر وعرفوا اسبابه فتشرق نفوسنا بالامال الكبار ونتطلع الى الغد القريب الذي تعلو فيه راية العروبة والاسلام على كل راية . .

. . . فياباغي الشر اقصر فعلى الباغي تدور الدوائر . .

ويا ساعيا الى الظلم حسبك فان الظلم لا يدوم .

ويا أيها المكروب الذي اظلمت امامه السبل واحاطت به الحيرة ان الصبر والايمان والثقة بالله . . . تلك هي المنارة الهادية التي يسير الناس في ضوئها الى الخير والسعادة والسلام .

« والعصر ان الانسان لفى خسر ، الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ».

علام . . الهم ؟

كان القطب الصوفي ابراهيم ابن ادهم في الطريق عندما التقى به رجل يبين في وجهه الحزن وتنطق كل ملامحه بالهموم . فقال له ابراهيم : انني سائلك عن ثلاث فاجبني : هل يجري في هذا الكون شيء لا يريده الله ؟
قال الرجل : كلا !

قال ابراهيم : اينقص من اجلك لحظة كتبها الله لك في الحياة . .
قال الرجل : كلا !
فقال ابراهيم : فعلام الهم اذن . .

مجلس الأمن الاسلامي

من عبقرية الاسلام انه عقيدة وعبادة وعمل ، وانه شريعة ونظام سياسي واجتماعي يكفل للبشر الخير والعدل والسعادة افرادا وجماعات .

لهذا لم يتغافل عن الغرائز البشرية ، ولم يتغاض عن اثارها او يفترض محوها ، بل عرفهاوعرف آثارها ، فشرع لها من الوسائل ما يكفل تهذيبها والتسامي بها والخلاص من اضرارها ، ومن هذه الغرائز غريزة المقاتلة .

واذا كان من المحتوم ان يعيش الناس جماعات ، فانه من المتوقع ان ينشب بينهم الخلاف والتنازع على المصالح ، وكثيرا ما تعجز الوسائل السليمة عن حسم هذا التنازع ، فتنشب الحرب .

وليس من شك في ان الاسلام يحرص على السلام ، ويحض على صيانته بالقوة ان لم تستطع صيانته الا القوة . .

فما حكم الاسلام حينما يتحارب شعبان او طائفتان من المسلمين ؟ اتقف الشعوب الاسلامية الاخرى موقف المتفرج اللاهي ؟ ام تتشفى بالارواح المزهقة ، والدماء المراقة ، والأشلاء الممزقة ، والعمران المقوض ، والأموال المبعثرة في طاعة الشيطان ؟ أم ينحاز بعض المسلمين إلى فريق ، وينضم اخرون الى فريق ؟ لا ، ان في موقف المسلمين موقف المتفرج او موقف الشامت المتشفى منافاة للاخوة الاسلامية ، ومجافاة للصلة الانسانية ، وتمكينا للمتحارين من ان يتفانوا ، او يقضي قويهم على ضعيفهم .

ومن ذا الذي يرى أخويه يقتتلان فيتركهما ويخلي بينهما ، ويرضى بأن يصبر حتى يرى عاقبة ما بينهما من صراع ؟

ثم ان في تحيز فريق من المسلمين ، الى طائفة ، وتحيز فريق آخر الى طائفة توسيعا لميدان الحرب ، واطالة في اجلها ، وافسادا للعلاقات التي تربط المسلمين ، وتخريبا في الارض ، وتدميرا للحضارة ، وتعويقا للرقي ، وفيه اضعاف للمسلمين جميعا . لهذا رسم القرآن الكريم الخطة المثلى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما . فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى امر الله . فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا . ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم . واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فاذا تحاربت طائفتان من المسلمين كان على الامة الاسلامية ان تسعى جهدها للصلح بينهما ، بان تعرف اسباب النزاع ، وتقضي بينهما بالعدل ، فان رضي المتحاربان بهذا الحكم فقد عاد السلام ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وان رضيت طائفة ورفضت الاخرى واصرت على الاستمرار في عدوانها مغترة بقوتها كان على المسلمين جميعاً أن يحاربوها منضمين إلى الطائفة المعتدى عليها ، ليكونوا جميعا قوة عظيمة تستطيع ان تحطم الغرور الباغي ، حتى يخضع المعتدي لحكم الله ، وهنا تتجلى سماحة الاسلام وسموه وحكمته .

وذلك انه دعا الى انصاف المظلوم واقرار السلام .

ثم انه قيد المنتصرين تقييدا يمنعهم من الانتقام لان المتوقع ان تتشفى الطوائف الغالبة من الطائفة الباغية ، مجازاة لها على تمردها وغرورها ، لكن الاسلام قضى يغير ذلك ، قضى بأن يستانف المنتصرون ـ وهم الذين رفضت وساطتهم في الصلح ورفض حكمهم العادل فاضطروا الى محاربة الباغي ـ الصلح بين الطائفتين المتنازعتين صلحا قائما على العدالة لا على التحيز والمحاباة والانتقام وجب إلى الميلمين العدل في حكمهما بأن الله تعالى يحب العادلين .

ولقد بنى الاسلام الدعوة الى الاصلاح بين المتحاربين على انهم اخوة للمسلمين الاخرين ، اخوة في الدين ، والدين رباط

وثيق لا يقل عن رباط النسب والدم واخوة في الانسانية لانهم جميعا من أب واحد وام واحدة . ولا شك أن هذا اعظم نظام لصون السلام ، وحفظ الامن ، والفصل العادل بين الشعوب المتنازعة .

هذا هو مجلس الامن الحقيقي الفعال الذي يستمد قوته من حب الحق ، ونصرة العدل ، ولا يرعى شيئا غير الحق انه مجلس الامن الذي شكله الخالق سبحانه وتعالى فهو اذن مجلس يسعى الى الخير ، ويقر السلام على الارض ، ويعتز برهبته الدينية الروحية . وهيهات ان تبلغ مبلغه هيئة اخرى ، لان الجماعات التي عرفناها لم تستطع ان تصون السلام ، ولم تستطع ان تردع المعتدي وطالما حرصت الدول القوية فيها على رعاية صوالحها ، والاحتفاظ بنفوذها ، ومحاباة من يستظلون بظلها ، وهذا هو السبب في ان الحرب لا تنقطع ملتهبة وباردة ، وفي ان العالم يتحزب كتلا وشيعا ، يطغى القوي على الضعيف ، ويطمع المسلح في الاعزل ، فلا تكاد حرب تنتهي حتى تبدأ في اعقابها حرب اخرى اشد طحنا ، واهول فتكا فمتى تثوب البشرية الى الى رشدها ؟

ومتى ينعم العالم بسلام دائم يحميه مجلس الامن الذي شرعه القرآن الكريم ■

النصر . . جزاء صدق النية

ان المفاضلة بين المقاتلين على قدر صدق عقيدتهم ، وقوة عزيمتهم ، وثقتهم في المولى ـ جل وعلا ـ والملائكة من نور ، وحين يشرقون في مكان تحل به البركة والامن ، والسلامة . وهم يصاحبون من صفت نفوسهم فبعدوا عن وساوس الشيطان ـ وفي الصفاء النفسي يكون « الالهام » بالتوفيق في القتال .

وفي الآية الكريمة دلالة على ان جند الله من السماء تنزل بالمعونة لتحقيق نصر جنوده في الارض ، ليكون الثبات عند اشتداد الامر ، ويطلب القدير ذكر ما كان يوم « بدر » حين اعلم العليم الخبير ملائكته تأييد المؤمنين وهم معهم بالنصر جزاء صدق نيتهم .

وقد روى ان الملك كان يمشي بين الصفوف يبشر بالظفر ، فيقوى الروح المعنوي حتى ان المؤمن كان يشير بالسيف الى عنق المشرك فيهوى تحت موطىء قدمه شاعرا بان هناك قوة اخرى تعين على القتال .

والتأمل في الآية الكريمة يبين ان الثبات يتبعه رعب في قلوب الاعداء واقتدار من المؤمنين يمكنهم من الضرب في كل مكان من دون زعزعة أو زحزحة وما فوق الاعناق فيه البصر والعقل ، فالاطاحة بهما مذهبة القوة . اما البنان فتعطيلها يمنع مسك السلاح ، فلا يقدر العدو على الوقوف موقف الدفاع .

ويقول ابن العباس ـ رضي الله عنهما ـ: ان البنان تساعد على (بيان) ما يقوم به المحارب المعتدي ، فالقضاء عليها يعجزه . .

على أن الواجب يتطلب الحرص بعامة حتى يؤ تى العدو في كل مكان والجندي الصادق المواجهة هو الذي تملكه اليقظة ، فقد يتماوت العدو الماكر الغادر او يخادع ، ويحاول التغرير ، ولقد جمع العلى العظيم الامر بين اذهاب ما هو ظاهر فوق الاعناق ، وما هو بعيد المنال كالبنان .

ان اليقظة الحربية لا تتحقق الا بالصبر . وان الله مع الصابرين .

النصر . . في غزوة بدر

كانت غزوة بدر ـ اول معركة خاضها المسلمون مع الكفار ـ في هذا الشهر لقد انتهت بقتل سبعين واسر سبعين من ائمة الكفر ،

وبدأت المعركة بالمبارزة بين ثلاثة من المسلمين وثلاثة من الكفار ولكن هذه المبارزة لم تطل الا ريثما وقعت سيوف المسلمين على رقاب اعدائهم ، ثم التحم الجيشان في عاصفة قاصفة ، فامد الله المؤمنين بعونه وكان ما يذكره القرآن حيث يقول الله فيه :

« اذ يوحى ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ».

كان هذا النصر في السابع عشر من هذا الشهر ، وكان سببه قوة الايمان ، وثبات اليقين ، والحرص على شرف الاستشهاد ، او شرف النصر . .

ويظهر ذلك فيما قاله سعد بن معاذ حين رأى النبي أن يستشير الانصار قبل الالتحام مع الكفار ، فقد نهض يرد عليه بهذا الكلام الذي يفيض حماسة وحيوية وايمانا : لقد آمنا بك ، وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق واعطيناك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما اردت ، فو الله الذي لا اله غيره لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره ان تلقى بنا العدو غدا ، انا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء . ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك . .

ولم يكد ينتهي من هذا الكلام حتى تالق وجه النبي بالبشر وبشر اصحابه بما ينتظرهم من خير ونصر .

وكان الله معه ومع الفئة القليلة المؤمنة ، وكان النصر في هذه المعركة بداية الانتصارات الكثيرة الرائعة التي اعلت راية الاسلام ، ومكنت لنوره ان يزحف في كل اتجاه .

دور الملائكة في يوم بدر

كان يوم بدر يوم السماء نزلت فيه الملائكة الى الارض لتثبيت الذين آمنوا وتلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، وفي ذلك يقول الله عز وجل « اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم » ويقول « اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ».

وقصة امداد الله للمسلمين بالملائكة قصة عجيبة قوامها قدرة الله الذي « الارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه » وقد اختلف العلماء في الغرض الذي من اجله امد الله المسلمين بالملائكة فذهب بعضهم الى ان الملائكة انما نزلت للقتال . فهي جيش من السماء انزله الله لاضعاف شوكة الشرك والطغيان في الارض ويستدلون على ذلك بما يروى من ان رجلا من المسلمين كان يطارد رجلا من المشركين في يوم بدر فسمع صوت ضربة بالسوط بالسوط فوقه فنظر الى المشرك فاذا به قد خر مستلقيا وشق وجهه فلما اخبر الرسول بذلك قال : ذلك من مدد السماء ، وما يروي عن ابي داود المازني حيث قال : تبعت رجلا من المشركين لاضربه يوم بدر فوقع راسه بين يدي قبل ان يصل

اليه سيفي ، وهم يقولون ان الامر في قوله تعالى « فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » امر للملائكة بالضرب والقتال . ومعنى ذلك ان الله قضى بإنزالهم للضرب والقتال .

ويذهب البعض الاخر الى ان الملائكة انما نزلت لتثبت قلوب المؤمنين ولتقوي الروح المعنوية لديهم وانهم لم يشتركوا في القتال وحجتهم في ذلك ان الملك الواحد يكفي لاهلاك اهل الارض جميعا .

وهذا الراي هو الذي تميل اليه النفس وتؤكده القرائن والدلائل التي لا يتطرق اليها الضعف والوهن .. ذلك لان الملك الواحد يكفي لاهلاك الكفار جميعا في لحظة واحدة . . فلماذا ينزل الله هذا العدد الكبير من الملائكة !

ك ولان الله لو قدر للملائكة ان تشترك بالفعل في القتال لما كان هناك خيرية للمسلمين الذين اشتركوا في هذه الغزوة ، ولما كان داع للاخذ بالاسباب العادية في هذا الوجود حيث يأمر الله المسلمين باعداد العدة للقضاء على الكفار فيقول : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

ولان الملائكة لو اشتركت بالفعل في القتال لكان عددهم بانضمام المسلمين اليهم اكثر من عدد المشركين . . ولا يقال حينئذ ان الفئة القليلة « المؤمنة » قد غلبت الفئة الكثيرة « المشركة » .

ولان الملائكة لو اشتركت في القتال بهذا العدد الضخم وهو الف من الملائكة مردفين اي متبعين انفسهم بملائكة اخرين حتى وصل عددهم الى خمسة آلاف . لو ان الملائكة اشتركت في القتال بهذا العدد الكبير ثم انجلت المعركة عن قتل سبعين من المشركين فحسب لكان هذا الموقف غير مناسب وغير لائق بملائكة الله . بل كان ذلك يعتبر نصرا للمشركين . وهزيمة الملائكة والمسلمين .

وبذلك يتبين لنا ان الملائكة لم تنزل للقتال ، وانما نزلت لتثبيت القلوب وتقوية الايمان . . ومما يزيد هذا المعنى تاكيدا وقوة قول الله تعالى بعد ذلك « وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » اي وما جعل الله امدادكم بالملائكة لشيء من الاشياء الا للبشرى لكم بانكم ستنتصرون ، ولتسكن وتطمئن بهذا الامداد قلوبكم حيث تدركون بأن الله معكم وانكم اهل لرضاه فيزداد ايمانكم وجهادكم . ويكون الامر في قوله تعالى فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان امرا موجها الى المؤمنين لا الى الملائكة ويكون المعنى اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم بمعونتي فثبتوا الذين آمنوا وشجعوهم واخبروهم بان الله معهم وانه سيلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، واذا كان الامر كذلك فاضربوا ايها المؤمنون فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان .

هذا ـ ومن الله العون وبه التوفيق ■

شهر رمضان المعظم
درس في اكتساب
من غزوة الفتح

حين نقول : ان الاسلام يصلح لكل زمان ومكان ، فانما نريد بذلك ان مبادئه الخالدة تستطيع ان تقدم الدروس والعبر ، وتعطى الحلول للمشاكل المختلفة في الظروف المختلفة باسلوب سهل ممتع يعتمد على « المادة » كما يعتمد على « الروح »، ولا يقتصر على الاسلوب « المادي » الذي لا روح فيه .

ولكن المهارة التي نطالب بها الكاتبين في الدين ، والمتكلمين في الدين ، ان يستخلصوا تلك العبر والدروس المستمدة من تعاليم الدين الحنيف الخالدة ، وان يقدموا الحلول المبنية على تلك الدروس والعبر للمشاكل المختلفة في الظروف المختلفة ، ليبهر الاسلام المؤمنين به وغير المؤمنين به ايضا ، وليلمسوا عظمة هذا الدين العظيم الذي قاد الحضارة العالمية قرونا طويلة حين كان اتباعه متمسكين به ويسيرون على هديه ، فلما بدلوا ما بانفسهم اصبح عزهم ذلا وتداعت عليهم الامم .

وفي هذه الايام العصيبة التي يجتازها المسلمون في دار الاسلام ، وهم في حرب مصيرية دفاعا عن حقوقهم المغتصبة في الارض المقدسة ضد التوسع الصهيوني الاستيطاني وضد من وراء اسرائيل من دول الاستعمار القديم والجديد .

في هذه الايام تطل على المسلمين ذكرى غزوة فتح مكة ، تلك الغزوة التي عاد فيها المستضعفون الذين اخرجوا من بلدهم الامين بغير حق الا ان يقولوا لمن اخرجهم من بلادهم واملاكهم كلمة الاسلام بما فيه من سماحة وقوة وامانة : اذهبوا فانتم الطلقاء .

فماذا يستطيع العرب بخاصة والمسلمون بعامة ان يستفيدوا من درس وعبرة من غزوة الفتح ؟!

ـ ٢ ـ

لقد كان من جملة اسباب انتصار اسرائيل على العرب في حرب حزيران « يونيو » ١٩٦٧ ان اسرائيل استطاعت اقتناص الاسرار العسكرية العربية ، فحاربت العرب على هدى وبصيرة .

وقد صرح المسؤولون العسكريون في إسرائيل . بأن من أهم أسباب انتصارهم على العرب، أن مخابراتهم استطاعت بوسائلها الحصول على أدق المعلومات العسكرية عن العرب .

والدرس الكبير الذي يجب ان يتعلمه العرب من تلك الحرب هو ان يصونوا اسرارهم العسكرية ويتحلوا بأعلى درجات الكتمان .

ولو كان العرب شعوبا وحكومات وافرادا وجماعات ، عند مسئولياتهم التاريخية في « الكتمان » وهم في حرب حياة او موت

ضد اسرائيل المعتدية المغتصبة لما استطاعت اسرائيل ومن وراء اسرائيل ، ان يجمعوا المعلومات المفصلة الدقيقة عن الجيوش العربية ، وعن اسرارها العسكرية الحيوية ولما استطاعت الانتصار على العرب .

فما هو الدرس الذي يمكن ان يتعلمه العرب والمسلمون من الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام في « الكتمان » الذي طبقه في غزوة فتح مكة بالذات . بمناسبة ذكرى هذه الغزوة التي كانت في السنة الثامنة الهجرية وفي شهر رمضان المبارك ؟

ـ ٣ ـ

بلغ النبي ﷺ في تطبيق عامل « الكتمان » حد الروعة في غزوة فتح مكة ، حتى ليمكن اعتبار هذه الغزوة مثالا من اعظم امثلة التاريخ العسكري في تطبيق « الكتمان » الى ابعد الحدود .

فقد امر النبي ﷺ اصحابه بانجاز استعداداتهم للحركة وبعث الى القبائل المسلمة من يخبرهم بانجاز استعداداتهم للحركة ايضا .

كما امر عليه الصلاة والسلام اهله ان يجهزوه ، ولكنه لم يخبر احدا من المسلمين في داخل المدينة المنورة وخارجها بنياته واهدافه من حركته واتجاهها .

بل اخفى عليه الصلاة والسلام نياته واهدافه واتجاه حركته الوشيكة حتى عن اقرب المقربين اليه !

دخل ابو بكر الصديق رضي الله عنه الى ابنته عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ، وهي تهيء جهاز النبي ﷺ فقال لها : « اي بنية ! أأمركم رسول الله ﷺ ان تجهزوه ؟ » . . قالت : « نعم ، فتجهز » . قال : « فأين ترينه يريد ؟! » فقالت : « والله لا ادري » .

ولما اقترب موعد الحركة ، صرح الرسول ﷺ بانه سائر الى مكة المكرمة ، ولكنه بث عيونه وارصاده ليحول دون وصول اخبار اتجاه حركته الى قريش .

بث عيونه وارصاده داخل المدينة المنورة ، ليقضي على احتمال تسرب اخبار حركته من اهلها الى قريش وقد استطاع ان يحجز رسالة حاطب بن بلتعة الى قريش قبل ان تتسرب الى مكة .

وبث دورياتهم الاستطلاعية داخل المدينة وخارجها ، ليمنع قريشا من الحصول على المعلومات عن نيات المسلمين ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من ارسال المعلومات اليها .

وبقي النبي ﷺ يقظا اشد اليقظة حتى وصلت قواته الى ضواحي مكة المكرمة ، فنجح اعظم النجاح بترتيباته الوقائية في الكتمان « الشديد لحرمان قريش وحلفائها من معرفة نيات المسلمين .

فقد وصل جيش المسلمين البالغ تعداده عشرة الاف مقاتل « مر الظهران » على مسافة اربع فراسخ من مكة المكرمة ، دون ان تعرف قريش موعد حركته من المدينة المنورة ، وموعد وصوله المراحل بين المدينة ومكة .

وعسكر جيش المسلمين في « مر الظهران » فامر النبي ﷺ ان يوقد كل مسلم في جيشه اللجب نارا حتى ترى قريش من بعيد ضخامة جيش المسلمين ، دون ان تعرف هويته فيؤثر ذلك في معنوياتها ، وتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يؤمن الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام خطته العسكرية في دخول مكة دون اراقة للدماء .

واوقد عشرة الاف مسلم عشرة الاف موقد المنار ، ورأت قريش وهي في مكة تلك النيران الكثيرة تملأ الافق البعيد .

واسرع قائد قريش ابو سفيان بن حرب ومعه بديل بن ورقاء الخزاعي وحكيم بن حزام بالخروج من مكة المكرمة متجهين نحو مصدر تلك النيران فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين قال ابو سفيان لصاحبه بديل : « ما رايت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا ».

ورد بديل قائلا : « هذه والله خزاعة حمشتها الحرب »، اي جمعتهم الحرب وهيجتهم ، فلم يقتنع ابو سفيان بجواب بديل وقال : « خزاعة اقل واذل من ان تكون هذه نيرانها »،

- ٤ -

لقد كانت قريش تعرف حق المعرفة ان المسلمين سيهاجمون مكة ، ولكنها لم تكن تعرف متى وكيف واين سيجري الهجوم المتوقع .

والفضل في ذلك للكتمان الشديد الذي كان الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام لا يتخلى عنه طرفة عين في القضايا العسكرية المصيرية .

ذلك لان نيات المسلمين في مهاجمة مكة وفتحها ، لو انكشفت لقريش في وقت مبكر ، لاستطاعت ان تحشد قواتها وقوات حلفائها ، ولاعدت خطة عسكرية لاحباط هجوم المسلمين ، ولكان بامكانها مقاومة المسلمين اطول مدة ممكنة ، ولا وقعت بقوات النبي ﷺ خسائر في الارواح والاموال دون مسوغ .

والنتيجة ان قائد قريش ابا سفيان لجأ الى النبي ﷺ واعلن اسلامه ، وفي اليوم التالي دخل المسلمون مكة فاتحين .

ان « كتمان » النبي ﷺ نياته حتى عن اقرب المقربين اليه ، وكتمان وقت حركته وتعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه هو الذي ادى الى هذا الفتح القريب بدون خسائر تذكر .

ودرس فتح مكة في « الكتمان » الشديد ، يمكن ان يعتبر مثالا رائعا لمزايا التمسك باهداب « الكتمان الشديد » .

ولعل درس هذه الغزوة العملي في « الكتمان » خير ما يمكن ان يدرس في الكليات العسكرية العربية والاسلامية وكليات الاركان ليعرف العسكريون العرب والمسلمون ، كيف كان النبي ﷺ حريصا على تطبيق عامل « الكتمان » وكيف كان ينتصر على اعدائه لتطبيقه بكل مهارة وحذق هذا العامل الحيوي ويضعه في حيز التنفيذ .

ذلك درس ما احرانا ان نتدبره في هذه الايام ، حتى نحرم عدونا الذي هولنا بالمرصاد من أهم عوامل انتصاره ، وحتى نحصل على المعلومات عنه ولا يحصل على المعلومات عنا .

ترى ! انستفيد من هذا الدرس العظيم ، المستمد من سيرة سيد القادات وقائد السادات عليه افضل الصلاة والسلام ، ليتبدل حالنا الى احسن حال ، ولناخذ المباداة من عدونا اللدود ، ولنستعيد حقوقنا المغتصبة من الارض المقدسة ؟!

اذا فعلنا فستقول اسرائيل كما قال اسلافها من قبل : ان فيها قوما جبارين .

وصدق رسول الله عليه افضل الصلاة والسلام : « استعينوا على قضاء الحاجات بالكتمان » .

من اضطر غير باغ ولا عاد

ثورة الفكر الاسلامي

حتى الاوامر والنواهي التي تتضمنها النصوص القرآنية او الاحاديث النبوية . لم يجعلها الاسلام فوق مجال العقل بل انه على النقيض طالب ذوي الابصار بان يفقهوها ويتدبروا ما فيها بحيث يمتثلون لها مدركين لحكمتها وعلتها مستبصرين باهدافها . . حتى لو كانت تتعلق بالتحليل والتحريم . .

ذلك أن الاسلام يرى الانسان هو العقل الذي يتدبر والقلب الذي يؤمن واليد التي تعمل . . هو الجوارح والحواس . . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً . .

وكان على بن أبي طالب يسمى الضمير « عين الله » . . وكان يحض الناس على ان يملأوا اعماقهم بنور العلم كيلا يصبحوا وقلوبهم غفل صم بكم عمى فهم لا يبصرون . .

وكان عمر بن الخطاب ـ كعلي ـ متبعين آثار النبي ﷺ وابي بكر من بعده . . كان يجهدان جهدهما في فهم علل الاحكام ، وفي تفسير النصوص بما يحقق المقصود منها ويؤكد روحها والحكمة فيها .

وكان هذا كله تحريرا لنصوص الشريعة مما قد يهددها من جمود تتعرض له الشرائع عادة ، ان لم يقيض لها هذا الطراز من المفسرين والرواد والمطبقين العظام . .

وهكذا وضعت في الشريعة مبادىء واصول تجعل الشريعة السماوية ، شريعة انسانية في كل تطبيقاتها . . من ذلك قاعدة الضرورات تبيح المحظورات . . فمن الحق ان الله تعالى قال « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون » . . ولكن الله وضع لحدوده ، حدودا اذ قال « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » .

وهكذا لم يطبق عمر حد السرقة في عام المجاعة . . وقضى بالعفو عمن طرق ليأكل وهو جائع . . مع ان حدود الله صريحة واضحة والآية تقضي بقطع يد السارق . . غير انه بالفهم المتكامل للاسلام ، وللاعماق البعيدة في النصوص التي يعتبر بعضها مقيدا ومفسرا للبعض وبسعة الافق والجسارة وبالفهم الدقيق لانسانية الروح الاسلامية جعل الاضطرار من غير بغى ولا عدوان ، غير موجب للاثم ، بل يستحق المغفرة والرحمة . . وهو من اجل ذلك اعتبر الآثم من قهر غيره على ارتكاب المعصية او اقتراف الجريمة . . فقد سرق غلمان ناقة لرجل غريب ، واوشك ولي امرهم ان يأمر بقطع ايديهم ولكن عمر رفض وقال لاولياء امورهم : « أما والله لولا اني اعلم انكم تستعملونهم

وتجيعونهم حتى ان احدهم لو اكل ما حرم الله عليه ، حل له ، لقطعت ايديهم » ثم امر من يستعملونهم ويجيعونهم ان يدفعوا ثمن الناقة المسروقة لانهم هم الذين اضطروا الغلمان للسرقة . .

ولقد جيء لعمر بامرأة جهدها العطش فمرت على راع فأبى ان يسقيها الا ان مكنته من نفسها ، ففعلت . . فاشار علي باخلاء سبيلها فلعلها مضطرة قد قهرت على هذا الاثم .

وثبت انها مضطرة ، فاخلى عمر سبيلها ولم ترجم ، وعوقب المعتدي عليها ، الذي قهرها وخلق لها حالة الاضطرار وجعلها بين ان تموت عطشا او تمكن له من نفسها . . . !

وبهذه المواقف الانسانية المتبصرة بالدوافع والعلل والغايات ، اصبح الفكر الاسلامي بحق ، فكرا انسانيا قادرا على تغيير فساد الانظمة ، مشحونا بالثورية والقدرة على التجديد والتغيير .

ليلة القدر . .
ليلة الاسلام !

بسم الله الرحمن الرحيم « انا انزلناه في ليلة القدر ، وما ادراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر سلام هي حتى مطلع الفجر » .

ـ بهذه الايات مجد الله ليلة الاسلام التي اوحى فيها الى محمد بن عبد الله قوله تعالى :

« أقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » فكان انزال هذه الايات اول ما نزل في القران الكريم ـ هداية الله للبشرية باسرها في مختلف عصورها واحوالها ـ على رسول الله صلوات الله عليه ، اصطفاء له ، وابتداء لارساله بالرسالة العامة ، ومضى صلوات الله عليه منذ هذه الليلة التي يقول فيها « انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منزلين فيها يفرق كل امر حكيم » من الشهر المبارك « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وهو ـ صلوات الله عليه ـ الرحمة المهدأة والنعمة المسداة « يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا كبيرا » .

ـ ان ليلة اصطفاها الله بخصائص اصطفاء الرسول الخاتم ، وانزال القران الخالد ، وابتداء الامة التي جعلها الله بالاسلام « خير امة خرجت للناس » جديرة بان يسميها الله . . ولله الحجة البالغة ـ « ليلة القدر » وان يضفي عليها نعوت الشرف والفخروان يذكرها بانها « خير من الف شهر » ليس فيها ليلة القدر ، حيث يزكو فيها ذكر الله ، وترتفع اليه فيها الطاعات ،

ويضاعف فيها الثواب والاجر ، وليستجيب ربنا الدعاء ، ويحقق الامل والرجاء ، وما زالت الملائكة تنزل فيها على المؤمنين ، والى يوم الدين ، بفيوض وحمات الله ورضوانه وعفوه واحسانه ، وهو ـ سبحانه ـ يصفها بانها « سلام هي حتى مطلع الفجر » حتى نتعرض فيها لنفحات الله ، ونحن نقومها تائبين مستغفرين سائلين الله من خيره مؤكدين العهد معه ان نذكره ما حيينا وان نعبده مخلصين له الدين ، فطاعته اعون شيء على ما نرجو من صلاح الحال ، وبلوغ الامال ، واحراز النصر في المعركة التي عقدنا العزم على ان نلقى فيها ا عدونا .

ـ ففي عقيدة التوحيد يقول الله تعالى في كتابه « فاعلم انه لا اله الا الله » ويقرر سبحانه ان التوحيد دعوة كل نبي ورسالة كل رسول فيقول « شرع ا اليكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ».

ومن اجل تعميق وجود الله الواحد الاحد يلفتنا الله في كتابه الى انفسنا والى ملكوت السموات والارض وما خلق الله في شيء بمثل قوله « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب » « وفي انفسكم افلا تبصرون »؟ « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبـــال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت »؟!

والقران يجلو حق الله على عباده بمثل قوله « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » « اني انا الله لا اله الا انا فاعبدني ، واقم الصلاة لذكرى » « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون » .

ويحفل كتاب الله بالايات التي يمتن بها على عباده ويذكرهم فيها بنعمه حتى يشكروها بطاعته واتباع سبيله فيزيدهم من خير ، ولا يحوجهم الى غيره ، ممن لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا يملكون موتاولا حياة ولا نشورا ، فيقول تعالى « الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون » .

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » .

ـ ويسم الله قاطعي الارحام بسيماهم ، ويتوعدهم بعذابة فيقول : « وما يضل به إلّا الفاسقين الذين ينقضون في عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون » .

« فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم ، افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » .

ـ مضى القران والرسالة الخالدة يقيمان صرح المجتمع الرباني على اساس من المحبة والتراحم والصبر واحتمال اذى قريش حتى هاجروا وهاجر النبي صلوات الله عليه الى المدينة ، الى دار الذين اووا واثروا ونصروا ، وفي السنة الثانية من الهجرة شرع الله جهاد المشركين وقتال الكافرين وكان اول ما نزل من القران في ذلك قوله تعالى . .

« اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » .

وهي ايات مع قوله تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا نعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » تبين دوافع القتال واهدافه في الاسلام ، وانه كان لرد الضيم ودفع الظلم عن افراد المجتمع الاسلامي ، وحماية الحدود والمقدسات الاسلامية وغيرها « ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً » .

والقرآن الكريم يمجد السلام الحق ، وينكر الخيانة وينقم ذلك من اليهود الذين اخلفوا وعود انبياء الله المصطفين الاخيار في كل زمان ومكان حتى رسول الله الذي عرفوه كما يعرفون انفسهم وابناءهم قال تعالى « ان شر الدواب عند الله الذين منهم ~~ثم ينقضون عهدهم في كل مرة كفروا فهم لا يؤمنون الذين~~ عاهدت وهم لا يتقون » .

والقران الذي يرفع راية السلام العزيز ، يدعوا الى اعداد العدة ، والاخذ باسباب القوة المادية الممكنة فيقول « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم واخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . . » .

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » .

ـ واسباب النصر واضحة جلية في ايات من سورة الانعال ، وسورة الحج ، وفي مثل قوله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ـ الاية « ما يضاعف العزم على الجهاد في سبيله حتى احدى الحسنيين « النصر او الشهادة » وما احوجنا في ليلة القدر ليلة الاسلام ان نتأمل حتى هذه الايات ، وان نمضي في نورها الى النصر القريب « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » .

وفي ليلة القدر ، ليلة الاسلام كله نجد طريق الاسلام هو وحده طريق الوجود السعيد والمجتمع الرشيد ، بوصايا القرأن وآدابه التي تدعم الأسرة ، وتصون الحكم الصالح ، وتشد روابط الاخوة ، وترفع صروح التعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وتقيم جسور مكارم الاخلاق التي استهدفها رسول الله ، ومدح الله بها مصطفاه وجمع اصولها في قوله تعالى .

« ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون »ـ فلناخذ هدايات القرأن وتوجيهات الاسلام من كتاب الله في « ليلة القدر » ولنعمل صادقين على اساس من ذلك حتى يوفينا الله عهده في قوله « وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فاؤلئك هم الفاسقون ».

ـ ولنقل مع رسول الله صلوات الله عليه في ليلة الخير « اللهم انك عفو تحب العفون فاعفو عنا ».

ليلة
القدر

وصفها الله بانها ذات شرف وقدر . . وذكر ان قدرها فوق ان يعرف ويوصف حيث قال : وما ادراك ما ليلة القدر . . ثم بين انها خير من الف شهر ، ولنا ان نفهم من ذلك انها خير من كل ليالي وايام العمر ، فان متوسط اعمارنا قريب من هذا القدر وهو الف شهر ، وقد يكون هذا العدد مرادا به الكثرة .

ثم هي دون شك من شهر رمضان ، لانه الشهر الذي يقول الله فيه : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن ».

اما اين تقع هذه الليلة من هذا الشهر فذلك ما اختلفت فيه الاقوال . فمن قائل انها في الليالي الاوتار من العشر الاواخر من شهر رمضان ومن قائل انها في العشر الاواخر دون تخصيص بليلة او وصف ، وانها ليست ثابتة في ليلة معينة من العشر ، بل تتغير كل عام ، ومن قائل انها السابعة عشرة من رمضان . واظهر الاقوال انها ليلة سبع وعشرين منه ، لما ورد في ذلك من احاديث ولان طائفة من السلف كانوا على ذلك .

ومن طريف ما يذكر ان بعضهم عزز هذا الرأي بالقرآن نفسه ، اذ وجد كلمة (هي) السابعة والعشرين من كلمات السورة : « انا انزلناه في ليلة القدر ، وما ادراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر ، سلام هي حتى مطلع الفجر » .

ويرى الامام محمد بن عبده امام هذا الاختلاف ان على من يريد ان يوافقها احياء ليالي الشهر كلها ، فان ذلك هو السر في عدم تعيينها ، وهذا ما تشير اليه اية البقرة : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن » فانها تجعل الشهر كله ظرفا لنزول القرآن ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه .

وايا ما كان الامر فان ثواب العبادة في هذه الليلة كما يقول الله : « ليلة القدر خير من الف شهر » .

السلوك
النبوي
في رمضان

نستطيع ان نقرر ان من ابرز مميزات السلوك النبوي في رمضان ما تتضمنه هذه المقالة المروية في صحيح البخاري - اصبح كتاب بعد كتاب الله - والتي يقولها ابن عباس عن ابن عمه محمد ﷺ حيث يقول عنه انه « كان اجود الناس وكان اجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القران فلرسول الله اجود بالخير من الريح المرسلة » اننا لنستطيع ان نستخلص من هذا النص ظاهرتين للسلوك النبوي في رمضان ، الظاهرة الاولى هي الظاهرة القرآنية ، مدارسة القرآن ومذكراته وتلاوته وقراءته والاحتفاء به واستقطابه للمسلم استقطاب المسلم له في شهر رمضان هذا . فابن عباس يصرح في هذه الرواية كما جاء في روايات اخرى كثيرة بأن جبريل عليه السلام كان كلما جاء رمضان يهبط الى النبي ﷺ ، يجلس معه يستعرضان القرآن من اوله الى اخره قراءة وتلاوة ، سواء اكان النبي يقرأ وجبريل يسمع او كان جبريل يقرأ والنبي يسمع ، او يقرآن معا ، النهاية احياء رمضان ولياليه بالقرآن ، دستور الحياة وينبوع الفضائل والكمالات الربانية التي يجب ان يتحلى بها المسلم على قدر الطاقة

البشرية ، مع زيادة الضبط لالفاظ القرآن والتحري في النطق به وازالة خوف النبي من ضياع القرآن او تحريفه او عدم تمكنه منه وتمكين المسلمين منه حسبما يستفاد من قوله تعالى له في موقف اخر « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرأته فاذا قرأناه فاتبع قرانه ثم أن علينا بيانه » وذلك عندما كان يحرك لسانه مستعجلا قراءة جبريل .

واذا اضفنا الى ذلك ما هو معروف من نزول القرآن في رمضان كما يقول القرآن « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » عرفنا لماذا يسمى هذا الشهر بشهر القرآن ، ولماذا درج المسلمون الى يومنا هذا في مشارق الارض ومغاربها على جعل رمضان شهر القرآن قراءة ودراسة وتفسيرا .

الظاهرة الثانية للسلوك النبوي في رمضان ما اشار اليه ابن عباس من الجود والكرم ، بل زيادة الجود والكرم في رمضان عنه في سائر اشهر السنة حتى انه كان يصدر من الرسول ﷺ كانه رياح تهب بالخير والبركات توزعها ذات اليمين وذات الشمال . إن شهر رمضان بوضعه وظروفه وصيامه، وحرمان النفس فيه من شهواتها وتطلعاتها المادية، يدفع نفس المسلم القادر إلى أن تبذل وتعطي وتجود وتغدق الخير على المحرومين والفقراء والمساكين بعد أن عرفت هي طعم الحرمان ، وذاقت مرارة الصبر عليه

بعض الساعات على حين ان الفقير والمحتاج يذوق طعم ذلك طوال الايام والاعوام . هذا يضمه ان التجرد بالصوم عن علائق المادة وشهوات النفس يعطيها جرعة من الروحية والشفافية والزهادة في الدنيا وعلائقها ، وهذا كله مما يدفع الى الجود والكرم والعطاء ، استهانة بالدنيا والمادة وتطلعا الى ما وراء الدنيا والمادة من وجه الله الكريم ونعيمه المقيم ، كما يقول تعالى « وسيجنبها الاتقى الذي يؤتى ماله يتزكى ومالاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى » على هذا استقر الفكر الاسلامي ودرج السلوك الاسلامي بين المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، حيث يعتبرون ويقولون ان رمضان شهر الجود والكرم ، ويصير من الظواهر الرمضانية بين المسلمين اغداق الخير والعطاء على الفقراء والمساكين والمحتاجين .

ومن ابرز مظاهر السلوك النبوي في رمضان ما روته الاحاديث الصحيحة من انه كان ﷺ يخص رمضان بقيام النيل المعروف بصلاة القيام او صلاة التراويح التي صارت من الانطباعات الرمضانية عند المسلمين الى يومنا هذا ، غير انه ﷺ كان يصليها في بيته ثم صلاها ليلة او ليلتين بالمسجد فوجد الناس افواجا خلفه يصلون وراءه فعاد الى صلاتها في بيته وامرهم ان يصلوها في بيوتهم خشية ان تكتب عليهم جماعة في المسجد فيشق ذلك عليهم ففعلوا وامتثلوا حتى كان عمر بن الخطاب فوجد الناس يصلونها في المسجد اوزاعا متفرقين فقال ما افضل ان يجمع

هؤلاء وراء امام واحد ، فجمعهم خلف ابي بن كعب يصلونها جماعة وعمر ينظر مسرورا قائلا ما احسن هذه البدعة واستمرت على هذا الوضع الى يومنا هذا . وفي عدد ركعاتها خلاف طويل لكنه من توابع ذلك وعلائقه ما روته السنة الصحيحة عنه ﷺ من انه كان في العشر الاواخر من رمضان يجهد نفسه في عبادة ربه ويعتكف بالمسجد ويهيب بنسائه ان ينشطن في عبادة الله وان لا يكثرن النوم فيقول « ايقظوا صواحيات الحجر » يعني نساءه ثم يقول يا رب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة . .

واحيانا وفي بعض الرمضانات يكون مساوكه ﷺ جهادا ونضالا وقتالا في سبيل الله دفاعا عن الحق وكسرا لشوكة الباطل . ففي رمضان السنة الثانية من الهجرة كانت غزوة بدر الكبرى التي انتصر المسلمون فيها بقيادته وفي رمضان السنة الثامنة من الهجرة كانت غزوة الفتح التي انتصر المسلمون فيها بقيادته كان سلوكه في رمضان وفي غيره سلوكا متكاملا . كله في مرضاة الحق جل جلاله يتعدد المظهر ويتوحد الجوهر : .

دين
الوحدة

عاشت البشرية قبل الاسلام الوانا من الصراع والتفرقة عانت فيها كثيرا من صنوف الاذى والالم وفي خضم الشدة بدت خيوط

من الامل . فكان بزوغ فجر الاسلام وظهور تعاليمه بمثابة الشرارة المضيئة لبداية مجتمع فاضل لا فرق فيه بين عربي وعجمي الا بالتقوى .

وكان محمد بن عبد الله هو القائد المرتجى والامل المنشود . فلقد سار الرسول الكريم في بناء مجتمع المؤمنين المسلمين على اساس الاخاء والوحدة والمساواة . . فآخى بين الأوس والخزرج بعد حزبية وعداوة ضارية . ودعم هذه الاخوة والوحدة بروح الايمان . فامتلأت قلوبهم بالصدق والوفاء والتضحية والفداء كما آخى بين المهاجرين وبينهم ، وكما آخى بين المؤمنين جميعا .

وعلى هدى هذه المبادىء سار الرعيل الاول من المسلمين وسارت الطليعة المؤمنة الهادية تقود القافلة الانسانية الى سعادة الدارين مؤتمرة بما امر الله به . . منتهية عما انهى الله عنه . . فلم يمض الا القليل من الزمن حتى حقق الله وعده الذي ضمنه قوله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » فنصر الله جنده ورفرفت الراية الاسلامية على بلاد كسرى وقيصر . وبسطت رسالة الاسلام جناحيها على أكثر بلاد العالم وأنشأت مجتمعاً جديداً يسوده الأمن والأمان والسكينة والاطمئنان .

وكان من اثار ذلك هذه المدينة الفاضلة التي حررت الامم المظلومة وردت الحقوق المهضومة . . واطمأنت اليها القلوب ونعم في ظلالها الافراد والشعوب .

فما احوجنا في هذه الايام الى استعادة ذلك المجد الغابر ولا يكون ذلك الا بان نصل الماضي بالحاضر . . ونواصل السير على هدى من كتاب الله وسنة رسوله . . فذلك وحده هو طريقنا للنصر على عدونا وعدو الله والانسان !

أضواء
من السنة

عن ابي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله . ما كانت صحف ابراهيم . قال : كانت امثالا كلها ايها الملك المسلط المبتلي المغرور اني لم ابعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم . فاني لا اردها وان كانت من كافر . وعلى العاقل ـ ما لم يكن مغلوبا على عقله ـ ان يكون له ساعات : فساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها لحاجاته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل الا يكون ظاعناً إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، حافظاً للسانه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه الا فيما يعنيه . قلت : يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام . قال : كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت . ثم هو يفرح عجبت لمن أيقن بالنار . ثم هو يضحك . عجبت لمن أيقن رأي الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها . عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا

يعمل . قلت يا رسول الله أوصني قال : أوصيك بتقوى الله فانها رأس الأمر كله ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : عليك بتلاوة القرآن ، وذكر الله عز وجل ، فانه نور لك في الارض وذخر لك في السماء ، قلت يا رسول الله زدني . قال : إياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : عليك بالجهاد فانه رهبانية أمتي ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : أحب المساكين وجالسهم . قلت يا رسول الله زدني ، قال : أنظر الى ما هو تحتك ولا تنظر الى ما هو فوقك فانه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عندك . قلت يا رسول الله زدني ، قال : قل الحق وان كان مراً ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : ليردك عن الناس ما تعلمه من نفسك وتجد عليهم فيما تأتي . ثم ضرب بيده على صدري فقال يا أبا زر : لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق .

انظر يا اخا الاسلام الى الوصايا الخالدة وكيف ان سيد الخلق وحبيب الحق يوصي ـ اول ما يوصي ـ بتقوى الله ، ثم يحكم على التقوى بانها راس الامر كله ، وما التقوى الا الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، فهي كلمة جامعة .

واذا كانت مقومات التقوى اربعة وهي : خوف ـ عمل ـ رضا ـ استعداد ناسب ذلك ان يحافظ الانسان على هذا الكنز السليم بتلاوة القران العظيم وذكر الله

والذكر الصحيح مقرون بالتفكير فالذكر بلا تفكير كلمات جوفاء والتفكير بلا ذكر اعمال بطراء ولذلك جاء وصف اولى الالباب في كلام الله تعالى مشتملا على الذكر والتفكر ، قال جل شانه ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ».

فالتقوى وتلاوة القرآن والذكر : كل اولئك طهرة للنفس وتزكية للقلب ونور للانسان في الارض وذخر له في الملا الاعلى ليحيا في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

في القصاص . . حياة

قبل هذه الآية جاءت الآية الكريمة : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . . الخ الآية . .

ومما هو من البر الذي يدخل في مفهوم تلك الآية ، ان يأخذ المسلمون انفسهم بالتطبيق العملي لما فرض الله تعالى عليهم في جريمة القتل ، وهو القصاص من القاتل . وفي قوله تعالى : « الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى » بيان لتكافؤ المسلمين في دمائهم ، فليس حر اكرم من حر ، ولا عبد احسن

من عبد ، ولا انثى افضل من انثى . . انهم جميعا يحملون نفسا انسانية ، هي واحدة في جوهرها ، كما يقول سبحانه : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ».

وقد ذهب بعض الفقهاء الى ان القصاص في القتلى ، انما يقع بين المتماثلين ، حسب ظاهر النص القر آني : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى ، فلا يقتل الحر بالعبد ، ولا الرجل بالمرأة .

وهذا فهم غير سليم للآية الكريمة ، اذ ليس هذا التقسيم التنويعي للناس بالذي يوجب التفاضل بين نوع ونوع ، ولو كان هذا موجبا لذلك لما كان قتل المرأة بالرجل ، ولا العبد بالحر قصاصا اذ لا يفي دم المرأة ـ على هذا التقدير ـ بدم الرجل ، ولا دم العبد بدم الحر .

والحق هو ان تفهم الآية الكريمة على ان هذا التنويع الذي جاءت به ليس مقصودا به التفاضل بين نوع ونوع ، وانما المقصود به ، هو الا نفاضل بين افراد الانواع . . فالحر لا يفضل الحر ، قرشيا كان ام غير قرشي ، اميرا كان او رعية للامير . . وهكذا سائر الانواع وبهذا تلغى الانساب ، وتزول فوارق الانواع والاجناس ، ويكون الناس في دمائهم سواء ، كما يقول الرسول الكريم : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ».

وعلى هذا تقتل النفس بالنفس ، ايا كان جنسها ، او مكانها الاجتماعي .. نفس بنفس ، وروح بروح ..

الايمان
ضرورة حتمية

حين ازدهى العلم بفتوحه الكثيرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر طغت نزعة الالحاد الديني طغيانا عارما بين المثقفين ، فجاهر الماديون بانكار الخالق واخذوا يتلمسون من اسباب الجدل الخادع ما يشنون به الحملات على المؤمنين ، وقد غرهم ما فوجىء به المتدينون من وهن وقتى اخذ عليهم سبيل الرد المفحم ، فانبروا يعلنون ما اسموه بخرافة الايمان ، ولجأوا الى المنطق المادي الاصم في التعليل والتدليل ، واهمين انهم حطموا الاسطورة ، وقضوا بادلتهم الحاسمة على الاديان .

ولكن الغشاوة الكثيفة قد انجابت عن العيون حين قارن المنصفون بين اطمئنانهم المؤمن ، وقلقهم الملحد وحين واصل العلم فتوحاته ، فرأى علماء الذرة والفضاء ما يشمل الاجرام المختلفة من نظام دقيق لا يعقل ان تبدعه المصادفة دون ان يعتريه في ملايين السنين المنصرمة خطأ عابر يصطدم معه كوكب بكوكب ، فلا يدع على الارض نسمة تتردد ، ثم ما علاج هذا القلق الحائر الذي جعل النفوس دون ايمان تعتقد انها تتخبط في

تية هائل لا تحده الضوابط ، دون ان تجد مرفأ للراحة والاطمئنان ، فالى من يلجأ المريض اذا اعضل داؤه ؟ وكيف يصبر المغبون على ظلمه دون ان يعلم ان هناك ربا يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ؟

ثم الى من يحتكم الناس في تطاحنهم المرير ؟ أ الى العقل وهو ذاتي يخضع للملابسات ؟ ام الى الضمير وهو وليد مؤثرات اجتماعية اصطلح عليها العرف العام ، ام الى القانون وهو مما يسنه الاقوياء ليسلبوا به الضعفاء . . . ولا بد من حكم عادل تطمئن اليه النفوس ، ولن يكون غير فاطر السموات والارض ، ومحيي الكائنات .

يتحدث بعض الملحدين عن نفسه فيقول ، لقد كنت في بعض الاوقات اتصور نفسي دون ايمان كاني اجلس على قمة مرتفعة لقطعة من الارض ممتدة الى البحر ، يحيط بها الماء من كل مكان فاجد نفسي محاطا بالمجهول من كل ناحية ، كاني اقف في اقيانوس لا ساحل له ، وليس لدي سفينة او شراع او بوصلة ، فسالت نفسي عند ذاك ، ما معنى هذا التأمل في المجهول إن لم يكن انفجارا للعاطفة الدينية التي زادها العلم المحسوس قوة بدل ان يطفىء جذوتها .

ولا نجد في مجال التعبير الادبي تصويرا ابلغ من هذا التصوير نقدمه الى المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، والى المترددين فيعتبرون .

ثورة الفكر الاسلامي
المساواة . .
امام القضاء

من الانصاف عندما نريد تقدير شيء ان ندري الظروف المحيطة به . . فكثير من الافكار التي تبدو لنا مالوفة في ايامنا هذه كانت على عهدها متقدمة وثورية ايضا ، وكانت صدمة لبعض الناس في زمانها . .

من ذلك المساواة امام القضاء . . ان ابناء هذا الزمان يرونها امرا من امور البداهة ولكن الذين عاشوا قبل الغاء الامتيازات الاجنبية يذكرون اية مرارة كان يعانيها المواطن في وطنه وهو يرى الاجانب يتمتعون بامتيازات امام القضاء لم تكن للمصريين . . وكان هذا الامر عاما في كل البلاد التي كانت في يوم من الايام تابعة للخلافة العثمانية وجزءا من امبراطورية آل عثمان .

ولقد كان من اهم اهداف الثورة الفرنسية : المساواة . . وبصفة خاصة المساواة امام القضاء . . فقد كان للامراء ورجال الحاشية وكبار الملاك امتيازات خاصة . .

ولكن الاسلام كان قد تخلص من هذا كله منذ زمن بعيد . . وقد فتح المسلمون بلادا كثيرة ، وكان من الطبيعي ان يشعروا بالامتياز على ابناء البلاد المفتوحة الذين حررهم الاسلام . .

ولكن ولاة امورهم كانوا يردونهم الى تعاليم الدين بحسم . . ويكلفونهم في سبيل تحقيق المساواة مشقة هائلة . . من ذلك ما كان يفعله عمر الخطاب . . فقد ولي عمرو بن العاص حكم مصر بعد الفتح . . وتجادل ابن عمرو وابن احد ابناء الفقراء المصريين فاعتدى ابن الامير على ابن الفقير . . وشكا المعتدي عليه الى عمر بن الخطاب فارسل يقرع عمرو بن العاص « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟» وامر فاقتص ابن الفقير من ابن الامير . . عمرو ابن العاص . .

كان عمر بن الخطاب شديدا حقا في اقرار هذه المساواة لكيلا يشعر احد الذين دخلوا الاسلام حديثا بانه اقل درجة ، ولكيلا يشعر احد السابقين او القرشيين بان السبق الى الاسلام او الانتماء الى قريش يمنحه امتيازا ما فتنهار قاعدة العدالة التي هي احد اركان النظام الذي انشأه الاسلام .

ولقد كان ببعض الصحابة هذا الحرص نفسه وكانوا يشعرون بحرج كبير من كل ما قد يثير شبهة التفرقة او يمس قاعدة المساواة .

وقد احتكم يهودي وعلي بن ابي طالب الى عمر بن الخطاب وهو امير المؤمنين . فقال عمر لعلي : « قم يا أبا الحسن واجلس امام خصمك . . ساو خصمك يا ابا الحسن » . .

فقام علي فجلس امام خصمه مساويا له . . وقد غشيت وجه

علي كرم الله وجهه كآبة . فلما انتهى النزاع وقضى عمر وانصرف اليهودي قال عمر لعلي متلطفا : اكرهت يا علي ان تجلس امام خصمك ؟ . .

ولكن علي بن ابي طالب اجاب : « كلا ولكني كرهت انك لم تسو بيننا حين قلت لي يا ابا الحسن ». (وابو الحسن هو كنية علي . . والنداء بالكنية تعظيم عند العرب) بهذه الروح عند الحاكم والمحكوم . . اكد الفكر الاسلامي الحر ، قاعدة المساواة امام القضاء . . ان الناس سواء في الحقوق والواجبات . . لتكون هذه المبادىء من بعد هدف الثورات الكبرى في التاريخ الانساني . .

مع آيات الله في كتابيه

المنظور

ان الخالق ـ الذي شاء لسمو شأنه وجلال قدره ان لا تدركه حواسنا ـ لم يتركنا هكذا حيارى في بيداء الحياة الدنيا . بل تجلى لنا في كتابين خالدين : كتاب نراه ونحس به هو الكون او

الكتاب المنظور ، وكتاب نقرأه ونرتله هو القرآن الكريم او الكتاب المسطور (وهو المعجزة الخالدة) .

وكان من الطبيعي ان يستمد الكتاب المسطور كثيرا من ايات الكتاب المنظور وعلى هذا النحو تحدث عن السماء والماء ، والهواء ، والاحياء ، والارض ، والجبال ، . . . . . . وهكذا اثار القرآن الكريم قضايا علمية عامة ، هي في حد ذاتها من روائع المعجزة الخالدة .

وبدهي أن المعجزة الخالدة التي خاطبت العقل ، ووجهت الحديث الى اهل العلم والفكر ، لا يمكن ان يقف اعجازها عند عصر معين او يحد ، ثقافة بالذات ، كما انها الرباط الوثيق بين العلم والايمان . وقبل ان نشرح ذلك نجب ان نبين امرين هامين :

الاول ان الله تعالى يمكن ان يرى بالقلب تحت شروط معينة بطبيعة الحال اذ ان القلب وحده هو الذي يمكن ان يتسع لجلال الخالق وقدره العظيم ، بشرط ان يكون عامرا بالايمان وان يكون صاحبه نقي السيرة طاهر السريرة .

والثاني ان العلم قام على اساس تلمس الحقائق في الكون باستخدام الحواس ، ويرقى الى مستوى الحس ويلتقي العلم بالدين لأن العلم انما يبصرنا بآيات الخالق في كتابه المنظور او

ناموس الكون الثابت الشامل ، بينما يشير كتاب الخالق المسطور الى بدائع ذلك الناموس لنلمس قدرته .

[ان في السموات والارض لايات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة ايات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فاحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح ايات لقوم يعقلون].

ويأمرنا القرآن بدراسة آيات الكتاب المنظور على نفس المستوى الذي ندرس به آيات الكتاب المسطور ، لانه بطبيعة الحال لا يقل العمل قيمة عن الكلام ،

١ ـ قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق .

٢ ـ قل انظروا ماذا في السموات والارض . .

وتتضمن الاية الاولى كل الاسس التي قام عليها صرح علم الجيولوجيا ، ذلك العلم الذي اسسه لورد هاتون منذ نحو ٢٠٠ سنة فقط عندما قال : (ان تاريخ الارض مكتوب بين طيات قشرتها)، ولم يكن على عالم الجيولوجيا الا ان يسير في الارض ويجمع الحفريات او الاحافير ويحاول الربط بينها ، ومن ثم التعرف على تاريخ الارض وما عليها . .

وبعد أن نشأ العلم في احضان الدين عند اجدادنا على ايدي امثال الخوارزمي والبيروني والحسن ابن الهيثم و . . . . . . عمد

الاوروبيون في العصور الوسطى الى فصل العلم عن الدين ، تم نقلناه نحن عنهم مفصولا في هذا العصر ، وقد آن الاوان لرد الامور الى نصابها في اطار العلم والايمان .

ونحن عندما نرفع راية (العلم والايمان) لا نعني اخراج العلم عن منهجه ، او تغيير الطريقة العلمية ، انما نعني ضرورة امتداد الحقائق لكي تصل الى الغاية وتبين العلة ، ولا تقف عند حد مجرد سرد الاية كما يفعل الغربيون .

علينا ان نؤمن أن اعظم اهداف العلم اظهار آيات الخالق في كتابه المنظور ، وكذلك خدمة البشرية وتقديم او توفير العون للانسانية والامثلة على ذلك كثيرة ، ولعل من ابسطها واعمها آية الثلج !

فالثلج ـ وهو الماء الصلب ـ اخف من الماء السائل الذي في نفس درجة الحرارة . والتعبير العلمي هو ان كثافة الثلج تساوي تسعة اعشار كثافة الماء ، مما يجعل الثلج يطفو جزء منه فوق سطح الماء ، مخالفا بذلك القاعدة العلمية العامة !!

والعلة التي تكمن وراء هذه الحقيقة هي ان اكداس الثلج الهائم الذي ينساب من القطبين الى المحيطات تتعرض لاشعة الشمس فتذوب اولا باول بدلا من ان تغوص الى قاع المحيط المظلم وتظل عني حالها ، وبمرور الوقت تتجمد محيطات الارض وتنعدم فيها الحياة كما ينعدم البخر ، ومن ثم ينعدم المطر وتموت

الاحياء على اليابسة . ان العناية الالهية هي التي جعلت آية الثلج أن يطفو فوق الماء ، مخالفا بذلك القاعدة العامة المعروفة في الطبيعة وهي ان الجسم الصلب اكبر كثافة من نفس مادته السائلة ولا يمكن ان يطفو ، بل يغوص .

ولو أن مهندسا من ابرع المهندسين صمم للارض سقفا لقصر فوائده على عدد محدود منها ، ولكن الخالق اراد ان يكون هذا السقف غازا (هو الهواء) بدلا من ان يجعله صلبا او سائلا . واحتفظت الارض بهذا السقف الممتد عبر نحو الف كيلومتر فوق رؤ وسنا بقوة جاذبيتها ، رغم ان من اهم صفات الغازات ميلها للتسرب والهروب

وهكذا عادلت قبضة جذب الارض قوة هروب الهواء وانطلاقه الى الفضاء فظل سقفا محفوظا ومرفوعا بغير اعمدة

ويقدم هذا السقف لبلايين البشر خدمات (وآيات) لا حصر لها بلا مقابل يعرف بعضها الدارسون والمتخصصون ولكن مرة اخرى لا بد من اظهار تلك الايات المعجزة مصداقا لقوله تعالى :

(وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) ، والله اعلم ■

المؤمنون الصادقون

المؤمنون الصادقون هم الذين اشرف نور الايمان في قلوبهم

عهدوا الي الصراط المستقيم لا تهتز عقيدتهم في شدة او رخاء ، ان احاطتهم السراء شكروا وان نزلت بهم الضراء صبروا .

ثقتهم بالله فوق الاحداث ، يخضعون الدنيا لدينهم فما اتفق منها مع الدين اخذوه وما تعارض معه تركوه في رضا لا يساوره قلق ، وصدق الله اذ يقول : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون .

هم قاعدة الايمان الصلبة يرفضون الذلة والهوان ، لانهم اعتـزوا بعزة الله وقـووا بقوتـه : « ولله العزة ولـرسـولـه وللمؤمنين » .

ميزوا بالبصيرة النافذة فرأو الله في انفسهم ، وفي كل ما يحيط بهم في عظيم صنعته . وجلال قدرته . واياته في الافاق فازدادوا ايمانا وخشوعا وصدق الله اذ يقول : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

وهذه النماذج المتألقة من البشرية تستعلى بالغرائز في اعماقها لتتحول الى طاقات بناءة فهي تندفع الى الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال واثقة بالنصر او الشهادة لا تتاخر عن المعركة مهما كانت الظروف ، فحنظللة بن ابي عامر الذي زفت اليه

عروسه ، يسمع المنادي يقول : « يا خيل الله اركبي فينتزع نفسه من الفراش معجلا لياخذ مكانه في صفوف المجاهدين وقضى الله ان يستشهد .

والصور كثيرة تعطر جوانب التاريخ قدوة لمن اراد ان يتأسى ودليلا حيا على ما تفعله العقائد في نفوس اصحابها من قدرات تحقق النصر ، وشجاعة باهرة ليس فيها ذرة تردد او ضعف .

ولقد وعد الله المؤمنين الصادقين بالطمأنينة والهداية من كل شر : « الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون » يحفظهم الله كما حفظوه ويثبت اقدامهم . فلا روع ولا خوف . يهديهم خير السبل . « يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم ».

من آيات الأحكام

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتِ قَالَ إِلى تُبْتُ الآنَ ولا الَّذِينَ يَموُتُونَ وَهُمْ كُفُارٌ أُولَئِكَ اعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

الآيتان ١٧ و ١٨ من سورة النساء

التوبة .. والتائبون

في هاتين الآيتين الكريمتين يرسم القرآن الكريم الطريق الذي يأخذه العصاة والمذنبون ، الى الله تائبين مستغفرين لذنوبهم ، حتى يلتقوا بربهم في ساحة مغفرته ورحمته .

فالتوبة في شريعة الاسلام ، باب واسع من ابواب رحمة الله بهذه الامة ، يفتح لكل طارق يطرقه من الضالين والزائغين ، في اية لحظة من نهار او ليل ، فلا يرد مذنبا مهما حمل معه من ذنوب ، متى جاء رب بقلب سليم .

ومن جلال التوبة وعظمتها انها في شريعة الاسلام عقد بين العبد وربه ، لا يحضره الا ما مع العبد من ولاء لربه ، ومن حياء من عصيانه ، ومن طمع في عفوه ومغفرته .. وبهذا يستر الله تعالى على المؤمن ذنوبه ، ويداري عيوبه ، فلا يطلع عليها انسان ، وبهذا يحتفظ المذنب التائب بآدميته وكرامته بين الناس ، على خلاف ما لو كشف المذنب ذنبه لانسان ـ أيا كان هذا الانسان ـ فان ذلك يضعه موضع الخزى والذلة بين يدي هذا الانسان ! ولهذا جعل الله سبحانه التوبة اليه وحده ، فقال سبحانه : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » كما جعل غفران الذنوب لذاته وحده جل شانه ، فقال تبارك اسمه : « ومن يغفر الذنوب الا الله » . . وذلك ليرفع من خسيسة هذا الانسان الذي

تدنس بالمعصية وتلطخ بالاثم ، فاذا هو رجع الى ربه تائبا ، طهره من ذنوبه ، وغسله من آثامه ، واعاده الى الحياة نقيا طاهرا كيوم ولدته امه .

والمراد بالجهالة هنا ليس هو عدم علم المرء بالمنكر الذي يرتكبه ، كمن يأكل لحم ميته او خنزير غير عالم بصفته تلك ، فذلك محسوب من باب الخطأ المعفو عنه . . وانما المراد بالجهالة ما يركب الإنسان من خفة وطيش حين يواجه المنكر ، ويقع بين يديه ، حيث يذهب لبه ويطيش عقله ، ويطير صوابه ، وتغشاه حال من الذهول اشبه بحال المخمور . .

والتوبة من قريب هي التوبة التي تعقب المعصية التي وقع فيها المؤمن . . فالمبادرة بالتوبة من هذه المعصية ، والانخلاع عنها ، ينبىء عن شعور ضائق بالاثم ، مختنق بالمنكر وعن ضمير يأبى ان يبيت مصاحبا لشبح هذا الذنب الذي الم به . . فهذا هو شأن المؤمنين الذين يخشون ربهم ، والذين يقول سبحانه فيهم : « والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » « اولئك جزاؤ هم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين » .

مساواة

قرر القرآن الكريم ـ دستور الاسلام وهدية السماء الى

الارض . المساواة بين الناس في عنصر التكوين . فأصل الانسان البعيد هو التراب والقريب من نطفة من ماء مهين . . فالناس جميعا من اصل واحد . كلهم لآدم . وآدم من تراب .

فمبادىء الاسلام لا تعرف لونا . ولا حسبا ولا عنصرية . فرب حسيب نسيب لا يزن عند الله جناح بعوضة . . ورب اشعث اغبر لو اقسم على الله لابره . . وهذا رسول الاسلام لا يقيم وزنا لمظهر الرجال بل يفضل الذي يعرف عنه صالح الاعمال . .

يروى ان أبا سفيان مر على سليمان وصهيب وبلال من نفر فقالوا : (ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذا) فقال ابو بكر : اتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم . . ؟ فأتى النبي فاخبره . . فقال : يا ابا بكر : لعلك اغضبتهم . لئن كنت اغضبتهم فقد اغضبت ربك . . فاتاهم ابو بكر . فقال : يا اخوتاه . . أأغضبتكم ؟ قالوا : لا . . يغفر الله لك يا اخي

فلقد راعى رسول الاسلام كرامة سلمان وهو فارسي . وصهيب وهو رومي . وبلال وهو حبشي . وحذر ابا بكر من اغضابهم .

ويروي التاريخ أن بلالاً الحبشي وصهيباً الرومي . وأبا سفيان القرشي وجماعة من عظماء قريش وقفوا بباب أمير المؤمنين عمر يستأذنون في الدخول عليه . فبدأ بالاذن لبلال وصهيب

تعظيمًا لحق السبق إلى الاسلام دون اعتبار للعنصرية والطبقية .

فأين من هذه السماحة الاسلامية ما يتسامع به العالم اليوم من معارك التفرقة العنصرية في غير مكان وهي تأخذ شكل العراك المسلح بين البيض والسود . في دول الغرب التي تتشدق بالمدنية . .

ان المجتمع اشد احتياجا الى هذه التعاليم اليوم اكثر من حاجته الى سفن الفضاء . ومخترعات الدمار والفناء . . واقامة العدل بين الشعوب والامم رهن بتطبيق مبادىء الاسلام . التي ينطق بها دستوره العظيم .

الاعجاز . . القرآني

جاء القرآن ل مؤيدا لدعوة خاتم الرسل ، ومعجزة تثبت صدق ما يقول ولقد كانت آيات القرآن واضحة في تحدي الذين أرسل إليهم وكذبوه (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً فأتوا بسورة من مثله) وكان الرد المباشر على دعوة التحدي عجزا بينا تمثل في ذلك الموقف الذي اضطر المكذبين الى رفع السيف واراقة الدماء ، ولو قد استطاعوا ان يفحموا الكلمة بالكلمة لما اريقت دماؤهم وعزتهم ومعتقداتهم ، وتمثل أيضاً اعترافهم على لسان احد قادتهم . بأن له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اسفله لمغدق وان اعلاه ل لمثمر وانه يعلو ولا يعلى عليه .

ولقد عكف الدارسون العرب من علماء البلاغة والمتكلمين على دراسة ظاهرة الاعجاز . وكان لهم فيها اتجاهات ثلاثة ، اولها اتجاه سلبي يرى ان سر الاعجاز هو (الصرفة) ويعني بها ان الله صرف العرب عن ان يأتوا بقرآن مثله مع ان ذلك كان في مقدورهم . . وهذا الاتجاه ينسب الى النظام . وهو مرفوض من جمهرة العلماء .

وثانيها . . اتجاه يرد الاعجاز الى ما تضمنته معاني القرآن من الاخبار بالمستقبل المغيب ، والماضي البعيد ، مع ان مبلغه عليه السلام امي لم يتلق المعرفة على يد احد ، الى جانب ما يحتويه اسلوبه من الوان من البلاغة .

اما ثالث الاتجاهات . . فلا يرجع الاعجاز لمجرد اشتمال الاسلوب على هذه الادوات لان الاساليب الراقية في اللغة ايضا تشتمل عليها ، وانما لما أبدع فيه القرآن من بناء العلاقات بين الكلمات داخل الجملة ، بحيث لا يمكن ان ينزع منه فعل ويوضع مكانه اسم ، او تقدم فيه كلمة او تؤخر اخرى ، او يحل مكان الجملة ما يرادفها معنى ، او يستبدل فيه اسلوب خبري باخر انشائي . .

. . وهذا المنحى في ملاحظة دقائق التركيب هو ما عرف بنظرية النظم . . ونسب الى الامام الجليل عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز ، وبه وصل البحث البلاغي في قضية الاعجاز الى قمة ما أراد.

: احمد درويش :

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير ت م ١٠٤ ٢٧

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

رمضانيات

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية



الناشر : دَار الفكر اللبناني
تلفون : ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس : ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



هذا الشهر المبارك

لشهر رمضان المبارك ميزات بارزات على سائر الشهور . وهذه الميزات الكبيرة الخالدة التي اختص الله بها شهر الصيام وحباه فضلها المبين دون سائر شهور السنة هي متعددة الجوانب . منها أنه الشهر الوحيد الذي ورد ذكره في « الذكر الحكيم » نصّاً . قال الله تعالى في محكم كتابه : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وبقية شهور السنة ليس بينها من ذكره القرآن نصّاً ، كما ذكر شهر رمضان .

ومن مزاياه البارزة أن الله تعالى مدحه بمحكم كتابه في الآية السابق ذكرها . قال الامام ابن كثير في تفسيرها : يمدح الله شهر الصيام من بين سائر الشهور ، بأن اختاره من بينهنّ لإنزال القرآن العظيم . وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلٓهية تنزل فيه على الأنبياء . . قال رسول الله ﷺ : « أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ،

وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأبع وعشرين خلت من رمضان »[١] .

ونزول القرآن في شهر رمضان ، كان جملة واحدة إلى سماء الدنيا فجعل في بيت العزّة ، ثم أنزل على رسوله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس[٢] .

ومن مزايا هذا الشهر المبارك أن الله جلت عظمته وحكمته ، اختصه من بين سائر شهور السنة بفرضية الصيام في دين الاسلام ، فيصوم فيه ـ فرضاً محتمًا ـ المؤمنون البالغون العقلاء القادرون غير المعذورين بالأعذار التالي بيانها ، ثلاثين يوماً ، أو تسعة وعشرين إذا كان الشهر ناقصاً . والصوم في رمضان ليس صوم وصال أي صوم النهار مع الليل معاً ، فذلك ما لا يطيقه الانسان . والله لا يكلف الناس إلاّ ما في وسعهم ، وإنما يجب الصوم في بياض نهار رمضان فقط ، أي من السحر إلى غياب الشمس . . أما الليل فيباح من السحر إلى غياب الشمس . . أما الليل فيباح فيه للمسلم الصائم كل ما يباح له في غير شهر الصوم من أكل وامتاع وشرب وما إلى ذلك .

ومن مميزات شهر رمضان المبارك التي لا تنسى انه كان شهر الفتوح الاسلامية الأولى ، ففيه كانت غزوة بدر أول فتح حربي

في الاسلام وفيه كان فتح مكة السلمي وكان هذا الفتح فتح الفتوح في الاسلام .

والمعذورون في نظر الإسلام ، من عباد الله البالغين ، منهم من إذا أبيح له الفطر لعذره الواضح ، فيجب عليه القضاء إذا زال هذا العذر عنه . ومن هؤلاء : المسافر والمريض الذي يرجى برؤه ، والحائض إذا زال عنها الحيض ، والنفساء إذا انتهت المدة المعينة لنفاسها . .

ومن « المعذورين » طائفة رفع عنهم الصيام رفعة واحدة ، لأن أعذارهم لا تنقضي ولا تنقطع . . وهؤلاء هم المرضى العاجزون عن الصيام في أمراض لا يرجى برؤها ، والشيوخ الهرمون الفانون . وعلى هؤلاء ـ على تفصيل واختلاف بين العلماء ـ فدية طعام مسكين عن كل يوم .

وصيام المسلم القادر البالغ لشهر رمضان هو في صميم مصلحته الدنيوية والدينية . . فالمرء يتناول مختلف الأطعمة والأشربة بدون توقيت أو ميزان ـ على الأغلب ـ طيلة شهور السنة الأحد عشر ، فيسوء هضمه ، وتتضرر صحته تضرراً يلمسه هو ويشعر به في دخيلة نفسه ويشاهده من يعرفه على قسمات وجهه وفي تلافيف جسمه . . فإذا حل شهر الصيام ، كان هذا الشهر الحد الفاصل لما يتناول وما لا يتناول ، وكان فيه تحديد ما يأكل ، فيأكل أكلاً خفيفاً يقيم صلبه ـ هذا إذا تمسك

بتعاليم الاسلام ـ ويتباعد عن الأكلات الدسمات التي توجب التخمة وامتلاء البطن وانتفاخ الأمعاء . . فيضمر جسمه المترهل وتشتد عضلاته ويعود إليه ما افتقده من صحة أثناء شهور العام الأخرى . .

ويزيد هذا «المحصول الصحي» نضرة وإشراقاً وائتلاقاً ، في كيفية وكمية ، بما يقوم به أثناء الليل من صلاة التراويح ، وبما يقلّله أثناء النهار من نوم ، وبما يكثّره فيه وفي الليل من قراءة القرآن بلسم الأرواح وحادي البهجة والمتعة الفكرية . فتكون هذه الأعمال كلها روافد لأمنه الصحي والروحي ومتعته . . فإذا هو مشرق الجسم بالصحة ، مشرق الروح بالفرحة ، والايمان والعمل الصالح المبرور والعبادة الخالصة لوجه الله : « الصَوم لي وأنا أجزى به » . . كما ورد في حديث قدسيّ معروف .

وهكذا يجمع الصوم للمسلم الصائم مزايا جمة ، لصحته وقوته ، وعصمته ، ونفحته بأريج سماويّ عطر من أريج الملائكة الأطهار في ساعات النهار . . فالملائكة من ميزاتهم أنهم لا يتناولون طعاماً ولا شراباً ، ولا يفتـرون عن ذكر الله وتسبيحه . .

وبعد ، فإن في صيام شهر الصيام « رياضة مزدوجة » . . فيه رياضة روحية تصهر كل الآثام وتكبح جماحها ، وتزرع في قلب المرء مزايا سامية ، يتحوّل بها من السلبية إلى الايجابية ، ومن

الضحالة إلى العمق والإلهام .

وفيه كذلك رياضة جسدية بارزة ، إذ يجعل الصيام المرء محدود المطعوم والمشروب وإذ يخصص وقتاً معيناً لأحجامه عن تناول المطعوم والمشروب ، ووقتاً آخر معيناً لتناوله ، كل ذلك بنظام في منتهى الدقة والحكمة كيما يجعل للانسان سبيلاً قويماً لا حباً إلى حماية صحته وتفكيره من غوائل الانهماك والافراط فيها قد يعود عليه بالضرر .

إن شهر الصوم إذن هو « دورة رياضية سنوية قدرها الله لعباده المؤمنين » ووقّت لهم زمنها ، وحدّد لهم كيفيتها وكميتها وتراتيبها رحمة بهم ولطفاً ، ونعمة عليهم وعطفاً .

ومن كمال عنايته بالمؤمنين من عباده أنه قرر لهم بعد استكمالهم إجراءات هذه الدورة الرياضية السنوية الروحية القيمة ، ذات الأثر العميق والايجابي في نفوسهم ومعنوياتهم وذاتياتهم وأرواحهم ، يوم مهرجان حافل بالأفراح والبهجة والمتعة أباح لهم فيه كل ما كان محرماً عليهم في أنهر رمضان من مباحات الأمور في شرعة الحكيم ، وحرّم فيه عليهم ما كان واجباً عليهم أداؤه ، بالأمس في بياض تلك الأيام من رمضان ، ألا وهو « الصوم » . وهذا المهرجان ، مسك الختام لشهر الصيام ، هو « يوم عيد الفطر الميمون » . . وكل عام ليحتفل المسلمون

بشهر رمضان ، وليفرحوا بعد صيامه ، بمسك ختامه ، وزهرة نظامه .

مفتاح النصر !

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين في معركة القادسية ، يوصيه ويحذره ، فكان مما قاله له في كتابه : . . . وعليك بالنظر في سواد جندك ، فإنكم إذا جانبتم نهوى الله ، ما نلتم بذلك عدوكم ، فكاثروكم بعددهم . . فغلبوكم . .

هذا الشهر

لا يستطيع الانسان أن يقدر الأثر الجليل الذي يحدثه رمضان في حياة الأمة كل عام إلّا إذا إتفق له أن يمر بعد الغروب مباشرة في طريق عام فيرى كيف تقفر الطرق من الناس . .

فهذا الصمت والسكون المطبق وهذه العزة والفخار الذي يعلو وجوه الناس يبدد كل شك في قوة إيمان هذا الشعب واعتزازه بدينه .

يشبه رمضان صوتاً عالياً مجلجلاً يهيب بالناس في كل عام :

ان أذكروا ربكم وعودوا إلى حظيرة دينكم . . فإذا بروح دينية جديدة تتغلل في أعماق نفوسكم فتحملهم على التعاطف والتآلف والتلهف على المزيد من المعارف الدينيـة والعمل الصالح . .

ولكن كيف نستفيد من ذلك ونتجه به إلى الطريق السليم ؟

إن الحياة العادية اليومية تخفي صراعاً مضمراً بين مطالب الدين ومطالب الدنيا . وليس بجديد أن نقول أن السعي وراء المعيشة كثيراً ما يستغرق جهود الانسان ويستبد بأفكاره ونشاطه إلى حد يصرفه عن الفروض الدينية نفسها فتصبح نفسه مجالاً لصراع خفي بين فروض الدين وواجبات الحياة ولا يكاد يسلم من ذلك إلا القليل الذين يقول الله فيهم : « رجال لا تلهيهم تجارة ، ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة » .

إن المبدأ الذي يجب أن يأخذ به كل فرد هو الاستفادة من روح رمضان الكريمة ، وأول ذلك اتخاذ هذا الشهر وسيلة لسد النقص الذي كثيراً ما يطرأ على الحياة الدينية في بقية شهور العام وفي مقدمة ذلك ما يتصل بالصلاة . فمن الشذوذ الديني الصارخ أن تهمل الصلاة حتى في شهر الصيام ، ولا بد لمن حرمته ظروفه منها طول العام أن يستجد في رمضان عزيمة قوية على أداء الصلاة ومغالبة كل الظروف التي تعترض طريقه إليها .

ويقترن بالصيام واجبات أخرى كثيرة وربما كانت الواجبات الاجتماعية أهمها فإذا كانت ظروف الحياة العلمية القاسية قد أثّرت في حسن الصلاة بين الناس ، فلا بد لنا في رمضان من استرجاع روابط الأخوة والمحبة والتآلف .

ويجب أن تعبر هذه العواطف عن نفسها تعبيراً إيجابياً قوياً فلا يكفي الكف عن التباغض والتنافر والتنابذ بالألقاب الجارحة فهذه هي الخطوة الأولى ونحن وإن كنا في أشد الحاجة إليها فإنها لا تغنينا عن واجباتنا الايجابية الضرورية لسعادة المجتمع ورفاهية الأمة .

لقد قرر الله عز وجل في كتابه وقرر الرسول ﷺ في المأثور من أحاديثه مبدأ الأخوة كأساس للصلات بين الناس ومصدر للمعاملات المتبادلة بينهم وعلى أساس هذا المبدأ وضعت شريعة الاحسان والتعاون . وقدم الرسول عليه الصلاة والسلام نموذجاً لذلك وبخاصة في شهر الصيام .

وعندي أن إبنٍ حزم على حق حينما يقول ليس بأخ من يرى أخاه يتضور جوعاً وهو يقدر على إنقاذه ثم لا يبالي به ولا يفكر فيه .

والأخوة التي يقررها الاسلام لا بد أن تكون أساساً لواجب التعاون والاحسان وإلّا فهي كلمة جوفاء ، ولو سارت الأمور في

مجراها الطبيعي لتحول شهر رمضان بوجه خاص إلى شهر بذل وإحسان وعطاء عام غامر يشترك فيه الكبير والصغير والنساء والرجال ليلاً ونهاراً وسراً وعلانية ، ولكان المبدأ الذي يسير عليه كل فرد والآية التي يرددها كل إنسان هو قوله تعالى :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

رفض المال
مخافة الكبرياء

قيل ان أحد الفقراء دخل مجلس النبي ﷺ وعنده رجل غني ، فكف الغني ثيابه عنه . فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت ! أخشيت أن يلصق فقره بك أو يلصق غناك به ؟

فقال الغني : يا رسول الله . . أما إذا قلت هذا فله نصف مالي .

فقال رسول الله ﷺ للفقير : أتقبل منه ؟

قال الفقير : لا

قال النبي ﷺ : ولِـمَ ؟

قال الفقير : أخاف أن يدخلني مدخله .

لقد أشاعوا في غريزة الجنس أنها سيدة الغرائز ، ولا مناص من الخضوع لها ، فمقاومتها كبت ، والكبت يورث الجنون ، ولقد اغتر بقولهم الزائف بعض من لا مناعة لهم من الدين ، ولكن الصوم أثبت أن الارادة أقوى من الشهوة ، وإنها تستعلي عليها ، حتى لتجعلها تحت الأقدام لا فوق الرؤوس .

إن الصائم المتزوج يكون أمامه في نهار رمضان زوجة الحلال ولا يقر بها لأنه ملك زمام نفسه وقوي الصوم إرادته فتحكم بها في شهوته فقهرها وأثبت أنه ليس عبداً لها مع قدرته على تلبيتها ، وغير المتزوج يستعين بالصوم على التحكم في غريزة الجنس وإضعافها حتى لا يكون لها عليه سلطان .

والصائم كما يتدرب على الاستعلاء على الشهوات ، يتدرب على صيانة اللسان من اللغو والفحش والبذاءة وقول الزور . . ويتدرب على صيانة الجوارح من المعاصي والآثام ، وهو يفهم جيداً قول الرسول الكريم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن أبدع طعامه وشرابه » .

وإن الصائم لتتربى فيه عادة مراقبة الله وخشيته ، فهو لا يعصيه سراً كمالاً يعصيه جهراً ، وهذه التربية تجعله ينفذ القوانين بدافع من مراقبة الله والضمير ، لا تحت أعين الشرطة

ولا خوفاً من العقاب والتكبر .

وانه ليعلم أن الرسول الكريم كان أجود ما يكون في رمضان ، وكان أجود من الريح المرسلحة فهو يتأسى به وينهج نهجه .

ومن أهم دروس رمضان أنه يدرب صائمه على أن يكون كذلك في سائر أشهر العام ، فرب رمضان هو رب سائر الشهور ، والرقيب عليه في رمضان هو الرقيب سائر الشهور ، فإذا انقضى رمضان سار في غير مسيرته عليه وراقب ربه ، وحاسب نفسه وأعلى إرادته وطامن من شهوته ، واستبق الخيرات .

وهكذا يخرج لنا رمضان كل عام أقواماً يحبهم الله ويحبونه ، جاهدوا أنفسهم فلما ملكوا أزمتها ساروا في الناس أجمل سيرة وسهل عليهم الجهاد في سبيل الله ، وكانوا خير أمة أخرجت للناس .

سبب . . توبته

قال محمد بن مسروق البغدادي : خرجت ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان ، وكنت أغني بهذا البيت :

بـطور سينـاء كـرم مـا مـررت بـه
ألا تـعـجـبـت ممـن يـشــرب المــاء
وفي جــهـنــم مــاء مــا تجــرعــه
خلق فـأبقى لـه في الجـوف أمعـاء

فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة .

رمضان والعلم والإيمان

ليست كأيام رمضان أيام نـأمل في ملكـوت السموات والأرض ، وما بينهما من اشعاعات الـروح ، وما في هـذه الاشعاعات من قبس إلهي ينير الطريق إلى الله في الدنيا والآخرة . . وفي هذا التأمل تبرز معالم هذا الطريق ، وتبدو على جانبيه أيام من الفكر الصائب الذي يهدي به الله عباده المتقين . . ومن آياته هذا الشعار الساداتي الذي انطلق منذ ١٥ مايو من هذا العام ، شعار « العلم والإيمان » .

إن العلم قيمة من قيم الحياة الأساسية أما الإيمان فهو قيمة هذه القيم جميعاً .

وفي شهر رمضان المبارك صلات روحية وفكرية وتاريخية بهذه القيم كلها . . فالله قد علم آدم الأسماء كلها ، وفي هذه الآية كما وردت في القرآن الكريم إشارة خالدة إلى أن العلم هو أساس

البناء في هذه الحياة الدنيا . . وطريق الاتصال بما فوق هذه الحياة الدنيا من خلود . .

والله تعالى حينما بعث محمداً نبياً ورسولاً للعالمين جعل أول هذه البعثة فتحاً مبيناً للعلم والإيمان بقوله تعالى : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم » .

فالواضح من هذه الآيات البينات أن الله قد جعل من « العلم » سبيلاً بين العبد وربه . . ثم سبلاً إلى التفكر في الخليقة نفسها على أسس علمية حين قال تعالى « خلق الإنسان من علق » فإن وراء هذه الحقيقة وحدها بحراً من العلوم الانسانية التي توحي الآية الكريمة ببحثها . .

ولقد اختار الله لنزول آياته الأولى شهر رمضان موعداً لهذا البعث العلمي الجديد حتى لقد جرى العرف على تسمية شهر رمضان بأنه شهر القرآن . . ولما كان القرآن الكريم هو مفتاح المعرفة فنحن نستطيع أن نسمي شهر رمضان شهر العلم أيضاً .

هكذا نزل القرآن في شهر رمضان المبارك داعياً الناس كافة إلى « العلم » . . وكانت هذه الدعوة السماوية في نفس الوقت دعوة إلى « الإيمان » . . والإيمان وقت واحد . . الإيمان يسبق العلم لأننا حين ننظر في ملكوت السموات والأرض انما نتحرك في هذه

النظرة إبتداء بدافع من هنا يسبق العلم ويلحق به في الايمان ، أي بدافع من الاعتقاد المطلق بأن في ملكوت الله ما يفرض الإيمان وعلى الإنسان أن يتزود منه بما يستطيع وما يشاء الله من علم . .

من هنا تبدو الرابطة واضحة بين العلم والإيمان ، شعاراً رمضانياً صالحاً .

وحين نقول أن شعار « العلم والإيمان » شعار رمضاني إنما نحن نشير إلى هذه الحقيقة التي أرادتها حكمة الله بنزول القرآن في رمضان وبتقديم القرآن لآيات العلم ، وما وراء هذه الآيات من أسباب الإيمان .

وليس شك أن حصن المؤمنين على العلم ليس مقصوداً به علوم الدين وحدها « فالدين ذاته يحصن المؤمنين على أن يعلموا من شؤون دنياهم ما يصلح لهم هذه الدنيا ويجعلها خير طريق إلى آخره كريمة . .

وليس شك أن الإيمان بالله واليوم الآخر يحمل في معانيه الواسعة الإيمان بكل القيم التي يحملها المعنى القرآني القائل : « وكرمنا بني آدم » فلكي يكون بنو آدم كرماء على أنفسهم مقربين إلى الله ينبغي أن يمتد إيمانهم إلى ما يصلح شؤونهم الوطنية والقومية والانسانية جميعاً والدليل على هذا المعنى واضح في الاصطلاح الاسلامي الانساني القائل الوطنية من الايمان .

لهذا نعتقد أن أيام رمضان المبارك من خير الأيام تفكراً وتأملاً وتحركاً في دائرة هذه المعاني جميعاً . . فليس بكاف أن نصوم ، ثم نظن أن كل شيء من أشياء رمضان على ما يرام . . بل ينبغي أن يكون صيامنا مصحوباً بتطبيق شعار « العلم والايمان » على نطاقه الفسيح الذي يتسع لصلاح أمورنا في الدنيا الآخرة .

إن صلاح أمورنا للآخرة طريق العبادات . . لكن العبادات لها أسلوب إضافي آخر لا بد منه ، هو العمل على صلاح أمورنا في الدنيا لكي نكون أهلاً لصلاح الآخرة . . وفي مقدمة صلاح أمورنا في الدنيا أن ندافع عن الحق . . أن ندافع عنه بالعلم والعمل . . ونحن الآن أمام حق مضاع تريد الفئة الباغية أن تسلبنا إياه سواء كان ما تسلبه أرضاً أو قيمًا قومية لا بد من استردادها .

أريد أن أقول أن الجهاد في سبيل هذا الحق عمل يرضاه الله . وتحضنا عليه روح رمضان ، شهر القرآن . . وأمامنا المثل الأعلى في هذا المجال أوضح ما يكون في معركة بدر التي خاضها رسول الله في شهر رمضان المبارك ، فاعتبر جهاد المسلمين فيها وفوزهم المؤزر بها آية من آيات رمضان .

وأريد أن أقول أن الصيام وحده لا يكفي . . إن سمة الصوم الحق هي الجهاد في سبيل الله وكل ما نجاهد به في سبيل الحق إنما نقدمه مرضاة لوجه الله الذي ينصر من ينصره فلنتخذ من هذا

الشهر الفضيل زاداً لنا في معركتنا المقبلة أيا كان توقيت هذه المعركة ، وخير الزاد التقوى . . ومن التقوى أن نتحرك كلنا قلباً ويداً وفكراً ولساناً على ضوء العلم والإيمان .

إن العلم والإيمان هما المجدافان في زورق النجاة إلى شاطىء الأمان . . فلننظر إلى هذا الشاطىء نظرة الارادة الصادقة بعيون التقي والصلاح في رمضان .

إنسان . . خير
من . . واحد !

خطب عمر بن الخطاب الناس يوماً فقال : إن رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا فقال : من أحب منكم أن يلزم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو مع الاثنين أبعد . .

وفي حديث للنبي عليه السلام يقول : إثنان خير من واحد ، وثلاثة خير من إثنين ، وأربعة خير من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة ، فإن الله عز وجل لم يجمع أمتي إلاّ على الهدى .

رمضان والجنة

إن تواصل القلوب فيه ما يغني عن إستمالة الرغبات

الدنيوية ، وكلما خلصت المودة من شوائب المادة صفت النفوس وقامت على العهد ، لأن الروح جوهر لا يتغير وكل ما يكون موضع إمداد له نفاد ونهاية وتقلب ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغيره انقطع وانفصل .

والتهادي قد يكون فيه رمز الود ، لأنه يدل على ترضية طبعية النفس في الفرح بها تملك لكن الاسراف فيه مضيعة .

قالوا : كان عمر بن عبد العزيز يصوم ويفطر على البقل ويغمس الخبز بالملح المدقوق فأهدى إليه إليه طبق تفاح وفاكهة لكنه رده ، ولم يتناول منه شيئاً ، فقيل له : ألم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ يقبل الهدية ؟ قال عمر: بلى ! أن الهدية للرسول هدية لكنها لمن بعده رشوة .

ولقد جرت العادة في « رمضان » على أن يتبادل القادرون الهدايا ويدفع السرف إلى التغالي حتى يكون الأثقال عليهم و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ، ولعل أفضل ما يهدي أن تجمع الهديتان وتقدما مما إلى بيت محتاج قد أغلق على أهله بمفتاح القناعة !! وقد جملتهم العفة وظهروا بمظهر الغنى ليستروا الفاقة ، وهؤلاء أحق الناس بالاهداء ، فقد تجملوا بالصبر

ويجب أن ينالوا حسن الأجر

وأن في رمضان ومضات نورانية تهتدي إلى البر ، فتخمد بها لذعة الجوع وحرارة العطش ، وقد روى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يرحم من أخطأ في حق ربه يوم القيامة ، وحين تسأله الملائكة ـ من باب التأدب والتعرف ـ عن سبب عدم تعذيبه يقول ـ جل وعلا ـ : يا ملائكتي إني أحرقته في الدنيا بنار الجوع والعطش حين صام رمضان ، فلا أحرقه اليوم بالنيران !

ونقول : إن نور الله في جليل رحمته ، والراحمون يرحمهم الرحمن !

الحياة الطيبة
هي .. القناعة

قال سعد بن أبي وقاص لإبنه عمر : يا بني : إذا طلبت الغنى فأطلبه بالقناعة ، فإن لم تكن قناعة فليس يغنيك مال .

وقال بعض المفسرين في معنى قوله تعالى : « فلنحيينه حياة طيبة » يعني بالقناعة .

في نور القرآن الكريم

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

القرآن الكريم كتاب الله المعجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا وانتظمت سعادة الأولى . والآخرة ونزلت هدى ونور للبشرية فقضت على الأوهام الباطلة والأساطير الكاذبة والعبادات الضالة ونقلت الانسانية من عصر تسوده الفوضى ومبادىء الطغيان والعبودية إلى حياة فيها رضا وأمن وطمأنينة وسلام وحرية وعدل . .

ويتجلى أمجاز القرآن الكريم في بلاغته وروعته وجدته التي تأخذ بالأفئدة والاسماع والمشاعر والعواطف فهو كتاب الانسانية نزل إلى البشرية قاطبة موجهاً إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة والأمن والسلام والخير المطلق والأخاء والحق والعدالة والحرية والمساواة بين الناس ، ولذلك يجد فيه من يقرأه السكينة والراحة النفسية والدواء لكل ما أهمه وأحزنه ، ولا شك في أن المؤمن إذا رتع قلبه في رياض القرآن كان له ربيع عمره ، واستضاء به في ظلمات الشبهات والشهوات وتسلى به من كل فائت وتعزى من كل مصيبة واستشفى به من ادواء صدوره ،

فيكون جلاء حزنه وشفاء همه وغمه .

والشفاء هو البرء من السقيم ، والمراد أن القرآن الكريم هو الدواء المعنوي ، يشفي صدورنا من النفاق والأحقاد ويكون للأجسام أيضاً من بعض الأضرار ، كما أمر الله رسوله ﷺ أن يتحصن من السحر ومن الحسد بقراءة المعوذتين ـ وكما كان النبي ينصح بالرقبة لمن يشكو بعض مواجعه فيأمرهم بقراءة « هل هو الله أحد » و « المعوذتين » ، وهذا ليس بكثير على كتاب الله وإنما يحتاج إلى صدق الإيمان وتمامه .

ومن المأثور عن النبي ﷺ من الدعاء إذا أصاب الانسان هم أو حزن قوله « اللهم اني عبدك وإبن عبدك وإبن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل إسم هو لك ، سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي » .

والقرآن الكريم هو شفاء جميع الأذواء القلبية والبدنية وإذا أحسن العليل التداوي به ووضعه على دائه بصدق وإيمان واعتقاد ، لم يقاومه الداء أبداً ، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدمها أو على الأرض لقطعها ، انه الكتاب الجامع للفوائد والمنافع ، مبين للمعارف .

الحقة التي هي شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائفة ، جاء رحمة للمؤمنين ، نجوا به من ظلمات الكفر والغلال إلى نور الإيمان .

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ؟ وجل من قائل « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

الدين النصيحة

كان جابر بن عبد الله يشتغل بالتجارة وكان من عادته عندما يعرض السلع للبيع أن يبصر المشترى بما قد يكون فيها من عيوب ويقول : ان شئت فخذ ، وإن شئت فأترك .

ولما قيل له أن تصريحه بعيوب السلعة يوقف بيعها ويجعلها تبور قال : لقد بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم ، والدين النصيحة .

القرآن أفضل طريق إلى الجنة

هداية القرآن توجه أساساً إلى الضمير . . إلى نفس الانسان من داخله قبل جوارحه الظاهرة ، لأن قلبه يتحكم في حواسه .

ولا عكس . فإذا صلح القلب صلح الجسد كله ، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله .

● من عمل صالحاً فلنفسه . ومن أساء فعليها . .

من هنا كان الاسلام هو الطريق الأمثل والأوحد في إصلاح البشرية وهدايتها لأنه يحيط النفس من جميع أقطارها ، ظاهرها وباطنها . ولأنه يصوب إقباسه النورانية إلى الضمير مباشرة . ولن يستطيع الانسان أن يفلت من أحكامه وقواعده وتوجيهاته التي ألزمه بها ، في حين أن الانسان لا يعجز إذا حاول التخلص من القوانين الوضعية . لأنه في الأولى على يقين من أن الله تبارك وتعالى يراه . وإن كان هو لا يراه ، ولأنه في الحالة الأخرى قادر بالحيلة على النجاة من قوانين الأرض .

وبقدر ما تسن الحكومات من قوانين رادعة للمنحرفين بقدر ما تتفتق أساليبهم وألاعيبهم للافلات منها وهذا حال مشاهد وواقع في عرض الدنيا وطولها : ولا كذلك حال المسلمين يوم نزل عليهم القرآن غضاً طرياً فإنهم تقبلوه واستجابوا له بقلوبهم وحواسهم ، فتساوقت بواطنهم مع ظواهرهم في سلوكهم في كل ما دق وجل من كل الأمور . بل انهم كانوا في الباطن أشد خشية من الله ولله وحقوق الناس منهم في الظاهر وإن كان هذا الظاهر لا يبعد قيد شعرة عن تعاليم الله .

وكل ذلك جاء ثمرة لما كان يحرص الرسول عليه السلام على تطهير قلوب أصحابه من الغل والحسد والبغض هي أمراض الحياة ليغرس مكانها سلامة الصدر منها ، باعتبارها أفضل من كثرة الصلاة والصيام وإنفاق المال .

قال أنس : كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ . فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج ـ الطريق ـ رجل من أهل الجنة . . قال : فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال ، فلما كان الغد ، قال : ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل ، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل .

فلما قام النبي ﷺ تبعه أي تبع ذلك الرجل ـ عبد الله إبن عمرو بن العاص فقال له : اني لأحيت أبي ـ جادلته ـ فأقسمت ألّا أدخل عليه ثلاثاً ـ يعني ليالي ثلاثة ـ فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت . فقال : نعم . . فبات عنده ثلاث ليال ، فلم ير يقوم من الليل شيئاً . غير انه إذا تقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى لصلاة الفجر . قال إبن عمرو : غير اني ما سمعته يقول إلا خيراً . فلما مضت الثلاث . وكدت ـ هذا قول إبن عمرو ـ أن أحتقر عمله . . قلت يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : كذا . . وكذا . .

فقال الرجل الأنصاري : ما هو إلّا ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفس غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله بن عمرو فقلت له : هي التي بلغت بك وهي التي لا تطيق .

وأنت ترى من هذا الأثر أن الرسول عليه السلام كشف لأصحابه كيف يكون التعامل مع الله . لتكون الجنة جزاءهم . وأكد لهم أن هذا التعامل يجب أن يقوم على طهارة القلب من البغض والحسد والغل . أن يقوم على سلامة الصدر ، ولا شيء وراء ذلك .

يقول مالك بن نبي في مؤلفه الظاهرة القرآنية :

لم يصنع الرسول نفوساً مؤمنة تقية فحسب وإنما صنع عقولاً مستنيرة وطرق إرادات فولاذية . . انه يسمى الشعور بالمسؤولية . ويشجع المبادأة في كل إنسان ويعظم الفضيلة في أبسط صورها . . وإن الناس والمسارعة لهما رائد كل عضو في الجماعة . إذ يرى نفسه في سباق إلى الخير بحسب أمر القرآن .

وإذا كانت الصدور محل الهدى والضلال ، وعن طريقها يتولد الخير والشر ، فإن الله يشرح صدر المؤمن للهدى والخير وصدر الكافر للضلال والشر وشرح الصدر لأيهما يجيء لائقاً ومناسباً لحاله ، فهو سبحانه يبشر المطبع بالنعيم المقيم والجامد بالعذاب الأليم .

فبالنسبة للمؤمن يقول القرآن :

● فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام .

وبالنسبة للكافر يقول :

● ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذب عظيم .

● ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء .

والقرآن مائدة الله التي أنزلها من السماء للأمة المحمدية يحيي بها النفوس ويطهر القلوب ويزكي الجوارح ويشفي الصدور من أدران الشر وعبادة المادة .

● قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور .

والصدر هو وعاء الإيمان والعلم فالذين أوتوا العلم هم الذين يعقلون ويتفهمون ويتدبرون آيات القرآن التي هي آيات الكوز .

● بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم .

وحذر الله رسوله من أن يضيق صدره عند تلاوة القرآن التي تنعى على المشركين شركهم خوفاً من استهزائهم به ، لأن من مستلزمات النبوة هو الاستخفاف بما يتعرض له النبي من سخرية .

● فلعلك تارك بعض ما يوحي إليك وضائق به صدرك .

● كتاب أنزلناه إليك ، فلا يكن في صدرك حرج منه .

● ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من المساجدين .

● لأن الله تبارك وتعالى قد تكفل بنصره عليهم .

● قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

وهذا ما يتحتم أن يواجه به المؤمنون أعداءهم الذين يبغضونهم .

● قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر .

وعن طريق الصدر يعلم المسلم الصادق ، علم اليقين أو عين اليقين ويؤمن إيماناً أرسخ من الجبال بأن الله عليم بسره وجهره ، فلا مهرب منه ، ولا فرار إلاّ إليه ، ولا مجادلة عنده ، ولا حجة تعلو حجته ، أو له الحجة البالغة .

● إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور . يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

● ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليهم بذات الصدور .

● وأسروا قولكم أو أجهروا به انه عليم بذات الصدور

● قل أن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله .

● وإن ربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون .

فشأن المسلم الصادق . الإيمان بأن الله مطلع على الخفايا والظواهر . وهو لهذا يطيع الله ويجتنب نواهيه ولا كذلك المنافق الغافل عن مراقبة الله إذ يؤمن بلسانه دون قلبه لاستجلاب المغانم والفرار من المكار .

● ومن الناس من يقول آمنا بالله ماذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن أنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين .

فهؤلاء المنافقون يقولون بألسنتهم انهم مؤمنون فإذا أوذوا في الله جزعوا وفتنوا عن دينهم ولم يفكروا في عذاب الله يوم القيامة .

قال القرآن فيهم .

● يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ، أي بريء من مرض الكفر .

● وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ، أي سار إبراهيم على نهج نوح في توحيد الله .

ومهما تنكره صدور الكافرين من بعث الناس يوم القيامة . وتتصور استحالته في عقولهم ومدركاتهم . فإن الله تعالى الذي خلقهم من العدم قادر على إحيائهم بعد موتهم في يوم الحساب ولو كانوا حجارة أو حديداً ، وذلك لتأكيد قدرته سبحانه .

● الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

وسلامة الصدر قبل هذا وبعد هذا مطلب الأنبياء والرسل ، ومهوي أفئدتهم ، ولذلك توجه موسى عليه السلام بالدعاء إلى ربه .

● رب إشرح لي صدري .

● وامتن الله على رسوله الكريم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بشرح صدره .

● ألم نشرح لك صدرك ، أي بما أودعنا فيه من الهدى والإيمان .

تلك هي ثمرات إنشراح الصدر للإيمان وهذه نتائجها المباركة التي أدخرها سبحانه وتعالى لأوليائه في الدنيا والآخرة .

شدة السلطان
الحق والعدل

خطب سعد بن شريك يوماً بحمص فقال : إن للاسلام حائطاً منيعاً وبابا وثيقاً ، فحائط الإسلام الحق ، وبابه العدل ، وما يزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق ، وأخذاً بالعدل .

القرآن والأمة

يرتبط إسم رمضان دائماً بالقرآن . . ورمضان شهر نزول القرآن . . قال الله سبحانه وتعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . . » والقرآن هو حبل الله المتين . . والذكر الحكيم . . وهو الدستور الذي يضيء الطريق أمام المسلمين في كافة أنحاء العالم ويربط القرآن بين المسلمين في جميع الأرض حيث يجتمعون حول تعاليمه للاستفادة منها في حياتهم الدنيا وللتزود إلى اليوم الآخر . .

وفضل القرآن على هذه الأمة لإيدانية فضل آخر . . فقد جاء القرآن إلى العرب وهم أمة بدوية . . جافة . . الخلافات بينهم

التـــلاوة والتجويد

تختلف قراءة القرآن من قارىء لآخر ومن نوع لآخر ولكنها تخضع لقواعد وأسس يحددها علم القراءات . ويلتزم بها القارىء وإلّا فإنه يكون آثمًا .

وتلاوة القرآن تختلف بالطبع في قواعدها عن تجويد القرآن كما نعرف جميعاً ، ولكن الكثيرين منا يعتقدون أحياناً أن هذه القراءات غير محددة وإنها تحتاج إلى ضوابط كما أن البعض يحلو له أحياناً ـ عن جهل بالموضوع وعدم إلمام بالتراث الإسلامي ـ أن يقترح أن يلحن القرآن الكريم ونص التلحين أن يكتب بالنوتة الموسيقية وأن يتغنى به كما هو الحال في القصائد والتواشيح والطقاطيق والأغنيات العادية ، ومع ما في هذا الاتجاه من مخالفة لأحكام الشريعة ومع ما فيه من عدم فهم للقرآن الكريم وطبيعته وسماته الخاصة فإنه يتضمن أيضاً الجهل بالتراث .

فإن للقرآن موسيقية ولتلاوة القرآن وتجويده قواعد علمية مأخوذة عن رسول الله ، فنحن نتلو القرآن كما كان الرسول يتلوه وكما تعلم أصحابه منه ، فقراءة القرآن وتوقيفية يتوارثها الخلف عن السلف وتنقلها شفاه الرواة عن الرواة إلى أصدق الرواة عن رسول الكريم . .

وقد ألفت الكثير من الكتب في تراثنا تتضمن القراءة وكيفيتها

وحدودها ، منها (منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ، للأشموني الشافعي .

وهذا الكتاب يوضح القراءات ويبين المواضع التي يحسن الوقف عندها وكيفية الابتداء .

وقد ألفت عدة كتب اهتدت بالمنار وسارت على نهج صاحبه ، فاختصره عبد الله المغربي في كتاب أسماه (وابل الندى ، من منار الهدى) ، واختصر المختصر السردي في كتاب (تحفة من أراد الاهتداء في معرفة الوقت والابتداء واختصره إبن مسعود الفاسي في كتاب (أوائل الندى المختصر من منار الهدى) .

وكما ظلت هذه المحفوظات دون تحقيق علمي فقد ظل على نفس الحال كتاب الاهتداء في الوقف والابتداء لأبي عمر والداني .

الجوار . . يباع ؟

عرض محمد بن الجهم داره للبيع بخمسين ألف درهم . . وكانت تجاور دار سعيد بن العاص . . فلما حضروا ليشتروا قال : بكم تشترون جوار سعيد بن العاص ؟

فقالوا : والجوار يباع ؟

فقال : وكيف لا يباع جوار من أن سألته أعطاك . . وإن تسكت عنه إبتدأك . . وان أسأت إليه أحسن إليك . . وإن غبت عنه حفظك . . وإن نابتك جانحة فرج عنك . .

فبلغ سعيد ذلك . . فوجه إليه مائة ألف درهم وقال : أمسك دارك عليك .

رسائل إلى قلوبنا

« أسلم تسلم » . . هكذا بدأت إلى الملوك رسائل محمد صلى الله عليه وسلم ، في نهاية السنة السادسة من الهجرة بعد أن أمن قريشاً بصلح الحديبية ، وأمن على المدينة بإجلاء اليهود عن حصونهم المنيعة شمالي الحجاز ، وتوقع الفتح القريب لمكة . لقد سقطت بسقوط هذه الحصون الاسرائيلية كل العوائق أمام ارتفاع صوت الوحدة والتحرير تحت رايات الاسلام ، وانفتحت الطرق في تلك الفترة الهادية بقيادة الرسول وأسوته لمخاطبة الملوك الجاثمين على أرض العرب . . لمقارعتهم بحجج السلام وشروطه ضد حجج العدوان وغطرسته . . مقارعة الند للند . . لأنه بعد الغطرسة لا يكون إلا القتال الذي أعد له المؤمنون عدتهم . .

« أسلم تسلم » . . أي آمن أيها الهرقل المتغطرس وسط قواتك وأسلحتك وأطماعك ، يتحقق لك الأمن . . فإن توليت. فإنما عليك اثم « الاريسيين » . . أي انك إذا أبيت الله . . . وشريعة الله . . فعليك ذنوب من استعمرت بلادهم من الأرقاء المنسحقين تحت حكمك . . عليك خطايا وآلام الفلاحين العرب البسطاء الذين استنزفت دماءهم بالاضطهاد وأموالهم بالضرائب ، في مصر والشام والمغرب . . عليك ما يقع منهم وما يقع عليهم عليك أوزار هؤلاء الذين يزرعون لك أرضهم . ويعبدون لك الطرق لتبطش بهم . . ليكون لك كل شيء من ثمار الأرض والإنسان . . ولا يكون لهم أي شيء إلاَّ الهشيم والدموع !

أربعة عشر قرناً مضت على هذه الرسائل . . ولا تزال كلماتها البسيطة في الدعوة إلى الله (وهي موجهة إلى هؤلاء الملوك المعتدين على الشعب العربي تبدو كما لو كانت مرسلة إليهم صباح اليوم . . أكثر من ذلك هي لا تزال موجهة إلى قلوبنا نحن لنتذكر . . وموجهة إلى عقولنا لنهتدي . . فلقد دار التاريخ دورة بالوطن العربي بعد تحرره وتوحده بالاسلام ليقع بـأطماع الاستعمار والدول الكبرى في التجزئة من جديد . . ثم ليواجه مثل هذه الغارات الوحشية المخططة للقضاء عليه بقيادة هذا التحالف الاثم بين الصهيونية والاستعمار . .

لقد عادت مرة أخرى بيزنطة جديدة وعلى رأسها تاج خمسين

ولاية أمريكية . . وأصبح هرقل المعاصر رئيساً لأعظم تحالف عدواني ضد الشعوب النامية والصغيرة . أصبح له بيت أبيض من الخارج ، وأسود من الداخل . . يحكم منه على نهر البوتوماك في أقصى الغرب . . لقد أصبح هرقل الجديد أيضاً حليفاً للأكيدر الذي وجد في قادة إسرائيل . . الأكيدر الذي كان يحكم قديماً أيلة العربيه ثم أصبح الآن يحكم ما بين أيلات وعكا في أرض العرب . . لقد أصبح هرقل كعادته التي عرفناها قبل معارك التحرير العربية . يرفض السلام للعرب بل لهم الحياة . . ويغدق الأسلحة على إسرائيل !

لا شك أن هذه الرسائل ـ التي لن يستمع إليها هرقل الجديد ، ولا تابعه الاكيدر الاسرائيلي ، وهي موجهة إلينا نحن في مصر . . وموجهة إلى شعوب اتحاد الجمهوريات العربية . . وموجهة إلى كل جماهير العرب والمسلمين . . انها موجهة إلينا لنعيها ونهتدي بها . . وهي موجهة إلينا لكي تستجيب بالصدق والأمانة لكل دلالاتها ، ولكل وصاياها . . بداية من الاستجابة لله وللرسول إيماناً وسلوكاً . . عقيدة وشريعة . . لغة ووحدة . . عندئذ ـ وليس هذا بالبعيد ـ ينفتح الطريق لكي يسمع لنا العدو إذا خاطبناه ، وينسحب عن أرضنا إذا ناجزناه . . نفس الطريق الذي تحرك عليه الرسول إلى مؤتة وتبوك والفتح .

حسنة .. تضر !!
وسيئة .. تنفع !!

يقول أبو حازم سلمة بن دينار : أن العبد ليعمل السيئة ، ما عمل حسنة قط أنفع له منها ، وانه ليعملُ الحسنة ما عمل سيئة قط أضر عليه منها .

وذلك أن العبد يعمل الحسنة فيزهو بها ويتجبر ، ويرى أن له بها فضلاً على غيره ، ولعل الله بهذا يحبطها ويحبط معها عملاً كثيراً . ويعمل آخر السيئة فتسوءه .

لا يعرف حدود
الزمان أو المكان

النبوة اصطفاء وهبة من السماء ، وليست أمل نفس طموح أو تطلع إنسان يرمق القمم .. ويستطيع الصعود ! ولقد كان شروق الوحي على قلب محمد مباغتة له ، لم يفكر فيها ، وإن كانت مشيئة الله قد أعدته لها ورتبت على اختياره أموراً ذات بال في تاريخ العالم أجمع !

ولذلك جاء في الكتاب العزيز « وكذلك أوحينا إليك روحاً

من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا . . » وجاء أيضاً قوله جل شأنه « وما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب . . . إلاّ رحمة من ربك » .

وقد نهض الرسول الكريم بالمنصب الأشم الذي اختير له ، وأصبح بنعمة الله إنسان الإنسانية ، والقائد العابد في محراب الإمامة العامة لخلق الله إلى يوم يبعثون !!

وقد آمن به واقتنع بصدقه طلاب الحق على اختلاف الزمان والمكان ، وكانت الأدلة التي أحاطت به وتكاثرت في طريقه من القوة والوضوح بحيث اعتبر الصدود عنها عاهة فكرية أو نفسية ، تزرى بأصحابها ولا تغض من صاحب الرسالة !

والدليل على صدق أية دعوى قد يكون بأمور خارجة ، أو يكون بحقيقتها في نفسها . . فقد يزعم أحد النـاس أنه مهندس ، ويقول : دليلي على ذلك اني أستطيع السير بقدمي على الماء ، أو الطير بجناحي في الهواء . . . !!

فإذا فعل ذلك سلمنا له ؟

وقد يقول : دليلي على ما أقول : اني أبني ـ فعلاً ـ عمارة مدعمة الأركان ، أو أصل بين شاطئين ـ مثلاً ـ بجسر متين !!

فإذا فعل فقد دل بقدرته الهندسية على انه مهندس يقيناً . . .

بل قد تستريح النفس إلى هذا الاستدلال أكثر من راحتها إلى البراهين الخارقة الأولى ! قال إبن رشد : « إن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ ليست كدلالة انقلاب العصا حية ، ولا أحياء الموتى ، وإبراء المرضى ، فإن تلك ـ وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلّا على أيدي الأنبياء ـ وفيها ما ينفع الجماهير من العامة إلّا انها بعيدة الصلة بوظيفة النبوة ، وأهداف الوحي ، ومعنى الشريعة . . . !

فالآيات الحسية إذن قد تكون ذاتية في الرسالة . وقد تكون خارجة عن جوهرها . . والتفاوت بينها واسع النطاق باختلاف البيئات التي ظهرت فيها والرسالات التي اقترنت بها .

وقد جاء الإسلام فغض من شأن الآية الحسية المجسدة . . . ونوه بالآية العقلية الخالدة التي تنهض بها معنويات الرسالة ، وقرر إلى جانب ذلك أن الخوارق التي دعمت بها الدعوات السابقة لم تمنع التكذيب بها ـ أولاً ـ فلا معنى لطلب التصديق بها أخيراً . « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذب بها الأولون وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلّا تخويفاً » .

ومن ثم أتجه الأنبياء وجهة أخرى . . . وجهة تحريك القوى الكامنة في العقل الانساني ليستطيع أن يعرف ربه ، ويؤدي حقه . . . وجهة احترام الفطرة السليمة واستثارة أشواقها إلى

التسامي والطهر . .

وقد كانت الرسالة الخاتمة نموذجاً لهذا التحول الحاسم ، ولا شك أن الاشراق المستمر للحق وبرهانه هو أليق شيء بمصاحبة رسالة كرسالة محمد نخاطب الانسان حيث كان ، ولا يعرف في هدايتها حدود زمان أو مكان .

من كن فيه
كن . . عليه

قالوا : ثلاث من كن فيه كن عليه : البغي . . قال تعالى : « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، والمكر . . » قال تعالى : « ولا يحيق المكر السيء إلّا بأهله » والنكث . . قال تعالى : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » .

أقل عدداً . .
ولكن أعظم إيماناً

حشر « نوح » في سفينته الخشبية الصغيرة قبل أن تقلع بذور هذا العالم الكبير . . عالم النبات والحيوان والصراعات البشرية الضارية التي نراها اليوم على الأرض . . سارت السفينة تشق قلب الأعاصير والظلمات والأمواج . . كانت رغم كل شيء

نطفة هذه الحياة الجديدة التي تلمع وتختج على كف العناصر الغاضبة . . وأخيراً قر قرارها على صخرة الأمن . . وجفف ملاحوها المؤمنون الشجعان ـ آباء البشرية الحديثة ـ عرقهم . . وابتسموا . . لقد صفا الجو ، وغاض الماء ، وأشرقت الشمس أمامهم من جديد . .

لقد حققوا هذا النصر العظيم لحياة الانسان وإن كانوا أقل عدداً . . لأنهم كانوا أعظم إيماناً وعندما نزل القرآن الكريم على النبي العربي لم تلبث معاني الآيات ومحكماتها إن استحالت في نفوس المؤمنين على قلتهم إلى يقين وحياة للأفراد . وإلى قوة ووحدة للمجتمع . . وإلى ضوء وأمل على الطريق . وكان الطريق واضحاً تماماً بالقرآن . . وسنة الرسول . .

لقد حقق المسلمون الأولون أكثر من نصر عظيم للاسلام ، وشريعته . وطبيعته . . لأنهم كانوا على الدوام أعظم إيماناً . وإن كانوا أقل عدداً .

ثم تكاثر المسلمون في الأرض وانتشروا عليها . . تكاثرت القلة التي كسرت طوفان جاهلية العالم القديم في القرن السابع . . أصبح الذين كانوا من صحابة الرسول في موقعة بدر أقل من خمسمائة مؤمن أكثر من خمسمائة مليون نفس . . ترتفع وراءهم إلى عنان السماء سلسلة من جبال الانتصار التي تشرق عليها الشمس ولا تغيب .

ولكن أعداءهم كانوا في بعض وهن الايمان قد فتنوهم في معتقداتهم . . تسللوا إليهم في فتور التخمة الحضارية الدسمة . . في خيلاء الدولة الغنية الباذخة التي صنعوها بالدين والقرآن . . ففي لحظات من فتور الجسد . . ونعاس العقل . ونسيان القلب وقعت الفتنة في الرأي . . ظهرت « هلوسات » كثيرة تحت عناوين معتقدات سليمة . . وكان حتمًا أن يظهر الوهن والتفكك والضعف وأن ينحسر فعل الاسلام ويتوقف انتصاره . . ليتجمد ويتراجع عند حدود العبادة . . لينزوي في الصلاة والصوم . . فالعبادات اليوم هي حصن المسلمين الأخير . هي الحصن الذي يريد أعداؤهم أن يجعلوه « غرناطة العقيدة » بينما العبادات في القرآن الكريم هي مقدمة الفعل الاسلامي لبناء الحياة . وتنمية العلاقات الانسانية والاجتماعية المتساوية ، وافتضاض غيب العلوم . وكسر شوكة القوى المعادية . . وليست هي مجموع الأفعال . . فما هو المخرج ؟!

المخرج بكل وضوح هو هذا المثال المتجدد في حياة المسلمين . هو هذا الموقف الراهن للشعوب العربية المعبأة للنضال . . موقف الذين تجمعهم اليوم طبيعة واحدة . . وتحكمهم صيرورة واحدة . . وقد حشرهم القدر الحكيم في سفينة حياة واحدة تندفع بغير خيار لتشق قلب الأعاصير وإن كانوا أقل عدداً . . لأنهم أعظم إيماناً . .

نأخذ ما أعطينا

تزوج أعرابي فتاة وطمع في أن تلد له غلاماً فولدت بنتاً ، فهجرها وهجر منزلها . وصار يأوى إلى ضرتها بجوارها ، وذات يوم كان جالساً في بيت ضرتها فسمعها تهدهد إبنتها بهذه الأبيات :

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا
تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا
نثبت ما قد زرعوه فينا

فنهض مسرعاً إليها وقبلها وقبل إبنتها وقال : ظلمتكما ورب الكعبة .

عناصر القوة في الاسلام

دور الأمة الاسلامية دور إمامة وزعامة ، وقد أمدها الاسلام بالعناصر التي تؤهلها لهذا المنصب الخطير ومن هذه العناصر

تتألف القوة الحقيقية التي تصل بالأمة إلى غاياتها ، من العزة ، والمنعة ، والمجد . والسؤدد . والسيادة . والقيادة . والتمكين في الأرض .

وليست هذه العناصر مقصورة على جانب دون جانب ، وإنما تتناول جوانب الحياة جميعاً فهي تتمثل :

في الإيمان بالله إيماناً يحرر الضمير والوجدان . .

وفي الاستعصام بالحق استعصاماً يزهق أمامه الباطل ويندحر . .

وفي معرفة الضعف النفسي ، والتطهر منه ، حتى تأخذ النفس طريقها إلى العزة ، والسمو .

وفي العلم المقوم لشخصية الانسان والكاشف له عن حقائق الوجود المادي ، وما وراء هذا الوجود من عالم ما وراء الطبيعة . .

وفي الثروة ، وتعمير الأرض ، واستثمار قوى الكون ، والانتفاع بما في الطبيعة ، من بركات الله وخيراته وتوزيعها على أفراد الأسرة الانسانية بالكفاية والعدل .

وفي إقامة المجتمع على أساس من الحرية ، والعدالة ، والمساواة والتشريع السمح ، والعمل الجاد ، والمعاشرة

الحسنة ، والحكم الصالح الذي تكون فيه السيادة للأمة .

وفي السلام العام القائم على احترام الانسان وكفالة حقوقه .

وفي احترام العهود والحفاظ على المواثيق . .

وفي التضحية النبيلة والاستشهاد في سبيل الحق ، ومن أجل الحياة الحرة الكريمة .

هذه هي عناصر القوة في الاسلام ، وهي قوة بالمعنى الحضاري فهي قوة في العقيدة ، وقوة في الخلق ، وقوة في العلم ، وقوة في المال ، وقوة في التماسك الاجتماعي وقوة في التنظيم السلمي وقوة في الاستعداد الحربي .

وقد كانت هذه القوى هي العامل الأساسي في نجاح هذه الأمة في أول دور من أدوار حياتها التاريخية ، وباجتماع هذه العناصر أصبحت الأمة رفيعة البنيان ، عظيمة السلطان ، ثابتة الأركان ، باذخة الذرى وتم لها وعد الله الذي لا يتخلف :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . ولسدلنهم من بعد خوفهم آمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » .

وما زالت كذلك حتى غيرت ما بنفسها ، وأخلفت ما عاهدت

الله عليه ، فغير الله ما بها ، وطبق عليها سنته في الاجتماع البشري :

« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ومن الواجب علينا ونحن في هذه المرحلة الحاسمة أن نبدأ بتغيير جوهري في نفوسنا وفي أخلاقنا ، وأن يكون ذلك التغيير عاماً وشاملاً بالنسبة للعامة والخاصة ، ويكون على أساس مدروس ، وخطة محكمة ، لكي نتقي أسباب الانحلال والضعف من جهة ونأخذ بأسباب القوة والعزة من جهة أخرى وأسباب القوة ليست في فوضى الأخلاق ، ولا في التحلل من الآداب ، ولا في التشكيك في المثل والقيم ، وإنما هي في الأصول الخالدة ، والمبادىء الكريمة التي جاء بها الاسلام .

آدم والملائكة

أخبر الله تعالى ملائكته أن سيجعل آدم خليفة في الأرض له عليها سلطان يتصرف في موادها ليجعلها ملائمة لحاجاته وينتفع بما فيها من زروع وثمار ومعادن وحيوان وهواء وماء . . فقال الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ فقال الله لهم : اني أعلم ما لا تعلمون . .

ولم يكن سؤال الملائكة احتجاجاً ولا مظاهرة أمام الله لأن الملائكة قوم مكرمون لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون ، وربما كان ذلك من الملائكة مجرد خواطر مرت بأنفسهم ليعرفوا حكمة الله في استخلافه ، فأراد الله أن يعلمهم أنه أودع فيه أسراراً .

وأراد الله أن يحقق لهم ما غاب عنهم فعلمه الأسماء كلها . . أسماء كل ما وقع عليه نظره وجال بخاطره وما يتعلق بحياته وطعامه وشرابه . والملائكة ليسوا في حاجة إلى شيء مما في الأرض . لأنهم على وصف يخالف وصف الانسان الذي قدم له الله أن يصنع ويزرع ويفكر ويوجه فكره إلى تطوير حياته ويستحدث الأساليب العلمية لصيانة هذه الحياة على وجه يلائم كرامته ووجوده .

زكاة . . الفطر
مقدارها . . وموعدها

على عادة رمضان الكريم ، الزائر السنوي في إطار حركة الأفلاك . فإنه لا يكاد يلوح قادماً ومشرقاً حتى يبدو عند نهاية طريقه قافلاً ومودعاً ، وعندئذ يجد المسلمون أنفسهم في مهام الشكر على الزيادة التي بلغوها به في إيمانهم ، وجلاء قلوبهم ، صائمين وقائمين ، يتساءلون عن الزكاة التي تجب عليهم . . .

ما نوعها . . . وما قدرها . . . وما موعدها ؟

ولكن ثمة سؤ وال يسبق هذه الأسئلة مما يهم جوابه جماهير الصائمين وهو ما حكم هذا النوع من الزكاة وما حكمتها . . ومن الخير أن نبدأ به . .

أما حكمها فهي واجبة على كل فرد من المسلمين وعنهم صغاراً وكباراً . ذكوراً وأناثاً ، إذا ملك زيادة عن قوته وقوت أسرته التي يعولها بمقدار صاع من الحبوب التي يصنع منها الخبز يوماً وليلة ، أو ما يعادلها ذلك نقداً . وهي تجب على المسلم عن نفسه وعمن تلزمه نفقتهم من أسرته وذوي قرباه . .

وأما حكمتها فهي كما شرعت في شعبان من السنة الثانية من الهجرة طهارة للصائم مما عسى أن يكون وقع فيه من اللغو والرفث فضلاً عن غاية البر بمن يجب لهم البر .

كان المسلمون الأولون على عهد الرسول الكريم ومن بعده يخرجون زكاة الفطر من القوت السائد بينهم وكان الشعير والتمر وهذا هو شرط النوع لهذه الزكاة . ومعنى هذا انه إذا اختلف نوع القوت السائد في الشام عنه في الحجاز أو في مصر عنه في الشام فإن الزكاة نوعاً تكون من القوت السائد في الاقليم وبذلك يجوز مع الشعير والتمر والأذرة والقمح والزبيب والأرز وغيرها .

وأما قدرها فهو الصاع الذي يعادل من أوعية الكيل عندنا

قدحاً وثلث قدح . .

على أن بعض المسلمين وهم الآن كثرة في المدن لا يملكون في بيوتهم شعيراً ولا تمراً ولا زبيباً ولا أذرة فهؤلاء كما يجيز لهم أبو حنيفة يستطيعون أن يقدموا ما هو المعادل لهذه الحبوب وقدره في هذه الأيام وفي مصر ما بين ١٢ و ١٥ قرشاً عن الشخص الواحد . .

وأما موعدها فهو آخر رمضان ويجوز تعجيلها قبل العيد بيوم أو يومين . وقال الشافعي يجوز تقديمها من أول الشهر ، وقال أبو حنيفة يجوز تقديمها على شهر رمضان ، وعن إبن عمر « أمرنا رسول الله ﷺ بزكاة الفطر قبل خروج الناس إلى الصلاة » . .

واتفق رأي الأئمة على أن زكاة الفطر لا تسقط بالتأخير بعد الوجوب ، بل تصير في ذمة من لزمته حتى تؤدي ولو في آخر العمر . .

أما اخراجها إلى « من يجب لهم البر » فهم الفئات الثماني. الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء . . الخ الآية » . .

وزكاة الفطر تعطي للفقراء المقيمين بالمكان الذي يقيم فيه المزكي ولا تنقل إلى مكان آخر إلاّ في حالة ذوي القربى للمزكي ، أو لمن هم أشد حاجة من أهل المكان .

الجمـــال . . وليس الكبر

كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم ، وفي لدار ركوة فيها ماء ، فجعل ينظر إلى الماء ويسوي شعره ولحيته .

سئل : وأنت يا رسول الله تفعل هذا ؟!

قال : نعم . . إذا خرج الرجل بي أخوانه ، فليهيىء من نفسه . ان الله جميل يحب الجمال .

ويروي إبن مسعود أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : لا يدخل لجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . .

فقال رجل : إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً !!

فقال النبي : إن الله جميل يحب الجمال . . الكبر بطر الحق وغمط الناس .

زكاة الفطر : حكمتها وأحكامها

للحياة ضرورات أربع ، لا تستقيم بدونها حياة . وهي : المآكل والمشرب . والمسكن والملبس . وإليها أشار القرآن الكريم

في معرض الامتنان على آدم في قوله تعالى : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » وهذه الضرورات ليست طوع كل الناس . بل منهم المخروم منها والعاجز عن الكسب . ومن هؤلاء الفقراء والمساكين الذين لا يخلو منهم مجتمع . ومن عدالة التشريع الاسلامي أن كفل لهؤلاء جميعاً حق الحياة الكريمة فيما شرع من زكاة ، وفيما أوجب من انفاق . فجعل الزكاة العامة مورداً لسد احتياجاتهم على مدار السنة . ولم ينسهم في المناسبات الهامة فجعل لهم ثلث الأضاحي في عيد الأضحى ، وخصمهم بزكاة الفطر في عيد الفطر . وبهذا أصبح لكل عباد الله نصيب في نعم الله .

حكمة مشروعية زكاة الفطر : يرى فريق من العلماء أن المقصود منها هو التوسعة على الفقراء والمساكين في يوم العيد ، حتى يشعروا هم وأسرهم بالبهجة والسرور فيه . وفي هذا جبر لخاطرهم يجعلهم في رباط وثيق مع المجتمع الذي يعيشون فيه ، وينعمون بخيراته . ويرى فريق آخر انها طهرة للصائم من اللغو والرفث . أي انها تجبر عنه أموراً كان ينبغي اجتنابها حال الصوم . ويغلو آخرون فيقولون أن صوم رمضان لا يقبل إلا بعد أداء زكاة الفطر ! .

والرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب ويقويه قوله ﷺ : « أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم » يليه الرأي الثاني . وليس

بعيداً أن يكون مقصود الشرع الحكيم الرأيان معاً أما القول الثالث فتبدو عليه سمة الضعف لأن الصوم فرض ، وزكاة الفطر سنة . والفرض أقوى . فلا يتوقف قبوله على سنة ليست هي هيئة من هيئاته .

وقت وجوب زكاة الفطر : يرى الأحناف أن وقت وجوبها هو طلوع فجر يوم العيد . ويرى الحنابلة أن وقت الوجوب هو غروب شمس ليلة العيد . كما يقول بذلك الشافعية حيث قالوا انها تجب بآخر جزء من رمضان وأول جزء من شوال . وهذا معناه غروب شمس ليلة العيد .

وللمالكية رأيان ، أحدهما انها تجب بغروب الشمس ليلة العيد ، وثانيهما انها تجب بطلوع فجر يوم العيد . وهم بذلك يلتقون مع جميع الآراء السابقة .

على من تجب زكاة الفطر : اتفق أئمة المذاهب الأربعة على أن الزكاة تجب على كل مسلم ، حرّ ، قادر على إخراجها وقت وجوبها . وفسروا القدرة بأن يكون مالكاً لقوته وقوت من تلزمه نفقتهم شرعاً يوم وليلة العيد . أي يكون مالكاً لأكثر من نفقات العيد حسبما جرت به العادة . لأن الزكاة تجب في القدر الزائد عن النفقة المطلوبة . ويخرجها الشخص عن نفسه وعن من تجب عليه نفقته شرعاً ، وهم هنا : الزوجة ، والأولاد الصغار ، والأولاد الكبار إذا كانوا عاجزين عن الكسب ولو لتفرغهم

لطلب العلم ، أو كانوا غير راشدين ثم الوالدان الفقيران . ثم من يعمل على خدمته إلّا إذا كان له أجر ثابت .

وخالف الأحناف فقالوا بعدم وجوبها على الرجل لزوجته . إلّا أن يتطوع بها فإنها تجزي عنها ولو بغير أذنها . والزوجة غير المدخول بها لا تجب زكاتها على زوجها ، وكذلك المرأة الناشز . وجوز الحنابلة اخراجها عن الجنين .

وإذا لم يجد العائل مقداراً من المال يكفي زكاة أفراد أسرته ، فإنه يخرجها عن بعضهم بادئاً بنفسه ، ثم زوجته فأمه فأبيه فأولاده . ثم الأقرب فالأقرب حسب ترتيبهم في الميراث . وبعض العلماء يقدم الأولاد على الوالدين ولا يجب عليه الاستلاف من أجل الزكاة . بل يجوز ذلك إذا وثق في السداد والأصل سقوط الزكاة عنه لعدم القدرة .

وقت إخراجها : إتفق الفقهاء على أن أفضل وقت لاخراجها هو ما بين طلوع فجر يوم العيد وصلاته . وكرهوا تأخيرها عنه ، ولا تسقط به بل هي حق ثابت يتحتم عليه إخراجها وعليه اثم التأخير . وكذلك منعوا اخراجها قبله وهذا النهج يجب النظر فيه . لأنه كان يليق بعصور كانت أمورها سهلة .

ونحن نعيش في عصر مخالف لما كان يصلح له ذلك الوضع ، فيجب أن نعطي مستحقي زكاة الفطر فرصة كافية للاستعداد

للعيد ، وهذا يقتضي أن نقدم وقت اخراجها عما هو منصوص عليه . وقد فطن بعض الفقهاء قديماً إلى هذا المغزى فجوزوا إخراجها قبل العيد باليومين والثلاثة . وبعضهم يجعل رمضان كله وقتاً لإخراجها والحكمة أن ينتفع بها مستحقوها في العيد ، فلنعطها لهم قبله بزمن مناسب حتى لا يستهلكوها قبل حلوله فيضطروا للسؤال الذي حذر النبي عليه السلام منه ومن أجله شرع الزكاة .

والفقه الاسلامي مرن يقوم على تلبية حاجيات الناس في غير ضرر أو ضرار فلا يضيق بمثل هذا التعديل الهادف .

إلى من تعطي زكاة الفطر : جمهور الفقهاء على أن زكاة الفطر يجوز إعطاؤ ها إلى أي نوع من الأنواع الثمانية المذكورين في قوله تعالى : انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وإبن السبيل . . » وخالف المالكية فحصروا أعطاءها في الفقراء والمساكين فقط لكثرتهم ولأنهم يوجدون غالباً في زمان .

ولا يجوز للمزكي أن يعطي زكاته لقريب له تجب عليه نفقته ، لأن نفعها سيعود عليه ، ويجب توزيع الزكاة في موضع وجوبها فلا يجوز نقلها إلى بلد أخرى .

نوعها ومقدارها : للعلماء تفصيلات مسهبة في بيان النوع

والمقدار لا داعي لذكرها ما داموا قد جوزوا إخراج البدل النقدي عنها . وحرصاً على صالح الفقراء والمساكين أرى أن يزاد مقدار النقد فيكون بالنسبة ، للشخص الواحد ما بين العشرين والخمسة والعشرين قرشاً ، ولنتذكر دائماً قوله تعالى : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، مما تنفعون إلاّ ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون .

خُذ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

الآية: ١٠٣ من سورة التوبة

الزكاة . . في لسان الشرع

الزكاة في اللغة النماء والزيادة . . وزكا الشيء يزكو ، طاب ونما . . وهي في لسان الشرع هذا النصيب المفروض في مال الأغنياء للفقراء ، إذا بلغ المال نصاباً ، أي قدراً معلوماً . .

ويطلق على الزكاة في لسان الشرع أيضاً لفظ الصدقة ، لأنها من الصدق ، حيث لا تقبل إلا من مؤمن بالله مصدق بكتاب الله ، وبرسول الله . . ثم هي من الصدق الذي هو وضع الشيء بموضعه ، وهي حيث وضعها المؤمن بموضعها كانت في

أحسن موضع وأعدله ، لانفاق المال ، لأنه من الباقيات الصالحات .

والصدقة أعم من الزكاة ، لأنها شاملة لكل خير يتصدق به المؤمن ، سواء ما كان فرضاً واجباً كالزكاة ، أو تطوعاً زائداً عن الفريضة ممن وجبت عليه الزكاة ، أو إحساناً ممن لم تجب عليه الزكاة . .

وقد فرض الإسلام الزكاة في السنة الثانية من الهجرة . . فقال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وقال رسول الله ﷺ : « بني الإسلام على خمس » وعد الزكاة ركنا من هذه الأركان . .

وإذا كانت الزكاة فرضاً على من يملكون من أموال والنصاب الذي نجب فيه الزكاة ، سواء كان نقداً أو ما يقوم مقام النقد ، من الأنعام ، والزروع ، وعروض التجارة ، ونحو هذا ـ فإن الصدقة والإحسان مطلوبان من كل مسلم ، مالك أو غير مالك ، غني أو فقير . . يقول الرسول الكريم : « على كل مسلم صدقة » قيل : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » قيل : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » قيل : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يأمر بالمعروف » قيل : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر . فإنها صدقة » ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها

صدقة ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة . . والكلمة الطيبة صدقة . . وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

وبهذا السر ، وبتلك السماحة في شريعة الاسلام ، يفتح باب الاحسان على مصراعيه ، فسيحاً رحيباً ، يدخله كل من يريد الاحسان وأن يكون في المحسنين ، وبهذا يتبادل المسلمون جميعاً ، أغنياؤ هم وفقراؤ هم ، أسخياؤ هم وبخلاؤ هم ، مواقع الاحسان ، فيمسك كل واحد منهم بطرف أو أكثر من أطراف الاحسان ، فيحسن ويحسن إليه . . وبهذا يتساوى الأغنياء والفقراء والقادمون والعاجزون في هذا المقام . . فمن فاته أن يكون في موكب الاحسان بعد هذا ، فلا كان في الناس أبداً . .

الفقير . . والغني

يقول أبو بكر الخوارزمي : إن الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق . لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات . ولا يستبطئه أخوانه ، ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر في الفطر صدقته ، ولا في النحر أضحيته ، ولا في شهر رمضان مائدته . ولا في الربيع باكورته ، ولا في الخريف فاكهته . ولا في وقت الجباية خراجه ، فإنما هو مسجد يحمل إليه ، ولا يحمل عليه ، يتجنبه الشرطي بالنهار ، ويتوقاه العسس بالليل وفي الأسحار . فهو أما غانم أو ساع .

أما الغني فهو غنيمة كل يد سالبة وصيد كل نفس طالبة ، وطبق موضوع على شارعة النوائب ومنصوب على مدرجة المطالب ، يطمع فيه الأخوان ، ويأخذ منه السلطان ، ويتطرق إليه الحدثان ، ويتحيف ماله النقصان .

* ثورة الفكر الاسلامي :

الأرض . . لمن ؟

كان لتوزيع الغنائم في عهد الرسول ﷺ قاعدة فصلتها الآية القرآنية : « واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن في خمسته وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل » .

وعلى هذا سار أبو بكر الصديق . .

كان خمس ما يغنمه المسلمون يعطي الله والرسول وللفئات التي ذكرت في الآية . . أي أن هذا الخمس كان يوجه للانفاق على مصالح الأمة (لله والرسول) ، ولسد حاجات المحتاجين . .

أما أربعة أخماس الغنائم ، فللمحاربين توزع عليهم عقب كل غزوة . .

حتى إذا إتسمت الفتوح الاسلامية في عهد عمر استولى المسلمون على أرض العراق والشام ومصر ، وهي كلها أرض زراعية خصبة ، وفيها رجال يفلحونها لحسابهم أو لحساب السادة ملاك الأرض وزراعها يعملون بالأرض عبيداً لها . .

وواجه عمر موقفاً صعباً بعد أن فتح الله على المسلمين هذه الأرض . . ماذا يصنع بها . . أيجري فيها حكم الغنائم ، فيوجه خمسها الصالح الأمة أي لبيت المال للانفاق العام ، ويوزع الباقي على الغزاة ، فيخلق طبقة جديدة من ملاك الأرض الكبار تخلف الطبقة التي انهارت من أهل البلاد الأصليين ، ويحدث في الاسلام حدثاً يتعارض مع روح الاسلام . . فيجعل منهم أصحاب قطائع ، وكبار مستغلين ؟!

بدأ الخلاف بعد فتح العراق وشاور عمر أصحابه ، وقد كان هذا هو شأنه دائماً أن يشاوروا يناظر حتى تنكشف الغمة ويهتدي الجميع إلى الرأي الصواب ويعصم الاسلام من أن يخرق فيه أحد خرقاً . .

وكان من رأى عمر أن يوجه الأرض جميعاً للمنفعة العامة . . وأن تكون الأرض لمن يفلحها على أن يؤدي عنها ضرائب للدولة

توجه للاصلاح ولتأمين الدولة وثغورها والارتفاع بمستوى المعيشة ، ورأى عدد من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب ، رأى عمر . . ورأى آخرون وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عوف أن هذه الأرض غنائم ويجب أن يتبع في تقسيمها ما يتبع في تقسيم الغنائم أي أن يعطوا أربعة أخماسها . . وأغلظوا على عمر وأتهموه بالظلم ، وساءت أخلاقهم في هذا الأمر .

ولكن عمر خطب في الجند بعد ما اشتد الخلاف بين الصحابة : . . « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ، وأني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا ـ فوالله لو كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلّا الحق ـ لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شفيت ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أرضهم وأموالهم وعلومهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها ، وأضع فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين . . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ، ولا بد لها من رجال يلزمونها وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرض ؟!

فقال الناس جميعاً : « نعم ما قلت وما رأيت . إن لم تشحن

هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر » .

وهكذا قرر عمر إبقاء الأرض لمن يفلحها وفرض عليهم الضرائب (الخراج والجزية . .) آلت كلها لمصالح الدولة . . وقد بلغت جباية الكوفة وحدها مائة ألف ألف درهم وجهها عمر كما وجه جباية المدن الأخرى للنفع العام . .

وهكذا وضع عمر نوعاً جديداً من الملكية في ذلك العصر ، حماية لحقوق الأمة كلها وتحقيقاً لمصالح الجميع . . لا لفئة على حساب فئة أو لطبقة على حساب طبقة .

منطلق الانفتاح الفكري

التجربة أكبر دعائم العلم ، وقد تستغرق التجربة الواحدة عشرات السنين . ولقد مرت بأجدادنا تجربة من هذا القبيل عندما فهموا الرسالة على حقيقتها ، وأمنوا سلامتها وانفتحوا بأفكارهم [بعد انتصاراتهم] على حضارات الأغريق والروم والفرس والهند ، فقد منحهم الإسلام حرية الفكر وأطلق العقل من قيود الوثنية ، وحطم أغلال الفلسفة الأغريقية . . عندئذ صاروا هم قادة الأرض علمياً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً .

وآنئذ لم يكن المسلمون مجرد قنطرة عبرت عليها تلك

الحضارات العريقة إلى عصر العلم ، بل صححوا ما فيها من أخطاء وأضافوا إليها الشيء الكثير بدافع من دينهم ، وهذا هو بيت القصيد إذا كنا حقاً ممن يريدون الاستفادة من التجارب التي مرت بنا وبأجدادنا من قبل بدلاً من محاولة اختبار مناهج (أو مبادىء) غريبة عنا نستوردها ويستغرق التحقق من سلامتها عشرات السنين ، وقد قادت الغرب إلى أعقد أنواع . المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية . . !

ونحن نسوق فيما يلي أمثله واضحة جلية لبعض ما صنعه أجدادنا من ألوان العلوم والمعرفة بدافع من القرآن الكريم بعد انفتاحهم على حضارات غيرهم من الأمم ، فما بدلوا العقيدة ، وما غيروا الشعائر ، ولكنهم هضموا كل شيء داخل إطار النهج الاسلامي . ويوم أن نضب فكرهم وتوقفوا عن مسايرة الركب تخلفوا . وهذا هو السبب الرئيسي في تخلف المسلمين بعد تلك النهضة العظمى التي حققوها بقوة دفع القران . ومن هذا المنطلق يكون الاصلاح وأعني به منطلق الانفتاح الفكري على الحضارة الحديثة داخل إطار المنهج الاسلامي ، وما المنهج سوى الدين الذي في كنفه ازدهر العلم في العصور الوسطى .

الحساب

برع المسلمون في الحساب وجالوا وصالوا وعندما نزل القرآن الكريم كانت هناك عدة طرق للحساب والترقيم ، منها الترقيم

الروماني العقيم ، ومنها الحساب الستيني الذى لا يزال يستعمل في قياس الزمن حيث نقول أن الساعة ٦٠ دقيقة والدقيقة ٦٠ ثانية . . وكان هناك الحساب العشري وفيه تستعمل تسعة أرقام فقط هي الأرقام من ١ إلى ٩ . ويلاحظ أن للرقم الواحد قيماً مختلفة تبعاً للخانة التي يشغلها فالرقم ٥ في خانة العشرات هو ٥٠ وفي خانة الألوف هو ٥٠٠٠ وهلم جرا وقد أدخل المسلمون الصفر(زيرو) ليملأ الخانة الخالية من الأرقام ويدل عليها ، كما استخدموا الكسور العشرية وهي أكبر خطوة حقيقية أدت إلى تقدم علوم الرياضة ، وقد تمت كلها بإيحاء من كتاب الله العزيز الذي نبذ الحساب الستيني وأخذ بالحساب العشري . أنظر مثلاً إلى قوله تعالى :

١ ـ (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) .

٢ ـ (في كل سنبلة مائة حبة) .

٣ ـ (أن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وأن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا) .

٤ ـ (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما أتيناهم) .

٥ ـ (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) .

ولعل هذه الآية الأخيرة مما يقرر مبدأ حساب النسبة المئوية حيث أن المجموع مائة !

والأرقام التي يستعملها الأوروبيون اليوم هي في الواقع أرقام عربية في الأصل وتسمى (أفرنجية) عن طريق الخطأ ، وقد انتقلت إليهم عن طريق أسبانيا !! ولولا ضيق المقام لشرحنا ذلك بالتفصيل .

والمسلمون هم الذين ابتدعوا علم الجبر على يد أمثال الخوارزمي ، ووضعوا أساس حساب (اللوغاريتمات) وأصل هذه الكلمة (الخوارزمي) ترجمها الأوروبيون إلى (لوجارزم) ثم عدنا نحن فنقلناها بإسم اللوغاريتم . في هذا العصر ! وعندما دخل علم الجبر إلى أوروبا كان بمثابة الطلاسم ! .

الفلك

كان من الطبيعي أن يهتم المسلمون بعلم الفلك ، بتوجيه من القرآن الكريم مثل قوله تعالى :

١ - (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) .

٢ - (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

٣ - (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) .

وكان على علماء الفلك حساب الجداول الخاصة بأوقات الصلاة من ارتفاع الشمس نهاراً . والنجوم ليلاً في أي مكان ، وتحديد أوائل الشهور ونحوها . . وهكذا أنشأوا العديد من المراصد في مختلف العواصم . ولا تزال بصمات أصابعهم بادية على قبة السماء ممثلة بأسماء النجوم العربية مثل آخر النهر (أشرنار) والذنب (دنب) والجوزاء (بتلجوز) والثور (تاورس) . .

ومن أوائل علماء الفلك المسلمين ثابت بن قره والبيروني ، وقد كلفهما المأمون بقياس محيط الأرض فعمد ثابت بن قرة إلى قياس المسافة بين كل خطين من خطوط العرض . وكان يقيس خط العرض في أي مكان بميل النجم القطبي فيه . أما البيروني فقد ابتكر طريقة فلكية لا تزال تعرف بإسم (طريقة البيروني) وهي تتلخص في قياس زاوية انحطاط الأفق من على جبل مرتفع يطل على مساحة منبسطة من الأرض .

وانتقلت تلك القياسات الدقيقة إلى أسبانيا والبرتغال ، وعرف المستكشفون من أمثال كولمبس وماجلان أن الأرض كروية وأن قطرها لا يتعدى نحو ٨ آلاف ميل ، وأنهم لذلك يستطيعون الدوران حولها ، إلّا أن الفضل الأكبر والأساس العلمي في عمل تلك الأسفار انهما يكمنان وراء قياسات علماء الفلك المسلمين ! !

وأعجب من ذلك في هذا المجال أن الفضل الأكبر فيما خرج به

الفلكي العالمي كبرنيق على الناس منذ نحو ٣٠٠ سنة من أن الأرض ليست هي مركز الكون ولكن الشمس هي التي تحتل بؤرة المجموعة الشمسية ، وبذلك غير أفكار البشر ، التي سايرت فلسفة أرسطو أكثر من ألف سنة ، نقول أن الفضل إنما يرجع إلى جداول فلكية خاصة بالفلك الكروي الحديث حسبها نجم الدين المصري قبل ذلك بنحو ٤٠٠ سنة . وقد وجد أن جداول كبرنيق هي ذاتها جداول ذلك الفلكي المصري الذي لا يعرف أغلبنا عنه شيئاً !!

لقد كنا ننقل تراثنا عن المستشرقين !! وقد آن الأوان لنعرف تاريخ أجدادنا العلمي المجيد بأنفسنا ، كما آن الأوان لنعيد (بمنطلق الانفتاح) العلم إلى أحضان أمة الإيمان كما كان في الأصل وفي ذلك خير البشرية جمعاء ، والرسول الكريم يقول :

(الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة) .

والله أعلم . .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

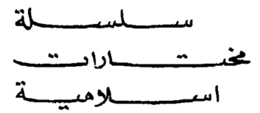
سلسلة مختارات اسلامية

١ - أبو بكر الصديق
٢ - عمر بن الخطاب
٣ - عثمان بن عفان
٤ - علي بن أبي طالب
٥ - رمضانيات (١)
٦ - القابس في البال
٧ - الجيش في الإسلام
٨ - أعياد وتواريخ إسلامية
٩ - أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ - أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ - أدعية وابتهالات
١٢ - كلمات ومواقف خالدة
١٣ - تأملات في الإسلام
١٤ - رمضانيات (٢)
١٥ - معارك إسلامية (١)
١٦ - معارك إسلامية (٢)
١٧ - أحاديث رمضانية
١٨ - قصص إسلامية (١)
١٩ - قصص إسلامية (٢)
٢٠ - الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ - الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ - من قاموس الصائم
٢٥ - من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ - من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ - من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ - ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ - ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ - ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
اسلامية

أحاديث إسلامية
في الأخلاق والآداب

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذينَ اسْتَجابُوا لِلهِ والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الفَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيماناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »

صدق الله العظيم

أحاديث إسلامية

في الأخلاق والآداب

(وصية نبي كريم)

حكمة الأطباء تعالج بها الأبدان ، وحكمة الأنبياء والحكماء تعالج بها النفوس . والطبيب خبير بأنواع العلل وأعراض الأمراض ، وكلِّ ما يمت إلى ذلك بسبب . والنبي والحكيم ، خبير كل منهما بعلل النفوس وأدوائها ، وبصير بما يشقيها ويسعدها ، ويصلحها ويفسدها ، فهو يصف لها من الأدوية النفسية ، والأخلاق الكريمة الرضية ، كما يصف الطبيب للعليل ، مختلف العقاقير والأدوية ، وعدد مرات استعمالها ، وعدد قطراتها وحباتها . وكما أن العليل لا تنفعه معرفته بحذق طبيبه ، وأنه نطاسي بارع ، وأن من عالجه شفاه وأبرأه ، ولا تنفعه كذلك معرفته بنوع العلاج وعدد مراته

في يومه وليله ، وعدد حباته إن كان جامدا ، وقطراته إن كان مائعاً . وإنما الذي ينفعه ويفيده هو أن يعرف هذا جيداً ، ثم يعمل بدقة على تناول الدواء كما أمر الطبيب ، وبالمقادير التي أمر بها ، وفي المواقيت التي عينها ، ـ كذلك حكمة النبي ونصيحة الحكيم المصلح ، لا تفيد منها إلاّ إذا أخذت نفسك بمعرفتها ، وبالعمل بها في حدودها التي حدها ، وفي أوقاتها التي عينها . وبذلك ، وبه وحده ، تؤتى الحكمة ثمرتها ، وينتفع بها .

وحكم النبيين والمصلحين ، تملأ الأقطار ، وهي في متناول الناس ، تفيض بها أسفارهم ، وتنطق بها آثارهم ، وهي خالدة باقية ، والنفع بها كذلك خالد باقٍ . ولكن نوازع النفوس ، وخوالج الأهواء ، قد تصدف النفس وتلوي عنانها إلى أهوائها ومشتهياتها ، فكان لزاماً ، أن تُهَزَّ إلى الخير ، وتذكر به ، بين الحين والحين . فإنما مثل النفس كمثل النصل ، إن شحذته وأرهفته كان حديداً ماضياً ، وإن تركته وأهملته صار كلاً كهاماً .

ومن الحكم الخالدة ، التي نذكر بها ، ونقف الناس عليها ، إبتغاء قمع الهوى وكبح جماح النفس ، هذه الوصية الحكيمة ، التي نرجو من كل من سمعها أن يعيها ، وأن يأخذ نفسه بالعمل بها ، لأنها من أسباب الفوز والخير ، ومن صفات

المؤمنين الذين يستمعون القول ، فينتقون أحسنه . وهي لِمُصْلِحِنا العظيم ونبيِّنا الكريم ، محمد بن عبد الله ، عليه صلوات الله .

وكان من قصتها ، أن رجلاً صحبه ، وسار بسيرته ، وعمل بعمله ، وشهد صلاته وعبادته ، وخيراته ومبرّاته . كل ذلك شهده مع الرسول ، وعمله مثل ما عمله الرسول ، وهو يرجو من الله جلّ وعلا ، ما يرجو الرسول . يرجو لعمله النُّجْحَ والقبول . ثم يعرض للرجل سفر طويل . وكما يَعْمِدُ المسافر لأخذ زاده ، يَتَبَلَّغُ به في سفره ، كذلك هو يعمد إلى من كان يبصره الهدى ؛ وينير له السبيل . يعمد إليه ، فيأخذ عنه ما يرشده ويسدده . يأتي الرسول فيقول : يا رسول الله ! إني راحل إلى بلد كذا ، ولا أدري ما ألقى ، وما سيكون لي ، فأوْصِني وصيةً ، يكون لي منها نور ورشد . فيدعو له الرسول ربه ، أن يحفظه ويهوِّن عليه سفره ، ويقيه وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب ، ثم يقول له : يا هذا اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

هذه الكلمات الطيبة ، التي تضمنها قلب النبي الكريم ، وانطلقت بها شفتاه ، قد استفاد منها في وقتها ذلك الرجل ، الذي كان رسول الله قد أوصاه ، ولا يزال يستفيد منها كل من

سمعها ووعاها ، واتَّبع سبيلها ، فكانت كما قال الله (كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حين بإذْنِ رَبّها) . فالشجرة الطيبة ، لا يزال يستفيد الناس منها فينالون ثمرها ، وينعمون بهوائها وظلها . وها نحن نقف المستمع الكريم ، على هذه الوصية الجليلة ، ففيها للذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فضل كبير وخير كثير .

جمعت هذه الوصية الكريمة أموراً ثلاثة ، بل انتظم في عقد هذا القول النبوي العظيم ، جواهر ثلاث ، الأولى وهي أجَلُّها وأفضلُها ، أن تتقّي الله ربك ، الذي خلقك فسوَّاك فعدَّلك ، تفعل ذلك في كل ما تأتي وتذر ، وحيثما كنت في بَرٍّ أو بحر ، وفي بَدْوٍ أو حضر ، وكيفما كنت في رغد وسعة ، وعيشة طيبة رافهة ، أو في ضيق وشدة وعسر وضر . فذلك أيها الإنسان من تمام سعادتـك ، فأنت من لُبّـك وقلبك ، وبين نفسـك وشهواتك ، في أمر مريج . فشهوتك لمباهج الحياة يقظى ، وهواك في أن تنعم وتنغمس في ملاذِّها قوي شديد ، ولُبُّك وقلبك يحرسان وينظمان ، ولكن قد يضعفان أمام نوازِع الهوى وعواطف النفس ، فلا يستكمل وجودك سعادته ، ولا نفسك علاها وسؤددها ، وراحتها وسكونها ، حتى تجعل على نفسك رقيباً ، وعلى أعمالك حسيباً . ولست بمستطيع أن تجعل بين جنبيك حارساً ، يقوّم أَوَدَكَ ، ويقفك حيث الخير والفضيلة والبرّ . ولكنك إذا ذكرت في عملك ربك الذي خلقك وأحسن

إليك ، وبَصَّرك وهداك ، ـ إذا فعلت ذلك وملأْتَ به صدرك ، وجدت في نفسك نوراً يسلك بك الجَدَد ـ (ومن سَلَكَ الجَدَد بالبِرّ أمن العِثار) ـ ويدعوك إلى الهدى ويَدْرَأُ عنك الأذى . فالله بَرٌّ ، يأمر بالبِرّ في كل أمر ، ويكره منك الشَّرَّ والضرر . وهو الذي يجعل لك من كل ضيق فَرَجاً ، ومن كل هَمٍّ مخرجاً .

إن ذكرك ربك يُطَمئِنُ قلبك ، ويهدي نفسك ، ويجعل فيها ثقة كبيرة ، وصبراً عظيماً على النُّوَب والأحداث . وهذا سبيل جليل لتخفيف أعباء الحياة ، وتسهيل خطوبها وتيسير شؤُونها . وليس ذكر الرب ، أن تعقد على الحب مئات التسبيحات ، أو ألوف الكلمات ، بل ذلك تذكُّرُهُ في كل عمل تأتيه أو تذره . فذكر التاجر ربه ، أن يتذكره في عمله ومعاملته ، فيصدق الناس ولا يغشّهم ، وإذا كالهم أو وزنهم ، وفّاهم حقهم ، ولم يَبْخَسْهم شيئاً . وذِكْرُ العامل رَبَّهُ ، أن يُحْسِنَ عمله ، ويُجَوِّده ، كأنه ربُّ العمل ، وصاحبه يراه ويشهده . . وهكذا كل عمل من أعمال الحياة . إذا ذكرت فيه الله ، حَفَزَك ذلك على أن تُتِمَّهُ وتحسنه وتجوده .

إن الاعتقاد بالرب تعالى ، هو الفِطْرَةُ التي فُطِرَ الناس عليها . وهو سبب في عمران النفس وفَيْضها بالخير والبر . فالنفس المؤمنة بربها ، لا ترى جروحاً إلّا ضَمَدَتْها ، ولا أكباداً

ظامئة إلّا رَوَّتْها ، ولا فتنة مشتعلة إلّا كانت عليها ، حتى تخمد جمرتها ، وتطفىء جَذْوَتَها . ثم هي لا تحاول أن تغمس يدها في شر أو نكر ، ولا أن تتمضمض بسفهٍ ولا هجر ، بل تحب الخير وتفعل البر . هذه هي النفس الفاضلة . أما النفس التي قيل فيها (قول كالرُّطَب وفعل كالحطب) أو (قول كالعسل وفعل كالأَسَل) ـ فليست هي بالنفس التقية المؤمنة ، وإن أدَّعَت التقوى والإيمان ، وحلفت على ذلك الإيمان .

ولنأت الآن إلى الوصية الثانية ، لنفصّلها ونكشف عنها أيضاً . وهي وصية كريمة مثل أختها . لها الفضل الكبير والأثر الجليل ، فيما يصلح النفس وينقّيها . . يقولون أن النفس الانسانية ، كالمرآة الصافية النقية ، تتراءى فيها الأخلاق والفضائل ، كما تتراءى في المرآة أشخاص الأشياء . وإنَّ عمل السوء كالظلمة تَغْشَى النفس ، فتغطّي منها بقدرها ، فإن أتبعت السيئة الحسنة ، كشفت عن نفسك هذه الظلمة ، وأبقيت على نفسك صفاءها وإشراقها . وإن تركت السيئة تتبع السيئة ، تتابعت على النفس الظلمة ، وغدت لا تبصر ضياء الحق ونور الخير . ثم أن السوء ، إذ يفعله المرء أول ما يفعله ، قد يجد طعمه مريراً ، فإذا عاوده ولم ينْقَ منه ، استحلاه وربما تأصَّل في نفسه ، وكان خلوصه منه عَسِراً وشاقّاً . . أصاب رجل من أصحاب رسول الله ذنباً ، وجاء تائباً يقول : يا رسول الله ! أصبتُ ذنباً ، وكأني أحمل في يدي

جبلًا . . أترى أيها المستمع الكريم ، لو عاود السوء الذي أصابه ، ولم يعقبه الندم والتوبة ، أما كان يصغر هذا الجبل الذي يراه ، حتى يصير تلًا ، أو كومة ، ثم لا يصير شيئاً ؟ . . هذا والسيئة كالسوء الذي تؤذي به نفسك ، فإن اتبعتها الحسنة ، وتقدمت إلى أخيك فتحلَّلْتَ منها ، وطلبت عفوه ، استللت من نفسه غيظها ، وكشفت عنها سخطها وحنقها ، ورضي عنك ، وصفح وعفا .

(الأُخوَّة الانسانية)

يَرتبط الإنسان بالانسان ، منذ نشأ في هذا الكون ، وأنْبَثَّ في الوجود . وشاء الله أن يعهد إليه في عمارة الأرض ، الانتفاع بما فيها . ووهبه التمييز ، فانتشر في الأرض ، وانطلق في جنباتها ، وانبعث يتعرَّف موادَّها ، ويعلم خبأها . فشقَّها واستخرج كنوزها ، واعتصر موادها ، فَدَرَّتْ عليه أخلافها ، وآتَتْهُ أُكُلَها ، وانقلب من وراء ذلك في خفض من العيش وسعة ، وغدت هذه الحياة لنفسه حلوة محببة ، فصار ينازع فيها غيره ويدفع عنها سواه . وبلغ به حبه لذلك ، وإمتاعه نفسه وهواه ، أن صار يدافع عنها ، حتى أباه وأخاه ، ونشأ ما يسمى تنازع البقاء . . وكان أن بعث الله الأنبياء مبشّرين ومنذرين ، فبذلوا جهوداً مشكورة في سبيل سعادة الإنسان . وكان من أهم

ما دعوا إليه ، وبذلوا الجهود في سبيله (الأُخوَّة الانسانية) التي تتمثل واضحة جلية ، في أقوالهم وأحوالهم وآثارهم . .
وها نحن في حديثنا هذا ، نجلوا للمستمع الكريم ، شيئاً مما يتعلق بهذه المسألة الانسانية من العهد الاسلامي الأول ، وهو أقرب العهود إلينا ، ولعله من أوضحها في هذا آثاراً ، وأكثرها أخباراً .

بُعث محمد عليه السلام في أُمَّةٍ ، كانت الفرقة فيها متجلية بأوضح معانيها ، فلا كلمة تجمع أبناءها ، ولا ملك يسوسهم ، ولا قانون يرعى حقوقهم ، أو يُبقي على أموالهم وأنفسهم . بل كانوا والأمم الأخرى تتخطفهم ، ومن ملكهم سامهم الخَسْف وسوء العذاب ، فكانوا من ذلك في حياة شقية وعيشة ضنك . وماذا تأمل من قوم ، ليس بينهم كلمة مجموعة ، وليست لهم راية مرفوعة ، يسطو بعضهم على بعض ، في جُنْح الليل وفي وضح النهار ، ولا يجد أحدهم حرجاً ، أن يغزو حتى أخاه ، كما قال قائلهم :

وأحياناً على بكرٍ أخينا إذا لم نَجِدْ إلَّا أخانا

ولا يخفي ما تورثه هذه الفَوْضى من الشقاق والانقسام ، فكانت حكمة الرب الجليل ، أن بعث فيهم رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويُزَكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فجمع شملهم ووحَّد كلمتهم . ومن قوله تعالى في هذا : « لو أنفقت

ما في الأرض جميعاً ما أَلَّفْتَ بين قلوبهم ، ولكنَّ الله أَلَّف بينهم » . وهذا يشهد بصدق ما قدمناه من القول عن فُرْقَة القوم ، كما يشهد بفضل تلك الدعوة الرشيدة ، التي كانت سبباً في جمع شتات القوم ، وإصلاح نفوسهم ، وتنظيم شؤونهم ، وضبط حقوقهم وأموالهم وأنفسهم .

كان من أهَمّ هذه التعاليم الرشيدة ، التي جاء بها هذا الدين الحنيف ، كما ذكرنا ، تقرير الأُخُوّة الانسانية بأوسع وأوضح مما جاءت به الشرائع الأخرى . فالله في الكتاب يقول : (يا أيُّها الناسُ إنَّا خَلَقْناكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائلَ لِتَعارَفُوا) أي ليتعرَّف بعضكم بعضاً ، فترعون حقوق ذات بَيْنِكُم ، وتتقون ما يقطع صِلاتكم وَقُرُباتكم . ومحمد عليه السلام ، حامل هذه الدعوة ، يقول : (المرءُ أخو المرءِ أحَبَّ أم كَرِهَ) . ويقول : (الناسُ من آدَم وآدَمُ من تراب) ـ أي فكلكم أيها الناس ، أبناءُ رجل واحد ، فلا تَكَبَّروا ولا تَجبَّروا ، فبينكم أُخُوّةٌ ورابطة قوية . ويقول : (لا تَباغَضوا ولا تَحاسَدُوا ولا تَدَابَروا وكونوا عِبادَ الله اخواناً) .

ويقول : (أحِبَّ للناس ما تُحِبُّ لنفسك) . وهذه أمور إذا تبادلها الناس ، اتصلت نفوسهم بعضها ببعض ، اتصالاً كريماً ، وجَنَوْا من ورائها خيراً كثيراً وفضلاً كبيراً . ويقول : (خَيْرُ الناس أنْفَعُهُم للناس . وأفْضَلُ الإسلام إفْشاء

السلام) . وهذه أمور أيضاً إذا انتشرت بين الناس ، غرست في نفوسهم الوُدَّ ، ونشرت بينهم الوئام والسلام . وذلك هو عَوْنُ الانسان لأخيه الانسان ، وهو من أكبر ما يَرْبِطُهُ به ، ويصلُ حبله بحبله ، والتحيات تزرع بين الناس الصِّلات .

كيف أصبحتَ كيف أمْسَيْتَ مِمَّا
يزرع الوُدَّ في قلوب الرجالِ

هؤلاء المهاجرون من أهل مكة ، تضيق عليهم شِعابُها ورِحابُها ، لأنهم اتَّبعوا الحق ، فطاردهم أهلها حتى اضطرُّوهم إلى النُّزوح عنها ، فنَزَحُوا إلى يَثْرِب ، وكان قد دخل في بعض بيوتها نورُ هذا الحق ، ونَزَحَ من بعدُ إليها حامِلُ هذا النور ، محمد عليه السلام ، فألْفَى هؤلاء النازحين عن بلدهم وأرضهم وأموالهم ، في حالة شِدَّة وضيق ، فوَجَّهَ إلى هذا عنايته ، وعَقَدَ بينهم وبين اخوانهم من أهل يثرب ، هذه الأخوَّةَ الانسانية الكريمة ، فصار المَكِّيُّ واليَثْرِبِيُّ أخَوَيْن في كل شيء ، يعملان مشتركَيْن في الحقول والمتاجر ، ويعيشان مشتركَيْن في الأطعمة والأشربة والمنازل .

عُنِيَ الاسلام بِبَثّ هذه الروح ونشرِها ، وبالغ في رفع شأنها وتقديرها حقَّ قدرها . وكان من نتيجة ذلك ، ان اتَّصل الناس بعضهم ببعض اتصالاً وثيقاً ، ونشأ بينهم ما يسمى (الإيْثار) وهو تقديم المر) وهو تقديم المرء أخاه على نفسه . وقد ذكره

الله من أخلاق المُصْطَفَيْن الأخيار في مثل قوله : (وَيُؤْثِرون على أنْفُسِهِم ولَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) . وهو يُعَبِّر بحق عن الايمان الصادق ، الذي أثرتْهُ الدَّعْوَة الاسلامية الكريمة في أنفس الناس ، حتى صار بعضهم يصطنع كل أسْلوب وكل طريقة ، لكشف الأذي عن الناس وتَفْريجه . ومن ذلك ما جاء في سِيرة عُثمان بن عَفَّان رضي الله عنه ، من أن رجلاً احتكر بئراً ، وكان يبيع الناسَ الماء ويُغلي ثمنه . وعلمبذلكعثمان ، فجاءه وطلب أن يبيعه البئر ، وهو يَقْصِدُ رضي الله عنه ، أن يُيَسِّر الماء على الناس ، ولا سيما الضعفاء الذين لا يجدون ما يُنْفِقُون . فأبى الرجل . وعاوَدَهُ عثمان ، فأصَرَّ على إبائه . فجاءه أخيراً وطلب أن يبيعه نصف البئر ، ودَفع إليه في ذلك مالاً كثيراً . فرضي . ثم اتفقا على أن يبيع كلٌ من الشريكين من حصته يوماً على التَّعاقُب . فكان الناس في يوم (عثمان) يَرِدون الماء ، وأكثرُهم يَسْتَقي على نفقة عثمان ، فكانوا لذلك يَمْلأون من الأوْعية ما يُغنيهم عن ورود الماء في يوم الشريك الآخر . . وهكذا قلَّ ورود الناس للبئر في يومه ، فلم يَرَ أخيراً إلَّا أن باع النصف الثاني من البئر لعثمان ، ورَوِيَ الناس ، وتخلصوا من شطط الرجل وَعَنَتِهِ .

هذا بعض ما فعله هذا الرجل الكريم العظيم ، من الرِّفْقِ بالناس والحَدَب عليهم . . وإنَّ مَثَلَ الانسان ، الذي بحق يسمى إنساناً ، مَثَلُ الشجرة الطيبة التي لا تمنع أحداً جَناها ،

ولا تمنع أحداً ظِلَّها ، ولكل عابر سبيل أن يلجأ إليها في وَقْدَة الحَرّ وشِدَّة القَيْظ ، فَتَحْنو بأغصانها وأفنانها عليه ، وتبعث بالنسيم اللطيف المُنْعِش إليه .

ولا يَفُوتني أن أختم حديثي الليلة ، بالقصة التالية ، لِما لها من المساس بحالتنا الحاضرة ، وهي مما اتفق لعثمان أيضاً . فقد وَفَدَتْ قافلة له ، ونزلت المدينة ، والناس في جَدْب وشِدَّة ، وقد غَلَت الأقوات واشتد الجوع . وفي المدينة فريق من التجار ، لَبِسُوا جُلود البشر ، وفي صدورهم قلوبُ الثعالب والذّئاب . وقد هرعوا إلى عثمان ، يريدون شراء الأقوات التي جاءت بها القافلة ، لا ليفيضوها على الناس ، وَيُسدُّوا بها حاجتهم وعَوَزَهم ، بل لِيَقْبِضُوها عنهم ويحتبسوها ، لينالوا من بيعها بعد ذلك الأرباحَ الطائلة . . وعرف عثمان رضي الله عنه ما يُضمرون ، فقال لهم : وكم تُرابحوني عليها ؟ . . فأخذوا يذكرون له المبالغ التي يدفعونها ، ويتبارَوْن في ذلك ، وهو يقول لهم : قد أكسَبَني غيرُكم أكثر منكم . فيقولون : نحن مَن تعرف من تجار المدينة ، ونحن أغناهم وأثْراهم ، فمن الذي أكسبك ؟ فقال : قد أكسبني مَن أحدثكم عنه عشرة أضعاف ما دفعتُ ، فمن منكم يزيد ؟ قالوا : لا أحد ، فمن هو هذا ؟ فقال : ربُّكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وآتاكم من فضله ، وفضلكم بالمال على كثير من خلقه . . فجئتم تريدون أن تزيدوا الناس شِدَّةً وعُسْراً ، على ما هم فيه من الشدة

والعسر ، وبئس ما تفعلون . . وصَرَفهم عثمان رضي الله عنه ، ثم فَرَّق الأقوات في الناس ، فَفَرَّجَ كُرْبَتَهُم وكشف الضّيق عنهم .

(الخلق الحسن)

جاء في حكمة الأوَّلين : « مَن لانَتْ كلمتُهُ وَجَبَتْ محبتُهُ ، ومَن عَذُب لسانه كثر إخوانه » . فعذوبة القول وحسن الخُلُق ، كعذوبة الماء ونقائه . والناس يَهِشُّون للخلق الحسن والقول الحسن ، كما يهشون للماء العذب . . إن الخلق الحسن يجعل صاحبه إلى النفوس حبيباً وإلى القلوب قريباً . وهو خير عضد وساعد ، لكل ما ينشر الذكر ، ويُعلي القَدْر ، ويُسعد المرء ويُغنيه ، وكثيراً ما يدرأ عنه الشرّ ، ويحفظه منه ويقيه ويحميه . فالرفيع إذا بَسَطَ للناس وجهه ، وألانَ لهم قوله ، حَبَّبهم إليه وجمعهم حوله . وإذا كان فوق ذلك ، سَبْطَ الكفّ ، فَيَّاح اليد ، خَيّراً ، نافعاً ، أفرغ الناس أيديهم في يده ، وكانوا عوناً له في الحياة ، وسواعد قوية ، تدفع عنه الخُطوب والمُلِمَّات . . قالوا : المرءُ أسيرُ الاحسان . وليس الاحسان الذي يَعنونه ، مقصوراً على أن تَسُدَّ جَوْعَة الجائع ، أو تكسو العُرْيان ، وإنما هو أيضاً ، أن تلين لأخيك الانسان ، وتحبه وتتحبب إليه . . ولا شك أنَّ الناس ، إذا تلاينوا

تحابُّوا ، ونما بينهم الخير ، ودَرَّتْ عليهم الأرزاق وتهيأت نفوسهم لأحاسن الأخلاق ، وهم في جملتهم كما قال الشاعر :

فـإنَّـمـا الـنـاسُ مـن زُجـاجٍ
إنْ لـم تَـرَفَّـقْ بـه تَـكَـسَّـرْ

فرفقك بأخيك ، يطيب من نفسه ، ويحسن من خلقه ، ويعلمه الرفق والاناة ، وهما خَلَّتان وخلقان رضيان ، فيهما للمتخلق بهما وللناس خير كثير ، وأكثر ما يكسبهما الانسان من الانسان . فلن تجد في الناس أمرأً حسن الخلق لين العريكة ، إلاَّ وجدته حظيّاً عند الناس ، ولا تراه يجلس مجلساً إلاَّ كان فيه محترماً مَوْموقاً .

كلُّ خلق من الأخلاق الفاضلة ، لا يبلغ كماله إلاَّ في الذين رجحت أحلامهم ، وكبرت نفوسهم ، ورحبت صدورهم ، وصاروا قدوة يُهتدى بهم ويستضاء بنورهم ، وساروا وراء المَثَل الأعلى لكل ذلك ، وهو سيدُنا مصلح الأمة العربية العظيم ، محمد عليه السلام . فهو أحسن الناس خُلُقاً ، وأصدق الناس لهجة ، وألْيَنُ الناس عريكةً ، وأكرم الناس عشرة ، وأسخى الناس كَفّاً ، وأطيب الناس نفساً . وقد حملت إلينا شريعته وسيرته ، من هذا الخلق الذي نحن في سبيله ، آثاراً كثاراً ، كلها أمثلة كريمة ودروس عظيمة ، يجدُرُ بكل إنسان أن يأنس

بها ، ويسير على غرارها ومثالها . وها أننا نَعْرِض على المستمع الكريم ، طائفة مما جاء في الكتاب ، من الآيات في الخلق الحسن ، والحثّ عليه ، وفيها العظة والذكرى لأولي الألباب .

جاء في قصة موسى وهارون مع عزيز مصر فرعون ، حين أرسلهما الله لدعوته إلى الحق والهدى : (إذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ . إنَّهُ طَغَى . فَقُولا له قَوْلاً لَيِّناً لعله يتذكر أو يخشى) . وفي ذلك قوله تعالى لموسى : (إذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ . إنَّه طَغى . فَقُلْ هَلْ لك إلى أنْ تَزَكَّى وَأهدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى) . وفي دعوة النّاس إلى هذا الخلق بعضهم إلى بعض : (وَقُلْ لِعبادي يَقُولُوا التي هِيَ أحْسَنُ . إنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بينهم) . وفيه : (وَتَعَاونـوا على البِـرِّ والتقـوى ولا تَعَـاوَنُـوا على الإثمِ والعُدْوان) . وفيه أيضاً : (وَقُولُوا للنَّاس حُسْناً) . وفي برِّ الوالِدَيْن : (وَقُلْ لهما قولاً كريماً . وَآخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمة . وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كما رَبَّياني صَغيراً) . وفي محمد عليه السلام : (وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لانْفَضُّوا من حَوْلك) .

هذا بعض ما جاء في آي القرآن ، وهو الذخيرة الكبيرة لكل إنسان ، والمَوْرِد العَذْب السائغ لكل وافد ووارد وراغب وطالب ، في مختلف الأمور وشتى الشؤون . وها اننا نشفع

هذه الآيات ، بشيء مما حملته لنا السيرة المطهرة عن محمد في خلقه العظيم . فقد كان عليه السلام ، لا يتلقى الأمور إلّا بيسر وسهولة ، ثم يعالجها برفق ولين . ومما جاء من الأمثلة على ذلك ، إن رجلاً دخل المسجد والناس يُصَلُّون ، فلما فرغوا من صلاتهم ، أَلْفَوْهُ في ناحية من المسجد لم يُصَلِّ ، فكادوا يُوقعون به ، لتركه الصلاة وراء الرسول . فذُعر الرجل وارتعد . ورأى ذلك الرسولُ فدعاه ، فجاء وفرائصه ترتعد . فقال له عليه السلام : خَفِّض عليك ، إنما أنا إبن أمرأة من قُرَيْش ، كانت تأكل القَدِيد . . ولكن أخبرنا ، لِمَ قَصَدْتَ عن الصلاة ؟ فقال الرجل : يا رسول الله صليتُ في رَحْلي ، ثم أتيت . . فما زاد رسول الله على أن قال له : يا هذا ، إذا أتيتَ مسجد جماعةٍ ، فَصَلِّها معهم ، فإنها لك نافِلَة . . ورُفع إليه رجل تكلم في صلاته ، وكاد القوم يُوقعون به أيضاً ، فقال لهم الرسول : أرسلوه . ثم نَصَحَ له علَّمه، فرجع الرجل إلى قومه ، يُحدِّثهم حديثه ، ويقصُّ عليهم قصته ، ويقول عن محمد عليه السلام : بأبي هو وأُمّي ، واللهِ ما نَهَرَني ولا حَقَرني ولا سَبَّني ولا شتمني ، ولكن قال لي ، إنها الصلاة ، ولا يَصْلُحُ فيها شيء من كلام الناس .

ويخرج عليه السلام ، وبرفقته رجلان ، يريدون النُّزْهَةَ . ويجيء وقت طعامهم ، فيعمدون إلى شاةٍ أعَدُّوها لذلك ، فيقول أحدُهم : عليَّ ذَبْحُ الشاة ، ويقول الآخر : وعليَّ

سَلْخُها . فيقول النبي عليه السلام : وعليَّ جَمْعُ الحطب . فيقولان : نحن نَكفيك ذلك يا رسول الله . فيقول : قد علمتُ ، ولكن لا أُحِبُّ أن أتَمَيز عنكما . ويتركهما عليه السلام يُصلحان الشاة ، ويقوم فيجمع الحطب . ثم يَشُبُّون النارَ ويُصلِحون الشاةَ . . هذه نفس رضية كريمة ، وذلك خُلُقٌ حسن عظيم .

ويتمثل خُلُقُهُ عليه السلام في أفضل وأمثل من ذلك ، ـ يتمثل في هذه القصة المُمْتِعَة : يَصحَبُ جابرُ بن عبد الله رسولَ الله في غَزاةٍ . وفي طريقهما وهما قافلان إلى المدينة ، يرى محمد عليه السلام بعير جابر كلَّ وأعيا عن اللحاق بالقافلة ، فيجمع على نفس جابر كَلالُها ونَصَبُها ، وكلالُ بعيرهِ وإعْياؤُهُ . وفوق هذا كله ، هو يُفَكِّر وهو قافل إلى المدينة ، وله فيها تِسْعُ بنات ، تُوُفِّيَتْ عنهنَّ أُمُّهُنَّ وهن صغيرات ، وتزوج أمرأةً كانت تقوم بأمرهنَّ وتُصلح من شَأنِهِنَّ . فهو أيضاً يفكر فيهنَّ جميعهنَّ . . ويجول في نفسه هذا الحديث : ها أنا أعودُ إلى منزلٍ عارٍ ، إلَّا من الأولاد ، ولعلهم جائعو الأكباد ، وفي حاجة وجَهْد . . كل هذا كان يَعْتَلِجُ في نفس جابر ، ومحمد النبيُّ الألمعيُّ يتلو في وجهه كل هذا ، فَيَعْمِدُ عليه السلام ببعيره نحو جابر يريد أن يُهَوِّنَ عليه سفره ، ويكشف عن نفسه هذا الضيق وهذه الغُمَّة . . ويجعل الرسول يحادث جابراً حديثاً حُلْواً مُسَلِّياً ، فَيُسَرِّي عن نفس

جابر . ثم يقول له الرسول بعد حديث : يا جابر ، أتبيعني هذا البعير ؟ . وجابر يعلم أن بعيره غير صالح ، فيقول : يا رسول الله ، إن لك خيراً منه . فيقول : إلاَّ هو . فبكم تبيعه ، ولك ظَهْرُهُ إلى المدينة ؟ فيرى جابر من رسول الله الجِدَّ ، وتشيع في نفسه مَسَرَّة . فهو يقول في نفسه ، إن ابتاعه محمد عليه السلام ، كان لي في ذلك سَعَةٌ ، وكَسَوْتُ بناتي ، وأصْلَحْتُ من شأنهنَّ ، وهُنَّ الآن يَرْقُبنَ مجيئي وينتظرن وفودي ، وما أحمل لهن مما يُفَرِّحُهُنَّ شيئاً . . ويعاوده الرسول . فيقول له جابر : هو لك يا رسول الله بغير ثمن . ويَأْبى الرسول إلاَّ أن يُسَمِّيَ الثمن . ويَتَراضَيان على أوقِيَّتَيْ ذَهَبٍ . . وَتَقْدَمُ القافلة إلى المدينة ، ويبدأ رسول الله كعادته ، إذ يقدم من سفر ، يبدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثم ينادي غلاماً له فيقول : هذا جابر بن عبد الله ، له أوقيتا ذهب ، فانطلق ، فَزِنْ له ذلك وارجع . فيذهب الغلام ويرجع وهو يحمل الذهب . فيأخذه جابر وينصرف ، وهو مغتبط مبتهج تطفح نفسه بالسرور . . انه سيحمل الآن إلى بناته وأهله طعاماً وكسوةً وهدايا ، وسينقلب منزله بذلك إلى سرور ومَرَح . . وما هو إلاَّ أن مَشي قليلاً ، حتى تبعه الغلام ، وهو يقول له : أَجِبْ رسول الله . فيغتمُّ جابر ويقول في نفسه : لعل محمداً قد رجع عن شراء البعير . . ولكن النبي عليه السلام يقول له : يا جابر خذ جملك ، ولك ما أخذتَ ، إنما كنتُ لك مُسَلّياً ومعك مازحاً .

فيرجع إلى جابر سرورُهُ وابتهاجه ، وينقلب بالذهب والبعير ، فيُصْلِح من شأن بناته . . ويكون سرورُهنَّ عظيماً .

آداب العِيادَة

قَالَ أحَدُ ٱلأُدَبَاء : إذا مرِضَ صَديقُكَ فَعُدْهُ مِرَاراً ، وَحَدِّثْهُ بِحَدِيثٍ يُشَجِّعُهُ وَيُقَوِّيهِ عَلَى مُقَاسَاةِ أوْجاعِهِ . وَإيَّاكَ أنْ تَذْكُرَ لَهُ مَا يُزْعِجُهُ وَيَثْقُلُ عَلَيْهِ سَمَاعُهُ . خَوْفاً مِنْ أنْ تَزِيدَهُ هَمّاً وَقَلَقاً . فَتَكُون عِيادَتُكَ لَهُ وَبَالاً عَلَيْهِ .

وقال آخرُ : يَحْسُنُ بِالمَرْءِ إذا عادَ صَديقَهُ الْعَليلَ أنْ يُفَرِّجَ كرْبَهُ . ويَكُونَ لَهُ بِكَلاَمِهِ ٱلْمُسْتَعْذَب أنْجعَ دَوَاءٍ .

وَقَال بَعْضُ الحُكمَاءِ : لا تُطِلْ عِيادَتَكَ لِلْمريضِ إذا شَقَّتْ عَلَيْهِ مُجَالَسَتُكَ لَهُ . ولا تَتَكَلَّمْ مَعَهُ فِي حِينَ يُزْعِجُهُ ٱلْكَلاَمُ . وَقالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ الله . لا تُطِلِ ٱلْجُلُوسَ عِنْدَ المَرِيضِ وٱلْعَلِيلُ يُعَادُ وَٱلصَّحِيحُ يُزَارُ .

وقال سُفْيانُ الثَّورِيُّ : ٱلثُّقلاءُ أشدُّ على المرضى مِنْ أمْراضِهِم . يَجيئونَ فِي غَيْرِ وَقْتٍ . وَيُطِيلُونَ ٱلْجُلُوسَ .

وقال الشاعر :

عيـادة المـرء يـوم بين يـومين
وجلسة لـك مثـل اللحظِ بـالعين
لا تُبـرِ منَّ مـريضاً في مسـاءلـة
يكفيـك من ذاك تسـآل بحـرفين

لما مرض معاوية عاده أصدقاؤه فلم يطيلوا الجلوس عنده وقالوا له عند الوداع : ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك فأنت تكره أن تستخف بنا فتأمرنا بالقيام . ونحن نكره أن نثقل عليك بطول الجلوس .

التواضع والكبر

قال سعد بن وقاص لابنه : يا بني إياك والكبر . وليكن في ما تستعين به على تركه علمك بالذي منه كنت والذي إليه تصير . وقال أحد الأدباء : من ولد في الفقر أبطره الغنى . ومن ولد في الغنى لم يزده إلا تواضعاً .

وقال أبو العتاهية :

أشـد الـنـاس لـلعـلم آدعـاء
أقـلُّهـم بـمـا هـو فـيـه عـلـمـاً

وقيل في منثور الحكم : من أظهر عيب نفسه فقد زكّاها فإذا

قطع أسباب الكبر وحسم مواد العُجْب اعتاض بالكبرياء تواضعاً وبالعجب تودداً . وذلك من أوكد أسباب الكرامة . وأقوى مواد النعم . وأبلغ الشفعاء إلى القلوب يعطفها إلى المحبة ويثنيها عن البغض .

وقال الشاعر :

إتضع للناس إن رمت العلى
وآكظم الغيظ ولا تبد الضجر
واجعل المعروف ذخرا إنه
للفتى أفضل شيء يذخر
واحمل الناس على أخلاقهم
فبه تملك أعناق البشر

الرئاء

حقيقة الرئاء اختلاف السر والعلانية واختلاف القول والعمل وهو يدل على سخف العقل .

قال سعيد بن عروة : لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وسوء المخبر أحب إلي من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين .

وقال آخر : المتزيّن بما ليس فيه كلابس ثوبي زور . فهو برئائه محروم الأجر مذموم الذكر . لأنه لا يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه . ولا يخفى رئاؤه على الناس فيحمد به .

وقال بعض الفصحاء : المرائي يتبهرج بزي الصلحاء وليس منهم . ويظهر بمظهر الأخيار وهو ضدهم . حتى يستعطف القلوب النافرة ويخدع العقول الواهية .

وقال بعض الأتقياء : كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله فليس من الله في شيء . ولو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس به أنه كتمه فهو من أقبح الرئاء .

وقال بعض الفضلاء : من الناس من يتلون ألواناً ويكون بوجهين ولسانين . فيأتي هؤلاء بوجه . وهؤلاء بوجه . وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً .

وقال التهامي :

ثوب الرئاء يشف عما تحته
فإذا اكتسيت به فإنك عارٍ

الصدق والكذب

قال علي بن عبيدة : الصدق ربيع القلب وحلية النفس

وثمرة المروءة وشعاع الضمير . والكـذب شعار الخيـانة وتحريف العلم وتسويل أضغاث النفس . وقال بعض الأدباء : الكذب جماع كل شر وأصل كل ذم . لسوء عواقبه وخبث نتائجه . لأنه ينتج النميمة . والنميمة تنتج البغضاء . والبغضاء تؤول إلى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة .

وقالت الحكماء : من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه .

وقال أحد الأدباء : الكذوب متهم وإن صدقت لهجته ووضحت حجته . وقال عمر بن الخطاب : لأن يضعني الصدق وقلما يفعل أحب إليّ من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل .

وقال بعض الفضلاء : الصـدق منجيك وإن خفتـه . والكذب مرديك وإن أمنته .

وقال حكيم : من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق في ما يقوله . وقال آخر : نزِّه سمعك عن سماع الكذب كما تنزِّه لسانك عن التفوه به .

ذم المداهنة والتمليق

قال بعض الحكماء : الملق ذل والنفاق لؤم . وليس لمن وسم بهما ود مبرور وأثر مشكور .

وقال بعض البلغاء : التمليق خدعة **لا** يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز . وقالت الحكماء : إن الملق مصايد العقول الواهنة والمداهنة شبكة القلوب الغافلة وهما من ضروب التدليس والتمويه والتضليل والتغرير . وليس في من يكون الملق والمداهنة بعض سجاياه خير يرجى ولاصلاحٌ يؤمل .

وقال علي بن أبي طالب : أعداء الرجل قد يكونون أنفع من إخوانه . لأنهم يهدونه إلى عيوبه فيجتنبها . ويخاف شماتتهم فيضبط نعمته ويتحرز من زوالها بغاية طوقه .

وقال عليٌّ : المرآة التي ينظر الانسان فيها إلى أخلاقه هي الناس . لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم ومساوئه من أعدائه فيهم . وقال آخر : إن المتملقين يجعلون التمليق خديعة ، فإذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة أغروا أربابها وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم .

وقال علي : من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك ذمك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك .

وكان أبو بكر الصديق إذا مدح قال : أللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم . اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون وأغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون .

وقال أحد العقلاء : اعرف الرجل من فعله لا من كلامه

وأعرف محبته من عينه لا من لسانه . وقال أحد الفضلاء : ينبغي للرجل أن يكون مرآة أخيه تريه خيره وشره .

السعاية والغيبة والنميمة

قال بعض الفضلاء : النميمة دناءة والسعاية رداءة . وهما رأس الغدرورأس الشر . فتجنب سبلهما وتحرز من أهلهما .

وقال محمد بن السماك : تجنب القول في أخيك لخلتين . أما الواحدة فلعلك تعيبه بشيء هو فيك . وأما الأخرى فإن يكن الله عافاك مما ابتلاه به كان شكرك الله على العافية تعييراً لأخيك على البلاء .

وقال آخر من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون ومن تتبع مساوىء العباد فقد نحلهم عرضه .

القناعــة

قالت الحكماء : الغني من استغنى بالله والفقير من افتقر إلى الناس . وقال بعض الصلحاء : سرور الدنيا أن تضع بما رزقت . وغمها أن تغتم لما لم ترزق .

وقال علي : من رضي بما قسم له استراح قلبه وبدنه . وقال الفضيل : من رضي بما قسم الله له بارك له فيه .

وقال سعيد بن أبي وقاص لابنه : يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة . فإنها مال لا ينفد . وإياك والطمع فإنه فقر حاضر . وقال أكثم بن صيفي : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة . وقال بعض الحكماء : من قنع كان غنياً وإن كان مقتراً ومن لم يقنع كان فقيراً وإن كان مكثراً وقال آخر : القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسِر .

الحث على حفظ المال والنهي عن التبذير

قالت الحكماء : التبذير إنفاق المال في غير حق وبذله على وجه لا تقتضيه الحكمة . وقال سعيد بن جبير : التبذير هو أن تنفق الطيب في الخبيث .

وقال معاوية : ما رأيت تبذيراً قط إلّا وإلى جنبه حق مضيع .

وقال سفيان الثوري . من كان في يده مال فليصلحه . فإنه في زمان إن احتاج إليه فأول ما يبذل فيه دينه .

وقال آخر :

ولم أر مثل الفقر أوضع للفتى
ولم أر مثل المال أرفع للنذل
ولم أر عزاً لأمرىء كعشيرة
ولم أرذ لأمثل نأي عن الأهل

التأني والعجلة والرفق والعنف

التأني هو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب .

قال أحد الحكماء : مع العجلة الندامة ومع التأني السلامة وقال آخر : من تأنى نال ما تمنى .

وقال أحد العلماء : من ركب العجل أدركه الزلل .

وقال آخر : التأني حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة . وقيل : بحسن التأني تسهل المطالب . وقال بعض العقلاء : إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأني فبماذا يدرك .

وقال آخر : العجول مخطىء وإن ملك . والمتأني مصيب وإن هلك . وقال أفلاطون الحكيم : لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده . فإن الناس لا يسألون في كم فرغ . وإنما ينظرن إلى إتقانه وجودته .

الكلام والصمت

قال بعض الحكماء : الزم الصمت إلا عن حق توضحه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها . أو نعمة تذكرها .

وقال بعض البلغاء : احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك . فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب .

وقال علي : احسبوا كلامكم من أعمالكم وأقلوه إلا في الخير . وقال سليمان بن عبد الملك : السكوت عما يعنيك خير من الكلام في ما يضرك . والسكوت عما لا يضرك خير من الكلام في ما لا يعنيك .

وقال الشاعر :

إحفظ لسـانـك أن تقـول فتبتلى
إن البـلاء مـوكـل بـالمـنـطق

المزاح والضحك

قال أحد الأدباء : على العاقل أن يتقي المزح وينزّه نفسه عن وصمة مساوئه . فإنه مخرج إلى القطيعة . ومذهبة للهيبة والبهاء . ومدعاة لتجرو الغوغاء والسفهاء .

وقال الحجاج بن يوسف : المزاح يوغر صدر الصديق وينفر الرفيق . ويبدي السرائر ويظهر المعاير . ويجلب الشتم ويثير الحقد . وقال أحد العقلاء : الضحك كالمزاح يلزم تحاميه والنفور منه . والأحرى بالعاقل أن يبدل الضحك عند الإيناس بالتبسم .

وقال ناصح الدين :

لا تجعل الهزل دأباً فهو منقصة
والجد تعلو به بين الورى القيم
ولا يغرنك من ملك تبسمه
ما سحّت السحب إلا حين تبتسم

وقال آخر : المزاح مجلبة للبغضاء . ومسلبة للبهاء . ومقطعة للإخاء . وقال بعض الحكماء : إياك والمزاح فإنه يذهب ماء الوجه ويحط من المروءة . وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار . ولا لمن وصم به خطر ولا مقدار .

وقيل : المزاح يضع قدر الشريف ويذهب هيبة الجليل .

وقال أحد العقلاء : لا تمازح الصبيان فتهون عليهم . وقال أحد البلغاء : أحذر فلتات المزاح فسقطه الاسترسال لا تقال . وقيل : كثرة الضحك من الرُّعونة .

المشورة

قال بعض البلغاء : ينبغي للعاقل أن يضيف إلى رأيه رأي العقلاء ويجمع إلى عقله عقول الحكماء . فإن الرأي الفذ ربما زل وإن العقل الفرد ربما ضلَّ .

وقال عبد الملك بن مروان : لأن أخطىء وقد استشرت أحب إلي من أن أصيب وقد استبددت برأيي من غير مشورة وقالت الحكماء : الخطأ مع الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد .

الانتصاح والاتعاظ

قال ابن عبد ربه : الموعظة ثقيلة على السمع صعبة على النفس بعيدة من القبول . لاعتراضها الشهوة ومضادتها الهوى الذي هو ربيع القلب ومراد الروح ومربع اللهو ومسرح الأماني . إلاَّ من وعظه علمه وأرشده قلبه وأحكمته تجربته .

وقالت الحكماء : النصيحة مرة لا يقبلها إلاَّ أولو العزم .

وفي منثور الحكم : ودك من نصحك . وقلاك من مشى في هواك .

الاعتدال

وقال بعض الأدباء : أحسن الأعمال أن تأتي بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا نقصان . فهذه الحال هي أوسط الأحوال وأعدلها لأنه لم يكن منك تقصير فتندم ولا إفراط فتعجز . وقال آخر . أكثر الخير في الأوساط .

التنزه عن استماع الكلام القبيح والقول به

قال عمر بن عتبة : نزِّه سمعك عن استماع الخنى كما تنزِّه لسانك عن الكلام به . فإن السامع شريك القائل .

آداب المتعلم وأخلاقه

قالت الحكماء : من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً .

وقال علي بن أبي طالب : لا يستنكف المرء أن يتعلم ما ليس عنده . وإذا سئل أحدكم عمّا لا يعلم فليقل لا أعلم .

الحكم والمواعظ والنصائح

قال الرشيد لمنصور بن عمار : عظني وأوجز . فقال : يا أمير المؤمنين هل أحد أحب إليك من نفسك . قال : لا . قال : إن أردت ألا تسيء إلى من تحب فافعل .

الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي من أي وعاء خرجت . . . لا يطلب الرجل حكمة إلا بحكمة عنده من بلغ أشده لاقى من العيش أشده .

خيار شبّانكم المتشبهون بشيوخكم . وشرار شيوخكم المتشبهون بشبّانكم .

أفضل البرّ الرحمة . ورأس المودة الاسترسال . ورأس العقوق مكاتمة الأدنين . ورأس العقل الإصابة بالظن .

عليكم بثلاث : جالسوا الكبراء وخالطوا الحكماء وسائلوا العلماء . . . من كرمت عليه نفسه هانت عليه دنياه . .

قيل لحكيم : من أبعد الناس سفراً . قال : من كان سفره في ابتغاء الأخ الصالح .

أكرم الشيم أرعاها للذمم .

● إذا سكن الخوف في القلب لا ينطلق اللسان بما لا يعنيه . جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من

أساء إليها . . . إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة .

● وقال إبن المقفع : الاستطالة لسان الجهالة . وكف النفس عنها بما يصدها من الزواجر أسلم . وهو بذي المروءة أجمل .

● الناس لا يقنعهم القول دون الفعل . ويرونه كالصدى إن رد صوتاً لم يجد نفعاً .

أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعاً لك فقد قيل : من أصلح نفسه أرغم أنف أعاديه . ومن أعمل جدّه بلغ كنّه أمانيه . . من عرف معابه فلا يلم من عابه .

وقد قال الشاعر :

ومصـروفـة عينـــاه عن عيب نفسـه
ولـو بان عيب من أخيـه لأبصـروا
ولـو كان ذا الانسـان ينصف نفسه
لأمسك عن عيب الصديق وقصـرا

ومن تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان .

لا تضيّع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك .

من كان صحيح الرغبة في ثواب الله لم يكن له مسرة إلاّ في طاعته .

لتأمن فجعاتها . . . ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه .

إرضاء الجمهور من المعجز الذي لا يدرك . . إنتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل نفسك هـمّ ما لم يأتك .

ما نقصت ساعة من أمسك إلا ببضعة من نفسك .

فرَّ من الشرف يتبعك الشرف . . لا تختر للمنصب إلا زاهداً فيه غير طالب له .

إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل .

قال أفلاطون : عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم وظاهرة في حسن اختيارهم .

العاقل بخشونة العيش مع العقلاء أسرُّ منه بلين العيش مع السفهاء . . أكبر الأدواء للبدن التلهف على ما لا يدرك ما تزاحمت الظنون على أمر إلاَّ كشفته .

قيل لبعضهم : أسأت الظن . قال : إن الدنيا لما امتلأت من المكاره وجب على العاقل أن يملأها من الحذر .

ألهيبة خيبة والفرصة تمر مرّ السحاب .

وقال الحسن : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء .

من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه . ومن أصلح ما بينه وبين

الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن أخلص سريرته أخلص الله علانيته .

قال أكثم بن صيفي : أنت مزر بنفسك إن صحبت من هو دونك .

أدوية الدنيا تقصر عن سمومها ونسميها لا يفي بسمومها .

أفضل ما أذخرت التقوى وأجمل ما لبست الورع وأحسن ما أكسيت الحسنات .

لقد ملكت ، أيّها الملك العظيم ، بسيفك وصولة ملكك وانتظام سياستك أجسام رعيّتك ، فتحرًّ أن تملك قلوبها باحسانك إليها وإنصافك وعدلك فيها .

من ولي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغيّر لها ، ومن ولي ولاية رآها أكبر منه تغيّر لها .

والقلوب لا تبقى لوال لا يعطف إذا استُعْطِف ، ولا يعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يرحم إذا استرحم . من قلّت رحمته واشتدّت سطوته وجب مقته وكثر مبغضوه .

الأمثال السائرة

أمثال القرآن الكريم :

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .
قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان .
أليس الصبح بقريب .
ليس لها من دون الله كاشفة .
لكل نبأ مستقر .
كل نفس بما كسبت رهينة .
ما على الرسول إلا البلاغ .
هل جزاء الاحسان إلّا الاحسان .
كل حزب بما لديهم فرحون .
لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .
لا يستوي الخبيث والطيب .
لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسوءكم .
لست عليهم بمسيطر .
كل يوم هو في شأن ،
من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها .
لمثل هذا فليعمل العاملون .
كل نفس ذائقة الموت » . .

أمثال الحديث الشريف :

إنما الأعمال بالنيات .
من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .
أنزلوا الناس منازلهم .
اليد العليا خير من اليد السفلى .
مطل الغنى ظلم .
يد الله مع الجماعة .
الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق .
من غشّنا فليس منا .
سيد القوم خادمهم .
الحياء شعبة من الايمان .
كل مُيسَّرٌ لما خلق له .
الوحدة خير من جليس السوء .
الندم توبة .
لا يكون المؤمن طعّاناً ولا لعّاناً .
دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .
أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً .
الأعمال بخواتيمها .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ - أبو بكر الصديق
٢ - عمر بن الخطاب
٣ - عثمان بن عفان
٤ - علي بن أبي طالب
٥ - رمضانيات (١)
٦ - القدس في البال
٧ - الجيش في الإسلام
٨ - أعياد وتواريخ إسلامية
٩ - أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ - أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ - أدعية وابتهالات
١٢ - كلمات ومواقف خالدة
١٣ - تأملات في الإسلام
١٤ - رمضانيات (٢)
١٥ - معارك إسلامية (١)
١٦ - معارك إسلامية (٢)
١٧ - أحاديث رمضانية
١٨ - قصص إسلامية (١)
١٩ - قصص إسلامية (٢)
٢٠ - الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ - الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ - من قاموس الصائم
٢٥ - من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ - من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ - من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ - ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ - ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ - ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أحكام الحج
الى بيت الله الحرام

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

أُدعيَة وَابتهَالاَت

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرُبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ».

صدق الله العظيم

الدّعاء وآدابهُ

قال الله تعالى : « وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فإنِّي قَرِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .

وقوله تعالى : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذَا دَعَانِ » أي أقبل عبادة من عبدني ؛ فالدعاء بمعنى العبادة ، والإجابة بمعنى القبول .

وقال قوم من خيرة الفضلاء ، إن الله تعالى يجيب كل الدعاء ؛ فإما أن يعجل الإجابة في الدنيا ، وإما أن يكفر عن الداعي ، وإما أن يدخر له في الآخرة ؛ يدل على ذلك قول رسول الله ﷺ : « مَا من مسلم يدعو بدعوة ليست فيها إثْمٌ ، ولا قطيعة رحِم ؛ إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث . إمَّا أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدَّخر له ثوابها ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها » .

شروط الدعاء

إجابة الدعاء لا بد لها من شروط :

فشرط الداعي : أن يكون موقناً بأنه لا قادر إلا الله تعالى ، وأن الوسائط في قبضته ، ومسخرة بتسخيره . وأن يكون دعاءه بنية وحضور قلب ؛ فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه . وأن يكون متجنباً لأكل الحرام ، وألا يمل من الدعاء .

وشرط المدعو به : أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعا ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : « مَالَمْ يَدْعُ بإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ » ويدخل في الإثم : كل ما يؤثم به من الذنوب . ويدخل في الرحم : جميع حقوق المسلمين ومظالمهم . قال ابن عطاء الله : إن للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتاً ؛ فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء ، وإن وافق أسبابه نجح ، وإن وافق مواقيته فاز ؛ وأركانه : حضور القلب والخشوع ، وأجنحته : الصدق ، وأسبابه : الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومواقيته : لأسحار .

وشرط الدعاء : أن يكون سليما من الخطأ واللحن قال بعضهم :

يُنـادِي رَبَّـهُ بِـاللَّحْـنِ لَـيْـثٌ
كَـذَاكَ إذاَ دَعَـاهُ لَا يُـجَابُ

آداب الدعاء

أن يكون الداعي مستقبل القبلة رافعاً يديه ؛ لما روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ رَبَّكُمْ حَيِي كَرِيمٌ : يَسْتَحْيِ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً » .

وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء ؛ لما روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه .

وألا يرفع بصره إلى السماء ؛ لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنِ رَفْعِ أَبْصَارِهِمْ إِلَى السَّمَاءَ عِنْدَ الدُّعَاءِ ، أَوْ لَيَخْطَفَنَّ اللهُ أَبْصَارَهُمْ » .

وأن يخفض الداعي صوته بالدعاء ؛ لقوله تعالى « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً » .

وعن أبي عبد الرحمن الهمذاني ؛ قال : صليت مع أبي اسحق الغداة فسمع رجلا يجهر في دعائه ؛ فقال له : كن كزكريا إذ نادى ربه نداء خفيا .

وينبغي للداعي ألا يتكلف ، وأن يأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع ؛ لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إياكم والسجع في الدعاء ؛ بحسب احدكم أن يقول : « اللّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ

وَمَا قَرَّبَ إليها مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ ، وأعُوذُ بِكَ مِنَ النار وَمَا قَرَّبَ إلَيْها مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ » .

وقيل : ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ، ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق .

وكانوا لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها ؛ كما في آخر سورة البقرة . وهو قوله تعالى « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ».

وعن سفيان بن عيينة : لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم منَ نفسه ؛ فقد أجاب الله تعالى دعاء شر الخلق إبليس ؛ إذ قال : « رَبِّ أَنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » فأجابه تعالى : « إنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ».

استفتاح الدعاء :

عن سلمة بن الأكوع قال : ما سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا قال « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى الوَهَّاب ».

وعن أبي سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة ؛ فليبدأ بالصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛

وينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء ، وأن يكون على رجاء من الإجابة ، ولا يقنط من رحمة الله تعالى لأنه يدعو كريماً !

أوقات الدعاء

وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الاجابة : وذلك وقت السحر ، ووقت الفطر في الصيام، وما بين الأذان والإقامة ، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين في الجمعة ، وعند نزول الغيث ، وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وفي الثلث الأخير من الليل ؛ لما جاء في الحديث « إنَّ في اللَّيْلِ سَاعَةً لاَ يُوَافِقُهاَ عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ شَيْئاً إلاَّ أعْطاَهُ » وفي حالة السجود ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام « أقْرَبُ ماَ يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّه وَهُوَ ساَجِدٌ فَأكْثِرُوا الدُّعاَءَ » وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء ، وأوقات الاضطرار ، وحالة السفر والمرض ؛ وجميع ذلك جاءت به الأخبار والآثار .

عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه : دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في مسجد الفتح ثلاثة أيام : يوم الاثنين ويوم الثلاثاء واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين ؛ فعرفت السرور في وجهه . قال جابر : ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة .

ما جاء في الدعاء

وفي بعض الكتب المنزلة « يا عبدي إذا سألت فاسألني فإني غني ، وإذا طلبت النصرة فاطلبها مني فإني قوي ، وإذا أفشيت سرك فأفشه إليّ فإني وفيّ وإذا أقرضت فأقرضني فإني مليّ ، وإذا دعوت فادعني فإني حفي » .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى سَماءِ الدُّنْيَا ـ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الأَخِيرِ ـ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فأَغْفِرَ لَهُ » .

وقال وهب بن منبه : بلغني أن موسى عليه السلام مر برجل قائم يبكي ويتضرع طويلاً ؛ فقال موسى : يا رب أما تستجيب لعبدك ؟! فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ، ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجيب له . قال موسى : يا رب لم ذلك ؟ قال : لأن في بطنه الحرام .

ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا : يا أبا إسحق ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء :

الأول أنكم عرفتم الله تعالى فلم تؤدوا حقه .

الثاني : زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم تركتم سنته .

الثالث : قرأتم القرآن ولم تعملوا به .
الرابع : أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها .
الخامس : قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه .
السادس : قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها .
السابع : قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها .
الثامن : قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له .
التاسع : انتبهتم من نومكم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم .
العاشر : ذفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .

وكان يحيي بن معاذ يقول : من أقر لله بإساءته ، جاد الله عليه بمغفرته ، ومن لم يمن على الله بطاعته ، أوصله إلى جنته ، ومن أخلص لله في دعوته ، منَّ الله عليه بإجابته .

وقال علي رضي الله تعالى عنه : ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء .

أدعية الصالحين

كان من دعاء شريح رحمة الله تعالى : اللهم إني أسألك الجنة بلا عمل عملته وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته .

وكان من دعاء بعض الصالحين ، اللهم إن كنا قد عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك ؛ وهو الاشراك . وإن كنّا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك ؛ وهو شهادة

أن لا إله إلاّ أنت ، وأن رسلك جاءت بالحق من عندك .

ومن دعاء سلام بن مطيع . اللهم إن كنت بلغت أحداً من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية .

وكان من دعاء بعض السلف : اللهم لا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي اللهم لا تكلني إلى نفسي ولا إلى الناس فأضيع !

وقال الأصمعي ، حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت : وهي اللهم إن ذنوبي وإن كثرت وجلت عن الحصر ؛ فإنها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني .

وركب إبراهيم بن أدهم سفينة فهاجت الريح وكثر الموج وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك من هول ما رأوا ونزل بهم ؛ وكان إبراهيم نائماً في كساء ، فاستوى جالسة وقال : أريتنا قدرتك فأرنا عفوك ، فذهب الريح وسكن البحر .

وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه يقول : اللهم إني أكفر بكل ما كفر به محمد وأومن بكل ما آمن به ؛ ثم يضع رأسه وينام .

وسئل أعرابي : أتحسن الدعاء ؟ قال كيف لا ؟! ثم قال اللهم إنك أعطيتنا الاسلام من غير أن نسألك ، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك .

وذكر لعبد السلام بن مطيع : إن الرجل تصيبه البلوى فيدعو

ربه فتبطىء الإجابة ؟ فقال : بلغني أن الله تعالى يقول : كيف أرحمه من شيء به أرحمه ؟!

وقال ابن المسيب : سمعت من يدعو بين القبر والمنبر[1] : اللهم إني أسألك عملا باراً ، ورزقاً داراً ، وعيشاً قاراً ؛ فدعوت به فما وجدت إلا خيراً .

وقال سفيان الثوري : سمعت أعرابياً يقول : اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيداً فقربه ، وإن كان قريباً فيسره ، وإن كان قليلا فكثره ، وإن كان كثيراً فبارك لي فيه .

وسمع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه رجلا يدعو ـ وهو متعلق بأستار الكعبة ـ يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يبرمه إلحاح الملحين ؛ أذقني برد عفوك ؛ وحلاوة مغفرتك ! فقال له علي : والذي نفسي بيده لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك !

ومن دعائه كرم الله تعالى وجهه :

اللهم صن وجهي باليسار ، ولا تبدل جاهي بالاقتار ؛ فأسترزق طامعاً رزقك من غيرك ، وأستعطف شرار خلقك وابتلي بحمد من أعطاني ، وأفتتن بذم من منعني ؛ وأنت من وراء ذلك كله ولي الاجابة والمنع !

عن عبد الله بن أبان الثقفي رضي الله تعالى عنه ، قال : وجهني الحجاج ابن يوسف في طلب أنس بن مالك ـ فخفت أن يتوارى عني ـ فأتيت بخيلي ورجلي (بركباني ومشاتي) فاذا هو جالس على باب داره ، مادّاً رجليه ؛ فقلت له : أجب الأمير فقال : أي الأمراء تعني ؟ فقلت : أبو محمد الحجاج . فقال : هذا قد أذله الله ما أرأني أعزه ؛ لأن العزيز من عز بطاعة الله ، والذليل من ذل بمعصية الله ، وأميرك هذا قد بغى وطغى واعتدى ؛ وخالف كتاب الله وسنة لرسوله ، والله لينتقمن الله منه ! فقلت له : أقصر عن الكلام وأجب الأمير . فقام معنا ـ وهو دائم السخط ـ حتى حضر بين يدي الحجاج ، فقال له : أنت أنس بن مالك ؟ قال : نعم . قال : أنت الذي تدعو علينا وتسبنا ؟ قال : نعم . قال : وما سبب ذلك ؟ قال لأنك عاص لربك ، مخالف لسنة نبيك ، مفسد في الأرض ، باغ على عباد الله ؛ تعز أعداء الله وتذل أولياءه . فقال له الحجاج : أتدري ما أريد أن أفعل بك الآن ؟ قال : أريد أن أقتلك شر قتلة ! قال أنس : لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله ! قال الحجاج : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأن رسول الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علّمني دعاء وقال : « من دعا به في كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل » وقد دعوت به في صباحي هذا . فقال الحجاج : علمنيه . فقال : معاذ الله أن أعلمه لأحد ما دمت أنت في الحياة . فقال الحجاج خلواً سبيله ، فقال الحاجب : أيها

الأمير لنا في طلبه كذا وكذا يوماً حتى أخذناه فكيف نخلي سبيله ؟! قال : والله لقد رأيت كأن على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواهما .

ثم أن أنساً رضى الله تعالى عنه ـ لما حضرته الوفاة ـ عرف : اخوانه الدعاء ؛ وهو بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله خير الأسماء ؛باسم الله لا يضر مع اسمه أذى ، باسم الله الكافي ، باسم الله المعاق ، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، باسم الله على نفسي وديني ، باسم الله على أهلي ومالي ، باسم الله على كل شيء أعطانيه ربي ؛ الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، أعوذ بالله مما أخاف وأحذر ؛ الله بي لا أشرك به شيئاً ؛ بنعز جارك ، وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ، ولا إلّه غيرك ؛ اللهم أني أعوذ بك من شر كل جبار عنيد ، وشيطان مريد ، ومن شر قضاء السوء ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربي على سراط مستقيم .

دعاء مأثور

عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلّم ـ حين آذاه قومه ، وشجوا رأسه الشريف ، وأسالوا دمه الطاهر الزكي ـ رفع رأسه الى السماء مناجياً ربه ؛ « اَللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ

وَأَنْتَ رَبِّي ، إلى مَنْ تَكِلُني ؟ إلى بَغِيض يَتَجَهَّمُني أَوْ إلى قَوِيٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ؛ إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالي ، وَلَكِنْ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي ؛ أَعُوذُ بِنورِ وَجْهِكَ الذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؛ مِنْ أَنْ يَحُلَّ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ ؛ فَلَكَ العُتْبَى[١] حَتَّى تَرْضَى ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ لَنَا إلاَّ بِكَ يَا رَبَّ العَالَمِين !».

أدعية الناس لبعضهم :

دعا رجل لآخر فقال له : سرك الله بما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك !

ودعا أعرابي لآخر فقال : رحب واديك ، وعز ناديك ، ولا ألم بك ألم ، ولا طاف بك عدم ، وسلمك الله ولا أسلمك[٢] .

ودعا أعرابي لعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه فقال : لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار ، وتناسخت الظلم والأنوار !

وقال بعضهم وكان من دعاء السلف رضي الله عنهم : اللهم إني أعوذ بك من ذلك الفقر وبطر الغنى .

من أدعية النبي
صلى الله عليه وسلم

اللهم اسالك التوفيق لحابك من الاعمال وحسن الظن بك ، وصدق التوكل عليك . .

من دعاء النبي عليه السلام .

اللهم اني اسألك الثبات في الامر والعزيمة في الرشد واسألك شكر نعمتك ، وأسالك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم أنك انت علام الغيوب .

من دعاء
الرسول عليه السلام

اللهم اجعلني شكوراً واجعلني صبوراً ، واجعلني في عيني صغيراً وفي أعين الناس كبيراً . .

اللهم أني أسألك من الخير كله ، عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم .

اللهم عافني بقدرتك ، وادخلني في رحمتك ، وأفض أجلي في طاعتك ، واختم لي بخير عملي واجعل ثوابي الجنة . .

من دعاء النبي عليه السلام

اللهم أني أسألك رحمة من عندي ، تهدي بها قلبي ، وتجمع بها شملي ، وتلم بها شعثي ، وترد بها الفتن عني ، وتحفظ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي ، وتبيض بها وجهي ، وتلهمني بها رشدي ، وتعصمني من كل سوء .

من دعاء النبي عليه السلام

اللهم أني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة في الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، ولساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغرك لما تعلم ، انك أنت علام الغيوب .

(من دعاء النبي عليه السلام)

أدعية قرآنية

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويطمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك العزيز الحكيم » .
من دعاء ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، في البيت العتيق

« رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنى ان نعبد الاصنام رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم . ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس

تهوى اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ».
من دعاء ابراهيم لولده اسماعيل ، عليهما السلام ، في البيت العتيق .

« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصالحين » .

[من دعاء يوسف عليه السلام
وقد تحققت رؤ ياه]

« رب اني أعوذ بك ان اسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ».

من دعاء نوح عليه السلام
بعد غرق ابنه في الطوفان

رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم الحساب

القرآن الكريم

« ربي أوزعني ان اشكر نعمتك التي أنعمت علي ، وعلى والدي ، وأن اعمل صالحا ترضاه ، وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين ».

(قرآن كريم)

« ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه : ان الله لا يخلف الميعاد » .

(من دعاء الراسخين في العلم)

« ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » .

من دعاء ابراهيم عليه السلام

« رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائي الا فرارا * واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا » .

من دعاء نوح عليه السلام

« ربي اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً » .

من دعاء زكريا
عليه السلام

« ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم » .

(من دعاء الذين جاءوا من بعد المهاجرين والانصار)

« رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين » .

من دعاء زكريا
عليه السلام

ادعية السلف
الصالح

ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد .

(من دعاء الراسخين في العلم)

عن « سعد بن ابي وقاص » رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا هذه الكلمات كما تعلم الكتابة :

« اللهم اني اعوذ بك من البخل ،
وأعوذ بك من الجبن ،
وأعوذ بك أن نرد الى ارذل العمر ،
وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » .

اللهم انا نعود بك ان نفتقر في غناك ، أو أن نضل في هداك ، او ان نضطهد والامر لك .

اللهم انا نعوذ بك أن نذهب عن قولك ، أو نفتتن عن دينك ، او نتابع اهواءنا دون الهدى الذي جاء من عندك .

من دعاء الامام علي

اللهم انك دعوتنا الى الانقياد او الدوام بين يديك ، واناعن ذلك عاجزون ، الا ان تقدرنا وضعفاء الا ان تقوينا .

اللهم انك قد دبرت كل شيء قبل وجود كل شيء ، وقد علمنا انه لن يكون الا ما تريد ، وليس هذا العلم نافعا لنا الا ان تريد ، فردنا بخيرك ، وارفع شأننا بفضلك . . واقصدنا بعنايتك ، وحفنا برعايتك ، وحفنا برعايتك . انك على كل شيء قدير . .

من دعاء ابن عطاء الله

اللهم انا اليك محتاجون فاعطنا وعن الطاعة عاجزون فاقدرنا ، وهب لنا قدرة على طاعتك ، وعجزا عن معصيتك ، واستسلاما لربوبيتك ، وصبرا على احكام ألوهيتك ، وعزا بالانتساب اليك ، وراحة في قلوبنا بالتوكل عليك . .

اللهم اجعلنا من المختارين لك ولا تجعلنا من المختارين عليك ، ومن المفوضين لك . لامن المعترضين عليك .

من دعاء ابن عطاء الله

اللهم ارحم غربتي في الدنيا ، ومصرعي عند الموت ، ووحدتي في القبر ، ومقامي بين يديك .

(من دعاء عطاء السلمى)

اللهم اني أسألك ايمانا لا يرتد ، ونعيما لا ينفد ، وقرة عين لا

تنقطع ، ومرافقة نبيك صلى الله عليه وسلم في اعلى جنات الخلد . .

من دعاء

عبد الله بن مسعود

اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واجعلنا في كنفك الذي لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا . . لا نهلك وانت رجاؤنا .

من دعاء ابراهيم بن ادهم

هو الله لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر النور الهادي البديع القادر القاهر .

اللهم انك انت الله الاله الاكرم الأزلى السرمدي الذي لا يحول وتدهش منه العقول . اللهم اجب بفضلك دعوتي واقض حاجتي واكشف عن بصيرتي ، احتجبت بنور الله وبنور عرش الله وبكل اسم الله من عدوي وعدو الله .

وختمت على نفسي وعلى اهلي وعلى كل شيء اعطانيه ربي بخاتم الله المنيع الذي ختم به السماوات والارض . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

من دعاء عبد القادر

الجيلاني

اللهم انا عبيدك بنو عبيدك بنو امائك ، نواصينا بيدك ، ماض فينا حكمك ، عدل فينا قضاؤك . اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم اهلك وخاصتك يا أرحم الراحمين . .

اللهم انا نسألك من الخير كله عاجله وآجلة ما علمنا منه وما لم نعلم ، ونعوذ بك من الشر كله عاجلة وآجلة ما علمنا منه وما لم نعلم ، ونسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وعبادك الصالحون .

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات واصلح ذات بينهم وألّف بين قلوبهم واجعل في قلوبهم الايمان والحكمة ، وأوزعهم ان يشكروا نعمتك التي انعمت عليهم وان يوفوا بعهدك الذي عاهدتهم عليه واهدهم سبل السلام واخرجهم من الظلمات الى النور . .

ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم . .

من دعا الفقيه
ابن نيميه

كان جابر بن زيد يوصى فيقول : اذا جئت يوم الجمعة فقف على باب المسجد وقل :

اللهم اجعلني اليوم اوجه من توجه اليك ، واقرب من تقرب اليك ، وانجح من دعاك وطلب منك .

اللهم اني اسألك علما نافعا وعملا متقبلا وايمانا صريحا ويقينا صحيحا . اعوذ بالله من اكل الحرام اعوذ بالله من ظلم الضعفاء والايتام . اعوذ بالله من ارتكاب الكبائر والآثام .

اعوذ بالله من سخط المللك العلام .

اعوذ بالله من عدم التوفيق لحسن العمل .

اعوذ بالله من الركون الى طول الامل .

اعوذ بالله من تمزيق الاعمار في مخالفة الابرار .

وأستعينه على تطهير القلوب من طوالع الارتياب وجنايات الاغتياب فانه داء قد اعيا دواؤه وتعذر شفاؤه وعم بلاؤه .

اللهم انا نستعين بك على تطهير ضمائرنا من حب الدنيا فان حب الدنيا رأس كل خطيئة واصل كل بلية .

اعوذ بالله من نية تعقب وزرا .
أعوذ بالله من عدم التوفيق .
أعوذ بالله من عزيمة تجلب شراً .
أعوذ بالله من ترك التحقيق .
أعوذ بالله من ترك السعة والرجوع إلى الضيق .

من دعاء ابن الجوزي

الحمد لله الذي جعل لنا نصيبا مما جعل للسيدة مريم ابنة عمران عليها السلام .

اللهم احسن لي الختام ومتعني بالنظر الى وجهك الكريم . الهي ، ما أرافك وما الطفك بعبادك .

الهي وسيدي ومولاي . متعتني وفرحتني برضاك عني . فلا تسبب لي سببا يحجبني عنك . اللهم يا من علا فاقتدر وملك فقهر . اجبر من امتك ما انكسر . اللهم احجب عنا انظار الظالمين .

من دعاء السيدة نفيسة

دعا اعرابي عند الكعبة فقال : اللهم ان لك علي حقوقا فتصدق بها علي ، وللناس عندي تبعات فتحملها عني ، وقد اوجبت لكل ضيف قرى . . وانا ضيفك فاجعل قراي الليلة الجنة .

وقال آخر : اللهم اليك خرجت وما عندك طلبت ، فلا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي ، اللهم وان كنت لم ترحم نصبي وتعبي فلا تحرمني اجر المصاب على مصيبته .

اللهم أني أسألك بعليم قديم كريم مكنون أسمائك وبرفيع بديع منيع سلطانك ان تقيدنا بقيود السلامة عن الوقوع في معصيتك . اللهم ذهلت العقول وحارت الاوهام وقصرت

الظنون عن أدراك كنه ما ظهر من عجائب قدرتك . فعاملنا بما انت أهله ولا تعاملنا بما نحن أأهله . انك أهل العفو وأهل المغفرة يا أرحم الراحمين .

من دعاء
الامام الرفاعي

اللهم أني ذاهب عن نفسي متصل بذكر ربي قائم بأداء حقوقه ناظر اليه بقلبي .

الهي . . احرقت قلبي انوار هيبتك وصفيت شربي من كأس ودك فان تكلمت فيك يا الهي وان نطقت فمنك يا الهي وان تحركت فبأمرك يا الهي وان سكنت فمعك يا الهي فأنا فبك،ولك ومعك .

من دعاء الجنيد

اللهم صل على من منه انشقت الاسرار وانفلقت انوار ، وبه ارتقت الحقائق وتنزلت العلوم فأعجزت الخلائق ، فرياض الملكوت بزهور جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض انواره متدفقة . اللهم انه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الاعظم القائم بين يديك .

اللهم عرفني به معرفة اسلم بها من موارد الجهل وأرد بها موارد الفضل ، واحملني على سبيله .

يا أول يا ظاهر يا باطن اسمع ندائي بمنك وكرمك بما سمعت به عبدك زكريا وانصرني بك لك . وايدني بك لك وحل بيني وبين غيرك .

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

من دعاء ابن عميش

دعاء الشاعر في رمضان

يا رب

في كل حين . . من فؤادي والنهي لك ، يا كريم ، الحمد . والاعظام امنت . . انك . . خالق . . ومقدر .

وبكل حال . . في الورى . . علام هذاك شعري . من شعوري . صفة .

ولانت . . انت . الوحي . والالهام وان في القلم . الشقاء . نلتها .

لكن . . في القلم . الشقاء . . والالهام وان في القلم . السعادة . . نلتها .

لكن في القلم . الشقاء . اسام لماذا اردت . . فانني . لا اشتكى

هذا صراع .. لست فيه . الام انت الملاذ .. وليس. غيرك . مالك في ملكه .. نصب الحياة .. تقام اياك . اعبد .. انت وحدك قبلتي .

ورضاك عني .. عدة وحسام ارحم هواني في الحياة .. وذلتي لا تتركني .. في الحياة .. اضام .

السيد حشيش

مقالات صوفية

** الرجل المتمكن هو الذي لو نصب له سنان على اعلى شاهق جبل في الارض ، وهبت عليه الرياح الثمان .. ما غيرته .

** الزهد أساس الاحوال المرضية ، وهـو اول قدم القاصدين الى الله والراضين عن الله والمتوكلين على الله ، فمن لم يحكم اساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده .

** الانس بالله ، لا يكون الا لعبد قد كملت طهارته ، وصفا ذكره ، واستوحش من كل ما يشغله عن الله .

** الصدقة افضل من العبادات البدنية والنوافل .

** اخوك هو الذي يحل لك اكل ماله بغير اذنه ، وهو الذي تسكن نفسك اليه ، ويستريح قلبك فيه .

** اذا تعلم احدكم شيئا من الخير ، فليعلمه الناس . . يثمر له الخير .

** المشاهدة حضور بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين ، وحقائق حق اليقين .

** لو تكلم الرجل في الذات والصفات . . كان سكوته افضل .

** اذا اصلح القلب صار مهبط الوحي والاسرار والانوار والملائكة ، واذا فسد صار مهبط الظلم والشياطين .

** اللهم اجعلنا ممن فرشوا على بابك للفرط ذلهم نواعم الخدود ونكسوارؤ وسهم من الخجل وجباههم للسجود ، ببركة صاحب اللواء المحمود . . آمين . .

: : منذ عرفت أن ذم الناس افراط ، ومدحهم افراط ، كرهت مذمتهم .

: : لولا اخشى أن تكون بدعة . . لامرت : اني اذا مت ان اقيد في الأغلال، فادفع الى ربي مغلولا كما يدفع العبد الآبق الى مولاه !

: : لم يبق من روح الدنيا الا ثلاثة : لقاء الاخوان ، والتهجد بالقرآن ، وبيت خال يذكر الله فيه .

: : ما بقى لاحد رفيق يساعده على عمل الآخرة . . انما هم يفسدون على المرء قلبه .

: : اني أكره ان يأتيني احد من اخواني في منزلي ، خشية ألّا أقوم له بواجب حقه . .

: : تقرأون قوله تعالى :

« وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون » . . اسألوا انفسكم : كم اليوم في كل مدينة يفسد ولا يصلح ؟

: : أدركنا الصحابة ، وهم لا يعيب بعضهم على بعض في الملابس من أعلى وأدنى ، فكان صاحب الصوف لا يعيب على صاحب الخز ولا صاحب الخز يعيب على صاحب الصوف .

: : من الاخوان من يكون محبا لك وهو بعيد ، ويمنعه من لقائك الشغل الذي هو فيه .

: : لولا ان يقول الناس : جن مالك ، للبست المسوح ، ووضعت الرماد فوق رأسي بين الناس .

: : اللهم لا تدخل بيت مالك ابن دينار من الدنيا شيئا ! !

: : كيف يكون زاهدا من لا ورع له ؟ . . تورع عما ليس لك ، ثم ازهد فيما حولك .

من لم ينتفع بأفعال شيخة . . لم ينتفع بأقواله .

: : اجتنبوا صحبة ثلاثة اصناف : العلماء الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين الذين يتعبدون قبل ان يتعلموا فروض دينهم .

: : لبس الصوف من غير اماته النفس جهاله ، وترك المكاسب مع الحاجة اليها كسل ، والكسل مع وجود الاستغناء عنه كلفة ، والصبر على العزلة علامة وجود الطريق ، والتعبد مع تضييع العياد جهل .

: : لا يكون الرجل حليما حتى يلحظ النساء بعين الشفقة . . لا بعين الشهوة .

: : كم بين من يريد حضور الوليمة للوليمة ، وبين من يريد حضور الوليمة ليلتقي بالحبيب في الوليمة ؟

: : مثل الاولياء مثل الصيادين . . يصطادون العباد من أفواه الشياطين ، ولو لم يصد الولى طول عمره الا واحدا لكان قد أوتى خيرا كثيرا .

: : جميع الدنيا من اولها الى اخرها لا تساوي غم ساعة . . فكيف تغتم طول عمرك فيها مع قلة نصيبك منها ؟

: : لو أن رجلا في علم أبي عباس ، وهو راغب في الدنيا ، لنهيب الناس عن مجالسته ، فانه لا ينصحك من خان نفسه !

: : طلب الزهد هربا من مشقة الاعمال الشاقة بطاله !!

: : اياك ان تكون للمعرفة مدعيا ، او للزهد محترفا ، وفر من كل شيء الى ربك .

: : أدركنا العلماء وهم ينفقون المال في تحصيل العلم ، والعلماء اليوم ينفقون العلم في تحصيل المال !

: : من علامة سخط الله تعالى على عبده خوفة من الفقر .

: من القلوب قلوب تستغفر قبل ان تذنب ، فتثاب قبل ان تطيع .

: : من لم يفتش عن الرغيفين من الحلال لا يفلح في طريق الله عز وجل .

: : ما شبعت من الطعام قط الا عصيت ، او هممت بمعصية !

: : ان الله تعالى لم يمنع اعداءه المحبة بخلا ، وانما صان اولياءه الذين اطاعوه ، ان يجمع بينهم وبين اعدائه الذين عصوه .

: : العارف لا يدوم على حزن . . ولا يدوم على سرور .

: : من نظر في عيوب الناس . . عمى عن عيب نفسه !

** ليس بعاقل من طلب الانصاف لنفسه من غيره ، ولم ينصف غيره من نفسه !

** التصوف هو تدريب النفس على العبودية ، وردها لاحكام الربوبية ، ومن ادعى فتح عين قلبه وهو يتصنع بعبادة الله تعالى ، او يطمع فيما في ايدي خلق الله تعالى فهو كاذب .

** لا كبيرة عندنا اكبر من اثنتين : حب الدنيا بالايثار ، والمقام على الجهل بالرضا . . لان حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والمقام على الجهل أصل كل معصية .

** أربع لا ينفع معهم علم : حب الدنيا ونسيان الآخرة وخوف الفقر وخوف الناس .

** من النفاق التظاهر بفعل السنة ، والله يعلم منه غير ذلك ، ومن الشرك بالله اتخاذ الأولياء الشفعاء دون الله . . قال الله تعالى : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون » ؟

** لا يوصف العبد بأنه ترك المعاصي : الا اذا كانت لا تخطر له على بال ، فان حقيقة الهجر نسيان المهجور .

** أشقى الناس من يحب ان يعامله الناس بكل ما يريد ، وهو لا يجد من نفسه بعض ما يريد .

** اذا عارض كشفك الكتاب والسنة ، فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف فان الله قد ضمن العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في الكشف ولا الالهام ولا المشاهدة .

** ارجع عن منازعة ربك تكن موحدا : واعمل بالشرع تكن سنيا واجمع بينهما تكن محققا .

** من دعا الى الله تعالى ، بغير ما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم فهو بدعى .

** ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ، وانما هو بالصبر على الاوامر واليقين في الهداية .

* انني اعرف طريقا يؤدي الى الجنة قصدا . . هو أن تشتغل بالعبادة وتقبل عليها حتى لا يكون لك فيها فضل .

* من قام بين يدي الله في الظلام . . نشرت له يوم القيامة الاعلام .

* آه على نعمة ليس لله فيها تبعة ، ولا لمخلوق فيها منة .

* لا يقوى على ترك الشهوات ، الا من ترك الشبهات .

* تصفية العمل من الآفات . . اشد من العمل .

* التوكل على الله . . هو الانخلاع من الحول والقوة .

* رأس الاعمال الرضا عن الله وعمود الدين الورع ، ومخ العبادة الجوع .

* ضبط اللسان حصن حصين .

* من شكر الله جرى في ميدان الزيادة .

* من علامة المعرفة بالله : القيام بحقوق الله ، وإيثاره على النفس فيما امكنت فيه القدرة .

* وددت أن احزان الخلق كلهم علي .

* أربع من أخلاق الابدال ، استقصاء الورع ، وتصحيح الارادة وسلامة الصدر للخلق ، والنصيحة لهم . .

* من أدعي باطن علم يبطله ظاهر حكم فهو غالط .

* من أطاع من فوقه اطاعة من دونه .

* اللهم ان عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب .

** عليك بالعمل واياك وشقشقة اللسان بـالكلام في الطريق ، دون التخلق باخلاق اهلها .

** الله خصم كل من شهر نفسه بطريقنا ولم يقم بحقها واستهزأ بنا . . من خان لاكان ، ومن لم يتعظ بكلامنا فلا يمشي في ركابنا . .

** من لم يكن منشرحا منحققا نظيفا عفيفا شريفا ، فليس من اولادي ولو كان ابني من صلبي ، وكل من كان من المريدين ملازما للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة

والزهد والورع وقلة الطمع فهو ولدي وان كان من اقصى البلاد .

** ما كل من وقف يعرف لذة الوقوف ، ولا كل من خدم يعرف آداب الخدمة .

** لا يكمل (الصوفي) حتى يكون محبا لجميع الناس مشفقا عليهم ساترا لعوراتهم ، فان ادعى الكمال وهو على خلاف ما ذكرناه فهو كاذب .

** الشريعة اصل والحقيقة فرع ، فالشريعة جامعة بكل علم مشروع ، والحقيقة جامعة لكل علم خفى ، وجميع المقامات مندرجة فيهما .

** يأمريدي : اجمع همة العزم وقوة شدة الحزام ، لتعرف الطريق بالادراك ، لا بالوصف .

** ولد القلب خير من ولد الصلب ، فولد الصلب له ارث الظاهر من الميراث ، وولد القلب له ارث الباطن من السر .

** من احدث في طريق القوم فليس منا ولا فينا ، قال الله تعالى : « وماأتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

** مادام : أنا وانت . . فلا حب انما الحب التمازج واختلاط الارواح بالاجساد .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠١

سلسلة مختارات اسلامية

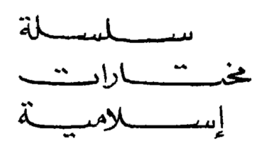
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

الإسلام وشهر الصوم

(١)

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

الإسلام وشهر الصوم

(١)

دار الفكر اللبناني



الأسباب التشريعية للصوم أربعة

ـ أ ـ

١ ـ تزكية الجسم ونقاهته ، فإن الانسان نوعاً تبقى في معدته الفضلات المتعقدة وربما تصل إلى مرتبة التعفن ، كما أن الأجزاء الباطنة العاملة على هضم الطعام وتصفيته ، وتوزيعه قد يعروها علل وإرهاق . فبالامساك عن الطعام والشراب هذه المدة . وفراغ المعدة منها تشتغل بتلك الفضلات فتأتي عليها وتعدمها ، وترتاح تلك الأجزاء العاملة مما يَعدها لاستئناف عملها بنشاط بعد الفراغ من الصوم ـ وقد تكلم العلماء والأطباء حول هذا ، وأجمعوا على أن الصوم ضروري للبدن وقد قال أهل البيت (ع) عن جدهم (ص) : لكل شيء زكوة وزكوة الأجساد الصيام كما ضرب صلى الله عليه وآله كلمته المشهورة مثلاً يروى ويقال : صوموا تصحوا وقال (ص) : المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء ، وقد قال بهذه المناسبة كلمة إذا طبقها الانسان سلم

جسمه من كثير من الأمراض ان لم نقل من جميعها عدا مرض الموت : لا تجلس على الطعام إلاّ وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه وبهذا المضمون أيضاً ورد : اجعله أثلاثاً ثلثاً لبطنك وثلثاً لنفسك ـ بفتح الفاء ـ وثلثاً للماء .

ولما لم يكن في الدين الاسلامي بجميع أحكامه ونظمه حكم ضرري أو حرجي وكان الغرض الأقصى من الصوم خدمة الانسان صحياً وروحياً ـ كان المريض أو من تقدم به السن إلى مرحلة الشيخوخة ممن يضرهم الصوم أو يكون به حرج أو مشقة تتجاوز المعتاد غالباً في سعة من الصوم ـ بل الصوم في حقه غير مشروع بمعنى أنه لو صام لا يقبل صومه ، ـ وكذا المسافر ـ فإن الصوم في حقه حرج نوعاً ، لبعده عن أهله ، وفقده أسباب الراحة والاستقرار . قال سبحانه : ﴿ وإن كنتم مرضى ، أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ﴾ .

ورب قائل : إذا كانت العلة في سقوط الصوم عن المسافر ، فقدان أسباب الراحة والاستقرار ، فلم لا يجوز صومه . إذا تيسرت له الأسباب كاملة في حال السفر ولا سيما في زماننا هذا ـ ويجاب : بأن هذا حكمة لا علة ، والحكمة لا يلزم اطرادها ، وقد لوحظ النوع أي الغالب من الناس في أقطار الأرض ـ لا الأشخاص ، والمسافر نوعاً يفقد هذه الأسباب ،

ولهذا كان الحكم عاماً لكل مسافر ـ ، ومثله عيناً تحديد المسافة بالكيلومتراً البالغة ثمانية وأربعين كيلومتراً تقريباً امتدادية أو ملفقة ، عند الامامية ، اعتماداً على ما صح لديهم عن أهل البيت عليهم السلام فكل من قطعها بأي واسطة كانت ـ كان مسافراً وعند أخواننا أهل السنة بمقدار يزيد على ذلك ـ فلا يقال : بأن هذا التحديد كان في زمان انحصرت وسائل النقل فيه بالحيوانات ، أما اليوم وقد تطور الحال واختصرت المسافات الشاسعة بقليل من الوقت ، فينبغي أن يلحظ التحديد بوسائل النقل .

ويجاب : بأن الحكم المذكور لوحظ به أيضاً نوع الناس ، والغالب ينحصر وسائل انتقالهم بغير الطائرات والسيارات وأمثالها ـ على أن المشرع تعالى شأنه المحدد للمسافة بهذه المساحة كان عالماً بما يحدث في المستقبل من هذه الوسائل الحديثة السريعة ومع ذلك لم يخبر ولم يقيد فنستكشف أنه تعالى أراد الاطلاق في سائر الأحوال ، والعبد متقيد بأمر مولاه « وكثيراً ما يتشدق الكثير من المتفلسفين بالاعتراض إرسالاً للكلام على عواهنه دون أن يعتمدوا على هدى أو بينة ، ولو كانوا يريدون العلم ، لسألوا أهله عنه .

ـ ب ـ

أن يشعر الغني حيث يجوع ويظمأ بألم الفقير الجائع الظامىء فيبعثه هذا الشعور لمؤاساته ، والرأفة به والإشفاق عليه ـ لأن

الانسان نوعاً لا يتألم لألم رجل يئن من جرح في جسمه ، أو مرض في أحد أعضائه إلّا إذا كان مصاباً بهذا الجرح وذلك المرض .

« إنما فرض الله الصيام ليستوي به الغني والفقير لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه ، فأراد الله تعالى أن يسوي بين خلقه ، وأن يذيق الغني مس الجوع والألم ليرق على الضعيف ، ويرحم الجائع » . وقد ورد في هذا المضمون روايات كثيرة وفي بعضها :

ليعرف أي الأغنياء ، مبلغ ذلك على أهل الفقر والمسكنة في الدنيا ، فيؤدوا إليهم ما افترضه الله لهم في أموالهم .

وكم في هذا التشريع من مصالح جليلة ومنافع عامة لو استجاب الأغنياء لها ، وخضعوا لحكم الله عز وجل ، وأنعشوا الطبقة البائسة بإخراج الحق الواجب لهم في أموالهم عدا المستحب منه ـ وأقلها أثراً زوال ما في نفس الفقير من حزازة وحقد على الغني وشعوره بأن له جميلاً عليه بسد خلته وانتعاشه بقضاء حاجته مما يبعثه لشكره واحترامه وتقديره ـ وهل ما يحدث في العالم من تذمر العمال ، وضجة الطبقات البائسة مما أدى ويؤدي إلى الثورات المتواصلة واختلال حبل الأمن ـ إلّا من استئثار الأغنياء بحقوق الفقراء ، واحتقارهم لهم وتكبرهم عليهم ، وأرجو أن يكون في قلوب قرّاء هذه الرسالة ـ متسع لهذه النصائح ، وتجارب لصداها إن شاء الله .

- ج -

أن يذكر الصائم بجوعه وظمئه جوعه وظمأه يوم الموقف الأعظم يوم العرض على الله عز وجل ـ ذلك اليوم الذي عناه الله بقوله : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ . ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ﴾ . ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ .

وأن يستكين الصائم بذلك ويخشع ـ لأن النفس إذا جاعت وظمئت انكسرت واستكانت وذلت وصغرت ـ خشوعاً يكون واعظاً له في العاجل ، ودليلاً له في الآجل ، ورائظاً له على أداء ما كلفه الله به ، وقد جاء عن الامام أبي الحسن الرضا عليه السلام : إنما أمروا بالصوم لكي يعرفوا ألم الجوع والعطش فيستدلوا على فقر الآخرة ، وليكون الصائم خاشعاً ذليلاً مستكيناً مأجوراً صابراً ، فيستوجب الثواب مع ما فيه من الإمساك عن الشهوات الحديث .

مضافاً إلى ما فيه من ترويض النفس ، وتهذيباً ، وكبح جماحها عن الاسراع لكل ما تميل إليه وهل تحل قوة الارادة والرجولة الكاملة وضبط الأعصاب في مقام الأحراج وإهاجة

كوامن الغضب والتماسك أمام التيارات الجارفة ـ إلا من هذه المرونة وهذه الرياضة ، ـ وأراد الله عز وجل لعبده أن لا تستحكم فيه عادة مشينة ولاّ يستبد به هوى مضل ، وأن يكون لعقله السلطة الأخيرة الدافعة إلى العمل حيث يكون راجحاً ، والرادعة عنه حيث يكون مرجوحاً .

ـ د ـ

ذكرى نزول القرآن الكريم على سيد الأنبياء ، محمد بن عبد الله (ص) ذلك الدستور الالهي المشتمل على كل ما يحتاجه الانسان في هذه الحياة إلى يوم القيامة الصالح له على اختلاف تطوراته العمرانية والكونية واتساع آفاقه العقلية ، بضميمة ما جاء به رسول الله (ص) من تفصيل لمجمله ، وتأويل لمتشابهه وشرح لكلياته ، لأن هذا كله مما صح عنه (ص) قرآن موحى به كما قال عز شأنه : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى ﴾ .

وقد أجمع المسلمون على أنه نزل في هذا الشهر العظيم كما قال الله عز وجل : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم ﴾ ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ . بمعنى أنه نزل جملة في هذه الليلة إلى اللوح المحفوظ ثم نزل نجوماً

نجوماً على رسول الله (ص) بواسطة جبرائيل عليه السلام بمناسبات شتى متتابعة إلى أن تكامل يوم الغدير الأعظم حيث استجاب رسول الله إلى ربه بنصب بن عمه علي عليه السلام علماً للأمة ، وخليفة من بعده عليها بهذه الآية : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ .

وأعظم بها ذكرى لم يسعد أهل الأرض منذ دحاها الله عز وجل بمثلها أبداً ، ذكرى دستور إلهي ضمن لهم سعادتهم في الدنيا إن مشوا على هداه ، وفي الآخرة إن فارقوا الدنيا مستضيئين بنوره ذكرى تلزم أهل القرآن بأن يحتلفوا بتكريمه وتقديسه ثلاثين يوماً ، يتدبرون آياته فرادى ومجتمعين آناء الليل وأطراف النهار ، معرضين عن كل شيء يشغلهم عنه إلاّ ما يعود إلى نظام معاشهم باعتدال لا إفراط فيه ، وقد ورد : إن أفضل الأعمال في هذا الشهر قراءة القرآن وختمه وإهداء ثوابه لمن لهم على القارىء حق من الأموات .

معنى الصوم

الصوم لغة مطلق الامساك عن كل شيء بحسبه يقال : صام عن العمل إن أمسك عنه وكذا عن الكلام ومنه قوله تعالى حكاية عن الصديقة مريم (ع) : ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ .

وشرعاً ، الامساك في وقت خاص ـ منذ مطلع الفجر الصادق إلى أول الليل الذي هو عبارة عن غياب الشمس عن الأفق الذي يعيشر فيه الصائم ، ودخولها في أفق آخر . وعلامة ذلك ارتفاع الحمرة المشرقية إلى قمة الفلك ـ إذ أن هذه الحمرة من آثار الشمس فارتفاعها دليل على غيابها كما أن بقاءها دليل على عدم غيابها أما اخواننا أهل السنة وفقنا الله وإياهم ، فإنهم يرون دخول الليل بمجرد سقوط القرص ، ولو أنهم احتاطوا بالصبر عشر دقائق فقط لما ظهر هذا الاختلاف بصورة تدعو إلى النقد اللاذع من الغير ـ مضافاً إلى انه يضمن امتثال الواجب بصورة جازمة ـ الامساك عن أمور خاصة تبلغ العشرة . . وهي على سبيل الاجمال الأكل . الشرب مطلقاً . الجماع قبلاً أو دبراً فاعلاً أو مفعولاً به حياً كان المفعول به أو ميتاً حتى البهيمة فإن الفاعل يبطل صومه . الكذب على الله أو على رسله أو على خلفائهم الشرعيين . رمس تمام الرأس بالماء بمعنى أن المفطّر رمس تمام الرأس سواء رمس الجسد معه أم لا . إيصال الغبار الغليظ إلى الجوف عمداً ومنه الدخان الحاصل من التبغ أو التنباك . تعمد البقاء على الجنابة حتى مطلع الفجر . تعمد القيء أي الاستفراغ . الاحتقان بالمائع أي إيصال المائع إلى الجوف بطريق الحقنة .

شرائط الصوم

يشـ[illegible]ـط في صحة الصوم : ١ ـ الايمان . فلا يصح من غير

المؤمن وأن كان مكلفاً به ويعاقب على تركه باعتبار تركه للايمان بالله ورسوله مع القدرة عليه بالبحث والاستعلام ، وهذا سارٍ في سائر الواجبات الاسلامية .

ب ـ العقل : فلا يصح من المجنون إطباقاً أو ادوارياً .

ج ـ البلوغ : فلا يصح من غيره إلاّ إذا كان مميزاً فيصح منه وإن كان غير مكلف به بلحاظ الثواب المترتب على صومه العائد عليه أو على أبويه .

د ـ النية : وهي قصد الامساك عن المفطرات الشرعية تفصيلاً أو إجمالاً من أول النهار إلى آخره ـ . وليكون أول جزء من النهار عن نية لا بد من سبقها عليه ، ويكفي في تحققها تبييتها عند النوم بحيث يطلع الفجر عليه ناوياً ، وكما تشترط في صحة الصوم ابتداء تشترط استدامةً بمعنى أن لا يقع أحد أجزاء النهار عن غير نية ـ كما إذا قصد المفطر أثناء النهار ثم عدم عنه لمانع خارجي أو مانع نفسي وبقي صائماً فإن صومه يبطل لأن جزء من النهار وقع من غير نية .

مبطلاته

تتلخص بما يلي :

أ ـ استعمال الأمور العشرة التي قصد الامساك عنها عن عمد والتفات وبحكمه إذا كان استعمالها عن جهل بالحكم فإن

الجاهل بالحكم كالعامد أما إذا استعملها عن سهو أو نسيان أو عن إكراه وإلجاء فلا يضر .

ب ـ الحدث الطارىء على المرأة من حيض أو نفاس .

ج ـ الجنون الطارىء ويحكمه الاغماء المودي بالشعور .

ـ مسوغات الافطار ـ

تنحصر باثنين :

« أ » ـ المرض الذي ينشأ من الصوم زيادته أو إبطاؤه ويكفي في مسوغيته الخوف العقلائي الحاصل من قول الطبيب الثقة البصير ، أو من التجربة فضلاً عن العلم .

« ب » ـ السفر الذي هو عبارة عن قطع المسافة المحدودة بالمساحة المشار إليها سابقاً من وطنه الذي اتخذه مقراً دائماً له أو من محل إقامته أي المكان الذي نوى الاقامة فيه عشرة أيام ، إلى مكان آخر ، شريطة أن لا يكون سفر معصية ، كما إذا سافر ليقدم دعوى كاذبة على غيره أو يشهد الزور عليه . أو يتآمر على إيذائه واغتياله أو ليحضر حفلة خلاعة ومجون وما إلى ذلك من غايات حرمها الاسلام ـ فإن الإفطار لا يسوغ له ، لأن منة وفضل وليس المسافر لمعصية محلاً للمنة والفضل .

وبحكم المقيم في وطنه في وجوب الصوم وإتمام الصلوة ـ من كان السفر مهنة له ، كسائق السيارة العمومية ـ أو اتخذ عملاً من لوازمه السفر كما إذا ضمن بستاناً لم يقدر على بيع ثمرة والاستفادة منه إلا بالسفر في ما دون العشرة أيام كما أن من المنة والتوسعة على المسافر الذي يحرص على ثواب الصوم ـ انه لو رجع إلى وطنه قبل الزوال ولم يكن قد تناول المفطر ينوي الصوم منذ وصوله ويحسب له صوم يوم كامل ـ كما يحسب له لو سافر بعد الزوال ـ وللسفر أحكام مدونة في مظانها فليراجعها من أرادها ولو في الرسائل العملية ـ إذ لم أقصد من هذا الحديث سوى التنبيه والذكرى .

الصائمون

في الاسلام ثلاثة :

« أ »

العامة ـ أي النوع الغالب الذين يفهمون من الصوم مجرد الإمساك عن المفطرات المذكورة آنفاً المعبر عنه بصوم البطون ، دون أن يشعروا جوارحهم الأخرى بالصوم ، وكل ما فهموه في هذا الشهر أنهم جاعوا وظمئوا في النهار ، وقد يستعيضون عما فاتهم في الليل ، ولا سيما أهل الترف والثراء بأضعافه إجادة ودسومة وتفنناً ـ وهؤلاء إن لم يحرصوا على حلّية ما يتناولونه في

الافطار والسحر من أدام وشراب « لا فيه نصومهم ، لأنهم يعصون الله في ما يريدون أن يصوموا عنه » وقد عنى هؤلاء رسول (ص) بقوله : رب صائم ليس من صومه إلا الجوع والعطش .

فإن أقل ما يفرض على الصائم أن تكون لقمته التي يقيم بها أوده ، ويسد بها خلته ، والتي يتحول منها دمه ، وينبض به قلبه ـ أن تكون اللقمة حلالاً ؟؟ وإذا وضعنا الناس معظم الناس تحت المجهر ـ لا نجد إلا القليل القليل ـ « وقليل من عبادي الشكور » . لأن أموالهم أن سلمت من الربا وقد كتب على آكله ومستحله ـ أنه من أهل النار لقوله تعالى : ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ـ أي ومن عاد إلى استعمال الربا ولم يتب منه ـ . وعلى نفس المال المشتمل عليه بالمحق لقوله تعالى ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ . ـ لا تسلم من اشتمالها على السرقة والغصب ، ـ قد لا تسلم من كونها مجهولة المالك كرواتب الموظفين الذين لا يرجعون بحكمها إلى من وجب عليهم تقليده وأمثالهم ممن يستفيدون من مال الدولة وهو مال مجتمع من جهات عديدة لا يقرها الاسلام ـ أو كونها ثمناً لحرام كالمسكر بأقسامه أو مختلطة به ، وإن سلمت من هذا كله ـ لا تسلم من اشتمالها على الحقوق الشرعية كالزكوة والمظالم والخمس وقد اعتبر الله عز وجل هذه الحقوق بعد ثبوتها في المال ديوناً للفقراء متعلقة في نفس الأعيان لا يجوز للمالك أن

يتصرف بها قبل أن يخرج الحق منها ، أو يفرزه عنها بانياً على إيصاله لأهله .

وأين الصادقون في إدعائهم الايمان من الأغنياء من التجار وقد قال رسول الله (ص) : التاجر فاجر ما لم يتفقه وقال من اتجر ولم يتفقه . فقد ارتطم في الربا ثم ارتطم ، أم في المهاجرين المتنافسين على بناء القصور المتهالكين على الشهوات دون أن يعرفوا ما عليهم مما لهم على هدى القرآن والسنة عن طريق من يجب عليهم تقليده ـ أم في الزعماء الانتهازيين الذين يبررون أي واسطة توصلهم إلى مطامعهم .

أغفلوا عن قوله تعالى : ﴿ والذين يبخلون بما آتهم الله من فضله سيطوقون ما بخلوا يوم القيامة ﴾ . وعن قول الصادق عن جده صلى الله عليه وآله : ما من عبد منع من زكوة ما له شيئاً إلاّ جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً به في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ . من الحساب وهو قول الله عز وجل : ﴿ سيطوقون ما بخلوا يوم القيمة ﴾ . وقوله : (لا يحل لرجل ثبت لنا في ماله الخمس ـ أن يتصرف فيه قبل أن يؤدي لنا منه الخمس) .

« ب »

الخواص ـ وهم الطبقة الوسطى الذين يضيفون إلى صوم بطونهم عن الحرام ـ صوم جوارحهم عنه فتصوم ألسنتهم عن

الكذب والنميمة والزور والبهتان والحسد والسباب والغيبة وما إلى ذلك مما يصدر عن اللسان ـ لأن ارتكاب هذه يحبط أجر الصائم أي تذهب بأجره فكيف بما هو أعظم منها مما ذكرناه ، وتصوم أعينهم عن النظر إلى ما حرم الله عليه النظر إليه كالنظر إلى الأجنبيات اللواتي لسن من محارمهم استجابة لقوله تعالى : قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم «فلا يرتادون أماكن اللهو والمجون أو غيرها مما لا نعرف أسماءها مما قد شاع بين أهل الغش والفجور ـ وتصوم سماعهم عن الاستماع إلى سباب المؤمنين وغيبتهم ، وقول الفحشاء والزور ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللهو معرضون ﴾ . وتصوم فروجهم عن غشيان من لا تحل لهم من النساء لقوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ الخ . وتصوم أيديهم عن استعمالها في إيذاء المؤمنين وضربهم وسرقة أموالهم أو في اللعب بالورق وأمثاله من أنواع القمار ، وتصوم أرجلهم عن استعمالها بالسعي إلى إشاعة المنكر والتعاون مع أهله ، وترويج الضلال والدعاية إلى الظالمين أعداء الله المتجاهرين بعصيانه .

ليس الصيام من الطعام والشراب فقط ، ولكن إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك وبطنك وفرجك واحفظ يدك وفرجك واكثر السكوت إلاّ من خير وأرفق بخادمك .

وقال رسول الله (ﷺ) لجابر بن عبد الله : يا جابر هذا شهر

رمضان من صام نهاره وقام ورداً من ليله وعف بطنه وفرجه وكف لسانه خرج من الذنوب كخروجه من الشهر ، فقال جابر يا رسول الله ما أحسن هذا الحديث فقال رسول الله : يا جابر ما أشد هذه الشروط .

ويضيفون إلى صوم بطونهم وجوارحهم ما يزكي هذا الصوم من تفقد للبؤساء ورحمة للفقراء وإعانة للمنكوبين ، وجبر لقلوب اليتامى بما يبذلونه بسخاء من أموالهم أو يؤثرونهم به على أنفسهم .

وقد ترتفع نفوس البعض من هذا القسم ، وتتعالى هممهم ، فيترقبون دخول الليل ليتخذوه ساتراً لأعمالهم التي لا يحبون أن يعرف بها إلا الله عز وجل سعياً في قضاء حاجة مؤمن أو إبقاء على بيوت عزيزة مستورة ، أو صوناً لوجه كريم عن إراقة شيء من مائه للئيم ـ إقتداء بسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم . وقد كان لا يتناول طعام الإفطار إلا بعد أن يتفقد بيوت المدينة كلها ويفرغ من تأمين أهل العوز فيها بإيثاره البعض منهم على نفسه وأهله ، وتوزيع البعض على أصحابه القادرين .

هؤلاء هم الصائمون حقاً الذين اتخذوا من صوم هذا الشهر ومما يزكيه ـ ما يستدفعون به البلاء في الدنيا ويؤَمِّنون به مستقبلهم في الآخرة .

« ج »

الربانيون ـ الذين تعالت بهذا الشهر نفوسهم وأشرقت بالاسلام بصائرهم فأضافوا إلى صوم بطونهم وجوارحهم صوم قلوبهم ـ فأشغلوها في التفكير في الله عز وجل وآياته وتدبر ما يتلونه من كتابه وفي ما يعود على أمتهم بالخير والاصلاح فلا يكاد يدخل في خلدهم أن يعصوا الله ، أو يؤذوا عباده وهؤلاء هم عباد الرحمن حقاً الذين وصفهم بكتابه بما وصفهم به « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، انها ساءت مستقراً ومقاما الآيات » ، ـ وقوله تعالى : والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً . سبحانك فقنا عذاب النار وأولئك هم المقربون الذين يستدفع بوجودهم البلاء وتستنزل الرحمة وتستمطر السماء .

أقسام الصوم

ينقسم الصوم باعتبار ما ورد فيه آيات وروايات ، إلى أربعة أقسام : محرم ، وواجب ، ومكروه ، ومستحب .

المحرم منه تسعة :

الأول ـ صوم يومي العيدين الفطر والأضحى ، حيث يثبت الهلال لأن الله عز وجل أرادهما مظهراً من مظاهر التراحم والتعاطف ، وتبادل التهاني والزيارات بين المسلمين بل بينهم وبين غيرهم أيضاً في مجتمعاتهم وبيوتهم وهذا لا يكمل مع الصوم ، مضافاً إلى أنه ـ بالنسبة إلى عيد الفطر ـ إيذان بانتهاء الصوم الواجب على عامة المكلفين ـ ولهذا ورد النهي عنه ـ فصومه مضافاً إلا انه مخالفة لله عز وجل بدعة ، والبدعة إدخال شيء في الدين لم يكن منه .

الثاني ـ صوم أيام التشريق بمنى خاصة ، وعلّل : بأن القوم زوّار الله فهم في ضيافته ولا ينبغي للضيف أن يصوم عند من زاره وأضافه ، وفي الحديث عن الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام : بعث رسول الله (ﷺ) بديل بن ورق الخزاعي على جمل أوراق أيام منى فقال : تنادي في الناس ألا لا تصوموا في هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب .

الثالث ـ صوم اليوم الثلثين من شعبان حيث يشك بأن منه أو من رمضان ـ بنيّة الفرض وانه من رمضان ـ وإنما كان حراماً بهذه النية لأنه يرجع إلى التشريع دون استناد إلى حجة مثبتة والصوم عبادة ، والعبادة لا تصح إلا بداعي امتثال الأمر المتعلق بها ـ نعم

لو صامه برجاء المطلوبية ، أو نواه قضاء عما في ذمته ، أو استحباباً وتبين انه من رمضان يصح صومه ويحسب من رمضان ـ أما وجه الصحة فلأنه أتى به بداعي الأمر الوجوبي المحتمل أو بداعي الأمر القضائي أو الاستحبابي وهذا الداعي كاف في الصحة ـ وأما وجه احتسابه من رمضان فلأنه لا يقع في رمضان غيره وحيث لا يصح غيره ـ تعـيّن أن يكون منه مضافاً إلى النص الصريح بذلك .

الرابع ـ صوم نذر المعصية بأن ينذر المكلف . لله علي نذر إن قتل زيد أو نهب عمرو مثلاً لأصومن يوماً أو يومين ـ وهذا محرم لأن فيه شماتة ولؤماً وهو مبغوض لله عز وجل ولا يطاع الله من حيث يعصى وبتعبير آخر أن الصوم بهذا الداعي مبغوض لله عز وجل والنذر لم يكسبه أمراً لعدم انعقاده إذ يعتبر في انعقاده وصحته الرجحان .

الخامس والسادس ـ صوم الصمت بأن يلتزم بالسكوت وعدم الكلام يوماً أو يومين وصوم الوصال بأن يلتزم بصوم يومين فأكثر دون أن يتخللهما إفطار في الليل ـ وكلاهما غير مشروع عندنا ـ فإن قيل : أن صوم الصمت موجود في الشرائع السابقة وقد حكى الله عز وجل قضية مريم العذراء قبيل ولادتها للمسيح عيسى عليه السلام ، وتخلصها من جواب القوم والحديث معهم ـ بالتجائها إلى نذر الصمت بقوله في القرآن

الكريم : ﴿ إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ وقضية زكريا حين بشره يحيى حين طلب منه عز وجل أن يجعل له آية ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث أيام سويا ﴾ .

السابع ـ صوم المرأة استحباباً مع نهي زوجها لها ـ لأن فيه مزاحمة لحق الزوج ومخالفة له ، وطاعة المرأة لزوجها أفضل عند الله من صومها ـ أما إذا كان الصوم واجباً فلا حق للزوج عليها فيه لأن حق الله مقدم على حقه .

الثامن ـ الصوم في السفر فإن الله عز وجل الذي فرض الصوم على عباده أسقطه في السفر عنهم ولا يمكن أن يتقرب العبد إلى ربه بشيء نهى عنه ـ إلا في موارد سبعة يصح الصوم فيها للمسافر :

١ ـ لو نذر الصوم في السفر .

٢ ـ صوم الثلاثة أيام بدل الهدي في الحج لمن كان عليه هدي ولم يقدمه .

٣ ـ صوم الثمانية عشر يوماً بدل البدنة ، لمن وجبت عليه حيث يفيض من عرفات قبل الغروب .

٤ ـ صوم كثير السفر وهو الذي يكون السفر مهنة له كسائق السيارة أو البحارة الذين يعيشون في البحر مسافرين دائماً وسائق الطيارة أو يتخذ عملاً من لوازمه السفر كما إذا تاجر في شيء

يتوقف عمله المثمر فيه على السفر كما إذا ضمن بستاناً وتوقف بيع ثمره على أن يسافر في كل أسبوع لمكان يستغرق المسافة الشرعية مدة من الزمن .

٥ ـ المسافر الذي ينوي الاقامة عشرة أيام في مكان خاص .

٦ ـ المسافر المتردد بين الاقامة وعدمها إلى ثلاثين يوماً فإن عليه أن يصوم في المكان المتردد فيه بعد الثلاثين .

٧ ـ المسافر سفر معصية كما إذا سافر ليشهد الزور أو ليسرق مثلاً . فإن الصوم واجب لأن إسقاط الصوم منة ـ ولا منة على المسافر للمعصية .

٨ ـ من موارد تحريم الصوم المريض الذي يخشى زيادة المرض من صومه فإن صومه حرام لأن الله عز وجل يريد بعباده اليسر لا العسر .

وللواجب من الصوم عشرة

الأول ـ صوم شهر رمضان .

الثاني ـ صوم شهرين متتابعين في كفارة الظهار والظهار ـ هو أن يقول الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي . فإذا قالها ، حرم عليه الدنو منها حتى يكفر ـ بعتق رقبة مؤمنة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين .

الثالث ـ صوم شهرين متتابعين على من يفطر عمداً في شهر رمضان مخيراً بينه وبين التعتق وإطعام ستين مسكيناً ـ أما إذا أفطر على حرام فإن عليه أن يجمع بين الخصال الثلاثة .

الرابع ـ صوم شهرين متتابعين على من قتل مؤمناً خطأ بعد العجز عن عتق رقبة والدية لأهله قال الله تعالى : في سورة النساء الآية ٩١ : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدَّقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

الخامس ـ صوم ثلاثة أيام في كفارة اليمين بعد العجز عن الكفارة قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتم ﴾ .

السادس ـ صوم ثلاثة أيام على من اضطر إلى حلق رأسه إما لمرض استدعى الحلق أو لأذى من الهوام وذلك قبل أن يبلغ الهدي محلَّه أي قبل مجيء وقت ذبح الهدي أو نحره ووقته عندنا يوم العاشر من ذي الحجة بعد نزوله إلى منى ورمي الجمرات ، وإذا حلق قبل هذا الوقت فعليه الفدية : إما بصيام ثلاثة أيام أو بصدقة أي بإطعام ستة مساكين أو عشرة ، أو بنسك أي بذبح

شاة ، والنسك جمع نسيكة وهي الذبيحة لقوله تعالى في سورة البقرة ٩١ : ﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محلَّه ، فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ .

السابع ـ صوم عشرة أيام على من لم يقدر على الهدي في حج التمتع لقوله تعالى : ﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾ .

الثامن ـ الصوم على الحاج الذي يقتل صيداً متعمداً وهو محرم حيث يختار الصيام لقوله تعالى في سورة المائدة الآية ٩٤ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدم ذلك صياماً ﴾ . ومعنى ذلك : إن من قتل صيداً وهو محرم سواء كان إحرامه للحج أو للعمرة فكفارة واحدة من ثلاثة :

١ ـ أن يذبح من النعم ما يشابه الصيد في الخلقة ، فإن كان الصيد من النعام فيذبح جملاً ، وإن كان من حمر الوحش فيذبح بقرة وإن كان ضبياً فيذبح شاة ـ وقيل ما يماثل الصيد في القيمة ويشتري بثمنه من النعم ليذبح هدايا يبلغ الكعبة كناية عن الذبح بمكة .

٢ ـ أن يقوّم ما يعادل الصيد من النعم ويشتري به طعاماً يعطى للمساكين .

٣ ـ أن يقدّر الطعام المشتري به أصوعاً ويصوم يوماً عن كل صاع .

التاسع ـ صوم النذر حيث يكون متعلقة راجحاً .

العاشر ـ صوم الاعتكاف ـ فإن من لوازم الاعتكاف لمن التزم به بنذر وشبهه . الصوم ثلاثة أيام إذ لا اعتكاف بدون الصوم ، والاعتكاف عبارة عن الإلتزام بالمكث في مكان شريف كمسجد الكوفة مثلاً ثلاثة أيام بلياليها صائم النهار دائباً على الدعاء والابتهال إلى الله عز وجل لا يغادره أثناءها إلا لحاجة ضرورية لا يمكن قضاؤها في المسجد ، وهو موضوع عبادي من أراد الوقوف على ما يعتبر فيه من شروط وموانع فليراجعه في مظانه من كتب الفقه .

والمكروه من الصوم خمسة

الأول ـ الصوم يوم عرفة لمن خاف أن يضعفه عن الدعاء فيه فإنه يوم تضرع وابتهال وثناء على الله عز وجل ودعاء وإلحاح واستغاثة وتوسل ، ولهذا يستحب أن يستعمل المؤمن كل شيء يتقوى به على الدعاء .

الثاني ـ صوم اليوم المحتمل كونه عيداً كما إذا ادعى الرؤية جماعة لا يثبت شرعاً العيد بشهادتهم وحصل الظن بصدقهم فذلك اليوم أصبح مشكوكاً هل هو أول يوم من شوال أو آخر يوم من رمضان ففراراً من الأثر الوضعي المترتب على صوم يوم العيد يسافر المؤمن ليتخلص بإفطاره في السفر من ذلك الأثر ومن احتمال كونه واجب الصوم .

الثالث ـ صوم الضيف استحباباً بدون إذن مضيفه ، فإن في صيام الضيف في بيت من أضافه أذية له ، وإدخال السرور على المضيف المؤمن بالأكل عنده أفضل من الصوم ، إلا أن يكون المضيف بخيلاً وشحيحاً يعد صوم ضيفه مزجاً له وتنفيساً عن كربته .

الرابع ـ صوم الإمرأة إستحباباً بدون أمر زوجها ـ أما مع نهية لها ومزاحمة الصوم لحقه فإنه يكون حراماً كما مر .

الخامس ـ صوم الولد بدون إذن والده أما مع نهيه له فقد يكون حراماً لأن طاعة الوالدين أفضل من الصوم استحباباً .

والمستحب

أما المستحب من الصوم فكثير لا حصر له إذا استثنيت الأقسام الثلاثة ولم يكن مزاحماً لحقوق أخرى واجبة على المؤمن

كخدمة من تجب نفقته عليه من عياله وأولاده وأبويه ، ولم يحصل الضرر منه صحياً ـ وإلا لكان حراماً أو مكروهاً باعتبار كثرة المفسدة المزاحمة لتلك الحقوق وقلتها ، وبتعبير واضح ، يستحب الصوم للمتمكن القادر الغير المزاحم بحقوق واجبة مستحبة يلزم من الصوم ضياعها أو التهاون بها .

والمؤكد منه صوم ثلاثة أيام من كل شهر أول خميس منه وآخر خميس وأول أربعاء من العشر الثاني ، ويوم الغدير وهو الثامن عشر من ذي الحجة يوم إكمال الدين وإتمام النعمة بتعيين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة بعد النبي (ﷺ) . ويوم مولد النبي صلى الله عليه وآله وهو السابع عشر من ربيع الأول عند الشيعة واليوم الثاني عشر عند السنة ، ويوم مبعثه الشريف وهو السابع والعشرون من رجب ويوم دحو الأرض وهو الخامس والعشرون من ذي الحجة ، وتمام رجب وتمام شعبان .

وقد ورد في ثواب صوم هذه الأيام أخبار كثيرة من أرادها فليراجعها في مظانها وأقل ما ورد فيها : أن نوم الصائم فيها عبادة ونفسه وصمته تسبيح ، وعمله متقبّل ، ودعاءه مستجاب وخلوق فمه أطيب من رائحة المسك ، وتدعو له الملائكة حتى يفطر ، وله فرحتان فرحة عند إفطاره بالمغفرة ، وفرحة حين يلقى الله تعالى بدخول الجنة .

عيد الفطر وصلاته

هو يوم ندب الله المسلمين عامة أن يجتمعوا في صبيحة اليوم الأول من شهر شوال بعد انقضاء شهره تعالى ، فيؤدون صلوات العيد مجتمعين ـ بعد التفاتهم للطبقات البائسة فيهم ، وإنعاشها بزكوة الفطرة وغيرها مما وسع الله عليهم به ، ثم يتبادلون فيها بعدها المصافحة ، متسامحين ، متراحمين ، متناسين كل ما بينهم في الماضي من هنات وتبعات ، متنافسين في مجالات العفو والصفح عمن أساء إليهم ، وشكر من أحسن إليهم ـ ليتخذوا منها وسيلة إلى الله عز وجل الرؤوف بعباده الرحيم بهم ليغفر لهم ما تقدم من ذنبهم ويفوزوا بجائزته تعالى لهم ، عازمين على استئناف حياة جديدة هانئة في بيوتهم ومجتمعاتهم وأماكن أعمالهم ، فيذهب رب البيت لبيته فيهب لعائلته كل حق له عليها ، لتهب له كل حق لها عليه ـ ، ثم ينعطف على أرحامه وجيرانه ثم أهل بلده فيتبادلون هذه الهبات الكريمة ، ـ

ثم يرتفع العاقل منهم إلى مستوى الأماثل الأوفياء ، فيتفقد أمواته الأقرب منهم فالأقرب بصلاة قُربيّة . تزيد في حسناتهم إن كانوا من المحسنين ، وتخفف من سيئاتهم إن كانوا من المسيئين ، . أو تذهب بما بقي منها ـ ليقينه بأن عمل المسلم لم ينقطع بالموت إذا كان له في حياته عمل له أثر أو دائم الأثر من ولد

صالح أو رحم صالح أو صديق صالح ، مستمداً هذا اليقيم من نبيّه سيد الرسل (ﷺ) القائل : إذا مات إبن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، ولدٍ صالح . أو صدقة جارية ، أو ورق علم ينتفع به - ومن قول الله عز وجل أصدق القائلين : ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ .

وكم من البون الشاسع والفرق الواضح بين هؤلاء الذين يقصرون كل همهم على أن يكونوا من الفالحين بزكوتهم وصلواتهم ، وينظرون إلى العيد وسيلة إلى إكمال عملهم وأخذ أجرهم ، وبين من ينظرونه وسيلة إلى اللعب واللهو والإنطلاق في اختيار المأكولات والمشروبات ، ثم في مجالات التنافس في الملبوسات ، وارتياد الأماكن الموبوءة بالفساد والميوعة - ليفتحوا للشيطان بابه من جديد .

لهذا فعلى المسلم إذا أصبح يوم الفطر أن يقصر همه على ما يعدُّه لاستلام جائزته ، فيغتسل امتثالاً لأمر الله واستنانا بسنة محمد بن عبد الله (ﷺ) ، ويلبس أنظف ثيابه ثم يتوجه بخشوع بعد إعطاء زكوة الفطرة إلى حيث يجتمع أهل بلده في مكان واسع تحت السماء ، أو في بيت الله الجامع للبلد فيؤدي الصلواة جماعة متأملاً بما يسمعه من الامام في القنوت وغيره ثم يستمع للخطبة ، وإن لم يتيسر له يؤديها منفرداً - وصلواة العيد ركعتان

بتسع قنوتات بالدعاء المأثور يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد سورة الشمس ويكبر خمس تكبيرات يقنت بعد كل تكبيرة ، ثم يركع بعد الخامسة ويسجد ثم يقوم فيقرأ في الثانية بعد الحمد سورة الغاشية ، ثم يكبر أربع تكبيرات ، يقنت بعد كل تكبيرة ثم يركع بعد الرابعة ويسجد ويتشهد ـ وإن لم يحسن سورة الشمس والغاشية فليقرأ أي سورة من السور التي يحفظها كما أنه إن لم يحسن القنوت بالمأثور فليقنت بما يحفظه من دعاء .

سلسلة مختارات اسلامية

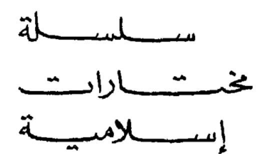
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

الإسلام وشهر الصوم

(٢)

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

الإسْلَام وَشَهْر الصَّوم

٢

دار الفكر اللبناني



خطبة النبي صلى الله عليه وآله
في شهر رمضان

انه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة ، والرحمة والمغفرة ، شهر هو عند الله أفضل الشهور ، وأيامه أفضل الأيام ، ولياليه أفضل الليالي ، وساعاته أفضل الساعات ، هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله جُعلتم فيه من أهل كرامة الله ، أنفاسكم فيه تسبيح ، ونومكم فيه عبادة ، وعملكم فيه مقبول ، ودعاؤكم فيه مستجاب ـ فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة ، وقلوب طاهرة ، أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه .

فإن الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم ، واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه ، وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم ووقروا كباركم وارحموا صغاركم ، وصلوا أرحامكم ، واحفظوا ألسنتكم ، وغضوا عما لا يحل النظر إليه أبصاركم ، وعما لا يحل الاستماع إليه

أسماعكم ، وتحننوا على أيتام الناس يتنحن على أيتامكم ، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم ، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم ، فإنها أفضل الساعات ـ ينظر الله فيها إلى عباده ، يجيبهم إذا ناجوه ، ويعطيهم إذا سألوه ، ويستجيب لهم إذا دعوه .

أيها الناس ـ إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ، ففكوها باستغفاركم ـ وظهوركم ثقيلة بأوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم ، واعلموا أن الله أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين وأن لا يروّعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين .

أيها الناس ، من فطّر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق نسمة ومغفرة لما مضى من ذنوبه ـ فقيل يا رسول الله : ليس كلنا نقدر على ذلك فقال : اتقوا الله ولو بشربة من ماء .

أيها الناس ، من حسَّن منكم في هذا الشهر خُلقه كان له جوازاً على الصراط يوم تزل فيه الأقدام ، ومن خفّف في هذا الشهر عما ما ملكت يمينه خفف الله عليه حسابه ، ومن كف فيه شره كف الله عنه غضبه يوم يلقاه ، ومن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه ، ومن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه ، ومن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه ، ومن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار ، ومن أدى فيه فرضاً كان له

ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور ، ومن أكثر فيه الصلاة عليَّ ثقَّل الله ميزانه يوم تخف الموازين ، ومن تلى فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور .

أيها الناس ـ : إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عليكم وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم ، والشياطين مغلولة فاسألوا ربكم أن لا يسلطها عليكم .

قال علي رضي الله عنه بعض الخطبة : فقمت فقلت : يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر فقال عليه الصلاة والسلام : يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله » .

شهر رمضان

مظهر من مظاهر الرحمة على الفقراء والأغنياء

إن أحد الأسباب لتشريع الصوم هو أن يحسّ الغني بألم الجوع والعطش ، ليشعر بألم الفقير ، فينبعث بهذا الدافع المشترك بينهما إلى مؤاساته وتفقده ـ لأن الانسان لا يشعر بألم غيره ، ويقف

عند شكواه وضجره ، إلّا إذا أصيب بمرضه وابتلي بألمه ـ فإذا مررت بإنسان يضجر من وجع عينيه ، أو يصرخ من ألم في ضرسه ، أو يئن من حـمّـى حلت به ، وكنت قد منيت به يوماً من الأيام ، تقف عنده راحماً له شفوقاً عليه ثم تجدد شكرك لله عز وجل ، إذ لم يبتلك كما ابتلاه ، وشفاك مما دهاه ، وإذا علمت بقلة ذات يده قلة تعجزه عن مراجعة الطبيب وشراء الدواء ، تعينه بما يسد عوزه ، وقد تؤثره على نفسك ، وإن لم تخدمه مباشرة تتحرى خدمته تسبيباً فتكون واسطة له عند من يقدر .

وقد أراد الله عز وجل أن يلمس الغني القادر ألم الفقير ، ويبتليه بألمه ، ليقف عنده إذا رآه ، أو يتفقده إن لم يره فيسد عوزه وينبري لمواساته مما وسع الله به عليه وشمله به من عنايته ولطفه ، لتكون الحجة عليه أتم وأكمل ـ فإن من الناس من يتصامم عن استماع الموعظة بالكلام ، ويتجافى عن الإتعاظ بالمنطق السديد الحكيم ، ولا يرتعد ويتأثر إلا حيث تخره بخاصرته وتدميه .

ولما كان تعالى شأنه وعظمت آلاؤه يعلم شح العبد بماله ، ومزيد حرصه عليه ورغبته الملحة في الزيادة ـ وعده ومن أوفى بعهده ووعده من الله عز وجل ـ بالتعويض عما ينفقه على الفقير بأضعافه في الدنيا والجزاء الأوفى له في الآخرة . بقوله تعالى : ﴿ والذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع

عليم ﴾ وقوله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم) . أي فيضاعفه له في الدنيا وله أجر كريم في الآخرة .

وحاشا لله عز وجل أن يخلف وعده لمن بذل في سبيله . وابتغاء مرضاته وأقرضه قرضاً حسناً بما يدفعه للفقير في شهره هذا ـ شريطة أن يكون هذا العطاء خالصاً لله تعالى دون أن يتبعه ما يحبطه ويودى بأجره من المن على الفقير والأذى له بالتباهي به ، والاعلان له حيث لا يترتب عليه سوى حب الظهور أو الكشف لحال الفقير كما قال عز وجل : ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ﴾ .

وقد جعل الله عز وجل حكم من يُتبع عطاءه بالمن والأذى حكم من ينفق رياء أو ينفق غير مؤمن بالله واليوم الآخر وشبّه هذا العطاء بتراب على صخر ، والمن بالعطاء بالمطر الغزير النازل على ذلك التراب نزولاً لا يغادر له أثراً ، بذلك الأسلوب المتعالي المعجز قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صداقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم

الكافرين ﴾ ـ كما ضرب مثلاً لمن ينفق أمواله مخلصاً دون أن يتبع ما أنفق بالمن والأذى ببستان في محل مرتفع مكشوف معرّض للغيث يتعاهده دائماً عند الحاجة ويبقى شجره مطرداً في نموه وازدهاره دون أن يطرأ عليه ما يوقف هذا الإطراد فيتضاعف ثمره عدداً وازدهاراً ـ بقوله عز من قائل : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾ .

وليس شيء أسر للمسلم الميسور من عثوره على بيت كريم خال إلا من التجمل والتعفف لأنه أمنيته وأنشودته ، وربما كان الكثير من الفقراء يوطنون أنفسهم على الاستدانة أثناء السنة ويطلبون من الدائن تأجيل دينه إلى شهر الله لما يعلمونه بحكم العادة من تيسر سبل الوفاء بما يدفع إليهم علانية وسراً ـ وليس سرور الفقير بقضاء حاجته وسد خلته بأكثر من سرور الغني المؤمن بتوفيقه وسعادته سعادة في دنياه ببركة تظهر في ماله وذريته وعافيته ـ وفي آخرته بمغفرة من الله له وصلوات منه عليه .

وكم من المسلمين سعداء ارتفعت بهم هممهم فحرصوا على أن تبقى أعمالهم الخيّرة مستمرة حتى بعد موتهم . بوقف قسم من أملاكهم لينفق ريعها على الفقراء في هذا الشهر العظيم .

ويؤيد هذا ما ورد في تفسير قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا

ينفقون قل العفو﴾ . من أن المراد بالعفو المال الخالص الذي ليس فيه شائبة دين أو ظلم وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وفي أموالكم حق للسائل والمحروم ﴾ ـ أن أولئك المؤمنين بعد تصفية أموالهم من الحق الشرعي ـ يفرضون فيه قسماً خاصاً في كل يوم أو أسبوع أو شهر للسائل والمحروم .

الصدقة وأثرها

الصدقة : عبارة عن المال الحلال الذي يدفع للمحتاج لا لرغبة فيه ولا لرهبة منه . ولا لأنه حق مفروض له كالنفقة المفروضة للزوجة أو للولد أو للوالدين . بل يدفع استحباباً لوجه الله عز وجل برجاء مثوبته والتقرب إليه .

وتتفاوت المثوبة عليها بتفاوت مواردها . فالرحم أي من شده إليك أواصر النسب والسبب أولى من غيره لقوله (ﷺ) : لا صدقة وذو رحم محتاج ، وتتأكد إذا كان الرحم كاشحاً أي مبغضاً حسوداً ـ بقصد صلته واستمالته لقوله (ﷺ) وقد سئل أي الصدقة أفضل ؟ : على ذي الرحم الكاشح .

والمؤمن التقي أولى من غير التقي ، والعالم العامل أولى من الجميع ، وترتفع المثوبة قدراً إذا كان في وجوده إنعاش للدين وترويج له ، وإحياء للسنة ، وإماتة للبدعة ، وقد جاء في الحديث : إن الصدقة على العالم العامل ـ إذا كان كذلك ـ بمئة ألف .

ويكاد العاقل يشرف على القطع بثوابها وتفاوت هذا الثواب أيضاً ، إذا كان يؤمن بالله عز وجل وقدرته وسعة ملكه ، وبأن الحياة هبة منه تعالى وتأمينها رحمة منه وفضل ، ويؤمن بالحياة بعد الموت ليجازى كل بما عمل ، المحسن في الدنيا على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، بقطع النظر عما ورد من أخبار متواترة في فضلها وسعة هذا الفضل وتحديده لأن العطاء لوجه الله ، أو في سبيل الله عطاء لله في الحقيقة وإكرام إنسان لله وفي الله إكرام لله ـ كمن يعطي ولد لأجل ولده ، ويكرم إنساناً لأجل صديقه فيرجع هذا العطاء وذاك الإكرام مآلاً إلى الوالد والصديق .

وقد عرف في تاريخ الكرماء من بني البشر الكثير الذين يكادون أن ينسوا أنفسهم في سبيل مبادلة من أسدى لهم معروفاً وابدائهم بمكرمة أو دفع مظلمة ـ فكيف بمن لا تنقص خزائنه ، ولا يبيد ملكه ، ولا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً العلي القدير مالك السماوات والأرضين جلت عظمته وتعالى شأنه .

وما الصدقة إلا متجر من أعظم المتاجر غاية وأضمنها ربحاً ، وأعودها على الانسان نفعاً ، ندب الله عز وجل إليها امتحاناً لهم ، ورحمة بهم ، واستهدافاً إلى غاية إنسانية لا يدرك مداها إلا من تكفل بالتعويض عليها ، وعلاج من أسرع العلاجات تأثيراً وأرجاها قمعاً للداء ، ودفعاً للبلاء .

الصدقة تدفع البلاء .
الصدقة يداوي بها المريض.
ويستنزل الرزق بالصدقة.
وتدفع بها ميتة السوء.
وتحفظ بها الذرية.
ويطول بها العمر.
ويربيها الله عز وجل لصاحبها في الآخرة.

قال الله سبحانه : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله واسع عليم ﴾ وعن علي (ع) قال : قال النبي (ﷺ) تصدقوا ولو بشق تمرة واتقوا النار ولو بشق تمرة فإن الله يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يجعلها له مثل جبل أحد .

تنبيه يشتمل على أمور خمسة

ـ أ ـ

عرف ان الصدقة يبطل أثرها المنُّ بها قال الله تعالى : ﴿ ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ وقال الصادق عليه السلام قال رسول الله (ﷺ) : من أسدى إلى المؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل الله صدقته . وقال : لا يدخل الجنة ثلاثة : العاق لوالديه ، والمدمن للخمر ، والمنان بالخير إذا عمله .

انها لا تتحقق إلاّ بالمال الحلال ، فلو تصدق بالمال الحرام أو المخلوط به لا تصح بل ربما يعاقب الدافع لتصرفه بمال غيره . سئل الامام الصادق (ع) عن سبب نزول هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه حتى تغمضوا فيه . واعلموا أن الله غني حميد ﴾ آية ٢٦٦ من سورة البقرة .

متعلق الصدقة الفقير الذي لا يملك مؤ ونة سنته لا بالفعل ولا بالقوة ، ويتفاوت الصدقة عليه أثراً بتفاوت حاجته وضرورته وسعة عياله وقلتهم ، أما مع العلم بحاله فواضح وأما مع الشك فيكفي ظاهر الحال ، والتعرض للسؤ ال ، فمن دفع له معتمداً على هذا الظاهر ترتب على دفعه الأثر وإن كان في الواقع غير فقير - سوى أن الأثر الوضعي العاجل لا يترتب إلا على الواقع ولذا يكره رد السائل لاحتمال أن يكون صادقاً ، وإذا كان في الواقع صادقاً وردّه يلحقه الأذى من رده كما يلحقه النفع في إعطائه - وفي الحديث : لو صدق السائل لهلك المسؤ ول . مضافاً إلى أن السائل قد يكون ملكاً يرسله الله إلى الغني مختبراً ، ليتبين شكره أو كفره .

وفي دعاء سفانة ابنة حاتم الطائي لرسول الله (ﷺ) وقد

جيء بها مسبية في جملة من قومها بعد أن عرفها رسول الله (ﷺ) ، وأعطاها ما أغناها به من الغنائم كرامة لأبيها . قالت مستأذنة له في الدعاء : أصاب الله ببرك مواقعه . ولا جعل لك إلى لئيم حاجة . ولا سلب نعمة عن عزيز قوم إلا وجعلك سبباً لردها عليه .

في دعائها هذا دليل على أن العرب بفطرتهم يعرفون قيمة الأثر الوضعي من إصابة البر موقعه . كما أن في أمر النبي (ﷺ) أصحابه بأن يؤمنوا على دعائها دليلاً على أن دعاء الفقير المحتاج بعد إنعاشه بقضاء حاجته لا يرد أبداً .

ـ د ـ

والصدقة سراً أفضل منها علانية إلا إذا ترتب على الإعلان ، بها أثر آخر من الاقتداء وأمثاله ، والاعتبار يساعد على ذلك لأن التكتم بها أدعى للاخلاص . وأبعد عن مظنة الرياء ، وأجبر لقلب الفقير . وقد جاء في الحديث عن علي بن الحسين . صدقة الليل تطفىء غضب الرب ـ وقد كان القادة من أهل البيت وأصحاب الرسول عليهم السلام تتجلى فيهم هذه الظاهرة ولا سيما في شهر رمضان فقد كان الإمام علي (ع) يعول بخمسمئة بيت في المدينة والكوفة وكان الأغلب منهم لا يعرفون من يعولهم إلّا بعد فقده صلوات الله عليه ، وقد مر ليلة على امرأة ذات أيتام فناولها ما هو مرسوم لها ليلياً . وإذا بها تخاطبه جزاك الله خيراً يا

عبد الله وحكم بيني وبين علي بن أبي طالب قال : وما فعل عليٌّ معكم قالت : قتل زوجي بين يديه في صفين وترك لي أيتاماً ليس لهم من يعولهم . وإلى الآن لم يتفقدنا ، فلما كان الصباح جاءها بشيء زائد من اللحم والدقيق فطرق الباب قائلاً : أنا الذي جئتك البارحة عندي شيء للأطفال . ففتحت الباب وقالت : أدخل يا عبد الله . عليك بالأطفال فسكتهم حتى أعجن لهم فإني بالعجين أبصر منك فلما انتهت قالت : يا عبد الله قم وأسجر التنور فقام فأسجره فلما ارتفع لهب النار وأحس بحرارتها جعل يبكي ويقول : ذق يا علي هذا جزاء من ضيع الأيامي والأيتام، وإذا بامرأة من الخارج تدخل فتعرفه فهتفت بربة البيت : ويحك ما صنعت هذا الامام علي بن أبي طالب ، فوقعت الإمرأة على قدميه رافعة صوتها : المعذرة إلى الله وإليك فقال : المعذرة إلى الله وإليك مما قصرت في حقكم - أجل وقد برزت هذه السجية في حفيده علي بن الحسين زين العابدين فقد أثَّر الجراب في ظهره مما كان يحمله للفقراء ليلاً ، والحديث عن الامام علي وأبنائه والطبقة الفاضلة من المسلمين من هذه الجهة يحتاج إلى كتاب خاص ، وحسبنا التنبيه ففيه للأحرار كفاية .

ولما كان الاسلام ديناً حيوياً اجتماعياً لا يريد لمن اعتنقه إلا العزة والكرامة كما قال الله عز وجل : ﴿ العزة لله ورسوله والمؤمنين ﴾ ندبه للعمل في الاتجاه الذي تميل إليه نفسه ويقدر عليه ، وكره له الكسل والبطالة أسوة بالنموذج الأعلى من

المسلمين أنبياء الله وأوليائه ، فقد كانوا لا يستنكفون عن العمل ويعدون اللقمة التي يحصلون عليها بكد أيمانهم من أفضل ما يحصلون عليه في حياتهم .

لما كان الاسلام كذلك كان أكره شيء في نظره التعرض للسؤال من غير ضرورة ملحَّة لأنه ذل وتعرض للفقر ، ولذا قال النبي (ﷺ) لعلي : يا علي (لأن أدخل يدي في فم التنّين إلى المرفق أحبُّ إليَّ من أن أسأل من لم يكن ثم كان) وقال لأبي ذر : يا أبا ذر إياك والسؤال فإنه ذل حاضر وفقر تتعجله ، وفيه حساب طويل يوم القيامة ، ولا يسأل إلاّ في ثلاثة في دم مفضع أي في دية لا يقدر عليها وفقر مدقع وغُرم مثقل ، أي في دين استغرق كل ما يملك .

التوبة والمغفرة

التوبة عبارة عن الندم على فعل المعصية مقروناً بالعزم على ترك العود إليها ، وهذا المعنى لا يتحقق إلا بعد فرض تركها فعلاً كما هو واضح وهي من فعل العبد ـ أما المغفرة أي قبول التوبة فمن شؤون المولى عز شأنه . وكما أن التوبة على قسمين خاصة إذا كانت عن معصية خاصة دون غيرها بلحاظ تخفيف الجرم لأن لكل جريمة قصاصها وغرمها ـ وعلمة . إذا كانت عن سائر المعاصي المرتكبة ـ كذلك المغفرة .

والمأمور به عقلاً التوبة بالمعنى الثاني لأن العقل بعد إطلاعه على إحسان المولى عز شأنه إلى العبد وافتقار العبد إليه في كل شيء ، يلزمه بوجوب شكره وتجنب سخطه مطلقاً ، والسرعة في التراجع عن الخطأ المرتكب . لأنه أقل مراتب الشكر والاعتراف بالجميل ، ويتأكد حكم العقل إذا أطلع على الضرر المترتب على الخطأ وانه لا طريق للنجاة إلا الانابة إلى المولى والانقطاع إليه ـ ويزيده تأكيداً وإلزاماً بوجوب الفور جهله بـأجله ، واحتمال انقطاعه في كل لحظة .

والأوامر الشرعية الواردة في وجوب التوبة قرآناً وسنة ، ليست إلا أوامر إرشادية إلى حكم العقل ومقرّرة له ، والأمر الارشادي أمر تفضل ورحمة كأمر الطبيب المريض باستعمال الدواء النافع وتركه الشيء الضار .

وإن من أعظم النعم علينا أن ربنا سبحانه كريم وسع كرمه المذنبين ، ورحيم وسعت رحمته كل شيء ، فتح باب مغفرته على مصراعيه لكل عبد منيب صادق في توبته ، ودعاه إليه دعوة رحيم كريم : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك جميعاً ﴾ .

فهل من الإنصاف أن تتصامم عن دعوة ربك وتتجاهل إرشاداته لاهياً سادراً في لهوك ولعبك ، وأنت متجاهر في الايمان

به ، والاحتياج إليه لا تملك لنفسك نفعاً إلا عن طريقه ، ولا تدفع عنها ضراً إذا لم تستعن به ، وليس عندك ضمانة في الحياة ولا مؤمن من الموت المرتقب نزوله بك في كل وقت من أوقاتك ، ولا سيما في شهره عز وجل هذا الذي اعتبره شهر كرامة وضيافة ، وتوبة وإنابة ، ضاعف فيه ثواب المحسنين ، كما ضاعف فيه عقاب المتمردين .

وإن الجهل ليس عيباً بل الرضا به ، والخطأ ليس بجريمة بل الإصرار عليه بعد وضوحه والتعلل بالأماني والآمال وسيلة النوكي والبلهاء .

والصائم يبتغي من صيامه وطاعته أن يحصل على الضمانه الكبرى بعد انصرافه من صلاته يوم العيد . الفوز برضاه عز وجل والعتق من سخطه وغضبه بحيث لو فاجأه الموت بعدها يفاجئه متحللاً من كل ذنب نظيف الثوب من كل عيب .

وإذا كان من ينبغي اندراجه في سلك الموظفين عند الحكومة لا يقبل طلبه إلا أن يرفقه بسجل عدلي أبيض تاريخاً وسلوكاً وسيرة فإن لم يكن ، فلا بد من أن يستأنف حياته من جديد مقلعاً عن الماضي مجهزاً بشفاعة رجل وجيه عند الحكومة يأخذه على عاتقه . ـ فالصائم يقبل طلبه بدون أن يثبت بياض ماضيه أو يحتاج إلى شفاعة أحد ـ بل بعزمه على استئناف حياة جديدة

وآصرة قويمة تشده إليه عز وجل شريطة أن يتحلل من تبعات الماضي الناشئة من ترك الواجب أو فعل الحرام .

فالمهم إذن بيان تلك التبعات ـ والتبعات إما للمخلوق ـ وإما للخالق ـ فالذي للمخلوق تارة تكون مادية ، وأخرى أدبية ـ فالمادية هي كل ما يثبت في ذمة العبد شرعاً لغيره ، سواء كان من دين ، أو استقراض ، أو سرقة ، أو من ناقل غير شرعي كالمال الذي يحصل عن طريق القمار ، أو الربا أو من بيع ما لا يجوز بيعه ، كالخمر والميتة ولحم الخنزير والنجس أو من بيع اللحوم المعلّبة المستوردة من بلاد غير المسلمين ، ولا وسيلة شرعية تثبت تذكيتها ، فالمال الحاصل من هذا كله ، عوضاً ، أو غيره يبقى على ملك مالكه الأول الذي انتقلت منه ـ أو كان المال الثابت في الذمة عن طريقه عز وجل ، وهو المال الذي فرضه سبحانه في مال العبد لغيره في بعض الأحوال ، كالزكاة والأخماس والكفارات ، وسائر الغرامات المالية ، فإنها بعد ثبوتها تعتبر ديناً كسائر الديون ـ والتحلّل منها لا يكون إلا بإيصالها لمالكها إذا كان معلوماً ـ وإلا فبمراجعة الحاكم الشرعي ليهديه سواء السبيل .

والأدبية ـ هي كل ظلامة ثبتت عليك من غيبة أو سباب أو نميمة أو بهتان وما إلى ذلك ـ والتحلل منها لا يكون إلا بإسقاط ذلك الغير حقه عن اختيار ورضى ، فإن لم يمكن التحلل منه إما

لأنه ميت أو غائب بحكمه ، أو لسبب آخر ـ فحسبك أن تستغفر له ، وتدعو له في مظان الاجابة .

والتي للخالق تارة تكون من قبيل الحقوق كالعبادات التي اشتغلت ذمة العبد بها من صلاة أو صوم أو حج ولم يؤدها في وقتها وقد فرض الله قضاءها ـ فالتحلل منها لا يكون إلا بالشروع في قضائها بالنحو الذي يستطيعه ـ وأخرى من قبيل الحدود والقصاص كالحدود المفروضة على الزاني من الجلد أو الرجم ، وعلى شارب الخمر من الجلد ، والسارق من القطع ، والقاتل عمداً من القتل أو الدية باختيار صاحب الدم ، والقاتل خطأ من الدية فحسب وغيرها من أنواع القصاص والحدود المدونة في باب الحدود والديات ـ فالتحلل منها لا يكون إلا بتوطين النفس على تحمل ذلك الحد وتلك الدية .

وربَّ سائل

إذا كان التائب في الوقت الذي يرجع فيه إلى الله عز وجل عاجزاً عن التحلل من تلك التبعات فما يصنع . « ألم يأمره الله بالتوبة » ألم يجعل الله عز وجل اليأس من كرمه ، والقنوط من رحمته من الكبائر .

ويجاب ، بأنه إذا فرض عجزه واقعاً عن التحلل من تبعة ما وقع فيه ، وعلم الله منه صدق النية أنه لو كان قادراً لبذل ما

يفرض عليه ، يغفر الله له بلا ريب ، ويستحيل أن لا يقبله مع دعوته إليه وهو أكرم الأكرمين ـ أما إذا كان قادراً ولم يفعل فلا يعد تائباً .

وخلاصة ما يقال في ذلك أن الله عز وجل جعل لكل إنسان السلطة الكاملة على أمواله في حياته وجعل له الحرية الكاملة في أن يخرج التبعات المالية كلها من أصل التركة ، وجعل له بعد إخراجها السلطة على ثلث الباقي من أمواله ليصرفه في باقي شؤونه الخاصة والعامة بعد وفاته من عبادات وغير عبادات من سائر وجوه البر والخير ـ كما أن له أن يقتصر على إخراج الثلث فقط من المجموع إذا كان يسع التبعات كلها المالية وغير المالية ، ـ وإن كانت التركة كلها لا تسع الجميع ، فيقدم التبعات المالية ، فإن فضل شيء فله ثلثه يصرفه في الأهم فالأهم ، وإن استغرقت الديون التركة يصبح فقيراً وحسبه عذراً عند الله عز وجل فقره .

وإذا خشي مفاجأة الموت وعدم المهلة ، فعليه أن يوصي ويعهد في وصيته إلى من يأتمنه على تنفيذها بالنحو المشار إليه ـ أما في هذه الأيام فحيث أن الوسيلة مفقودة إلا عن طريق القوة ، فلا بد أن يجعلها قانونية ليكون للوصي مجال للتنفيذ إذا وقف الوارث في طريقه ، وعرقلوا سيره .

وإن لم يتحلل منها في حياته ولم يوص بها بعد وفاته وفاجأه

الموت فيستكشف أنه مات غير تائب ويكون مرتهناً بها حيث يموت على الاسلام ، فإن قيض الله له صالحاً من ولد تقي أو صديق وفيّ ، يحفظه بعد موته بأدائها عنه ، فك رهنه ، والتحق بصفوف المتحررين ـ وإلا بقي مع المرتهنين بذنوبهم .

أما الوارث فإن كان عالماً بما على مورثه من تبعات ، فيجب عليه أن يخرج التبعات المادية كلها من أصل التركة لإناطة الإرث بإخراجها كما قال الله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ . ـ والمتحصل من الآية . أن عملية توزيع التركة على الوارث وإعطاء كلّ نصيبه المفروض له ـ لا تصح إلا من بعد إخراج ما أوصى به ومن بعد إخراج الدين ـ أما غيرها من التبعات العبادية والأدبية فلا يجب عليه وهو بالخيار إن شاء أدى وإن شاء لم يؤد ـ إلا ما فات الموروث من العبادات الصلاة والصوم في مرض الموت ، فعلى الأكبر من ولده أن يؤديه عنه في مقابل الحبوة .

وإن لم يكن الوارث عالماً بما على مورثه من تبعات مادية ، فليس عليه مؤاخذة ولا عقاب ويكون له المهنى وعلى الموروث الوزر ، يلحقه الحكم الوضعي اللاحق لمن أكل مال الغير أو مالاً مخلوطاً بمال الغير وهو جاهل به (كالشارب للسم جاهلاً به ، يتضرر صحياً به ولا يعاقب من قبل المولى عليه ، ـ ومن هذا يتضح أن المتهاون بوفاء ما عليه من الديون وبإخراج الحقوق

الشرعية المفروضة في ماله ، مضافاً إلى تهاونه بنفسه ، وتعرضه لسخط الله عز وجل ـ يعرّض ورّاثه للهلاك إن كانوا عالمين وتهاونوا مثله ، أو للضرر مادياً وصحياً واجتماعياً إن كانوا جاهلين .

أما ما كان من سنخ الحدود القصاص المترتب على الجرائم المذكورة آنفاً ، فحيث أن إقامتها منوطة بوجـود السلطان العادل ، أو نائبه الحاكم الشرعي المجتهد النافذ حكمه ـ فعلى التائب الصادق في توبته أن يقدم نفسه للسلطان أو نائبه ليقيم الحد عليه ـ وأن تعذر إقامة الحد لعدم وجود السلطان العادل ، أو لعدم نفوذ حكم المجتهد كما في زماننا غالباً فحسب التائب أن يعلم الله منه صدق النية أنه لو كان موجوداً لقدّم نفسه .

ورب سائل مستهجن ـ يقول : « أيمكن تكليف الانسان بتقديم نفسه للجلد أو الرجم أو القتل ، وهل هو إلا تكليف بغير المقدور ، ومحال على الله أن يكلف الانسان بما لا يقدر عليه .

ويجاب : بأن الله فرض القصاص في الدنيا لعلمه ، سبحانه بأن الحياة الهانئة والسلام والأمن وإشاعة الخير بين المواطنين ، واستدفاع الضرر والأذى ـ لا تحصل إلا بالقصاص وإقامة الحدود كما قال الله عز وجل : ﴿ ولكم في الحياة قصاص يا أولى الألباب ﴾ . ـ وفرضه على التائب وإناطة قبول توبته به ، . ليعلم المجرم القادم على الجريمة . أنه قادم على هلاك نفسه في

الدنيا والآخرة ، . والذي يعلم بخطر المسؤولية بعد الموت . يهون عليه أن يتحمل هذا العقاب الموقت المحدود في الدنيا في سبيل خلاصه من العقاب الدائم يوم القيامة .

وكثيراً ما يحدثنا التاريخ عن جماعة وقعوا في الجرائم من زنا أو شرب خمر . ثم جاؤوا إلى النبي (ﷺ) وبعض خلفائه طائعين ـ ليقيم عليهم الحد وهم يقولون : طهرنا يا رسول الله في الدنيا قبل الأخرة ـ كما أن القرآن الكريم يحدثنا بأن الله عز وجل أناط قبول توبته عن قوم موسى حين وقعوا في المعصية ـ بأن يقتل بعضهم بعضاً ولم يزل القتل فيهم من هجوم بعضهم على بعض حتى أمرهم بالكف قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ ٥٤ سورة البقرة ـ والحكمة بذلك ما ذكرناه .

فنلخص من ذلك . أن التوبة بالمعنى الثاني الذي ذكرناه لا تتحقق إلا بعد إعداد هذه المقدمات كلها من ترك المعصية ، والعزم على ترك العود إليها ، والتحلل من تبعات الماضي للمخلوق كانت أم للخالق مادية أو أدبية أو من الحدود والقصاص .

زكاة الفطور

وهي لغة النمو والزيادة ـ وشرعاً عبارة عن وجوب دفع مقدار

خاص من المال للفقير يوم العيد . والمصحح لتسمية هذا المقدار زكوة ، باعتبار ما له من الأثر الوضعي في نمو المال والبدن وحفظه من الطوارىء والموت . ووجه نسبته للفطرة وتسميته بها إما بمعنى الخلقة أي زكوة البدن ، أو بمعنى الدين أي زكوة الاسلام والدين ، أو بمعنى الإفطار لكون وجوبها يوم الفطر .

وحكمتها إنعاش الفقير في هذا اليوم ومساواته لغيره من الطبقات في مأكله ومشربه بل وملبسه ، لأنها لو دفعت مقدماً بعنوان القرض يستطيع أن يشتري بها شيئاً من الملبوس ـ ولو أن المسلمين الواجب عليهم إخراج هذا المال في كل بلد ـ حصروه في فقرائهم ـ لما كان فيها فرق بين الطبقات في هذا اليوم .

وكم في هذا الواجب الديني من حكمة اجتماعية وإنسانية تظهر حين يتلافى عوز الفقير مع أهله وأولاده ، فيخرجون مع الناس دون أن يشعروا بهوان أو حرمان ، ويرى الغني نفسه مرتاح الضمير ، مشرق الأسارير حين يتقدم الفقير مجبور القلب فيسلم عليه ويدعو له ، ـ وتنعكس الآية إذا رأى الفقراء والعمال أنفسهم محرومين مهانين والأغنياء معرضين متكبرين تستبد بهم العزة والكبرياء ، فتشتعل الضغائن في قلوبهم لتدفعهم يوماً ما ـ إلى الموقف الايجابي متنمرين مستميتين برفع أصواتهم تارة ، والمطالبة بحقوقهم أخرى وبالثورة الدموية ثالثة التي قد تنسف قصور الأغنياء ، وتبعثر أموالهم وتشتت أولادهم وتقدمهم أخيراً حطباً لجهنم .

والاسلام دين السماحة والرحمة ، دين التعاطف والمساواة. يتحرّى بكل تشريعاته إشاعة هذه الأخلاق بين الناس ، فيرفع من شأن الغني بسمو نفسه ورحمة قلبه وتواضعه وإيثاره بالقليل لغيره على عائلته ، ويرفع من شأن الفقير بسد عوزه ودفع ضروراته مادياً ، وإشعاره بالإعتزاز بدينه وتقواه ، ومساواته للغني في سائر الحقوق والواجبات الدينية والاجتماعية معنوياً . فتشرق الحياة بين المواطنين أمناً وطمأنينة وتبادلاً في العواطف وتقارباً بين القلوب .

يشترط في من تجب عليه أن يكون مكلفاً عاملاً حراً غنياً وقت وجوبها . وعدم وجوبها على العيد ولا على الفقير الذي لا يملك مؤ ونة سنته له ولعياله لا فعلاً ولا بالقوة أي أن عمله التدريجي الذي يعيش منه يقصر عن نفقاته الضرورية المتعارفة ، نعم يستحب له إخراجها ولو بأن يدير مقدارها على أفراد عائلته ثم يعطيها آخر الأمر لفقير من غير عائلته .

ويجب على الغني أن يدفعها مضافاً إلى نفسه عن كل من هو داخل في عيلولته عرفاً ليلة العيد حتى الضيف الذي يدخل منزله بعنوان الضيافة ـ صبيحة العيد قبل الذهاب إلى الصلاة ويبقى وقتها إلى الزوال مبتدئاً بالأهم فالأهم الفقير من أرحامه ثم من بلده ثم البعيد عنها إن لم يكن فيها ولا يجوز تأخيرها إلا إذا عيَّنها في شيء خاص ليدفعها لفقير معين من أرحامه أو غيرهم لم يكن موجوداً وتبقى ديناً في ذمته إن تركها عصياناً .

والفطرة صاع شرعي من الطعام المتداول استعماله كالحنطة وأمثالها ، وهو في عيار الاسلامبول المتعارف حقتان وثلاثة أرباع الأوقية ومثقالان إلا ربع ، ومن أخرج كيلوين وثلاثة أواق إسلامبول تبرأ ذمته يقيناً ويخير المكلف بين دفعها طعاماً أو ثمنه نقداً ، وأقل ما يعطي الفقير فطرة واحدة أي صاعاً كاملاً من طعام أو ثمنه ويجوز إعطاؤه أكثر من فطرة إلى المئة فصاعداً ما دام مستحقاً .

عيد الأضحى

وهو يوم العاشر من ذي الحجة الحرام يوم عظم قدره عند الله عز وجل ـ لأنه يوم يكمل القاصد لبيته الحرام فيه مناسكه في منى . من رمي الجمار وتقديم القربان أي الأضحية صحيحة سالمة والحلق والتقصير ، ثم يذهب إلى مكة فيطوف طواف الحاج ويسعى بين الصفا والمروة ثم يطوف طواف النساء ويرجع إلى منى فيقيم فيها أيام التشريق العاشر والحادي عشر والثاني عشر إلى ما بعد الظهر .

ولله سبحانه لحظات كريمة رحيمة لعباده المطوّفين في بيته ، الخاشعين في موقفهم في ذلك الصعيد الواسع ، عرفات ـ ما بين ظهر اليوم التاسع إلى الغروب ، المزدلفين ليلة العاشر إلى المشعر الحرام ثم بعد صلاة الصبح إلى منى يبتغون في كل ذلك أداء ما

فرضه الله عليهم . وشمولهم بلحظاته سبحانه الرحيم ، ليرجعوا بعدها وقد صهرتهم هذه الشعائر المقدسة العظيمة في بوتقتها الاسلامية العليا . مطهّرين . صافية نفوسهم ، نقيّة ضمائرهم ، بعيدة هممهم ، يشعرون بالاعتزاز بنعم الله عليهم أن وفّقهم وقبلهم وغفر لهم ذنوبهم .

وقد ندب الله عز وجل عباده المسلمين في كل بلد إسلامي . ممن لم يسعدوا بحج بيته ، وإقامة شعائره هناك ـ أن يتشبهوا بأولئك السعداء في عملهم . فيزحفون من بيوتهم منذ طلوع الشمس مغتسلين وقد لبسوا ثياباً نظيفة من الوسخ الظاهري ، والوسخ المعنوي الحرام ، بمعنى أنها لم تكن مغصوبة أو مسروقة أو لم يكن ثمنها مغصوباً أو مسروقاً أو محقوقاً للفقراء ـ كما يزحف الحاج من المشعر الحرام في ذلك الوقت إلى (منى) مئتزراً بثوبي إحرامه الشبيه بالكفن وقد تحرّى جهده أن لا يكون فيه ولا في ثمنه أقل شائبة من الحرام ، ويتحرّى كل منهم صلة أرحامه والفقراء من بلده قدر طاقته لتتناثر بذلك عنه ذنوبه وسيئاته ـ كما يذهب الحاج فور وصوله إلى ـ منى ـ ليرمي الجمار أو الشيطان ـ كناية عن البواعث والدوافع لارتكاب الخطايا والذنوب ، ويقدم الأضحية عنه وعن أولاده ومن إليه بقصد الامتثال لأمر الله عز وجل والأستنان بسنة محمد بن عبد الله (ﷺ) ، فيتصدق بثلثها على جيرانه وبالثلث الثاني على الفقراء ويمسك الباقي لأهله ـ كما يذهب الحاج فيقدم قربانه وأضحيته ثم يذهب إلى الصلاة

فيؤديها جماعة مع مسلمي أهل بلدة بخشوع وإخلاص ، وينعطف بعدها إلى أفراد الجماعة وغيرهم فيتبادلون المصافحة والمسامحة والتزاور

أجل تدبهم الله عز وجل ليشملهم برحمته وعطفه ولا سيما إذا كانوا ممن أقعدهم عن الحج الفقر أو العجز أو غيرهما من الموانع العرفية ـ وليست هذه الواجبات العامة والاجتماعية إلا لطفاً من الله بعباده وهو اللطيف ورحمة لهم وهو الرحيم ليعرضهم لكل ما يرفع مستواهم الانساني تصفية للنفوس ، واندفاعاً في مجالات البر ، وتواضعاً لله عز وجل ولعباده ، وارتفاعاً عن الحيوانات الضارة ، والذئاب المفترسة ، والكلاب المتهاوشة إذ لا يميز الانسان عنها إلا أن يعيش بعقله لا بهواه ، وبإنسانيته لا حيوانيته .

ملاحظة

ورد في فصل الأضحية من الأخبار عن رسول الله (ﷺ) انه قال : « الأضحية واجبة على من وجد (أي يمكن من صغير أو كبير وهي الهدى والاسلام) » . وقد سأله رجل عن الأضحى فقال : هو واجب على كل مسلم إلا من لم يجد فقال له السائل : فما ترى في العيال قال : إن شئت فعلت وإن شئت لم تفعل فأما

أنت فلا تدعه ، وعن محمد بن بابويه عليه الرحمة فيما ذكره عن أم سلمة رضي الله عنها : أنها جاءت إلى النبي (ﷺ) فقالت : يا رسـول الله يحضر الأضحى وليس عنـدي ثمن الأضحية فأستقرض وأضحي قال فاستقرضي فإنه دين مقضي . وعن أبي جعفر بن بابويه في كتاب (من لا يحضره الفقيه) قال : وكان رسول الله يضحي بكبشين يذبح واحداً بيده ويقول : اللهم هذا عني وعمن لم يضحّ من أهل بيتي ويذبح الآخر ويقول : اللهم هذا عني وعن من لم يضحِّ من أمتي .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

التربية والتعليم في العصور الإسلامية

(١)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

التربية والتعليم

في

العصور والإسلام

١

دار الفكر اللبناني



التربية والتعليم في العصور الاسلامية

- ١ -

لا يتفق جميع الباحثين والمربين ، على تعريف واحد للتربية ، ولكنهم يكادون يجمعون، على أنها تشمل أشياء أخرى ، غير المباحث التي تعلم في المدارس والجامعات . فمن معانيها الكثيرة ، حسن السلوك ، والتفكير الصحيح ، والحصول على معرفة كافية بالناس والأشياء ، وحفظ الجسم بصورة قوية سليمة . ويمكن أن تلخص ذلك في جملة قصيرة يقصد بالتربية اجمالاً ، إعداد الانسان للحياة ، إعداداً يتناول بدنه وعقله وروحه .

تعريفات

أما تعريف التعليم ، فأسهل من تعريف التربية ، وذلك لأن التعليم في كل العصور ، له علاقة بالمعلم والمتعلم والعلم ، ومكان ذلك ، وهو المدرسة ، ووسائله وهي الكتب والبرامج . فالتعليم هو أن يوصل المعلم المعرفة إلى المتعلم ، بالصورة المناسبة ، في الوقت المناسب ، والمكان المناسب ، وقد يختلف

نوع العلم ، والمعلم ، والمتعلم ، والمدرسة ، والكتاب ، ولكن الغاية واحدة ، وهي الحصول على المعرفة .

وعلى هذا ، يكون معنى التربية أوسع من معنى التعليم ، ولكنه لا يستغني بالواحد منهما عن الآخر . فالتعليم يمكن اعتباره من وسائل التربية ، ولكن قد توجد التربية بلا تعليم . أي أن التربية أوسع نطاقاً من التعليم . فالبدوي الجاهلي الأمي ، كان له نصيب من التربية دون التعليم ، بينما العربي المسلم القارىء الكاتب ، في صدر الاسلام ، كان له مثل نصيب البدوي من التربية ، ونصيب كاف من التعليم . وللتدليل على ذلك أذكر وضعاً لغوياً طريفاً ، نشأ دون أن نلاحظه في استعمال كلمة (المعلم) و (المربّـي) فالأولى نطلقها على المعلم العادي ، والثانية أي المربي ، لا نطلقها إلاّ على المعلم الكبير ، الذي نال قسطاً كافياً من التربية والتعليم .

وكلمة التربية حديثة الوضع في لغتنا بهذا المعنى ، ولهذا نجد المؤلفين والباحثين في هذا العصر ، لا يستغنون بها عن أختها ، فمعظمهم يقولون (التربية والتعليم) عندما يريدون الاشارة إلى مجموع ما تدل هاتان الكلمتان عليه ، لأن (التربية) فيها معنى الثقافة ، بينما التعليم فيه معنى إيصال المعرفة وتلقيها . والأمران معاً يؤديان معنى لفظة (Education) ، أما الوزارة أو الادارة ، التي تشرف على شؤون التربية والتعليم ، فقد أطلق عليها

الأتراك لفظة (المعارف) . وسارت جميع البلاد العربية على هذا النحو . ولو تدبرنا المقصود من كلمة التربية والتعليم (Education) كما شرحته سابقاً ، لوجدنا أن كلمة (المعارف) لا تكفي للدلالة عليه ، بل ربما كانت لا تكفي لوصف المصلحة القائمة على ذلك وصفاً تاماً . ولكن الناس درجوا على استعمالها ، وصارت مألوفة لديهم .

التعليم في القديم

عرفت مصطلحات البحث ، وبقي علي الآن أن أحدد لبحث نفسه . وسأحاول أن أبحث بعض نواحي التربية والتعليم في تاريخ الاسلام . ولست أدعي الاحاطة ، ولا الوصول إلى نتائج حاسمة ، فذلك غير ممكن ، ولكني سأكتفي بذكر حقائق تاريخية ، أفسرها كما يتراءى لي ، وأحلل بعض الأفكار ، وأزنها بميزان العقل والبحث العلمي . وقد اخترت أن أبدأ بحثي من ظهور الاسلام ، لأن طلب العلم بدأ ونما وتطور ، منذ ظهور الاسلام . ولكني أقول إن ظهور المدارس المنظمة ، لم يكن إلاّ في العصور المتأخرة ، والبحث في التربية والتعليم قبل القرن العاشر للميلاد ، هو في الحقيقة ، بحث في طلب العلم ومادته ، وشؤون العلماء والمتعلمين وآرائهم ، لا في نظام للتربية معروف ، أو مدارس لها برامجها ومناهجها ، تديرها

الدولة ، وتشرف عليها المؤسسات الأميرية ، وتكون دائرة خاصة من دوائر الحكومة .

التعليــم

فطلب العلم إذاً ، كان حرّاً ، لا تشرف عليه الدولة . فلم تكن للمعارف وزارة أو ديوان ، كديوان الجيش أو ديوان الخراج . ولكن ذلك ، لم يقلل من شأن العلم في نظر الدولة والناس إجمالاً . ولعمري أن هذا شرف للعرب غير قليل ، إذ بلغوا درجةً عاليةً في جميع نواحي العلم والمعرفة ، دون أن تقودهم إلى ذلك سلطة الملك . . صحيح أن التاريخ ، قد ذكر كثيراً من الخلفاء والعظماء ، الذين شجعوا العلم ، ودفعوا للعلماء المال ، وأنشأوا دور الكتب العامة ، أو فتحوا المعاهد للبحث والدرس ، ولكن ذلك لم يكن سياسة عامة ، بل كان يتوقف على رغبة الخليفة أو العظيم نفسه ، وعلى سخاء يده ، وعلى ظروف زمنه ، فبعضهم كان يفعل ذلك ، رغبة في نصرة مذهب على آخر ، وبعضهم كان يفعله ، إعلاء لشأن ملكه وإسم عشيرته ، وبعضهم كان يفعله لوجه الله .

العلم الديني والدنيوي

فالمقصود من درس التربية والتعليم في تاريخ الاسلام ، هو إذاً درس حركة طلب العلم الديني والدنيوي ، التي ابتدأت

بالبعثة النبوية . ولكني سأجعل البحث على مراحل ، تتناول المرحلة الأولى ، صدر الاسلام إلى نهاية الدور الأموي . وتتناول المرحلة الثانية ، الدور العباسي إلى نهاية القرن العاشر للميلاد . وتتناول المرحلة الثالثة الدور العباسي الأخير ، إلى ظهور الأتراك العثمانيين . وسأحاول أن أحصر بحثي ، ضمن نطاق التعريفات السابقة ، للتربية والتعليم والمعارف ، وطلب العلم . وسأقتصر على بعض الحركات الفكرية في تاريخ الاسلام ، فأجعل كلَّ حركة ، تمثل الدور الذي ظهرت فيه .

الأسس التربوية قبل الاسلام

قد فرغت الآن من تعريف المصطلحات ، وتحديد البحث ، وسأمهد لكلامي ، عن (التربية والتعليم في صدر الاسلام) بكلمة قصيرة ، عن أسس التربية والتعليم قبل ظهور الاسلام . وقد تستغرب مني هذه الجرأة ، حين أقول بوجود التربية والتعليم قبل الاسلام . والحقيقة أن لا غرابة في الأمر ، إذا رجعنا إلى التعريف الذي وضعته للتربية فيما سبق . فالتربية في الجاهلية الأخيرة ، أي القرن الذي سبق ظهور الاسلام ، كانت في الدرجة الأولى ، نتيجة مران وتثقيف يتناول جميع وجوه الحياة . يتعلم فيها العربي بالقدوة تارة ، وبالتلقين تارة أخرى .

ويذهب بعضهم إلى القول ، بوجود المدارس عند الحضر من العرب في الجاهلية ، ويشيرون إلى وجود بعض الآثار التي تدل على ذلك . . ربما لا يخلو هذا من مبالغة ، لكن النقوش التي وجدها الباحثون ، تدل على وجود الكتابة ، كما تدل آلات الزراعة والعمارة على وجود علم وحساب ، وكما يدل الشعر الذي وصلنا ، على نفوس عالية وعقول مرهفة ، وكما تدل أخبار الحروب والأيام ، على بطولة وشدة . . فالحياة في الجاهلية ، (حياة الحضر وحياة البدو) ، كانت تخضع لبعض نظم في التربية والتعليم ، تساعد على إعداد الرجال والنساء للحياة ، وهذا كله من مطالب التربية .

أما التعليم فلا أستطيع أن أؤكد وجود المدارس ، ولكني أستطيع القول بوجود من يعلم ومن يتعلم ، وكان ذلك بالطبع مقصوراً على أمور أولية ، أساسها القراءة والكتابة وشيء من الحساب ، وأخبار الماضين ، ورواية الشعر ، والقصص . والظاهر أن ذلك كان يتم بطريقة بسيطة ، قائمة على طرفين (الذي يتعلم والذي يعَلِّم) ، ولا أقول التلميذ والمعلم ، لئلا ينصرف الذهن إلى المدرسة .

التعليم في الحضر

وقد جاءنا في أخبار الجاهلية ، شيءٌ عن أهل الكتاب ،

وعملهم كمعلمين لبعض العرب ، ولكنهم كانوا عادة يسكنون المدن ، وتأثيرهم في هذه الناحية يكاد يكون محصوراً في الحضر لا في البدو . وقد جاءنا أيضاً خبر الحنفاء ، الذين ظهروا قبل الاسلام ، فبعضهم كان يعرف القراءة والكتابة . وجاءنا أيضاً أن بعض التجار والزعماء ، كانوا يقرأون ويكتبون ، وهذا يفسر وجود بعض الكتّاب عند ظهور الاسلام ، ومنهم عمر وعليٌّ ومعاوية .

لكنه لا يجوز أن يحسب هذا ، دليلاً على وجود المدارس ، وانتشار والمعلمين والمتعلمين في الجاهلية . فوجود المدارس أمر يحتاج إلى إثبات ، مع أن فُشُوَّ الأمِّـيَّة فشوّاً فاحشاً في البادية ، أمر يكاد يكون الإجماع عليه تاماً . أما وجود بعض القادرين على القراءة والكتابة بين الحضر وبين بعض البدو ، فأمر لا يمكن نكرانه . هذا مع العلم بأن التربية الجاهلية ، كانت قوية في نواحيها المختلفة . فالعربي في الجاهلية كان قوياً في ذهنه ، قوياً في روحه ، قوياً في بدنه ، مع إفراطٍ سببه حياة البداوة ودواعيها . فلما جاء الاسلام وضع حدوداً لهذا كله ، ووجهه في وجهة الخير ، وبدأ عهد جديد في حياة العرب ، فيه تربية يعاونها تعليم ، وفيه تعليم أساسه تربية . وهذا التعاون بين التربية العربية ، والتعليم الاسلامي ، هو موضوع الفقرة التالية .

- ٢ -

الدين والأخلاق

سنتناول هنا ، بحث بعض مظاهر التربية والتعليم ، من ظهور الاسلام ، إلى انتهاء عهد بني أمية . وسيكون كلامنا ضمن النطاق الذي حددناه قبلاً ، وبحسب التعاريف التي وضعت لمصطلحات البحث . فالتربية هي إعداد الانسان للحياة إعداداً ، يتناول الجسم والعقل والروح . والتعليم هو أن يوصل المعلم المعرفة إلى المتعلم .

يتكوّن أساس تاريخ العرب من ثلاثة عناصر وهي : الدين الاسلامي ، والأخلاق العربية ، والمدنية الاسلامية العربية ، التي نشأت بالنقل والترجمة والإبداع . والبحث في التربية والتعليم ، في العصور الاسلامية ، له صلة وثيقة بنشوء الاسلام وانتشاره ، وبالأخلاق العربية ، وبالمدنية الاسلامية العربية في أدوارها المختلفة . فكانت التربية ، وكان التعليم ، يخضعان في أصولها ، وأساليبها ، وأغراضها ، لهذه العناصر الثلاثة . فالدين الاسلامي ، كان الباعث الرئيسي للتعليم في تاريخ العرب ، كما كانت الأخلاق العربية ، الأساس المتين للتربية ، وكما كانت المدنية الاسلامية العربية ، المادة الفيّاضة لهذه التربية ، وذلك التعليم .

الأساس الصحيح للتربية

جاء الاسلام ، فرفع شأن العلم ، وحثَّ على مكارم الأخلاق ، وشرع نظافة البدن وقوته . وهذه الأمور الثلاثة كما لا يخفي ، هي أساس كل نظام صحيح للتربية والتعليم . ولكني أرى ، أن أثر الاسلام في عهده الأول ، كان في ناحية التربية أولاً ، والتعليم ثانياً . والدليل على هذا ، أن انشاء المدارس جاء متأخراً ، وأن حركة تعليم القراءة والكتابة ، لم تكن عامة ، مع أن الرسول والخلفاء والأمراء وسواد الناس أيضاً ، كانوا لا يستبدلون بسموّ الخلق وشدّة التقوى ، والرجولة الكاملة شيئاً . فالتربية عندهم ، تجيء قبل التعليم في الأهمية .

نذكر كتب التاريخ ، أنه كان في العرب بضعة نفرٍ ، يعرفون القراءة والكتابة . ويفهم من صيغة هذا الخبر ، ومن القرائن الأخرى ، أن ذلك كان يعد من المؤهلات النادرة . وتذكر هذه الكتب أيضاً ، أن النبي (صلعم) ، جعل بدل فداء الذين يعرفون القراءة والكتابة من أسرى قريش ، تعليم عدد من المسلمين الأوَّلين ، القراءة والكتابة . وتدل هذه الرواية التاريخية ، على أمرين ، أولهما : فشوُّ الأمية بين المسلمين الأولين ، وعدم وجود من يعلمهم ، وثانيهما : اهتمام النبي (صلعم) ، بالقراءة والكتابة . ولا عجب في ذلك ، فالقرآن الكريم ، فيه آيات بليغة في الحثّ على طلب العلم .

جاء في التنزيل الحكيم : « يَرْفَعِ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُم والَّذينَ أُوتوا العِلْمَ دَرَجاتٍ » . وقال تعالى : « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والملائِكَةُ وأُولُو العِلْمِ قائِماً بِالقِسْط » . ففي الآية الأولى ، قُرِنَ بالإيمان بالله ، وفي الآية الأخرى ، جاء ذكره اللمِ بعد الله سبحانه وتعالى والملائكة . وهذا كله رفع لشأن العلم والعلماء .

وجاء من ذلك في الحديث الشريف : « العلماء ورَثَـةُ الأنبياء » . وقال (صلعم) : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك به طريقاً من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » . وقال (صلعم) : « من عرف نفسه عرف ربَّه » . ولا يخفي أن صفة (العلم) هي من الصفات التي يتصف بها الخالق سبحانه ، في القرآن الكريم . وكما لا يخفي أن (العلم) هو أهمُّ الصفات التي أجمع المؤ رخون على إطلاقها ، على سيدنا عليٍّ ، أقرب المقرَّبين إلى النبي (صلعم) .

مبدأ العلم

كان مبدأ طلب العلم قراءة القرآن الكريم ، وحفظ آياته ، وفهم معانيه . وهذا في رأيي ، هو مبدأ التعليم ، وتوجيه جديد للتربية في تاريخ العرب . وأثبت ذلك بالرجوع إلى حقيقتين

تاريخيَّتين ، الأولى تدوين القرآن ونشره ، والثانية عمل القرّاء ـ حفظة القرآن الكريم ـ في نشر العلم والتعليم . وإني أعد القرّاء ، أول المعلمين في تاريخ الاسلام ، لأنهم كانوا يعلمون الناس قراءة القرآن أو استظهاره . إن الخلفاء الراشدين ، يرسلون إلى الأمصار المفتوحة ، يعلمون الناس القرآن الكريم . بالتلقين والحفظ أولاً ، ثم بهما مع الكتابة ثانياً . وأقدم نصٍّ يشير إلى ما فعله عمر ، (رضي الله عنه) ، في السنة السابعة عشرة للهجرة . لكنه لم يثبت أنّ كل قارىء منهم كان كاتباً أيضاً ، إذ كان القارىء في الحقيقة حافظاً قبل كلِ شيء . أما مقدرته على الكتابة ، فشيء محمود إذا كان حاصلاً ، ولكن عدم حصوله ، لم يمنع القارىء من التلاوة والحفظ .

أول المعلمين وأول المدارس

وعلى هذا فتدوين القرآن الكريم ، يعد من أهم الأعمال الدينية والعلمية ، في تاريخ الاسلام ، لأن استشهاد كثير من القراء في الحروب ، ترك مجالاً للاختلاف في الرواية ، فكتب القرآن الكريم ، في زمن عثمان (رضي الله عنه) وأرسلت منه النسخ إلى الأمصار . وكان هذا مبدأ حركة طلب العلم ، والاهتمام بالكتابة .

نرى أن القرَّاء أول المعلمين ، ونرى كذلك أن الجوامع أول المدارس ، في تاريخ الاسلام ، فكان القرَّاء يتلون القرآن ، على الراغبين في العلم ، في المكان المخصص للصلاة ، ويعلمون القراءة والكتابة لمن شاء ، في أي مكان آخر أي إنه ربما يصح إطلاق إسم المدرسة ، على كل بيت أو مكان يجتمع فيه الذي يتعلم ، والذي يعلم لهذا الغرض . ولكن تعليم القرآن ، أو تعليم القراءة والكتابة أو غير ذلك ، من الحساب أو الشعر أو القصص ، كان يتم دون نظام معروف . والظاهر أن التعليم ، كان مجَّاناً لوجه الله ، في أوائل صدر الاسلام ، ولا نجد رواية عن الأجور والتكسب ، إلا في الأدوار التي جاءت بعد ذلك .

التعاليم والعادات

فالتعليم في زمن الرسول (صلعم) ، والخلفاء الراشدين ، (رضي الله عنهم) كان إذاً يتناول ناحيتين ، الأولى : حفظ القرآن الكريم وتلاوته وفهم معانيه ، والثانية : القراءة والكتابة ومبادىء الحساب والشعر والقصص . أما التربية ، فكانت خاضعة لتعاليم الاسلام من جهة ، ولعادات العرب من جهة أخرى . وأساسها : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمروءة وضبط النفس والكرم ، والعفو عند المقدرة . . كان يمكن أن يتعلم المسلم العربي ، القرآن الكريم ، والقراءة

والكتابة ، في الجامع أو في البيت ، ولكن تربيته كانت تعتمد على القدوة والمحاكاة ، ـ القدوة برسول الله (صلعم) ، ومحاكاة خلفائه وأصحابه . وإذا قيس نظام التربية والتعليم بنتائجه ، جاز لنا أن نقول ، إنَّ المبادىء البسيطة ، التي سادت عصر الخلفاء الراشدين في هذا الباب ، نشأ عنها خير النتائج . . . صحيح أنها لم تنتج العلماء الكبار ، ولكنها أنتجت الرجال الكبار .

تعلم النطق الصحيح

ونرى في الانتقال إلى العهد الأموي ، شيئاً من التقدم في ناحية التعليم ، ولكن نلحظ شيئاً من الاضطراب في التربية . وتذكر المصادر ، أن خلفاء بني أمية كانوا يهتمون اهتماماً خاصّاً ، بتربية أبنائهم وتعليمهم . فمثلاً كانوا يرسلون الصبي إلى الصحراء ، ليتعلم النطق بالعربية الصحيحة ، وليتعود حياة الشدة والقوة . وكانوا يعينون (المؤدب) ، ليقوم على تعليم الصبي ، القرآن الكريم ، والقـراءة والكتابـة ، والحساب والقصص والشعر . ويجد الباحث في كتب الأدب والتاريخ كلمة (كتّاب) ، ويرجع بها مؤلفو هذه الكتب ، إلى أوائل القرن الثامن للميلاد ، أي المدة الأخيرة لبني أمية . ويذكرون كذلك ما يدلُّ على ظهور المعلم المحترف ، والمعلم المتكسّب .

الكتاب والمؤدب

ونجد ما يدل على أن أبناء الخاصة ، كانوا ينالون قسطاً لا بأس به من التعليم ، مع شيء من التهذيب والتربية ، يتناول النواحي الثلاث في الحياة ـ (الناحية الروحية والعقلية والبدنية) . ونجد أيضاً ، ما يدل على أن الناس إجمالاً ، كانوا يعنون بتعليم أبنائهم ، وتهذيبهم ، وتربيتهم ، عناية كافية . فوجود (الكتّاب) و (المؤدِّب) ، وذكر الأجرة ، يدل على أمرين ، الأول رغبة الناس في التعلم ، واستعدادهم لدفع المال في هذا السبيل ، والثاني ظهور الرغبة في طلب العلم الدنيوي ، ابتغاء لمنافع دنيوية ، لا إبتغاء لوجه الله فقط . وفي هذا ، ما يدل على إتساع نطاق التعليم ، في عهد بني أمية ، عما كان عليه في زمن الرسول والخلفاء . وذلك طبيعي ، أولاً لأن حياة العرب في خارج الجزيرة ، كانت حياة مدنيةٍ تتطلب القراءة والكتابة ، وثانياً لأن بني أمية ناصروا السيادة العربية دون السيادة الاسلامية ، فكان لا بد لهم من الالتفات إلى الدنيا ، أكثر من الالتفات إلى الدين .

ـ ٣ ـ

تقدم واضطراب

أشرنا إلى نقطة طريفة ، وهي التقدم الدي يلاحظه الباحث في التعليم ، والاضطراب الذي يصادفه في التربية ، كما كانا في

عهد بني أمية . وسيكون همّنا أن نشير إلى موطن ذلك التقدم ، وهذا الاضطراب . فمن مظاهر التقدم في التعليم ، وضع قواعد الخط العربي ، واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة ، وظهور طبقة من الناس ، اتخذت (تعليم الصبيان) عملاً لها . ومن مظاهر الاضطراب في التربية ، سياسة بني أمية ، في إيثار العنصرية العربية ، وما نشأ عن ذلك من فرق سياسية ودينية ، مختلفة في مُثُلِها وغاياتها ، وما دخل على العرب من آراء ، جاءتهم عن طريق الروم والعجم .

الخط العربي

إن نشوء الخط العربي ، أمرٌ غامض في التاريخ ، لكن الشائع عند كتّابهم ، أن الخط الذي عرف في الحجاز ، قبل ظهور الاسلام ، منقول عن أهل الحيرة والأنبار ، ويرجع بأصله إلى الخط المسند . ومن هذا الخط الحجازي ، نشأ الخط الكوفي بعد الاسلام ، وهو يمتاز عن الحجازي ، بتجويد شكله وهندسة حروفه . ومن هنا كان الخط الحجازي يستعمل في الكتابة العادية ، والكوفي في الكتابة الزخرفية .

وأشهر الذين كتبوا في صدر الاسلام أربعة ، وهم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد

الرحمن بن الحارث بن هشام . وهم الذين كتبوا المصاحف لعثمان (رضي الله عنه) . وكانت الكتابة بلا إعجام (أي تنقيط) ولا شكل ، إلى أن وضع أبو الأسود الدؤلـيّ ، العلامات للشكـل ، وإلى أن وضعت بأمـر الحجاج نقط الإعجام . .

والشائع أن ذلك تم في خلافة عبد الملك بن مروان . ولا عجب أن يكون للحجاج يد في ذلك ، فقد اشتغل بتعليم الصبيان ، ورأى صعوبة عدم التنقيط ، للمعلم والمتعلم على السواء ، كما لا عجب أن يكون لأبي الأسود الدؤلي ، يد في وضع الشكل ، لما هذا من علاقة بالنحو .

ضبط الكلام

وجاء بعد تحسين الكتابة (الخطّ) ، ضبط الكلام العربي ، بوضع القواعد له . والمعروف أن أبا الأسود الدؤلـيّ بدأ ذلك ، ويقال إنه تعلمه من عليّ (رضي الله عنه) ، وكان ذلك بالبصرة ، ثم ظهر مثله في الكوفة . وحركة درس قواعد اللغة هذه ، هي أصل المذهبين المشهورين في النحو ، مذهب البصريين ، ومذهب الكوفيين .

إنَّ ضبط الخط العربي ، ووضع القواعد للُّغة العربية ، يعد

في نظري من أهم الخطوات الكبرى ، في تقدم التعليم في تاريخ الاسلام . فهذا سهَّل مهمة المعلم والمتعلم ، ونشط حركة التدوين ، وأعان ما تم من نقل وتأليف . ولا يخفي أن وجود الكتابة ، هو أساس كل نظام للتعليم ، بخلاف التربية التي لا ضرورة لازمةً للكتابة فيها .

العربية لغة الدواوين

أما اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، فهو أيضاً من أهم الخطوات الكبرى ، في تقدم التعليم في هذا الدور . . جاء العرب إلى الشام والعراق ومصر ، فأبقوا الناس على ما هم عليه . وبلغ بهم التسامح ، أن جعلوا سجلات دولتهم ، بأيدي كتَّاب من الروم والكلدان والقبط ، يكتبونها بلغة البلد ، وبحسب ما تعوده في زمن سادتهم السابقين . واستمر العرب على هذه السياسة ، إلى زمن عبد الملك بن مروان ، فأمر أن تكون لغة دواوين الدولة ، باللغة العربية دون سواها . ونرى لهذا التغيير سببين ، الأول تنفيذ سياسة بني أمية ، وهي إعلاء شأن العرب بإعلاء شأن لغتهم ، والثاني إتساع نطاق الدولة ، واتخاذها صورة مدنية ، لا غنى فيها عن الكتابة بلغة الملك .

ليس من الهين إلقاء القول جزافاً ، ولكن لو تقدم هذا

القرار ، باتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، لتقدم ضبط الخط العربي ، ووضع قواعد اللغة ، ولتقدمت أيضاً حركة التدوين ، ولتقدمت أيضاً نهضة الترجمة والتأليف . أي كان بالامكان ، أن يطول عمر الثقافة العربية والمدنية الاسلامية ، وأن تنشأ المدارس ، وتقوم حركة التأديب والتعليم ، مباشرة بعد ظهور الاسلام ، أو حالاً عند خروج العرب من الجزيرة . . من هذا تظهر الأهمية الكبرى ، التي نعلقها من وجهة التربية والتعليم ، على إتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، في دولة بني أمية .

التعليم

أما المظهر الثالث من مظاهر التقدم ، فهو وجود طبقة من (معلمي الصبيان) . وذهب بعض الباحثين ، إلى أن معظم المعلمين في صدر الاسلام ، كانوا من الموالي . ويقولون إنَّ سبب ذلك ، اشتغال العرب بالحرب ونشر الاسلام ، واحتقارهم المهن والحرف . ولا نتردد أبداً في رد هذا الرأي ، ففيه مخالفة للحقائق التاريخية من جهة ، وفيه تفسير خاطىء لها من جهة أخرى .

لا ننكر أن بعض الخاصَّة من الخلفاء والأمراء في الشام ، قد اتخذوا مؤدِّبين لأولادهم . ولا ننكر أن عدداً من الذين اشتغلوا بتعليم الصبيان في صدر الاسلام ، كانوا من الموالي من غير

ألعرب ، وبعضهم كانوا من النصارى أو اليهود العرب . ولكن عمل هؤلاء ، كان يقتصر على الناحية المدنية ، أي تعليم القراءة والكتابة والحساب ، وقليل من الشعر والأخبار .

التربيــة

أما التربية والتثقيف والتهذيب ، فكانت كلها موكولة إلى القرّاء ، ـ قرّاء القرآن الكريم . . وهذه هي الناحية الدينية للتربية والتعليم في هذا الصدر . وهذا التمييز بين الطبقتين من المشتغلين بالتعليم والتهذيب ، يفسر التضارب بين آراء المؤلفين الكبار في قيمة المعلم .

فالنوادر التي يذكرها الجاحظ عن المعلمين ، لا يمكن أن تكون موجهة لأناس كانوا يعلمون القرآن الكريم . وأقرب إلى الصواب والمنطق ، أن نقول ، إن الناسٍ كانوا يتجرّأون بمثل ذلك على المعلمين ، من الموالي وأهل الكتّاب ، دون غيرهم .

وتذكر كتب الأدب والتاريخ ، أسماء رجال كبار ، اشتغلوا بتعليم الصبيان ، منهم القائد الكبير الحجّاج بن يوسف ، والكاتب الشهير عبد الحميد الكاتب ، والروايـة القارىء أبو عمرو بن العلاء . فهذه الطبقة من المعلمين ، هي التي يصفها إبن خلدون في كلامه عن المعلمين بقوله عن أهل الأنساب والعصبية : أنهم لا ينطبق عليهم ، ما كان الناس

يتناقلونه عن حمق المعلم وقلة عقله . ويدل على ذلك ، أن الحجاج ، وهو قائد كبير ، قد عُـيِّـرَ بأنه كان يوماً معلماً ، أي من هذه الطبقة الموصوفة بتلك الصفات . .

وسائل التربية

أما مظاهر الاضطراب في التربية في هذا الدور ، فأولها ما نشأ عن سياسة الدولة . . تكاد وسائل التربية والتعليم في الجاهلية ، تنحصر في الشعر ، والأخبار ، والعرف البدوي في السلوك ، والحروب ، والأيام . وتكاد تكون وسائل التربية والتعليم ، في زمن الرسول والخلفاء الراشدين ، تنحصر أيضاً في القرآن الكريم ، والقدوة بالرسول والصحابة ، والشعر والأخبار . أما في عهد بني أمية ، فتكاد تكون محصورة في أخبار الجاهلية وأشعارها ، والعُرف العربي في السلوك ، والقرآن الكريم . أي أن بني أمية ، رجعوا بالتربية ـ إلى الجاهلية ، في كثير من مُثُلِها ووسائلها .

كان من نتائج السياسة التي سار عليها بنو أُمـيّة ، أن نشأت أحزاب أخرى ، دينية وسياسية ، تسعى لتثبيت مُثُل الاسلام . ونذكر من هذه الأحزاب أو الفئات : القرَّاء ، والزُّهَّاد ، والخوارج .

زيادة الاضطراب

واستمر كثير من الصحابة والتابعين ، حفظة القرآن الكريم والحديث الشريف ، يعلمون الناس ويهذبونهم . وظهرت طبقة من الزهاد ، هـمُّـهم الابتعاد عن الدنيا ، ودرس القرآن ، وتأويل معناه ونشره . وقامت فرقة الخوارج ، ولها مبادىء دينية وسياسية ، تنشرها بالتعليم تارة ، وبالسيف تارة أخرى . فكثرة الأحزاب والفرق ، زادت في اضطراب طرق التربية والتعليم ، ومثلهما في زمن بني أمية .

لكنه يظهر ، أن أهمَّ غايات التربية والتعليم ما يأتي :

أولاً : مقدرة على القراءة والكتابـة ، ومعرفـة بالشعـر والأخبار . ولهذا فإنه يروى عن عبد الملك ، انه كان يتردد في تولية الوليد بعده ، لأنه كان لا يعرف النحو .

ثانياً : ركوب الخيل ، والرِّماية ، والسباحة ، ولهذا كانوا يرسلون أبناء الخلفاء إلى الصحراء ، ليتعودوا حياة القوة والشدة ، والنطق باللسان العربي الصحيح ، كما فعل معاوية بابنه يزيد .

ثالثاً : معرفة الحلال والحرام ، بحسب العُرْف الجاهلي والعُرْف الاسلامي .

حدثان مهمّان

تمَّ في زمن بني أمية أمران مهمان من حيث البحث في التربية والتعليم ، وهما إدخال الشكل والتنقيط في الكتابة ، وجعل اللغة العربية دون غيرها ، لغة الدولة . وقد ساعد هذا ، حركة التدوين والنقل والتأليف ، التي أينعت في زمن بني العباس . لكنه لا يصحُّ أن نعزو ظهور هذه كلها ، إلى الدور العباسي . فهذا لم يحدث طفرة دون تطور . والمشهور أن شيئاً من التدوين قد تم في زمن بني أمية ، وأن الناس كانوا يبحثون في أخبار العرب ، وأن (إبن شرية) كان همُّه أن يلبس قصص الجاهلية ، حلة جديدة ، ويرويها في المجالس ، وأن طبقة من المسلمين ، كان لا يلتقي الواحد منهم بالآخر ، دون أن يسأله رواية حديث عن رسول الله (صلعم) . فالنشاط الذي يلاحظه الباحث ، في أول عهد بني العباس ، له مقدِّمات في أواخر عهد بني أمية .

كذلك يظن بعض الباحثين ، أن بني أمية ، أعرضوا عن درس القرآن الكريم والحديث ، وأن همهم كان تقصّي أخبار الجاهلية ، والمفاخرة بأعمال الغابرين من السَّلف ، وإغراء الشعراء بعضهم ببعض ، والابتعاد عن العلوم والحِرَف . . صحيح أنه لم يظهر في دولة بني أمية نهضة علمية ، لا في الناحية الشرعية ، ولا في الناحية العقلية ، وكاد يقتصر عملهم ، على

إحياء آثار الأدب العربي الجاهلي ، وتشجيع نمط من الأدب في الشعر والنثر ، يكاد يكون جاهليّاً . . لكن الحقيقة ، أنَّ لبني أمية ، فضلاً لا ينكر ، في بدء درس العلوم الشرعية ، وعلوم اللسان العربي .

الدراسة الدينية

يجد الباحث كثيراً من الحقائق التي تثبت هذا ، فمن نتائج إصلاح الخط العربي ، واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، ظهور حركة مهمة ، تناولت درس القرآن الكريم والحديث الشريف واللسان العربي . وكان ذلك تحت رعاية الحجاج بن يوسف ، في البصرة ثم في الكوفة . إذ المشهور ، انه بعد أن استتب الأمر للحجاج في العراق ، وجَّه قسطاً من عنايته ، إلى صناعته القديمة ، وهي التعليم ، فنشأ درس النحو ، وكثر البحث في فهم معاني القرآن وتأويله ، وذهب بعضهم إلى ضرورة تدوين الحديث . وهناك رواية تقول بأنه دوِّن فعلاً .

الترجمة

وجامع البصرة مشهور بهذا الأمر . ففيه كانت تقام حلقات البحث والمناظرة والدرس ، وإلى هذه الحلقات ، يرجع أصل

كثير من الفِرَق الدينية والأدبية . ومجالس الحسن البصري فيه ، مشهورة لا تحتاج إلى تعريف ، وذكر رابعة العدوية ، وفرط زهدها وعلمها ، سارت به الرُّكْبان . وهذا كله تم في أواخر عهد بني أمية ، ولو طال لهم الزمن ، لظهرت نتائج هذه الحركات في عهدهم ، ولأصابهم شيء من فخر الابتداء . وهناك نقطة أخرى لا يجوز اغفالها ، وهي الترجمة إلى العربية . وقيل أن أول ما ترجم إليها من لغات الأعاجم ، كان بأمر من الأمير الأموي خالد بن يزيد ، فقد ترجمت له كتب في الكيمياء من اليونانية والقِبْطية ، وكتب هو ثلاث مقالات في الموضوع نفسه . . فالنهضة العلمية التي نعرفها في عهد بني العباس ، لم تنشأ دفعة واحدة ، بل كانت لها مقدمات ، جاءت في زمن بني أمية .

التأليف

بلغ بنو العباس بالتدوين والترجمة والتأليف والبحث والمناظرة ، درجة عالية ، ولم يكن أمر طلب العلم في زمنهم ، مقصوراً على فئة دون أخرى ، بل اشترك فيه كلُّ الناس ، من الخليفة إلى بدوي الصحراء ، وكان للنساء في ذلك نصيب غير قليل . ويشبه هذا القرن (الأول) من عهد بني العباس عهد (النهضة) في أوروبا الحديثة ، من وجوه كثيرة ، أهمها : بعث العلوم القديمة والدرس والبحث .

وساعد نشاط هذه الحركات ، أمران : الأول : سياسة بني

العباس التي كانت إسلامية في الدرجة الأولى ، وعربية في الدرجة الثانية . والثاني : ازدياد الثروة ، وتعلق الناس بالجاه . فالمعروف أن بني العباس ، شجعوا الفرس ، وقربوا إليهم رجال الدين ، دون تمييز بين عربي وغير عربي . والمعروف أيضاً أن ثروة الناس في زمن بني العباس ، كانت من أهم العوامل التي دفعتهم إلى طلب العلم ، توصُّلاً إلى السلطان ، أو تقرباً إلى الله ، أو تجملاً في هذه الدنيا .

التعليم والوظيفة

كان من أغراض التربية والتعليم ، في القرن الأول من حكم بني العباس ، ما يلي : أولاً : التوصل إلى المناصب العالية في الدولة ، لأنه أصبح يحتاج فيها إلى معرفة علوم الدين وعلوم الدنيا معاً . ثانياً : الحصول على الجاه والثروة . وثالثاً : طلب العلم لذاته . . وكان التنافس في هذه الأبواب شديداً ، لأن المجال قد اتسع بدخول الموالي فيه ، وهم أسبق من العرب إلى معرفة العلوم ، ولا يقلُّون عنهم مقدرة في تحصيل علوم اللسان العربي والعلوم الشرعية .

كل هذا شجع النهضة العلمية . وفي مدة قرن من حكم بني العباس ، نضجت حركة تدوين العلوم الشرعية ، وحركة تدوين العلوم اللسانية ، وصار المتعلم لا غنى له عن درس التفسير والقراءات والحديث والفقه والكلام من الأولى ، والنحو

واللغة والبيان والأدب من الثانية . وجاء مع ذلك وبعده ، نقل العلوم القديمة ، من فلسفة وهندسة وموسيقى وطبٍّ وكيمياء ، وعاصر كل ذلك نشوء الفرق وتطورها ، أمثال الخوارج والشيعة والمرجئة والزهاد والمتصوفين ، ولكل فرقة ناحيتها الدينية والعلمية ، ولها كتبها وكتّابها ، ولها طريقتها في نشر دعوتها وتعليم أتباعها .

طلب العلم

لا يمكن البحث في التربية والتعليم في هذا الدور ، دون الاشارة إلى حركة طلب العلم ، التي ابتدأت بالتدوين ، فالترجمة ، فالتأليف ، وبدت بوادرها في احتراب الأحزاب الدينية والفلسفية والسياسية . وكان طلب العلم في البدء ، يتناول العلوم الدينية واللغوية ، ثم تناول غيرها من العلوم الدخيلة . ولهذا كانت الثقافة الاسلامية العربية ، مزيجاً من علوم المسلمين والعرب ، ومن علوم الأقدمين . وقد انعكس ذلك كله ، على مرآة التربية والتعليم ، فلم يكتف الناس بآثار العرب ، ومثل الاسلام ، بل أراد كل متعلم ، أن يكون له نصيب من الثقافات الجديدة .

فالمعلم الذي كان يقصر همه على تعليم القراءة والكتابة والحساب وشيء من الأخبار والقصص ، أصبح لا شأن له ،

وصار الناس يتطلعون إلى المعلم الكبير ، الذي يعرف القرآن والحديث ، كما يعرف اللغة والأدب ، وكما يعرف الفلسفة والكيمياء . . هذا هو الاتجاه العام ، ولكنه كان يحدث ، أن تعادي فرقة نوعاً من أنواع العلوم ، وتحارب أصحابه ، وتسعى للقضاء عليه ، بواسطة سلطان الدولة أو غيرها .

المعلم والمتعلم

ويظهر أن التعليم أصبح علاقة روحية بين المتعلم والمعلم ، وأنَّ من أغراضه ، أن ينال المتعلم قسطاً كافياً من الثقافة العامة ، لا نوعاً خاصاً من المعرفة . والبحث في الأجور ، التي كان يأخذها بعض المعلمين ، لا يمنع من صحة هذا الرأي ، لأن الأجور ، كانت مسألة شخصية ، تتوقف على المعلم ، وحاجته إلى المال ، ورغبته في جمعه .

ويظهر أيضاً ، أن التعليم كان خاصاً لا عاماً ، بمعنى أن الأسلوب والمادة والنتيجة ، ـ كانت كلها تتوقف على مقدرة المعلم وثقافته ، واستعداد تلميذه ، لا على شيء آخر ، مثل الرقابة التي تقوم بها الدولة أو غيرها ، أو البرامج التي تضعها بعض المدارس ، أو الشهادات التي تصدرها ، إذ نعرف على سبيل التحقيق ، أن الدولة لم تقم على مراقبة التعليم ، ولم تضع

البرامج ، ولم تصدر الشهادات ، باسمها أو بإسم ديوان من دواوينها .

التعليم العالي

والغريب أن هذه الملاحظة ، تنطبق على جميع أدوار التعليم ، من الابتدائي إلى درجة المدرسة الجامعة ، إن صح إطلاق هذه الأسماء ، على ما كان من تعليم في تلك الأيام . والغريب أيضاً ، أن الاهتمام بالتعليم العالي ، كان أشد من الاهتمام بالابتدائي . ويخيَّل إليَّ أن نظام التعليم ، نشأ نشأة معكوسة ، أي بدأ بالعالي ، قبل الابتدائي ، أو معه ، في الوقت نفسه ، أو قل إن شئت ، أن الاهتمام ، كان يوجه إلى التعليم العالي ، أما التعليم الابتدائي ، فكان يتم كيفما اتفق الأمر .

مواصفات المتعلم

أما التربية فصارت مركبة في هذا الدور من حكم بني العباس ، لما دخل على نظام الحياة السياسية والاقتصادية والعقلية ، من نظم جديدة . فالمتعلم المثقف المربى ، هو الذي يعرف القرآن والحديث واللغة ، وهو الذي ضرب بسهم وافر ، في العلوم الحديثة ، وهو الذي يعرف الأدب ، ويستطيب الغناء ، ويلعب الشطرنج ، وهو الـذي يحسن الحديث ،

وتصريف الكلام ، وهو الذي طاف بالبلدان ، طلباً للعلم والاختبار ، وهو الذي يجمع الكتب وينسخها .

وقد أشرنا إلى أنه لا يجوز أن نقسم التعليم في القرن الأول من دولة بني العباس ، إلى الأقسام التي نعرفها اليوم ، مثل الابتدائي والثانوي والعالي . والسبب في ذلك ، أن التعليم لم يكن له نظام معروف ، وتتوقف درجته ومادته ونتيجته ، على مقدرة المعلم ، ورغبة المتعلم . فالذي كان يعلمه الحسن البصري ، يغاير الذي كان يعلمه الخارجي ، وهذا يغاير الذي كان يعلمه المتصوف . . . وهذا يثبت ما ذهبت إليه ، وهو أن التعليم ، علاقة روحية بين المتعلم والمعلم ، فالمتعلم لا بد أن يكون من مذهب المعلم ، جاء من تلقاء نفسه ، رغبة في تلقي العلم ، الذي يريد أن ينشره معلمه .

أساس كل العلوم

ليس من المبالغة في شيء ، أن يقال إن القرآن الكريم ، أساس كل ما ظهر في تاريخ العرب والاسلام ، من حركات لغوية وفكرية . فدرس العلوم اللسانية ، وظهور العلوم الشرعية ، والحاجة إلى العلوم الدخيلة ، ـ ترجع إلى ضرورة فهم القرآن الكريم ، وتفسير أحكامه ، والدّفاع عن مبادئه . ونتج من هذا كله ، حركة التدوين والترجمة والتأليف . وهذه

الحركة بدورها ، أنتجت الفرق الدينية والفكرية ، والجمعيات الأدبية والفلسفية ، والمذاهب والنِّحَلَ ، التي تختلف في أصولها وفي أغراضها . وهذا وذاك يستدعي ، كما لا يخفي ، نشر العلم والمعرفة بين الناس ، ووجوده يدل على إقبال الناس على التعلّم والفهم . . هذا مجمل ما كان في القرن الأول من دولة بني العباس ، وهو القرن الذي نعالجه الآن ، من وجهة التربية والتعليم في هذا الحديث . وإن جاز وصفه بجملة واحدة قلنا ، نهضة في تحصيل العلم ، وتعطش إلى إحراز المعرفة ، وهي تكاد تكون مقصورة على علوم اللسان العربي ، والعلوم الشرعية ، مع شيء إبتدائي من علوم الأمم القديمة .

الورق والتعليم

وقد ساعد نشاط هذه الحركة ، أمر مهم ، وهو ظهور الورق . فالمعروف أن الناس إلى أوائل القرن الثالث للهجرة ، كانوا يكتبون على الرُّقوق والجلود والأنسجة أو نحوها ، وهذا يفسر المبالغة الظاهرة ، في وصف مكاتب بعض مشاهير الأدب والشعر ، فقد قيل مثلاً ، إن كتب أبي عمرو بن العلاء ، كانت تملأ بيته إلى السقف ، فراح بعضهم ينقص من قيمة هذه الرواية ، مع أنه لا غرابة فيها ، إذا كانت تلك الكتب مكتوبة على أنسجة أو رقوق ، ففي هذه الحالة قد لا يتجاوز عددها بضع المئات . .

كان ظهور الورق ، من أهم عوامل نشاط النهضة العلمية ، إذ سهل نسخ الكتب ونقلها ، وأمكن الحصول على عدد وافر منها ، للراغبين فيها ، في مختلف الأمصار . والظاهر أن الورق جاء إلى العراق من الصين ، ولكن لم تلبث البلاد الاسلامية الأخرى ، أن تعلمت صنعه .

ويقال إن بعض الأسرى من الصين ، علموا أهل سمرقند صنع الورق ، في السنة الأولى أو الثانية من حكم بني العباس . ثم انتقلت صناعته إلى العراق في زمن البرامكة . والظاهر أيضاً أن جعفراً البرمكي قد استعمل الورق في دواوين الحكومة ، بدلاً من الرقوق ، وأصبح صنع الورق بعد هذا ، أمراً عاماً في مختلف أنحاء بلاد العرب .

الكاغد والقرطياس

إن كلمة (كاغد) ، هي أقدم كلمة في اللغة العربية ، للدلالة على الورق ، ويظن بعض الباحثين ، أنها من أصل صيني ، دخلت إلى العربية عن طريق الفارسية . أما كلمة (قِرْطاس) ، فهي من أصل يوناني ، نشأت من الاسم الذي كان يطلقه أهل مصر ، على ما كانوا يصدرونه للبلاد المتكلمة باليونانية ، من ورق البردِيِّ ، المعروف عند هؤلاء باسم (قراطيس) .

شرحنا مسألة ظهور الورق من ناحية أهميتها في نشر التعليم ،

وسنشير الآن إلى أهميتها من ناحية أخرى ، تتعلق بالتربية والثقافة إجمالاً . وتفصيل ذلك ، أنَّ كتب الأدب والتاريخ ، تذكر (الورَّاقين) كثيراً . ويفهم من تكرار ورود هذا الاسم ، أن صناعة مهمة نشأت بنشوء النهضة العلمية ، وهذه الصناعة تتعلق ببيع الورق ، ونسخ الكتب ، ونشرها في الأمصار ، وإعارتها للقراء .

مجالس الورّاقين

ويُستدل من القرائن ، أن العلماء والباحثين ، كثيراً ما كان يلتقي الواحد منهم بالآخر ، عند الورَّاقين . والذي يظهر لي ، أن أماكن الورَّاقين كانت من العوامل الفعّالة في ثقافة العلماء ، وتربية من يتصل بهم . ففي هذه الأماكن ، كانوا يتناظرون ويتدارسون ، يسمعهم من شاء ، ويشاركهم في الحوار من له المقدرة والرغبة . وأهم مثال على ذلك الحوار المشهور عن أصل (أخوان الصفا) وقيمة رسائلهم ، فإنه تم كما يقول القفطي ، (بحضرة الوارقين بباب الطاق) ببغداد . قلنا إنَّ أثر الوارقين كان ظاهراً في التربية ، ولم نذكر شيئاً عن التعليم تعمداً ، وذلك لأن المفروض في الذي يغشى أماكن الوراقين ومجالسهم ، أن يكون متعلماً ، نال قسطاً كافياً من العلوم اللسانية والشرعية ، تمكنه من المناظرة والبحث .

أين تعلم الأوائل

أشرنا إلى حركات التدوين والترجمة والتأليف ، وحلقات البحث والمناظرة ، وإقبال الناس على التعليم ، واهتمامهم الظاهر بطلب العلم ، والحصول على أكبر قسط من الثقافة . كل هذه المظاهر والحركات ، أنتجت كثرة من كبار العلماء ، في مختلف فروع المعرفة ، ازدان بهم القرن الأول من حكم بني العباس . فأين تعلم هؤلاء ؟ وما هي عوامل تثقيفهم وتربيتهم ؟ سنحاول أن نجيب على هذا السؤال ، ولا ندَّعي أننا مصيبون كلَّ الاصابة في الجواب ، إذ الأمر مسألة رأي وتفسير ، يختلف فيهما الناس كثيراً .

الكتّـاب

كانت وسائل التعليم في القرن الأول من حكم بني العباس ما يأتي :

أولاً : الكتَّاب أو المكتب (والجمع كتاتيب ومكاتب) . وقد اختلف اللغويون في دلالة هذا اللفظ أو ذاك .. جاء في اللسان : « الكتَّاب موضع تعليم الكتَّاب ، والجمع الكتاتيبُ والمَكاتِبُ » . وقال المُبرّد : « المكتب موضع التعليم ، والمكتب المعلّم ، والكتَّاب الصبيان . ومن جعل الموضع الكتاب فقد أخطأ » .. ومع هذا فالظاهر من النصوص الكثيرة ، أن كلمة

كتّاب وكلمة مكتب ، استعملتا للدلالة على المكان الذي كان يتعلم فيه الصبيان .

صورة شعرية للمعلم

والظاهر من هذه النصوص أيضاً ، أن بعض المكاتب ، كان لتعليم مبادىء القراءة والكتابة والقرآن الكريم ، وبعضها كان يعلم فيه اللغة وما إليها . وكان بعض المكتبين أو المعلمين ، من أهل العصبية والأنساب ، كما يصفهم إبن خلدون ، يعلمون حسبة ، ولا يأخذون على تعليمهم أجراً ، وبعضهم كان يأخذ أجراً ، قد يكون أحياناً خبزاً ، كما ورد في هجاء بعضهم للحجاج . وكان المعلمون ، كدأبهم في هذه الأيام ، يضربون الصبيان . وأحسن شاهد على ذلك ما قاله أبو نواس :

إنني أبصرت شخصاً ... قد بدا منه صدودُ
جالساً فوق مُصَلّى ... وحواليه عبيدُ
فرمى بالطَّرْفِ نحوي ... وهو بالطَّرف يصيدُ
ذاك في مكتب حفص ... ان حفصاً لسعيدُ
قال حفص إجلدوه ... إنَّه عندي بليدُ
لم يزل مذ كان في الدر ... س عن الدرس يحيدُ
كشفت عنه خُزُوز ... وعن الخزِّ برودُ

ثم هالوه بسير لين ما فيه عودُ
عندها صاح حبيبي: يا معلم لا أعودُ
قلت يا حفص أعف عنه إنه سوف يجيدُ

هذه صورة لطيفة للمعلم والكتّاب . لكنه لا يجوز أن نستنتج من هذا ، ومن الوصف الذي سبقه ، أن الكتاتيب كانت على نمط واحد . فالثابت أنها كانت تختلف بعضها عن بعض ، في مقدرة المعلم وغرضه من التعليم ، وتناول الأجر . وهو طبيعي في نظام لا تشرف عليه دولة ، ولا يتبع فيه مبدأ خاص .

المسجد

ثانياً : المسجد . ـ روى البخاري ، عن أبي واقد الليثي قال ، « بينا رسول الله (صلعم) جالس في المسجد ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله (صلعم) ، فوقفا على رسول الله (صلعم) ، فرأى أحدهما فرجة في الحلقة ، فجلس ، وجلس الآخر خلفهم » .

من هذا ومن كثير غيره ، يظهر أن المسجد كان من أوّل الأمر مكاناً للتعلم والتثقف . ففي المسجد تقام الاجتماعات العامة ، وتلقى الخطب ، ويتقاضى الناس ، ويتعلمون العلوم ،

ويشهدون مجالس الدرس والوعظ . وكان أول ظهور الدرس والبحث ، في مسجد الرسول (صلعم) في المدينة . وقد ذكرنا مكانة مسجد البصرة ، ومجالس الحسن البصري فيه . وفي كتب الأدب والتاريخ ، شواهد كثيرة على أن حلقات كانت تكوَّن في هذا المسجد وفي غيره ، حول كبار الفقهاء والأدباء . فهذه حلقة للعلوم الدينية ، وتلك حلقة للعلوم اللسانية ، وأخرى للكلام والجدل ، وغيرها للشعر والأدب . . ويروى أنه كانت للمعتزلة حلقة في مسجد المنصور في بغداد . وأن الطبري المشهور ، أملى شعر الطِّرمَّاح في مسجد عمرو بمصر ، وأن الكميت وحمَّاداً الراوية ، تذاكرا في الشعر وأيام العرب ، في مسجد الكوفة .

فالمسجد إذاً كان دار ثقافة ، لا تقتصر المباحث فيه على الأمور الدينية ، بل تتناول اللغة والأخبار والشعر .

نظام الحلقات الدراسية

ونظام الحلقات هذا ، يشبه نظام اختيار موادّ التخصص في الجامعات ، فإذا كان واصل بن عطاء ، لا يوافق الحسن البصري ، فله أن يعتزل حلقته ، ويكوِّن حلقة جديدة . فالمجال كان واسعاً للراغبين في العلم ، ينتقلون من زعيم حلقة إلى أخرى ، ويقبلون على السلم الذي تشتاق إليه نفوسهم . فالأمر حرِّيَّة تامة في التعليم والتثقيف والتربية . وهذه الحرية في

التربية والتعليم ، هي من أسباب خِصْبِ الانتاج الفكري ، في تاريخ الاسلام والعرب .

- ٦ -

مجالس المناظرة

كان الناس يتعلمون مبادىء القراءة والكتابة والقرآن الكريم في الكتَّاب ، ثم يزيدون معرفتهم وثقافتهم ، بالانتساب إلى حلقات الدرس في المساجد . فالظاهر أن الكتَّاب أساس السلسلة في التعليم ، والمسجد متممها في التعليم والتربية معاً . ولكنه نتج من النهضة العلمية ، اتساع نطاق البحث والدرس ، وهذا بدوره نتج منه اتساع وسائل التربية والتعليم ، التي يتناولها بحثنا الآن ، منها :

أولاً : مجالس المناظرة في العلم والأدب ، وكانت هذه المجالس تعقد في دواوين الخلفاء ، وفي قصور الأمراء ، وفي مساجد الله . يتناظر فيها العلماء في الفقه واللغة والشعر علناً . ثم دخل موضوع الحكمة والمنطق والكلام في البحث ، فكانت تدور بين العلماء المجادلات ، ويشترك فيها نظراؤهم . وكان الخليفة يتدخل بنفسه أحياناً ، ويشترك في البحث أحياناً أخرى ، فيرجح هذا الرأي على ذاك ، أو يوجه البحث إلى هذه الجهة أو تلك .

كان من عادة خلفاء بني أمية ، أن يتبارى الشعراء في بلاطهم ، وأن يستمعوا لأخبار العرب وأيامهم . ولكن خلفاء بني العباس ، زادوا على ذلك ، بأن فتحوا باب البحث والجدل على مصراعيه . واتخذت هذه المجالس شكلاً خاصاً ، لا نجاح فيه ، إلاّ لكل واسع العلم ، نيّر الفكر ، حادّ الذكاء ، حاضر البديهة .

ومن أسباب نجاح هذه المجالس ، أن العصر كان عصر بحث وتدوين وتعلّم ، لم تتخذ فيه العلوم شكلاً نهائياً ، فمجال الرأي واسع ، وأنَّ الفرق والمذاهب كانت في دور التكوين ، وفيه بدأت آراء أصحابها ، تتخذ شكلاً معيناً . تظهر فيه نفسها ، وتدافع عن مبادئها . وأنَّ هذه المناظرات ، كانت بمشارفة الخلفاء والأمراء ، فلا غنى فيها ، عن الاستعداد الطويل ، والتعمق في الدرس ، حباً للفوز والشهرة .

وكتب النحو والصرف والأدب والفقه والفلسفة ، ملأى بالأمثلة على هذه المناظرات . وكان المأمون أول خليفة من العباسيين ، شغف بالبحث والمناظرة . فهو الذي كان على جانب عظيم من العلم والثقافة ، يتناظر العلماء والفقهاء والمتكلمون في حضرته ، كأنهم في حضرة واحد منهم . ويروى أنه كان يقصد من إثارة البحث في مختلف المسائل ، التوصل إلى الآراء التي يرضاها هو ، ويفرضها على الناس قهراً ، وذلك

مأخوذ من قوله : « إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا ، سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين ، إمَّا شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعاً ، وإمَّا معاند فيرد بالعدل كرهاً » .

الجمعيات والأندية

ثانياً : (الجمعيات العلمية والأدبية والصوفية) - في كتب الأدب والتاريخ ، كثير من الشواهد على نمو جمعيات ، تبحث في العلم والأدب ، أو تؤمن بالزهد والتصوف ، أو تقول بالزندقة والشعوبية . والذي يهمني منها الآن ، ما كان له أثر في التربية والتعليم . ولا يستطيع الباحث أن يميزها ، لصعوبة الوصول إلى الحقائق التاريخية الثابتة . ولكن يمكن القول إجمالاً ، أن نشوء المذهبين المشهورين في الصرف والنحو ، كان دليلاً على هذا الاتجاه ، وكذلك ظهور المذاهب الأربعة في الفقه ، وافتراق الشعراء والأدباء ، إلى طبقات في الأساليب والأغراض .

وعلى هذا النحو ظهرت أيضاً جماعات من العلماء والأدباء ، لم ترض عن زمنها ، فألّفت ما يشبه (الأندية) في أيامنا هذه . وكان المنتمون إلى هذه الجماعات ، يتدارسون العلوم والآداب التي تروقهم ، وينشرونها في الناس في كتب يكتبونها ، أو في

مناظرات يعقدونها ، ويفسحون في المجلس لمن شاء حضورها . وقد شاع أمر هذه الجماعات ، في القرن الثامن من حكم بني العباس ، ويلغ الذروة في حسن التنظيم ، وإتساع نطاق البحث ، وطهارة القصد ، في الجمعية المشهورة باسم (إخوان الصفا) التي ظهرت في القرن العاشر للميلاد .

إن أثر هذه الجمعيات في الثقافة والتربية ، يزيد على أثرها في التعليم ، لأن المفروض في الذي ينتمي إليها ، أن يكون قد مر بالكتاب ، ونال قسطاً من العلم والثقافة التي كانت متيسرة في المسجد . ويكاد يشبه عمل هذه الجمعيات في أيامنا هذه ، ما تقوم به المجامع العلمية ، أو معاهد التخصص ، أو دور النشر والتأليف .

وعند الاشارة إلى هذه الجمعيات ، لا يجوز أن ننسى الاشارة إلى الجمعيات التي أنشأها الزُّهَّاد والمتصوفون . . وقد كان ظهور الزهاد في زمن بني أمية . وكان أمرهم يكاد يكون محصوراً في الابتعاد من الدنيا ، ودرس القرآن الكريم ، وفهم الدين فهماً عميقاً ، مع حياة فيها تقشف وشظف . غير أن هذه الحركة تطورت ، فصارت في القرن الأول من حكم بني العباس ، حركة تصوف ، لها مبادىء في العلم والحياة ، ولها أتباع كثيرون من مختلف طبقات الأمة .

كان من مبادىء الزُّهَّاد والمتصوِّفين : الاعتقاد بالفهم

الروحي ، وتعليق أهمية كبرى على قوة الخلق . وتعتبر هذه الحركة ، ردًّ فعل لحياة الترف ، التي ظهرت بخروج العرب من البداوة إلى الحضارة ، وهي أيضاً نتيجة طبيعية لاحتكاك المبادىء الاسلامية ، بالمدنيات القديمة . والظاهر من كتب الأدب والتاريخ ، أن أتْباع هذا المذهب ، لم يكونوا قليلين . ويرى الباحث في العصور الأخيرة من حكم بني العباس ، ما كان للمتصوِّفة ، من أثر كبير ، في نشر ثقافة خاصة ، واصطناع مذهب خاص ، في التربية والتعليم ، أساسه قوة الروح وعلوّ الخلق ، وصفاء العقل ، وكبح جماح الجسم . وهذا كله ظاهر في كتبهم ، ومبثوث في الفصول التي كتبها المؤرخون عنهم .

المكتبات ومعاهد البحث

وثالثاً : (المكتبات ومعاهد البحث والدرس) ـ لا تفرق المراجع التي وقفنا عليها ، بين المكتبة ، وأماكن البحث والدرس . « فبيت الحكمة » و « دار العلم » وغير ذلك من المعاهد ، لا يصح أن نسميها مدارس ، ولا كليات ، ولا ما يقرب من ذلك ، إلاّ إذا فسرنا هذه المسميات تفسيراً يناسب غرضنا . والظاهر من النصوص ، أن هذه المعاهد ، كانت مكتبات في الدرجة الأولى ، يجتمع فيها العلماء والمتعلمون ، للمطالعة من جهة ، وللمدارسة والتعلم من جهة أخرى . لأنه

كان من نتائج النهضة العلمية ، التي امتاز بها عهد بني العباس ، ظهور الرَّغبة في جمع الكتب . وقد تسابق الخلفاء والأمراء والعلماء الموسرون في ذلك ، وبدأت الرغبة في جمع كتب الأمم القديمة وترجمتها ، وفي جمع الكتب التي دوّنت فيها العلوم اللسانية والعلوم الشرعية .

اختلف الباحثون في (بيت الحكمة) . فمن قائل انه كلية جامعة سبق ظهورها ظهور جميع جامعات العالم . ومن قائل أنه معهد للترجمة ، ومن قائل بل هو مكتبة لا غير . . وسبب ذلك الاختلاف ، قلَّة ما نعرف عنه ، وعن هذا الاسم الجذّاب الذي يتحلى به . ومن رأيي ، أن بيت الحكمة هذا ، كان مكتبة جامعة ، فيها أماكن للنسخ ، وأماكن أخرى للترجمة ، وأماكن غيرها للبحث والمدارسة . وقد جاء في النصوص التي بين أيدينا ، ما يثبت هذه الأمور ، وهي وجود الكتب ، وحدوث الترجمة والبحث . . أما ما زاد على ذلك ، فمسألة رأى وتفسير .

والخلاصة ، إن انتشار المكاتب والمعاهد المتصلة بها للترجمة والنسخ ، وما ينتج من هذا كله ، من مدارسة وبحث ، أمر ثابت بالرجوع إلى مختلف المصادر . وقد ساعد ذلك ، تقدم التربية والتعليم . فمن أراد استكمال معرفته في مادَّة من المواد ، يمم شطر المكتبة ، أو التحق بالمعاهد القريبة منها ، حيث يجلس العلماء ، فيشاركهم في البحث ، ويتعلم منهم ، وينقل عنهم في

العلم والأخلاق . وهذا كما لا يخفى هو التعليم الممزوج بالثقافة والتربية .

طلب العلم

ورابعاً : (الرَّحلة في طلب العلم) ـ روي عن أبي الدرداء أنه قال : « لو أعيتني آية من كتاب الله ، فلم أجد أحداً يفتحها عليَّ ، إلا رجل (ببرك الغماد) لرحلت إليه » . وقال الشعبي : « لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ، ليسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره ضاع » .

هذه هي الروح التي سرت في العرب والمسلمين في صدر الاسلام : طلب العلم والرِّحْلة لتحقيقه . وأصل الحاجة إلى الرحلة عدم توفر الورق ، وصعوبة وجود الكتب ، وقلة الثقات في العلوم ، والحاجة إلى تحقيق بعض الأمور من أصولها ، كالرجوع إلى البادية في مسائل اللغة ، أو اللَّحاق بالصحابة في الأمصار ، أو سماع الرُّواة في البلدان . وقد بدأ هذا بالعلوم الدينية ، فكان المحدثون أنشط الناس في الرحلة في طلب العلم ، وذلك لأن الصحابة تفرقوا في الأمصار بعد الفتح ، ولا بد من الرحلة للوصول إليها ، إبتغاء التحقيق في الحديث وروايته .

ومن الأمثلة على ذلك ما فعله يحيى اللَّيثي ، فإنه رحل من الأندلس إلى المشرق ، فسمع الموطأ من مالك في المدينة ، وسمع من سفيان بن عيينة في مكة ، وسمع من الليث بن سعد في مصر . أما البخاري فقد رحل في تحقيق (صحيحه) ، إلى أكثر محدّثي الأمصار ، في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر .

وقد امتدَّ هذا النشاط إلى طلب العلوم اللغوية والفلسفية . فرحل الخليل والأصمعي والكسائي إلى الصحراء ، لسماع اللغة والأدب . ورحل حنين بن إسحق ، إلى بلاد الروم ، فتعلم اليونانية ، وإلى الشام ومصر فجمع الكتب النادرة . ورحل إبن سهل البلخي ، إلى العراق والبلاد المتاخمة لها ، ولقي الكبار والأعيان ، وتتلمذ لهم ، واقتبس عنهم الفلسفة والطبّ والدين .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

التربية والتعليم في العصور الإسلامية

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
اسلامية

التربية والتعليم

في

العصور الإسلامية

٢

دار الفكر اللبناني



أثر المؤدبين

انتهينا من الرِّحلة في طلب العلم ، وأثر ذلك في التربية والتعليم ، في القرن الأول من حكم بني العباس . وبقي أن نتناول المادتين الأخيرتين من الوسائل التي أشرنا إليها ، وهما أثر المؤدبين ، وأثر الصحراء والجزيرة العربية . وأولى المادتين :

أثر المؤدبين ـ كان الكتاب أو المكتب ، المكان الوحيد ، الذي كان يتعلم فيه الناس ، مبادىء القراءة ، والكتابة والحساب ، والقرآن الكريم ، وشيئاً من الأخبار والأشعار .

وذلك إلى أن تمَّ تأسيس المدارس النظامية ، في القرن الحادي عشر للميلاد . ولكن الكتّاب لم يكن من المعاهد التي تقيمها الدولة ، وتديرها وتشرف عليها ، وتنفق المال لتقدمها ونمائها .

بل كان معهداً خاصاً ، يقيمه من له رغبة ومقدرة في بيته ، أو في مكان عمله ، أو في أي مكان آخر . وكان يختلف إليه عادة ،

أبناء العامة والطبقة الوسطى ، من الراغبين في تعلم القراءة والكتابة .

والظاهر من النصوص الكثيرة ، أن أبناء الموسرين والأمراء والخلفاء لم يتعلموا في الكتّاب . أو أن كثرتهم ، لم تتعلم القراءة والكتابة ، على أيدي معلمي الكتاتيب والمكاتب . بل كان هؤلاء يتعلمون ويتأدبون ويتثقفون ، على أيدي طبقة خاصة من المعلمين ، تصفهم كتب الأدب والتاريخ أحياناً بصفة (المعلم) ، وفي معظم الأحيان بصفة (المؤدب) .

إن معنى كلمة (مؤدّب) ، كما ترد في النصوص التي بين أيدينا ، يقرب كثيراً من معنى (Tutor) ، أي المعلم الخاص ، الذي يعتني بتعليم الطالب ، ما يتعلمه الناس في المدرسة ، ثم يعنى بتهذيبه وتدريبه ، على طرق السلوك القويم وحسن التعبير عن النفس ، وإبداء شروط الرجولة الحقة . وهذا هو المعنى الذي تدل عليه الكلمة اللاتينية ، التي اشتقت منها الكلمة الانكليزية السابقة الذكر .

والأمثلة كثيرة على وجود المؤدب ، وقيامه بمهمة التعليم والتأديب والتهذيب والتثقيف . وبعض هذه الأمثلة يرجع بتاريخه إلى العهد الأموي ، وأكثرها يمكن استخراجه من تاريخ العهد العباسي . . فقد كان بنو أمية ، يعتنون عناية خاصة بتأديب أبنائهم ، بإرسالهم إلى الصحراء لتعود النطق باللسان العربي الصحيح ، ولتعود حياة الشدة والرجولة ، وكانوا أيضاً

يعينون لهم مؤدبين ، يعلمونهم القراءة والكتابة والأخبار والأشعار ، وآداب المجالسة والمخاطبة والمناظرة .

أما بنو العباس ، فقد كان يصبح تأديب أبنائهم ، نظاماً خاصاً في عهدهم . فالمفضل الضبي ، كان يؤدب المهدي . والأدب العربي ، مدين لهذه العلاقة بين المؤدب وتلميذه ، بما نتج منها ، وهو كتاب (المفضليات) المشهور ، الذي اختار أشعاره المفضل ، ليتثقف بها تلميذه . وكان الكسائي ، يؤدب الأمين بن هرون الرشيد ، ويعلمه الأدب . وكان إبن السِّكِّيت يؤدب ولد إبن طاهر . . هذه بعض الأمثلة ، على شيوع استخدام المؤدب ، كمعلم ومرب معاً . والظاهر أن عمل المؤدب من ناحية التربية والتعليم ، لم يكن مجدداً . ولا غرابة في هذا لأنه ينطبق على جميع وسائل التربية والتعليم ، في تاريخ العرب والاسلام ، لا على ناحية واحدة فقط .

أثر البادية والجزيرة العربية

والمادة الثانية ، وهي الوسيلة الأخيرة من الوسائل التي سبق تفصيلها :

(أثر البادية والجزيرة العربية) - يروى أن عمر بن الخطاب قال : العرب مادة الاسلام . . وقياساً على هذا ، يمكن القول ، إن البادية أو الجزيرة العربية ، هي مادة لغة العرب ومنشأ أخلاقهم . فإن قال قائل ، إنَّ أثر الجزيرة في هذا الباب ، قد

انتهى بخروج العرب إلى الأمصار بعد الاسلام ، فإني أسأله رأيه ، في سبب رجوع علماء اللغة إلى البادية ، لاستقصاء أصولها ، وتدوين الشواهد عليها ، وتصحيح السقيم منها . ـ وفي حكمة إرسال أبناء الموسرين والأمراء والخلفاء إلى البادية ، لتقويم لغتهم وتقوية أبدانهم . ـ وفي سر بقاء الأخلاق البدوية ، من الكرم والمروءة والعزَّة والعصبية ، أساساً لمثل السلوك ، عند ظهور الاسلام وبعد انتشاره . . فكل هذا ، يثبت أن أثر البادية والجزيرة ، بقي ظاهراً بعد الاسلام ، إن لم يكن قد زاد في الأهمية .

لم يكن عدد الذين يتعلمون من البادية وأهلها ، حتى في زمن بني العباس ، قليلاً . ولم ينصرف علماء اللغة والأخبار عن عادتهم ، في استقصاء مادتهم من أصولها ، في مضارب الأعراب ومفاوز الصحراء . ولم تزل مدن الحجاز موئلاً لطلب العلم ، ومحدثوها وفقهاؤها ومؤرّخوها في الدرجة الأولى ، من الدقة والأمانة والتقوى .

ويكفي للدلالة على صحة هذا الرأي ذكر بعض المشاهير . فمنهم المحدِّث مجاهد بن جبر ، والمحدِّث سفيان بن عيينة ، الذي أخذ عنه الشافعي وأحمد إبن حنبلٍ . ومنهم الامام مالك بن أنس ، ومنهم الواقدي شيخ المؤرِّخين . . فالحجاز الذي خسر الرئاسة السياسة ، منذ إبتداء عهد بني أمية ، لم يخسر شيئاً من نشاطه العلمي . بل يظهر أن الخيبة السياسية ، نتج

منها نهضة علمية . ولا يخفي ، أن تطبيق مبدأ الرِّحلة في طلب العلم ، كان يتناول ، أولاً استقصاء الحديث والفقه ، وثانياً البحث في اللغة والأدب . وأهم مكان للأول الحجاز ، وللثاني البادية إجمالاً . وإن ذهاب الناس إلى الحجاز ، للقيام بفريضة الحج ، مهّدَ السبيل لاتصال علماء الأمصار ، بعلماء مكة والمدينة ، والأخذ عنهم ، ونشر علمهم وروايتهم ، في بلدان الدولة الاسلامية الكثيرة .

فالبادية العربية ، وحواضر الحجاز ، كانت من وسائل التربية والتعليم المهمة ، وكان عدد ليس بقليل من الناس ، يلجأ إليها في عهد بني أمية ، وفي عهد بني العباس أيضاً . . .

ملخص

ويمكن تلخيص كل ما مضى ، بما يأتي : كان الناس يتعلمون مبادىء القراءة ، والكتابة والحساب والقرآن الكريم ، وشيئاً من الأخبار والأشعار ، في الكتّاب أو المكتب ، ويزيدون على ذلك شيئاً في المسجد . وبعد ذلك لا ضابط لتعلمهم أو ثقافتهم . فقد يقف تعلم الكثيرين عند هذا الحد . أما الذين كانوا يزيدون على ذلك ، فكانوا أيضاً متفاوتين في مقدار علمهم ونوعه . فقد يذهب الواحد منهم إلى حلقة في المسجد ، لسماع الحديث أو اللغة أو الشعر . وقد ينتمي غيره ، إلى جمعية أدبية أو صوفيَّة ، فيتوجه تعليمه إلى جهة خاصة . وقد يكون لآخر ميل إلى المناظرة

والجدل ، فيلازم بعض مجالس الأدب . وقد يجد غيرهم من نفسه حباً للكتب ، ومباحثة قرّائها ، فيتردد على المكتبات وأماكن الورّاقين . وقد يرغب آخرون في الاستزادة من العلم ، فيرحلون إلى الأمصار أو إلى البادية . وقد يكون غيرهم من أبناء الخلفاء والأمراء ، فيعين لهم مؤدب ، يعلمهم مختارات من العلم والأدب . . فالكتّاب أو المكتب ، هو المكان الوحيد للتعليم الحقيقي . أما الوسائل الأخرى فهي أقرب إلى التربية والتثقيف ، منها إلى التعليم الصِّرْف .

الثقافة العامة

بقي الآن ، ناحية أخرى من نواحي التربية والتعليم ، في القرن الأول من حكم بني العباس ، وهي تتعلق بالثقافة العامة من الناحية الفنية . . فالمعروف أن التربية والتعليم ، لا يقتصران على تعلم المباحث في المدرسة ، وحشو الذهن بمختلف الحقائق والآراء ، بل يتناولان أيضاً ، رياضة الجسم بالألعاب على أنواع ، ورياضة الروح بالموسيقى والغناء ، وما أشبه ذلك . وهذا هو ما أريد بحثه .

تذكر كتب الأدب والتاريخ ، وخاصة (الأغاني) ، أن خلفاء بني العباس ، بعد أن استتب لهم الملك، صاروا يجلسون للمغنين ، ويستمعون للندماء والقيان ، وقد تبعهم في ذلك ،

نفر كثير من من الخاصة ، وسرت العدوى من هؤلاء ، إلى الطبقة الوسطى . فشاع في الناس حبُّ الترف في المسكن والملبس والمشرب ، وطغت عليهم موجة طرب وظرف وشرب . وشاع مع هذا ، لعب الشطرنج والنرد والصولجان ، وتبارى الموسرون في اقتناء الحيوانات الأليفة ، كالديوك والكلاب ، وفشا شرب الخمر ، وحب اللهو ، والتغني بمحاسن الطبيعة والنساء ، وزاد في هذا ظهور طبقة الجواري ، اللواتي نلن قسطاً كبيراً من الثقافة ، مع معرفة بالأشعار والأخبار ، ومقدرة على الغناء والضَّرْب على الآلات .

فن الغناء

كان الخلفاء يعنون بتعليم حسان الجواري الغناء . وتعليمهن الغناء ، يحتاج إلى تعليم الأدب ، لأن مادَّة الغناء ، كانت الشعر العربي الفصيح ، كشعر عمر بن أبي ربيعة ، وبشار بن برد ، ومسلم بن الوليد . . قيل لـمَّا أفضت الخلافة إلى المتوكل ، جاءته هدية ، فيها جارية كانت لرجل من أهل الطائف ، ـ قد أدَّبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم . فكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس ، فحسن موقعها من المتوكل . وكان إبراهيم الموصليُّ ، مغني الرشيد ، من أنشط الناس في تعليم الجواري الغناء وتأديبهن وتثقيفهن .

ولا شك أن هذا النمط من الحياة ، قد ترك أثره في التربية والتعليم . ويمكن تحديد ذلك فيما يلي : (١) أثره في أغراض التربية والتعليم . (٢) أثره في تقدم الذوق الفنّي . (٣) أثره في إيحاء الشعر وتوجيهه . ونترك الأمرين الأخيرين ، لأنهما لا يتعلقان بموضوع هذا الحديث ، ونترك أيضاً بحث هذه الظاهرة ، من ناحيتها الخلقيّة ، في تعكير صفاء الخلق العربي ، وتشويه جمال الفضائل الاسلامية . ونقتصر من ذلك كله ، على ما كان له علاقة بالتربية وأغراضها .

العزف والشعر والفروسية

يؤخذ من قول للحسن بن سهل ، أن من علامات الرجل المهذب المؤدب ، أن يعرف الضرب على العود ، ولعب الشطرنج والصولجان والفروسية ، مع معرفة بالأخبار والأشعار ، وعلم بأحاديث السَّمر ومحاضرات المجالس ، ووقوف على الطب والهندسة . وكأنه قال : إن الغرض من التربية والتعليم ، هو الوصول إلى معرفة هذه الأمور . فهذا المنهاج ، يتناول جميع نواحي الحياة ، والشيء الجديد فيه ، هو معرفة الموسيقى والغناء والشطرنج . واهتمام الناس بمعرفة هذه الأمور ضرورة نشأت عن حضارة العصر ، لا يجوز أن نمر بها ، دون أن نسترعي الانتباه إليها . فالمتعلم المهذب المربَّى ، هو

الذي يعرف شيئاً من العلوم اللغوية والشرعية والفلسفية ، هو الذي يقوى على الحياة ، وهو الذي يحسن السلوك ، وله إلمام بقواعده العلمية والاجتماعية والفنية .

نضج النشاطات الأدبية

يكاد يكون البحث في التربية والتعليم ، من نهاية القرن الأول من حكم بني العباس ، إلى ظهور المدارس النظامية ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، بحثاً في نضج حركات الترجمة والتدوين والتأليف ، وفي ما ينتج من ذلك ، من نشاط الفرق الدينية والفلسفية ، وتنافسها في نشر مبادئها ، وما كان لسلطان الخليفة في ذلك ، من التشجيع أحياناً ، والتضييق أحياناً أخرى .

كان هـمُّ العرب منصرفاً في أول الأمر ، إلى درس علوم اللغة والدين ، كما عرفنا ذلك في بحث التربية والتعليم ، في عهد بني أمية ، وصدر الدولة العباسية ، ولكن درس الدين وفهمه ، والدفاع عنه من جهة ، وإتصال العرب والمسلمين بمدنيات الأمم الأجنبية من جهة أخرى ، نتج منهما إتصال فريد في بابه ، في عالم الفكر ، وفي عالم المادة . فكثر التزاوج بين العرب والأعاجم ، وفشت بين المسلمين آساليب الأعاجم ، في الملبس والمسكن

والمشرب . وجاء مع هذا الاتصال الماديّ ، اتصال آخر في عالم الفكر ، وهو الذي نشير إليه هنا .

عاصمة الدنيا

والظاهر أن انتشار السلام ، وازدياد الثروة ، وسياسة التسامح ، التي سار عليها بنو العباس مع الأعاجم ساعد على تحقيق ذلك . فأصبحت بغداد عاصمة الدنيا في العلم والأدب ، ولم يكن يضاهيها في ذلك سوى القسطنطينية . وفيها تمثل اختلاط مدنية العرب ، بنتاج المدنيات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، ومبادىء الديانات اليهودية والنصرانية والبوذية . فكثر البحث والجدل والأخذ والعطاء . وعاصر ذلك ، حركة الترجمة والتأليف . وساعد ذلك ، ما أظهره بعض الخلفاء من الرغبة في نشر العلم ودرسه .

نعرف من التاريخ ، أن اليهود بعد إتصالهم بمدنية اليونان ، عن طريق مدرسة الاسكندرية ، اضطروا إلى درس آداب اليونان وعلومهم ومنطقهم ، لاستعمال ذلك في شرح الديانة اليهودية ، وفي الدفاع عنها . فظهر من هذه الحركة عندهم ، مبدأ التأويل في فهم معاني التوراة ، واتخاذ المنطق والجدل واسطة

للدفاع عنها . ويلاحظ الباحث في ذلك ، أساليب سقراط ، أو آراء أفلاطون ، مبثوثة في المباحث اللاهوتية اليهودية .

المنطق والفلسفة

ونعرف من التاريخ أيضاً ، شيئاً عن الذي حدث في تاريخ الديانة النصرانية ، بعد اتصالها بفلسفة اليونان والرومان ، وهو يشبه ما حدث في تاريخ الديانة اليهودية شبهاً كبيراً . لكن يظهر ، أن الأثر اليوناني في هذه الحالة كان كبيراً ، لأن علماء النصرانية ، اصطنعوا الفلسفة إلى حد كبير ، في تفسير دينهم ، أو في الدفاع عنه . ولا يجد الباحث صعوبة كبيرة ، في ملاحظة منطق أرسطو ، ونماذج أفلاطون ، ومعرفة سقراط ، وهي تطبق على مبادىء السيد المسيح .

وهكذا لم يجد المسلمون بدّاً ، من اصطناع علم المنطق والكلام والفلسفة ، لتفسير الدين ، أو للدفاع عنه . وهذا الأمر هو باعث الترجمة ومشجعها الأول . وساعد على ذلك أيضاً ، ما كان بين بعض الفرق النصرانية ، من اختلافات دينية ، فالنساطرة واليعاقبة ، قاموا بترجمة كتب كثيرة من اليونانية إلى السريانية ، في مدارس حران والرها ، لاصطناع مادتها

وأسلوبها ، في مجادلاتهم الدينية . ووجد العرب والمسلمون الطريقة ممهدة بعض التمهيد ، إذ أخذوا في ترجمة العلوم اليونانية عن السريانية ، للغرض ذاته . ولكنه يظهر ، أن العرب قد استفادوا من أسلوب الكتب اليونانية ، أكثر مما استفادوا من مادتها . والدليل على هذا ، أننا لا نجد أثراً لآلهة اليونان في كتب العرب ، ولكننا نجد أدلة كثيرة ، على شيوع المنطق والرأي والقياس والإجماع .

الفرق الإسلامية

وساعدت هذه الحركة ، على نمو الفرق الاسلامية ، وتطور مبادئها ، ونضج آراء أصحابها . فلا تكاد تخلو فرقة من الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة والمتكلمين والمتصوفين والفلاسفة والشعوبية والزنادقة ، من اصطناع شيء من مادة العلوم الجديدة أو أسلوبها . فطبق مبدأ التأويل والقياس ، على آيات القرآن الكريم ، وفسَّرتها كل فرقة بالطريقة التي كانت تناسبها ، فكثر البحث في حرية الارادة والأزل ، ووحدانية الله وصفاته ، بصورة منطقية فلسفية ، لا يكتفي فيها بالإيمان المطلق .

كان يتربى أبناء العرب في مثل هذا الجو العلمي ، وكانوا

يتعلمون بطرق تختلف باختلاف ميولهم العلمية والأدبية ، وأذواقهم الدينية والفلسفية. فكانت لهم حرية تامة في الطلب والتحصيل . ولكنه يظهر لنا ، أنَّ هذه الحرية ، لم تكن مطلقة في ناحية العقيدة والرأي ، بدليل ما فعله المأمون عندما ناصر المعتزلة في رأيها ، في خلق القرآن ، وحرية الارادة ، وسلطان العقل . وقصته في محاولة إرغام الإمام أحمد بن حنبل ، على قبول هذا الرأي ، مشهورة لا تحتاج إلى بيان .

ويظهر أن المأمون أراد أن يجعل من نفسه ، أو من مجلس العلماء في بلاطه ، مجمعاً علمياً ، له القول الفصل في الآراء والمعتقدات ، فإذا توصل المجلس إلى الموافقة على رأي ، فعلى سائر الناس من العلماء والدَّهْماء ، أن يعتنقوه طوعاً أو كرهاً .

وهذه الطريقة سابقة خطرة في تاريخ طلب العلم . فإن أنصار الأشعري من المتكلمين ، وعامة أهل السنة من الحنابلة ، قد اصطنعوها في اضطهاد المعتزلة في عهد المتوكل . . وتدخل الدولة في اعتناق الآراء ، وفي طلب العلم ، نتج منه أمران مهمان : أولهما ظهور الجمعيات الفلسفية السِّريَّة ، وثانيهما ظهور المدارس التي تعلم نوعاً خاصاً من المعرفة ، تحت مراقبة الدولة . سأذكر الآن شيئاً عن هذه الجمعيات السرية ، على أن أعالج ظهور المدارس في وقت آخر .

الجمعيات السرية

أشرنا في مكان آخر ، إلى أثر الجمعيات العلمية والأدبية والصوفيّة ، في التربية والتعليم . ولكن هذه الجمعيات كانت عامة كالأندية في أيامنا هذه ، لا يحيط بها شيء من الغموض أو الكتمان ، إلّا ما كان منها يقول بالتَّقيَّة غير أن تدخل الدولة في طلب العلم ، واعتناق الآراء ، أرغم بعض المفكرين ، على تأليف الجمعيات السرية ، التي كانت تبحث في العلوم التي لا ترضى عنها عامة الناس ، أو لا توافق عليها الدولة ، أو تعاديها فرقة قوية من الفرق .

وأشهر الأمثلة على ذلك ، الجمعية السرية المعروفة باسم إخوان الصفاء وهي التي ظهرت في القرن العاشر للميلاد في البصرة. ولهذه الجمعية نظام في التربية والتعليم ، يكاد يكون فريداً في بابه ، ويستحق أن يفرد له بحث خاص . فهي من حيث أعضاؤها ، تمثل النهضة العلمية في عصرها ، ففيهم الأديب والعالم والفيلسوف والصوفيُّ والفارسي والعربي ، وهم لا ينتمون إلى عقيدة ، ولا يتعصبون لرأي ، ولا يعرضون عن نوع من أنواع العلم والمعرفة . . جاء في رسائل اخوان الصفاء : « نحن لا نعادي علماً من العلوم ، ولا نتعصَّب على مذهب من المذاهب ، ولا نهجر كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة » ـ لأن ـ « رأينا ومذهبنا ، يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها » .

وكان غرضهم إصلاح النظام السياسي القائم ، عن طريق نظام خاص في التربية والتعليم . وكانوا يعتقدون أن التربية والتعليم ، يجب أن يتناولا بالدرجة الأولى ، الروح والعقل ، وبالدرجة الثانية الجسم ، ولهذا ألّفوا رسائلهم ، لتكون مادة لدعوتهم . . والرسائل ملخص جميع العلوم ، التي كانت معرفة في القرن العاشر للميلاد ، ووضعت طريقة خاصة لنشرها في الناس ، وتعليم ما فيها للرّاغبين ، وهي طريقة التدرج من المحسوس الذي تدركه الحواس ، إلى المعقول الذي يقبله العقل ، إلى الملهم الذي يسمو بالروح . .

وكان أعضاء هذه الجماعة ، يعتقدون أن المعرفة ، فيها خلاص الانسان من شرور الدنيا ، ووصوله إلى درجة راحة النفس ، والاطمئنان الفكري . ومذهبهم هذا ، كما تذكر الرسائل ، هو مزيج من الفلسفة اليونانية ، والديانة الاسلامية ، بأوسع معانيها ، مع شيء كثير من التغيير والتطبيق .

دائرة معارف عامة

ونظامهم في التعليم جذّاب مفيد ، لا يراد تطبيقه على جميع الناس . فهو أقرب إلى الدعوة السرية منه إلى اسلوب شامل في

التعليم ، يختار من يتوسمون فيه الخير، ويمهدون لاعطائه الأجزاء الأولى من الرسائل ، التي تبحث في الأمور المحسوسة المشاهدة ، بإثارة روح البحث في نفسه ، وتشويقه إلى معرفة أشياء لا يعرفها . وبعد درس الرسائل الأولى ، يتدرج معه فيها إلى المعقولات ، فالمعتقدات ، ـ وكل ذلك بأسلوب سهل ، فيه لين ورأفة وصبر .

يعد تأليف رسائل إخوان الصفاء ، من أهم الخطوات في تاريخ الفكر العربي ، إذ بتأليف الرسائل ، تكون حركة الترجمة والتأليف والبحث والدرس ، قد بلغت غايتها ، وهي تأليف دائرة معارف عامة ، لجميع علوم العصر ، تمثل نضج العلوم الاسلامية في القرن العاشر ، أحسن تمثيل . وأني أرى أن نضج الثقافة الاسلامية ، وانتشار وسائل العلم ، وتوافر المعرفة للناس ، مهدت السبيل لظهور المدارس الجامعة ، في القرن التالي ، وهو ما سنعالجه في صفحات قادمة .

منهج التعليم العام

وتمهيداً لذلك ، يجدر بنا أن نذكر الآن ، بعض ملاحظات عامة ، تتعلق ببحث التربية والتعليم ، من أول عهد بني العباس ، إلى نهاية هذا الدور الذي نعالجه . وهذه الملاحظات

إجمال لبعض ما تناولته الصفحات السابقة وتعليق على بعض النواحي الغامضة فيها ، وإتمام لبعض النواحي الأخرى .

لم يكنِ التعليم بمراحل ، فيها الابتدائي والثانوي والعالي ، تبدأ بالكتّاب ، ثم بالمسجد ، ثم بدار الحكمة . لم يكن للتعليم منهج عام تسير بحسبه جميع المعاهد ، كما لم يكن منهج خاص تتبعه المعاهد التي على نمط متقارب ، وترمي إلى أغراض متشابهة .

ولم تكن هناك درجات معروفة للمعلمين وشهاداتهم ، فهذا معلم ابتدائي وذاك أستاذ في كلية ، وغيره حجة إمام في كل شيء . ويجد من يدرس كتب الأدب واللغة والتاريخ ، أن المؤلفين يطلقون على من اشتغلٍ بالتعليم عدَّة أسماء ، منها العلم والمؤدب والمدرس والشيخ والأستاذ والعالِم والإمام .

ومن العبث أن نحاول تفسير هذه الأسماء ، بما تدل عليه في هذه الأيام ، أو أن نقابلها بنظام تسمية المعلمين في الكليات والجامعات الحديثة . وذلك لأن الضابط لذلك شيء غير محدود ، وهو الرأي العام في مقدرة صاحب اللقب ، ورأي المؤلف الذي يؤرخه في ذلك . ولكن الظاهر أن كل متعلم ، آنس من نفسه المقدرة ، كان يجلس مجلس العلم ، فيناقشه الأقران ، فإن ساواهم ، أو برز عليهم ، ثبت في مكانه ، وإلاَّ عاد للتعلم في حلقة غيره .

وهذا يفسر مسألة (البراءة) التي كان يأخذها المتعلمون من شيوخهم ، فهي شهادة بأن الطالب قد درس على ذلك العالم ، مبحث كذا ، أو موضوع كذا ، وليست رتبة علمية معينة ، لها مستواها المحدد . . لهذا كان الراغبون في توطيد مركزهم العلمي ، يجمعون عدداً من هذه البراءات ، من علماء أكثر البلاد الاسلامية ، ليثبتوا بها مقدرتهم ، وحقهم في الجلوس مجلس البحث والمناظرة . .

المرأة والتعليم

ذكرنا شيئاً عن أثر الحضارة في التربية والتعليم ، من ناحية ظهور طبقة الجواري اللواتي يحسن الغناء والأدب ، وفصَّلنا الطرق التي كان يسلكها الخلفاء والأمراء ، للحصول عليهن وتهذيبهن وتأديبهن ، حتى إن بعض الناس ، جعل ذلك صناعة له . . والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن : هو : هل كان التعليم والتثقيف ، يشمل أيضاً الحرائر المخدرات ، من غير الجواري والقيان ؟

يظهر من النصوص ، أن تعليم النساء لم يكن شائعاً ، مع أن الشواهد كثيرة ، على وجود عدد كبير من المتعلمات العالمات . لا يجوز الاستنتاج من اختلاف الجواري إلى أماكن الدرس والتعليم ، أن عامة النساء ، كنَّ يفعلن ذلك . فالظاهر أن

اللواتي نلن قسطاً من المعرفة والعلم ، كن يتعلمن بصورة خاصة ، في بيوتهن ، أو في أماكن شبيهة ببيوتهن .

وجاء : انه لا يجوز أن تتعلم المرأة الكتابة والقراءة ، بل يكتفي بتعليمها القرآن الكريم والغزل . ولكنه جاء أيضاً : أنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وقد وصلتنا أخبار عدد كبير من النساء ، اللواتي اشتهرن بالعلم والزُّهد والشعر . واكتفي من ذلك بذكر عائشة أم المؤمنين ، وهي من أهم مراجع الحديث الشريف . ثم رابعة العدوية الزاهدة المتصوِّفة ، التي عاصرت الحسن البصري ، ثم علية بنت المهدي، التي كانت تحسن قول الشعر وتلحينه .

ظهور المدارس

يتناول الكلام هنا ، بحث ظهور المدارس في تاريخ التربية والتعليم عند العرب . والمقصود بالمدارس هنا ، الأماكن التي بنيت لنشر نوع خاص من أنواع المعرفة ، بمشارفة الدولة التي تنفق عليها المال ، وتحبس لها الأوقاف ، وتراقب فيها التعليم ، وتعين لها المعلمين . ولا يشمل ذلك ، الأماكن التي كان يمكن التردد عليها لتلقي المعرفة ، كالمسجد ومجالس الأدب والجمعيات ومضارب الأعراب ، ممَّا فصلنا سابقاً . وقد أجمع الكتَّاب والباحثون ، على أن تأسيس المدارس بهذه الصفة ، لم يتم قبل

القرن الرابع للهجرة ، أو القرن العاشر للميلاد . واختلفوا في أسبق الناس إلى ذلك .

يقول المقريزي : إن المدارس مما حدث في الاسلام ، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة ، من سني الهجرة . وهذا قول حق يثبت بالرجوع إلى الحقائق التاريخية ، كما سأشرحه في الفِقَر التالية .. لكن المقريزي ، يذكر أيضاً أن الخليفة المعتضد بالله ، الذي ولي الخلافة ، في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة ، قد أراد أن يقيم بجوار قصره في بغداد ، المقاصير والمساكن والدور ، لكي « يرتب في كل موضع رؤساء كل صنعة ومذهب ، من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، ويجري عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة ، رئيس ما يختاره ، فيأخذ عنه » .

أول منشيء المدارس

هذا مع العلم ، بأن الشائع بين الناس ، بناء على رواية (الذهبي) ، أن أول من أنشأ المدارس في الاسلام ، هو نظام المُلْك الذي وزر للسلاجقة ، في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة . لكن بعض المؤرخين ، كالسبكي والسيوطي ، يقررون أن المدرسة البيهقية قد أسست بنيسابور ،

قبل أن يولد نظام الملك ، وأن المدرسة السعدية ، قد أسست بالبلدة نفسها ، على يد الأمير نصر بن سبكتكين ، أخي السلطان محمود المشهور ، قبل تأسيس مدارس نظام الملك . والظاهر أن سبب نسبة تأسيس المدارس إلى (نظام الملك) ، يرجع إلى شهرته الادارية ، وإلى كثرة المدارس التي أسسها ، وإلى دوام كثير منها ، وخدمتها الجلي للدولة . . فالمعروف أن نظام الملك ، قد بنى المدارس في بغداد والبصرة والموصل وبلخ ونيسابور وهراة وأصبهان ومرو وآمُلِ بطبرستان ، حتى قيل ، إنه كان في كل مدينة من مدن العراق وخراسان مدرسة .

إذاً يمكننا القول ، أن تأسيس المدارس بمعناها الخاص الذي شرحناه ، لم يكن قبل القرن العاشر للميلاد ، وأن انتشارها أو ثبوت أمرها ، لم يتم قبل النصف الثاني من القرن الحادي عشر .

نمو معكوس

وهذه المدارس أقرب شيء إلى المدارس التي نطلق عليها الآن إسم مدارس الحكومة . ولكنه يبدو لي ، أن مدارس العرب والمسلمين ، في القرن الحادي عشر للميلاد وما بعده ، لم تنشأ نشأة طبيعية ، إذ ظهرت كاملة النمو ، ولم تتطور على مرور الزمن . بل يمكن القول ، أنها نشأت نشأة معكوسة ، كمن راح يبني قمة البرج ، قبل أن يقيم دعائمه ، ويوطد أركانه . لأن

الظاهر من النصوص ، أن هذه المدارس ، كانت من مستوى عال ، تقرب من الكليات والجامعات ، ولم تكن بجانبها أو تحتها درجات أخرى ، من المدارس الابتدائية والثانوية التابعة للحكومة ، لكي تغذيها بالطلبة ، وتكون أساساً لنظام التعليم فيها . فالمدرسة في تاريخ الاسلام ، بدأت بالجامعة ، وانحطت إلى مستوى الزاوية والكتّاب . ولم تبدأ ببستان الأطفال ، ثم ترتفع بالتدريج إلى مستوى الجامعة .

هذا من جهة المستوى ، أما من جهة البرامج ، فالظاهر أيضاً ، أن المدارس كانت تعلم نوعاً خاصاً من المعرفة ، يتناول بالدرجة الأولى ، العلوم الشرعية واللسانية ، مع استخدام شيء من أساليب المنطق والفلسفة في ذلك . أما درس الفلسفة الصِّرْفة والنجوم والطب ، فيكاد يكون خارجاً عن نطاق هذه المدارس .

مجانية التعليم

ومن صفات المدارس أيضاً ، أن التعليم فيها كان مجاناً ، لا تفرض الدولة فيه (الرسوم) على الطلاب ، ولا يتناول الأساتذة منهم شيئاً من التعويض ، بل تكون لهم فيها جميع وسائل الراحة من نوم وطعام واغتسال وعلاج وغير ذلك ، ويتناولون المخصصات التي تسميها المصادر (المعاليم) . أما الأساتذة ،

فقد خصصت لهم المرتبات من مال الدولة ، فهم موظفون فيها ، يطيعون أنظمتها وينفذون سياستها .

ويقال أن كثيراً من العلماء ، قد هالهم هذا الاتجاه المادي في طلب العلم . . يذكر (حاجي خليفة) في كتاب كشف الظنون ، أن علماء ما وراء النهر ، لـمَّا بلغهم بناء المدارس ببغداد ، وتخصيص المرتبات للأساتذة ، والمعاليم للطُّلاب ، أقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشتغل به أرباب الهمم العليَّة ، والأنفس الزكية ، الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم . ولكنَّ العلم ، إذا صار عليه أجرة ، تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل . .

أما أسباب ظهور هذه المدارس ، فيمكن تحديدها بالقياس على ما نعرف من تاريخ ، وبتحليل الحقائق في ضوء هذا التاريخ . . وكنا قد فصلنا مسألة الجمعيات السرية العلمية ، وأثرها في التربية والتعليم ، وذكرنا أن من أغراضها إصلاح النظام السياسي والاجتماعي ، عن طريق نشر المعرفة والعلم ، وذكرنا من الأمثلة على ذلك ، جماعة إخوان الصفاء . والظاهر أن هذه الحركة ، قد وجدت نصيرها في نظام الملك ، الذي اشتهر ببعد النظر ، وأصالة الرأي ، وحسن السياسة . . والظاهر أن نظام الملك ومن نحا نحوه ، قد أرادوا أن تكون المدرسة واسطة لنشر نوع خاص من المعرفة ، فيه صلاح الفرد.

وإعداده لخدمة الدولة ، أو إعداده لقبول سلطتها ، وإطاعة قوانينها . ولا يخفي أن الدولة في ذلك العصر ، كانت بأيدي الأعاجم ، ونظام الملك نفسه أعجمي ووزير لأعجمي . وما كان أحوج هؤلاء ، إلى رضى الناس عنهم ، وعن حكمهم . وأي طريق أضمن من طريق العلم والمدرسة ، للوصول إلى ذلك ؟ . .

انتصار الدين على الفلسفة

وهناك سبب آخر ، وهو أن الأعاجم ، شأن الحكام الغرباء ، كانوا يريدون السير بالدولة في الناحية التي ترضي عامة الناس من وجهة دينية . والمعروف من التاريخ ، أن (الأشعرية) قد انتصرت نهائياً على (المعتزلة) . ومعنى هذا ، أن الفقهاء قد انتصروا على الفلاسفة ، وذلك منذ عهد المتوكل والذين جاءوا بعده . ونعرف أيضاً ما صنعه المأمون ، وهو نشر مذهب خاص وفرضه على الناس ، طوعاً أو كرهاً . وقد ذكر أن ذلك كان سابقة خطرة في تاريخ الفكر الاسلامي العربي ، لجأ إليها المتوكل ، ولجأ إليها غيره ممن جاءوا بعده ، كما لجأت إليها العامة ، في تجربة فرض إرادتهم أو اعتقاداتهم ، على المفكرين والفلاسفة . . ونرى أن تأسيس المدارس هو النتيجة الطبيعية ، لانتصار الفقهاء على الحكماء ، أو انتصار الدين على الفلسفة .

والحكام الذين كانوا لا يستغنون عن الدين ، لتسهيل تنفيذ سياستهم ، لجأوا إلى توطيد سلطة الدين واستبعاد الفلسفة ، فأسسوا المدارس ، وهي كما رأينا ، كانت تتناول العلوم الشرعية واللسانية ، وتكاد لا تبحث في الفلسفة والنجوم والطب ، إلا لتفنيدها ، أو إبطالها ، أو على الأقل لاصطناع أساليبها دون مادّتها .

أهم سبب لوجود المدرسة

ومن الأسباب العملية لتأسيس المدارس ، حاجة الدولة إلى القضاة والعمال والكتّاب والمدرسين ، والموظفين من مختلف الطبقات . والظاهر من النصوص الكثيرة ، أن المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك ، قد كان لها شأن خطير في هذا الباب ، فكان المتخرِّجون فيها يقومون بوظائف كثيرة ، في دواوين الحكومة وفي غيرها من المؤسسات ، وأحسن مثال على ذلك ، القول المنسوب إلى أبي اسحق الشيرازي ، الذي كان عميداً للمدرسة النظامية في بغداد ، إذ يروى أنه قال عند عودته من خراسان ، أنه لم يذهب إلى مدينة أو بقعة ، دون أن يجد تلميذاً من تلاميذه ، يتولى فيها عملاً مهماً أو منصباً خطيراً .

والحقيقة أن حماسة بعض الباحثين والقائلين بفضل هذه المدارس ، دفعتهم إلى مقابلتها بالجامعات والكليات ، أو

تسميتها جامعة . ولا غرابة في ذلك ، ولا مبالغة فيه ، فهي في الواقع أشد شبهاً بالجامعات منها بالمدارس العادية . وهذا الشبه يتناول براجها ومستواها وأساتذتها وطلابها ، كما يتناول مظاهرها الخارجية ، وأوصافها الظاهرة .

أبنية المدرسة

كانت المدرسة عادة تتكون من أبنية مختلفة ، يجاور بعضها بعضاً ، كل بناء (أو دار) يخصص لغرض معين ، من تدريس أو إسكان أو رفاهية أو علاج . والكتب التي بين أيدينا ، تدلنا على أن فناء كل مدرسة ، كان يحتوي على جامع ، وهذا المكان كان يخصص للصلاة وللوعظ ، لا للدرس والمناظرة والبحث ، على خلاف ما كانت عليه الحالة في العصور الأولى .

وكان لكل مدرسة مكتبة في إحدى دورها ، يؤمها الأساتذة والطلاب والراغبون في العلم والبحث . وقد تسابق الأمراء ومؤسسو المدارس ، في جمع الكتب ، وتنافست المدارس في هذا الباب ، وكانت شهرة المدرسة تقوم عادة على مقدرة المعلمين الذين يعلمون فيها ، والكتب التي في مكتبتها .

وكان في عدد كبير من هذه المدارس ، أبنية خاصة للمحاضرات والمناظرات ، ولا سيما في العلوم التي ليست لها صلة

قريبة بالدين . فكان البحث في هذه العلوم يدور في فناء المدرسة ، أو زاوية من زوايا دورها ، أو في رواق من أروقتها ، لا في جامعها ، ولا في ساحته . والأمثلة على حدوث المناظرات ، وجلوس كبار الأساتذة في أروقة المدارس وساحاتها ، ومجيء الطلاب لسؤالهم ومباحثتهم ، كثيرة في كتب الأدب والتاريخ .

ومن المظاهر البارزة في المدارس أيضاً ، وجود الأماكن لاقامة الطلاب والأساتذة ، وطعامهم وشرابهم ووضوئهم وراحتهم وتطبيب أجسامهم . فالمعروف أنه وجد ببعض المدارس المطبخ والحمَّام والمستشفى ، بجانب أروقة الدرس ، ومكاتب البحث ، وجامع الصلاة .

ولا شك أن توافر أسباب الراحة ، وتخصيص النفقات للطلاب زادا في إقبالهم على العلم . وتذكر بعض المصادر ، أن عدد الطلاب الذين كانوا يترددون على هذه المدارس ، زاد على الألوف . وتذكر أيضاً أن بعض الطالبات من النساء ، كنَّ يترددن على المدارس .

هذا مجمل عن ظهور المدارس في الاسلام ، ووصف لأنظمتها وأساليبها . .

المدارس الجامعة في الاسلام

المدارس الجامعة ، التي تذكرها كتب التاريخ والأدب كثيرة ، ولكن اشتهر منها ، جامعة قرطبة بالأندلس ، الأزهر الشريف

بمصر ، والمدرسة النظامية ببغداد . وكان ظهورها ، في مدة تقرب من مئة سنة ، تبتدىء من أواسط القرن العاشر للميلاد ، وتنتهي في أواسط القرن الحادي عشر . أما المدارس الأخرى التي ظهرت في تلك المدة ، وفي العصور التالية ، فهي على نمط هذه المدارس الجامعة ، مع تفاوت في النظام والمستوى ، يختلف باختلاف البلد والزمن والمذهب . وستتكلم عن هذه المدارس الثلاث ، واحدة واحدة ، كلاماً مختصراً ، لا إدعاء فيه بالتحقيق والاحاطة .

جامعة قرطبة

جامعة قرطبة تُعَدُّ نهضة العرب العلمية في الأندلس ، من أهم مباحث التاريخ ، ولكنها مع الأسف غير واضحة ، لقلة المصادر التي تفصِّل ظهورها ونموها وتطورها . والغريب أن العرب لم يعنوا بها عناية كافية ، في الماضي ولا في الحاضر . والحقائق التاريخية القليله التي نعرفها ، يجدها الباحث مبعثرة في كتب العرب . وقد يجد شيئاً منها في كتب الباحثين من المستشرقين ، ولكنه ينقص هذا وذاك ، التفاصيل الوافية ، والحقائق الدقيقة ، والاستنتاج الصحيح . وتكاد تكون المصادر التي يعتمد عليها من الصنفين ، مقصورة على (نفح الطيب) للمقري و (تاريخ المسلمين في اسبانيا) لدوزي .

وجد العرب الذين فتحوا الأندلس أنفسهم متمدنين ، بالنسبة إلى أهلها . وهذا على خلاف ما كانت عليه الحالة ، عندما فتحوا بلاد الفرس والروم في المشرق . والمشهور أن العرب في الأندلس ، قد تركوا أهلها على دينهم ، واختلطوا معهم بالتزاوج ، وبادلوا الأخذ والعطاء في سائر مظاهر الحياة ، وساووهم بأنفسهم ، وقربوهم إليهم ، في إدارة الدولة ، وفي المجالس الاجتماعية ، وفي درس العلم . وكان من نتائج هذا التسامح والامتزاج ، أن نشأ شعب أندلسي ، تحكمه دولة عربية إسلامية ، وتسوده ثقافة هي مزيج من العرب والمسلمين ، مع ما في البلاد من تقاليد ، وما لأهلها من صفات بدنية واجتماعية .

طلب العلم في الأندلس

ولا يعرف بالضبط تاريخ ابتداء طلب العلم في الأندلس ، ولكن تعلم اللغة العربية ، وعلوم العرب ، توصلاً إلى مركز في الدولة ، أو جاه في الحياة ، بدأ منذ الفتح . وكانت بلاد المشرق ، تغذي هذه الحركة ، بالعلماء والكتب . ولم تلبث هذه الحركة العلمية في الأندلس ، أن نمت نمواً كبيراً ، صار يضرب به المثل في أوروبا . . والظاهر أن تأثير ذلك ، في أهل الأندلس من غير العرب ، كان عظيماً ، حتى خشي بعضهم على الآداب النصرانية واللغة اللاتينية ، من الزوال ، أمام هذا التيار

الاسلامي العربي . فلا غرابة بعد هذا ، أن استعرب كثير من النصارى واليهود في الأندلس ، ونبغ منهم كبـار الكتّاب والوزراء .

وبلغ طلب العلم درجة عالية من الرقي ، في عهد عبد الرحمن الثالث ، وولده الحكم الثاني ، في القرن العاشـر للميلاد . وشهرة الحكم في العلم ، ومحبته لجمع الكتب ، تغني عن التفصيل ، إذ يقال إنه جمع في قصره ، ما يقرب من نصف مليون كتاب ، قرأها بنفسه ، وعلق على معظمها بخط يده ، وإنه دفع ألف دينار ثمناً للنسخة الأولى من كتاب الأغاني ، وإنه فتح سبعاً وعشرين مدرسة في عاصمته ، كان يدفع مرتبات معلميها من ماله الخاص ، وإنه قصد من ذلك تسهيل طلب العلم للفقراء ، الذين لا يقدرون على دفع نفقاته .

في هذا الجو العلمي ، تم تأسيس ما يسميه بعض الكتّاب والباحثين ، (جامعة قرطبة) ، أي المدرسة الجامعة ، التي كانت في الجامع المشهور . يقول دوزي ، إن هذه المدرسة ، كانت من أشهر المدارس الجامعة في الدنيا . وكان أبو بكر بن معاوية القرشي ، يدرس فيها الحديث ، وكان أبو علي القالي ، (صاحب الأمالي) ، يملي على الطلاب أخبار العرب ، وشيئاً من شعرهم ولغتهم ، وكان إبن القوطية يعلم فيها النحو . . وكان يبلغ عدد الطلاب في هذه المدرسة الألوف، معظمهم يتعلمون

الفقه وعلوم الدين . ومن علماء هذا العهد ، إبن عبد ربه صاحب العقد ، وإبن هانىء الشاعر ، وأبو بكـر الرازي المؤرخ ، ومسلمة بن أحمد الرياضي ، وأبو القاسم الزهراوي الطبيب الجرّاح .

ولا شك أن هذه الحركة العلمية ، التي بلغت غايتها بتأسيس المدرسة الجامعة في قرطبة ، كانت أساساً لما أنجبته الأندلس في القرنين التاليين ، من أدباء وعلماء وفلاسفة ، وما ظهر فيها من مدارس جامعة ، بلغت شهرتها ، أن تعلم فيها بعض كبار رجال الكنيسة ، بالاضافة إلى كبار رجال النصرانية وعامتهم .

الجامع الأزهر

الجامع الأزهر ـ تذكر كتب التاريخ ، أن جوهراً قائد المعزّ الفاطمي قد اختطّ مدينة القاهرة ، بجانب الفسطّاط ، في الليلة التي دخل فيها إليها ، (سنة ٩٦٩) . وأراد بذلك أن يجعل القاهرة ، مقرّ دواوين الحكومة ، وقصور خلفائها ووزرائها . ولكن من أول ما أمر به ، إبطال الدعاء لخلفاء بني العباس في المسجد (مسجد عمرو) ، والدعـاء للخليفة الفـاطمي ، والترحم على أهل البيت من أبناء عليّ ، بدلاً من ذلك .

وإتماماً لهذه السياسة ، وهي سياسة إعلاء شأن آل البيت ،

الذين انتسب إليهم الفاطميون ، أمر جوهر أن يقام الجامع الأزهر ، جنوبي قصر الخليفة ، في هذه المدينة الجديدة . وقد تم ذلك في سنة ٣٦١ هجرية . ولما جاء المُعِزّ لدين الله ، إلى عاصمته الجديدة ، وسكن قصره فيها ، صلى صلاة عيد الفطر ، في الجامع الأزهر . والظاهر أن الجامع ظلّ مسجداً للصلاة ، إلى أن جاء الخليفة العزيز بعد المعز ، فخصص الأزهر للدرس والعلم ، في سنة ٣٧٨ للهجرة ، وذلك في آخر القرن العاشر للميلاد ، وأول القرن الحادي عشر .

وفي زمن الحاكم بأمر الله ، أسس معهد (دار الحكمة) ، وهو معهد للدرس والبحث ، لا علاقة له بالأزهر ، إلّا طريقة إنشائه . وكان فيه أساتذة مشهورون بعلوم الدنيا والدين ، ومكتبة عامرة نقلت إليها الكتب من قصر الخليفة ، وجمع غيرها من سائر الأمصار . وكان طلاب العلم يؤمونه للدرس وسماع العلم . وكانت تعطى لهم الأقلام والأوراق والحبر مجاناً .

والظاهر أن مصر ، وهي مركز مهم من مراكز الثقافة اليونانية ، كانت ملائمة لمثل هذه المعاهد ، التي تبحث في العلوم الطبيعية والفلسفية . وشاهدنا على ذلك ، انتشار رسائل إخوان الصفاء المشهورة بالنزعة الفلسفية ، بين الشيعة في مصر في زمن الفاطميين . وهناك شاهد آخر ، وهو أن إبن الهيثم ، المشهور بحبه للفلسفة اليونانية ، لم يجد لنفسه ملجأ في العراق ، بعد

انتصار الفقهاء على الفلاسفة ، فذهب إلى الأزهر ، في زمن الحاكم بأمر الله .

يستنتج مما مضى ، أن الأزهر بني ليكون مسجداً للصلاة ، ثم خصص للدرس والعلم ، زيادة على ذلك . ولا شك أن هذا الاتجاه ، في الاستفادة من الجامع ، يناسب حالة العصر ، وخصوصاً بعد أن دونت العلوم اللسانية والشرعية ، ونضج درس العلوم الفلسفية ، في القرن العاشر للميلاد . ولا شك أن الدعوة إلى مذهب من المذاهب بواسطة المدرسة ، وتحت سلطان الدولة ، هو ما اعتاده الناس حينئذ ، بعد أن استتب الأمر للفقهاء ، وتمت غلبتهم للفلاسفة .

وإن تأسيس الأزهر ، لنشر مذهب الدولة القائمة ، ولتسهيل مهمة رؤسائها ، وللدفاع عن خطتهم ، يتلاءم مع ما فعله نظام المُلْكِ في الجهة الأخرى ، من البلاد الاسلامية ، حينما أسس مدارسه في مدن العراق وخراسان . فالأزهر مدرسة من المدارس التي نشأت في الاسلام ، وينطبق عليه ، ما ينطبق على المدارس الأخرى ، من حيث ظهوره والغرض منه ، ومواد الدرس فيه ، وتطور ذلك كله . فالجامع بني من مال الدولة ، وتحت مراقبتها ، وهي التي خصصته للدرس والعلم ، وهي التي أنفقت عليه المال ، وحبست له الأوقاف ، وهي التي عينت له الأساتذة ، ودفعت إليهم المرتبات .

نكتفي بهذا المقدار عن الأزهر ، حفظاً للتناسب في الكلام عن المدارس الجامعة التي ذكرت . ولكن يمكن القول إجمالاً ، إن الحقائق المعروفة عن تاريخ الأزهر ، وعن علمائه وفضله في تاريخ العرب والاسلام ، مشهورة لا تحتاج إلى إعادة في هذا الموضع .

- ١١ -

مدارس جامعة أخرى

تناولنا في الفصل السابق مدرستين كبيرتين ، من المدارس الجامعة التي ظهرت في عصر من العصور الاسلامية ، الزاهية بطلب العلم ونشره . وهما المدرسة الجامعة التي أقيمت في جامع قرطبة ، والمدرسة الجامعة التي تأسست في الجامع الأزهر . بقي مدرسة جامعة ثالثة من المدارس ، تأسست في العصر نفسه في بغداد ، وهي المدرسة النظامية . ومدرسة جامعة رابعة ، ظهرت بعد تلك المدارس ، وهي المدرسة المستنصرية .

المدرسة النظامية

(المدرسة النظامية في بغداد) - فتحت هذه المدرسة للطلاب ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد .

وهي إحدى المدارس الجامعة ، التي أسسها نظام الملك ، في مدن العراق وخراسان . وكان أبو إسحاق الشيرازي أول رئيس لها . واشتهرت بتعليم علوم الدين وعلوم اللغة ، ولم ترد الشواهد على تعليم العلوم الأخرى فيها . إلاّ أنه يصح أن يقال ، أن أساتذتها قد اصطنعوا أساليب الفلاسفة في بحثهم وجدلهم ، ولم يقبلوا مادتهم ، بل لدينا ما يثبت أنهم أعرضوا عنها ، وألفوا الكتب في إبطالها ، كما فعل الإمام الغزالي ، في كتابه المشهور (تهافت الفلاسفة) .

ومن الأساتذة الذين علّموا في النظامية ، أبو بكر السمعاني ، (وهو أبو السمعاني الآخر صاحب كتاب الأنساب) . والإمام أبو حامد الغزالي ، (صاحب كتاب إحياء علوم الدين) . وأبو بكر زكريا التبريزي (شارح كتاب الحماسة والمعلقات) . وأبو المحاسن إبن شداد (مؤلف سيرة صلاح الدين) . . وكان الوزير نظام الملك ، يطّلع بنفسه على هذه المدرسة ، وعلى وضع قوانينها ، ويعين لها الرؤساء والأساتذة ، ويحدد لهم واجباتهم على وجه الاجمال .

وقد قامت المدرسة النظامية ، لتعليم الدين على مذهب الشافعي من أهل السُّنّة . فهي من هذه الناحية ، مقابلة للأزهر الذي تخصص بتعليم الدين على طريقة أهل الشيعة ، في زمن الفاطميين . وهذا يناسب الرأي الذي ذكرناه في وصف المدارس

إجمالاً ، وهو أن من أغراضها ، توطيد مركز الدولة القائمة ، عن طريق نشر مذهبها ، أو نشر نوع خاص من العلم ، يناسبها ويساعد في تدريب الناس على إطاعتها ، وتسهيل عمل عمالها بينهم .

وقد عاشت هذه المدرسة ، ما لا يقل عن ثلاثمئة سنة ، ولكن لم يعرف شيء كثير عن تاريخها في أثناء كل هذه المدة . ومن أوفى ما كتب عنها ، ما ذكره إبن جبير ، في رحلته ، وقد زارها وقال يصف مجلساً من مجالس الوعظ فيها : « أول من شاهدنا مجلسه منهم (يريد الأساتذة) ، الشيخ الإمام رضي الدين القزويني ، رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية . . . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة ، إثر صلاة العصر من يوم الجمعة . . . فاندفع فخطب خطبة سكون ووقار ، وتصرف في أفانين من العلوم ، في تفسير كتاب الله عز وجل ، وإيراد حديث رسول الله (صلعم) . . . ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصّر ، وتقدم وما تأخر ، ودفعت إليه عدة رقاع ، فجمعها جملة في يده ، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذها ، إلى أن فرغ منها عند المساء ، فنزل وافترق الجمع » .

ومن الشواهد على منزلة أساتذة النظامية وواعظيها ، وأثرهم في طلابهم أو سامعيهم ، ما جاء في (النجوم الزاهرة) ، للمؤرخ (تغري بردي) ، عند ترجمة العبّادي الذي كان واعظاً

في المدرسة . فيقال انه كان يحضر مجلسه ثلاثون ألفاً من الرجال والنساء ، وإن بوعظه وتعليمه ، حلق أكثر الصبيان رؤ وسهم ، ولزموا المساجد ، وبدَّدوا الخمور ، وكسروا الملاهي .

هذه هي المدارس الجامعة الثلاث ـ مدرسة قرطبة ، والجامع الأزهر ، والمدرسة النظامية ـ وقد نشأت في فترة واحدة ، بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الحادي عشر للميلاد ، على وجه التقريب .

المدرسة المستنصرية،

إتماماً للبحث ، نذكر شيئاً عن مدرسة جامعة أخرى ، ظهرت بعد هذه المدة ، وهي المدرسة المستنصرية ، لأنها تعتبر نموذجاً للمدارس التي جاءت بعد عصر التأسيس ، بل تعدُّ أعلى ما وصل إليه العرب ، في تأسيس المدارس الجامعة .

أنشئت هذه المدرسة ، في الثلث الأول من القرن السابع للهجرة ، أو في الثلث الأول من القرن الثالث عشر للميلاد ، في بغداد ، في زمن الخليفة المستنصر بالله ، وهي منسوبة إليه ، لأنه يعود الفضل إليه في بنائها ، وفي الانفاق عليها ، وحبس الأوقاف لها ، وتعيين المدرسين والمشايخ فيها .

قال إبن أبي الحديد ، وكان قد شهد حفلة افتتاح المدرسة ، بحضرة الخليفة ، يصفها :

وَضَعَ الإِمَامُ بها أساسَ بِنائِه
والمَوْجُ بَيْنَ مُجَمْجِمٍ ومُزَمْجِرِ
قَصْراً وَمَدْرَسَةً لِمَنْ طَلَبَ الغِنَى
أو رامَ شَأْوَ العالِمِ المُتَبَحِّرِ
هِيَ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ يَجْري تَحْتَها
من ماء دِجْلَةَ ماءُ نَهْرِ الكَوْثَرِ

وقد يعد تأسيس هذه المدرسة الجامعة ، آخر محاولة حاولها العرب والمسلمون ، في سبيل التعليم العالي ، ودولتهم قائمة في المشرق . لأن مجيء التتار ، قد أطفأ النور الذي كان يسطع من هذه المدرسة ، ومن غيرها من المدارس في العالم الاسلامي . إذ المعروف أن التتار قتلوا بعض أساتذة هذه المدرسة ، وألقوا بكثير من كتبها في النهر ، ولكنهم لم يقضوا عليها قضاء تاماً . وقد يعد تأسيس هذه المدرسة ، دليلاً على التقدم العلمي من جهتين ، الأولى : أنها قامت لتعليم المذاهب الأربعة بالتساوي ، فهي خطوة إلى الامام ، في سبيل طلب العلم بحرية لا يشوبها قيد مذهبي أو سياسي . والثانية : انه عُلِّمَ فيها الطب والحساب من العلوم الطبيعية . فالمدرسة المستنصرية في هذين الأمرين ، تقرب حقاً من المعاهد التي نطلق عليها إسم (الجامعة) ، لأنها

تدرس جميع العلوم على السواء ، ولا تفرض الحدود والحواجز في ذلك .

بناء المدرسة

بنيت المستنصرية ، على طرز المدارس الأخرى ، فكان فيها الجامع والرِّواق والمكتبة والحـمَّام والمطبخ والمستشفى ، في بيوت متقاربة كأنها حيٌّ واحد . والظاهر أن بناءها كان بجوار قصر الخليفة ، وهناك روايات تدل على أنه أمر بتخطيط بستان له بقربها ، وجعل فيه عُلِّيَّة تشرف على المدرسة ، وتمكّنه من سماع الدرس والوعظ ، والتنزه في البستان في وقت واحد .

ويظهر أنه كان يعلم فيها الفقه ، على المذاهب الأربعة ، لكل مذهب مدرس ، يساعده أربعة من المعيدين . وكان يعلم فيها أيضاً الحديث وعلوم العربية ، كما كان يعلّم فيها الطب ويأوي إليها عدد من الأيتام . وكانت تصرف للأساتذة ومساعديهم ، المعاليم من المال ، والجرايات من الطعام ، كما كانت تصرف للطلاب المجاورين ، والفقراء والأيتام ، بمقادير وافرة منتظمة .

وكان من أساتذة هذه المدرسة ، مشاهير الفقهاء والعلماء في عصرها . فمنهم محيي الدين بن فضلان الشافعي ، وجمال الدين بن الجوزي الحنبلي ، وقاضي القضاة أبو المعالي عبد الرحمن الواسطي . . والظاهر أن بعض الأساتذة ، الذين كانوا

يدرِّسون في المدرسة النظامية في بغداد ، كانوا يدرِّسون في المستنصرية أيضاً . ومن أشهر الذين فعلوا ذلك ، محمود الزنجانيُّ قاضي قضاة بغداد .

لم تطل مدة المدرسة المستنصرية ، وهي قائمة على خدمة العلم . ولكن بناءها قد قاوم عوادي الزمان ، فزاره إبنِ بطوطة ، بعد نحو قرن من غزوة التتار ، وذكرها غيره من الكتّاب والرحّالين ، من عرب وأعاجم ، وظل بناؤها ماثلاً إلى أيامنا هذه ، كشاهد من الشواهد الكثيرة ، على ما بلغه العرب والمسلمون ، من علوِّ المقام في طلب العلم ونشره .

ويمكن الآن ، أن نجملَ القول في نشوء المدارس الجامعة وتطورها ، وبلوغها ذروة الكمال . فالثابت من الحقائق التي عرضناها ، أن المدارس بمعناها الفنيّ ، قد ظهرت في منتصف القرن العاشر للميلاد ، وبلغت بالتدريج غاية الكمال في مدة ثلاثة قرون ، ثم انطفأ نورها بعد ذلك ، في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، وذلك بزوال آخر سلطة سياسية للعرب في المشرق . أما ما كان في المغرب ، فلا يكاد يختلف عن هذا في شيء .

- ١٢ -

التعليم في عهود غير قريبة

وصلنا في كلامنا عن التربية والتعليم ، في تاريخ العرب

والاسلام ، إلى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، وإنتهينا من بحث ظهور المدارس النظامية والمدارس الجامعة وتطوُّرها ، وبلوغها غاية الكمال في مدة ثلاث قرون ، تمتد من تأسيس الأزهر ، إلى تأسيس المدرسة المستنصرية . وسنتناول الآن هذا الموضوع ، في ثلاثة قرون أخرى ، تمتد من مجيء التتار إلى مجيء الأتراك العثمانيين .

يمكن أن يقال في وصف تاريخ المدة الأولى ، إنه غلب عليها الاضطراب السياسي ، ووقعت في أثنائها الحملات الصليبية ، وامتازت بازدهار علمي ديني ، برز للوجود بتأسيس المدارس الجامعة ، وذلك على أثر انتصار الفقهاء على الفلاسفة . ولكن المتصوفة قد أخذوا مكان الفلاسفة في هذا النزاع الفكري ، فناصبوا الفقهاء العداء ، ونَـحْواً في فهم الدين نحواً فلسفياً باطنياً . فالمتصوفة علماء في الدين كالفقهاء ، ولكنهم يصطنعون طرق الفلاسفة في ذلك ، ويعتمدون اعتماداً كبيراً على النظرية القائلة ، بأن المعرفة توحى إلى المرء وحياً ، وأن محبة الله والاتصال به ، هما أساس السعادة والمعرفة . وليس معنى هذا أن الفلسفة قد زالت من الوجود ، أو أن الفلاسفة لم يكن لهم شأن . فالواقع أن عدداً من كبار الفلاسفة ، كإبن رشد وإبن طفيل وإبن ماجة ، قد ظهروا في هذه المـدة ، في المغرب ، لا في المشرق . لأن المغرب لم يشتهر عنه ، ما اشتهر عن المشرق ، من إفراط في الخلاف المذهبي والفكري .

ويمكن أن يقال في وصف تاريخ المدة الثانية ، إنه انحطاط شنيع في عالم السياسة ، وركود مخيف في عالم الفكر . فمن الناحية السياسية ، اضمحل سلطان العرب نهائياً ، وقامت على أنقاض الخلافة الاسلامية ، دول من المغول والأتراك والفرس والمماليك والبربر . ولم يبق سلطان للعرب إلّا في الجزيرة العربية نفسها ، وفي غرناطة في الأندلس . أما من الناحية الفكرية ، فقد غلب على العلماء والكتّاب ، التقليد والعقم . وتكاد تكون كل الكتب التي ظهرت في تلك المدة ، شرحاً لما سبقها ، أو جمعاً لما تناثر من مادتها ، أو تعليقاً سقيماً على آراء أصحابها ، أو تأليفاً جديداً لا أثر فيه للابتكار والطّرافة . ولم يشذّ عن هذه القاعدة ، سوى المؤرخ الشهير عبد الرحمن بن خلدون ، والمتصوّف الكبير عبد الوهاب الشعراني .

ويمكن وصف تاريخ هاتين المدتين إجمالاً ، أي من أوائل القرن الحادي عشر ، إلى أوائل القرن السادس عشر ، بكلمات مختصرة . فالنصر الذي تم للفقهاء على الفلاسفة ، لا يمثله في الحقيقة إلّا الغزالي ، فهو الذي لاءم بين الفقهاء والمتصوفة ، فأبعد الفلسفة بالاسم ، وأدخلها بالفعل عن طريق التصوّف ، وبذلك مزج كل الثقافات الاسلامية العربية (من فقه وفلسفةٍ وتصوّف) بصورة تضمن للدين سلطانه ، ولا تستبعد مبادىء الفلسفة ، أو مذاهب التصوف . فأثر الغزالي في تاريخ الفكر

الاسلامي العربي ، جليل الخطر ، لا بد أن يلاحظه كلُّ باحث ، على مدى خمسة قرون من موته .

شأن اللغة العربية

هذا وصف إجمالي من الناحية السياسية والفكرية ، يصدق على الخمسمئة سنة ، التي تمتد من عهد الغزالي إلى مجيء الأتراك العثمانيين . أما من ناحية التربية والتعليم ، فيمكن إجمال أوصاف هذه المدة ، في عدة نقط أساسية . فمنها تأسيس المدارس الجامعة ، ونموُّها ، ثم انحطاطها . ومنها أن شأن اللغة العربية قد أخذ يضمحلُّ ، لأنها لم تكن لغة الدولة ، في جميع البلاد الاسلامية . ومنها نشوء المدارس من درجات مختلفة ، في الزوايا والرُّبُط ، واهتمام الملوك والسلاطين والأمراء من الأعاجم ، بتأسيس المدارس وتخصيص الأوقاف لها . ومنها انحطاط المستوى العلمي إجمالاً ، في المدارس الجامعة وفي المدارس العادية ، وخاصة بعد مجيء التتار . ومنها ازدهار نوع خاص من التأليف ، كان أقرب إلى التصنيف ، منه إلى الابتكار والإبداع . ومنها اضطراب أساليب التعليم ، وظهور المتطفلين عليه ، في أدواره الدُّنيا والعليا .

كان اضمحلال شأن اللغة العربية ، من أول المصائب التي

حلّت بالثقافة الاسلامية العربية . وأثر ذلك في التربية والتعليم كبير الخطر . فالمعروف أن الفرس كانوا شركاء العرب في دولة الخلافة ، ولكنهم ظلوا يرقبون فرصة ، يتخلصون فيها من حكم العرب السياسي ، ومن سلطانهم الثقافي . وجاءت هـذه الفرصة ، بعد سقوط الخلافة ، فتحللت بلاد الفرس على التدريج من سلطان اللغة العربية ، فانحصر استعمالها في الشؤون الدينية ، وفي بعض المدارس ، وعند بعض العلماء . وظلّ ذلك في ازدياد ، حتى جاء زمن لم يبق فيه للعربية سلطان على الفرس . ونشأ عن هذا ، وعن ضعف العرب السياسي ، وعن فشوّ اللحن في الكلام ، والعقم في البحث والتأليف ، أن تضاءل شأن اللغة العربية ، حتى في مصر والشام والعراق ، وغلبت عليها أساليب الأعاجم في الكتابة ، وبعض ركاكتهم في التعبير والاصطلاح . وهذا كله جعل اللغة وتعليمها أمراً صعباً ، وزاده صعوبة ما طرأ على المدارس والكتاتيب ، من انحطاط في المستوى العلمي والاداري على وجه الاجمال .

مدارس كثيرة وعلم متدنٍ

والغريب أن هذا الانحطاط ، كان يظهر واضحاً في نوع العلم والعلماء ، لا في عددهم أو عدد كتبهم ، أو عدد المدارس والمكاتب وتنوعها . فالمدارس على ما يظهر من الكتب ، كانت

كثيرة ، وعدد المدرسين والفقهاء والمؤدبين ومعلمي الكتاتيب ، غير قليل . وإقبال عدد كبير جداً من الطلاب على التعلم والدرس ، واضح لكل من يقرأ كتب العصر . لكن لم يظهر مع ذلك ، علماء كبار أو باحثون مشهورون . فأين الغزالي والمعري والمتنبي والكندي والجاحظ ؟ بل أين الطبري والبخاري والأصمعي ؟ . . لم تنتج تلك الأزمنة عالماً في اللغة ، أو الأدب ، أو الشعر ، أو الفقه ، أو الحديث ، أو التاريخ ، أو الفلسفة ، ـ يمكن أن نقابله بعلماء العصور السالفة . والمدارس التي وجدت ، لم تكن من درجة المدارس الجامعة التي وصفناها ، والكتاتيب التي كانت مفتوحة ، لم تكن من درجة لائقة . فمعظمها في بيوت خاصة ، أو في زاوية من زوايا المتصوفة ، أو في تكيَّة من تكايا الدراويش ، يقضي فيها الطالب سنوات طويلة ، وهو يتعلم أصول العربية ومبادىء الدين ، ثم يخرج منها وقلما توصَّل إلى شيء صالح من هذا أو ذاك .

وليس لهذه الظاهرة الغريبة ـ وهي انحطاط مستوى المدارس والكتاتيب مع كثرة عددها ، وعدد طلابها ومعلميها ـ إلاَّ تعليل واحد ، وهو أن الذين كانوا يقومون عليها ، هم السلاطين والأمراء من الأعاجم . فكأن تأسيس المدارس وحبس الأوقاف عليها ، أصبح سُنَّةً أو عادة عند هؤلاء ، يتقرَّبون بذلك من العامة ، أو يحاولون إرضاء مشايخ الطرق ، وفقهاء المذاهب ، بتعيينهم في وظائف التدريس ، أو الوعظ أو التعليم ، في

المدارس والزوايا والكتاتيب. فهؤلاء السلاطين والأمراء ، لم يعرفوا قيمة إنشاء المدارس ، كما عرفها نظام الملك ، أو المعزُّ لدين الله . ويشذُّ عن هذه القاعدة ، ما كانت عليه المدارس الجامعة ، أو المدارس العليا في غرناطة والقيروان ومصر ، وغيرها من بلاد الأندلس وشمال أفريقيا . أما مدارس الشام والعراق وفارس ، فالظاهر أنها كانت منحطّة . ولعل من أسباب ذلك أيضاً ، أن الصليبيين والتتار والأتراك ، غزوا هذه البلاد وأعملوا في معظمها سيف الدمار والخراب ، بينما لم تجتح الأندلس وشمال أفريقية ، مثل هذه الموجات الكبيرة . أما في الجزيرة العربية نفسها ، فقد حافظت مدارس مكة والمدينة ، على صبغتها الدينية ، وظلت على حالها من البساطة ، والاقتصار على تعليم علوم الدين واللسان العربي .

يخيل إلى القارىء ، أن في هذه الأوصاف شيئاً من الغُلُوّ ، خصوصاً وأمامنا عدد كبير من المؤلفين والمفكرين والشعراء ، الذين ظهروا في هذه الفترة ، وكتبهم وآراؤهم ما زالت في متناولنا ، نعتمد عليها في كثير من الأبحاث . . فمن لا يعرف المقرَّي وإبن خلدون وإبن العربي وإبن الفارض وإبن خلّكان والمقريزي والسيوطي ؟ ـ وكلهم ظهروا في ذاك الزمان . . كل هذا صحيح ، وظهور أفراد مبرّزين في عصور مظلمة ، أمر غير غريب ، أو مستحيل الحدوث ، ولكن كل هذا لا يمنع من صحة المميزات العامة التي ذكرناها .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠١

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أحاديث رمضانية

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

أَحَادِيث رَمَضَانِيَّة

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ يا عبادي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إنَّ اللَّه يغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

صدق الله العظيم

رمضان كريم

رمضان من أنفس الأيام وأعزها عند الله تعالى ، لأنه متنزل الهداية الإلٰهية ، ومحتوى الليلة المباركة التي جعلها الله خيراً من ألف شهر .

وهو شهر السخاء والكرم والجود والصفح والعفو والمغفرة . . فيه يصفح الله عن عباده ويعفو عن سيئاتهم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » وفيه يصفح المسلم عن أخيه المسلم يتجاوز عن اساءاته وسقطاته : « إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائماً ، فلا يرفث ولا يجهل ، وإن أمرؤ قاتله أو شاتمه ، فليقل : إني صائم . . إني صائم » .

وكرم المسلم إنما يكون فيما يبذل من صدقات وما يجود به من عطاء ، فقد كان النبي ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان . . يروي عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما ، فأما الخلقان

اللذان يحبهما : فحسن الخلق والسخاء ، وأما اللذان يبغضهما : فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس » .

وسأل معاوية بن أبي سفيان الحسن بن علي عن الكرم فقال : أما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال ، والاطعام في المحل (المجاعة) ، والرأفة بالسائل مع بذل النائل .

فمن عرف كرم رمضان فقد صادف كرمه وكان عند الله كريماً ، ومن عرف فضل رمضان فقد أصاب فضله وكان عند الله فاضلاً .

وإذن فليس من كرم رمضان وفضله أن يتبرم المسلم بالصيام ، أو يفحش في الكلام ، .أو يسيء إلى أحد .

وليس من فضل رمضان وفضله أن يعوض الصائم فترة الحرمان المشروع بالاسراف الممنوع .

وليس من فضل رمضان وكرمه أن تشبع ، وحولك الجياع ، وأن تتمتع وحولك المحرومون .

فيم . . يختصون ؟

عيّن أبو بكر رضي الله عنه عمر إبن الخطاب قاضياً على المدينة فمكث سنة لم يفتتح جلسة ، ولم يختصم إليه اثنان ،

فطلب من أبي بكر اعفاءه من القضاء . . فقال أبو بكر : أمن مشقة القضاء تطلب الاعفاء يا عمر ؟

أجاب عمر : لا يا خليفة رسول الله ، ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين ، عرف كل منهم ماله من حق فلم يطلب أكثر منه ، وما عليه من واجب فلم يقصر في ادائه ، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه إذا غاب أحدهم تفقدوه ، وإذا مرض عادوه ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا احتاج ساعدوه وإذا أصيب واسوه ، دينهم النصيحة ، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . ففيم يختصمون ؟ .

شهر الصبر

قيل في فضيلة الصبر أنها ميزة الانسان على غيره مع ماله من مزايا أخرى كبرى .

ذلك لأن الملائكة مفطورون على الخير والطهر فلا يعانون صراعاً بين الغرائز والشهوات ، وبقية أنواع الحيوان تحكمها الغرائز والشهوات ولا تجد قوة أخرى تصادمها وتحد من نشاطها أو توجهها الوجه الفضلى .

أما الانسان فإنه يجد نفسه في نزاع دائم وصراع مستمر بين نوازع الخير ودوافع الشر ، فإذا ثبت بباعث الدين وباعث العقل

وباعث الخير . لبواعث الشر والشيطان كان من الصابرين . الذين يقول الله فيهم : إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب .

ولا شك أن صوم شهر رمضان يعود المؤمنين الصبر على المشاق بالحرمان من الطعام والشراب والشهوة طول النهار فيه ، وعبادة الله والاتصال به في الصلاة والتلاوة والذكر في جانب من لياليه ، وبذلك يخرج المؤمن من صيامه وقيامه في هذا الشهر وقد أصبح شخصاً آخر من حيث خلقه وضميره وشعوره وتفكيره ، لأنه أمضى ثلاثين أو تسعة وعشرين يوماً يصبر على الجوع والظمأ . ويشكر على الشبع والري .

وقد وعد الله الصابرين بالنصر وزيادة الخير والأجر كما يفهم من قوله : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا وأتقوا الله لعلكم تفلحون » .

أما الشكر فجزاؤه كما يقول الله : « لئن شكرتم لأزيدنكم » والصبر في البأساء والضراء وحين البأس من أعظم أنواع البر . وهو مظهر الصدق والتقوى كما يقول الله : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وقد امتحن الله المسلمين في هذا الشهر بكثير من المعار فكان النصر حليفهم في غزوة بدر وفتح مكة مع المشركين وفي معركة عين جالوت مع التتار ، وفي معركة الأندلس مع القوط ومعركة المصورة مع الصليبيين .

لا يشغله سمع عن سمع

كان علي رضي الله عنه يؤدي العمرة عندما رأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل (أي لا توقعه في الخطأ) ولا يبرمه (لا يمله) الحاح الملحين : أذقني برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك .

فقال علي : والذي نفسي بيده ، لو قلتها وعليك ملء السموات والأرضين ذنوباً لغفر لك .

الطهارة . . قبل الصلاة

القيام للصلاة هو تجاه النية إلى إدائها ، سواء أكانت فرضاً أم نفلاً . . والتعبير بلفظ القيام للدلالة على عظم قدر الصلاة ، ورفعة شأنها وأنها بحيث تستدعي حضوراً لوجود الانساني كله ، وقيامه ظاهراً وباطناً للتوجه إليها ، ولقاء الله تعالى فيها بكيان

جميع لا يتخلف منه شيء عن الانتظام في هذا الموقف الجليل . .

فالنية قولاً أو فعلاً شرط لصحة العبادات ، كما أنها ملاك كل عمل جاد يعمله الانسان ، كما يقول الرسول الكريم : « إنما الأعمال بالنيات » . . وكما يقول : « إنما يحشر الناس على نياتهم » .

فلا تصح صلاة إلا بعد أن يكون المصلي على وضوء . ولا يصح وضوء إلاّ مع نية منعقدة عليه من أجل الصلاة . .

والوضوء إنما يكون بعد طهارة الجسد ، بالاغتسال من الجنابة ، أو الحيض ، أو النفاس . .

وصورة الوضوء هي كما بينها الله تعالى في الآية : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤ وسكم وأرجلكم إلى الكعبين » .

فالأعضاء المطلوب غسلها هي على الترتيب : الوجه ، واليدان إلى المرفقين ، والمرفق هو مفصل الساعد والعضد ، والرجلان إلى الكعبين . . أما الرأس فيمسح عليه مسحاً باليد .

هذا الغسل الواجب ، هو عند وجود الماء . . أما عند فقد الماء في سفر أو إقامة ، أو في حال المرض الذي لا يقدر معه المريض على استعمال الماء ـ فيجزي في هذا كله التيمم .

والتيمم ، معناه القصد ، والاتجاه إلى وجهة ما . . والمراد بقوله تعالى : « فتيمموا صعيداً طيباً » اختيار مكان طاهر من الأرض ، يضرب المتيمم باليدين على ترابها ، ثم يمسح بهما اليدين والوجه . .

والصعيد ، ما صعد من الأرض وارتفع ، والاشارة في الآية إليه لمظنة أنه بمنأى من الخبث والقذر حيث يعلو عن استعمال الناس ، والتلوث بالقذارات . . فليس الصعيد من الأرض مقصوداً لذاته وإنما لما غلب عليه أن يكون طاهراً فأي تراب طاهر ، في مكان عال ، أو منخفض هو صالح للتيمم منه .

الشجرة تشهد !

استودع رجل رجلاً مالاً ثم طالبه به فأنكره ، فخاصمه صاحب المال إلى القاضي اياس بن معاوية .

قال صاحب المال : اني دفعت المال إليه .

فسأل القاضي : من شاهدك ؟

قال الرجل : لقد سلمت إليه المال في موضع كذا ولم يحضرنا أحد حتى يشهد .

قال القاضي : فأي شيء في ذلك الموضع ؟

قال : الرجل : توجد هناك شجرة .

فقال له اياس : اذهب إلى ذلك الموضع وانظر الشجرة فلعل الله يوضح لك هناك ما يتبين به حقك ، لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت فتتذكر إذا رأيت الشجرة .

فمضى الرجل وقال القاضي للخصم : أجلس حتى يرجع خصمك ، فجلس .

ومضى اياس يقضي بين الناس فيما يعرض عليه من قضايا وينظر إلى الرجل بين وقت وآخر ، ثم سأله فجأة : يا هذا أترى صاحبك قد وصل إلى موضع الشجرة التي ذكر ؟

فأجاب الرجل : لا لم يصلها بعد .

وهناك صاح به القاضي : يا عدو الله انك لخائن .

فاعترف الرجل بأنه أخذ المال واعتذر عن إنكاره .

فأمر القاضي بالتحفظ عليه .

حتى جاء صاحب المال فقال له اياس : لقد أقر الرجل بحقك فخذه .

العبادات والمجتمع

كل ما يصدر عن المسلم ينبغي أن يحركه الاخلاص في جميع اتجاهاته سواء كان قولاً أو عملاً ، فالكلمة ينطق بها يجب أن

تكون هادفة أساسها الصدق لا خداع فيها ولا نفاق وراءها دفاع عن مظلوم . غضبه في وجه الظالم . . أنه الكلمة الطيبة التي تحدث عنها القرآن الكريم : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » .

وسلوك المسلم يجب أن يخضع لتوجيهات القرآن والسنة ، من الحب والالفة بين مواطنيه والمشاركة في أمالهم وآلامهم قال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » وقال ﷺ : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منا » « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

فالعبادات كلها تهدف إلى خلق مجتمع صالح يسعد به أبناؤه ويتضاءل الشر بين جوانبه ، فالصلاة تجمع بين الناس وتسوي بينهم وتعمق مفاهيم الخير في أعماقهم وتحول بينهم وبين المنكر : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

والصوم يعلم الصبر وينمي في النفوس حب الآخرين والاحساس بشعورهم ويبعث فيهم يقظة الضمير ويخلق الارادة القوية التي هي محك الرجال قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

والزكاة تطهير للنفس من شوائب الخطايا وطغيان الشح وهواجس الأنانية قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

والحج رحلة إلى الله متجردة من مظاهر الدنيا تتأكد فيها عوامل الترابط والأخوة ونبذ الحقد والكراهية قال تعالى : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » .

وإن عبادة لا تثمر هذه المعاني في سلوك صاحبها لا قيمة لها .

فضل تلاوة القرآن

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه ، لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ، ولا يخلق على كثرة الرد ، فاتلوه فإن الله تعالى يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما اني لا أقول « ألم » حرف ، ولكن ـ ألف ـ حرف ولام ـ حرف ـ وميم ـ حرف . .

وفي حديث مسلم عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه

بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وخصتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده .

القلب المفتوح

إن أحب الناس إلى الله من لهم قلب مفتوح : عيونهم تبصر وآذانهم تسمع ، وقلوبهم تفكر وتتدبر ما تبصر وما تسمع ، وتختار أحسن ما تسمع وما تبصر : فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

والعلم لا يتقدم والتطور الحضاري لن يكون في ظل الجمود والتمسك بالقديم كيفما كان ، ولو تمسك العالم بما كان عليه الآباء والأجداد لبقي في ضلاله إلى يومنا هذا .

ولقد جاء الاسلام حرباً على الجمود وضيق الأفق والتخلف ، والاقتداء بما عليه الآباء مع وجود ما هو أهدى ، وكانت تعاليمه أكبر دافع لحرية الرأي وأعمال الفكر . .

ولذلك عرض كل قضاياه على العقل ، فلقد تبين الرشد من ألغي وكل الذي يدعو إليه أن ينفتح العقل للنظر في مختلف الآراء ، فإذا كان القلب سليماً فإنه سيميز الخبيث من الطيب والحق من الباطل وسيختار الحق والطيب حتماً ، ولن يكون

المسلم مبشراً بالجنة إلاّ إذا بلغ هذه الدرجة من التمييز .

وإنه لا خوف على المسلم الذي فهم دينه ووعى قضاياه ، من أن يطلع على أي مذهب أو تيار فكري ، لأن دينه نور وهي ظلام ، وهو ريح وهي دخان ، « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

إنما الخوف على الذين لم يتمكن الايمان من قلوبهم ، ولم يتعرفوا إلى أحكام الدين وأسراره ، وهم لخلوهم من المناعة عرضة للاستهواء .

وإذا كان الانسان يبني منزله على أرض صلبة ، ويعني بمتانته ليقاوم الأعاصير ، فإنه أحق بأن يربي أبناءه على قاعدة صلبة من العلم والايمان حتى يقاوم الشكوك والأوهام ، وتلبيس الباطل ثوب الحق ، وهذا واجب الآباء والمعلمين والمجتمع نحو أبناء الأمة التي خاطبها الله تعالى بقوله : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » ولن تكون هذه الوقاية إلاّ بالعلم والايمان والعمل الصالح ثم الانفتاح لكل خير والانغلاق عن كل شر .

الحياء والايمان

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها . مكارم الأخلاق عشرة . صدق الحديث .

وصدق اللسان .
وأداء الأمانة .
وصلة الرحم .
والمكافأة بالصنيع
وبذل المعروف .
وحفظ الذمام للجار
وحفظ الذمام للصاحب
وقرى الضيف

وراسهن الحياء وقال رسول الله . الحياء شعبة من الايمان وقال إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

وقال علي بن أبي طالب من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناسر عيبه .

حديث رمضان

صائم الدهر

الدين يسر لا عسر .

وقد رخص في الافطار لمن كان مريضاً أو على سفر ، وعليه القضاء : عدة من أيام أخر ، بعد زوال العذر .

« وعلى الذين يطيقونه فدية ، طعام مسكين » .

« ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » .

والله تعالى يجب أن تؤتى رخصه ، والأمر فيها متروك لضمير المؤمن ، وهو الذي يقدر وجه العذر في الافطار ، والطاقة على الصيام .

في (الموطأ والصحيحين) عن الصحابي « جابر بن عبد الله » قال :

« كان رسول الله ﷺ في سفر ، فرأى رجلاً قد اجتمع الناس عليه ، وقد ظلل عليه ـ من أعياء ـ فقال ﷺ : ما ماله ؟ قالوا : رجل صائم . فقال عليه الصلاة والسلام : ليس من البر الصيام في سفر » .

والأمر في صيام التطوع ، أولى بالتيسير ولنا في رسول الله ﷺ أسوة . سئلت السيدة عائشة أم المؤمنين عن صيامه فقالت :

« ما علمته استكمل صيام شهر قط إلا رمضان ، وما رأيته في شهر ـ غيره ـ أكثر صياماً منه في شعبان » وكان يقول :

« أحب العمل إلى الله ما داوم صاحبه عليه ، وإن قل » ويقول :

« خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لن يمل حتى تملوا » .

فيروى أن « عبد الله بن عمرو بن العاص » كان يصوم تطوعاً ، لا يفطر ، ويقوم الليل لا ينام . قال :

« فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لي :

ـ يا عبد الله بن عمرو ، ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتق القرآن كل ليلة ؟

قلت : بلى يا نبي الله ، ولم أرد بذلك إلّا الخير .

قال : فإنك إن فعلت ذلك هجمت عيناك ـ أي غارتا ونفهت نفسك ـ أي أعيت وكلت ـ لعينيك عليك حق ولنفسك حق ، ولأهلك حق . قم ونم ، وصم وأفطر .

ومن أوائل الوحي ، نزلت آية [المزمل] تيسيراً على النب والذين أمنوا معه .

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثا وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار ، علم أن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، علم سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرأوا في سبيل الله

فاقرأوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ، واستغفروا الله أن الله غفور رحيم » .

صدق الله العظيم

ثوب جديد وفرس غال لخوض المعركة

كان العابد الزاهد عمرو بن عتبة قد خرج للجهاد ضد الروم وعليه ثياب جديدة بيضاء أخذ ينظر إليها ويتأملها ويقول : وما أحسن الدم يتحدر على هذه !! اني سألت الله ثلاثاً فأعطاني إثنتين وأنا انتظر الثالثة . . سألته أن يزهدني في الدنيا ، فما أبالي ما أقبل منها وما أدبر . . وسألته أن يقويني على الصلاة ـ يعني الاكثار منها ـ فرزقنيها . . وسألته الشهادة في سبيله ، فأنا انتظرها وأرجوها .

ثم دخل المعركة والتحم مع العدو حتى إذا أصابه جرح نظر إليه وقال : انك جرح صغير ، وقد يبارك الله في الجرح الصغير ، وما زال يقاتل حتى نال ما تمنى وذهب إلى الله شهيداً .

وكان قد اشترى قبل خروجه للقتال فرساً بأربعة آلاف درهم فلاموه لأن ثمنه غال ، فقال : أن خطوة واحدة يخطوها في سبيل الله ويقربني بها من أعدائه ، لأحب إليّ من أربعة آلاف درهم !!

ديمقراطية التعليم في الاسلام

تمثلت ديمقراطيه التعليم في الاسلام في مظاهر متعددة نشير إلى بعضها فيما يأتي :

● حتمية المتعلم : وهناك العديد من النصوص التي تؤكد وجوب تعليم الناس وضرورة تعلمهم ، قد جاء في الحديث النبوي الشريف : « طالب العلم فريضة كل مسلم » وإن اختلف الكثيرون في تفسير المقصود بالعلم المفروض وعندما كرم الله الانسان فأصدر أمره الالهي للملائكة بالسجود له ، وضح ان ذلك إنما يرجع إلى ان الانسان اختص بعلم يختلف عن علم الملائكة . وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن يترتب عليه ضرورة أن يسعى الانسان بكل ما يملك من جهد للحصول على ذلك العلم . وقد جاء في مقدمات إبن رشد : « وطلب العلم والفقه في الدين من فروض الكفاية كالجهاد أوجبه الله على الجملة » . ومن هنا فقد استنتج « القابسي » ان الاسلام يوجب التعلم على الناس ، وزاد على ذلك بادلة هامة منها انه إذا كانت معرفة العبادات واجبة بنص القرآن ، ومعرفة القرآن واجبة أيضاً لضرورتها في الصلاة ، فيصبح الوالد مكلفا تعليم إبنه القرآن والصلاة ، لأن حكم الولد في الدين حكم أبيه وإذا كان معنى العلم هنا هو « العلم

الديني » فلأنه كان قوام الثقافة الاسلامية وخاصة في عهود الاسلام الأولى ، ومن ثم فإننا نغالي كثيراً إذا عممنا القول فسقنا هذه النصوص تأييداً لإيجاب التعلم وضرورة التعليم على وجه العموم في عصرنا الحاضر .

● المساواة في التعليم : فقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ انه قال : « أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الأمة ، فلم يعلمهم بالسوية ، فقيرهم مع غنيهم ، وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين » وهذا نص أقوى وأوضح من أن يحتاج إلى تعليق أو شرح في ضرورة أن يكون « المال » معياراً للمفاضلة بين الناس في التعلم والتعليم .

● تعليم المرأة . إذن لا يمكن أن يستقيم أمر الديمقراطية في مجتمع يحظى بالتعليم فيه الرجال دون النساء ، ومن هنا كان اهتمام الاسلام بتعليم المرأة وفقاً للظروف والقيم المبتغاة ، فمن ذلك ما جاء على لسان النبي ﷺ « ايما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران » .

الرجاء في الله

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله ، فلم أجد أرجى للعبد من قوله

تعالى : (قل كل يعمل على شاكلته) . . فشاكلة العبد المعصية وشاكلة الرب التوبة . .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى للعبد من قوله تعالى : (غافر الذنب وقابل التوب) .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى للعبد من قوله تعالى : (نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى للعبد من قوله تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله أن الله يغفر الذنوب جميعاً) .

فاللهم لا تخيب رجاءنا .

وعاملنا بالاحسان إذ الفضل منك وإليك .

رسالة القضاء

في [الموطأ وصحيحي البخاري ومسلم] عن « أم المؤمنين » أم سلمة رضي الله عنها » أن رسول الله ﷺ قال :

« إنما أنا بشر وانكم تختصمون إلي ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه . فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فلا يأخذن منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

ولما بويع « أبو بكر الصديق » رضي الله عنه بالخلافة ، خطب الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ، اني وليت عليكم وليس بخيركم. ألا أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم . إلا وان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه . . » .

ومن هدى الكتاب والسنة ، كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، إلى أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس ، رسالة أجمل فيها مبادىء الشريعة الاسلامية في القضاء .

« بسم الله الرحمن الرحيم » .

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس : سلام عليك .

« أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

« آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك .

« البينة على من أدعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً .

« لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التعادي في الباطل .

« الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم أعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .

« واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة ، أمراً ينتهي إليه . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

« المسلمون عدول بعضهم على بعض إلاّ مجلوداً في حد ، أو مجرياً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء ونسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأً بالبينات والايمان .

« وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن الذخر . فمن صحت نيته وأقبل على نفسه . ومن تخلق

خلقاً بما يعلم الله انه ليس من نفسه ، شانه الله . فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام » .

د . بنت الشاطىء

في السوق أو المسجد

يتحدث أحد أصحاب عمرو بن قيس الملائي عنه فيقول : كنت أطلبه في السوق ، فإن لم أجده في السوق وجدته في بيته أما يصلي وأما يقرأ القرآن ، وكأنه يبادر أموراً تفوته ، فإن لم أجده في بيته وجدته في بعض مساجد الكوفة ، وقد أوى إلى زاوية من المسجد وجلس يبكي ، فإن لم أجده في المسجد وجدته في المقبرة ينوح على نفسه .

وكان خليد بن عبد الله يقول : لا تلقى المؤمن إلّا في ثلاثة مواطن : مسجد يعمره بعبادة الله ، أو بيت يستره ، أو حاجة من أمر الدنيا ليس بها من بأس .

إذن في القتال

من المبعث إلى الهجرة ، اشتدت وطأة الوثنية القرشية بمكة ، على القلة من المسلمين الأولين ، دون أن يؤذن لهم في قتال .

وطالت هذه الجولة المكيـة الأولى ثلاث عشـرة سنة ، وطواغيت قريش يزدادون عتواً وبغياً ، والمسلمون يزدادون على الأذى والفتنة والمقاطعة والحصار ، ثباتاً واحتمالاً وبذلاً .

وهان عليهم ، ليأمنوا على دينهم الحق ، أن يخرجوا من ديارهم في « أم القرى » منزل الوحي وعهد النبوة ، مهاجرين إلى الحبشة ثم إلى يثرب . لم يبق منهم في مكة مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ، غير « أبي بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب » رضي الله عنهما ، والمستضعفين ممن حبسوا أو فتنوا .

● ● ●

مع الهجرة التاريخية ، أذن الله في القتال لهؤلاء الذين ظلموا و « أخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربنا الله » .

واستجاب المؤمنون لداعي الجهاد وصبروا على تكاليفه ، لا يبالي أحدهم على أي جنب كان في الله مصرعه .

وأرضاهم أن يبذلوا أرواحهم فدية لعقيدتهم ، ورفضاً للبغى والظلم والعدوان ، ونضالاً عن حرمات لا يحل أن تنتهك أو تستباح .

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام :

« والذي نفسي بيده ، لوددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ،

ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فأقتل » .

والجهاد في الاسلام : عبادة .

ولا جناح على المجاهدين أن يقصروا من صلاتهم إذا خافوا أخذة العدو على غفلة ، وأن يقضوها بعد وقتها ، لضرورات الجهاد . كما لا جناح عليهم أن يفطروا إذا حاربوا العدو في شهر رمضان .

● ● ●

وفي [كتاب الجهاد ، من الموطأ وصحيحى البخارى ومسلم] عن رسول الله ﷺ ، قال :

« مثل المجاهد في سبيل الله ، كمثل الصائم القائم القانت لا يفتر من صيام ولا قيام ، حتى يرجع » .

« رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه » .

ولا يرتاب المجاهدون في أن الله معهم ، ينصر من ينصره . ويزودهم هذا اليقين بقوة معنوية لم تخذل المؤمنين قط . وفي حسابهم أنهم في قتال الطاغوت ، ظافرون باحدى الحسنيين : النصر ، أو الشهادة ، وهم يتلون الآية المحكمة :

« قل هل تربصون بنا إلّا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا انا معكم متربصون » .

صدق الله العظيم

الموت بين الحلم واليقظة

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري ، يطلب إليه أن يجمع له أمر الدنيا ويصف له أمر الآخرة ، فكتب إليه يقول :

إنما الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والموت متوسط بينهما ونحن في أضغاث أحلام من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر في العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف سلم ، ومن اعتبر أبصر ، ومن فهم علم ، ومن علم عمل فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فاقلع وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فامسك .

(الوعد الصادق)

في العاشر من رمضان المبارك سنة ثمان للهجرة ، خرج المصطفى عليه الصلاة والسلام في جنده المهاجرين والأنصار ، من دار هجرته إلى معقل الوثنية القرشية في مكة ، ليحسم المعركة التي طالت بين الحق والباطل ، بين الايمان والطاغوت .

قبل ذلك اليوم ، في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ، كانت « هدنة الحديبية » بين النبي ﷺ ، والمشركين من قريش وقد نص ميثاق الهدنة على :

[انه من أحب أن يدخل في عقد محمد ـ ﷺ ـ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم ، دخل فيه] .

فكانت « خزاعة » مع المسلمين ، و« بكر » مع قريش .

ونقضت قريش العهد ، فظاهرت بكراً على خزاعة ، وأمدتها بسلاح بيتت به الخزاعيين بالوتير ـ ماء لهم ـ فأصابت منهم من أصابت .

وكان عليه الصلاة والسلام يملي لقريش فيما نقضت من ميثاق الهدنة ، عسى أن ترجع عن غيها .

ثم حدث أن كان ﷺ في مجلسه بالمسجد النبوي ، فدخل « عمرو بن سالم الخزاعي » وأخذ طريقه إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وأنشده مرتجزاً :

يا رب اني ناشد محمدا
حلف أبينا وأبيه ألا تلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعاً وسجدا

فلما فرغ من انشاده ، قال النبي عليه الصلاة والسلام :

« نصرت يا عمرو بن سالم » .

ثم قام يتجهز ويعبىء جنده للخروج إلى مكة ، حيث المشركون من طواغيت قريش قد غرهم بجند الله الغرور ، واطمأنوا إلى مناعة موقعهم في حمى البيت العتيق ، لا يتصورون أن يدور قتال في البلد الحرام ، وهم الذين انتهكوا حرمته بأصنامهم ، وجعلوا من بيت الله معبداً لقبائل العرب الوثنية ، وصدوا عنه من يعبدون الله وحده ، ويولون وجوههم في صلاتهم حيثما كانوا ، شطر هذا المسجد الحرام .

وصدق الله وعده لمن صدقوا ما عاهدوا الله عله ، ونصر من نصروه فكان الفتح الأكبر .

فتحت مكة قلبها وأبوابها للمصطفى وصحبه من أبنائها المهاجرين الذين أخرجوا منها ، قبل ثماني سنين ، بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله ولأصحابه الأنصار الذين كانت إليهم الهجرة .

وطاف ﷺ بالبيت العتيق ، ثم استقل الكعبة رافعاً صوته بدعاء الفتح :

« الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » . .

وجموع المؤمنين من حوله تردد الدعاء ، فتخشع له صم لجبال .

وبايع أهل مكة جميعا ، لم يبق منهم يوم الفتح مشرك ولا شركة . .

وتهاوت صروح الطاغوت ، وتحطمت الأوثان بمعاول لؤمنين ، والمصطفى ﷺ يتلو من كلمات ربه :

« وقل جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً » .

صدق الله العظيم

شروط الصحبة

قال عمر بن عبد العزيز عقب توليه الخلافة :

من أراد أن يصحبني فليصحبني بخمس :

يدلني من العدل إلى ما لا اهتدى إليه . . ويكون لي على الخير ,نا . . ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها . . ولا يغتاب لدي أحدا . . ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس .

محمد نبي الرحمة ونبي الملحمة

بعث رسول الله ﷺ . بدين الاسلام ليخرج البشرية من

الظلمات إلى النور ، وليقرر مبادىء الحق والعدل والسلام ولينشر بين الناس ظلالاً وأرفة من الحب الصادق والـو الخالص ، وحينما ننظر إلى رسول الله وهو يدعو قومه إلى هذ الدين ويتفاعل مع الحياة التي يحياها نجده يضرب المثل الكامل في الخلق الكريم والأدب الرفيع حتى إن صاحبه أبا بكر يقول ا يوماً : يا رسول الله : لقد طغت العرب جميعاً فما رأيت أحد أكثر أدباً منك . فمن أدبك ؟ فيقول : أدبني ربي فأحسن تأديبي . لقد كان صاحب قلب كبير لا تفلت منه شاردة من آما الناس وآلامهم إلا لباها ورعاها وأعطاها من ذات نفسه ك اهتمام وتقدير . . نراه يقف في صلاته ومن خلفه الصحا يستمعون إلى قراءته للقرآن ، وكان إذا قرأه خشعت لقراء الأرض والسموات ، ثم لا يلبث أن يسمع بكاء طفل رضيع جاءت به أمه إلى المسجد لتصلي خلف الرسول فيضحي بغبط الكبرى ، وينهي صلاته على عجل . رحمة بالرضيع الذي يبك وينادي أمه ببكائه ، ونراه يسافر مع بعض أصحابه ويأتي وق الطعام ويريدون ذبح شاة ثم يوزعون العمل على أنفسهم فنر يقول : وعليّ جمع الحطب .

ويرفض القسوة في أي مظهر من مظاهرها ، فيسارع إلى إز ظلم يقع على مظلوم ، ويقول الرسول الرحيم : اتقوا ظلم م لا يجد له عليك ناصراً إلاّ الله ويبادر إلى نشر البر والمعروف و إشاعة الخير في مختلف صوره بين الناس ، والكلمة الطيبة ر

والنظرة العاطفة رحمة ، والصفح عن المسيء رحمة ، وعبادة المريض رحمة ومعاونة العاجز رحمة .

هذه نماذج للرحمة بالأصدقاء . أما أعداؤنا . أعداء الدين وأعداء الانسانية الذين يبادئوننا بالعدوان . بهدف القضاء على دعوة الحق والنور فلرسول الله معهم موقف آخر انه لم يهادن المعتدين يوماً من الأيام ، كان إذا ما دعا الداعي لخوض معركة من معارك الشرف أسبق أصحابه لمواجهة العدو ويضرب المثل لأصحابه في الشجاعة والفدائية . ودائماً كان يوصيهم ببذل النفس والمال حفاظاً على الأرض والعرض والكرامة ويقول : « أغزوا في سبيل الله من قاتل في سبيل الله فوق ناقة وجبت له الجنة . ونراه يوم حنين وقد تفرق من حوله كثير من جنده يقف في مواجهة الأعداء والسهام تنوشه من كل جانب وينادي إلى عباد الله . إلى عباد الله . أنا النبي لأ كذب . . أنا ابن عبد المطلب . . .

وهكذا شأن المسلم الذي يتأسى برسول الله إنه يكون رحيماً مع المؤمنين شديداً على الأعداء الكافرين حسبما قال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

إنـــذار

قال تعالى :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية آمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . .

[كلمة التقوى]

الجهاد بالكلمة في الموقع الوجداني والفكري من وجود الأمة ، لا يقل أثراً وقيمة وخطراً عن الجهاد الحربي في جبهة القتال .

ولقد كان في جند المصطفى عليه الصلاة والسلام كتيبة من الصحابة الشعراء ، تجاهد بالكلمة وتصلي المشتركين حمماً قال عليه الصلاة والسلام « إنها أشد عليهم من نضح النبل » .

والكلمة أمانة انسانية صعبة ، يحملها المجاهدون الأتقياء ، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وشهادة بالحق يشهدونها لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، لا يخشون في الله لومة لائم ، ولا يبالون ما يصيبهم في سبيلها من أذى وضر .

إنها « كلمة التقوى » التي ألزمها الله تعالى رسوله المصطفى والمؤمنين « وكانوا أحق بها وأهلها » .

وهي رسالة هذه الأمة ومناط خبريتها :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

● ● ●

وخيانة أمانة الكلمة ، بقول الزور ، من الكبائر التي يشتد الاسلام في تحريمها ، فتأتي في القرآن الكريم مقترنة برجس الوثنية :

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » .

وكتمان الشهادة بالحق ، من أثم القلب وهو أفدح الاثم ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، وقد حاقت اللعنة بكفار بني اسرائيل ، لأنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر :

« لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى إبن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

في [الموطأ والصحيحين] عن رسول الله ﷺ ، قال :

« إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه .

● ● ●

وفي عصر المبعث : كان يعصم المسلمين المستضعفين من محنة التعذيب حتى الموت ، أن يقولوا كلمة الكفر التي سألهم إياها طواغيت قريش ، فيكفوا عنهم .

لكنهم لم يقولوها ، ورفضوا أن يشتروا الحياة بكلمة الايمان « لا إله إلاّ الله » فكانوا شهداء الكلمة وإن لم يحملوا سلاحا قط .

ويعتز تاريخ الاسلام بجنود لكلمة الحق والتقوى ، قذفوا بها طاغوت الباطل واحتملوا في سبيلها محنة التعذيب والسجن ، وقتل بها من قتل « لتكون كلمة الله هي العليا » فكانوا شهداءها ، ومعهم من ماتوا على كلمة التقوى لم يفرطوا فيها تحت ضغط الارهاب .

« سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار » صدق الله العظيم .

خير الدنيا والآخرة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من أعطى أربع خصال فقد أعطى خير الدنيا والآخرة وفاز بحظه منهما ، ورع يعصمه من محارم الله ، وحسن خلق يعيش به في الناس ، وحلم يدفع به جهل الجاهل ، وزوجة صالحة تعينه على أمر الدنيا والآخرة .

حديث رمضان
« طلب العلم فريضة وعبادة »

من أصول العقيدة الاسلامية أن الناس جميعاً مخلوقون من نفس واحدة ، لا يتفاضلون بجنس أو عنصر أو لون ، ولا بطبقة أو جاه وثراء ، وإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح .

ويدخل العلم في اعتبار هذا التفاضل ، بصريح الآية المحكمة :

« قل هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون إنما يتذكر أولو الألباب » .

ونحن المسلمين نحفظ من حديث نبينا عليه الصلاة والسلام :

« أطلبوا العلم ولو في الصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وطلب العلم : جهاد وعبادة .

قال عليه الصلاة والسلام :

« من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

وحدث « عبد الله بن عمرو » إن رسول الله ﷺ ، مر بمجلسين في مسجده بدار الهجرة : رجال أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه ، والآخرون يتذاكرون الفقه ويتدارسونه ، فقال ﷺ .

« كلا المجلسين على خير ، وأحدهما أفضل من الآخر : أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه ، إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم . وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلماً » ثم أقبل فجلس معهم .

وذلك ما رسخ في تقدير أئمة الاسلام لطلب العلم ، فريضة وجهاداً وعبادة . فيروى عن « سفيان الثوري : من أعلام التابعين الفقهاء » انه قال :

« لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من أن يعلم الناس العلم » .

وحدث « عبد الله بن وهب » ـ من تلاميذ الامام مالك ورواة كتابه [الموطأ] ـ قال :

« كنت عند مالك بن أنس الامام ، فأردت أن أقوم للصلاة وأنا أقرأ عليه وأنظر في العلم بين يديه ، فجمعت كتبي وقمت لأصلي ، فقال لي مالك : ما هذا ؟

قلت : أقوم للصلاة .

فقال : ان هذا لعجب ! ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي كنت فيه إذا صحت النية » .

وحدث « الربيع بن سليمان » عن شيخه الامام الشافعي ، قال :

« سمعت الشافعي يقول : لطلب العلم أفضل من الصلاة النافلة » .

« فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه وقل رب زدني علماً » .

صدق الله العظيم

الرجل يبتلى حسب دينه

سئل عليه السلام : أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . . يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة .

ويقول عليه السلام : ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة .

حديث رمضان

ورثة الأنبياء

ليس عجباً ، وطلب العلم في الاسلام فريضة وعبادة ، أن يكون للعلماء منزلة تقرب من منزلة الصفوة الأنبياء الذين بعثهم الله رسلاً هادين ومعلمين ، وكان خاتمهم نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام ، فليس من يخلفهم بعده ، في تعليم الناس وهدايتهم ، سوى العلماء . وقد قال فيهم خاتم النبيين عليهم السلام :

« العلماء ورثة الأنبياء : إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، ولكنهم ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذه أخذ بحظ وافر » .

والاسلام الذي حسم الخصومة بين العقل والدين ، جعل العلم قرين الايمان . . والله تعالى يفصل الآيات لقوم يعلمون ، ويضرب الأمثال « وما يعقلها إلا العالمون » وينوط بهم الهدى والتقوى ، « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم » .

« بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم : وما يجحد بآياتنا إلّا الظالمون » .

وقد قصر ، سبحانه وتعالى ، خشية على العلماء :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

لأنهم بما يتفكرون في خلق السموات والأرض ويتدبرون السنن الإلهية في الكون والحياة ، يوقنون أن مثل هذا النظام الكوني المحكم ، لا يمكن أن يكون عبثاً باطلاً أو أن يسير بتلقائية عشواء .

● ● ●

والعلماء هم معلمو الأمة ، يكشفون عن بصائر أبنائها وأبصارهم ، حجب الجهل والضلال وغشاوة العمى والغفلة ويقودنها على مراقى طموحها إلى حيل تحقق وجودها الكريم ، ويسهرون على حراستها من آفات التشويه والتواكل والعجز والتخلف .

وجهادهم في هذا الموقع ، يجعلهم أقرب إلى الله تعالى ، من المنقطعين للعبادة لا تشغلهم عنها شواغل الجهاد وتكاليف الخدمة العامة ، وقد قال معلم الأمة ونبيها عليه الصلاة والسلام :

« لفقيه واحد ، أشد على الشيطان من ألف عابد » .

« فضل العالم على العابد ، كفضلي على أمتي » .

ويذكرون من مناقب « الامام الشافعي » انه حين رحل من الحجاز إلى العراق ، نزل في بغداد على الامام « أحمد بن حنبل » فتوقعت بنت أحمد ، أن يقوم الشافعي الليل كله ، لكثرة ما سمعت أباها يذكر ورعه وتقواه . فباتت الليل ترقبه ، وبات الشافعي راقداً على فراشه لم يبرحه حتى مطلع الفجر . فلما أصبحت قالت لأبيها :

ـ يا أبت ، أنت تعظم الشافعي ، وما رأيت له في هذه الليلة صلاة ولا ذكراً .

ودخل الشافعي فسأله أحمد : كيف كانت ليلتك ؟

قال : ما رأيت أطيب منها ولا أبرك ولا أريح ، لقد وفقني الله فيها للي بسائل في مصالح المسلمين ، كانت تشغلني .

فالتفت الامام أحمد إلى ابنته وقال :

ـ يا بنية ، هذا الذي عمله الليلة وهو راقد ، أفضل وأقرب

إلى الله مما عملته وأنا قائم .

« أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

صدق الله العظيم

بياض القلب وسواد الوجه

رأى أحد الأشراف رجلاً أسود يحيط به الناس لعلمه ، ويتبركون به لصلاحه فغاظه ذلك ، واقتحم الجمع ثم أمسك به وقال : يا أسود الحوافر والشوافر يا كافر بن كافر ، أنا ابن رسول الله ، أذل وتجل ؟ وأذم وتكرم ؟ وأهان وتعان ؟

فهاج ذلك غضب المجتمعين وقاموا ليضربوه ، فمنعهم الرجل الصالح ، وذكرهم بجده ـ عليه السلام ـ ثم اتجه إليه وقال : ولكن أيها الشريف بيضت باطني وسودت باطنك ، فيرى الناس بياض قلبي فوق سواد وجهي ، وأخذت أنا سيرة أبيك ، وأخذت أنت سيرة أبي ، فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي فظنوني إبن أبيك وظنوك إبن أبي فعملوا معك ما يعمل مع أبي ، وعملوا معي ما يعمل مع أبيك .

(حرمة العلم)

لعل حديث الأمس من العلماء « ورثة الأنبياء » يعطي فكرة.

عن حرمة العلم في الاسلام ، وقد صانها الكتاب والسنة بحدود تضع أصول المنهج ، في العقيدة الاسلامية .

منها : إن علم الانسان كسبي محدث ، يزيد وينقص ، ويجوز عليه الخطأ والقصور ، والسهو والنسيان .

وما من عالم يمكن أن يدعى له أنه بلغ في علمه الغاية التي لا مزيد عليها فالعلم الكامل لله وحده ، وقد قال تعالى لرسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« وقل رب زدني علماً » .

« واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا » .

وقال جل جلاله ، لرسوله نوح عليه السلام .

« فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين » .

وما من عالم يمكن أن يحيط بكل شيء علما ، والأصل في العقيدة الاسلامية أن الله تعالى وحده ، وهو الذي « أحاط بكل شيء علما » سبحانه « لا يخفي عليه شىء في الأرض ولا في السماء » .

أما علم البشر ، فمحدود بمجال تخصص كل عالم منهم :

« فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

فإذا سئل عالم عما لا يعلم ، فمفروض عليه أن يقول : لا أعلم ، والله أعلم .

وليس بعالم من يخطئه أن يقول : « لا أدري » فيما لا يدري .
وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يسأل فيها لا يدرى فلا يجيب إلا أن ينزل وحي فيما سئل عنه .

« يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » .

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير » .

« ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً »

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً » .

● ● ●

ومحظور في العقيدة الاسلامية ، أن يقول الانسان في شيء بغير علم ، أو أن يقطع بيقين رجما بالظن ، يبتغي بذلك عرض من أعراض الدنيا كالسمعة أو المال .

« وما لهم به من علم أن يتبعون إلاّ الظن وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً .

والاجتهاد مباح في الاسلام ، لأهل الجهة الراسخين في العلم ، كل في مجال تخصصه .

على أن الاجتهاد محظور عليهم أيضاً في الغيبيات التي لا سبيل لهم إلى العلم بها ، وإنما يصدقون بما جاء عنها في كتاب دينهم لا يتجاوزونه إلى ما لم يرد فيه نص . وقد سئل رسول الله ﷺ في غيبيات استأثر الله تعالى بعلمها ، فلم يجب إلا بآيات الوحي :

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * لى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها » .

« ويقولون متى هذا الوعدان كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين » .

« قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا كم ، أن أتبع إلا ما يوحي إلي » .

« ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى لسوء ، إن أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

صدق الله العظيم

حفظ اللسان

قال الله تعالى « وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وقال تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » وقال النبي ﷺ : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » .

وقال علي رضي الله عنه : إذا تم العقل نقص الكلام . وقال أعرابي : رب منطق صدع جمعا وسكوت راب صدعا .

واجتمع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي فقال أكثم لصاحبه : كم وجدت في إبن آدم من العيوب فقال : هي أكثر من أن تحصى وقد وجدت خصلة إذا استعملها الانسان سترت عيوبه كلها قال أكثم : وما هي قال : حفظ اللسان .

قتال في الشهر الحرام ؟

مع الإذن للمصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، وصحبه في القتال بعد أن ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

تأخرت أولى جولات المواجهة المسلحة لطواغيت قريش ، إلى شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة ، ريثما تم تنظيم

المجتمع الاسلامي في دار هجرته ، وتم الاعداد والتدريب والتعبئة للجهاد ، ودراسة ميدان الصراع في شتى جبهاته ومواقعه .

ومن مطلع السنة الثانية ، بدأ ﷺ يخرج في غزوات قصار ، تدريباً لجنده وإقراراً لهيبة الاسلام في موقعه الجديد .

كما بدأ ، عليه الصلاة والسلام ، يبعث سراياه لتجوب المنطقة ما بين المدينة ومكة ، معقل الوثنية العربية . ولم تكن هذه السرايا قاصدة إلى قتال ، وإنما كانت دوريات استطلاع تترصد أنباء قريش في منطقة الحجاز .

ومنها سرية « عبد الله بن جحش » إبن عمة المصطفى « أميمة بنت عبد المطلب » ـ وهي السرية التي اندلع منها الشرر فاشتعل على ساحة بدر .

خرج « عبد الله بن جحش » في ثمانية من المهاجرين ، في مستهل رجب من السنة الثانية ، أو قبله بيوم . ورجب من الأشهر الأربعة الحرم التي لا يحل فيها قتال . وكانت أوامر المصطفى إلى إبن عمته قائد السرية ، أن يمضي بها حتى ينزل بموضع « نخلة » بين مكة والطائف ، فيترصد هناك قريشاً ويستطلع أخبارها .

ومضى « عبد الله » بمن معه من المهاجرين حتى نزل بنخلة .

فمرت عير تجارية لقريش ، تحاشى المسلمون القتال معها حفاظاً على حرمة الشهر الحرام . لكن تجنب الصدام لم يكن مستطاعاً مع المواجهة ، وأطلق الصحابي « واقد بن عبد الله » سهما أصاب من « عمر بن الحضرمي » مقتلا .

وعندئذ فرت قريش عن عيرها وقتيلها ، وعن أسيرين منهما .

وعادت السرية الظافرة إلى المدينة بالمغانم والأسيرين ، فقوبلت بوجوم ذهب بفرحة النصر ، وقال ﷺ لابن عمته أمير السرية .

« ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » .

ثم أعرض عما جاءت به السرية من مغانم ، ونحى الأسيرين القرشيين ، فظن « عبد الله » ورفاقه أنهم أثموا وهلكوا ، واشتد الصحابة من المهاجرين والأنصار في لومهم ، وقرعوا أسماعهم بما ذاع من قول قريش : « لقد استحل محمد وأصحابه حرمة الشهر الحرام » .

وتسللت الأفاعي من الأوكار اليهودية ، تنفث سمها في أحياء المدينة ، وتهمهم في حقد واشتفاء :

حتى حسم القرآن الموقف المعقد وأنهى الجدل فيه بكلمات الله البينات :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير . . » الآية .

وبها استرد جنود السرية طمأنينة قلوبهم وطاب لهم النصر على عدوهم .

بعد شهرين اثنين ، في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، كان يوم الفرقان في بدر .

أو سمة

أي أوسمة أرفع قدراً من الأوسمة التي وزعها الرسول الحبيب على صحابته الاجلاء ، فقال صلوات الله عليه وسلامه .

إرحم أمتي بأمتي : أبو بكر . . وأشدهم غيرة في دين الله : عمر وأعظمهم حياء : عثمان بن عفان واعلمهم بالقضاء : علي بن أبي طالب .

وأحفظهم للقرآن : أبي بن كعب وأعلمهم بالحرام والحلال : معاوية إبن جبل . .

واعلمهم بالفرائض : زيد بن ثابت . . ولكل أمة أمين . وأمين هذه الأمة : عبيدة بن الجراح .

مجلس شورى ليوم بدر

قبل أن يلتقي الجمعان في « بدر » كانت النذر قد تتابعت من مكة بأن قريشاً قد عبأت جموعها وخرجت في أكثر من ألف مقاتل كاملي العدة والسلاح ، قاصدة إلى المدينة التي رابط فيها المسلمون ، وفي حسابها أن تفرغ منهم قبل أن يكثروا ويزدادوا في موقعهم الجديد قوة ومنعة .

وعبأ المصطفى جنده من المهاجرين والأنصار للقاء العدو ، فما زادوا على ثلاثمائة مجاهد إلا قليلاً .

فماذا قال هؤلاء المؤمنون ، عندما قال لهم الناس أن طواغيت المشركين قد جمعوا لكم فأخشوهم ؟

جمع المصطفى عليه الصلاة والسلام من نفروا معه للجهاد ، وعرض عليهم الموقف ثم قال يطلب مشورتهم .

« أشيروا عليَّ ، أيها الناس » .

فقام أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، فتحدثا ما شاء لهما إيمانهما ، عن فريضة الجهاد واليقين من النصر ، ثم قام « المقداد بن عمرو » ـ وكان حديث عهد بالاسلام والهجرة ـ فقال :

ـ يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام : « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ بأقصى الجنوب ـ لجالدنا معك دونه حتى تبلغه .

دعا له المصطفى بخير . ثم التفت ﷺ إلى الأنصار ـ ولم يكن احد منهم تكلم بعد ـ وكرر قوله :

« أشيروا عليّ ، أيها الناس » سأل نقيبهم « سعد بن معاذ » .

ـ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال عليه الصلاة والسلام : أجل فقال سعد :

« لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن نلقى عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

وسار بهم المصطفى على بركة الله حتى نزل على ماء بدر ، فلم

يكن عجبا أن للعشرين من هؤلاء المؤمنين يغلبون مائتين والمائة يغلبون ألفاً من المشركين الذين خرجوا للقتال بطرا ورئا الناس ، وأمعانا في البغي والعدوان ، وصداً عن سبيل الله

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مـ الصابرين » .

صدق الله العظيـ

واحد من الناس

من وصية لعمر بن الخطاب لأبي موسى وقد ولاه مسؤ وا أحد الأعمال : يا أبا موسى إنما أنت واحد من الناس ، غير الله قد جعلك أثقلهم حملاً .

وكان عمر يقول لأهله بعد أن تولى الخلافة : إن النا ينظرون إليكم ، كما ينظر الطير إلى اللحم وإني ـ والله ـ لا أو برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه ، إلاّ ضاعفت له العذا لمكانه مني !

وكان ـ رضي الله عنه ـ يأخذ نفسه بالشدة حين نزا بالمسلمين أزمة في الطعام خاصة في اللحم والسمن ، فكان يأكل إلاّ الزيت وحين تتألم منه أمعاؤ ه كان يؤكد أنه لن يستعـ إلاّ الزيت « ما دام السمن يباع بالأواقي » على حد تعبيره

ويقول لعتبة بن فرقد حين فتح أذربيجان : لا تأكل إلا ما يشبع منه المسلمون في رّحالهم .

امتحـــان

خرج رسول الله ﷺ مع جنده المهاجرين والأنصار ، للقاء طواغيت قريش على ماء بدر . وترك ابنته الغالية « رقية » تعالج سكرات الموت ، بعد رحلة شباب ممتحن بالحزن والغربة والشجن .

قبيل المبعث ، تزوجت هي وأختها « أم كلثوم » من ابني « عبد العزي إبن عبد المطلب بن هاشم » فلما بعث « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب » رسولاً ، لم يكن عمه عبد العزى وأبو لهب ، وأمرأته أم جميل بنت حرب ، حمالة الحطب ، في حاجة إلى قرار قريش : أن يطلق أصهار محمد بناته ويردوهن إليه ليشغلوه بهن عما يدعو إليه من دين التوحيد .

وتزوجت السيدة رقية من « عثمان بن عفان » وهاجرت معه إلى الحبشة ، حيث أسقطت جنينها البكر .

ثم عادت « مكة » وقد أوحشت من أمها « السيدة خديجة أمْ المؤمنين الأولى » وهاجرت الهجرة الثانية إلى المدينة المنورة ، فوضعت هناك وليدها « عبد الله بن عثمان » الذي ما كاد يؤنس وحشتها ويضمد جرح أمومتها ، حتى ثكلته طفلاً : مات في نضرة حيويته ، من نقرة ديك !

وفي دوار الصدمة ، ساورتها حمى قاسية ، تستنفد قواها وتنذر بدنو الأجل . . .

* * *

عادها أبوها المصطفى ، في طريقه إلى بدر وتركها في رعاية الله : ومعها زوجها « عثمان » يمرضها ويسهر عليها في ساعات الوداع .

وقد تشبثت بالحياة حتى سمعت هتاف النصر ترجعه آفاق المدينة آتياً من بدر ، فأغمضت عينيها لتنام .

واختلط الهتاف بحشرجة الاحتضار .

وأقبل أبوها عائداً من بدر ، فدنا من فراشها يودعها محزوناً خاشع القلب . وفي رفق رأسي : نحى إبنته « فاطمة » التي اعتنقت جثمان أختها مجهشة بالبكاء ، وجعل يمسح دموعها بطرف ثوبه .

ولم تحتمل النساء المشهد الأليم ، فانسحبن من المخدع منتحبات قد تخلى عنهن ما كن يتكلفن في حضرة النبي ﷺ من تجمل وتصبر .

وأثار نحيبهن غضب « عمر بن الخطاب » فاشتد في زجرهن محاولا أن يأخذهن بما ينبغي لمثل هذا الموقف من سكينة ووقار ، لكن المصطفى الوالد ، كف صاحبه عنهن وقال :

« مهما يكن من العين ومن القلب ، فمن الله والرحمة . ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان » .

وصلى النبي على إبنته « رقية » .

وشيعت المدينة بنت رسول الله ، ذات الهجرتين إلى مثواها في البقيع ، حيث وريت الثرى الطيب الذي ارتوى يومئذ بدماء الأبرار من شهداء بدر .

وسلام على المصطفى بشرا رسولا .

هدية . . له
ورشوة . . لنا

كان عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ قبل أن يتولى الخلافة مترفاً ظريفا ، يعني بحسن سمته وهندامه .

فلما آل إليه أمر المسلمين لزم الزهد وأخذ نفسه بالتقشف . وحول أمواله وأموال زوجه إلى بيت المال .

وحدث أن آشتهى التفاح ذات يوم . فأهدى إليه شيء منه ، فدعا غلامه وأمره أن يحمل التفاح إلى من قدمه ، وأن يحمل معه السلام عليه .

ورأى ذلك بعض الحاضرين فقال : يا أمير المؤمنين أن الذي

أهدى إليك التفاح رجل من أهل بيتك ، وأنت تعلم أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية .

فقال عمر رضي الله عنه : إن الهدية كانت للنبي هدية ، ولكنها لنا اليوم رشوة .

وافد من قريش

قبل فتح مكة ، لم يخف على المشركين من قريش أن نبي الاسلام ﷺ ، يعبىء جنده ليسير إلى معقل الوثنية العربية ، لا يصده عنها عهد الحديبية الذي نقضته قريش في جرأة فاحشة .

وبدا لقريش أن تحتال على الموقف ، فتلتمس تجديد الهدنة المنقوضة . وفي دار الندوة بمكة ، وقع الاختيار على « أبي سفيان بن حرب » ليكون وافد قريش إلى المدينة في هذه المهمة .

* * *

دخل المدينة خائفاً لا يدري كيف يواجه المسلمين بعد الذي كان ، وبعد تردد طال ، أخذ طريقه إلى بيت ابنته « رملة بنت أبي سفيان ، أم المؤمنين » وهو يطمع أن تستجيب لعاطفة الأبوة ، فتشفع له لدى زوجها .

واستأذن عليها فأذنت له ، لكنها انتظرت لم تأذن له في الجلوس ، حتى تعلم فيم جاء .

وإذ تقدم هو من تلقاء نفسه إلى الفراش ليجلس عليه ، سبقته إليه فطوته عنه !

سألها وهو يتجاهل مغزى ما فعلت :

ـ يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟

فما راعه إلا إن ردت :
ـ بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك .

وأنت مشرك .

قال أبو سفيان مقهوراً :

ـ والله يا بنية ، لقد أصابك بعدي شر . وخرج بحسرته ، فإذا رسول الله عليه الصلاة والسلام في مسجده مع جمع من أصحابه . فيهم أبو بكر وعمر ، رضي الله عنهما .

ووقف بين يديه ، ﷺ ، يعتذر عن قريش ، ويضرع إليه في تجديد الهدنة ، فما رد عليه المصطفى بكلمة .

واتجه أبو سفيان إلى « الصديق أبي بكر » يسأله أن يكلم النبي عليه الصلاة والسلام ، فما زاد الصديق على أن قال : ما أنا بفاعل .

وإلتمس أبو سفيان الشفاعة عند النبي ، من « عمر بن الخطاب » فكان رده :

ـ أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ! فوالله لو لم أجد إلاّ الدر ـ الحصا ـ لجاهدتكم به .

ونقل أبو سفيان بصره في القوم ، فما وجد إلاّ الصد والجفاء . .

وقاوم يأسه ، فسعى إلى بيت « علي بن أبي طالب » يستشفع به إلى صهره وإبن عمه .

قال « علي » :

ـ ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ ، على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

فالتفت أبو سفيان إلى السيدة « فاطمة الزهراء » فقال لها وهو يشير إلى إبنها « الحسن بن علي » .

ـ يا إبنة محمد ، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر !

ردت الزهراء :

ـ والله ما بلغ بني أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

ولم يبق لأبي سفيان إلّا أن ينصرف خائباً ويعود من حيث جاء .

وفي أثره كان جيش الفتح ، في طريقه إلى البلد الحرام والبيت العتيق .

د . بنت الشاطىء

ترفق . . بصاحبك

خرج رسول الله ﷺ إلى بئر يغتسل ، فأمسك حذيفة بن اليمان بالثوب على رسول الله ﷺ يستره به حتى اغتسل . . ثم جلس حذيفة ليغتسل ، فتناول رسول الله الثوب وقام يستر حذيفة . . فأبى حذيفة وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تفعل .

فأبى رسول الله ﷺ إلّا أن يستره بالثوب حتى اغتسل ثم قال : ما اصطحب اثنان قط إلّا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه . . وقال ﷺ : مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى .

الخطأ والمسؤولية

لا تعترف العقيدة الاسلامية بعصمة بشر من الخطأ ، فهذه « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » .

ومع جواز الخطأ على كل البشر ، تقرر العقيدة أن كل إنسان مسؤول عن قوله وعمله ومسعاه ، إلّا أن يكون سفيهاً أو مخبولاً فيحجر عليه ، أو قاصراً فيوضع تحت الوصاية إلى أن يبلغ رشده .

وكما يرفض الاسلام مبدأ : فلان لا يخطىء ، يرفض مبدأ : فلان لا يسأل عن عمله أو قوله . ذلك لله وحده ، سبحانه « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

والذي بين الانسان المخطىء وخالقه موكول إلى أمره تعالى ومشيئته ، هو الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، سبحانه « لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

أما الأخطاء التي يضار بها الأفراد والجماعة ، فقد وضعت الشريعة الاسلامية الحدود والقصاص ، تأميناً للحياة العامة :

« ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .

ويبقى وراء الذنوب التي وضعت لها الشريعة الحدود ، ما هو متروك للأمة ، تحاسب عليه المخطىء وتسأله فيه . وهي مسؤولية صعبة ، تلقيها العقيدة الاسلامية على كل قادر عليها ، تكليفاً دينياً بأن ينهي عما يراه منكراً ويجهر بشهادة الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، ويهون عليه أن يحتمل في سبيلها أقسى التضحيات ، ولا يبوء بلعنة اثم القلب :

لا يختلط الأمر على المؤمن التقي ، فيما هو مكلف به من الجهر بالحق ونقد الخطأ والنهي عن المنكر ، وما يحرم عليه شرعاً من كبائر الافتراء والأفك والبهتان ، والخوض في حرمات الناس بغير علم .

« إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » .

صدق الله العظيم

د . بنت الشاطىء

يرجو . ويخاف

روى أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو يجود بنفسه . . فقال : كيف تجدك ؟

قال الشاب : أرجو الله . . . وأخاف ذنوبي . .

فقال النبي ﷺ : الرجاء والخوف لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن ، إلاّ بلغه الله ما يرجوه وآمنه مما يخاف .

[دعوى الجاهلية . .]

على مسار تاريخنا الطويل ، لم يحدث قط ان انتصرت أمتنا في معركة لها على عدو ، ألا وهي متحدة الصف والكلمة ، موحدة الجبهة واللواء .

وتاريخنا الاسلامي يبدأ من عصر المبعث ، وقد كانت نقطة التحول فيه ، إلتئام شمل الأوس والخزرج ، عرب يثرب ، إذ جمعهم الاسلام تحت لوائه الأغر ، أخواناً في الدين وأنصاراً لله ورسوله ، بعد أن طحنتهم الحروب ومزقتهم العداوة والبغضاء .

وانتقل مركز الدعوة والجهاد إلى المدينة ، وقد كانت قبل الاسلام ، ولمدى خمسة قرون ، منطقة استغلال يهودي فاحش ، يسيطر على مواردها الاقتصادية ويتسلط على وجودها العربي بذرائع الفتنة المدمرة . فلم يكن عجباً أن جن غيظ اليهود بما أطفأ الاسلام من نار الحرب بين الأوس والخزرج ، وأسقط مخلفاتها ورواسبها من الثارات والأحقاد .

فهل يمكن إقاظ الفتنة واهاجة الشر بين الأوس والخزرج ؟

في [السيرة النبوية لابن هشام ، وتاريخ الطبري] من أحداث السنة الأولى للهجرة :

مر « شماس بن قيس » - من رؤوس يهود - على نفر من الأنصار ، أصحاب رسول الله ﷺ ، الأوس والخزرج ، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام . بعد الذي كان بينهم من العداوة والشر في الجاهلية . فقال : يحدث نفسه :

قد اجتمع ملا بني قبلة ـ الأوس والخزرج ـ بهذه البلاد ، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار !

ثم أمر فتى من عصابته كان معه ، فقال :

ـ أعمد إليهم فأجلس معهم . ثم أذكر « يوم بعاث » وما كان قبله من حروب بينهم ، وأنشدهم بعض ما تقاولوا فيها من أشعار .

وفعل الفتى اليهودي ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا ، حتى هاج الشر بينهم فتواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك بموضع « الحرة » .

واندفعوا في دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون : السلاح ، السلاح !] .

ورجت صيحة الحرب دار الهجرة ، وجاء المصطفى عليه الصلاة والسلام في جمع من أصحابه ، فأدرك القوم بالحرة وقد هموا بقتال . قال :

« يا معشر المسلمين ، الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للاسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ » .

ونفذ صوت المصطفى من مسامعهم إلى أفئدتهم وعقولهم ،

وعرفوا أنها مكيدة عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً] .

وبطل سم هذه الفتنة ، وخاب كيد يهود . .

« يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

صدق الله العظيم

جيران . . الله

كان علي بن الحسين « زين العابدين » يحدث الناس ذات يوم فقال لهم :

إذا كان يوم القيامة ينادي مناد :
أين أهل الصبر ؟ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : علام صبرتم ؟ . . فيقولون : صبرنا على طاعة الله ، كما صبرنا عن معصية الله ، فقال لهم : صدقتم . . ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

ثم ينادي مناد : ليقم جيران الله في داره ، فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم

الملائكة سائلين : وبم جاورتم ربكم في داره ، فيقولون : كنا نتزاور في الله عز وجل ، ونتجالس في الله ، فتقول لهم الملائكة : أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

منفيون عن الاسلام . . أحياء وأمواتاً

ما من داء يصيب الأمة ، أخبث ولا أضرى من داء النفاق الذي يعده الاسلام شراً من الكفر الصريح .

فلا خطر على الأمة من عدو سافر تتقيه أو تواجهه في معركة مكشوفة وحرب معلنة .

الخطر كل الخطر ، من عدو يتغلغل في صميم كيانها من حيث لا تدري ، ويأتيها من حيث لا تتوقع أو تحتسب .

وقد لقي المسلمون الأولون من كيد المنافقين ، ما هدد المجتمع الاسلامي في دار الهجرة ، إذ نجم النفاق هناك نفثة من سم اليهود الذين كانوا ناشبين في شمال الحجاز . وكانت جيوبه الخطرة ، أشد ما واجه الاسلام في صراعه مع الوثنية القرشية والعصابات اليهودية . كمن السم في أول الأمر ، وتتابعت بوادره مع ثقل أعباء الجهاد وتكاليفه ، منذرة بالخطر . فالمنافقون يخالطون المؤمنين ، ولا يملك أحد أن ينفيهم عن الاسلام وهم يتعوذون بالتظاهر به وينطقون بشهادته ، والحكم على النوايا وخفايا القلوب ، متروك لله وحده .

ثم جاءت « غزوة تبوك » في السنة التاسعة للهجرة ، فمزقت أقنعتهم وكشفت المستور من زيفهم ، وآذنت بأن النفاق الذي طالما هدد الجبهة الاسلامية ، قد صار داء عياء لا يجدي فيه غير البتر والحسم .

لقد مشى بعضهم إلى بعض يتواصون بالقعود عن الجهاد ، شكا في المصير وارجافاً برسول الله ﷺ . وانبث نفر منهم في أحياء دار الهجرة ، دعاة تثبيط وتخذيل .

ثم كانت المكيدة الفاحشة :

تظاهر « عبد الله بن أبي بن سلول » رأس المنافقين ومولى اليهود ، بالتأهب للخروج مع المجاهدين ، وجمع إليه حشداً من شيعته أهل النفاق ومن اغتر بهم ، ثم تنحى بعسكره وانتظر حتى تمت التعبئة للجهاد ، وخرج المصطفى عليه الصلاة والسلام بجنده من المدينة المنورة ، وما يشك أحد في أن « إبن أبي بن مسلول » ماض وراءه بعسكره .

لكنه تحرك ، لا إلى الشمال في طريق الجيش المجاهد ، وإنما انحاز بعسكره من أسفل المدينة .

ومضى ﷺ بالمؤمنين ، وتخلف كل المنافقين . من حزب الشيطان .

ونزلت آيات سورة التوبة ، الفاضحة لزيف المنافقين ،

فقضت بعزلهم عن مخالطة المؤمنين ، حسماً لشر الفتنة وسداً لذرائع الأحباط والتخذيل :

« لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالاً ، ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » .

كما قضت بنفيهم عن الاسلام أحياء وأمواتاً ، فليس لرسول الله ﷺ أن يأذن لهم في الخروج معه للجهاد ، ولا أن يصلي على أحد منهم مات أبداً ، أو يقوم على قبره :

« إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

صدق الله العظيم . .

لحسد . . والمخرج منه

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد » .

قيل : فما المخرج يا رسول الله !

قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ .

وقال بعض الحكماء : ستة لا يخلون من الكآبة : رجل افتقر بعد غنى ، وغني يخاف على ماله الفناء ، وحقود ، وحسود ،

وطالب مرتبة لا يبلغها قدره ، ومخالطة الأدباء بغير أدب .

وقال معاوية : كل الناس أستطيع أن أرضيه إلاّ حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلاّ زوالها .

الردة ، وحرية العقيدة

مع المد الجائح لموج الإلحاد المصري يشق على شباب اليوم أن يفهموا منطق تقرير الاسلام لحرية العقيدة ، مع شدته في عقوبة المرتد . ويريبهم أن تنكر الأمة اليوم على أبنائها حرية الاختيار المذهبي ، وأن تبرأ ممن يظهرون فيها بالالحاد .

من حيث الردة : لا تعارض على الاطلاق بين موقف الاسلام منها ، وحرية العقيدة .

الحرية هي الأصل والمبدأ ، وليس على الرسول إلا البلاغ :

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

« فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلاّ البلاغ » .

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

وقد عاش غير المسلمين في ديار الاسلام آمنين على عقائدهم

ومللهم ودور عباداتهم ، لم يخضعوا فيها لأي إكراه ديني .

ولكن المحظور أن يرتد المسلم عن دينه فيكون عدواً لأهله وأمته ، إذ ليس أضر على الأمة من أبق مرتد ، ينكر عقيدتها ويبرأ من الانتماء إليها . وهذا المرتد قد اختار بمحض إرادته الانسلاخ من أمته ، فليحتمل تبعة هذا الانسلاخ الذي لا يتعلق به فرداً ، بل يتعلق بالأسرة والجماعة التي هو عضو منها . . وإذا قضى الاسلام ببتر هذا العضو المنسلخ ، فإنه يقي الأمة أزمة تصدع كيانها ، وخطر الضغينة التي يحملها خارج على دينها ، ويسد الذرائع لما يحتمل من سريان عدوى الاباق والخروج على دين الجماعة ، وما يتوقع من استغلال أعداء الأمة لهذه الثغرة في أخطر مواقع وجودها .

ويلهج أبناء لنا بحرية الاختيار للعقيدة أو المذهب .

وقد يفوتهم من منطق حرية الاختيار ، أن يكون الانسان على بينة مما يرفض أو يقبل .

إذ مع الجهل بالمرفوض أو بالمقبول ، تتحدد زاوية الرؤ ية ومجال التفاضل ، فتنتفي بذلك حرية الاختيار .

ومع الجهل بهما ، كليهما ، يكون الانسان ضحية فتنة الاستهواء والانقياد الأعمى ، لا يملك من أمره شيئاً ولا يدري فيم المسير إلى يمين أو يسار .

هذه هي مأساة أبناء الجيل ممن يفرطون في عزة إصالتهم عن جهل وغفلة ، لم يعرفوا الاسلام حق معرفته قبل أن يرفضوه ويستبدلوا به مذاهب لا يعلمون عنها شيئاً إلا ما تلقوه من كتائب الدعاة وأجهزة الاعلام ، تستدرجهم من حيث لا يدرون ، لينسلخوا من كيان أمتهم ويفرطوا في أصيل هويتهم ، ويخبطوا العشواء من غير دليل :

« كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » .

أو « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

صدق الله العظيم

بنت الشاطىء

أصنعه . . وأطلبه

قال بعض الحكماء : أصنع المعروف إلى من يشكره ، وأطلبه ممن ينساه . وقال : النعم وحشية فقيدوها بالشكر .

للزكاة طهارتان

إن في الزكاة معنى « التطهير » و « التفوية » وإذا كان المال « عصب الحياة » فإن طريقة اكتسابه يجب أن تكون بريئة من

الشوائب بعيدة عن الشبهات . ولقد أراد الله ـ رحمة بعباده . أن يطهر البدن بزكاة المال ، ويطهر النفس بزكاة الفطر ، لأن العبد قد أخلص النية لربه ، فأدى فريضة الصوم خارجاً عن دنياه طالباً آخرته ، ولذلك كان المؤمنون حقاً هم الذين « للزكاة فاعلون » وقد كتب الله لهم الفلاح من حيث تغلبوا على الشح وحب النفس ، والحيازة ثم تعاطفوا مع أخوتهم في المجتمع تعاطفا عملياً يدل عليه قوله تعالى : « فاعلون » !

إن للزكاة طهارتين . طهارة بدن مخرج الزكاة ونفسه وآله ، وطهارة المستحق فالمخرج قد أزال شبهة المال بتطهيره ، والمستحق قد أبعد المنوازع النفسية من الحقد والحسد ، والغضب فزكى نفسه ـ أما معنى « التقوية » ، فيعطي المال مناعة في إدخاره ببركته ويمنح المستحق ثقة في نفسه ومجتمعه .

إن حابس الزكاة عن مستحقها في شدة الدنيا والآخرة ، فقد قال تعالى : « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » ، لأنه منع حق الله ، وطلب الاستغناء عن ثوابه كبرا وغرورا ، فكانت شدته الدنيوية في النكبات التي تذهب بحاله ، وفي الآخرة بالنار المهيأة لعقابه .

وحين يقول الغنى عن العالمين : « قد أفلح من زكاها » إنما يعني تحقق الفوز بالرضا عن طهر نفسه من الذنوب ، والبخل ذنب عظيم ، لأن البخيل عدو الله لعدم اعترافه بنعمته وجحده فضله .

لقد كان من إحسان الله على عباده أن أعطاهم ـ في رمضان فرصة السعي إلى طهارة العائل ومن يعولهم بزكاة الفطر لتسلم الأسرة من ظلمات الشدة ، ثم تعيش في نور الرضا بالرخاء والسعادة !

حبيب الله

في الحديث النبوي أن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده في مأكله ومشربه .

ويقول بكر بن عبد الله : من أعطى خيراً فظهر عليه سمي حبيب الله محدثاً بنعمة الله عز وجل ، ومن أعطى خيراً فلم يظهر عليه سمي بغيض الله معادياً لنعمة الله عز وجل .

رجع الصدى

القول بالعدم والفناء بعد الموت ، ليس جديداً كما يتوهم الذين ينتحلون العصرية مذهباً ، بل هو قديم منذ كان الانسان :

« أو لم ير الانسان إنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

« ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ، أو لا يذكر الانسان إنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » ؟

من غابر الدهر ، كانت المماراة في البعث مما تحدى به الكفار كافة المرسلين عليهم السلام . والذي قاله الملا من الكفار بعد عصر الطوفان :

« إن هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » .

قاله أصحاب الرس وثمود وعاد وقوم تبع واخوان لوط :

« كل كذب الرسل فحق وعيد . أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » .

وسمه « موسى » ممن كذبوه .

« إن هؤلاء ليقولون . إن هي إلاّ موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » .

وردده المشركون العرب ، تحدياً لخاتم النبيين عليهم السلام .

« وقالوا أن هذا إلاّ سحر مبين . أئذا كنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو آباؤ نا الأولون » ؟

« بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا تراباً

وعظاماً أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤ نا هذا من قبل ، إن هذا إلّا أساطير الأولين » .

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب . أئذا متنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد » .

« وقالوا إن هي إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلّا الدهر » .

هكذا تردد رجع الصدى من ماض سحيق ، عبر القرون والأحقاب . وقد قاومت الانسانية على مر الزمن فكرة الفناء ، وناضلت جهدها لكي تتقي لعنة العدم التي تجعل من هموم الانسان في الدنيا عبثاً لا يطاق ، ومن طموحه وكدحه وكفاحه ، عبثاً باطلاً ينتهي بضجعة القبر .

ولعلها فيما تسمع اليوم من العدميين ، لا تراه إلّا من رجع هذا الصدى لأقوال عصور غابرة ، كانت بحيث تدمر في الانسان إرادة الحياة وتسلمه إلى فوضى وقنوط وأحباط ، لولا أن وجد في الايمان ملاذاً من العبثية يهون عليه ما يكابد في رحلته العابرة على هذه الأرض ، ويؤمن مصير ما يكدح له في معترك الوجود وصراع القيم .

بنت الشاطىء

من يستطيع ؟

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يعدل الجهاد . .

فقال عليه السلام : لا أجده . . ثم قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟

قال الرجل : ومن يستطيع ذلك ؟

فقال عليه السلام : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله .

لا تقنطوا من رحمة الله

لا مجال في العقيدة الاسلامية لأن تتعقد شخصيتنا بما نتورط فيه من ذنوب تطهرها التوبة الصادقة .

والظن الشائع أن التوبة لا تكون إلا من الضالين غير المتقين .

لكنها في كتاب الاسلام ، مظهر تقوى وصريح إيمان « والله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

وقد كان للرسل عليهم السلام ما يتوبون منه :

تضرع نوع إلى الله « قال رب إني أعوذ بك إن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » .

ويونس عليه السلام ، صاحب الحوت ، ضجر بالابتلاء « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » .

وكانت دعوة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام .

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا أنك أنت التواب الرحيم » .

وظلم « موسى » نفسه إذ استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه « فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين . قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم » .

وابتلى داود وسليمان عليهما السلام بالفتنة .

وفي ختام الوحي ، تلقى خاتم الرسل عليهم السلام آيات النصر :

« إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

والمؤمنون جميعاً ، يتوبون إلى الله : « وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون » .

قصارى جهد المتقين منا أن يضيقوا بالصغائر ويجتنبوا « كبائر الاثم والفواحش إلاّ اللمم » .

فإذا « فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » .

ومهما يسرفوا على أنفسهم فمغفرة الله واسعة ، وهو سبحانه ينهي عباده عن القنوط من رحمته :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » .

بل ان هذا القنوط ، يحمل في العقيدة الاسلامية على الضلال والكفر :

« ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ؟

« ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون » .

في حديث قدسي ، عن رسول الله ﷺ : ؟ إن الله يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا دعاني » .

وقال تعالى :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » .

صدق الله العظيم

الوالي . . الرعية

قال الامام علي بن أبي طالب :

أيها الناس : إن لي عليكم حقاً . . ولكم علي حقوق . . فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعملوا . . وأما حقي عليكم . . فالوفاء . . والنصيحة ، والاجابة حين أدعوكم والطاعة حين آمركم .

مع المصطفى في ليلة القدر

تجلى له الوحي في « غار حراء » وألقى إليه بالكلمة : « إقرأ » .

وما كان « محمد بن عبد الله » بقارىء ، وما كان يتلو من قبله كتاب ولا يخطه بيمينه ، فماذا يقرأ ؟

« إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » .

وخرج من الغار ، والكون من حوله ساج خاشع ، وعلى الأفق نور فجر جديدة ينسخ ظلمات ليل طال ، ويوشح البيت العتيق بسنا وضاء ، يكشف عما تكدس في رحابه من أصنام ، فتبدو على حقيقتها العارية : ممسوخة شائهة بلهاء . وكان لها من ظلمات الليل ستر كثيف يخدع البصر ويزيف الرؤ ية .

النور ملء بصره وبصيرته .

والكلمات ملء قلبه ومسمعه .

ولكنه في حيرة من الأمر ، يعييه أن يستوعب كنه السر الأعظم الذي تجلى له ، ويأخذه من جلاله ما يشبه الدوار فيكاد لا يدري ما إذا كان في وعي يقظته ، أم تلك رؤ يا بصيرة أرهفها طول التأمل في آيات القدرة ، والتطلع إلى اجتلاء سر هذا الكون وخالقه ؟

وأحس وطأة العبء الثقيل تجهده وترهقه ، فما بلغ داره ، حتى بدأ مكدوداً مرتعداً شاحباً ، كأنه ووجدها هنالك ساهرة في انتظاره « خديجة » التي كانت له على مدى خمس عشرة سنة ، زوجاً وأماً ، وملاذا وسكنا .

وهذه هي معه في ليلة القدر ، ليس له في الدنيا غيرها من يودعه سره ويلتمس مشورته ورأيه .

هذه هي إلى جانبه ، يفضي إليها بما رأى وسمع ، ويملأ

عينيه منها إذ تصغي إليه بسمعها وقلبها ، محاولاً أن يستبين وقع هذا الأمر على أقرب أهله إليه ، وأعزهم عليه ، وأصفاهم له وداً وأرشدهم نصحاً ورأياً . .

وقالت في إيمان ويقين :

« الله يرعانا يا أبا القاسم . إبشر يا إبن عم وإثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » .

وأحس راحة الأمن والسكينة . . وباتت خديجة ليلتها : أم المؤمنين الأولى التي ستظل زوجها المصطفى في أشق مراحل الدعوة وتواجه معه أصعب مخاطرها وأقسى تكاليفها ، وتقف إلى جانبه إذ يلقى بالقلة من السابقين الأولين ، طواغيت الوثنية القرشية الضارية .

كتب مؤرخو السيرة النبوية :

« كان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بخديجة رضي الله عنها : إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس . . حتى ماتت رضي الله عنها ـ في السنة العاشرة للهجرة ، عام الحزن ـ فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الاسلام » .

بعد عام الحزن ، أوحشت دنيا المصطفى ﷺ من وزيره وربة بيته ، وثقلت عليه وطأة الغربة في مكة ، وأنها لمهد مودة ودار مبعثه ومنزل عشيرته .

وبدأ ﷺ بمكر في الهجرة ، ويرجو أن يأذن الله .

وعاشت بعد رحيلها ، ملء الحياة في قلبه ودنياه ، وفي تاريخ الاسلام الذي عرف لها مكانها وقدرها ، وأعزه الله بها منذ وقفت مع المصطفى في ليلة القدر ، وليس في الدنيا ليلتئذ من آمن به سواها .

« ذلك فصل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

صدق الله العظيم

مخموم القلب

سئل النبي عليه السلام : أي الناس أفضل ؟

فقال : كل مخموم القلب ، صدوق اللسان !

قيل : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟

قال : هو التقي النقي ، لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد .

وديعة مستردة

في السنة السابعة للهجرة ، استقبلت المدينة المنورة « مارية القبطية » هدية من مصر ، بعثها المقوقس عظيم القبط إلى نبي

الاسلام عليه الصلاة والسلام ، مع صاحبه « حاطب بن أبي بلتعة » الذي حمل إليه كتابه ، يدعوه فيه إلى الاسلام .

ولم يسلم المقوقس ، لكنه رد على الداعي رداً جميلاً ، وأكرم وفادة صاحبه حاطب ، وأرسل إليه بهدية من خيرات الكنانة ، منها « مارية وسيرين ابنتا شمعون » لهما مكان في القبط عظيم .

وكان مولدهما ، لأب قبطي وأم رومية ، في صعيد مصر بقرية « حفن » على الشط الشرقي للنيل تجاه الأشمونين ، وانتقلتا في صباهما المباكر إلى قصر المقوقس ، ومنه خرجتا إلى المدينة ، فكان من حظ « مارية » أن اصطفاها ﷺ لنفسه ، أما أختها « سيرين » فكانت لحسان بن ثابت الأنصاري ، أم ولده عبد الرحمن .

صعدت « مارية » بحظوتها لدى المصطفى الذي كان لها في الغربة الأهل والوطن ، وآثرها الله تعالى بأن حملت من خير البشر ، ووهبه منها على الكبر واليأس ولده « إبراهيم » .

كان ﷺ في أواخر العقد السادس من عمره ، لم يرزق ولداً قط ، من أمهات المؤمنين اللواتي تزوجهن بعد السيدة خديجة أم أبنائه الستة . وقد ثكل منهم ولديه « القاسم وعبد الله » ثم ثكل بناته الثلاث « زينت ورقية وأم كلثوم » فلم يبق له غير إبنته الزهراء .

فلما أن جاءته البشرى بمولد إبراهيم ، سجد لله شاكراً ،

وحمل وليده يقبله مغتبطاً قرير العين ، واحتفلت المدينة بمولد إبن المصطفى ، يعزيه عما امتحن به من ثكل . وتفتح « إبراهيم » للحياة ، وأبوه سعيد به يرقب نموه يوماً بعد يوم ، ويجد فيه أنسه ومسرته .

ثم شاء الله أن يسترد وديعته .

مرض « إبراهيم » قبل أن يتم السنة الثانية من عمره ، وسهرت عليه أمه تمرضه ، والمدينة كلها تدعو له بالشفاء ، حتى إذا دنا أجله ، جاء أبوه معتمداً على صاحبه « عبد الرحمن بن عوف » لشدة ألمه ، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه ، ووضعه في حجره محزوناً جاشع القلب ضائع الحيلة ، لم يملك دمعة وهو يشهد ولده الوحيد يعالج سكرات الموت .

وأسلم إبراهيم الروح ، فقبله أبوه وقال والدمع يفيض من عينيه :

« تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب . وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وسار وراءه محمولاً على سرير صغير من منزل أمه إلى البقيع ، فصلى عليه أبوه وصحابته ، وأضجعه بيده في قبره .

وآب المشيعون إلى المدينة وقد غام الأفق وانكسفت الشمس ، فقال قائلون منهم : إنها انكسفت لموت إبراهيم .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسُفان لموت أحد ولا لحياته » ولم يطل به العمر بعد ولده .

كانت وفاة إبراهيم في السنة العاشرة للهجرة ، وفي ربيع الأول من السنة التالية ، رحل أبوه ﷺ عن هذه الدنيا ، ولحق بالرفيق الأعلى :

« سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار » .

الأمير يعمل بدلاً من الخادم

سلمان الفارسي هو أحد الصحابة الأجلاء ، تولى الامارة على نحو ٣٠ ألفاً من المسلمين . . لم يكن له بيت وكان يأكل من عمل يده ولا يأكل من أموال الصدقات . . كان يشتغل بالخوص ويقول : اشتري خوصاً بدرهم ، فأعمك فأبيعه بثلاثة دراهم ، ، فأعيد درهماً فيه ، وأنفق درهماً على عيالي ، وأتصدق بدرهم . . كان يتولى أمر العجين في بيته بدلاً من الخادم حين يرسلها في حاجة أخرى ، ويقول : لا أجمع عليها عملين .

نعم العبد الصائم

نعم العبد الذي أطاع مولاه واقتدى بسنة سيدنا رسول الله

فاستحق أن يكون كما قال تعالى ﴿ ومن يطيع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النسيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ والعبد الصائم الملتزم حدود الله بما قرره رسول الله ﷺ كان حقاً على الله أن يدخله من أكرم أبواب الجنة .

يقول الحديث : « إن في الجنة باباً يقال له الريان لا يدخل منه إلا صائمي رمضان فإذا دخل الصائمون تلقتهم الملائكة مستبشرة قائلة لهم أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم يا صائمون رمضان » ولعظم هذه العبادة وما لها من المنزلة عند الله جعل الله في رمضان انتصار المسلمين في غزوة بدر وكانت غزوة الفتح الأعظم وفي الثلث الأخير منه ليلة القدر التي قال الله عنها ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ـ إلى آخره ﴾ فهي ليلة يتجلى الله فيها على الصائمين إيماناً وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال : (التمسوها في العشر الأواخر من رمضان وفي لياليها الوترية ويميل أكثر العلماء على أنها ليلة السابع والعشرين وبهذا اقتدى الجميع ، وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عما يقال فيها فقالت كان صلوات الله عليه يقول (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا) ولقد توج الله تلك العبادة بقبولها فجعل سبحانه زكاة الفطر تطهيراً للصائم ودعوة من الله لعباده بالمودة والمحبة .

ووقت زكاة الفطر من أول يوم في رمضان إلى ما قبل صلاة العيد ومقدارها عن كل فرد نصف صاع من بر وقدره . اثنا عشر قرشاً يخرجها الصائم عن نفسه وعن كل فرد هو ملزم بالانفاق عليه ولا يعلم من يعطيها له أنها زكاة حتى لا تفسد ويبدأ بالأقارب الذين هم أولى بالمعروف ولا ينسى صلة الرحم في هذه الآونة فالله تعالى يقول لصلة الرحم : (أما ترض أن من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته تقول رضيت يا ربي وهي أي صلة الرحم معلقة بين السماء والأرض تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله وكما سن رسول الله أحياء ليلة القدر احيا الله قلبه يوم تموت القلوب ـ كذا أمر الرسول ﷺ بإحياء ليلة العيد فقال (من أحيا ليلة العيد لم يمت قلبه يوم تموت القلوب) وكما قررنا أن المقصود من العبادات أرواحها لا أشباحها والله سبحانه لا ينظر إلى المظاهر الخادعة التي يظن صاحبها أنه يخدع المؤمنين .

استعمله الله . .

قال رسول الله ﷺ : إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته .

فسأله رجل من القوم : كيف يستعمله ؟!

قال الرسول : يهديه الله إلى العمل الصالح قبل موته ، ثم يقبضه على ذلك .

بـــر . . الوالدين

حث القرآن الكريم والرسول العظيم على البر بالوالدين والرفق بهما والحنو عليهما ورد الجميل لهما وقد قرن الله سبحانه وتعالى بر الوالدين بعبادته وتوحيده حيث يقول : وقضي ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً » .

وبر الوالدين مطلوب ومفروض خصوصاً عندما يلحق بهما أو بأحدهما الكبر لأنهما في هذه الحالة يكونان أشد احتياجاً إلى العطف والرعاية .

روى أبو هريرة عن النبي - ﷺ - قال : رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ، رغم أنف رجل أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له .

وبر الوالدين واجب حتى بعد موتهما ويكون ذلك بصلة أهل ودهما وأصدقائهما - روى إبن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى .

وقد جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : « يا رسول الله ، هل بقي من بر والدي من بعد موتهما شيء أبرهما به ؟ قال : نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما

بعهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك من قبلهما فهذا الذي بقي عليك » .

وبر الوالدين مأمور به حتى ولو كانا على غير دين الاسلام ، فقد روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها فاستفتيت النبي ﷺ فقلت : إن أمي قدمت وهي راغبة . (أي راغبة عن الاسلام) فأصلها ؟ قال : نعم صلى أمك .

أكبر الكبائر

قال رسول الله ﷺ : ألا أحدثكم بأكبر الكبائر ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : الاشراك بالله . وعقوق الوالدين .

وكان النبي متكئاً فجلس ثم قال : وشهادة الزور . أو قول الزور .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هـ ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

مختارات إسلامية

1- رمضانيات (1)
2- رمضانيات (2)
3- أساسيات إسلامية في الأخلاق والآداب.
4- أحكام الحج إلى بيت الله الحرام.
5- الأدعية والابتهالات
6- الإسلام وشبهات الخصوم (1)
7- الإسلام وشبهات الخصوم (2)
8- التربية والتعليم في العصور الإسلامية (1)
9- التربية والتعليم في العصور الإسلامية (2)
10- أحاديث رمضانية

مختارات إسلامية

المجلد الأول



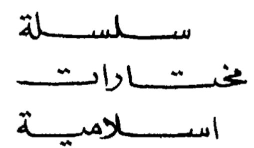
الفكر اللبناني - بيروت

سلسلة مختارات إسلامية

رمضانيات

(١)

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
اسلامية

رمضانيات

دار الفكر اللبناني

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهْرِالحَرَام قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمسْجِدِ الحَرَامِ واخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالفِتْنَةُ اكبَرُ مِنَ القَتْل وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ، وَمَنْ يَرتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِه فـيَـمُتْ وهُوَ كافِرٌ فأولئِكَحَبَطتْ أعْمَالُهُم في الدُّنْيا والآخِرَة ، وأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون * إن الذِينَ آمَنُوا وَالّذين هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سبيل اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُون رَحْمَةَ اللهِ ، والله غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

صدق الله العظيم

وانتصر الحق

كلما أقبل علينا شهر رمضان المبارك أقبلت معه ايـاته وذكرياته . وهي الايات الخالدة التي يقرأها الناس في كل عام فتزداد على التكرار حلاوة وطلاوة ، والذكريات العزيزة التي تتجدد معها العبرة والموعظة الحسنة فتجدد مارث من العقدة ، وتقوى ما ضعف من اليقين ، وتزيد المؤمنين ايمانا فاذا هم يستبشرون .

ففي شهر رمضان من العام الثاني الهجري كانت اول معركة كبرى في تاريخ الاسلام.وهي غزوة بدر حيث وقف الحق امام الباطل وجها لوجه ، والتقى الجمعان فئة تقاتل في سبيل الله واخرى كافرة . فانتصر الحق بفضل الله وعلا لواؤه . وخذل الباطل وذوى ثم هوى . . . ،« ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون»

ولقد كان يوم بدر يوم القصاص تجلى فيه عدل الله مع الظالمين

حيث اخرج الله الظلم من مكمنه ، واقتنصه في مامنه ، ورأى الظالمون باعينهم نكال امرهم ولمسوا عاقبة بغيهم وغدرهم . . « وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد » . . . فأمية بن خلف رأس الكفر والضلال ، يقف في يوم بدر ذليلا خاضعا امام صيحة الحق التي يرتفع بها صوت [عبده القديم] بلال ، وبلال بن رباح ـ وقد تخلص من ذل العبودية لامية ـ يمسك بسيف الحق والايمان ، ويتذكر ما قام به امية نحوه من عسف وطغيان . فتثور نفسه ويصرخ باعلى صوته . . . « أمية بن خلف رأس الكفر والضلال . . . ، لا نجوت ان نجا » .

ويحاول امية بن خلف ان يتوارى عن الانظار يلوذ بالفرار ، ولكن هيهات هيهات . فقد نفذ القضاء وحكم الله بأمره فكان القصاص العادل في الدنيا قبل الاخرة ، وذهب امية بن خلف صريع بغية وعدوانه على يدي بلال . ورأى بلال في امية ما اطفأ ألمه القديم . وكان خير عوض عن حقه المهضوم . . وإن في ذلك لعبرة . . ، وعقبة بن أبي معيط عدو الله ورسوله ، والنضر بن الحارث عدو الله ورسوله ، وابو جهل عدو الله ورسوله . هؤلاء وغيرهم من أئمة الكفر الذين لا ايمان لهم وقفوا في يوم بدر للقصاص . ورأوا باعينهم عاقبة بغيهم وظلمهم . وكانت نهايتهم الاليمة عبرة وعظة سجل التاريخ فيها أن الظلم لا يدوم . وان مرتع البغى وخيم ، وأن المكر السيء لا يحيق الا بأهله . .

وفي شهر رمضان من العام الثامن الهجري اقبل الحق نسعى الى البلد الامين بعد ان اخرجه منها عنت الكفر وطغيان الهوى واستبداد الفسا أجل . اقبل الحق الحق يسعى الى البلد الامين كما يقبل الصيب الهتون فكان الفتح الاعظم الذي اهتزت له بطحاء مكة وربت . واخضر به الوادي الجديب . وتفتحت لاستقباله القلوب ، وبدأت مكة عهدا جديدا توارى فيه شبح الـوثنية البغيض إلى غـير مـآب ، ودخـل النـاس في دين الله أفـواجـاً، «وهـدوا إلى الـطيب مـن القـول وهدوا الى صراط الحميد ». وبعد ان تم فتح مكة ، واجتمع الناس حول رسول الله ﷺ ـ وكان منهم من ائتمروا به ليتتلوه ، ومن قاتلوه في بدر وفي احد وحصروه في غزوة الخندق وغذبوه واصحابه ـ نظر الرسول اليهم حينئذ وهم جميعا في قبضة يديه ، وحياتهم رهن كلمة ينطق بها . فلم يأخذه العجب والغرور بما وصل اليه من مجد وسلطان ولم يطف بنفسه ما يتملك نفوس الناس ساعة النصر والظفر من ظلم وطغيان .

بل وحتى لم يفكر في الانتقام لنفسه وللمسلمين عما اصابهم على أيدي قريش من الاذى والعدوان . ولكنه نظر اليهم نظرة كلها عفو ورحمة وقال لهم ! « اذهبوا فانتم الطلقاء » وهكذا يكون الخلق الكريم الذي يسمو على السمو نفسه وصدق الله العظيم حينما يقول عن رسوله « وانك لعلى خلق عظيم ».

وفي شهر رمضان وفي يوم الفتح الاعظم دالت دولة الاوثان وحطم الرسول الاصنام فكبت على وجوهها واصبحت حطاما وركاما واعلن رسول الله ﷺ كلمة الحق وقال : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا »، « جاء الحق وما يبدىء يبدىء الباطل وما يعيد » . . وبعد توالي القرون وتتابع العصور بما تحمله من قوة وضعف ومن نعمى وبؤس ومن رخاء وشدة ومن اقبال وادبار اقبل علينا اليوم العاشر من رمضان في العام الماضي حيث كان الابطال الصناديد . وابناء مصر الاوفياء لدينهم ووطنهم مع ابناء العروبة والاسلام يقفون على الضفة الغربية للقتال كما يقف اليث الهصور اصابة ذئب لئيم في غفة طارئة . . ويستعدون للوثبة الكبرى لتحطيم الظلم وازهاق الباطل ، يحملون في ايديهم العدة القوية . . ويشرق في قلوبهم الايمان ، وتمتلىء نفوسهم بالذكريات الرائعة لانتصار الحق في شهر رمضان فيتمثلون امامهم رسول الله ﷺ مع اصحابه المخلصين يدكون صروح الظلم والضلال . ويرفعون راية العدل ويعلنون كلمة التوحيد . . يتمثلون ذلك كله امامهم فيعيدون سيرة الرسول واصحابه من جديد . ويرفعون اصواتهم بكلمة التوحيد . . فكان الله معهم بقوته وتأييده ونصره . ومن الهزيمة المخزية الى النصر المؤزر المبين ، وكان الخزى والنكال لليهود ومن عاونهم من اعداء الحق وانصار الباطل واعادها ابطال العرب والمسلمبن كما كانت على عهد الرسول صلى ﷺ بدرية

عربية اسلامية لا شرقية ولا غربية .

... وقد طالعنا اليوم العاشر من رمضان وقد تجمعت الصفوف وتوحدت القلوب وذاق المسلمون والعرب حلاوة النصر وعرفوا اسبابه فتشرق نفوسنا بالامال الكبار ونتطلع الى الغد القريب الذي تعلو فيه راية العروبة والاسلام على كل راية . .

... فياباغي الشر اقصر فعلى الباغي تدور الدوائر . .

ويا ساعيا الى الظلم حسبك فان الظلم لا يدوم .

ويا أيها المكروب الذي اظلمت امامه السبل واحاطت به الحيرة ان الصبر والايمان والثقة بالله . . . تلك هي المنارة الهادية التي يسير الناس في ضوئها الى الخير والسعادة والسلام .

« والعصر ان الانسان لفى خسر ، الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

علام . . الهم ؟

كان القطب الصوفي ابراهيم ابن ادهم في الطريق عندما التقى به رجل يبين في وجهه الحزن وتنطق كل ملامحه بالهموم . فقال له ابراهيم : اني سائلك عن ثلاث فاجبني : هل يجري في هذا الكون شيء لا يريده الله ؟
قال الرجل : كلا !

قال ابراهيم : اينقص من اجلك لحظة كتبها الله لك في الحياة . .
قال الرجل : كلا !
فقال ابراهيم : فعلام الهم اذن . .

مجلس الأمن الاسلامي

من عبقرية الاسلام انه عقيدة وعبادة وعمل ، وانه شريعة ونظام سياسي واجتماعي يكفل للبشر الخير والعدل والسعادة افرادا وجماعات .

لهذا لم يتغافل عن الغرائز البشرية ، ولم يتغاض عن اثارها او يفترض محوها ، بل عرفهاوعرف آثارها ، فشرع لها من الوسائل ما يكفل تهذيبها والتسامي بها والخلاص من اضرارها ، ومن هذه الغرائز غريزة المقاتلة .

واذا كان من المحتوم ان يعيش الناس جماعات ، فانه من المتوقع ان ينشب بينهم الخلاف والتنازع على المصالح ، وكثيرا ما تعجز الوسائل السليمة عن حسم هذا التنازع ، فتنشب الحرب .

وليس من شك في ان الاسلام يحرص على السلام ، ويحض على صيانته بالقوة ان لم تستطع صيانته الا القوة . .

فما حكم الاسلام حينما يتحارب شعبان او طائفتان من المسلمين ؟ اتقف الشعوب الاسلامية الاخرى موقف المتفرج اللاهي ؟ ام تتشفى بالارواح المزهقة ، والدماء المراقة ، والأشلاء الممزقة ، والعمران المقوض ، والأموال المبعثرة في طاعة الشيطان ؟ أم ينحاز بعض المسلمين إلى فريق ، وينضم اخرون الى فريق ؟ لا ، ان في موقف المسلمين موقف المتفرج او موقف الشامت المتشفى منافاة للاخوة الاسلامية ، ومجافاة للصلة الانسانية ، وتمكينا للمتحارين من ان يتفانوا ، او يقضي قويهم على ضعيفهم .

ومن ذا الذي يرى أخويه يقتتلان فيتركهما ويخلى بينهما ، ويرضى بأن يصبر حتى يرى عاقبة ما بينهما من صراع ؟

ثم ان في تحيز فريق من المسلمين ، الى طائفة ، وتحيز فريق آخر الى طائفة توسيعا لميدان الحرب ، واطالة في اجلها ، وافسادا للعلاقات التي تربط المسلمين ، وتخريبا في الارض ، وتدميرا للحضارة ، وتعويقا للرقي ، وفيه اضعاف للمسلمين جميعا . لهذا رسم القرآن الكريم الخطة المثلى في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما . فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفىء الى امر الله . فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا . ان الله يحب المقسطين . انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم . واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فاذا تحاربت طائفتان من المسلمين كان على الامة الاسلامية ان تسعى جهدها للصلح بينهما ، بان تعرف اسباب النزاع ، وتقضي بينهما بالعدل ، فان رضي المتحاربان بهذا الحكم فقد عاد السلام ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وان رضيت طائفة ورفضت الاخرى واصرت على الاستمرار في عدوانها مغترة بقوتها كان على المسلمين جميعاً أن يحاربوها منضمين إلى الطائفة المعتدى عليها ، ليكونوا جميعا قوة عظيمة تستطيع ان تحطم الغرور الباغي ، حتى يخضع المعتدي لحكم الله ، وهنا تتجلى سماحة الاسلام وسموه وحكمته .

وذلك انه دعا الى انصاف المظلوم واقرار السلام .

ثم انه قيد المنتصرين تقييدا يمنعهم من الانتقام لان المتوقع ان تتشفى الطوائف الغالبة من الطائفة الباغية ، مجازاة لها على تمردها وغرورها ، لكن الاسلام قضى يغير ذلك ، قضى بأن يستانف المنتصرون ـ وهم الذين رفضت وساطتهم في الصلح ورفض حكمهم العادل فاضطروا الى محاربة الباغي ـ الصلح بين الطائفتين المتنازعتين صلحا قائما على العدالة لا على التحيز والمحاباة والانتقام وجب إلى الميلمين العدل في حكمهما بأن الله تعالى يحب العادلين .

ولقد بنى الاسلام الدعوة الى الاصلاح بين المتحاربين على انهم اخوة للمسلمين الاخرين ، اخوة في الدين ، والدين رباط ،

وثيق لا يقل عن رباط النسب والدم واخوة في الانسانية لانهم جميعا من أب واحد وام واحدة . ولا شك أن هذا اعظم نظام لصون السلام ، وحفظ الامن ، والفصل العادل بين الشعوب المتنازعة .

هذا هو مجلس الامن الحقيقي الفعال الذي يستمد قوته من حب الحق ، ونصرة العدل ، ولا يرعى شيئا غير الحق انه مجلس الامن الذي شكله الخالق سبحانه وتعالى فهو اذن مجلس يسعى الى الخير ، ويقر السلام على الارض ، ويعتز برهبته الدينية الروحية . وهيهات ان تبلغ مبلغه هيئة اخرى ، لان الجماعات التي عرفناها لم تستطع ان تصون السلام ، ولم تستطع ان تردع المعتدي وطالما حرصت الدول القوية فيها على رعاية صوالحها ، والاحتفاظ بنفوذها ، ومحاباة من يستظلون بظلها ، وهذا هو السبب في ان الحرب لا تنقطع ملتهبة وباردة ، وفي ان العالم يتحزب كتلا وشيعا ، يطغى القوي على الضعيف ، ويطمع المسلح في الاعزل ، فلا تكاد حرب تنتهي حتى تبدأ في اعقابها حرب اخرى اشد طحنا ، واهول فتكا فمتى تثوب البشرية الى الى رشدها ؟

ومتى ينعم العالم بسلام دائم يحميه مجلس الامن الذي شرعه القرآن الكريم ■

النصر .. جزاء صدق النية

ان المفاضلة بين المقاتلين على قدر صدق عقيدتهم ، وقوة عزيمتهم ، وثقتهم في المولى ـ جل وعلا ـ والملائكة من نور ، وحين يشرقون في مكان تحل به البركة والامن ، والسلامة . وهم يصاحبون من صفت نفوسهم فبعدوا عن وساوس الشيطان ـ وفي الصفاء النفسي يكون « الالهام » بالتوفيق في القتال .

وفي الآية الكريمة دلالة على ان جند الله من السماء تنزل بالمعونة لتحقيق نصر جنوده في الارض ، ليكون الثبات عند اشتداد الامر ، ويطلب القدير ذكر ما كان يوم « بدر » حين اعلم العليم الخبير ملائكته تأييد المؤمنين وهم معهم بالنصر جزاء صدق نيتهم .

وقد روى ان الملك كان يمشي بين الصفوف يبشر بالظفر ، فيقوى الروح المعنوي حتى ان المؤمن كان يشير بالسيف الى عنق المشرك فيهوى تحت موطىء قدمه شاعرا بان هناك قوة اخرى تعين على القتال .

والتأمل في الآية الكريمة يبين ان الثبات يتبعه رعب في قلوب الاعداء واقتدار من المؤمنين يمكنهم من الضرب في كل مكان من دون زعزعة أو زحزحة وما فوق الاعناق فيه البصر والعقل ، فالاطاحة بهما مذهبة القوة . اما البنان فتعطيلها يمنع مسك السلاح ، فلا يقدر العدو على الوقوف موقف الدفاع .

ويقول ابن العباس ـ رضي الله عنهما ـ: ان البنان تساعد على (بيان) ما يقوم به المحارب المعتدي ، فالقضاء عليها يعجزه . .

على أن الواجب يتطلب الحرص بعامة حتى يؤ تى العدو في كل مكان والجندي الصادق المواجهة هو الذي تملكه اليقظة ، فقد يتماوت العدو الماكر الغادر او يخادع ، ويحاول التغرير ، ولقد جمع العلى العظيم الامر بين أذهاب ما هو ظاهر فوق الاعناق ، وما هو بعيد المنال كالبنان .

ان اليقظة الحربية لا تتحقق الا بالصبر . وان الله مع الصابرين .

النصر . . في غزوة بدر

كانت غزوة بدر ـ اول معركة خاضها المسلمون مع الكفار ـ في هذا الشهر لقد انتهت بقتل سبعين واسر سبعين من ائمة الكفر ،

وبدأت المعركة بالمبارزة بين ثلاثة من المسلمين وثلاثة من الكفار ولكن هذه المبارزة لم تطل الا ريثما وقعت سيوف المسلمين على رقاب اعدائهم ، ثم التحم الجيشان في عاصفة قاصفة ، فامد الله المؤمنين بعونه وكان ما يذكره القرآن حيث يقول الله فيه :

« اذ يوحى ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سالقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ».

كان هذا النصر في السابع عشر من هذا الشهر ، وكان سببه قوة الايمان ، وثبات اليقين ، والحرص على شرف الاستشهاد ، او شرف النصر . .

ويظهر ذلك فيما قاله سعد بن معاذ حين رأى النبي أن يستشير الانصار قبل الالتحام مع الكفار ، فقد نهض يرد عليه بهذا الكلام الذي يفيض حماسة وحيوية وايمانا : لقد آمنا بك ، وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق واعطيناك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما اردت ، فو الله الذي لا اله غيره لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره ان تلقى بنا العدو غدا ، انا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء . ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك . .

ولم يكد ينتهي من هذا الكلام حتى تالق وجه النبي بالبشر وبشر اصحابه بما ينتظرهم من خير ونصر .

وكان الله معه ومع الفئة القليلة المؤمنة ، وكان النصر في هذه المعركة بداية الانتصارات الكثيرة الرائعة التي اعلت راية الاسلام ، ومكنت لنوره ان يزحف في كل اتجاه .

دور الملائكة في يوم بدر

كان يوم بدر يوم السماء نزلت فيه الملائكة الى الارض لتثبيت الذين آمنوا وتلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، وفي ذلك يقول الله عز وجل « اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم » ويقول « اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » .

وقصة امداد الله للمسلمين بالملائكة قصة عجيبة قوامها قدرة الله الذي « الارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه » وقد اختلف العلماء في الغرض الذي من اجله امد الله المسلمين بالملائكة فذهب بعضهم الى ان الملائكة انما نزلت للقتال . فهي جيش من السماء انزله الله لاضعاف شوكة الشرك والطغيان في الارض ويستدلون على ذلك بما يروى من ان رجلا من المسلمين كان يطارد رجلا من المشركين في يوم بدر فسمع صوت ضربة بالسوط بالسوط فوقه فنظر الى المشرك فاذا به قد خر مستلقيا وشق وجهه فلما اخبر الرسول بذلك قال : ذلك من مدد السماء ، وما يروي عن ابي داود المازني حيث قال : تبعت رجلا من المشركين لاضربه يوم بدر فوقع راسه بين يدي قبل ان يصل

اليه سيفي ، وهم يقولون ان الامر في قوله تعالى « فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » امر للملائكة بالضرب والقتال . ومعنى ذلك ان الله قضى بإنزالهم للضرب والقتال .

ويذهب البعض الاخر الى ان الملائكة انما نزلت لتثبت قلوب المؤمنين ولتقوي الروح المعنوية لديهم وانهم لم يشتركوا في القتال وحجتهم في ذلك ان الملك الواحد يكفي لاهلاك اهل الارض جميعا .

وهذا الراي هو الذي تميل اليه النفس وتؤكده القرائن والدلائل التي لا يتطرق اليها الضعف والوهن .. ذلك لان الملك الواحد يكفي لاهلاك الكفار جميعا في لحظة واحدة . . فلماذا ينزل الله هذا العدد الكبير من الملائكة !

ك ولان الله لو قدر للملائكة ان تشترك بالفعل في القتال لما كان هناك خيرية للمسلمين الذين اشتركوا في هذه الغزوة ، ولما كان داع للاخذ بالاسباب العادية في هذا الوجود حيث يأمر الله المسلمين باعداد العدة للقضاء على الكفار فيقول : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

ولان الملائكة لو اشتركت بالفعل في القتال لكان عددهم بانضمام المسلمين اليهم اكثر من عدد المشركين . . ولا يقال حينئذ ان الفئة القليلة « المؤمنة » قد غلبت الفئة الكثيرة « المشركة » .

ولان الملائكة لو اشتركت في القتال بهذا العدد الضخم وهو الف من الملائكة مردفين اي متبعين انفسهم بملائكة اخرين حتى وصل عددهم الى خمسة آلاف . لو ان الملائكة اشتركت في القتال بهذا العدد الكبير ثم انجلت المعركة عن قتل سبعين من المشركين فحسب لكان هذا الموقف غير مناسب وغير لائق بملائكة الله . بل كان ذلك يعتبر نصرا للمشركين . وهزيمة الملائكة والمسلمين .

وبذلك يتبين لنا ان الملائكة لم تنزل للقتال ، وانما نزلت لتثبيت القلوب وتقوية الايمان . . ومما يزيد هذا المعنى تاكيدا وقوة قول الله تعالى بعد ذلك « وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » اي وما جعل الله امدادكم بالملائكة لشيء من الاشياء الا للبشرى لكم بانكم ستنتصرون ، ولتسكن وتطمئن بهذا الامداد قلوبكم حيث تدركون بأن الله معكم وانكم اهل لرضا فيزداد ايمانكم وجهادكم . ويكون الامر في قوله تعالى فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان امرا موجها الى المؤمنين الى الملائكة ويكون المعنى اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم بمهونتي فثبتوا الذين آمنوا وشجعوهم واخبروهم بان الله معهم وانه سيلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، واذا كان الامر كذلك فاضربوا ايها المؤمنون فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان .

هذا ـ ومن الله العون وبه التوفيق ■

شهر رمضان المعظم
درس في اكتساب
من غزوة الفتح

حين نقول : ان الاسلام يصلح لكل زمان ومكان ، فانما نريد بذلك ان مبادئه الخالدة تستطيع ان تقدم الدروس والعبر ، وتعطي الحلول للمشاكل المختلفة في الظروف المختلفة باسلوب سهل ممتع يعتمد على « المادة » كما يعتمد على « الروح »، ولا يقتصر على الاسلوب « المادي » الذي لا روح فيه .

ولكن المهارة التي نطالب بها الكاتبين في الدين ، والمتكلمين في الدين ، ان يستخلصوا تلك العبر والدروس المستمدة من تعاليم الدين الحنيف الخالدة ، وان يقدموا الحلول المبنية على تلك الدروس والعبر للمشاكل المختلفة في الظروف المختلفة ، ليبهر الاسلام المؤمنين به وغير المؤمنين به ايضا ، وليلمسوا عظمة هذا الدين العظيم الذي قاد الحضارة العالمية قرونا طويلة حين كان اتباعه متمسكين به ويسيرون على هديه ، فلما بدلوا ما بانفسهم اصبح عزهم ذلا وتداعت عليهم الامم .

وفي هذه الايام العصيبة التي يجتازها المسلمون في دار الاسلام ، وهم في حرب مصيرية دفاعا عن حقوقهم المغتصبة في الارض المقدسة ضد التوسع الصهيوني الاستيطاني وضد من وراء اسرائيل من دول الاستعمار القديم والجديد .

في هذه الايام تطل على المسلمين ذكرى غزوة فتح مكة ، تلك الغزوة التي عاد فيها المستضعفون الذين اخرجوا من بلدهم الامين بغير حق الا ان يقولوا لمن اخرجهم من بلادهم واملاكهم كلمة الاسلام بما فيه من سماحة وقوة وامانة : اذهبوا فانتم الطلقاء .

فماذا يستطيع العرب بخاصة والمسلمون بعامة ان يستفيدوا من درس وعبرة من غزوة الفتح ؟!

ـ ٢ـ

لقد كان من جملة اسباب انتصار اسرائيل على العرب في حرب حزيران « يونيو » ١٩٦٧ ان اسرائيل استطاعت اقتناص الاسرار العسكرية العربية ، فحاربت العرب على هدى وبصيرة .

وقد صرح المسؤولون العسكريون في إسرائيل . بأن من أهم أسباب انتصارهم على العرب، أن مخابراتهم استطاعت بوسائلها الحصول على أدق المعلومات العسكرية عن العرب .

والدرس الكبير الذي يجب ان يتعلمه العرب من تلك الحرب هو ان يصونوا اسرارهم العسكرية ويتحلوا بأعلى درجات الكتمان .

ولو كان العرب شعوبا وحكومات وافرادا وجماعات ، عند مسئولياتهم التاريخية في « الكتمان » وهم في حرب حياة او موت

ضد اسرائيل المعتدية المغتصبة لما استطاعت اسرائيل ومن وراء اسرائيل ، ان يجمعوا المعارك المفصلة الدقيقة عن الجيوش العربية ، وعن اسرارها العسكرية الحيوية ولما استطاعت الانتصار على العرب .

فما هو الدرس الذي يمكن ان يتعلمه العرب والمسلمون من الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام في « الكتمان » الذي طبقه في غزوة فتح مكة بالذات . بمناسبة ذكرى هذه الغزوة التي كانت في السنة الثامنة الهجرية وفي شهر رمضان المبارك ؟

- ٣ -

بلغ النبي ﷺ في تطبيق عامل « الكتمان » حد الروعة في غزوة فتح مكة ، حتى ليمكن اعتبار هذه الغزوة مثالا من اعظم امثلة التاريخ العسكري في تطبيق « الكتمان » الى ابعد الحدود .

فقد امر النبي ﷺ اصحابه بانجاز استعداداتهم للحركة وبعث الى القبائل المسلمة من يخبرهم بانجاز استعداداتهم للحركة ايضا .

كما امر عليه الصلاة والسلام اهله ان يجهزوه ، ولكنه لم يخبر احدا من المسلمين في داخل المدينة المنورة وخارجها بنياته واهدافه من حركته واتجاهها .

بل اخفى عليه الصلاة والسلام نياته واهدافه واتجاه حركته الوشيكة حتى عن اقرب المقربين اليه !

دخل ابو بكر الصديق رضي الله عنه الى ابنته عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ، وهي تهيء جهاز النبي ﷺ فقال لها : « اي بنية ! أأمركم رسول الله ﷺ ان تجهزوه ؟» . . قالت : « نعم ، فتجهز » . قال : « فأين ترينه يريد ؟!» فقالت : « والله لا ادري » .

ولما اقترب موعد الحركة ، صرح الرسول ﷺ بانه سائر الى مكة المكرمة ، ولكنه بث عيونه وارصاده ليحول دون وصول اخبار اتجاه حركته الى قريش .

بث عيونه وارصاده داخل المدينة المنورة ، ليقضي على احتمال تسرب اخبار حركته من اهلها الى قريش وقد استطاع ان يحجز رسالة حاطب بن بلتعة الى قريش قبل ان تتسرب الى مكة .

وبث دورياتهم الاستطلاعية داخل المدينة وخارجها ، ليمنع قريشا من الحصول على المعلومات عن نيات المسلمين ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من ارسال المعلومات اليها .

وبقي النبي ﷺ يقظا اشد اليقظة حتى وصلت قواته الى ضواحي مكة المكرمة ، فنجح اعظم النجاح بترتيباته الوقائية في الكتمان « الشديد لحرمان قريش وحلفائها من معرفة نيات المسلمين .

فقد وصل جيش المسلمين البالغ تعداده عشرة الاف مقاتل « مر الظهران » على مسافة اربع فراسخ من مكة المكرمة ، دون ان تعرف قريش موعد حركته من المدينة المنورة ، وموعد وصوله المراحل بين المدينة ومكة .

وعسكر جيش المسلمين في « مر الظهران » فامر النبي ﷺ ان يوقد كل مسلم في جيشه اللجب نارا حتى ترى قريش من بعيد ضخامة جيش المسلمين ، دون ان تعرف هويته فيؤثر ذلك في معنوياتها ، وتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يؤمن الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام خطته العسكرية في دخول مكة دون اراقة للدماء .

واوقد عشرة الاف مسلم عشرة الاف موقد المنار ، ورأت قريش وهي في مكة تلك النيران الكثيرة تملأ الافق البعيد .

واسرع قائد قريش ابو سفيان بن حرب ومعه بديل بن ورقاء الخزاعي وحكيم بن حزام بالخروج من مكة المكرمة متجهين نحو مصدر تلك النيران فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين قال ابو سفيان لصاحبه بديل : « ما رايت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا » .

ورد بديل قائلا : « هذه والله خزاعة حمشتها الحرب »، اي جمعتهم الحرب وهيجتهم ، فلم يقتنع ابو سفيان بجواب بديل وقال : « خزاعة اقل واذل من ان تكون هذه نيرانها .

- ٤ -

لقد كانت قريش تعرف حق المعرفة ان المسلمين سيهاجمون مكة ، ولكنها لم تكن تعرف متى وكيف واين سيجري الهجوم المتوقع .

والفضل في ذلك للكتمان الشديد الذي كان الرسول القائد عليه افضل الصلاة والسلام لا يتخلى عنه طرفة عين في القضايا العسكرية المصيرية .

ذلك لان نيات المسلمين في مهاجمة مكة وفتحها ، لو انكشفت لقريش في وقت مبكر ، لاستطاعت ان تحشد قواتها وقوات حلفائها ، ولاعدت خطة عسكرية لاحباط هجوم المسلمين ، ولكان بامكانها مقاومة المسلمين اطول مدة ممكنة ، ولا وقعت بقوات النبي ﷺ خسائر في الارواح والاموال دون مسوغ .

والنتيجة ان قائد قريش ابا سفيان لجأ الى النبي ﷺ واعلن اسلامه ، وفي اليوم التالي دخل المسلمون مكة فاتحين .

ان « كتمان » النبي ﷺ نياته حتى عن اقرب المقربين اليه ، وكتمان وقت حركته وتعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه هو الذي ادى الى هذا الفتح القريب بدون خسائر تذكر .

ودرس فتح مكة في « الكتمان » الشديد ، يمكن ان يعتبر مثالا رائعا لمزايا التمسك باهداب « الكتمان الشديد » .

ولعل درس هذه الغزوة العملي في « الكتمان » خير ما يمكن ان يدرس في الكليات العسكرية العربية والاسلامية وكليات الاركان ليعرف العسكريون العرب والمسلمون ، كيف كان النبي ﷺ حريصا على تطبيق عامل « الكتمان » وكيف كان ينتصر على اعدائه لتطبيقه بكل مهارة وحذق هذا العامل الحيوي ويضعه في حيز التنفيذ .

ذلك درس ما احرانا ان نتدبره في هذه الايام ، حتى نحرم عدونا الذي هولنا بالمرصاد من أهم عوامل انتصاره ، وحتى نحصل على المعلومات عنه ولا يحصل على المعلومات عنا .

ترى ! انستفيد من هذا الدرس العظيم ، المستمد من سيرة سيد القادات وقائد السادات عليه افضل الصلاة والسلام ، ليتبدل حالنا الى احسن حال ، ولناخذ المباداة من عدونا اللدود ، ولنستعيد حقوقنا المغتصبة من الارض المقدسة ؟!

اذا فعلنا فستقول اسرائيل كما قال اسلافها من قبل : ان فيها قوما جبارين .

وصدق رسول الله عليه افضل الصلاة والسلام : « استعينوا على قضاء الحاجات بالكتمان ».

من اضطر غير باغ ولا عاد

ثورة الفكر الاسلامي

حتى الاوامر والنواهي التي تتضمنها النصوص القرآنية او الاحاديث النبوية . لم يجعلها الاسلام فوق مجال العقل بل انه على النقيض طالب دوي الابصار بان يفقهوها ويتدبروا ما فيها بحيث يمتثلون لها مدركين لحكمتها وعلتها مستبصرين باهدافها . . حتى لو كانت تتعلق بالتحليل والتحريم . .

ذلك أن الاسلام يرى الانسان هو العقل الذي يتدبر والقلب الذي يؤمن واليد التي تعمل . . هو الجوارح والحواس . . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً . .

وكان على بن أبي طالب يسمى الضمير « عين الله » . . وكان يحض الناس على ان يملأوا اعماقهم بنور العلم كيلا يصبحوا وقلوبهم غفل صم بكم عمى فهم لا يبصرون . .

وكان عمر بن الخطاب ـ كعلي ـ متبعين آثار النبي ﷺ وابي بكر من بعده . . كان يجهدان جهدهما في فهم علل الاحكام ، وفي تفسير النصوص بما يحقق المقصود منها ويؤكد روحها والحكمة فيها .

وكان هذا كله تحريرا لنصوص الشريعة مما قد يهددها من جمود تتعرض له الشرائع عادة ، ان لم يقيض لها هذا الطراز من المفسرين والرواد والمطبقين العظام . .

وهكذا وضعت في الشريعة مبادىء واصول تجعل الشريعة السماوية ، شريعة انسانية في كل تطبيقاتها . . من ذلك قاعدة الضرورات تبيح المحظورات . . فمن الحق ان الله تعالى قال « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون » . . ولكن الله وضع لحدوده ، حدودا اذ قال « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم ».

وهكذا لم يطبق عمر حد السرقة في عام المجاعة . . وقضى بالعفو عمن طرق ليأكل وهو جائع . . مع ان حدود الله صريحة واضحة والآية تقضي بقطع يد السارق . . غير انه بالفهم المتكامل للاسلام ، وللاعماق البعيدة في النصوص التي يعتبر بعضها مقيدا ومفسرا للبعض وبسعة الافق والجسارة وبالفهم الدقيق لانسانية الروح الاسلامية جعل الاضطرار من غير بغي ولا عدوان ، غير موجب للاثم ، بل يستحق المغفرة والرحمة . . وهو من اجل ذلك اعتبر الآثم من قهر غيره على ارتكاب المعصية او اقتراف الجريمة . . فقد سرق غلمان ناقة لرجل غريب ، واوشك ولي امرهم ان يأمر بقطع ايديهم ولكن عمر رفض وقال لاولياء امورهم : « أما والله لولا اني اعلم انكم تستعملونهم

وتجيعونهم حتى ان احدهم لو اكل ما حرم الله عليه ، حل له ، لقطعت ايديهم » ثم امر من يستعملونهم ويجيعونهم ان يدفعوا ثمن الناقة المسروقة لانهم هم الذين اضطروا الغلمان للسرقة . .

ولقد جيء لعمر بامرأة جهدها العطش فمرت على راع فأبى ان يسقيها الا ان مكنته من نفسها ، ففعلت . . فاشار علي باخلاء سبيلها فلعلها مضطرة قد قهرت على هذا الاثم .

وثبت انها مضطرة ، فاخلى عمر سبيلها ولم ترجم ، وعوقب المعتدي عليها ، الذي قهرها وخلق لها حالة الاضطرار وجعلها بين ان تموت عطشا او تمكن له من نفسها . . . !

وبهذه المواقف الانسانية المتبصرة بالدوافع والعلل والغايات ، اصبح الفكر الاسلامي بحق ، فكرا انسانيا قادرا على تغيير فساد الانظمة ، مشحونا بالثورية والقدرة على التجديد والتغيير .

ليلة القدر . .
ليلة الاسلام !

بسم الله الرحمن الرحيم « انا انزلناه في ليلة القدر ، وما ادراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر سلام هي حتى مطلع الفجر » .

ـ بهذه الايات مجد الله ليلة الاسلام التي اوحى فيها الى محمد بن عبد الله قوله تعالى :

« أقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » فكان انزال هذه الايات اول ما نزل في القران الكريم ـ هداية الله للبشرية باسرها في مختلف عصورها واحوالها ـ على رسول الله صلوات الله عليه ، اصطفاء له ، وابتداء لارساله بالرسالة العامة ، ومضى صلوات الله عليه منذ هذه الليلة التي يقول فيها « انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منزلين فيها يفرق كل امر حكيم » من الشهر المبارك « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وهو ـ صلوات الله عليه ـ الرحمة المهدأة والنعمة المسداة « يا ايها النبي انا ارسلناك مشاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا كبيرا » .

ـ ان ليلة اصطفاها الله بخصائص اصطفاء الرسول الخاتم ، وانزال القران الخالد ، وابتداء الامة التي جعلها الله بالاسلام « خير امة خرجت للناس » جديرة بان يسميها الله . . ولله الحجة البالغة ـ « ليلة القدر » وان يضفي عليها نعوت الشرف والفخروان يذكرها بانها « خير من الف شهر » ليس فيها ليلة القدر ، حيث يزكو فيها ذكر الله ، وترتفع اليه فيها الطاعات ،

ويضاعف فيها الثواب والاجر ، وليستجيب ربنا الدعاء ، ويحقق الامل والرجاء ، وما زالت الملائكة تنزل فيها على المؤمنين ، والى يوم الدين ، بفيوض رحمات الله ورضوانه وعفوه واحسانه ، وهو ـ سبحانه ـ يصفها بانها « سلام هي حتى مطلع الفجر » حتى نتعرض فيها لنفحات الله ، ونحن نقومها تائبين مستغفرين سائلين الله من خيره مؤكدين العهد معه ان نذكره ما حيينا وان نعبده مخلصين له الدين ، فطاعته اعون شيء على ما نرجو من صلاح الحال ، وبلوغ الامال ، واحراز النصر في المعركة التي عقدنا العزم على ان نلقى فيها ا عدونا .

ـ ففي عقيدة التوحيد يقول الله تعالى في كتابه « فاعلم انه لا اله الا الله » ويقرر سبحانه ان التوحيد دعوة كل نبي ورسالة كل رسول فيقول « شرع ا اليكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

ومن اجل تعميق وجود الله الواحد الاحد يلفتنا الله في كتابه الى انفسنا والى ملكوت السموات والارض وما خلق الله في شيء بمثل قوله « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب » « وفي انفسكم افلا تبصرون »؟ « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبـال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت »؟!

والقران يجلو حق الله على عباده بمثل قوله « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » « اني انا الله لا اله الا انا فاعبدني ، واقم الصلاة لذكرى » « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون ».

ويحفل كتاب الله بالايات التي يمتن بها على عباده ويذكرهم فيها بنعمه حتى يشكروها بطاعته واتباع سبيله فيزيدهم من خير ، ولا يحوجهم الى غيره ، ممن لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا يملكون موتاولا حياة ولا نشورا ، فيقول تعالى « الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون » .

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير ».

ـ ويسم الله قاطعي الارحام بسيماهم ، ويتوعدهم بعذابة فيقول : « وما يضل به إلّا الفاسقين الذين ينقضون في عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون » .

« فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم ، افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها ».

ـ مضى القران والرسالة الخالدة يقيمان صرح المجتمع الرباني على اساس من المحبة والتراحم والصبر واحتمال اذى قريش حتى هاجروا وهاجر النبي صلوات الله عليه الى المدينة ، الى دار الذين اووا واثروا ونصروا ، وفي السنة الثانية من الهجرة شرع الله جهاد المشركين وقتال الكافرين وكان اول ما نزل من القران في ذلك قوله تعالى . .

« اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » .

وهي ايات مع قوله تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » تبين دوافع القتال واهدافه في الاسلام ، وانه كان لرد الضيم ودفع الظلم عن افراد المجتمع الاسلامي ، وحماية الحدود والمقدسات الاسلامية وغيرها « ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها إسم الله كثيراً » .

والقرآن الكريم يمجد السلام الحق ، وينكر الخيانة وينقم ذلك من اليهود الذين اخلفوا وعود انبياء الله المصطفين الاخيار في كل زمان ومكان حتى رسول الله الذي عرفوه كما يعرفون انفسهم وابناءهم قال تعالى « ان شر الدواب عند الله الذين منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت وهم لا يتقون » .

والقران الذي يرفع راية السلام العزيز ، يدعوا الى اعداد العدة ، والاخذ باسباب القوة المادية الممكنة فيقول « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم واخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم . . ».

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم ».

ـ واسباب النصر واضحة جلية في ايات من سورة الانعال ، وسورة الحج ، وفي مثل قوله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ـ الاية « ما يضاعف العزم على الجهاد في سبيله حتى احدى الحسنيين « النصر او الشهادة » وما احوجنا في ليلة القدر ليلة الاسلام ان نتأمل حتى هذه الايات ، وان نمضي في نورها الى النصر القريب « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ».

وفي ليلة القدر ، ليلة الاسلام كله نجد طريق الاسلام هو وحده طريق الوجود السعيد والمجتمع الرشيد ، بوصايا القرأن وآدابه التي تدعم الأسرة ، وتصون الحكم الصالح ، وتشد روابط الاخوة ، وترفع صروح التعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وتقيم جسور مكارم الاخلاق التي استهدفها رسول الله ، ومدح الله بها مصطفاه وجمع اصولها في قوله تعالى .

« ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ». فلناخذ هدايات القرأن وتوجيهات الاسلام من كتاب الله في « ليلة القدر » ولنعمل صادقين على اساس من ذلك حتى يوفينا الله عهده في قوله « وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فاؤلئك هم الفاسقون ».

ـ ولنقل مع رسول الله صلوات الله عليه في ليلة الخير « اللهم انك عفو تحب العفون فاعفو عنا ».

ليلة
القدر

وصفها الله بانها ذات شرف وقدر . . وذكر ان قدرها فوق ان يعرف ويوصف حيث قال : وما ادراك ما ليلة القدر . . ثم بين انها خير من الف شهر ، ولنا ان نفهم من ذلك انها خير من كل ليالي وايام العمر ، فان متوسط اعمارنا قريب من هذا القدر وهو الف شهر ، وقد يكون هذا العدد مرادا به الكثرة .

ثم هي دون شك من شهر رمضان ، لانه الشهر الذي يقول الله فيه : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن ».

اما اين تقع هذه الليلة من هذا الشهر فذلك ما اختلفت فيه الاقوال . فمن قائل انها في الليالي الاوتار من العشر الاواخر من شهر رمضان ومن قائل انها في العشر الاواخر دون تخصيص بليلة او وصف ، وانها ليست ثابتة في ليلة معينة من العشر ، بل تتغير كل عام ، ومن قائل انها السابعة عشرة من رمضان . واظهر الاقوال انها ليلة سبع وعشرين منه ، لما ورد في ذلك من احاديث ولان طائفة من السلف كانوا على ذلك .

ومن طريف ما يذكر ان بعضهم عزز هذا الرأي بالقرآن نفسه ، اذ وجد كلمة (هي) السابعة والعشرين من كلمات السورة : « انا انزلناه في ليلة القدر ، وما ادراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من الف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر ، سلام هي حتى مطلع الفجر ».

ويرى الامام محمد بن عبده امام هذا الاختلاف ان على من يريد ان يوافقها احياء ليالي الشهر كلها ، فان ذلك هو السر في عدم تعيينها ، وهذا ما تشير اليه اية البقرة : « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن » فانها تجعل الشهر كله ظرفا لنزول القرآن ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه .

وايا ما كان الامر فان ثواب العبادة في هذه الليلة كما يقول الله : « ليلة القدر خير من الف شهر ».

السلوك
النبوي
في رمضان

نستطيع ان نقرر ان من ابرز مميزات السلوك النبوي في رمضان ما تتضمنه هذه المقالة المروية في صحيح البخاري ـ اصبح كتاب بعد كتاب الله ـ والتي يقولها ابن عباس عن ابن عمه محمد ﷺ حيث يقول عنه انه « كان اجود الناس وكان اجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القران فلرسول الله اجود بالخير من الريح المرسلة » اننا لنستطيع ان نستخلص من هذا النص ظاهرتين للسلوك النبوي في رمضان ، الظاهرة الاولى هي الظاهرة القرآنية ، مدارسة القرآن ومذكراته وتلاوته وقراءته والاحتفاء به واستقطابه للمسلم استقطاب المسلم له في شهر رمضان هذا . فابن عباس يصرح في هذه الرواية كما جاء في روايات اخرى كثيرة بأن جبريل عليه السلام كان كلما جاء رمضان يهبط الى النبي ﷺ ، يجلس معه يستعرضان القرآن من اوله الى اخره قراءة وتلاوة ، سواء اكان النبي يقرأ وجبريل يسمع او كان جبريل يقرأ والنبي يسمع ، او يقرآن معا ، النهاية احياء رمضان ولياليه بالقرآن ، دستور الحياة وينبوع الفضائل والكمالات الربانية التي يجب ان يتحلى بها المسلم على قدر الطاقة

البشرية ، مع زيادة الضبط لالفاظ القرآن والتحري في النطق به وازالة خوف النبي من ضياع القرآن او تحريفه او عدم تمكنه منه وتمكين المسلمين منه حسبما يستفاد من قوله تعالى له في موقف اخر « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرأته فاذا قرأناه فاتبع قرانه ثم أن علينا بيانه » وذلك عندما كان يحرك لسانه مستعجلا قراءة جبريل .

واذا اضفنا الى ذلك ما هو معروف من نزول القرآن في رمضان كما يقول القرآن « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » عرفنا لماذا يسمى هذا الشهر بشهر القرآن ، ولماذا درج المسلمون الى يومنا هذا في مشارق الارض ومغاربها على جعل رمضان شهر القرآن قراءة ودراسة وتفسيرا .

الظاهرة الثانية للسلوك النبوي في رمضان ما اشار اليه ابن عباس من الجود والكرم ، بل زيادة الجود والكرم في رمضان عنه في سائر اشهر السنة حتى انه كان يصدر من الرسول ﷺ كانه رياح تهب بالخير والبركات توزعها ذات اليمين وذات الشمال . إن شهر رمضان بوضعه وظروفه وصيامه، وحرمان النفس فيه من شهواتها وتطلعاتها المادية، يدفع نفس المسلم القادر إلى أن تبذل وتعطي وتجود وتغدق الخير على المحرومين والفقراء والمساكين بعد أن عرفت هي طعم الحرمان ، وذاقت مرارة الصبر عليه

بعض الساعات على حين ان الفقير والمحتاج يذوق طعم ذلك طوال الايام والاعوام . هذا يضممة ان التجرد بالصوم عن علائق المادة وشهوات النفس يعطيها جرعة من الروحية والشفافية والزهادة في الدنيا وعلائقها ، وهذا كله مما يدفع الى الجود والكرم والعطاء ، استهانة بالدنيا والمادة وتطلعا الى ما وراء الدنيا والمادة من وجه الله الكريم ونعيمة المقيم ، كما يقول تعالى « وسيجنبها الاتقى الذي يؤتى ماله يتزكى ومالاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى » على هذا استقر الفكر الاسلامي ودرج السلوك الاسلامي بين المسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، حيث يعتبرون ويقولون ان رمضان شهر الجود والكرم ، ويصير من الظواهر الرمضانية بين المسلمين اغداق الخير والعطاء على الفقراء والمساكين والمحتاجين .

ومن ابرز مظاهر السلوك النبوي في رمضان ما روته الاحاديث الصحيحة من انه كان ﷺ يخص رمضان بقيام النيل المعروف بصلاة القيام او صلاة التراويح التي صارت من الانطباعات الرمضانية عند المسلمين الى يومنا هذا ، غير انه ﷺ كان يصليها في بيته ثم صلاها ليلة او ليلتين بالمسجد فوجد الناس افواجا خلفه يصلون وراءه فعاد الى صلاتها في بيته وامرهم ان يصلوها في بيوتهم خشية ان تكتب عليهم جماعة في المسجد فيشق ذلك عليهم ففعلوا وامتثلوا حتى كان عمر بن الخطاب فوجد الناس يصلونها في المسجد اوزاعا متفرقين فقال ما افضل ان يجمع

هؤلاء وراء امام واحد ، فجمعهم خلف ابي بن كعب يصلونها جماعة وعمر ينظر مسرورا قائلا ما احسن هذه البدعة واستمرت على هذا الوضع الى يومنا هذا . وفي عدد ركعاتها خلاف طويل لكنه من توابع ذلك وعلائقه ما روته السنة الصحيحة عنه ﷺ من انه كان في العشر الاواخر من رمضان يجهد نفسه في عبادة ربه ويعتكف بالمسجد ويهيب بنسائه ان ينشطن في عبادة الله وان لا يكثرن النوم فيقول « ايقظوا صواحيات الحجر » يعني نساءه ثم يقول يا رب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة . .

واحيانا وفي بعض الرمضانات يكون مساوكه ﷺ جهادا ونضالا وقتالا في سبيل الله دفاعا عن الحق وكسرا لشوكة الباطل . ففي رمضان السنة الثانية من الهجرة كانت غزوة بدر الكبرى التي انتصر المسلمون فيها بقيادته وفي رمضان السنة الثامنة من الهجرة كانت غزوة الفتح التي انتصر المسلمون فيها بقيادته كان سلوكه في رمضان وفي غيره سلوكا متكاملا . كله في مرضاة الحق جل جلاله يتعدد المظهر ويتوحد الجوهر : .

دين
الوحدة

عاشت البشرية قبل الاسلام الوانا من الصراع والتفرقة عانت فيهما كثيرا من صنوف الاذى والالم وفي خضم الشدة بدت خيوط

من الامل . فكان بزوغ فجر الاسلام وظهور تعاليمه بمثابة الشرارة المضيئة لبداية مجتمع فاضل لا فرق فيه بين عربي وعجمي الا بالتقوى .

وكان محمد بن عبد الله هو القائد المرتجى والامل المنشود . فلقد سار الرسول الكريم في بناء مجتمع المؤمنين المسلمين على اساس الاخاء والوحدة والمساواة . . فآخى بين الآوس والخزرج بعد حزبية وعداوة ضارية . ودعم هذه الاخوة والوحدة بروح الايمان . فامتلأت قلوبهم بالصدق والوفاء والتضحية والفداء كما آخى بين المهاجرين وبينهم ، وكما آخى بين المؤمنين جميعا .

وعلى هدى هذه المبادىء سار الرعيل الاول من المسلمين وسارت الطليعة المؤمنة الهادية تقود القافلة الانسانية الى سعادة الدارين مؤتمرة بما امر الله به . . منتهية عما انهى الله عنه . . فلم يمض الا القليل من الزمن حتى حقق الله وعده الذي ضمنه قوله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » فنصر الله جنده ورفرفت الراية الاسلامية على بلاد كسرى وقيصر . وبسطت رسالة الاسلام جناحيها على أكثر بلاد العالم وأنشأت مجتمعاً جديداً يسوده الأمن والأمان والسكينة والاطمئنان .

وكان من اثار ذلك هذه المدينة الفاضلة التي حررت الامم المظلومة وردت الحقوق المهضومة . . واطمأنت اليها القلوب ونعم في ظلالها الافراد والشعوب .

فما احوجنا في هذه الايام الى استعادة ذلك المجد الغابر ولا يكون ذلك الا بان نصل الماضي بالحاضر . . ونواصل السير على هدى من كتاب الله وسنة رسوله . . فذلك وحده هو طريقنا للنصر على عدونا وعدو الله والانسان !

أضواء
من السنة

عن ابي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله . ما كانت صحف ابراهيم . قال : كانت امثالا كلها ايها الملك المسلط المبتلي المغرور اني لم ابعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم . فاني لا اردها وان كانت من كافر . وعلى العاقل ـ ما لم يكن مغلوبا على عقله ـ ان يكون له ساعات : فساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عز وجل ، وساعة يخلو فيها لحاجاته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل الا يكون ظاغناً إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، حافظاً للسانه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه الا فيما يعنيه . قلت : يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام . قال : كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت . ثم هو يفرح عجبت لمن أيقن بالنار . ثم هو يضحك . عجبت لمن أيقن رأي الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها . عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا

يعمل . قلت يا رسول الله أوصني قال : أوصيك بتقوى الله فانها رأس الأمر كله ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : عليك بتلاوة القرآن ، وذكر الله عز وجل ، فانه نور لك في الارض وذخر لك في السماء ، قلت يا رسول الله زدني . قال : إياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : عليك بالجهاد فانه رهبانية أمتي ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : أحب المساكين وجالسهم . قلت يا رسول الله زدني ، قال : أنظر الى ما هو تحتك ولا تنظر الى ما هو فوقك فانه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عندك . قلت يا رسول الله زدني ، قال : قل الحق وان كان مراً ، قلت يا رسول الله زدني ، قال : ليردك عن الناس ما تعلمه من نفسك وتجد عليهم فيما تأتي . ثم ضرب بيده على صدري فقال يا أبا زر : لا عقل كالتدبير ولا درع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق .

انظر يا اخا الاسلام الى الوصايا الخالدة وكيف ان سيد الخلق وحبيب الحق يوصي - اول ما يوصي - بتقوى الله ، ثم يحكم على التقوى بانها راس الامر كله ، وما التقوى الا الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، فهي كلمة جامعة .

واذا كانت مقومات التقوى اربعة وهي : خوف - عمل - رضا - استعداد ناسب ذلك ان يحافظ الانسان على هذا الكنز السليم بتلاوة القران العظيم وذكر الله

والذكر الصحيح مقرون بالتفكير فالذكر بلا تفكير كلمات جوفاء والتفكير بلا ذكر اعمال بطراء ولذلك جاء وصف اولى الالباب في كلام الله تعالى مشتملا على الذكر والتفكر ، قال جل شانه ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ».

فالتقوى وتلاوة القرآن والذكر : كل اولئك طهرة للنفس وتزكية للقلب ونور للانسان في الارض وذخر له في الملا الاعلى ليحيا في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

في القصاص . . حياة

قبل هذه الآية جاءت الآية الكريمة : « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . . الخ الآية . .

ومما هو من البر الذي يدخل في مفهوم تلك الآية ، ان يأخذ المسلمون انفسهم بالتطبيق العملي لما فرض الله تعالى عليهم في جريمة القتل ، وهو القصاص من القاتل . وفي قوله تعالى : « الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى » بيان لتكافؤ المسلمين في دمائهم ، فليس حر اكرم من حر ، ولا عبد احسن

من عبد ، ولا انثى افضل من انثى . . انهم جميعا يحملون نفسا انسانية ، هي واحدة في جوهرها ، كما يقول سبحانه : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ».

وقد ذهب بعض الفقهاء الى ان القصاص في القتلى ، انما يقع بين المتماثلين ، حسب ظاهر النص القر آني : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى ، فلا يقتل الحر بالعبد ، ولا الرجل بالمرأة .

وهذا فهم غير سليم للآية الكريمة ، اذ ليس هذا التقسيم التنويعي للناس بالذي يوجب التفاضل بين نوع ونوع ، ولو كان هذا موجبا لذلك لما كان قتل المرأة بالرجل ، ولا العبد بالحر قصاصا اذ لا يفي دم المرأة ـ على هذا التقدير ـ بدم الرجل ، ولا دم العبد بدم الحر .

والحق هو ان تفهم الآية الكريمة على ان هذا التنويع الذي جاءت به ليس مقصودا به التفاضل بين نوع ونوع ، وانما المقصود به ، هو الا نفاضل بين افراد الانواع . . فالحر لا يفضل الحر ، قرشيا كان ام غير قرشي ، اميرا كان او رعية للامير . . وهكذا سائر الانواع وبهذا تلغى الانساب ، وتزول فوارق الانواع والاجناس ، ويكون الناس في دمائهم سواء ، كما يقول الرسول الكريم : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ».

وعلى هذا تقتل النفس بالنفس ، ايا كان جنسها ، او مكانها الاجتماعي .. نفس بنفس ، وروح بروح ..

الايمان
ضرورة حتمية

حين ازدهى العلم بفتوحه الكثيرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر طغت نزعة الالحاد الديني طغيانا عارما بين المثقفين ، فجاهر الماديون بانكار الخالق واخذوا يتلمسون من اسباب الجدل الخادع ما يشنون به الحملات على المؤمنين ، وقد غرهم ما فوجىء به المتدينون من وهن وقتى اخذ عليهم سبيل الرد المفحم ، فانبروا يعلنون ما اسموه بخرافة الايمان ، ولجأوا الى المنطق المادي الاصم في التعليل والتدليل ، واهمين انهم حطموا الاسطورة ، وقضوا بادلتهم الحاسمة على الاديان .

ولكن الغشاوة الكثيفة قد انجابت عن العيون حين قارن المنصفون بين اطمئنانهم المؤمن ، وقلقهم الملحد وحين واصل العلم فتوحاته ، فرأى علماء الذرة والفضاء ما يشمل الاجرام المختلفة من نظام دقيق لا يعقل ان تبدعه المصادفة دون ان يعتريه في ملايين السنين المنصرمة خطأ عابر يصطدم معه كوكب بكوكب ، فلا يدع على الارض نسمة تتردد ، ثم ما علاج هذا القلق الحائر الذي جعل النفوس دون ايمان تعتقد انها تتخبط في

تية هائل لا تحده الضوابط ، دون ان تجد مرفأ للراحة والاطمئنان ، فالى من يلجأ المريض اذا اعضل داؤه ؟ وكيف يصبر المغبون على ظلمه دون ان يعلم ان هناك ربا يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ؟

ثم الى من يحتكم الناس في تطاحنهم المرير ؟ أ الى العقل وهو ذاتي يخضع للملابسات ؟ ام الى الضمير وهو وليد مؤثرات اجتماعية اصطلح عليها العرف العام ، ام الى القانون وهو مما يسنه الاقوياء ليسلبوا به الضعفاء . . . ولا بد من حكم عادل تطمئن اليه النفوس ، ولن يكون غير فاطر السموات والارض ، ومحيي الكائنات .

يتحدث بعض الملحدين عن نفسه فيقول ، لقد كنت في بعض الاوقات اتصور نفسي دون ايمان كاني اجلس على قمة مرتفعة لقطعة من الارض ممتدة الى البحر ، يحيط بها الماء من كل مكان فاجد نفسي محاطا بالمجهول من كل ناحية ، كاني اقف في اقيانوس لا ساحل له ، وليس لدي سفينة او شراع او بوصلة ، فسالت نفسي عند ذاك ، ما معنى هذا التأمل في المجهول إن لم يكن انفجارا للعاطفة الدينية التي زادها العلم المحسوس قوة بدل ان يطفىء جذوتها .

ولا نجد في مجال التعبير الأدبي تصويرا ابلغ من هذا التصوير نقدمه الى المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، والى المترددين فيعتبرون .

ثورة الفكر الاسلامي
المساواة . .
امام القضاء

من الانصاف عندما نريد تقدير شيء ان ندري الظروف المحيطة به . . فكثير من الافكار التي تبدو لنا مالوفة في ايامنا هذه كانت على عهدها متقدمة وثورية ايضا ، وكانت صدمة لبعض الناس في زمانها . .

من ذلك المساواة امام القضاء . . ان ابناء هذا الزمان يرونها امرا من امور البداهة ولكن الذين عاشوا قبل الغاء الامتيازات الاجنبية يذكرون اية مرارة كان يعانيها المواطن في وطنه وهو يرى الاجانب يتمتعون بامتيازات امام القضاء لم تكن للمصريين . . وكان هذا الامر عاما في كل البلاد التي كانت في يوم من الايام تابعة للخلافة العثمانية وجزءا من امبراطورية آل عثمان .

ولقد كان من اهم اهداف الثورة الفرنسية : المساواة . . وبصفة خاصة المساواة امام القضاء . . فقد كان للامراء ورجال الحاشية وكبار الملاك امتيازات خاصة . .

ولكن الاسلام كان قد تخلص من هذا كله منذ زمن بعيد . . وقد فتح المسلمون بلادا كثيرة ، وكان من الطبيعي ان يشعروا بالامتياز على ابناء البلاد المفتوحة الذين حررهم الاسلام . .

ولكن ولاة امورهم كانوا يردونهم الى تعاليم الدين بحسم . . ويكلفونهم في سبيل تحقيق المساواة مشقة هائلة . . من ذلك ما كان يفعله عمر الخطاب . . فقد ولي عمرو بن العاص حكم مصر بعد الفتح . . وتجادل ابن عمرو وابن احد ابناء الفقراء المصريين فاعتدى ابن الامير على ابن الفقير . . وشكا المعتدي عليه الى عمر بن الخطاب فارسل يقرع عمرو بن العاص « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟» وامر فاقتص ابن الفقير من ابن الامير . . عمرو ابن العاص . .

كان عمر بن الخطاب شديدا حقا في اقرار هذه المساواة لكيلا يشعر احد الذين دخلوا الاسلام حديثا بانه اقل درجة ، ولكيلا يشعر احد السابقين او القرشيين بان السبق الى الاسلام او الانتهاء الى قريش يمنحه امتيازا ما فتنهار قاعدة العدالة التي هي احد اركان النظام الذي انشأه الاسلام .

ولقد كان ببعض الصحابة هذا الحرص نفسه وكانوا يشعرون بحرج كبير من كل ما قد يثير شبهة التفرقة او يمس قاعدة المساواة .

وقد احتكم يهودي وعلي بن ابي طالب الى عمر بن الخطاب وهو امير المؤمنين . فقال عمر لعلي : « قم يا أبا الحسن واجلس امام خصمك . . ساو خصمك يا ابا الحسن ». .

فقام علي فجلس امام خصمه مساويا له . . وقد غشيت وجه

علي كرم الله وجهه كآبة . فلما انتهى النزاع وقضى عمر وانصرف اليهودي قال عمر لعلي متلطفا : اكرهت يا علي ان تجلس امام خصمك ؟ . .

ولكن علي بن ابي طالب اجاب : « كلا ولكني كرهت انك لم تسو بيننا حين قلت لي يا ابا الحسن ». (وابو الحسن هو كنية علي . . والنداء بالكنية تعظيم عند العرب) بهذه الروح عند الحاكم والمحكوم . . اكد الفكر الاسلامي الحر ، قاعدة المساواة امام القضاء . . ان الناس سواء في الحقوق والواجبات . . لتكون هذه المبادىء من بعد هدف الثورات الكبرى في التاريخ الانساني . .

مع آيات الله
في كتابيه

المنظور

ان الخالق ـ الذي شاء لسمو شأنه وجلال قدره ان لا تدركه حواسنا ـ لم يتركنا هكذا حيارى في بيداء الحياة الدنيا . بل تجلى لنا في كتابين خالدين : كتاب نراه ونحس به هو الكون او

الكتاب المنظور ، وكتاب نقرأه ونرتله هو القرآن الكريم او الكتاب المسطور (وهو المعجزة الخالدة).

وكان من الطبيعي ان يستمد الكتاب المسطور كثيرا من ايات الكتاب المنظور وعلى هذا النحو تحدث عن السماء والماء ، والهواء ، والاحياء ، والارض ، والجبال ، . . . . وهكذا اثار القرآن الكريم قضايا علمية عامة ، هي في حد ذاتها من روائع المعجزة الخالدة .

وبدهى أن المعجزة الخالدة التي خاطبت العقل ، ووجهت الحديث الى اهل العلم والفكر ، لا يمكن ان يقف اعجازها عند عصر معين او يحد ، ثقافة بالذات ، كما انها الرباط الوثيق بين العلم والايمان . وقبل ان نشرح ذلك نجب ان نبين امرين هامين :

الاول ان الله تعالى يمكن ان يرى بالقلب تحت شروط معينة بطبيعة الحال اذ ان القلب وحده هو الذي يمكن ان يتسع لجلال الخالق وقدره العظيم ، بشرط ان يكون عامرا بالايمان وان يكون صاحبه نقي السيرة طاهر السريرة .

والثاني ان العلم قام على اساس تلمس الحقائق في الكون باستخدام الحواس ، ويرقى الى مستوى الحس ويلتقي العلم بالدين لان العلم انما يبصرنا بآيات الخالق في كتابه المنظور او

ناموس الكون الثابت الشامل ، بينما يشير كتاب الخالق المسطور الى بدائع ذلك الناموس لنلمس قدرته .

[ان في السموات والارض لايات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة ايات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فاحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح ايات لقوم يعقلون].

ويأمرنا القرآن بدراسة آيات الكتاب المنظور على نفس المستوى الذي ندرس به آيات الكتاب المسطور ، لانه بطبيعة الحال لا يقل العمل قيمة عن الكلام ،

١ ـ قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق .

٢ ـ قل انظروا ماذا في السموات والارض . .

وتتضمن الاية الاولى كل الاسس التي قام عليها صرح علم الجيولوجيا ، ذلك العلم الذي اسسه لورد هاتون منذ نحو ٢٠٠ سنة فقط عندما قال : (ان تاريخ الارض مكتوب بين طيات قشرتها)، ولم يكن على عالم الجيولوجيا الا ان يسير في الارض ويجمع الحفريات او الاحافير ويحاول الربط بينها ، ومن ثم التعرف على تاريخ الارض وما عليها . .

وبعد أن نشأ العلم في احضان الدين عند اجدادنا على ايدي امثال الخوارزمى والبيروني والحسن ابن الهيثم و . . . . . . عمد

الاوروبيون في العصور الوسطى الى فصل العلم عن الدين ، ثم نقلناه نحن عنهم مفصولا في هذا العصر ، وقد آن الاوان لرد الامور الى نصابها في اطار العلم والايمان .

ونحن عندما نرفع راية (العلم والايمان) لا نعني اخراج العلم عن منهجه ، او تغيير الطريقة العلمية ، انما نعني ضرورة امتداد الحقائق لكي تصل الى الغاية وتبين العلة ، ولا تقف عند حد مجرد سرد الاية كما يفعل الغربيون .

علينا ان نؤمن أن اعظم اهداف العلم اظهار آيات الخالق في كتابه المنظور ، وكذلك خدمة البشرية وتقديم او توفير العون للانسانية والامثلة على ذلك كثيرة ، ولعل من ابسطها واعمها آية الثلج !

فالثلج ـ وهو الماء الصلب ـ اخف من الماء السائل الذي في نفس درجة الحرارة . والتعبير العلمي هو ان كثافة الثلج تساوي تسعة اعشار كثافة الماء ، مما يجعل الثلج يطفو جزء منه فوق سطح الماء ، مخالفا بذلك القاعدة العلمية العامة !!

والعلة التي تكمن وراء هذه الحقيقة هي ان اكداس الثلج الهائم الذي ينساب من القطبين الى المحيطات تتعرض لاشعة الشمس فتذوب اولا باول بدلا من ان تغوص الى قاع المحيط المظلم وتظل عني حالها ، وبمرور الوقت تتجمد محيطات الارض وتنعدم فيها الحياة كما ينعدم البخر ، ومن ثم ينعدم المطر وتموت

الاحياء على اليابسة . ان العناية الالهية هي التي جعلت آية الثلج أن يطفو فوق الماء ، مخالفا بذلك القاعدة العامة المعروفة في الطبيعة وهي ان الجسم الصلب اكبر كثافة من نفس مادته السائلة ولا يمكن ان يطفو ، بل يغوص .

ولو أن مهندسا من ابرع المهندسين صمم للارض سقفا لقصر فوائده على عدد محدود منها ، ولكن الخالق اراد ان يكون هذا السقف غازا (هو الهواء) بدلا من ان يجعله صلبا او سائلا . واحتفظت الارض بهذا السقف الممتد عبر نحو الف كيلومتر فوق رؤ وسنا بقوة جاذبيتها ، رغم ان من اهم صفات الغازات ميلها للتسرب والهروب

وهكذا عادلت قبضة جذب الارض قوة هروب الهواء وانطلاقه الى الفضاء فظل سقفا محفوظا ومرفوعا بغير اعمدة

ويقدم هذا السقف لبلايين البشر خدمات (وآيات) لا حصر لها بلا مقابل يعرف بعضها الدارسون والمتخصصون ولكن مرة اخرى لا بد من اظهار تلك الايات المعجزة مصداقا لقوله تعالى :

(وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) ، والله اعلم ■

المؤمنون الصادقون

المؤمنون الصادقون هم الذين اشرف نور الايمان في قلوبهم

عهدوا الي الصراط المستقيم لا تهتز عقيدتهم في شدة او رخاء ، ان احاطتهم السراء شكروا وان نزلت بهم الضراء صبروا .

ثقتهم بالله فوق الاحداث ، يخضعون الدنيا لدينهم فما اتفق منها مع الدين اخذوه وما تعارض معه تركوه في رضا لا يساوره قلق ، وصدق الله اذ يقول : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون .

هم قاعدة الايمان الصلبة يرفضون الذلة والهوان ، لانهم اعتزوا بعزة الله وقووا بقوته : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

ميزوا بالبصيرة النافذة فرأو الله في انفسهم ، وفي كل ما يحيط بهم في عظيم صنعته . وجلال قدرته . واياته في الافاق فازدادوا ايمانا وخشوعا وصدق الله اذ يقول : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

وهذه النماذج المتألقة من البشرية تستعلي بالغرائز في اعماقها لتتحول الى طاقات بناءة فهي تندفع الى الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال واثقة بالنصر او الشهادة لا تتاخر عن المعركة مهما كانت الظروف ، فحنظلة بن ابي عامر الذي زفت اليه

عروسه ، يسمع المنادي يقول : « يا خيل الله اركبي فينتزع نفسه من الفراش معجلا لياخذ مكانه في صفوف المجاهدين وقضى الله ان يستشهد .

والصور كثيرة تعطر جوانب التاريخ قدوة لمن اراد ان يتأسى ودليلا حيا على ما تفعله العقائد في نفوس اصحابها من قدرات تحقق النصر ، وشجاعة باهرة ليس فيها ذرة تردد او ضعف .

ولقد وعد الله المؤمنين الصادقين بالطمأنينة والهداية من كل شر : « الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون » يحفظهم الله كما حفظوه ويثبت اقدامهم . فلا روع ولا خوف . يهديهم خير السبل . « يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » .

من آيات الأحكام

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً . وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتُ قَالَ إِنِي تُبْتُ الآنَ ولا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أولَئِكَ اعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

الآيتان ١٧ و ١٨ من سورة النساء

التوبة .. والتائبون

في هاتين الآيتين الكريمتين يرسم القرآن الكريم الطريق الذي يأخذه العصاة والمذنبون ، الى الله تائبين مستغفرين لذنوبهم ، حتى يلتقوا بربهم في ساحة مغفرته ورحمته .

فالتوبة في شريعة الاسلام ، باب واسع من ابواب رحمة الله بهذه الامة ، يفتح لكل طارق يطرقه من الضالين والزائغين ، في اية لحظة من نهار او ليل ، فلا يرد مذنبا مهما حمل معه من ذنوب ، متى جاء رب بقلب سليم .

ومن جلال التوبة وعظمتها انها في شريعة الاسلام عقد بين العبد وربه ، لا يحضره الا ما مع العبد من ولاء لربه ، ومن حياء من عصيانه ، ومن طمع في عفوه ومغفرته .. وبهذا يستر الله تعالى على المؤمن ذنوبه ، ويداري عيوبه ، فلا يطلع عليها انسان ، وبهذا يحتفظ المذنب التائب بآدميته وكرامته بين الناس ، على خلاف ما لو كشف المذنب ذنبه لانسان ـ أيا كان هذا الانسان ـ فان ذلك يضعه موضع الخزى والذلة بين يدي هذا الانسان ! ولهذا جعل الله سبحانه التوبة اليه وحده ، فقال سبحانه : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » كما جعل غفران الذنوب لذاته وحده جل شانه ، فقال تبارك اسمه : « ومن يغفر الذنوب الا الله » . . وذلك ليرفع من خسيسة هذا الانسان الذي

تدنس بالمعصية وتلطخ بالاثم ، فاذا هو رجع الى ربه تائبا ، طهره من ذنوبه ، وغسله من آثامه ، واعاده الى الحياة نقيا طاهرا كيوم ولدته امه .

والمراد بالجهالة هنا ليس هو عدم علم المرء بالمنكر الذي يرتكبه ، كمن يأكل لحم ميته او خنزير غير عالم بصفته تلك ، فذلك محسوب من باب الخطأ المعفو عنه . . وانما المراد بالجهالة ما يركب الإنسان من خفة وطيش حين يواجه المنكر ، ويقع بين يديه ، حيث يذهب لبه ويطيش عقله ، ويطير صوابه ، وتغشاه حال من الذهول اشبه بحال المخمور . .

والتوبة من قريب هي التوبة التي تعقب المعصية التي وقع فيها المؤمن . . فالمبادرة بالتوبة من هذه المعصية ، والانخلاع عنها ، ينبىء عن شعور ضائق بالاثم ، مختنق بالمنكر وعن ضمير يأبى ان يبيت مصاحبا لشبح هذا الذنب الذي الم به . . فهذا هو شأن المؤمنين الذين يخشون ربهم ، والذين يقول سبحانه فيهم : « والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » « اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين » .

مساواة

قرر القرآن الكريم ـ دستور الاسلام وهدية السماء الى

الارض . المساواة بين الناس في عنصر التكوين . فأصل الانسان البعيد هو التراب والقريب من نطفة من ماء مهين . . فالناس جميعا من اصل واحد . كلهم لآدم . وآدم من تراب .

فمبادىء الاسلام لا تعرف لونا . ولا حسبا ولا عنصرية . فرب حسيب نسيب لا يزن عند الله جناح بعوضة . . ورب اشعث اغبر لو اقسم على الله لابره . . وهذا رسول الاسلام لا يقيم وزنا لمظهر الرجال بل يفضل الذي يعرف عنه صالح الاعمال . .

يروى ان أبا سفيان مر على سليمان وصهيب وبلال من نفر فقالوا : (ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذا) فقال ابو بكر : اتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم . .؟ فأتى النبي فاخبره . . فقال : يا ابا بكر : لعلك اغضبتهم . لئن كنت اغضبتهم فقد اغضبت ربك . . فاتاهم ابو بكر . فقال : يا اخوتاه . . أأغضبتكم ؟ قالوا : لا . . يغفر الله لك يا اخي

فلقد راعى رسول الاسلام كرامة سلمان وهو فارسي . وصهيب وهو رومي . وبلال وهو حبشي . وحذر ابا بكر من اغضابهم .

ويروي التاريخ أن بلالاً الحبشي وصهيباً الرومي . وأبا سفيان القرشي وجماعة من عظماء قريش وقفوا بباب أمير المؤمنين عمر يستأذنون في الدخول عليه . فبدأ بالاذن لبلال وصهيب

تعظيماً لحق السبق إلى الاسلام دون اعتبار للعنصرية والطبقية .

فأين من هذه السماحة الاسلامية ما يتسامع به العالم اليوم من معارك التفرقة العنصرية في غير مكان وهي تأخذ شكل العراك المسلح بين البيض والسود . في دول الغرب التي تتشدق بالمدنتية . .

ان المجتمع اشد احتياجا الى هذه التعاليم اليوم اكثر من حاجته الى سفن الفضاء . ومخترعات الدمار والفناء . . واقامة العدل بين الشعوب والامم رهن بتطبيق مبادىء الاسلام . التي ينطق بها دستوره العظيم .

الاعجاز . . القرآني

جاء القرآن ل مؤيدا لدعوة خاتم الرسل ، ومعجزة تثبت صدق ما يقول ولقد كانت آيات القرآن واضحة في تحدي الذين أرسل إليهم وكذبوه (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً فأتوا بسورة من مثله) وكان الرد المباشر على دعوة التحدي عجزا بينا تمثل في ذلك الموقف الذي اضطر المكذبين الى رفع السيف واراقة الدماء ، ولو قد استطاعوا ان يفحموا الكلمة بالكلمة لما اريقت دماؤهم وعزتهم ومعتقداتهم ، وتمثل أيضاً اعترافهم على لسان احد قادتهم . بأن له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان اسفله لمغدق وان اعلاه ل لمثمر وانه يعلو ولا يعلى عليه .

ولقد عكف الدارسون العرب من علماء البلاغة والمتكلمين على دراسة ظاهرة الاعجاز . وكان لهم فيها اتجاهات ثلاثة ، اولها اتجاه سلبي يرى ان سر الاعجاز هو (الصرفة) ويعني بها ان الله صرف العرب عن ان يأتوا بقرآن مثله مع ان ذلك كان في مقدورهم . . وهذا الاتجاه ينسب الى النظام . وهو مرفوض من جمهرة العلماء .

وثانيها . . اتجاه يرد الاعجاز الى ما تضمنته معاني القرآن من الاخبار بالمستقبل المغيب ، والماضي البعيد ، مع ان مبلغه عليه السلام امى لم يتلق المعرفة على يد احد ، الى جانب ما يحتويه اسلوبه من الوان من البلاغة .

اما ثالث الاتجاهات . . فلا يرجع الاعجاز لمجرد اشتمال الاسلوب على هذه الادوات لان الاساليب الراقية في اللغة ايضا تشتمل عليها ، وانما لما أبدع فيه القرآن من بناء العلاقات بين الكلمات داخل الجملة ، بحيث لا يمكن ان ينزع منه فعل ويوضع مكانه اسم ، او تقدم فيه كلمة او تؤخر اخرى ، او يحل مكان الجملة ما يرادفها معنى ، او يستبدل فيه اسلوب خبري باخر انشائي . .

. . وهذا المنحى في ملاحظة دقائق التركيب هو ما عرف بنظرية النظم . . ونسب الى الامام الجليل عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز ، وبه وصل البحث البلاغي في قضية الاعجاز الى قمة ما أراد.

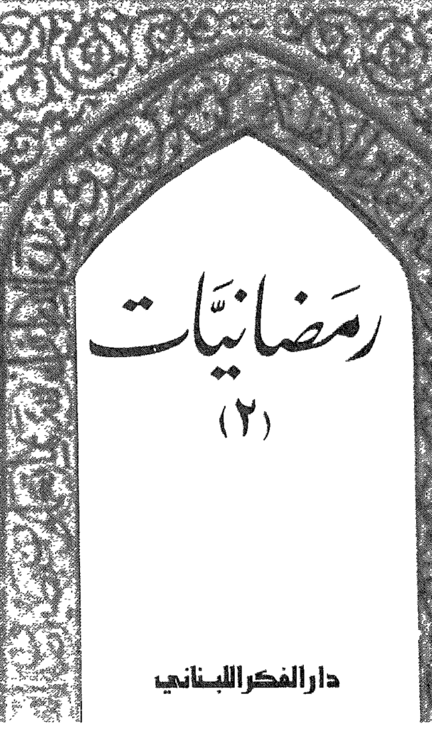
: احمد درويش :

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ١٧٠١٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية



رمضانيات

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

رَمَضانيّات

الناشر: دار الفكر اللبناني
تلفون: ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس: ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



هذا الشهر المبارك

لشهر رمضان المبارك ميزات بارزات على سائر الشهور . وهذه الميزات الكبيرة الخالدة التي اختص الله بها شهر الصيام وحباه فضلها المبين دون سائر شهور السنة هي متعددة الجوانب . منها أنه الشهر الوحيد الذي ورد ذكره في « الذكر الحكيم » نصّاً . قال الله تعالى في محكم كتابه : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وبقية شهور السنة ليس بينها من ذكره القرآن نصّاً ، كما ذكر شهر رمضان .

ومن مزاياه البارزة أن الله تعالى مدحه بمحكم كتابه في الآية السابق ذكرها . قال الامام ابن كثير في تفسيرها : يمدح الله شهر الصيام من بين سائر الشهور ، بأن اختاره من بينهنّ لإنزال القرآن العظيم . وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء . . قال رسول الله ﷺ : « أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ،

وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله القرآن لأبع وعشرين خلت من رمضان »[١] .

ونزول القرآن في شهر رمضان ، كان جملة واحدة إلى سماء الدنيا فجعل في بيت العزّة ، ثم أنزل على رسوله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس[٢] .

ومن مزايا هذا الشهر المبارك أن الله جلت عظمته وحكمته ، اختصه من بين سائر شهور السنة بفرضية الصيام في دين الاسلام ، فيصوم فيه ـ فرضاً محتمًا ـ المؤمنون البالغون العقلاء القادرون غير المعذورين بالأعذار التالي بيانها ، ثلاثين يوماً ، أو تسعة وعشرين إذا كان الشهر ناقصاً . والصوم في رمضان ليس صوم وصال أي صوم النهار مع الليل معاً ، فذلك ما لا يطيقه الانسان . والله لا يكلف الناس إلاّ ما في وسعهم ، وإنما يجب الصوم في بياض نهار رمضان فقط ، أي من السحر إلى غياب الشمس . . أما الليل فيباح من السحر إلى غياب الشمس . . أما الليل فيباح فيه للمسلم الصائم كل ما يباح له في غير شهر الصوم من أكل وامتاع وشرب وما إلى ذلك .

ومن مميزات شهر رمضان المبارك التي لا تنسى انه كان شهر الفتوح الاسلامية الأولى ، ففيه كانت غزوة بدر أول فتح حربي

في الاسلام وفيه كان فتح مكة السلمي وكان هذا الفتح فتح الفتوح في الاسلام .

* والمعذورون في نظر الإسلام ، من عباد الله البالغين ، منهم من إذا أبيح له الفطر لعذره الواضح ، فيجب عليه القضاء إذا زال هذا العذر عنه . ومن هؤلاء : المسافر والمريض الذي يرجى برؤه ، والحائض إذا زال عنها الحيض ، والنفساء إذا انتهت المدة المعينة لنفاسها . .

ومن « المعذورين » طائفة رفع عنهم الصيام رفعة واحدة ، لأن أعذارهم لا تنقضي ولا تنقطع . . وهؤلاء هم المرضى العاجزون عن الصيام في أمراض لا يرجى برؤها ، والشيوخ الهرمون الفانون . وعلى هؤلاء ـ على تفصيل واختلاف بين العلماء ـ فدية طعام مسكين عن كل يوم .

وصيام المسلم القادر البالغ لشهر رمضان هو في صميم مصلحته الدنيوية والدينية . . فالمرء يتناول مختلف الأطعمة والأشربة بدون توقيت أو ميزان ـ على الأغلب ـ طيلة شهور السنة الأحد عشر ، فيسوء هضمه ، وتتضرر صحته تضرراً يلمسه هو ويشعر به في دخيلة نفسه ويشاهده من يعرفه على قسمات وجهه وفي تلافيف جسمه . . فإذا حل شهر الصيام ، كان هذا الشهر الحد الفاصل لما يتناول وما لا يتناول ، وكان فيه تحديد ما يأكل ، فيأكل أكلاً خفيفاً يقيم صلبه ـ هذا إذا تمسك

بتعاليم الاسلام ـ ويتباعد عن الأكلات الدسمات التي توجب التخمة وامتلاء البطن وانتفاخ الأمعاء . . فيضمر جسمه المترهل وتشتد عضلاته ويعود إليه ما افتقده من صحة أثناء شهور العام الأخرى . .

ويزيد هذا «المحصول الصحي» نضرة وإشراقاً وائتلاقاً ، في كيفية وكمية ، بما يقوم به أثناء الليل من صلاة التراويح ، وبما يقلّله أثناء النهار من نوم ، وبما يكثّره فيه وفي الليل من قراءة القرآن بلسم الأرواح وحادي البهجة والمتعة الفكرية . فتكون هذه الأعمال كلها روافد لأمنه الصحي والروحي ومتعته . . فإذا هو مشرق الجسم بالصحة ، مشرق الروح بالفرحة ، والايمان والعمل الصالح المبرور والعبادة الخالصة لوجه الله : « الصَوم لي وأنا أجزى به » . . كما ورد في حديث قدسيّ معروف .

وهكذا يجمع الصوم للمسلم الصائم مزايا جمة ، لصحته وقوته ، وعصمته ، ونفحته بأريج سماويّ عطر من أريج الملائكة الأطهار في ساعات النهار . . فالملائكة من ميزاتهم أنهم لا يتناولون طعاماً ولا شراباً ، ولا يفترون عن ذكر الله وتسبيحه . .

وبعد ، فإن في صيام شهر الصيام « رياضة مزدوجة » . . فيه رياضة روحية تصهر كل الآثام وتكبح جماحها ، وتزرع في قلب المرء مزايا سامية ، يتحوّل بها من السلبية إلى الايجابية ، ومن

الضحالة إلى العمق والإلهام .

وفيه كذلك رياضة جسدية بارزة ، إذ يجعل الصيام المرء محدود المطعوم والمشروب وإذ يخصص وقتاً معيناً لأحجامه عن تناول المطعوم والمشروب ، ووقتاً آخر معيناً لتناوله ، كل ذلك بنظام في منتهى الدقة والحكمة كيما يجعل للانسان سبيلاً قويماً لا حباً إلى حماية صحته وتفكيره من غوائل الانهماك والافراط فيما قد يعود عليه بالضرر .

إن شهر الصوم إذن هو « دورة رياضية سنوية قدرها الله لعباده المؤمنين » ووقّت لهم زمنها ، وحدّد لهم كيفيتها وكميتها وتراتيبها رحمة بهم ولطفاً ، ونعمة عليهم وعطفاً .

ومن كمال عنايته بالمؤمنين من عباده أنه قرر لهم بعد استكمالهم إجراءات هذه الدورة الرياضية السنوية الروحية القيمة ، ذات الأثر العميق والايجابي في نفوسهم ومعنوياتهم وذاتياتهم وأرواحهم ، يوم مهرجان حافل بالأفراح والبهجة والمتعة أباح لهم فيه كل ما كان محرماً عليهم في أنهر رمضان من مباحات الأمور في شرعة الحكيم ، وحرّم فيه عليهم ما كان واجباً عليهم أداؤه ، بالأمس في بياض تلك الأيام من رمضان ، ألا وهو « الصوم » . وهذا المهرجان ، مسك الختام لشهر الصيام ، هو « يوم عيد الفطر الميمون » . . وكل عام ليحتفل المسلمون

بشهر رمضان ، وليفرحوا بعد صيامه ، بمسك ختامه ، وزهرة نظامه .

مفتاح النصر !

كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين في معركة القادسية ، يوصيه ويحذره ، فكان مما قاله له في كتابه : . . . وعليك بالنظر في سواد جندك ، فإنكم إذا جانبتم نهوى الله ، ما نلتم بذلك عدوكم ، فكاثروكم بعددهم . . فغلبوكم . .

هذا الشهر

لا يستطيع الانسان أن يقدر الأثر الجليل الذي يحدثه رمضان في حياة الأمة كل عام إلاّ إذا إتفق له أن يمر بعد الغروب مباشرة في طريق عام فيرى كيف تقفر الطرق من الناس . .

فهذا الصمت والسكون المطبق وهذه العزة والفخار الذي يعلو وجوه الناس يبدد كل شك في قوة إيمان هذا الشعب واعتزازه بدينه .

يشبه رمضان صوتاً عالياً مجلجلاً يهيب بالناس في كل عام :

ان أذكروا ربكم وعودوا إلى حظيرة دينكم . . فإذا بروح دينية جديدة تتغلل في أعماق نفوسكم فتحملهم على التعاطف والتآلف والتلهف على المزيد من المعارف الدينية والعمل الصالح . .

ولكن كيف نستفيد من ذلك ونتجه به إلى الطريق السليم ؟

إن الحياة العادية اليومية تخفي صراعاً مضمراً بين مطالب الدين ومطالب الدنيا . وليس بجديد أن نقول أن السعي وراء المعيشة كثيراً ما يستغرق جهود الانسان ويستبد بأفكاره ونشاطه إلى حد يصرفه عن الفروض الدينية نفسها فتصبح نفسه مجالاً لصراع خفي بين فروض الدين وواجبات الحياة ولا يكاد يسلم من ذلك إلاّ القليل الذين يقول الله فيهم : « رجال لا تلهيهم تجارة ، ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة » .

إن المبدأ الذي يجب أن يأخذ به كل فرد هو الاستفادة من روح رمضان الكريمة ، وأول ذلك اتخاذ هذا الشهر وسيلة لسد النقص الذي كثيراً ما يطرأ على الحياة الدينية في بقية شهور العام وفي مقدمة ذلك ما يتصل بالصلاة . فمن الشذوذ الديني الصارخ أن تهمل الصلاة حتى في شهر الصيام ، ولا بد لمن حرمته ظروفه منها طول العام أن يستجد في رمضان عزيمة قوية على أداء الصلاة ومغالبة كل الظروف التي تعترض طريقه إليها .

ويقترن بالصيام واجبات أخرى كثيرة وربما كانت الواجبات الاجتماعية أهمها فإذا كانت ظروف الحياة العلمية القاسية قد أثّرت في حسن الصلاة بين الناس ، فلا بد لنا في رمضان من استرجاع روابط الأخوة والمحبة والتآلف .

ويجب أن تعبر هذه العواطف عن نفسها تعبيراً إيجابياً قوياً فلا يكفي الكف عن التباغض والتنافر والتنابذ بالألقاب الجارحة فهذه هي الخطوة الأولى ونحن وإن كنا في أشد الحاجة إليها فإنها لا تغنينا عن واجباتنا الايجابية الضرورية لسعادة المجتمع ورفاهية الأمة .

لقد قرر الله عز وجل في كتابه وقرر الرسول ﷺ في المأثور من أحاديثه مبدأ الأخوة كأساس للصلات بين الناس ومصدر للمعاملات المتبادلة بينهم وعلى أساس هذا المبدأ وضعت شريعة الاحسان والتعاون . وقدم الرسول عليه الصلاة والسلام نموذجاً لذلك وبخاصة في شهر الصيام .

وعندي أن إبن حزم على حق حينما يقول ليس بأخ من يرى أخاه يتضور جوعاً وهو يقدر على إنقاذه ثم لا يبالي به ولا يفكر فيه .

والأخوة التي يقررها الاسلام لا بد أن تكون أساساً لواجب التعاون والاحسان وإلاّ فهي كلمه جوفاء ، ولو سارت الأمور في

مجراها الطبيعي لتحول شهر رمضان بوجه خاص إلى شهر بذل وإحسان وعطاء عام غامر يشترك فيه الكبير والصغير والنساء والرجال ليلاً ونهاراً وسراً وعلانية ، ولكان المبدأ الذي يسير عليه كل فرد والآية التي يرددها كل إنسان هو قوله تعالى :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

رفض المال
مخافة الكبرياء

قيل ان أحد الفقراء دخل مجلس النبي ﷺ وعنده رجل غني ، فكف الغني ثيابه عنه . فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت ! أخشيت أن يلصق فقره بك أو يلصق غناك به ؟

فقال الغني : يا رسول الله . . أما إذا قلت هذا فله نصف مالي .

فقال رسول الله ﷺ للفقير : أتقبل منه ؟

قال الفقير : لا

قال النبي ﷺ : ولِمَ ؟

قال الفقير : أخاف أن يدخلني مدخله .

لقد أشاعوا في غريزة الجنس أنها سيدة الغرائز ، ولا مناص من الخضوع لها ، فمقاومتها كبت ، والكبت يورث الجنون ، ولقد اغتر بقولهم الزائف بعض من لا مناعة لهم من الدين ، ولكن الصوم أثبت أن الارادة أقوى من الشهوة ، وإنها تستعلي عليها ، حتى لتجعلها تحت الأقدام لا فوق الرؤوس .

إن الصائم المتزوج يكون أمامه في نهار رمضان زوجة الحلال ولا يقر بها لأنه ملك زمام نفسه وقوي الصوم إرادته فتحكم بها في شهوته فقهرها وأثبت أنه ليس عبداً لها مع قدرته على تلبيتها ، وغير المتزوج يستعين بالصوم على التحكم في غريزة الجنس وإضعافها حتى لا يكون لها عليه سلطان .

والصائم كما يتدرب على الاستعلاء على الشهوات ، يتدرب على صيانة اللسان من اللغو والفحش والبذاءة وقول الزور . . ويتدرب على صيانة الجوارح من المعاصي والأثام ، وهو يفهم جيداً قول الرسول الكريم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن أبدع طعامه وشرابه » .

وإن الصائم لتتربى فيه عادة مراقبة الله وخشيته ، فهو لا يعصيه سراً كمالاً يعصيه جهراً ، وهذه التربية تجعله ينفذ القوانين بدافع من مراقبة الله والضمير ، لا تحت أعين الشرطة

ولا خوفاً من العقاب والتكبر .

وانه ليعلم أن الرسول الكريم كان أجود ما يكون في رمضان ، وكان أجود من الريح المرسلحة فهو يتأسى به وينهج نهجه .

ومن أهم دروس رمضان أنه يدرب صائمه على أن يكون كذلك في سائر أشهر العام ، فرب رمضان هو رب سائر الشهور ، والرقيب عليه في رمضان هو الرقيب سائر الشهور ، فإذا انقضى رمضان سار في غير مسيرته عليه وراقب ربه ، وحاسب نفسه وأعلى إرادته وطامن من شهوته ، واستبق الخيرات .

وهكذا يخرج لنا رمضان كل عام أقواماً يحبهم الله ويحبونه ، جاهدوا أنفسهم فلما ملكوا أزمتها ساروا في الناس أجمل سيرة وسهل عليهم الجهاد في سبيل الله ، وكانوا خير أمة أخرجت للناس .

سبب . . توبته

قال محمد بن مسروق البغدادي : خرجت ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان ، وكنت أغني بهذا البيت :

بـطور سينـاء كـرم مـا مـررت بـه
ألا تـعجبـت ممـن يـشـرب المـاء
وفي جـهـنـم مـاء مـا تجـرعـه
خلق فـأبقى لـه في الجـوف أمعـاء

فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة .

رمضان والعلم والإيمان

ليست كأيام رمضان أيام نـأمل في ملكـوت السموات والأرض ، وما بينهما من اشعاعات الـروح ، وما في هـذه الاشعاعات من قبس إلهي ينير الطريق إلى الله في الدنيا والآخرة . . وفي هذا التأمل تبرز معالم هذا الطريق ، وتبدو على جانبيه أيام من الفكر الصائب الذي يهدي به الله عباده المتقين . . ومن آياته هذا الشعار الساداتي الذي انطلق منذ ١٥ مايو من هذا العام ، شعار « العلم والإيمان » .

إن العلم قيمة من قيم الحياة الأساسية أما الإيمان فهو قيمة هذه القيم جميعاً .

وفي شهر رمضان المبارك صلات روحية وفكرية وتاريخية بهذه القيم كلها . . فالله قد علم آدم الأسماء كلها ، وفي هذه الآية كما وردت في القرآن الكريم إشارة خالدة إلى أن العلم هو أساس

البناء في هذه الحياة الدنيا . . وطريق الاتصال بما فوق هذه الحياة الدنيا من خلود . .

والله تعالى حينما بعث محمداً نبياً ورسولاً للعالمين جعل أول هذه البعثة فتحا مبينا للعلم والإيمان بقوله تعالى : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم » .

فالواضح من هذه الأيات البينات أن الله قد جعل من « العلم » سبيلاً بين العبد وربه . . ثم سبلاً إلى التفكر في الخليقة نفسها على أسس علمية حين قال تعالى « خلق الإنسان من علق » فإن وراء هذه الحقيقة وحدها بحراً من العلوم الانسانية التي توحي الآية الكريمة ببحثها . .

ولقد اختار الله لنزول آياته الأولى شهر رمضان موعداً لهذا البعث العلمي الجديد حتى لقد جرى العرف على تسمية شهر رمضان بأنه شهر القرآن . . ولما كان القرآن الكريم هو مفتاح المعرفة فنحن نستطيع أن نسمي شهر رمضان شهر العلم أيضاً .

هكذا نزل القرآن في شهر رمضان المبارك داعياً الناس كافة إلى « العلم » . . وكانت هذه الدعوة السماوية في نفس الوقت دعوة إلى « الإيمان » . . والإيمان وقت واحد . . الإيمان يسبق العلم لأننا حين ننظر في ملكوت السموات والأرض انما نتحرك في هذه

النظرة إبتداء بدافع من هنا يسبق العلم ويلحق به في الايمان ، أي بدافع من الاعتقاد المطلق بأن في ملكوت الله ما يفرض الإيمان وعلى الإنسان أن يتزود منه بما يستطيع وما يشاء الله من علم . .

من هنا تبدو الرابطة واضحة بين العلم والإيمان ، شعاراً رمضانياً صالحاً .

وحين نقول أن شعار « العلم والإيمان » شعار رمضاني إنما نحن نشير إلى هذه الحقيقة التي أرادتها حكمة الله بنزول القرآن في رمضان وبتقديم القرآن لآيات العلم ، وما وراء هذه الآيات من أسباب الإيمان .

وليس شك أن حصن المؤمنين على العلم ليس مقصوداً به علوم الدين وحدها « فالدين ذاته يحصن المؤمنين على أن يعلموا من شؤون دنياهم ما يصلح لهم هذه الدنيا ويجعلها خير طريق إلى آخره كريمة . .

وليس شك أن الإيمان بالله واليوم الأخر يحمل في معانيه الواسعة الإيمان بكل القيم التي يحملها المعنى القرآني القائل : « وكرمنا بني آدم » فلكي يكون بنو آدم كرماء على أنفسهم مقربين إلى الله ينبغي أن يمتد إيمانهم إلى ما يصلح شؤونهم الوطنية والقومية والانسانية جميعاً والدليل على هذا المعنى واضح في الاصطلاح الاسلامي الانساني القائل الوطنية من الايمان .

لهذا نعتقد أن أيام رمضان المبارك من خير الأيام تفكراً وتأملاً وتحركاً في دائرة هذه المعاني جميعاً . . فليس بكاف أن نصوم ، ثم نظن أن كل شيء من أشياء رمضان على ما يرام . . بل ينبغي أن يكون صيامنا مصحوباً بتطبيق شعار « العلم والايمان » على نطاقه الفسيح الذي يتسع لصلاح أمورنا في الدنيا الآخرة .

إن صلاح أمورنا للآخرة طريق العبادات . . لكن العبادات لها أسلوب إضافي آخر لا بد منه ، هو العمل على صلاح أمورنا في الدنيا لكي نكون أهلاً لصلاح الآخرة . . وفي مقدمة صلاح أمورنا في الدنيا أن ندافع عن الحق . . أن ندافع عنه بالعلم والعمل . . ونحن الآن أمام حق مضاع تريد الفئة الباغية أن تسلبنا إياه سواء كان ما تسلبه أرضاً أو قيمًا قومية لا بد من استردادها .

أريد أن أقول أن الجهاد في سبيل هذا الحق عمل يرضاه الله . وتحضنا عليه روح رمضان ، شهر القرآن . . وأمامنا المثل الأعلى في هذا المجال أوضح ما يكون في معركة بدر التي خاضها رسول الله في شهر رمضان المبارك ، فاعتبر جهاد المسلمين فيها وفوزهم المؤزر بها آية من آيات رمضان .

وأريد أن أقول أن الصيام وحده لا يكفي . . إن سمة الصوم الحق هي الجهاد في سبيل الله وكل ما نجاهد به في سبيل الحق إنما نقدمه مرضاة لوجه الله الذي ينصر من ينصره فلنتخذ من هذا

الشهر الفضيل زادا لنا في معركتنا المقبلة أيا كان توقيت هذه المعركة ، وخير الزاد التقوى . . ومن التقوى أن نتحرك كلنا قلبا ويداً وفكراً ولساناً على ضوء العلم والإيمان .

إن العلم والإيمان هما المجدافان في زورق النجاة إلى شاطىء الأمان . . فلننظر إلى هذا الشاطىء نظرة الارادة الصادقة بعيون التقي والصلاح في رمضان .

إنسان . . خير
من . . وا-١-١ !

خطب عمر بن الخطاب الناس يوماً فقال : إن رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا فقال : من أحب منكم أن يلزم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو مع الاثنين أبعد . .

وفي حديث للنبي عليه السلام يقول : إثنان خير من واحد ، وثلاثة خير من إثنين ، وأربعة خير من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة ، فإن الله عز وجل لم يجمع أمتي إلاّ على الهدى .

رمضان والجنة

إن تواصل القلوب فيه ما يغني عن إستمالة الرغبات

الدنيوية ، وكلما خلصت المودة من شوائب المادة صفت النفوس وقامت على العهد ، لأن الروح جوهر لا يتغير وكل ما يكون موضع إمداد له نفاد ونهاية وتقلب ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغيره انقطع وانفصل .

والتهادي قد يكون فيه رمز الود ، لأنه يدل على ترضية طبعية النفس في الفرح بها تملك لكن الاسراف فيه مضيعة .

قالوا : كان عمر بن عبد العزيز يصوم ويفطر على البقل ويغمس الخبز بالملح المدقوق فأهدى إليه إليه طبق تفاح وفاكهة لكنه رده ، ولم يتناول منه شيئا ، فقيل له : ألم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ يقبل الهدية ؟ قال عمر : بلى ! أن الهدية للرسول هدية لكنها لمن بعده رشوة .

ولقد جرت العادة في « رمضان » على أن يتبادل القادرون الهدايا ويدفع السرف إلى التغالي حتى يكون الأثقال عليهم و « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، ولعل أفضل ما يهدي أن تجمع الهديتان وتقدما ثما إلى بيت محتاج قد أغلق على أهله بمفتاح القناعة !! وقد جملتهم العفة وظهروا بمظهر الغنى ليستروا الفاقة ، وهؤلاء أحق الناس بالاهداء ، فقد تجملوا بالصبر

ويجب أن ينالوا حسن الأجر

وأن في رمضان ومضات نورانية تهتدي إلى البر ، فتخمد بها لذعة الجوع وحرارة العطش ، وقد روى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يرحم من أخطأ في حق ربه يوم القيامة ، وحين تسأله الملائكة ـ من باب التأدب والتعرف ـ عن سبب عدم تعذيبه يقول ـ جل وعلا ـ : يا ملائكتي إني أحرقته في الدنيا بنار الجوع والعطش حين صام رمضان ، فلا أحرقه اليوم بالنيران !

ونقول : إن نور الله في جليل رحمته ، والراحمون يرحمهم الرحمن !

الحياة الطيبة
هي .. القناعة

قال سعد بن أبي وقاص لإبنه عمر : يا بني : إذا طلبت الغنى فأطلبه بالقناعة ، فإن لم تكن قناعة فليس يغنيك مال .

وقال بعض المفسرين في معنى قوله تعالى : « فلنحيينه حياة طيبة » يعني بالقناعة .

في نور القرآن الكريم

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

القرآن الكريم كتاب الله المعجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا وانتظمت سعادة الأولى . والآخرة ونزلت هدى ونور للبشرية فقضت على الأوهام الباطلة والأساطير الكاذبة والعبادات الضالة ونقلت الانسانية من عصر تسوده الفوضى ومبادىء الطغيان والعبودية إلى حياة فيها رضا وأمن وطمأنينة وسلام وحرية وعدل . .

ويتجلى أعجاز القرآن الكريم في بلاغته وروعته وجدته التي تأخذ بالأفئدة والاسماع والمشاعر والعواطف فهو كتاب الانسانية نزل إلى البشرية قاطبة موجهاً إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة والأمن والسلام والخير المطلق والأخاء والحق والعدالة والحرية والمساواة بين الناس ، ولذلك يجد فيه من يقرأه السكينة والراحة النفسية والدواء لكل ما أهمه وأحزنه ، ولا شك في أن المؤمن إذا رتع قلبه في رياض القرآن كان له ربيع عمره ، واستضاء به في ظلمات الشبهات والشهوات وتسلى به من كل فائت وتعزى من كل مصيبة واستشفى به من ادواء صدوره ،

فيكون جلاء حزنه وشفاء همه وغمه .

والشفاء هو البرء من السقيم ، والمراد أن القرآن الكريم هو الدواء المعنوي ، يشفي صدورنا من النفاق والأحقاد ويكون للأجسام أيضاً من بعض الأضرار ، كما أمر الله رسوله ﷺ أن يتحصن من السحر ومن الحسد بقراءة المعوذتين ـ وكما كان النبي ينصح بالرقبة لمن يشكو بعض مواجعه فيأمرهم بقراءة « هل هو الله أحد » و « المعوذتين » ، وهذا ليس بكثير على كتاب الله وإنما يحتاج إلى صدق الإيمان وتمامه .

ومن المأثور عن النبي ﷺ من الدعاء إذا أصاب الانسان هم أو حزن قوله « اللهم اني عبدك وإبن عبدك وإبن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل إسمٍ هو لك ، سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي » .

والقرآن الكريم هو شفاء جميع الأذواء القلبية والبدنية وإذا أحسن العليل التداوي به ووضعه على دائه بصدق وإيمان واعتقاد ، لم يقاومه الداء أبداً ، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدمها أو على الأرض لقطعها ، انه الكتاب الجامع للفوائد والمنافع ، مبين للمعارف.

الحقة التي هي شفاء لما في الصدور من الأدواء القلبية كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائفة ، جاء رحمة للمؤمنين ، نجوا به من ظلمات الكفر والغلال إلى نور الإيمان .

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ؟ وجل من قائل « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

الدين النصيحة

كان جابر بن عبد الله يشتغل بالتجارة وكان من عادته عندما يعرض السلع للبيع أن يبصر المشترى بما قد يكون فيها من عيوب ويقول : ان شئت فخذ ، وإن شئت فأترك .

ولما قيل له أن تصريحه بعيوب السلعة يوقف بيعها ويجعلها تبور قال : لقد بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم ، والدين النصيحة .

القرآن أفضل طريق إلى الجنة

هداية القرآن توجه أساساً إلى الضمير . . إلى نفس الانسان من داخله قبل جوارحه الظاهرة ، لأن قلبه يتحكم في حواسه .

ولا عكس . فإذا صلح القلب صلح الجسد كله ، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله .

● من عمل صالحاً فلنفسه . ومن أساء فعليها . .

من هنا كان الاسلام هو الطريق الأمثل والأوحد في إصلاح البشرية وهدايتها لأنه يحيط النفس من جميع أقطارها ، ظاهرها وباطنها . ولأنه يصوب إقباسه النورانية إلى الضمير مباشرة . ولن يستطيع الانسان أن يفلت من أحكامه وقواعده وتوجيهاته التي ألزمه بها ، في حين أن الانسان لا يعجز إذا حاول التخلص من القوانين الوضعية . لأنه في الأولى على يقين من أن الله تبارك وتعالى يراه . وإن كان هو لا يراه ، ولأنه في الحالة الأخرى قادر بالحيلة على النجاة من قوانين الأرض .

وبقدر ما تسن الحكومات من قوانين رادعة للمنحرفين بقدر ما تتفتق أساليبهم وألاعيبهم للافلات منها وهذا حال مشاهد وواقع في عرض الدنيا وطولها : ولا كذلك حال المسلمين يوم نزل عليهم القرآن غضاً طرياً فإنهم تقبلوه واستجابوا له بقلوبهم وحواسهم ، فتساوقت بواطنهم مع ظواهرهم في سلوكهم في كل ما دق وجل من كل الأمور . بل انهم كانوا في الباطن أشد خشية من الله ولله وحقوق الناس منهم في الظاهر وإن كان هذا الظاهر لا يبعد قيد شعرة عن تعاليم الله .

وكل ذلك جاء ثمرة لما كان يحرص الرسول عليه السلام على تطهير قلوب أصحابه من الغل والحسد والبغض هي أمراض الحياة ليغرس مكانها سلامة الصدر منها ، باعتبارها أفضل من كثرة الصلاة والصيام وإنفاق المال .

قال أنس : كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ . فقال: يطلع عليكم الآن من هذا الفج ـ الطريق ـ رجل من أهل الجنة . . قال : فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال ، فلما كان الغد ، قال : ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل ، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل .

فلما قام النبي ﷺ تبعه أي تبع ذلك الرجل ـ عبد الله إبن عمرو بن العاص فقال له : اني لأحيت أبي ـ جادلته ـ فأقسمت ألّا أدخل عليه ثلاثاً ـ يعني ليالي ثلاثة ـ فإن رأيت أن تؤ ويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت . فقال : نعم . . فبات عنده ثلاث ليال ، فلم ير يقوم من الليل شيئاً . غير انه إذا تقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى لصلاة الفجر . قال إبن عمرو : غير اني ما سمعته يقول إلا خيراً . فلما مضت الثلاث . وكدت ـ هذا قول إبن عمرو ـ أن أحتقر عمله . . قلت يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : كذا . . وكذا . .

فقال الرجل الأنصاري : ما هو إلاّ ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفس غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله بن عمرو فقلت له : هي التي بلغت بك وهي التي لا تطيق .

وأنت ترى من هذا الأثر أن الرسول عليه السلام كشف لأصحابه كيف يكون التعامل مع الله . لتكون الجنة جزاءهم . وأكد لهم أن هذا التعامل يجب أن يقوم على طهارة القلب من البغض والحسد والغل . أن يقوم على سلامة الصدر ، ولا شيء وراء ذلك .

يقول مالك بن نبي في مؤلفه الظاهرة القرآنية :

لم يصنع الرسول نفوساً مؤمنة تقية فحسب وإنما صنع عقولاً مستنيرة وطرق إرادات فولاذية . . انه يسمى الشعور بالمسؤولية . ويشجع المبادأة في كل إنسان ويعظم الفضيلة في أبسط صورها . . وإن الناس والمسارعة لها رائد كل عضو في الجماعة . إذ يرى نفسه في سباق إلى الخير بحسب أمر القرآن .

وإذا كانت الصدور محل الهدى والضلال ، وعن طريقها يتولد الخير والشر ، فإن الله يشرح صدر المؤمن للهدى والخير وصدر الكافر للضلال والشر وشرح الصدر لأيهما يجيء لائقاً ومناسباً لحاله ، فهو سبحانه يبشر المطيع بالنعيم المقيم والجامد بالعذاب الأليم .

فبالنسبة للمؤمن يقول القرآن :

● فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام .

وبالنسبة للكافر يقول :

● ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذب عظيم .

● ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء .

والقرآن مائدة الله التي أنزلها من السماء للأمة المحمدية يحيي بها النفوس ويطهر القلوب ويزكي الجوارح ويشفي الصدور من أدران الشر وعبادة المادة .

● قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور .

والصدر هو وعاء الإيمان والعلم فالذين أوتوا العلم هم الذين يعقلون ويتفهمون ويتدبرون آيات القرآن التي هي آيات الكوز .

● بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم .

وحذر الله رسوله من أن يضيق صدره عند تلاوة القرآن التي تنعى على المشركين شركهم خوفاً من استهزائهم به ، لأن من مستلزمات النبوة هو الاستخفاف بما يتعرض له النبي من سخرية .

● فلعلك تارك بعض ما يوحي إليك وضائق به صدرك .

● كتاب أنزلناه إليك ، فلا يكن في صدرك حرج منه .

● ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين .

● لأن الله تبارك وتعالى قد تكفل بنصره عليهم .

● قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

وهذا ما يتحتم أن يواجه به المؤمنون أعداءهم الذين يبغضونهم .

● قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم إكبر .

وعن طريق الصدر يعلم المسلم الصادق ، علم اليقين أو عين اليقين ويؤمن إيماناً أرسخ من الجبال بأن الله عليم بسره وجهره ، فلا مهرب منه ، ولا فرار إلّا إليه ، ولا مجادلة عنده ، ولا حجة تعلو حجته ، أو له الحجة البالغة .

● إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور . يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

● ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليهم بذات الصدور .

● وأسروا قولكم أو أجهروا به انه عليم بذات الصدور .

● قل أن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله .

● وإن ربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون .

فشأن المسلم الصادق . الإيمان بأن الله مطلع على الخفايا والظواهر . وهو لهذا يطيع الله ويجتنب نواهيه ولا كذلك المنافق الغافل عن مراقبة الله إذ يؤمن بلسانه دون قلبه لاستجلاب المغانم والفرار من المكار .

● ومن الناس من يقول آمنا بالله ماذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن أنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين .

فهؤلاء المنافقون يقولون بألسنتهم انهم مؤمنون فإذا أوذوا في الله جزعوا وفتنوا عن دينهم ولم يفكروا في عذاب الله يوم القيامة .

قال القرآن فيهم .

● يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم ، أي بريء من مرض الكفر .

● وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ، أي سار إبراهيم على نهج نوح في توحيد الله .

ومهما تنكره صدور الكافرين من بعث الناس يوم القيامة . وتتصور استحالته في عقولهم ومدركاتهم . فإن الله تعالى الذي خلقهم من العدم قادر على إحيائهم بعد موتهم في يوم الحساب ولو كانوا حجارة أو حديداً ، وذلك لتأكيد قدرته سبحانه .

● الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

وسلامة الصدر قبل هذا وبعد هذا مطلب الأنبياء والرسل ، ومهوي أفئدتهم ، ولذلك توجه موسى عليه السلام بالدعاء إلى ربه .

● رب إشرح لي صدري .

● وامتن الله على رسوله الكريم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بشرح صدره .

● ألم نشرح لك صدرك ، أي بما أودعنا فيه من الهدى والإيمان .

تلك هي ثمرات إنشراح الصدر للإيمان وهذه نتائجها المباركة التي أدخرها سبحانه وتعالى لأوليائه في الدنيا والآخرة .

شدة السلطان
الحق والعدل

خطب سعد بن شريك يوماً بحمص فقال : إن للاسلام حائطاً منيعاً وبابا وثيقاً ، فحائط الإسلام الحق ، وبابه العدل ، وما يزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق ، وأخذاً بالعدل .

القرآن والأمة

يرتبط إسم رمضان دائماً بالقرآن . . ورمضان شهر نزول القرآن . . قال الله سبحانه وتعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . . » والقرآن هو حبل الله المتين . . والذكر الحكيم . . وهو الدستور الذي يضيء الطريق أمام المسلمين في كافة أنحاء العالم ويربط القرآن بين المسلمين في جميع الأرض حيث يجتمعون حول تعاليمه للاستفادة منها في حياتهم الدنيا وللتزود إلى اليوم الآخر . .

وفضل القرآن على هذه الأمة لإيدانية فضل آخر . . فقد جاء القرآن إلى العرب وهم أمة بدوية . . جافة . . الخلافات بينهم

مستمرة والحروب مشتعلة بين القبائل وتقوم لأتفه الأسباب . . وليس لهم نظام يسيرون عليه . . فعمد القرآن أول ما عمد إلى أشعار هؤلاء العرب بأنه أوجدهم في هذه الحياة وسخر لهم ما فيها من ماء وهواء وسماء وأرض . . جميعها مسخرة لخدمة الانسان . . يقول القرآن « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم » ويقول في سورة الجاثية « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وملك القرآن قلوب العرب . . وحاز اعجابهم منذ الوهلة الأولى . .

وعندما كان يسمع الواحد منهم آياته تتلى ينطلق بعبارات الثناء عليه وهو لم يعتنق الإسلام ديناً . . وبهذا الأسلوب التربوي وحد القرآن الأمة الاسلامية . . وحفظ القرآن للعرب لغتهم . . ولولا ذلك الكتاب الكريم لاندثرت لغة العرب وضاعت لغتها كما اختفت لغات أمم سابقة . . ووضع القرآن الأسس العامة لحياتهم الدنيا وأرسى بينهم دعائم القوة . . والحق . . والحرية . . وتنظيم الأموال . . وكيف يتعاملون مع خصومهم في الحروب وغيرها . . وقد ربى الرسول الكريم محمد إبن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه في مدرسته الأولى رجالاً عظماء استوعبوا رسالة القرآن علماً وعملاً . وكانوا يقومون

بتطبيق مبادئها في حياتهم العملية . . وبهذا الفضل استطاعوا إقامة حضارة ونهضة إسلامية لا تزال الانسانية إلى اليوم مدينة لها بالفضل والتقدير . . ومن ينظر في تاريخ العرب قبل وبعد الاسلام يجد الفرق بينهما شاسعاً . . وباختصار شديد فإن القرآن جعل من الأمة العربية أمة ذات حضارة انتشرت في جميع بقاع العالم ولا يزال نورها إلى اليوم يفيض بالحيوية والخصوبة . . كل ذلك بفضل القرآن الذي أنزل في شهر رمضان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

السيد العزاوي

التقوى . . للخليفة
والعدل . . للرعية

قال الخليفة المنصور : لا يصلح الخليفة إلّا التقوى ، والسلطان لا يقيمه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلّا العدل ، وأولى الناس بالعدل أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً ومروءة من ظلم من هو دونه .

التــلاوة والتجويد

تختلف قراءة القرآن من قارىء لآخر ومن نوع لآخر ولكنها تخضع لقواعد وأسس يحددها علم القراءات. ويلتزم بها القارىء وإلاّ فإنه يكون آثمًا.

وتلاوة القرآن تختلف بالطبع في قواعدها عن تجويد القرآن كما نعرف جميعاً، ولكن الكثيرين منا يعتقدون أحياناً أن هذه القراءات غير محددة وإنها تحتاج إلى ضوابط كما أن البعض يحلو له أحياناً ـ عن جهل بالموضوع وعدم إلمام بالتراث الإسلامي ـ أن يقترح أن يلحن القرآن الكريم ونص التلحين أن يكتب بالنوتة الموسيقية وأن يتغنى به كما هو الحال في القصائد والتواشيح والطقاطيق والأغنيات العادية، ومع ما في هذا الاتجاه من مخالفة لأحكام الشريعة ومع ما فيه من عدم فهم للقرآن الكريم وطبيعته وسماته الخاصة فإنه يتضمن أيضاً الجهل بالتراث.

فإن للقرآن موسيقية ولتلاوة القرآن وتجويده قواعد علمية مأخوذة عن رسول الله، فنحن نتلو القرآن كما كان الرسول يتلوه وكما تعلم أصحابه منه، فقراءة القرآن وتوقيفية يتوارثها الخلف عن السلف وتنقلها شفاه الرواة عن الرواة إلى أصدق الرواة عن رسول الكريم.

وقد ألفت الكثير من الكتب في تراثنا تتضمن القراءة وكيفيتها

وحدودها ، منها (منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ، للأشموني الشافعي .

وهذا الكتاب يوضح القراءات ويبين المواضع التي يحسن الوقف عندها وكيفية الابتداء

وقد ألفت عدة كتب اهتدت بالمنار وسارت على نهج صاحبه ، فاختصره عبد الله المغربي في كتاب أسماء (وابل الندى ، من منار الهدى) ، واختصر المختصر السردي في كتاب (تحفة من أراد الاهتداء في معرفة الوقت والابتداء واختصره إبن مسعود الفاسي في كتاب (أوائل الندى المختصر من منار الهدى) .

وكما ظلت هذه المحفوظات دون تحقيق علمي فقد ظل على نفس الحال كتاب الاهتداء في الوقف والابتداء لأبي عمر والداني .

الجوار .. يباع ؟

عرض محمد بن الجهم داره للبيع بخمسين ألف درهم .. وكانت تجاور دار سعيد بن العاص .. فلما حضروا ليشتروا قال : بكم تشترون جوار سعيد بن العاص ؟

فقالوا : والجوار يباع ؟

فقال : وكيف لا يباع جوار من أن سألته أعطاك . . وإن تسكت عنه إبتدأك . . وان أسأت إليه أحسن إليك . . وإن غبت عنه حفظك . . وإن نابتك جانحة فرج عنك . .

فبلغ سعيد ذلك . . فوجه إليه مائة ألف درهم وقال : أمسك دارك عليك .

رسائل إلى قلوبنا

« أسلم تسلم » . . هكذا بدأت إلى الملوك رسائل محمد صلى الله عليه وسلم ، في نهاية السنة السادسة من الهجرة بعد أن أمن قريشاً بصلح الحديبية ، وأمن على المدينة بإجلاء اليهود عن حصونهم المنيعة شمالي الحجاز ، وتوقع الفتح القريب لمكة . لقد سقطت بسقوط هذه الحصون الاسرائيلية كل العوائق أمام ارتفاع صوت الوحدة والتحرير تحت رايات الاسلام ، وانفتحت الطرق في تلك الفترة الهادية بقيادة الرسول وأسوته لمخاطبة الملوك الجاثمين على أرض العرب . . لمقارعتهم بحجج السلام وشروطه ضد حجج العدوان وغطرسته . . مقارعة الند للند . . لأنه بعد الغطرسة لا يكون إلا القتال الذي أعد له المؤمنون عدتهم . .

« أسلم تسلم » . . أي آمن أيها الهرقل المتغطرس وسط قواتك وأسلحتك وأطماعك ، يتحقق لك الأمن . . فإن توليت. فإنما عليك اثم « الاريسيين » . . أي انك إذا أبيت الله . . . وشريعة الله . . فعليك ذنوب من استعمرت بلادهم من الأرقاء المنسحقين تحت حكمك . . عليك خطايا وآلام الفلاحين العرب البسطاء الذين استنزفت دماءهم بالاضطهاد وأموالهم بالضرائب ، في مصر والشام والمغرب . . عليك ما يقع منهم وما يقع عليهم عليك أوزار هؤلاء الذين يزرعون لك أرضهم . ويعبدون لك الطرق لتبطش بهم . . ليكون لك كل شيء من ثمار الأرض والإنسان . . ولا يكون لهم أي شيء إلاّ الهشيم والدموع !

أربعة عشر قرناً مضت على هذه الرسائل . . ولا تزال كلماتها البسيطة في الدعوة إلى الله (وهي موجهة إلى هؤلاء الملوك المعتدين على الشعب العربي تبدو كما لو كانت مرسلة إليهم صباح اليوم . . أكثر من ذلك هي لا تزال موجهة إلى قلوبنا نحن لنتذكر . . وموجهة إلى عقولنا لنهتدي . . فلقد دار التاريخ دورة بالوطن العربي بعد تحرره وتوحده بالاسلام ليقع بـأطماع الاستعمار والدول الكبرى في التجزئة من جديد . . ثم ليواجه مثل هذه الغارات الوحشية المخططة للقضاء عليه بقيادة هذا التحالف الاثم بين الصهيونية والاستعمار . .

لقد عادت مرة أخرى بيزنطة جديدة وعلى رأسها تاج خمسين

ولاية أمريكية . . وأصبح هرقل المعاصر رئيساً لأعظم تحالف عدواني ضد الشعوب النامية والصغيرة . أصبح له بيت أبيض من الخارج ، وأسود من الداخل . . يحكم منه على نهر البوتوماك في أقصى الغرب . . لقد أصبح هرقل الجديد أيضاً حليفاً للأكيدر الذي وجد في قادة إسرائيل . . الأكيدر الذي كان يحكم قديماً أيلة العربية ثم أصبح الآن يحكم ما بين أيلات وعكا في أرض العرب . . لقد أصبح هرقل كعادته التي عرفناها قبل معارك التحرير العربية . يرفض السلام للعرب بل لهم الحياة . . ويغدق الأسلحة على إسرائيل !

لا شك أن هذه الرسائل ـ التي لن يستمع إليها هرقل الجديد ، ولا تابعه الاكيدر الاسرائيلي ، وهي موجهة إلينا نحن في مصر . . وموجهة إلى شعوب اتحاد الجمهوريات العربية . . وموجهة إلى كل جماهير العرب والمسلمين . . انها موجهة إلينا لنعيها ونهتدي بها . . وهي موجهة إلينا لكي تستجيب بالصدق والأمانة لكل دلالاتها ، ولكل وصاياها . . بداية من الاستجابة لله وللرسول إيماناً وسلوكاً . . عقيدة وشريعة . . لغة ووحدة . . عندئذ ـ وليس هذا بالبعيد ـ ينفتح الطريق لكي يسمع لنا العدو إذا خاطبناه ، وينسحب عن أرضنا إذا ناجزناه . . نفس الطريق الذي تحرك عليه الرسول إلى مؤتة وتبوك والفتح .

حسنة .. تضر !!
وسيئة .. تنفع !!

يقول أبو حازم سلمة بن دينار : أن العبد ليعمل السيئة ، ما عمل حسنة قط أنفع له منها ، وانه ليعمل الحسنة ما عمل سيئة قط أضر عليه منها .

وذلك أن العبد يعمل الحسنة فيزهو بها ويتجبر ، ويرى أن له بها فضلاً على غيره ، ولعل الله بهذا يحبطها ويحبط معها عملاً كثيراً . ويعمل آخر السيئة فتسوءه .

لا يعرف حدود
الزمان أو المكان

النبوة اصطفاء وهبة من السماء ، وليست أمل نفس طموح أو تطلع إنسان يرمق القمم .. ويستطيع الصعود ! ولقد كان شروق الوحي على قلب محمد مباغتة له ، لم يفكر فيها ، وإن كانت مشيئة الله قد أعدته لها ورتبت على اختياره أموراً ذات بال في تاريخ العالم أجمع !

ولذلك جاء في الكتاب العزيز « وكذلك أوحينا إليك روحاً

من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا . . » وجاء أيضاً قوله جل شأنه « وما كنت ترجو أن يلقي إليك الكتاب . . . إلّا رحمة من ربك » .

وقد نهض الرسول الكريم بالمنصب الأشم الذي اختير له ، وأصبح بنعمة الله إنسان الإنسانية ، والقائد العابد في محراب الإمامة العامة لخلق الله إلى يوم يبعثون !!

وقد آمن به واقتنع بصدقه طلاب الحق على اختلاف الزمان والمكان ، وكانت الأدلة التي أحاطت به وتكاثرت في طريقه من القوة والوضوح بحيث اعتبر الصدود عنها عاهة فكرية أو نفسية ، تزرى بأصحابها ولا تغض من صاحب الرسالة !

والدليل على صدق أية دعوى قد يكون بأمون خارجة ، أو يكون بحقيقتها في نفسها . . فقد يزعم أحد الناس أنه مهندس ، ويقول : دليلي على ذلك اني أستطيع السير بقدمي على الماء ، أو الطير بجناحي في الهواء . . . !!

فإذا فعل ذلك سلمنا له ؟

وقد يقول : دليلي على ما أقول : اني أبني ـ فعلاً ـ عمارة مدعمة الأركان ، أو أصل بين شاطئين ـ مثلاً ـ بجسر متين !!

فإذا فعل فقد دل بقدرته الهندسية على انه مهندس يقيناً . . .

بل قد تستريح النفس إلى هذا الاستدلال أكثر من راحتها إلى البراهين الخارقة الأولى ! قال إبن رشد : « إن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ ليست كدلالة انقلاب العصا حية ، ولا أحياء الموتى ، وإبراء المرضى ، فإن تلك ـ وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلّا على أيدي الأنبياء ـ وفيها ما ينفع الجماهير من العامة إلّا انها بعيدة الصلة بوظيفة النبوة ، وأهداف الوحي ، ومعنى الشريعة . . . !

فالآيات الحسية إذن قد تكون ذاتية في الرسالة . وقد تكون خارجة عن جوهرها . . والتفاوت بينها واسع النطاق باختلاف البيئات التي ظهرت فيها والرسالات التي اقترنت بها .

وقد جاء الإسلام فغض من شأن الآية الحسية المجسدة . . . ونوه بالآية العقلية الخالدة التي تنهض بها معنويات الرسالة ، وقرر إلى جانب ذلك أن الخوارق التي دعمت بها الدعوات السابقة لم تمنع التكذيب بها ـ أولاً ـ فلا معنى لطلب التصديق بها أخيراً . « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذب بها الأولون وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلّا تخويفاً » .

ومن ثم أتجه الأنبياء وجهة أخرى . . . وجهة تحريك القوى الكامنة في العقل الانساني ليستطيع أن يعرف ربه ، ويؤدي حقه . . . وجهة احترام الفطرة السليمة واستثارة أشواقها إلى

التسامي والطهر . .

وقد كانت الرسالة الخاتمة نموذجاً لهذا التحول الحاسم ، ولا شك أن الاشراق المستمر للحق وبرهانه هو أليق شيء بمصاحبة رسالة كرسالة محمد نخاطب الانسان حيث كان ، ولا يعرف في هدايتها حدود زمان أو مكان .

من كن فيه
كن . . عليه

قالوا : ثلاث من كن فيه كن عليه : البغي . . قال تعالى : « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، والمكر . . » قال تعالى : « ولا يحيق المكر السيء إلاّ بأهله » والنكث . . قال تعالى : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » .

أقل عدداً . .
ولكن أعظم إيماناً

حشر « نوح » في سفينته الخشبية الصغيرة قبل أن تقلع بذور هذا العالم الكبير . . عالم النبات والحيوان والصراعات البشرية الضارية التي نراها اليوم على الأرض . . سارت السفينة تشق قلب الأعاصير والظلمات والأمواج . . كانت رغم كل شيء

نطفة هذه الحياة الجديدة التي تلمع وتختج على كف العناصر الغاضبة . . وأخيراً قر قرارها على صخرة الأمن . . وجفف ملاحوها المؤمنون الشجعان ـ آباء البشرية الحديثة ـ عرقهم . . وابتسموا . . لقد صفا الجو ، وغاض الماء ، وأشرقت الشمس أمامهم من جديد . .

لقد حققوا هذا النصر العظيم لحياة الانسان وإن كانوا أقل عدداً . . لأنهم كانوا أعظم إيماناً وعندما نزل القرآن الكريم على النبي العربي لم تلبث معاني الآيات ومحكماتها إن استحالت في نفوس المؤمنين على قلتهم إلى يقين وحياة للأفراد . وإلى قوة ووحدة للمجتمع . . وإلى ضوء وأمل على الطريق . وكان الطريق واضحاً تماماً بالقرآن . . وسنة الرسول . .

لقد حقق المسلمون الأولون أكثر من نصر عظيم للاسلام ، وشريعته . وطبيعته . . لأنهم كانوا على الدوام أعظم إيماناً . وإن كانوا أقل عدداً .

ثم تكاثر المسلمون في الأرض وانتشروا عليها . . تكاثرت القلة التي كسرت طوفان جاهلية العالم القديم في القرن السابع . . أصبح الذين كانوا من صحابة الرسول في موقعة بدر أقل من خمسمائة مؤمن أكثر من خمسمائة مليون نفس . . ترتفع وراءهم إلى عنان السماء سلسلة من جبال الانتصار التي تشرق عليها الشمس ولا تغيب .

ولكن أعداءهم كانوا في بعض وهن الايمان قد فتنوهم في معتقداتهم . . تسللوا إليهم في فتور التخمة الحضارية الدسمة . . في خيلاء الدولة الغنية الباذخة التي صنعوها بالدين والقرآن . . ففي لحظات من فتور الجسد . . ونعاس العقل . ونسيان القلب وقعت الفتنة في الرأي . . ظهرت « هلوسات » كثيرة تحت عناوين معتقدات سليمة . . وكان حتمًا أن يظهر الوهن والتفكك والضعف وأن ينحسر فعل الاسلام ويتوقف انتصاره . . ليتجمد ويتراجع عند حدود العبادة . . لينزوي في الصلاة والصوم . . فالعبادات اليوم هي حصن المسلمين الأخير . هي الحصن الذي يريد أعداؤ هم أن يجعلوه « غرناطة العقيدة » بينما العبادات في القرآن الكريم هي مقدمة الفعل الاسلامي لبناء الحياة . وتنمية العلاقات الانسانية والاجتماعية المتساوية ، وافتضاض غيب العلوم . وكسر شوكة القوى المعادية . . وليست هي مجموع الأفعال . . فما هو المخرج ؟!

المخرج بكل وضوح هو هذا المثال المتجدد في حياة المسلمين . هو هذا الموقف الراهن للشعوب العربية المعبأة للنضال . . موقف الذين تجمعهم اليوم طبيعة واحدة . . وتحكمهم صيرورة واحدة . . وقد حشرهم القدر الحكيم في سفينة حياة واحدة تندفع بغير خيار لتشق قلب الأعاصير وإن كانوا أقل عدداً . . لأنهم أعظم إيماناً . .

نأخذ ما أعطينا

تزوج أعرابي فتاة وطمع في أن تلد له غلاماً فولدت بنتاً ، فهجرها وهجر منزلها . وصار يأوى إلى ضرتها بجوارها ، وذات يوم كان جالساً في بيت ضرتها فسمعها تهدهد إبنتها بهذه الأبيات :

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا
تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا
نثبت ما قد زرعوه فينا

فنهض مسرعاً إليها وقبلها وقبل إبنتها وقال : ظلمتكما ورب الكعبة .

عناصر القوة في الاسلام

دور الأمة الاسلامية دور إمامة وزعامة ، وقد أمدها الاسلام بالعناصر التي تؤهلها لهذا المنصب الخطير ومن هذه العناصر

تتألف القوة الحقيقية التي تصل بالأمة إلى غاياتها ، من العزة ، والمنعة ، والمجد . والسؤدد . والسيادة . والقيادة . والتمكين في الأرض .

وليست هذه العناصر مقصورة على جانب دون جانب ، وإنما تتناول جوانب الحياة جميعاً فهي تتمثل :

في الإيمان بالله إيماناً يحرر الضمير والوجدان . .

وفي الاستعصام بالحق استعصاماً يزهق أمامه الباطل ويندحر . .

وفي معرفة الضعف النفسي ، والتطهر منه ، حتى تأخذ النفس طريقها إلى العزة ، والسمو .

وفي العلم المقوم لشخصية الانسان والكاشف له عن حقائق الوجود المادي ، وما وراء هذا الوجود من عالم ما وراء الطبيعة . .

وفي الثروة ، وتعمير الأرض ، واستثمار قوى الكون ، والانتفاع بما في الطبيعة ، من بركات الله وخيراته وتوزيعها على أفراد الأسرة الانسانية بالكفاية والعدل .

وفي إقامة المجتمع على أساس من الحرية ، والعدالة ، والمساواة والتشريع السمح ، والعمل الجاد ، والمعاشرة

الحسنة ، والحكم الصالح الذي تكون فيه السيادة للأمة .

وفي السلام العام القائم على احترام الانسان وكفالة حقوقه .

وفي احترام العهود والحفاظ على المواثيق . .

وفي التضحية النبيلة والاستشهاد في سبيل الحق ، ومن أجل الحياة الحرة الكريمة .

هذه هي عناصر القوة في الاسلام ، وهي قوة بالمعنى الحضاري فهي قوة في العقيدة ، وقوة في الخلق ، وقوة في العلم ، وقوة في المال ، وقوة في التماسك الاجتماعي وقوة في التنظيم السلمي وقوة في الاستعداد الحربي .

وقد كانت هذه القوى هي العامل الأساسي في نجاح هذه الأمة في أول دور من أدوار حياتها التاريخية ، وباجتماع هذه العناصر أصبحت الأمة رفيعة البنيان ، عظيمة السلطان ، ثابتة الأركان ، باذخة الذرى وتم لها وعد الله الذي لا يتخلف :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . ولسدلنهم من بعد خوفهم آمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » .

وما زالت كذلك حتى غيرت ما بنفسها ، وأخلفت ما عاهدت

الله عليه ، فغير الله ما بها ، وطبق عليها سنته في الاجتماع البشري :

« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ومن الواجب علينا ونحن في هذه المرحلة الحاسمة أن نبدأ بتغيير جوهري في نفوسنا وفي أخلاقنا ، وأن يكون ذلك التغيير عاماً وشاملاً بالنسبة للعامة والخاصة ، ويكون على أساس مدروس ، وخطة محكمة ، لكي نتقي أسباب الانحلال والضعف من جهة ونأخذ بأسباب القوة والعزة من جهة أخرى وأسباب القوة ليست في فوضى الأخلاق ، ولا في التحلل من الآداب ، ولا في التشكيك في المثل والقيم ، وإنما هي في الأصول الخالدة ، والمبادىء الكريمة التي جاء بها الاسلام .

آدم والملائكة

أخبر الله تعالى ملائكته أن سيجعل آدم خليفة في الأرض له عليها سلطان يتصرف في موادها ليجعلها ملائمة لحاجاته وينتفع بما فيها من زروع وثمار ومعادن وحيوان وهواء وماء . . فقال الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ فقال الله لهم : اني أعلم ما لا تعلمون . .

ولم يكن سؤال الملائكة احتجاجاً ولا مظاهرة أمام الله لأن الملائكة قوم مكرمون لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون ، وربما كان ذلك من الملائكة مجرد خواطر مرت بأنفسهم ليعرفوا حكمة الله في استخلافه ، فأراد الله أن يعلمهم أنه أودع فيه أسراراً .

وأراد الله أن يحقق لهم ما غاب عنهم فعلمه الأسماء كلها . . أسماء كل ما وقع عليه نظره وجال بخاطره وما يتعلق بحياته وطعامه وشرابه . والملائكة ليسوا في حاجة إلى شيء مما في الأرض . لأنهم على وصف يخالف وصف الانسان الذي قدم له الله أن يصنع ويزرع ويفكر ويوجه فكره إلى تطوير حياته ويستحدث الأساليب العلمية لصيانة هذه الحياة على وجه يلائم كرامته ووجوده .

زكاة . . الفطر
مقدارها . . وموعدها

على عادة رمضان الكريم ، الزائر السنوي في إطار حركة الأفلاك . فإنه لا يكاد يلوح قادماً ومشرقاً حتى يبدو عند نهاية طريقه قافلاً ومودعاً ، وعندئذ يجد المسلمون أنفسهم في مهام الشكر على الزيادة التي بلغوها به في إيمانهم ، وجلاء قلوبهم ، صائمين وقائمين ، يتساءلون عن الزكاة التي تجب عليهم . . .

ما نوعها . . . وما قدرها . . . وما موعدها ؟

ولكن ثمة سؤال يسبق هذه الأسئلة مما يهم جوابه جماهير الصائمين وهو ما حكم هذا النوع من الزكاة وما حكمتها . . ومن الخير أن نبدأ به . .

أما حكمها فهي واجبة على كل فرد من المسلمين وعنهم صغاراً وكباراً . ذكوراً وأناثاً ، إذا ملك زيادة عن قوته وقوت أسرته التي يعولها بمقدار صاع من الحبوب التي يصنع منها الخبز يوماً وليلة ، أو ما يعادلها ذلك نقداً . وهي تجب على المسلم عن نفسه وعمن تلزمه نفقتهم من أسرته وذوي قرباه . .

وأما حكمتها فهي كما شرعت في شعبان من السنة الثانية من الهجرة طهارة للصائم مما عسى أن يكون وقع فيه من اللغو والرفث فضلاً عن غاية البر بمن يجب لهم البر .

كان المسلمون الأولون على عهد الرسول الكريم ومن بعده يخرجون زكاة الفطر من القوت السائد بينهم وكان الشعير والتمر وهذا هو شرط النوع لهذه الزكاة . ومعنى هذا انه إذا اختلف نوع القوت السائد في الشام عنه في الحجاز أو في مصر عنه في الشام فإن الزكاة نوعاً تكون من القوت السائد في الاقليم وبذلك يجوز مع الشعير والتمر والأذرة والقمح والزبيب والأرز وغيرها .

وأما قدرها فهو الصاع الذي يعادل من أوعية الكيل عندنا

قدحاً وثلث قدح . .

على أن بعض المسلمين وهم الآن كثرة في المدن لا يملكون في بيوتهم شعيراً ولا تمراً ولا زبيباً ولا أذرة فهؤلاء كما يجيز لهم أبو حنيفة يستطيعون أن يقدموا ما هو المعادل لهذه الحبوب وقدره في هذه الأيام وفي مصر ما بين ١٢ و١٥ قرشاً عن الشخص الواحد . .

وأما موعدها فهو آخر رمضان ويجوز تعجيلها قبل العيد بيوم أو يومين . وقال الشافعي يجوز تقديمها من أول الشهر ، وقال أبو حنيفة يجوز تقديمها على شهر رمضان ، وعن إبن عمر « أمرنا رسول الله ﷺ بزكاة الفطر قبل خروج الناس إلى الصلاة » . .

واتفق رأي الأئمة على أن زكاة الفطر لا تسقط بالتأخير بعد الوجوب ، بل تصير في ذمة من لزمته حتى تؤدي ولو في آخر العمر . .

أما اخراجها إلى « من يجب لهم البر » فهم الفئات الثماني. الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء . . الخ الآية » . .

وزكاة الفطر تعطي للفقراء المقيمين بالمكان الذي يقيم فيه المزكي ولا تنقل إلى مكان آخر إلاّ في حالة ذوي القربى للمزكي ، أو لمن هم أشد حاجة من أهل المكان .

الجمـــال .. وليس الكبر

كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم ، وفي لدار ركوة فيها ماء ، فجعل ينظر إلى الماء ويسوي شعره ولحيته .

سئل : وأنت يا رسول الله تفعل هذا ؟!

قال : نعم .. إذا خرج الرجل بي أخوانه ، فليهيىء من نفسه . ان الله جميل يحب الجمال .

ويروي إبن مسعود أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : لا يدخل لجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ..

فقال رجل : إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً !!

فقال النبي : إن الله جميل يحب الجمال .. الكبر بطر الحق وغمط الناس .

زكاة الفطر : حكمتها وأحكامها

للحياة ضرورات أربع ، لا تستقيم بدونها حياة . وهي : المآكل والمشرب . والمسكن والملبس . وإليها أشار القرآن الكريم

في معرض الامتنان على آدم في قوله تعالى : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » وهذه الضرورات ليست طوع كل الناس . بل منهم المخروم منها والعاجز عن الكسب . ومن هؤلاء الفقراء والمساكين الذين لا يخلو منهم مجتمع . ومن عدالة التشريع الاسلامي أن كفل لهؤلاء جميعاً حق الحياة الكريمة فيما شرع من زكاة ، وفيما أوجب من انفاق . فجعل الزكاة العامة مورداً لسد احتياجاتهم على مدار السنة . ولم ينسهم في المناسبات الهامة فجعل لهم ثلث الأضاحي في عيد الأضحى ، وخصمهم بزكاة الفطر في عيد الفطر . وبهذا أصبح لكل عباد الله نصيب في نعم الله .

حكمة مشروعية زكاة الفطر : يرى فريق من العلماء أن المقصود منها هو التوسعة على الفقراء والمساكين في يوم العيد ، حتى يشعروا هم وأسرهم بالبهجة والسرور فيه . وفي هذا جبر لخاطرهم يجعلهم في رباط وثيق مع المجتمع الذي يعيشون فيه ، وينعمون بخيراته . ويرى فريق آخر انها طهرة للصائم من اللغو والرفث . أي انها تجبر عنه أموراً كان ينبغي اجتنابها حال الصوم . ويغلو آخرون فيقولون أن صوم رمضان لا يقبل إلا بعد أداء زكاة الفطر ! .

والرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب ويقويه قوله ﷺ : « أغنوهم عن السؤال في هذا اليوم » يليه الرأي الثاني . وليس

بعيداً أن يكون مقصود الشرع الحكيم الرأيان معاً أما القول الثالث فتبدو عليه سمة الضعف لأن الصوم فرض ، وزكاة الفطر سنة . والفرض أقوى . فلا يتوقف قبوله على سنة ليست هي هيئة من هيئاته .

وقت وجوب زكاة الفطر : يرى الأحناف أن وقت وجوبها هو طلوع فجر يوم العيد . ويرى الحنابلة أن وقت الوجوب هو غروب شمس ليلة العيد . كما يقول بذلك الشافعية حيث قالوا انها تجب بآخر جزء من رمضان وأول جزء من شوال . وهذا معناه غروب شمس ليلة العيد .

وللمالكية رأيان ، أحدهما انها تجب بغروب الشمس ليلة العيد ، وثانيهما انها تجب بطلوع فجر يوم العيد . وهم بذلك يلتقون مع جميع الآراء السابقة .

على من تجب زكاة الفطر : اتفق أئمة المذاهب الأربعة على أن الزكاة تجب على كل مسلم ، حرّ ، قادر على إخراجها وقت وجوبها . وفسروا القدرة بأن يكون مالكاً لقوته وقوت من تلزمه نفقتهم شرعاً يوم وليلة العيد . أي يكون مالكاً لأكثر من نفقات العيد حسبما جرت به العادة . لأن الزكاة تجب في القدر الزائد عن النفقة المطلوبة . ويخرجها الشخص عن نفسه وعن من تجب عليه نفقته شرعاً ، وهم هنا : الزوجة ، والأولاد الصغار ، والأولاد الكبار إذا كانوا عاجزين عن الكسب ولو لتفرغهم

لطلب العلم ، أو كانوا غير راشدين ثم الوالدان الفقيران . ثم من يعمل على خدمته إلّا إذا كان له أجر ثابت .

وخالف الأحناف فقالوا بعدم وجوبها على الرجل لزوجته . إلّا أن يتطوع بها فإنها تجزي عنها ولو بغير أذنها . والزوجة غير المدخول بها لا تجب زكاتها على زوجها ، وكذلك المرأة الناشز . وجوز الحنابلة اخراجها عن الجنين .

وإذا لم يجد العائل مقداراً من المال يكفي زكاة أفراد أسرته ، فإنه يخرجها عن بعضهم بادئاً بنفسه ، ثم زوجته فأمه فأبيه فأولاده . ثم الأقرب فالأقرب حسب ترتيبهم في الميراث . وبعض العلماء يقدم الأولاد على الوالدين ولا يجب عليه الاستلاف من أجل الزكاة . بل يجوز ذلك إذا وثق في السداد والأصل سقوط الزكاة عنه لعدم القدرة .

وقت إخراجها : إتفق الفقهاء على أن أفضل وقت لاخراجها هو ما بين طلوع فجر يوم العيد وصلاته . وكرهوا تأخيرها عنه ، ولا تسقط به بل هي حق ثابت يتحتم عليه إخراجها وعليه اثم التأخير . وكذلك منعوا اخراجها قبله وهذا النهج يجب النظر فيه . لأنه كان يليق بعصور كانت أمورها سهلة .

ونحن نعيش في عصر مخالف لما كان يصلح له ذلك الوضع ، فيجب أن نعطي مستحقي زكاة الفطر فرصة كافية للاستعداد

للعيد ، وهذا يقتضي أن نقدم وقت اخراجها عما هو منصوص عليه . وقد فطن بعض الفقهاء قديماً إلى هذا المغزى فجوزوا اخراجها قبل العيد باليومين والثلاثة . وبعضهم يجعل رمضان كله وقتاً لإخراجها والحكمة أن ينتفع بها مستحقوها في العيد ، فلنعطها لهم قبله بزمن مناسب حتى لا يستهلكوها قبل حلوله فيضطروا للسؤال الذي حذر النبي عليه السلام منه ومن أجله شرع الزكاة .

والفقه الاسلامي مرن يقوم على تلبية حاجيات الناس في غير ضرر أو ضرار فلا يضيق بمثل هذا التعديل الهادف .

إلى من تعطي زكاة الفطر: جمهور الفقهاء على أن زكاة الفطر يجوز إعطاؤ ها إلى أي نوع من الأنواع الثمانية المذكورين في قوله تعالى : انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وإبن السبيل . . » وخالف المالكية فحصروا أعطاءها في الفقراء والمساكين فقط لكثرتهم ولأنهم يوجدون غالباً في زمان .

ولا يجوز للمزكي أن يعطي زكاته لقريب له تجب عليه نفقته ، لأن نفعها سيعود عليه ، ويجب توزيع الزكاة في موضع وجوبها فلا يجوز نقلها إلى بلد أخرى .

نوعها ومقدارها : للعلماء تفصيلات مسهبة في بيان النوع

والمقدار لا داعي لذكرها ما داموا قد جوزوا إخراج البدل النقدي عنها . وحرصاً على صالح الفقراء والمساكين أرى أن يزاد مقدار النقد فيكون بالنسبة ، للشخص الواحد ما بين العشرين والخمسة والعشرين قرشاً ، ولنتذكر دائمًا قوله تعالى : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، مما تنفعون إلّا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون .

خُذ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

الآية: ١٠٣ من سورة التوبة

الزكاة . . في لسان الشرع

الزكاة في اللغة النماء والزيادة . . وزكا الشيء يزكو ، طاب ونما . . وهي في لسان الشرع هذا النصيب المفروض في مال الأغنياء للفقراء ، إذا بلغ المال نصاباً ، أي قدراً معلوماً . .

ويطلق على الزكاة في لسان الشرع أيضاً لفظ الصدقة ، لأنها من الصدق ، حيث لا تقبل إلا من مؤمن بالله مصدق بكتاب الله ، وبرسول الله . . ثم هي من الصدق الذي هو وضع الشيء بموضعه ، وهي حيث وضعها المؤمن بموضعها كانت في

أحسن موضع وأعدله ، لانفاق المال ، لأنه من الباقيات الصالحات .

والصدقة أعم من الزكاة ، لأنها شاملة لكل خير يتصدق به المؤمن ، سواء ما كان فرضاً واجباً كالزكاة ، أو تطوعاً زائداً عن الفريضة ممن وجبت عليه الزكاة ، أو إحساناً ممن لم تجب عليه الزكاة . .

وقد فرض الإسلام الزكاة في السنة الثانية من الهجرة . . فقال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وقال رسول الله ﷺ : « بني الإسلام على خمس » وعد الزكاة ركنا من هذه الأركان . .

وإذا كانت الزكاة فرضاً على من يملكون من أموال والنصاب الذي نجب فيه الزكاة ، سواء كان نقداً أو ما يقوم مقام النقد ، من الأنعام ، والزروع ، وعروض التجارة ، ونحو هذا ـ فإن الصدقة والإحسان مطلوبان من كل مسلم ، مالك أو غير مالك ، غني أو فقير . . يقول الرسول الكريم : « على كل مسلم صدقة » قيل : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » قيل : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » قيل : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يأمر بالمعروف » قيل : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر . فإنها صدقة » ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها

صدقة ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة . . والكلمة الطيبة صدقة . . وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

وبهذا السر ، وبتلك السماحة في شريعة الاسلام ، يفتح باب الاحسان على مصراعيه ، فسيحاً رحيباً ، يدخله كل من يريد الاحسان وأن يكون في المحسنين ، وبهذا يتبادل المسلمون جميعاً ، أغنياؤ هم وفقراؤ هم ، أسخياؤ هم وبخلاؤ هم ، مواقع الاحسان ، فيمسك كل واحد منهم بطرف أو أكثر من أطراف الاحسان ، فيحسن ويحسن إليه . . وبهذا يتساوى الأغنياء والفقراء والقادمون والعاجزون في هذا المقام . . فمن فاته أن يكون في موكب الاحسان بعد هذا ، فلا كان في الناس أبداً . .

الفقير . . والغني

يقول أبو بكر الخوارزمي : إن الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق . لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات . ولا يستبطئه أخوانه ، ولا يطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر في الفطر صدقته ، ولا في النحر أضحيته ، ولا في شهر رمضان مائدته . ولا في الربيع باكورته ، ولا في الخريف فاكهته . ولا في وقت الجباية خراجه ، فإنما هو مسجد يحمل إليه ، ولا يحمل عليه ، يتجنبه الشرطي بالنهار ، ويتوقاه العسس بالليل وفي الأسحار . فهو أما غانم أو ساع .

أما الغني فهو غنيمة كل يد سالبة وصيد كل نفس طالبة ، وطبق موضوع على شارعة النوائب ومنصوب على مدرجة المطالب ، يطمع فيه الأخوان ، ويأخذ منه السلطان ، ويتطرق إليه الحدثان ، ويتحيف ماله النقصان .

* ثورة الفكر الاسلامي :

الأرض .. لمن ؟

كان لتوزيع الغنائم في عهد الرسول ﷺ قاعدة فصلتها الآية القرآنية : « واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن في خمسته وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل » .

وعلى هذا سار أبو بكر الصديق . .

كان خمس ما يغنمه المسلمون يعطي الله والرسول وللفئات التي ذكرت في الآية . . أي أن هذا الخمس كان يوجه للانفاق على مصالح الأمة (لله والرسول) ، ولسد حاجات المحتاجين . .

أما أربعة أخماس الغنائم ، فللمحاربين توزع عليهم عقب كل غزوة . .

حتى إذا إتسمت الفتوح الاسلامية في عهد عمر استولى المسلمون على أرض العراق والشام ومصر ، وهي كلها أرض زراعية خصبة ، وفيها رجال يفلحونها لحسابهم أو لحساب السادة ملاك الأرض وزراعها يعملون بالأرض عبيداً لها . .

وواجه عمر موقفاً صعباً بعد أن فتح الله على المسلمين هذه الأرض . . ماذا يصنع بها . . أيجري فيها حكم الغنائم ، فيوجه خمسها الصالح الأمة أي لبيت المال للانفاق العام ، ويوزع الباقي على الغزاة ، فيخلق طبقة جديدة من ملاك الأرض الكبار تخلف الطبقة التي انهارت من أهل البلاد الأصليين ، ويحدث في الاسلام حدثاً يتعارض مع روح الاسلام . . فيجعل منهم أصحاب قطائع ، وكبار مستغلين ؟!

بدأ الخلاف بعد فتح العراق وشاور عمر أصحابه ، وقد كان هذا هو شأنه دائماً أن يشاوروا يناظر حتى تنكشف الغمة ويهتدي الجميع إلى الرأي الصواب ويعصم الاسلام من أن يخرق فيه أحد خرقاً . .

وكان من رأى عمر أن يوجه الأرض جميعاً للمنفعة العامة . . وأن تكون الأرض لمن يفلحها على أن يؤدي عنها ضرائب للدولة

توجه للاصلاح ولتأمين الدولة وثغورها والارتفاع بمستوى المعيشة ، ورأى عدد من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب ، رأى عمر . . ورأى آخرون وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عوف أن هذه الأرض غنائم ويجب أن يتبع في تقسيمها ما يتبع في تقسيم الغنائم أي أن يعطوا أربعة أخماسها . . وأغلظوا على عمر وأتهموه بالظلم ، وساءت أخلاقهم في هذا الأمر .

ولكن عمر خطب في الجند بعد ما اشتد الخلاف بين الصحابة : . . « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ، وأني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا ـ فوالله لو كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلّا الحق ـ لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شفيت ولكن رأيت انه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أرضهم وأموالهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها ، وأضع فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين . . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ، ولا بد لها من رجال يلزمونها وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرض ؟!

فقال الناس جميعاً : « نعم ما قلت وما رأيت . إن لم تشحن

هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر » .

وهكذا قرر عمر إبقاء الأرض لمن يفلحها وفرض عليهم الضرائب (الخراج والجزية . .) آلت كلها لمصالح الدولة . . وقد بلغت جباية الكوفة وحدها مائة ألف ألف درهم وجهها عمر كما وجه جباية المدن الأخرى للنفع العام . .

وهكذا وضع عمر نوعاً جديداً من الملكية في ذلك العصر ، حماية لحقوق الأمة كلها وتحقيقاً لمصالح الجميع . . لا لفئة على حساب فئة أو لطبقة على حساب طبقة .

منطلق الانفتاح الفكري

التجربة أكبر دعائم العلم ، وقد تستغرق التجربة الواحدة عشرات السنين . ولقد مرت بأجدادنا تجربة من هذا القبيل عندما فهموا الرسالة على حقيقتها ، وأمنوا سلامتها وانفتحوا بأفكارهم [بعد انتصاراتهم] على حضارات الأغريق والروم والفرس والهند ، فقد منحهم الإسلام حرية الفكر وأطلق العقل من قيود الوثنية ، وحطم أغلال الفلسفة الأغريقية . . عندئذ صاروا هم قادة الأرض علمياً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً .

وآنئذ لم يكن المسلمون مجرد قنطرة عبرت عليها تلك

الحضارات العريقة إلى عصر العلم ، بل صححوا ما فيها من أخطاء وأضافوا إليها الشيء الكثير بدافع من دينهم ، وهذا هو بيت القصيد إذا كنا حقاً ممن يريدون الاستفادة من التجارب التي مرت بنا وبأجدادنا من قبل بدلاً من محاولة اختبار مناهج (أو مبادىء) غريبة عنا نستوردها ويستغرق التحقق من سلامتها عشرات السنين ، وقد قادت الغرب إلى أعقد أنواع . المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية . . !

ونحن نسوق فيما يلي أمثله واضحة جلية لبعض ما صنعه أجدادنا من ألوان العلوم والمعرفة بدافع من القرآن الكريم بعد انفتاحهم على حضارات غيرهم من الأمم ، فما بدلوا العقيدة ، وما غيروا الشعائر ، ولكنهم هضموا كل شيء داخل إطار النهج الاسلامي . ويوم أن نضب فكرهم وتوقفوا عن مسايرة الركب تخلفوا . وهذا هو السبب الرئيسي في تخلف المسلمين بعد تلك النهضة العظمى التي حققوها بقوة دفع القران . ومن هذا المنطلق يكون الاصلاح وأعنى به منطلق الانفتاح الفكري على الحضارة الحديثة داخل إطار المنهج الاسلامي ، وما المنهج سوى الدين الذي في كنفه ازدهر العلم في العصور الوسطى .

الحساب

برع المسلمون في الحساب وجالوا وصالوا وعندما نزل القرآن الكريم كانت هناك عدة طرق للحساب والترقيم ، منها الترقيم

الروماني العقيم ، ومنها الحساب الستيني الذى لا يزال يستعمل في قياس الزمن حيث نقول أن الساعة ٦٠ دقيقة والدقيقة ٦٠ ثانية . . وكان هناك الحساب العشري وفيه تستعمل تسعة أرقام فقط هي الأرقام من ١ إلى ٩ . ويلاحظ أن للرقم الواحد قيماً مختلفة تبعاً للخانة التي يشغلها فالرقم ٥ في خانة العشرات هو ٥٠ وفي خانة الألوف هو ٥٠٠٠ وهلم جرا وقد أدخل المسلمون الصفر(زيرو) ليملأ الخانة الخالية من الأرقام ويدل عليها ، كما استخدموا الكسور العشرية وهي أكبر خطوة حقيقية أدت إلى تقدم علوم الرياضة ، وقد تمت كلها بإيحاء من كتاب الله العزيز الذي نبذ الحساب الستيني وأخذ بالحساب العشري . أنظر مثلاً إلى قوله تعالى :

١ ـ (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) .

٢ ـ (في كل سنبلة مائة حبة) .

٣ ـ (أن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وأن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا) .

٤ ـ (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما أتيناهم) .

٥ ـ (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) .

ولعل هذه الآية الأخيرة مما يقرر مبدأ حساب النسبة المئوية حيث أن المجموع مائة !

والأرقام التي يستعملها الأوروبيون اليوم هي في الواقع أرقام عربية في الأصل وتسمى (أفرنجية) عن طريق الخطأ ، وقد انتقلت إليهم عن طريق أسبانيا !! ولولا ضيق المقام لشرحنا ذلك بالتفصيل .

والمسلمون هم الذين ابتدعوا علم الجبر على يد أمثال الخوارزمي ، ووضعوا أساس حساب (اللوغاريتمات) وأصل هذه الكلمة (الخوارزمي) ترجمها الأوروبيون إلى (لوجارزم) ثم عدنا نحن فنقلناها بإسم اللوغاريتم . في هذا العصر ! وعندما دخل علم الجبر إلى أوروبا كان بمثابة الطلاسم ! .

الفلك

كان من الطبيعي أن يهتم المسلمون بعلم الفلك ، بتوجيه من القرآن الكريم مثل قوله تعالى :

١ ـ (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) .

٢ ـ (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

٣ ـ (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) .

وكان على علماء الفلك حساب الجداول الخاصة بأوقات الصلاة من ارتفاع الشمس نهاراً . والنجوم ليلاً في أي مكان ، وتحديد أوائل الشهور ونحوها . . وهكذا أنشأوا العديد من المراصد في مختلف العواصم . ولا تزال بصمات أصابعهم بادية على قبة السماء ممثلة بأسماء النجوم العربية مثل آخر النهر (أشرنار) والذنب (دنب) والجوزاء (بتلجوز) والثور (تاورس) . .

ومن أوائل علماء الفلك المسلمين ثابت بن قره والبيروني ، وقد كلفهما المأمون بقياس محيط الأرض فعمد ثابت بن قرة إلى قياس المسافة بين كل خطين من خطوط العرض . وكان يقيس خط العرض في أي مكان بميل النجم القطبي فيه . أما البيروني فقد ابتكر طريقة فلكية لا تزال تعرف بإسم (طريقة البيروني) وهي تتلخص في قياس زاوية انحطاط الأفق من على جبل مرتفع يطل على مساحة منبسطة من الأرض .

وانتقلت تلك القياسات الدقيقة إلى أسبانيا والبرتغال ، وعرف المستكشفون من أمثال كولمبس وماجلان أن الأرض كروية وأن قطرها لا يتعدى نحو ٨ آلاف ميل ، وأنهم لذلك يستطيعون الدوران حولها ، إلاّ أن الفضل الأكبر والأساس العلمي في عمل تلك الأسفار انهما يكمنان وراء قياسات علماء الفلك المسلمين ! !

وأعجب من ذلك في هذا المجال أن الفضل الأكبر فيما خرج به

الفلكي العالمي كبرنيق على الناس منذ نحو ٣٠٠ سنة من أن الأرض ليست هي مركز الكون ولكن الشمس هي التي تحتل بؤرة المجموعة الشمسية ، وبذلك غير أفكار البشر ، التي سايرت فلسفة أرسطو أكثر من ألف سنة ، نقول أن الفضل إنما يرجع إلى جداول فلكية خاصة بالفلك الكروي الحديث حسبها نجم الدين المصري قبل ذلك بنحو ٤٠٠ سنة . وقد وجد أن جداول كبرنيق هي ذاتها جداول ذلك الفلكي المصري الذي لا يعرف أغلبنا عنه شيئاً !!

لقد كنا ننقل تراثنا عن المستشرقين !! وقد آن الأوان لنعرف تاريخ أجدادنا العلمي المجيد بأنفسنا ، كما آن الأوان لنعيد (بمنطلق الانفتاح) العلم إلى أحضان أمة الإيمان كما كان في الأصل وفي ذلك خير البشرية جمعاء ، والرسول الكريم يقول :

(الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة) .

والله أعلم . .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
اسلامية

أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »

صدق الله العظيم

أحاديث إسلامية

في الأخلاق والآداب

(وصية نبي كريم)

حكمة الأطباء تعالج بها الأبدان ، وحكمة الأنبياء والحكماء تعالج بها النفوس . والطبيب خبير بأنواع العلل وأعراض الأمراض ، وكل ما يمت إلى ذلك بسبب . والنبي والحكيم ، خبير كل منهما بعلل النفوس وأدوائها ، وبصير بما يشقيها ويسعدها ، ويصلحها ويفسدها ، فهو يصف لها من الأدوية النفسية ، والأخلاق الكريمة الرضية ، كما يصف الطبيب للعليل ، مختلف العقاقير والأدوية ، وعدد مرات استعمالها ، وعدد قطراتها وحباتها . وكما أن العليل لا تنفعه معرفته بحذق طبيبه ، وأنه نطاسي بارع ، وأن من عالجه شفاه وأبرأه ، ولا تنفعه كذلك معرفته بنوع العلاج وعدد مراته

في يومه وليله ، وعدد حباته إن كان جامدا ، وقطراته إن كان مائعاً . وإنما الذي ينفعه ويفيده هو أن يعرف هذا جيداً ، ثم يعمل بدقة على تناول الدواء كما أمر الطبيب ، وبالمقادير التي أمر بها ، وفي المواقيت التي عينها ، ـ كذلك حكمة النبي ونصيحة الحكيم المصلح ، لا تفيد منها إلاّ إذا أخذت نفسك بمعرفتها ، وبالعمل بها في حدودها التي حدها ، وفي أوقاتها التي عينها . وبذلك ، وبه وحده ، تؤتي الحكمة ثمرتها ، وينتفع بها .

وحكم النبيين والمصلحين ، تملأ الأقطار ، وهي في متناول الناس ، تفيض بها أسفارهم ، وتنطق بها آثارهم ، وهي خالدة باقية ، والنفع بها كذلك خالد باقٍ . ولكن نوازع النفوس ، وخوالج الأهواء ، قد تصدف النفس وتلوي عنانها إلى أهوائها ومشتهياتها ، فكان لزاماً ، أن تُهَزَّ إلى الخير ، وتذكر به ، بين الحين والحين . فإنما مثل النفس كمثل النصل ، إن شحذته وأرهفته كان حديداً ماضياً ، وإن تركته وأهملته صار كلاًّ كهاماً .

ومن الحكم الخالدة ، التي نذكر بها ، ونقف الناس عليها ، إبتغاء قمع الهوى وكبح جماح النفس ، هذه الوصية الحكيمة ، التي نرجو من كل من سمعها أن يعيها ، وأن يأخذ نفسه بالعمل بها ، لأنها من أسباب الفوز والخير ، ومن صفات

المؤمنين الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه . وهي لِمُصْلِحِنا العظيم ونبيِّنا الكريم ، محمد بن عبد الله ، عليه صلوات الله .

وكان من قصتها ، أن رجلاً صحبه ، وسار بسيرته ، وعمل بعمله ، وشهد صلاته وعبادته ، وخيراته ومبرّاته . كل ذلك شهده مع الرسول ، وعمله مثل ما عمله الرسول ، وهو يرجو من الله جلَّ وعلا ، ما يرجو الرسول . يرجو لعمله النّجْحَ والقبول . ثم يعرِض للرجل سفر طويل . وكما يَعْمِدُ المسافر لأخذ زاده ، يَتَبَلَّغ به في سفره ، كذلك هو يعمد إلى من كان يبصره الهدى ؛ وينير له السبيل . يعمد إليه ، فيأخذ عنه ما يرشده ويسدده . يأتي الرسول فيقول : يا رسول الله ! إني راحل إلى بلد كذا ، ولا أدري ما ألقى ، وما سيكون لي ، فأوْصِني وصيةً ، يكون لي منها نور ورشد . فيدعو له الرسول ربه ، أن يحفظه ويهوِّن عليه سفره ، ويقيه وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب ، ثم يقول له : يا هذا اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

هذه الكلمات الطيبة ، التي تضمنها قلب النبي الكريم ، وانطلقت بها شفتاه ، قد استفاد منها في وقتها ذلك الرجل ، الذي كان رسول الله قد أوصاه ، ولا يزال يستفيد منها كل من

سمعها ووعاها ، واتَّبع سبيلها ، فكانت كما قال الله (كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حين بإذْنِ رَبّها) . فالشجرة الطيبة ، لا يزال يستفيد الناس منها فينالون ثمرها ، وينعمون بهوائها وظلها . وها نحن نقف المستمع الكريم ، على هذه الوصية الجليلة ، ففيها للذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فضل كبير وخير كثير .

جمعت هذه الوصية الكريمة أموراً ثلاثة ، بل انتظم في عقد هذا القول النبوي العظيم ، جواهر ثلاث ، الأولى وهي أجَلُّها وأفضلُها ، أن تتقي الله ربك ، الذي خلقك فسوَّاك فعدَّلك ، تفعل ذلك في كل ما تأتي وتذر ، وحيثما كنت في بَرٍّ أو بحر ، وفي بَدْوٍ أو حضر ، وكيفما كنت في رغد وسعة ، وعيشة طيبة رافهة ، أو في ضيق وشدة وعسر وضر . فذلك أيها الإنسان من تمام سعادتك ، فأنت من لُبِّك وقلبك ، وبين نفسك وشهواتك ، في أمر مريج . فشهوتك لمباهج الحياة يقظى ، وهواك في أن تنعم وتنغمس في ملاذِّها قوي شديد ، ولُبُّك وقلبك يحرسان وينظمان ، ولكن قد يضعفان أمام نوازِع الهوى وعواطف النفس ، فلا يستكمل وجودك سعادته ، ولا نفسك علاها وسؤددها ، وراحتها وسكونها ، حتى تجعل على نفسك رقيباً ، وعلى أعمالك حسيباً . ولست بمستطيع أن تجعل بين جنبيك حارساً ، يقوّم أوَدَكَ ، ويقفك حيث الخير والفضيلة والبرّ . ولكنك إذا ذكرت في عملك ربك الذي خلقك وأحسن

إليك ، وبَصَّرك وهداك ، ـ إذا فعلت ذلك وملأْتَ به صدرك ، وجدت في نفسك نوراً يسلك بك الجَدَد ـ (ومن سَلَكَ الجَدَد بالبِرّ أمن العِثار) ـ ويدعوك إلى الهدى ويَدْرَأ عنك الأذى . فالله بَرٌّ ، يأمر بالبِرّ في كل أمر ، ويكره منك الشَّرَّ والضرر . وهو الذي يجعل لك من كل ضيق فَرَجاً ، ومن كل هَمٍّ مخرجاً .

إن ذكرك ربك يُطَمئِنُ قلبك ، ويهدي نفسك ، ويجعل فيها ثقة كبيرة ، وصبراً عظيماً على النُّوَب والأحداث . وهذا سبيل جليل لتخفيف أعباء الحياة ، وتسهيل خطوبها وتيسير شُؤُونها . وليس ذكر الرب ، أن تعقد على الحب مئات التسبيحات ، أو ألوف الكلمات ، بل ذلك تذكُّرُهُ في كل عمل تأتيه أو تذره . فذكر التاجر ربه ، أن يتذكره في عمله ومعاملته ، فيصدق الناس ولا يغشّهم ، وإذا كالهم أو وزنهم ، وفَّاهم حقهم ، ولم يَبْخَسْهم شيئاً . وذِكْرُ العامل رَبَّهُ ، أن يُحْسِنَ عمله ، ويُجَوِّده ، كأنه ربُّ العمل ، وصاحبه يراه ويشهده . . وهكذا كل عمل من أعمال الحياة . إذا ذكرت فيه الله ، حَفَزَك ذلك على أن تُتِمَّهُ وتحسنه وتجوده .

إن الاعتقاد بالرب تعالى ، هو الفِطْرَةُ التي فُطِرَ الناس عليها . وهو سبب في عمران النفس وفَيْضها بالخير والبر . فالنفس المؤمنة بربها ، لا ترى جروحاً إلّا ضَمَدَتْها ، ولا أكباداً

ظامئة إلاّ رَوَّتْها ، ولا فتنة مشتعلة إلاّ كانت عليها ، حتى تخمد جمرتها ، وتطفىء جَذْوَتها . ثم هي لا تحاول أن تغمس يدها في شر أو نكر ، ولا أن تتمضمض بسفهٍ ولا هجر ، بل تحب الخير وتفعل البر . هذه هي النفس الفاضلة . أما النفس التي قيل فيها (قول كالرُّطَب وفعل كالحطب) أو (قول كالعسل وفعل كالأسَل) - فليست هي بالنفس التقية المؤمنة ، وإن أدَّعت التقوى والإيمان ، وحلفت على ذلك الإيمان .

ولنأت الآن إلى الوصية الثانية ، لنفصّلها ونكشف عنها أيضاً . وهي وصية كريمة مثل أختها . لها الفضل الكبير والأثر الجليل ، فيما يصلح النفس وينقّيها . . يقولون أن النفس الانسانية ، كالمرآة الصافية النقية ، تتراءى فيها الأخلاق والفضائل ، كما تتراءى في المرآة أشخاص الأشياء . وإنّ عمل السوء كالظلمة تَغْشَى النفس ، فتغطّي منها بقدرها ، فإن أتبعت السيئة الحسنة ، كشفت عن نفسك هذه الظلمة ، وأبقيت على نفسك صفاءها وإشراقها . وإن تركت السيئة تتبع السيئة ، تتابعت على النفس الظلمة ، وغدت لا تبصر ضياء الحق ونور الخير . ثم أن السوء ، إذ يفعله المرء أول ما يفعله ، قد يجد طعمه مريراً ، فإذا عاوده ولم ينْقَ منه ، استحلاه وربما تأصَّل في نفسه ، وكان خلوصه منه عَسِراً وشاقاً . . أصاب رجل من أصحاب رسول الله ذنباً ، وجاء تائبا يقول : يا رسول الله ! أصبتُ ذنباً ، وكأني احمل في يدي

جبلاً . . أترى أيها المستمع الكريم ، لو عاود السوء الذي أصابه ، ولم يعقبه الندم والتوبة ، أما كان يصغر هذا الجبل الذي يراه ، حتى يصير تلاً ، أو كومة ، ثم لا يصير شيئاً ؟ . . هذا والسيئة كالسوء الذي تؤذي به نفسك ، فإن اتبعتها الحسنة ، وتقدمت إلى أخيك فتحلّلْتَ منها ، وطلبت عفوه ، استللت من نفسه غيظها ، وكشفت عنها سخطها وحنقها ، ورضي عنك ، وصفح وعفا .

(الأخوّة الانسانية)

يرتبط الإنسان بالانسان ، منذ نشأ في هذا الكون ، وأنْبَثَّ في الوجود . وشاء الله أن يعهد إليه في عمارة الأرض ، الانتفاع بما فيها . ووهبه التمييز ، فانتشر في الأرض ، وانطلق في جنباتها ، وانبعث يتعرّف موادّها ، ويعلم خبأها . فشقّها واستخرج كنوزها ، واعتصر موادها ، فَدَرّت عليه أخلافها ، وآتته أكلها ، وانقلب من وراء ذلك في خفض من العيش وسعة ، وغدت هذه الحياة لنفسه حلوة محببة ، فصار ينازع فيها غيره ويدفع عنها سواه . وبلغ به حبه لذلك ، وإمتاعه نفسه وهواه ، أن صار يدافع عنها ، حتى أباه وأخاه ، ونشأ ما يسمى تنازع البقاء . . وكان أن بعث الله الأنبياء مبشّرين ومنذرين ، فبذلوا جهوداً مشكورة في سبيل سعادة الإنسان . وكان من أهم

ما دعوا إليه ، وبذلوا الجهود في سبيله (الأُخوَّة الانسانية) التي تتمثل واضحة جلية ، في أقوالهم وأحوالهم وآثارهم . . وها نحن في حديثنا هذا ، نجلوا للمستمع الكريم ، شيئاً مما يتعلق بهذه المسألة الانسانية من العهد الاسلامي الأول ، وهو أقرب العهود إلينا ، ولعله من أوضحها في هذا آثاراً ، وأكثرها أخباراً .

بُعث محمد عليه السلام في أُمَّةٍ ، كانت الفرقة فيها متجلية بأوضح معانيها ، فلا كلمة تجمع أبناءها ، ولا ملك يسوسهم ، ولا قانون يرعى حقوقهم ، أو يُبقي على أموالهم وأنفسهم . بل كانوا والأمم الأخرى تتخطفهم ، ومن ملكهم سامهم الخَسْف وسوء العذاب ، فكانوا من ذلك في حياة شقية وعيشة ضنك . وماذا تأمل من قوم ، ليس بينهم كلمة مجموعة ، وليست لهم راية مرفوعة ، يسطو بعضهم على بعضٍ ، في جُنْح الليل وفي وضح النهار ، ولا يجد أحدهم حرجاً ، أن يغزو حتى أخاه ، كما قال قائلهم :

وأحياناً على بكرٍ أخينا إذا لم نَجِدْ إلَّا أخانا

ولا يخفي ما تورثه هذه الفَوْضى من الشقاق والانقسام ، فكانت حكمة الرب الجليل ، أن بعث فيهم رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويُزَكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فجمع شملهم ووحَّد كلمتهم . ومن قوله تعالى في هذا : « لو أنفقت

ما في الأرض جميعاً ما ألَّفْتَ بين قلوبهم ، ولكنَّ الله ألَّف بينهم » . وهذا يشهد بصدق ما قدمناه من القول عن فُرْقة القوم ، كما يشهد بفضل تلك الدعوة الرشيدة ، التي كانت سبباً في جمع شتات القوم ، وإصلاح نفوسهم ، وتنظيم شؤونهم ، وضبط حقوقهم وأموالهم وأنفسهم .

كان من أهَمّ هذه التعاليم الرشيدة ، التي جاء بها هذا الدين الحنيف ، كما ذكرنا ، تقرير الأُخُوّة الانسانية بأوسع وأوضح مما جاءت به الشرائع الأخرى . فالله في الكتاب يقول : (يا أيُّها الناسُ الناسُ إنَّا خَلَقْناكُم من ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائلَ لِتَعارَفُوا) أي ليتعرَّف بعضكم بعضاً ، فترعون حقوق ذات بَيْنِكُم ، وتتقون ما يقطع صِلاتكم وَقُرُباتكم . ومحمد عليه السلام ، حامل هذه الدعوة ، يقول : (المرءُ أخو المرءِ أحَبَّ أم كَرِهَ) . ويقـول : (النـاسُ من آدَم وآدَمُ من تراب) ـ أي فكلكم أيها الناسِ ، أبناءُ رجل واحد ، فلا تَكَبَّروا ولا تَجبَّروا ، فبينكم أُخُوَّة ورابطة قوية . ويقول : (لا تَباغَضُوا ولا تَحاسَدُوا ولا تَدَابَروا وكونوا عِبادَ الله اخواناً) .

ويقول : (أحِبَّ للناس ما تُحِبُّ لنفسك) . وهذه أمور إذا تبادلها الناس ، اتصلت نفوسهم بعضها ببعض ، اتصالاً كريماً ، وجَنَوْا من ورائها خيراً كثيراً وفضلاً كبيراً . ويقول : (خَيْـرُ الناس أنْفَعُهُم للنـاس . وأفْضَلُ الإسـلام إفْشـاء

السلام) . وهذه أمور أيضاً إذا انتشرت بين الناس ، غرست في نفوسهم الوُدَّ ، ونشرت بينهم الوئام والسلام . وذلك هو عَوْنُ الانسان لأخيه الانسان ، وهو من أكبر ما يَرْبِطُهُ به ، ويصلُ حبله بحبله ، والتحيات تزرع بين الناس الصِّلات .

كيف أصبحتَ كيف أمْسَيْتَ مِمَّا
يزرع الوُدَّ في قلوب الرجالِ

هؤلاء المهاجرون من أهل مكة ، تضيق عليهم شِعابُها ورِحابُها ، لأنهم اتَّبعوا الحق ، فطاردهم أهلها حتى اضطرُّوهم إلى النُّزوح عنها ، فَنَزَحُوا إلى يَثْرِب ، وكان قد دخل في بعض بيوتها نورُ هذا الحق ، ونَزَحَ من بعدُ إليها حامِلُ هذا النور ، محمد عليه السلام ، فألْفَى هؤلاء النازحين عن بلدهم وأرضهم وأموالهم ، في حالة شِدَّة وضيق ، فَوَجَّهَ إلى هذا عنايته ، وعَقَدَ بينهم وبين اخوانهم من أهل يثرب ، هذه الأخوَّةَ الانسانية الكريمة ، فصار المَكِّيُّ واليَثْرِبِيُّ أخَوَيْن في كل شيء ، يعملان مشترِكَيْن في الحقول والمتاجر ، ويعيشان مشترِكَيْن في الأطعمة والأشربة والمنازل .

عُنِيَ الاسلام بِبَثِّ هذه الروح ونشرِها ، وبالغ في رفعِ شأنها وتقديرها حقَّ قدرها . وكان من نتيجة ذلك ، ان اتَّصل الناس بعضهم ببعض اتصالاً وثيقاً ، ونشأ بينهم ما يسمى (الإِيْثار) وهو تقديم المر) وهو تقديم المرء أخاه على نفسه . وقد ذكره

الله من أخلاق المُصْطَفَيْن الأخيار في مثل قوله : (ويُؤْثِرون على أنْفُسِهِم ولَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) . وهو يُعَبِّر بحق عن الايمان الصادق ، الذي أثْرَتْهُ الدَّعْوَة الاسلامية الكريمة في أنفس الناس ، حتى صار بعضهم يصطنع كل أسْلوب وكل طريقة ، لكشف الأذى عن الناس وتَفْريجه . ومن ذلك ما جاء في سِيرة عُثمان بن عَفَّان رضي الله عنه ، من أن رجلاً احتكر بئراً ، وكان يبيع الناسَ الماء ويُغلي ثمنه . وعلمبذلكعثمان ، فجاءه وطلب أن يبيعه البئر ، وهو يَقْصِدُ رضي الله عنه ، أن يُيَسِّر الماء على الناس ، ولا سيما الضعفاء الذين لا يجدون ما يُنْفِقُون . فأبى الرجل . وعاوَدَهُ عثمان ، فأصَرَّ على إبائه . فجاءه أخيراً وطلب أن يبيعه نصف البئر ، ودَفع إليه في ذلك مالاً كثيراً . فرضي . ثم اتفقا على أن يبيع كلٌ من الشريكين من حصته يوماً على التَّعاقُب . فكان الناس في يوم (عثمان) يَرِدون الماء ، وأكثرُهم يَسْتَقي على نفقة عثمان ، فكانوا لذلك يَمْلأون من الأوْعية ما يُغنيهم عن ورود الماء في يوم الشريك الآخر . . وهكذا قلَّ ورود الناس للبئر في يومه ، فلم يَرَ أخيراً إلَّا أن باع النصف الثاني من البئر لعثمان ، ورَوِيَ الناس ، وتخلصوا من شطط الرجل وَعَنَتِهِ .

هذا بعض ما فعله هذا الرجل الكريم العظيم ، من الرِّفْقِ بالناس والحَدَب عليهم . . وإنَّ مَثَلَ الانسان ، الذي بحق يسمى إنساناً ، مَثَلُ الشجرة الطيبة التي لا تمنع أحداً جَناها ،

ولا تمنع أحداً ظِلَّها ، ولكل عابر سبيل أن يلجأ إليها في وَقْدَة الحَرّ وشِدَّة القَيْظ ، فَتَحْنو بأغصانها وأفنانها عليه ، وتبعث بالنسيم اللطيف المُنْعِش إليه .

ولا يَفُوتني أن أختم حديثي الليلة ، بالقصة التالية ، لِما لها من المساس بحالتنا الحاضرة ، وهي مما اتفق لعثمان أيضاً . فقد وَفَدَتْ قافلة له ، ونزلت المدينة ، والناس في جَدْب وشِدَّة ، وقد غَلَت الأقوات واشتد الجوع . وفي المدينة فريق من التجار ، لَبِسُوا جُلود البشر ، وفي صدورهم قلوبُ الثعالب والذّئاب . وقد هرعوا إلى عثمان ، يريدون شراء الأقوات التي جاءت بها القافلة ، لا ليفيضوها على الناس ، وَيُسدُّوا بها حاجتهم وعَوَزَهم ، بل لِيَقْبِضُوها عنهم ويحتبسوها ، لينالوا من بيعها بعد ذلك الأرباحَ الطائلة . . وعرف عثمان رضي الله عنه ما يُضمرون ، فقال لهم : وكم تُرابحوني عليها ؟ . . فأخذوا يذكرون له المبالغ التي يدفعونها ، ويتبارَوْن في ذلك ، وهو يقول لهم : قد أكْسَبَني غيرُكم أكثر منكم . فيقولون : نحن مَن تعرف من تجار المدينة ، ونحن أغناهم وأثْراهم ، فمن الذي أكسبك ؟ فقال : قد أكسبني مَن أحدثكم عنه عشرة أضعاف ما دفعتُ ، فمن منكم يزيد ؟ قالوا : لا أحد ، فمن هو هذا ؟ فقال : ربُّكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وآتاكم من فضله ، وفضلكم بالمال على كثير من خلقه . . فجئتم تريدون أن تزيدوا الناس شِدَّةً وعُسْراً ، على ما هم فيه من الشدة

والعسر ، وبئس ما تفعلون . . وصَرَفهم عثمان رضي الله عنه ، ثم فَرَّق الأقوات في الناس ، فَفَرَّجَ كُرْبَتَهُم وكشف الضّيق عنهم .

(الخلق الحسن)

جاء في حكمة الأوَّلين : « مَن لانَتْ كلمتُهُ وَجَبَتْ محبتُهُ ، ومَن عَذُب لسانه كثر إخوانه » . فعذوبة القول وحسن الخُلُق ، كعذوبة الماء ونقائه . والناس يَهِشُّون للخلق الحسن والقول الحسن ، كما يهشون للماء العذب . . إن الخلق الحسن يجعل صاحبه إلى النفوس حبيباً وإلى القلوب قريباً . وهو خير عضد وساعد ، لكل ما ينشر الذكر ، ويُعلي القَدْر ، ويُسعد المرء ويُغنيه ، وكثيراً ما يدرأ عنه الشرّ ، ويحفظه منه ويقيه ويحميه . فالرفيع إذا بَسَطَ للناس وجهه ، وألانَ لهم قوله ، حَبَّبهم إليه وجمعهم حوله . وإذا كان فوق ذلك ، سَبْطَ الكفّ ، تَفَّاح اليد ، خَيّراً ، نافعاً ، أفرغ الناس أيديهم في يده ، وكانوا عوناً له في الحياة ، وسواعد قوية ، تدفع عنه الخُطوب والمُلِمَّات . . قالوا : المرءُ أسيرُ الاحسان . وليس الاحسان الذي يَعنونه ، مقصوراً على أن تَسُدَّ جَوْعَة الجائع ، أو تكسو العُرْيان ، وإنما هو أيضاً ، أن تلين لأخيك الانسان ، وتحبه وتتحبب إليه . . ولا شك أنَّ الناس ، إذا تلاينوا

تحابُّوا ، ونما بينهم الخير ، ودَرَّتْ عليهم الأرزاق وتهيأت نفوسهم لأحاسن الأخلاق ، وهم في جملتهم كما قال الشاعر :

فـإنَّـمـا الـنـاسُ مـن زُجـاجٍ
إنْ لـم تَـرَفَّـقْ بـه تَـكَـسَّـرْ

فرفقك بأخيك ، يطيب من نفسه ، ويحسن من خلقه ، ويعلمه الرفق والاناة ، وهما خَلَّتان وخلقان رضيان ، فيهما للمتخلق بهما وللناس خير كثير ، وأكثر ما يكسبهما الانسان من الانسان . فلن تجد في الناس أمرأً حسن الخلق لين العريكة ، إلَّا وجدته حظيّاً عند الناس ، ولا تراه يجلس مجلساً إلَّا كان فيه محترماً مَوْموقاً .

كلُّ خلق من الأخلاق الفاضلة ، لا يبلغ كماله إلَّا في الذين رجحت أحلامهم ، وكبرت نفوسهم ، ورحبت صدورهم ، وصاروا قدوة يُهتَدى بهم ويستضاء بنورهم ، وساروا وراء المَثَل الأعلى لكل ذلك ، وهو سيدُنا مصلح الأمة العربية العظيم ، محمد عليه السلام . فهو أحسن الناس خُلُقاً ، وأصدق الناس لهجة ، وألْيَنُ الناس عريكةً ، وأكرم الناس عشرة ، وأسخى الناس كَفّاً ، وأطيب الناس نفساً . وقد حملت إلينا شريعته وسيرته ، من هذا الخلق الذي نحن في سبيله ، آثاراً كثاراً ، كلها أمثلة كريمة ودروس عظيمة ، يجدُرُ بكل إنسان أن يأنس

بها ، ويسير على غرارها ومثالها . وها أننا نَعْرِض على المستمع الكريم ، طائفة مما جاء في الكتاب ، من الآيات في الخلق الحسن ، والحثّ عليه ، وفيها العظة والذكرى لأولي الألباب .

جاء في قصة موسى وهارون مع عزيز مصر فرعون ، حين أرسلهما الله لدعوته إلى الحق والهدى : (إذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ . إنَّهُ طَغَى . فَقُولا له قَوْلًا لَيِّناً لعله يتذكر أو يخشى) . وفي ذلك قوله تعالى لموسى : (إذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ . إنه طَغى . فَقُلْ هَلْ لك إلى أنْ تَزَكّى وَأهدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى) . وفي دعوة الناس إلى هذا الخلق بعضهم إلى بعض : (وَقُلْ لِعبادي يَقُولُوا التي هِيَ أحْسَنُ . إنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بينهم) . وفيه : (وَتَعَاونُوا على البرِّ والتقوى ولا تَعَاوَنُوا على الإثم والعُدْوان) . وفيه أيضاً : (وَقُولُوا للنَّاس حُسْناً) . وفي برّ الوالِدَيْن : (وَقُلْ لهما قولاً كريماً . وَٱخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمة . وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كما رَبَّياني صَغيراً) . وفي محمد عليه السلام : (وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّوا من حَوْلِك) .

هذا بعض ما جاء في آي القرآن ، وهو الذخيرة الكبيرة لكل إنسان ، والمَوْرِد العَذْب السائغ لكل وافد ووارد وراغب وطالب ، في مختلف الأمور وشتى الشؤون . وها اننا نشفع

هذه الآيات ، بشيء مما حملته لنا السيرة المطهرة عن محمد في خلقه العظيم . فقد كان عليه السلام ، لا يتلقى الأمور إلّا بيسر وسهولة ، ثم يعالجها برفق ولين . ومما جاء من الأمثلة على ذلك ، إن رجلاً دخل المسجد والناس يُصَلُّون ، فلما فرغوا من صلاتهم ، ألْفَوْهُ في ناحية من المسجد لم يُصَلِّ ، فكادوا يُوقعون به ، لتركه الصلاة وراء الرسول . فذُعر الرجل وارتعد . ورأى ذلك الرسولُ فدعاه ، فجاء وفرائصه ترتعد . فقال له عليه السلام : خَفِّض عليك ، إنما أنا إبن أمرأة من قُرَيْش ، كانت تأكل القَدِيد . . ولكن أخبرنا ، لِمَ قَصَدْتَ عن الصلاة ؟ فقال الرجل : يا رسول الله صليتُ في رَحْلي ، ثم أتيت . . فما زاد رسول الله على أن قال له : يا هذا ، إذا أتيتَ مسجد جماعةٍ ، فَصَلِّها معهم ، فإنها لك نافِلَة . . ورُفع إليه رجل تكلم في صلاته ، وكاد القوم يُوقعون به أيضاً ، فقال لهم الرسول : أرسلوه . ثم نَصَحَ له علّمه ، فرجع الرجل إلى قومه ، يُحدّثهم حديثه ، ويقصُّ عليهم قصته ، ويقول عن محمد عليه السلام : بأبي هو وأمّي ، والله ما نَهَرَني ولا حَقَرني ولا سَبَّني ولا شتمني ، ولكن قال لي ، إنها الصلاة ، ولا يَصْلُحُ فيها شيء من كلام الناس .

ويخرج عليه السلام ، وبرفقته رجلان ، يريدون النُّزْهَةَ . ويجيء وقت طعامهم ، فيعمدون إلى شاةٍ أعَدُّوها لذلك ، فيقول أحدُهم : عليَّ ذَبْحُ الشاة ، ويقول الآخر : وعليَّ

سَلْخُها . فيقول النبي عليه السلام : وعليَّ جَمْعُ الحطب . فيقولان : نحن نَكفيك ذلك يا رسول الله . فيقول : قد علمتُ ، ولكن لا أُحِبُّ أن أتَمَيز عنكما . ويتركهما عليه السلام يُصلحان الشاة ، ويقوم فيجمع الحطب . ثم يَشُبُّون النارَ ويُصلِحون الشاةَ . . هذه نفس رضية كريمة ، وذلك خُلُقٌ حسن عظيم .

ويتمثل خُلُقُهُ عليه السلام في أفضل وأمثل من ذلك ، ـ يتمثل في هذه القصة المُمْتِعَة : يَصحَبُ جابرُ بن عبد الله رسولَ الله في غَزاةٍ . وفي طريقهما وهما قافلان إلى المدينة ، يرى محمد عليه السلام بعير جابر كلَّ وأعيا عن اللحاق بالقافلة ، فيجمع على نفس جابر كَلالُها ونَصَبُها ، وكلالُ بعيرهِ وإعْياؤُهُ . وفوق هذا كله ، هو يُفَكِّر وهو قافل إلى المدينة ، وله فيها تِسْعُ بنات ، تُوُفِّيَتْ عنهنَّ أُمُّهُنَّ وهن صغيرات ، وتزوج أمرأةً كانت تقوم بأمرهنَّ وتُصلح من شَأنِهِنَّ . فهو أيضاً يفكر فيهنَّ جميعهنَّ . . ويجول في نفسه هذا الحديث : ها أنا أعودُ إلى منزلٍ عارٍ ، إلاَّ من الأولاد ، ولعلهم جائعو الأكباد ، وفي حاجة وجَهْد . . كل هذا كان يَعْتَلِجُ في نفس جابر ، ومحمد النبيُّ الألمعيُّ يتلو في وجهه كل هذا ، فَيَعْمِدُ عليه السلام ببعيره نحو جابر يريد أن يُهَوِّنَ عليه سفره ، ويكشف عن نفسه هذا الضيق وهذه الغُمَّة . . ويجعل الرسول يحادث جابراً حديثاً حُلْواً مُسَلِّياً ، فَيُسَرِّي عن نفس

جابر . ثم يقول له الرسول بعد حديث : يا جابر ، أتبيعني هذا البعير ؟ . وجابر يعلم أن بعيره غير صالح ، فيقول : يا رسول الله ، إن لك خيراً منه . فيقول : إلاّ هو . فبكم تبيعه ، ولك ظَهْرُهُ إلى المدينة ؟ فيرى جابر من رسول الله الجِدَّ ، وتشيع في نفسه مَسَرَّة . فهو يقول في نفسه ، إن ابتاعه محمد عليه السلام ، كان لي في ذلك سَعَةٌ ، وكَسَوْتُ بناتي ، وأصْلَحْتُ من شأنهنَّ ، وهُنَّ الآن يَرْقُبنَ مجيئي وينتظرنَ وفودي ، وما أحمل لهن مما يُفَرِّحُهُنَّ شيئاً . . ويعاوده الرسول . فيقول له جابر : هو لك يا رسول الله بغير ثمن . ويأْبى الرسول إلاَّ أن يُسَمِّيَ الثمن . ويَتراضَيان على أوقِيَّتَيْ ذَهَبٍ . . وَتَقْدَمُ القافلة إلى المدينة ، ويبدأ رسول الله كعادته ، إذ يقدم من سفر ، يبدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثم ينادي غلاماً له فيقول : هذا جابر بن عبد الله ، له أوقيتا ذهب ، فانطلق ، فَزِنْ له ذلك وارجع . فيذهب الغلام ويرجع وهو يحمل الذهب . فيأخذه جابر وينصرف ، وهو مغتبط مبتهج تطفح نفسه بالسرور . . انه سيحمل الآن إلى بناته وأهله طعاماً وكسوةً وهدايا ، وسينقلب منزله بذلك إلى سرور ومَرَح . . وما هو إلاَّ أن مَشي قليلاً ، حتى تبعه الغلام ، وهو يقول له : أجِبْ رسول الله . فيغتمُّ جابر ويقول في نفسه : لعل محمداً قد رجع عن شراء البعير . . ولكن النبي عليه السلام يقول له : يا جابر خذ جملك ، ولك ما أخذتَ ، إنما كنتُ لك مُسَلّياً ومعك مازحاً .

فيرجع إلى جابر سرورُهُ وابتهاجه ، وينقلب بالذهب والبعير ، فيُصْلِح من شأن بناته . . ويكون سرورُهنَّ عظيماً .

آدَابِ العِيادَة

قَالَ أحَدُ ٱلأُدَبَاء : إذا مرِضَ صَديقُكَ فَعُدْهُ مِراراً ، وَحَدِّثْهُ بِحَدِيثٍ يُشَجِّعُهُ وَيُقَوِّيهِ عَلَى مُقَاسَاةِ أوْجاعِهِ . وَإيَّاكَ أنْ تَذْكُرَ لَهُ مَا يُزْعِجُهُ وَيثْقُلُ عَلَيْهِ سَمَاعُهُ . خَوْفاً مِنْ أنْ تَزِيدَهُ هَمّاً وَقَلَقاً . فَتَكُون عِيادَتُكَ لَهُ وَبالاً عَلَيْهِ .

وقال آخرُ : يَحْسُنُ بِالمَرْءِ إذا عادَ صَديقَهُ الْعَليلَ أنْ يُفَرِّجَ كرْبَهُ . ويَكُونَ لَهُ بِكَلاَمِهِ ٱلْمُسْتَعْذَب أنْجَعَ دَوَاءٍ .

وَقَال بَعْضُ الحُكمَاءِ : لا تُطِلْ عِيادَتَكَ لِلْمريضِ إذا شَقَّتْ عَلَيْهِ مُجَالَسَتُكَ لَهُ . ولا تَتَكَلَّمْ مَعَهُ فِي حِينَ يُزْعِجُهُ ٱلْكَلاَمُ . وَقالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ الله . لا تُطِلِ ٱلْجُلُوسَ عِنْدَ المَريضِ وٱلْعَلِيلُ يُعَادُ وَٱلصَّحِيحُ يُزَارُ .

وقال سُفْيانُ الثَّورِيُّ : ٱلثُّقلاءُ أشدُّ على المرضى مِنْ أمْراضِهِم . يَجيئونَ فِي غَيْرِ وَقْتٍ . وَيُطِيلُونَ ٱلْجُلُوسَ .

وقال الشاعر :

عيــادة المــرء يــوم بين يــومــين
وجلســة لــك مثــل اللحظِ بــالعين
لا تُبــرِ منَّ مــريضــاً في مســاءلــة
يكفيــك من ذاك تسآل بحــرفين

لما مرض معاوية عاده أصدقاؤه فلم يطيلوا الجلوس عنده وقالوا له عند الوداع : ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك فأنت تكره أن تستخف بنا فتأمرنا بالقيام . ونحن نكره أن نثقل عليك بطول الجلوس .

التواضع والكبر

قال سعد بن وقاص لابنه : يا بني إياك والكبر . وليكن في ما تستعين به على تركه علمك بالذي منه كنت والذي إليه تصير . وقال أحد الأدباء : من ولد في الفقر أبطره الغنى . ومن ولد في الغنى لم يزده إلا تواضعاً .

وقال أبو العتاهية :

أشــد الـنــاس لــلعــلم آدعــاء
أقــلُّهــم بــمــا هــو فيــه عــلمــاً

وقيل في منثور الحكم : من أظهر عيب نفسه فقد زكَّاها فإذا

قطع أسباب الكبر وحسم مواد العُجْب اعتاض بالكبرياء تواضعاً وبالعجب تودداً . وذلك من أوكد أسباب الكرامة . وأقوى مواد النعم . وأبلغ الشفعاء إلى القلوب يعطفها إلى المحبة ويثنيها عن البغض .

وقال الشاعر :

إتضع للناس إن رمت العلى
وآكظم الغيظ ولا تبد الضجر
واجعل المعروف ذخرا إنه
للفتى أفضل شيء يذخر
واحمل الناس على أخلاقهم
فبه تملك أعناق البشر

الرئاء

حقيقة الرئاء اختلاف السر والعلانية واختلاف القول والعمل وهو يدل على سخف العقل .

قال سعيد بن عروة : لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وسوء المخبر أحب إلي من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين .

وقال آخر : المتزيّن بما ليس فيه كلابس ثوبي زور . فهو برئائه محروم الأجر مذموم الذكر . لأنه لا يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه . ولا يخفى رئاؤه على الناس فيحمد به .

وقال بعض الفصحاء : المرائي يتبهرج بزي الصلحاء وليس منهم . ويظهر بمظهر الأخيار وهو ضدهم . حتى يستعطف القلوب النافرة ويخدع العقول الواهية .

وقال بعض الأتقياء : كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله فليس من الله في شيء . ولو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس به أنه كتمه فهو من أقبح الرئاء .

وقال بعض الفضلاء : من الناس من يتلون ألواناً ويكون بوجهين ولسانين . فيأتي هؤلاء بوجه . وهؤلاء بوجه . وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً .

وقال التهامي :

ثوب الرئاء يشف عما تحته
فإذا اكتسيت به فإنك عارٍ

الصدق والكذب

قال علي بن عبيدة : الصدق ربيع القلب وحلية النفس

وثمرة المروءة وشعاع الضمير . والكذب شعار الخيانة وتحريف العلم وتسويل أضغاث النفس . وقال بعض الأدباء : الكذب جماع كل شر وأصل كل ذم . لسوء عواقبه وخبث نتائجه . لأنه ينتج النميمة . والنميمة تنتج البغضاء . والبغضاء تؤول إلى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة .

وقالت الحكماء : من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه .

وقال أحد الأدباء : الكذوب متهم وإن صدقت لهجته ووضحت حجته . وقال عمر بن الخطاب : لأن يضعني الصدق وقلما يفعل أحب إليّ من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل .

وقال بعض الفضلاء : الصدق منجيك وإن خفته . والكذب مرديك وإن أمنته .

وقال حكيم : من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق في ما يقوله . وقال آخر : نزِّه سمعك عن سماع الكذب كما تنزِّه لسانك عن التفوه به .

ذم المداهنة والتمليق

قال بعض الحكماء : الملق ذل والنفاق لؤم . وليس لمن وسم بهما ود مبرور وأثر مشكور .

وقال بعض البلغاء : التمليق خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز . وقالت الحكماء : إن الملق مصايد العقول الواهنة والمداهنة شبكة القلوب الغافلة وهما من ضروب التدليس والتمويه والتضليل والتغرير . وليس في من يكون الملق والمداهنة بعض سجاياه خير يرجى ولاصلاحٌ يؤمل .

وقال علي بن أبي طالب : أعداء الرجل قد يكونون أنفع من إخوانه . لأنهم يهدونه إلى عيوبه فيجتنبها . ويخاف شماتتهم فيضبط نعمته ويتحرز من زوالها بغاية طوقه .

وقال عليٌّ : المرآة التي ينظر الانسان فيها إلى أخلاقه هي الناس . لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم ومساوئه من أعدائه فيهم . وقال آخر : إن المتملقين يجعلون التمليق خديعة ، فإذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة أغروا أربابها وجعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم .

وقال علي : من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك ذمك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك .

وكان أبو بكر الصديق إذا مدح قال : أللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم . اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون وأغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون .

وقال أحد العقلاء : اعرف الرجل من فعله لا من كلامه

وأعرف محبته من عينه لا من لسانه . وقال أحد الفضلاء : ينبغي للرجل أن يكون مرآة أخيه تريه خيره وشره .

السعاية والغيبة والنميمة

قال بعض الفضلاء : النميمة دناءة والسعاية رداءة . وهما رأس الغدرورأس الشر . فتجنب سبلهما وتحرز من أهلهما .

وقال محمد بن السماك : تجنب القول في أخيك لخلتين . أما الواحدة فلعلك تعيبه بشيء هو فيك . وأما الأخرى فإن يكن الله عافاك مما ابتلاه به كان شكرك الله على العافية تعييراً لأخيك على البلاء .

وقال آخر من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون ومن تتبع مساوىء العباد فقد نحلهم عرضه .

القناعــة

قالت الحكماء : الغني من استغنى بالله والفقير من افتقر إلى الناس . وقال بعض الصلحاء : سرور الدنيا أن تضع بما رزقت . وغمها أن تغتم لما لم ترزق .

وقال علي : من رضي بما قسم له استراح قلبه وبدنه . وقال الفضيل : من رضي بما قسم الله له بارك له فيه .

وقال سعيد بن أبي وقاص لابنه : يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة . فإنها مال لا ينفد . وإياك والطمع فإنه فقر حاضر . وقال أكثم بن صيفي : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة . وقال بعض الحكماء : من قنع كان غنياً وإن كان مقتراً ومن لم يقنع كان فقيراً وإن كان مكثراً وقال آخر : القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر .

الحث على حفظ المال والنهي عن التبذير

قالت الحكماء : التبذير إنفاق المال في غير حق وبذله على وجه لا تقتضيه الحكمة . وقال سعيد بن جبير : التبذير هو أن تنفق الطيب في الخبيث .

وقال معاوية : ما رأيت تبذيراً قط إلاّ وإلى جنبه حق مضيع .

وقال سفيان الثوري . من كان في يده مال فليصلحه . فإنه في زمان إذ احتاج إليه فأول ما يبذل فيه دينه .

وقال آخر :

ولم أر مثل الفقر أوضع للفتى
ولم أر مثل المال أرفع للنذل
ولم أر عزاً لامرىء كعشيرة
ولم أرذ لأمثل نأي عن الأهل

التأني والعجلة والرفق والعنف

التأني هو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب .

قال أحد الحكماء : مع العجلة الندامة ومع التأني السلامة وقال آخر : من تأنى نال ما تمنى .

وقال أحد العلماء : من ركب العجل أدركه الزلل .

وقال آخر : التأني حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة . وقيل : بحسن التأني تسهل المطالب . وقال بعض العقلاء : إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأني فبماذا يدرك .

وقال آخر : العجول مخطىء وإن ملك . والمتأني مصيب وإن هلك . وقال أفلاطون الحكيم : لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده . فإن الناس لا يسألون في كم فرغ . وإنما ينظرون إلى إتقانه وجودته .

الكلام والصمت

قال بعض الحكماء : الزم الصمت إلا عن حق توضحه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها . أو نعمة تذكرها .

وقال بعض البلغاء : احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك أو يتلف نفسك . فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب .

وقال علي : احسبوا كلامكم من أعمالكم وأقلوه إلا في الخير . وقال سليمان بن عبد الملك : السكوت عما يعنيك خير من الكلام في ما يضرك . والسكوت عما لا يضرك خير من الكلام في ما لا يعنيك .

وقال الشاعر :

إحفظ لسانك أن تقول فتبتلى
إن البلاء موكل بالمنطق

المزاح والضحك

قال أحد الأدباء : على العاقل أن يتقي المزح وينزِّه نفسه عن وصمة مساوئه . فإنه مخرج إلى القطيعة . ومذهبة للهيبة والبهاء . ومدعاة لتجرو الغوغاء والسفهاء .

وقال الحجاج بن يوسف : المزاح يوغر صدر الصديق وينفر الرفيق . ويبدي السرائر ويظهر المعاير . ويجلب الشتم ويثير الحقد . وقال أحد العقلاء : الضحك كالمزاح يلزم تحاميه والنفور منه . والأحرى بالعاقل أن يبدل الضحك عند الإيناس بالتبسم .

وقال ناصح الدين :

لا تجعل الهزل دأباً فهو منقصة
والجد تعلو به بين الورى القيم
ولا يغرنك من ملك تبسمه
ما سحّت السحب إلا حين تبتسم

وقال آخر : المزاح مجلبة للبغضاء . ومسلبة للبهاء . ومقطعة للإخاء . وقال بعض الحكماء : إياك والمزاح فإنه يذهب ماء الوجه ويحط من المروءة . وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار . ولا لمن وصم به خطر ولا مقدار .

وقيل : المزاح يضع قدر الشريف ويذهب هيبة الجليل .

وقال أحد العقلاء : لا تمازح الصبيان فتهون عليهم . وقال أحد البلغاء : أحذر فلتات المزاح فسقطه الاسترسال لا تقال . وقيل : كثرة الضحك من الرُّعونة .

المشورة

قال بعض البلغاء : ينبغي للعاقل أن يضيف إلى رأيه رأي العقلاء ويجمع إلى عقله عقول الحكماء . فإن الرأي الفذ ربما زل وإن العقل الفرد ربما ضلّ .

وقال عبد الملك بن مروان : لأن أخطىء وقد استشرت أحب إلي من أن أصيب وقد استبددت برأيي من غير مشورة وقالت الحكماء : الخطأ مع الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد .

الانتصاح والاتعاظ

قال ابن عبد ربه : الموعظة ثقيلة على السمع صعبة على النفس بعيدة من القبول . لاعتراضها الشهوة ومضادتها الهوى الذي هو ربيع القلب ومراد الروح ومربع اللهو ومسرح الأماني . إلاّ من وعظه علمه وأرشده قلبه وأحكمته تجربته .

وقالت الحكماء : النصيحة مرة لا يقبلها إلاّ أولو العزم .

وفي منثور الحكم : ودك من نصحك . وقلاك من مشى في هواك .

الاعتدال

وقال بعض الأدباء : أحسن الأعمال أن تأتي بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا نقصان . فهذه الحال هي أوسط الأحوال وأعدلها لأنه لم يكن منك تقصير فتندم ولا إفراط فتعجز . وقال آخر . أكثر الخير في الأوساط .

التنزه عن استماع الكلام القبيح والقول به

قال عمر بن عتبة : نزِّه سمعك عن استماع الخنى كما تنزِّه لسانك عن الكلام به . فإن السامع شريك القائل .

آداب المتعلم وأخلاقه

قالت الحكماء : من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً .

وقال علي بن أبي طالب : لا يستنكف المرء أن يتعلم ما ليس عنده . وإذا سئل أحدكم عمّا لا يعلم فليقل لا أعلم .

الحكم والمواعظ والنصائح

قال الرشيد لمنصور بن عمار : عظني وأوجز . فقال : يا أمير المؤمنين هل أحد أحب إليك من نفسك . قال : لا . قال : إن أردت ألا تسيء إلى من تحب فافعل .

الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي من أي وعاء خرجت . . . لا يطلب الرجل حكمة إلا بحكمة عنده من بلغ أشده لاقى من العيش أشده .

خيار شبّانكم المتشبهون بشيوخكم . وشرار شيوخكم المتشبهون بشبّانكم .

أفضل البرّ الرحمة . ورأس المودة الاسترسال . ورأس العقوق مكاتمة الأدنين . ورأس العقل الإصابة بالظن .

عليكم بثلاث : جالسوا الكبراء وخالطوا الحكماء وسائلوا العلماء . . . من كرمت عليه نفسه هانت عليه دنياه . .

قيل لحكيم : من أبعد الناس سفراً . قال : من كان سفره في ابتغاء الأخ الصالح .

أكرم الشيم أرعاها للذمم .

● إذا سكن الخوف في القلب لا ينطلق اللسان بما لا يعنيه . جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من

أساء إليها . . . إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة .

● وقال إبن المقفع : الاستطالة لسان الجهالة . وكف النفس عنها بما يصدها من الزواجر أسلم . وهو بذي المروءة أجمل .

● الناس لا يقنعهم القول دون الفعل . ويرونه كالصدى إن رد صوتاً لم يجد نفعاً .

أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعاً لك فقد قيل : من أصلح نفسه أرغم أنف أعاديه . ومن أعمل جدّه بلغ كنّه أمانيه . . من عرف معابه فلا يلم من عابه .

وقد قال الشاعر :

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه
ولو بان عيب من أخيه لأبصروا
ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه
لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

ومن تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان .

لا تضيّع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك .

من كان صحيح الرغبة في ثواب الله لم يكن له مسرة إلاّ في طاعته .

لتأمن فجعاتها . . . ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه .

إرضاء الجمهور من المعجز الذي لا يدرك . . إنتهز الفرص عند إمكانها ولا تحمل نفسك هـمّ ما لم يأتك .

ما نقصت ساعة من أمسك إلا ببضعة من نفسك .

فرَّ من الشرف يتبعك الشرف . . لا تختر للمنصب إلا زاهداً فيه غير طالب له .

إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل .

قال أفلاطون : عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم وظاهرة في حسن اختيارهم .

العاقل بخشونة العيش مع العقلاء أسرُّ منه بلين العيش مع السفهاء . . أكبر الأدواء للبدن التلهف على ما لا يدرك ما تزاحمت الظنون على أمر إلاّ كشفته .

قيل لبعضهم : أسأت الظن . قال : إن الدنيا لما امتلأت من المكاره وجب على العاقل أن يملأها من الحذر .

ألهيبة خيبة والفرصة تمر مرّ السحاب .

وقال الحسن : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء .

من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه . ومن أصلح ما بينه وبين

الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن أخلص سريرته أخلص الله علانيته .

قال أكثم بن صيفي : أنت مزر بنفسك إن صحبت من هو دونك .

أدوية الدنيا تقصر عن سمومها ونسميها لا يفي بسمومها .

أفضل ما أذخرت التقوى وأجمل ما لبست الورع وأحسن ما أكسيت الحسنات .

لقد ملكت ، أيّها الملك العظيم ، بسيفك وصولة ملكك وانتظام سياستك أجسام رعيّتك ، فتحرَّ أن تملك قلوبها باحسانك إليها وإنصافك وعدلك فيها .

من ولي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغيّر لها ، ومن ولي ولاية رآها أكبر منه تغيّر لها .

والقلوب لا تبقى لوال لا يعطف إذا استُعْطِف ، ولا يعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يرحم إذا استرحم . من قلّت رحمته واشتدّت سطوته وجب مقته وكثر مبغضوه .

الأمثال السائرة

أمثال القرآن الكريم :

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .
قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان .
أليس الصبح بقريب .
ليس لها من دون الله كاشفة .
لكل نبأ مستقر .
كل نفس بما كسبت رهينة .
ما على الرسول إلا البلاغ .
هل جزاء الاحسان إلّا الاحسان .
كل حزب بما لديهم فرحون .
لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .
لا يستوي الخبيث والطيب .
لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسوءكم .
لست عليهم بمسيطر .
كل يوم هو في شأن ،
من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها .
لمثل هذا فليعمل العاملون .
كل نفس ذائقة الموت » . .

أمثال الحديث الشريف :

إنما الأعمال بالنيات .
من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .
أنزلوا الناس منازلهم .
اليد العليا خير من اليد السفلى .
مطل الغنى ظلم .
يد الله مع الجماعة .
الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق .
من غشّنا فليس منا .
سيد القوم خادمهم .
الحياء شعبة من الايمان .
كل مُيسَّرٌ لما خلق له .
الوحدة خير من جليس السوء .
الندم توبة .
لا يكون المؤمن طعّاناً ولا لعّاناً .
دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .
أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً .
الأعمال بخواتيمها .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أحكام الحج
الى بيت الله الحرام

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

أحكام الحج إلى بيت الله الحرام

الناشر : دار الفكر اللبناني
تلفون : ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس : ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



احتفظ بهذا الكتاب إلى يوم يقدّر لك فيه أن تقصد بيت الله الحرام للطواف والسعي والوقوف بعرفة وأداء سائر المناسك .

توجيهات للحاج

إذا عزم المسلم على السفر للحج أو العمرة وجب عليه أن :

١ ـ بحث أهله وأخوانه وعشيرته على التمسك بتعاليم الاسلام والتزام العمل بكتاب الله وسنة رسوله .

٢ ـ يكتب ما له من الديون وما عليه منها ، حرصا على ضمان حقه وحق الآخرين .

٣ ـ يدون وصيته ، ويستحب آن يوصي بجزء من ماله للفقراء والمساكين .

٤ ـ يبادر إلى التوبة ، ويسارع إلى رد مظالم الناس ، ويندم على ما بدر منه من تقصير في حق الله سبحانه وتعالى ، لقوله ﷺ (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحل منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم أن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه (رواه البخاري) . وفعل ذلك عند إرادة الحج ألزم حتى يتخلص من آثامه ويكون حجه مبروراً .

٥ ـ يختار طيب ماله ليستعين به على مطالب الحج ونفقاته لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلّا طيباً . روى الطبراني عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا خرج الرجل حاجاً بنفقة طيبة ووضع رجله في الغرز فنادى : لبيك اللهم لبيك : ناداه مناد من السماء : لبيك وسعديك زادك حلال ، وراحلتك حلال ، وحجك مبرور غير مأزور ، وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الغرز فنادى : لبيك اللهم لبيك ، ناداه مناد من السماء : لا لبيك ولا سعديك زادك حرام ، ونفقتك حرام ، وحجك غير مبرور) .

٦ ـ يقصد بحجه وعمرته وجه الله تعالى لأن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلّا ما كان خالصاً لوجهه الكريم . وحسب المؤمن من الحج شعوره انه في ضيافة ربه ، يعيش في رحابه ، ويلوذ بجنابه ، ويقف في جمع حاشد من المسلمين في جو كله تجرد وإيمان وصفاء وأخاء ومحبة وسلام ، والله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم : [من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً] (الاسراء/١٨ ، ١٩) .

وصح عنه ﷺ أنه قال : [قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه] رواه مسلم .

فإذا ركب الحاج دابته أو سيارته أو باخرته أو طائرته ندب أن يسمى الله تعالى ويحمده ثم يكبر ثلاثاً ويقول : (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وأنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا وأطو عنا بعده . االلهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد) .

وعليه أن يصون لسانه وعينه وجميع جوارحه عن كل ما يغضب الله تبارك وتعالى لأن النبي ﷺ قال : [من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه] متفق عليه .

أحكام الحج

تعريفه :

الحج هو قصد البيت الحرام للطواف والسعي والوقوف بعرفة وأداء سائر المناسك .

حكمه :

وهو فرض في العمر مرة على كل مسلم بالغ عاقل حر مستطيع ذكراً كان أو أنثى .

ودليل فرضيته قوله تعالى : [ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً] « آل عمران ٩٧ » وقوله النبي ﷺ : [يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا] . رواه مسلم والنسائي .

وعن إبن عمر أن النبي ﷺ قال : [بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان] . رواه البخاري ومسلم .

وعلى كل قادر على الحج أن يسارع إليه ولا يؤجله لعام آخر(١) فربما وافاه الأجل قبل الحج فيلقى الله وهو عاص له ، آثم بتركه ركناً من أركان الاسلام ، وفريضة من فرائضه .

روى عن إبن عباس أن النبي ﷺ قال : (من أراد الحج فليتعجل) . رواه أحمد وأبو داود .

أما العمرة فهي كذلك فرض عند الشافعية والحنابلة كالحج وسنة مؤكدة عند غيرها .

استدل الشافعي وإبن حنبل على فرضية العمرة بقوله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله) (البقرة/١٩٦) .

واستدل الأخرون بآية « ولله على الناس حج البيت »

(١) ذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد إلى أن الحج واجب على الفور عند الاستطاعه . وقال معظم الشافعية بوجوبه على التراخي بشرط ألا يؤجله حتى تذهب قوته بكبر سن أو مرض يفضي إلى الموت غالباً ، وأن يكون عنده عزم متجدد على الحج وإلاّ كان آثماً .

وبحديث : بني الاسلام على خمس ، وبحديث للسيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : استأذنت النبي ﷺ في الجهاد ، فقال : (جهادكن الحج) . رواه البخاري . وما يشبهه حيث لم تذكر فيها العمرة .

ولم يفرض الحج على المسلم إلاّ مرة واحدة في العمر لقوله ﷺ : (الحج مرة فمن زاد فتطوع) . رواه أحمد والنسائي وأبو داود والحاكم وصححه ، وروى مثله عند البخاري ومسلم .

إلاّ أنه يسن الإكثار منه ومن العمرة تطوعاً لقول أبي هريرة رضي الله عنه : قال النبي ﷺ : (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة) . متفق عليه .

ومنكر فرضية الحج كافر لإنكاره أمراً معلوماً من الدين بالضرورة .

متى فرض؟

فرض في السنة التاسعة من هجرة النبي ﷺ وقيل فرض في السنة السادسة من الهجرة والأول أصح لأن الرسول ﷺ لم يذهب في السنة السادسة للحج وإنما للعمرة .

حكمة مشروعيته :

في الحج يجتمع المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها في مكان واحد ، فيتشاورون فيما فيه مصلحتهم ، وفيما يعود عليهم بالنفع العام ، ويحقق لهم التقدم والرقي الذي أنشدونه .

وفيه يشاهد المسلم الأماكن المقدسة التي شهدت انتصار الاسلام في أيامه الأولى ، ويرى موطن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، ويعيش فترة من الوقت في نفس الأماكن التي عاش فيها الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين فيستيقظ شعوره الاسلامي ، ليدفعه هذا الشعور المتحفز للسير في نفس الطريق الذي سلكه هؤلاء الأبطال لرفع كلمة الله خفاقه على ربوع العالمين .

وفيه تتضح المساواة الاسلامية في أبهى صورها . وأجلى معانيها . حيث يقف المسلمون جميعاً على صعيد واحد في وقت واحد ، كلهم قد أظهر ضراعة وخشوعاً لله لا فرق بين جنس وجنس ، أو بين غني وفقير ، ولا امتياز لفرد على فرد .

ثم هو بعد هذا كله تدريب للنفس البشرية على العبادة الحقة ، والطاعة الصادقة ، لأن الحاج يترك ماله وبيته وأهله وعشيرته ، ويذهب إلى مكة لأداء مناسك قد لا يدرك عقله سر حكمتها ، ولكنه يفعلها تقرباً إلى الله عز وجل وامتثالاً لأمره ، ولذلك يرجع من حجه طاهراً من الذنوب كيوم ولدته أمه .

وأخيراً هو عامل فعّال لتوحيد كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . ومظهر رائع كريم من مظاهر وحدة العقيدة الاسلامية الغراء التي تجمعهم على الحب في الله ، وتهيىء لهم فرص التعارف والتآخي ، التي يحس فيها المؤمن بالصلة الوثيقة التي تربط بين المسلمين في كل مكان .

شروط وجوبه :

والمراد بها الشروط التي إذا وجدت وتوفرت كلها عند إنسان وجب عليه الحج ، أما إذا لم توجد كلها أو بعضها . ولو كان واحداً فإن الحج لا يكون واجباً ، ولكن لو أداه الإنسان هل يصح أو لا . .؟ هذا ما سوف يتضح أثناء ذكر شروط الوجوب وهي :

١ ـ **الاسلام** : فلا يجب الحج على غير المسلم خلافاً للمالكية ، ولو حج غير المسلم لا يصح حجه .

٢ ـ **البلوغ** : فلا يجب على صبي لأنه ليس محلاً للتكليف ، ولو حج صح حجه ، ولكن لا يسقط عنه الحج المفروض عليه عندما يبلغ مستوفياً شروط الوجوب .

٣ ـ **العقل** : فمن كان مجنوناً أو معتوهاً لا يجب عليه ولا يصح منه لو فعله .

٤ ـ **الحرية** : فالعبد المملوك لا يجب عليه الحج ، ولو حج صح حجه ولا تسقط به حجة الاسلام لو أعتق واستوفى شروط الوجوب .

٥ ـ **العلم بوجوب الحج** : بالنسبة لمن نشأ بعيداً عن بلاد الاسلام .

٦ ـ أن تجد المرأة من يسافر معها من زوج ، أو محرم أو نسوة ثقات : فإن لم تجد من يسافر معها من هؤلاء فلا يجب عليها الحج . وإن وجدت من يسافر معها ولكنه غير قادر مالياً أو إمتنع عن السفر معها إلاّ إذا تحملت هي نفقة سفره وجبت عليها نفقته إن كانت قادرة . وإذا لم تجد المرأة من يحج معها فحجت أو وجدته فحجت بدونه صحت حجتها وأثمت وليس للزوج الحق في منع زوجته من الحجة المفروضة . فإن منعها حجت بغير أذنه ورضاه .

٧ ـ الاستطاعة : وتتحقق بالآتي :

أ ـ صحة البدن حتى يستطيع القيام بأعمال الحج .

ب ـ ألاّ يكون ضعيفاً بسبب كبر سنه وشيخوخته ، بحيث لا يتحمل مشقة السفر لأعمال الحج .

جـ ـ أن تكون الطريق آمنة بحيث لا يخاف الحاج شيئاً على نفسه أو ماله .

د ـ أن يجد من النفقة الزائدة عن حوائجه الأصلية ما يكفيه ويكفي من يعولهم حتى يعود .

هـ ـ ألاّ يوجد ما يمنعه من الذهاب إلى الحج كالحبس والتعذيب وانتقام سلطان ظالم .

ومن كان غير مستطيع فحج صحت حجته .

أركان الحج :

أركان الحج أربعة : الاحرام ، والوقوف بعرفة ، وطواف الأفاضة ، والسعي بين الصفا والمروة ـ وزاد الشافعية الحلق أو التقصير ولو بإزالة ثلاث شعرات من الرأس ، وترتيب معظم الأركان الخمسة بأن يقدم الاحرام على الجميع ، والوقوف على طواف الأفاضة والحلق ، والطواف على السعي إن لم يفعل السعي عقب طواف القدوم .

أما الحنفية فللحج عندهم ركنان فقط : الوقوف بعرفة ومعظم طواف الأفاضة (أربعة أشواط) . وكلهم متفقون على أن ترك ركن من أركان الحج يبطل الحج .

مواقيت الإحرام

للإحرام ميقات زماني وميقات مكاني :

فميقاته الزماني يبدأ من أول شهر شوال إلى طلوع فجر يوم النحر وهو اليوم العاشر من ذي الحجة من نفس العام فلو أحرم بالحج قبل هذا الوقت أو بعده فإن حجه غير صحيح ولكنه يصح عمرة . فإن السنة كلها صالحة للإحرام بالعمرة . أما الحج فلا تصح أعماله إلّا في شوال وذي القعدة وذي الحجة .

أما الميقات المكاني ، فإنه يختلف باختلاف الجهات والأقاليم .

فأهل مصر والشام والمغرب كله ميقاتهم : الجحفة (رابغ) .

وميقات أهل المدينة : ذو الحليفة (أبيار علي) .

وميقات أهل العراق : ذات عرق - وهو في الشمال الشرقي من مكة .

وميقات أهل الكويت وأهل نجد قرن المنازل وهو قريب من المكان المسمى الآن بالسيل .

وميقات أهل اليمن والهند : يلملم - وهو جبل جنوبي مكة .

هذه المواقيت حددها النبي ﷺ لأهل البلاد المذكورة ولمن مرّ عليها من غيرهم ممن أراد الحج والعمرة ، ويحرم على المسلم الذي يريد الحج أو العمرة أو هما معاً أن يجاوز هذه المواقيت بدون إحرام سواء أكان سفره عن طريق البرّ أم البحر أم الجو .

أما من قصد من أهل هذه المواقيت زيارة مسجد النبي ﷺ قبل الحج والعمرة فليس عليه إحرام إلاّ عند توجهه من المدينة إلى مكة لأعمال الحج أو العمرة فيحرم حينئذ عند وصوله إلى (آبار علي) .

ومن كان داخل هذه المواقيت أو كان بمكة سواء أكان من أهلها أم من غير أهلها فميقاته الذي يحرم منه هو المكان الذي هو فيه فإن كان خارج مكة نوى من مكانه وإن كان داخل مكة نوى من منزله الذي هو فيه وعمل أعمال الاحرام .

أحكام العمرة

العمرة : هي زيارة البيت الحرام بكيفية مخصوصة .

وهي سنة مؤكدة عند المالكية والحنفية وفرض عند الشافعية ، وواجبة عند الحنابلة .

وتجوز في أي وقت من أوقات العام إلاّ أنها تكره تحريماً في يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق .

شروطها وأركانها وميقاتها

يشترط للعمرة ما يشترط للحج .

وأركانها ثلاثة : الإحرام ، والطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، وزاد الشافعية . الترتيب والحلق أو التقصير .

ومواقيت العمرة هي مواقيت الحج إلاّ بالنسبة لمن كان بمكة ، فإن ميقاته في الحج كما عرفنا من منزله عند إحرامه أما في العمرة فميقاته الحل (وهو ما عدا الحرم الذي يحرم فيه الصيد) وأفضل الحل الجعرانة ثم التنعيم .

كيفية العمرة

هي أن يحرم بها من ليس بمكة من ميقات الحج فإذا وصل مكة طاف حول البيت سبعة أشواط ثم سعى بين الصفا والمروة ثم يحلق أو يقصر وبذلك تنتهي أعمال العمرة .

أداء العمرة مع الحج

إذا أراد الحاج أداء العمرة مع الحج ، فله أن يختار أن يؤديها مقترنة بالحج ومتصلة به ويسمى « قارنا » وله أن يؤدي العمرة ثم يؤدي الحج بإحرام لكل منهما ويسمى متمتعاً وإليك التوضيح :

القرآن

القرآن هو أن ينوي بإحرامه أداء الحج والعمرة معاً مقترنين بغير فاصلٍ بينهما بتحلل من الإحرام وذلك بأن يؤدي أعمال العمرة أولاً من الطواف والسعي ثم لا يحلق أو يقصر لأنه سيظل محرماً لابساً ملابس الإحرام وملتزماً بشروطه وواجباته حتى ينتهي من أعمال الحج . فهو بذلك قرن ووصل أعمال الحج بأعمال العمرة . وهو أفضل ممن يحرم بالحج وحده أو بالعمرة وحدها أيام الحج .

التمتّع

هو أن ينوي بإحرامه العمرة وحدها ، فإذا وصل مكة أدى أعمال العمرة من الطواف والسعي ثم حلق أو قصر وبذلك يحل من الإحرام فيلبس ملابسه العادية ويتمتع بكل ما يتمتع به غير المحرم حتى يأتي يوم التروية ـ وهو اليوم الثامن من ذي الحجة ـ فيحرم بالحج من محله الذي هو فيه داخل مكة ، ثم يؤدي أعمال الحج حتى ينتهي منها .

ويجب على القارن والمتمتع بعد رمي الجمرة الأولى يوم النحر أن يذبح شاة أو يشترك هو وستة معه في ذبيحة من الإبل لا يقل عمرها عن خمس سنوات أو ذبيحة من البقر لا تقل سنها عن سنتين ، وهذه الذبيحة تذبح شكرا لله تعالى على هدايته وتوفيقه فيأكل منها ويتصدق على الفقراء والمساكين . وهذه الذبيحة واجبة على القارن والمتمتع . ومستحبة للمفرد الذي أحرم بالحج وحده وكذلك مستحبة للمعتمر الذي يؤدي العمرة وحدها .

ومن كان قارناً أو متمتعاً ولم يجد ما يشتري به ذبيحته فعليه أن يصوم ثلاثة أيام قبل يوم النحر وسبعة أيام بعد الانتهاء من أعمال الحج لتتم عشرة أيام كاملة .

الإفراد

هو أن ينوي الحج وحده فيحرم من الميقات ، فإذا دخل مكة طاف بالبيت طواف القدوم تحية للبيت الحرام ثم سعى بين الصفا والمروة إن شاء ، ثم يظل بحالة إحرامه حتى يتم جميع أعمال الحج إلى رمي جمرة العقبة ، ثم يذبح ويحلق أو يقصر وبذلك يمكنه التحلل من الإحرام والتمتع بكل ما كان محرماً عليه بسببه ما عدا الإتصال بزوجته ، فإنه لا يحل إلّا بعد الطواف بالبيت الحرام يوم النحر أو بعده ، وهو طواف الزيارة (أحد أركان الحج) . وحرمة الاتصال بالزوجة قبل طواف الافاضة تشمل القارن والمتمتع والمفرد .

والقارن والمتمتع والمفرد يشتركون في جميع أعمال الحج عدا ما سبق ذكره من الفرق بينهم .

كيفية الحج والعمرة

إذا اقترب الحاج من الميقات كان من المستحب لكل من الرجل والمرأة قبل الإحرام أن يغتسل ويتطيب ، ويقص شعر رأسه ، ويزيل شعر أبطيه وعانته ويقلم أظافره إذا أمكنه ذلك ، والمرأة تغتسل ولو كانت حائضاً أو نفساء ، فإنها تفعل جميع ما يفعل الرجل غير أنها لا تقص شعرها ولا تتخلص من ملابسها المعتادة

فإذا كان مسافراً بالطائرة ، وكان الغسل والتطيب وخلع الملابس متعذراً فيها اغتسل وتطيب ، ولبس ملابس الإحرام في بيته أو في المطار[1] . فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين إن أمكن ونوى الحج إن كان مفرداً ، أو العمرة إن كان متمتعاً أو هما معاً إن كان قارناً ، ويعتبر هذا الإحرام أول ركن من الأركان ، والمهم أن يكون الحاج عند مكان الإحرام متجرداً من الثياب الممنوعة لابساً ملابس الإحرام . وإذا كان قد نوى الإحرام قبل بلوغه الميقات فلا بد أن يكون مستحضراً النية عند بلوغه (٢) ويلبى إذا حاذى الميقات أو دنا منه ، لأن النبي ﷺ أحرم من الميقات ، وقال في حجة الوداع (لتأخذوا مناسككم) . رواه

---

(١) لابأس بوجود أثر الطيب عليه بعد الاحرام .

(٢) فإذا جاوز الميقات المختص دون نية الإحرام كان عليه أن يرجع إليه ويحرم إذا أمكنه ، وإلا نوى حيث هو ، ولزمه دم .

مسلم . أما أهل مكة ومن فيها من غير أهلها فميقاتهم مكة نفسها فيحرمون للحج من المكان الذي يوجدون فيه . وللعمرة بالخروج إلى أدنى الحل للإحرام من هناك كما سبق بيانه .

وعلى الحاج أن ينوي الدخول في النسك بقلبه ولكن يسن النطق بالنية بأن يقول مريد الحج « نويت الحج وأحرمت به لله تعالى اللهم يسره لي وتقبله مني » . ويقول مريد العمرة « نويت العمرة وأحرمت بها لله تعالى » ويقول مريد القرآن « الجمع بينهما » : « نويت الحج والعمرة وأحرمت بهما لله تعالى » .

ويسن قرن الإحرام بالتلبية ، والتلبية في ذاتها سنة (٣) ووقتها عند الجمهور من وقت الإحرام إلى رمي جمرة العقبة يوم النحر ويستحب تجديدها عند تغير الحال كصعود جبل أو انحدار من مرتفع ، أو ركوب في سيارة أو نزول منها أو لقاء صحاب وعقب كل صلاة ما دام محرماً ، ويستحب للرجل أن يرفع صوته بها . أما المرأة فتسمع نفسها ومن يليها ويكره لها أن ترفع صوتها أكثر من ذلك لقوله ﷺ : « جاءني جبريل فقال : مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها من شعائر الحج » رواه إبن ماجة وأحمد . ويصلي ويسلم على النبي عقبها ثم يدعو بعدها بما يشاء .

وصيغة التلبية هي « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبيك » .

(٣) وعند المالكية واجبة وعند أبي حنيفة شرط ويلزم على تركها حينئذ دم .

ما يستحب لدخول مكة :

يسن للمحرم أن يغتسل قبل دخول مكة . وهذا الغسل للنظافة[1] فيطلب من الحائض والنفساء . كما يستحب له أن يدخل مكة نهارا ، وأن يكون دخوله من أعلاها من بابها المعروف ـ بباب المعلى[2] ، وإذا دخلها بدأ بالمسجد الحرام بعد أن يطمئن على أمتعته ، ويتوضأ ، فإذا وصل إليه سن له تقديم رجله اليمنى ويقول « بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم ، اللهم افتح لي أبواب رحمتك . . . ويقول عندما يقع بصره على الكعبة : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وبراً ، وزد من شرفه ممن حجه أو اعتمره تعظيماً وتشريفاً وتكريماً ومهابة وبراً ، اللهم أنت السلام . فحينا ربنا بالسلام » وله بعد ذلك أن يدعو بما يشاء .

طواف القدوم

ثم يشرع بعد ذلك في طواف القدوم لأنه أول شيء يفعله الداخل تحية للبيت وهو سنة عند غير المالكية لمن نوى الحج فقط ، أما المعتمر فيجزئه طواف العمرة عند القدوم عن طواف السنة . ويطوف سبع دورات يرمل في الثلاث الأولى منها أن لم يؤذ

---

(١) المالكية يقولون بأن هذا الغسل للطواف لا للنظافة فلا تغطه الحائض والنفساء لأنهما ممنوعتان من الطواف .

(٢) وإن كان دخول مكة الآن يكون حسب ما يرسمه رجال المرور للسيارات .

أحداً ، ويمشي في الأربعة الباقية ، ويبدأ كل دوره بالحجر الأسود ويختم به جاعلاً البيت عن يساره ـ والرمل هو الجرى بخطوات ضيقة بحيث يهتز بدنه كله ـ ويستحب له أن يجعل وسط الرداء تحت منكبه الأيمن ، وطرفيه على عاتقه الأيسر . وإن شك في عدد الأشواط بني على اليقين ، فإذا شك هل طاف خمسة أشواط أو ستة مثلاً جعلها خمسة . ويستلم الحجر الأسود في كل مرة ويقبله إذا أمكنه ذلك ، وألّا أشار إليه من بعيد ، ويقول عند استلامه . أو الاشارة إليه : اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعاً لسنة نبيك سيدنا محمد ﷺ .

وللحاج أن يقول أثناء طوافه :

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله . والله أكبر ولا حول ولا قوة إلّا بالله . اللهم إني آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت فأغفر لي ما قدمت وما أخرت ـ وإذا توسط بين الركن اليماني والحجر الأسود فيقول : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وادخلنا الجنة مع الأبرار » .

ولا رمل على المرأة بل عليها أن تمشي المشية المعتادة لها أثناء طوافها بالبيت .

وبعد الطواف يصلى ركعتين يقرأ في الركعة الأولى سورة (الكافرون) وفي الثانية سورة (الإخلاص) وتجزىء عنهما

صلاة أي فرض أو نفل ، ويسن أن تكون في مقام إبراهيم إن أمكن ذلك .

شروط الطواف . .

ويشترط في صحة الطواف ما يشترط في صحة الصلاة من النية والطهارة من الحدث الأكبر والأصغر والنجاسة وستر العورة لما رواه إبن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « الطواف صلاة إلّا أن الله تعالى أحل فيه الكلام فمن تكلم فلا يتكلم إلّا بخير » رواه الترمذي والدارقطني .

ويشترط أن يكون خارج البيت ، فلو طاف في الحجر لا يصح طوافه . كما تشترط الموالاة بين الأشواط ، فلا يفصل بينها لغير ضرورة .

وينبغي للطائف أن يحذر ما أمكن إيذاء الطائفين بمزاحمتهم أو دفعهم باليد أو غير ذلك لأن هذا ينقص ثوابه وربما يذهب به كله .

وبعد الانتهاء من الطواف وصلاة ركعتين يسن له أن يأتي الملتزم (باب الكعبة) ويشرب من ماء زمزم الذي قال عنه الرسول ﷺ « خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم ، فيه طعام الطعم ، وشفاء السقم » . رواه الطبراني في الكبير وإبن حيان عن إبن عباس . ويسن أن ينوي الشارب عند شربه الشفاء ونحوه مما هو خير في الدين والدنيا ، فإن الرسول ﷺ قال : « ماء زمزم لما شرب له » . رواه أحمد بسند صحيح . وكان إبن عباس

رضي الله عنه إذا شرب من ماء زمزم يقول : « اللهم إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء » .

وبعد أن يشرب من ماء زمزم يتوجه للسعي إن كان يريد السعي .

السَعي بين الصفا والمروءة

والسعي ركن من أركان الحج والعمرة عند غير الحنفية ، أما عندهم فواجب ، ويتم بالتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط بالمشي أو الركوب . وسعي المحرم بالعمرة يكون بعد طواف العمرة وبهذا تنتهي أعمالها ، ويتحلل من إحرامه بها بالحلق أو التقصير . وسعي المحرم بالحج يكون بعد طواف الإفاضة إن لم يكن سعي بعد طواف القدوم . . وسعي المحرم بالحج والعمرة يكون بعد طواف العمرة ويغنيه عن السعي بعد طوال الإفاضة .

شروط السعي بين الصفا والمروة :

أن يكون سبعة أشواط تبدأ بالصفا وتختم بالمروة . ويعتبر السعي من الصفا إلى المروة شوطاً ، والعودة إلى الصفا شوطاً وهكذا حتى تنتهي الأشواط السبعة . وأن يكون بعد الطواف وأن يوالى[1] بين أشواطه ، فلو فرق بينها تفريقاً كثيراً استأنفه من جديد ، لكن لا تضر استراحة بين أشواطه أو أداء الصلاة مع الجماعة . ويشترط أيضاً المشي للقادر عليه[2] ، والنية ، وأن

---

(١) وعند الحنفية الموالاة سنة فلا يضر الفصل ولو طويلاً .

(٢) المشي عند الشافعية سنة .

يكون السعي في المكان المعروف الآن ، لأن النبي ﷺ سعى فيه ، وقال : « لتأخذوا مناسككم » رواه مسلم .

وفي التوسعة التي تجرى بالحرم جعل المسعى داخله بعد أن كان شارعاً على جانبيه حوانيت التجارة ، يختلط فيه الساعون بغيرهم وبالسيارات والدواب ، كما جعل من طابقين[٣] وأقيم عليه سقف يقي الساعين ما كانوا يعانونه أحياناً من لهب الشمس ، وتعد توسعة الحرم من أهم وأجل الأعمال التي قدمتها الحكومة السعودية خدمة لبيت الله وحجاجه .

سنن السعي بين الصفا والمروة

١ ـ أن يخرج إلى المسعى من باب الصفا .

٢ ـ أن يصعد على الصفا حتى يشاهد الكعبة ولا يسن الصعود على الصفاء للنساء إن كان هناك إزدحام .

٣ ـ الإتيان بالذكر الوارد عند كل منها فيقول بعد استقبال الكعبة :

« الله أكبر ، الله أكبر لله الحمد ، الله أكبر على ما هدانا ، والحمد لله على ما أولانا ، لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلاّ هو وحده لا شريك له ، أنجز وعده ،

---

(٣) السعي في الطابق الثانى جائز مثل السعي في الطابق الأول .

ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله . . ولا نعبد إلّا إيّاه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

٤ ـ أن يكون السعي بعد الطواف مباشرة ويستحب فيه قراءة القرآن وقد روي عن النبي ﷺ انه كان يقول في سعيه :
« رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلمْ أنك أنت الأعز الأكرم » .

٥ ـ أن يكون الساعي متطهراً من الحدث والخبث .

٦ ـ أن يهرول وسط الشوط بين المكانين المعروفين الآن بالميلين . (العلمين الأخضرين) .

الذهاب إلى منى

يسن للحاج أن يتوجه إلى منى وهو في طريقه لعرفات في اليوم الثامن من ذي الحجة ويسمى يوم التروية فإن كان الحاج قارناً أو مفرداً توجه إليها بإحرامه ، وإن كان متمتعاً قد تحلل من العمرة أحرم بالحج من نفس المكان الذي ينزل فيه فإن كان في مكة أحرم منها ، وإن كان خارجها أحرم من نفس المكان الذي ينزل فيه ، لأن صحابة النبي ﷺ أقاموا بالأبطح وأحرموا بالحج منه يوم التروية ، ولم يطلب منهم النبي ﷺ أن يذهبوا إلى البيت ليحرموا عنده .

ويستحب الإكثار من الدعاء والتلبية أثناء التوجه إلى منى ، ويستحب صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وفجر يوم عرفة

والمبيت بها ، وألا يخرج الحاج منها إلاّ بعد طلوع شمس يوم التاسع ، لأن النبي ﷺ فعل ذلك ، فإن ترك شيئاً من ذلك كأن ذهب إلى عرفات مباشرة ولم ينزل بمنى أو خرج من مكة ليلة التاسع فلا شيء عليه ، لأن عائشة رضي الله عنها لم تخرج من مكة يوم التروية حتى دخل الليل وذهب ثلثه .

الوقوف بعرفَة

بعد طلوع شمس اليوم التاسع من ذى الحجة يسن للحاج ـ إن أمكنه ـ أن يتوجه إلى عرفة ، ويغتسل فيها استعداداً للوقوف بعرفة ، كما يستحب له البقاء بعرنة وعدم الدخول إلى عرفة إلاّ وقت الوقوف بعد الزوال . . فإذا زالت الشمس سن للامام أو نائبه أن يخطب الناس خطبة بليغة يوضح فيها ما يشرع للحاج في هذا اليوم والذي بعده ، ويأمرهم بتقوى الله عزّ وجل ، ويحذرهم من محارمه ، وبعدها يصلون الظهر أو العصر بأذان واحد وإقامتين جمع تقديم مع القصر لفعله ﷺ ذلك . ثم يبدأ الحجاج جميعاً الوقوف بعرفة ، وكلها موقف إلاّ بطن عرنة والمراد بالوقوف الحضور بعرفات ويندب استقبال القبلة وجبل الرحمة إن كان ذلك ميسراً للحاج ، ويستحب له أن يكثر من الدعاء والضراعة لله عز وجل ، ويرفع يديه عند الدعاء حتى يرى بياض إبطيه ، وإن قرأ شيئاً من القرآن فهو حسن ، ويسن الإكثار من قول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » لما روى عن النبي ﷺ انه

قال : « خير الدعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » رواه الترمذي . . وروى الترمذي عن علي قال : كان أكثر دعاء النبي ﷺ في الموقف « اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول ، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي ، وإليك مآبي ، ولك ربي تراثي ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر ، اللهم إني أعوذ بكَ من شر ما تهب به الريح » .

« اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، والموت راحة لي من كل شر » .

« اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال » .

« اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي ، واحفظني من بين يدي ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » .

« اللهم أغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم أغفر لي جدي وهزلي ، وخطئي

وعمدي وكل ذلك عندي . اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني . أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير » .

« اللهم رب السموات ورب الأرض ، ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء خالق الحب والنوى ومنزل التوراة والانجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين ، واغنني من الفقر ، اللهم أعط نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، أعوذ بعزتك أن تضلني . لا إله إلّا أنت . أنت الحي الذي لا يموت ، والإنس والجن يموتون » .

« اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيراً ، لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمدض، يحيي ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير . سبحان الله . والحمد لله . ولا إله إلّا الله . والله أكبر . ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم اللهم صل على

محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم . وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين أنك حميد مجيد . ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

شروط الوقوف بعرفة

يشترط أن يكون الوقوف في وقته ـ ووقته من زوال شمس اليوم التاسع من ذي الحجة إلى فجر يوم النحر ويكفي الحضور من ذلك الوقت لحظة تمتد إلى غروب شمس التاسع إن وقف نهاراً . فإن جاء ليلاً أجزاه ، والأفضل أن يجمع بين جزء من الليل وجزء من النهار ، وأن يكون الحاج أهلاً للعبادة شرعاً[1] .

فإذا تحقق له الحضور بعرفة على الأساس السابق فإنه يكون قد أدى أهم ركن في الحج لقوله ﷺ : (الحج عرفة) رواه إبن ماجة وأبو داود .

وبعد هذا يبدأ في الإفاضة والنزول منها إلى المزدلفة ثم منى .

سنن الوقوف بعرفة

سنن الوقوف بعرفة كثيرة : منها أن يقف في المكان الذي وقف فيه النبي ﷺ عند الصخرات الكبار التي في أسفل جبل الرحمة أن سهل عليه ذلك ، وإلاّ أجزاه الوقوف في أي مكان من عرفة ،

---

(١) يرى الأحناف أنه إن حضر عرفة في الوقت المحدد صح حجه سواء أكان ناوياً أم لا ، عالماً بأنه في عرفة أو جاهلاً ، عاقلاً أو مجنوناً ، أو مغمى عليه أو نائماً أو يقظان .

وأما النساء فيندب لهن الجلوس في أي مكان من عرفة ، وعدم مزاحمة الرجال . ومنها أن يكون متطهراً من الحدث والخبث ، مستقبلاً القبلة ، مكثراً من الدعاء والاستغفار والتضرع ، وإظهار الضعف والافتقار ، ملحاً في الدعاء والإنابة لله تبارك وتعالى حريصاً على أكل الحلال ، متجرداً كل التجرد لله عز وجل ، راجياً منه أن يقبل حجه ويغفر له ما تقدم من زلات ، وما بدر منه من هفوات ، مخبتاً لربه سبحانه وتعالى ، متواضعاً له خاضعاً خاشعاً ، ضارعاً محاسباً نفسه عازماً على تجديد توبته وأوبته لله تعالى . لأن هذا يوم عظيم ، يرحم الله فيه عباده ، ويتفضل عليهم بعفوه وغفرانه ، وصفحه واحسانه ، ويباهي بهم ملائكته ، ويكثر فيه العتقاء من النار ، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفه) .

فينبغي للناس في هذا اليوم أن يخلصوا قلوبهم لله ويكثروا من الدعاء والتضرع ليشعروا بلذة القرب من الله تبارك وتعالى . . . فإذا أغربت الشمس ودخل الليل وهم بعرفة فقد تم الركن كما حصل الواجب بالحضور نهاراً .

التوجّه إلى المزدلفَة

تكون الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة بعد غروب الشمس لأن النبي ﷺ وقف حتى غربت الشمس وقد أفاض النبي عليه

الصلاة والسلام بالسكينة وضم زمام ناقته إليه حتى كاد رأسها يصيب طرف رحله وهو يقول : (يا أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالابضاع) يعني الإسراع . رواه البخاري ومسلم . وكان صلوات الله وسلامه عليه يسرع في سيره إذا وجد مكاناً متسعاً ليس فيه زحام . ويندب في الافاضة الإكثار من التلبية والدعاء والذكر وقراءة القرآن . فإن النبي ﷺ لم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة . فإذا وصل الحجاج إلى المزدلفة صلوا بها المغرب ثلاث ركعات ، والعشاء ركعتين قصراً جمع تأخير بأذان وإقامتين ، ويبيتون هذه الليلة بالمزدلفة ويتحقق المبيت بالوجود فيها ولو بالمرور بها في النصف الثاني من الليل[1] ، وإن كان يسن أن يظل بها حتى يصلي الفجر إلاّ إذا كان له عذر ، ثم يقف الجميع عند المشعر الحرام مستقبلين القبلة ، ومكثرين من الدعاء والاستغفار والضراعة لله تعالى إلى أن يسفر الصبح فيندفعوا إلى منى قبل طلوع الشمس .

ولا يتعين أخذ الحصى من المزدلفة واستحبه الشافعية ، وما يظنه بعض الناس من وجوب لقط حصى الجمار من المزدلفة حين وصولهم إليها واعتقاد الكثير منهم إن ذلك واجب لا دليل عليه ، ومن أي موضع التقط الحصى أجزاه ذلك ، من المزدلفة أو من غيرها ، والوارد عن الرسول التقاط سبع من حصى الجمار في

---

(١) وعند المالكية في أي وقت من الليل ، ولو منتصف الليل ، ويسير إلى منى . وعند الحنفية لا ينصرف قبل طلوع الفجر إلاّ لعذر ، وإلاّ لزمه دم .

هذا اليوم ليرمي بها جمرة العقبة . أما في الأيام الثلاثة الباقية فيلتقط كل يوم من منى إحدى وعشرين حصاة يرمى بها الجمار الثلاث . وما يفعله بعض الناس من غسل حصى الجمار لا أصل له ، بل يستحب رمي الحصى من غير غسل[٢] ، ويكره أن يكون هذا الحصى قد رمى به من قبل والممنوع هو الأخذ من مكان الرمي .

التوجه إلى منى ورمي جمرة العقبة

إذا أسفر الصبح على الحجاج وهم في المزدلفة فعليهم أن ينصرفوا إلى منى لرمي الجمار ويكثروا من التلبية في سيرهم . فإذا وصلوا وادي محسر استحب لهم الإسراع قليلاً ، فإذا وصلوا إلى منى ، قطعوا التلبية عند رميهم جمرة العقبة ويكون ذلك بسبع حصيات متعاقبات يرفع الحاج يده عند رمي كل حصاة ، ويكبر ويستحب له عند الرمي أن يجعل الكعبة عن يساره ، ومنى عن يمينه ، لأن ذلك ورد عن النبي ﷺ ، وإن رماها من الجوانب الأخرى أجزاه ذلك بشرط أن يقع الحصى في المرمى .

نحــر الهدى

بعد رمي الحصى ينحر الحاج هديه ويستحب له أن يقول عند نحره أو ذبحه « بإسم الله والله أكبر . اللهم هذا منك ولك »

---

(٢) يسن غسل حصى الجمار عند الشافعية أن شك الحاج في طهارتها .

والسنة نحر الإبل قائمة معقولة يدها اليسرى ، وذبح الغنم والبقر على جنبها الأيسر .

وبعد نحر الهدى أو ذبحه يحلق الحاج شعر رأسه أو يقصره والحلق أفضل للرجل ، لأن النبي ﷺ دعا بالمغفرة والرحمة للمحلقين ثلاث مرات وللمقصرين مرة واحدة . أما النساء فليس عليهن حلق وإنما عليهن التقصير . ويستحب عند الحلق أن يمسك الحاج بناصيته ويقول : الله أكبر (ثلاث مرات) اللهم هذه ناصيتي بيدك ، فاجعل لي بكل شعرة نوراً يوم القيامة واغفر لي ذنبي يا واسع المغفرة . ويقول أيضاً : الحمد لله على ما هدانا . والحمد لله على ما أنعم به علينا . وبعد الفراغ منه يكبر ثلاثاً نسكاً . أو يقول الحمد لله الذي قضى عني نسكي ، اللهم ائتني بكل شعرة حسنة ، وامح عني بها سيئة ، وارفع لي بها درجة واغفر لي وللمحلقين والمقصرين وجميع المسلمين . اللهم زدنا إيماناً ويقيناً . وتوفيقاً وعوناً ، أغفر لنا ولآبائنا وأمهاتنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

ويستحب لمن حلق شعره أو قصره أن يأخذ من شاربه . . ويقلم أظافره ، وقد ورد عن الرسول ﷺ انه لما حلق شعره ، قلم أظافره .

وجميع المذاهب متفقة على أن وقت ذبح هدى المتمتع يوم العيد بعد رمي جمرة العقبة وعند الشافعية رأي يجيز ذبح هدى

المتمتع قبل الحج بعد تحلله من العمرة أو عند إحرامه بالحج . ومع هذا فأصحاب هذا الرأي يقولون أن الأفضل الذبح يوم العيد للاتباع ولأنه لم يرد عن رسول الله ولا عن أصحابه وخروجاً من الخلاف .

التحلل الأول

وبعد رمي جمرة العقبة والذبح وحلق شعر الرأس أو تقصيره يباح للمحرم كل شيء حرم عليه بالإحرام إلّا النساء .

طواف الإفاضة

بعد رمي جمرة العقبة والذبح ، والحلق أو التقصير ولبس الثياب المعتادة يسن للحاج أن يتطيب ويتوجه إلى مكة ليطوف طواف الإفاضة . لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : (كنت أطيب رسول الله ﷺ لإحرامه قبل أن يحرم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت) أخرجه البخاري ومسلم ، ويسمى هذا الطواف طواف الافاضة أو الزيارة . وهو من أركان الحج . لقوله سبحانه وتعالى (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) « الحج / ٢٩ » يفعل في هذا الطواف ما سبق أن شرحناه في طواف القدوم .

وعليه أن يسعى بعده بين الصفا والمروة إن لم يكن سعى من قبل بعد طواف القدوم أما إذا كان قد سعى فإنه يطوف وليس عليه سعي ، ويتحلل التحلل الأكبر ، ويرجع به إلى حياته

العادية فيحل له ما بقي من محرمات الإحرام ، وهو مباشرة زوجته .

والذين لا ينزلون إلى مكة يوم النحر ، بل يظلون في منى حتى يرموا الجمار فإنهم يطوفون طواف الأفاضة عندما ينزلون إلى مكة ويتحللون التحلل الأكبر إن كانوا قد سعوا من قبل طواف القدوم ، وإلا سعوا وتحللوا .

ويجوز للحائض أن تطوف وهي حائض إذا خافت من التخلف عن ركبها فلها أن تنتهز فرصة الجفاف وتغتسل وتعتصب وتطوف عند الأحناف وعليها بدنة وقيل شاة واستظهر إبن تيميه في فتاواه جـ ٢٦ ص ٢٤٤ انه إذا كانت لا تستطيع التخلف فإنها تطوف ولا شيء عليها . كما يجوز لها أن تتعاطى دواء لتأجيل عادتها الشهرية من حبوب أو حقن ، حيث ثبت أن الفقهاء قديماً كانوا يبيحون للنساء تعاطي « ماء الأراك » لتأجيل الحيض .

رمي الجمار الثلاث والمبيت بمنى

يبدأ رمي الجمار الثلاث في الأيام التي تلي يوم النحر . ثلاثة أيام إذا تأخر بمنى ، ويومين إذا تعجل وتسمى أيام التشريق .

والجمار ثلاث (الصغرى) قريبة من مسجد الخيف . و(الوسطى) تبعد عن الأولى بنحو (١٥٥) متراً . و(الكبرى) وتسمى جمرة العقبة في مدخل منى تبعد عن الوسطى بنحو (١٥٥) متراً . ويبدأ الحاج بالأولى ويختم

بالثالثة . ويفعل ذلك يومين بعد العيد إن أراد الرحيل لمكة ، أو ثلاثة إذا أراد البقاء .

وعدد الحصى الذي يرميه في كل جمرة سبع حصيات . فيكون مجموع كل يوم ٢١ حصاة . ويكون الحصى مناسباً ، لا هو بالصغير جداً ، ولا هو بالكبير . على أن يتأكد أو يغلب على ظنه إصابة الجمرة ، لأن الحصى يكون كثيراً وقد يصعب عليه التأكد . وعليه أن يتحاشى إصابة الناس بما يرميه ما أمكنه ذلك . وينوي في قلبه ويعزم على أن يقهر إبليس وسوته له ، ويشتد في كراهيته لأن الرمي ذكرى لما فعله سيدنا إبراهيم عليه السلام مع الشيطان حين تعرض له وحدث ذلك ثلاث مرات في أماكن الجمرات .

يقول الامام الغزالي : « وأما رمي الجمار فليقصد به الرامي الانقياد للأمر ، إظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاضاً لمجرد الإمتثال من غير حظ للنفس والعقل في ذلك ، ثم يقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام . . » إلى أن قال : « فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لي . فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان » . . ثم يقول : « واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى . . وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان وتقصم ظهره » .

وعلى الرامي أن يعرف أنه لا يجوز له أن يفعل ما يفعله بعض الجهلة من الرمي بالأحذية حين يشتد بهم الحماس . وبعض

الأئمة يشترك أن يكون من الحجر ، وبعضهم وسع في الأمر فقال بجواز الرمي بكل ما يخرج من الأرض حجراً ، أو خزفاً أو آجراً .

وقت الرمي :

وقت الرمي لجمرة العقبة ، يبدأ عند بعض الفقهاء من منتصف ليلة العيد ولا يجزىء قبله بالإجماع . وهذا القول مناسب يحسن الأخذ به تلافياً لشدة الزحام ، وللحرارة الشديدة ، حيث يتمكن الحجاج من الرمي ، قبل أن تطلع الشمس بحرارتها . ووقته عند الأكثرين يبدأ بطلوع فجر يوم النحر ، ويندب أن يكون بعد طلوع الشمس ، ويمتد حتى فجر اليوم الثاني عند أبي حنيفة . ويكره تأخيره عن الزوال يوم العيد عند مالك .

أما الأيام الأخرى فيبدأ وقت الرمي من الزوال إلى الغروب ويكره تأخيره إلى الليل حتى الفجر ، لكنه يجزىء عند أبي حنيفة ولا يجوز تأخيره عن الغروب عند مالك وعند الشافعي وأحمد ولو تأخر عن الغروب لا يرمي ليلاً وإنما يرمي بعد زوال اليوم الثاني .

ويجوز الرمي في اليوم الثالث قبل الزوال عند الأحناف واجاز عطاء وطاووس الرمي قبل الزوال في جميع أيام التشريق ولو بدون عذر وبعض الفقهاء أجازه للعذر فقط .

حكمه : واجب عند الجميع .

المبيت بمنى :

واجب عند الجميع إلاّ على ذوي الأعذار ما عدا أبا حنيفة فسنة . ويتحقق المبيت بوجوده في منى ليالي الرمي .

الإنابة في الرمي

يجوز للمرضى وكبار السن ، والنسوة الحوامل أن يوكلوا من يرمي عنهم الجمرات كلها ، ويجوز للوكيل أن يكون وكيلاً عن عدة أشخاص ، على أن يرمي الحاج الوكيل عن نفسه أولاً ، ثم عن موكله أو موكليه عندما يرمي كل جمرة من الجمرات الثلاث . ويجوز للنائب أن يرمي عن نفسه ثم عن مستنيبيه كل جمرة من الجمار الثلاث وهو في موقف واحد . ولا يجب عليه أن يكمل رمي الجمار الثلاث عن نفسه ثم يرجع فيرمي عن مستنيبيه لعدم الدليل الموجب لذلك ولما في ذلك من المشقة والحرج . والله تعالى يقول ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ويقول الرسول ﷺ : « يسروا ولا تعسروا » .

محظورات الإحرام

إذا أحرم الإنسان بالحج ، أو العمرة فإنه يحرم عليه فعل شيء من الأشياء الآتية :

■ النكاح وعقده ومقدماته كالمداعبة والقبلة والكلام فيه .

■ ليس المخيط الذي يلبس عادة كالقميص ، والسروال والجبة والقفطان . فلو لبس إزاراً ورداء موصولين بخيط فلا شيء عليه .

■ كما يحرم عليه تغطية الرأس . . ومن لم يجد نعلاً جاز له أن يلبس أي شيء في رجليه بحيث لا يصل إلى الكعبين . وهذا بالنسبة للرجل . أما بالنسبة للمرأة فتلبس ملابسها العادية الساترة لجميع بدنها ، ما عدا وجهها وكفيها ، ولها أن تستر يديها بغير القفاز ، ووجهها أحياناً إذا احتاجت إلى ذلك .

■ التعرض لصيد البر الوحشي ، أو لشجر الحرم وحشيشه الرطب بقطع شيء منه بقصد الاتلاف . أما اليابس فلا شيء في قطعه ، وكذا الذي يزرع للانتفاع به من حبوب ، وخضروات وما يؤخذ للتداوي أو الانتفاع به في المباني وغيرها .

■ الحلق والتقصير والتطيب وتقليم الأظافر . ولا حرج في غسل الرأس والبدن بالماء والصابون الخالي من الرائحة الطيبة .

ولا بأس بالاستظلال بشيء ، أو خيمة ، أو بيت ، أو مظلة أو محمل بشرط ألاّ يحجب ذلك وجه المرأة ، ورأس الرجل لأن كشفهما واجب .

وهذه المحرمات كلها تجب فيها الفدية . ما عدا عقد النكاح . والفدية تختلف باختلاف المحرمات . وهاك بيانها .

الفديَة وأنواعها

ماذا لو ترك ركناً ؟

لو ترك الوقوف بعرفة بأن لم يصل لعرفة قبل طلوع فجر يوم النحر بوقت كاف للاحرام فلا حج له ، وعليه أن يأتي بأعمال العمرة من الطواف والسعي . ويتحلل بالحلق أو التقصير . وعليه قضاء الحج في العام القابل ، ودم كدم التمتع .

ولو ترك ركناً غير الوقوف كطواف الإفاضة مثلًا ، فيجوز له الاتيان به في أي وقت من عمره عند أبي حنيفة وأحمد . وأما عند المالكية فيمتد وقته إلى آخر ذي الحجة ، ولا دم عليه ويصبح بعد ذي الحجة مع وجوب الدم .

أما لو ترك السعي فعليه أن يؤديه ، ما دام بمكة أو قريباً منها . . وإلّا بعث هدياً لينحر في الحرم ، ولا يرجع لإعادته .

ماذا لو ترك واجباً أو فعل محظوراً ؟

لو ترك واجباً من واجبات الحج صح حجه وعليه دم . ولو فعل محظوراً من محظورات الإحرام غير الجماع ، قبل التحلل الأول صح حجه ، وعليه شاة ، أو إطعام ستة مساكين أو صيام ثلاثة أيام .

أما الجماع قبل التحلل الأول ، فإنه مفسد للحج ، وعلى

صاحبه أن يتم أعمال الحج وتلزمه بدنة ، ويجب عليه إعادة الحج في العام القابل . وعلى من قتل الصيد جزاء هو مثل ما قتل من النعم ، وفيما لا مثل له القيمة . يشتري بها طعاماً ويتصدق به ، أو يصوم يوماً عن كل مد . ويجب في قطع أو قلع شجر الحرم بقصد الاتلاف ، في الكبيرة بقرة ، وفي الصغيرة شاة ، أو يشتري بقيمة ذلك طعاماً ، يتصدق به ، أو يصوم يوماً عن كل مد ، أما اليابس فلا شيء في قطعه ، وكذلك الذي يزرع للانتفاع به من حبوب ، أو خضروات ، وما يؤخذ للتداوي ، أو الانتفاع به في المباني وغيرها .

ومن أحصر عن إتمام حج ، أو عمرة أو قران من جميع الطرق جاز له التحلل ، وذبح شاة مجزئة في الأضحية في المكان الذي أحصر فيه . فإن لم يجد شاة فعليه إخراج قيمتها طعاماً ، فإن عجز عن الإطعام صام عن كل مد يوماً .

والدم الواجب بفعل حرام ، أو ترك واجب ، لا يختص بزمان ويذبح في أي مكان من الحرم لقوله تعالى : « هدياً بالغ الكعبة » ولخبر « كل فجاج مكة منحر » . ويجب توزيعه على مساكين الحرم وفقرائه ولا يأكل الحاج مما ذبحه كفارة لخطأ إرتكبه .

طواف الوداع

سمي بهذا الإسم ، لأن الحاج بعد تمامه يودع مكةراجعاًإلى بلده ، ويسمى أيضاً طواف الصدر ، وهو طواف لا رمل فيه فإذا

اراد الحجاج الخروج من مكة ، وجب[1] عليهم أن يطوفوا بالبيت ، طواف الوداع ، ليكون هذا الطواف آخر عهدهم بالبيت الحرام ، إلاّ الحائض والنفساء ، فلا وداع عليهما لحديث إبن عباس قال : « أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلاّ أنه خفف عن الحائض » رواه البخاري ومسلم .

فإذا انتهى الحاج من توديع البيت ، مشى حتى يخرج من المسجد ولا يستحب له أن يمشي القهقري ، لعدم ورود ذلك عن النبي ﷺ ، أو أصحابه ، وقد قال ﷺ : « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » .. رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

فإذا خرج الحاج من المسجد ، سافر بعد خروجه مباشرة ، فإذا رجع إلى المسجد مرة أخرى أعاد الطواف .. ويستحب للمودع أن يدعو بالدعاء المأثور ، وهو « اللهم إني عبدك ، وإبن عبدك ، وإبن أمتك ، حملتني على ما سخرت لي من خلقك وسيرتني في بلادك حتى بلغتني بنعمتك إلى بيتك واعنتني عى إداء نسكي ، فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضا وإلاّ فارض عني قبل أن نناى عن بيتك ، هذا أو أن أنصرافي إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا بنبيك ولا راغباً عنك ولا عن بيتك اللهم فاصحبني بالعافية في بدني ، والصحة في جسمي ، والعصمة في

---

(١) طواف الوداع عند المالكية سنة .

ديني ، وأحسن منقلبي ، وارزقني طاعتك ما أبقيتني ، واجمع لي بين خيري الدنيا والآخرة ، إنك على كل شيء قدير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

أحكام متفرقــة

الحج عن الغير :

١ ـ من قدر على الحج مالياً وعجز عنه صحياً بسبب مرض مزمن لا يرجى البرء منه أو بسبب شيخوخة وكبر سن لزمه احجاج غيره عنه لأنه أيس من الحج بنفسه . . وهذا رأي الحنفية والشافعية والحنابلة ، والدليل معهم .

فعن إبن عباس أن أمرأة من خثعم قالت : يا رسول الله : إن أبي أدركته فريضة الله في الحج شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره ، قال : فحجي عنه . (رواه الجماعة) .

وقال مالك : لا يلزمه ذلك . ورجح الرأي الأول لما مر .

وإذا عوفي العاجز عن الحج واستطاع الحج عن نفسه بعد أن حج عنه غيره فإن جمهور العلماء على أن عليه الحج لأنه تبين أنه لم يكن في حالة ميئوس من تغيرها إلى أحسن . ويرى الإمام أحمد أنه لا شيء عليه وإن الإنابة أسقطت عنه حجة الفرض وهو رأي قوي .

٢ ـ من مات وعليه حجة الإسلام أو حجة كان قد نذرها وجب على وليه أن يحج عنه أو يجهز من يحج عنه من مال الميت وهذا رأي الشافعية والحنابلة والدليل معهما .

فعن إبن عباس قال : أتى النبي ﷺ رجل فقال : إن أبي مات وعليه حجة الإسلام أفأحج عنه ؟ قال : أرأيت لو أن أباك ترك ديناً عليه أقضيته عنه ؟ قال : نعم . قال : فاحجج عن أبيك . (رواه الدار قطني والنسائي وإبن ماجة والشافعي) . وقال الحنفية والمالكية لا يلزم الوارث الحج عن الميت إلّا إذا أوصي الميت بذلك فتنفذ وصيته من ثلث التركة والرأي الأول أقوى والدليل معه .

٣ ـ يشترط فيمن يحج عن غيره أن يكون قد سبق له الحج عن نفسه وذلك رأي الجمهور وهو الأصح . . فمن لم يحج عن نفسه لإهمال أو عجز عن الحج لا يجوز له أن يحج عن غيره فإن فعل لا يسقط عن الغير .

٤ ـ من نذر الحج وجب عليه الوفاء بنذره . فإن حج ولم يكن قد أدى حجة الإسلام أجزأ عن حجة الإسلام وعليه الحج عن النذر . وهذا قول الجمهور . وقيل يجزىء عن النذر ثم عليه حجة الإسلام ، وقيل يجزىء عنهما إذا نواهما .

٥ ـ من حج من مال حرام صح حجه ، وعليه إثم المال الحرام . . وقال الإمام أحمد لا يصح حجه لحديث « إن الله طيب لا يقبل إلّا طيباً » .

٦ ـ لا بأس على الحاج إذا تاجر أثناء حجه أو تكسب من حرفته وصنعته ما دامت نيته الأصلية هي الحج والتكسب تابع له .

قال إبن عباس : إن الناس في أول الحج (الإسلام) كانوا يتبايعون بمنى وعرفة وسوق ذي المجاز ومواسم الحج فخافوا البيع وهم حرم . . فأنزل الله تعالى : « ليس عليكم جناح إن تبتغوا فضلاً من ربكم » يعني في مواسم الحج . (رواه البخاري ومسلم والنسائي) . وكذلك ورد النص بالنسبة لمن يؤجر نفسه أو يؤجر ركائبه .

الحج أولاً أو الزيارة

اتفق فقهاء السلف على جواز البدء بأيهما شاء ، وعلى أفضلية البدء بالمدينة للزيارة إذا كانت في طريقه إلى مكة تيسيراً له وتخفيفاً ، وقد كان الرسول ﷺ إذا خير بين أمرين يختار أيسرهما وأهونهما ، واختلفوا فيما هو الأفضل بالنسبة لمن ليست المدينة في طريقه إلى مكة ، كأهل مصر مثلاً ، فذهب علقمة ، والأسود ، وعمرو بن ميمون إلى أفضلية البدء بالزيارة لإحراز فضيلة الإحرام من ميقات المدينة الذي أحرم منه الرسول ﷺ في حجته .

وذهب من التابعين إلى أفضلية البدء بالحج ، عبد الرحمن

إبن يزيد ، وعطاء النخعي ، ومجاهد ، واختاره أبو حنيفة وأحمد وبه أفتى الليث السمرقندي .

ومأخذ ذلك ، على ما يظهر لنا ، اعتبار الإصالة والتبعية كما صرح به النخعي ، ومجاهد ، فيما روى عنهما : « إذا أردت مكة للحج أو العمرة فاجعل كل شيء لهما تبعاً » سواء أكان الحج فرضاً أم نفلاً ، وإليه يشير حديث إبن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من حج فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي » . رواه الدار قطني ، والطبراني في الكبير والأوسط من طريق حفص بن سليمان القاري عن ليث إبن أبي سليم عن مجاهد عن إبن عمر ، وحفص قد وثقه أحمد وحديثه الآخر قال : قال رسول الله ﷺ : « من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني » .

وقال صاحب الفصول نقلاً عن صالح وأبي طالب : « وإذا حج للفرض لم يبدأ بالمدينة لأنه إذا حدث به حدث الموت كان في سبيل الحج ، فإذا كان تطوعاً بدأ بالمدينة »أ هـ . ومقتضى ما ذكر أن الخلاف إنما هو في الحج المفروض .

أما في النفل : فيبدأ بالمدينة للزيارة ، ثم يحرم من ميقاتها للنسك ، وقد نقل الاتفاق على ذلك ، ولكن قد علمت مما سبق إطلاق القول بأفضلية البدء بالنسك سواء كان فرضاً أم نفلاً .

وكذلك القول فيمن يسافر بقصد العمرة ، والزيارة ،

وليست المدينة في طريقه إلى مكة ، فالأفضل له على القول الأول البدء بالزيارة ، وعلى الثاني البدء بالعمرة كما صرح به النخعي ومجاهد .

ويظهر لنا ترجيح القول الثاني في الحج والعمرة بإشارة الأحاديث السابقة ، فيبدأ بالنسك ثم يتبع بالزيارة ، وإن رجح السمهودي الأول ، والسعيد من وفقه الله تعالى لإدائهما على أي نحو كان ، والله أعلم بالصواب .

يوميّات الحاج

ماذا تفعل إذا قصدت مكة لأداء النسك ؟

١ ـ إذا قاربت الميقات فاستعد للإحرام واغتسل إذا أمكنك وإلّا فتوضأ وألبس ملابس الإحرام وصل ركعتين .

٢ ـ إذا أردت الحج والعمرة معاً فانوهما معاً . أو الحج وحده فانو الحج . أو العمرة فقط فانو العمرة .

٣ ـ حافظ على التلبية قدر الإمكان وصيغتها موجودة في مكانها من الرسالة .

٤ ـ إذا وصلت إلى المسجد الحرام فادخله من باب السلام إذا تيسر وإلّا فادخل من أي باب كان وطف سبعة أشواط حول الكعبة (طواف القدوم) .

٥ ـ فإن هممت بالسعي فإبدأ بالصفا واختتم بالمروة سبعة أشواط .

٦ ـ عليك بالحلق أو التقصير إن كنت متمتعاً ـ أي ناوياً العمرة فقط ـ ثم اخلع ملابس الإحرام ، وإلبس ملابسك المعتادة وحينئذ يباح لك كل شيء من محظورات الإحرام ، أما إذا كنت قد نويت الحج أو الحج والعمرة معاً فلا تحلق ولا تقصر بل استمر في ملابس الإحرام حتى تتم مناسك الحج .

ماذا تفعل في اليوم الثامن من ذي الحجة ؟

يسن لك التوجه إلى منى والمبيت بها قبل ذهابك إلى عرفات إن أمكن ذلك وإلاّ فاذهب إلى عرفات مباشرة .

ماذا تفعل في اليوم التاسع من ذي الحجة .

١ ـ أحرص على أن تكون موجوداً في عرفات قبل غروب شمس اليوم التاسع على الأقل .

٢ ـ يسن أن تصلي الظهر والعصر جمع تقديم قصراً بمسجد نمرة إن أمكنك ، وبعد الغروب تترك عرفات إلى المزدلفة وتصلي بها المغرب والعشاء جمع تأخير قصراً .

ماذا تفعل في اليوم العاشر ؟ (يوم العيد) :

نكون في منى وأعمال هذا اليوم :

١ ـ رمي جمرة العقبة ووقت الرمي موضح بالرسالة في موضعه

٢ ـ إن كنت متمتعاً أو قارناً فيلزمك ذبح الهدى .

٣ ـ أحلق شعر رأسك أو قص منه بعض شعرات ، والمرأة تقص فقط ، ثم ألبس ملابسك المعتادة ولكن لا تقرب زوجتك إن كانت معك .

٤ ـ أن تيسر لك التوجه في هذا اليوم إلى مكة لتطوف طواف الإفاضة فتكون قد تحللت التحلل الثاني وبه يباح لك كل شيء من محظورات الإحرام ، وعد لتبيت في منى وإلا فامكث في منى حتى تتم أعمال الرمي ـ لاحظ أن معنى المبيت بمنى قضاء معظم الليل بها ـ وهو واجب عند غير أبي حنيفة أما عنده فسنة .

ماذا تفعل في اليوم الحادي عشر . . ؟

ترمي الجمار الثلاث بالترتيب الآتي : الجمرة الصغرى . الجمرة الوسطى . جمرة العقبة .

ماذا تفعل في اليوم الثاني عشر . . ؟

١ ـ ترمي الجمرات الثلاث كما فعلت في اليوم الحادي عشر ، ولك في هذا اليوم بعد الرمي أن تترك منى لكن قبل الغروب ، فإن غربت الشمس عليك بها فلا بد أن تبيت ، وترمي الجمرات في اليوم الثالث عشر .

٢ ـ حين تنزل إلى مكة ، يجب عليك أن تطوف طواف الإفاضة ، وتسعى إن لم تكن قد نزلت إليها ، وطفت وسعيت

يوم العيد ، وإلاّ فلا يجب عليك شيء ، وبذلك تكون قد أتممت أعمال الحج .

وإن لم تكن قد أديت عمرة من قبل ، وأردت أن تؤديها بعد الانتهاء من الحج ، فعليك بالخروج إلى أدنى الحل ، والإحرام بها من هناك .

أدب السلوك في الحج

رحلة الحج ، رحلة ربانية قدسية ، يجتمع لها حشد ضخم من المسلمين . جاءوا إليها من كل فج عميق ، يمثلون الأمة الاسلامية التي تجمعها على اختلاف ألوانها وأوطانها عقيدة واحدة ، فهم جميعاً أخوة (إنما المؤمنون أخوة) . ١ /الحجرات . ومن هنا يتأكد على الحجاج أن يمثلوا الخلق الاسلامي في اجتماعهم . وأن يطبقوا مبادىء الإسلام الذي ينتسبون إليه وإن هذا الدين يفرض عليهم أن يكونوا في جميع مواقفهم وأحوالهم ، متراحمين لا متزاحمين ، ومتعاونين لا متعادين ، ومتعارفين لا مختلفين ، فإن الحج أخلاق وسلوك قبل أن يكون حرصاً على أداء الشعائر . وإلتزام المناسك .

ومن آداب السلوك في الحج :

● الخشوع لله ، والتواضع من الناس ، فإن أعمال الحج كلها تتسم بالبساطة وترك الزينة وطرح الشارات التي تدفع النفس إلى

الغرور والتعالي على الناس ، فالتجرد من المخيط والمحيط ، يذكر المؤمنين بيوم البعث (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ٦المطففين ويلغي بينهم الفوارق ، ويعود بهم إلى أصلهم الواحد ، فلا تفاوت في الانسان ، ولا اختلاف في الأقدار ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يباهي بأهل عرفات ملائكة السماء ، فيقول : أنظروا إلى عبادي هؤلاء ، جاءني شعثاً غبراً » رواه أحمد وإبن حبان في صحيحه والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

● تدبر الآيات الواردة عن شعائر الحج والتوجيهات الكثيرة في ثناياها لتتخذ بها منهجاً تعتصم به حين تخالط الناس .

● (وأتموا الحج والعمرة لله) ١٣٦/البقرة : متى بدأ الحاج أو المعتمر في أعمال النسك فأهل بعمرة أو بحج أو بهما ، فعليه إتمام أعمالهما متوجهاً إلى الله بهما ، والعمرة كالحج في شعائرها ما عدا الوقوف بعرفة ، وهي تؤدي على مدار العام . وليست موقوتة بأشهر معلومات كالحج .

● (فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) :

الاسلام دين النظافة والنظام ولكن المسلمين ـ للأسف ـ لا يحافظون في رحلة الحج على النظام ، ولا يلتزمون بقواعد النظافة . فيضيعون وقتهم وجهدهم بفقد النظام ، وتفتك بهم الأمراض والأوبئة بالتخلي عن قواعد النظافة . . ومن محظورات

الإحرام حلق الشعر أو إزالته أو بعضه بأية صورة ، وفي حالة ما إذا كان هناك مرض يقتضي حلق الرأسِ أو كان بالشعر أذي من الهوام التي تتكون فيه حين يطول ولا يمشط ، فالاسلام دين اليسر والنظافة ، يبيح للمحرم أن يحلق شعره في مقابل فدية هي : صيام ثلاثة أيام ، أو صدقة بإطعام ستة مساكين لكل مسكين صاع من طعام ، أو ذبح شاة والتصدق بها .

● (الحج أشهر معلومات) ١٩٧/البقرة : هي شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجة ، فلا يصح الإحرام بالحج إلاّ في هذه الأشهر المعلومات .

● (فمن فرض فيهن الحج) : فمن أوجب على نفسه الحج وأحرم به ، فعليه أن يتجنب الأمور التي تنافي أدب الحج ، وعليه أن يتجرد لله تعالى ، ويتخلى عن عاداته ، وعن التمتع بنعيم الدنيا ، لأنه مقبل على الله ، قاصد لرضاه ، فعليه أن يترك النساء والتمتع بهن ، وأن يترك المعاصي والجدال مع الناس ، وأن يتزود من الأعمال الصالحة التي تقربه من الله عز وجل .

● (فلا رفث) والرفث هنا ، ذكر الجماع ودواعيه أو هو الجماع نفسه وما دونه من التعريض به ، وقيل انه العبارات البذيئة ، والرديء من الكلام ، واللغو الذي لا فائدة منه ، ولا طائل تحته .

● (ولا فسوق) والفسوق إتيان المعاصي كبرت أم صغرت ،

فهو الخروج عن طاعة الله ، ومنه قوله تعالى في حق إبليس : (كان من الجن ففسق عن أمر ربه) ٥٠/الكهف . وقيل : الفسوق هو السباب ، والتنابز بالألقاب ، وتفسيره بالمعاصي يشمل الكل .

● (ولا جدال في الحج) : الجدال : المراء ، والمناقشة الحادة ، التي تورث الخصومة ، وتزرع الأحقاد في القلوب ، فعلى الحاج أن يضبط نفسه ، ويتجنب الجدال مع رفقائه ومع الحمالين ، والعمال ، والباعة ، فالاسلام يدعو إلى السماحة والرفق في المعاملة ، والباعة ، فالاسلام يدعو إلى السماحة والرفق في المعاملة ، يقول ﷺ : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى » وفي رواية « وإذا قضى » رواه البخاري والترمذي وإبن ماجة ـ والسمح السهل السخي النفس الكريم الخلق .

● (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) : هذا أقوى حافز على فعل الخير . . إذ يكفي أن يدرك المؤمن أن الله يعلم ما يفعله من خير ويطلع عليه ، ليكون هذا دافعاً إلى إرتياد مجالات الخير ، ليراه الله فيها وهذا وحده أعظم الجزاء وميدان الخير رحب ، يشمل الصدقة على الفقير ، وعون الضعيف ، وإرشاد الضال والتوسعة للناس في ساحة الحرم وأماكن الشعائر .

● (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) التقوى وهي طاعة الله تبارك

وتعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، خير زاد للقلوب والأرواح ، وأولوا الألباب وهي العقول السليمة ، هم أول من يفقه معنى التقوى ، وهم الذين يدركون سر التوجيه إليها لما في ذلك من صلاح الدنيا والآخرة .

● (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) ١٩٨ / البقرة الأصل في رحلة الحج أن تكون بنية أداء الفريضة ، والتقرب إلى الله تعالى بأداء المناسك طلباً لما عنده سبحانه من حسن المثوبة وعظيم الأجر . . وللحاج بعد هذا أن يتكسب ويتاجر ويبيع ويشتري ، فالكسب في أيام الحج غير محظور ، والتجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية ، وقد كان الناس يتأثمون من كل عمل دنيوي أيام الحج فأعلمهم ربهم سبحانه وتعالى ، أن الكسب فضل من الله لا جناح فيه مع إخلاص العمل وصدق النية ، قال البخاري باسناده عن إبن عباس قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فتأثموا أن تتجروا في الموسم فنزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) أي في مواسم الحج . . وفي رواية عن أبي صالح مولى عمر بن الخطاب قال : قلت يا أمير المؤمنين ، كنتم تتجرون في الحج . . ؟ قال : وهل كانت معايشهم إلاّ في الحج . . ؟!

● لا تزاحم الناس في الطواف والسعي ورمي الجمرات فإن التزاحم والتدافع في هذه الأماكن تنجم عنه أخطار جسيمة ولا تحاول أن تصارع لتقبل الحجر الأسود ، بل أن استطعت أن

تستلمه وتقبله من غير جهد أو إيذاء لغيرك فافعل وإلاّ فأشر إليه من بعيد وهذا يكفي مع قولك : « بسم الله والله أكبر ، اللهم إيماناً بك ، غ وتصديقاً بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ » .

● لا تستأثر بالصلاة أو الجلوس في الأماكن الفاضلة كالروضة الشريفة بل دع لغيرك فرصة الصلاة والجلوس فيها بعض الوقت ، فمن أقوى علامات الايمان أن تحب لأخيك مثل ما تحب لنفسك وتذكر قول النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » متفق عليه .

● وسع لغيرك إذا أراد الجلوس أو الصلاة بجوارك في الحرم ولا تنهره ولا تغلظ له القول فمن أدب الإسلام التفسح في المجالس ، مجلس العلم ، أو مجلس الرأي والفكر ، أو أي اجتماع يكون مزدحماً بالناس ، وقد طبق الرسول الكريم وصحابته الأبرار هذا المبدأ تطبيقاً رائعاً دل على سماحة نفوسهم ، وإتساع مشاعرهم ، فالمشكلة ليست في الأماكن المادية ، بل في الأخلاق النفسية . والضيق ليس في مساحة الأرض . . ولكن الضيق في الصدور والأخلاق . يقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذي آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) ١١ / المجادلة .

زيارة مَسجد الرسول ﷺ

على الحاج أن يشد الرحال إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد النبي الكريم ، ولينعم بالقرب منه ، والصلاة والسلام عليه .

وزيارة المسجد النبوي سنة قبل الحج ، أو بعده لما روى الإمام البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلاّ المسجد الحرام » وقال : « لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » . رواه البخاري ومسلم .

ويستحب للزائر إذا وصل مشارف المدينة ، ورأى مبانيها أن يصلي على النبي ﷺ ، ويقول : اللهم هذا حرم نبيك فاجعله وقاية لي من النار وأماناً من العذاب ، وسوء الحساب . فإذا دخلها واطمأن على أمتعته يستحب له أن يغتسل ، ويتطيب ، ويلبس أحسن ثيابه ويتوجه إلى الحرم النبوي متواضعاً ، عليه السكينة والوقار ، فإذا بلغ المسجد ، فعل ما يفعله عند الدخول في سائر المساجد ، فقدم رجله اليمنى وقال : باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم . اللهم افتح لي أبواب رحمتك . . ثم يقصد إلى الروضة النبوية بين القبر الشريف والمنبر ، فيصلي فيها ركعتين لله تحية المسجد ، ويدعو الله فيهما بما

أحب من خيري الدنيا والآخرة . موقناً أنه في مهبط الرحمة ، وموطن الاجابة ، ورياض الجنة . قال ﷺ : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » . رواه البخاري .

ثم ينهض من صلاته ، ويتوجه إلى قبره ﷺ ، ويقف عند رأسه الشريف ، في أدب وإجلال ، ويتمثل صورته الكريمة البهية ، كأنه نائم في لحده ، يسمع كلامه . قال عليه الصلاة والسلام : « ما من أحد يسلم علي إلاّ رد الله على روحي حتى أرد عليه السلام » فيسلم عليه في صوت خفيض ، ويقول : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يا نبي الله . السلام عليك يا خيرة الله من خلقه . السلام عليك يا سيد المرسلين . وإمام المتقين أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة . ونصحت الأمة . وجاهدت في الله حق جهاده . ويصلي عليه . عليه الصلاة والسلام . ويبلغه سلام من أوصاه .

ثم يتحول قدر ذراع ، حتى يحاذي رأس أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ فيقول : السلام عليك يا خليفة رسول الله . السلام عليك يا صاحب رسول الله في الغار . السلام عليك يا رفيقه في الأسفار . السلام عليك يا أمينه في الأسرار جزاك الله عنا أفضل ما جزى إماماً عن أمة نبيه .

ثم يتحول قدر ذراع ، حتى يحاذي قبر عمر رضي الله عنه

ويقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين . السلام عليك يا مظهر الاسلام . السلام عليك يا مكسر الأصنام . جزاك الله عنا أفضل الجزاء .

ثم يستقبل القبلة ، ويدعو لنفسه ، ووالديه ، ولمن أوصاه بالدعاء ولجميع المسلمين .

ويلاحظ الزائر عند الزيارة أن يبعد عن القبر الشريف ثلاثة أذراع أو أربعة ، وألاّ يدنو أكثر من ذلك ، وألاّ يتمسّح بالحجرة الشريفة ، أو يقبلها أو يطوف بها ، أو يضع يده على القبر الشريف فإن ذلك كله لم يؤثر عن السلف الصالح .

ويسن له بعد أن يفرغ من الزيارة ، أن يخرج إلى البقيع حيث يرقد الأبطال المجاهدون ، من الأنصار والمهاجرين والصالحين ، فيزور قبورهم ، ويدعو لهم ، قال إبن عباس رضي الله عنهما : مر النبي ﷺ بقبور أهل المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال : « السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم . أنتم سلفنا ونحن بالأثر » .

ويستحب له أن يزور شهداء أحد ، وقبر سيد الشهداء حمزة ، لأن النبي ﷺ ، كان يزورهم ، ويدعو لهم .

وأن يأتي مسجد قباء ، أول مسجد بناه الرسول في المدينة ، ويصلي فيه لما في الصحيحين من حديث إبن عمر قال : « كان النبي ﷺ ، يزور مسجد قباء راكباً وماشياً ويصلي فيه

ركعتين » ، وعن سهل إبن حنيف رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة » رواه أحمد والنسائي وإبن ماجه والحاكم .

ويسن لزائر مسجد رسول الله أن يصلي الصلوات الخمس فيه مدة إقامته بالمدينة ، وأن يكثر من صلاة النافلة في الروضة الشريفة اغتناماً لما في ذلك من الأجر الجزيل وأن يكثر من الذكر والدعاء والتسبيح والثناء والتوبة والاستغفار .

وإذا أراد الزائر الرجوع إلى بلده استحب له أن يودع المسجد بصلاة ركعتين فيه ، وأن يأتي قبر رسول الله ﷺ ، فيصلي ويسلم عليه وعلى صاحبيه سائلاً الله تبارك وتعالى ، ألاّ يجعل هذا آخر عهده به ، وأن ييسر له العودة مرات ومرات .

الكعبة المشرفة

قال السهلي : كان بناؤها في الدهر خمس مرات .

الأولى : حين بناها شيث بن آدم .

والثانية : حين بناها إبراهيم على القواعد الأولى .

والثالثة : حين بنتها قريش قبل الإسلام بخمسة أعوام .

والرابعة : حين احترقت في عهد إبن الزبير بشرارة طارت من

أبي قبيس فوقعت في أستارها فاحترقت ، وقيل إن أمرأة أرادت أن تجمرها فطارت شرارة من المجمرة في أستارها فاحترقت ، فشاور إبن الزبير في هدمها من حضره فهابوا هدمها وقالوا نرى أن تصلح ما وهي منها ولا تهدم فقال : لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له إلّا بأكمل إصلاح ولا يكمل إصلاحها إلّا بهدمها ، فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم ، فأمرهم أن يزيدوا في الحفر فحركوا حجراً فيها فرأوا تحته ناراً وهولاً فأفزعهم فأمرهم أن يقروا القواعد ويبنوا من حيث انتهى الحفر وفي الخبر أنه سترها حين وصل إلى القواعد . فطاف الناس بتلك الأستار . فلما أتم بناءها ألصق بابها بالأرض . وعمل لها خلفاً أي باباً آخر من ورائها وأدخل الحجر فيها لحديث خالته عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : ألم تر قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم حين عازت بهم النفقة . ثم قال عليه الصلاة والسلام : لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وبنيتها على قواعد إبراهيم . قال إبن الزبير : فما بنا اليوم عجز عن النفقة . فبناها على مقتضى حديث عائشة .

الخامسة : عبد الملك بن مروان هدم ما بناه إبن الزبير وبناها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ ، فلما فرغ من بنائها جاءها الحارث إبن أبي ربيعة ومعه آخر فحدثاه عن عائشة بالحديث المتقدم فندم وقال : وددت أني لو تركت إبن الزبير وما تحمل من ذلك . ولما أراد أبو جعفر المنصور أن يبنيها على ما

بناها إبن الزبير، شاور في ذلك . فقال له مالك بن أنس : « أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألاّ تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلاّ غيره فتذهب هيبته من قلوب الناس » ، فصرفه عن رأيه فيه .

وبقي الأمر على بناء إبن الزبير حتى كانت سنة ١٠٤٠ هـ فتهدم بناؤها نتيجة مطر غزير ، فانعقد رأي الجماعة من علماء مكة وسادتها على عمارتها من مال الكعبة ، وأن يعرض الأمر على السلطان في الأستانة ، فأعيد بناؤها من جديد .

تجديد سقف الكعبة المشرفة :

وبينما كان العمل جارياً في توسعة المسجد الحرام ، وتجديد عمارته ظهر أن في بناء الكعبة المشرفة خللاً في السقف وتصدعاً في بعض الجدران وسرعان ما بوشر في ١٨ رجب ١٣٧٧ هـ (١٩٥٨/٢/٧ هـ) بأعمال الترميم في احتفال برعاية الملك فيصل وكان آنذاك ولياً للعهد ورئيساً لمجلس الوزراء ، واستمر العمل حتى تم تجديد سقف الكعبة المشرفة وترميم جدرانها على خير ما يرجو المسلمون ويأملون .

المسجد الحرام

أفضل المساجد على الإطلاق

أول من بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يكن له في زمن النبي ﷺ وأبي بكر جدار يحيط به وذاك أن الناس ضيقوا على

الكعبة وألصقوا دورهم بها فقال عمر ـ أن الكعبة بيت الله ولا بد للبيت من فناء وأنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم فاشترى تلك الدور وهدمها وزادها فيه واتخذ للمسجد جداراً ، وترى الكعبة المشرفة في وسطه يكسوها الديباج والحرير وتتلألأ بهاء ونوراً .

والمسجد الحرام لا يزال موضع عناية الحكام والملوك يتولونه بالتعمير والترميم والتوسيع من وقت لآخر كلما مست الحاجة إلى ذلك وللمسجد خمسة وعشرون باباً منها ستة أبواب صغيرة وسبع منارات .

ولما كانت مساحة المسجد الحرام لا تكفي لاستيعاب ذلك العدد الضخم من المسلمين وخاصة في أيام الحج رأت الحكومة العربية السعودية أن تعمل على توسيع الحرم المكي الشريف فرصدت مبلغ « ٥٠٠ » مليون ريال سعودي لهذا المشروع وقد بوشر بالعمل المطلوب في شعبان عام ١٣٧٥ هـ ووصل إلى مراحله النهائية الآن وأصبحت مساحة المسجد « ٧٥٠٠٠ » متر مربع بعد أن كانت مساحته « ٣٠٠٠٠ » متر مربع قبل التوسعة أي بزيادة قدرها « ٤٥٠٠٠ » متر مربع وبذلك يتسع الحرم لحوالي نصف مليون مصل ، وأحاط بالحرم شارع عرضه ثلاثون متراً جعل للمسعي ثمانية مداخل وثمانية أبواب وأصبح عرضها عشرين متراً وارتفاع سقفها ١٢ متراً والسير فيها في اتجاه واحد في الذهاب والإياب وكانت مساحة الجزء المكشوف للطواف حول

الكعبة ٤٥٠٠ متر مربع وأصبحت الآن بعد إتمام المشروع « ١٠٠٠٠ » متر مربع .

المسجد النبوي

إشترى الرسول بنفسه موضعه ، وشارك بنفسه مع المؤمنين في بنائه ، وقد كانت الأرض التي أقيم عليها مسجد رسول الله ﷺ لغلامين يتيمين من الأنصار وقد ألحا على رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يقبلها هبة منهما فأبى فأخذا منه ثمناً لها عشرة دنانير .

ثم أمر عليه الصلاة والسلام بتخلية الأرض وإعدادها للبناء وجعل ينقل الحجارة واللبن بنفسه ويشارك المؤمنين في البناء وهو يقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة
فاغفر للأنصار والمهاجرة

وبني المسجد من اللبن ، وجعلت قبلته إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب وكانت عمده من الجذوع وسقفه من الجريد واتساعه ٧٠×٦٠ ذراعاً أو يزيد ، وكانت بيوت رسول الله من حوله ، وكان لكل بيت حجرة من أكسية من شعر مربوط في خشب عرعر ، ثم تغيرت القبلة ، وبقي حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة .

ولم يزد فيه أبو بكر رضي الله عنه شيئاً . أما عمر رضي الله عنه فقد زاد فيه وبناه على بنائه ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً وجعل له ستة أبواب ، فلما كان عثمان رضي الله عنه زاد في المسجد زيادة كبيرة حيث جعل طوله ١٦٠ ذراعاً وعرضه مائة وخمسين ، وجعل له ٦ أبواب ، وجعل عمده من الحجارة المنقوشة وجداره منها ومن الجير .

وفي زمن عبد الملك بن مروان ألحقت أبيات نساء رسول الله وحجره بالمسجد فلما تولى الوليد بن عبد الملك جعل طوله ٢٠٠ ذراع وعرضه في مقدمة ٢٠٠ وفي مؤخره ١٨٠ ، ثم زاد فيه المهدي بعد ذلك مائة ذراع من جهة الشام فقط دون الجهات الثلاث . .

وما زالت توسعات الخلفاء وعنايتهم بمسجد رسول الله ﷺ تتوالى حتى كان الملك عبد العزيز آل سعود ، فوسع فيه كثيراً ، وأقام في الجهة الغربية مخازن ومباني سكنية يستغل ريعها لصيانة المسجد ، وقد شملت مساحته الكلية على أثر هذه التوسعة ١٦٣٢٦ متراً ، وضم الجزء الجديد ٤٤ نافذة موزعة على الجانبين ، الشرقي والغربي بطول ١٢٨ متراً لكل منهما ، وعلى الجانب الشمالي بطول ٩١ متراً ، وأقيم ضمن هذه التوسعة أيضاً ٢٣٢ عموداً مستديراً ومئذنتان جديدتان ، ارتفاع كل منهما ٧٥ متراً ، وعمق أساسها ١٧ متراً وقد تكلفت هذه التوسعة نيفاً وخمسين مليون ريال سعودي .

معالم تاريخية

زمزم :

بئر زمزم تقع جنوبي مقام إبراهيم ، وهي بئر قديمة العهد ترجع إلى زمن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ويروى أن هاجر لما نزلت بولدها إسماعيل في مكان البيت وظمىء طلبت له الماء ، فلم تجده ، فجاء جبريل عليه السلام وبحث في الأرض بعقبه ، فنبع الماء على وجه الأرض ، فكان ذلك نشأة زمزم ، وأدارت هاجر عليه حوضاً خيفة أن يفوتها الماء قبل أن تملأ قربتها وظلت المياه تنبعث منها حتى درس موضعها ، ولما كان زمن عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ أرى في المنام مكان زمزم فاستبانها وحفرها قبل مولده ﷺ .

وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرة ، وفي صحيح إبن حبان من حديث إبن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : « خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم » وذكر البخاري في صحيحه أنه لما شق صدر النبي ﷺ غسل بماء زمزم ، وقال العلامة إبن القيم في كتابه (زاد المعاد) في باب الطب : ماء زمزم سيد المياه وأشرفها وأجلها قدراً ، وأحبها إلى النفوس وأعلاها ثمناً عند الناس ، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال لأبي ذر وقد أقام بين الكعبة وأستارها أربعين ما بين يوم وليلة

وليس له طعام غيرها ، فقال النبي ﷺ : « انها طعام طعم » وزاد غير مسلم بأسناده « وشفاء من كل سقم » . .

جبل حراء :

يقع في شمال مكة على بعد خمسة كيلومترات منها وعلى يسار الذاهب إلى عرفات ويرتفع عن الأرض التي يقع عليها بنحو (٢٠٠) متر يشرف على كل ما حوله من مرتفعات وهضاب وأودية وقد اختاره النبي الكريم ليتعبد فيه قبل أن يبعثه الله نبياً ورسولاً ، وفيه نزل جبريل على الرسول الكريم بالآيات الأولى من سورة العلق .

وغار حراء فجوة ضيقة سعتها مرقد ثلاثة متجاورين وأما علوه فقامة رجل وفي نهايته صدع ترى منه الأرض والجبال إلى مكة .

دار الأرقم :

صاحبها الأرقم بن عبد مناف بن أسد المخزومي صحابي لم يسبقه إلى الإسلام غير ستة من الصحابة ، وفي داره هذه كان رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام سراً ، وفيها أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . وتقع قرب الصفا . .

منى :

قرية على مسافة سبعة كيلو مترات من مكة فيها منازل ومبان لا تؤجر إلاّ في أيام الحج ويقصدها الحجاج عند الفجر من اليوم

الثامن من ذي الحجة فيمكثون فيها إلى طلوع شمس اليوم التالي حيث يقصدون عرفة : وإليها يوفض الحجاج من عرفة بعد غروب شمس اليوم التاسع حيث يمكثون بها يوم العيد الأكبر وأيام التشريق ، ويرمون الجمرات وذلك بعد مبيتهم بالمزدلفة ليلة العاشر ، وذهب البعض إلى أن كبش الفداء الذي افتدى به إبراهيم ولده إسماعيل كان على منى على الجبل الواقع إلى يسار الذاهب إلى عرفات ، وأقيم على هذه البقعة مسجد يعرف باسم (مسجد الكبش) وفيها مسجد البيعة حيث بايع أهل المدينة الرسول عليه السلام . وفيها مسجد الخيف . .

جبل ثور :

أحد الجبال الكثيرة التي تحيط بمكة وارتفاعه عما حواليه يزيد عن ٥٠٠ متر ، يقع جنوبي مكة وعلى مسافة ستة أميال منها ، وقد لجأ إلى الغار المجاور لقمته الرسول الكريم ومعه الصديق أبو بكر مدة ثلاثة أيام وذلك لما أذن الله لنبيه في الهجرة من مكة إلى المدينة . وعبثاً حاول الباحثون من فتيان قريش العثور عليه وعلى رفيقه . ولهذا يعد هذا الغار من الأمكنة الخالدة في التاريخ وفيه يقول الله عز وجل « ألا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » .

عرفات :

يقع على مسافة ٢٥ ك .م إلى الجنوب الشرقي من مكة ويرتفع عن سطح البحر بـ (٧٥٠) قدماً ويقف عنده الحاج في التاسع من ذي الحجة ليقوم بأهم منسك من مناسك الحج ، وفي الحديث « الحج عرفة » وفي شماله يقع جبل الرحمة الذي وقف عليه الرسول ﷺ يخطب المسلمين يوم حجة الوداع في العام العاشر الهجري مبيناً لهم أمور دينهم ، وفي هذا الموقف نزل على الرسول ﷺ « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

مقبرة المعلاة :

ويسميها المكيون « جنة المعلاة » وتقع في الشمال الشرقي من مكة وهي مقبرة المكيين منذ العصر الجاهلي إلى اليوم وتضم قبور بني هاشم من أجداد الرسول وأعمامه وقبور بعض الصحابة والتابعين ففيها قبور جدي الرسول عبد مناف وعبد المطلب وعمه أبي طالب وقبر زوجته خديجة بنت خويلد وقبر عبد الله بن الزبير ، وأمه أسماء بنت أبي بكر وغيرهم كثيرون من اعلام الاسلام من الصحابة والتابعين وكبار العلماء والصالحين . .

وقبور المعلاة مسواة بالأرض وتسمى أيضاً مقبرة الحجون نسبة إلى جبل الحجون المشرف عليها .

مساجد المدينة :

في المدينة عدة مساجد أثرية مثل مسجد المصلي أو مسجد الغمامة ، ويقوم على المكان الذي كان رسول الله يصلي فيه صلاة العيدين ، ومسجد الفتح الواقع شمال البلدة الغربي على قطعة من جبل سلع ويقع حيث كان الخندق .

مسجد قباء :

يقع في الجنوب الغربي للمدينة وشكله مربع وضلعه ٤٠ متراً وعدد أساطينه ٢٩ وفيه محراب ومنبر رخامي عتيق كان الأشرف قايتباي أهداه للمسجد النبوي ليوضع في مكان المنبر المحروق وذلك سنة ٨٨٨ هـ وبعد أن بعث السلطان مراد العثماني بالمنبر الحالي إلى المسجد النبوي نقل هذا المنبر إلى مسجد قباء .

وللمسجد مئذنة وفيه رحبة فيها قبة يقال إن بها مبرك ناقة النبي ﷺ وفي الرحبة بئر وبجدار المسجد القبلي في شرقيه محراب يقال له (طاقة الكشف) .

ومما يلفت النظر من آثار هذا المسجد الحجر المنقوش بالخط الكوفي القديم فإنه ناطق بعمارة المسجد من قبل أحد الأشراف عام ٤٣٥ هـ وهو أول مسجد أسس في المدينة وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعمل فيه بنفسه ثم جدده عثمان بن عفان وزاد فيه .

ومن بعده عمر بن عبد العزيز الذي بالغ في تنميقه وتوسعته وهو أول من عمل له مئذنة وجعل له رحبة وأروقة .

وفي سنة ٤٣٥ هـ عمره أبو يعلى الحسيني كما ينطق به الحجر الأثري الموضوع على المحراب المعروف بطاقة الكشف . .

وفي عام ٥٥٥ هـ جدده جمال الدين الأصفهاني ثم جدد عام ٦٧١ هـ ، ٧٣٢ هـ ، ٨٤٠ هـ ، ٨٨١ هـ ، وفي زمن الدولة العثمانية عمر عدة مرات آخرها عمارات حدثت في عهد السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤٥ وإبنه السلطان عبد المجيد . .

مسجد القبلتين :

هو مسجد صغير أقيم على حافة وادي العقيق للشمال الغربي من المدينة ، وفيه قبلتان : الأولى منهما متجهة للشمال نحو بيت المقدس ، والثانية إلى الجنوب وتتجه نحو مكة .

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : صليت مع النبي ﷺ إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً حتى نزلت الآية التي في البقرة « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ونزلت بعد ما صلى النبي فانطلق رجل من القوم فمر بناس من الأنصار وهم يصلون فحدثهم بالحديث فولوا وجوههم قبل البيت . رواه مسلم .

وتقول الروايات أنهم كانوا يصلون في هذا المسجد . .

دار أبي أيوب الأنصاري :

ومن الدور الأثرية في المدينة المنورة دار أبي أيوب الأنصاري ، وقد كانت منزل رسول الله أول ما بلغ المدينة في هجرته من مكة فأقام فيها شهوره الأولى وتقع شرقي المسجد النبوي من ناحيته الجنوبية .

ودار عثمان بن عفان التي استشهد فيها وتجاور دار أبي أيوب وفيها اليوم قبر أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبي وقبر والد صلاح الدين الذي دفن مع أخيه .

ودار عبد الله بن عمر بن الخطاب ودار أبي بكر ودار خالد بن الوليد وكانت هذه الدور كلها تقع حول المسجد النبوي .

بــــدر :

قرية إلى الجنوب الغربي من المدينه تبعد عنها مسافة ١٥٦ كيلومتر وهي ملتقى طرق القوافل إلى الشام ، وكان يقام فيها سوق كل عام . .

وعندما نشبت أول معركة بين المسلمين وبين مشركي مكة في السابع عشر من شهر رمضان للعام الثاني من الهجرة وامتن الله فيها على المؤمنين بالنصر العظيم فقال سبحانه « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة . . » .

وعلى مسيرة ميل من جنوب القرية توجد قبور المسلمين الذين استشهدوا في هذه المعركة .

أحد :

جبل صخري ، على بعد أربعة كيلومترات من المدينة المنورة وطوله من الشرق إلى الغرب ٦ آلاف متر ، وفيه رؤوس يخالها الناظر جبالاً مستقلة ، ويعلو عن سطح البحر (١٢٠٠) متر وحدثت على مقربة من سفوحه الجنوبية غزوة أحد ، وفيه يقول رسول الله ﷺ أحد جبل يحبنا ونحبه . .

وفي سفحه قبر أسد الله حمزة بن عبد المطلب عم الرسول الذي استشهد في هذه الغزوة وعلى مقربة منه مقابر الصحابة رضي الله عنهم الذين استشهدوا في هذه المعركة .

البقيع .

على بضع مئات من الأمتار من مسجد الرسول ﷺ يقع البقيع ، هذا الموضوع الذي يضم رفات أكثر من عشرة آلاف من كبار الصحابة الذين ملأت أعمالهم صحائف التاريخ . وهو منبسط فسيح تدور حول قيعانه حواجز من الإسمنت يمشي عليها الزائرون كيلا يدوسوا القبور ، وله سور يدخل إليه الزائر من باب واحد .

وهذه الروضة تضم فريقاً من آل بيت النبوة وشهداء أحد وبعضاً من شهداء بدر الذين جرحوا في المعركة ووافاهم الأجل في المدينة . .

وأول من دفن في البقيع هو الزاهد عثمان بن مظعون صاحب النبي ، ودفن به أيضاً بنات النبي وولده الصغير إبراهيم وزوجاته عدا خديجة . وعثمان بن عفان رضي الله عنه وحليمة السعدية مرضعة الرسول الكريم ، وجعفر الصادق ومالك بن أنس ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص ، والعباس بن عبد المطلب ، وسعد بن معاذ ، وأبي سعيد الخدري هذا إلى كثير من الصحابة . .

وقد زار الرسول البقيع فقد كان يجيء إليه كلما مات صاحب من أصحابه يصلي عليه ويقف حتى يواري جثمانه التراب وكان يزوره وحده أحياناً ومع أصحاب له أحياناً أخرى . .

عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ كلما كان ليلتها يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ما توعدون غداً مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم أغفر لأهل بقيع الغرقد . رواه مسلم . .

أحكام الأضحية

تعريف الأضحية :

هي كل ما يذبح من الإبل والبقر والغنم تقرباً إلى الله تعالى في أيام عيد الأضحى . .

حكم الأضحية :

أ) عند الحنفية : واجبة على الشخص الذي يملك نصاب الزكاة أي يجب عليه فعلها وإن لم يفعلها كان آثماً .

ب) وعند الأئمة الثلاثة : سنة .

وشرعت في السنة الثانية من الهجرة .

دليل مشروعيتها :

ثبتت شرعيتها بالكتاب والسنة والإجماع .

ففي الكتاب : قوله تعالى : « فصل لربك وانحر »[1] أي صل صلاة عيد الأضحى وانحر الأضحية .

وفي السنة « ضحى النبي ﷺ بكبشين أملحين[2] أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما[3] » رواه مسلم .

كما أجمع المسلمون على مشروعيتها تقرباً إلى الله تعالى . .

الحكمة في مشروعيتها :

التوسعة على الفقراء والمساكين ، وتذكير المسلمين بالذبح

---

(١) سورة الكوثر .

(٢) الأملح : الأبيض الخالص . والأقرن : الذي له قرنان معتدلان .

(٣) جانب عنقها .

العظيم الذي فدى به إسماعيل عليه السلام « وفديناه بذبح عظيم) . .

فضلــها :

ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها ما روى عن الحسين إبن علي قال : « قال رسول الله ﷺ من ضحى طيبة بها نفسه ، محتسباً لأضحيته كانت له حجاباً من النار) » . .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ قال : « ما عمل إبن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من هراقة الدم وأنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها وأن الدم ليقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفساً » رواه إبن ماجة والترمذي . .

شروطها :

شروط وجوبها عند الحنيفة ، القدرة ـ بأن يملك نصاب الزكاة . . وعند من يرى سنيتها يشترط القدرة كذلك ولكن يفسرون القدرة بإمكان الحصول على ثمنها ولو ديناً عند الحنابلة . . وقال الشافعية : إن القادر هو الذي يملك ثمنها زائداً عن حاجته وحاجة من يعول يوم العيد وأيام التشريق ، كما يشترطون الحرية فلا تسن للعبد وزاد بعض الأئمة أن يكون مقيماً وزاد بعضهم كذلك ألاّ يكون حاجاً .

الأنواع التي تصح منها الأضحية ، وسنها ، وما يجزي منها :

تصح من الإبل والبقر والغنم الذكر منها والأنثى بإتفاق المذاهب الأربعة . .

ولكن أيها أفضل . . ؟

يرى بعض المذاهب : أن الأفضل الإبل ثم البقر ثم الغنم . .

ويرى البعض الآخر : أن الضأن أفضل ، ولكل دليله ، والأمر في رأينا يرجع كذلك إلى مصلحة الفقراء وإلى المتيسر للمضحي ويجزيء من الضأن ما أتم الحول ، وقيل : ثمانية أشهر ، وقيل : ستة أشهر ، ومن المعز ما دخل في الثانية ، ومن الإبل ما دخل في السادسة ، ومن البقر ما دخل في الثالثة .

وتصح بالجماء : وهي المخلوقة بدون قرن ، والبتراء : وهي المخلوقة بدون ذنب والخصى : وهو مقطوع الانثيين ولا تجزيء العوراء البين عورها ، ولا العرجاء البين عرجها ، ولا العجفاء التي لا شحم لها ، ولا المريضة البين مرضها ، والقاعدة العامة في هذا ألا تكون معيبة بعيب يعوقها عن السعي للأكل أو ينقص لحمها وشحمها . يقول الله تعالى : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » .

ما يجزىء من الأضحية عن الشخص :

تجزىء الشاة عن واحد ، والواحد من الإبل والبقر عن سبعة « سواء أرادوا جميعهم الأضحية أو أراد بعضهم اللحم » كما تجزىء الشاة عن رب الأسرة وعمن تلزمه نفقته من زوجته وعياله لحديث أبي أيوب « كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته فيأكلون ويطعمون . . » رواه إبن ماجة والترمذي .

هذا وإن الشاة للواحد أفضل من سبع بقرة أو بدنة (واحدة من الإبل) . .

وقتها :

أول وقتها بعد صلاة العيد أو قدرها لمن لم يصل العيد ، وهذا باتفاق الجميع ، وذلك تقول رسول الله ﷺ « أول ما نبدأ به في يومنا هذا ـ عيد الأضحى ـ أن نصلي ثم نرجع فننحر من فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل ذلك ، فإنما هو لحم قدمه لأهله ، ليس من النسك في شيء » .

وينتهي وقت الذبح عند الشافعية إلى غروب الثالث من أيام التشريق أي الرابع من أيام النحر ، وعند غيره من الأئمة بانتهاء اليوم الثاني من أيام التشريق أي الثالث من أيام النحر وهذا هو المشهور من الأقوال . .

كيفية الذبح :

من السنة نحر الإبل قائمة معقولة يدها اليسرى فيطعنها بالحربة (السكين) في الوهدة التي بين أصل الصدر والعنق ، وتذبح البقر والغنم على جنبها الأيسر موجهة إلى القبلة ، ويستحب أن يعرض عليها الماء قبل الذبح ، وأن يحد الذابح شفرته ثم يقول قبل تحريك يده« لأوجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من[1] المسلمين ، اللهم تقبل مني كما تقبلت من إبراهيم خليلك ومحمد حبيبك ثم يقول عند الذبح : بسم الله والله أكبر اللهم أن هذا منك وإليك فتقبل من عبدك القائم بين يديك » . .

ويسن أن يذبح المضحي أضحيته بيده ويجوز أن يوكل بالذبح من عرف بذمته وأمانته . .

كيف توزع الأضحية ؟

من السنة أكل ثلثها وإهداء ثلثها والتصدق بثلثها وذلك قوله تعالى : « فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر » (الحج/٢٦) . .

ويستحب أن يتصدق بأفضلها ، ويهدي الوسط ، ويأكل الأقل . .

---

(١) استبدل اللفظ (بمن) ليناسب صيغة الدعاء فقط

بعض أحكام تتعلق بالأضحية :

١ ـ إذا عينت الأضحية فلا يجوز بيعها ولا هبتها ، إلّا أن يبدلها بخير منها . .

٢ ـ للمضحي أن يركب الأضحية عند الحاجة ما لم يضر ذلك بها . .

٣ ـ أن ولدت الأضحية ذبح ولدها معها ، ولا يشرب من لبنها إلّا ما فضل عن ولدها .

٤ ـ لا مانع من جز وبرها وصوفها ويتصدق به إن كان أنفع لها . .

٥ ـ لا يعطي الجزار شيئاً منها .

٦ ـ للمضحي أن ينتفع بجلدها ولا يبيعه وإن كان الأفضل أن يتصدق به .

٧ ـ إذا أوصي رجل ورثته بأن يضحوا عنه من ماله . فإنكانت الأضحية من ريع وقف ونص عليه في صرفه لذبح أضحية وجب عليهم ذلك ، وتأخذ هذه الأضحية حكم الأضحية المنذورة .

أما إن أوصى بذبح أضحية من مال له وليس موقوفاً فعلى الورثة التنفيذ ما دام في حدود الثلث . . وتأخذ هذه الأضحية حكم الأضحية المنذورة أيضاً . .

أما إن أوصى أولاده ولم يترك مالاً . . فمن البر بالوالدين الوفاء بهذه الوصية . . وبهذا تكون الأضحية تطوعاً وتقسم لثلاثاً . .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠١

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أدعية وابتهالات

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

أدعية وابتهالات

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

صدق الله العظيم

الدّعاء وآدابهُ

قال الله تعالى : « وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فإنِّي قَرِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » .

وقوله تعالى : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذَا دَعَانِ » أي أقبل عبادة من عبدني ؛ فالدعاء بمعنى العبادة ، والإجابة بمعنى القبول .

وقال قوم من خيرة الفضلاء ، إن الله تعالى يجيب كل الدعاء ؛ فإما أن يعجل الإجابة في الدنيا ، وإما أن يكفر عن الداعي ، وإما أن يدخر له في الآخرة ؛ يدل على ذلك قول رسول الله ﷺ : « مَا من مسلم يدعو بدعوة ليست فيها إثْمٌ ، ولا قطيعة رحِم ؛ إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث . إمَّا أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدَّخر له ثوابها ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها » .

شروط الدعاء

إجابة الدعاء لا بد لها من شروط :

فشرط الداعي : أن يكون موقناً بأنه لا قادر إلا الله تعالى ، وأن الوسائط في قبضته ، ومسخرة بتسخيره . وأن يكون دعاءه بنية وحضور قلب ؛ فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه . وأن يكون متجنباً لأكل الحرام ، وألا يمل من الدعاء .

وشرط المدعو به : أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعا ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام : « مَالَمْ يَدْعُ بِإثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ » ويدخل في الإثم : كل ما يؤثم به من الذنوب . ويدخل في الرحم : جميع حقوق المسلمين ومظالمهم . قال ابن عطاء الله : إن للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتاً ؛ فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء ، وإن وافق أسبابه نجح ، وإن وافق مواقيته فاز ؛ وأركانه : حضور القلب والخشوع ، وأجنحته : الصدق ، وأسبابه : الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومواقيته : لأسحار .

وشرط الدعاء : أن يكون سليما من الخطأ والمحن قال بعضهم :

يُنَـادِي رَبَّـهُ بِـالَّلحْنِ لَـيْثٌ
كَـذَاكَ إِذاَ دَعَـاهُ لاَ يُـجَابُ

آداب الدعاء

أن يكون الداعي مستقبل القبلة رافعاً يديه ؛ لما روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ رَبَّكُمْ حَيِي كَرِيمٌ : يَسْتَحْيِ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً ».

وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء ؛ لما روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه .

وألا يرفع بصره إلى السماء ؛ لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِ أَبْصَارِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ عِنْدَ الدُّعَاءِ ، أَوْ لَيَخْطَفَنَّ اللهُ أَبْصَارَهُمْ ».

وأن يخفض الداعي صوته بالدعاء ؛ لقوله تعالى « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ».

وعن أبي عبد الرحمن الهمذاني ؛ قال : صليت مع أبي اسحق الغداة فسمع رجلا يجهر في دعائه ؛ فقال له : كن كزكريا إذ نادى ربه نداء خفيا .

وينبغي للداعي ألا يتكلف ، وأن يأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع ؛ لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إياكم والسجع في الدعاء ؛ بحسب احدكم أن يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ

وَمَا قَرَّبَ إليها مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ ، وأعُوذُ بِكَ مِنَ النار وَمَا قَرَّبَ إلَيْها مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ » .

وقيل : ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ، ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق .

وكانوا لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها ؛ كما في آخر سورة البقرة . وهو قوله تعالى « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ».

وعن سفيان بن عيينة : لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه ؛ فقد أجاب الله تعالى دعاء شر الخلق إبليس ؛ إذ قال : « رَبَّ أنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » فأجابه تعالى : « إنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ».

استفتاح الدعاء :

عن سلمة بن الأكوع قال : ما سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا قال « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأعْلَى الوَهَّاب » .

وعن أبي سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة ؛ فليبدأ بالصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ؛

وينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء ، وأن يكون على رجاء من الإجابة ، ولا يقنط من رحمة الله تعالى لأنه يدعو كريماً !

أوقات الدعاء

وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الاجابة : وذلك وقت السحر ، ووقت الفطر في الصيام، وما بين الأذان والإقامة ، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين في الجمعة ، وعند نزول الغيث ، وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وفي الثلث الأخير من الليل ؛ لما جاء في الحديث « إنَّ في اللَّيْلِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهاَ عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ شَيْئاً إلَّا أعْطَاهُ » وفي حالة السجود ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام « أقْرَبُ ماَ يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّه وَهُوَ ساَجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعاَءَ » وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء ، وأوقات الاضطرار ، وحالة السفر والمرض ؛ وجميع ذلك جاءت به الأخبار والآثار .

عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه : دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في مسجد الفتح ثلاثة أيام : يوم الاثنين ويوم الثلاثاء واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين ؛ فعرفت السرور في وجهه . قال جابر : ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة .

ما جاء في الدعاء

وفي بعض الكتب المنزلة « يا عبدي إذا سألت فاسألني فإني غني ، وإذا طلبت النصرة فاطلبها مني فإني قوي ، وإذا أفشيت سرك فأفشه إليّ فإني وفيّ وإذا أقرضت فأقرضني فإني مليّ ، وإذا دعوت فادعني فإني حفي » .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى سَماءِ الدُّنْيَا ـ حِينَ يَبْقى ثُلُث اللَّيلِ الأَخِير ـ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُني فأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُني فأَغْفِرَ لَهُ » .

وقال وهب بن منبه : بلغني أن موسى عليه السلام مر برجل قائم يبكي ويتضرع طويلاً ؛ فقال موسى : يا رب أما تستجيب لعبدك ؟! فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ، ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجيب له . قال موسى : يا رب لم ذلك ؟ قال : لأن في بطنه الحرام .

ومر إبراهيم بن أدهم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا : يا أبا إسحق ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء :

الأول أنكم عرفتم الله تعالى فلم تؤدوا حقه .

الثاني : زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم تركتم سنته .

الثالث : قرأتم القرآن ولم تعملوا به .
الرابع : أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها .
الخامس : قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه .
السادس : قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها .
السابع : قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها .
الثامن : قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له .
التاسع : انتبهتم من نومكم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم .
العاشر : دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .

وكان يحيي بن معاذ يقول : من أقر لله بإساءته ، جاد الله عليه بمغفرته ، ومن لم يمن على الله بطاعته ، أوصله إلى جنته ، ومن أخلص لله في دعوته ، منَّ الله عليه بإجابته .

وقال علي رضي الله تعالى عنه : ارفعوا أفواج البلايا بالدعاء .

أدعية الصالحين

كان من دعاء شريح رحمة الله تعالى : اللهم إني أسألك الجنة بلا عمل عملته وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته .

وكان من دعاء بعض الصالحين ، اللهم إن كنا قد عصيناك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك ؛ وهو الاشراك . وإن كنًا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك ؛ وهو شهادة

أن لا إله إلاّ أنت ، وأن رسلك جاءت بالحق من عندك .

ومن دعاء سلام بن مطيع . اللهم إن كنت بلغت أحداً من عبادك الصالحين درجة ببلاء فبلغنيها بالعافية .

وكان من دعاء بعض السلف : اللهم لا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي اللهم لا تكلني إلى نفسي ولا إلى الناس فأضيع !

وقال الأصمعي ، حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت : وهي اللهم إن ذنوبي وإن كثرت وجلت عن الحصر ؛ فإنها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني .

وركب إبراهيم بن أدهم سفينة فهاجت الريح وكثر الموج وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك من هول ما رأوا ونزل بهم ؛ وكان إبراهيم نائماً في كساء ، فاستوى جالسة وقال : أريتنا قدرتك فأرنا عفوك ، فذهب الريح وسكن البحر .

وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه يقول : اللهم إني أكفر بكل ما كفر به محمد وأومن بكل ما آمن به ؛ ثم يضع رأسه وينام .

وسئل أعرابي : أتحسن الدعاء ؟ قال كيف لا ؟! ثم قال اللهم إنك أعطيتنا الاسلام من غير أن نسألك ، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك .

وذكر لعبد السلام بن مطيع : إن الرجل تصيبه البلوى فيدعو

ربه فتبطىء الإجابة ؟ فقال : بلغني أن الله تعالى يقول : كيف أرحمه من شيء به أرحمه ؟!

وقال ابن المسيب : سمعت من يدعو بين القبر والمنبر[1] : اللهم إني أسألك عملا باراً ، ورزقاً داراً ، وعيشاً قاراً ؛ فدعوت به فما وجدت إلا خيراً .

وقال سفيان الثوري : سمعت أعرابياً يقول : اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيداً فقربه ، وإن كان قريباً فيسره ، وإن كان قليلا فكثره ، وإن كان كثيراً فبارك لي فيه .

وسمع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه رجلا يدعو ـ وهو متعلق بأستار الكعبة ـ يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يبرمه إلحاح الملحين ؛ أذقني برد عفوك ؛ وحلاوة مغفرتك ! فقال له علي : والذي نفسي بيده لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك !

ومن دعائه كرم الله تعالى وجهه :

اللهم صن وجهي باليسار ، ولا تبدل جاهي بالاقتار ؛ فأسترزق طامعاً رزقك من غيرك ، وأستعطف شرار خلقك وابتلي بحمد من أعطاني ، وأفتتن بذم من منعني ؛ وأنت من وراء ذلك كله ولي الاجابة والمنع !

عن عبد الله بن أبان الثقفي رضي الله تعالى عنه ، قال : وجهني الحجاج ابن يوسف في طلب أنس بن مالك ـ فخفت أن يتوارى عني ـ فأتيت بخيلي ورجلي (بركباني ومشاتي) فاذا هو جالس على باب داره ، مادّاً رجليه ؛ فقلت له : أجب الأمير فقال : أي الأمراء تعني ؟ فقلت : أبو محمد الحجاج . فقال : هذا قد أذله الله ما أرأني أعزه ؛ لأن العزيز من عز بطاعة الله ، والذليل من ذل بمعصية الله ، وأميرك هذا قد بغى وطغى واعتدى ؛ وخالف كتاب الله وسنة لرسوله ، والله لينتقمن الله منه ! فقلت له : أقصر عن الكلام وأجب الأمير . فقام معنا ـ وهو دائم السخط ـ حتى حضر بين يدي الحجاج ، فقال له : أنت أنس بن مالك ؟ قال : نعم . قال : أنت الذي تدعو علينا وتسبنا ؟ قال : نعم . قال : وما سبب ذلك ؟ قال لأنك عاص لربك ، مخالف لسنة نبيك ، مفسد في الأرض ، باغ على عباد الله ؛ تعز أعداء الله وتذل أولياءه . فقال له الحجاج : أتدري ما أريد أن أفعل بك الآن ؟ قال : أريد أن أقتلك شر قتلة ! قال أنس : لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله ! قال الحجاج : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأن رسول الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علّمني دعاء وقال : « من دعا به في كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل » وقد دعوت به في صباحي هذا . فقال الحجاج : علمنيه . فقال : معاذ الله أن أعلمه لأحد ما دمت أنت في الحياة . فقال الحجاج خلواً سبيله ، فقال الحاجب : أيها

الأمير لنا في طلبه كذا وكذا يوماً حتى أخذناه فكيف نخلي سبيله ؟! قال : والله لقد رأيت كأن على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواهما .

ثم أن أنساً رضى الله تعالى عنه ـ لما حضرته الوفاة ـ عرف : اخوانه الدعاء ؛ وهو بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله خير الأسماء ؛باسم الله لا يضر مع اسمه أذى ، باسم الله الكافي ، باسم الله المعافى ، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، باسم الله على نفسي وديني ، باسم الله على أهلي ومالي ، باسم الله على كل شيء أعطانيه ربي ؛ الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، أعوذ بالله مما أخاف وأحذر ؛ الله بي لا أشرك به شيئاً ؛ بنعز جارك ، وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ، ولا إلّه غيرك ؛ اللهم أني أعوذ بك من شر كل جبار عنيد ، وشيطان مريد ، ومن شر قضاء السوء ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربي على سراط مستقيم .

دعاء مأثور

عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلّم ـ حين آذاه قومه ، وشجوا رأسه الشريف ، وأسالوا دمه الطاهر الزكي ـ رفع رأسه الى السماء مناجياً ربه ؛ « اَللّهُمَّ إِنّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَاني عَلَى النَّاسِ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ

وَأَنْتَ رَبِّي ، إلى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلى بَغِيض يَتَجَهَّمُني أَوْ إلى قَوِيٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ؛ إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي ، وَلَكِنْ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لي ؛ أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الذي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ؛ مِنْ أَنْ يَحُلَّ بي غَضَبُكَ ، أَوْ يَنْزِلَ بي سَخَطُكَ ؛ فَلَكَ العُتْبَى (١) حَتَّى تَرْضَى ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ لَنَا إلاَّ بِكَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ !» .

أدعية الناس لبعضهم :-

دعا رجل لآخر فقال له : سرك الله بما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك !

ودعا أعرابي لآخر فقال : رحب واديك ، وعز ناديك ، ولا ألم بك ألم ، ولا طاف بك عدم ، وسلمك الله ولا أسلمك(٢) .

ودعا أعرابي لعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه فقال : لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار ، وتناسخت الظلم والأنوار !

وقال بعضهم وكان من دعاء السلف رضي الله عنهم : اللهم إني أعوذ بك من ذلك الفقر وبطر الغنى .

من أدعية النبي
صلى الله عليه وسلم

اللهم اسالك التوفيق لحابك من الاعمال وحسن الظن بك ، وصدق التوكل عليك . .

من دعاء النبي عليه السلام .

اللهم اني اسألك الثبات في الامر والعزيمة في الرشد واسألك شكر نعمتك ، وأسالك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم أنك انت علام الغيوب .

من دعاء
الرسول عليه السلام

اللهم اجعلني شكوراً واجعلني صبوراً ، واجعلني في عيني صغيراً وفي أعين الناس كبيراً . .

اللهم أني أسألك من الخير كله ، عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم .

اللهم عافني بقدرتك ، وادخلني في رحمتك ، وأفض أجلي في طاعتك ، واختم لي بخير عملي واجعل ثوابي الجنة . .

من دعاء النبي عليه السلام

اللهم أني أسألك رحمة من عندي ، تهدي بها قلبي ، وتجمع بها شملي ، وتلم بها شعثي ، وترد بها الفتن عني ، وتحفظ بها غائبي ، وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي ، وتبيض بها وجهي ، وتلهمني بها رشدي ، وتعصمني من كل سوء .

من دعاء النبي عليه السلام

اللهم أني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة في الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، ولساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغرك لما تعلم ، انك أنت علام الغيوب .

(من دعاء النبي عليه السلام)

أدعية قرآنية

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويطمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك العزيز الحكيم » .
من دعاء ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، في البيت العتيق

« رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنى ان نعبد الاصنام رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم . ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس

تهوى اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ».
من دعاء ابراهيم لولده اسماعيل ، عليهما السلام ، في البيت العتيق .

« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصالحين » .

[من دعاء يوسف عليه السلام
وقد تحققت رؤ ياه]

« رب اني أعوذ بك ان اسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ».

من دعاء نوح عليه السلام
بعد غرق ابنه في الطوفان

رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم الحساب

القرآن الكريم

« ربي أوزعني ان اشكر نعمتك التي أنعمت علي ، وعلى والدي ، وأن اعمل صالحا ترضاه ، وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين ».

(قرآن كريم)

« ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه : ان الله لا يخلف الميعاد » .

(من دعاء الراسخين في العلم)

« ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء » .

من دعاء ابراهيم عليه السلام

« رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائي الا فرارا * واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا » .

من دعاء نوح عليه السلام

« ربي اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً » .

من دعاء زكريا
عليه السلام

« ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم » .

(من دعاء الذين جاءوا من بعد المهاجرين والانصار)

« رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين » .

من دعاء زكريا
عليه السلام

ادعية السلف
الصالح

ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد .

(من دعاء الراسخين في العلم)

عن « سعد بن ابي وقاص » رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا هذه الكلمات كما تعلم الكتابة :

« اللهم اني اعوذ بك من البخل ،
وأعوذ بك من الجبن ،
وأعوذ بك أن نرد الى ارذل العمر ،
وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » .

اللهم انا نعود بك ان نفتقر في غناك ، أو أن نضل في هداك ، أو ان نضطهد والامر لك .

اللهم انا نعوذ بك أن نذهب عن قولك ، أو نفتتن عن دينك ، او نتابع اهواءنا دون الهدى الذي جاء من عندك .

من دعاء الامام علي

اللهم انك دعوتنا الى الانقياد او الدوام بين يديك ، واناعن ذلك عاجزون ، الا ان تقدرنا وضعفاء الا ان تقوينا .

اللهم انك قد دبرت كل شيء قبل وجود كل شيء ، وقد علمنا انه لن يكون الا ما تريد ، وليس هذا العلم نافعا لنا الا ان تريد ، فردنا بخيرك ، وارفع شأننا بفضلك . . واقصدنا بعنايتك ، وحفنا برعايتك ، وحفنا برعايتك . انك على كل شيء قدير . .

من دعاء ابن عطاء الله

اللهم انا اليك محتاجون فاعطنا وعن الطاعة عاجزون فاقدرنا ، وهب لنا قدرة على طاعتك ، وعجزا عن معصيتك ، واستسلاما لربوبيتك ، وصبرا على احكام ألوهيتك ، وعزا بالانتساب اليك ، وراحة في قلوبنا بالتوكل عليك . .

اللهم اجعلنا من المختارين لك ولا تجعلنا من المختارين عليك ، ومن المفوضين لك . لامن المعترضين عليك .

من دعاء ابن عطاء الله

اللهم ارحم غربتي في الدنيا ، ومصرعي عند الموت ، ووحدتي في القبر ، ومقامي بين يديك .

(من دعاء عطاء السلمى)

اللهم اني أسألك ايمانا لا يرتد ، ونعيما لا ينفد ، وقرة عين لا

تنقطع ، ومرافقة نبيك صلى الله عليه وسلم في اعلى جنات الخلد . .

من دعاء
عبد الله بن مسعود

اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واجعلنا في كنفك الذي لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا . . لا نهلك وانت رجاؤنا .

من دعاء ابراهيم بن ادهم

هو الله لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر النور الهادي البديع القادر القاهر .

اللهم انك انت الله الاله الاكرم الأزلي السرمدي الذي لا يحول وتدهش منه العقول . اللهم اجب بفضلك دعوتي واقضر حاجتي واكشف عن بصيرتي ، احتجبت بنور الله وبنور عرش الله وبكل اسم الله من عدوي وعدو الله .

وختمت على نفسي وعلى اهلي وعلى كل شيء اعطانيه ربي بخاتم الله المنيع الذي ختم به السماوات والارض . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

من دعاء عبد القادر
الجيلاني

اللهم انا عبيدك بنو عبيدك بنو امائك ، نواصينا بيدك ، ماض فينا حكمك ، عدل فينا قضاؤك . اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم اهلك وخاصتك يا أرحم الراحمين . .

اللهم انا نسألك من الخير كله عاجله وآجلة ما علمنا منه وما لم نعلم ، ونعوذ بك من الشر كله عاجلة وآجلة ما علمنا منه وما لم نعلم ، ونسألك من خير ما سألك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وعبادك الصالحون .

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات واصلح ذات بينهم وألّف بين قلوبهم واجعل في قلوبهم الايمان والحكمة ، وأوزعهم ان يشكروا نعمتك التي انعمت عليهم وان يوفوا بعهدك الذي عاهدتهم عليه واهدهم سبل السلام واخرجهم من الظلمات الى النور . .

ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم . .

من دعا الفقيه

ابن نيميه

كأن جابر بن زيد يوصى فيقول : اذا جئت يوم الجمعة فقف على باب المسجد وقل :

اللهم اجعلني اليوم اوجه من توجه اليك ، واقرب من تقرب اليك ، وانجح من دعاك وطلب منك .

اللهم اني اسألك علما نافعا وعملا متقبلا وايمانا صريحا ويقينا صحيحا . اعوذ بالله من اكل الحرام اعوذ بالله من ظلم الضعفاء والايتام . اعوذ بالله من ارتكاب الكبائر والآثام .

اعوذ بالله من سخط الملك العلام .

اعوذ بالله من عدم التوفيق لحسن العمل .

اعوذ بالله من الركون الى طول الامل .

اعوذ بالله من تمزيق الاعمار في مخالفة الابرار .

وأستعينه على تطهير القلوب من طوالع الارتياب وجنايات الاغتياب فانه داء قد اعيا دواؤه وتعذر شفاؤه وعم بلاؤه .

اللهم انا نستعين بك على تطهير ضمائرنا من حب الدنيا فان حب الدنيا رأس كل خطيئة واصل كل بلية .

اعوذ بالله من نية تعقب وزرا .
أعوذ بالله من عدم التوفيق .
أعوذ بالله من عزيمة تجلب شراً .
أعوذ بالله من ترك التحقيق .
أعوذ بالله من ترك السعة والرجوع إلى الضيق .

من دعاء ابن الجوزي

الحمد لله الذي جعل لنا نصيبا مما جعل للسيدة مريم ابنة عمران عليها السلام .

اللهم احسن لي الختام ومتعني بالنظر الى وجهك الكريم . الهي ، ما أرافك وما الطفك بعبادك .

الهي وسيدي ومولاي . متعتني وفرحتني برضاك عني . فلا تسبب لي سببا يحجبني عنك . اللهم يا من علا فاقتدر وملك فقهر . اجبر من امتك ما انكسر . اللهم احجب عنا انظار الظالمين .

من دعاء السيدة نفيسة

دعا اعرابي عند الكعبة فقال : اللهم ان لك علي حقوقا فتصدق بها علي ، وللناس عندي تبعات فتحملها عني ، وقد اوجبت لكل ضيف قرى . . وانا ضيفك فاجعل قراي الليلة الجنة .

وقال آخر : اللهم اليك خرجت وما عندك طلبت ، فلا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي ، اللهم وان كنت لم ترحم نصبي وتعبي فلا تحرمني اجر المصاب على مصيبته .

اللهم أني أسألك بعليم قديم كريم مكنون أسمائك وبرفيع بديع منيع سلطانك ان تقيدنا بقيود السلامة عن الوقوع في معصيتك . اللهم ذهلت العقول وحارت الاوهام وقصرت

الظنون عن أدراك كنه ما ظهر من عجائب قدرتك . فعاملنا بما انت أهله ولا تعاملنا بما نحن أأهله . انك أهل العفو وأهل المغفرة يا أرحم الراحمين .

من دعاء
الامام الرفاعي

اللهم أني ذاهب عن نفسي متصل بذكر ربي قائم بأداء حقوقه ناظر اليه بقلبي .

الهي . . احرقت قلبي انوار هيبتك وصفيت شربي من كأس ودك فان تكلمت فيك يا الهي وان نطقت فمنك يا الهي وان تحركت فبأمرك يا الهي وان سكنت فمعك يا الهي فأنا فيك،ولك ومعك .

من دعاء الجنيد

اللهم صل على من منه انشقت الاسرار وانفلقت انوار ، وبه ارتقت الحقائق وتنزلت العلوم فأعجزت الخلائق ، فرياض الملكوت بزهور جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض انواره متدفقة . اللهم انه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الاعظم القائم بين يديك .

اللهم عرفني به معرفة اسلم بها من موارد الجهل وأرد بها موارد الفضل ، واحملني على سبيله .

يا أول يا ظاهر يا باطن اسمع ندائي بمنك وكرمك بما سمعت به عبدك زكريا وانصرني بك لك . وايدني بك لك وحل بيني وبين غيرك .

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

من دعاء ابن عميش

دعاء الشاعر في رمضان

يا رب

في كل حين . . من فؤادي والنهي لك ، يا كريم ، الحمد . والاعظام امنت . . انك . . خالق . . ومقدر .

وبكل حال . . في الورى . . علام هذاك شعري . من شعوري . صفة .

ولانت . . انت . الوحي . والالهام وان في القلم . الشقاء . نلتها .

لكن . . في القلم . الشقاء . . والالهام وان في القلم . السعادة . . نلتها .

لكن في القلم . الشقاء . اسام لماذا اردت . . فانني . لا اشتكى

هذا صراع . . لست فيه . الام انت الملاذ . . وليس . غيرك . مالك في ملكه . . نصب الحياة . . تقام اياك . اعبد . . انتِ وحدك قبلتي .

ورضاك عني . . عدة وحسام ارحم هواني في الحياة . . وذلتي لا تتركني . . في الحياة . . اضام .

السيد حشيش

مقالات صوفية

** الرجل المتمكن هو الذي لو نصب له سنان على اعلى شاهق جبل في الارض ، وهبت عليه الرياح الثمان . . ما غيرته .

** الزهد أساس الاحوال المرضية ، وهو اول قدم القاصدين الى الله والراضين عن الله والمتوكلين على الله ، فمن لم يحكم اساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده .

** الانس بالله ، لا يكون الا لعبد قد كملت طهارته ، وصفا ذكره ، واستوحش من كل ما يشغله عن الله .

** الصدقة افضل من العبادات البدنية والنوافل .

** اخوك هو الذي يحل لك اكل ماله بغير اذنه ، وهو الذي تسكن نفسك اليه ، ويستريح قلبك فيه .

** اذا تعلم احدكم شيئا من الخير ، فليعلمه الناس . . يثمر له الخير .

** المشاهدة حضور بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين ، وحقائق حق اليقين .

** لو تكلم الرجل في الذات والصفات . . كان سكوته افضل .

** اذا اصلح القلب صار مهبط الوحي والاسرار والانوار والملائكة ، واذا فسد صار مهبط الظلم والشياطين .

** اللهم اجعلنا ممن فرشوا على بابك للفرط ذلهم نواعم الخدود ونكسوارؤ وسهم من الخجل وجباههم للسجود ، ببركة صاحب اللواء المحمود . . آمين . .

: : منذ عرفت أن ذم الناس افراط ، ومدحهم افراط ، كرهت مذمتهم .

: : لولا اخشى أن تكون بدعة . . لامرت : اني اذا مت ان اقيد في الأغلال ، فادفع الى ربي مغلولا كما يدفع العبد الآبق الى مولاه !

: : لم يبق من روح الدنيا الا ثلاثة : لقاء الاخوان ، والتهجد بالقرآن ، وبيت خال يذكر الله فيه .

: : ما بقى لاحد رفيق يساعده على عمل الآخرة . . انما . هم يفسدون على المرء قلبه .

: : اني أكره ان يأتيني احد من اخواني في منزلي ، خشية ألّا أقوم له بواجب حقه . .

: : تقرأون قوله تعالى :

« وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون » . . اسألوا انفسكم : كم اليوم في كل مدينة يفسد ولا يصلح ؟

: : أدركنا الصحابة ، وهم لا يعيب بعضهم على بعض في الملابس من أعلى وأدنى ، فكان صاحب الصوف لا يعيب على صاحب الخز ولا صاحب الخز يعيب على صاحب الصوف .

: : من الاخوان من يكون محبا لك وهو بعيد ، ويمنعه من لقائك الشغل الذي هو فيه .

: : لولا ان يقول الناس : جن مالك ، للبست المسوح ، ووضعت الرماد فوق رأسي بين الناس .

: : اللهم لا تدخل بيت مالك ابن دينار من الدنيا شيئا !!

: : كيف يكون زاهدا من لا ورع له ؟ . . تورع عما ليس لك ، ثم ازهد فيما حولك .

من لم ينتفع بأفعال شيخة . . لم ينتفع بأقواله .

: : اجتنبوا صحبة ثلاثة اصناف : العلماء الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين الذين يتعبدون قبل ان يتعلموا فروض دينهم .

: : لبس الصوف من غير اماته النفس جهاله ، وترك المكاسب مع الحاجة اليها كسل ، والكسل مع وجود الاستغناء عنه كلفة ، والصبر على العزلة علامة وجود الطريق ، والتعبد مع تضييع العياد جهل .

: : لا يكون الرجل حليما حتى يلحظ النساء بعين الشفقة . . لا بعين الشهوة .

: : كم بين من يريد حضور الوليمة للوليمة ، وبين من يريد حضور الوليمة ليلتقي بالحبيب في الوليمة ؟

: : مثل الاولياء مثل الصيادين . . يصطادون العباد من أفواه الشياطين ، ولو لم يصد الولى طول عمره الا واحدا لكان قد أوتى خيرا كثيرا .

: : جميع الدنيا من اولها الى اخرها لا تساوي غم ساعة . . فكيف تغتم طول عمرك فيها مع قلة نصيبك منها ؟

: : لو أن رجلا في علم أبي عباس ، وهو راغب في الدنيا ، لنهيب الناس عن مجالسته ، فانه لا ينصحك من خان نفسه !

: : طلب الزهد هربا من مشقة الاعمال الشاقة بطاله !!

: : اياك ان تكون للمعرفة مدعيا ، او للزهد محترفا ، وفر من كل شيء الى ربك .

: : أدركنا العلماء وهم ينفقون المال في تحصيل العلم ، والعلماء اليوم ينفقون العلم في تحصيل المال !

: : من علامة سخط الله تعالى على عبده خوفه من الفقر .

: من القلوب قلوب تستغفر قبل ان تذنب ، فتثاب قبل ان تطيع .

: : من لم يفتش عن الرغيفين من الحلال لا يفلح في طريق الله عز وجل .

: : ما شبعت من الطعام قط الا عصيت ، او هممت بمعصية !

: : ان الله تعالى لم يمنع اعداءه المحبة بخلا ، وانما صان اولياءه الذين اطاعوه ، ان يجمع بينهم وبين اعدائه الذين عصوه .

: : العارف لا يدوم على حزن . . ولا يدوم على سرور .

: : من نظر في عيوب الناس . . عمى عن عيب نفسه !

** ليس بعاقل من طلب الانصاف لنفسه من غيره ، ولم ينصف غيره من نفسه !

** التصوف هو تدريب النفس على العبودية ، وردها لاحكام الربوبية ، ومن ادعى فتح عين قلبه وهو يتصنع بعبادة الله تعالى ، او يطمع فيما في ايدي خلق الله تعالى فهو كاذب .

** لا كبيرة عندنا اكبر من اثنتين : حب الدنيا بالايثار ، والمقام على الجهل بالرضا . . لان حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والمقام على الجهل أصل كل معصية .

** أربع لا ينفع معهم علم : حب الدنيا ونسيان الآخرة وخوف الفقر وخوف الناس .

** من النفاق التظاهر بفعل السنة ، والله يعلم منه غير ذلك ، ومن الشرك بالله اتخاذ الأولياء الشفعاء دون الله . . قال الله تعالى : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون » ؟

** لا يوصف العبد بأنه ترك المعاصي : الا اذا كانت لا تخطر له على بال ، فان حقيقة الهجر نسيان المهجور .

** أشقى الناس من يحب ان يعامله الناس بكل ما يريد ، وهو لا يجد من نفسه بعض ما يريد .

** اذا عارض كشفك الكتاب والسنة ، فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف فان الله قد ضمن العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في الكشف ولا الالهام ولا المشاهدة .

** ارجع عن منازعة ربك تكن موحدا : واعمل بالشرع تكن سنيا واجمع بينهما تكن محققا .

** من دعا الى الله تعالى ، بغير ما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم فهو بدعى .

** ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ، وانما هو بالصبر على الاوامر واليقين في الهداية .

* انني اعرف طريقا يؤدي الى الجنة قصدا . . هو أن تشتغل بالعبادة وتقبل عليها حتى لا يكون لك فيها فضل .

* من قام بين يدي الله في الظلام . . نشرت له يوم القيامة الاعلام .

* آه على نعمة ليس لله فيها تبعة ، ولا لمخلوق فيها منة .

* لا يقوى على ترك الشهوات ، الا من ترك الشبهات .

* تصفية العمل من الآفات . . اشد من العمل .

* التوكل على الله . . هو الانخلاع من الحول والقوة .

* رأس الاعمال الرضا عن الله وعمود الدين الورع ، ومخ العبادة الجوع .

* ضبط اللسان حصن حصين .

* من شكر الله جرى في ميدان الزيادة .

* من علامة المعرفة بالله : القيام بحقوق الله ، وإيثاره على النفس فيما امكنت فيه القدرة .

* وددت أن احزان الخلق كلهم علي .

* أربع من أخلاق الابدال ، استقصاء الورع ، وتصحيح الارادة وسلامة الصدر للخلق ، والنصيحة لهم . .

* من أدعى باطن علم يبطله ظاهر حكم فهو غالط .

* من أطاع من فوقه اطاعة من دونه .

* اللهم ان عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب .

** عليك بالعمل واياك وشقشقة اللسان بالكلام في الطريق ، دون التخلق باخلاق اهلها .

** الله خصم كل من شهر نفسه بطريقنا ولم يقم بحقها واستهزأ بنا . . من خان لاكان ، ومن لم يتعظ بكلامنا فلا يمشي في ركابنا . .

** من لم يكن منشرحا منحققا نظيفا عفيفا شريفا ، فليس من اولادي ولو كان ابني من صلبي ، وكل من كان من المريدين ملازما للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة

والزهد والورع وقلة الطمع فهو ولدي وان كان من اقصى البلاد .

** ما كل من وقف يعرف لذة الوقوف ، ولا كل من خدم يعرف آداب الخدمة .

** لا يكمل (الصوفي) حتى يكون محبا لجميع الناس مشفقا عليهم ساترا لعوراتهم ، فان ادعى الكمال وهو على خلاف ما ذكرناه فهو كاذب .

** الشريعة اصل والحقيقة فرع ، فالشريعة جامعة بكل علم مشروع ، والحقيقة جامعة لكل علم خفى ، وجميع المقامات مندرجة فيهما .

** يأمريدي : اجمع همة العزم وقوة شدة الحزام ، لتعرف الطريق بالادراك ، لا بالوصف .

** ولد القلب خير من ولد الصلب ، فولد الصلب له ارث الظاهر من الميراث ، وولد القلب له ارث الباطن من السر .

** من احدث في طريق القوم فليس منا ولا فينا ، قال الله تعالى : « وماأتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

** مادام : أنا وانت . . فلا حب انما الحب التمازج واختلاط الارواح بالاجساد .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير حاسب ٢٧٠١٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

الإسلام وشهر الصوم

(١)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

الإسلام وشهر الصوم

(١)

دار الفكر اللبناني



الأسباب التشريعية للصوم أربعة

ـ أ ـ

١ ـ تزكية الجسم ونقاهته ، فإن الانسان نوعاً تبقى في معدته الفضلات المتعقدة وربما تصل إلى مرتبة التعفن ، كما أن الأجزاء الباطنة العاملة على هضم الطعام وتصفيته ، وتوزيعه قد يعروها علل وإرهاق . فبالامساك عن الطعام والشراب هذه المدة . وفراغ المعدة منها تشتغل بتلك الفضلات فتأتي عليها وتعدمها ، وترتاح تلك الأجزاء العاملة مما يعدها لاستئناف عملها بنشاط بعد الفراغ من الصوم ـ وقد تكلم العلماء والأطباء حول هذا ، وأجمعوا على أن الصوم ضروري للبدن وقد قال أهل البيت (ع) عن جدهم (ص) : لكل شيء زكوة وزكوة الأجساد الصيام كما ضرب صلى الله عليه وآله كلمته المشهورة مثلاً يروى ويقال : صوموا تصحوا وقال (ص) : المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء ، وقد قال بهذه المناسبة كلمة إذا طبقها الانسان سلم

جسمه من كثير من الأمراض ان لم نقل من جميعها عدا مرض الموت : لا تجلس على الطعام إلّا وأنت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه وبهذا المضمون أيضاً ورد : اجعله أثلاثاً ثلثاً لبطنك وثلثاً لنفسك ـ بفتح الفاء ـ وثلثاً للماء .

ولما لم يكن في الدين الاسلامي بجميع أحكامه ونظمه حكم ضرري أو حرجي وكان الغرض الأقصى من الصوم خدمة الانسان صحياً وروحياً ـ كان المريض أو من تقدم به السن إلى مرحلة الشيخوخة ممن يضرهم الصوم أو يكون به حرج أو مشقة تتجاوز المعتاد غالباً في سعة من الصوم ـ بل الصوم في حقه غير مشروع بمعنى أنه لو صام لا يقبل صومه ، ـ وكذا المسافر ـ فإن الصوم في حقه حرج نوعاً ، لبعده عن أهله ، وفقده أسباب الراحة والاستقرار . قال سبحانه : ﴿ وإن كنتم مرضى ، أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ﴾ .

ورب قائل : إذا كانت العلة في سقوط الصوم عن المسافر ، فقدان أسباب الراحة والاستقرار ، فلم لا يجوز صومه . إذا تيسرت له الأسباب كاملة في حال السفر ولا سيما في زماننا هذا ـ ويجاب : بأن هذا حكمة لا علة ، والحكمة لا يلزم اطرادها ، وقد لوحظ النوع أي الغالب من الناس في أقطار الأرض ـ لا الأشخاص ، والمسافر نوعاً يفقد هذه الأسباب ،

ولهذا كان الحكم عاماً لكل مسافر ـ ، ومثله عيناً تحديد المسافة بالكيلومتراً البالغة ثمانية وأربعين كيلومتراً تقريباً امتدادية أو ملفقة ، عند الامامية ، اعتماداً على ما صح لديهم عن أهل البيت عليهم السلام فكل من قطعها بأي واسطة كانت ـ كان مسافراً وعند أخواننا أهل السنة بمقدار يزيد على ذلك ـ فلا يقال : بأن هذا التحديد كان في زمان انحصرت وسائل النقل فيه بالحيوانات ، أما اليوم وقد تطور الحال واختصرت المسافات الشاسعة بقليل من الوقت ، فينبغي أن يلحظ التحديد بوسائل النقل .

ويجاب : بأن الحكم المذكور لوحظ به أيضاً نوع الناس ، والغالب ينحصر وسائل انتقالهم بغير الطائرات والسيارات وأمثالها ـ على أن المشرع تعالى شأنه المحدد للمسافة بهذه المساحة كان عالماً بما يحدث في المستقبل من هذه الوسائل الحديثة السريعة ومع ذلك لم يخبر ولم يقيد فنستكشف أنه تعالى أراد الاطلاق في سائر الأحوال ، والعبد متقيد بأمر مولاه « وكثيراً ما يتشدق الكثير من المتفلسفين بالاعتراض إرسالاً للكلام على عواهنه دون أن يعتمدوا على هدى أو بينة ، ولو كانوا يريدون العلم ، لسألوا أهله عنه .

ـ ب ـ

أن يشعر الغني حيث يجوع ويظمأ بألم الفقير الجائع الظامىء فيبعثه هذا الشعور لمؤاساته ، والرأفة به والإشفاق عليه ـ لأن

الانسان نوعاً لا يتألم لألم رجل يئن من جرح في جسمه ، أو مرض في أحد أعضائه إلّا إذا كان مصاباً بهذا الجرح وذلك المرض .

« إنما فرض الله الصيام ليستوي به الغني والفقير لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه ، فأراد الله تعالى أن يسوي بين خلقه ، وأن يذيق الغني مس الجوع والألم ليرق على الضعيف ، ويرحم الجائع » . وقد ورد في هذا المضمون روايات كثيرة وفي بعضها :

ليعرف أي الأغنياء ، مبلغ ذلك على أهل الفقر والمسكنة في الدنيا ، فيؤدوا إليهم ما افترضه الله لهم في أموالهم .

وكم في هذا التشريع من مصالح جليلة ومنافع عامة لو استجاب الأغنياء لها ، وحضعوا لحكم الله عز وجل ، وأنعشوا الطبقة البائسة بإخراج الحق الواجب لهم في أموالهم عدا المستحب منه ـ وأقلها أثراً زوال ما في نفس الفقير من حزازة وحقد على الغني وشعوره بأن له جميلاً عليه بسد خلته وانتعاشه بقضاء حاجته مما يبعثه لشكره واحترامه وتقديره ـ وهل ما يحدث في العالم من تذمر العمال ، وضجة الطبقات البائسة مما أدى ويؤدي إلى الثورات المتواصلة واختلال حبل الأمن ـ إلّا من استئثار الأغنياء بحقوق الفقراء ، واحتقارهم لهم وتكبرهم عليهم ، وأرجو أن يكون في قلوب قرّاء هذه الرسالة ـ متسع لهذه النصائح ، وتجارب لصداها إن شاء الله .

- ج -

أن يذكر الصائم بجوعه وظمئه جوعه وظمأه يوم الموقف الأعظم يوم العرض على الله عز وجل ـ ذلك اليوم الذي عناه الله بقوله : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ . ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ﴾ . ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ .

وأن يستكين الصائم بذلك ويخشع ـ لأن النفس إذا جاعت وظمئت انكسرت واستكانت وذلت وصغرت ـ خشوعاً يكون واعظاً له في العاجل ، ودليلاً له في الآجل ، ورائظاً له على أداء ما كلفه الله به ، وقد جاء عن الامام أبي الحسن الرضا عليه السلام : إنما أمروا بالصوم لكي يعرفوا ألم الجوع والعطش فيستدلوا على فقر الآخرة ، وليكون الصائم خاشعاً ذليلاً مستكيناً مأجوراً صابراً ، فيستوجب الثواب مع ما فيه من الإمساك عن الشهوات الحديث .

مضافاً إلى ما فيه من ترويض النفس ، وتهذيباً ، وكبح جماحها عن الاسراع لكل ما تميل إليه وهل تحل قوة الارادة والرجولة الكاملة وضبط الأعصاب في مقام الأحراج وإهاجة

كوامن الغضب والتماسك أمام التيارات الجارفة ـ إلا من هذه المرونة وهذه الرياضة ، ـ وأراد الله عز وجل لعبده أن لا تستحكم فيه عادة مشينة ولاّ يستبد به هوى مضل ، وأن يكون لعقله السلطة الأخيرة الدافعة إلى العمل حيث يكون راجحاً ، والرادعة عنه حيث يكون مرجوحاً .

ـ د ـ

ذكرى نزول القرآن الكريم على سيد الأنبياء ، محمد بن عبد الله (ص) ذلك الدستور الالهي المشتمل على كل ما يحتاجه الانسان في هذه الحياة إلى يوم القيامة الصالح له على اختلاف تطوراته العمرانية والكونية واتساع آفاقه العقلية ، بضميمة ما جاء به رسول الله (ص) من تفصيل لمجمله ، وتأويل لمتشابهه وشرح لكلياته ، لأن هذا كله مما صح عنه (ص) قرآن موحى به كما قال عز شأنه : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى ﴾ .

وقد أجمع المسلمون على أنه نزل في هذا الشهر العظيم كما قال الله عز وجل : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم ﴾ ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ . بمعنى أنه نزل جملة في هذه الليلة إلى اللوح المحفوظ ثم نزل نجوماً

نجوماً على رسول الله (ص) بواسطة جبرائيل عليه السلام بمناسبات شتى متتابعة إلى أن تكامل يوم الغدير الأعظم حيث استجاب رسول الله إلى ربه بنصب بن عمه علي عليه السلام علماً للأمة ، وخليفة من بعده عليها بهذه الآية : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ .

وأعظم بها ذكرى لم يسعد أهل الأرض منذ دحاها الله عز وجل بمثلها أبداً ، ذكرى دستور إلهي ضمن لهم سعادتهم في الدنيا إن مشوا على هداه ، وفي الآخرة إن فارقوا الدنيا مستضيئين بنوره ذكرى تلزم أهل القرآن بأن يختلفوا بتكريمه وتقديسه ثلاثين يوماً ، يتدبرون آياته فرادى ومجتمعين آناء الليل وأطراف النهار ، معرضين عن كل شيء يشغلهم عنه إلاّ ما يعود إلى نظام معاشهم باعتدال لا إفراط فيه ، وقد ورد : إن أفضل الأعمال في هذا الشهر قراءة القرآن وختمه وإهداء ثوابه لمن لهم على القارىء حق من الأموات .

معنى الصوم

الصوم لغة مطلق الامساك عن كل شيء بحسبه يقال : صام عن العمل إن أمسك عنه وكذا عن الكلام ومنه قوله تعالى حكاية عن الصديقة مريم (ع) : ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ .

وشرعاً ، الامساك في وقت خاص ـ منذ مطلع الفجر الصادق إلى أول الليل الذي هو عبارة عن غياب الشمس عن الأفق الذي يعيشر فيه الصائم ، ودخولها في أفق آخر . وعلامة ذلك ارتفاع الحمرة المشرقية إلى قمة الفلك ـ إذ أن هذه الحمرة من آثار الشمس فارتفاعها دليل على غيابها كما أن بقاءها دليل على عدم غيابها أما اخواننا أهل السنة وفقنا الله وإياهم ، فإنهم يرون دخول الليل بمجرد سقوط القرص ، ولو أنهم احتاطوا بالصبر عشر دقائق فقط لما ظهر هذا الاختلاف بصورة تدعو إلى النقد اللاذع من الغير ـ مضافاً إلى انه يضمن امتثال الواجب بصورة جازمة ـ الامساك عن أمور خاصة تبلغ العشرة . . وهي على سبيل الاجمال الأكل . الشرب مطلقاً . الجماع قبلاً أو دبراً فاعلاً أو مفعولاً به حياً كان المفعول به أو ميتاً حتى البهيمة فإن الفاعل يبطل صومه . الكذب على الله أو على رسله أو على خلفائهم الشرعيين . رمس تمام الرأس بالماء بمعنى أن المفطّر رمس تمام الرأس سواء رمس الجسد معه أم لا . إيصال الغبار الغليظ إلى الجوف عمداً ومنه الدخان الحاصل من التبغ أو التنباك . تعمد البقاء على الجنابة حتى مطلع الفجر . تعمد القيء أي الاستفراغ . الاحتقان بالمائع أي إيصال المائع إلى الجوف بطريق الحقنة .

شرائط الصوم

يشـ ـط في صحة الصوم : ١ ـ الايمان . فلا يصح من غير

المؤمن وأن كان مكلفاً به ويعاقب على تركه باعتبار تركه للايمان بالله ورسوله مع القدرة عليه بالبحث والاستعلام ، وهذا سارٍ في سائر الواجبات الاسلامية .

ب ـ العقل : فلا يصح من المجنون إطباقاً أو ادوارياً .

ج ـ البلوغ : فلا يصح من غيره إلّا إذا كان مميزاً فيصح منه وإن كان غير مكلف به بلحاظ الثواب المترتب على صومه العائد عليه أو على أبويه .

د ـ النية : وهي قصد الامساك عن المفطرات الشرعية تفصيلاً أو إجمالاً من أول النهار إلى آخره ـ . وليكون أول جزء من النهار عن نية لا بد من سبقها عليه ، ويكفي في تحققها تبييتها عند النوم بحيث يطلع الفجر عليه ناوياً ، وكما تشترط في صحة الصوم ابتداء تشترط استدامةً بمعنى أن لا يقع أحد أجزاء النهار عن غير نية ـ كما إذا قصد المفطر أثناء النهار ثم عدم عنه لمانع خارجي أو مانع نفسي وبقي صائماً فإن صومه يبطل لأن جزء من النهار وقع من غير نية .

مبطلاته

تتلخص بما يلي :

أ ـ استعمال الأمور العشرة التي قصد الامساك عنها عن عمد والتفات وبحكمه إذا كان استعمالها عن جهل بالحكم فإن

الجاهل بالحكم كالعامد أما إذا استعملها عن سهو أو نسيان أو عن إكراه وإلجاء فلا يضر .

ب ـ الحدث الطارىء على المرأة من حيض أو نفاس .

ج ـ الجنون الطارىء وبحكمه الاغماء المودي بالشعور .

ـ مسوغات الافطار ـ

تنحصر باثنين :

« أ » ـ المرض الذي ينشأ من الصوم زيادته أو إبطاؤه ويكفي في مسوغيته الخوف العقلائي الحاصل من قول الطبيب الثقة البصير ، أو من التجربة فضلاً عن العلم .

« ب » ـ السفر الذي هو عبارة عن قطع المسافة المحدودة بالمساحة المشار إليها سابقاً من وطنه الذي اتخذه مقراً دائماً له أو من محل إقامته أي المكان الذي نوى الاقامة فيه عشرة أيام ، إلى مكان آخر ، شريطة أن لا يكون سفر معصية ، كما إذا سافر ليقدم دعوى كاذبة على غيره أو يشهد الزور عليه . أو يتآمر على إيذائه واغتياله أو ليحضر حفلة خلاعة ومجون وما إلى ذلك من غايات حرمها الاسلام ـ فإن الإفطار لا يسوغ له ، لأن منّة وفضل وليس المسافر لمعصية محلاً للمنة والفضل .

وبحكم المقيم في وطنه في وجوب الصوم وإتمام الصلوة ـ من كان السفر مهنة له ، كسائق السيارة العمومية ـ أو اتخذ عملاً من لوازمه السفر كما إذا ضمن بستاناً لم يقدر على بيع ثمرة والاستفادة منه إلا بالسفر في ما دون العشرة أيام كما أن من المنة والتوسعة على المسافر الذي يحرص على ثواب الصوم ـ انه لو رجع إلى وطنه قبل الزوال ولم يكن قد تناول المفطر ينوي الصوم منذ وصوله ويحسب له صوم يوم كامل ـ كما يحسب له لو سافر بعد الزوال ـ وللسفر أحكام مدونة في مظانها فليراجعها من أرادها ولو في الرسائل العملية ـ إذ لم أقصد من هذا الحديث سوى التنبيه والذكرى .

الصائمون

في الاسلام ثلاثة :

« أ »

العامة ـ أي النوع الغالب الذين يفهمون من الصوم مجرد الإمساك عن المفطرات المذكورة آنفاً المعبر عنه بصوم البطون ، دون أن يشعروا جوارحهم الأخرى بالصوم ، وكل ما فهموه في هذا الشهر أنهم جاعوا وظمئوا في النهار ، وقد يستعيضون عما فاتهم في الليل ، ولا سيما أهل الترف والثراء بأضعافه إجادة ودسومة وتفنناً ـ وهؤلاء إن لم يحرصوا على حلّية ما يتناولونه في

الافطار والسحر من أدام وشراب « لا قيمة لصومهم ، لأنهم يعصون الله في ما يريدون أن يصوموا عنه » وقد عنى هؤلاء رسول (ص) بقوله : رب صائم ليس من صومه إلا الجوع والعطش .

فإن أقل ما يفرض على الصائم أن تكون لقمته التي يقيم بها أوده ، ويسد بها خلته ، والتي يتحول منها دمه ، وينبض به قلبه ـ أن تكون اللقمة حلالاً ؟؟ وإذا وضعنا الناس معظم الناس تحت المجهر ـ لا نجد إلا القليل القليل ـ « وقليل من عبادي الشكور » . لأن أموالهم أن سلمت من الربا وقد كتب على آكله ومستحله ـ أنه من أهل النار لقوله تعالى : ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ـ أي ومن عاد إلى استعمال الربا ولم يتب منه ـ . وعلى نفس المال المشتمل عليه بالمحق لقوله تعالى ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ . ـ لا تسلم من اشتمالها على السرقة والغصب ، ـ قد لا تسلم من كونها مجهولة المالك كرواتب الموظفين الذين لا يرجعون بحكمها إلى من وجب عليهم تقليده وأمثالهم ممن يستفيدون من مال الدولة وهو مال مجتمع من جهات عديدة لا يقرها الاسلام ـ أو كونها ثمناً لحرام كالمسكر بأقسامه أو مختلطة به ، وإن سلمت من هذا كله ـ لا تسلم من اشتمالها على الحقوق الشرعية كالزكوة والمظالم والخمس وقد اعتبر الله عز وجل هذه الحقوق بعد ثبوتها في المال ديوناً للفقراء متعلقة في نفس الأعيان لا يجوز للمالك أن

يتصرف بها قبل أن يخرج الحق منها ، أو يفرزه عنها بانياً على إيصاله لأهله .

وأين الصادقون في إدعائهم الايمان من الأغنياء من التجار وقد قال رسول الله (ص) : التاجر فاجر ما لم يتفقه وقال من اتجر ولم يتفقه . فقد ارتطم في الربا ثم ارتطم ، أم في المهاجرين المتنافسين على بناء القصور المتهالكين على الشهوات دون أن يعرفوا ما عليهم مما لهم على هدى القرآن والسنة عن طريق من يجب عليهم تقليده ـ أم في الزعماء الانتهازيين الذين يبررون أي واسطة توصلهم إلى مطامعهم .

أغفلوا عن قوله تعالى : ﴿ والذين يبخلون بما آتهم الله من فضله سيطوقون ما بخلوا يوم القيامة ﴾ . وعن قول الصادق عن جده صلى الله عليه وآله : ما من عبد منع من زكوة ما له شيئاً إلاّ جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً به في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ . من الحساب وهو قول الله عز وجل : ﴿ سيطوقون ما بخلوا يوم القيمة ﴾ . وقوله : (لا يحل لرجل ثبت لنا في ماله الخمس ـ أن يتصرف فيه قبل أن يؤدي لنا منه الخمس) .

« ب »

الخواص ـ وهم الطبقة الوسطى الذين يضيفون إلى صوم بطونهم عن الحرام ـ صوم جوارحهم عنه فتصوم ألسنتهم عن

الكذب والنميمة والزور والبهتان والحسد والسباب والغيبة وما إلى ذلك مما يصدر عن اللسان ـ لأن ارتكاب هذه يحبط أجر الصائم أي تذهب بأجره فكيف بما هو أعظم منها مما ذكرناه ، وتصوم أعينهم عن النظر إلى ما حرم الله عليه النظر إليه كالنظر إلى الأجنبيات اللواتي لسن من محارمهم استجابة لقوله تعالى : قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم «فلا يرتادون أماكن اللهو والمجون أو غيرها مما لا نعرف أسماءها مما قد شاع بين أهل الغش والفجور ـ وتصوم سماعهم عن الاستماع إلى سباب المؤمنين وغيبتهم ، وقول الفحشاء والزور ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللهو معرضون ﴾ . وتصوم فروجهم عن غشيان من لا تحل لهم من النساء لقوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ الخ . وتصوم أيديهم عن استعمالها في إيذاء المؤمنين وضربهم وسرقة أموالهم أو في اللعب بالورق وأمثاله من أنواع القمار ، وتصوم أرجلهم عن استعمالها بالسعي إلى إشاعة المنكر والتعاون مع أهله ، وترويج الضلال والدعاية إلى الظالمين أعداء الله المتجاهرين بعصيانه .

ليس الصيام من الطعام والشراب فقط ، ولكن إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك وبطنك وفرجك واحفظ يدك وفرجك واكثر السكوت إلّا من خير وأرفق بخادمك .

وقال رسول الله (ﷺ) لجابر بن عبد الله : يا جابر هذا شهر

رمضان من صام نهاره وقام ورداً من ليله وعف بطنه وفرجه وكف لسانه خرج من الذنوب كخروجه من الشهر ، فقال جابر يا رسول الله ما أحسن هذا الحديث فقال رسول الله : يا جابر ما أشد هذه الشروط .

ويضيفون إلى صوم بطونهم وجوارحهم ما يزكي هذا الصوم من تفقد للبؤساء ورحمة للفقراء وإعانة للمنكوبين ، وجبر لقلوب اليتامى بما يبذلونه بسخاء من أموالهم أو يؤثرونهم به على أنفسهم .

وقد ترتفع نفوس البعض من هذا القسم ، وتتعالى هممهم ، فيترقبون دخول الليل ليتخذوه ساتراً لأعمالهم التي لا يحبون أن يعرف بها إلا الله عز وجل سعياً في قضاء حاجة مؤمن أو إبقاء على بيوت عزيزة مستورة ، أو صوناً لوجه كريم عن إراقة شيء من مائه للئيم ـ إقتداء بسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم . وقد كان لا يتناول طعام الإفطار إلا بعد أن يتفقد بيوت المدينة كلها ويفرغ من تأمين أهل العوز فيها بإيثاره البعض منهم على نفسه وأهله ، وتوزيع البعض على أصحابه القادرين .

هؤلاء هم الصائمون حقاً الذين اتخذوا من صوم هذا الشهر ومما يزكيه ـ ما يستدفعون به البلاء في الدنيا ويؤَمِّنون به مستقبلهم في الآخرة .

« ج »

الربانيون ـ الذين تعالت بهذا الشهر نفوسهم وأشرقت بالاسلام بصائرهم فأضافوا إلى صوم بطونهم وجوارحهم صوم قلوبهم ـ فأشغلوها في التفكير في الله عز وجل وآياته وتدبر ما يتلونه من كتابه وفي ما يعود على أمتهم بالخير والاصلاح فلا يكاد يدخل في خلدهم أن يعصوا الله ، أو يؤذوا عباده وهؤلاء هم عباد الرحمن حقاً الذين وصفهم بكتابه بما وصفهم به « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، انها ساءت مستقراً ومقاما الآيات » ، ـ وقوله تعالى : والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً . سبحانك فقنا عذاب النار وأولئك هم المقربون الذين يستدفع بوجودهم البلاء وتستنزل الرحمة وتستمطر السماء .

أقسام الصوم

ينقسم الصوم باعتبار ما ورد فيه آيات وروايات ، إلى أربعة أقسام : محرم ، وواجب ، ومكروه ، ومستحب .

المحرم منه تسعة :

الأول ـ صوم يومي العيدين الفطر والأضحى ، حيث يثبت الهلال لأن الله عز وجل أرادهما مظهراً من مظاهر التراحم والتعاطف ، وتبادل التهاني والزيارات بين المسلمين بل بينهم وبين غيرهم أيضاً في مجتمعاتهم وبيوتهم وهذا لا يكمل مع الصوم ، مضافاً إلى أنه ـ بالنسبة إلى عيد الفطر ـ إيذان بانتهاء الصوم الواجب على عامة المكلفين ـ ولهذا ورد النهي عنه ـ فصومه مضافاً إلا انه مخالفة لله عز وجل بدعة ، والبدعة إدخال شيء في الدين لم يكن منه .

الثاني ـ صوم أيام التشريق بمنى خاصة ، وعلّل : بأن القوم زوّار الله فهم في ضيافته ولا ينبغي للضيف أن يصوم عند من زاره وأضافه ، وفي الحديث عن الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام : بعث رسول الله (ﷺ) بديل بن ورق الخزاعي على جمل أوراق أيام منى فقال : تنادي في الناس ألا لا تصوموا في هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب .

الثالث ـ صوم اليوم الثلثين من شعبان حيث يشك بأن منه أو من رمضان ـ بنيّة الفرض وانه من رمضان ـ وإنما كان حراماً بهذه النية لأنه يرجع إلى التشريع دون استناد إلى حجة مثبتة والصوم عبادة ، والعبادة لا تصح إلا بداعي امتثال الأمر المتعلق بها ـ نعم

لو صامه برجاء المطلوبية ، أو نواه قضاء عما في ذمته ، أو استحباباً وتبين انه من رمضان يصح صومه ويحسب من رمضان ـ أما وجه الصحة فلأنه أتى به بداعي الأمر الوجوبي المحتمل أو بداعي الأمر القضائي أو الاستجابي وهذا الداعي كاف في الصحة ـ وأما وجه احتسابه من رمضان فلأنه لا يقع في رمضان غيره وحيث لا يصح غيره ـ تعيّن أن يكون منه مضافاً إلى النص الصريح بذلك .

الرابع ـ صوم نذر المعصية بأن ينذر المكلف . لله علي نذر إن قتل زيد أو نهب عمرو مثلاً لأصومن يوماً أو يومين ـ وهذا محرم لأن فيه شماتة ولؤماً وهو مبغوض لله عز وجل ولا يطاع الله من حيث يعصى وبتعبير آخر أن الصوم بهذا الداعي مبغوض لله عز وجل والنذر لم يكسبه أمراً لعدم انعقاده إذ يعتبر في انعقاده وصحته الرجحان .

الخامس والسادس ـ صوم الصمت بأن يلتزم بالسكوت وعدم الكلام يوماً أو يومين وصوم الوصال بأن يلتزم بصوم يومين فأكثر دون أن يتخللهما إفطار في الليل ـ وكلاهما غير مشروع عندنا ـ فإن قيل : أن صوم الصمت موجود في الشرائع السابقة وقد حكي الله عز وجل قضية مريم العذراء قبيل ولادتها للمسيح عيسى عليه السلام ، وتخلصها من جواب القوم والحديث معهم ـ بالتجائها إلى نذر الصمت بقوله في القرآن

الكريم : ﴿ إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ وقضية زكريا حين بشره يحيى حين طلب منه عز وجل أن يجعل له آية ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث أيام سويا ﴾ .

السابع ـ صوم المرأة استحباباً مع نهي زوجها لها ـ لأن فيه مزاحمة لحق الزوج ومخالفة له ، وطاعة المرأة لزوجها أفضل عند الله من صومها ـ أما إذا كان الصوم واجباً فلا حق للزوج عليها فيه لأن حق الله مقدم على حقه .

الثامن ـ الصوم في السفر فإن الله عز وجل الذي فرض الصوم على عباده أسقطه في السفر عنهم ولا يمكن أن يتقرب العبد إلى ربه بشيء نهى عنه ـ إلا في موارد سبعة يصح الصوم فيها للمسافر :

١ ـ لو نذر الصوم في السفر .

٢ ـ صوم الثلاثة أيام بدل الهدي في الحج لمن كان عليه هدي ولم يقدمه .

٣ ـ صوم الثمانية عشر يوماً بدل البدنة ، لمن وجبت عليه حيث يفيض من عرفات قبل الغروب .

٤ ـ صوم كثير السفر وهو الذي يكون السفر مهنة له كسائق السيارة أو البحارة الذين يعيشون في البحر مسافرين دائماً وسائق الطيارة أو يتخذ عملاً من لوازمه السفر كما إذا تاجر في شيء

يتوقف عمله المثمر فيه على السفر كما إذا ضمن بستاناً وتوقف بيع ثمره على أن يسافر في كل أسبوع لمكان يستغرق المسافة الشرعية مدة من الزمن .

٥ ـ المسافر الذي ينوي الاقامة عشرة أيام في مكان خاص .

٦ ـ المسافر المتردد بين الاقامة وعدمها إلى ثلاثين يوماً فإن عليه أن يصوم في المكان المتردد فيه بعد الثلاثين .

٧ ـ المسافر سفر معصية كما إذا سافر ليشهد الزور أو ليسرق مثلاً . فإن الصوم واجب لأن إسقاط الصوم منة ـ ولا منة على المسافر للمعصية .

٨ ـ من موارد تحريم الصوم المريض الذي يخشى زيادة المرض من صومه فإن صومه حرام لأن الله عز وجل يريد بعباده اليسر لا العسر .

وللواجب من الصوم عشرة

الأول ـ صوم شهر رمضان .

الثاني ـ صوم شهرين متتابعين في كفارة الظهار والظهار ـ هو أن يقول الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي . فإذا قالها ، حرم عليه الدنو منها حتى يكفر ـ بعتق رقبة مؤمنة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين .

الثالث ـ صوم شهرين متتابعين على من يفطر عمداً في شهر رمضان مخيراً بينه وبين التعتق وإطعام ستين مسكيناً ـ أما إذا أفطر على حرام فإن عليه أن يجمع بين الخصال الثلاثة .

الرابع ـ صوم شهرين متتابعين على من قتل مؤمناً خطأ بعد العجز عن عتق رقبة والدية لأهله قال الله تعالى : في سورة النساء الآية ٩١ : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدَّقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

الخامس ـ صوم ثلاثة أيام في كفارة اليمين بعد العجز عن الكفارة قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتم ﴾ .

السادس ـ صوم ثلاثة أيام على من اضطر إلى حلق رأسه إما لمرض استدعى الحلق أو لأذى من الهوام وذلك قبل أن يبلغ الهدي محلَّه أي قبل مجيء وقت ذبح الهدي أو نحره ووقته عندنا يوم العاشر من ذي الحجة بعد نزوله إلى منى ورمي الجمرات ، وإذا حلق قبل هذا الوقت فعليه الفدية : إما بصيام ثلاثة أيام أو بصدقة أي بإطعام ستة مساكين أو عشرة ، أو بنسك أي بذبح

شاة ، والنسك جمع نسيكة وهي الذبيحة لقوله تعالى في سورة البقرة ٩١ : ﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محلَّة ، فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ .

السابع ـ صوم عشرة أيام على من لم يقدر على الهدي في حج التمتع لقوله تعالى : ﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾ .

الثامن ـ الصوم على الحاج الذي يقتل صيداً متعمداً وهو محرم حيث يختار الصيام لقوله تعالى في سورة المائدة الآية ٩٤ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدم ذلك صياماً ﴾ . ومعنى ذلك : إن من قتل صيداً وهو محرم سواء كان إحرامه للحج أو للعمرة فكفارة واحدة من ثلاثة :

١ ـ أن يذبح من النعم ما يشابه الصيد في الخلقة ، فإن كان الصيد من النعام فيذبح جملاً ، وإن كان من حمر الوحش فيذبح بقرة وإن كان ضبياً فيذبح شاة ـ وقيل ما يماثل الصيد في القيمة ويشتري بثمنه من النعم ليذبح هدايا يبلغ الكعبة كناية عن الذبح بمكة .

٢ ـ أن يقوّم ما يعادل الصيد من النعم ويشتري به طعاماً يعطى للمساكين .

٣ ـ أن يقدّر الطعام المشتري به أصوعاً ويصوم يوماً عن كل صاع .

التاسع ـ صوم النذر حيث يكون متعلقة راجحاً .

العاشر ـ صوم الاعتكاف ـ فإن من لوازم الاعتكاف لمن التزم به بنذر وشبهه . الصوم ثلاثة أيام إذ لا اعتكاف بدون الصوم ، والاعتكاف عبارة عن الإلتزام بالمكث في مكان شريف كمسجد الكوفة مثلاً ثلاثة أيام بلياليها صائم النهار دائباً على الدعاء والابتهال إلى الله عز وجل لا يغادره أثناءها إلا لحاجة ضرورية لا يمكن قضاؤ ها في المسجد ، وهو موضوع عبادي من أراد الوقوف على ما يعتبر فيه من شروط وموانع فليراجعه في مظانه من كتب الفقه .

والمكروه من الصوم خمسة

الأول ـ الصوم يوم عرفة لمن خاف أن يضعفه عن الدعاء فيه فإنه يوم تضرع وابتهال وثناء على الله عز وجل ودعاء وإلحاح واستغاثة وتوسل ، ولهذا يستحب أن يستعمل المؤمن كل شيء يتقوى به على الدعاء .

الثاني ـ صوم اليوم المحتمل كونه عيداً كما إذا ادعى الرؤ ية جماعة لا يثبت شرعاً العيد بشهادتهم وحصل الظن بصدقهم فذلك اليوم أصبح مشكوكاً هل هو أول يوم من شوال أو آخر يوم من رمضان ففراراً من الأثر الوضعي المترتب على صوم يوم العيد يسافر المؤمن ليتخلص بإفطاره في السفر من ذلك الأثر ومن احتمال كونه واجب الصوم .

الثالث ـ صوم الضيف استحباباً بدون إذن مضيفه ، فإن في صيام الضيف في بيت من أضافه أذية له ، وإدخال السرور على المضيف المؤمن بالأكل عنده أفضل من الصوم ، إلا أن يكون المضيف بخيلاً وشحيحاً يعد صوم ضيفه مزجاً له وتنفيساً عن كربته .

الرابع ـ صوم الإمرأة إستحباباً بدون أمر زوجها ـ أما مع نهية لها ومزاحمة الصوم لحقه فإنه يكون حراماً كما مر .

الخامس ـ صوم الولد بدون إذن والده أما مع نهيه له فقد يكون حراماً لأن طاعة الوالدين أفضل من الصوم استحباباً .

والمستحب

أما المستحب من الصوم فكثير لا حصر له إذا استثنيت الأقسام الثلاثة ولم يكن مزاحماً لحقوق أخرى واجبة على المؤمن

كخدمة من تجب نفقته عليه من عياله وأولاده وأبويه ، ولم يحصل الضرر منه صحياً ـ وإلا لكان حراماً أو مكروهاً باعتبار كثرة المفسدة المزاحمة لتلك الحقوق وقلتها ، وبتعبير واضح ، يستحب الصوم للمتمكن القادر الغير المزاحم بحقوق واجبة مستحبة يلزم من الصوم ضياعها أو التهاون بها .

والمؤكد منه صوم ثلاثة أيام من كل شهر أول خميس منه وآخر خميس وأول أربعاء من العشر الثاني ، ويوم الغدير وهو الثامن عشر من ذي الحجة يوم إكمال الدين وإتمام النعمة بتعيين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة بعد النبي (ﷺ) . ويوم مولد النبي صلى الله عليه وآله وهو السابع عشر من ربيع الأول عند الشيعة واليوم الثاني عشر عند السنة ، ويوم مبعثه الشريف وهو السابع والعشرون من رجب ويوم دحو الأرض وهو الخامس والعشرون من ذي الحجة ، وتمام رجب وتمام شعبان .

وقد ورد في ثواب صوم هذه الأيام أخبار كثيرة من أرادها فليراجعها في مظانها وأقل ما ورد فيها : أن نوم الصائم فيها عبادة ونفسه وصمته تسبيح ، وعمله متقبّل ، ودعاءه مستجاب وخلوق فمه أطيب من رائحة المسك ، وتدعو له الملائكة حتى يفطر ، وله فرحتان فرحة عند إفطاره بالمغفرة ، وفرحة حين يلقى الله تعالى بدخول الجنة .

عيد الفطر وصلاته

هو يوم ندب الله المسلمين عامة أن يجتمعوا في صبيحة اليوم الأول من شهر شوال بعد انقضاء شهره تعالى ، فيؤدون صلوات العيد مجتمعين ـ بعد التفاتهم للطبقات البائسة فيهم ، وإنعاشها بزكوة الفطرة وغيرها مما وسع الله عليهم به ، ثم يتبادلون فيها بعدها المصافحة ، متسامحين ، متراحمين ، متناسين كل ما بينهم في الماضي من هنات وتبعات ، متنافسين في مجالات العفو والصفح عمن أساء إليهم ، وشكر من أحسن إليهم ـ ليتخذوا منها وسيلة إلى الله عز وجل الرؤوف بعباده الرحيم بهم ليغفر لهم ما تقدم من ذنبهم ويفوزوا بجائزته تعالى لهم ، عازمين على استئناف حياة جديدة هانئة في بيوتهم ومجتمعاتهم وأماكن أعمالهم ، فيذهب رب البيت لبيته فيهب لعائلته كل حق له عليها ، لتهب له كل حق لها عليه ـ ، ثم ينعطف على أرحامه وجيرانه ثم أهل بلده فيتبادلون هذه الهبات الكريمة ، ـ

ثم يرتفع العاقل منهم إلى مستوى الأماثل الأوفياء ، فيتفقد أمواته الأقرب منهم فالأقرب بصلاة قُربيّة . تزيد في حسناتهم إن كانوا من المحسنين ، وتخفف من سيئاتهم إن كانوا من المسيئين ، . أو تذهب بما بقي منها ـ ليقينه بأن عمل المسلم لم ينقطع بالموت إذا كان له في حياته عمل له أثر أو دائم الأثر من ولد

صالح أو رحم صالح أو صديق صالح ، مستمداً هذا اليقين من نبيّه سيد الرسل (ﷺ) القائل : إذا مات إبن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، ولدٍ صالح . أو صدقة جارية ، أو ورق علم ينتفع به ـ ومن قول الله عز وجل أصدق القائلين : ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ .

وكم من البون الشاسع والفرق الواضح بين هؤلاء الذين يقصرون كل همهم على أن يكونوا من الفالحين بزكـوتهم وصلواتهم ، وينظرون إلى العيد وسيلة إلى إكمال عملهم وأخذ أجرهم ، وبين من ينظرونه وسيلة إلى اللعب واللهو والإنطلاق في اختيار المأكولات والمشروبات ، ثم في مجالات التنافس في الملبوسات ، وارتياد الأماكن الموبوءة بالفساد والميوعة ـ ليفتحوا للشيطان بابه من جديد .

لهذا فعلى المسلم إذا أصبح يوم الفطر أن يقصر همه على ما يعدُّه لاستلام جائزته ، فيغتسل امتثالاً لأمر الله واستنانا بسنة محمد بن عبد الله (ﷺ) ، ويلبس أنظف ثيابه ثم يتوجه بخشوع بعد إعطاء زكوة الفطرة إلى حيث يجتمع أهل بلده في مكان واسع تحت السماء ، أو في بيت الله الجامع للبلد فيؤدي الصلواة جماعة متأملاً بما يسمعه من الامام في القنوت وغيره ثم يستمع للخطبة ، وإن لم يتيسر له يؤديها منفرداً ـ وصلواة العيد ركعتان

بتسع قنوتات بالدعاء المأثور يقرأ في الركعة الأولى بعد الحمد سورة الشمس ويكبر خمس تكبيرات يقنت بعد كل تكبيرة ، ثم يركع بعد الخامسة ويسجد ثم يقوم فيقرأ في الثانية بعد الحمد سورة الغاشية ، ثم يكبر أربع تكبيرات ، يقنت بعد كل تكبيرة ثم يركع بعد الرابعة ويسجد ويتشهد ـ وإن لم يحسن سورة الشمس والغاشية فليقرأ أي سورة من السور التي يحفظها كما أنه إن لم يحسن القنوت بالمأثور فليقنت بما يحفظه من دعاء .

سلسلة مختارات اسلامية

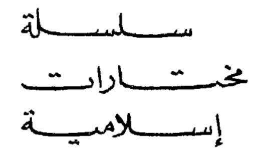
١ - أبو بكر الصديق
٢ - عمر بن الخطاب
٣ - عثمان بن عفان
٤ - علي بن أبي طالب
٥ - رمضانيات (١)
٦ - القدس في البال
٧ - الجيش في الإسلام
٨ - أعياد وتواريخ إسلامية
٩ - أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ - أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ - أدعية وابتهالات
١٢ - كلمات ومواقف خالدة
١٣ - تأملات في الإسلام
١٤ - رمضانيات (٢)
١٥ - معارك إسلامية (١)
١٦ - معارك إسلامية (٢)
١٧ - أحاديث رمضانية
١٨ - قصص إسلامية (١)
١٩ - قصص إسلامية (٢)
٢٠ - الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ - الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ - التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ - من قاموس الصائم
٢٥ - من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ - من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ - من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ - ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ - ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ - ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

الإسلام وشهر الصوم

(٢)

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

الإسلام وشهر الصوم

٢

دار الفكر اللبناني



خطبة النبي صلى الله عليه وآله
في شهر رمضان

انه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة ، والرحمة والمغفرة ، شهر هو عند الله أفضل الشهور ، وأيامه أفضل الأيام ، ولياليه أفضل الليالي ، وساعاته أفضل الساعات ، هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله جُعلتم فيه من أهل كرامة الله ، أنفاسكم فيه تسبيح ، ونومكم فيه عبادة ، وعملكم فيه مقبول ، ودعاؤكم فيه مستجاب ـ فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة ، وقلوب طاهرة ، أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه .

فإن الشقي من حُرم غفران الله في هذا الشهر العظيم ، واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشه ، وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم ووقروا كباركم وارحموا صغاركم ، وصلوا أرحامكم ، واحفظوا ألسنتكم ، وغضوا عما لا يحل النظر إليه أبصاركم ، وعما لا يحل الاستماع إليه

أسماعكم ، وتحننوا على أيتام الناس يتنحن على أيتامكم ، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم ، وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم ، فإنها أفضل الساعات ـ ينظر الله فيها إلى عباده ، يجيبهم إذا ناجوه ، ويعطيهم إذا سألوه ، ويستجيب لهم إذا دعوه .

أيها الناس ـ إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ، ففكوها باستغفاركم ـ وظهوركم ثقيلة بأوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم ، واعلموا أن الله أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين وأن لا يروّعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين .

أيها الناس ، من فطَّر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق نسمة ومغفرة لما مضى من ذنوبه ـ فقيل يا رسول الله : ليس كلنا نقدر على ذلك فقال : اتقوا الله ولو بشربة من ماء .

أيها الناس ، من حسَّن منكم في هذا الشهر خُلقه كان له جوازاً على الصراط يوم تزل فيه الأقدام ، ومن خفّف في هذا الشهر عما ما ملكت يمينه خفف الله عليه حسابه ، ومن كف فيه شره كف الله عنه غضبه يوم يلقاه ، ومن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه ، ومن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه ، ومن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه ، ومن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار ، ومن أدى فيه فرضاً كان له

ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور ، ومن أكثر فيه الصلاة عليَّ ثقَّل الله ميزانه يوم تخف الموازين ، ومن تلى فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور .

أيها الناس ـ : إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عليكم وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم ، والشياطين مغلولة فاسألوا ربكم أن لا يسلطها عليكم .

قال علي رضي الله عنه بعض الخطبة : فقمت فقلت : يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر فقال عليه الصلاة والسلام : يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله » .

شهر رمضان

مظهر من مظاهر الرحمة على الفقراء والأغنياء

إن أحد الأسباب لتشريع الصوم هو أن يحسّ الغني بألم الجوع والعطش ، ليشعر بألم الفقير ، فينبعث بهذا الدافع المشترك بينهما إلى مؤاساته وتفقده ـ لأن الانسان لا يشعر بألم غيره ، ويقف

عند شكواه وضجره ، إلاّ إذا أصيب بمرضه وابتلي بألمه ـ فإذا مررت بإنسان يضجر من وجع عينيه ، أو يصرخ من ألم في ضرسه ، أو يئن من حـمَّـي حلت به ، وكنت قد منيت به يوماً من الأيام ، تقف عنده راحماً له شفوقاً عليه ثم تجدد شكرك لله عز وجل ، إذ لم يبتلك كما ابتلاه ، وشفاك مما دهاه ، وإذا علمت بقلة ذات يده قلة تعجزه عن مراجعة الطبيب وشراء الدواء ، تعينه بما يسد عوزه ، وقد تؤثره على نفسك ، وإن لم تخدمه مباشرة تتحرى خدمته تسبيباً فتكون واسطة له عند من يقدر .

وقد أراد الله عز وجل أن يلمس الغني القادر ألم الفقير ، ويبتليه بألمه ، ليقف عنده إذا رآه ، أو يتفقده إن لم يره فيسد عوزه وينبري لمواساته مما وسع الله به عليه وشمله به من عنايته ولطفه ، لتكون الحجة عليه أتم وأكمل ـ فإن من الناس من يتصامم عن استماع الموعظة بالكلام ، ويتجافى عن الإتعاظ بالمنطق السديد الحكيم ، ولا يرتعد ويتأثر إلا حيث تخزه بخاصرته وتدميه .

ولما كان تعالى شأنه وعظمت آلاؤه يعلم شح العبد بماله ، ومزيد حرصه عليه ورغبته الملحة في الزيادة ـ وعده ومن أوفى بعهده ووعده من الله عز وجل ـ بالتعويض عما ينفقه على الفقير بأضعافه في الدنيا والجزاء الأوفى له في الآخرة . بقوله تعالى : ﴿ والذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع

عليم ﴾ وقوله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم) . أي فيضاعفه له في الدنيا وله أجر كريم في الآخرة .

وحاشا لله عز وجل أن يخلف وعده لمن بذل في سبيله . وابتغاء مرضاته وأقرضه قرضاً حسناً بما يدفعه للفقير في شهره هذا ـ شريطة أن يكون هذا العطاء خالصاً لله تعالى دون أن يتبعه ما يحبطه ويودي بأجره من المن على الفقير والأذى له بالتباهي به ، والاعلان له حيث لا يترتب عليه سوى حب الظهور أو الكشف لحال الفقير كما قال عز وجل : ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ﴾ .

وقد جعل الله عز وجل حكم من يُتبع عطاءه بالمن والأذى حكم من ينفق رياء أو ينفق غير مؤمن بالله واليوم الآخر وشبّه هذا العطاء بتراب على صخر ، والمن بالعطاء بالمطر الغزير النازل على ذلك التراب نزولاً لا يغادر له أثراً ، بذلك الأسلوب المتعالي المعجز قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صداقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم

الكافرين ﴾ ـ كما ضرب مثلاً لمن ينفق أمواله مخلصاً دون أن يتبع ما أنفق بالمن والأذى ببستان في محل مرتفع مكشوف معرَّض للغيث يتعاهده دائماً عند الحاجة ويبقى شجره مطرداً في نموه وازدهاره دون أن يطرأ عليه ما يوقف هذا الإطراد فيتضاعف ثمره عدداً وازدهاراً ـ بقوله عز من قائل : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾ .

وليس شيء أسر للمسلم الميسور من عثوره على بيت كريم خال إلا من التجمل والتعفف لأنه أمنيته وأنشودته ، وربما كان الكثير من الفقراء يوطنون أنفسهم على الاستدانة أثناء السنة ويطلبون من الدائن تأجيل دينه إلى شهر الله لما يعلمونه بحكم العادة من تيسر سبل الوفاء بما يدفع إليهم علانية وسراً ـ وليس سرور الفقير بقضاء حاجته وسد خلته بأكثر من سرور الغني المؤمن بتوفيقه وسعادته سعادة في دنياه ببركة تظهر في ماله وذريته وعافيته ـ وفي آخرته بمغفرة من الله له وصلوات منه عليه .

وكم من المسلمين سعداء ارتفعت بهم هممهم فحرصوا على أن تبقى أعمالهم الخـيِّرة مستمرة حتى بعد موتهم . بوقف قسم من أملاكهم لينفق ريعها على الفقراء في هذا الشهر العظيم .

ويؤيد هذا ما ورد في تفسير قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا

ينفقون قل العفو﴾ . من أن المراد بالعفو المال الخالص الذي ليس فيه شائبة دين أو ظلم وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وفي أموالكم حق للسائل والمحروم ﴾ ـ أن أولئك المؤمنين بعد تصفية أموالهم من الحق الشرعي ـ يفرضون فيه قسماً خاصاً في كل يوم أو أسبوع أو شهر للسائل والمحروم .

الصدقة وأثرها

الصدقة : عبارة عن المال الحلال الذي يدفع للمحتاج لا لرغبة فيه ولا لرهبة منه . ولا لأنه حق مفروض له كالنفقة المفروضة للزوجة أو للولد أو للوالدين . بل يدفع استحباباً لوجه الله عز وجل برجاء مثوبته والتقرب إليه .

وتتفاوت المثوبة عليها بتفاوت مواردها . فالرحم أي من شده إليك أواصر النسب والسبب أولى من غيره لقوله (ﷺ) : لا صدقة وذو رحم محتاج ، وتتأكد إذا كان الرحم كاشحاً أي مبغضاً حسوداً ـ بقصد صلته واستمالته لقوله (ﷺ) وقد سئل أي الصدقة أفضل ؟ : على ذي الرحم الكاشح .

والمؤمن التقي أولى من غير التقي ، والعالم العامل أولى من الجميع ، وترتفع المثوبة قدراً إذا كان في وجوده إنعاش للدين وترويج له ، وإحياء للسنة ، وإماتة للبدعة ، وقد جاء في الحديث : إن الصدفة على العالم العامل ـ إذا كان كذلك ـ بمئة ألف .

ويكاد العاقل يشرف على القطع بثوابها وتفاوت هذا الثواب أيضاً ، إذا كان يؤمن بالله عز وجل وقدرته وسعة ملكه ، وبأن الحياة هبة منه تعالى وتأمينها رحمة منه وفضل ، ويؤمن بالحياة بعد الموت ليجازى كل بما عمل ، المحسن في الدنيا على إحسانه ، والمسيء على إساءته ، بقطع النظر عما ورد من أخبار متواترة في فضلها وسعة هذا الفضل وتحديده لأن العطاء لوجه الله ، أو في سبيل الله عطاء لله في الحقيقة وإكرام إنسان لله وفي الله إكرام لله ـ كمن يعطي ولد لأجل ولده ، ويكرم إنساناً لأجل صديقه فيرجع هذا العطاء وذاك الإكرام مآلاً إلى الوالد والصديق .

وقد عرف في تاريخ الكرماء من بني البشر الكثير الذين يكادون أن ينسوا أنفسهم في سبيل مبادلة من أسدى لهم معروفاً وابدائهم بمكرمة أو دفع مظلمة ـ فكيف بمن لا تنقص خزائنه ، ولا يبيد ملكه ، ولا تزيده كثرة العطاء إلا جوداً وكرماً العلي القدير مالك السماوات والأرضين جلت عظمته وتعالى شأنه .

وما الصدقة إلا متجر من أعظم المتاجر غاية وأضمنها ربحاً ، وأعودها على الانسان نفعاً ، ندب الله عز وجل إليها امتحاناً لهم ، ورحمة بهم ، واستهدافاً إلى غاية إنسانية لا يدرك مداها إلا من تكفل بالتعويض عليها ، وعلاج من أسرع العلاجات تأثيراً وأرجاها قمعاً للداء ، ودفعاً للبلاء .

الصدقة تدفع البلاء .
الصدقة يداوي بها المريض.
ويستنزل الرزق بالصدقة .
وتدفع بها ميتة السوء.
وتحفظ بها الذرية.
ويطول بها العمر.
ويربيها الله عز وجل لصاحبها في الآخرة.

قال الله سبحانه : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله واسع عليم ﴾ وعن علي (ع) قال : قال النبي (ﷺ) تصدقوا ولو بشق تمرة واتقوا النار ولو بشق تمرة فإن الله يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يجعلها له مثل جبل أحد .

تنبيه يشتمل على أمور خمسة

ـ أ ـ

عرف ان الصدقة يبطل أثرها المنُّ بها قال الله تعالى : ﴿ ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ وقال الصادق عليه السلام قال رسول الله (ﷺ) : من أسدى إلى المؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل الله صدقته . وقال : لا يدخل الجنة ثلاثة : العاق لوالديه ، والمدمن للخمر ، والمنان بالخير إذا عمله .

- ب -

انها لا تتحقق إلّا بالمال الحلال ، فلو تصدق بالمال الحرام أو المخلوط به لا تصح بل ربما يعاقب الدافع لتصرفه بمال غيره . سئل الامام الصادق (ع) عن سبب نزول هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه حتى تغمضوا فيه . واعلموا أن الله غني حميد ﴾ آية ٢٦٦ من سورة البقرة .

متعلق الصدقة الفقير الذي لا يملك مؤونة سنته لا بالفعل ولا بالقوة ، ويتفاوت الصدقة عليه أثراً بتفاوت حاجته وضرورته وسعة عياله وقلتهم ، أما مع العلم بحاله فواضح وأما مع الشك فيكفي ظاهر الحال ، والتعرض للسؤال ، فمن دفع له معتمداً على هذا الظاهر ترتب على دفعه الأثر وإن كان في الواقع غير فقير ـ سوى أن الأثر الوضعي العاجل لا يترتب إلا على الواقع ولذا يكره رد السائل لاحتمال أن يكون صادقاً ، وإذا كان في الواقع صادقاً وردّه يلحقه الأذى من رده كما يلحقه النفع في إعطائه ـ وفي الحديث : لو صدق السائل لهلك المسؤول . مضافاً إلى أن السائل قد يكون ملكاً يرسله الله إلى الغني مختبراً ، ليتبين شكره أو كفره .

وفي دعاء سفانة ابنة حاتم الطائي لرسول الله (ﷺ) وقد

جيء بها مسبية في جملة من قومها بعد أن عرفها رسول الله (ﷺ) ، وأعطاها ما أغناها به من الغنائم كرامة لأبيها . قالت مستأذنة له في الدعاء : أصاب الله ببرك مواقعه . ولا جعل لك إلى لئيم حاجة . ولا سلب نعمة عن عزيز قوم إلا وجعلك سبباً لردها عليه .

في دعائها هذا دليل على أن العرب بفطرتهم يعرفون قيمة الأثر الوضعي من إصابة البر موقعه . كما أن في أمر النبي (ﷺ) أصحابه بأن يؤمنوا على دعائها دليلاً على أن دعاء الفقير المحتاج بعد إنعاشه بقضاء حاجته لا يرد أبداً .

ـ د ـ

والصدقة سراً أفضل منها علانية إلا إذا ترتب على الإعلان ، بها أثر آخر من الاقتداء وأمثاله ، والاعتبار يساعد على ذلك لأن التكتم بها أدعى للاخلاص . وأبعد عن مظنة الرياء ، وأجبر لقلب الفقير . وقد جاء في الحديث عن علي بن الحسين . صدقة الليل تطفىء غضب الرب ـ وقد كان القادة من أهل البيت وأصحاب الرسول عليهم السلام تتجلى فيهم هذه الظاهرة ولا سيما في شهر رمضان فقد كان الإمام علي (ع) يعول بخمسمئة بيت في المدينة والكوفة وكان الأغلب منهم لا يعرفون من يعولهم إلّا بعد فقده صلوات الله عليه ، وقد مر ليلة على امرأة ذات أيتام فناولها ما هو مرسوم لها ليلياً . وإذا بها تخاطبه جزاك الله خيراً يا

عبد الله وحكم بيني وبين علي بن أبي طالب قال : وما فعلٍ عليٌّ معكم قالت : قتل زوجي بين يديه في صفين وترك لي أيتاماً ليس لهم من يعولهم . وإلى الآن لم يتفقدنا ، فلما كان الصباح جاءها بشيء زائد من اللحم والدقيق فطرق الباب قائلاً : أنا الذي جئتك البارحة عندي شيء للأطفال . ففتحت الباب وقالت : أدخل يا عبد الله . عليك بالأطفال فسكتهم حتى أعجن لهم فإني بالعجين أبصر منك فلما انتهت قالت : يا عبد الله قم وأسجر التنور فقام فأسجره فلما ارتفع لهب النار وأحس بحرارتها جعل يبكي ويقول : ذق يا علي هذا جزاء من ضيع الأيامي والأيتام، وإذا بامرأة من الخارج تدخل فتعرفه فهتفت بربة البيت : ويحك ما صنعت هذا الامام علي بن أبي طالب ، فوقعت الإمرأة على قدميه رافعة صوتها : المعذرة إلى الله وإليك فقال : المعذرة إلى الله وإليك مما قصرت في حقكم ـ أجل وقد برزت هذه السجية في حفيده علي بن الحسين زين العابدين فقد أثَّر الجراب في ظهره مما كان يحمله للفقراء ليلاً ، والحديث عن الامام علي وأبنائه والطبقة الفاضلة من المسلمين من هذه الجهة يحتاج إلى كتاب خاص ، وحسبنا التنبيه ففيه للأحرار كفاية .

ولما كان الاسلام ديناً حيوياً اجتماعياً لا يريد لمن اعتنقه إلا العزة والكرامة كما قال الله عز وجل : ﴿ العزة لله ورسوله والمؤمنين ﴾ ندبه للعمل في الاتجاه الذي تميل إليه نفسه ويقدر عليه ، وكره له الكسل والبطالة أسوة بالنموذج الأعلى من

المسلمين أنبياء الله وأوليائه ، فقد كانوا لا يستنكفون عن العمل ويعدون اللقمة التي يحصلون عليها بكد أيمانهم من أفضل ما يحصلون عليه في حياتهم .

لما كان الاسلام كذلك كان أكره شيء في نظره التعرض للسؤال من غير ضرورة ملحّة لأنه ذل وتعرض للفقر ، ولذا قال النبي (ﷺ) لعلي : يا علي (لأن أدخل يدي في فم التنّين إلى المرفق أحبُّ إليَّ من أن أسأل من لم يكن ثم كان) وقال لأبي ذر : يا أبا ذر إياك والسؤال فإنه ذل حاضر وفقر تتعجله ، وفيه حساب طويل يوم القيامة ، ولا يسأل إلّا في ثلاثة في دم مفضع أي في دية لا يقدر عليها وفقر مدقع وغُرم مثقل ، أي في دين استغرق كل ما يملك .

التوبة والمغفرة

التوبة عبارة عن الندم على فعل المعصية مقروناً بالعزم على ترك العود إليها ، وهذا المعنى لا يتحقق إلا بعد فرض تركها فعلاً كما هو واضح وهي من فعل العبد ـ أما المغفرة أي قبول التوبة فمن شؤون المولى عز شأنه . وكما أن التوبة على قسمين خاصة إذا كانت عن معصية خاصة دون غيرها بلحاظ تخفيف الجرم لأن لكل جريمة قصاصها وغرمها ـ وعلمة . إذا كانت عن سائر المعاصي المرتكبة ـ كذلك المغفرة .

والمأمور به عقلاً التوبة بالمعنى الثاني لأن العقل بعد إطلاعه على إحسان المولى عز شأنه إلى العبد وافتقار العبد إليه في كل شيء ، يلزمه بوجوب شكره وتجنب سخطه مطلقاً ، والسرعة في التراجع عن الخطأ المرتكب . لأنه أقل مراتب الشكر والاعتراف بالجميل ، ويتأكد حكم العقل إذا أطلع على الضرر المترتب على الخطأ وانه لا طريق للنجاة إلا الانابة إلى المولى والانقطاع إليه ـ ويزيده تأكيداً وإلزاماً بوجوب الفور جهله بأجله ، واحتمال انقطاعه في كل لحظة .

والأوامر الشرعية الواردة في وجوب التوبة قرآناً وسنة ، ليست إلا أوامر إرشادية إلى حكم العقل ومقرّرة له ، والأمر الارشادي أمر تفضل ورحمة كأمر الطبيب المريض باستعمال الدواء النافع وتركه الشيء الضار .

وإن من أعظم النعم علينا أن ربنا سبحانه كريم وسع كرمه المذنبين ، ورحيم وسعت رحمته كل شيء ، فتح باب مغفرته على مصراعيه لكل عبد منيب صادق في توبته ، ودعاه إليه دعوة رحيم كريم : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك جميعاً ﴾ .

فهل من الإنصاف أن تتصامم عن دعوة ربك وتتجاهل إرشاداته لاهياً سادراً في لهوك ولعبك ، وأنت متجاهر في الايمان

به ، والاحتياج إليه لا تملك لنفسك نفعاً إلا عن طريقه ، ولا تدفع عنها ضراً إذا لم تستعن به ، وليس عندك ضمانة في الحياة ولا مؤمن من الموت المرتقب نزوله بك في كل وقت من أوقاتك ، ولا سيما في شهره عز وجل هذا الذي اعتبره شهر كرامة وضيافة ، وتوبة وإنابة ، ضاعف فيه ثواب المحسنين ، كما ضاعف فيه عقاب المتمردين .

وإن الجهل ليس عيباً بل الرضا به ، والخطأ ليس بجريمة بل الإصرار عليه بعد وضوحه والتعلل بالأماني والآمال وسيلة النوكي والبلهاء .

والصائم يبتغي من صيامه وطاعته أن يحصل على الضمانه الكبرى بعد انصرافه من صلاته يوم العيد . الفوز برضاه عز وجل والعتق من سخطه وغضبه بحيث لو فاجأه الموت بعدها يفاجئه متحللاً من كل ذنب نظيف الثوب من كل عيب .

وإذا كان من ينبغي اندراجه في سلك الموظفين عند الحكومة لا يقبل طلبه إلا أن يرفقه بسجل عدلي أبيض تاريخاً وسلوكاً وسيرة فإن لم يكن ، فلا بد من أن يستأنف حياته من جديد مقلعاً عن الماضي مجهزاً بشفاعة رجل وجيه عند الحكومة يأخذه على عاتقه . ـ فالصائم يقبل طلبه بدون أن يثبت بياض ماضيه أو يحتاج إلى شفاعة أحد ـ بل بعزمه على استئناف حياة جديدة

وآصرة قويمة تشده إليه عز وجل شريطة أن يتحلل من تبعات الماضي الناشئة من ترك الواجب أو فعل الحرام .

فالمهم إذن بيان تلك التبعات ـ والتبعات إما للمخلوق ـ وإما للخالق ـ فالذي للمخلوق تارة تكون مادية ، وأخرى أدبية ـ فالمادية هي كل ما يثبت في ذمة العبد شرعاً لغيره ، سواء كان من دين ، أو استقراض ، أو سرقة ، أو من ناقل غير شرعي كالمال الذي يحصل عن طريق القمار ، أو الربا أو من بيع ما لا يجوز بيعه ، كالخمر والميتة ولحم الخنزير والنجس أو من بيع اللحوم المعلّبة المستوردة من بلاد غير المسلمين ، ولا وسيلة شرعية تثبت تذكيتها ، فالمال الحاصل من هذا كله ، عوضاً ، أو غيره يبقى على ملك مالكه الأول الذي انتقلت منه ـ أو كان المال الثابت في الذمة عن طريقه عز وجل ، وهو المال الذي فرضه سبحانه في مال العبد لغيره في بعض الأحوال ، كالزكاة والأخماس والكفارات ، وسائر الغرامات المالية ، فإنها بعد ثبوتها تعتبر ديناً كسائر الديون ـ والتحلّل منها لا يكون إلا بإيصالها لمالكها إذا كان معلوماً ـ وإلا فبمراجعة الحاكم الشرعي ليهديه سواء السبيل .

والأدبية ـ هي كل ظلامة ثبتت عليك من غيبة أو سباب أو نميمة أو بهتان وما إلى ذلك ـ والتحلل منها لا يكون إلا بإسقاط ذلك الغير حقه عن اختيار ورضى ، فإن لم يمكن التحلل منه إما

لأنه ميت أو غائب بحكمه ، أو لسبب آخر ـ فحسبك أن تستغفر له ، وتدعو له في مظان الاجابة .

والتي للخالق تارة تكون من قبيل الحقوق كالعبادات التي اشتغلت ذمة العبد بها من صلاة أو صوم أو حج ولم يؤدها في وقتها وقد فرض الله قضاءها ـ فالتحلل منها لا يكون إلا بالشروع في قضائها بالنحو الذي يستطيعه ـ وأخرى من قبيل الحدود والقصاص كالحدود المفروضة على الزاني من الجلد أو الرجم ، وعلى شارب الخمر من الجلد ، والسارق من القطع ، والقاتل عمداً من القتل أو الدية باختيار صاحب الدم ، والقاتل خطأ من الدية فحسب وغيرها من أنواع القصاص والحدود المدونة في باب الحدود والديات ـ فالتحلل منها لا يكون إلا بتوطين النفس على تحمل ذلك الحد وتلك الدية .

وربَّ سائل

إذا كان التائب في الوقت الذي يرجع فيه إلى الله عز وجل عاجزاً عن التحلل من تلك التبعات فما يصنع . « ألم يأمره الله بالتوبة » ألم يجعل الله عز وجل اليأس من كرمه ، والقنوط من رحمته من الكبائر .

ويجاب ، بأنه إذا فرض عجزه واقعاً عن التحلل من تبعة ما وقع فيه ، وعلم الله منه صدق النية أنه لو كان قادراً لبذل ما

يفرض عليه ، يغفر الله له بلا ريب ، ويستحيل أن لا يقبله مع دعوته إليه وهو أكرم الأكرمين ـ أما إذا كان قادراً ولم يفعل فلا يعد تائباً .

وخلاصة ما يقال في ذلك أن الله عز وجل جعل لكل إنسان السلطة الكاملة على أمواله في حياته وجعل له الحرية الكاملة في أن يخرج التبعات المالية كلها من أصل التركة ، وجعل له بعد إخراجها السلطة على ثلث الباقي من أمواله ليصرفه في باقي شؤونه الخاصة والعامة بعد وفاته من عبادات وغير عبادات من سائر وجوه البر والخير ـ كما أن له أن يقتصر على إخراج الثلث فقط من المجموع إذا كان يسع التبعات كلها المالية وغير المالية ، ـ وإن كانت التركة كلها لا تسع الجميع ، فيقدم التبعات المالية ، فإن فضل شيء فله ثلثه يصرفه في الأهم فالأهم ، وإن استغرقت الديون التركة يصبح فقيراً وحسبه عذراً عند الله عز وجل فقره .

وإذا خشي مفاجأة الموت وعدم المهلة ، فعليه أن يوصي ويعهد في وصيته إلى من يأتمنه على تنفيذها بالنحو المشار إليه ـ أما في هذه الأيام فحيث أن الوسيلة مفقودة إلا عن طريق القوة ، فلا بد أن يجعلها قانونية ليكون للوصي مجال للتنفيذ إذا وقف الوارث في طريقه ، وعرقلوا سيره .

وإن لم يتحلل منها في حياته ولم يوص بها بعد وفاته وفاجأه

الموت فيستكشف أنه مات غير تائب ويكون مرتهناً بها حيث يموت على الاسلام ، فإن قيض الله له صالحاً من ولد تقي أو صديق وفيّ ، يحفظه بعد موته بأدائها عنه ، فك رهنه ، والتحق بصفوف المتحررين ـ وإلا بقي مع المرتهنين بذنوبهم .

أما الوارث فإن كان عالماً بما على مورثه من تبعات ، فيجب عليه أن يخرج التبعات المادية كلها من أصل التركة لإناطة الإرث بإخراجها كما قال الله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ . ـ والمتحصل من الآية . أن عملية توزيع التركة على الوارث وإعطاء كلّ نصيبه المفروض له ـ لا تصح إلا من بعد إخراج ما أوصى به ومن بعد إخراج الدين ـ أما غيرها من التبعات العبادية والأدبية فلا يجب عليه وهو بالخيار إن شاء أدى وإن شاء لم يؤد ـ إلا ما فات الموروث من العبادات الصلاة والصوم في مرض الموت ، فعلى الأكبر من ولده أن يؤديه عنه في مقابل الحبوة .

وإن لم يكن الوارث عالماً بما على مورثه من تبعات مادية ، فليس عليه مؤاخذة ولا عقاب ويكون له المهنى وعلى الموروث الوزر ، يلحقه الحكم الوضعي اللاحق لمن أكل مال الغير أو مالاً مخلوطاً بمال الغير وهو جاهل به (كالشارب للسم جاهلاً به ، يتضرر صحياً به ولا يعاقب من قبل المولى عليه ، ـ ومن هذا يتضح أن المتهاون بوفاء ما عليه من الديون وبإخراج الحقوق

الشرعية المفروضة في ماله ، مضافاً إلى تهاونه بنفسه ، وتعرضه لسخط الله عز وجل ـ يعرّض ورّاثه للهلاك إن كانوا عالمين وتهاونوا مثله ، أو للضرر مادياً وصحياً واجتماعياً إن كانوا جاهلين .

أما ما كان من سنخ الحدود القصاص المترتب على الجرائم المذكورة آنفاً ، فحيث أن إقامتها منوطة بوجـود السلطان العادل ، أو نائبه الحاكم الشرعي المجتهد النافذ حكمه ـ فعلى التائب الصادق في توبته أن يقدم نفسه للسلطان أو نائبه ليقيم الحد عليه ـ وأن تعذر إقامة الحد لعدم وجود السلطان العادل ، أو لعدم نفوذ حكم المجتهد كما في زماننا غالباً فحسب التائب أن يعلم الله منه صدق النية أنه لو كان موجوداً لقدّم نفسه .

ورب سائل مستهجن ـ يقول : « أيمكن تكليف الانسان بتقديم نفسه للجلد أو الرجم أو القتل ، وهل هو إلا تكليف بغير المقدور ، ومحال على الله أن يكلف الانسان بما لا يقدر عليه .

ويجاب : بأن الله فرض القصاص في الدنيا لعلمه ، سبحانه بأن الحياة الهانئة والسلام والأمن وإشاعة الخير بين المواطنين ، واستدفاع الضرر والأذى ـ لا تحصل إلا بالقصاص وإقامة الحدود كما قال الله عز وجل : ﴿ ولكم في الحياة قصاص يا أولى الألباب ﴾ . ـ وفرضه على التائب وإناطة قبول توبته به ، . ليعلم المجرم القادم على الجريمة . أنه قادم على هلاك نفسه في

الدنيا والآخرة ، . والذي يعلم بخطر المسؤولية بعد الموت . يهون عليه أن يتحمل هذا العقاب الموقت المحدود في الدنيا في سبيل خلاصه من العقاب الدائم يوم القيامة .

وكثيراً ما يحدثنا التاريخ عن جماعة وقعوا في الجرائم من زنا أو شرب خمر . ثم جاؤوا إلى النبي (ﷺ) وبعض خلفائه طائعين ـ ليقيم عليهم الحد وهم يقولون : طهرنا يا رسول الله في الدنيا قبل الآخرة ـ كما أن القرآن الكريم يحدثنا بأن الله عز وجل أناط قبول توبته عن قوم موسى حين وقعوا في المعصية ـ بأن يقتل بعضهم بعضاً ولم يزل القتل فيهم من هجوم بعضهم على بعض حتى أمرهم بالكف قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ ٥٤ سورة البقرة ـ والحكمة بذلك ما ذكرناه .

فنلخص من ذلك . أن التوبة بالمعنى الثاني الذي ذكرناه لا تتحقق إلا بعد إعداد هذه المقدمات كلها من ترك المعصية ، والعزم على ترك العود إليها ، والتحلل من تبعات الماضي للمخلوق كانت أم للخالق مادية أو أدبية أو من الحدود والقصاص .

زكاة الفطور

وهي لغة النمو والزيادة ـ وشرعاً عبارة عن وجوب دفع مقدار

خاص من المال للفقير يوم العيد . والمصحح لتسمية هذا المقدار زكوة ، باعتبار ما له من الأثر الوضعي في نمو المال والبدن وحفظه من الطوارىء والموت . ووجه نسبته للفطرة وتسميته بها إما بمعنى الخلقة أي زكوة البدن ، أو بمعنى الدين أي زكوة الاسلام والدين ، أو بمعنى الإفطار لكون وجوبها يوم الفطر .

وحكمتها إنعاش الفقير في هذا اليوم ومساواته لغيره من الطبقات في مأكله ومشربه بل وملبسه ، لأنها لو دفعت مقدماً بعنوان القرض يستطيع أن يشتري بها شيئاً من الملبوس ـ ولو أن المسلمين الواجب عليهم إخراج هذا المال في كل بلد ـ حصروه في فقرائهم ـ لما كان فيها فرق بين الطبقات في هذا اليوم .

وكم في هذا الواجب الديني من حكمة اجتماعية وإنسانية تظهر حين يتلافى عوز الفقير مع أهله وأولاده ، فيخرجون مع الناس دون أن يشعروا بهوان أو حرمان ، ويرى الغني نفسه مرتاح الضمير ، مشرق الأسارير حين يتقدم الفقير مجبور القلب فيسلم عليه ويدعو له ، ـ وتنعكس الآية إذا رأى الفقراء والعمال أنفسهم محرومين مهانين والأغنياء معرضين متكبرين تستبد بهم العزة والكبرياء ، فتشتعل الضغائن في قلوبهم لتدفعهم يوماً ما ـ إلى الموقف الايجابي متنمرين مستميتين برفع أصواتهم تارة ، والمطالبة بحقوقهم أخرى وبالثورة الدموية ثالثة التي قد تنسف قصور الأغنياء ، وتبعثر أموالهم وتشتت أولادهم وتقدمهم أخيراً حطباً لجهنم .

والاسلام دين السماحة والرحمة ، دين التعاطف والمساواة. يتحرّى بكل تشريعاته إشاعة هذه الأخلاق بين الناس ، فيرفع من شأن الغني بسمو نفسه ورحمة قلبه وتواضعه وإيثاره بالقليل لغيره على عائلته ، ويرفع من شأن الفقير بسد عوزه ودفع ضروراته مادياً ، وإشعاره بالإعتزاز بدينه وتقواه ، ومساواته للغني في سائر الحقوق والواجبات الدينية والاجتماعية معنوياً . فتشرق الحياة بين المواطنين أمناً وطمأنينة وتبادلاً في العواطف وتقارباً بين القلوب .

يشترط في من تجب عليه أن يكون مكلفاً عاملاً حراً غنياً وقت وجوبها . وعدم وجوبها على العيد ولا على الفقير الذي لا يملك مؤ ونة سنته له ولعياله لا فعلاً ولا بالقوة أي أن عمله التدريجي الذي يعيش منه يقصر عن نفقاته الضرورية المتعارفة ، نعم يستحب له إخراجها ولو بأن يدير مقدارها على أفراد عائلته ثم يعطيها آخر الأمر لفقير من غير عائلته .

ويجب على الغني أن يدفعها مضافاً إلى نفسه عن كل من هو داخل في عيلولته عرفاً ليلة العيد حتى الضيف الذي يدخل منزله بعنوان الضيافة ـ صبيحة العيد قبل الذهاب إلى الصلاة ويبقى وقتها إلى الزوال مبتدئاً بالأهم فالأهم الفقير من أرحامه ثم من بلده ثم البعيد عنها إن لم يكن فيها ولا يجوز تأخيرها إلا إذا عيّنها في شيء خاص ليدفعها لفقير معين من أرحامه أو غيرهم لم يكن موجوداً وتبقى ديناً في ذمته إن تركها عصياناً .

والفطرة صاع شرعي من الطعام المتداول استعماله كالحنطة وأمثالها ، وهو في عيار الاسلامبول المتعارف حقتان وثلاثة أرباع الأوقية ومثقالان إلا ربع ، ومن أخرج كيلوين وثلاثة أواق إسلامبول تبرأ ذمته يقيناً ويخير المكلف بين دفعها طعاماً أو ثمنه نقداً ، وأقل ما يعطي الفقير فطرة واحدة أي صاعاً كاملاً من طعام أو ثمنه ويجوز إعطاؤه أكثر من فطرة إلى المئة فصاعداً ما دام مستحقاً .

عيد الأضحى

وهو يوم العاشر من ذي الحجة الحرام يوم عظم قدره عند الله عز وجل ـ لأنه يوم يكمل القاصد لبيته الحرام فيه مناسكه في منى . من رمي الجمار وتقديم القربان أي الأضحية صحيحة سالمة والحلق والتقصير ، ثم يذهب إلى مكة فيطوف طواف الحاج ويسعى بين الصفا والمروة ثم يطوف طواف النساء ويرجع إلى منى فيقيم فيها أيام التشريق العاشر والحادي عشر والثاني عشر إلى ما بعد الظهر .

ولله سبحانه لحظات كريمة رحيمة لعباده المطوّفين في بيته ، الخاشعين في موقفهم في ذلك الصعيد الواسع ، عرفات ـ ما بين ظهر اليوم التاسع إلى الغروب ، المزدلفين ليلة العاشر إلى المشعر الحرام ثم بعد صلاة الصبح إلى منى يبتغون في كل ذلك أداء ما

فرضه الله عليهم . وشمولهم بلحظاته سبحانـه الرحيم ، ليرجعوا بعدها وقد صهرتهم هذه الشعائر المقدسة العظيمة في بوتقتها الاسلامية العليا . مطـهّرين . صافية نفوسهم ، نقيًة ضمائرهم ، بعيدة هممهم ، يشعرون بالاعتزاز بنعم الله عليهم أن وفّقهم وقبلهم وغفر لهم ذنوبهم .

وقد ندب الله عز وجل عباده المسلمين في كل بلد إسلامي . ممن لم يسعدوا بحج بيته ، وإقامة شعائره هناك ـ أن يتشبهوا بأولئك السعداء في عملهم . فيزحفون من بيوتهم منذ طلوع الشمس مغتسلين وقد لبسوا ثياباً نظيفة من الوسخ الظاهري ، والوسخ المعنوي الحرام ، بمعنى أنها لم تكن مغصوبة أو مسروقة أو لم يكن ثمنها مغصوباً أو مسروقاً أو محقوقاً للفقراء ـ كما يزحف الحاج من المشعر الحرام في ذلك الوقت إلى (منى) مئتزراً بثوبي إحرامه الشبيه بالكفن وقد تحرّى جهده أن لا يكون فيه ولا في ثمنه أقل شائبة من الحرام ، ويتحرّى كل منهم صلة أرحامه والفقراء من بلده قدر طاقته لتتناثر بذلك عنه ذنوبه وسيئاته ـ كما يذهب الحاج فور وصوله إلى ـ منى ـ ليرمي الجمار أو الشيطان ـ كناية عن البواعث والدوافع لارتكاب الخطايا والذنوب ، ويقدم الأضحية عنه وعن أولاده ومن إليه بقصد الامتثال لأمر الله عز وجل والأستنان بسنة محمد بن عبد الله (ﷺ) ، فيتصدق بثلثها على جيرانه وبالثلث الثاني على الفقراء ويمسك الباقي لأهله ـ كما يذهب الحاج فيقدم قربانه وأضحيته ثم يذهب إلى الصلاة

فيؤديها جماعة مع مسلمي أهل بلدة بخشوع وإخلاص ، وينعطف بعدها إلى أفراد الجماعة وغيرهم فيتبادلون المصافحة والمسامحة والتزاور

أجل تدبهم الله عز وجل ليشملهم برحمته وعطفه ولا سيما إذا كانوا ممن أقعدهم عن الحج الفقر أو العجز أو غيرهما من الموانع العرفية ـ وليست هذه الواجبات العامة والاجتماعية إلا لطفاً من الله بعباده وهو اللطيف ورحمة لهم وهو الرحيم ليعرضهم لكل ما يرفع مستواهم الانساني تصفية للنفوس ، واندفاعاً في مجالات البر ، وتواضعاً لله عز وجل ولعباده ، وارتفاعاً عن الحيوانات الضارة ، والذئاب المفترسة ، والكلاب المتهاوشة إذ لا يميز الانسان عنها إلا أن يعيش بعقله لا بهواه ، وبإنسانيته لا حيوانيته .

ملاحظة

ورد في فصل الأضحية من الأخبار عن رسول الله (ﷺ) انه قال : « الأضحية واجبة على من وجد (أي يمكن من صغير أو كبير وهي الهدى والاسلام) » . وقد سأله رجل عن الأضحى فقال : هو واجب على كل مسلم إلا من لم يجد فقال له السائل : فما ترى في العيال قال : إن شئت فعلت وإن شئت لم تفعل فأما

أنت فلا تدعه ، وعن محمد بن بابويه عليه الرحمة فيما ذكره عن أم سلمة رضي الله عنها : أنها جاءت إلى النبي (ﷺ) فقالت : يا رسول الله يحضر الأضحى وليس عندي ثمن الأضحية فأستقرض وأضحي قال فاستقرضي فإنه دين مقضي . وعن أبي جعفر بن بابويه في كتاب (من لا يحضره الفقيه) قال : وكان رسول الله يضحي بكبشين يذبح واحداً بيده ويقول : اللهم هذا عني وعمن لم يضحّ من أهل بيتي ويذبح الآخر ويقول : اللهم هذا عني وعن من لم يضحِّ من أمتي .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هـ ٢٧٠٤٠١

سلسلة مختارات اسلامية

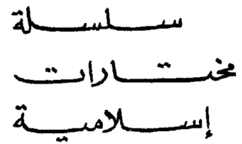
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

التربية والتعليم في العصور الإسلامية

(١)

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

التربية والتعليم
في
العصور الإسلام

١

دار الفكر اللبناني



التربية والتعليم في العصور الاسلامية

- ١ -

لا يتفق جميع الباحثين والمربين ، على تعريف واحد للتربية ، ولكنهم يكادون يجمعون، على أنها تشمل أشياء أخرى ، غير المباحث التي تعلم في المدارس والجامعات . فمن معانيها الكثيرة ، حسن السلوك ، والتفكير الصحيح ، والحصول على معرفة كافية بالناس والأشياء ، وحفظ الجسم بصورة قوية سليمة . ويمكن أن تلخص ذلك في جملة قصيرة يقصد بالتربية اجمالاً ، إعداد الانسان للحياة ، إعداداً يتناول بدنه وعقله وروحه .

تعريفات

أما تعريف التعليم ، فأسهل من تعريف التربية ، وذلك لأن التعليم في كل العصور ، له علاقة بالمعلم والمتعلم والعلم ، ومكان ذلك ، وهو المدرسة ، ووسائله وهي الكتب والبرامج . فالتعليم هو أن يوصل المعلم المعرفة إلى المتعلم ، بالصورة المناسبة ، في الوقت المناسب ، والمكان المناسب ، وقد يختلف

نوع العلم ، والمعلم ، والمتعلم ، والمدرسة ، والكتاب ، ولكن الغاية واحدة ، وهي الحصول على المعرفة .

وعلى هذا ، يكون معنى التربية أوسع من معنى التعليم ، ولكنه لا يستغني بالواحد منهما عن الآخر . فالتعليم يمكن اعتباره من وسائل التربية ، ولكن قد توجد التربية بلا تعليم . أي أن التربية أوسع نطاقاً من التعليم . فالبدوي الجاهلي الأمي ، كان له نصيب من التربية دون التعليم ، بينما العربي المسلم القارىء الكاتب ، في صدر الاسلام ، كان له مثل نصيب البدوي من التربية ، ونصيب كاف من التعليم . وللتدليل على ذلك أذكر وضعاً لغوياً طريفاً ، نشأ دون أن نلاحظه في استعمال كلمة (المعلم) و (المربّي) فالأولى نطلقها على المعلم العادي ، والثانية أي المربي ، لا نطلقها إلاّ على المعلم الكبير ، الذي نال قسطاً كافياً من التربية والتعليم .

وكلمة التربية حديثة الوضع في لغتنا بهذا المعنى ، ولهذا نجد المؤلفين والباحثين في هذا العصر ، لا يستغنون بها عن أختها ، فمعظمهم يقولون (التربية والتعليم) عندما يريدون الاشارة إلى مجموع ما تدل هاتان الكلمتان عليه ، لأن (التربية) فيها معنى الثقافة ، بينما التعليم فيه معنى إيصال المعرفة وتلقيها . والأمران معاً يؤديان معنى لفظة (Education) ، أما الوزارة أو الادارة ، التي تشرف على شؤون التربية والتعليم ، فقد أطلق عليها

الأتراك لفظة (المعارف) . وسارت جميع البلاد العربية على هذا النحو . ولو تدبرنا المقصود من كلمة التربية والتعليم (Education) كما شرحته سابقاً ، لوجدنا أن كلمة (المعارف) لا تكفي للدلالة عليه ، بل ربما كانت لا تكفي لوصف المصلحة القائمة على ذلك وصفاً تاماً . ولكن الناس درجوا على استعمالها ، وصارت مألوفة لديهم .

التعليم في القديم

عرفت مصطلحات البحث ، وبقي علي الآن أن أحدد البحث نفسه . وسأحاول أن أبحث بعض نواحي التربية والتعليم في تاريخ الاسلام . ولست أدعي الاحاطة ، ولا الوصول إلى نتائج حاسمة ، فذلك غير ممكن ، ولكني سأكتفي بذكر حقائق تاريخية ، أفسرها كما يتراءى لي ، وأحلل بعض الأفكار ، وأزنها بميزان العقل والبحث العلمي . وقد اخترت أن أبدأ بحثي من ظهور الاسلام ، لأن طلب العلم بدأ ونما وتطور ، منذ ظهور الاسلام . ولكني أقول إن ظهور المدارس المنظمة ، لم يكن إلّا في العصور المتأخرة ، والبحث في التربية والتعليم قبل القرن العاشر للميلاد ، هو في الحقيقة ، بحث في طلب العلم ومادته ، وشؤون العلماء والمتعلمين وآرائهم ، لا في نظام للتربية معروف ، أو مدارس لها برامجها ومناهجها ، تديرها

الدولة ، وتشرف عليها المؤسسات الأميرية ، وتكون دائرة خاصة من دوائر الحكومة .

التعليـــم

فطلب العلم إذاً ، كان حرّاً ، لا تشرف عليه الدولة . فلم تكن للمعارف وزارة أو ديوان ، كديوان الجيش أو ديوان الخراج . ولكن ذلك ، لم يقلل من شأن العلم في نظر الدولة والناس إجمالاً . ولعمري أن هذا شرف للعرب غير قليل ، إذ بلغوا درجةً عاليةً في جميع نواحي العلم والمعرفة ، دون أن تقودهم إلى ذلك سلطة الملك . . صحيح أن التاريخ ، قد ذكر كثيراً من الخلفاء والعظماء ، الذين شجعوا العلم ، ودفعوا للعلماء المال ، وأنشأوا دور الكتب العامة ، أو فتحوا المعاهد للبحث والدرس ، ولكن ذلك لم يكن سياسة عامة ، بل كان يتوقف على رغبة الخليفة أو العظيم نفسه ، وعلى سخاء يده ، وعلى ظروف زمنه ، فبعضهم كان يفعل ذلك ، رغبة في نصرة مذهب على آخر ، وبعضهم كان يفعله ، إعلاء لشأن ملكه وإسم عشيرته ، وبعضهم كان يفعله لوجه الله .

العلم الديني والدنيوي

فالمقصود من درس التربية والتعليم في تاريخ الاسلام ، هو إذاً درس حركة طلب العلم الديني والدنيوي ، التي ابتدأت

بالبعثة النبوية . ولكني سأجعل البحث على مراحل ، تتناول المرحلة الأولى ، صدر الاسلام إلى نهاية الدور الأموي . وتتناول المرحلة الثانية ، الدور العباسي إلى نهاية القرن العاشر للميلاد . وتتناول المرحلة الثالثة الدور العباسي الأخير ، إلى ظهور الأتراك العثمانيين . وسأحاول أن أحصر بحثي ، ضمن نطاق التعريفات السابقة ، للتربية والتعليم والمعارف ، وطلب العلم . وسأقتصر على بعض الحركات الفكرية في تاريخ الاسلام ، فأجعل كلَّ حركة ، تمثل الدور الذي ظهرت فيه .

الأسس التربوية قبل الاسلام

قد فرغت الآن من تعريف المصطلحات ، وتحديد البحث ، وسأمهد لكلامي ، عن (التربية والتعليم في صدر الاسلام) بكلمة قصيرة ، عن أسس التربية والتعليم قبل ظهور الاسلام . وقد تستغرب مني هذه الجرأة ، حين أقول بوجود التربية والتعليم قبل الاسلام . والحقيقة أن لا غرابة في الأمر ، إذا رجعنا إلى التعريف الذي وضعته للتربية فيما سبق . فالتربية في الجاهلية الأخيرة ، أي القرن الذي سبق ظهور الاسلام ، كانت في الدرجة الأولى ، نتيجة مران وتثقيف يتناول جميع وجوه الحياة . يتعلم فيها العربي بالقدوة تارة ، وبالتلقين تارة أخرى .

ويذهب بعضهم إلى القول ، بوجود المدارس عند الحضر من العرب في الجاهلية ، ويشيرون إلى وجود بعض الآثار التي تدل على ذلك . . ربما لا يخلو هذا من مبالغة ، لكن النقوش التي وجدها الباحثون ، تدل على وجود الكتابة ، كما تدل آلات الزراعة والعمارة على وجود علم وحساب ، وكما يدل الشعر الذي وصلنا ، على نفوس عالية وعقول مرهفة ، وكما تدل أخبار الحروب والأيام ، على بطولة وشدة . . فالحياة في الجاهلية ، (حياة الحضر وحياة البدو) ، كانت تخضع لبعض نظم في التربية والتعليم ، تساعد على إعداد الرجال والنساء للحياة ، وهذا كله من مطالب التربية .

أما التعليم فلا أستطيع أن أؤكد وجود المدارس ، ولكني أستطيع القول بوجود من يعلم ومن يتعلم ، وكان ذلك بالطبع مقصوراً على أمور أولية ، أساسها القراءة والكتابة وشيء من الحساب ، وأخبار الماضين ، ورواية الشعر ، والقصص . والظاهر أن ذلك كان يتم بطريقة بسيطة ، قائمة على طرفين (الذي يتعلم والذي يعَلِّم) ، ولا أقول التلميذ والمعلم ، لئلا ينصرف الذهن إلى المدرسة .

التعليم في الحضر

وقد جاءنا في أخبار الجاهلية ، شيءٌ عن أهل الكتاب ،

وعملهم كمعلمين لبعض العرب ، ولكنهم كانوا عادة يسكنون المدن ، وتأثيرهم في هذه الناحية يكاد يكون محصوراً في الحضر لا في البدو . وقد جاءنا أيضاً خبر الحنفاء ، الذين ظهروا قبل الاسلام ، فبعضهم كان يعرف القراءة والكتابة . وجاءنا أيضاً أن بعض التجار والزعماء ، كانوا يقرأون ويكتبون ، وهذا يفسر وجود بعض الكتّاب عند ظهور الاسلام ، ومنهم عمر وعليٌّ ومعاوية .

لكنه لا يجوز أن يحسب هذا ، دليلاً على وجود المدارس ، وانتشار والمعلمين والمتعلمين في الجاهلية . فوجود المدارس أمر يحتاج إلى إثبات ، مع أن فُشُوَّ الأُمِّيَّة فشوّاً فاحشاً في البادية ، أمر يكاد يكون الإجماع عليه تاماً . أما وجود بعض القادرين على القراءة والكتابة بين الحضر وبين بعض البدو ، فأمر لا يمكن نكرانه . هذا مع العلم بأن التربية الجاهلية ، كانت قوية في نواحيها المختلفة . فالعربي في الجاهلية كان قوياً في ذهنه ، قوياً في روحه ، قوياً في بدنه ، مع إفراطٍ سببه حياة البداوة ودواعيها . فلما جاء الاسلام وضع حدوداً لهذا كله ، ووجهه في وجهة الخير ، وبدأ عهد جديد في حياة العرب ، فيه تربية يعاونها تعليم ، وفيه تعليم أساسه تربية . وهذا التعاون بين التربية العربية ، والتعليم الاسلامي ، هو موضوع الفقرة التالية .

- ٢ -

الدين والأخلاق

سنتناول هنا ، بحث بعض مظاهر التربية والتعليم ، من ظهور الاسلام ، إلى انتهاء عهد بني أمية . وسيكون كلامنا ضمن النطاق الذي حددناه قبلاً ، وبحسب التعاريف التي وضعت لمصطلحات البحث . فالتربية هي إعداد الانسان للحياة إعداداً ، يتناول الجسم والعقل والروح . والتعليم هو أن يوصل المعلم المعرفة إلى المتعلم .

يتكوّن أساس تاريخ العرب من ثلاثة عناصر وهي : الدين الاسلامي ، والأخلاق العربية ، والمدنية الاسلامية العربية ، التي نشأت بالنقل والترجمة والإبداع . والبحث في التربية والتعليم ، في العصور الاسلامية ، له صلة وثيقة بنشوء الاسلام وانتشاره ، وبالأخلاق العربية ، وبالمدنية الاسلامية العربية في أدوارها المختلفة . فكانت التربية ، وكان التعليم ، يخضعان في أصولها ، وأساليبها ، وأغراضها ، لهذه العناصر الثلاثة . فالدين الاسلامي ، كان الباعث الرئيسي للتعليم في تاريخ العرب ، كما كانت الأخلاق العربية ، الأساس المتين للتربية ، وكما كانت المدنية الاسلامية العربية ، المادة الفيَّاضة لهذه التربية ، وذلك التعليم .

الأساس الصحيح للتربية

جاء الاسلام ، فرفع شأن العلم ، وحثَّ على مكارم الأخلاق ، وشرع نظافة البدن وقوته . وهذه الأمور الثلاثة كما لا يخفي ، هي أساس كل نظام صحيح للتربية والتعليم . ولكني أرى ، أن أثر الاسلام في عهده الأول ، كان في ناحية التربية أولاً ، والتعليم ثانياً . والدليل على هذا ، أن انشاء المدارس جاء متأخراً ، وأن حركة تعليم القراءة والكتابة ، لم تكن عامة ، مع أن الرسول والخلفاء والأمراء وسواد الناس أيضاً ، كانوا لا يستبدلون بسموِّ الخلق وشدَّة التقوى ، والرجولة الكاملة شيئاً . فالتربية عندهم ، تجيء قبل التعليم في الأهمية .

تذكر كتب التاريخ ، أنه كان في العرب بضعة نفرٍ ، يعرفون القراءة والكتابة . ويفهم من صيغة هذا الخبر ، ومن القرائن الأخرى ، أن ذلك كان يعد من المؤهلات النادرة . وتذكر هذه الكتب أيضاً ، أن النبي (صلعم) ، جعل بدل فداء الذين يعرفون القراءة والكتابة من أسرى قريش ، تعليم عدد من المسلمين الأوَّلين ، القراءة والكتابة . وتدل هذه الرواية التاريخية ، على أمرين ، أولهما : فشوُّ الأمية بين المسلمين الأولين ، وعدم وجود من يعلمهم ، وثانيهما : اهتمام النبي (صلعم) ، بالقراءة والكتابة . ولا عجب في ذلك ، فالقرآن الكريم ، فيه آيات بليغة في الحثّ على طلب العلم .

جاء في التنزيل الحكيم : « يَرْفَعِ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُم والَّذينَ أُوتوا العِلْمَ دَرَجاتٍ » . وقال تعالى : « شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ والملائِكَةُ وأُولُو العِلْمِ قائِماً بِالقِسْطِ » . ففي الآية الأولى ، قُرِنَ بالإيمان بالله ، وفي الآية الأخرى ، جاء ذكره اللمِ بعد الله سبحانه وتعالى والملائكة . وهذا كله رفع لشأن العلم والعلماء .

وجاء من ذلك في الحديث الشريف : « العلماء ورَثَـةُ الأنبياء » . وقال (صلعم) : « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك به طريقاً من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم » . وقال (صلعم) : « من عرف نفسه عرف ربَّه » . ولا يخفي أن صفة (العلم) هي من الصفات التي يتصف بها الخالق سبحانه ، في القرآن الكريم . وكما لا يخفي أن (العلم) هو أهمُّ الصفات التي أجمع المؤرخون على إطلاقها ، على سيدنا عليٍّ ، أقرب المقرَّبين إلى النبي (صلعم) .

مبدأ العلم

كان مبدأ طلب العلم قراءة القرآن الكريم ، وحفظ آياته ، وفهم معانيه . وهذا في رأيي ، هو مبدأ التعليم ، وتوجيه جديد للتربية في تاريخ العرب . وأثبت ذلك بالرجوع إلى حقيقتين

تاريخيَّتين ، الأولى تدوين القرآن ونشره ، والثانية عمل القرّاء ـ حفظة القرآن الكريم ـ في نشر العلم والتعليم . وإني أعد القرّاء ، أول المعلمين في تاريخ الاسلام ، لأنهم كانوا يعلمون الناس قراءة القرآن أو استظهاره . إن الخلفاء الراشدين ، يرسلون إلى الأمصار المفتوحة ، يعلمون الناس القرآن الكريم . بالتلقين والحفظ أولاً ، ثم بهما مع الكتابة ثانياً . وأقدم نصٍّ يشير إلى ما فعله عمر ، (رضي الله عنه) ، في السنة السابعة عشرة للهجرة . لكنه لم يثبت أنّ كل قارىء منهم كان كاتباً أيضاً ، إذ كان القارىء في الحقيقة حافظاً قبل كلِ شيء . أما مقدرته على الكتابة ، فشيء محمود إذا كان حاصلاً ، ولكن عدم حصوله ، لم يمنع القارىء من التلاوة والحفظ .

أول المعلمين وأول المدارس

وعلى هذا فتدوين القرآن الكريم ، يعد من أهم الأعمال الدينية والعلمية ، في تاريخ الاسلام ، لأن استشهاد كثير من القراء في الحروب ، ترك مجالاً للاختلاف في الرواية ، فكتب القرآن الكريم ، في زمن عثمان (رضي الله عنه) وارسلت منه النسخ إلى الأمصار . وكان هذا مبدأ حركة طلب العلم ، والاهتمام بالكتابة .

نرى أن القرّاء أول المعلمين ، ونرى كذلك أن الجوامع أول المدارس ، في تاريخ الاسلام ، فكان القرّاء يتلون القرآن ، على الراغبين في العلم ، في المكان المخصص للصلاة ، ويعلمون القراءة والكتابة لمن شاء ، في أي مكان آخر أي إنه ربما يصح إطلاق إسم المدرسة ، على كل بيت أو مكان يجتمع فيه الذي يتعلم ، والذي يعلم لهذا الغرض . ولكن تعليم القرآن ، أو تعليم القراءة والكتابة أو غير ذلك ، من الحساب أو الشعر أو القصص ، كان يتم دون نظام معروف . والظاهر أن التعليم ، كان مجّاناً لوجه الله ، في أوائل صدر الاسلام ، ولا نجد رواية عن الأجور والتكسب ، إلا في الأدوار التي جاءت بعد ذلك .

التعاليم والعادات

فالتعليم في زمن الرسول (صلعم) ، والخلفاء الراشدين ، (رضي الله عنهم) كان إذاً يتناول ناحيتين ، الأولى : حفظ القرآن الكريم وتلاوته وفهم معانيه ، والثانية : القراءة والكتابة ومبادىء الحساب والشعر والقصص . أما التربية ، فكانت خاضعة لتعاليم الاسلام من جهة ، ولعادات العرب من جهة أخرى . وأساسها : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمروءة وضبط النفس والكرم ، والعفو عند المقدرة . . كان يمكن أن يتعلم المسلم العربي ، القرآن الكريم ، والقراءة

والكتابة ، في الجامع أو في البيت ، ولكن تربيته كانت تعتمد على القدوة والمحاكاة ، ـ القدوة برسول الله (صلعم) ، ومحاكاة خلفائه وأصحابه . وإذا قيس نظام التربية والتعليم بنتائجه ، جاز لنا أن نقول ، إنَّ المبادىء البسيطة ، التي سادت عصر الخلفاء الراشدين في هذا الباب ، نشأ عنها خير النتائج . . . صحيح أنها لم تنتج العلماء الكبار ، ولكنها أنتجت الرجال الكبار .

تعلم النطق الصحيح

ونرى في الانتقال إلى العهد الأموي ، شيئاً من التقدم في ناحية التعليم ، ولكن نلحظ شيئاً من الاضطراب في التربية . وتذكر المصادر ، أن خلفاء بني أمية كانوا يهتمون اهتماماً خاصّاً ، بتربية أبنائهم وتعليمهم . فمثلاً كانوا يرسلون الصبي إلى الصحراء ، ليتعلم النطق بالعربية الصحيحة ، وليتعود حياة الشدة والقوة . وكانوا يعينون (المؤدب) ، ليقوم على تعليم الصبي ، القرآن الكريم ، والقراءة والكتابة ، والحساب والقصص والشعر . ويجد الباحث في كتب الأدب والتاريخ كلمة (كتَّاب) ، ويرجع بها مؤلفو هذه الكتب ، إلى أوائل القرن الثامن للميلاد ، أي المدة الأخيرة لبني أمية . ويذكرون كذلك ما يدلُّ على ظهور المعلم المحترف ، والمعلم المتكسّب .

الكتاب والمؤدب

ونجد ما يدل على أن أبناء الخاصة ، كانوا ينالون قسطاً لا بأس به من التعليم ، مع شيء من التهذيب والتربية ، يتناول النواحي الثلاث في الحياة - (الناحية الروحية والعقلية والبدنية) . ونجد أيضاً ، ما يدل على أن الناس إجمالاً ، كانوا يعنون بتعليم أبنائهم ، وتهذيبهم ، وتربيتهم ، عناية كافية . فوجود (الكتّاب) و (المؤدِّب) ، وذكر الأجرة ، يدل على أمرين ، الأول رغبة الناس في التعلم ، واستعدادهم لدفع المال في هذا السبيل ، والثاني ظهور الرغبة في طلب العلم الدنيوي ، ابتغاء لمنافع دنيوية ، لا إبتغاء لوجه الله فقط . وفي هذا ، ما يدل على إتساع نطاق التعليم ، في عهد بني أمية ، عما كان عليه في زمن الرسول والخلفاء . وذلك طبيعي ، أولاً لأن حياة العرب في خارج الجزيرة ، كانت حياة مدنيةٍ تتطلب القراءة والكتابة ، وثانياً لأن بني أمية ناصروا السيادة العربية دون السيادة الاسلامية ، فكان لا بد لهم من الالتفات إلى الدنيا ، أكثر من الالتفات إلى الدين .

- ٣ -

تقدم واضطراب

أشرنا إلى نقطة طريفة ، وهي التقدم الدي يلاحظه الباحث في التعليم ، والاضطراب الذي يصادفه في التربية ، كما كانا في

عهد بني أمية . وسيكون همّنا أن نشير إلى موطن ذلك التقدم ، وهذا الاضطراب . فمن مظاهر التقدم في التعليم ، وضع قواعد الخط العربي ، واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة ، وظهور طبقة من الناس ، اتخذت (تعليم الصبيان) عملاً لها . ومن مظاهر الاضطراب في التربية ، سياسة بني أمية ، في إيثار العنصرية العربية ، وما نشأ عن ذلك من فرق سياسية ودينية ، مختلفة في مُثُلِها وغاياتها ، وما دخل على العرب من آراء ، جاءتهم عن طريق الروم والعجم .

الخط العربي

إن نشوء الخط العربي ، أمرٌ غامض في التاريخ ، لكن الشائع عند كتّابهم ، أن الخط الذي عرف في الحجاز ، قبل ظهور الاسلام ، منقول عن أهل الحيرة والأنبار ، ويرجع بأصله إلى الخط المسند . ومن هذا الخط الحجازي ، نشأ الخط الكوفي بعد الاسلام ، وهو يمتاز عن الحجازي ، بتجويد شكله وهندسة حروفه . ومن هنا كان الخط الحجازي يستعمل في الكتابة العادية ، والكوفي في الكتابة الزخرفية .

وأشهر الذين كتبوا في صدر الاسلام أربعة ، وهم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد

الرحمن بن الحارث بن هشام . وهم الذين كتبوا المصاحف لعثمان (رضي الله عنه) . وكانت الكتابة بلا إعجام (أي تنقيط) ولا شكل ، إلى أن وضع أبو الأسود الدؤلـيّ ، العلامات للشكـل ، وإلى أن وضعت بأمـر الحجاج نقط الإعجام . .

والشائع أن ذلك تم في خلافة عبد الملك بن مروان . ولا عجب أن يكون للحجاج يد في ذلك ، فقد اشتغل بتعليم الصبيان ، ورأى صعوبة عدم التنقيط ، للمعلم والمتعلم على السواء ، كما لا عجب أن يكون لأبي الأسود الدؤ لي ، يد في وضع الشكل ، لما هذا من علاقة بالنحو .

ضبط الكلام

وجاء بعد تحسين الكتابة (الخطّ) ، ضبط الكلام العربي ، بوضع القواعد له . والمعروف أن أبا الأسود الدؤ لـيّ بدأ ذلك ، ويقال إنه تعلمه من عليّ (رضي الله عنه) ، وكان ذلك بالبصرة ، ثم ظهر مثله في الكوفة . وحركة درس قواعد اللغة هذه ، هي أصل المذهبين المشهورين في النحو ، مذهب البصريين ، ومذهب الكوفيين .

إنَّ ضبط الخط العربي ، ووضع القواعد للُّغة العربية ، يعد

في نظري من أهم الخطوات الكبرى ، في تقدم التعليم في تاريخ الاسلام . فهذا سهَّل مهمة المعلم والمتعلم ، ونشط حركة التدوين ، وأعان ما تم من نقل وتأليف . ولا يخفي أن وجود الكتابة ، هو أساس كل نظام للتعليم ، بخلاف التربية التي لا ضرورة لازمةً للكتابة فيها .

العربية لغة الدواوين

أما اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، فهو أيضاً من أهم الخطوات الكبرى ، في تقدم التعليم في هذا الدور . . جاء العرب إلى الشام والعراق ومصر ، فأبقوا الناس على ما هم عليه . وبلغ بهم التسامح ، أن جعلوا سجلات دولتهم ، بأيدي كتّاب من الروم والكلدان والقبط ، يكتبونها بلغة البلد ، وبحسب ما تعوده في زمن سادتهم السابقين . واستمر العرب على هذه السياسة ، إلى زمن عبد الملك بن مروان ، فأمر أن تكون لغة دواوين الدولة ، باللغة العربية دون سواها . ونرى لهذا التغيير سببين ، الأول تنفيذ سياسة بني أمية ، وهي إعلاء شأن العرب بإعلاء شأن لغتهم ، والثاني إتساع نطاق الدولة ، واتخاذها صورة مدنية ، لا غنى فيها عن الكتابة بلغة الملك .

ليس من الهين إلقاء القول جزافاً ، ولكن لو تقدم هذا

القرار ، باتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، لتقدم ضبط الخط العربي ، ووضع قواعد اللغة ، ولتقدمت أيضاً حركة التدوين ، ولتقدمت أيضاً نهضة الترجمة والتأليف . أي كان بالامكان ، أن يطول عمر الثقافة العربية والمدنية الاسلامية ، وأن تنشأ المدارس ، وتقوم حركة التأديب والتعليم ، مباشرة بعد ظهور الاسلام ، أو حالاً عند خروج العرب من الجزيرة . . من هذا تظهر الأهمية الكبرى ، التي نعلقها من وجهة التربية والتعليم ، على إتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، في دولة بني أمية .

التعليم

أما المظهر الثالث من مظاهر التقدم ، فهو وجود طبقة من (معلمي الصبيان) . وذهب بعض الباحثين ، إلى أن معظم المعلمين في صدر الاسلام ، كانوا من الموالي . ويقولون إنّ سبب ذلك ، اشتغال العرب بالحرب ونشر الاسلام ، واحتقارهم المهن والحرف . ولا نتردد أبداً في رد هذا الرأي ، ففيه مخالفة للحقائق التاريخية من جهة ، وفيه تفسير خاطىء لها من جهة أخرى .

لا ننكر أن بعض الخاصَّة من الخلفاء والأمراء في الشام ، قد اتخذوا مؤدِّبين لأولادهم . ولا ننكر أن عدداً من الذين اشتغلوا بتعليم الصبيان في صدر الاسلام ، كانوا من الموالي من غير

ألعرب ، وبعضهم كانوا من النصارى أو اليهود العرب . ولكن عمل هؤلاء ، كان يقتصر على الناحية المدنية ، أي تعليم القراءة والكتابة والحساب ، وقليل من الشعر والأخبار .

التربيــة

أما التربية والتثقيف والتهذيب ، فكانت كلها موكولة إلى القرّاء ، ـ قرّاء القرآن الكريم . . وهذه هي الناحية الدينية للتربية والتعليم في هذا الصدر . وهذا التمييز بين الطبقتين من المشتغلين بالتعليم والتهذيب ، يفسر التضارب بين آراء المؤلفين الكبار في قيمة المعلم .

فالنوادر التي يذكرها الجاحظ عن المعلمين ، لا يمكن أن تكون موجهة لأناس كانوا يعلمون القرآن الكريم . وأقرب إلى الصواب والمنطق ، أن نقول ، إن الناس كانوا يتجرّأون بمثل ذلك على المعلمين ، من الموالي وأهل الكتّاب ، دون غيرهم .

وتذكر كتب الأدب والتاريخ ، أسماء رجال كبار ، اشتغلوا بتعليم الصبيان ، منهم القائد الكبير الحجّاج بن يوسف ، والكاتب الشهير عبد الحميد الكاتب ، والرواية القارىء أبو عمرو بن العلاء . فهذه الطبقة من المعلمين ، هي التي يصفها إبن خلدون في كلامه عن المعلمين بقوله عن أهل الأنساب والعصبية : أنهم لا ينطبق عليهم ، ما كان الناس

يتناقلونه عن حمق المعلم وقلة عقله . ويدل على ذلك ، أن الحجاج ، وهو قائد كبير ، قد عُـيِّـرَ بأنه كان يوماً معلماً ، أي من هذه الطبقة الموصوفة بتلك الصفات . .

وسائل التربية

أما مظاهر الاضطراب في التربية في هذا الدور ، فأولها ما نشأ عن سياسة الدولة . . تكاد وسائل التربية والتعليم في الجاهلية ، تنحصر في الشعر ، والأخبار ، والعرف البدوي في السلوك ، والحروب ، والأيام . وتكاد تكون وسائل التربية والتعليم ، في زمن الرسول والخلفاء الراشدين ، تنحصر أيضاً في القرآن الكريم ، والقدوة بالرسول والصحابة ، والشعر والأخبار . أما في عهد بني أمية ، فتكاد تكون محصورة في أخبار الجاهلية وأشعارها ، والعُرف العربي في السلوك ، والقرآن الكريم . أي أن بني أمية ، رجعوا بالتربية ـ إلى الجاهلية ، في كثير من مُثُلِها ووسائلها .

كان من نتائج السياسة التي سار عليها بنو أُمـيّة ، أن نشأت أحزاب أخرى ، دينية وسياسية ، تسعى لتثبيت مُثُل الاسلام . ونذكر من هذه الأحزاب أو الفئات : القرَّاء ، والزُّهَّاد ، والخوارج .

زيادة الاضطراب

واستمر كثير من الصحابة والتابعين ، حفظة القرآن الكريم والحديث الشريف ، يعلمون الناس ويهذبونهم . وظهرت طبقة من الزهاد ، هـمُّـهم الابتعاد عن الدنيا ، ودرس القرآن ، وتأويل معناه ونشره . وقامت فرقة الخوارج ، ولها مبادىء دينية وسياسية ، تنشرها بالتعليم تارة ، وبالسيف تارة أخرى . فكثرة الأحزاب والفرق ، زادت في اضطراب طرق التربية والتعليم ، ومثلهما في زمن بني أمية .

لكنه يظهر ، أن أهمَّ غايات التربية والتعليم ما يأتي :

أولاً : مقدرة على القراءة والكتابة ، ومعرفة بالشعر والأخبار . ولهذا فإنه يروى عن عبد الملك ، انه كان يتردد في تولية الوليد بعده ، لأنه كان لا يعرف النحو .

ثانياً : ركوب الخيل ، والرِّماية ، والسباحة ، ولهذا كانوا يرسلون أبناء الخلفاء إلى الصحراء ، ليتعودوا حياة القوة والشدة ، والنطق باللسان العربي الصحيح ، كما فعل معاوية بابنه يزيد .

ثالثاً : معرفة الحلال والحرام ، بحسب العُرْف الجاهلي والعُرْف الاسلامي .

حدثان مهمّان

تـمَّ في زمن بني أمية أمران مهمان من حيث البحث في التربية والتعليم ، وهما إدخال الشكل والتنقيط في الكتابة ، وجعل اللغة العربية دون غيرها ، لغة الدولة . وقد ساعد هذا ، حركة التدوين والنقل والتأليف ، التي أينعت في زمن بني العباس . لكنه لا يصحُّ أن نعزو ظهور هذه كلها ، إلى الدور العباسي . فهذا لم يحدث طفرة دون تطور . والمشهور أن شيئاً من التدوين قد تم في زمن بني أمية ، وأن الناس كانوا يبحثون في أخبار العرب ، وأن (إبن شرية) كان هـمُّـه أن يلبس قصص الجاهلية ، حلة جديدة ، ويرويها في المجالس ، وأن طبقة من المسلمين ، كان لا يلتقي الواحد منهم بالآخر ، دون أن يسأله رواية حديث عن رسول الله (صلعم) . فالنشاط الذي يلاحظه الباحث ، في أول عهد بني العباس ، له مقدِّمات في أواخر عهد بني أمية .

كذلك يظن بعض الباحثين ، أن بني أمية ، أعرضوا عن درس القرآن الكريم والحديث ، وأن همهم كان تقـصّـي أخبار الجاهلية ، والمفاخرة بأعمال الغابرين من السَّلف ، وإغراء الشعراء بعضهم ببعض ، والابتعاد عن العلوم والحِرَف . . صحيح أنه لم يظهر في دولة بني أمية نهضة علمية ، لا في الناحية الشرعية ، ولا في الناحية العقلية ، وكاد يقتصر عملهم ، على

إحياء آثار الأدب العربي الجاهلي ، وتشجيع نمط من الأدب في الشعر والنثر ، يكاد يكون جاهليّاً . . لكن الحقيقة ، أنَّ لبني أمية ، فضلاً لا ينكر ، في بدء درس العلوم الشرعية ، وعلوم اللسان العربي .

الدراسة الدينية

يجد الباحث كثيراً من الحقائق التي تثبت هذا ، فمن نتائج إصلاح الخط العربي ، واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، ظهور حركة مهمة ، تناولت درس القرآن الكريم والحديث الشريف واللسان العربي . وكان ذلك تحت رعاية الحجاج بن يوسف ، في البصرة ثم في الكوفة . إذ المشهور ، انه بعد أن استتب الأمر للحجاج في العراق ، وجَّه قسطاً من عنايته ، إلى صناعته القديمة ، وهي التعليم ، فنشأ درس النحو ، وكثر البحث في فهم معاني القرآن وتأويله ، وذهب بعضهم إلى ضرورة تدوين الحديث . وهناك رواية تقول بأنه دوِّن فعلاً .

الترجمــة

وجامع البصرة مشهور بهذا الأمر . ففيه كانت تقام حلقات البحث والمناظرة والدرس ، وإلى هذه الحلقات ، يرجع أصل

كثير من الفِرَق الدينية والأدبية . ومجالس الحسن البصري فيه ، مشهورة لا تحتاج إلى تعريف ، وذكر رابعة العدوية ، وفرط زهدها وعلمها ، سارت به الرُّكْبان . وهذا كله تم في أواخر عهد بني أمية ، ولو طال لهم الزمن ، لظهرت نتائج هذه الحركات في عهدهم ، ولأصابهم شيء من فخر الابتداء . وهناك نقطة أخرى لا يجوز اغفالها ، وهي الترجمة إلى العربية . وقيل أن أول ما ترجم إليها من لغات الأعاجم ، كان بأمر من الأمير الأموي خالد بن يزيد ، فقد ترجمت له كتب في الكيمياء من اليونانية والقِبْطية ، وكتب هو ثلاث مقالات في الموضوع نفسه . . فالنهضة العلمية التي نعرفها في عهد بني العباس ، لم تنشأ دفعة واحدة ، بل كانت لها مقدمات ، جاءت في زمن بني أمية .

التأليف

بلغ بنو العباس بالتدوين والترجمة والتأليف والبحث والمناظرة ، درجة عالية ، ولم يكن أمر طلب العلم في زمنهم ، مقصوراً على فئة دون أخرى ، بل اشترك فيه كلُّ الناس ، من الخليفة إلى بدوي الصحراء ، وكان للنساء في ذلك نصيب غير قليل . ويشبه هذا القرن (الأول) من عهد بني العباس عهد (النهضة) في أوروبا الحديثة ، من وجوه كثيرة ، أهمها : بعث العلوم القديمة والدرس والبحث .

وساعد نشاط هذه الحركات ، أمران : الأول : سياسة بني

العباس التي كانت إسلامية في الدرجة الأولى ، وعربية في الدرجة الثانية . والثاني : ازدياد الثَّروة ، وتعـلُّق الناس بالجاه . فالمعروف أن بني العباس ، شجعوا الفرس ، وقربوا إليهم رجال الدين ، دون تمييز بين عربي وغير عربي . والمعروف أيضاً أن ثروة الناس في زمن بني العباسِ ، كانت من أهم العواملِ التي دفعتهم إلى طلب العلم ، توصُّلاً إلى السلطان ، أو تقرباً إلى الله ، أو تجملاً في هذه الدنيا .

التعليم والوظيفة

كان من أغراض التربية والتعليم ، في القرن الأول من حكم بني العباس ، ما يلي : أولاً : التوصل إلى المناصب العالية في الدولة ، لأنه أصبح يحتاج فيها إلى معرفة علوم الدين وعلوم الدنيا معاً . ثانياً : الحصول على الجاه والثروة . وثالثاً : طلب العلم لذاته . . وكان التنافس في هذه الأبواب شديداً ، لأن المجال قد اتسع بدخول الموالي فيه ، وهم أسبق من العرب إلى معرفة العلوم ، ولا يقلُّون عنهم مقدرة في تحصيل علوم اللسان العربي والعلوم الشرعية .

كل هذا شجع النهضة العلمية . وفي مدة قرن من حكم بني العباس ، نضجت حركة تدوين العلوم الشرعية ، وحركة تدوين العلوم اللسانية ، وصار المتعلم لا غنى له عن درس التفسير والقراءات والحديث والفقه والكلام من الأولى ، والنحو

واللغة والبيان والأدب من الثانية . وجاء مع ذلك وبعده ، نقل العلوم القديمة ، من فلسفة وهندسة وموسيقى وطبّ وكيمياء ، وعاصر كل ذلك نشوء الفرق وتطورها ، أمثال الخوارج والشيعة والمرجئة والزهاد والمتصوفين ، ولكل فرقة ناحيتها الدينية العلمية ، ولها كتبها وكتّابها ، ولها طريقتها في نشر دعوتها وتعليم أتباعها .

طلب العلم

لا يمكن البحث في التربية والتعليم في هذا الدور ، دون الاشارة إلى حركة طلب العلم ، التي ابتدأت بالتدوين ، فالترجمة ، فالتأليف ، وبدت بوادرها في احتراب الأحزاب الدينية والفلسفية والسياسية . وكان طلب العلم في البدء ، يتناول العلوم الدينية واللغوية ، ثم تناول غيرها من العلوم الدخيلة . ولهذا كانت الثقافة الاسلامية العربية ، مزيجاً من علوم المسلمين والعرب ، ومن علوم الأقدمين . وقد انعكس ذلك كله ، على مرآة التربية والتعليم ، فلم يكتف الناس بأثار العرب ، ومثل الاسلام ، بل أراد كل متعلم ، أن يكون له نصيب من الثقافات الجديدة .

فالمعلم الذي كان يقصر همه على تعليم القراءة والكتابة والحساب وشيء من الأخبار والقصص ، أصبح لا شأن له ،

وصار الناس يتطلعون إلى المعلم الكبير ، الذي يعرف القرآن والحديث ، كما يعرف اللغة والأدب ، وكما يعرف الفلسفة والكيمياء . . هذا هو الاتجاه العام ، ولكنه كان يحدث ، أن تعادي فرقة نوعاً من أنواع العلوم ، وتحارب أصحابه ، وتسعى للقضاء عليه ، بواسطة سلطان الدولة أو غيرها .

المعلم والمتعلم

ويظهر أن التعليم أصبح علاقة روحية بين المتعلم والمعلم ، وأنَّ من أغراضه ، أن ينال المتعلم قسطاً كافياً من الثقافة العامة ، لا نوعاً خاصاً من المعرفة . والبحث في الأجور ، التي كان يأخذها بعض المعلمين ، لا يمنع من صحة هذا الرأي ، لأن الأجور ، كانت مسألة شخصية ، تتوقف على المعلم ، وحاجته إلى المال ، ورغبته في جمعه .

ويظهر أيضاً ، أن التعليم كان خاصاً لا عاماً ، بمعنى أن الأسلوب والمادة والنتيجة ، ـ كانت كلها تتوقف على مقدرة المعلم وثقافته ، واستعداد تلميذه ، لا على شيء آخر ، مثل الرقابة التي تقوم بها الدولة أو غيرها ، أو البرامج التي تضعها بعض المدارس ، أو الشهادات التي تصدرها ، إذ نعرف على سبيل التحقيق ، أن الدولة لم تقم على مراقبة التعليم ، ولم تضع

البرامج ، ولم تصدر الشهادات ، باسمها أو بإسم ديوان من دواوينها .

التعليم العالي

والغريب أن هذه الملاحظة ، تنطبق على جميع أدوار التعليم ، من الابتدائي إلى درجة المدرسة الجامعة ، إن صح إطلاق هذه الأسماء ، على ما كان من تعليم في تلك الأيام . والغريب أيضاً ، أن الاهتمام بالتعليم العالي ، كان أشد من الاهتمام بالابتدائي . ويخيَّل إليَّ أن نظام التعليم ، نشأ نشأة معكوسة ، أي بدأ بالعالي ، قبل الابتدائي ، أو معه ، في الوقت نفسه ، أو قل إن شئت ، أن الاهتمام ، كان يوجه إلى التعليم العالي ، أما التعليم الابتدائي ، فكان يتم كيفما اتفق الأمر .

مواصفات المتعلم

أما التربية فصارت مركبة في هذا الدور من حكم بني العباس ، لما دخل على نظام الحياة السياسية والاقتصادية والعقلية ، من نظم جديدة . فالمتعلم المثقف المربى ، هو الذي يعرف القرآن والحديث واللغة ، وهو الذي ضرب بسهم وافر ، في العلوم الحديثة ، وهو الذي يعرف الأدب ، ويستطيب الغناء ، ويلعب الشطرنج ، وهو الذي يحسن الحديث ،

وتصريف الكلام ، وهو الذي طاف بالبلدان ، طلباً للعلم والاختبار ، وهو الذي يجمع الكتب وينسخها .

وقد أشرنا إلى أنه لا يجوز أن نقسم التعليم في القرن الأول من دولة بني العباس ، إلى الأقسام التي نعرفها اليوم ، مثل الابتدائي والثانوي والعالي . والسبب في ذلك ، أن التعليم لم يكن له نظام معروف ، وتتوقف درجته ومادته ونتيجته ، على مقدرة المعلم ، ورغبة المتعلم . فالذي كان يعلمه الحسن البصري ، يغاير الذي كان يعلمه الخارجي ، وهذا يغاير الذي كان يعلمه المتصوف . . . وهذا يثبت ما ذهبت إليه ، وهو أن التعليم ، علاقة روحية بين المتعلم والمعلم ، فالمتعلم لا بد أن يكون من مذهب المعلم ، جاء من تلقاء نفسه ، رغبة في تلقي العلم ، الذي يريد أن ينشره معلمه .

أساس كل العلوم

ليس من المبالغة في شيء ، أن يقال إن القرآن الكريم ، أساس كل ما ظهر في تاريخ العرب والاسلام ، من حركات لغوية وفكرية . فدرس العلوم اللسانية ، وظهور العلوم الشرعية ، والحاجة إلى العلوم الدخيلة ، ـ ترجع إلى ضرورة فهم القرآن الكريم ، وتفسير أحكامه ، والدّفاع عن مبادئه . ونتج من هذا كله ، حركة التدوين والترجمة والتأليف . وهذه

الحركة بدورها ، أنتجت الفرق الدينية والفكرية ، والجمعيات الأدبية والفلسفية ، والمذاهب والنِّحَلَ ، التي تختلف في أصولها وفي أغراضها . وهذا وذاك يستدعي ، كما لا يخفي ، نشر العلم والمعرفة بين الناس ، ووجوده يدل على إقبال الناس على التعلّم والفهم . . هذا مجمل ما كان في القرن الأول من دولة بني العباس ، وهو القرن الذي نعالجه الآن ، من وجهة التربية والتعليم في هذا الحديث . وإن جاز وصفه بجملة واحدة قلنا ، نهضة في تحصيل العلم ، وتعطش إلى إحراز المعرفة ، وهي تكاد تكون مقصورة على علوم اللسان العربي ، والعلوم الشرعية ، مع شيء إبتدائي من علوم الأمم القديمة .

الورق والتعليم

وقد ساعد نشاط هذه الحركة ، أمر مهم ، وهو ظهور الورق . فالمعروف أن الناس إلى أوائل القرن الثالث للهجرة ، كانوا يكتبون على الرُّقوق والجلود والأنسجة أو نحوها ، وهذا يفسر المبالغة الظاهرة ، في وصف مكاتب بعض مشاهير الأدب والشعر ، فقد قيل مثلاً ، إن كتب أبي عمرو بن العلاء ، كانت تملأ بيته إلى السقف ، فراح بعضهم ينقص من قيمة هذه الرواية ، مع أنه لا غرابة فيها ، إذا كانت تلك الكتب مكتوبة على أنسجة أو رقوق ، ففي هذه الحالة قد لا يتجاوز عددها بضع المئات . .

كان ظهور الورق ، من أهم عوامل نشاط النهضة العلمية ، إذ سهل نسخ الكتب ونقلها ، وأمكن الحصول على عدد وافر منها ، للراغبين فيها ، في مختلف الأمصار . والظاهر أن الورق جاء إلى العراق من الصين ، ولكن لم تلبث البلاد الاسلامية الأخرى ، أن تعلمت صنعه .

ويقال إن بعض الأسرى من الصين ، علموا أهل سمرقند صنع الورق ، في السنة الأولى أو الثانية من حكم بني العباس . ثم انتقلت صناعته إلى العراق في زمن البرامكة . والظاهر أيضاً أن جعفراً البرمكي قد استعمل الورق في دواوين الحكومة ، بدلاً من الرقوق ، وأصبح صنع الورق بعد هذا ، أمراً عاماً في مختلف أنحاء بلاد العرب .

الكاغد والقرطياس

إن كلمة (كاغد) ، هي أقدم كلمة في اللغة العربية ، للدلالة على الورق ، ويظن بعض الباحثين ، أنها من أصل صيني ، دخلت إلى العربية عن طريق الفارسية . أما كلمة (قِرْطاس) ، فهي من أصل يوناني ، نشأت من الاسم الذي كان يطلقه أهل مصر ، على ما كانوا يصدرونه للبلاد المتكلمة باليونانية ، من ورق البردِيِّ ، المعروف عند هؤلاء باسم (قراطيس) .

شرحنا مسألة ظهور الورق من ناحية أهميتها في نشر التعليم ،

وسنشير الآن إلى أهميتها من ناحية أخرى ، تتعلق بالتربية والثقافة إجمالاً . وتفصيل ذلك ، أنَّ كتب الأدب والتاريخ ، تذكر (الورَّاقين) كثيراً . ويفهم من تكرار ورود هذا الاسم ، أن صناعة مهمة نشأت بنشوء النهضة العلمية ، وهذه الصناعة تتعلق ببيع الورق ، ونسخ الكتب ، ونشرها في الأمصار ، وإعارتها للقراء .

مجالس الورّاقين

ويُستدل من القرائن ، أن العلماء والباحثين ، كثيراً ما كان يلتقي الواحد منهم بالآخر ، عند الورَّاقين . والذي يظهر لي ، أن أماكن الورَّاقين كانت من العوامل الفعّالة في ثقافة العلماء ، وتربية من يتصل بهم . ففي هذه الأماكن ، كانوا يتناظرون ويتدارسون ، يسمعهم من شاء ، ويشاركهم في الحوار من له المقدرة والرغبة . وأهم مثال على ذلك الحوار المشهور عن أصل (أخوان الصفا) وقيمة رسائلهم ، فإنه تم كما يقول القفطي ، (بحضرة الوارقين بباب الطاق) ببغداد . قلنا إنَّ أثر الوارقين كان ظاهراً في التربية ، ولم نذكر شيئاً عن التعليم تعمداً ، وذلك لأن المفروض في الذي يغشى أماكن الوراقين ومجالسهم ، أن يكون متعلماً ، نال قسطاً كافياً من العلوم اللسانية والشرعية ، تمكنه من المناظرة والبحث .

أين تعلم الأوائل

أشرنا إلى حركات التدوين والترجمة والتأليف ، وحلقات البحث والمناظرة ، وإقبال الناس على التعليم ، واهتمامهم الظاهر بطلب العلم ، والحصول على أكبر قسط من الثقافة . كل هذه المظاهر والحركات ، أنتجت كثرة من كبار العلماء ، في مختلف فروع المعرفة ، ازدان بهم القرن الأول من حكم بني العباس . فأين تعلم هؤلاء ؟ وما هي عوامل تثقيفهم وتربيتهم ؟ سنحاول أن نجيب على هذا السؤال ، ولا ندَّعي أننا مصيبون كلَّ الاصابة في الجواب ، إذ الأمر مسألة رأي وتفسير ، يختلف فيهما الناس كثيراً .

الكتّاب

كانت وسائل التعليم في القرن الأول من حكم بني العباس ما يأتي :

أولاً : الكتّاب أو المكتب (والجمع كتاتيب ومكاتب) . وقد اختلف اللغويون في دلالة هذا اللفظ أو ذاك . . جاء في اللسان : « الكتاب موضع تعليم الكتّاب ، والجمع الكتاتيبُ والمَكاتِبُ » . وقال المُبرّد : « المكتب موضع التعليم ، والمكتب المعلّم ، والكتّاب الصبيان . ومن جعل الموضع الكتاب فقد أخطأ » . . ومع هذا فالظاهر من النصوص الكثيرة ، أن كلمة

كتّاب وكلمة مكتب ، استعملتا للدلالة على المكان الذي كان يتعلم فيه الصبيان .

صورة شعرية للمعلم

والظاهر من هذه النصوص أيضاً ، أن بعض المكاتب ، كان لتعليم مبادىء القراءة والكتابة والقرآن الكريم ، وبعضها كان يعلم فيه اللغة وما إليها . وكان بعض المكتبين أو المعلمين ، من أهل العصبية والأنساب ، كما يصفهم إبن خلدون ، يعلمون حسبة ، ولا يأخذون على تعليمهم أجراً ، وبعضهم كان يأخذ أجراً ، قد يكون أحياناً خبزاً ، كما ورد في هجاء بعضهم للحجاج . وكان المعلمون ، كدأبهم في هذه الأيام ، يضربون الصبيان . وأحسن شاهد على ذلك ما قاله أبو نواس :

إنني أبصرت شخصاً ... قد بدا منه صدودُ
جالساً فوق مُصَلّى ... وحواليه عبيدُ
فرمى بالطَّرْفِ نحوي ... وهو بالطَّرف يصيدُ
ذاك في مكتب حفص ... ان حفصاً لسعيدُ
قال حفص إجلدوه ... إنَّه عندي بليدُ
لم يزل مذ كان في الدر ... س عن الدرس يحيدُ
كشفت عنه خُزُوز ... وعن الخزِّ برودُ

ثــم هــالــوه بــســيـر لــين مــا فـيــه عــودُ
عنــدهــا صــاح حبيبي: يــا مــعــلـم لا أعــودُ
قلت يـا حفص أعف عنه إنــه ســوف يجـيــدُ

هذه صورة لطيفة للمعلم والكتّاب . لكنه لا يجوز أن نستنتج من هذا ، ومن الوصف الذي سبقه ، أن الكتاتيب كانت على نمط واحد . فالثابت أنها كانت تختلف بعضها عن بعض ، في مقدرة المعلم وغرضه من التعليم ، وتناول الأجر . وهو طبيعي في نظام لا تشرف عليه دولة ، ولا يتبع فيه مبدأ خاص .

المسجد

ثانياً : المسجد . ـ روى البخاري ، عن أبي واقد الليثي قال ، « بينا رسول الله (صلعم) جالس في المسجد ، إذ أقبل ثلاثة نفرٍ ، فأقبل اثنان إلى رسول الله (صلعم) ، فوقفا على رسول الله (صلعم) ، فرأى أحدهما فرجة في الحلقة ، فجلس ، وجلس الآخر خلفهم » .

من هذا ومن كثير غيره ، يظهر أن المسجد كان من أوَّل الأمر مكاناً للتعلم والتثقف . ففي المسجد تقام الاجتماعات العامة ، وتلقى الخطب ، ويتقاضى الناس ، ويتعلمون العلوم ،

ويشهدون مجالس الدرس والوعظ . وكان أول ظهور الدرس والبحث ، في مسجد الرسول (صلعم) في المدينة . وقد ذكرنا مكانة مسجد البصرة ، ومجالس الحسن البصري فيه . وفي كتب الأدب والتاريخ ، شواهد كثيرة على أن حلقات كانت تكوَّن في هذا المسجد وفي غيره ، حول كبار الفقهاء والأدباء . فهذه حلقة للعلوم الدينية ، وتلك حلقة للعلوم اللسانية ، وأخرى للكلام والجدل ، وغيرها للشعر والأدب . . ويروى أنه كانت للمعتزلة حلقة في مسجد المنصور في بغداد . وأن الطبري المشهور ، أملى شعر الطِّرمَّاح في مسجد عمرو بمصر ، وأن الكميت وحمَّاداً الراوية ، تذاكراً في الشعر وأيام العرب ، في مسجد الكوفة .

فالمسجد إذاً كان دار ثقافة ، لا تقتصر المباحث فيه على الأمور الدينية ، بل تتناول اللغة والأخبار والشعر .

نظام الحلقات الدراسية

ونظام الحلقات هذا ، يشبه نظام اختيار موادِّ التخصص في الجامعات ، فإذا كان واصل بن عطاء ، لا يوافق الحسن البصري ، فله أن يعتزل حلقته ، ويكوِّن حلقة جديدة . فالمجال كان واسعاً للراغبين في العلم ، ينتقلون من زعيم حلقة إلى أخرى ، ويقبلون على العلم الذي تشتاق إليه نفوسهم . فالأمر حرِّيَّة تامة في التعليم والتثقيف والتربية . وهذه الحرية في

التربية والتعليم ، هي من أسباب خِصْبِ الانتاج الفكري ، في تاريخ الاسلام والعرب .

- ٦ -

مجالس المناظرة

كان الناس يتعلمون مبادىء القراءة والكتابة والقرآن الكريم في الكتّاب ، ثم يزيدون معرفتهم وثقافتهم ، بالانتساب إلى حلقات الدرس في المساجد . فالظاهر أن الكتّاب أساس السلسلة في التعليم ، والمسجد متممها في التعليم والتربية معاً . ولكنه نتج من النهضة العلمية ، اتساع نطاق البحث والدرس ، وهذا بدوره نتج منه اتساع وسائل التربية والتعليم ، التي يتناولها بحثنا الآن ، منها :

أولاً : مجالس المناظرة في العلم والأدب ، وكانت هذه المجالس تعقد في دواوين الخلفاء ، وفي قصور الأمراء ، وفي مساجد الله . يتناظر فيها العلماء في الفقه واللغة والشعر علناً . ثم دخل موضوع الحكمة والمنطق والكلام في البحث ، فكانت تدور بين العلماء المجادلات ، ويشترك فيها نظراؤهم . وكان الخليفة يتدخل بنفسه أحياناً ، ويشترك في البحث أحياناً أخرى ، فيرجح هذا الرأي على ذاك ، أو يوجه البحث إلى هذه الجهة أو تلك .

كان من عادة خلفاء بني أمية ، آن يتبارى الشعراء في بلاطهم ، وأن يستمعوا لأخبار العرب وأيامهم . ولكن خلفاء بني العباس ، زادوا على ذلك ، بأن فتحوا باب البحث والجدل على مصراعيه . واتخذت هذه المجالس شكلاً خاصاً ، لا نجاح فيه ، إلاّ لكل واسع العلم ، نـيّر الفكر ، حادِّ الذكاء ، حاضر البديهة .

ومن أسباب نجاح هذه المجالس ، أن العصر كان عصر بحث وتدوين وتعلُّم ، لم تتخذ فيه العلوم شكلاً نهائياً ، فمجال الرأي واسع ، وأنَّ الفرق والمذاهب كانت في دور التكوين ، وفيه بدأت آراء أصحابها ، تتخذ شكلاً معيناً . تظهر فيه نفسها ، وتدافع عن مبادئها . وأنَّ هذه المناظرات ، كانت بمشارفة الخلفاء والأمراء ، فلا غني فيها ، عن الاستعداد الطويل ، والتعمق في الدرس ، حباً للفوز والشهرة .

وكتب النحو والصرف والأدب والفقه والفلسفة ، ملأى بالأمثلة على هذه المناظرات . وكان المأمون أول خليفة من العباسيين ، شغف بالبحث والمناظرة . فهو الذي كان على جانب عظيم من العلم والثقافة ، يتناظر العلماء والفقهاء والمتكلمون في حضرته ، كأنهم في حضرة واحد منهم . ويروى أنه كان يقصد من إثارة البحث في مختلف المسائل ، التوصل إلى الآراء التي يرضاها هو ، ويفرضها على الناس قهراً ، وذلك

مأخوذ من قوله : « إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا ، سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين ، إمَّا شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعاً ، وإمَّا معاند فيرد بالعدل كرهاً » .

الجمعيات والأندية

ثانياً : (الجمعيات العلمية والأدبية والصوفية) ـ في كتب الأدب والتاريخ ، كثير من الشواهد على نمو جمعيات ، تبحث في العلم والأدب ، أو تؤمن بالزهد والتصوف ، أو تقول بالزندقة والشعوبية . والذي يهمني منها الآن ، ما كان له أثر في التربية والتعليم . ولا يستطيع الباحث أن يميزها ، لصعوبة الوصول إلى الحقائق التاريخية الثابتة . ولكن يمكن القول إجمالاً ، أن نشوء المذهبين المشهورين في الصرف والنحو ، كان دليلاً على هذا الاتجاه ، وكذلك ظهور المذاهب الأربعة في الفقه ، وافتراق الشعراء والأدباء ، إلى طبقات في الأساليب والأغراض .

وعلى هذا النحو ظهرت أيضاً جماعات من العلماء والأدباء ، لم ترض عن زمنها ، فألَّفت ما يشبه (الأندية) في أيامنا هذه . وكان المنتمون إلى هذه الجماعات ، يتدارسون العلوم والآداب التي تروقهم ، وينشرونها في الناس في كتب يكتبونها ، أو في

مناظرات يعقدونها ، ويفسحون في المجلس لمن شاء حضورها . وقد شاع أمر هذه الجماعات ، في القرن الثامن من حكم بني العباس ، وبلغ الذروة في حسن التنظيم ، وإتّساع نطاق البحث ، وطهارة القصد ، في الجمعية المشهورة باسم (إخوان الصفا) التي ظهرت في القرن العاشر للميلاد .

إن أثر هذه الجمعيات في الثقافة والتربية ، يزيد على أثرها في التعليم ، لأن المفروض في الذي ينتمي إليها ، أن يكون قد مر بالكتاب ، ونال قسطاً من العلم والثقافة التي كانت متيسرة في المسجد . ويكاد يشبه عمل هذه الجمعيات في أيامنا هذه ، ما تقوم به المجامع العلمية ، أو معاهد التخصص ، أو دور النشر والتأليف .

وعند الاشارة إلى هذه الجمعيات ، لا يجوز أن ننسى الاشارة إلى الجمعيات التي أنشأها الزُّهَّاد والمتصوفون . . وقد كان ظهور الزهاد في زمن بني أمية . وكان أمرهم يكاد يكون محصوراً في الابتعاد من الدنيا ، ودرس القرآن الكريم ، وفهم الدين فهماً عميقاً ، مع حياة فيها تقشف وشظف . غير أن هذه الحركة تطورت ، فصارت في القرن الأول من حكم بني العباس ، حركة تصوف ، لها مبادىء في العلم والحياة ، ولها أتباع كثيرون من مختلف طبقات الأمة .

كان من مبادىء الزُّهَّاد والمتصوّفين : الاعتقاد بالفهم

الروحي ، وتعليق أهمية كبرى على قوة الخلق . وتعتبر هذه الحركة ، ردَّ فعل لحياة الترف ، التي ظهرت بخروج العرب من البداوة إلى الحضارة ، وهي أيضاً نتيجة طبيعية لاحتكاك المبادىء الاسلامية ، بالمدنيات القديمة . والظاهر من كتب الأدب والتاريخ ، أن أتْباع هذا المذهب ، لم يكونوا قليلين . ويرى الباحث في العصور الأخيرة من حكم بني العباس ، ما كان للمتصوِّفة ، من أثر كبير ، في نشر ثقافة خاصة ، واصطناع مذهب خاص ، في التربية والتعليم ، أساسه قوة الروح وعلوّ الخلق ، وصفاء العقل ، وكبح جماح الجسم . وهذا كله ظاهر في كتبهم ، ومبثوث في الفصول التي كتبها المؤرخون عنهم .

المكتبات ومعاهد البحث

وثالثاً : (المكتبات ومعاهد البحث والدرس) ـ لا تفرق المراجع التي وقفنا عليها ، بين المكتبة ، وأماكن البحث والدرس . « فبيت الحكمة » و « دار العلم » وغير ذلك من المعاهد ، لا يصح أن نسميها مدارس ، ولا كليات ، ولا ما يقرب من ذلك ، إلّا إذا فسرنا هذه المسميات تفسيراً يناسب غرضنا . والظاهر من النصوص ، أن هذه المعاهد ، كانت مكتبات في الدرجة الأولى ، يجتمع فيها العلماء والمتعلمون ، للمطالعة من جهة ، وللمدارسة والتعلم من جهة أخرى . لأنه

كان من نتائج النهضة العلمية ، التي امتاز بها عهد بني العباس ، ظهور الرَّغبة في جمع الكتب . وقد تسابق الخلفاء والأمراء والعلماء الموسرون في ذلك ، وبدأت الرغبة في جمع كتب الأمم القديمة وترجمتها ، وفي جمع الكتب التي دوّنت فيها العلوم اللسانية والعلوم الشرعية .

اختلف الباحثون في (بيت الحكمة) . فمن قائل انه كلية جامعة سبق ظهورها ظهور جميع جامعات العالم . ومن قائل أنه معهد للترجمة ، ومن قائل بل هو مكتبة لا غير . . وسبب ذلك الاختلاف ، قلّة ما نعرف عنه ، وعن هذا الاسم الجذّاب الذي يتحلى به . ومن رأيي ، أن بيت الحكمة هذا ، كان مكتبة جامعة ، فيها أماكن للنسخ ، وأماكن أخرى للترجمة ، وأماكن غيرها للبحث والمدارسة . وقد جاء في النصوص التي بين أيدينا ، ما يثبت هذه الأمور ، وهي وجود الكتب ، وحدوث الترجمة والبحث . . أما ما زاد على ذلك ، فمسألة رأي وتفسير .

والخلاصة ، إن انتشار المكاتب والمعاهد المتصلة بها للترجمة والنسخ ، وما ينتج من هذا كله ، من مدارسة وبحث ، أمر ثابت بالرجوع إلى مختلف المصادر . وقد ساعد ذلك ، تقدم التربية والتعليم . فمن أراد استكمال معرفته في مادّة من المواد ، يمم شطر المكتبة ، أو التحق بالمعاهد القريبة منها ، حيث يجلس العلماء ، فيشاركهم في البحث ، ويتعلم منهم ، وينقل عنهم في

العلم والأخلاق . وهذا كما لا يخفى هو التعليم الممزوج بالثقافة والتربية .

طلب العلم

ورابعاً : (الرِّحلة في طلب العلم) - روي عن أبي الدرداء أنه قال : « لو أعيتني آية من كتاب الله ، فلم أجد أحداً يفتحها عليَّ ، إلا رجل (ببرك الغماد) لرحلت إليه » . وقال الشعبي : « لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ، ليسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره ضاع » .

هذه هي الروح التي سرت في العرب والمسلمين في صدر الاسلام : طلب العلم والرِّحْلة لتحقيقه . وأصل الحاجة إلى الرحلة عدم توفر الورق ، وصعوبة وجود الكتب ، وقلة الثقات في العلوم ، والحاجة إلى تحقيق بعض الأمور من أصولها ، كالرجوع إلى البادية في مسائل اللغة ، أو اللَّحاق بالصحابة في الأمصار ، أو سماع الرُّواة في البلدان . وقد بدأ هذا بالعلوم الدينية ، فكان المحدثون أنشط الناس في الرحلة في طلب العلم ، وذلك لأن الصحابة تفرقوا في الأمصار بعد الفتح ، ولا بد من الرحلة للوصول إليها ، إبتغاء التحقيق في الحديث وروايته .

ومن الأمثلة على ذلك ما فعله يحيى اللَّيثي ، فإنه رحل من الأندلس إلى المشرق ، فسمع الموطأ من مالك في المدينة ، وسمع من سفيان بن عيينة في مكة ، وسمع من الليث بن سعد في مصر . أما البخاري فقد رحل في تحقيق (صحيحه) ، إلى أكثر محدّثي الأمصار ، في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر .

وقد امتدَّ هذا النشاط إلى طلب العلوم اللغوية والفلسفية . فرحل الخليل والأصمعي والكسائي إلى الصحراء ، لسماع اللغة والأدب . ورحل حنين بن إسحق ، إلى بلاد الروم ، فتعلم اليونانية ، وإلى الشام ومصر فجمع الكتب النادرة . ورحل إبن سهل البلخي ، إلى العراق والبلاد المتاخمة لها ، ولقي الكبار والأعيان ، وتتلمذ لهم ، واقتبس عنهم الفلسفة والطبَّ والدين .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

التربية والتعليم في العصور الإسلامية

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
اسلامية

التربية والتعليم
في
العصور الإسلامية
٢

دار الفكر اللبناني



أثر المؤدبين

انتهينا من الرِّحلة في طلب العلم ، وأثر ذلك في التربية والتعليم ، في القرن الأول من حكم بني العباس . وبقي أن نتناول المادتين الأخيرتين من الوسائل التي أشرنا إليها ، وهما أثر المؤدبين ، وأثر الصحراء والجزيرة العربية . وأولى المادتين :

أثر المؤدبين ـ كان الكتاب أو المكتب ، المكان الوحيد ، الذي كان يتعلم فيه الناس ، مبادىء القراءة ، والكتابة والحساب ، والقرآن الكريم ، وشيئاً من الأخبار والأشعار .

وذلك إلى أن تمَّ تأسيس المدارس النظامية ، في القرن الحادي عشر للميلاد . ولكن الكتّاب لم يكن من المعاهد التي تقيمها الدولة ، وتديرها وتشرف عليها ، وتنفق المال لتقدمها ونمائها .

بل كان معهداً خاصاً ، يقيمه من له رغبة ومقدرة في بيته ، أو في مكان عمله ، أو في أي مكان آخر . وكان يختلف إليه عادة ،

أبناء العامة والطبقة الوسطى ، من الراغبين في تعلم القراءة والكتابة .

والظاهر من النصوص الكثيرة ، أن أبناء الموسرين والأمراء والخلفاء لم يتعلموا في الكتّاب . أو أن كثرتهم ، لم تتعلم القراءة والكتابة ، على أيدي معلمي الكتاتيب والمكاتب . بل كان هؤلاء يتعلمون ويتأدبون ويتثقفون ، على أيدي طبقة خاصة من المعلمين ، تصفهم كتب الأدب والتاريخ أحياناً بصفة (المعلم) ، وفي معظم الأحيان بصفة (المؤدب) .

إن معنى كلمة (مؤدّب) ، كما ترد في النصوص التي بين أيدينا ، يقرب كثيراً من معنى (Tutor) ، أي المعلم الخاص ، الذي يعتني بتعليم الطالب ، ما يتعلمه الناس في المدرسة ، ثم يعنى بتهذيبه وتدريبه ، على طرق السلوك القويم وحسن التعبير عن النفس ، وإبداء شروط الرجولة الحقة . وهذا هو المعنى الذي تدل عليه الكلمة اللاتينية ، التي اشتقت منها الكلمة الانكليزية السابقة الذكر .

والأمثلة كثيرة على وجود المؤدب ، وقيامه بمهمة التعليم والتأديب والتهذيب والتثقيف . وبعض هذه الأمثلة يرجع بتاريخه إلى العهد الأموي ، وأكثرها يمكن استخراجه من تاريخ العهد العباسي . . فقد كان بنو أمية ، يعتنون عناية خاصة بتأديب أبنائهم ، بإرسالهم إلى الصحراء لتعود النطق باللسان العربي الصحيح ، ولتعود حياة الشدة والرجولة ، وكانوا أيضاً

يعينون لهم مؤدبين ، يعلمونهم القراءة والكتابة والأخبار والأشعار ، وآداب المجالسة والمخاطبة والمناظرة .

أما بنو العباس ، فقد كان يصبح تأديب أبنائهم ، نظاماً خاصاً في عهدهم . فالمفضل الضبي ، كان يؤدب المهدي . والأدب العربي ، مدين لهذه العلاقة بين المؤدب وتلميذه ، بما نتج منها ، وهو كتاب (المفضليات) المشهور ، الذي اختار أشعاره المفضل ، ليتثقف بها تلميذه . وكان الكسائي ، يؤدب الأمين بن هرون الرشيد ، ويعلمه الأدب . وكان إبن السِّكِّيت يؤدب ولد إبن طاهر . . هذه بعض الأمثلة ، على شيوع استخدام المؤدب ، كمعلم ومرب معاً . والظاهر أن عمل المؤدب من ناحية التربية والتعليم ، لم يكن محدداً . ولا غرابة في هذا لأنه ينطبق على جميع وسائل التربية والتعليم ، في تاريخ العرب والاسلام ، لا على ناحية واحدة فقط .

أثر البادية والجزيرة العربية

والمادة الثانية ، وهي الوسيلة الأخيرة من الوسائل التي سبق تفصيلها :

(أثر البادية والجزيرة العربية) - يروى أن عمر بن الخطاب قال : العرب مادة الاسلام . . وقياساً على هذا ، يمكن القول ، إن البادية أو الجزيرة العربية ، هي مادة لغة العرب ومنشأ أخلاقهم . فإن قال قائل ، إنَّ أثر الجزيرة في هذا الباب ، قد

انتهى بخروج العرب إلى الأمصار بعد الاسلام ، فإني أسأله رأيه ، في سبب رجوع علماء اللغة إلى البادية ، لاستقصاء أصولها ، وتدوين الشواهد عليها ، وتصحيح السقيم منها . ـ وفي حكمة إرسال أبناء الموسرين والأمراء والخلفاء إلى البادية ، لتقويم لغتهم وتقوية أبدانهم . ـ وفي سر بقاء الأخلاق البدوية ، من الكرم والمروءة والعزَّة والعصبية ، أساساً لمثل السلوك ، عند ظهور الاسلام وبعد انتشاره . . فكل هذا ، يثبت أن أثر البادية والجزيرة ، بقي ظاهراً بعد الاسلام ، إن لم يكن قد زاد في الأهمية .

لم يكن عدد الذين يتعلمون من البادية وأهلها ، حتى في زمن بني العباس ، قليلاً . ولم ينصرف علماء اللغة والأخبار عن عادتهم ، في استقصاء مادتهم من أصولها ، في مضارب الأعراب ومفاوز الصحراء . ولم تزل مدن الحجاز موئلاً لطلب العلم ، ومحدثوها وفقهاؤها ومؤرّخوها في الدرجة الأولى ، من الدقة والأمانة والتقوى .

ويكفي للدلالة على صحة هذا الرأي ذكر بعض المشاهير . فمنهم المحدِّث مجاهد بن جبر ، والمحدِّث سفيان بن عيينة ، الذي أخذ عنه الشافعي وأحمد إبن حنبل . ومنهم الامام مالك بن أنس ، ومنهم الواقدي شيخ المؤرِّخين . . فالحجاز الذي خسر الرئاسة السياسة ، منذ إبتداء عهد بني أمية ، لم يخسر شيئاً من نشاطه العلمي . بل يظهر أن الخيبة السياسية ، نتج

منها نهضة علمية . ولا يخفى ، أن تطبيق مبدأ الرِّحلة في طلب العلم ، كان يتناول ، أولاً استقصاء الحديث والفقه ، وثانياً البحث في اللغة والأدب . وأهم مكان للأول الحجاز ، وللثاني البادية إجمالاً . وإن ذهاب الناس إلى الحجاز ، للقيام بفريضة الحج ، مهّدَ السبيل لاتصال علماء الأمصار ، بعلماء مكة والمدينة ، والأخذ عنهم ، ونشر علمهم وروايتهم ، في بلدان الدولة الاسلامية الكثيرة .

فالبادية العربية ، وحواضر الحجاز ، كانت من وسائل التربية والتعليم المهمة ، وكان عدد ليس بقليل من الناس ، يلجأ إليها في عهد بني أمية ، وفي عهد بني العباس أيضاً . . .

ملخص

ويمكن تلخيص كل ما مضى ، بما يأتي : كان الناس يتعلمون مبادىء القراءة ، والكتابة والحساب والقرآن الكريم ، وشيئاً من الأخبار والأشعار ، في الكتّاب أو المكتب ، ويزيدون على ذلك شيئاً في المسجد . وبعد ذلك لا ضابط لتعلمهم أو ثقافتهم . فقد يقف تعلم الكثيرين عند هذا الحد . أما الذين كانوا يزيدون على ذلك ، فكانوا أيضاً متفاوتين في مقدار علمهم ونوعه . فقد يذهب الواحد منهم إلى حلقة في المسجد ، لسماع الحديث أو اللغة أو الشعر . وقد ينتمي غيره ، إلى جمعية أدبية أو صوفيّة ، فيتوجه تعليمه إلى جهة خاصة . وقد يكون لآخر ميل إلى المناظرة

والجدل ، فيلازم بعض مجالس الأدب . وقد يجد غيرهم من نفسه حباً للكتب ، ومباحثة قرّائها ، فيتردد على المكتبات وأماكن الورّاقين . وقد يرغب آخرون في الاستزادة من العلم ، فيرحلون إلى الأمصار أو إلى البادية . وقد يكون غيرهم من أبناء الخلفاء والأمراء ، فيعين لهم مؤدب ، يعلمهم مختارات من العلم والأدب . . فالكتّاب أو المكتب ، هو المكان الوحيد للتعليم الحقيقي . أما الوسائل الأخرى فهي أقرب إلى التربية والتثقيف ، منها إلى التعليم الصِّرْف .

الثقافة العامة

بقي الآن ، ناحية أخرى من نواحي التربية والتعليم ، في القرن الأول من حكم بني العباس ، وهي تتعلق بالثقافة العامة من الناحية الفنية . . فالمعروف أن التربية والتعليم ، لا يقتصران على تعلم المباحث في المدرسة ، وحشو الذهن بمختلف الحقائق والآراء ، بل يتناولان أيضاً ، رياضة الجسم بالألعاب على أنواع ، ورياضة الروح بالموسيقى والغناء ، وما أشبه ذلك . وهذا هو ما أريد بحثه .

تذكر كتب الأدب والتاريخ ، وخاصة (الأغاني) ، أن خلفاء بني العباس ، بعد أن استتب لهم الملك، صاروا يجلسون للمغنين ، ويستمعون للندماء والقيان ، وقد تبعهم في ذلك ،

نفر كثير من من الخاصة ، وسرت العدوى من هؤلاء ، إلى الطبقة الوسطى . فشاع في الناس حبُّ الترف في المسكن والملبس والمشرب ، وطغت عليهم موجة طرب وظرف وشرب . وشاع مع هذا ، لعب الشطرنج والنرد والصولجان ، وتبارى الموسرون في اقتناء الحيوانات الأليفة ، كالديوك والكلاب ، وفشا شرب الخمر ، وحب اللهو ، والتغني بمحاسن الطبيعة والنساء ، وزاد في هذا ظهور طبقة الجواري ، اللواتي نلن قسطاً كبيراً من الثقافة ، مع معرفة بالأشعار والأخبار ، ومقدرة على الغناء والضَّرْب على الآلات .

فن الغناء

كان الخلفاء يعنون بتعليم حسان الجواري الغناء . وتعليمهن الغناء ، يحتاج إلى تعليم الأدب ، لأن مادَّة الغناء ، كانت الشعر العربي الفصيح ، كشعر عمر بن أبي ربيعة ، وبشار بن برد ، ومسلم بن الوليد . . قيل لـمَّا أفضت الخلافة إلى المتوكل ، جاءته هدية ، فيها جارية كانت لرجل من أهل الطائف ، ـ قد أدَّبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم . فكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس ، فحسن موقعها من المتوكل . وكان إبراهيم الموصليُّ ، مغني الرشيد ، من أنشط الناس في تعليم الجواري الغناء وتأديبهن وتثقيفهن .

ولا شك أن هذا النمط من الحياة ، قد ترك أثره في التربية والتعليم . ويمكن تحديد ذلك فيما يلي : (١) أثره في أغراض التربية والتعليم . (٢) أثره في تقدم الذوق الفنّي . (٣) أثره في إيحاء الشعر وتوجيهه . ونترك الأمرين الأخيرين ، لأنهما لا يتعلقان بموضوع هذا الحديث ، ونترك أيضاً بحث هذه الظاهرة ، من ناحيتها الخلقيّة ، في تعكير صفاء الخلق العربي ، وتشويه جمال الفضائل الاسلامية . ونقتصر من ذلك كله ، على ما كان له علاقة بالتربية وأغراضها .

العزف والشعر والفروسية

يؤخذ من قول للحسن بن سهل ، أن من علامات الرجل المهذب المؤدب ، أن يعرف الضرب على العود ، ولعب الشطرنج والصولجان والفروسية ، مع معرفة بالأخبار والأشعار ، وعلم بأحاديث السَّمر ومحاضرات المجالس ، ووقوف على الطب والهندسة . وكأنه قال : إن الغرض من التربية والتعليم ، هو الوصول إلى معرفة هذه الأمور . فهذا المنهاج ، يتناول جميع نواحي الحياة ، والشيء الجديد فيه ، هو معرفة الموسيقى والغناء والشطرنج . واهتمام الناس بمعرفة هذه الأمور ضرورة نشأت عن حضارة العصر ، لا يجوز أن نمر بها ، دون أن نسترعي الانتباه إليها . فالمتعلم المهذب المربّى ، هو

الذي يعرف شيئاً من العلوم اللغوية والشرعية والفلسفية ، هو الذي يقوى على الحياة ، وهو الذي يحسن السلوك ، وله إلمام بقواعده العلمية والاجتماعية والفنية .

نضج النشاطات الأدبية

يكاد يكون البحث في التربية والتعليم ، من نهاية القرن الأول من حكم بني العباس ، إلى ظهور المدارس النظامية ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، بحثاً في نضج حركات الترجمة والتدوين والتأليف ، وفي ما ينتج من ذلك ، من نشاط الفرق الدينية والفلسفية ، وتنافسها في نشر مبادئها ، وما كان لسلطان الخليفة في ذلك ، من التشجيع أحياناً ، والتضييق أحياناً أخرى .

كان هـمُّ العرب منصرفاً في أول الأمر ، إلى درس علوم اللغة والدين ، كما عرفنا ذلك في بحث التربية والتعليم ، في عهد بني أمية ، وصدر الدولة العباسية ، ولكن درس الدين وفهمه ، والدفاع عنه من جهة ، وإتصال العرب والمسلمين بمدنيات الأمم الأجنبية من جهة أخرى ، نتج منهما إتصال فريد في بابه ، في عالم الفكر ، وفي عالم المادة . فكثر التزاوج بين العرب والأعاجم ، وفشت بين المسلمين أساليب الأعاجم ، في الملبس والمسكن

والمشرب . وجاء مع هذا الاتصال الماديّ ، اتصال آخر في عالم الفكر ، وهو الذي نشير إليه هنا .

عاصمة الدنيا

والظاهر أن انتشار السلام ، وازدياد الثروة ، وسياسة التسامح ، التي سار عليها بنو العباس مع الأعاجم ساعد على تحقيق ذلك . فأصبحت بغداد عاصمة الدنيا في العلم والأدب ، ولم يكن يضاهيها في ذلك سوى القسطنطينية . وفيها تمثل اختلاط مدنية العرب ، بنتاج المدنيات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، ومبادىء الديانات اليهودية والنصرانية والبوذية . فكثر البحث والجدل والأخذ والعطاء . وعاصر ذلك ، حركة الترجمة والتأليف . وساعد ذلك ، ما أظهره بعض الخلفاء من الرغبة في نشر العلم ودرسه .

نعرف من التاريخ ، أن اليهود بعد إتصالهم بمدنية اليونان ، عن طريق مدرسة الاسكندرية ، اضطروا إلى درس آداب اليونان وعلوسهم ومنطقهم ، لاستعمال ذلك في شرح الديانة اليهودية ، وفي الدفاع عنها . فظهر من هذه الحركة عندهم ، مبدأ التأويل في فهم معاني التوراة ، واتخاذ المنطق والجدل واسطة

للدفاع عنها . ويلاحظ الباحث في ذلك ، أساليب سقراط ، أو آراء أفلاطون ، مبثوثة في المباحث اللاهوتية اليهودية .

المنطق والفلسفة

ونعرف من التاريخ أيضاً ، شيئاً عن الذي حدث في تاريخ الديانة النصرانية ، بعد اتصالها بفلسفة اليونان والرومان ، وهو يشبه ما حدث في تاريخ الديانة اليهودية شبهاً كبيراً . لكن يظهر ، أن الأثر اليوناني في هذه الحالة كان كبيراً ، لأن علماء النصرانية ، اصطنعوا الفلسفة إلى حد كبير ، في تفسير دينهم ، أو في الدفاع عنه . ولا يجد الباحث صعوبة كبيرة ، في ملاحظة منطق أرسطو ، ونماذج أفلاطون ، ومعرفة سقراط ، وهي تطبق على مبادىء السيد المسيح .

وهكذا لم يجد المسلمون بدّاً ، من اصطناع علم المنطق والكلام والفلسفة ، لتفسير الدين ، أو للدفاع عنه . وهذا الأمر هو باعث الترجمة ومشجعها الأول . وساعد على ذلك أيضاً ، ما كان بين بعض الفرق النصرانية ، من اختلافات دينية ، فالنساطرة واليعاقبة ، قاموا بترجمة كتب كثيرة من اليونانية إلى السريانية ، في مدارس حران والرها ، لاصطناع مادتها

وأسلوبها ، في مجادلاتهم الدينية . ووجد العرب والمسلمون الطريقة ممهدة بعض التمهيد ، إذ أخذوا في ترجمة العلوم اليونانية عن السريانية ، للغرض ذاته . ولكنه يظهر ، أن العرب قد استفادوا من أسلوب الكتب اليونانية ، أكثر مما استفادوا من مادتها . والدليل على هذا ، أننا لا نجد أثراً لآلهة اليونان في كتب العرب ، ولكننا نجد أدلة كثيرة ، على شيوع المنطق والرأي والقياس والإجماع .

الفرق الإسلامية

وساعدت هذه الحركة ، على نمو الفرق الاسلامية ، وتطور مبادئها ، ونضج آراء أصحابها . فلا تكاد تخلو فرقة من الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة والمتكلمين والمتصوفين والفلاسفة والشعوبية والزنادقة ، من اصطناع شيء من مادة العلوم الجديدة أو أسلوبها . فطبق مبدأ التأويل والقياس ، على آيات القرآن الكريم ، وفسَّرتها كل فرقة بالطريقة التي كانت تناسبها ، فكثر البحث في حرية الارادة والأزل ، ووحدانية الله وصفاته ، بصورة منطقية فلسفية ، لا يكتفي فيها بالإيمان المطلق .

كان يتربى أبناء العرب في مثل هذا الجو العلمي ، وكانوا

يتعلمون بطرق تختلف باختلاف ميولهم العلمية والأدبية ، وأذواقهم الدينية والفلسفية . فكانت لهم حرية تامة في الطلب والتحصيل . ولكنه يظهر لنا ، أنَّ هذه الحرية ، لم تكن مطلقة في ناحية العقيدة والرأي ، بدليل ما فعله المأمون عندما ناصر المعتزلة في رأيها ، في خلق القرآن ، وحرية الارادة ، وسلطان العقل . وقصته في محاولة إرغام الإمام أحمد بن حنبل ، على قبول هذا الرأي ، مشهورة لا تحتاج إلى بيان .

ويظهر أن المأمون أراد أن يجعل من نفسه ، أو من مجلس العلماء في بلاطه ، مجمعاً علمياً ، له القول الفصل في الآراء والمعتقدات ، فإذا توصل المجلس إلى الموافقة على رأي ، فعلى سائر الناس من العلماء والدَّهْماء ، أن يعتنقوه طوعاً أو كرهاً .

وهذه الطريقة سابقة خطرة في تاريخ طلب العلم . فإن أنصار الأشعري من المتكلمين ، وعامة أهل السنة من الحنابلة ، قد اصطنعوها في اضطهاد المعتزلة في عهد المتوكل . . وتدخل الدولة في اعتناق الآراء ، وفي طلب العلم ، نتج منه أمران مهمان : أولهما ظهور الجمعيات الفلسفية السِّريَّة ، وثانيهما ظهور المدارس التي تعلم نوعاً خاصاً من المعرفة ، تحت مراقبة الدولة . سأذكر الآن شيئاً عن هذه الجمعيات السرية ، على أن أعالج ظهور المدارس في وقت آخر .

الجمعيات السرية

أشرنا في مكان آخر ، إلى أثر الجمعيات العلمية والأدبية والصوفيّة ، في التربية والتعليم . ولكن هذه الجمعيات كانت عامة كالأندية في أيامنا هذه ، لا يحيط بها شيء من الغموض أو الكتمان ، إلاّ ما كان منها يقول بالتَّقيَّة غير أن تدخل الدولة في طلب العلم ، واعتناق الآراء ، أرغم بعض المفكرين ، على تأليف الجمعيات السرية ، التي كانت تبحث في العلوم التي لا ترضى عنها عامة الناس ، أو لا توافق عليها الدولة ، أو تعاديها فرقة قوية من الفرق .

وأشهر الأمثلة على ذلك ، الجمعية السرية المعروفة باسم إخوان الصفاء وهي التي ظهرت في القرن العاشر للميلاد في البصرة. ولهذه الجمعية نظام في التربية والتعليم ، يكاد يكون فريداً في بابه ، ويستحق أن يفرد له بحث خاص . فهي من حيث أعضاؤها ، تمثل النهضة العلمية في عصرها ، ففيهم الأديب والعالم والفيلسوف والصوفيُّ والفارسي والعربي ، وهم لا ينتمون إلى عقيدة ، ولا يتعصبون لرأي ، ولا يعرضون عن نوع من أنواع العلم والمعرفة . . جاء في رسائل اخوان الصفاء : « نحن لا نعادي علماً من العلوم ، ولا نتعصَّب على مذهب من المذاهب ، ولا نهجر كتاباً من كتب الحكماء والفلاسفة » ـ لأن ـ « رأينا ومذهبنا ، يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها » .

وكان غرضهم إصلاح النظام السياسي القائم ، عن طريق نظام خاص في التربية والتعليم . وكانوا يعتقدون أن التربية والتعليم ، يجب أن يتناولا بالدرجة الأولى ، الروح والعقل ، وبالدرجة الثانية الجسم ، ولهذا ألَّفوا رسائلهم ، لتكون مادة لدعوتهم . . والرسائل ملخص جميع العلوم ، التي كانت معرفة في القرن العاشر للميلاد ، ووضعت طريقة خاصة لنشرها في الناس ، وتعليم ما فيها للرَّاغبين ، وهي طريقة التدرج من المحسوس الذي تدركه الحواس ، إلى المعقول الذي يقبله العقل ، إلى الملهم الذي يسمو بالروح . .

وكان أعضاء هذه الجماعة ، يعتقدون أن المعرفة ، فيها خلاص الانسان من شرور الدنيا ، ووصوله إلى درجة راحة النفس ، والاطمئنان الفكري . ومذهبهم هذا ، كما تذكر الرسائل ، هو مزيج من الفلسفة اليونانية ، والديانة الاسلامية ، بأوسع معانيها ، مع شيء كثير من التغيير والتطبيق .

دائرة معارف عامة

ونظامهم في التعليم جذَّاب مفيد ، لا يراد تطبيقه على جميع الناس . فهو أقرب إلى الدعوة السرية منه إلى اسلوب شامل في

التعليم ، يختار من يتوسمون فيه الخير، ويمهدون لاعطائه الأجزاء الأولى من الرسائل ، التي تبحث في الأمور المحسوسة المشاهدة ، بإثارة روح البحث في نفسه ، وتشويقه إلى معرفة أشياء لا يعرفها . وبعد درس الرسائل الأولى ، يتدرج معه فيها إلى المعقولات ، فالمعتقدات ، ـ وكل ذلك بأسلوب سهل ، فيه لين ورأفة وصبر .

يعد تأليف رسائل إخوان الصفاء ، من أهم الخطوات في تاريخ الفكر العربي ، إذ بتأليف الرسائل ، تكون حركة الترجمة والتأليف والبحث والدرس ، قد بلغت غايتها ، وهي تأليف دائرة معارف عامة ، لجميع علوم العصر ، تمثل نضج العلوم الاسلامية في القرن العاشر ، أحسن تمثيل . وأني أرى أن نضج الثقافة الاسلامية ، وانتشار وسائل العلم ، وتوافر المعرفة للناس ، مهدت السبيل لظهور المدارس الجامعة ، في القرن التالي ، وهو ما سنعالجه في صفحات قادمة .

منهج التعليم العام

وتمهيداً لذلك ، يجدر بنا أن نذكر الآن ، بعض ملاحظات عامة ، تتعلق ببحث التربية والتعليم ، من أول عهد بني العباس ، إلى نهاية هذا الدور الذي نعالجه . وهذه الملاحظات

إجمال لبعض ما تناولته الصفحات السابقة وتعليق على بعض النواحي الغامضة فيها ، وإتمام لبعض النواحي الأخرى .

لم يكنٍ التعليم بمراحل ، فيها الابتدائي والثانوي والعالي ، تبدأ بالكتّاب ، ثم بالمسجد ، ثم بدار الحكمة . لم يكن للتعليم منهج عام تسير بحسبه جميع المعاهد ، كما لم يكن منهج خاص تتبعه المعاهد التي على نمط متقارب ، وترمي إلى أغراض متشابهة .

ولم تكن هناك درجات معروفة للمعلمين وشهاداتهم ، فهذا معلم ابتدائي وذاك أستاذ في كلية ، وغيره حجة إمام في كل شيء . ويجد من يدرس كتب الأدب واللغة والتاريخ ، أن المؤلفين يطلقون على من اشتغلٍ بالتعليم عدّة أسماء ، منها العلم والمؤدب والمدرس والشيخ والأستاذ والعالِم والإمام .

ومن العبث أن نحاول تفسير هذه الأسماء ، بما تدل عليه في هذه الأيام ، أو أن نقابلها بنظام تسمية المعلمين في الكليات والجامعات الحديثة . وذلك لأن الضابط لذلك شيء غير محدود ، وهو الرأي العام في مقدرة صاحب اللقب ، ورأي المؤلف الذي يؤرخه في ذلك . ولكن الظاهر أن كل متعلم ، آنس من نفسه المقدرة ، كان يجلس مجلس العلم ، فيناقشه الأقران ، فإن ساواهم ، أو برز عليهم ، ثبت في مكانه ، وإلاّ عاد للتعلم في حلقة غيره .

وهذا يفسر مسألة (البراءة) التي كان يأخذها المتعلمون من شيوخهم ، فهي شهادة بأن الطالب قد درس على ذلك العالم ، مبحث كذا ، أو موضوع كذا ، وليست رتبة علمية معينة ، لها مستواها المحدد . . لهذا كان الراغبون في توطيد مركزهم العلمي ، يجمعون عدداً من هذه البراءات ، من علماء أكثر البلاد الاسلامية ، ليثبتوا بها مقدرتهم ، وحقهم في الجلوس مجلس البحث والمناظرة . .

المرأة والتعليم

ذكرنا شيئاً عن أثر الحضارة في التربية والتعليم ، من ناحية ظهور طبقة الجواري اللواتي يحسن الغناء والأدب ، وفصَّلنا الطرق التي كان يسلكها الخلفاء والأمراء ، للحصول عليهن وتهذيبهن وتأديبهن ، حتى إن بعض الناس ، جعل ذلك صناعة له . . والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن : هو : هل كان التعليم والتثقيف ، يشمل أيضاً الحرائر المخدرات ، من غير الجواري والقيان ؟

يظهر من النصوص ، أن تعليم النساء لم يكن شائعاً ، مع أن الشواهد كثيرة ، على وجود عدد كبير من المتعلمات العالمات . لا يجوز الاستنتاج من اختلاف الجواري إلى أماكن الدرس والتعليم ، أن عامة النساء ، كنَّ يفعلن ذلك . فالظاهر أن

اللواتي نلن قسطاً من المعرفة والعلم ، كن يتعلمن بصورة خاصة ، في بيوتهن ، أو في أماكن شبيهة ببيوتهن .

وجاء : انه لا يجوز أن تتعلم المرأة الكتابة والقراءة ، بل يكتفي بتعليمها القرآن الكريم والغزل . ولكنه جاء أيضاً : أنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وقد وصلتنا أخبار عدد كبير من النساء ، اللواتي اشتهرن بالعلم والزُّهد والشعر . واكتفي من ذلك بذكر عائشة أم المؤمنين ، وهي من أهم مراجع الحديث الشريف . ثم رابعة العدوية الزاهدة المتصوِّفة ، التي عاصرت الحسن البصري ، ثم علية بنت المهدي، التي كانت تحسن قول الشعر وتلحينه .

ظهور المدارس

يتناول الكلام هنا ، بحث ظهور المدارس في تاريخ التربية والتعليم عند العرب . والمقصود بالمدارس هنا ، الأماكن التي بنيت لنشر نوع خاص من أنواع المعرفة ، بمشارفة الدولة التي تنفق عليها المال ، وتحبس لها الأوقاف ، وتراقب فيها التعليم ، وتعين لها المعلمين . ولا يشمل ذلك ، الأماكن التي كان يمكن التردد عليها لتلقي المعرفة ، كالمسجد ومجالس الأدب والجمعيات ومضارب الأعراب ، ممّا فصلنا سابقاً . وقد أجمع الكتّاب والباحثون ، على أن تأسيس المدارس بهذه الصفة ، لم يتم قبل

القرن الرابع للهجرة ، أو القرن العاشر للميلاد . واختلفوا في أسبق الناس إلى ذلك .

يقول المقريزي : إن المدارس مما حدث في الاسلام ، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة ، من سني الهجرة . وهذا قول حق يثبت بالرجوع إلى الحقائق التاريخية ، كما سأشرحه في الفِقَر التالية . . لكن المقريزي ، يذكر أيضاً أن الخليفة المعتضد بالله ، الذي ولي الخلافة ، في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة ، قد أراد أن يقيم بجوار قصره في بغداد ، المقاصير والمساكن والدور ، لكي « يرتب في كل موضع رؤساء كل صنعة ومذهب ، من مذاهب العلوم النظرية والعملية ، ويجري عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة ، رئيس ما يختاره ، فيأخذ عنه » .

أول منشىء المدارس

هذا مع العلم ، بأن الشائع بين الناس ، بناء على رواية (الذهبي) ، أن أول من أنشأ المدارس في الاسلام ، هو نظام المُلْك الذي وزر للسلاجقة ، في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة . لكن بعض المؤرخين ، كالسبكي والسيوطي ، يقررون أن المدرسة البيهقية قد أسست بنيسابور ،

قبل أن يولد نظام الملك ، وأن المدرسة السعدية ، قد أسست بالبلدة نفسها ، على يد الأمير نصر بن سبكتكين ، أخي السلطان محمود المشهور ، قبل تأسيس مدارس نظام الملك . والظاهر أن سبب نسبة تأسيس المدارس إلى (نظام الملك) ، يرجع إلى شهرته الادارية ، وإلى كثرة المدارس التي أسسها ، وإلى دوام كثير منها ، وخدمتها الجلي للدولة . . فالمعروف أن نظام الملك ، قد بنى المدارس في بغداد والبصرة والموصل وبلخ ونيسابور وهراة وأصبهان ومرو وآمُلِ بطبرستان ، حتى قيل ، إنه كان في كل مدينة من مدن العراق وخراسان مدرسة .

إذاً يمكننا القول ، أن تأسيس المدارس بمعناها الخاص الذي شرحناه ، لم يكن قبل القرن العاشر للميلاد ، وأن انتشارها أو ثبوت أمرها ، لم يتم قبل النصف الثاني من القرن الحادي عشر .

نمو معكوس

وهذه المدارس أقرب شيء إلى المدارس التي نطلق عليها الآن إسم مدارس الحكومة . ولكنه يبدو لي ، أن مدارس العرب والمسلمين ، في القرن الحادي عشر للميلاد وما بعده ، لم تنشأ نشأة طبيعية ، إذ ظهرت كاملة النمو ، ولم تتطور على مرور الزمن . بل يمكن القول ، أنها نشأت نشأة معكوسة ، كمن راح يبني قمة البرج ، قبل أن يقيم دعائمه ، ويوطد أركانه . لأن

الظاهر من النصوص ، أن هذه المدارس ، كانت من مستوى عال ، تقرب من الكليات والجامعات ، ولم تكن بجانبها أو تحتها درجات أخرى ، من المدارس الابتدائية والثانوية التابعة للحكومة ، لكي تغذيها بالطلبة ، وتكون أساساً لنظام التعليم فيها . فالمدرسة في تاريخ الاسلام ، بدأت بالجامعة ، وانحطت إلى مستوى الزاوية والكتّاب . ولم تبدأ ببستان الأطفال ، ثم ترتفع بالتدريج إلى مستوى الجامعة .

هذا من جهة المستوى ، أما من جهة البرامج ، فالظاهر أيضاً ، أن المدارس كانت تعلم نوعاً خاصاً من المعرفة ، يتناول بالدرجة الأولى ، العلوم الشرعية واللسانية ، مع استخدام شيء من أساليب المنطق والفلسفة في ذلك . أما درس الفلسفة الصِّرْفة والنجوم والطب ، فيكاد يكون خارجاً عن نطاق هذه المدارس .

مجانية التعليم

ومن صفات المدارس أيضاً ، أن التعليم فيها كان مجاناً ، لا تفرض الدولة فيه (الرسوم) على الطلاب ، ولا يتناول الأساتذة منهم شيئاً من التعويض ، بل تكون لهم فيها جميع وسائل الراحة من نوم وطعام واغتسال وعلاج وغير ذلك ، ويتناولون المخصصات التي تسميها المصادر (المعاليم) . أما الأساتذة ،

فقد خصصت لهم المرتبات من مال الدولة ، فهم موظفون فيها ، يطيعون أنظمتها وينفذون سياستها .

ويقال أن كثيراً من العلماء ، قد هالهم هذا الاتجاه المادي في طلب العلم . . يذكر (حاجي خليفة) في كتاب كشف الظنون ، أن علماء ما وراء النهر ، لـمَّا بلغهم بناء المدارس ببغداد ، وتخصيص المرتبات للأساتذة ، والمعاليم للطُّلاب ، أقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشتغل به أرباب الهمم العليَّة ، والأنفس الزكية ، الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم . ولكنَّ العلم ، إذا صار عليه أجرة ، تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل . .

أما أسباب ظهور هذه المدارس ، فيمكن تحديدها بالقياس على ما نعرف من تاريخ ، وبتحليل الحقائق في ضوء هذا التاريخ . . وكنا قد فصلنا مسألة الجمعيات السرية العلمية ، وأثرها في التربية والتعليم ، وذكرنا أن من أغراضها إصلاح النظام السياسي والاجتماعي ، عن طريق نشر المعرفة والعلم ، وذكرنا من الأمثلة على ذلك ، جماعة إخوان الصفاء . والظاهر أن هذه الحركة ، قد وجدت نصيرها في نظام الملك ، الذي اشتهر ببعد النظر ، وأصالة الرأي ، وحسن السياسة . . والظاهر أن نظام الملك ومن نحا نحوه ، قد أرادوا أن تكون المدرسة واسطة لنشر نوع خاص من المعرفة ، فيه صلاح الفرد

وإعداده لخدمة الدولة ، أو إعداده لقبول سلطتها ، وإطاعة قوانينها . ولا يخفي أن الدولة في ذلك العصر ، كانت بأيدي الأعاجم ، ونظام الملك نفسه أعجمي ووزير لأعجمي . وما كان أحوج هؤلاء ، إلى رضى الناس عنهم ، وعن حكمهم . وأي طريق أضمن من طريق العلم والمدرسة ، للوصول إلى ذلك ؟ . .

انتصار الدين على الفلسفة

وهناك سبب آخر ، وهو أن الأعاجم ، شأن الحكام الغرباء ، كانوا يريدون السير بالدولة في الناحية التي ترضي عامة الناس من وجهة دينية . والمعروف من التاريخ ، أن (الأشعرية) قد انتصرت نهائياً على (المعتزلة) . ومعنى هذا ، أن الفقهاء قد انتصروا على الفلاسفة ، وذلك منذ عهد المتوكل والذين جاءوا بعده . ونعرف أيضاً ما صنعه المأمون ، وهو نشر مذهب خاص وفرضه على الناس ، طوعاً أو كرهاً . وقد ذكر أن ذلك كان سابقة خطرة في تاريخ الفكر الاسلامي العربي ، لجأ إليها المتوكل ، ولجأ إليها غيره ممن جاءوا بعده ، كما لجأت إليها العامة ، في تجربة فرض إرادتهم أو اعتقاداتهم ، على المفكرين والفلاسفة . . ونرى أن تأسيس المدارس هو النتيجة الطبيعية ، لانتصار الفقهاء على الحكماء ، أو انتصار الدين على الفلسفة .

والحكام الذين كانوا لا يستغنون عن الدين ، لتسهيل تنفيذ سياستهم ، لجأوا إلى توطيد سلطة الدين واستبعاد الفلسفة ، فأسسوا المدارس ، وهي كما رأينا ، كانت تتناول العلوم الشرعية واللسانية ، وتكاد لا تبحث في الفلسفة والنجوم والطب ، إلا لتفنيدها ، أو إبطالها ، أو على الأقل لاصطناع أساليبها دون مادّتها .

أهم سبب لوجود المدرسة

ومن الأسباب العملية لتأسيس المدارس ، حاجة الدولة إلى القضاة والعمال والكتّاب والمدرسين ، والموظفين من مختلف الطبقات . والظاهر من النصوص الكثيرة ، أن المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك ، قد كان لها شأن خطير في هذا الباب ، فكان المتخرِّجون فيها يقومون بوظائف كثيرة ، في دواوين الحكومة وفي غيرها من المؤسسات ، وأحسن مثال على ذلك ، القول المنسوب إلى أبي اسحق الشيرازي ، الذي كان عميداً للمدرسة النظامية في بغداد ، إذ يروى أنه قال عند عودته من خراسان ، أنه لم يذهب إلى مدينة أو بقعة ، دون أن يجد تلميذاً من تلاميذه ، يتولى فيها عملاً مهماً أو منصباً خطيراً .

والحقيقة أن حماسة بعض الباحثين والقائلين بفضل هذه المدارس ، دفعتهم إلى مقابلتها بالجامعات والكليات ، أو

تسميتها جامعة . ولا غرابة في ذلك ، ولا مبالغة فيه ، فهي في الواقع أشد شبهاً بالجامعات منها بالمدارس العادية . وهذا الشبه يتناول براجمها ومستواها وأساتذتها وطلابها ، كما يتناول مظاهرها الخارجية ، وأوصافها الظاهرة .

أبنية المدرسة

كانت المدرسة عادة تتكون من أبنية مختلفة ، يجاور بعضها بعضاً ، كل بناء (أو دار) يخصص لغرض معين ، من تدريس أو إسكان أو رفاهية أو علاج . والكتب التي بين أيدينا ، تدلنا على أن فناء كل مدرسة ، كان يحتوي على جامع ، وهذا المكان كان يخصص للصلاة وللوعظ ، لا للدرس والمناظرة والبحث ، على خلاف ما كانت عليه الحالة في العصور الأولى .

وكان لكل مدرسة مكتبة في إحدى دورها ، يؤمها الأساتذة والطلاب والراغبون في العلم والبحث . وقد تسابق الأمراء ومؤسسو المدارس ، في جمع الكتب ، وتنافست المدارس في هذا الباب ؛ وكانت شهرة المدرسة تقوم عادة على مقدرة المعلمين الذين يعلمون فيها ، والكتب التي في مكتبتها .

وكان في عدد كبير من هذه المدارس ، أبنية خاصة للمحاضرات والمناظرات ، ولا سيما في العلوم التي ليست لها صلة

قريبة بالدين . فكان البحث في هذه العلوم يدور في فناء المدرسة ، أو زاوية من زوايا دورها ، أو في رواق من أروقتها ، لا في جامعها ، ولا في ساحته . والأمثلة على حدوث المناظرات ، وجلوس كبار الأساتذة في أروقة المدارس وساحاتها ، ومجيء الطلاب لسؤالهم ومباحثتهم ، كثيرة في كتب الأدب والتاريخ .

ومن المظاهر البارزة في المدارس أيضاً ، وجود الأماكن لاقامة الطلاب والأساتذة ، وطعامهم وشرابهم ووضوئهم وراحتهم وتطبيب أجسامهم . فالمعروف أنه وجد ببعض المدارس المطبخ والحمَّام والمستشفى ، بجانب أروقة الدرس ، ومكاتب البحث ، وجامع الصلاة .

ولا شك أن توافر أسباب الراحة ، وتخصيص النفقات للطلاب زادا في إقبالهم على العلم . وتذكر بعض المصادر ، أن عدد الطلاب الذين كانوا يترددون على هذه المدارس ، زاد على الألوف . وتذكر أيضاً أن بعض الطالبات من النساء ، كنّ يترددن على المدارس .

هذا مجمل عن ظهور المدارس في الاسلام ، ووصف لأنظمتها وأساليبها . .

المدارس الجامعة في الاسلام

المدارس الجامعة ، التي تذكرها كتب التاريخ والأدب كثيرة ، ولكن اشتهر منها ، جامعة قرطبة بالأندلس ، الأزهر الشريف

بمصر ، والمدرسة النظامية ببغداد . وكان ظهورها ، في مدة تقرب من مئة سنة ، تبتدىء من أواسط القرن العاشر للميلاد ، وتنتهي في أواسط القرن الحادي عشر . أما المدارس الأخرى التي ظهرت في تلك المدة ، وفي العصور التالية ، فهي على نمط هذه المدارس الجامعة ، مع تفاوت في النظام والمستوى ، يختلف باختلاف البلد والزمن والمذهب . وسنتكلم عن هذه المدارس الثلاث ، واحدة واحدة ، كلاماً مختصراً ، لا إدعاء فيه بالتحقيق والاحاطة .

جامعة قرطبة

جامعة قرطبة تُعَدُّ نهضة العرب العلمية في الأندلس ، من أهم مباحث التاريخ ، ولكنها مع الأسف غير واضحة ، لقلة المصادر التي تفصِّلُ ظهورها ونموها وتطورها . والغريب أن العرب لم يعنوا بها عناية كافية ، في الماضي ولا في الحاضر . والحقائق التاريخية القليله التي نعرفها ، يجدها الباحث مبعثرة في كتب العرب . وقد يجد شيئاً منها في كتب الباحثين من المستشرقين ، ولكنه ينقص هذا وذاك ، التفاصيل الوافية ، والحقائق الدقيقة ، والاستنتاج الصحيح . وتكاد تكون المصادر التي يعتمد عليها من الصنفين ، مقصورة على (نفح الطيب) للمقري و (تاريخ المسلمين في اسبانيا) لدوزي .

وجد العرب الذين فتحوا الأندلس أنفسهم متمدنين ، بالنسبة إلى أهلها . وهذا على خلاف ما كانت عليه الحالة ، عندما فتحوا بلاد الفرس والروم في المشرق . والمشهور أن العرب في الأندلس ، قد تركوا أهلها على دينهم ، واختلطوا معهم بالتزاوج ، وبادلوا الأخذ والعطاء في سائر مظاهر الحياة ، وساووهم بأنفسهم ، وقربوهم إليهم ، في إدارة الدولة ، وفي المجالس الاجتماعية ، وفي درس العلم . وكان من نتائج هذا التسامح والامتزاج ، أن نشأ شعب أندلسي ، تحكمه دولة عربية إسلامية ، وتسوده ثقافة هي مزيج من العرب والمسلمين ، مع ما في البلاد من تقاليد ، وما لأهلها من صفات بدنية واجتماعية .

طلب العلم في الأندلس

ولا يعرف بالضبط تاريخ ابتداء طلب العلم في الأندلس ، ولكن تعلم اللغة العربية ، وعلوم العرب ، توصلاً إلى مركز في الدولة ، أو جاه في الحياة ، بدأ منذ الفتح . وكانت بلاد المشرق ، تغذي هذه الحركة ، بالعلماء والكتب . ولم تلبث هذه الحركة العلمية في الأندلس ، أن نمت نمواً كبيراً ، صار يضرب به المثل في أوروبا . . والظاهر أن تأثير ذلك ، في أهل الأندلس من غير العرب ، كان عظيماً ، حتى خشي بعضهم على الآداب النصرانية واللغة اللاتينية ، من الزوال ، أمام هذا التيار

الاسلامي العربي . فلا غرابة بعد هذا ، أن استعرب كثير من النصارى واليهود في الأندلس ، ونبغ منهم كبار الكتّاب والوزراء .

وبلغ طلب العلم درجة عالية من الرقي ، في عهد عبد الرحمن الثالث ، وولده الحكم الثاني ، في القرن العاشر للميلاد . وشهرة الحكم في العلم ، ومحبته لجمع الكتب ، تغني عن التفصيل ، إذ يقال إنه جمع في قصره ، ما يقرب من نصف مليون كتاب ، قرأها بنفسه ، وعلق على معظمها بخط يده ، وإنه دفع ألف دينار ثمناً للنسخة الأولى من كتاب الأغاني ، وإنه فتح سبعاً وعشرين مدرسة في عاصمته ، كان يدفع مرتبات معلميها من ماله الخاص ، وإنه قصد من ذلك تسهيل طلب العلم للفقراء ، الذين لا يقدرون على دفع نفقاته .

في هذا الجو العلمي ، تم تأسيس ما يسميه بعض الكتّاب والباحثين ، (جامعة قرطبة) ، أي المدرسة الجامعة ، التي كانت في الجامع المشهور . يقول دوزي ، إن هذه المدرسة ، كانت من أشهر المدارس الجامعة في الدنيا . وكان أبو بكر بن معاوية القرشي ، يدرس فيها الحديث ، وكان أبو علي القالي ، (صاحب الأمالي) ، يملي على الطلاب أخبار العرب ، وشيئاً من شعرهم ولغتهم ، وكان إبن القوطية يعلم فيها النحو . . وكان يبلغ عدد الطلاب في هذه المدرسة الألوف، معظمهم يتعلمون

الفقه وعلوم الدين . ومن علماء هذا العهد ، إبن عبد ربه صاحب العقد ، وإبن هانىء الشاعر ، وأبو بكر الرازي المؤرخ ، ومسلمة بن أحمد الرياضي ، وأبو القاسم الزهراوي الطبيب الجرّاح .

ولا شك أن هذه الحركة العلمية ، التي بلغت غايتها بتأسيس المدرسة الجامعة في قرطبة ، كانت أساساً لما أنجبته الأندلس في القرنين التاليين ، من أدباء وعلماء وفلاسفة ، وما ظهر فيها من مدارس جامعة ، بلغت شهرتها ، أن تعلم فيها بعض كبار رجال الكنيسة ، بالاضافة إلى كبار رجال النصرانية وعامتهم .

الجامع الأزهر

الجامع الأزهر - تذكر كتب التاريخ ، أن جوهراً قائد المعزّ الفاطمي قد اختطّ مدينة القاهرة ، بجانب الفسطاط ، في الليلة التي دخل فيها إليها ، (سنة ٩٦٩) . وأراد بذلك أن يجعل القاهرة ، مقرّ دواوين الحكومة ، وقصور خلفائها ووزرائها . ولكن من أول ما أمر به ، إبطال الدعاء لخلفاء بني العباس في المسجد (مسجد عمرو) ، والدعاء للخليفة الفاطمي ، والترحم على أهل البيت من أبناء عليّ ، بدلاً من ذلك .

وإتماماً لهذه السياسة ، وهي سياسة إعلاء شأن آل البيت ،

الذين انتسب إليهم الفاطميون ، أمر جوهر أن يقام الجامع الأزهر ، جنوبي قصر الخليفة ، في هذه المدينة الجديدة . وقد تم ذلك في سنة ٣٦١ هجرية . ولما جاءالـمُعِزّ لدين الله ، إلى عاصمته الجديدة ، وسكن قصره فيها ، صلى صلاة عيد الفطر ، في الجامع الأزهر . والظاهر أن الجامع ظلّ مسجداً للصلاة ، إلى أن جاء الخليفة العزيز بعد المعز ، فخصص الأزهر للدرس والعلم ، في سنة ٣٧٨ للهجرة ، وذلك في آخر القرن العاشر للميلاد ، وأول القرن الحادي عشر .

وفي زمن الحاكم بأمر الله ، أسس معهد (دار الحكمة) ، وهو معهد للدرس والبحث ، لا علاقة له بالأزهر ، إلّا طريقة إنشائه . وكان فيه أساتذة مشهورون بعلوم الدنيا والدين ، ومكتبة عامرة نقلت إليها الكتب من قصر الخليفة ، وجمع غيرها من سائر الأمصار . وكان طلاب العلم يؤمونه للدرس وسماع العلم . وكانت تعطى لهم الأقلام والأوراق والحبر مجاناً .

والظاهر أن مصر ، وهي مركز مهم من مراكز الثقافة اليونانية ، كانت ملائمة لمثل هذه المعاهد ، التي تبحث في العلوم الطبيعية والفلسفية . وشاهدنا على ذلك ، انتشار رسائل إخوان الصفاء المشهورة بالنزعة الفلسفية ، بين الشيعة في مصر في زمن الفاطميين . وهناك شاهد آخر ، وهو أن إبن الهيثم ، المشهور بحبه للفلسفة اليونانية ، لم يجد لنفسه ملجأ في العراق ، بعد

انتصار الفقهاء على الفلاسفة ، فذهب إلى الأزهر ، في زمن الحاكم بأمر الله .

يستنتج مما مضى ، أن الأزهر بني ليكون مسجداً للصلاة ، ثم خصص للدرس والعلم ، زيادة على ذلك . ولا شك أن هذا الاتجاه ، في الاستفادة من الجامع ، يناسب حالة العصر ، وخصوصاً بعد أن دونت العلوم اللسانية والشرعية ، ونضج درس العلوم الفلسفية ، في القرن العاشر للميلاد . ولا شك أن الدعوة إلى مذهب من المذاهب بواسطة المدرسة ، وتحت سلطان الدولة ، هو ما اعتاده الناس حينئذ ، بعد أن استتب الأمر للفقهاء ، وتمت غلبتهم للفلاسفة .

وإن تأسيس الأزهر ، لنشر مذهب الدولة القائمة ، ولتسهيل مهمة رؤسائها ، وللدفاع عن خطتهم ، يتلاءم مع ما فعله نظام المُلْكِ في الجهة الأخرى ، من البلاد الاسلامية ، حينما أسس مدارسه في مدن العراق وخراسان . فالأزهر مدرسة من المدارس التي نشأت في الاسلام ، وينطبق عليه ، ما ينطبق على المدارس الأخرى ، من حيث ظهوره والغرض منه ، ومواد الدرس فيه ، وتطور ذلك كله . فالجامع بني من مال الدولة ، وتحت مراقبتها ، وهي التي خصصته للدرس والعلم ، وهي التي أنفقت عليه المال ، وحبست له الأوقاف ، وهي التي عينت له الأساتذة ، ودفعت إليهم المرتبات .

نكتفي بهذا المقدار عن الأزهر ، حفظاً للتناسب في الكلام عن المدارس الجامعة التي ذكرت . ولكن يمكن القول إجمالاً ، إن الحقائق المعروفة عن تاريخ الأزهر ، وعن علمائه وفضله في تاريخ العرب والاسلام ، مشهورة لا تحتاج إلى إعادة في هذا الموضع .

- ١١ -

مدارس جامعة أخرى

تناولنا في الفصل السابق مدرستين كبيرتين ، من المدارس الجامعة التي ظهرت في عصر من العصور الاسلامية ، الزاهية بطلب العلم ونشره . وهما المدرسة الجامعة التي أقيمت في جامع قرطبة ، والمدرسة الجامعة التي تأسست في الجامع الأزهر . بقي مدرسة جامعة ثالثة من المدارس ، تأسست في العصر نفسه في بغداد ، وهي المدرسة النظامية . ومدرسة جامعة رابعة ، ظهرت بعد تلك المدارس ، وهي المدرسة المستنصرية .

المدرسة النظامية

(المدرسة النظامية في بغداد) ـ فتحت هذه المدرسة للطلاب ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد .

وهي إحدى المدارس الجامعة ، التي أسسها نظام الملك ، في مدن العراق وخراسان . وكان أبو إسحاق الشيرازي أول رئيس لها . واشتهرت بتعليم علوم الدين وعلوم اللغة ، ولم ترد الشواهد على تعليم العلوم الأخرى فيها . إلاّ أنه يصح أن يقال ، أن أساتذتها قد اصطنعوا أساليب الفلاسفة في بحثهم وجدلهم ، ولم يقبلوا مادتهم ، بل لدينا ما يثبت أنهم أعرضوا عنها ، وألفوا الكتب في إبطالها ، كما فعل الإمام الغزالي ، في كتابه المشهور (تهافت الفلاسفة) .

ومن الأساتذة الذين علّموا في النظامية ، أبو بكر السمعاني ، (وهو أبو السمعاني الآخر صاحب كتاب الأنساب) . والإمام أبو حامد الغزالي ، (صاحب كتاب إحياء علوم الدين) . وأبو بكر زكريا التبريزي (شارح كتاب الحماسة والمعلقات) . وأبو المحاسن إبن شداد (مؤلف سيرة صلاح الدين) . . وكان الوزير نظام الملك ، يطّلع بنفسه على هذه المدرسة ، وعلى وضع قوانينها ، ويعين لها الرؤساء والأساتذة ، ويحدد لهم واجباتهم على وجه الاجمال .

وقد قامت المدرسة النظامية ، لتعليم الدين على مذهب الشافعي من أهل السُّنّة . فهي من هذه الناحية ، مقابلة للأزهر الذي تخصص بتعليم الدين على طريقة أهل الشيعة ، في زمن الفاطميين . وهذا يناسب الرأي الذي ذكرناه في وصف المدارس

إجمالاً ، وهو أن من أغراضها ، توطيد مركز الدولة القائمة ، عن طريق نشر مذهبها ، أو نشر نوع خاص من العلم ، يناسبها ويساعد في تدريب الناس على إطاعتها ، وتسهيل عمل عمالها بينهم .

وقد عاشت هذه المدرسة ، ما لا يقل عن ثلاثمئة سنة ، ولكن لم يعرف شيء كثير عن تاريخها في أثناء كل هذه المدة . ومن أوفى ما كتب عنها ، ما ذكره إبن جبير ، في رحلته ، وقد زارها وقال يصف مجلساً من مجالس الوعظ فيها : « أول من شاهدنا مجلسه منهم (يريد الأساتذة) ، الشيخ الإمام رضي الدين القزويني ، رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية . . . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة ، إثر صلاة العصر من يوم الجمعة . . . فاندفع فخطب خطبة سكون ووقار ، وتصرف في أفانين من العلوم ، في تفسير كتاب الله عز وجل ، وإيراد حديث رسول الله (صلعم) . . . ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصّر ، وتقدم وما تأخر ، ودفعت إليه عدة رقاع ، فجمعها جملة في يده ، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذها ، إلى أن فرغ منها عند المساء ، فنزل وافترق الجمع » .

ومن الشواهد على منزلة أساتذة النظامية وواعظيها ، وأثرهم في طلابهم أو سامعيهم ، ما جاء في (النجوم الزاهرة) ، للمؤرخ (تغري بردي) ، عند ترجمة العبّادي الذي كان واعظاً

في المدرسة . فيقال انه كان يحضر مجلسه ثلاثون ألفاً من الرجال والنساء ، وإن بوعظه وتعليمه ، حلق أكثر الصبيان رؤ وسهم ، ولزموا المساجد ، وبدَّدوا الخمور ، وكسروا الملاهي .

هذه هي المدارس الجامعة الثلاث ـ مدرسة قرطبة ، والجامع الأزهر ، والمدرسة النظامية ـ وقد نشأت في فترة واحدة ، بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الحادي عشر للميلاد ، على وجه التقريب .

المدرسة المستنصرية

إتماماً للبحث ، نذكر شيئاً عن مدرسة جامعة أخرى ، ظهرت بعد هذه المدة ، وهي المدرسة المستنصرية ، لأنها تعتبر نموذجاً للمدارس التي جاءت بعد عصر التأسيس ، بل تعدُّ أعلى ما وصل إليه العرب ، في تأسيس المدارس الجامعة .

أنشئت هذه المدرسة ، في الثلث الأول من القرن السابع للهجرة ، أو في الثلث الأول من القرن الثالث عشر للميلاد ، في بغداد ، في زمن الخليفة المستنصر بالله ، وهي منسوبة إليه ، لأنه يعود الفضل إليه في بنائها ، وفي الانفاق عليها ، وحبس الأوقاف لها ، وتعيين المدرسين والمشايخ فيها .

قال إبن أبي الحديد ، وكان قد شهد حفلة افتتاح المدرسة ، بحضرة الخليفة ، يصفها :

وَضَعَ الإِمَامُ بها أساسَ بِنائِه
والمَوْجُ بَيْنَ مُجَمْجِمٍ ومُزَمْجِرِ
قَصْراً وَمَدْرَسَةً لِمَنْ طَلَبَ الغِنَى
أو رامَ شَأْوَ العالِمِ المُتَبَحِّر
هِيَ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ يَجْري تَحْتَها
من ماء دِجْلَةَ ماءُ نَهْرِ الكَوْثَرِ

وقد يعد تأسيس هذه المدرسة الجامعة ، آخر محاولة حاولها العرب والمسلمون ، في سبيل التعليم العالي ، ودولتهم قائمة في المشرق . لأن مجيء التتار ، قد أطفأ النور الذي كان يسطع من هذه المدرسة ، ومن غيرها من المدارس في العالم الاسلامي . إذ المعروف أن التتار تتلوا بعض أساتذة هذه المدرسة ، وألقوا بكثير من كتبها في النهر ، ولكنهم لم يقضوا عليها قضاء تاماً . وقد يعد تأسيس هذه المدرسة ، دليلاً على التقدم العلمي من جهتين ، الأولى : أنها قامت لتعليم المذاهب الأربعة بالتساوي ، فهي خطوة إلى الامام ، في سبيل طلب العلم بحرية لا يشوبها قيد مذهبي أو سياسي . والثانية : انه عُلِّمَ فيها الطب والحساب من العلوم الطبيعية . فالمدرسة المستنصرية في هذين الأمرين ، تقرب حقاً من المعاهد التي نطلق عليها إسم (الجامعة) ، لأنها

تدرس جميع العلوم على السواء ، ولا تفرض الحدود والحواجز في ذلك .

بناء المدرسة

بنيت المستنصرية ، على طرز المدارس الأخرى ، فكان فيها الجامع والرِّواق والمكتبة والحـمَّام والمطبخ والمستشفى ، في بيوت متقاربة كأنها حيٌّ واحد . والظاهر أن بناءها كان بجوار قصر الخليفة ، وهناك روايات تدل على أنه أمر بتخطيط بستان له بقربها ، وجعل فيه عُلِّيَّة تشرف على المدرسة ، وتمكّنه من سماع الدرس والوعظ ، والتنزه في البستان في وقت واحد .

ويظهر أنه كان يعلم فيها الفقه ، على المذاهب الأربعة ، لكل مذهب مدرس ، يساعده أربعة من المعيدين . وكان يعلم فيها أيضاً الحديث وعلوم العربية ، كما كان يعلِّم فيها الطب ويأوي إليها عدد من الأيتام . وكانت تصرف للأساتذة ومساعديهم ، المعاليم من المال ، والجرايات من الطعام ، كما كانت تصرف للطلاب المجاورين ، والفقراء والأيتام ، بمقادير وافرة منتظمة .

وكان من أساتذة هذه المدرسة ، مشاهير الفقهاء والعلماء في عصرها . فمنهم محيي الدين بن فضلان الشافعي ، وجمال الدين بن الجوزي الحنبلي ، وقاضي القضاة أبو المعالي عبد الرحمن الواسطي . . والظاهر أن بعض الأساتذة ، الذين كانوا

يدرِّسون في المدرسة النظامية في بغداد ، كانوا يدرِّسون في المستنصرية أيضاً . ومن أشهر الذين فعلوا ذلك ، محمود الزنجانيّ قاضي قضاة بغداد .

لم تطل مدة المدرسة المستنصرية ، وهي قائمة على خدمة العلم . ولكن بناءها قد قاوم عوادي الزمان ، فزاره إبن بطوطة ، بعد نحو قرن من غزوة التتار ، وذكرها غيره من الكتّاب والرحّالين ، من عرب وأعاجم ، وظل بناؤها ماثلاً إلى أيامنا هذه ، كشاهد من الشواهد الكثيرة ، على ما بلغه العرب والمسلمون ، من علوِّ المقام في طلب العلم ونشره .

ويمكن الآن ، أن نجملَ القول في نشوء المدارس الجامعة وتطورها ، وبلوغها ذروة الكمال . فالثابت من الحقائق التي عرضناها ، أن المدارس بمعناها الفنيّ ، قد ظهرت في منتصف القرن العاشر للميلاد ، وبلغت بالتدريج غاية الكمال في مدة ثلاثة قرون ، ثم انطفأ نورها بعد ذلك ، في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، وذلك بزوال آخر سلطة سياسية للعرب في المشرق . أما ما كان في المغرب ، فلا يكاد يختلف عن هذا في شيء .

- ١٢ -

التعليم في عهود غير قريبة

وصلنا في كلامنا عن التربية والتعليم ، في تاريخ العرب

والاسلام ، إلى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، وانتهينا من بحث ظهور المدارس النظامية والمدارس الجامعة وتطوُّرها ، وبلوغها غاية الكمال في مدة ثلاث قرون ، تمتد من تأسيس الأزهر ، إلى تأسيس المدرسة المستنصرية . وسنتناول الآن هذا الموضوع ، في ثلاثة قرون أخرى ، تمتد من مجيء التتار إلى مجيء الأتراك العثمانيين .

يمكن أن يقال في وصف تاريخ المدة الأولى ، إنه غلب عليها الاضطراب السياسي ، ووقعت في أثنائها الحملات الصليبية ، وامتازت بازدهار علمي ديني ، برز للوجود بتأسيس المدارس الجامعة ، وذلك على أثر انتصار الفقهاء على الفلاسفة . ولكن المتصوفة قد أخذوا مكان الفلاسفة في هذا النزاع الفكري ، فناصبوا الفقهاء العداء ، ونَحْواً في فهم الدين نحواً فلسفياً باطنياً . فالمتصوفة علماء في الدين كالفقهاء ، ولكنهم يصطنعون طرق الفلاسفة في ذلك ، ويعتمدون اعتماداً كبيراً على النظرية القائلة ، بأن المعرفة توحى إلى المرء وحياً ، وأن محبة الله والاتصال به ، هما أساس السعادة والمعرفة . وليس معنى هذا أن الفلسفة قد زالت من الوجود ، أو أن الفلاسفة لم يكن لهم شأن . فالواقع أن عدداً من كبار الفلاسفة ، كإبن رشد وإبن طفيل وإبن ماجة ، قد ظهروا في هذه المدة ، في المغرب ، لا في المشرق . لأن المغرب لم يشتهر عنه ، ما اشتهر عن المشرق ، من إفراط في الخلاف المذهبي والفكري .

ويمكن أن يقال في وصف تاريخ المدة الثانية ، إنه انحطاط شنيع في عالم السياسة ، وركود مخيف في عالم الفكر . فمن الناحية السياسية ، اضمحل سلطان العرب نهائياً ، وقامت على أنقاض الخلافة الاسلامية ، دول من المغول والأتراك والفرس والمماليك والبربر . ولم يبق سلطان للعرب إلّا في الجزيرة العربية نفسها ، وفي غرناطة في الأندلس . أما من الناحية الفكرية ، فقد غلب على العلماء والكتّاب ، التقليد والعقم . وتكاد تكون كل الكتب التي ظهرت في تلك المدة ، شرحاً لما سبقها ، أو جمعاً لما تناثر من مادتها ، أو تعليقاً سقيماً على آراء أصحابها ، أو تأليفاً جديداً لا أثر فيه للابتكار والطّرافة . ولم يشذّ عن هذه القاعدة ، سوى المؤرخ الشهير عبد الرحمن بن خلدون ، والمتصوّف الكبير عبد الوهاب الشعراني .

ويمكن وصف تاريخ هاتين المدتين إجمالاً ، أي من أوائل القرن الحادي عشر ، إلى أوائل القرن السادس عشر ، بكلمات مختصرة . فالنصر الذي تم للفقهاء على الفلاسفة ، لا يمثله في الحقيقة إلّا الغزالي ، فهو الذي لاءم بين الفقهاء والمتصوفة ، فأبعد الفلسفة بالاسم ، وأدخلها بالفعل عن طريق التصوّف ، وبذلك مزج كل الثقافات الاسلامية العربية (من فقه وفلسفةٍ وتصوُّف) بصورة تضمن للدين سلطانه ، ولا تستبعد مبادىء الفلسفة ، أو مذاهب التصوف . فأثر الغزالي في تاريخ الفكر

الاسلامي العربي ، جليل الخطر ، لا بد أن يلاحظه كلُّ باحث ، على مدى خمسة قرون من مرته .

شأن اللغة العربية

هذا وصف إجمالي من الناحية السياسية والفكرية ، يصدق على الخمسمئة سنة ، التي تمتد من عهد الغزالي إلى مجيء الأتراك العثمانيين . أما من ناحية التربية والتعليم ، فيمكن إجمال أوصاف هذه المدة ، في عدة نقط أساسية . فمنها تأسيس المدارس الجامعة ، ونموُّها ، ثم انحطاطها . ومنها أن شأن اللغة العربية قد أخذ يضمحلُّ ، لأنها لم تكن لغة الدولة ، في جميع البلاد الاسلامية . ومنها نشوء المدارس من درجات مختلفة ، في الزوايا والرُّبُط ، واهتمام الملوك والسلاطين والأمراء من الأعاجم ، بتأسيس المدارس وتخصيص الأوقاف لها . ومنها انحطاط المستوى العلمي إجمالاً ، في المدارس الجامعة وفي المدارس العادية ، وخاصة بعد مجيء التتار . ومنها ازدهار نوع خاص من التأليف ، كان أقرب إلى التصنيف ، منه إلى الابتكار والإبداع . ومنها اضطراب أساليب التعليم ، وظهور المتطفلين عليه ، في أدواره الدُّنيا والعليا .

كان اضمحلال شأن اللغة العربية ، من أول المصائب التي

حلّت بالثقافة الاسلامية العربية . وأثر ذلك في التربية والتعليم كبير الخطر . فالمعروف أن الفرس كانوا شركاء العرب في دولة الخلافة ، ولكنهم ظلوا يرقبون فرصة ، يتخلصون فيها من حكم العرب السياسي ، ومن سلطانهم الثقافي . وجاءت هذه الفرصة ، بعد سقوط الخلافة ، فتحللت بلاد الفرس على التدريج من سلطان اللغة العربية ، فانحصر استعمالها في الشؤون الدينية ، وفي بعض المدارس ، وعند بعض العلماء . وظلّ ذلك في ازدياد ، حتى جاء زمن لم يبق فيه للعربية سلطان على الفرس . ونشأ عن هذا ، وعن ضعف العرب السياسي ، وعن فشوٍّ اللحن في الكلام ، والعقم في البحث والتأليف ، أن تضاءل شأن اللغة العربية ، حتى في مصر والشام والعراق ، وغلبت عليها أساليب الأعاجم في الكتابة ، وبعض ركاكتهم في التعبير والاصطلاح.. وهذا كله جعل اللغة وتعليمها أمراً صعباً ، وزاده صعوبة ما طرأ على المدارس والكتاتيب ، من انحطاط في المستوى العلمي والاداري على وجه الاجمال .

مدارس كثيرة وعلم متدنٍ

والغريب أن هذا الانحطاط ، كان يظهر واضحاً في نوع العلم والعلماء ، لا في عددهم أو عدد كتبهم ، أو عدد المدارس والمكاتب وتنوعها . فالمدارس على ما يظهر من الكتب ، كانت

كثيرة ، وعدد المدرسين والفقهاء والمؤدبين ومعلمي الكتاتيب ، غير قليل . وإقبال عدد كبير جداً من الطلاب على التعلم والدرس ، واضح لكل من يقرأ كتب العصر . لكن لم يظهر مع ذلك ، علماء كبار أو باحثون مشهورون . فأين الغزالي والمعري والمتنبي والكندي والجاحظ ؟ بـل أين الطبـري والبخاري والأصمعي ؟ . . لم تنتج تلك الأزمنة عالماً في اللغة ، أو الأدب ، أو الشعر ، أو الفقه ، أو الحديث ، أو التاريخ ، أو الفلسفة ، ـ يمكن أن نقابله بعلماء العصور السالفة . والمدارس التي وجدت ، لم تكن من درجة المدارس الجامعة التي وصفناها ، والكتاتيب التي كانت مفتوحة ، لم تكن من درجة لائقة . فمعظمها في بيوت خاصة ، أو في زاوية من زوايا المتصوفة ، أو في تكيَّة من تكايا الدراويش ، يقضي فيها الطالب سنوات طويلة ، وهو يتعلم أصول العربية ومبادىء الدين ، ثم يخرج منها وقلما توصَّل إلى شيء صالح من هذا أو ذاك .

وليس لهذه الظاهرة الغريبة ـ وهي انحطاط مستوى المدارس والكتاتيب مع كثرة عددها ، وعدد طلابها ومعلميها ـ إلاَّ تعليل واحد ، وهو أن الذين كانوا يقومون عليها ، هم السلاطين والأمراء من الأعاجم . فكأن تأسيس المدارس وحبس الأوقاف عليها ، أصبح سُنَّةً أو عادة عند هؤلاء ، يتقرَّبون بذلك من العامة ، أو يحاولون إرضاء مشايخ الطرق ، وفقهاء المذاهب ، بتعيينهم في وظائف التدريس ، أو الوعظ أو التعليم ، في

المدارس والزوايا والكتاتيب. فهؤلاء السلاطين والأمراء ، لم يعرفوا قيمة إنشاء المدارس ، كما عرفها نظام الملك ، أو المعزّ لدين الله . ويشذّ عن هذه القاعدة ، ما كانت عليه المدارس الجامعة ، أو المدارس العليا في غرناطة والقيروان ومصر ، وغيرها من بلاد الأندلس وشمال أفريقيا . أما مدارس الشام والعراق وفارس ، فالظاهر أنها كانت منحطّة . ولعل من أسباب ذلك أيضاً ، أن الصليبيين والتتار والأتراك ، غزوا هذه البلاد وأعملوا في معظمها سيف الدمار والخراب ، بينما لم تجتح الأندلس وشمال أفريقية ، مثل هذه الموجات الكبيرة . أما في الجزيرة العربية نفسها ، فقد حافظت مدارس مكة والمدينة ، على صبغتها الدينية ، وظلت على حالها من البساطة ، والاقتصار على تعليم علوم الدين واللسان العربي .

يخيل إلى القارىء ، أن في هذه الأوصاف شيئاً من الغُلُوّ ، خصوصاً وأمامنا عدد كبير من المؤلفين والمفكرين والشعراء ، الذين ظهروا في هذه الفترة ، وكتبهم وآراؤهم ما زالت في متناولنا ، نعتمد عليها في كثير من الأبحاث . . فمن لا يعرف المقرّي وإبن خلدون وإبن العربي وإبن الفارض وإبن خلّكان والمقريزي والسيوطي ؟ ـ وكلهم ظهروا في ذاك الزمان . . كل هذا صحيح ، وظهور أفراد مبرّزين في عصور مظلمة ، أمر غير غريب ، أو مستحيل الحدوث ، ولكن كل هذا لا يمنع من صحة المميزات العامة التي ذكرناها .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

أحاديث رمضانية

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

أَحَاديث رَمَضانيَّة

. دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ يا عبادي الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

صدق الله العظيم

رمضان كريم

رمضان من أنفس الأيام وأعزها عند الله تعالى ، لأنه متنزل الهداية الإلٓهية ، ومحتوى الليلة المباركة التي جعلها الله خيراً من ألف شهر .

وهو شهر السخاء والكرم والجود والصفح والعفو والمغفرة . . فيه يصفح الله عن عباده ويعفو عن سيئاتهم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » وفيه يصفح المسلم عن أخيه المسلم يتجاوز عن اساءاته وسقطاته : « إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائماً ، فلا يرفث ولا يجهل ، وإن أمرؤ قاتله أو شاتمه ، فليقل : إني صائم . . إني صائم » .

وكرم المسلم إنما يكون فيما يبذل من صدقات وما يجود به من عطاء ، فقد كان النبي ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان . . يروي عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما ، فأما الخلقان

اللذان يحبهما : فحسن الخلق والسخاء ، وأما اللذان يبغضهما : فسوء الخلق والبخل ، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس » .

وسأل معاوية بن أبي سفيان الحسن بن علي عن الكرم فقال : أما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال ، والاطعام في المحل (المجاعة) ، والرأفة بالسائل مع بذل النائل .

فمن عرف كرم رمضان فقد صادف كرمه وكان عند الله كريماً ، ومن عرف فضل رمضان فقد أصاب فضله وكان عند الله فاضلاً .

وإذن فليس من كرم رمضان وفضله أن يتبرم المسلم بالصيام ، أو يفحش في الكلام ، أو يسيء إلى أحد .

وليس من فضل رمضان وفضله أن يعوض الصائم فترة الحرمان المشروع بالاسراف الممنوع .

وليس من فضل رمضان وكرمه أن تشبع ، وحولك الجياع ، وأن تتمتع وحولك المحرومون .

فيم .. يختصون ؟

عيّن أبو بكر رضي الله عنه عمر إبن الخطاب قاضياً على المدينة فمكث سنة لم يفتتح جلسة ، ولم يختصم إليه اثنان ،

فطلب من أبي بكر اعفاءه من القضاء . . فقال أبو بكر : أمن مشقة القضاء تطلب الاعفاء يا عمر ؟

أجاب عمر : لا يا خليفة رسول الله ، ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين ، عرف كل منهم ماله من حق فلم يطلب أكثر منه ، وما عليه من واجب فلم يقصر في ادائه ، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه إذا غاب أحدهم تفقدوه ، وإذا مرض عادوه ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا احتاج ساعدوه وإذا أصيب واسوه ، دينهم النصيحة ، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . ففيم يختصمون ؟ .

شهر الصبر

قيل في فضيلة الصبر أنها ميزة الانسان على غيره مع ماله من مزايا أخرى كبرى .

ذلك لأن الملائكة مفطورون على الخير والطهر فلا يعانون صراعاً بين الغرائز والشهوات ، وبقية أنواع الحيوان تحكمها الغرائز والشهوات ولا تجد قوة أخرى تصادمها وتحد من نشاطها أو توجهها الوجه الفضلى .

أما الانسان فإنه يجد نفسه في نزاع دائم وصراع مستمر بين نوازع الخير ودوافع الشر ، فإذا ثبت بباعث الدين وباعث العقل

وباعث الخير . لبواعث الشر والشيطان كان من الصابرين . الذين يقول الله فيهم : إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب .

ولا شك أن صوم شهر رمضان يعود المؤمنين الصبر على المشاق بالحرمان من الطعام والشراب والشهوة طول النهار فيه ، وعبادة الله والاتصال به في الصلاة والتلاوة والذكر في جانب من لياليه ، وبذلك يخرج المؤمن من صيامه وقيامه في هذا الشهر وقد أصبح شخصاً آخر من حيث خلقه وضميره وشعوره وتفكيره ، لأنه أمضى ثلاثين أو تسعة وعشرين يوماً يصبر على الجوع والظمأ . ويشكر على الشبع والري .

وقد وعد الله الصابرين بالنصر وزيادة الخير والأجر كما يفهم من قوله : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا وأتقوا الله لعلكم تفلحون » .

أما الشكر فجزاؤه كما يقول الله : « لئن شكرتم لأزيدنكم » والصبر في البأساء والضراء وحين البأس من أعظم أنواع البر . وهو مظهر الصدق والتقوى كما يقول الله : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وقد امتحن الله المسلمين في هذا الشهر بكثير من المعار فكان النصر حليفهم في غزوة بدر وفتح مكة مع المشركين وفي معركة عين جالوت مع التتار ، وفي معركة الأندلس مع القوط ومعركة المصورة مع الصليبيين .

لا يشغله سمع عن سمع

كان علي رضي الله عنه يؤدي العمرة عندما رأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل (أي لا توقعه في الخطأ) ولا يبرمه (لا يمله) الحاح الملحين : أذقني برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك .

فقال علي : والذي نفسي بيده ، لو قلتها وعليك ملء السموات والأرضين ذنوباً لغفر لك .

الطهارة . . قبل الصلاة

القيام للصلاة هو تجاه النية إلى إدائها ، سواء أكانت فرضاً أم نفلاً . . والتعبير بلفظ القيام للدلالة على عظم قدر الصلاة ، ورفعة شأنها وأنها بحيث تستدعي حضوراً لوجود الانساني كله ، وقيامه ظاهراً وباطناً للتوجه إليها ، ولقاء الله تعالى فيها بكيان

جميع لا يتخلف منه شيء عن الانتظام في هذا الموقف الجليل . .

فالنية قولاً أو فعلاً شرط لصحة العبادات ، كما أنها ملاك كل عمل جاد يعمله الانسان ، كما يقول الرسول الكريم : « إنما الأعمال بالنيات » . . وكما يقول : « إنما يحشر الناس على نياتهم » .

فلا تصح صلاة إلا بعد أن يكون المصلي على وضوء . ولا يصح وضوء إلاّ مع نية منعقدة عليه من أجل الصلاة . .

والوضوء إنما يكون بعد طهارة الجسد ، بالاغتسال من الجنابة ، أو الحيض ، أو النفاس . .

وصورة الوضوء هي كما بينها الله تعالى في الآية : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤ وسكم وأرجلكم إلى الكعبين » .

فالأعضاء المطلوب غسلها هي على الترتيب : الوجه ، واليدان إلى المرفقين ، والمرفق هو مفصل الساعد والعضد ، والرجلان إلى الكعبين . . أما الرأس فيمسح عليه مسحاً باليد .

هذا الغسل الواجب ، هو عند وجود الماء . . أما عند فقد الماء في سفر أو إقامة ، أو في حال المرض الذي لا يقدر معه المريض على استعمال الماء ـ فيجزي في هذا كله التيمم .

والتيمم ، معناه القصد ، والاتجاه إلى وجهة ما . . والمراد بقوله تعالى : « فتيمموا صعيداً طيباً » اختيار مكان طاهر من الأرض ، يضرب المتيمم باليدين على ترابها ، ثم يمسح بهما اليدين والوجه . .

والصعيد ، ما صعد من الأرض وارتفع ، والاشارة في الآية إليه لمظنة أنه بمنأى من الخبث والقذر حيث يعلو عن استعمال الناس ، والتلوث بالقذارات . . فليس الصعيد من الأرض مقصوداً لذاته وإنما لما غلب عليه أن يكون طاهراً فأي تراب طاهر ، في مكان عال ، أو منخفض هو صالح للتيمم منه .

الشجرة تشهد !

استودع رجل رجلاً مالاً ثم طالبه به فأنكره ، فخاصمه صاحب المال إلى القاضي اياس بن معاوية .

قال صاحب المال : اني دفعت المال إليه .

فسأل القاضي : من شاهدك ؟

قال الرجل : لقد سلمت إليه المال في موضع كذا ولم يحضرنا أحد حتى يشهد .

قال القاضي : فأي شيء في ذلك الموضع ؟

قال : الرجل : توجد هناك شجرة .

فقال له اياس : اذهب إلى ذلك الموضع وانظر الشجرة فلعل الله يوضح لك هناك ما يتبين به حقك ، لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت فتتذكر إذا رأيت الشجرة .

فمضى الرجل وقال القاضي للخصم : أجلس حتى يرجع خصمك ، فجلس .

ومضى اياس يقضي بين الناس فيما يعرض عليه من قضايا وينظر إلى الرجل بين وقت وآخر ، ثم سأله فجأة : يا هذا أترى صاحبك قد وصل إلى موضع الشجرة التي ذكر ؟

فأجاب الرجل : لا لم يصلها بعد .

وهناك صاح به القاضي : يا عدو الله انك لخائن .

فاعترف الرجل بأنه أخذ المال واعتذر عن إنكاره .

فأمر القاضي بالتحفظ عليه .

حتى جاء صاحب المال فقال له اياس : لقد أقر الرجل بحقك فخذه .

العبادات والمجتمع

كل ما يصدر عن المسلم ينبغي أن يحركه الاخلاص في جميع اتجاهاته سواء كان قولاً أو عملاً ، فالكلمة ينطق بها يجب أن

تكون هادفة أساسها الصدق لا خداع فيها ولا نفاق وراءها دفاع عن مظلوم . غضبه في وجه الظالم . . أنه الكلمة الطيبة التي تحدث عنها القرآن الكريم : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤ تي أكلها كل حين بإذن ربها » .

وسلوك المسلم يجب أن يخضع لتوجيهات القرآن والسنة ، من الحب والالفة بين مواطنيه والمشاركة في أمالهم وآلامهم قال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » وقال ﷺ : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منا » « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

فالعبادات كلها تهدف إلى خلق مجتمع صالح يسعد به أبناؤه ويتضاءل الشر بين جوانبه ، فالصلاة تجمع بين الناس وتسوي بينهم وتعمق مفاهيم الخير في أعماقهم وتحول بينهم وبين المنكر : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

والصوم يعلم الصبر وينمي في النفوس حب الآخرين والاحساس بشعورهم ويبعث فيهم يقظة الضمير ويخلق الارادة القوية التي هي محك الرجال قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليهم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

والزكاة تطهير للنفس من شوائب الخطايا وطغيان الشح وهواجس الأنانية قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

والحج رحلة إلى الله متجردة من مظاهر الدنيا تتأكد فيها عوامل الترابط والأخوة ونبذ الحقد والكراهية قال تعالى : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » .

وإن عبادة لا تثمر هذه المعاني في سلوك صاحبها لا قيمة لها .

فضل تلاوة القرآن

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعيب ولا يعوج فيقوم ، ولا يخلق على كثرة الرد ، فاتلوه فإن الله تعالى يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما اني لا أقول « ألم » حرف ، ولكن ـ ألف ـ حرف ـ ولام ـ حرف ـ وميم ـ حرف . .

وفي حديث مسلم عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه

بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وخصتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده .

القلب المفتوح

إن أحب الناس إلى الله من لهم قلب مفتوح : عيونهم تبصر وآذانهم تسمع ، وقلوبهم تفكر وتتدبر ما تبصر وما تسمع ، وتختار أحسن ما تسمع وما تبصر : فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

والعلم لا يتقدم والتطور الحضاري لن يكون في ظل الجمود والتمسك بالقديم كيفما كان ، ولو تمسك العالم بما كان عليه الآباء والأجداد لبقي في ضلاله إلى يومنا هذا .

ولقد جاء الاسلام حرباً على الجمود وضيق الأفق والتخلف ، والاقتداء بما عليه الآباء مع وجود ما هو أهدى ، وكانت تعاليمه أكبر دافع لحرية الرأي وأعمال الفكر . .

ولذلك عرض كل قضاياه على العقل ، فلقد تبين الرشد من ألغي وكل الذي يدعو إليه أن ينفتح العقل للنظر في مختلف الآراء ، فإذا كان القلب سليماً فإنه سيميز الخبيث من الطيب والحق من الباطل وسيختار الحق والطيب حتماً ، ولن يكون

المسلم مبشراً بالجنة إلّا إذا بلغ هذه الدرجة من التمييز .

وإنه لا خوف على المسلم الذي فهم دينه ووعى قضاياه ، من أن يطلع على أي مذهب أو تيار فكري ، لأن دينه نور وهي ظلام ، وهو ريح وهي دخان ، « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

إنما الخوف على الذين لم يتمكن الايمان من قلوبهم ، ولم يتعرفوا إلى أحكام الدين وأسراره ، وهم لخلوهم من المناعة عرضة للاستهواء .

وإذا كان الانسان يبني منزله على أرض صلبة ، ويعني بمتانته ليقاوم الأعاصير ، فإنه أحق بأن يربي أبناءه على قاعدة صلبة من العلم والايمان حتى يقاوم الشكوك والأوهام ، وتلبيس الباطل ثوب الحق ، وهذا واجب الآباء والمعلمين والمجتمع نحو أبناء الأمة التي خاطبها الله تعالى بقوله : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » ولن تكون هذه الوقاية إلّا بالعلم والايمان والعمل الصالح ثم الانفتاح لكل خير والانغلاق عن كل شر .

الحياء والايمان

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها . مكارم الأخلاق عشرة . صدق الحديث .

وصدق اللسان .
وأداء الأمانة .
وصلة الرحم .
والمكافأة بالصنيع
وبذل المعروف .
وحفظ الذمام للجار
وحفظ الذمام للصاحب
وقرى الضيف
وراسهن الحياء وقال رسول الله . الحياء شعبة من الايمان وقال إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

وقال علي بن أبي طالب من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناسر عيبه .

حديث رمضان

صائم الدهر

الدين يسر لا عسر .

وقد رخص في الافطار لمن كان مريضاً أو على سفر ، وعليه القضاء : عدة من أيام أخر ، بعد زوال العذر .

« وعلى الذين يطيقونه فدية ، طعام مسكين » .

« ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » .

والله تعالى يجب أن تؤتي رخصه ، والأمر فيها متروك لضمير المؤمن ، وهو الذي يقدر وجه العذر في الافطار ، والطاقة على الصيام .

في (الموطأ والصحيحين) عن الصحابي « جابر بن عبد الله » قال :

« كان رسول الله ﷺ في سفر ، فرأى رجلاً قد اجتمع الناس عليه ، وقد ظلل عليه ـ من أعياء ـ فقال ﷺ : ما ماله ؟ قالوا : رجل صائم . فقال عليه الصلاة والسلام : ليس من البر الصيام في سفر » .

والأمر في صيام التطوع ، أولى بالتيسير ولنا في رسول الله ﷺ أسوة . سئلت السيدة عائشة أم المؤمنين عن صيامه فقالت :

« ما علمته استكمل صيام شهر قط إلا رمضان ، وما رأيته في شهر ـ غيره ـ أكثر صياماً منه في شعبان » وكان يقول :

« أحب العمل إلى الله ما داوم صاحبه عليه ، وإن قل » ويقول :

« خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لن يمل حتى تملوا » .

فيروى أن « عبد الله بن عمرو بن العاص » كان يصوم ، تطوعاً ، لا يفطر ، ويقوم الليل لا ينام . قال :

« فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لي :

ـ يا عبد الله بن عمرو ، ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة ؟

قلت : بلى يا نبي الله ، ولم أرد بذلك إلاّ الخير .

قال : فإنك إن فعلت ذلك هجمت عيناك ـ أي غارتا ـ ونفهت نفسك ـ أي أعيت وكلت ـ لعينيك عليك حق ، ولنفسك حق ، ولأهلك حق . قم ونم ، وصم وأفطر .

ومن أوائل الوحي ، نزلت آية [المزمل] تيسيراً على النبي والذين أمنوا معه .

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرأوا في سبيل الله ،

فاقرأوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا ، واستغفروا الله أن الله غفور رحيم » .

صدق الله العظيم

ثوب جديد وفرس غال لخوض المعركة

كان العابد الزاهد عمرو بن عتبة قد خرج للجهاد ضد الروم وعليه ثياب جديدة بيضاء أخذ ينظر إليها ويتأملها ويقول : وما أحسن الدم يتحدر على هذه !! اني سألت الله ثلاثاً فأعطاني اثنتين وأنا انتظر الثالثة . . سألته أن يزهدني في الدنيا ، فما أبالي ما أقبل منها وما أدبر . . وسألته أن يقويني على الصلاة ـ يعني الاكثار منها ـ فرزقنيها . . وسألته الشهادة في سبيله ، فأنا أنتظرها وأرجوها .

ثم دخل المعركة والتحم مع العدو حتى إذا أصابه جرح نظر إليه وقال : انك جرح صغير ، وقد يبارك الله في الجرح الصغير ، وما زال يقاتل حتى نال ما تمنى وذهب إلى الله شهيداً .

وكان قد اشترى قبل خروجه للقتال فرساً بأربعة آلاف درهم فلاموه لأن ثمنه غال ، فقال : أن خطوة واحدة يخطوها في سبيل الله ويقربني بها من أعدائه ، لأحب إليّ من أربعة آلاف درهم !!

ديمقراطية التعليم في الاسلام

تمثلت ديمقراطيه التعليم في الاسلام في مظاهر متعددة نشير إلى بعضها فيما يأتي :

● حتمية المتعلم : وهناك العديد من النصوص التي تؤكد وجوب تعليم الناس وضرورة تعلمهم ، قد جاء في الحديث النبوي الشريف : « طالب العلم فريضة كل مسلم » وإن اختلف الكثيرون في تفسير المقصود بالعلم المفروض وعندما كرم الله الانسان فأصدر أمره الالهي للملائكة بالسجود له ، وضح ان ذلك إنما يرجع إلى ان الانسان اختص بعلم يختلف عن علم الملائكة . وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد أن يترتب عليه ضرورة أن يسعى الانسان بكل ما يملك من جهد للحصول على ذلك العلم . وقد جاء في مقدمات إبن رشد : « وطلب العلم والفقه في الدين من فروض الكفاية كالجهاد أوجبه الله على الجملة » . ومن هنا فقد استنتج « القابسي » ان الاسلام يوجب التعلم على الناس ، وزاد على ذلك بادلة هامة منها انه إذا كانت معرفة العبادات واجبة بنص القرآن ، ومعرفة القرآن واجبة أيضاً لضرورتها في الصلاة ، فيصبح الوالد مكلفاً تعليم إبنه القرآن والصلاة ، لأن حكم الولد في الدين حكم أبيه وإذا كان معنى العلم هنا هو « العلم

الديني » فلأنه كان قوام الثقافة الاسلامية وخاصة في عهود الاسلام الأولى ، ومن ثم فإننا نغالي كثيراً إذا عممنا القول فسقنا هذه النصوص تأييداً لإيجاب التعلم وضرورة التعليم على وجه العموم في عصرنا الحاضر .

● المساواة في التعليم : فقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ انه قال : « أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الأمة ، فلم يعلمهم بالسوية ، فقيرهم مع غنيهم ، وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين » وهذا نص أقوى وأوضح من أن يحتاج إلى تعليق أو شرح في ضرورة أن يكون « المال » معياراً للمفاضلة بين الناس في التعلم والتعليم .

● تعليم المرأة . إذن لا يمكن أن يستقيم أمر الديمقراطية في مجتمع يحظى بالتعليم فيه الرجال دون النساء ، ومن هنا كان اهتمام الاسلام بتعليم المرأة وفقاً للظروف والقيم المبتغاة ، فمن ذلك ما جاء على لسان النبي ﷺ « ايما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران » .

الرجاء في الله

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله ، فلم أجد أرجى للعبد من قوله

تعالى : (قل كل يعمل على شاكلته) . . فشاكلة العبد المعصية وشاكلة الرب التوبة . .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى للعبد من قوله تعالى : (غافر الذنب وقابل التوب) .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى للعبد من قوله تعالى : (نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

لقد قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى للعبد من قوله تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله أن الله يغفر الذنوب جميعاً) .

فاللهم لا تخيب رجاءنا .

وعاملنا بالاحسان إذ الفضل منك وإليك .

رسالة القضاء

في [الموطأ وصحيحي البخاري ومسلم] عن « أم المؤمنين » أم سلمة رضي الله عنها » أن رسول الله ﷺ قال :

« إنما أنا بشر وانكم تختصمون إلي ، فلعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه . فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فلا يأخذن منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

ولما بويع « أبو بكر الصديق » رضي الله عنه بالخلافة ، خطب الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ، اني وليت عليكم وليس بخيركم. ألا أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم . إلا وان أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه . . » .

ومن هدى الكتاب والسنة ، كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، إلى أبي موسى الأشعري عبد الله بن قيس ، رسالة أجمل فيها مبادىء الشريعة الاسلامية في القضاء .

« بسم الله الرحمن الرحيم » .

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس : سلام عليك .

« أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

« آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك .

« البينة على من أدعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً .

« لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التعادي في الباطل .

« الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم أعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .

« واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة ، أمراً ينتهي إليه . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

« المسلمون عدول بعضهم على بعض إلاّ مجلوداً في حد ، أو مجرياً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء ونسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والايمان .

« وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن الذخر . فمن صحت نيته وأقبل على نفسه . ومن تخلق

خلقاً بما يعلم الله انه ليس من نفسه ، شانه الله . فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام » .

د . بنت الشاطىء

في السوق أو المسجد

يتحدث أحد أصحاب عمرو بن قيس الملائي عنه فيقول : كنت أطلبه في السوق ، فإن لم أجده في السوق وجدته في بيته أما يصلي وأما يقرأ القرآن ، وكأنه يبادر أموراً تفوته ، فإن لم أجده في بيته وجدته في بعض مساجد الكوفة ، وقد أوى إلى زاوية من المسجد وجلس يبكي ، فإن لم أجده في المسجد وجدته في المقبرة ينوح على نفسه .

وكان خليد بن عبد الله يقول : لا تلقى المؤمن إلّا في ثلاثة مواطن : مسجد يعمره بعبادة الله ، أو بيت يستره ، أو حاجة من أمر الدنيا ليس بها من بأس .

إذن في القتال

من المبعث إلى الهجرة ، اشتدت وطأة الوثنية القرشية بمكة ، على القلة من المسلمين الأولين ، دون أن يؤذن لهم في قتال .

وطالت هذه الجولة المكيـة الأولى ثلاث عشـرة سنة ، وطواغيت قريش يزدادون عتواً وبغياً ، والمسلمون يزدادون على الأذى والفتنة والمقاطعة والحصار ، ثباتاً واحتمالاً وبذلاً .

وهان عليهم ، ليأمنوا على دينهم الحق ، أن يخرجوا من ديارهم في « أم القرى » منزل الوحي وعهد النبوة ، مهاجرين إلى الحبشة ثم إلى يثرب . لم يبق منهم في مكة مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ، غير « أبي بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب » رضي الله عنهما ، والمستضعفين ممن حبسوا أو فتنوا .

● ● ●

مع الهجرة التاريخية ، أذن الله في القتال لهؤلاء الذين ظلموا و « أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله » .

واستجاب المؤمنون لداعي الجهاد وصبروا على تكاليفه ، لا يبالي أحدهم على أي جنب كان في الله مصرعه .

وأرضاهم أن يبذلوا أرواحهم فدية لعقيدتهم ، ورفضاً للبغى والظلم والعدوان ، ونضالاً عن حرمات لا يحل أن تنتهك أو تستباح .

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام :

« والذي نفسي بيده ، لوددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ،

ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فأقتل » .

والجهاد في الاسلام : عبادة .

ولا جناح على المجاهدين أن يقصروا من صلاتهم إذا خافوا أخذة العدو على غفلة ، وأن يقضوها بعد وقتها ، لضرورات الجهاد . كما لا جناح عليهم أن يفطروا إذا حاربوا العدو في شهر رمضان .

● ● ●

وفي [كتاب الجهاد ، من الموطأ وصحيحى البخارى ومسلم] عن رسول الله ﷺ ، قال :

« مثل المجاهد في سبيل الله ، كمثل الصائم القائم القانت لا يفتر من صيام ولا قيام ، حتى يرجع » .

« رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه » .

ولا يرتاب المجاهدون في أن الله معهم ، ينصر من ينصره . ويزودهم هذا اليقين بقوة معنوية لم تخذل المؤمنين قط . وفي حسابهم أنهم في قتال الطاغوت ، ظافرون باحدى الحسنيين : النصر ، أو الشهادة ، وهم يتلون الآية المحكمة :

« قل هل تربصون بنا إلّا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا انا معكم متربصون » .

صدق الله العظيم

الموت بين الحلم واليقظة

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري ، يطلب إليه أن يجمع له أمر الدنيا ويصف له أمر الآخرة ، فكتب إليه يقول :

إنما الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والموت متوسط بينهما ونحن في أضغاث أحلام من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر في العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف سلم ، ومن اعتبر أبصر ، ومن فهم علم ، ومن علم عمل فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فاقلع وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فامسك .

(الوعد الصادق)

في العاشر من رمضان المبارك سنة ثمان للهجرة ، خرج المصطفى عليه الصلاة والسلام في جنده المهاجرين والأنصار ، من دار هجرته إلى معقل الوثنية القرشية في مكة ، ليحسم المعركة التي طالت بين الحق والباطل ، بين الايمان والطاغوت .

قبل ذلك اليوم ، في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ، كانت « هدنة الحديبية » بين النبي ﷺ ، والمشركين من قريش وقد نص ميثاق الهدنة على :

وجموع المؤمنين من حوله تردد الدعاء ، فتخشع له صم الجبال .

وبايع أهل مكة جميعا ، لم يبق منهم يوم الفتح مشرك ولا مشركة . .

وتهاوت صروح الطاغوت ، وتحطمت الأوثان بمعاول المؤمنين ، والمصطفى ﷺ يتلو من كلمات ربه :

« وقل جاء الحق وزهق الباطل أن الباطل كان زهوقاً » .

صدق الله العظيم

شروط الصحبة

قال عمر بن عبد العزيز عقب توليه الخلافة :

من أراد أن يصحبني فليصحبني بخمس :

يدلني من العدل إلى ما لا اهتدى إليه . . ويكون لي على الخير عونا . . ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها . . ولا يغتاب عندي أحدا . . ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس .

محمد نبي الرحمة ونبي الملحمة

بعث رسول الله ﷺ . بدين الاسلام ليخرج البشرية من

الظلمات إلى النور ، وليقرر مبادىء الحق والعدل والسلام ، ولينشر بين الناس ظلالاً وأرفة من الحب الصادق والود الخالص ، وحينما ننظر إلى رسول الله وهو يدعو قومه إلى هذا الدين ويتفاعل مع الحياة التي يحياها نجده يضرب المثل الكامل في الخلق الكريم والأدب الرفيع حتى إن صاحبه أبا بكر يقول له يوماً : يا رسول الله : لقد طغت العرب جميعاً فما رأيت أحداً أكثر أدباً منك . فمن أدبك ؟ فيقول : أدبني ربي فأحسن تأديبي . لقد كان صاحب قلب كبير لا تفلت منه شاردة من آمال الناس وآلامهم إلا لباها ورعاها وأعطاها من ذات نفسه كل اهتمام وتقدير . . نراه يقف في صلاته ومن خلفه الصحابة يستمعون إلى قراءته للقرآن ، وكان إذا قرأه خشعت لقراءته الأرض والسموات ، ثم لا يلبث أن يسمع بكاء طفل رضيع ، جاءت به أمه إلى المسجد لتصلي خلف الرسول فيضحي بغبطته الكبرى ، وينهي صلاته على عجل . رحمة بالرضيع الذي يبكي وينادي أمه ببكائه ، ونراه يسافر مع بعض أصحابه ويأتي وقت الطعام ويريدون ذبح شاة ثم يوزعون العمل على أنفسهم فنراه يقول : وعليّ جمع الحطب .

ويرفض القسوة في أي مظهر من مظاهرها ، فيسارع إلى إزالة ظلم يقع على مظلوم ، ويقول الرسول الرحيم : اتقوا ظلم من لا يجد له عليك ناصراً إلاّ الله ويبادر إلى نشر البر والمعروف وإلى إشاعة الخير في مختلف صوره بين الناس ، والكلمة الطيبة رحمة

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » .

وكتمان الشهادة بالحق ، من أثم القلب وهو أفدح الاثم ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، وقد حاقت اللعنة بكفار بني اسرائيل ، لأنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر :

« لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى إبن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

في [الموطأ والصحيحين] عن رسول الله ﷺ ، قال :

« إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه .

● ● ●

وفي عصر المبعث : كان يعصم المسلمين المستضعفين من محنة التعذيب حتى الموت ، أن يقولوا كلمة الكفر التي سألهم إياها طواغيت قريش ، فيكفوا عنهم .

لكنهم لم يقولوها ، ورفضوا أن يشتروا الحياة بكلمة الايمان « لا إله إلاّ الله » فكانوا شهداء الكلمة وإن لم يحملوا سلاحا قط .

ويعتز تاريخ الاسلام بجنود لكلمة الحق والتقوى ، قذفوا بها طاغوت الباطل واحتملوا في سبيلها محنة التعذيب والسجن ، وقتل بها من قتل « لتكون كلمة الله هي العليا » فكانوا شهداءها ، ومعهم من ماتوا على كلمة التقوى لم يفرطوا فيها تحت ضغط الارهاب .

« سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار » صدق الله العظيم .

خير الدنيا والآخرة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من أعطى أربع خصال فقد أعطى خير الدنيا والآخرة وفاز بحظه منهما ، ورع يعصمه من محارم الله ، وحسن خلق يعيش به في الناس ، وحلم يدفع به جهل الجاهل ، وزوجة صالحة تعينه على أمر الدنيا والآخرة .

حديث رمضان
« طلب العلم فريضة وعبادة »

من أصول العقيدة الاسلامية أن الناس جميعاً مخلوقون من نفس واحدة ، لا يتفاضلون بجنس أو عنصر أو لون ، ولا بطبقة أو جاه وثراء ، وإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح .

ويدخل العلم في اعتبار هذا التفاضل ، بصريح الآية المحكمة :

« قل هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون إنما يتذكر أولو الألباب » .

ونحن المسلمين نحفظ من حديث نبينا عليه الصلاة والسلام :

« أطلبوا العلم ولو في الصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وطلب العلم : جهاد وعبادة .

قال عليه الصلاة والسلام :

« من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

وحدث « عبد الله بن عمرو » إن رسول الله ﷺ ، مر بمجلسين في مسجده بدار الهجرة : رجال أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه ، والآخرون يتذاكرون الفقه ويتدارسونه ، فقال ﷺ .

« كلا المجلسين على خير ، وأحدهما أفضل من الآخر : أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه ، إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم . وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلماً » ثم أقبل فجلس معهم .

وذلك ما رسخ في تقدير أئمة الاسلام لطلب العلم ، فريضة وجهاداً وعبادة . فيروى عن « سفيان الثوري : من أعلام التابعين الفقهاء » انه قال :

« لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من أن يعلم الناس العلم » .

وحدث « عبد الله بن وهب » ـ من تلاميذ الامام مالك ورواة كتابه [الموطأ] ـ قال :

« كنت عند مالك بن أنس الامام ، فأردت أن أقوم للصلاة وأنا أقرأ عليه وأنظر في العلم بين يديه ، فجمعت كتبي وقمت لأصلي ، فقال لي مالك : ما هذا ؟

قلت : أقوم للصلاة .

فقال : ان هذا لعجب ! ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي كنت فيه إذا صحت النية » .

وحدث « الربيع بن سليمان » عن شيخه الامام الشافعي ، قال :

« سمعت الشافعي يقول : لطلب العلم أفضل من الصلاة النافلة » .

« فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه وقل رب زدني علماً » .

صدق الله العظيم

الرجل يبتلى حسب دينه

سئل عليه السلام : أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . . يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة .

ويقول عليه السلام : ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة .

حديث رمضان

ورثة الأنبياء

ليس عجباً ، وطلب العلم في الاسلام فريضة وعبادة ، أن يكون للعلماء منزلة تقرب من منزلة الصفوة الأنبياء الذين بعثهم الله رسلاً هادين ومعلمين ، وكان خاتمهم نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام ، فليس من يخلفهم بعده ، في تعليم الناس وهدايتهم ، سوى العلماء . وقد قال فيهم خاتم النبيين عليهم السلام :

« العلماء ورثة الأنبياء : إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، ولكنهم ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذه أخذ بحظ وافر » .

والاسلام الذي حسم الخصومة بين العقل والدين ، جعل العلم قرين الايمان . . والله تعالى يفصل الآيات لقوم يعلمون ، ويضرب الأمثال « وما يعقلها إلا العالمون » وينوط بهم الهدى والتقوى ، « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم » .

« بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم : وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون » .

وقد قصر ، سبحانه وتعالى ، خشية على العلماء :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

لأنهم بما يتفكرون في خلق السموات والأرض ويتدبرون السنن الإلهية في الكون والحياة ، يوقنون أن مثل هذا النظام الكوني المحكم ، لا يمكن أن يكون عبثاً باطلاً أو أن يسير بتلقائية عشواء .

● ● ●

والعلماء هم معلمو الأمة ، يكشفون عن بصائر أبنائها وأبصارهم ، حجب الجهل والضلال وغشاوة العمى والغفلة ويقودنها على مراقى طموحها إلى حيل تحقق وجودها الكريم ، ويسهرون على حراستها من آفات التشويه والتواكل والعجز والتخلف .

وجهادهم في هذا الموقع ، يجعلهم أقرب إلى الله تعالى ، من المنقطعين للعبادة لا تشغلهم عنها شواغل الجهاد وتكاليف الخدمة العامة ، وقد قال معلم الأمة ونبيها عليه الصلاة والسلام :

« لفقاه واحد ، أشد على الشيطان من ألف عابد » .

« فضل العالم على العابد ، كفضلي على أمتي » .

ويذكرون من مناقب « الامام الشافعي » انه حين رحل من الحجاز إلى العراق ، نزل في بغداد على الامام « أحمد بن حنبل » فتوقعت بنت أحمد ، أن يقوم الشافعي الليل كله ، لكثرة ما سمعت أباها يذكر ورعه وتقواه . فباتت الليل ترقبه ، وبات الشافعي راقداً على فراشه لم يبرحه حتى مطلع الفجر . فلما أصبحت قالت لأبيها :

ـ يا أبت ، أنت تعظم الشافعي ، وما رأيت له في هذه الليلة صلاة ولا ذكراً .

ودخل الشافعي فسأله أحمد : كيف كانت ليلتك ؟

قال : ما رأيت أطيب منها ولا أبرك ولا أريح ، لقد وفقني الله فيها للي بسائل في مصالح المسلمين ، كانت تشغلني .

فالتفت الامام أحمد إلى ابنته وقال :

ـ يا بنية ، هذا الذي عمله الليلة وهو راقد ، أفضل وأقرب

إلى الله مما عملته وأنا قائم .

« أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

صدق الله العظيم

بياض القلب وسواد الوجه

رأى أحد الأشراف رجلاً أسود يحيط به الناس لعلمه ، ويتبركون به لصلاحه فغاظه ذلك ، واقتحم الجمع ثم أمسك به وقال : يا أسود الحوافر والشوافر يا كافر بن كافر ، أنا ابن رسول الله ، أذل وتجل ؟ وأذم وتكرم ؟ وأهان وتعان ؟

فهاج ذلك غضب المجتمعين وقاموا ليضربوه ، فمنعهم الرجل الصالح ، وذكرهم بجده ـ عليه السلام ـ ثم اتجه إليه وقال : ولكن أيها الشريف بيضت باطني وسودت باطنك ، فيرى الناس بياض قلبي فوق سواد وجهي ، وأخذت أنا سيرة أبيك ، وأخذت أنت سيرة أبي ، فرآني الخلق في سيرة أبيك ورأوك في سيرة أبي فظنوني إبن أبيك وظنوك إبن أبي فعملوا معك ما يعمل مع أبي ، وعملوا معي ما يعمل مع أبيك .

(حرمة العلم)

لعل حديث الأمس من العلماء « ورثة الأنبياء » يعطي فكرة.

عن حرمة العلم في الاسلام ، وقد صانها الكتاب والسنة بحدود تضع أصول المنهج ، في العقيدة الاسلامية .

منها : إن علم الانسان كسبي محدث ، يزيد وينقص ، ويجوز عليه الخطأ والقصور ، والسهو والنسيان .

وما من عالم يمكن أن يدعى له أنه بلغ في علمه الغاية التي لا مزيد عليها فالعلم الكامل لله وحده ، وقد قال تعالى لرسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« وقل رب زدني علماً » .

« واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا » .

وقال جل جلاله ، لرسوله نوح عليه السلام .

« فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين » .

وما من عالم يمكن أن يحيط بكل شيء علما ، والأصل في العقيدة الاسلامية أن الله تعالى وحده ، وهو الذي « أحاط بكل شيء علما » سبحانه « لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء » .

أما علم البشر ، فمحدود بمجال تخصص كل عالم منهم :

« فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

فإذا سئل عالم عما لا يعلم ، فمفروض عليه أن يقول : لا أعلم ، والله أعلم .

وليس بعالم من يخطئه أن يقول : « لا أدري » فيما لا يدري . وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يسأل فيها لا يدري ، فلا يجيب إلا أن ينزل وحي فيما سئل عنه .

« يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » .

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير » .

« ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً » .

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً » .

● ● ●

ومحظور في العقيدة الاسلامية ، أن يقول الانسان في شيء بغير علم ، أو أن يقطع بيقين رجما بالظن ، يبتغي بذلك عرضا من أعراض الدنيا كالسمعة أو المال .

« وما لهم بِه من علم أن يتبعون إلاّ الظن وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً .

والاجتهاد مباح في الاسلام ، لأهل الجهة الراسخين في العلِم ، كل في مجال تخصصه .

على أن الاجتهاد محظور عليهم أيضاً في الغيبيات التي لا سبيل لهم إلى العلم بها ، وإنما يصدقون بما جاء عنها في كتاب دينهم لا يتجاوزونه إلى ما لم يرد فيه نص . وقد سئل رسول الله ﷺ في غيبيات استأثر الله تعالى بعلمها ، فلم يجب إلا بآيات الوحي :

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها » .

« ويقولون متى هذا الوعدان كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين » .

« قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، أن أتبع إلا ما يوحي إلي » .

« ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

صدق الله العظيم

حفظ اللسان

قال الله تعالى « وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وقال تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » وقال النبي ﷺ : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » .

وقال علي رضي الله عنه : إذا تم العقل نقص الكلام . وقال أعرابي : رب منطق صدع جمعا وسكوت راب صدعا .

واجتمع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي فقال أكثم لصاحبه : كم وجدت في إبن آدم من العيوب فقال : هي أكثر من أن تحصى وقد وجدت خصلة إذا استعملها الانسان سترت عيوبه كلها قال أكثم : وما هي قال : حفظ اللسان .

قتال في الشهر الحرام ؟

مع الإذن للمصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، وصحبه في القتال بعد أن ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

تأخرت أولى جولات المواجهة المسلحة لطواغيت قريش ، إلى شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة ، ريثما تم تنظيم

المجتمع الاسلامي في دار هجرته ، وتم الاعداد والتدريب والتعبئة للجهاد ، ودراسة ميدان الصراع في شتى جبهاته ومواقعه .

ومن مطلع السنة الثانية ، بدأ ﷺ يخرج في غزوات قصار ، تدريباً لجنده وإقراراً لهيبة الاسلام في موقعه الجديد .

كما بدأ ، عليه الصلاة والسلام ، يبعث سراياه لتجوب المنطقة ما بين المدينة ومكة ، معقل الوثنية العربية . ولم تكن هذه السرايا قاصدة إلى قتال ، وإنما كانت دوريات استطلاع تترصد أنباء قريش في منطقة الحجاز .

ومنها سرية « عبد الله بن جحش » إبن عمة المصطفى « أميمة بنت عبد المطلب » ـ وهي السرية التي اندلع منها الشرر فاشتعل على ساحة بدر .

خرج « عبد الله بن جحش » في ثمانية من المهاجرين ، في مستهل رجب من السنة الثانية ، أو قبله بيوم . ورجب من الأشهر الأربعة الحرم التي لا يحل فيها قتال . وكانت أوامر المصطفى إلى إبن عمته قائد السرية ، أن يمضي بها حتى ينزل موضع « نخلة » بين مكة والطائف ، فيترصد هناك قريشاً ويستطلع أخبارها .

ومضى « عبد الله » بمن معه من المهاجرين حتى نزل بنخلة .

فمرت عير تجارية لقريش ، تحاشى المسلمون القتال معها حفاظاً على حرمة الشهر الحرام . لكن تجنب الصدام لم يكن مستطاعاً مع المواجهة ، وأطلق الصحابي « واقد بن عبد الله » سهما أصاب من « عمر بن الحضرمي » مقتلا .

وعندئذ فرت قريش عن عيرها وقتيلها ، وعن أسيرين منهما .

وعادت السرية الظافرة إلى المدينة بالمغانم والأسيرين ، فقوبلت بوجوم ذهب بفرحة النصر ، وقال ﷺ لابن عمته أمير السرية .

« ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » .

ثم أعرض عما جاءت به السرية من مغانم ، ونحى الأسيرين القرشيين ، فظن « عبد الله » ورفاقه أنهم أثموا وهلكوا ، واشتد الصحابة من المهاجرين والأنصار في لومهم ، وقرعوا أسماعهم بما ذاع من قول قريش : « لقد استحل محمد وأصحابه حرمة الشهر الحرام » .

وتسللت الأفاعي من الأوكار اليهودية ، تنفث سمها في أحياء المدينة ، وتهمهم في حقد واشتفاء :

حتى حسم القرآن الموقف المعقد وأنهى الجدل فيه بكلمات الله البينات :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير . . » الآية .

وبها استرد جنود السرية طمأنينة قلوبهم وطاب لهم النصر على عدوهم .

بعد شهرين اثنين ، في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، كان يوم الفرقان في بدر .

أو سمة

أي أوسمة أرفع قدراً من الأوسمة التي وزعها الرسول الحبيب على صحابته الاجلاء ، فقال صلوات الله عليه وسلامه .

إرحم أمتي بأمتي : أبو بكر . . وأشدهم غيرة في دين الله : عمر وأعظمهم حياء : عثمان بن عفان واعلمهم بالقضاء : علي بن أبي طالب .

وأحفظهم للقرآن : أبي بن كعب وأعلمهم بالحرام والحلال : معاوية إبن جبل . .

واعلمهم بالفرائض : زيد بن ثابت . . ولكل أمة أمين . وأمين هذه الأمة : عبيدة بن الجراح .

مجلس شورى ليوم بدر

قبل أن يلتقي الجمعان في « بدر » كانت النذر قد تتابعت من مكة بأن قريشاً قد عبأت جموعها وخرجت في أكثر من ألف مقاتل كاملي العدة والسلاح ، قاصدة إلى المدينة التي رابط فيها المسلمون ، وفي حسابها أن تفرغ منهم قبل أن يكثروا ويزدادوا في موقعهم الجديد قوة ومنعة .

وعبأ المصطفى جنده من المهاجرين والأنصار للقاء العدو ، فما زادوا على ثلاثمائة مجاهد إلا قليلاً .

فماذا قال هؤلاء المؤمنون ، عندما قال لهم الناس أن طواغيت المشركين قد جمعوا لكم فأخشوهم ؟

جمع المصطفى عليه الصلاة والسلام من نفروا معه للجهاد ، وعرض عليهم الموقف ثم قال يطلب مشورتهم .

« أشيروا عليَّ ، أيها الناس » .

فقام أبو بكر الصديق ، ثم عمر بن الخطاب ، فتحدثا ما شاء لهما إيمانهما ، عن فريضة الجهاد واليقين من النصر ، ثم قام « المقداد بن عمرو » ـ وكان حديث عهد بالاسلام والهجرة ـ فقال :

ـ يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام : « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ بأقصى الجنوب ـ لجالدنا معك دونه حتى تبلغه .

دعا له المصطفى بخير . ثم التفت ﷺ إلى الأنصار ـ ولم يكن أحد منهم تكلم بعد ـ وكرر قوله :

« أشيروا عليّ ، أيها الناس » سأل نقيبهم « سعد بن معاذ » .

ـ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال عليه الصلاة والسلام : أجل فقال سعد :

« لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن نلقى عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

وسار بهم المصطفى على بركة الله حتى نزل على ماء بدر ، فلم

يكن عجبا أن للعشرين من هؤلاء المؤمنين يغلبون مائتين ، والمائة يغلبون ألفاً من المشركين الذين خرجوا للقتال بطرا ورئاء الناس ، وأمعانا في البغي والعدوان ، وصداً عن سبيل الله :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

صدق الله العظيم

واحد من الناس

من وصية لعمر بن الخطاب لأبي موسى وقد ولاه مسؤولية أحد الأعمال : يا أبا موسى إنما أنت واحد من الناس ، غير أن الله قد جعلك أثقلهم حملاً .

وكان عمر يقول لأهله بعد أن تولى الخلافة : إن الناس ينظرون إليكم ، كما ينظر الطير إلى اللحم وإني ـ والله ـ لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه ، إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني !

وكان ـ رضي الله عنه ـ يأخذ نفسه بالشدة حين نزلت بالمسلمين أزمة في الطعام خاصة في اللحم والسمن ، فكان لا يأكل إلّا الزيت وحين تتألم منه أمعاؤه كان يؤكد أنه لن يستعمل إلّا الزيت « ما دام السمن يباع بالأواقي » على حد تعبيره .

« مهما يكن من العين ومن القلب ، فمن الله والرحمة . ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان » .

وصلى النبي على إبنته « رقية » .

وشيعت المدينة بنت رسول الله ، ذات الهجرتين إلى مثواها في البقيع ، حيث وريت الثرى الطيب الذي ارتوى يومئذ بدماء الأبرار من شهداء بدر .

وسلام على المصطفى بشرا رسولا .

هدية . . له
ورشوة . . لنا

كان عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - قبل أن يتولى الخلافة مترفاً ظريفا ، يعني بحسن سمته وهندامه .

فلما آل إليه أمر المسلمين لزم الزهد وأخذ نفسه بالتقشف . وحول أمواله وأموال زوجه إلى بيت المال .

وحدث أن آشتهى التفاح ذات يوم . فأهدى إليه شيء منه ، فدعا غلامه وأمره أن يحمل التفاح إلى من قدمه ، وأن يحمل معه السلام عليه .

ورأى ذلك بعض الحاضرين فقال : يا أمير المؤمنين أن الذي

أهدى إليك التفاح رجل من أهل بيتك ، وأنت تعلم أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية .

فقال عمر رضي الله عنه : إن الهدية كانت للنبي هدية ، ولكنها لنا اليوم رشوة .

وافد من قريش

قبل فتح مكة ، لم يخف على المشركين من قريش أن نبي الاسلام ﷺ ، يعبىء جنده ليسير إلى معقل الوثنية العربية ، لا يصده عنها عهد الحديبية الذي نقضته قريش في جرأة فاحشة .

ويدا لقريش أن تحتال على الموقف ، فتلتمس تجديد الهدنة المنقوضة . وفي دار الندوة بمكة ، وقع الاختيار على « أبي سفيان بن حرب » ليكون وافد قريش إلى المدينة في هذه المهمة .

* * *

دخل المدينة خائفاً لا يدري كيف يواجه المسلمين بعد الذي كان ، وبعد تردد طال ، أخذ طريقه إلى بيت ابنته « رملة بنت أبي سفيان ، أم المؤمنين » وهو يطمع أن تستجيب لعاطفة الأبوة ، فتشفع له لدى زوجها .

واستأذن عليها فأذنت له ، لكنها انتظرت لم تأذن له في الجلوس ، حتى تعلم فيم جاء .

ولم يبق لأبي سفيان إلاّ أن ينصرف خائباً ويعود من حيث جاء .

وفي أثره كان جيش الفتح ، في طريقه إلى البلد الحرام والبيت العتيق .

د . بنت الشاطىء

ترفق . . بصاحبك

خرج رسول الله ﷺ إلى بئر يغتسل ، فأمسك حذيفة بن اليمان بالثوب على رسول الله ﷺ يستره به حتى اغتسل . . ثم جلس حذيفة ليغتسل ، فتناول رسول الله الثوب وقام يستر حذيفة . . فأبى حذيفة وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تفعل .

فأبى رسول الله ﷺ إلاّ أن يستره بالثوب حتى اغتسل ثم قال : ما اصطحب اثنان قط إلاّ كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه . . وقال ﷺ : مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى .

الخطأ والمسؤولية

لا تعترف العقيدة الاسلامية بعصمة بشر من الخطأ ، فهذه « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله » .

ومع جواز الخطأ على كل البشر ، تقرر العقيدة أن كل إنسان مسؤول عن قوله وعمله ومسعاه ، إلّا أن يكون سفيهاً أو مخبولاً فيحجر عليه ، أو قاصراً فيوضع تحت الوصاية إلى أن يبلغ رشده .

وكما يرفض الاسلام مبدأ : فلان لا يخطىء ، يرفض مبدأ : فلان لا يسأل عن عمله أو قوله . ذلك لله وحده ، سبحانه « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

والذي بين الانسان المخطىء وخالقه موكول إلى أمره تعالى ومشيئته ، هو الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، سبحانه « لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

أما الأخطاء التي يضار بها الأفراد والجماعة ، فقد وضعت الشريعة الاسلامية الحدود والقصاص ، تأميناً للحياة العامة :

« ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » .

ويبقى وراء الذنوب التي وضعت لها الشريعة الحدود ، ما هو متروك للأمة ، تحاسب عليه المخطىء وتسأله فيه . وهي مسؤولية صعبة ، تلقيها العقيدة الاسلامية على كل قادر عليها ، تكليفاً دينياً بأن ينهي عما يراه منكراً ويجهر بشهادة الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، ويهون عليه أن يحتمل في سبيلها أقسى التضحيات ، ولا يبوء بلعنة اثم القلب :

لا يختلط الأمر على المؤمن التقي ، فيما هو مكلف به من الجهر بالحق ونقد الخطأ والنهي عن المنكر ، وما يحرم عليه شرعاً من كبائر الافتراء والأفك والبهتان ، والخوض في حرمات الناس بغير علم .

« إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » .

صدق الله العظيم

د . بنت الشاطىء

يرجو . ويخاف

روى أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو يجود بنفسه . . فقال : كيف تجدك ؟

قال الشاب : أرجو الله . . . وأخاف ذنوبي . .

فقال النبي ﷺ : الرجاء والخوف لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن ، إلاّ بلغه الله ما يرجوه وآمنه مما يخاف .

[دعوى الجاهلية . .]

على مسار تاريخنا الطويل ، لم يحدث قط ان انتصرت أمتنا في معركة لها على عدو ، ألا وهي متحدة الصف والكلمة ، موحدة الجبهة واللواء .

وتاريخنا الاسلامي يبدأ من عصر المبعث ، وقد كانت نقطة التحول فيه ، إلتئام شمل الأوس والخزرج ، عرب يثرب ، إذ جمعهم الاسلام تحت لوائه الأغر ، أخواناً في الدين وأنصاراً لله ورسوله ، بعد أن طحنتهم الحروب ومزقتهم العداوة والبغضاء .

وانتقل مركز الدعوة والجهاد إلى المدينة ، وقد كانت قبل الاسلام ، ولمدى خمسة قرون ، منطقة استغلال يهودي فاحش ، يسيطر على مواردها الاقتصادية ويتسلط على وجودها العربي بذرائع الفتنة المدمرة . فلم يكن عجباً أن جن غيظ اليهود بما أطفأ الاسلام من نار الحرب بين الأوس والخزرج ، وأسقط مخلفاتها ورواسبها من الثارات والأحقاد .

فهل يمكن إقاظ الفتنة واهاجة الشر بين الأوس والخزرج ؟

في [السيرة النبوية لابن هشام ، وتاريخ الطبري] من أحداث السنة الأولى للهجرة :

مر « شماس بن قيس » - من رؤوس يهود - على نفر من الأنصار ، أصحاب رسول الله ﷺ ، الأوس والخزرج ، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام . بعد الذي كان بينهم من العداوة والشر في الجاهلية . فقال : يحدث نفسه :

قد اجتمع ملا بني قبلة ـ الأوس والخزرج ـ بهذه البلاد ، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار !

ثم أمر فتى من عصابته كان معه ، فقال :

ـ أعمد إليهم فأجلس معهم . ثم أذكر « يوم بعاث » وما كان قبله من حروب بينهم ، وأنشدهم بعض ما تقاولوا فيها من أشعار .

وفعل الفتى اليهودي ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا ، حتى هاج الشر بينهم فتواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك بموضع « الحرة » .

واندفعوا في دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون : السلاح ، السلاح !] .

ورجت صيحة الحرب دار الهجرة ، وجاء المصطفى عليه الصلاة والسلام في جمع من أصحابه ، فأدرك القوم بالحرة وقد هموا بقتال . قال :

« يا معشر المسلمين ، الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للاسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ » .

ونفذ صوت المصطفى من مسامعهم إلى أفئدتهم وعقولهم ،

وعرفوا أنها مكيدة عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً] .

وبطل سم هذه الفتنة ، وخاب كيد يهود . .

« يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

صدق الله العظيم

جيران . . الله

كان علي بن الحسين « زين العابدين » يحدث الناس ذات يوم فقال لهم :

إذا كان يوم القيامة ينادي مناد :
أين أهل الصبر ؟ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : علام صبرتم ؟ . . فيقولون : صبرنا على طاعة الله ، كما صبرنا عن معصية الله ، فقال لهم : صدقتم . . ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

ثم ينادي مناد : ليقم جيران الله في داره ، فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم

الملائكة سائلين : وبم جاورتم ربكم في داره ، فيقولون : كنا نتزاور في الله عز وجل ، ونتجالس في الله ، فتقول لهم الملائكة : أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

منفيون عن الاسلام . . أحياء وأمواتاً

ما من داء يصيب الأمة ، أخبث ولا أضرى من داء النفاق الذي يعده الاسلام شراً من الكفر الصريح .

فلا خطر على الأمة من عدو سافر تتقيه أو تواجهه في معركة مكشوفة وحرب معلنة .

الخطر كل الخطر ، من عدو يتغلغل في صميم كيانها من حيث لا تدري ، ويأتيها من حيث لا تتوقع أو تحتسب .

وقد لقي المسلمون الأولون من كيد المنافقين ، ما هدد المجتمع الاسلامي في دار الهجرة ، إذ نجم النفاق هناك نفثة من سم اليهود الذين كانوا ناشبين في شمال الحجاز . وكانت جيوبه الخطرة ، أشد ما واجه الاسلام في صراعه مع الوثنية القرشية والعصابات اليهودية . كمن السم في أول الأمر ، وتتابعت بوادره مع ثقل أعباء الجهاد وتكاليفه ، منذرة بالخطر . فالمنافقون يخالطون المؤمنين ، ولا يملك أحد أن ينفيهم عن الاسلام وهم يتعوذون بالتظاهر به وينطقون بشهادته ، والحكم على النوايا وخفايا القلوب ، متروك لله وحده .

ثم جاءت « غزوة تبوك » في السنة التاسعة للهجرة ، فمزقت أقنعتهم وكشفت المستور من زيفهم ، وآذنت بأن النفاق الذي طالما هدد الجبهة الاسلامية ، قد صار داء عياء لا يجدي فيه غير البتر والحسم .

لقد مشى بعضهم إلى بعض يتواصون بالقعود عن الجهاد ، شكا في المصير وارجافاً برسول الله ﷺ . وانبث نفر منهم في أحياء دار الهجرة ، دعاة تثبيط وتخذيل .

ثم كانت المكيدة الفاحشة :

تظاهر « عبد الله بن أبي بن سلول » رأس المنافقين ومولى اليهود ، بالتأهب للخروج مع المجاهدين ، وجمع إليه حشداً من شيعته أهل النفاق ومن اغتر بهم ، ثم تنحى بعسكره وانتظر حتى تمت التعبئة للجهاد ، وخرج المصطفى عليه الصلاة والسلام بجنده من المدينة المنورة ، وما يشك أحد في أن « إبن أبي بن مسلول » ماض وراءه بعسكره .

لكنه تحرك ، لا إلى الشمال في طريق الجيش المجاهد ، وإنما انحاز بعسكره من أسفل المدينة .

ومضى ﷺ بالمؤمنين ، وتخلف كل المنافقين . من حزب الشيطان .

ونزلت آيات سورة التوبة ، الفاضحة لزيف المنافقين ،

فقضت بعزلهم عن مخالطة المؤمنين ، حسماً لشر الفتنة وسداً لذرائع الأحباط والتخذيل :

« لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالاً ، ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » .

كما قضت بنفيهم عن الاسلام أحياء وأمواتاً ، فليس لرسول الله ﷺ أن يأذن لهم في الخروج معه للجهاد ، ولا أن يصلي على أحد منهم مات أبداً ، أو يقوم على قبره :

« إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

صدق الله العظيم . .

لحسد . . والمخرج منه

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد » .

قيل : فما المخرج يا رسول الله !

قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ .

وقال بعض الحكماء : ستة لا يخلون من الكآبة : رجل افتقر بعد غنى ، وغني يخاف على ماله الفناء ، وحقود ، وحسود ،

وطالب مرتبة لا يبلغها قدره ، ومخالطة الأدباء بغير أدب .

وقال معاوية : كل الناس أستطيع أن أرضيه إلاّ حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلاّ زوالها .

الردة ، وحرية العقيدة

مع المد الجائح لموج الإلحاد المصري يشق على شباب اليوم أن يفهموا منطق تقرير الاسلام لحرية العقيدة ، مع شدته في عقوبة المرتد . ويريبهم أن تنكر الأمة اليوم على أبنائها حرية الاختيار المذهبي ، وأن تبرأ ممن يظهرون فيها بالالحاد .

من حيث الردة : لا تعارض على الاطلاق بين موقف الاسلام منها ، وحرية العقيدة .

الحرية هي الأصل والمبدأ ، وليس على الرسول إلا البلاغ :

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

« فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلاّ البلاغ » .

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

وقد عاش غير المسلمين في ديار الاسلام آمنين على عقائدهم

ومللهم ودور عباداتهم ، لم يخضعوا فيها لأي إكراه ديني .

ولكن المحظور أن يرتد المسلم عن دينه فيكون عدواً لأهله وأمته ، إذ ليس أضر على الأمة من أبق مرتد ، ينكر عقيدتها ويبرأ من الانتماء إليها . وهذا المرتد قد اختار بمحض إرادته الانسلاخ من أمته ، فليحتمل تبعة هذا الانسلاخ الذي لا يتعلق به فرداً ، بل يتعلق بالأسرة والجماعة التي هو عضو منها . . وإذا قضى الاسلام ببتر هذا العضو المنسلخ ، فإنه يقي الأمة أزمة تصدع كيانها ، وخطر الضغينة التي يحملها خارج على دينها ، ويسد الذرائع لما يحتمل من سريان عدوى الاباق والخروج على دين الجماعة ، وما يتوقع من استغلال أعداء الأمة لهذه الثغرة في أخطر مواقع وجودها .

ويلهج أبناء لنا بحرية الاختيار للعقيدة أو المذهب .

وقد يفوتهم من منطق حرية الاختيار ، أن يكون الانسان على بينة مما يرفض أو يقبل .

إذ مع الجهل بالمرفوض أو بالمقبول ، تتحدد زاوية الرؤية ومجال التفاضل ، فتنتفي بذلك حرية الاختيار .

ومع الجهل بهما ، كليهما ، يكون الانسان ضحية فتنة الاستهواء والانقياد الأعمى ، لا يملك من أمره شيئاً ولا يدري فيم المسير إلى يمين أو يسار .

هذه هي مأساة أبناء الجيل ممن يفرطون في عزة إصالتهم عن جهل وغفلة ، لم يعرفوا الاسلام حق معرفته قبل أن يرفضوه ويستبدلوا به مذاهب لا يعلمون عنها شيئاً إلا ما تلقوه من كتائب الدعاة وأجهزة الاعلام ، تستدرجهم من حيث لا يدرون ، لينسلخوا من كيان أمتهم ويفرطوا في أصيل هويتهم ، ويخبطوا العشواء من غير دليل :

« كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » .

أو « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

صدق الله العظيم
. بنت الشاطىء

أصنعه . . وأطلبه

قال بعض الحكماء : أصنع المعروف إلى من يشكره ، وأطلبه ممن ينساه . وقال : النعم وحشية فقيدوها بالشكر .

للزكاة طهارتان

إن في الزكاة معنى « التطهير » و « التقوية » وإذا كان المال « عصب الحياة » فإن طريقة اكتسابه يجب أن تكون بريئة من

الشوائب بعيدة عن الشبهات . ولقد أراد الله ـ رحمة بعباده . أن يطهر البدن بزكاة المال ، ويطهر النفس بزكاة الفطر ، لأن العبد قد أخلص النية لربه ، فأدى فريضة الصوم خارجاً عن دنياه طالباً آخرته ، ولذلك كان المؤمنون حقاً هم الذين « للزكاة فاعلون » وقد كتب الله لهم الفلاح من حيث تغلبوا على الشح وحب النفس ، والحيازة ثم تعاطفوا مع أخوتهم في المجتمع تعاطفاً عملياً يدل عليه قوله تعالى : « فاعلون » !

إن للزكاة طهارتين . طهارة بدن مخرج الزكاة ونفسه وآله ، وطهارة المستحق فالمخرج قد أزال شبهة المال بتطهيره ، والمستحق قد أبعد المنوازع النفسية من الحقد والحسد ، والغضب فزكى نفسه ـ أما معنى « التقوية » ، فيعطي المال مناعة في إدخاره ببركته ويمنح المستحق ثقة في نفسه ومجتمعه .

إن حابس الزكاة عن مستحقها في شدة الدنيا والآخرة . فقد قال تعالى : « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » ، لأنه منع حق الله ، وطلب الاستغناء عن ثوابه كبرا وغروراً ، فكانت شدته الدنيوية في النكبات التي تذهب بحاله ، وفي الآخرة بالنار المهيأة لعقابه .

وحين يقول الغنى عن العالمين : « قد أفلح من زكاها » إنما يعني تحقق الفوز بالرضا عن طهر نفسه من الذنوب ، والبخل ذنب عظيم ، لأن البخيل عدو الله لعدم اعترافه بنعمته وجحده فضله

لقد كان من إحسان الله على عباده أن أعطاهم ـ في رمضان فرصة السعي إلى طهارة العائل ومن يعولهم بزكاة الفطر لتسلم الأسرة من ظلمات الشدة ، ثم تعيش في نور الرضا بالرخاء والسعادة !

حبيب الله

في الحديث النبوي أن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده في مأكله ومشربه .

ويقول بكر بن عبد الله : من أعطى خيراً فظهر عليه سمي حبيب الله محدثاً بنعمة الله عز وجل ، ومن أعطى خيراً فلم يظهر عليه سمي بغيض الله معادياً لنعمة الله عز وجل .

رجع الصدى

القول بالعدم والفناء بعد الموت ، ليس جديداً كما يتوهم الذين ينتحلون العصرية مذهباً ، بل هو قديم منذ كان الانسان :

« أو لم ير الانسان إنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

« ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ، أو لا يذكر الانسان إنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » ؟

من غابر الدهر ، كانت المماراة في البعث مما تحدى به الكفار كافة المرسلين عليهم السلام . والذي قاله الملا من الكفار بعد عصر الطوفان :

« إن هي إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » .

قاله أصحاب الرس وثمود وعاد وقوم تبع واخوان لوط :

« كل كذب الرسل فحق وعيد . أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » .

وسمه « موسى » ممن كذبوه .

« إن هؤلاء ليقولون . إن هي إلّا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » .

وردده المشركون العرب ، تحدياً لخاتم النبيين عليهم السلام .

« وقالوا أن هذا إلّا سحر مبين . أئذا كنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو آباؤ نا الأولون » ؟

« بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا تراباً

وعظاماً أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤ نا هذا من قبل ، إن هذا إلاّ أساطير الأولين » .

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب . أئذا متنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد » .

« وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر » .

هكذا تردد رجع الصدى من ماض سحيق ، عبر القرون والأحقاب . وقد قاومت الانسانية على مر الزمن فكرة الفناء ، وناضلت جهدها لكي تتقي لعنة العدم التي تجعل من هموم الانسان في الدنيا عبثاً لا يطاق ، ومن طموحه وكدحه وكفاحه ، عبثاً باطلاً ينتهي بضجعة القبر .

ولعلها فيما تسمع اليوم من العدميين ، لا تراه إلاّ من رجع هذا الصدى لأقوال عصور غابرة ، كانت بحيث تدمر في الانسان إرادة الحياة وتسلمه إلى فوضى وقنوط وأحباط ، لولا أن وجد في الايمان ملاذاً من العبثية يهون عليه ما يكابد في رحلته العابرة على هذه الأرض ، ويؤمن مصير ما يكدح له في معترك الوجود وصراع القيم .

بنت الشاطىء

من يستطيع ؟

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يعدل الجهاد . .

فقال عليه السلام : لا أجده . . ثم قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟

قال الرجل : ومن يستطيع ذلك ؟

فقال عليه السلام : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله .

لا تقنطوا من رحمة الله

لا مجال في العقيدة الاسلامية لأن تتعقد شخصيتنا بما نتورط فيه من ذنوب تطهرها التوبة الصادقة .

والظن الشائع أن التوبة لا تكون إلا من الضالين غير المتقين .

لكنها في كتاب الاسلام ، مظهر تقوى وصريح إيمان « والله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

وقد كان للرسل عليهم السلام ما يتوبون منه :

تضرع نوح إلى الله « قال رب إني أعوذ بك إن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » .

ويونس عليه السلام ، صاحب الحوت ، ضجر بالابتلاء « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم » .

وكانت دعوة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام .

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا أنك أنت التواب الرحيم » .

وظلم « موسى » نفسه إذ استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه « فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين . قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم » .

وابتلى داود وسليمان عليهما السلام بالفتنة .

وفي ختام الوحي ، تلقى خاتم الرسل عليهم السلام آيات النصر :

« إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

والمؤمنون جميعاً ، يتوبون إلى الله : « وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون » .

قصارى جهد المتقين منا أن يضيقوا بالصغائر ويجتنبوا « كبائر الاثم والفواحش إلاّ اللمم » .

فإذا « فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » .

ومهما يسرفوا على أنفسهم فمغفرة الله واسعة ، وهو سبحانه ينهى عباده عن القنوط من رحمته :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » .

بل ان هذا القنوط ، يحمل في العقيدة الاسلامية على الضلال والكفر :

« ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ؟

« ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون » .

في حديث قدسي ، عن رسول الله ﷺ : ؟ إن الله يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا دعاني » .

وقال تعالى :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » .

صدق الله العظيم

الوالي . . الرعية

قال الامام علي بن أبي طالب :

أيها الناس : إن لي عليكم حقاً . . ولكم علي حقوق . . فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعملوا . . وأما حقي عليكم . . فالوفاء . . والنصيحة ، والاجابة حين أدعوكم والطاعة حين آمركم .

مع المصطفى في ليلة القدر

تجلى له الوحي في « غار حراء » وألقى إليه بالكلمة : « إقرأ » .

وما كان « محمد بن عبد الله » بقارىء ، وما كان يتلو من قبله كتاب ولا يخطه بيمينه ، فماذا يقرأ ؟

« إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » .

وخرج من الغار ، والكون من حوله ساج خاشع ، وعلى الأفق نور فجر جديدة ينسخ ظلمات ليل طال ، ويوشح البيت العتيق بسنا وضاء ، يكشف عما تكدس في رحابه من أصنام ، فتبدو على حقيقتها العارية : ممسوخة شائهة بلهاء . وكان لها من ظلمات الليل ستر كثيف يخدع البصر ويزيف الرؤ ية .

النور ملء بصره وبصيرته .

والكلمات ملء قلبه ومسمعه .

ولكنه في حيرة من الأمر ، يعييه أن يستوعب كنه السر الأعظم الذي تجلى له ، ويأخذه من جلاله ما يشبه الدوار فيكاد لا يدري ما إذا كان في وعي يقظته ، أم تلك رؤ يا بصيرة أرهفها طول التأمل في آيات القدرة ، والتطلع إلى اجتلاء سر هذا الكون وخالقه ؟

وأحس وطأة العبء الثقيل تجهده وترهقه ، فما بلغ داره ، حتى بدأ مكدوداً مرتعداً شاحباً ، كأنه ووجدها هناك ساهرة في انتظاره « خديجة » التي كانت له على مدى خمس عشرة سنة ، زوجاً وأماً ، وملاذا وسكنا .

وهذه هي معه في ليلة القدر ، ليس له في الدنيا غيرها من يودعه سره ويلتمس مشورته ورأيه .

هذه هي إلى جانبه ، يفضي إليها بما رأى وسمع ، ويملأ

عينيه منها إذ تصغي إليه بسمعها وقلبها ، محاولاً أن يستبين وقع هذا الأمر على أقرب أهله إليه ، وأعزهم عليه ، وأصفاهم له وداً وأرشدهم نصحاً ورأياً . .

وقالت في إيمان ويقين :

« الله يرعانا يا أبا القاسم . إبشر يا إبن عم وإثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » .

وأحس راحة الأمن والسكينة . . وباتت خديجة ليلتها : أم المؤمنين الأولى التي ستظل زوجها المصطفى في أشق مراحل الدعوة وتواجه معه أصعب مخاطرها وأقسى تكاليفها ، وتقف إلى جانبه إذ يلقى بالقلة من السابقين الأولين ، طواغيت الوثنية القرشية الضارية .

كتب مؤرخو السيرة النبوية :

« كان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بخديجة رضي الله عنها : إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس . . حتى ماتت رضي الله عنها ـ في السنة العاشرة للهجرة ، عام الحزن ـ فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الاسلام » .

بعد عام الحزن ، أوحشت دنيا المصطفى ﷺ من وزيره وربة بيته ، وثقلت عليه وطأة الغربة في مكة ، وأنها لمهد مودة ودار مبعثه ومنزل عشيرته .

وبدأ ﷺ يفكر في الهجرة ، ويرجو أن يأذن الله .

وعاشت بعد رحيلها ، ملء الحياة في قلبه ودنياه ، وفي تاريخ الاسلام الذي عرف لها مكانها وقدرها ، وأعزه الله بها منذ وقفت مع المصطفى في ليلة القدر ، وليس في الدنيا ليلتئذ من آمن به سواها .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

صدق الله العظيم

مخموم القلب

سئل النبي عليه السلام : أي الناس أفضل ؟

فقال : كل مخموم القلب ، صدوق اللسان !

قيل : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟

قال : هو التقي النقي ، لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد .

وديعة مستردة

في السنة السابعة للهجرة ، استقبلت المدينة المنورة « مارية القبطية » هدية من مصر ، بعثها المقوقس عظيم القبط إلى نبي

الاسلام عليه الصلاة والسلام ، مع صاحبه « حاطب بن أبي بلتعة » الذي حمل إليه كتابه ، يدعوه فيه إلى الاسلام .

ولم يسلم المقوقس ، لكنه رد على الداعي رداً جميلاً ، وأكرم وفادة صاحبه حاطب ، وأرسل إليه بهدية من خيرات الكنانة ، منها « مارية وسيرين ابنتا شمعون » لهما مكان في القبط عظيم .

وكان مولدهما ، لأب قبطي وأم رومية ، في صعيد مصر بقرية « حفن » على الشط الشرقي للنيل تجاه الأشمونين ، وانتقلتا في صباهما المباكر إلى قصر المقوقس ، ومنه خرجتا إلى المدينة ، فكان مِن حظ « مارية » أن اصطفاها ﷺ لنفسه ، أما أختها « سيرين » فكانت لحسان بن ثابت الأنصاري ، أم ولده عبد الرحمن .

صعدت « مارية » بحظوتها لدى المصطفى الذي كان لها في الغربة الأهل والوطن ، وآثرها الله تعالى بأن حملت من خير البشر ، ووهبه منها على الكبر واليأس ولده « إبراهيم » .

كان ﷺ في أواخر العقد السادس من عمره ، لم يرزق ولداً قط ، من أمهات المؤمنين اللواتي تزوجهن بعد السيدة خديجة أم أبنائه الستة . وقد ثكل منهم ولديه « القاسم وعبد الله » ثم ثكل بناته الثلاث « زينت ورقية وأم كلثوم » فلم يبق له غير إبنته الزهراء .

فلما أن جاءته البشرى بمولد إبراهيم ، سجد لله شاكراً ،

وحمل وليده يقبله مغتبطاً قرير العين ، واحتفلت المدينة بمولد إبن المصطفى ، يعزيه عما امتحن به من ثكل . وتفتح « إبراهيم » للحياة ، وأبوه سعيد به يرقب نموه يوماً بعد يوم ، ويجد فيه أنسه ومسرته .

ثم شاء الله أن يسترد وديعته .

مرض « إبراهيم » قبل أن يتم السنة الثانية من عمره ، وسهرت عليه أمه تمرضه ، والمدينة كلها تدعو له بالشفاء ، حتى إذا دنا أجله ، جاء أبوه معتمداً على صاحبه « عبد الرحمن بن عوف » لشدة ألمه ، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه ، ووضعه في حجره محزوناً جاشع القلب ضائع الحيلة ، لم يملك دمعة وهو يشهد ولده الوحيد يعالج سكرات الموت .

وأسلم إبراهيم الروح ، فقبله أبوه وقال والدمع يفيض من عينيه :

« تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب . وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وسار وراءه محمولاً على سرير صغير من منزل أمه إلى البقيع ، فصلى عليه أبوه وصحابته ، وأضجعه بيده في قبره .

وآب المشيعون إلى المدينة وقد غام الأفق وانكسفت الشمس ، فقال قائلون منهم : إنها انكسفت لموت إبراهيم .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » ولم يطل به العمر بعد ولده .

كانت وفاة إبراهيم في السنة العاشرة للهجرة ، وفي ربيع الأول من السنة التالية ، رحل أبوه ﷺ عن هذه الدنيا ، ولحق بالرفيق الأعلى :

« سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار » .

الأمير يعمل بدلاً من الخادم

سلمان الفارسي هو أحد الصحابة الأجلاء ، تولى الامارة على نحو ٣٠ ألفاً من المسلمين . . لم يكن له بيت وكان يأكل من عمل يده ولا يأكل من أموال الصدقات . . كان يشتغل بالخوص ويقول : اشتري خوصاً بدرهم ، فأعمك فأبيعه بثلاثة دراهم ، ، فأعيد درهماً فيه ، وأنفق درهماً على عيالي ، وأتصدق بدرهم . . كان يتولى أمر العجين في بيته بدلاً من الخادم حين يرسلها في حاجة أخرى ، ويقول : لا أجمع عليها عملين .

نعم العبد الصائم

نعم العبد الذي أطاع مولاه واقتدى بسنة سيدنا رسول الله

فاستحق أن يكون كما قال تعالى ﴿ ومن يطيع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النسيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ والعبد الصائم الملتزم حدود الله بما قرره رسول الله ﷺ كان حقاً على الله أن يدخله من أكرم أبواب الجنة .

يقول الحديث : « إن في الجنة باباً يقال له الريان لا يدخل منه إلا صائمي رمضان فإذا دخل الصائمون تلقتهم الملائكة مستبشرة قائلة لهم أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم يا صائمون رمضان » ولعظم هذه العبادة وما لها من المنزلة عند الله جعل الله في رمضان انتصار المسلمين في غزوة بدر وكانت غزوة الفتح الأعظم وفي الثلث الأخير منه ليلة القدر التي قال الله عنها ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر - إلى آخره ﴾ فهي ليلة يتجلى الله فيها على الصائمين إيماناً وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال : (التمسوها في العشر الأواخر من رمضان وفي لياليها الوترية ويميل أكثر العلماء على أنها ليلة السابع والعشرين وبهذا اقتدى الجميع ، وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عما يقال فيها فقالت كان صلوات الله عليه يقول (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا) ولقد توج الله تلك العبادة بقبولها فجعل سبحانه زكاة الفطر تطهيراً للصائم ودعوة من الله لعباده بالمودة والمحبة .

ووقت زكاة الفطر من أول يوم في رمضان إلى ما قبل صلاة العيد ومقدارها عن كل فرد نصف صاع من بر وقدره . اثنا عشر قرشاً يخرجها الصائم عن نفسه وعن كل فرد هو ملزم بالانفاق عليه ولا يعلم من يعطيها له أنها زكاة حتى لا تفسد ويبدأ بالأقارب الذين هم أولى بالمعروف ولا ينسى صلة الرحم في هذه الآونة فالله تعالى يقول لصلة الرحم : (أما ترض أن من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته تقول رضيت يا ربي وهي أي صلة الرحم معلقة بين السماء والأرض تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله وكما سن رسول الله أحياء ليلة القدر احيا الله قلبه يوم تموت القلوب ـ كذا أمر الرسول ﷺ بإحياء ليلة العيد فقال (من أحيا ليلة العيد لم يمت قلبه يوم تموت القلوب) وكما قررنا أن المقصود من العبادات أرواحها لا أشباحها والله سبحانه لا ينظر إلى المظاهر الخادعة التي يظن صاحبها أنه يخدع المؤمنين .

استعمله الله . .

قال رسول الله ﷺ : إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته .

فسأله رجل من القوم : كيف يستعمله ؟!

قال الرسول : يهديه الله إلى العمل الصالح قبل موته ، ثم يقبضه على ذلك .

بـــر . . الوالدين

حث القرآن الكريم والرسول العظيم على البر بالوالدين والرفق بهما والحنو عليهما ورد الجميل لهما وقد قرن الله سبحانه وتعالى بر الوالدين بعبادته وتوحيده حيث يقول : وقضي ربك ألا تعبدوا إلّا إياه وبالوالدين إحساناً » .

وير الوالدين مطلوب ومفروض خصوصاً عندما يلحق بهما أو يأحدهما الكبر لأنهما في هذه الحالة يكونان أشد احتياجاً إلى العطف والرعاية .

روى أبو هريرة عن النبي - ﷺ - قال : رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي ، رغم أنف رجل أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له .

وبر الوالدين واجب حتى بعد موتهما ويكون ذلك بصلة أهل ودهما وأصدقائهما - روى إبن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى .

وقد جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : « يا رسول الله ، هل بقي من بر والدي من بعد موتهما شيء أبرهما به ؟ قال : نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما

بعهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك من قبلهما فهذا الذي بقي عليك » .

وبر الوالدين مأمور به حتى ولو كانا على غير دين الاسلام ، فقد روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها فاستفتيت النبي ﷺ فقلت : إن أمي قدمت وهي راغبة . (أي راغبة عن الاسلام) فأصلها ؟ قال : نعم صلى أمك .

أكبر الكبائر

قال رسول الله ﷺ : ألا أحدثكم بأكبر الكبائر ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : الاشراك بالله . وعقوق الوالدين .

وكان النبي متكئاً فجلس ثم قال : وشهادة الزور . أو قول الزور .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير ٠٠٠ ٤١٠ ٢٢

سلسلة مختارات اسلامية

محاضرات إسلامية

مختارات إسلامية

المجلد الثاني

ر الفكر اللبناني - بيروت



سلسلة مختارات إسلامية

أبو بكر الصديق

أول الخلفاء الراشدين

دار الفكر اللبناني

سلسلة

مختارات

إسلامية

أبو بكر الصِّديق

أول الخلفاء الراشدين

الناشر: دار الفكر اللبناني
تلفون: ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس: ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



أعدت هذه المجموعة خصيصاً لتعريف الأجيال العربية والاسلامية الطالعة بحقائق عن تاريخهم العريق ومآثر كبار قادتهم عبر العصور .

ونبدأها بسير الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، مما فيها من عبر وأمثال واختلافيات ومناقب يحتاج إليها كل مسلم وكل عربي في دنيا وآخرته .

تتوج هذه السلسلة سيرة سيدنا أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين ونأمل أن تقبل الناشئة على مطالعتها ويتخذوا منها السبيل السوي في حياتهم فيتبوأوا المراتب والمستويات المهيأة لهم ليكونوا خير خلف لخير سلف .

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو إبن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر التيمي القرشي ، ويجتمع مع النبي ﷺ في مرَّة بن كعب وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد إبن تيم بن مرَّة وهي بنت عم أبي قحافة .

فهو قرشي ، من أبوين قرشيّين .

كان إسمه (عبد الكعبة) فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ولقّب عتيقاً لأن النبي ﷺ نظر إليه فقال : هذا عتيق من النار ، وفي رواية أخرى :

« من أراد أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر » .

وفي حديث عن عائشة رضي الله عنها : أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال :

« يا أبا بكر أنت عتيق الله من النار » فمن يومئذ سمى عتيقاً .

وهناك أحاديث أخرى في ذلك .

وكان يلقب في الجاهلية بالصديق لما عرف عنه من الصدق ، وقيل : لمبادرته إلى تصديق رسول الله ﷺ فيما كان يخبر به .

وفي حديث عن علي بن أبي طالب لما سُئل عن أبي بكر قال : ذاك أمرؤ سمَّاه الله الصديق على لسان جبريل ، وعلى لسان محمد ، كان خليفة رسول الله ﷺ على الصلاة رضيه لدينا فرضيناه لدنيانا .

وفي حديث آخر : أن علياً قال على المنبر : ان الله سمى أبا بكر على لسان نبيه صديقاً .

وقد أجمعت الأمة الإسلامية على تلقيبه بالصديق لأنه أول من بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ فيما كان يخبر به ، ولازم الصدق طول حياته ، فلم تقع منه هناة ما ، ولا وقفة حال من الأحوال ، وكانت له المواقف الشريفة العالية في نشر الدعوة ، ورفع علم الإسلام .

ولد رضي الله عنه لسنتين من ميلاد رسول الله ﷺ وأشهر بمكة أي قبل البعثة بنحو ٣٨ سنة فهو أصغر من النبي عليه الصلاة والسلام بسنتين وأشهر ، كما ثبت ذلك في التاريخ .

نشأته ومجمل صفاته

نشأ رضي الله عنه كما ينشأ أبناء كرام العرب ، متشبعاً بالحرية ، وعزة النفس ، عفيفاً ، عالي الهمَّة ، وشبَّ على الأخلاق الفاضلة ، والسير الكريمة ، لم يسجد لصنم قط وحدث منه وهو صغير حينما أخذه والده إلى معبد فيه أصنام وقال له : اسجد لآلهتك الشم العوالي .

فدنا من الصنم وقال له : إني جائع فاطعمني . فلم يجبه .

ثم دنا منه وقال له : إني عطشان فاسقني . فلم يجبه .

ثم قال له : إني عارٍ فاكسني . فلم يجبه .

فأخذ صخرة وقال : إني ملق عليك هذه الصخرة ، فإن كنت إلّهاً فامنع عن نفسك ، فلم يجبه ، فألقى الصخرة عليه ، فخر لوجهه .

وكان عفيف النفس ، فلم يشرب في الجاهلية خمراً مطلقاً .

وفي حديث عن إبن عساكر عن أبي العالية الرباحي قال : قيل لأبي بكر الصديق في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ هل شربت الخمر في الجاهلية ؟ فقال : أعوذ بالله ؛ فقيل : ولِمَ ـ قال : كنت أصون عِرضي ، وأحفظ مُروءتي ، فإن من شرب الخمر كان مضيعاً في عِرضه ومُروءته ، قال : فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : صدق أبو بكر ، صدق أبو بكر .

ولما صلب عوده ، واشتد ساعده ، اشتغل بالتجارة كأكثر قريش ، وأخص ما كان يتجر فيه البزازة أي بيع الثياب ، فكسب ثقة العرب بأمانته ، ولين طباعه ، ودماثة أخلاقه ، فأحبّوه وخضعوا لرأيه ، واطمأنت نفوسهم إليه ، وأحلوه المقام الرفيع بينهم .

وكان أعلم الناس بأنساب العرب ، خبيراً بأحوالهم وسياستهم ، فأثرى وأضحى ذا مال وفير ؛ ولكن لم يطغه ذلك المال ، إذ كان بالناس رحيماً ، وعلى الفقراء والمساكين شفيقاً ، يصل الرحم ، ويصدق الحديث ويكسب المعدوم ، ويعين على نوائب الدهر ، ويقري الضعيف .

إســـلامـه

لما شرف الله محمداً ﷺ بالنبوة والرسالة كان أبو بكر أول رجل أجابه للإسلام حتى قال عليه السلام : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاَّ كانت له كبوة غير أبي بكر .

وقيل : أسلم أبو بكر وعمره سبع وثلاثون سنة وقيل : ثمان وثلاثون وعاش في الإسلام ستاً وعشرين سنة .

وفي حديث عن إبن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ما كلمت في الإسلام أحداً إلاّ أبى عليّ وراجعني الكلام إلاَّ إبن أبي قحافة فإني لم أكلمه في شيء إلاّ قبله ، واستقام عليه .

وفي حديث آخر عن البخاري عن أبي الدرداء قال :

قال رسول الله ﷺ : هل أنتم تاركون لي صاحبي ؟

إني قلت : أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت .

وقال إبن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه قال :

لما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله ، وإلى رسول الله ﷺ ، ثم تفانى في تأييد الإسلام بجاهه ، وماله ، وحسن أدبه ، وحسن معاملته واستمالة الناس إليه .

فكان يجتمع إليه كرام قومه ، فيدعون من يثق به منهم إلى الإسلام ، فأسلم على يديه خلق كثير ، وفي مقدمتهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وهؤلاء هم السابقون الأولون ، ثم فشا ونما الإسلام بعد ذلك ولما آذى المشركون من أسلم من عبيدهم كان أبو بكر يشتري من ماله الموالي المعذبين على الإسلام ، لإنقاذهم من الآلام فيعتقهم ، إبتغاء وجه الله ، شفقة منه ، ورحمة بهم ، ليخلصهم من أيدي سادتهم الذين كانوا يقسون عليهم لإسلامهم ؛ ومن هؤلاء الموالي : بلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ ، وعامر بن فهيرة ، وغيرها .

وفيه وفى بلال يقول عمر رضي الله عنه : إن أبا بكر سيدنا وقد أعتق سيدنا .

أخرج إبن جرير بن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو

بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال أبوه : أي بنيّ أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك .

قال : أي أبت ، أنا أريد ما عند الله .

صحبته لرسول الله ﷺ

صحب أبو بكر النبي ﷺ من حين أسلم إلى حين توفي ، لم يفارقه سفراً ولا حضراً ، إلّا فيما أذن له في الخروج فيه من حج وغزو ، وكفاه فخراً أنه حاز شرف الصحبة في الغار لرسول الله ﷺ .

وقد دخل الغار قبله ، ليزيل ما به من سوء ، وأقام معه ثلاثة أيام وعينه من أجله لا تنام ؛ وكان مخلصاً لرسول الله ﷺ يفديه بنفسه وماله ، وترك أمواله وأولاده وهاجر معه إلى المدينة ، وأعد الزاد والراحلة ، ثم أقام في المدينة يصدق رسول الله ﷺ ويؤيده ، وزوّجه إبنته أم المؤمنين السيدة (عائشة) رضي الله عنها وعمرها تسع سنوات ، وشهد معه المشاهد كلها ، وكان يحمل رايته العظمى في آخر غزواته وهي غزوة تبوك ويدافع عنه ، ويقف في وجه الأعداء دونه .

محبة الرسول له وتعظيمه

كان أبو بكر أحب رفيق لرسول الله ﷺ . وقد قال في تعظيمه النبي عليه الصلاة والسلام : « ما أحد عندي أعظم من أبي بكر واساني بنفسه وماله ، وزوّجني ابنته ، وصحبني في الغار ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ؛ ولكن أخوة الإسلام » .

وقال ﷺ : لا طلعت الشمس ، ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر ، إلاَّ أن يكون نبي .

وقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : هل قلتَ في أبي بكر شيئاً ؟ قال : نعم . فقال : قل ، وأنا أسمع . فقال :

« والثاني إثنين في الغار المنيف وقد
طاف العدو به إذ صعد الجبلا »
« وكان حِبَّ رسول الله قد علموا
من البرية لم يعدل به رجلاً »

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قال : صدقت يا حسان ، هو كما قلت .

وقال ﷺ في حقه في آخر صلاة صلاها في المسجد :

« إن مَن أمنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر ؛ ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين باب إلاَّ سُد ، إلاّ باب أبي بكر » .

وفي رواية أخرى : لا يبقين في المسجد خوخة إلاّ خوخة أبي بكر .

خلافتــه

لما مرض رسول الله ﷺ مرض الموت استخلفه على الناس في إمامة الصلاة ، وهي الإمامة الكبرى ، وقال : فليُصل أبو بكر بالناس وفي هذا أعظم إشارة لاستحقاقه الخلافة من بعده ، وهذا من أهم الأسباب في توليته الخلافة .

والأحاديث الواردة في خلافته كثيرة نذكر منها ما يأتي :

أخرج إبن عساكر عن إبن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت أمرأة إلى النبي ﷺ تسأله شيئاً ؟ فقال لها : تعودين فقالت : يا رسول الله إن عدت فلم أجدك . فقال : إن جئتِ فلم تجديني فاتِ أبا بكر ، فإنه الخليفة من بعدي .

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلت : مَن كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلف ؟ قالت : أبو بكر . قيل لها : ثم مَن بعد أبي بكر ؟ قالت عمر . قيل لها : مَن بعد عمر ؟ قالت : أبو عبيدة بن الجراح .

وأخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه فقال : (مُروا أبا بكر فليصل بالناس) فقالت عائشة : يا رسول الله إنه رجل رقيق القلب ، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس ؛ فقال : مُري أبا بكر فليصل بالناس ؛ فعادت ، فقال : مُري أبا بكر فليصل بالناس ، فإنكن صواحب يوسف ، فصلي بالناس في حياة رسول الله ﷺ .

وفي حديث إبن عمر : كبَّر عمر ، فسمع رسول الله ﷺ تكبيره ، فأطلع رأسه مغضباً ؛ فقال : أين أبو قحافة ؟

قال العلماء : في هذا الحديث أوضح دلالة على أن الصديق أفضل الصحابة على الإطلاق ، وأحقهم بالخلافة ، وأولاهم بالإمامة .

وأخرج البيهقي عن الزعفراني قال : سمعت الشافعي يقول : أجمع الناس على خلافة أبي بكر الصديق ، وذلك انه اضطر الناس بعد رسول الله ﷺ ، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبي بكر ، فولوه رقابهم .

فهو شيخ المسلمين حقاً ، وأول الخلفاء الراشدين ، وخليفة رسول رب العالمين .

مبايعته بالخلافة

لما توفي رسول الله ﷺ كان أبو بكر غائباً في أهله بالسنُح(1)فلما أتاه نعيه أقبل على الناس ، فوجدهم في اختباط عظيم لوفاة رسول الله ﷺ ، فمنهم المصدق ، ومنهم المكذب ، وهاجوا واضطربوا ، فدخل على رسول الله ﷺ ، فكشف عن وجهه وقبَّله ، وقال :

بأبي أنت وأمي ، قد ذقت الموتة التي كتب الله عليك ، ولَن يصيبك بعدها موتة أبداً .

ثم خرج إلى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفَإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ ﴾ آل عمران .

فكان أبو بكر في هذا الموقف الحرج أجلد الناس لفراقه ﷺ ، وأربطهم جأشاً ، وأقواهم عزيمة ، وأشدهم بأساً ، فصار قدوة لأصحاب رسول الله ﷺ في تخفيف جزعهم وحزنهم .

وبينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبي ﷺ ، وتجهيزه جاء مخبِّر فأخبرهم باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة بقصد المفاوضة في شأن الخلافة ، فأسرع إليهم أبو بكر وعمر ، وجماعة من المهاجرين ليتداركوا الأمر قبل افتراق الكلمة ، فأتوا الأنصار ، وقد اجتمعوا بالسقيفة يبايعون سعد بن عبادة فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم ، وغلبوهم عليه ، ووقع بينهم وبين الأنصار كلام كثير ، حتى قال بعض الأنصار .

منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش وكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات فقال عمر لأبي بكر : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعه ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم كانت البيعة العامة ؛ وتخلف عن بيعته علي وطلحة ، والزبير ، وبنو هاشم ، لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة إليهم وعدم صرفها عنهم .

ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس إلى البيعة لأبي بكر واتفاقهم على الرضا بخلافته لما ثبت عندهم من أن الخلافة

غير النبوة وأن أبا بكر أحق الناس بها ، بعد أن أنابه عنه رسول الله ﷺ في الصلاة بالمسلمين في حال مرضه ، أقبلوا على بيعته ، وبايعه علي رضي الله عنه بعد أيام على الأرجح .

وأخرج إبن عساكر عن علي أنه قال : لقد أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس ، وإني شاهد وما أنا بغائب ، وما بي مرض ، فرضينا لدنيانا ما رضي به النبي ﷺ لديننا .

وأخرج النسائي والحاكم وصححه عن إبن مسعود قال :

لما قبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير فأتاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا معشر الأنصار ألستمُ تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس ؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر .

فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر .

وأخرج موسى بن عقبة والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن عوف قال : خطب أبو بكر فقال :

« والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ، ولا ليلة قط ، ولا كنت راغباً فيها ، ولا سألتها الله في سرٍّ ولا علانية ؛ ولكني أشفقت منِ الفتنة ، ومالي في الإمارة من راحة ، لقد قلدت أمراً عظيماً ، ومالي به من طاقة ، ولا يد إلاَّ بتقوية الله » .

فقال علي والزبير : « ما غضبنا إلاَّ لأنا أخرنا عن المشورة ، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها ، إنه لصاحب الغار ، وإنا لنعرف شرفه وخبره ، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حيٍّ » .

وقال إبن اسحق في السيرة : حدثني الزهري قال : حدثني أنس إبن مالك قال : لما بويع أبو بكر في السقيفة ، وكان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن الله قد جمع أمركم على خيّركم ، صاحب رسول الله ﷺ ، وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه » .

فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس فإني قد ولِّيت عليكم ، ولست بخيِّركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قويٌّ عندي ، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقويُّ فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيلٍ الله إلاَّ ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلاَّ

عـمَّـهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

ولقد أظهر أبو بكر الحزم والعزم في خلافته ، وجمع كلمة المسلمين ، واشتد في إنفاذ ما كان يريده ﷺ من فتح ممالك كسرى وقيصر .

أول أعماله بعد الخلافة

تسيير جيش أسامة

أول عمل بدأ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد توليه الخلافة تسيير جيش أسامة بن زيد الذي كان النبي ﷺ جهزه قبل مرض الموت لغزو أطراف بلاد الروم ، ولم يثنه عن ذلك ما حصل من الاضطرابات في بلاد العرب ، عقب وفاة رسول الله ﷺ .

وقد طلب بعض كبار الأنصار ، على لسان عمر بن الخطاب ، من أبي بكر أن يولي إمارة الجيش رجلاً أسنَّ من أسامة ؛ لأن عمرَه كان وقتئذ ١٧ سنة ، فغضب أبو بكر ، حتى قام ، وقعد ، وقال :

« يا عمر استعمله رسول الله ﷺ ، وتأمرني أن أعزله » .

ثم خرج رضي الله عنه ، وشيع الجيش بنفسه ماشياً ، وأسامة راكب ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، لتركبنَّ

أو لأنزلنّ ، فقال : والله لا نزلتَ ولا ركبتُ ، وما عليّ أن أغبر قدمي ساعةً في سبيل الله ، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وسبعمائة سيئة تمحى عنه ، ثم وصّاه هو وأصحابه فقال :

« لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا أمرأة ، ولا تعزقوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً ، إلاّ للأكل » إلى آخر ما جاء بوصيته المذكورة في كتاب (إتمام الوفاء للمرحوم الشيخ الخضري) .

فذهب الجيش وغزا أطراف الشام ، ورجع إلى المدينة ظافراً غانماً بعد أن غاب عنها أربعين يوماً .

وكان إنفاذ هذا الجيش من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين ، فإن العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوةٌ لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفّوا عن كثير مما كانوا عزموا عليه ، فعظم شأن أبي بكر عند الله ، وعلموا أن مخالفة البعض له في أمر هذه الغزوة لم تكن من الحكمة .

حرب أهل الردة

ولما مات رسول الله ﷺ مُني الإسلام بمصيبة عظمى لو لم تتداركها حكمة أبي بكر رضي الله عنه لضعف الدين ، وتشتت شمل المسلمين ، فإن العرب ما لبثت بعد أن علمت بموت الرسول عليه الصلاة والسلام حتى ارتدت ، ولم يبق أحد متمسكاً بدينه إلاّ فريساً بمكة وثقيفاً بالطائف ، وقليلاً من غيرهم ، وقد أدعى بعض العرب النبوة ، ومنهم رجل من أهل نجد اسمه مُسيلَمة الكذاب الذي تزوج بأمرأة أدّعت النبوة أيضاً اسمها سجاح فأرسل إليها الصديق خالد بن الوليد وحاربهما حرباً شديدة في بلاد اليمامة فقتل مُسيلمة .

ومنع البعض الآخر الزكاة ، وهي من أهم أركان الإسلام وموارده ، فوقف أبو بكر بين المسلمين وقفة الحازم القوي ، ودعاهم لقتال المرتدين ، وأعادتهم إلى حظيرة الإسلام ، وتأدية الزكاة على قلة من بقي مخلصاً لله من المسلمين وهم أهل المدينة ، ومكة ، والطائف ، فأشار عليه بعض الصحابة

ومنهم عمر بن الخطاب وعلي رضي الله عنهما ألاَّ يهيج العرب ، ويجمعهم على عداوته لقلة عدد المخلصين ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يُؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه .

وكان رأي أبو بكر هو أصوب الآراء في هذه الكارثة ، وسير الجيش مستعيناً بماله ، وكان أربعين ألف دينار أنفقها في تجهيزه واثقاً بوعده سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا الله يَنْصُركُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامكُمْ ﴾ .

فأيده الله بالنصر المبين ، ورجع المرتدون إلى الإسلام خاضعين نادمين ، ولولم يفعل ذلك لعظم خطبهم ، واستفحل ضررهم ، وكانوا مثلاً سيئاً لغيرهم ، وقد اعترف له عمر بأصالة الرأي ، وبعد النظر .

غزواته وفتحه لبعض المماليك

لما رأى أبو بكر رضي الله عنه أن الفرصة قد حانت لتحقيق بشارة النبي ﷺ بفتح الممالك ، جمع أربعين ألف مقاتل ممن لم يدخل قلبه الرِّدة ، وكان أكثرهم من قريش وثقيف ، وبعث بعضهم لغزو الفرس ، وبعضهم لغزو الروم ، ففتح الله على الأولين أكثر نواحي العراق ، وعلى الآخرين مشارق الشام وفلسطين ، حيث وقع بينهم وبين الفرس والروم من الوقائع ما لم يفلحوا بعدها في موقعة مع المسلمين وهزم المسلمون الروم في واقعة تسمى واقعة اليرموك وهو واد في الجنوب الشرقي في الشام . وواقعة اليرموك هي من أعظم الوقائع الإسلامية ؛ ثم فتحوا مدناً كثيرة غنموا منها أموالاً عظيمة .

وبذلك ظهر الإسلام ظهوراً بيِّناً ، ووقع الرعب في قلوب أعدائه وخافوا خوفاً كثيراً .

فعل أبو بكر كل ذلك في أقل من ثمانية وعشرين شهراً ، فكان بذلك المجدد لدين الله والمؤسس العظيم لـدولة الإسلام .

هذا وأن غزواته ، وفتوحاته ، مذكورة بالتفصيل في (كتاب أشهر مشاهير الإسلام للمرحوم رفيق بك العظم) وفي كتاب (إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للمرحوم الشيخ محمـد

الخضري) وفي غيرهما من كتب التاريخ ، فليطلع عليها الراغب في الزيادة والاستفادة .

جمعه للقرآن الكريم

لما استشهد في تلك الوقائع كثير من حفظة القرآن الكريم أشار سيدنا عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمعه ، فجمعه في صحائف من صدور الرجال والجلود والعظام .

فكان عنده مدة حياته ، ثم عند سيدنا عُمر ، ثم عند حفصة بنت عمر زوجة رسول الله ﷺ ، فبذلك خدم الإسلام والمسلمين خدمة عظيمةً تذكر فتشكر ، وكان له بذلك ذكراً باقياً ، وأثراً خالداً .

وعن علي رضي الله عنه أنه قال : أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر . إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين .

أوليـــاته

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من أسلم ، وأول من جمع القرآن ، وأول من سمَّاه مصحفاً ، وأول من سُمي

خليفة ، وأول من ولي الخلافة وأبوه حيّ ، وأول خليفة فرض له رعيته العطاء ، وأول من اتخذ بيت المال .

مناقب أبي بكر الصديق

كان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد وحوله أصحابه فجاء سيدنا علي بن أبي طالب ، إبن عم الرسول ﷺ وزوج السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ ، فوقف وسلَّم عليهم ، ثم نظر مكاناً يجلس فيه ، يكون لائقاً به ، وموافقاً لقدره ، فنظر النبي ﷺ في وجوه الجالسين ، يريد بذلك أن يعرف مَن الذي يوسع له مكاناً ؟ وكان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه جالساً عن يمين النبي ﷺ ، فتزحزح له عن مجلسه وقال له :

ها هُنا يا أبا الحسن ، فجلس سيدنا على بين النبي ﷺ وأبي بكر .

قال أنس بن مالك خادم النبي ﷺ : فرأيت السرور في وجه رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر . فقال النبي ﷺ ؛ إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل .

شجاعته

قال علي رضي الله عنه : أخبروني مَن أشجعُ الناس ؟ فقالوا : أنت . قال : أما أنا ما بارزت أحداً إلاّ إنتصفت منه ؛

ولكن أخبروني بأشجع الناس ؟ قالوا : لا نعلم فَمن ؟ قال : أبو بكر ، إنه كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً فقلنا : مَن يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلاَّ أبا بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوى إليه أحد إلاَّ هوى إليه ، فهو أشجع الناس .

قال علي رضي الله عنه : ولقد رأيت رسول الله ﷺ آخذته قريش ، فهذا يجبأه وهذا يتلتله وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلّهاً واحداً ؟ قال : فوالله ما دنا منا أحد إلاَّ أبو بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ، ويتلتل هذا (أي هذا يدفعه وهذا يسوقه) وهو يقول : ويلكم ! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم رفع عَليٌّ بردة كانت عليه فبكى حتى أخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم . فقال : أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم . فقال : ألا تجيبوني ؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل يكتم إيمانه ، وهذا رجل أعلن إيمانه .

علمه وتقواه

كان رضي الله عنه عالماً ؛ بل وأعلم الصحابة وأذكاهم ، والدليل على عظم علمه قوله :

والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » .

وقال إبن كثير : كان الصديق رضي الله عنه أقرأ الصحابة ، أي أعلمهم بالقرآن ؛ لأن رسول الله ﷺ قدمه إماماً للصلاة بالصحابة مع قوله : يَؤُم القوم أقرأهم لكتاب الله .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره .

وكان رضي الله عنه أعلمهم بالسنة ، وكيف لا يكون كذلك وقد واظب على صحبة الرسول ﷺ من يوم البعثة إلى الوفاة ، وهو مع ذلك من أذكى عباد الله وأعقلهم ، وإنما لم يرو عنه من الأحاديث المسندة إلاّ القليل ، لقصر مدته ، وسرعة وفاته بعد النبي ﷺ .

قضاؤه وعدله في رعيته

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله ؛ فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به ، وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنة قضى به ، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى في ذلك بقضاء ؟

فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء ، فيقول أبو بكر : الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا ، فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به وهذا منتمي النظر ، والعدل في القضاء .

حلمه وسلامة قلبه

أخرج البخاري عن أبي الدرداء قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر فسلم وقال : انه كان بيني وبين عمر إبن الخطاب شيء فأسرعت إليه ، ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ فأقبلت إليك . فقال النبي ﷺ : يغفر الله لك يا أبا بكر (قالها ثلاثاً) .

ثم إن عمر ندم ، فأتى منزل أبي بكر فلم يجده ، فأتى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر (يتغير غيظاً) حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه ، فقال : يا رسول الله ، والله أنا كنت أظلم منه مرتين ، فقال النبي ﷺ : إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركون لي صاحبي ؟ (قالها مرتين) فما أوذى بعدها .

مثال آخر من حلمه

جاء الحسن بن علي إلى أبي بكر الصديق وهو على منبر رسول الله ﷺ فقال : إنـزل عن مجلس أبي . فقال : صدقت : إنه مجلس أبيك ، وأجلسه في حجره ويكي . فقال علي : والله ما هذا عن أمري . فقال : صدقت ، والله ما أتهمك .

تواضعــــه

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب للقوم أغنامهم ، وكانت أملاك العرب معظمها من الغنم والإبل ، وكان ذلك في أيام النبي ﷺ .

ولما مات عليه الصلاة والسلام ، وصار أبو بكر خليفة المسلمين يتولى أمرهم ، قالت جارية من الحي : الآن من يحلب لنا الغنم ؟ تريد أن تقول : إنه أصبح أبو بكر عظيماً وأكبر من أن يقوم بحلب الغنم لقومه وقد صادف أنه سمعها أبو بكر رضي الله عنه فقال لها : لأحلبنها لكم ، وأرجو الله ألاّ يغيرني ما دخلت فيه من الخلافة عن خلق كنت فيه ؛ فكان رحمه الله يحلب لهم بعد ذلك .

فما ذكر تعلمون أن سيدنا أبا بكر الصديق ، مع كونه كان خليفة للمسلمين ، وأعظم رجل فيهم ، كان يحلب الغنم لجيرانه وقومه .

وفي هذا أكبر دليل على تواضعه ، وعدم تعاظمه وتكبره ؛ فهكذا تكون الأخلاق الشريفة الكريمة .

وقيل : سُئل بعض التابعين : هل رأيت أبا بكر ؟ قال : نعم ، رأيت ملكاً في زي مسكين .

حُسن اعتذاره

أخرج أحمد ، بسند حسن ، عن ربيعة الأسلمي رضي الله عنه قال :

جرى بيني وبين أبي بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها ، وندم ، فقال لي : أبا ربيعة رد عليّ مثلها حتى يكون قصاصاً . فقلت : لا أفعل . قال أبو بكر : لتقولَن أو لأستعدين عليك رسول الله ﷺ . فقلت : ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ، وانطلقت أتلوه .

وجاء أناساً من أسلم فقالوا لي : رحم الله أبا بكر ، في أي شيء يستعدي عليك رسول الله ﷺ ، وهو الذي قال لك ما

قال ؟ فقلت : أتدرون من هذا ؟ هذا أبو بكر الصديق ، هذا ثاني اثنين ، وهذا ذو شيبة المسلمين ، إياكم لا يلتفت فيراكم تنصرونني عليه ، فيغضب ، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه ، فيغضب الله عزّ وجل لغضبهما ، فيهلك ربيعة . قالوا : ما تأمرنا ؟ قال : ارجعوا .

وانطلق أبو بكر رضي الله عنه وتبعته وحدي حتى أتى رسول الله ﷺ ، فحدثه الحديث كما كان ، فرفع إليّ رأسه فقال :

يا ربيعة مالَكَ والصديق ؟ فقلت : يا رسول الله كان كذا وكذا . فقال رسول الله ﷺ : أجل لا تردّ عليه ؛ ولكن قل : قد غفر الله لك يا أبا بكر . فقلت : غفر الله لك يا أبا بكر ، قال الحسن : فولى أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي .

حرصه على العمل والسعي على المعاش

لـمّا ولّى أبو بكر رضي الله عنه خلافة المسلمين أصبح ذاهباً إلى السوق ، وعلى عنقه أثواب يتجر فيها ، فلقيه سيدنا عمر رضي الله عنه فقال له : إلى أين تريد يا خليفة المؤمنين ؟

فقال له : إني ذاهب إلى السوق ، قال : ماذا تصنع وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : ومن أين أطعم عيالي ؟ فقال له

عمر : انطلق يفرض لك أبو عبيدة ؛ وكان وقتئذ أمين بيت المال .

فانطلقا إلى أبي عبيدة ، فقال : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره . ففرض له كل يوم نصف شاة ، وما كساه في الرأس والبطن .

فسيدنا أبو بكر رضي الله عنه مع كونه كان خليفة أراد أن يذهب إلى السوق يتجر في الثياب لعلمه أنه لا بد للإنسان من عمل يعمله ليكسب منه قوت يومه .

فضرب لنا بذلك مثلاً حسناً في السعي على طلب الرزق ، وألَّا يكون الإنسان عالة على الناس .

رأفته برعيته

كان عمر بن الخطاب يتعهد عجوزاً ، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت ؛ فجاءها غير مرة كيلا يسبق إليها فرصده عمر ، فإذا هو أبو بكر الصديق الذي يجيئها (وهو يومئذ خليفة) فقال عمر : أنتَ هو لعمري .

هكذا التسابق إلى الفضيلة ، والتسارع إلى الخيرات ، وهذا منتهى الرأفة ، وغاية التواضع .

زهده وورعه

يحكى أن أبا بكر رضي الله عنه أتاه غلام ليلة بطعام فتناول منه لقمة ، فقال له الغلام : مالك منت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ فقال : حملني على ذلك الجوع ، مِن أين جئت بهذا ؟ قال الغلام : مَررت بقوم فرقيت لهم ، فوعدوني ، فلما مررت بهم وجدت عرساً لهم فأعطوني . فقال أبو بكر : أُفٍّ لَكَ ، وكدت تهلكني ؛ ثم أدخل يده في حلقه وجعل يتقيأ ، ولكن اللقمة لم تخرج . فقيل له : إنها لا تخرج إلاّ بالماء . فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها . فقيل له : يرحمك الله كل هذا من أجل اللقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلاّ مع نفسي (روحي) لأخرجتها .

أمانته على مال المسلمين

أخرج إبن أبي الدنيا عن أبي بكر بن حفص قال : قال أبو بكر لما احتضر لابنته عائشة :

يا بنية ، إنا ولينا أمر المسلمين ، فلم نأخذ ديناراً ولا درهماً ، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وأنه لم يبق عندنا من فيء

المسلمين قليل ولا كثير إلاّ هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضح ، وجرد هذه القطيفة ، فإذا مت فإبعثي بهن إلى عمر .

وأخرج الطبراني في مسنده عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال :

لما احتضر أبو بكر قال : يا عائشة أنظري اللقحة (الناقة الغزيرة اللبن) التي كنا نشرب من لبنها ، والجفنة (القصعة) التي كنا نصطنع فيها ، والقطيفة التي كنا نلبسها ، فإنا كنا تقنع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين ، فإذا مت فردّيه إلى عمر .

فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر فقال عمر : رحمك الله يا أبا بكر لقد أتعبت من جاء بعدك .

كرمه ومساواته بين الناس في العطاء

كان لأبي بكر بيت مال ليس يحرسه أحد فقيل له : ألا تجعل عليه من يحرسه ؟ قال : عليه قفل . فكان يعطي ما فيه حتى يفرغ .

فلما انتقل إلى المدينة حوَّله فجعله في داره ، فقدم عليه مال فكان يقسمه على فقراء الناس ، فيسوي بين الناس في القسم .

وكان يشتري الإبل والخيل والسلاح فيجعله في سبيل الله .

واشترى قطائف أتى بها من البادية ففرقها على أرامل المدينة .

فلما توفي أبو بكر ودفن ، دعا عمر الأمناء ودخل بهم في بيت مال أبي بكر ، منهم عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان . ففتحوا بيت المال ، فلم يجدوا فيه شيئاً لا ديناراً ولا درهماً .

إنفاق ماله على رسول الله ﷺ وأنه أجود الصحابة

أخرج أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر ، فبكى أبو بكر وقال : هل أنا ومالي إلاّ لك يا رسول الله ؟

وأخرج إبن عساكر عن عائشة رضي الله عنها وعروة بن الزبير : أن أبا بكر رضي الله عنه أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار (وفي لفظ أربعون ألف درهم) فأنفقها على رسول الله ﷺ .

وأخرج أبو سعيد بن الأعرابي عن إبن عمر رضي الله عنهما قال : أسلم أبو بكر رضي الله عنه يوم أسلم وفي منزله أربعون

ألف درهم فخرج إلى المدينة في الهجرة وماله خمسة آلاف كل ذلك ينفقه في الرقاب والعون على الإسلام .

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما لأحد عندنا يد إلاَّ وقد كافأناه ، إلاَّ أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر .

وأخرج إبن عساكر عن إبن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :

« ما أحد عندي أعظم يداً من أبي بكر ، واساني بنفسه وماله ، وأنكحني ابنته » .

وأخرج أبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي ، قلت : اليومَ أسبق أبا بكر ـ إن سبقته يوماً ـ فجئت بنصف مالي .

فقال رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟

قلت : مثله ؛ وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال :

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

فقلت : لا أسبقه في شيء أبداً .

نبذ من كلامه وحكمه

من كلامه رضي الله تعالى عنه كما جاء في طبقات الشعراني : أكيس الكيس التقوى ، وأحمق الحمق الفجور ، وأصدق الصدق الأمانة ، وأكذب الكذب الخيانة .

وكان يقول رضي الله تعالى عنه : إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلاَّ بما صلح به أوله ، ولا يحتمله إلاّ أفضلكم مقدرة ، وأملككم لنفسه .

وكان يقول : إن العبد إذا دخله العجب بشيء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة .

وكان يقول : يا معشر المسلمين استحيوا من الله ، فوالذي نفسي بيده إني لأظل ، حين أذهب إلى الغائط في الفضاء ، متقنعاً استحياءً من ربي عزَّ وجل .

وكان يقول : ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل .

وكان يأخذ طرف لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

وكان إذا سقط خُطام ناقته ينيخها ويأخذه فيقال له : هلاّ أمرتنا ؟ فيقول : إن رسول الله ﷺ أمرني ألاَّ أسأل الناس شيئاً .

وكان إذا أكل رضي الله تعالى عنه طعاماً فيه شبهة ، ثم علم به استقاءه من بطنه ، ويقول : الّهم لا تؤاحذني بما شربته العروق وخالط الأمعاء .

وكان رضي الله عنه إذا مُدح قال : اللّهم أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللّهم اجعلني خيراً مما يحسبون ، وأغفرلي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون .

إن الله قرن وعده بوعيده ، ليست مع العزاء مصيبة ، الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله ، ثلاث من كن فيه كن عليه : البغي ، والنكث ، والمكر ، ذل قوم أسندوا أمرهم إلى أمرأة ، إحرص على الموت توهب لك الحياة (قاله لخالد بن الوليد حين بعثه إلى أهل الردة) .

كثير القول ينسى بعضه بعضاً ، وإنما لك ما وعي عنك .

لا تكتم المستشار خبراً فتؤتي من قبل نفسك .

خير الخصلتين لك أبغضهما إليك ، صنائع المعروف تقي مصارع السوء .

شذرات من خطب أبي بكر

خطبة أبي بكر يوم وفاة النبي عليه الصلاة والسلام

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، واختبط الناس ،

فأصبحوا بين مصدق ومكذب ، جاء أبو بكر من السُّنح ، ودخل على رسول الله ﷺ ، وتكلم بكلام مؤثر ، ثم خرج وخطب الناس فقال :

« أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ؛ ثم قال :

أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ؛ ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، وأن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً ، وأن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومَن فرق بينهما أنكر ؛ ثم قال :

يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ولا يفتننكم عن دينكم ، فعاجلوه بالذي تعجزونه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم .

جظذخطبة أبي بكر بعد أن ولى الخلافة

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أما بعد فإني قد وليت أمركم ، ولست بخيركم ؛ ولكنه نزل القرآن . وسنَّ النبي ﷺ السنن ، وعلمنا فعلمنا .

فاعلموا أيها الناس ، أن أكيس الكيس التُقى ، وأن أحمق الحمق الفجور ، وأن قواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق .

أيها الناس إنما أنا متبع ، ولست بمبتدع ، فإذا أحسنت فأعينوني ، وإن أنا زغت فقوموني . أقول قولي هذا وأستغفر الله ولي ولكم .

خطبة أخرى

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان ، ورحمنا بنبيه ﷺ ، فهدانا به من الضلالة ، وجمعنا به من الشتات ، وألف بين قلوبنا ، ونصرنا على عدونا ، ومكن لنا في البلاد ، وجعلنا به إخواناً متحابين ، فاحمدوا الله على هذه النعمة ، وأسألوه المزيد فيها والشكر عليها ، فإن الله قد صدفكم الوعد بالنصر على من خالفكم ؛ وإياكم والعمل بالمعاصي وكفر النعمة ، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلاّ سلبوا عزهم ، وسلط عليهم عدوهم .

أيها الناس : إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة وجمع كلمتها ، وأظهر فلجها (فوزها) ونصرها وشرفها ، فاحمدوه عباد الله على نعمته ، واشكروه على آلائه جعلنا الله وإياكم من الشاكرين .

وخطبة أيضاً

عباد الله ، اعلموا أن الله قد إرتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مَواثيقكم ، وعوضكم بالقليل الفاني الكثير الباقي .

وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ، ولا يُطفأ نوره ، فثقوا بقوله ، وانتصحوا بكتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة ، فإنه خلقكم لعبادته ، ووكل بكم الكرام الكاتبين ، يعلمون ما تفعلون .

وخطب الناس يوماً خطبة قال فيها :

ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصمها فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً ، أوصيكم بتقوى الله ، والاعتصام بأمر الله ، الذي شرع لكم وهداكم به ، فإن جوامع هدَى الإسلام بعد كلمة الاخلاص ، السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم ، فإن من يطع الله وأولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفلح ، وأدى الذي عليه من الحق ، وإياكم واتباع الهوى ، فقد أفلح من حُفظ من الهوى ، والطمع والغضب ، وإياكم والفخر ، وما فخر من خلق من تراب ثم إلى التراب يعود ، ثم يأكله الدود ، ثم هو اليوم حيٌّ ، وغداً يموت .

وصـــاياه

وصية أبي بكر باستخلافه عمر بن الخطاب

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كتب أبو بكر رضي الله عنه وصية قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، ويتقي الفاجر ، ويصدق الكاذب .

إني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل ، فذلك ظني به ورجائي فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ؛ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عهد ووصية أبي بكر لسيدنا عمر قبل وفاته

إني مستخلفك من بعدي ، وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة ؛ فإنما ثقلت موازين من

ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلاَّ الحق أن يكون ثقيلاً ، إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً .

إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إني أخاف ألاَّ أكون من هؤلاء .

وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ، ولم يـذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إني لأرجو ألاَّ أكون من هؤلاء .

وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ، ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يلقى بيده إلى التهلكة .

فإذا حفظت وصيتي ، فلا يكن غائب أحب إليك من الموت ، وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتي ، فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله .

ولما خرج عمر من عند أبي بكر رفع يديه وقال :

اللَّهم إني لم أرد بذلك إلاّ صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، +ء -ءء إ إ+ -ء ، واجتهدت لهم رأياً ، فوليت عليهم

خيرهم وأقواهم عليهم ، وأحرصهم على إرشادهم ، وقد حضرني من أمرك ما حضر ، فأخلفني فيهم ، فهم عبادك ونواصيهم بيدك ، أصلح اللَّهم ولاتهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، وأصلح له رعيته .

وصية سيدنا أبا بكر لبعض رؤساء الجند

عليك بتقوى الله ، فإنه يرى من باطنك ، مثل الذي يرى من ظاهرك ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم ، وأبدأهم بالخير ، وعدهم إياه ، وإذا وَعظتهم فأوجز ، فإن الكلام ينسى بعضه بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وإذا استشرت فأصدق الحديث ، تصدق لك المشورة ، وجالس أهل الصدق والوفاء .

مرضـــه

قيل : إن أبا بكر رضي الله عنه أصيب بالحمى لسبع خلون من جمادي الآخرة سنة ثلاثة عشرة من الهجرة ، ومرض خمسة عشر يوماً لا يخرج فيها إلى الصلاة ، وكان عمر يصلي بالناس .

ولما اشتد عليه المرض جمع الصحابة واستشارهم في أن

يكون سيدنا عمر بن الخطاب خليفة من بعده ، فتمت كلمتهم عليه ، فعهد له بذلك ، وأوصاه بالمسلمين خيراً ، وكتاب عهده لعمر سبق ذكره .

وفـــاته

لما ثقل المرض على أبي بكر رضي الله عنه أوصى عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله ﷺ ، وأشار إلى ثوبيه فقال : أغسلوهما وكفنوني فيهما ، فإن الحيّ أحوج إلى الجديد من الميت .

وأوصى أن تغسله أمرأته (أسماء بنت عميس) ويُعينها إبنه عبد الرحمن وكتب وصية بخمس ماله ، وقال : آخذ من مالي ما أخذ الله من فيء المسلمين ، ونزل لبيت المال في ذلك عن حائط بستان كان له ؛ وكان له من الفيء عبد يخدمه ، وبعير يستقي عليه ، وقطيفة ، فأوصى بردها إلى بيت المال ، فقبلها عمر .

وروى الطبري : أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال : أنظروا كم أنفقت منذ وليت بيت المال ؟ فأقضوه عني . فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته .

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال :

أي يوم هذا ؟ قالوا : يوم الاثنين . قال : فإن مُت من ليلتي فلا تنتظروا بي الغذ ، فإن أحب الأيام والليالي إليّ أقربها من رسول الله ﷺ .

وتوفي أبو بكر من ليلته تلك ، وهي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

وقيل : إن سبب موته تحرك سم الحية التي لدغته في الغار (ذكره إبن الأثير) وله من العمر ثلاث وستون سنة .

وآخر ما تكلم به أبو بكر : « رب توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » .

وكان نقش خاتمه (نعم القادر الله) .

وقد غسّلته أمرأته (أسماء) كما أوصى ، وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر ، وكبر أربعاً ، ودفن ليلاً إلى جنب رسول الله ﷺ ، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة وإبنه عبد الرحمن ، وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ .

ولما توفي أبو بكر رضي الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء ، ودهش القوم كيوم موت رسول الله ﷺ .

ودخل عليه عمر فقال : يا خليفة رسول الله ، لقد كلفت القوم بعدك تعباً ، ووليتهم نصباً ، فهيهات من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك ؟

تأبينه

خطبة علي في تأبين أبي بكر

لما قبض أبو بكر رضي الله عنه جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه باكياً ، مسرعاً مسترجعاً ، حتى وقف بالباب ، وهو يقول :

رحمك الله يا أبا بكر ، كنت والله أول القوم إسلاماً ، وأخلقهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأعظمهم غنىً ، وأحفظهم على رسول الله ﷺ ، وأحدبهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلاً ، وهَدياً وصَمتاً ؛ فجزاك الله عن الإسلام ، وعن رسول الله ، وعن المسلمين خيراً .

صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا ، وسمّاك الله في كتابه (صديقاً) فقال : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يريد محمداً ، ويريدك .

كنت والله للإسلام حِصناً ، وللكافرين ناكباً ، لم تضلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف .

كنت كما قال رسول الله ﷺ : ضعيفاً في بدنك ، قويّاً في دينك ، متواضعاً في نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلاً في الأرض ، كبيراً عند المؤمنين .

ولم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ، فالضعيف عندك قوي ، والقوي عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوي ، وتأخذ للضعيف ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك .

خطبة ابنته عائشة في تأبينه

نضر الله يا أبتِ وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنتَ للدنيا مذلاًّ بأدبارك عنها ، وللآخرة معزًّا بإقبالك عليها ، ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ رزؤك ، وأكبر الأحداث بعده فقدك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا منتجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك ، فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك .

أولاده

أولاد أبي بكر هم : عبد الله . الذي خرج بالطائف ، وتوفي أول خلافة أبيه ، وأسماء زوجة الزبير بن العوام . وأمهما قتيلة من بني عامر إبن لؤى . وعبد الرحمن . وعائشة

(أمهما أم رومان بنت الحرث من بني فراس بن غنم بن كنانة) . ومحمد (أمه أسماء بنت عميس) وأم كلثوم أمها بنت زيد بن خارجة من الأنصار ، وهي ولدت بعد وفاته رضي الله عنه .

أحاديث الرسول ﷺ

وأقوال الصحابة والسلف الصالح في محاسن وفضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه

● روى عن إبن عمر رضي الله عنهما قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله فقال : هكذا نبعث يوم القيامة . وقال ﷺ : إن الله تبارك وتعالى أيدني من أهل السماء بجبريل وميكائيل ، ومن أهل الأرض بأبي بكر وعمر . ورآهما مقبلين فقال : (هذان السمع والبصر) أي ان الرسول جعلهما مكان السمع والبصر ، وهذا دليل كاف على حب رسول الله لهما .

● وروي عن إبن عمر رضي الله عنهما قال : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم .

● وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : أمر رسول الله ﷺ بالصدقة ، ووافق ذلك مالاً عندي ، فقلت : اليوم أسبق أبا

بكر إن سبقته ، فجئته بنصف ماله ، فقال رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : النصف ، وجاء أبو بكر بكل ماله فقال له النبي ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : الله حقاً ورسوله . فقلت : والله لا أسبقك إلى شيء أبداً .

● وعن عمر رضي الله عنه أنه قال : وددت أني شعرة في صدر أبي بكر رضي الله عنه ـ وقال عمر : أبو بكر سيدنا .

● وعن عطاء عن أبي الدرداء : أنه مشي بين يدي أبي بكر رضي الله عنه ، فقال له رسول الله ﷺ : أتمشي بين يدي من هو خير منك ؟ ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمراسلين على أحد أفضل من أبي بكر .

● وعن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه قال : قال النبي ﷺ : يا علي ، هل تحب الشيخين ؟ قلت : نعم يا رسول الله لا يجتمع حبك وحبهما إلاّ في قلب مؤمن .

● وعن أبي أمامة الباهلي قال : قال رسول الله ﷺ : رحم الله أبا بكر ، زوجني إبنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله .

● وعن أنس ، عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قلت للنبي ﷺ ، ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر في قدميه لأبصرنا . فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله عز وجل ثالثهما ؟

● وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه ، وهو عاصب رأسه ، حتى صعد المنبر فقال : إني قائم الساعة على الحوض ، وإن عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة ، فلم يفطن لها أحد إلّا أبو بكر رضي الله عنه فقال : بأبي أنت وأمي ؛ بل نفديك بآبائنا وأبنائنا وأنفسنا وأموالنا وبكى . فقال : لا تبك يا أبا بكر ، إن من أمّن الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من الناس لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخي في الإسلام ، لا يبقى في المسجد باب إلّا سد إلّا باب أبي بكر . فبكى أبو بكر وقال : أنا ومالي لك يا رسول الله .

● أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أصبح منكم صائماً ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر : أنا . قال : فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ قال أبو بكر : أنا ، قال : فمن عاد اليوم منكم مريضاً ط قال أبو بكر : أنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما اجتمعن في أمرىء إلّا دخل الجنة .

● وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : يجيء يوم القيامة رجل إلى باب الجنة ليس منها باب إلّا وعليه ملك يهتف

به : هلمَّ هلمَّ أدخل . فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن هذا لسعيد . قال : هو إبن أبي قحافة أي أبو بكر .

● وعن سليمان بن يسار ، أن رسول الله ﷺ قال : في المؤمن ثلاثمائة وستون خصلة من الخير ، إذا جاء بواحدة دخل الجنة . قال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي أفيّ منها شيء ؟ قال : هي كلها فيك يا أبا بكر .

● وعن إبن عمر رضي الله عنه ، قال : بينا النبي ﷺ جالس ، وعنده أبو بكر رضي الله عنه وعليه عباءة قد خلّلها في صدره بخلال إذ نزل عليه جبريل ، عليه السلام فقال : يا رسول الله مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّلها في صدره بخلال ؟ قال : أنفق ماله عليّ قبل الفتح . قال : فأقرئه من الله عز وجل السلام ، وقل له : يقول لك ربك تبارك وتعالى : أراض أنت عني في فقرك أم ساخط ؟ فقال أبو بكر : أعلى ربي أغضب ؟ . أنا على ربي راض . أنا على ربي راض . أنا على ربي راض .

● وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ طلع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقال عليه الصلاة والسلام : هذان سيداً كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ممن مضى وممن بقي إلّا النبيين والمرسلين لا تخبرهما يا علي . قال : فما أخبرتهما حتى ماتا .

● وعن جابر قال : كنت مع رسول الله ﷺ فسمعته يقول : يطلع علينا من هذا الفج رجل من أهل الجنة . فطلع أبو بكر رضي الله عنه ؛ ثم قال : يطلع علينا من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، فطلع عمر رضي الله عنه . ثم قال : يطلع علينا من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، اللّهم اجعله علياً ، فطلع علي رضي الله عنه .

● وعن إبن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ما أحسن هذه الآية ! قال : أيتها ؟ قال : قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَٱدْخُلِي فِي عِبَادِي وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ الفجر .

فقال : يا أبا بكر إن الملك سيقولها لك .

● قيل : إنه لما أسلم أبو أبي بكر (أبو قحافة) لم يعلم أبو بكر رضي الله عنه بإسلامه حتى دخل على النبي ﷺ فقال : ألا أبشرك يا أبا بكر بما يسرك ؟ قال : مثلك يا رسول الله مَن يبشر بالخير ؛ فما هي ؟ قال : أسلم أبو قحافة . قال : يا رسول الله لو بشرتني بإسلام أبي طالب كان أقر لعيني فإنه أقر لعينك .

فبكى رسول الله ﷺ حتى علا بكاؤه أسفاً على ما فاته من إسلام أبي طالب وقال : رحمك الله يا أبا بكر (قالها ثلاثاً) .

● أخرج إبن عساكر عن الشعبي قال : خصَّ الله تبارك وتعالى أبا بكر بأربع خصال لم يخص بها أحد من الناس : سمّاه الصديق ولم يسم أحد الصديق غيره ، وهو صاحب الغار مع رسول الله ﷺ ، ورفيقه في الهجرة ، وأمره رسول الله ﷺ بالصلاة والمسلمون شهود .

● وأخرج الحاكم عن إبنِ المسيب قال : كان أبو بكر من النبي ﷺ مكان الوزير ، فكان يشاوره في جميع أموره ، وكان ثانيه في الإسلام ، وثانيه في الغار ، وثانيه في العريش يوم بدر ، وثانيه في القبر ، ولم يكن رسول الله ﷺ يقدم عليه أحداً .

● وأخرج الطبراني عن سهل رضي الله عنه قال : لما قدم النبي ﷺ من حجة الوداع صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ان أبا بكر يسؤ ني قط فاعرفوا ذلك ، أيها الناس إني راض عنه وعن عمر » .

كلمة عامة

في أبي بكر الصديق رضي الله عنه

كان إماماً تقياً ، وحاكماً سياسياً ، وقائداً قوياً ، وقاضياً عادلاً ومصلحاً ، ورحيماً ، وكريماً وعفيفاً ، وأميناً ، ومتواضعاً ، ومتحلياً بمكارم الأخلاق .

وأما زهده ، وعفته ، وأمانته ، فحدث عنها ولا حرج ، فقد كان متعففاً عن أموال المسلمين ، لا يتناول منها إلاّ ما هو ضروري له ، حتى أنه مات ولم يترك إلاّ عبداً وبعيراً وقطيفة ، وأوصى بردها لبيت مال المسلمين ، فقبلها عمر .

وأما كرمه ، وجوده ، فكان رضي الله عنه خيراً جواداً ، يعتق العبيد الذين كانوا يدخلون في الإسلام ، ويعذبون في سبيل الله ، وحسبك أنه قد اشترى بلالاً ثم أعتقه ، فقال فيه عمر :

(إن أبا بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا) .

وكان واسع الإدراك ، بعيد النظر ، ثاقب الفكر ، سديد الرأي ، راجح العقل .

وقد وضع رضي الله عنه أساسات مهمة في القضاء والحكم بين الناس بالعدل حيث وضع :

أولاً ـ حق الشعب في إنتقاد الحاكم إذا أخطأ ، كما جاء في خطبته يوم مبايعته وتوليته الخلافة ، حيث قال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني .

ثانياً ـ أساس وجوب النصيحة للحاكم وتحريم الغش .

ثالثاً ـ أساس الإخاء ، والمساواة التامة بين طبقات الأمة ، في نظر الحاكم ، لا فرق بين قوي وضعيف ، وغني وفقير ، وأمير وحقير ، وذلك قوله :

إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق .

رابعاً ـ أساس طاعة الحاكم فيما هو حق وعدل قط ، حيث قال ضمن خطبته :

إن من يطع الله ورسوله ، وأولى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فقد أفلح ، وأدى الذي عليه من الحق .

وبالجملة ، فحياته رضي الله عنه سلسلة فضائل ، وجليل أعمال ، بل كمال في كمال ، رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير تف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

عمر بن الخطاب

ثاني الخلفاء الراشدين

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

عُمر بن الخطاب

الناشر: دَار الفكر اللبناني
تلفون: ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس: ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



عمر بن الخطاب رضي الله عنه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤى إبن غالب بن فهر العدوي القرشي ، ويجتمع مع رسول الله ﷺ في كعب ، فهو من أشراف مكة ، وعظماء قريش ، وأمه حنتمة بنت هاشم . بن المغيرة . بن عبد الله . بن عمر . بن مخزوم ، وهي أخت أبي جهل ، وبنت عم خالد بن الوليد .

وُلد رضي الله عنه في السنة الثالثة عشرة من ميلاد رسول الله ﷺ بمكة .

لم يزل اسمه في الجاهلية والاسلام عُمر وكنّاه المصطفى عليه الصلاة والسلام بأبي حفص وهو ولد الأسد ، وكان يوم بدر ذكره إبن اسحق وسمّاه رسول الله ﷺ بالفاروق يوم أسلم في دار الأرقم ، وبه تم المسلمون أربعين ، فخرجوا وأظهروا الإسلام ، ففرق الله بعمر الحق من الباطل ، ولذا لقب بالفاروق .

نشأتــه

كان رضي الله عنه في صغره يرعى الغنم لأبيه ، فقد روى إبن عساكر عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال : كنت مع عمر بن الخطاب بضفيان فقال :

كنت أرعى للخطاب بهذا المكان ، فكان فظّاً غليظاً ، فكنت أرعى أحياناً ، وأحتطب أحياناً ، فأصبحت أضرب الناس ، ليس فوقي أحد إلاّ رب العالمين .

ولما كبر عمر اشتغل بالتجارة فكان يتاجر بماله أحياناً إلى الشام .

وقد نشأ على الشهامة ، والنجدة ، والحمية ، وسداد الرأي ، وكان مسموع الكلمة في قومه ، وكـان مشهوراً بالشدة ، عزيز الجانب ، وله مكانة عظمى مع أنه لم يكن ذا مال ولا غنىً ، هكذا كان حال هذا الرجل العظيم في جاهليته ، وسنرى كيف كان حاله في الإسلام ؟ وإلى أية درجة بلغ به علو الهمة ، ومضاء العزيمة ، والرأي ، والإخلاص في محبة الرسول الأكرم ، وخدمة الدين القويم ؟

إسلامه

كان المسلمون قبيل إسلام عمر بن الخطاب يجتمعون في دار الأرقم إبن أبي الأرقم المخزومي في أصل الصفا مستخفين

لقلتهم وشدة قريش عليهم ، وكانوا في حاجة إلى الاستكثار من ذوي العصبية والجرأة ، وكان ممن عرف من قريش بنفوذ الكلمة ،البطش ، وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل .

وكان النبي ﷺ يتوقع خيراً للمسلمين بإسلام أحد هذين الرجلين ، لهذا قال :

« اللّهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام » يعني أبا جهل ، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه ﷺ بأحب الرجلين إليه ، وهو عمر بن الخطاب ، فأسلم في ذي الحجة لمضي ست سنين من البعثة ، وبعد إسلام تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين أمرأة ، وقيل بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة أمرأة ، وكان له من العمر ست وعشرون سنة .

فكان أشد الناس دفاعاً عن الإسلام ، كالحصن الحصين ، بعد أن كان من أكبر المعارضين له ، وأشدهم إيذاءً وبأساً على المسلمين ، يحرض عليهم بالأذى والضرر ، ويمنع الناس من الدخول في الإسلام لما توهمه من الخطر على شرفه ومكانته .

وأما سبب إسلامه فقد جاءت فيه روايات كثيرة ، ومنها ما أخرجه الحافظ عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم أنه قال :

قال لنا عمر بن الخطاب : أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي ؟ قلنا : نعم .

قال : كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ ، فبينا أنا يوماً في يوم حار شديد الحرِّ بالهاجرة في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل من قريش فقال : أين تذهب يا إبن الخطاب ؟ أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك .

قال : قلت وما ذاك ؟ قال : أختك قد صبأت أي خرجت من دينها .

قال : فرجعت مغضباً ، وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ، ويصيبان في طعامه ، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين . قال : فجئت حتى قرعت الباب فقيل : من هذا ؟ قلت : إبن الخطاب .

قال : وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن في صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا ، وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم .

قال : فقامت المرأة ففتحت لي ، فقلت : يا عدوَّة نفسها قد بلغني أنك صبأت (خرجت من دينك) .

قال : فأرفع شيئاً في يدي فأضربها به . قال : فسال الدم .

فلما رأت المرأة الدم بكت ، ثم قالت : يا إبن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل ، لقد أسلمت .

قال : فدخلت وأنا مغضب ، فجلست على السرير فنظرت ، فإذا بكتاب في ناحية البيت .

فقلت : ما هذا الكتاب ؟ أعطينه .

فقالت : لا أعطيك ، لستَ من أهله ، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر ، وهذا لا يمسه إلاّ المطهرون .

قال : فلم أزل بها حتى أعطتنيه ، فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم » فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ، ورميت بالصحيفة من يدي .

قال : ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها : ﴿ سَبَّحَ اللهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الحديد .

قال : فكلما مررت بإسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ، ثم ترجع نفسي حتى بلغت : ﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مسْتَخْلفِينَ فِيهِ ﴾ حتى بلغت إلى قوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال : فقلت : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني ، وحمدوا الله عزّ وجل ، ثم قالوا : يا بنِ الخطاب أبشر ، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال « اللّهم أعز الإسلام بأحد الرجلين إما عمرو إبن هشام وإما عمر بن الخطاب » .

وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك ، فأبشر .

قال : فلما عرفوا مني الصدق ، وقلت لهم : أخبروني بمكان رسول الله ﷺ .

فقالوا : هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه .

قال : فخرجت حتى قرعت الباب ، قيل : من هذا ؟ قلت : إبن الخطاب .

قال : وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ ، ولم يعلموا بإسلامي .

قال : فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب .

قال : فقال رسول الله ﷺ : افتحوا له فإنه إن يرد الله به خيراً يهده .

قال : ففتحوا لي ، وأخذ رجلان بعضدي ، حتى دنوت من رسول الله ﷺ .

فقال : أرسلوه ، فأرسلوني ، فجلست بين يديه ، فأخذ

بمجمع قميصي فجذبني إليه ثم قال : أسلم يا إبن الخطاب ، اللّهم إهده .

قال : قلت : أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأنك رسول الله .

فكبّر المسلمون تكبيرة سُمعت بطرق مكة .

بعد إسلامه

لما منَّ الله عليه بالإسلام ، وشرح صدره في السنة السادسة من الرسالة ، صار من أشد أعوانه ، وأقوى أنصاره ، وجاء في كتب الشريعة أنه لما أسلم نزل جبريل وقال : يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر .

وبعد أن كان المسلمون يعبدون ربَّهم خُفيةً أشار عمر على النبي ﷺ بإظهار الدين ، وعدم الاختفاء والتستر ، فخرج ﷺ ومعه المسلمون صفين ، يَؤُم أحدهما سيدنا عمر ، والثاني سيدنا حمزة عم الرسول ﷺ ، مهللين مكبرين ، داعين للدين ، جاهرين بالصلاة ، بعد أن كانت لا تفعل إلاّ سراً .

فببركة دعائه عليه الصلاة والسلام كان عمر من أكبر أسباب معزة الإسلام في الفتح والنصر والأمان والهجرة ، حتى قال عبد الله بن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وكان شجاعاً مهيباً هابته العرب والعجم ، حتى أنه لما أراد

الهجرة إلى المدينة لم يخرج خفية كغيره ؛ بل تقلّد سيفه ، وجاء إلى الكعبة ، وحولها صناديد مكة ، فدخلها وطاف ، وصلى ركعتين . وقريش مجتمعة ثم خرج عليهم صائحاً بقوله : إني مهاجر ، فمن أراد منكم أن تثكله (تفقده) أمه ، ويَتيتم ولدُه ، وتترمل أمرأته ، فليلقني وراء هذا الوادي ؟ وتركهم وذهب ، فلم يجسر أحد على أن يلقاه .

إخلاصه

وكان عمر من أشد المسلمين إخلاصاً للرسول ﷺ وأحرصهم على نشر الإسلام ، لازم النبي ﷺ في جميع غزواته ، وله فيها مواقف مشهورة مشهودة ، وكان من أقوى الناس جهاداً في سبيل الله ، وصبراً على المشاق ، شديد الحرص على حماية الدين ، وحقوق الخلافة والمسلمين ، وفي أقصى درجات العدالة ، والسياسة ، والفراسة ، حتى أن عمرو بن العاص لما أراد فتح برزخ السويس (القنال) واستأذنه منعه وقال : أخشى أن الفرنج يكثرون بالمشرق وبلاد المغرب ، فوقع ما تنبأ به مما هو حاصل الآن .

مبايعته

لما مات أبو بكر ولى الخلافة بعده بعهد منه وبويع له بالخلافة لثمان بقين من جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة من

الهجرة ، فقام بأمورها ، ووطد دعائم الإسلام في جزيرة العرب كلها . ولما بويع بالخلافة صعد المنبر وقال :

إنما مثل العرب ، مثل جمل آنف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده أين يقوده ؟ أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق .

أول أعماله

أول عمل عمله في خلافته ثلاثة أمور :

١ ـ انتداب الناس مع أبي عبيد الثقفي لحرب الفرس .

٢ ـ عزل خالد بن الوليد وتوسيد الإمارة العامة في الشام إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح .

٣ ـ بعث يَعليَ بن أمية لإجلاء أهل نجران فأجلى النجرانيين النصارى منهم واليهود ، فتفرقوا بعضهم في الشام ، وبعض النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت .

فتوحاته

في عهده رضي الله عنه فتح المسلمون ممالك الفرس والروم ، واستولى على كثير من ولايتهم كالعراق وفارس والشام ومصر .

ولما أتم عمرو بن العاص فتح بلاد مصر ، ولاّه سيدنا عُمر

حاكماً عليها ، فأخذ في إصلاح شؤونها ورفع المظالم المفروضة على الأهالي من الروم ، وبنى مدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) واتخذها مقراً لحكومته ، وشيد بها جامعه المشهور (بجامع عمرو) الذي هو أول مسجد للإسلام بمصر ، وحفر خليجاً يوصل النيل بالبحر وسماه خليج أمير المؤمنين .

وبذلك زالت دولة الروم عن مصر ، كما زالت عن الشام .

أولياتـــه

قال العسكري : هو أول من سمي أمير المؤمنين ، وأول من كتب التاريخ من الهجرة ، وأول من اتخذ بيت المال ، وأول من سن قيام شهر رمضان ، وأول من عسَّ بالليل ، وأول من عاقب على الهجاء ، وأول من ضرب في الخمر ثمانين ، وأول من حرم المتعة ، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد ، وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز على أربع تكبيرات ، وأول من اتخذ الديوان ، وأول من فتح الفتوح ومسح السواد ، وأول من حمل الطعام من مصر في بحر إيلة إلى المدينة ، وأول من احتبس صدقة في الإسلام ، وأول من أعال الفرائض ، وأول من أخذ زكاة الخيل ، وأول من قال : أطال الله بقاءك (قاله لعلي) وأول من قال : أيدك الله (قاله لعلي) هذا آخر ما ذكره العسكري .

وقال النووي في تهذيبه : هو أول من اتخذ الدِّرة ، وكذا ذكره إبن سعد في الطبقات .

قال : ولقد قيل بعده : لدِّرة عمر أهيب من سيفكم .

قال : وهو أول من استقصى القضاة في الأمصار ، وأول من مصر الأمصار ، الكوفة، والبصرة ، والجزيرة ، والشام ، ومصر ، والموصل .

وقيل : هو أول من كتب التاريخ ، وأول من أشار على أبي بكر يجمع القرآن في المصحف الشريف ، وأول من أنشأ الدفاتر لحصر الغزاة والغنائم وتقسيمها على مستحقيها ، وأول من وضع الخراج .

وكان نقش خاتمه : كفى بالموت واعظاً يا عمر .

صفاته الخُلقية

يكفي في وصفه أن معاوية بن أبي سفيان قال لصعصعة بن صوحان : صف لي عمر بن الخطاب ، فقال : كان عالماً برعيته ، عادلاً في قضيته ، عارياً من الكبر ، قبولاً للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحرياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير محاب للقريب ، ولا جاف للغريب ، أي أنه كان شديداً في الحق ، عادلاً بين المسلمين ، صغيرهم وكبيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، نشر المساواة بين الرعية من عرب

ومن عجم ، قبل أن تعرف الشعوب الأخرى معنى المساواة ، ولذا قيل : إن عمر بن الخطاب أول حاكم ديموقراطي في الإسلام . فقد كان ميالاً للاستشارة وقبول النصح ، وكان لا يستأثر بالأمر دون المسلمين ، ولا يستبد عليهم في شأن من الشؤون العامة ، فإذا نزل به أمر لا يبرمه حتى يجمع المسلمين ، ويجيل الرأي معهم فيه ويستشيرهم .

ومن مأثور قوله في ذلك : لا خير في أمر أبرم من غير شوري .

وكان مسلكه في الشورى جميلاً ، فإنه كان يستشير العامة أولاً فيسمع منهم ، ثم يجمع مشايخ أصحاب رسول الله ﷺ ، وأصحاب الرأي منهم ، ثم يفضي إليهم بالأمر ، ويسألهم أن يخلصوا فيه إلى رأي محمود ، فالذي يستقر عليه رأيهم يمضيه .

فهو يقال بحق : أنه أول واضع للنظم الدستورية .

وكان رضي الله عنه قد أخذ نفسه وأهله بحال من التقشف وخشونة العيش ، حتى ساوى البائس الفقير ، الذي إنما يعيش بما يتبلغ به مما يمسك الرمق ويدفع الجوع .

لم تدعه نفسه إلى رقيق العيش ، ونعيم الحياة الدنيا ، ولم يهتم بمكاثرة الناس في المال ، ويرى مال المسلمين مرتعاً

وبيلاً على من رعاه ، فقتر على نفسه تقتيراً جعله موضعاً للانتقاد ، واعتراض المعترضين .

وقد بلغ من شدة احتزازه من أخذ مال المسلمين ، أن عطاءه ربما قصر به عن بلوغ الكفاية من حاجاته وحاجات أهله ، فلا يسمح لنفسه بأن يطلب من المسلمين أن يفرضوا له كفايته ؟ بل كان يلجأ إلى الاقتراض من أمين بيت المال ، فإذا حلّ ميعاد الوفاء ، ولم يجد عنده ما يسد منه أخذ عطاءه وسدد منه .

وكان لا يسمح لأحد من بيته أن ينتفع بشيء ليس له فيه حق .

ومن المحقق أن الإنسان إذا كان ذا قناعة وعفة عن مال الناس زاهداً في حقوقهم ، دعاهم ذلك إلى محبته والرغبة فيه ، خصوصاً إذا كان حاكماً ، حدبوا عليه ، ومالوا إليه ، وأخلصوا في طاعته نياتهم ، وكان أكرم عليهم من أنفسهم .

صفاته الخلقية

أما صفاته الخَلقية ، فكان رضي الله عنه طويلاً ، أصلع ، أعسر ، أيسر ، يعمل بيديه كلتيهما ، وكان لطوله كأنه راكب ، شديد البياض ، تعلوه حمرة ، وكان أشيب ، يصفر لحيته ، ويرجل رأسه .

هيبته

● عن سعد بن أبي وقاص قال : استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن .

فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فدخل ورسول الله يضحك ؛ فقال له عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : عجبت من هؤلاء اللاّتي كن عندي ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب .

فقال عمر : فأنت كنتَ أحق أن يهبن .

ثم قال : أي عدوات أنفسهن ، لتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ ، قلن : أنت فظ غليظ .

فقال رسول الله ﷺ : الذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلاّ سلك فجاً غير فجك ، أي هرب منك الشيطان يا عمر (في الصحيحين) .

● ذكر إبن الجوزي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ جالساً فسمعت لغطاً وصوت صبيان ، فقام رسول الله ﷺ ، وإذا حبشية تزفن (ترقص) والصبيان حولها : فقال : يا عائشة تعالي فانظري ، فجئت فوضعت لَحْيي على

منكب رسول الله ﷺ ، فجعلت أنظر إليهم ما بين المنكب إلى رأسه فقال لي : أما شبعتِ ؟ أما شبعتِ ؟ قالت : فجعلت أقول لا : لأنظر منزلتي عنده ، إذ طلع عمر فأرفض الناس عنها (أي انفض الناس عنها) قالت : فقال رسول الله ﷺ :

اني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر .

قالت : فرجعت .

● وذكر إبن الأثير في أسد الغابة عن بريدة قال : خرج رسول الله ﷺ في بعض مغازيه (غزواته) فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت : يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردَّك الله سالماً من غزواتك أن أضرب بين يديك بالدُّف . قال : إن كنت نذرت فاضربي ، وإلاّ فلا . فجعلت تضرب ، فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل عمر وهي تضرب ، فألقت الدُّف تحتها ، وقعدت عليه .

فقال رسول الله ﷺ : إن الشيطان ليخاف منك يا عمر . إني كنت جالساً وهي تضرب ، فدخل أبو بكر وهي تضرب ، ثم دخل عليّ وهي تضرب ، ثم دخل عثمان وهي تضرب ، ثم دخلت أنت فألقت الدُّف .

مساواته بين المسلمين

● روي أن أحد أكابر الملوك وهو (جبلة بن الأيهم) عندما أراد الدخول في الإسلام أقبل إلى المدينة في خمسمائة فارس

عليهم ثياب الوشي ، وهو لابس تاجه ، وفيه قرط (مارية بنت ظالم) زوجة الحارث الأكبر الغساني ، كان فيه لؤلؤتان عجيبتـان ، ففرح أميـر المؤمنين عمر بـإسـلامـه وفـرح المسلمون ، وخرجوا لمقابلته حتى حضر موسم الحج من عامه مع عمر رضي الله عنه .

وبينما هو يطوف بالبيت الحرام إذ وطيء على إزاره (ردائه) رجل أعرابي من بني فزارة فحلة ، فلطمه جبلة على وجهه فهشم أنفه ، فذهب الأعرابي إلى سيدنا عمر ليشكو الملك .

فطلبه سيدنا عمر وقال له : ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك هذا الفزاري فهشمت أنفه ، فقال : إنه وطيء إزاري فحلة .

فقال عمر : أما أنت فقد أقررت ، إما أن ترضيه ، وإما أن يضربك مثل ما ضربته ؟ فعجب لذلك جبلة وقال : كيف يضربني وأنا ملك كبير ، وهو من السوقة ؟ فلا يصح أن يضربني كما ضربته ، وهل أستوي أنا وهو في ذلك ؟

فقال له عمر : يا جبلة لقد جمعك وإياه الإسلام . والإسلام ساوي بينكما وكل المسلمين سواء ، لا فرق بين الملك والرعية ، ولا فضل لأحد على أحد إلّا بالتقوى .

فقال جبلة : والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام ، أعز مني في الجاهلية .

قال عمر : هو كذلك .

قال جبلة : أخِّرني إلى غد يا أمير المؤمنين ؛ قال عمر : ذلك لك .

فلما جنَّ الليل خرج هو وأصحابه به فلم يثن حتى دخل القسطنطينية على (هرقل) ملك الردم ، فتنصر وأقام عنده ، ثم ندم على ذلك ، وقال أبياتاً منها :

« تَنَصَّرت الأشرافُ من عَـار لَطْمـةٍ
وما كانَ فيها لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرْ »
« تَكنَّفَنِـي مِنهَـا لَجَـاجٌ ونَـخْـوةٌ
فَبعْتُ بها العينَ الصَّحيحةَ بالعَوَر »
« فَيَـا ليتَ أُمّي لَـم تَلِدْنِـي وَلَيْـتَنـي
رَجَعتُ إلى الأمر الذي قالَهُ عُـمَـرٌ »

ولم يكن عمر يريد بعمله هذا التنفير من الإسلام ؛ وإنما كان يريد الانصاف والتسوية بين المسلمين دون محاباة .

وهكذا كان الدين الذي تخلق به عمر رضي الله عنه .

● وكان يخاف من الضعفاء كثيراً في سبيل الله ، وكان يُخيف الأقوياء في سبيل الله تعالى ، وهذا تأييد لقوله في خطبة له :

« إن أقواكم عندي الضعيف حتى أعطيه حقه ؛ وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه » .

« أيها الناس إني متبع ، وليس بمبتدع ، فإذا أحسنت فأعينوني ، وإذا زغت فقوموني » .

الوفــاء بالوعــد

عمر بن الخطاب والهُرْمُزان

لما أتى (بالهُرمزان) أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له : يا أمير المؤمنين هذا زعيم العجم ، وصاحب رئيسهم . فقال له عمر : أعرض عليك الإسلام نصحاً لك في عاجلك وآجلك .

قال يا أمير المؤمنين إنما أعتقد ما أنا عليه ، ولا أرغب في الإسلام .

فدعا له عمر بالسيف . فلما همَّ بقتله قال : يا أمير المؤمنين شربة من ماء أفضل من قتلي على ظمأ ؛ فأمر له بشربة من ماء ؛ فلما أخذها قال : أأنا آمن حتى أشربها ؟

قال عمر : نعم . فرمى بها وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج .

قال عمر : صدقت ، لك التوقف عنك ، والنظر في أمرك ،

إرفعا عنه السيف ، فلما رفع عنه قال : الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وما جاء به حق من عنده .

فقال عمر : أسلمت خير إسلام فما أخَّرك ؟ قال : كَرهت أن تظن أني أسلمت جزعاً من السيف . فقال عمر : إن لأهل فارس عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك ، ثم أمر به أن يُبَرَّ ويكرم ، وكان بعد يشاوره في توجيه الجيوش لأهل فارس .

تقشفه وعدله

● أرسل كسرى رسولاً إلى عمر بن الخطاب لينظر أحواله ، وليشاهد أفعاله ، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال : أين ملككم ؟ فقالوا : مَالنا ملك ، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة .

فخرج الرسول في طلبه ، فرآه نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار ، وقد وضع بُردته كالوسادة تحت رأسه ، والعرق يسقط من جبينه ، إلى أن بلَّ الأرض ، فلما رآه الرسول على هذه الحال ، وقع الخشوع في قلبه ، وقال : رجل تخاف جميع الملوك من هيبته تكون هذه حالته .

ثم قال عبارته المشهورة « عَدلتَ يا عمر فنِمتَ » وملكنا يجور فلا جرم أن بقي ساهراً خائفاً « أي أن سيدنا عمر يعدل

بين الناس ويسوي بينهم فأمن ونام ، ولكن ملكنا يظلم ويحب نفسه ويصرف أموال الأمة على نفسه فهو بلا شك يكون خائفاً ولا ينام مستريحاً » .

● قال العتبي : بُعث إلى عمر بحلل فقسمها ، فأصاب كل رجل ثوب ، فصعد المنبر وعليه حُلة ، والحلة ثوبان ، فقال : أيها الناس ألا تسمعون ؟

فقال سليمان : لا نسمع .

قال : ولِمَ يا أبا عبد الله ؟

قال : لأنك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حلة .

قال : لا تعجل يا أبا عبد الله .

ثم نادى : يا عبد الله ، فلم يجبه أحد .

فقال : يا عبد الله بن عمر .

قال : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : نشدتك بالله ، الثوب الذي اتَّزَرتُ به هو ثوبك ؟

قال : اللّهم نعم .

فقال سليمان رضي الله عنه : أما الآن فقل ، نسمع .

رحمته

● كان سيدنا عمر رضي الله عنه يطوف ليلة على حسب عادته ليقف على أحوال رعيته ، فرأى بيتاً من الشعر (أي خيمة) وهكذا كانت بيوت العرب .

ولم يكن رأى هذا البيت من قبل ، فقرب منه ليعرف خبره ، فسمع في داخله أنين أمرأة ، ورأى رجلاً خارجه ، فجاء إلى الرجل وسأله عن وجوده وعن أنين المرأة . فقال له : إني غريب وأمرأتي تلد داخل البيت ولا أحد عندها ، فذهب سيدنا عمر إلى منزله ، وأخبر زوجته (أم كلثوم) بنت سيدنا الامام علي بن أبي طالب ، وبنت السيدة فاطمة رضي الله عنها ، فتوجهت معه إلى البيت الذي فيه المرأة ، بعد أن أخذت ما يلزم من الدهن والملابس . وأخذ هو قدراً وشيئاً للطبخ ، فحمل القدر ، ومشت وراءه (أم كلثوم) حتى أتى إلى بيت الغريب ، فدخلت زوجته إلى المرأة لتساعدها ، وقال للرجل : أوقد ناراً ، وكان سيدنا عمر ينفخ في النار بنفسه ليشعلها ، حتى ان الدخان كان يمر من بين لحيته حتى طاب الطبيخ ، وولدت المرأة .

فقالت أم كلثوم لسيدنا عمر : بَشِّرَ صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام « تريد أن المرأة ولدت ولداً ذكراً) وكان الرجل الغريب لا يعرف أن الذي يوقد النار وينفخ فيها هو سيدنا عمر أمير

المؤمنين . فلما سمع كلمة أمير المؤمنين خاف وخجل ، وأراد أن يعتذر لسيدنا عمر . فقال له : يجب عليَّ أن أفعل ذلك بنفسي ؛ ثم قام وحمل القدر إلى باب البيت وناولها أم كلثوم ، فأطعمت المرأة حتى إذا ارتاحت خرجت أم كلثوم .

فقال سيدنا عمر للرجل : قم إلى بيتك ، وكل ما بقي في البرمة ، ثم قابلني غداً إن شاء الله تعالى .

فأكرمه سيدنا عمر ثاني يوم ، وانصرف الرجل من عنده مسروراً شاكراً .

اهتمامه برعيته

● عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : خرجت مع عمر إلى السوق فلحقته أمرأة شابة فقالت : يا أمير المؤمنين هلك زوجي (مات) وترك صبيةً صغاراً ، والله ما ينضجون كراعاً ، ولا لهم زرع ولا ضرع ، وخشيت عليهمْ الضاع ، وأنا ابنة (الغفارى) وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ ، فوقف عمر معها ولم يمض ، وقال : مرحباً مرحباً بنسب قريب .

ثم انصرف إلى بعير كان مربوطاً في الدار ، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً ، وجعل بينهما نفقة وثياباً ، ثم ناولها خطامه ، وقال لها : اقتاديه ، فلن يفني هذا حتى يأتيكم الله بخير .

فقال رجل : يا أمير المؤمنين أكثرت لها العطاء .

فقال عمر : ثكلتك أمك ، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً ، فافتتحاه في الدمشقية ، ثم أصبحنا نستفيء سهامهما فيه .

شفقتــه

● ذكر إبن الجوزي عن زيد بن أسلم عن أبيه أسلم (مولى عمر) قال :

خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى (حرة واقم) مكان بقرب المدينة ، حتى إذا كنا (بصرار) جبل ، إذ نار تتقد .

فقال : يا أسلم ، إني لأرى هاهنا ركباً قد ضربهم الليل والبرد انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا أنا بأمرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار وصبيانها يتضاغون (أي يصيحون ويتلوون) .

فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول يا أصحاب النار (فما أرق هذا الشعور ، وما أعظم هذه البلاغة) .

فقالت المرأة : وعليكم السلام . فقال أأدنو ؟ فقالت : إدن بخير أودع .

فدنا منها فقال : ما بالكم ؟ قالت ضربنا الليل والبرد .
فقال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغَون ؟ قالت : الجوع .
قال : وأي شيء في هذه القدر ؟

قالت : ما أُسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر .

قال : إي رحمك الله ، وما يدري عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمرنا ويغفل عنا .

قال : فأقبل عليّ (أي على أسلم) فقال : انطلق بنا ، فانطلقنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلاً من دقيق وكبةً من شحم ، فقال : إحمله عليّ . فقال أسلم : أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين . فقال : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أمّ لك ؟ فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها فهرول فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها : ذرّي عليّ وأنا أُحرك لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة ، فجعلت أنظر إلى الدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضج ، ثم أنزل القدر بيده وقال : أعطني شيئاً ، فأتته بقصعة أو صحفة فأفرغ الطعام فيها ، وقال لها : أطعميهم وأنا أسطح لك . فلم يزل حتى شبعوا وترك عندها فضل ذلك ، ثم قام وقاموا وهو يضحك ويحمد الله تعالى . فجعلت تقول : جزاك الله خيراً كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين . فيقول لها : قولي خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله .

ثم جعل يده على يدي وقصدنا المدينة وقال لي : يا أسلم إن الجوع عدو ، وقد رأيتهم وهم يبكون ، فأحببت أن أفارقهم وهم يضحكون .

عدلــه في رعيته

● روى أنس قال : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعداً إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك . فقال عمر : لقد عذت بمجيب ، فما شأنك ؟

قال الرجل : سابقت على فرسي إبناً لعمرو بن العاص ، وهو يومئذٍ أمير على مصر ، فجعل يقنعني بسوطه ، ويقول : أنا إبن الأكرمين فبلغ ذلك عمراً أباه ، فخشي أن آتيك فحبسني في السجن ، فانفلت منه وهذا حين أتيتك .

فكتب عمر بن الخطاب إلى عمر بن العاص : إذا أتاك كتابي هذا فأشهد الموسم أنت وولدك فلان ، وقال للمصري : أقم حتى يأتيك

فقدم عمرو بن العاص ، فشهد الحج . فلما قضى عمر رضي الله عنه الحج ، وهو قاعـد مع النـاس ، وعمرو بن العاص وإبنه إلى جانبه ، قام المصري ، فرمى إليه عمر رضي الله عنه بالدِّرة .

قال أنس : ولقد ضربه ، ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : أضرب إبن الأكرمين .

قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت .

قال عمر : ضعها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلّا بفضل سلطانه .

فقال : يا أمير المؤمنين قد ضربت الذي ضربني .

قال : أما والله لو فعلت لما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع .

ثم قال عمر رضي الله عنه : يا عمرو ، « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . فجعل يعتذر ، ويقول : إني لم أشعر بهذا .

احترامه لحقوق المرأة

● جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه يشكو إليه خلق زوجته ، فوقف ببابه ينتظرهُ ، فسمع أمرأته تستطيلٍ عليه بلسانها ، وهو ساكت لا يرد عليها ، فانصرف الرجل قائلا : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين عمر إبن الخطاب فكيف حالي .

فخرج عمر فرآه مولياً فناداه : ما حاجتك يا أخي ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، جئت أشكو إليك خلق زوجتي واستطالتها علي ، فسمعت زوجتك كذلك . فرجعت وقلت : إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي .

فقال له عمر : تحملتها لحقوق لها عليَّ فإنها طباخة لطعامي ، خبازة لخبزي ، غسالة لثيابي ، مرضعة لولدي ، وليس ذلك بواجب عليها ، وسكن قلبي بها عن الحرام ، فأنا أتحملها لذلك .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، وكذلك زوجتي .

قال عمر : فتحملها يا أخي فإنما هي مدة يسيرة .

محافظته على صحة الرعية

● عن أبي وائل قال : مرَّ عمر رضي الله عنه بعجوز تبيع لبناً معها في سوق الليل ، فقال لها : يا عجوز لا تغشي المسلمين ، وزوار بيت الله ، ولا تشوبي اللبن بالماء .

فقالت : نعم يا أمير المؤمنين .

ثم مرَّ بعد ذلك فقال : يا عجوز ألم أتقدم إليك ألاّ تشوبي لبنك بالماء .

فقالت : والله ما فعلت . فتكلمت إبنة لها من داخل الخباء ، فقالت : يا أماه أغشاً وكذباً جمعت على نفسك .

فسمعها عمر ، فهمّ بمعاقبة العجوز ، فتركها لكلام ابنتها ، ثم التفت إلى بنيه فقال لهم : أيكم يتزوج هذه البنت ؟ فلعل الله عزّ وجل أن يخرج منها نسمة طيبة مثلها .

فقال عاصم بن عمر : أنا أتزوجها يا أمير المؤمنين ، فزوجها إياه . فولدت له أم عاصم . فتزوج أم عاصم عبد العزيز بن مروان . فولدت له عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وقد ورد فيه الناقص والأشج أعدلا بني مروان ، فكان هو الأشج .

« وهو الذي قال فيه النبي ﷺ : اللّهم أعزّ الإسلام بالعمرين » .

خدمته ومساعدته للفقراء

● خرج سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سواد الليل وأخذ يدخل بيتاً ثم يخرج منه إلى غيره . فرآه سيدنا طلحة وعلم بعض البيوت التي دخلها ، فلما جاء وقت الصبح ذهب سيدنا طلحة إلى ذلك البيت الذي دخله سيدنا عمر ليلاً ، فوجد فيه عجوزاً عمياء مقعدة (أي لا تقدر على المشي) فسألها عن السبب الذي كان يأتي من أجله سيدنا عمر وقال لها : لماذا يأتي هذا الرجل إلى بيتك ؟ يريد سيدنا عمر . فقالت له : انه يسأل عني ، ويأتي بما يصلح لي من الأشياء التي

أحتاج إليها ، ثم أنه يخرج عني الأذى (أي نه كان يقضي لها مصالحها ويخدمها ويحضر إليها ما تحتاج إليه وينظف لها مسكنها) .

فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة ، أعثرات عمر تتبّع ؟

تواضعــه

● عن الفضل بن عميرة : قدم الأحنف بن قيس على عمر في وفد من العراق ، في يوم صائف (شديد الحر) وهو محتجز بعباءة ويهنأ بعيراً (أي يعالج بعيراً كان مريضاً من إبل الصدقة) فقال : يا أحنف ضع ثيابك وهلمَّ فأعِن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة ، فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة .

فقال رجل من القوم : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا ؟

قال عمر : وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف ؟ هذا أنه من ولي أمر المسلمين ، فهو عبد المسلمين ، يجب عليه لهم مثل ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة في المداراة .

فلله أي نفس طاهرة بارّة هذه النفس ؟ وأي حنان خالص من

شوائب التصنع والرياء هذا الحنان ؟ وأي خليفة عظيم بعد عمر يحمل نفسه مثل هذا العناء ، ويضع نفسه في هذه الرتبة من التواضع والرحمة ؟

● كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينه وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل : اتق الله ، فقال رجل من القوم : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟

فقال له عمر : دَعه فليقلها لي ، نعم ما قال ، لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم تقبلها .

(المناقب عن حسن رضي الله عنه) .

● ذكروا أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قدم الشام عرضت له في طريقه مخاضة ، فنزل عن بعيره وخلع نعليه ، فأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : قد صنعت صنعاً عظيماً عند أهل الأرض (يعني أهل الشام) فصك عمر في صدره وقال له :

أواه ! لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة . إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله .

حبـه للرعيـة

● أرسل سيدنا عمر إلى سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وهو من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال له : قد نزل عند باب المدينة قافلة ، وأخاف إذا ناموا أن يسرق شيء من متاعهم ، فهيَّا بنا لحراستها ، فسار معه سيدنا عبد الرحمن ؛ ولما وصلا إلى المكان الذي نزلت فيه القافلة ، قال له سيدنا عمر : نَم أنت ، وأنا أحرسها .

ثم جعل يحرس القافلة طول ليلته والناس نيام ، وعينه لا تنام عن عبادة ربه .

زهـده

● سأل سيدنا عمر رضي الله عنه بعض الصالحين فقال له : هل رأيت مني شيئاً تكرهه ولا تحبه لي ؟ فقال له : نعم سمعت أنك وضعت على مائدتك رغيفين ، وأن لك قميصين : أحدهما لليل ، والآخر للنهار .

فعدل سيدنا عمر رضي الله عنه عن ذلك ؛ لأنه علم أن ذلك تبذير وإسراف ، وهو لا يريد إلاّ الشيء الضروري ، وذلك ليوفر الأشياء للمسلمين ، ويحافظ عليها لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ الاسراء .

● ومن أمثلة زهدة رضي الله عنه ، وكفه عن شهوات الدنيا ، وكان بيده خيرها وثمراتها ، أنه بعد فتحه فارس ، كان يأتيه الذهب وهو خمس الفيء فيبكي ويقول : ان الله زوي الدنيا عن محمد ﷺ وأبي بكر ، وبذلها لي ، فأخشى أن يكون قد فعل ذلك ليهلكني ، ولكن عمر لم يهلك ، ولم تشغله هذه الأموال الهائلة المحمولة له ، فقد زهد فيها جميعاً ، وأصبح يكتفي بالكسرة والتمرة ، وبيده خـزائن الأرض .

وحكي أن سعد بن أبي وقاص بعد فتحه فارس ، وإنتهاب جواهر كسرى ، أراد أن يهدي إلى عمر جواهر من تلك التيجان ، التي كان يتعصب بها هؤلاء الملوك ، فأرسل رسولاً ببعضها ، فذهب من الكوفة إلى المدينة ، وهنا يقول : أتيت عمر فوجدته قائماً في الغروب يطعم الناس ، وبيده درته ، ويقول : ضع مرقاً هنا يا يرفأ (إسم خادمه) ضع خبزاً هنا ، حتى أكل الناس وانصرف ، فتبعته حتى دخل منزله ونادى بزوجته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب قائلاً : هلمَّ العشاء يا أم كلثوم فأخرجت له ملحاً جريشاً وخبزاً يابساً ، وعندئذ لمحني واقفاً على الباب فنظر إلي وقال : كأنك لم تشبع . فوالله لقد كان طعامكم خيراً من هذا .

فقلت له : يا أمير المؤمنين إنما أنا رسول سعد ، وقد أرسل لك جوهرتين من تاج كسرى ، وهما معي في هذا السفط

(وعاء كالقفة) وأريته سَفطاً كان معي ، فقال : حسناً ، ألقه هناك ، ثم ودعت ، وانصرفت إلى الكوفة ، فلم أكد أنيخ راحلتي بالكوفة ، حتى أدركني رسول عمر وقال : أجب أمير المؤمنين .

فرجعت ، فإذا بعمر واقفاً وبيده الدِّرة وقال : ويل أمك ماذا صنعت بي ؟ فما هو بعد أن تركتني ونمت أتى إلي ملكان فأمسكا بي وقاداني إلى السَفَطَ فإذا هو شعلة من نار ، فخذه عني وبعه ، وفرّق ثمنه على المسلمين .

● خرج عمر رضي الله عنه من المسجد (والجارود العبدي) معه فبينما هما خارجان إذا بأمرأة على ظهر الطريق فسلم عليها عمر فردت عليه السلام . ثم قالت : رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة . فقال لها : قولي :

قالت : يا عمر ، عهدي بك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الصبيان ، فلم تذهب الأيام حتى سُميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سُميت أمير المؤمنين ، فاتّق الله في الرعية ، واعلم انه من خاف الموت ، خشي الفوت . فبكي عمر رضي الله عنه .

فقال الجارود للمرأة ، قد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته .

فقال عمر : دَعها ؟ أما تعرف هذه يا جارود هذه (خولة بنت حكيم) التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها .

أراد بذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتي تُجَادِلُكَ في زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ﴾ المجادلة .

شفقته ورحمته بالرعيـــة

● كان رضي الله عنه رحيماً ، شفيقاً بالناس . دخل عليه أحد عماله فوجده مستلقياً على ظهره ، وصبيانه يلعبون حوله ، فأنكر ذلك عليه .

فقال عمر : كيف أنت مع أهلك ؟

قال : إذا دخلت سكت الناطق .

فقال له : اعتزل عملنا ، فإنك لا ترفق بأهلك وولدك ؟ فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ ؟

احترامه للشرع والحق

● لما رأى عمر رضي الله عنه الرجال يُغالون في مهور النساء ، أراد أن يجعل لها حداً ، فخطب المسلمين في المسجد مشيراً إلى ذلك .

فردت عليه أمرأة وقالت : كيف تفعل هذا ؟ وقد قال الله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ النساء .

فرجع عمر عن رأيه وقال : أصابت أمرأة ، وأخطأ عمر .

حرصه على مال المسلمين

● قال محمد بن عبيد : حدثنا سفيان بن عيينة عن إبن أبي نجيح قال :

لما أُتِي عمر بتاج كسرى وسواريه جعل يقلبه بعود كان في يده ويقول : والله ان الذي أدى إلينا هذا لأمين .

فقال رجل : يا أمير المؤمنين أنت أمين الله ، يؤدون إليك ما أديت إلى الله ، فإذا رتعت رتعوا .

قال : صدقت .

● يحكى أن زوجة سيدنا عمر رضي الله عنه (أم كلثوم) بنت الامام علي وبنت فاطمة الزهراء ، بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ، اشتهت نفسها الحلوى فقال لها : ليس لنا ما نشتري به .

فقالت : أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به .

فقال لها : إفعلي . ففعلت ذلك ، واجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير ، فلما عرفته ذلك ليشتري به الحلوى أخذه فرده إلى بيت المال . وقال : هذا يفضل من نفقتنا ، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم ، وغرمه لبيت المال من ملك كان له .

مشتراه ظلامة أمرأة بخمسة وعشرين ديناراً

● قيل : لما رجع عمر رضي الله عنه من الشام إلى المدينة ، انفرد عن الناس ليتعرف أخبار رعيته ، فمرّ بعجوز في خِباء لها ، فقصدها فقالت :

ما فعل عمر رضي الله عنه ؟ قال : قد أقبل من الشام سالماً .

فقالت : يا هذا لا جزاه الله خيراً عني . قال : ولِمَ ؟ قالت :

لأنه ما أنالني من عطاياه منذ ولي أمر المسلمين ديناراً ولا درهماً .

فقال : وما يدري عمر بحالك ، وأنت في هذا الموضع ؟

فقالت : سبحان الله ، والله ما ظننت أن أحداً يلي على الناس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها . فبكى عمر رضي الله

عنه وقال : واعمراه ! كل واحد أفقه منك حتى العجائز يا عمر . ثم قال لها : يا أمة الله بكم تبيعني ظلامتك من عمر فإني أرحمه من النار ؟

فقالت : لا تهزأ بنا يرحمك الله .

فقال عمر : لست أهزأ بك ، ولم يزل بها حتى أشتري ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً ؛ فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فقالا : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت : واسوءتاه ! شتمت أمير المؤمنين في وجهه .

فقال لها عمر رضي الله عنه : لا بأس عليك ، يرحمك الله .

ثم طلب قطعة جلد يكتب فيها فلم يجد ، فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولي الخلافة إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً ، مما تدعي عليه عند وقوفه في المحشر بين يدي الله تعالى ، فعمر بَريء منه .

(شهد على ذلك . علي ، وإبن مسعود) .

ثم دفعها إلى ولده وقال : إذا أنا مُت فاجعلها في كفني ألقى بها ربي .

وفاة سيدنا عمر رضي الله عنه

توفي عمر رضي الله عنه في أواخر ذي الحجة سنة ٢٣ من الهجرة وعمره ٦٣ سنة ، ومدة خلافته ١٠ سنين وستة أشهر ، شهيداً بيد (أبي لؤلؤة عبدَ المغيرة بن شعبة) وهو غلام مجوسي اسمه (فيروز) حيث تربص له هذا الشقي حتى دخل المسجد وكبَّر للصلاة ، وكبَّر الناس وراءه ، فانقضَّ عليه وطعنه بخنجر ، وطعن معه ثلاثة عشر رجلاً ، مات منهم سبعة ، ولما قبضوا عليه نحر نفسه ، فقال رضي الله عنه حين أدركه النزف : قولوا لعبد الرحمن بن عوف فليصل بالناس ، ثم غلب على عمر النزف حتى غُشي عليه .

فكان موت سيدنا عمر بهذه الكيفية الوحشية أول مصيبة وأعظم خطب حلَّ بالمسلمين بعد موت الرسول ﷺ .

ودفن عمر بالروضة الشريفة التي بها قبر النبي ﷺ .

سيدنا عمر والشورى في الخلافة

سيدنا عمر رضي الله عنه أول من أمر بالتشاور لانتخاب الخليفة ، وأما قبله فكانت توليته بالاستخلاف .

قدَّم النبي ﷺ أبا بكر للصلاة ، فرضي به المسلمون لأمر دنياهم ، كما رضيه النبي ﷺ لأمر دينهم .

ثم استخلف أبو بكر عمر رضوان الله عليهما .

فلما حدث حادث أبي لؤلؤة لم يرد عمر الاستخلاف ؛ بل أراد أن لا يتحمل تبعتها ميتاً كما تحملها حياً ، فلم يعهد بها إلى شخص بعينه وجعلها شورى في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، فدعى علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأمرهم أن يتشاوروا في أمر الخلافة ، وقال لهم : انتظروا أخاكم طلحة بن عبيد الله ثلاثاً فإن جاء وإلاَّ فاقضوا أمركم ، وليشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء . قوموا فتشاوروا ، وليصل بالناس صهيب .

ثم قال لأبي طلحة الأنصاري : يا أبا طلحة إن الله أعزَّ بكم الإسلام فاختر خمسين رجلاً من الأنصار ، وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم .

وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتموني في حفرتي ، فاجمع هؤلاء الرهط وقم على رؤوسهم ، فإن اجتمع خمسة على رأي واحد ، وأبى واحد فاشدخ رأسه (كسِّرْ) بالسيف ، وإن اجتمع أربعة ورضوا ، وأبى الاثنان فاضرب رأسهما ، فإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا بعبد الله ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

نبذ من حكمه

من كتم سرَّه كان الخيار في يده .
أعقل الناس أعذرهم للناس .
ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع .
لو أن الشكر والصبر بعيران لما باليت أيهما أركب .
اتقوا من تبغضه قلوبكم .
أخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم .
اقتصاد في سُنَّة ، خير من اجتهاد في بدعة .
أشقى الولاة من شقيت به رعيته .
لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً .
مروا ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا .
من لا يعرف الشر كان أجدر به أن يقع فيه .
من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد .
ولولا القيامة لكان غير ما ترون .

نبذ من كلامه

كان رضي الله عنه يقول : اللَّهم ارزقني شهادة في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسول الله ﷺ .

ولما احتضر كانت رأسه في حجر ولده عبد الله فقال له : يا ولدي ضع رأسي على الأرض ؟ فقال له عبد الله : وما عليك إن كانت على فخذي ، أم على الأرض . فقال : ضعها على الأرض . فوضع عبد الله رأسه على الأرض ، فقال ، ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي ! ثم قال : وددت أن أخرج من الدنيا كما دخلت لا أجر ولا وزر عليّ .

ومن كلامه أيضاً : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم من الحساب غداً .

شذرات من خطب عمر بن الخطاب

أول خطبة لعمر

بعد أن بويع عمر بالخلافة بعد وفاة أبي بكر ، صعد المنبر فقال كلمة قصيرة اشتملت على سياسته التي اعتزم أن يسوس بها الناس .

فقال ، بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله :

« إنما مثل العرب كمثل جمل أنف (ذلول) اتبع قائده ، فلينظر قائدُه أين يقوده ؟ أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق » .

وقد أراد بالطريق ، الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيه .

خطبته رضي الله عنه لما ولي الخلافة

لما دفن أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، صعد عمر المنبر فجلس ، ثم قام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إني داع فأمّنوا ، اللّهم اني شديد فألني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وأرزقني الشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق ، من غير ظلم مني لهم ، ولا اعتداء عليهم .

اللّهم إني شحيح فسخني في نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير ، ولا رياء ، ولا سمعة ، واجعلني أبتغي بذلك وجهك ، والدار الآخرة .

اللهم أرزقني خفض الجناح ، ولين الجانب للمؤمنين .

اللّهم إني كثير الغفلة والنسيان ، فألهمني ذكرك على كل حال ، وذكر الموت في كل حين .

اللهم أني ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقني النشاط فيها ، والقوة عليها ، بالنية الحسنة التي لا تكون إلّا بفضلك وتوفيقك .

اللّهم ثبتني باليقين والبرِّ والتقوى ، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وأرزقني الخشوع فيما يرضيك عني ،

والمحاسبة لِنفسي ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات .

اللّٰهم أرزقني التفكر والتدبر ، لما يتلوه لساني من كتابك ، والفهم له والمعرفة بمغانيه ، والنظر في عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت إنك على كل شيء قدير .

من خطبة لــه

ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر .

فنزل مرقاة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أقرأوا القرآن تعرفوا به ، واعملوا به ، تكونوا من أهله ، وزنوا به أنفسكم قبل أن توزنوا وترتبوا للعرض الأكبر ، يوم تعرضون على الله لا تخفي منكم خافية ، انه لم يبلغ حق حق ذي حق أن يطاع في معصية الله ، ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة وليّ اليتيم ، إن استغْنيتُ عففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف » .

ومن خطبة أخرى له

بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

يأيها الناس إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون

خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استصلاحاً بما ينوب عن مهم أموركم ما توليت ذلك منكم .

ولكفى عمر مهماً محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم ، كيف آخذها ؟ ووضعها ، أين أضعها ؟ وبالسير فيكم ، كيف أسير ؟ فربي المستعان .

فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ، إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته ، وعونه ، وتأييده » .

ومن خطبة أخرى

بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

« يا أيها الناس إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استصلاحاً بما ينوب عن مهم أموركم ما توليت ذلك منكم .

ولكفى عمر مهما محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم ، كيف آخذها ؟ ووضعها ، أين أضعها ؟ وبالسير فيكم ، كيف أسير ؟ فربي المستعان .

فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة ، إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته ، وعونه ، وتأييده » .

من خطبة له في الحثِّ على حسن معاملة الرعية

« يا أيها الناس ، إني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ؛ ولكني أرسلهم إليكم ليُعلموكم دينكم ، وسنتكم ، ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعِل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ ، فوالذي نفس عمر بيده لأُقِصنَّهُ منه » .

فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان رجلٍ من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتُقِصُّه منه ؟

قال : إي والذي نفس عمر بيده ، إذن لأقصنَّه منه ، وكيف لا أقِصُّه منه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقتص من نفسه ؟

ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمِّروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم » .

* * *

وكان عمر إذا بلغه عن عامل من عماله ريبة في معصية لم يمهله أن يعزله ؛ لأن استصلاح الرعية بضرره بالعزل خير من الإبقاء عليه مع ضرر الرعية .

من خطبة له في الحثّ على السعي

لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللّهم أرزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، والله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض ، فقد قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الجمعة .

من خطبة له في الوعظ

أيها الناس انه أتى عليّ حين وأنا أحسب أن من يقرأ القرآن أنه إنما يريد به الله وما عنده . ألا وقد خيِّل إليّ أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم ، وأريدوه بأعمالكم ، فإنا كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل ، وإذ النبي ﷺ بين أظهرنا ، فقد رفع الوحي ، وذهب النبي صلوات الله تعالى عليه ، فإنما نعرفكم بما أقول لكم .

ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأثنينا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً ، وأبغضناه عليه .

إقدعوا (كفوا) هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة ، فإنكم إلّا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية .

إن هذا الحق ثقيل مريء ، وإن الباطل خفيف وبيء ،

وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، وربَّ نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً .

خطبة له في الوعظ أيضاً

إنما الدنيا أمل مخترم (منتقص) وأجل منتقضْ ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله إمرءاً فكر في أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه .

بئس الجار الغني يأخذك بما لا يعطيك من نفسه ، فإن أبيت لم يعذرك إياكم والبطنة ، فإنها مكسلة للصلاة ، ومفسدة للجسم ، ومؤدية إلى السقم ، وعليكم بالقصد في قوتكم ، فهو أبعد من السرف ، وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة ، وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه .

بعض كتبه

كتب إلى عامله بالبصرة ينصحه

أما بعد ، فقد أصبحت أميراً تقول فيسمع لك ، وتأمر فينفذ أمرك . فيا لها من نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتطغيك على من دونك ، فاحترس من النعمة أشد من احتراسك من المصيبة ، وإياك أن تسقط سقطة لا شَوَى لها (لا بقية لها) وتعثر عثرة لالعاً لها (لا أقامه الله) .

كتب إلى أبي موسى الأشعري ينصحه

أما بعد ، فإن للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متبعة ، ودنيا مؤثرة ، فأقم الحدود ولو ساعةً من النهار ، وباشر أمور المسلمين ، وافتح بابك لهم ، فإنما أنت رجل منهم ، غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً .

وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ، ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها .

فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة ، همُّها في السمن ، والسمن حتفها ، واعلم أن للعامل مردًّا إلى الله فإذا زاغ زاغت رعيته ، وأن أشقى الناس من شقيت به رعيته (وأسعد الناس من سعدت به الناس) والسلام .

كتب إلى معاوية ينصحه

أما بعد ، فإني لم آلك في كتابي إليك ونفسي خيراً . إياك والاحتجاب دون الناس ، وأذن للضعيف وأدنه ، حتى تبسط لسانه ، وتجرىء قلبه وتعهد الغريب ، فإنه إذا طال حبسه ، وضاق إذنه ، ترك حقه ، وضعف قلبه . وإنما ترك حقه من حبسه ، وأحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء ، وإذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والإيمان القاطعة فأمض الحكم .

كتب إلى إبنه ينصحه

أما بعد ، فإنه من إتّقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه (أي تصدق على الفقراء) جزاه .

فاجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له (إنما الأعمال بالنيات) ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له .

•

أولاد عمر رضي الله عنه

وأما أولاده رضي الله عنه فثلاثة عشر ولداً : تسعة بنين ، وأربع بنات .

أما البنون فهم : عبد الله ويكنى أبا عبد الرحمن ، وعبد الرحمن الأكبر شقيقه ، وأمهما زينب بنت مظعون الجمحي .

وزيد الأكبر ، وأمه أم كلثوم بنت الامام علي كرم الله وجهه وعاصم ، وأمه جميلة بنت عاصم بن ثابت .

وعياض ، وأمه عاتكة بنت زيد .

وزيد الأصغر ، وعبيد الله وأمهما مليكة بنت جرول الخزاعية .

وعبد الرحمن الأوسط ، وعبد الرحمن الأصغر ، ويكنى أبا شحمة وهو الذي ضربه عمر في الحد حتى مات .

وأما البنات الأربع فهن : حفصة زوج النبي ﷺ ؛ ورقية وهي شقيقة زيد الأكبر ؛ وفاطمة أمها أم حكيم بنت الحرث ؛ وزينب أمها فكيهة .

كلمة عامة عن عمر بن الخطاب

إن فَخرَ الإسلام بعد رسول الله ﷺ بأحد ، فإنما يفخر بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، هذا الرجل العظيم الذي كان قبل إسلامه حرباً على الإسلام ، فأصبح بعد إسلامه نعمةً ورحمةً على الإسلام .

وكان في شخصيته بالغ الذروة ، ظاهر العظمة ، وفي عهد خلافته صاحب فضل كبير جداً في تثبيت دعائم الاسلام ، وقوته ، وانتشاره ؛ ولذا قال الرسول ﷺ : « اللّهم أعز الإسلام بعمر » .

وكان في دخوله في الإسلام ازدياد وقوة للمسلمين ، وكانت له في زمن النبي ﷺ ، وفي عهد أبي بكر الصديق ، المواقف الخطيرة ، والآراء الصائبة .

ولما ولي الخلافة سار فيها سيراً محموداً ، وتم في زمنه فتح أقطار الشام ، وفلسطين ، ومصر ، والعراق ، وانتهاء حكم دولتين عظيمتين في هذه الأقطار ، وهما دولتا الفرس والروم ، وتأسيس الملك العربي الإسلامي تأسيساً حقيقياً .

وكانت الخطط التي انتصرت فيها جيوش المسلمين بتدبيره ، وحسن رأيه . ولم يكن عهده قاصراً على

الفتوحات ؛ بل بدأ بوضع الأساسات التنظيمية لحسن إدارة البلاد ، وتدبير شؤونها ، ويرجع ذلك إلى الصفات السامية التي كان متحلياً بها ، من عزم ، وحزم ، وشدة وحنكة ، وحسن تدبير ، وإلى الرجال العظام الذين قادوا الجيوش ، وولوا إدارة الأقطار ، فكانوا أحسن مثال للعزم ، والشجاعة ، والعدل ، والادارة الصالحة أيضاً ، كخالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وعَمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وسعد بن أبي وقاص ، والأحنف بن قيس ، وأمثالهم .

وكان عمر يحب رعيته حباً جماً ، ويحب ما يصلحها ، ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب ، فكان عفيفاً عن أموالهم ، عادلاً بينهم ، مسوياً بين الناس ، لم يكن قويّ يطمع أن يأخذ أكثر مما له ، ولا ضعيف يخاف أن يضيع منه ماله .

كان رضي الله عنه حكيماً يضع الشيء في موضعه ، يشتد حيناً ، ويلين حيناً ، حسبما توحي إليه الأحوال التي هو فيها .

عرف العرب معرفة تامة ، وعرف ما يصلح أنفسها ، فسيرها في الطريق الذي لا تألم فيه ، فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أي إنسان .

ولذلك أتعب عمر من بعده ، فإن النفوس التي تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها ، وإلاّ فأين ذلك الرجل الذي يفني في مصلحة رعيته ؟ ولا يرى لنفسه من الحقوق إلاّ كما لأدناهم ، مع تحمله مشقات الحياة وأتعابها

وكان عمر رضي الله عنه متشدداً في صالح المسلمين ، رؤوفاً بالرعية متبصراً بحقوقهم ، بعيداً عن كل أبهة وزخرف ، شديداً على عماله ، لا يتساهل في صغيرة ولا كبيرة ، ولا يسمح لأحد من عماله أن يكون مستبداً ، خارجاً عن جادة العدل والحق في سيرته العامة والخاصة ، عفيفاً عن أموال المسلمين عفةً تامة ، فترك بسيرته وعدله وصفاته أحسن المثل ، وصار علماً من أعلام التاريخ الإسلامي عامة ، والعربي خاصة .

ومما يؤثر عنه ، أنه خطب مرة فقال : من رأى فيّ اعوجاجاً فليقومه ، فقام إليه أعرابي وقال له : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ،

فقال عمر : الحمد لله على أن وجد من يقوم اعوجاجي .

وكفاه شرفاً وفخراً قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه : إن الله جعل الحق على لسان عمر .

سلسلة مختارات اسلامية

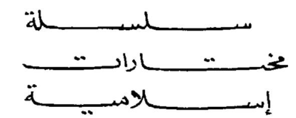
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

عثمان بن عفان

ثالث الخلفاء الراشدين

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

عثمان بن عفّان

الناشر : دَار الفكر اللبناني
تلفون : ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس : ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



عثمان بن عفان رضي الله عنه

هو عثمان بن عفان ، بن أبي العاص ، بن أمية ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، بن قصيّ ، بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، ابن لؤى ، بن غالب القرشي الأموي ، ويجتمع مع النبي ﷺ في جده الخامس عبد مناف . وأمه (أروى) بنت كريز ، بن ربيعة ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، وأمها البيضاء أم حكيم ، بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ .

يكنى أبا عبد الله ، وأبا عمرو ، كنيتان مشهورتان له وأبو عمرو أشهرهما .

ولد في السنة السادسة بعد عام الفيل ، من ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان من السابقين الأولين في الاسلام ، وأول المهاجرين ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة .

نشأته

كان سيدنا عثمان رضي الله عنه تاجراً بزازاً ، موفقاً في تجارته ، فاتسعت ثروته ، وكثر ماله ، وكان غنياً كريماً ، حسن الشيمة ، شبَّ على كرم الأخلاق ، وحسن السيرة ، حييّا عفيفاً ، ولذا كان محبباً في قومه ، مأموناً عندهم ، محترماً لديهم ، مبجلاً فيهم .

إسلامه ، وصحبته لرسول الله ﷺ

لما بعث الله محمداً ﷺ نبياً ، كان سيدنا عثمان رضي الله عنه من السابقين الى الاسلام على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وزوجه عليه السلام بنته (السيدة رقية) .

فلما آذى المشركون المسلمين ، هاجر رضي الله عنه مع زوجه الى بلاد الحبشة ، فكان أول من هاجر .

روى أنس قال : أول من هاجر الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان فقال النبي ﷺ : صحبهما الله ، ان عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط .

ثم رجع الى مكة قبل الهجرة النبوية الى المدينة .

فلما أذن الله له بها ، هاجر اليها هو وزوجه ، وحضر مع

رسول الله ﷺ كل غزواته ومشاهده ، ولكنه لم يحضر غزوة (بدر) لأنه كان مشغولاً بتمريض زوجه (السيدة رقية) التي توفيت في تلك المدة عقب انتصار المسلمين في تلك الغزوة ، وأسهم له رسول الله ﷺ في غنيمتها ، ثم زوجه بنته الثانية (السيدة أم كلثوم) وتلك منقبة عظيمة لم تعرف لغيره من الناس قاطبةً ، ولذا سمي عثمان (بذي النورين) رضي الله عنه .

وكان سخي اليد بماله الوفير ، جواداً في طاعة الله ، وإعلاء شأن الاسلام .

مبايعته بالخلافة

بعد وفاة سيدنا عمر بثلاث ليال كان الناس يجتمعون في تلك الأيام الى عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه ، فلا يخلو به رجل ذو رأي فيعدل بعثمان أحداً . ولما جلس عبد الرحمن للمبايعة وعليه عمامته التي عمَّمه بها رسول الله ﷺ متقلداً سيفه ، ثم صعد المنبر ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

أيها الناس إني سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين : إما علي ، وإما عثمان ،

وقال لعلي : قم يا علي ، فقام علي ، فوقف تحت المنبر ، وأخذ عبد الرحمن بن عوف بيده وقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ، وفعل أبي بكر وعمرو؟ فقال علي : اللهم لا ؛ ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي ، فأرسل يده . ثم نادى : قم يا عثمان .

فقام ، فأخذ بيده وقال : أبايعك ، فهل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر ؟. فقال عثمان : اللهم نعم . فرفع رأسه الى سقف المسجد وقال :

اللّم اسمع ، قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان . فازدحم الناس يبايعون عثمان ، وقعد عبد الرحمن مقعد النبي ﷺ من المنبر ، وقعد عثمان في الدرجة الثانية تحته ، فجعل الناس يبايعونه بالخلافة ، وذلك في مفتتح سنة ٢٤ هـ وكان سنه فوق السبعين ، وسار فيها بالعدل والانصاف .

بدء أعماله في الخلافة

ومن أعماله أنه ولي سعيد بن العاص (الكوفة) وأمره بفتح بقية بلاد العجم ، ووالاه بالامدادات حتى فتحها وشتت جيوشها ، وقتل الأحنف قائد جيش المسلمين ملكها (يزدجرد) وبقتله انتهت دولة الفرس ، واستجاب الله دعوة نبيه عليه

الصلاة والسلام حين مزق كُسرى كتابه وهي : (اللَّم مزق ملكه كل ممزق) .

وبذلك استتب الاسلام في تلك البقاع ؛ ثم أمر الجيش بالمسير الى (أرمينية) ففتحها أيضاً .

ومن أعماله أنه أمر سيدنا معاوية عامله على الشام بانشاء سفن قوية عظيمة ، لتحمل جيوش المسلمين الى ما تريد من الجهات ، فكان ما أمره . وبها تمكن من فتح جزائر البحر الأبيض المتوسط كقبرص ، وكريد ، ورودس ، وغيرها .

ومن أعماله أنه أمر عبد الله بن أبي السرح الذي ولّاه على مصر بفتح طرابلس ، وأفريقية ، فسيَّر لها جيشاً تحت قيادة (الزبير بن العوام) ففتحها ، وغنم منها أموالاً كثيرة . وبذلك صارت مملكة العرب من جهة الشرق الى الهند ، ومن جهة الغرب الى المحيط الأطلسي ، ومن جهة الشمال الى البحر الأبيض المتوسط ، ومن جهة الجنوب الى بحر الهند والنوبة .

وباتصال تلك القرى بعضها ببعض عظمت الدولة ، ونمت الثروة ، ونفذت الكلمة ، وتجسمت الهيبة في قلوب الأعداء .

ومن مآثره الجميلة ترتيب الطعام في شهر رمضان لأهل المدينة ، وإقامة دور للضيافات في الكوفة .

ومن مآثره إقطاعه الأرضين التي جلا أهلها عنها للعرب ،

لكي يقيموا فيها ، ويعمروها ضناً بها أن تهمل ، وتخسر ثمرتها الدولة والناس .

ومن مآثره اتخاذ دار القضاء بعد أن كان يقام في المسجد .

ومن أعظم آثاره (رضي الله عنه وجزاه عن المسلمين خير الجزاء) أنه رتب السُّوْر القرآنية على النمط المعروف ، الذي نقرؤه الآن باجماع من الصحابة والحفاظ ، وجمع الصحف التي كانت عند حفصة في مصحف واحد ، وجمع الناس على مصحف واحد ، بعد أن تعددت القراآت واختلف فيها أهل الأمصار ، وأمر بنسخ المصاحف منه ، فكتبوا أربعة وقيل خمسة ، وأرسل لكل قطر مصحفاً ، وصار العمل على ذلك الى الآن ، وهو ما يسمى (بالمصحف العثماني) نسبة اليه رضي الله عنه .

صفات سيدنا عثمان الخلقية

كان أبيض اللون ، وقيل أسمر ، رقيق البشرة ، كثير شعر لرأس ، عظيم اللحية ، وكان ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير ، حسن الوجه ، ضخم الكراديس (جمع كردوسة وهي كل عظم تكردس اللحم عليه) بعيد ما بين المنكبين ، وكان يصفر لحيته ، ويشد أسنانه بالذهب .

عن عبد الله بن حزم المازني قال :

رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أحسن وجهاً منه .

وكان نقش خاتمه : آمنت بالله مخلصاً .

وقيل : آمنت بالذي خلق فسوى .

صفاته الخُلقية ومناقبه

أدبه

أخرج ابن عساكر عن ابن عيينة أنه قال : قال عثمان بن عفان : ما تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا شربت خمراً في جاهلية ولا إسلام ، ولا مَسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ .

« وقوله : ولا مَسست الخ غاية في الأدب مع الرسول ﷺ والاحترام ليده الشريفة التي مسَّ بها يده » .

ليس بعجيب صدوره عن عثمان بن عفان ، مع ما عرف به من حبِّ الرسول ﷺ واحترامه له ، وبذل ماله في سبيل مرضاته ، فرضي الله عنه وأرضاه .

تأديبه لنفسه

قيل : كان لعثمان عبد فقال له : إني كنت عركت أذنك فاقتص مني ، فأخذ بأذنه ، ثم قال عثمان : آشدد ، يا حبذا قصاص في الدنيا ، لاقصاص في الآخرة .

وهذه مكانة من كرم الأخلاق ، وخفض الجناح والتقوى ، وإعطاء الحق ، لا يبلغها إلاَّ أولئك الصحابة الكرام ، الذين تخلقوا بخلق نبيهم عليه الصلاة والسلام .

تأديبه للمسلمين

قيل : إن رجلاً من ثقيف جُلد في الشراب في خلافة عثمان بن عفان ، وكان لذلك الرجل مكان من عثمان ، ومجلس في خلوته ، فلما جُلد أراد ذلك المجلس فمنعه إياه ، وقال :

لا تعود إلى مجلسك أبداً إلاَّ ومعنا ثالث .

واختصم عثمان هو وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، فقال أبو عبيدة : يا عثمان ، تخرج على في الكلام ، وأنا أفضل منك بثلاث . فقال عثمان : وما هي ؟ قال : الأولى إني كنت يوم البيعة حاضراً وأنت غائب ، والثانية شهدت بدراً ولم تشهده ، والثالثة كنتُ ممن ثبت يوم أحد ، ولم تثبت أنت .

فقال عثمان : صدقت ، أما يوم البيعة فإن رسول الله ﷺ

بعثني في حاجة ومدَّ يده عني ، وقال : هذه يد عثمان بن عفان ، وكانت يده الشريفة خيراً من يدي ؛ وأما يوم بدر فإن رسـول الله ﷺ استخلفني على المدينـة ، ولم يمكنني مخالفته ، وكانت ابنته (رقية) مريضة ، فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها .

وأما انهزامي يوم أحد ، فإن الله عفا عني ، وأضاف فعلي إلى الشيطان ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ آل عمران .

فغلبه عثمان بهذه الأجوبة السديدة .

كرمه وبذله العظيم في سبيل الله ورسوله

● يروى أنه لما أراد رسول الله ﷺ محاربة الروم في غزوة (تبوك) بين المدينة والشام ، كان المسلمون في عسـر وضيق ، قد أجهدهم الحر ، ولذلك سمي جيشها (جيش العسرة) فظهر كرم عثمان ، وتبرع رضي الله عنه بتجهيز غالبه من ماله ، فجهز ألف بعير وسبعين فرساً ، وصرف عشرة آلاف دينار ، فدعا له الرسول وقال : لا يضر عثمان ما عمل بعدها ، وتبرع أيضاً أبو بكر وعمر بما قدرا عليه .

● وكانت توجد بئر بالمدينة تسمى (بئر رومة) لرجل يهودي من بني غفار لا يصلح للشرب غير مائها ، ولذا كان صاحبها يبيع منها القربة بمُد[1] فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم بعينها عين في الجنة ، فأبى لأنه لم يكن له غيرها ، ولم يكن أسلم وقتئذ ، فاشتراها منه سيدنا عثمان بعشرين ألف درهم ، ووقفها على المسلمين ، وكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم ، وقد قال عليه السلام (من حفر بئر رومة فله الجنة) .

وزاد عثمان في مسجد المدينة بالحجارة ووسعه ، وكان يعتق في كل جمعة عبداً .

وبالجملة فقد كان عثمان رضي الله عنه جليل الأعمال ، كريم الخصال ، جميل الصحبة ، حريصاً على رضا النبي ﷺ ، بذولاً للمال فيما يرضيه وينفع المسلمين .

لهذا أجل النبي ﷺ قدره ، ونوَّه بذكره في أحاديث كثيرة .

مثال من تصدقه ، وحبه لفعل الخير

أصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبي بكر وقالوا : يا خليفة

---

(١) المد « مكيال ، وهو رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز ، وفي الشام صاع ونصف » .

رسول الله إن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، وقد توقع الناس الهلاك فما نصنع ؟

فقال لهم : انصرفوا ، واصبروا ، فإني أرجو الله أن لا تمسوا حتى يفرج الله عنكم .

فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيراً لعثمان جاءت من الشام وتصبح بالمدينة . فلما جاءت خرج الناس يتلقونها ، فإذا هي ألف بعير موسوقة بُرّاً ، وزيتاً ، وزبيباً ، فأناخت بباب عثمان رضي الله عنه ، فلما جعلها في داره جاء التجار فقال لهم: ما تريدون ؟ قالوا : انك لتعلم ما نريد ، بعنا من هذا الذي وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس ،

قال : حباً وكرامة ، كم تربحوني على شرائي ؟ قالوا : الدرهم درهمين .

قال : أعطيت أكثر من هذا .

قالوا : يا أبا عمر ما بقي في المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا أحد ، فمن ذا الذي أعطاك ؟

قال : إن الله أعطاني بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ قالوا : لا .

قال : فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه البعير صدقةً لله على المساكين والفقراء .

سياسته في رعيته

كان عثمان رضي الله عنه لين الجانب ، رؤوف القلب ، محسناً إلى الرعية ، فكان إحسانه إليهم ، ولينه معهم ، سبب إساءتهم إليه ، وافتراقهم في مذاهب الاختلاف عنه ، والدليل على ذلك ما قاله إبن عساكر في تاريخه :

لما ولى عثمان حجَّ سنواته كلها إلى آخر حجة حجها ، وحج بأزواج النبي ﷺ ، معه كما كان يصنع عمر ، فكان عبد الرحمن إبن عوف في موضعه ، وجعل في موضع نفسه سعيد بن زياد ، هذا في مؤخر القطار ، وهذا في مقدمته ، وأمر الناس ، فكتب في الأمصار أن توافيه العمال في كل موسم ، ومن يشكوهم ، وكتب إلى الناس والأمصار : أن ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ، فإني مع الضعيف عى القوى ، ما دام مظلوماً ، إن شاء الله .

فكان الناس كذلك ، فجر ذلك إلى أن اتخذه أقوام وسيلة إلى تفريق الأمة (أي بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .

وجرّت هذه السياسة ، سياسة اللين ، والرأفة ، والعدل ، على عثمان الخطر والبلاء ، والفتن ، والجرأة على الخروج على الخليفة ، وضرّاً بالخلافة .

عـــدلــه

روي أن عثمان رضي الله عنه اشترى من رجل أرضاً فأبطأ عليه ، فقال : ما منعك من قبض مالك ؟ قال : إنك غبنتني ، فما ألقى من الناس أحداً إلّا وهو يلومني .

قال : أذلك يمنعك ؟ قال : نعم . قال : فاختر بين أرضك ومالك ثم قال : قال رسول الله ﷺ :

« أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً أو بائعاً وقاضياً مقتضياً » .

تفقده لحال رعيتـه

روي أن سيدنا عثمان كان يخرج يوم الجمعة وعليه ثوبان أصفران ، فيجلس على المنبر فيؤذن المؤذن ، وهو يتحُدث يسأل الناس عن أسفارهم ، وعن أخبارهم ، وعن مرضاهم ، وهذا يدل على أنه كان دائم التفقد لحال الرعية والسؤال عنهم .

تواضعــه

كانت أخلاق سيدنا عثمان رضي الله عنه كلها فضائل ، اتشح بردائها ، وأخذ نفسه بها ، فهو من المكانة العليا من

الأخلاق البارزة ، والشيم الجميلة ، وأخصها التقوى والكرم ، والحياد ، والتواضع ، فمما جاء من أخبار تواضعه ما أخرجه إبن عساكر في تاريخه عن الحسن قال :

رأيت عثمان نائماً في المسجد ، ورداؤه تحت رأسه ، فيجيء الرجل فيجلس إليه ، ثم يجيء الرجل فيجلس إليه ، ويجيء الرجل فيجلس إليه كأنه أحدهم .

وروي عن الحسن أيضاً : أنه سُئل عن القائلة في المسجد ، فقال : رأيت عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة يقيل في المسجد ، ويقوم وأثر الحصا بجنبيه ، فقيل : هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين .

وروي أن عثمان كان يلي وضوء الليل بنفسه ، فقيل له : لو أمرت بعض الخدم فيكفيك . قال : لا . الليل لهم يستريحون فيه .

وعن الزبير بن عبد الله قال : حدثتني جدتي أن عثمان كان لا يوقظ أحداً من أهله إذا قام في الليل إلّا أن يجده يقظان ، فيدعوه فيتناوله الوضوء ، وكان يصوم الدهر .

حياؤه

كان عثمان رضي الله عنه مشهوراً بشدة الحياء ، وهو خلق جميل ، وأدب نفسي يزيد المرء رفعةً إذا توسطه ولم يفرط فيه .

ومما جاء من أخباره في الحياء ، ما رواه إبن عساكر قال :

ذكر عند الحسن حياء عثمان ، فقال الحسن : إن كان ليكون جوف البيت ـ والباب عليه مغلق ـ فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء أن يرفع صلبه » .

كرمــه وجوده

كان عثمان رضي الله عنه أكرم الناس ، ولم ينحصر كرمه في ذوي قرابته ، بل تعداه إلى غيرهم أيضاً .

ومما يروى عن كرمه ، ما أخرجه إبن عساكر عن إبن سعيد قال :

إنطلقت وأنا غلام في الظهيرة ومعي طيراً أرسله من المسجد والمسجد بيننا ، فإذا شيخ جميل حسن الوجه ، نائم وتحت رأسه لبنة (طوبة) أو بعض لبنة ، فقمت أنظر إليه أتعجب من جماله ، ففتح عينيه فقال : مَن أنت يا غلام ؟ فأخبرته . فنادى

غلاماً قريباً منه ، فقال لي : ادعُه فدعوته فأمره بشيء وقال : أقعد .

قال : فذهب الغلام فجاء بحُلة ، وجاء بألف درهم ، فنزع ثوبي وألبسني الحُلة ، وجعل الألف الدرهم فيها ، فرجعت إلى أبي ، فأخبرته ، فقال : يا بني من فعل هذا بك ؟ فقلت : لا أدري ، إلاّ أنه رجل في المسجد نائم ، لم أر قط أحسن منه . قال : ذلك أمير المؤمنين عثمان .

وروى إبن عساكر عن أبي اسحق السراج قال : قال لي أبو اسحاق القرشي يوماً : مَن أكرم الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ قلت عثمان بن عفان . قال : كيف رفعت عثمان من بين الناس ؟ قلت : لأني رأيت الكرم في شيئين : في المال ، والروح ، فوجدت عثمان جاد بماله على رسول الله ﷺ ، ثم جاد بروحه على أقاربه .

قال : لله درك .

وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون ألفاً ، فقال له يوماً : قد تهيأ مالك فاقبضه ، قال عثمان : هو لَك معونة على مُروءتك .

هديته للنبي ﷺ

توجه سيدنا عثمان إلى بيت النبي ﷺ يسأل عنه ، فوجده خرج في طلب الرزق ، فذهب عثمان ، وبعث لهم دقيقاً وتمراً وغيره ، وكان العرب يعتمدون كثيراً على الغذاء من التمر (البلح الجاف) ؛ ثم رجع سيدنا عثمان ، وقال لأهل بيت النبي ﷺ : هذا يبطىء عليكم ، فأرسل لهم خبزاً ، ولحماً مشوياً .

فلما جاء النبي ﷺ ، وعلم بما فعله عثمان رضي الله عنه ، دعا له بخير ، وما فعله عثمان مع النبي ﷺ يعتبر هديةً ، لا صدقةً .

صلاحه وتقواه

كان سيدنا عثمان رضي الله عنه كثير التقوى والقنوت ، كثير الصلاة ، كثير قراءة القرآن ، شديد الولع به ، والاستظهار له .

روى إبن عساكر ، وأخرج عن إسرائيل بن موسى ، قال : سمعت الحسن يقول : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، لو أن قلوبنا طهرت ، ما شبعنا من كلام ربنا ، إني أكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر في المصحف .

وروى إبن عساكر من طرق كثيرة ، أن عثمان كثيراً ما رُؤ ي

في المقام يصلي من أول الليل إلى بزوغ الفجر .

الأحاديث الواردة في فضله

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها « أن النبي ﷺ جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال : ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟ » .

وأخرج البخاري عن أبي عبد الرحمن السلمى أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم ، فقال : أنشدكم بالله ، ولا أنشد إلاَّ أصحاب النبي ﷺ ، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : من جَهَّز جيش العسرة فله الجنة ؟ فجهزتهم .

ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : من حفر بئر رومة فله الجنة ؟ فحفرتها . فصدقوه بما قال .

وأخرج الترمذي عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال :

جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة « وهو جيش غزوة (تبوك) وسمى بذلك لأنه ندب الناس إلى الغزو في شدة القيظ فعسر ذلك عليهم » فنثرها في حجره ، فجعل رسول الله ﷺ يقلبها ويقول : ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم (قالها مرتين) .

وأخرج التُرمذي عن أنس قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل مكة ، فبايع الناس ، فقال النبي ﷺ :

إن عثمان بن عفان في حاجة الله ، وحاجة رسوله ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول الله ﷺ وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

وأخرج إبن عساكر عن علي رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول لعثمان : لو أن لي أربعين إبنة زوجتك واحدة بعد واحدة ، حتى لا يبقى منهن واحدة .

وأخرج إبن عساكر عن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مرّ بي عثمان ، وعندي ملك من الملائكة ، فقال : شهيد يقتله قومه إنا نستحي منه .

وأخرج أبو يعلى عن إبن عمر « أن النبي ﷺ قال : ان الملائكة لتسْتحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله » .

نبذ من كتبه

كتب إلى أمراء الجنود في الثغور

أما بعد ، فإنكم حماةُ المسلمين وذادتهم (المدافعون عنهم) وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ، بل كان عن ملأٍ منّا . ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيغير الله ما بكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون ، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه .

كتب إلى عمال الخراج

أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلّا الحقَّ ، خذوا الحق ، وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما أكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ، ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم .

كتب إلى العامة

أما بعد فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تلفتنّكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الدنيا صائر إلى الابتداع

بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله ﷺ قال : الكفر في العجمة ، فإن استعجم عليهم أمر تكلّفوا وابتدعوا .

كتب إلى عماله

أما بعد ، استعينوا على الناس ، وكلّ ما ينوبكم بالصبر والصلاة ، وأمرَ الله أقيموه ، ولا تدهنوا فيه ، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك ، وأرضوا من الشرّ بأيسره ، فإن قليل الشر كثير ، واعلموا أن الذي ألّف بين القلوب هو الذي يفرّقها ، ويباعد بعضها من بعض ، سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة (إبن عساكر) .

وكتب إليهم

إن الله ألّف بين قلوب المسلمين على طاعته ، وقال سبحانه وتعالى :

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الأنفال .

وهو مفرقها على معصيته ، ولا تعجلوا على أحد بحدٍ قبل

استيجابه ، فإن الله تعالى قال :

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إلاَّ مَنْ تَوَلَّى وكفَرَ ﴾ الغاشية .

من كفر داويناه بدوائه ، ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره إن شاء الله (إبن عساكر) .

نبذ من خطبه

خطبته بعدما بويع الخلافة

صعد المنبر وخطب الناس فقال : أيها الناس ، الحمد لله ، اتّقوا الله فإن الدنيا كما أخبر الله لعب ، ولهو ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، فخير البلاد فيها من عصم واعتصم بالله وكتابه .

وقد وكلت من أمركم لعظيم ، لا أرجو العون عليه إلاَّ من الله ، فإنه لا يوفق للخير إلاَّ هو ، وما توفيقي إلاّ بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

أول خطبة خطبها

أما بعد ، فإني قد حُمِلتُ ، وقد قبلت ، ألا وأني متبع ، ولست بمبتدع ، ألا وان لكم عليّ بعد كتاب الله عزّ وجل ،

وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً : اتباعَ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وسنَّ سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأٍ ؛ والكفَّ عنكم إلاَّ فيما استوجبتم ، ألا وإن الدنيا خَضرة قد شُهيت إلى الناس ، ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها ، فإنها ليست بثقةٍ ، واعلموا أنها غير تاركةٍ إلاَّ من تركها .

من خطبة له

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس ، اتقوا الله ، فإن تقوى الله غُنم ، وإنَّ أكيسَ الناس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، واكتسب من نور الله ، نوراً لظُلمة القبور ، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى ، وقد كان بصيراً ، وقد يكفي الحكيم جوامع الكلام ، والأصم ينادي من مكان بعيد ، واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئاً ، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده (إبن عساكر) .

وخطب مرة فقال :

إن الناس يبلغني عنهم هنات وهنات (شرور وفساد) وإني والله لا أكون أول من فتح بابها ، ولا أدار رحاها ، ألاَ وإني زامٌ نفسي بزمام ، ومُلجمها بلجام ، فأقودها بزمامها وأكبحها (أمنعها) بلجامها ، ومناولكم طرف الحبل ، فمن اتبعني

حملته على الأمر الذي يعرف ، ومن لم يتبعني ففي الله خلف منه ، وعزاء عنه .

ألاَ وان لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشاهداً ، سائق يسوقها على أمر الله ، وشاهد يشهد عليها بعملها ، فمن كان يريد الله بشيء فليُبشر ، ومن كان آثماً يريد الدنيا فقد خسر (إبن عساكر) .

آخر خطبة له

أما بعد ، إن الله عزّ وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يُعطكموها لتركنوا إليها ، إن الدنيا تفنى ، والآخرة تبقى ، فلا تُبطرنكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة ، وأن المصير إلى الله .

اتّقوا الله عز وجل ، فإن تقواه جُنَّة (وقاية) من بأسه ، ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغير ، والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزاباً .

﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ آل عمران .

من كلامه

ما يَزع الله بالسلطانِ أكثر مما يزع بالقرآن .

الهدية من العامل إذا عزل ، مثلها منه إذا عمل .

أنتم إلى إمام فعَّال ، أحوج منكم إلى إمام قوَّال .

وقال يوم قتل : لأن أقتل قبل الدماء أحبُّ إليّ من أن أقتل بعد الدماء .

وفاته ، وسبب مقتله رضي الله عنه

بعد أن فتح المسلمون تلك الأقاليم ، واطمأنوا وكثرت عندهم الخيرات والأموال ، أخذوا ينقمون على الخليفة ، حيث رأى من الصالح للأمة عزل بعض الولاة فعزلهم ، وولى من فيه الكفاية من أقاربه وذوي رحمه ، فظنَّ الناس به ظنوناً وهو بريء منها ، وفشت الفتنة واستفحل أمرها ، حتى حضرت وفود من الكوفة ، والبصرة ومصر ، في وقت واحد ، طالبين تولية غير عثمان ، أو عزل من ولاهم على الأمصار .

وأخيراً استقر الحال على إجابتهم لما طلبوا من عزل بعض العمال وعلى ذلك اختار أهل مصر أن يولي عليهم (محمد بن أبي بكر الصديق) فكتب عثمان لهم بذلك عهداً ، ورحلوا من المدينة مع واليهم الجديد .

وبينما هم ذاهبون رأوا عبداً من عبيد الخليفة على راحلة من إبله يستحثها فأوقفوه وفتشوه ، فوجدوا معه كتاباً مختوماً بختم الخليفة لعبد الله إبن أبي السرح مضمونه :

(إذا قدم عليك إبن أبي بكر ومن معه فاحتل في قتلهم) .

فأخذ الكتاب ، ورجعوا إلى المدينة ، وأطلعوا الخليفة عليه ، فأقسم لهم إنه ما فعل ولا أمر ولا علم ، فقالوا : هذا أشد ، يؤخذ خاتمك ، وبعير من إبلك ، وعبد من عبيدك ، وأنت لا تعلم ، ما أنت إلاَّ مغلوب على أمرك ، فطلبوا منه الاعتزال ، أو تسليم الكاتب ، فأبى ، فأجمعوا على محاصرته ، فحاصروه في داره ، ومنعوا عنه الزاد والماء أياماً عديدة ، وهاجت الثوار ، وكثر القيل والقال ، فطلب منه بعض الصحابة الإذن بالمدافعة عنه ، فلم يقبل ، ولم يأذن لأحد ، حتى أنه قال لعبيده الذين هبوا للدفاع عنه : (من أغمد منكم سيفه فهو حرّ) استسلاماً للقضاء ، فتسلق بعض الأشرار الدار ، ودخلوا عليه وقتلوه ، والمصحف بين يديه يتلو فيه سورة البقرة فنزلت قطرة من دمه على « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ » وكان يومئذ صائماً .

وكان ذلك في الثاني عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هجرية ، وعمره ٨٢ سنة ، ومدة خلافته ثلاث عشرة سنة إلاّ اثني عشر يوماً رضي الله عنه .

أولاد سيدنا عثمان رضي الله عنه

أولاد سيدنا عثمان رضي الله عنه ستة عشر : تسعة ذكور ، وسبع بنات ، وهي مذكورة في كتاب نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ، وفي كتاب أشهر مشاهير الإسلام ، نكتفي بالإشارة إليها .

أولياتــه

أول من أقطع القطائع . وأول من حمى الحمى . وأول من خفض صوته بالتكبير . وأول من خلّق (نقش) المسجد وطلاه . وأول من أمر بالأذان الأول في الجمعة . وأول من رزق المؤذنين . وأول من أرتج عليه من الخلفاء في الخطبة . وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة . وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم . وأول من ولى الخلافة في حياة أمه . وأول من اتخذ صاحب شرطة . وأول من اتخذ في الإسلام داراً للقضاء ، وقد كان الخليفتان قبله يجلسان للقضاء في المسجد . وأول من اتخذ المقصورة في المسجد . وأول ما وقع الاختلاف في زمانه بين الأمة فخطأ بعضهم بعضاً في أشياء نقموها عليه ، وكانوا قبل ذلك يختلفون في الفقه ولا يخطىء بعضهم بعضاً . وأول من هاجر إلى الله بأهله من هذه الأمة . وأول من جمع الناس على حرف واحد في القراءة .

وصيتــه

لما قتل سيدنا عثمان رضي الله عنه ، فتشوا خزائنه ، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ، ففتحوه ، فوجدوا فيه حقة ، فيها ورقة مكتوب فيها :

« هذه وصية عثمان بن عفان : يشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنّة حق ، وأن النار حق ، وأن الله يبعث مَن في القبور ، ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نبعث إن شاء الله من الآمنين » .

عثمان بن عفان في كلمات

كان سيدنا عثمان بن عفان من السابقين الأولين في الإسلام ، تحمل الأذى ، وبذل الأموال الكثيرة في سبيل الدعوة إلى الدين .

وكان أكثر ليناً وتسامحاً من عمر بن الخطاب ، فكان ذلك سبباً من أسباب اتساع الفتنة المشئومة ، فقد غلبه على أمره أقاربه ، وبنوع خاص (مروان بن الحكم) فكان ذلك باعثاً على الانتقادات والتقولات ؛ ومثّبطاً لبعض كبار الصحابة عن مؤازرته والدفاع عنه .

ومما زاد ذلك توسعاً عدم كفاية بعض العمال الذين نصبهم ، فإنهم لم يحسنوا الادارة ولم يتمكنوا من منع الشغب والفساد .

وقد كانت الفتوحات في زمنه كثيرة أيضاً ؛ وإنما جاءت متممة لفتوحات عمر ، وفي زمن عثمان أنشىء أول أسطول عربي إسلامي فجمع العرب بذلك بين قوتي البحر والبر .

وفي عهد عثمان خرج كثير من كبار الصحابة ورجال العرب إلى الأقطار المفتوحة ، وأخذ العرب يسيرون في طريق العادات والحياة المدنية التي لم يكن لهم سابقة فيها .

وكان عمر يشدد في هذا الأمر ، ويحاول منع العرب عن التوسع فيه

عثمان بن عفان

قصيدة للشاعر الشيخ إسماعيل سري الدهشان

« من بعد ست لعام الفيل قد وضعت
عثمان (أروى) فيا أهـلاً بعثمان »
« حَسبي أبا عمرو ما زكاك من نسب
فأنتَ والمصطفى من نسل عَدنان »
« في ظهـر عبد منـاف أنتما غيب
وبـالشهـادة في الإِســلام إلفـان »
« فضل لأروى أبوها من قُصيّ أتى
وأمهــا عمــة المختــار فضــلان »

حرفته ، ومنزلته في قريش :

« لَـكَ التـلاد عن الآبـاء خـالِصـةً
فسـرتَ تتجر من نجـد لحـوران »
« والمـرء إن بـاركَ الـرزاق سلعتـه
فـلاتَبـابَ[1] ولا عَــوْد بخسـران »
« تجـارة في قريش شـأنهـا عَجب
وأنتَ فيهم عداها باذخ[2] الشان »

---

(١) تباب : هلاك وخسران

(٢) باذخ : عظيم شأنه .

« ترعى الجوارَ وتُقرى الضيف عن كرم
يُثـرى المُقل ويَكسـو كلَّ عـريـان »
« مـذلَّـل السمـع للعـافى تُعـاونـه
ممهـد القلب تـأوى كـل لهفـان »
« قد أغرموا بك حباً إذ رأفت بهم
والحب يجذب لم يجذب باشطان[1] »
« يُعـظمونـك لا خوفـاً وقـد وردوا
هيماً[2] فأصدرتهم ربي[3] بإحسـان »
« فـكــل بـــذل قليــل في محـبتـهم
إيـاك والحب لا يشـرى بـــأثمـان »
« في الجـاهليـة لمـا تلتمس قـدحـاً
وفي التحنف لا حاس[4] ولا زاني »
« فيـك الحيـاء تـرد الـطرف هيبتـه
من الجـلال ونـور الـوجـه ربَّـاني »

---

(١) باشطان : بالتباعد عن الحق .
(٢) هيما : حباً .
(٣) ربى : النعمة .
(٤) حاس القوم : وطئهم وأهانهم .

إسلامه

« بدعوة من أبي بكر عقدت على
حب الحنيفة العظمى بإذعان »
« صحبت طلحة في طه تبايعه
مع الزبير بتصديق وإيمان »
« فقبضة من رسول الله كان بها
بسط لكم ونبذتم دين أوثان »
« وعمك الحكم العادي عليك بما
أتيت من ترك أصنام بديان »
« يهوى رجوعك للعزى فحدت وقد
عصيته رغم كيد أي عصيان »
« فالسابقون الحوار يون أنت ومن
صحبت عشرة أشياخ وفتيان »

هجرته الأولى من أذى قريش

« من ذا يوازيك (ذا النورين) منزلة
من أهل أحمد إلاّ صهره الثاني »
« أيدته الجهد في دعواه محتملاً
أذى قريش بتسليم وتكلان »
« وحين خفت عداء القوم إذ فجروا
واستهدفوك لأحقاد وأضغان »

«هَجرت مكة مع بنت النبي إلى
أرض النجاشي لم تذعن لكفران»
«لما تحملتها طه دعا لكما
فعدتما حين لا كيد لإنسان»
«وفي صباح الهدى حمد السرى ولقد
يُنسى الأسى الطيب الرجعي لأوطان»
«وقال أحمد في زوجيك إذ قضتا
لو أن ثالثة لي يا إبن عفان»

مصير الخلافة إليه بالشورى

«قد يَمم الصحب والأنصار أفضلهم
دار بن مُخرمة والصحب قسمان»
«وباجتهاد إبن عوف بز قسمِك إذ
سعى ثلاث ليال سَعى كتمان»
«محض اجتهاد فلا ميلٌ ولا عنت
ولا مراعاة أفخاذٍ وبطنان»
«وما الخلافة إلاَّ حولها فتنٌ
والملك لله لا يبقى لإنسان»
«ما الملك في الأرض للملاَّك غير مُنى
تمر كالطيف في أوهام وسنان»

«لو شاءها المصطفى في بيته أبداً
لكان سعيٌ عليٍّ قبل عثمان»
«ضلَّ الخوارج ثم الشيعة التحدث
كلاهما كان في زيغ وطُغيان»
«إلّا رجالاً هداهم ربهم رشداً
أولاء للحق كانوا خير أعوان»

بدء أعماله في الخلافة

«يا واحد الستة الموصى بهم عمر
والباذل النفس في مرضاة رحمان»
«ولما استقر إليك الملك وانفسحت
لك المسافة في عزّ وسلطان»
«زدت العطايا ووفدت الوفود إلى
دار الخلافة من أشتات
«وقمت فيهم خطيباً مُلْقياً حِكماً
طالت على قول لُقمان وسَحبان»
«بعثت بالكتب للأمصار حاملةً
هدياً لعمالها في حُسن تبيان»
«فاستحكموا العدل في الذمى وانثلجت
صدور أولاء من هود ونصراني»

« فشدت للحق صرحاً غير جانبه
في كل مصر فنعم الشائد الباني »
« وخير ما جدت للإسلام من أثر
ما قد سبقت به من جمع قرآن »
« ثم التفت إلى الأمصار تلفتها
لوجه ربك عن تأليه أوثان »

انفاقه في سبيل الدين

« يَسَّرت للعسرة الشعواء غزوتها
بالخيل والعير فيها كل قرحان »
« وجئتَ بالمال في حجر النبي ولم
تكن على الملة الكبرى بمنّان »
« ومن يعن ملة الإسلام في حرج
يَكن له الله حسباً خيرَ معوان »
« وبئر رومة قد خلّصت ركوتها
من اليهودي تُسقي كل ظمآن »
« وكان هذا يبيع الماء من طمع
للمسلمين بمقدار وميزان »
« فكان أجرك والمختار ضامنه
عيناً من الماء في جنات رضوان »

« وزدت في مسجد المبعوث متخذاً
بديل هذا بعدن خير بنيان »
« كأن مالك مال المسلمين متى
شاءوا فلست على شيء بخزان »

فكنت عند رسول الله ناصره
يجلك العرب من قاص ومن دان

الفتنة

« وحين تم صفاء الدهر وأسفا
أتى الزمان بتكدير ونقصان »
« جنى عليك جناة ساء ظنهم
فجاء من مصر أشياع إبن حمران »
« والكوفة انتقضت والبصرة افتتنت
بمثل بشر وأتباع إبن صوحان »
« وإبن اليهودية السوداء مفسدهم
بدعوة زينت في شر آذان »
« فيمموا البيت والشيطان قائدهم
فما رأوا ناصراً من أي عدناني »
« لكنهم في جماعات وفي عدد
والشر محتدم في كل وجدان »

« عدّوا عليك أموراً فاعتـذرت لهم
والعـذر لم يجد. في نـورات ضـمان »
« فأنت والشعب قد ثارت خشارته[1]
كـطالب النـور من أبصـار عميـان
هل ينفع العذر والعتب وقد حزنت »
جند العراق عن الرجعي ونجران »

الحصار

« فحاصروك وكفّوا الماء عنك عسى
تـرضى البراءة من أعبـاء سلطان »
« فكدت ترضى ولكن أين ذلك من
شيـخ على سمعـه بالـرأي ضدان »
« دسـوا عليك كتـابـاً لست كـاتبـه
أهـاج مصـر ومنـه هـاج مصـران »
« فجد جد حصـار القوم في خـطر
وأفلت الأمـر من أهـل وأخران »
« وكـان ممن وقـاك القـوم أربعـة
ببـاب دارك قامـوا خوف غشيـان »
« محـمـد ثم عـبـد الله يسـبـقـه
حـول الخليفـة للذود الحسينـان »

(١) الخشارة (الرديء من كل شيء) .

« أبعــد ذلـك من يــرمى أمـانتهم
ألاَ لقــد ضـل راميهم بخــذلان »

القتــل

« تسلقوا الدار من خلف وما حفظوا
عهـداً فجادلتهم في كـل بـرهـان »

« وما ائتمرت بـأمر الخلع فـاتقدت
أحقـادهم فـرمـاهـا شـر طعـان »

« شلّت يداك أيا إبن الحمق كيف ترى
ومن رميت صـريعاً أيهـا الجاني ؟ »

« الدين والحلم والتقوى فتكت بهـا
والله لم ينتـطح في ذاك كبشـان »

« دَم الشهيد خزاك الله كيف جرى
على يديك أما تحنو على الحـاني ؟ »

« أثكلت ملة إبــراهيم عن سفــه
وأصبح الصحب في نوح وأحزان »

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

علي بن أبي طالب

رابع الخلفاء الراشدين

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

عَلي بن أبي طالب

الناشر: دَار الفكر اللبناني
تلفون: ٢٣٧٠٩٥ - ٢٥٦٤١٨ - ٢٥٥٥٤٩
تلكس: ٢٣٦٤٨ - ص.ب ٤٦٩٩ - بيروت - لبنان



علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب ، بن عبد المطّلب ، بن هاشم ، إبن عبد مناف ، بن قصيّ ؛ فهو إبن عم رسول الله ﷺ ، وأمه فاطمة بنت أسد ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، وكان عليٌّ أصغر بنيها ، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً ، فهو أول خليفة أبواه هاشميان .

وكنّاه عليه السلام أبا تراب وذلك أنه وجده نائماً في المسجد قد سقط عنه رداؤه ، وأصاب التراب جسده ، فجاء حتى جلس عند رأسه وأيقظه ، وجعل يمسح التراب عن ظهره ، ويقول له : أجلس إنما أنت أبو تراب .

فكانت من أحب كناه إليه ، وكان يفرح إذا دعى بها .

وكان إسمه الأول الذي سمته به أمه حَيدرة باسم أبيها أسد بن هاشم والحيدرة الأسد ، فغير أبوه اسمه وسماه عليًّا .

نشأتـه

ولد بمكة داخل البيت الحرام في السنة الثانية والثلاثين من ميلاد النبي ﷺ وشب في بيت رسول الله ﷺ متحلّياً بمكارم الأخلاق ، مقتدياً به في أقواله وأفعاله ، فنشأ عفَّ اللسان ، قوي العزيمة ، طاهر العقيدة ، لم يتدنس بدنس الجاهلية ، ولم يعبد وثناً قط ، ولم يسجد لصنم ، ولذا قيل : علي كرّم الله وجهه .

ولما بُعث رسول الله ﷺ كان عليّ أول صبي أسلم وسنه ثمان سنين .

ولما بلغ مرتبة الرجال ، كان بحراً لا يُدرك غوره في الحلم والحكمة ، راسخ الإيمان ، سخياً جواداً ، يتصدق على الفقراء مع ضيق حاله ، أبي النفس ، شديداً على الكفار ، رحيماً على المؤمنين .

زواجه

تزوج بالسيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ في السنة الثانية من الهجرة ، وسنها خمس عشرة سنة ، ورزق منها بالحسن ، والحسين ، وزينب ، رضي الله عنهم أجمعين ، وكان خطيباً مفوهاً ، يستولي بفصاحته على النفوس ، وكان ممن يكتبون الوحي للنبي ﷺ ، وقد قال له النبي ﷺ عندما آخى بين

المهاجرين والأنصار: « أنت أخي في الدنيا والآخرة » .

شجاعته وأخلاقه

شجاعته وإخلاصه للنبي ﷺ - في الليلة التي اعتزم فيها الكفار قتل النبي عليه الصلاة والسلام أمره الرسول أن يبيت في مكانه ، تضليلاً للكفار ، وخرج هو مع أبي بكر مهاجرين إلى المدينة ، فامتثل عليّ أمره ، وفداه بنفسه ، ونام في فراشه ، غير هيَّاب ولا وجل ، فلما دخلوا عرفوه ، وأدركوا أن النبي قد فاتهم ، وأخفقت مكيدتهم .

وقد شهد على مع الرسول ﷺ الغزوات كلها إلاَّ غزوة تبوك لأن النبي ﷺ استخلفه على المدينة ، فلما أسف على ذلك ، قال له النبي ﷺ : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى .

وكان له الآثار المحمودة ، والمواقف المشهودة ، في الغزوات ، وهو الشجاع الذي لا يصد ، والقوي الذي لا يرد ، وكان الأبطال يتفاءلون باسمه ، فكانوا يكتبونه على سيوفهم ، كأنما هو آية النصر والفوز ، ولذا سموه « سيف الله المسلول » .

أوليائه

انه أول المبارزين يوم بدر ـ وأول الثابتين يوم أحد ـ وأول الفاتحين يوم خيبر ـ وأول السابقين يوم فتح مكة .

ولـمّا توفي رسول الله ﷺ وبويع أبو بكر بايعه علي مع أنه كان يرى له حقاً في الخلافة لقرابته من رسول الله ﷺ ؛ ولكنه كان يكره الخلاف .

ولما ولى عمر بايعه عليّ كذلك ، وزوجه بنته أم كلثوم ، وكثيراً ما كان عمر يستخلفه على المدينة إذا غاب عنها .

ولما بويع عثمان بايعه أيضاً ، حتى كان آخر خلافته ، وقام عليه الثوار ، وشنعوا عليه بتوليته أقاربه ، كان علي كثيراً ما يمحص له النصح ، ويرشده إلى ما فيه النجاح والفلاح .

خلافته

بعد موت سيدنا عثمان رضي الله عنه اختلف الناس في أمر الخلافة ، وتحزبوا أحزاباً ، غير أن الحزب الأقوى كان مع سيدنا علي لتزكيته من أكابر الأنصار والمهاجرين وغالب الصحابة المعتبرين . فلما ذهبوا لمبايعته امتنع وقال لهم : « أكون وزيراً لكم خير من أن أكون أميراً ، ومن اخترتم رضيته فأنا مستقبلون أمراً له وجوه ، وله ألوان لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت عليه العقول » .

فناشدوه الله والدين ، وألحوا عليه وقالوا : لا نعلم أحق منك ، ولا نختار غيرك ، فأبى ، فخوفوه الله في مراقبة الإسلام حتى غلبوه في ذلك فقال : قد أجبتكم ، فبويع له بالخلافة لخمس بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين هجرية ، وما تخلف عن مبايعته إلاّ نفر قليل ، منهم مروان ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن سلام ، وقدامة بن مظعون ، وأبي سعيد الخدري ، وكعب بن مالك ، والنعمان بن بشير ، وحسان بن ثابت ، وغيرهم من بني أمية ، ولحقوا بالشام عند معاوية ، ومعهم قميص سيدنا عثمان ليطالبوا بدمه ، مع أن سيدنا علياً أخذ يسأل عن قاتله ، ويبحث ، فلم يهتد إلى الحقيقة .

ولما دخل عليّ الكوفة دخل عليه رجل من حكماء العرب فقال :

والله يا أمير المؤمنين لقد زينت الخلافة وما زانتك ، ورفعتها وما رفعتك ، وهي كانت أحوج إليك منك إليها .

أعماله في الخلافة

بدأ أعماله في الخلافة بتغيير بعض الولاة خصوصاً من كانوا سبباً في الخروج على عثمان ، ثم أخذ يرتب حكومته على ما

يرى فيه الصالح وهدوء الخاطر ، فلم يلبث أن خرج عليه طلحة وإبن عوام ، ولحقا بعائشة زوج الرسول ﷺ ، وحرضاها على المطالبة بدم عثمان ، فانضم إليهم خلق كثير ، وساروا بنحو ثلاثين ألف مقاتل إلى البَصرة ، وحاربوا واليها ، حتى هزموه وقبضوا عليه ، فلما علم سيدنا علي بذلك سار إليهم في عشرة آلاف رجل وحاربهم محاربة عنيفة أسفرت عن حزيمتهم ، وعن قتل طلحة وإبن العوام .

وكانت عائشة إذ ذاك راكبة في هودجها على جمل ، فسميت هذه الواقعةَ واقعة الجمل وعند انقضاء الحرب قابلها سيدنا علي وأكرمها وردّها معززة إلى المدينة .

ومن أعماله أيضاً أنه ترك المدينة ، واتخذ الكوفة مقراً لحكومته ، وأرسل لمعاوية بن أبي سفيان يدعوه إلى الطاعة ، والدخول فيما دخل الناس فيه ، ويقطع طمعه في الخلافة . فامتنع معاوية وقال : حتى تقتل قاتل عثمان ، ويختار المسلمون لهم إماماً .

وبعد مكاتبات كثيرة بينهما في هذا الشأن دعا معاوية نفسه بأمير المؤمنين واستعد للمحاربة .

حروبه

حين علم سيدنا عليّ كرّم الله وجهه بذلك أخذ جيشه وسار

لمحاربته بالشام ، فاجتمع الجيشان في جهة صفين (موضع في العراق بشاطىء نهر الفرات) وسميت هذه الواقعة (بواقعة صفين) .

وحينئذ طلب سيدنا عليّ من معاوية المبايعة والرجوع عن الحرب ، فأبى وأصرّ كل منهما على مطلوبه متحققاً أنه الصالح للأمة ، فنشبت الحرب بينهما بقوة وشدة مدة طويلة حتى ظهرت السآمة والضعف في جيش معاوية .

فلما رأى ذلك عزم على الفرار ، فأشار عليه عمرو بن العاص ، برفع المصاحف على أطراف الرماح ، فرفعوها طالبين العمل بما فيها من التحكيم ، فقبل سيدنا علي ذلك ، واختار أهل الشام عَمرو بن العاص نائباً عنهم ، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري وكتبوا عهداً بذلك ، وبأن الاجتماع يكون بدومة الجنْدل وهي قرية بين الشام والمدينة في يوم معلوم .

ثم رجع عليّ إلى الكوفة ، ومعاوية إلى الشام ، وفي الموعد اجتمع الحكمان وكثير من الناس ، وتفاوضا في الأمر أياماً ، وكل منهما حريص على صاحبه ، إلى أن اتفقا على أن كل واحد منهما يخلع صاحبه ، والمسلمون يبايعون من يشاؤ ون .

فقام في الناس أبو موسى الأشعري خطيباً وقال : قد اتفقت أنا وصاحبي هذا عمرو بن العاص على أمر نرجو به صلاح هذه الأمة ، وهو أن يخلع كل منا صاحبه ، ثم يختار المسلمون خليفة لهم ، وها أنا قد خلعت عليّاً ومعاوية كما أخلع سيفي هذا وأخرجه من غمده .

ثم قام عمرو بن العاص شاهراً سيفه ، وقال : أيها الناس إن صاحبي هذا الأشعري قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه عليّاً ، وأنا مُصدق على خلعه أيضاً ؛ ولكني أثبت صاحبي معاوية ، كما أثبت سيفي هذا وأدخله في قرابه ونزل ، فصاحت الناس ، حكم الحكمان بغير مافي كتاب الله .

وعلى ذلك انتهى الأمر ، وانصرف أهل الشام مع عمرو يهنئون معاوية بالخلافة ، وانصرف أبو موسى ، ولحق بمكة حياءً من الناس ؛ ولكن هذه الحيلة لم تكن حاسمة للأمر ، بل بقي كل على ما كان عليه ، وجرت أمور ليس هنا محل ذكرها .

وفاته وسبب مقتله

بناء على ما تقدم صارت الدولة الإسلامية حزبين متضادين ، غير أن الفتنة فشت في حزب سيدنا علي ، واستطار شررها ما بين خوارج عليه ، وشيعته ، ومحاربين معه ، ومقاتلين لأجله ، حتى كثر النزاع ، وانتشر النفاق ، واختلف

الناس ، وتفرقت قلوبهم ، ولذا لما سأله بعضهم بقوله : كيف تختلف الناس عليك ، ولم تختلف على أبي بكر وعمر ؟ قال : إنهما كانا واليين على مثلي ، وأنا اليوم والٍ على مثلك . فأخذ سيدنا علي كرّم الله وجهه في إطفاء تلك الفتنة ، ولكن كان كلما أطفأ واحدة قامت أخرى ، حتى سئم الحياة ، وصار يستغيث بالله ، ويطلب اللحاق بمن سبقه ، فاجتمع بعض الخوارج وطلبوا قتل علي ومعاوية وعَمرو بن العاص ؛ فتعهد بقتل الامام « عبد الرحمن بن مُلجم المرادي » وبقتل معاوية « البّرك بن عبد الله التميمي » وبقتل عَمرو « عمرو بن بكر التميمي » .

واتفقوا على تنفيذ ذلك كله في فجر الجمعة ١٧ من شهر رمضان سنة ٤٠ من الهجرة . فأما البَرك فذهب إلى معاوية وانتظره حتى ضربه في صلاة الصبح ضربة لم تمته ، وأمر به معاوية فقتل .

وأما عَمرو بن بكر فذهب إلى عَمرو بنِ العاص بمصر فلم يخرج تلك الليلة لعذر ، وأناب عنه رجلاً يدعى « خارجة بن حبيب » فضربه الخارجي زاعماً انه عَمرو بن العاص فقبض عليه وقتل ، وعلى ذلك جاء المثل المشهور (أراد عَمراً ، وأراد الله خارجة) .

وأما إبن مُلجم فأتى الكوفة وانتظر عليّاً حتى سمعه ينادي

للصلاة فضربه بسيفه المسموم قائلاً (الحكم لله لا لك يا علي ، ولا لأصحابك) .

فقال علي : قتلني الرجل ، لا يفوتنكم ، فلما قبضوا عليه ، قال أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه : النفس بالنفس ، إن هلكت فاقتلوه ، ولا تمثلوا به ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي يا بني عبد المطلب ، ثم قتلوا الرجل بعد موت أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه ، وكان عمره إذ ذاك ٦٣ سنة ، ومدة خلافته خمس سنين إلّا ثلاثة أشهر ، ودفن في بلدة تسمى بالنجف في بلاد العجم .

أولاده

قد اختلف الناس في عدد أولاده ، فمنهم من أكثر ، ومنهم من أقل ، ففي كتاب الأنوار لأبي القاسم إسماعيل أن أولاده ٣٢ اثنان وثلاثون ، ستة عشر ذكراً ، وست عشرة أنثى

وفي بغية الطالب : أولاده رضي الله عنه ٣٣ ثلاثة وثلاثون ، خمسة عشر ذكراً ، وثمان عشرة أنثى بالاتفاق .

أما الذكور فهم : الحسن ، والحسين ، ومحسن ، ﴿ وأمهم فاطمة الزهراء البتول بنت الرسول ﷺ ﴾ ومحمد الأكبر (أمه خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية) وعبيد الله ،

وأبو بكر (أمهما ليلى بنت مسعود) والعباس الأكبر ، ويلقب بالسقاء ، وعثمان ، وجعفر ، وعبد الله (أمهم بنت حزام) ومحمد الأصغر (أمه أم ولد) ويحيى ، وعوف (أمهما أسماء بنت عميس) وعمر الأكبر (أمه أم حبيب) ومحمد الأوسط (أمه إمامة بنت أبي العاص) والجميع مذكورون في كتاب نور الأبصار .

* * *

وأما البنات فهن : أم كلثوم الكبرى زوجة عمر بن الخطاب ، ورُقية ، وزينب الكبرى ، شقيقة الحسن والحسين ، ورُقية ، شقيقة عمر الأكبر ، وأم الحسن ، ورملة الكبرى (أمهما أم سعد) وأم هانىء ، وميمونة ، ورملة الصغرى ، وزينب الصغرى ، وفاطمة وامامة ، وخديجة ، وأم الخير ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانة ، وتقية .

وجميعهن مذكورات في كتاب نور الأبصار .

وصف الإمام

كفى بشهادة الرسول ﷺ بأنه باب مدينة العلم دليلاً على مكنون السرِّ الذي فيه .

فهو أول في العلوم ، أول في الشجاعة ، وأول في السخاء ، أول في الحلم والصفح ، أول في الفصاحة ، أول

في الزهد ، أول في العبادة ، أول في التدبير والسياسة ، أشد الناس رأياً ، وأصحهم تدبيراً ، لولا تقاه لكان أدهى العرب ؛ كأنما أفرغ في كل قلب ، فهو محبوب إلى كل نفس ، ظهر من حجاب العظمة بمعاليه ، فاستولى الاضطراب على الأذهان والمدارك ، وذهب الناس فيه مذاهب خرجت بهم عن حدود العقل والشريعة ، أهل الذمة تحبه ، والفلاسفة تعظمه ، وملوك الروم تصوره في بيوتها وبيعها ، ورؤساء الجيوش تكتب إسمه على سيوفها كأنما هو فأل الخير ، وآية النصر والظفر .

وسأل معاوية إبن عباس أن يصف له علياً فقال :

كان أمير المؤمنين ، رضوان الله عليه ، غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، يدنينا إذا أتيناه ، ويجيبنا إذا دعوناه ، وكان مع تقربته إيانا وقربه منا لا نبدأه بالكلام حتى يبتسم ، فإذا هو تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، أما والله يا معاوية لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وهو قابض على لحيته يبكي ، ويتململ تململ السليم وهو يقول :

يا دنيا إياي تغرين ؟ أمثلي تشوقين ؟ لا حان حينك ، بل زال زوالك ، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعيشك حقير ، وعمرك قصير ، وخطرك يسير ، آه آه من بعد السفر ، ووحشة الطريق ، وقلة الزاد ! قال :

فأجهش ومن معه بالبكاء : (وقيل أن هذا مرويّ عن ضرار الصدائي) .

صفاته ومناقبه

صفاته الخَلقية : كان علي كرم الله وجهه ، شديد الأدمة ، ثقيل العينين عظيمهما ، أقرب إلى القصر من الطول ، ذا بطن كثير الشعر ، عريض اللحية ، أصلع ، أبيض الرأس واللحية .

صفاته الخُلقية :

شجاعته : علاوة على ما سبق ذكره من شجاعته ، وإخلاصه للنبي عليه الصلاة والسلام نقول :

كان لعي كرم الله وجهه في الحرب مواقف مشهودة يضرب بها الأمثال ، فهو الشجاع الذي ما فرط قط ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحداً إلّا قتله .

وقد شهد الغزوات كلها مع النبي ﷺ إلّا غزوة (تبوك) فقد خلفه على أهله حين خرج لقتال الروم في جيش جرار : وأبلى عليٌّ في نصرة رسول الله ما لم يبله أحد .

وكان رضي الله عنه قوياً جداً ، فهو الذي قلع باب خيبر واجتمع عليه عصبة من الناس ليقلبوه فلم يقدروا . قال

جابر بن عبد الله : حمل عليٌّ الباب على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها ، وأنهم جرُّوه بعد ذلك فلم يحمله إلاّ أربعون رجلًا (أخرجه إبن عساكر) .

وهو الذي اقتلع هُبَل « صنم كبير كانت قريش تعبده » من أعلى الكعبة ، وكان عظيماً كبيراً فألقاه على الأرض .

حلمه وعفوهُ

كان رضي الله عنه أحلم الناس عن مذنب ، وأصفحهم عن مسيء ، يشهد بذلك أنه ظفر يوم واقعة الجمل بمروان بن الحكم ، وكان أعدى الناس له ، وأشدهم بغضاً ، فصفح عنه وكان عبد الله بن الزبير يشتمه ويسبه على رؤوس الأشهاد ، وخطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوغد (اللئيم) علي بن أبي طالب ، فظفر به يوم الجمل فأخذه أسيراً وصفح عنه ، وقال له : إذهب فلا أرينك ، ولَم يزده على ذلك . وظفر بسعيد بن العاص بعد واقعة الجمل بمكة ، وكان له عدواً ، فأعرض عنه ، ولم يقل شيئاً ، وتمت له الغلبة على السيدة عائشة رضي الله عنها يوم الجمل ، فكانت عاقبة أمرها معه أن جهزها بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع ، واختار لها أربعين أمرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وردها إلى المدينة مكرمة محترمة ، وحاربه أهل البصرة وسبوه ، ولعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم .

ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء ، وأحاطوا بشريعة الفرات ، وقال رؤساء الشام له : اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً ، سألهم علي وأصحابه أن يسوغوا له شرب الماء ، فقالوا : لا والله ، ولا قطرة حتى تموت ظمأً كما مات عثمان بن عفان .

فلما رأى أن الموت لا محالة منه تقدم بأصحابه ، وهجم على عسكر معاوية حملات كثيفة ، حتى أزالهم عن مراكزهم ، بعد قتل ذريع ، وملكوا عليهم الماء ، وصار أصحاب معاوية في الفلاة بلا ماء ، فقال له أصحابه وشيعته : إمنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ولا تسقهم قطرة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضاً بالأيدي فلا حاجة لك إلى الحرب .

فقال رضي الله عنه : لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم ، افسحوا لهم عن بعض الشريعة ، ففي حد السيف ما يغني عن ذلك .

تواضعه

كان يواسي الضعفاء ، ويجالس الفقراء ، ويساعدهم ، وكان يشتري طعامه بنفسه ويحمله ، فإذا أراد أحد أتباعه حمله عنه ، قال : أبو العيال أحق بحمله ، ولنضرب لكم مثلاً من تواضعه .

حكي سيدنا علي عن نفسه قال : جعت بالمدينة جوعاً شديداً فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة موضع قريب من المدينة فإذا أنا بأمرأة قد جمعت مدراً (حصى) فظننتها تريد بلّة لتعمله طيناً ، هي في حاجة إليه ، فأتيتها فعاطيتها كل دلو بتمرة ، فمددت ستة عشر ذنوباً دلواً حتى محلت يدي . ثم أتيتها فقلت بكلتا يدي : هكذا بين يديها وبسط يديه جميعاً فعدّت لي ست عشرة تمرة ، فأتيت النبي ﷺ ، فأخبرته فأكل معي ، وقال لي خيزاً ، ودعا لي .

فانظروا إلى أي حد تواضع سيدنا علي حتى اشتغل للمرأة بالأجر وكيف خدمها ؟ ولم يعتمد على أحد في الحصول على التمر منها ، لعلمه أن الانسان ينبغي ألاّ يأكل إلاّ من عرق جبينه ، وأن يجتهد في العمل للحصول على نفقاته .

عبادته وتقواه

كان رضي الله عنه ، أول من آمن من الصبيان ، فلم يتورط فيما تورطت فيه قريش من العكوف على عبادة الأوثان ، ولم يسجد لصنم قط ، ولذا يدعى له وكرم الله وجهه كما تقدم وأقبل على عبادة ربه بقلب يملؤه الإيمان الخالص ، ويعمره الولاء المحض ، فكان إماماً في العبادة ، والورع ، والتقوى .

زهده

وكان رضي الله عنه سيد الزهّاد في الدنيا ، الجانحين عن الاغترار بزخارفها ، والانخداع بباطلها ، وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً ، طلق الدنيا ، وكانت الأموال تجيء إليه من جميع بلاد الإسلام .

حدثنا أبو حاتم قال : حدثنا الأصمعي قال :

لما أتى علي عليه السلام بالمال أقعد بين يديه الوزان والنقاد ، فكوّم كومة من ذهب ، وكومة من فضة ، وقال : يا حمراء ،. ويا بيضاء ، احمري وابيضي ، وغُرِّي غيري ، وأنشد :

«هــذا جَـنَــايَ وخـيــارُه فـيــه
إذ كــل جــانٍ يــدُه إلـى فيــه»

رأيه وتدبيره

كان رضي الله عنه، من أحسن الناس رأياً ، وأصحهم تدبيراً ، يفزع إلى مشورته الخلفاء إذا أشكل عليهم الأمر ؛ ألا ترى أن عمر بن الخطاب ، وقد عزم أن يتوجه بنفسه لغزو الفرس ، استشار الإمام علياً ، لما يعرفه من حصافة رأيه ، وثقوب فكره ، فأشار عليه بالرأي السديد ، وكان ما قاله له : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه ، بكثرة ولا قلة ، وهو

دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعده ، وأمده حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حينما طلع ، ونحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده .

والعرب اليوم ، وإن كانوا قليلاً ، فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع . فكن قطباً ، واستدر الرحى بالعرب ، وأصِلهِمْ دونك نار الحرب الخ .

ولقد أشار على سيدنا عثمان بأمور كان فيها خلاصة ، ولو قبلها لم يحدث له ما حدث .

يأسه

كان رضي الله عنه صَلباً في الحق ، لا تلين قناته هوادة ، ولا تأخذه فيه مراعاة ، وهو يربأ بنفسه أن يستوي الأفئدة بالمداجاة والمقاربة ، وبذل العطاء ، كما كان يفعل سواه ، ثم هو يرى أن حيدته عن خطته تلك تنكب عن منهاج الشرع القويم ، وانتقاص لدينه ، وكان من جراء ذلك أن انفض من حوله أمسُّ الناس رحماً به ، كأخيه عقيل ، وإبن عمه عبد الله بن عباس ، وكان مسلكه ذلك أحد أسباب إخفاقه ولنذكر مثلاً يؤيد ذلك :

رووا أن عقيلاً لزمه دين ؛ فقدم عَلَى عليٍّ بالكوفة فأنزله وأمر ابنه الحسن ، فكساه ، فلما أمسى دعا بعشائه ، فإذا هو

خبز وملح ، وبقل ، فقال عقيل : ما هو إلاَّ ما أرى ؟

قال : لا . قال : فتقضي ديني . قال : وكم دينك ؟ قال : أربعون ألفاً ، قال : ما هي عندي . ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فإنه أربعة آلاف فأدفعه إليك ، فقال : بيوت المال بيدك ، وأنت تسوفني بعطائك قال : أتأمرني أن أدفع إليك أموال المسلمين ، وقد ائتمنوني عليها ؟ قال : فإني آت معاوية . فأذن له ، فأتى معاوية وكان معاوية زوج خالته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة .

غاضب عقيل أخاه ، وهجره إلى معاوية ، فأكرمه وقربه ، وقضى حوائجه ، وأدى عنه دينه ، وقد قال له معاوية يوماً : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه ، فقال له عقيل : أخي خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي ، وقد آثرت دنياي ، أسأل الله خاتمة خير . وقال له معاوية : أبا يزيد ، أنا لك خير من أخيك علي . قال : صدقت ، إن أخي آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير من أخي ، وأخي خير لنفسه منك .

تصدقه وإحسانه

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام الظهر ، فسأل سائل في المسجد ، فلم

يُعطه أحد شيئاً ، فرفع السائل يديه إلى السماء ، وقال : اللَّهم أشهد ، إني سألت في مسجد نبيك محمد ﷺ فلم يُعطني أحد شيئاً ، وكان علي رضي الله عنه في الصلاة راكعاً ، فأومأ إليه بخنصره اليمنى ، وفيه خاتم من فضة ، فأقبل السائل ، فأخذ الخاتم من خنصره ، وذلك بمرأى من النبي ﷺ ، وهو في المسجد ، فرفع رسول الله ﷺ طرفه إلى السماء ، وقال : اللَّهم إنَّ أخي موسى سألك فقال :

﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ طه . (فأنزلت عليه قرآناً) .

﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ القصص .

اللَّهم وإني محمد نبيك وصفيك ، اللَّهم إشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري .

قال أبو ذر رضي الله عنه : فما استتم دعاءه حتى نزل جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال : يا محمد اقرأ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ المَائدة . (نقلَها أبو اسحق أحمد البقلي في تفسيره) .

ونقل الواحدي في تفسيره يرفعه بسنده إلى إبن عباس رضي الله عنهما قال : كان مع علي رضي الله عنه أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلاً ، وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرّاً ، وبدرهم علانيةً ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرَّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحزَنُونَ ﴾ البقرة .

وعن إبن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات أُولَئِك هُمْ خَيْرُ الْبريَّةِ ﴾ البينة .

قال النبي ﷺ لعلي : أنت وشيعتك تأتي يوم القيامة أنت وهم راضين مرضيين ، ويأتي أعداؤك غضاباً مقمحين .

من مآثره

حصل لسيدنا علي رضي الله عنه وأهله جوع ، فأخذ من يهودي صوفاً لتغزله السيدة فاطمة زوجته بالأجر ، ثم اشترى بأجرها ثلاثة أقداح من الشعير ، وفي اليوم طحنوا قدحاً وخبزوه أقراصاً ، ومن عادة العرب أن يطحنوا ويخبزوا في ساعة واحدة .

فلما أرادوا الأكل طرق بابهم مسكين وقال : السلام عليكم يا أهل بيت النبوة . أنا مسكين من مساكين أمة محمد ﷺ ، أطعموني شيئاً لله ، فأعطوه الأقراص .

وفي ثاني يوم جاءهم يتيم وقال مثل ذلك ، وفي ثالث يوم جاءهم أسير وقال لهم مثل ذلك أيضاً ، ثم باتوا على الماء (أي لم يأكلوا شيئاً) بل كانوا يشربون الماء فقط ، فجاع سيدنا الحسن والحسين جوعاً شديداً فخرج سيدنا علي إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك ، فأعطاه سُلَّة وقال له : إذهب بها إلى تلك النخلة ، فرزقهم الله تعالى رطباً جنياً ، فأكلوا حتى شبعوا وفيهم يقول الله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَام عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ الدهر .

علمـــه

أما علمه كرّم الله وجهه ، فمما لا جدال فيه ، يشهد بذلك قوله ﷺ أنا مدينة العلم وعلى بابها وهذا حديث حسن أخرجه الترمذي ، وتشهد بذلك آثاره من وعظ ، وخطب ، ونثر ، ونظم ، وبدائع وحكم ، كلها مدونة في كتبه المشهورة المنشورة بين الأمم مثل نهج البلاغة وغيره .

وهو أول من ابتدع علم النحو وأنشأه ، وأملى على أبي الأسود الدؤلي قواعده وأصوله ، وقال له أنح هذا النحو يا

أبا الأسود ، وكان أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء ، وأخطب الخطباء .

وكان رضي الله عنه أبرع الصحابة في علوم الدين ، إماماً ثَبتاً في الفقه والتفسير ، حجة في الفتوى ، وليس أدل على ذلك من أن عمر إبن الخطاب رضي الله عنه رجع إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة ، وقال غير مرة : لولا علي لَهلك عمر ، وقال : لا يفتين أحد في المسجد وعليٌّ حاضر ، وقال : اللَّهم لا تبقني لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، والدليل على ذلك القصة الآتية التي تدل على حذقه وعلمه :

روى أن رجلاً أتى به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان صدر منه أن قال لجماعة من الناس وقد سألوه ، كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصدق اليهود والنصارى ، وأؤمن بمن لا أدري ، وأقر بما لم يُخلق .

فأرسل عمر إلى علي رضي الله عنهما : فلما جاءه وأخبره بمقالة الرجل فقال : صدق .

١ ـ يحب الفتنة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُم وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ التغابن .

٢ ـ ويكره الحق ، يعني الموت لقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ قٓ .

٣ ـ ويصدق اليهود والنصارى لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ البقرة .

٤ ـ ويؤمن بما لم يره ، أي يؤمن الله عز وجل .

٥ ـ ويقر بما لم يُخلق يعني الساعة .

فقال عمر رضي الله عنه : أعوذ بالله من معضلة لا علي بها .

حكمه وقضاؤه

قال علي رضي الله عنه : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت : يا رسول الله بعثتني وأنا شاب أقضي بينهم ، ولا أدري ما القضاء ؟ فضرب صدري ثم قال : اللَّهم أهد قلبه ، وثبت لسانه ، فوالذي فلق الحبة ، ما شككت في قضاء بين اثنين .

وقال عليه الصلاة والسلام : أقضاكم علي .

والسبب في ذلك ما روي أن النبي ﷺ كان جالساً مع جماعة من الصحابة فجاءه خصمان ، فقال أحدهما : يا رسول الله إن لي حماراً ، وإن لهذا بقرة ، وإن بقرته قتلت حماري .

فبدأ رجل من الحاضرين ، فقال : لا ضمان على البهائم .

فقال ﷺ : اقض بينهما يا علي .

فقال علي لهما : هل كانا مرسلين أم مشدودين ؟ أم أحدهما مشدود والآخر مرسل ؟

فقالا : كان الحمار مشدوداً ، والبقرة مرسلة ، وصاحبها معها .

فقال علي : على صاحب البقرة ضمان الحمار .

فأقر ﷺ حكمه ، وأمضى قضاءه .

شفقه وعدله

يحكى أن سيدنا عليّاً جاء إلى أصحاب التمر ، فوجد جارية تبكي عند التمار وكان الخليفة وقتئذ فلما رأى هذه الجارية تبكي أراد أن يعلم سبب بكائها ، فجاء إليها وقال لها : ما شأنك ؟ فقالت الجارية : باعني التمار بدرهم ، فردّه مولاي (سيدي) ولم يقبله . فقال سيدنا علي : يا صاحب التمر خذ تمرك وأعطها درهم فإنها خادم ، وليس لها أمر (يريد أن البيع لا يلزمها لأن سيدها هو صاحب الشأن) .

فدفع التمار سيدنا عليّاً ، وكان بعض الناس حاضراً .

فقال المسلمون للتمار : أتدري مَن دفعت ؟ أي هل تعلم مَن الذي دفعته بيدك ؟

فقال الرجل : لا . قالوا : هو أمير المؤمنين .

فصب الرجل تمرها ، وأعطاها درهمها ، وأراد أن يعتذر لسيدنا علي ، لأنه أخطأ في دفعه ، وكان عليه أن يقبل منه كلامه في أول الأمر فجاء لسيدنا علي ، وقال : أحب أن ترضى عنه .

فقال علي رضي الله عنه : ما أرضاني عنك إذا وفيت الناس حقوقهم فاعتذر الرجل لسيدنا علي عما كان منه .

أمانتــه

كان رضي الله عنه أميناً علىٰ مال الأمة : فمما يؤثر عنه ، أنه كان في بيت المال عقد لؤلؤ ، فطلبته ابنته من الخازن ، واستعارته لتتجمل به يوم عيد الأضحى ، فأرسلها إليها عارية مضمونة ، ترد لبيت المال بعد ثلاثة أيام ، فرآه سيدنا علي في عنق ابنته يوم العيد ، فعرفه فسألها من أين جاء إليها ؟

فقالت : استعرته من خازن بيت المال ، لأترين به في العيد ، ثم أرده ، فبعث إليه سيدنا علي ووبخه على إعارته العقد لبنته بغير إذنه ، وبغير رضا المسلمين . فقال له

الخازن : إنها إبنتك ، وطلبته مني عارية مردودة ترده سالماً إلى موضعه ، فأمره سيدنا علي بأن يرده من يومه وحذّره بألاّ يعود لمثل ذلك .

ثم وبّخ إبنته على ذلك ، فقالت له : وكانت تظن أنه يوافقها

يا أمير المؤمنين ، أنا إبنتك ، وبضعة منك ، فمن أحق بلبسه مني ؟

فقال لها : أكل نساء المهاجرين ، والأنصار ، يتزيّن في مثل هذا العيد بمثل هذا ؟ (يريد أنها لا حق لها في ذلك) .

ثم أمر برده ، فأعادته إلى بيت المال .

فمن هذه القصة نعلم مقدار حب سيدنا علي للحق ، والعدل ، والانصاف ، وشدة أمانته ، وحرصه على مال المسلمين ، وأنه كان لا يحب أن تكون أسرته أحسن من باقي أسر المسلمين .

وقيل : انه كان يكنس بيت المال ثم يصلي فيه رجاء أن يشهد له أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين .

الأحاديث الواردة في فضله

قد وردت أحاديث كثيرة تدل على فضل الإمام علي كرّم الله وجهه وحب رسول الله له نذكر بعضها :

● قال الإمام أحمد بن حنبل : ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما ورد لعلي رضي الله عنه . (أخرجه الحاكم)

● وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال : يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان ، فقال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى ؟ غير أنه لا نبي بعدي » .

● وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد « أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبات الناس يدركون أي يخوضون ويتحدثون ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه ، قال : فأرسلوا إليه ، فأتي به ، فبصق رسول

الله صلى الله عليه واله وسلم في عينيه ، ودعا له فبرىء ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية .

● وأخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : لما نزلت هذه الآية : « ندع أبناءنا وأبناءكم » دعا رسول الله ﷺ عليّاً ، وفاطمة ، وحسناً ، وحسيناً فقال : اللّهم هؤلاء أهلي .

● وأخرج الترمذي ، والحاكم ، وصححه عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله أمرني بحب أربعة ، وأخبرني أنه يحبهم ، قيل : يا رسول الله سمهم لنا ، قال : عليّ منهم (يقول : ذلك ثلاثاً) وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان .

● وأخرج الترمذي والنسائي وإبن ماجة عن حبشي بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « علي مني وأنا من علي » .

● وأخرج التُرمذي عن إبن عمر قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، فجاء علي تدمع عيناه فقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك ، ولم تؤاخ بيني وبين أحد ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنت أخي في الدنيا والآخرة .

وأخرج مسلم عن علي قال : والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة انه لعهد النبي الأميّ إليّ أنه لا يحبني إلاّ مؤمن ، ولا يبغضني إلاّ منافق .

● وأخرج الترمذي والحاكم عن علي قال : قال رسول الله ﷺ (أنا مدينة العلم وعليّ بابها) هذا حديث حسن على الصواب ، وسبق ذكره في علمه .

● وأخرج الحاكم وصححه عن علي قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت : يا رسول الله بعثتني وأنا شاب أقضي بينهم ، ولا أدري ما القضاء ؟ فضرب صدري بيده ثم قال : اللَّهم إهد قلبه ، وثبت لسانه ، فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين ، وسبق ذكره في قضائه .

● وأخرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب : عليّ أقضانا .

● وأخرج إبن عساكر عن إبن مسعود قال : .أفرض أهل المدينة وأقضاهم علي بن أبي طالب .

● وقال عبد الله بن عيّاش بن أبي ربيعة : كان لعلي ما شئت من حرس قاطع في العلم ، وكان له البسطة في العشيرة ، والقدم في الإسلام ، والعهد برسول الله ﷺ ، والفقه في السنة ، والنجدة في الحرب ، والجود في المال .

● وأخرج أبو يعلى عن أبي هريرة قال : قال عمر بن الخطاب : لقد أعطى على ثلاث خصال ، لأن تكون لي خصلة منها أحب إليّ من أن أعطي حمر النعم . فسئل ، وما

هن ؟ قال : تَزَوُّجه ابنته فاطمة وسكناه المسجد ، لا يحل لي فيه ما يحل له ، والراية يوم خيبر .

● وأخرج أبو يعلى ، والبراز عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله ﷺ : من آذى عليّاً فقد آذاني .

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ قال : من أحبَّ عليّاً فقد أحبني ، ومَن أحبني فقد أحبَّ الله ، ومن أبغض عليّاً فقد أبغضني ، ومن أبغضني فقد أبغض الله .

● وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن أم سلمة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سبّ عليّاً فقد سبني » .

● وأخرج الطبراني عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا على الحوض » .

آثاره

نبذ من كلامه ، وحكمه ، ووصاياه

النثر

عن إبن عباس رضي الله عنهما قال : ما انتفعت بكلام بعد رسول الله ﷺ كانتفاعي بكتاب كتبه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه كتب إلى :

أما بعد فإن المرء يسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، ويسره إدراك ما لم يكن ليفوته ، فليكم سرورك بما نلت من آخرتك ، وليكن أسفك على ما فات منها ، وما نلت من دنياك ، فلا تكن به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تأس عليه ، وليكن همُّك لما بعد الموت والسلام .

وأخرج إبن عساكر عن ربيعة قال : قال عليّ : كونوا في الناس كالنحلة في الطير ، إنه ليس في الطير شيء إلاّ وهو يستضعفها ، ولو يعلم الطير ما في أجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها .

خالِطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم ، وزايلوِهم بأعمالكم وقلوبكم ، فإن للمرء ما اكتسب وهو يوم القيامة مع من أحبّ .

وأخرج إبن يحيى بن جعدة قال : قال علي بن أبي طالب : يا حملة القرآن اعملوا به ، فإنما العالم من علم ، ثم عمل بما علم ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم ، وتخالف سريرتهم علانيتهم ويخالف عملهم علمهم ، يجلسون حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً ، حتى أن الرجل يغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ، ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله .

وقال رضي الله عنه يخاطب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن أردت أن تلحق بصاحبيك ، فاقصر الأمل ، وكل دون الشبع ، وارقع القميص ، وألبس الأزرار ، واخصف النعمل تلحق بهما .

وقال رضي الله عنه : الشيء شيئان : شيء قصر عني لم أرزقه فيما مضى ، ولا أرجوه فيما بقي ، وشيء لا أناله دون وقته ، ولو استعنت عليه بقوة أهل السموات والأرض .

فما أعجب الانسان ليسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، ولو أنه فكر لأبصر ، ولعلم أنه مدبر ، وآقتصر على ما تيسر ، ولم يتعرض لما تعسر ، واستراح قلبه مما استوعر .

فكونوا أقل ما تكونون في الباطن آمالاً ، وأحسن ما تكونون

في الظاهر أعمالاً ، فإن الله تعالى أدب عباده المؤمنين أدباً حسناً ، فقال عز من قائل :

﴿ يَحْسَبُهُمْ الجَاهِلُ أغْنِيَاء مِنَ التَّعفُّف تَعْرِفُهُمْ بِسيمَاهُمْ لا يَسْألُونَ النَّاسَ إلْحِافاً ﴾ البقرة .

ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء ، طلباً لما عند الله تعالى ! وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله .

ومن كلامه : التوفيق خير قائد ، وحسن الخلق خير قرين ، والعقل خير صاحب ، والأدب خير ميراث ، ولا وحشة أشد من العجب .

ومن كلامه رضي الله عنه : لا تكون غنياً حتى تكون عفيفاً ، ولا تكون زاهداً حتى تكون متواضعاً ، ولا تكون متواضعاً حتى تكون حليماً ، ولا يسلم قلبك حتى تحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، وكفى بالمرء جهلاً أن يرتكب ما عنه نهي ، وكفى به عقلاً أن يسلم الناس من شره ، وأعرض عن الجهل وأهله وأكفف عن الناس ما تحب أن يكف الناس عنك ، وأكرم من صافاك ، وأحسن مجاورة من جاورك ، وإن جانبك .

واكفف الأذى ، واصفح عن سوء الأخلاق ، ولتكن يدك العليا إن استطعت ، ووطن نفسك على الصبر على ما أصابك ، وألهم نفسك القناعة ، وأكثر الدعاء تسلم من ثورة

الشيطان ، ولا تنافس على الدنيا ، ولا تتبع الهوى ، وعليك بالشيم العالية ، تقهر من يناويك .

وعنه أيضاً : قل عند كل شدة : لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم تكف ، وقل عند كل نعمة : الحمد لله ، تزد منها .

وإذا أبطأت عليك الأرزاق ، فاستغفر الله يوسع عليك . مفتاح الجنة الصبر ، ومفتاح الشرف التواضع ، ومفتاح الكرم التقوى .

نصحه لإبنه الحسن

يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم ، وإن قلَّ ما تعلم ، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك ، ولا تكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حرّاً .

واعلم أن حفظ ما في يديك ، أحَب إليَّ من طلب ما في يد غيرك ، ولا تأكل من طعام ليس لك فيه حق ، فبئس الطعام الحرام ، وجدّ في الحصول على معاشك ، وإياك والاتكال

على المنى ، فإنها بضائع الموتى والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور .

● يا بُني سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار ، وإياك أن تذكر في الكلام ما كان مُضحكاً ، وإن حكيت ذلك عن غيرك ، وأكرم عشيرتك ، فإنهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير ، ويدك التي بها تصول ، ولسانك الذي به تقول ، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، وليس جزاء من سرّك أن تسوءه .

● يا بني إبذل لصديقك كل المودة ، ولا تطمئن إليه كل الطمأنينة ، وأعطه كل المواساة ، ولا تفش له كل الأسرار .

● وكتب إلى إبنه الحسن ينصحه : أحي قلبك بالموعظة ، ونوِّره بالحكمة . وذلله بذكر الموت ، وقوِّه بالغنى عن الناس ، وحذره صولة الدهر وتقلب الأيام والليالي ، واعرض عليه أخبار الماضين ، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر فيما فعلوه ، وأين حلوا ونزلوا ، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة ، وحلوا ديار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فأصلح مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ، والخطاب فيما لا تكلف ، وأمسك عن طريق إذا خفت

ضلالته ، وأمر بالمعروف بيدك ولسانك ، ولا تأخذك في الحق لومة لائم ، وتفقه في الدين ، وعوّد نفسك الصبر على المكروه .

● وقال يعظه أيضاً : يا بني أحفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن : أغنى الغنى العقل ؛ وأكبر الفقر الحمق ، وأوحش الوحشة العجب ؛ وأكرم الحسب حسن الخلق .

يا بني إياك ومصادقة الأحمق ، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة البخيل ، فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه ، وإياك ومصادقة الكذاب ، فإنه كالسراب ، يقرب إليك البعيد ، ويبعد عنك القريب .

وصيته لأولاده

يا بني ، عاشروا الناس عشرة إن غبتم حنوا إليكم ، وإن فقدتم بكوا عليكم .

يا بَني ، إن القلوب جنود مجنّدةٌ تتلاحظ بالمودة ، وتتناجى بها ، وكذلك هي في البغض ؛ فإذا أحببتم الرجل من غير حق سبق منه إليكم فأرجوه ؛ وإذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم فاحذروه .

نبذ من كتبه

● كتب إلى معاوية ينصحه : اتق الله فيما لديك ، وانظر في حقه عليك ، وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته ، فإن للطاعة أعلاماً واضحة ، وسبلاً نيرة ، ومحجة نهجة ، وغاية مطلوبة ، يردها الأكياس ، ويخالفها الأنكاس ، من نكب عنها جار عن الحق ، وخبط في التيه ، وغير الله نعمته ، وأحل به نقمته ، فنفسك نفسك ، فقد بين الله لك سبيلك ، وحيث تناهت بك أمورك ، فقد أجريت إلى غاية خسر ، ومنزلة كفر .

● وكتب إلى عامله على البَصرة ينصحه : دع الإسراف مقتصداً ، واذكر في اليوم غداً ، وأمسك من المال بقدر ضرورتك ، وقدم الفضل ليوم حاجتك .

أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين ، وأنت عنده من المتكبرين ؟ وتطمع وأنت متمرغ في النعيم ، تُمنعه الضعيف والأرملة ، أن يوجب لك ثواب المتصدقين ؟ وإنما المرء مجزى بما أسلف ، وقادم على ما قدم ، والسلام .

● كتب عليّ كرّم الله وجهه إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة وكان بلغه أنه دعي إلى وليمة فمضى إليها ، قال رحمه الله :

أما بعد يا إبن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البَصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان ، وتنقل إليك الجفان ، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مَجفو ، وغنيهم مَدعو ، فانظر إلى ما تقضمه ، فما أشتبه عليك علمه فألفظه ، وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه ؛ ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ، ويستضيء بنور علمه ، ألا وإن أمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه الإزرار والرداء ومن طعامه بقرصيه ، ألا وأنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد ، وعفه وسداد ، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً ، ولا حزت من أرضها شبراً ، ولا أخذت منه إلا كقوت أتاني دَبره ، ولهي في عيني أدهى وأوهي من عصفة مقِره (أي مُرَّة) .

نبذ من أمثاله

● خير إخوانك من واساك ، وخير منه من كفاك .
خير مالك ما أعانك على حاجتك .
منْ كان في النعمة جهل قدر البلية .
السؤال مذلة ، والعطاء محبة .
صحبة الأشرار ثورت سوء الظن بالأخيار .
الحرُّ حر ولو مسه الضر .
ما ضل من استرشد ، ولا خاب من استشاره .

المودة بين الآباء صلة بين الأبناء .
جودة الكلام في الاختصار .
خير الكلام ما قل ودل ، ولم يطل فيمل .
جليس المرء مثله .
خف الله تأمن غيره ، خالف نفسك تسترح .
خير الأصحاب من يدلك على الخير .
دليل عقل المرء فعله ، ودليل علمه قوله .
دوام السرور برؤ ية الاخوان .
رفاهة العيش في الأمن .
دم على كظم الغيظ تحمد عواقبك .
زينة الباطن خير من زينة الظاهر .

شذرات من خطبه

خطبته بعد البيعة له بالخلافة

لما تمت بيعة علي برضا معظم أهل المدينة صعد رضي الله عنه المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

● أيها الناس ، إن الله تعالى أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ، ودعوا الشر ، الفرائض الفرائض أدوها إلى الله تعالى تؤدكم إلى الجنة ، إن الله حرم حرمات

غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحق . لا يحل أذى المسلم إلاّ بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو. الموت ، فإن الناس أمامكم ، وإنما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا ، فإنما منتظر بالناس اخر هم .

اتقوا الله عباد الله في بلاده ، وعباده ، فإنكم مسؤ ولون حتى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه ، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض . ثم نزل .

من خطبة له في الوعظ

● رحم الله أمرءاً سمع حكماً فوعى ، ودعى إلى رشاد فدنا ، وأخذ بحجزة هاد فنجا ، راقب ربه ، وخاف ذنبه ، قدم خالصاً ، وعمل صالحاً ، اكتسب مذخوراً ، واجتنب محذوراً ، رمي غرضاً ، واحرز عِوَضاً . كابر هواه ، وكذب مناه ، جعل الصبر مطية نجاته ، والتقوى عُدة وفاته ، ركب الطريقة الغَراء ، ولزم المحجة البَيضاء ، اغتنم المَهل ، وبادر الأجل ، وتزوَّد من العمل .

● أعجب ما في الانسان قلبه ، وله مواد في الحكم وأضداد

من خلافها ، فإن سنح (ظهر) له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاجه الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وان أسعد بالرضا نسى التحفظ ، وإن أتاه الخوف شغله الحذر ، وإن اتسع له الأمن استلبته العزة ، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وإن استفاد مالاً أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة بلغ به البلاء ، وإن جهده الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط في الشبع كظته (ملأته) البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له قاتل .

ومن خطبة له في التقوى

حمد الله وأثنى ثم قال : أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله ، ولزوم طاعته ، وتقديم العمل ، وترك الأمل ، فإنه من فرط في عمله لم ينتفع بشيء من أمله .

أين التعب بالليل والنهار ، المقتحم ببحج البحار ، ومفاوز القفار ، يسير من وراء الجبال ، وعالج الرّمال . يصل الغدوّ بالرواح ، والمساء بالصباح ، في طلب محقرات الأرباح ، هجمت عليه منيته فعظمت بنفسه رزيته ، فصار ما جمع بوراً ، وما اكتسب غروراً ، ووافى القيامة محسوراً .

أيها اللاّهي الغار بنفسه كأني بك ، وقد أتاك رسول ربك ، لا يقرع لك باباً ، ولا يهاب لك حجاباً ، ولا يقبل منك بديلاً ،

ولا يأخذ منك كفيلاً ، ولا يرحم لك صغيراً ، ولا يوقر فيك كبيراً ، حتى يؤديك إلى قعر مظلمة ، أرجاؤها موحشة ، كفعله بالأمم الخالية ، والقرون الماضية .

أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدد ، وبنى وشيّد ، وزخرف ونجد ، وبالقليل لم يقنع ، وبالكثير لم يُمتَّع ؟

أين من قاد الجنود ، ونشر البنود ؟ أضحوا رفاتاً ، تحت الثرى أمواتاً ، وأنتم بكأسهم شاربون ، ولسبيلهم سالكون .

عباد الله ، فاتقوا الله ، وراقبوه ، واعملوا لليوم الذي تسير فيه الجبال وتشقق السماء بالغمام ، وتتطاير الكتب عن الإيمان والشمائل ، فأيُّ رجل يومئذ تراك ؟ أقائل : هاؤم أقرءوا كتابيه ، أم يا ليتني لم أوت كتابيه نسأل من وعدنا بإقامة الشعائر جنته أن يقينا سخطه .

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظةِ كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

كلمة عامـــة

نشأ علي ـ كرّم الله وجهه ـ في الإسلام منذ صباه ، فلم تمازجه عادات الوثنية والجاهلية ، وقد ترعرع في حضن النبي ﷺ ، وكان ملازماً له ، وفي سبيله مستميتاً ، فكانت له المواقف الخطيرة بين يديه ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يعطف عليه ، ويحبه كثيراً كما ذكر في أحاديثه ، وقد اشتهر رضي الله عنه بالشدة ، والورع ، وعدم المداجاة .

فلما ولَى الخلافة سار فيها بهذه الأخلاق الفاضلة ، وكان العرب قد ابتعدوا قليلاً عن حياة السذاجة ، فلم تكن الشدة تقع لديهم موقعاً مرضياً شأنها في عهد عمر . ولم يتساهل علي رضي الله عنه مع معاوية وغيره ، فاتسعت دائرة الفتنة ، وحدث ما حدث من الحروب الداخلية .

وكان العرب من جهة ثانية قد شعروا بالحياة الناعمة ، والرفاهية ، وأخذ حب الجاه والمركز يقوي في نفوس بعض رجالهم ، فكان ذلك أيضاً سبباً من أسباب كثرة الخلاف .

وكان عليٌّ ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي : الشجاعة ، والفقه ، والفصاحة .

١ ـ فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل ، وقف

المواقف المشهودة المعهودة ، وخاض غمرات الموت ، لا يبالي أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه ؟ وأول ما عرف من شجاعته مبيته موضع رسول الله ﷺ ليلة الهجرة ، وهو يعلم أن قوماً يترصدونه ، حتى إذا خرج قتلوه ، فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر في نفسه .

ثم في واقعة بدر ، وما بعدها من المشاهد ، كان علماً خفاقاً لا يخفي مكانه ، يبارز الأقران فلا يقفون له ، ويفرق الجماعات بشدة هجماته ، وقد آتاه الله من قوة العضل ، وثبات الجنان ، القسط الأوفر ، أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة ، حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه ، ففعل الأفاعيل ، وكان الناس يهابون مواقفه ، ويخشون مبارزته ، لما يعلمون من شدة صولته ، وقوة ضربته .

٢ ـ وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه مجهولاً ، صحب رسول الله ﷺ منذ صباه ، وأخذ عنه القرآن الكريم ، وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بني عبد مناف ثم بني هاشم ، ولم يزل معه إلى أن توفي عليه السلام . كل هذا أكسبه قوة في استنباط الأحكام الدينية ، فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الأحكام ، ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم في بعض الأحيان ، وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب .

٣ ـ وأما الفصاحة ، فيعرف مقداره فيها من خطبه ، ومكاتباته .

وبالجملة فإن حياة هذا البطل تظهر لنا مواطن العبقرية في أرفع الأبطال الذين أنجبهم الشرق الإسلامي ، وتظهر لنا مناحي البطولة في نفسه الرفيعة الأنوف ، وتشرح لنا سر المأساة التي انتهت بالرجل إلى أن يموت بالسيف وهو صاحب القلم والسيف .

فما كان الرجل في حياته بضعة من الأرض فحسب ؛ بل روح من العلا اتخذها الله من أشرف ذريات آدم عليه السلام ، وأماض عليها النور في فجر الإسلام المجيد ، فكانت أجمل صورة يرتسم فيها جلال المؤمن ، أو الإنسان المؤمن ، أو الإنسان الكامل .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

معارك إسلامية

(١)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

معارك إسلامية

(١)

دار الفكر اللبناني



حصار القسطنطينية

ما كادت معركة اليرموك تقضي على هرقل قيصر بزنطة بالجلاء عن سورية حتى اخذ العرب يتتبعون ما بقي من الحصون الرومية ممتنعا عليهم فافتحموه بلدا بعد بلد فدانت لهم ارض الشام باجمعها . ثم قادتهم سواحلها الى مصر فافريقية فسلخوهما عن جسم الامبراطورية اليونانية . وخرج الروم منهما كما خرجوا من سورية عاجزين عن الدفاع لما هم عليه من ضعف وتفسخ واختلاف .

ومات هرقل سنة ٦٤١ فصار العرش بعده الى حفيده قنسطان الثاني فكان معظم همه ان يحمي الدرب (طورس) ويمنع المسلمين من اجتيازه ، ولكنه لم يستطع دفعهم عنه ، لانهم اخذوا يخرجون كل سنة الى ما وراء ثغورهم فيقطعون سلسلة الجبال ، ويخترقون آسيا الصغرى غازين مدنها وقراها ، مهددين عاصمة القياصرة .

الصائفة

وجعلوا نغزوها جيشا مخصوصا يسمونه الصائفة لانهم كانوا يغزونها في الصيف لاشتداد الصقيع في شتائها ، الا انهم كانوا يضطرون احيانا الى تمضية فصل الامطار هناك ، على ما يعانون من وقع الزمهرير وهم ابناء الصحراء اللافحة . لذلك اعتمد الامويون في غزو الروم على اهل الشام والجزيرة لانهم اكثر احتمالا للاقاليم الباردة ، ثم لما هم عليه من كره لبزنطة التي كانت تضطهدهم وترذل آرائهم في الدين .

قال البلاذري : « كانت بنو امية تغزو الروم باهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية ». ولم يقتصر تهديد المسلمين لبزنطة وعاصمتها على البر وحده ، بل تناول البحر ايضا فراحت سفن معاوية تشق عباب المتوسط فتحتل جزر اليونان ، وتهدد عاصمة الامبراطورية الشرقية .

توسيع الامارة

وكانت ولاية دمشق والاردن قد انتهت الى معاوية بعد موت اخيه يزيد ، اقره عليها عمر بن الخطاب ، فوجه نشاطه الى توسيع امارته بالفتوح ، ورمى بانظاره الى المتوسط وما فيه من الجزر القريبة ، ورأى ما في السواحل اللبنانية والفلسطينية من

صناعة للسفن وبحارة ماهرين فعهد اليهم في بناء اسطوله وتقديم لوازمه من رجال وعتاد . وكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح قبرس ويقول له : « ان قرية من قرى حمص يسمع اهلها نباح كلاب قبرس وصياح ديوكها ».

يريد بذلك ان يبين له قربها من الشواطىء السورية ، فمال عمر الى فتحها ، ولكن العرب كانوا يومئذ يخشون البحر ولا يعرفون شيئا عنه ، وهم ابناء البادية العطشى الى الماء .

البحر والصحراء

فكتب الخليفة الى عمرو بن العاص ، وكان قد فتح مصر بطريق البر واستعمله عمر عليها ، فطلب منه ان يصف له البحر وراكبه لان نفسه تنازعه اليه . فكتب اليه عمرو : « اني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ليس الا السماء والماء ، ان ركن اقلق القلوب وان تحرك ازاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، وراكبه دود على عود ان مال غرق ، وان نجا برق ». فلما بلغت هذه الرسالة عمر كتب الى معاوية يقول : « والذي بعث محمدا بالحق لا احمل فيه مسلما ابدا ». فتوقف معاوية عن عمله العظيم ، ولكن لم يصرفه عن خاطره .

التطوع للبحر

فلما توفي عمر وصارت الخلافة الى عثمان بن عفان ، عاد معاوية الى مشروعه يحاول تحقيقه ، فألح على الخليفة نسيبه في غزو البحر وفتح قبرس ، فاذن له مشترطا ان لا يكره مسلما على ركوب البحر بل ياخذهم تطوعا واختيارا . فأعد له بحارة السواحل السفن ، فركب من عكا ومعه جماعة من الصحابة ، فساروا الى قبرس ودخلوها صلحا (٢٨هـ ـ ٦٤٨م) فكانت اول غزوة غزاها العرب في البحر وحالفهم التوفيق .

واما في البر فان معاوية تابع غزو الروم بالصوائف والشواتي حتى اقلق بها راحة القيصر قنسطان ، ففي سنة ٢٥هـ (٦٤٥م) توغل في آسيا الصغرى حتى بلغ قاعدتها عمورية ثم عاد ظافرا غانما .

فلما غلب القيصر على امره وعجز عن حماية الدرب ودفع المسلمين عن اجتيازه عقد معاهدة مع معاوية من شروطها ان يؤدي مالا معينا كل سنة . فارتضى به معاوية موقتا .

عاصمة الروم

ولكن الامير الاموي الذي اعدته الاقدار لتأسيس المملكة العربية الاولى كان يفكر في امر عظيم ، وربما كان يفكر فيه معه

سواد الصحابة والمسلمين ، وهو الجهاد المتواصل لفتح عاصمة الـروم ، كما فتحت عـاصمة الفـرس . فلماذا لا تسقط القسطنطينية وقد سقطت قبلها المدائن ؟ فالدعوة للدين الجديد يجب ان تشمل ارض بزنطة كما شملت ارض ساسان .

فلما انقضت المعاهدة حشد معاوية جيشا كبيرا (٣٢هـ ٦٥٣ م) وقطع به الدرب وسار يخترق بلاد الروم حتى بلغ شمالها ووقف عند خليج البوسفور .

وتوالت الحملات البرية والبحرية حتى كانت سنة ٤٩هـ ٦٦٩ م) والخلافة لمعاوية فقاد الجيش ابنه يزيد حتى بلغ القسطنطينية وسار بالاسطول بسر بن ابي ارطاة فعبر الدرنيل ، وانزل الجيش في الشاطىء الاوروبي ، فاشتد الحصار على العاصمة الرومية ، وهاجمها المسلمون برا وبحرا .

نشأة المدفع

فهب البزنطيون للدفاع عنها بما لديهم من شتى الوسائل ، ولا سيما النار اليونانية فانها كانت اعظم اداة للدفاع عندهم ، ولا يعرف يومئذ سر تركيبها غيرهم ، فكانوا يمطرون الاسطول والجيش بقذائفها واسهمها المشتعلة ، او يرشقونها بالاواني من اعالي الحصون والاسوار ، او يبعثونها من انابيب مستطيلة ، تنقذف عنها بالضغط كما تنقذف حجارة المنجنيق .

ويقول ستيفان رنسمان صاحب كتاب المدنية البزنطية : انهم ربما ادخلوا ملح البارود على تركيبها الكيماوي ليستطيع ان يدفع لهيبا من الانابيب الى الاهداف البعيدة . وكان يخرج لقذائفها ازيز ودوي ، ولا سيما عندما تنفجر في ملامستها للسفن ، فتسيل عليها النيران ملتهمة سريعة الاندلاع ، لا يقوى الماء على اطفائها ، وليس الا الخل والرمل والبول .

فتضايق منها الجيش والاسطول معا ، واصابتهما بتلف عظيم . وكانت الى ذلك حصون القسطنطينية واسوارها منيعة جدا ، وقد دافع البزنطيون مستميتين ، متحدي القلوب لا يفسدها اختلاف العقائد كما افسدها في سورية ومصر . فقد كانوا في كثرتهم من اتباع الكنيسة الملكانية ، وليس لليعقوبية عندهم صوت مرفوع .

الحصار سبع سنوات متقطعة

على ان العرب لم يفتروا عن تشديد الحصار والهجوم مع ما لقوا من المصاعب والاهوال ، ولم يدب اليأس والفشل في نفوسهم مع ما نالهم من خسارة في الارواح والسفن . فكانوا اذا ادركهم الشتاء بقرّه ، وآذاهم احتمال الصقيع ، رفعوا الحصار ولجأوا الى الجزر القريبة حتى يذهب الشتاء ويعتدل الهواء فيعودوا الى حصارهم ومهاجماتهم .

ولبثوا زهاء سبع سنوات يضيقون الخناق على عاصمة البزنطيين وهي تدافع عن نفسها بحصونها وحراقاتها ونيرانها ، وتنزل باسطول العرب وجيشهم الاضرار البليغة . وساعدتها العواصف مرارا فاغرقت طائفة من السفن فاضعفت قوة الاسطول .

فرأى المسلمون اخيرا ان الحصار لا فائدة منه بل فيه الاذية لهم ، فقرروا الرجوع الى بلادهم ، فارتد الجيش بطريق البر وارتد الاسطول ايضا (٥٨هـ ٦٧٧م) بعد جهاد باسل لقي فيه العرب اشد العناء ، فصبروا اجمل الصبر ونشروا الهول على اسوار القسطنطينية ردحا من الزمن .

الحروب الداخلية

ولكن الصوائف ، بعد رجوعهم ، لم تنقطع تماما عن بلاد الروم حتى توفي معاوية سنة ٦٠هـ (٦٧٩م) وانتقل الملك بعده الى ابنه يزيد فكان مقتل الحسين بن علي وما تلاه من الثورات والفتن ، وقيام عبد ا الله بن الزبير يدعي الخلافة فيبايعه عليها الحجاز واليمن والعراق ومصر .

وتبقى سورية وحدها مخلصة لابنائها الامويين الذين نشأوا فيها ، وترعرعوا تحت سمائها ، واتسموا بسماتها ، فانبرت للدفاع عنهم مقدمة صدور ابنائها ، فاشتغل الناس بالحروب

الداخلية صارفين وجوههم عن ارض الروم فتعطلت الصوائف طوال ذلك العهد . فكان البزنطيون واحلافهم يغيرون على السواحل ويثخنون في العرب .

والمسلمون مشتغلون بالفتن الحزبية ولا سيما زمن عبد الملك بن مروان ، فقد اشتدت ثورات الخوارج والشيعة ، وحروب الزبيريين واحلافهم قيس عيلان ، حتى اضطر الخليفة الاموي ان يسترضي قيصر بزنطة ليتقي شره ويفرغ لشؤونه الداخلية . قال ابن خلدون : « فصالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على ان يؤدي اليه كل يوم جمعة الف دينار خيفة منه على المسلمين » . وكان ذلك سنة ٧٠هـ (٦٨٩م) .

عودة الصوائف

فلما سكنت الفتنة او كادت بعد مقتل مصعب بن الزبير عادت الصوائف الى غاراتها السنوية تسترجع الاراضي التي استعادها الروم في اثناء الفتن ، وتجتاز الدرب غازية آسيا الصغرى ، ولكنها لا تتقدم الى القسطنطينية ولا تفكر في معاودة حصارها حتى استخلف سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ (٧١٤م) فحشد جيشا عظيما يبلغ زهاء مائة وعشرين الفا على قول ابن العبري ، وجعله تحت قيادة اخيه مسلمة ، وجهز من السفن اسطولا ضخما .

فزحف الجيش مخترقا آسيا الصغرى ، ومخر الاسطول متجها الى بحر مرمرة (٩٨هـ ٧١٦م) فوصل الجيش الى البوسفور ، وعبر الاسطول مضيق الدردنيل فسد بمراكبه منافذ الارخبيل والبحر الاسود ، واحاط بالعاصمة برا وبحرا ليمنع عنها الامداد والمؤن .

الفساد والفوضى

وكانت القسطنطينية في حالة سيئة من الفوضى ، فقد حاول القيصر انسطاس ان يصلح الجيش ويعيد اليه النظام ، فثار عليه وخلعه واقام مكانه رجلا خامل الذكر توجوه باسم تيودوس الثالث ، ولم يكن اهلا لان يجابه الاخطار المحدقة بالعاصمة .

وكان البطريق لاوون قائد القواد يراقب هذه الحالة ويقلبها على وجوهها ، فرأى انه لا يمكن ان يستقيم للروم امر وهم على هذا الضعف والاختلال ، فمد يده الى العرش واستولى عليه ، ورضي به الجند فنادوا به امبراطورا باسم لاوون الثالث (٧١٧م) فنشط للدفاع عن القسطنطينية بما لديه من شجاعة وذكاء .

وهنا يخبرنا مؤرخوا العرب كيف خدع مسلمة حتى سمح له بتموين المدينة ، وامدادها بالطعام بعد ان وقع عليها الحصار ولم تكن قد تهيأت له من قبل . فيقول الطبري ان لاوون كتب الى

مسلمة يعده بتسليمه المدينة صلحا على ان يدخل اليه الطعام الذي جمعه من حولها ، ليصدق اهلها بان امره وامر مسلمة واحد فيرضوا بالاستسلام . فاغتر مسلمة بوعده وارسل اليه المؤن الكثيرة .

خديعة

ويقول ابن العبري ان لاوون وعد مسلمة ان يفتح له العاصمة ولكنه اشار عليه بان يبتعد بجيشه الى بعض النواحي لكي يطمئن اهل المدينة ، فيسمحوا بفتحها ، فارتحل مسلمة وتنحى الى بعض الرساتيق . فبادر لاوون الى اعداد السفن والرجال ، وتموين المدينة . فلما بلغ الخبر مسلمة زحف بالجيش والاسطول وهاجم القسطنطينية ونصب لها المجانيق ، ولكنها كانت منيعة الحصون والاسوار فلم تتحلحل قلاعها .

وقذف عليهم البزنطيون وابلا من الحجارة والنار اليونانية ، فاصابوا من رجالهم واسطولهم شيئا جليلا . والمسلمون لا يفتر نشاطهم ، ولا يقلعون عن الاقتحام والهجوم .

فلما رأى مسلمة عظم الخسارة ، وقلة الفائدة من المهاجمات ، رجع يلتزم خطة الحصار ولكنه نسي ان غروره بنفسه وضعف بصره في الامور تركا للاعداء وقتا كافيا لاعداد المؤونة والذخيرة .

فهل يفيد نطاق الحصار او ياتي بنتيجة سريعة ، والمدينة ملاءى بالطعام عالية الاشوار متينة الحصون ؟

العودة الى الحصار

كان مسلمة شجاعا مقداما ولكنه قليل الخبرة ، فقد عاد الى ضرب الحصار على القسطنطينية ولكن ادركهم الشتاء بصقيعه وثلوجه وكان قاسيا جدا تلك السنة ، فلم تتحمله اجسام الجنود وهم ابناء السواحل والصحاري فمات عدد كبير منهم دنقا ، وبدلا من ان ينفد الزاد عند سكان العاصمة بسبب الحصار ، كان نفاده عندهم فذبحوا خيلهم ودوابهم ل ليقتاتوا بها ، حتى فني اكثرها ، وبلغت بهم المجاعة ان اكلوا ، كما يخبرنا الطبري ، الجلود واصول الشجر والورق . ورأى الروم حالتهم هذه فاخذوا يسطون عليهم بعصب البلغار الذين استقدمهم لاوون ، فكان هؤلاء يفاجئونهم غرة ، فينالون منهم ويرجعون ، وكلما انفردوا بواحد اغتالوه ، او بفئة قليلة فتكوا بها . قال الطبري : « فلقي الجند ما لم يلق جيش حتى كان الرجل ليخاف ان يخرج من المعسكر وحده ».

المدد

ولم ياتيهم المدد الا في ربيع سنة ٩٩ وكان الخليفة سليمان قد مات فجاءتهم السفن بالمؤن والذخائر ، ولكن الجيش

والاسطول لم تبق لهما تلك القوة السابقة . فاخذت حراقات اليونان تنقض على سفن المسلمين وتقذفها بالنار السائلة ، او تستولي عليها . فازدادت الحالة سوءا ولم يبق سبيل لمتابعة الحصار ، فارسل الخليفة عمر بن عبد العزيز الى مسلمة يامره بالقفول فارتد بباقي الجيش والاسطول ، وانقضى هذا الحصار العظيم الذي استغرق طوال سنة ٧١٧ الى اوائل سنة ٧١٨ .

فتح الاندلس

دخل العرب فلسطين ففتحت لهم ارض الميعاد ابواب سورية ومصر ومشت بالويتهم خفاقة من اسيا الى افريقية ، فامتد سلطانهم في القارتين حيث كان سلطان بزنطة من قبلهم ، ووقفوا على شاطىء المضيق بين المحيط والمتوسط ، ينظرون الى اوربة ، الى القارة الثالثة ، وعلى راسهم موسى بن نُصير مولى بني امية ، وبجانبه مولاه طارق بن زياد يعد حملته ليعبر بحر الزقاق ، ويخوض معركة الجزيرة فيفتح الاندلس للاسلام ، وتلقى مفاتيح اوربة الغربية الى ايدي دولة العرب الظافرة .

خضعت مصر لعمرو بن العاص فاقره عليها عمر بن الخطاب ، فلم تقف مطامحه عندها وقد عبّدت له الاسكندرية بعد استسلامها طريق شواطىء المغرب فزحف اليها بجنده مفتتحا برقة وزويلة وطرابلس الغرب .

افريقيا مغرقة

وكانت حدود افريقية في تعريف العرب يومئذ تمتد من طرابلس شرقا الى طنجة غربا فالمحيط الاطلسي . ومن المتوسط شمالا الى الرمال التي في اول بلاد السودان .

فكتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بعد فتح طرابلس يقول له : « أنا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين افريقية تسعة ايام فان رأى امير المؤمنين ان يأذن لنا بغزوها ». فنهاه عمر عن اقتحامها مشفقا على المسلمين ان يوغلوا في مجاهلها . ويزعم البلاذري انه كتب اليه يقول : « ما هي بافريقية ، ولكنها مفرقة غادرة ، مغدور بها ».

ويشرح البلاذري كلام عمر بقوله : « ان اهلها كانوا يؤدون الى ملك الروم شيئا ، فكانوا يغدرون به كثيرا . وكان ملك الاندلس قد صالحهم ثم غدر بهم ».

الامر بفتح افريقيا

فتوقف عمرو بن العاص عن غزو افريقية نزولا عند نهي الخليفة ، حتى صارت الخلافة الى عثمان بن عفان فعزل ابن العاص عن ولاية مصر والمغرب ، واستعمل مكانه عبد الله بن سعد ، اخاه من الرضاعة . ثم امره بغزو افريقية ، وامده

بجيش فيه جماعة من كبار القرشيين ، فاخذ عبد الله يبعث المسلمين في جرائد خيل فيصيبون من اطراف افريقية ثم يعودون غانمين ، حتى صالحهم بطريقها على الفي الف دينار وخمس مائة الف ، كما يقول الطبري . ويزيد الواقدي على هذه القيمة عشرين الف دينار .

ولبثت افريقية لا يتناولها الحكم العربي ، ولا تستعمل عليها الولاة حتى عهد معاوية بن ابي سفيان . فغزاها عامله على مصر والمغرب معاوية بن حُديج بعشرة الاف على رأسهم عُقبة بن نافع الفهري ، فافتتحها سنة ٥٠هـ (٦٧٠م) واختط قيروانها . فملكها المسلمون حينذاك، وصارت تابعة لولاية مصر .

السير الى طنجة

وكان على مصر في خلافة الوليد بن عبد الملك عمه عبد الله بن مروان ، فاستعمل على افريقية موسى بن نصير فسار موسى الى طنجة عاصمة المغرب الاقصى ، فافتتحها سنة ٨٩هـ (٧٠٧م) وطرد عنها الكونت جوليان اوليان كما يسميه العرب ، واخضع عصاة البربر فلم يبق في افريقية من ينازعه منهم ولا من الروم .

ثم عاد الى القيروان بعد ان جعل مولاه طارق بن زياد واليا على طنجة ، وترك عنده تسعة عشر الف فارس من البربر وكانوا

قد اسلموا . وترك معهم فئة قليلة من العرب لتعلمهم وتعلم من يسلم من ابناء جنسهم القرآن وفرائض الاسلام .

الكونت جوليان

وعني موسى ، بعد ان تم له الامر في افريقية ، بانشاء اسطول يغزو به جزر البحر المتوسط . وكان الكونت جوليان قد لجأ الى سبته بعد سقوط طنجة وجلائه عنها . فحاصرها موسى بسفنه فامتنعت عليه لشجاعة صاحبها ودهائه كما يقول المقري في نفح الطيب ، ثم لان اسبانية بعثت اليها بالامداد ، فرجع موسى عنها ولم يصب منها شيئا .

ولم تكن سبته من اعمال اسبانية ، وانما هي تابعة لافريقية متصلة بها . وما كان الكونت جوليان من عمال ملك القوط ، ولكنه عامل لقيصر بزنطة . الا ان بعده عن القسطنطينية وقربه من اسبانية حملاه على التودد إلى عاهلها غبطشة (Witiza) فصادقه هذا وصاهره .

ولما مات غيطشة وصار الملك بعده الى رودريك بن تيوفريد ويسميه العرب لذريق ، حافظ جوليان على علاقاته بالبلاط الاسباني ، والتجأ اليه ملتمسا حمايته عندما غزا موسى بن نصير افريقية وحاصر سبته ، فامده رودريك بالسفن والعساكر ورد عنه المسلمين .

التقرب من العرب

على ان جوليان ما طال به الامر بعد انتقال افريقية الى العرب ، حتى اخذ يتقرب الى المسلمين ويحسن سياسته معهم لما له من سلطة معنوية على مسيحي افريقية لا يريد ان يتخلى عنها ، فآثر ، لكي يحتفظ بها ، ان ينحاز للفاتح الجديد . ويعلل لويس برتران ، مؤلف تاريخ اسبانية ، سبب خيانته لبلاط طليطلة ان رودريك رأى تذبذب جوليان في سياسته ، فطلب منه ان يبين خطته ويختار سيده ، فاختار موسى بن نصير .

حقد جوليان

كان من عادة الاشراف في اسبانية ان يبعثوا اولادهم الى بلاط الملك الاكبر بطليطلة ، ليصيروا في خدمته ويتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى اذا بلغوا ازوج بعضهم بعضا استئلافا لابائهم اصحاب الاراضي والاقطاعات ، فتشتد بترابطهم اواصر المملكة .

وكان للكونت جوليان ابنة ساحرة الجمال اسمها فلورندا ، فبعثها الى بلاط رودريك جريا على خطة اشراف اسبانية ليمكن علاقاته بطليطلة ، فافتتن ملك القوط الحس بالفتاة الحسناء حتى بات لا يصبر عنها ، فراح يتتبع خطاها ويراودها وهي تتفلت منه .

فاتفق مرة انها كانت تغتسل في حمامات دي لاكافا على نهر التاج ، فباغتها عارية واستمتع بها قسرا . واقسم ان يزيل ملكه .

ثم عبر بحر الزقاق ، وذهب الى طليطلة يطلب ابنته معتلا بان امها مريضة تريد ان تراها قبل موتها ، فسمح رودريك للفتاة بالذهاب واوصاها بالكتمان . ويقول المقري : ان رودريك طلب من جوليان ان يأتيه ، اذا جاء مرة اخرى ، بانشط ما عنده من الشواهين والصقور لانه يفضلها على كل ما لديه من الجوارح .

فوعده بان يدخل عليه منها ما لم يدخل مثله قط . فلم يفطن رودريك لقوله ، وانما هو يعرض له بما اضمره من السعي في ادخال المسلمين الى بلاده .

بانتظار امر الخليفة

الحالة المتردية في اسبانيا انذاك جعلت موسى بن نصير يكتب الى الخليفة يستأذنه في غزوها . فارسل اليه الوليد يقول : « لا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال » . فكتب اليه موسى انه « ليس ببحر زخار ، وانما هو خليج منه يبين للناظر ما هو خلفه » فاذن له الوليد ، على ان يخوضه اول الامر بالسرايا . فبعث

موسى مولى له من البرابرة اسمه طريف بن مالك النخعي في اربع مائة راجل ومائة فارس ، فحملتهم اربع سفن لجوليان الى جزيرة الفندال التي تسمت باسم الفنداليين الذين ابحروا منها الى افريقية ، فقيل لها فندلس ، وهي اول ارض دخلها العرب من اسبانية فحرفوا اسمها الى اندلس ، واطلقوا هذا الاسم على جميع البلدان الاسبانية التي افتتحوها . وسميت الجزيرة باسم « طريف » لنزوله فيها . واقام بها اياما ثم رجع بجيشه الى المغرب ، وقد اصابوا مالا وافرا ، وسبيا من النساء لم ير موسى واصحابه مثله حسنا .

الاندلس

ولكن ليس هذا ما كان يتوقعه الكونت جوليان ، فانما هو يرمي الى ازالة ملك رودريك ، فغزوة ورجعة لا يعقبها الا نتيجة خائبة . فعاد الى موسى يحرضه على اقتحام الاندلس وفتحها حتى اغراه بها ، فدعا مولاه طارق ابن زياد والي طنجة ، فعقد له على سبعة آلاف من البربر والعرب .

ويعود اختيار موسى للبربر الى اسباب منها انهم الكثرة الساحقة التي يتألف منها جيش طارق في طنجة . ثم لانهم يعرفون اسبانية اكثر من العرب ، لقربهم منها وحاجتهم الدائمة الى التردد عليها ، وهي مهددة ابدا بغزواتهم ، لطمعهم في خصبها وغناها وسبيها .

وقدم لهم جوليان سفنه ، فاقلتهم لخمس خلون من رجب سنة ٩٢هـ (٧١٠م) فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من سبتة الى جزيرة الفندال ، او الجزيرة الخضراء كما ينعتها العرب لخصبها . وكانت تاتي بهم دفعات متفاصلة لكي لا يتنبه لهم الاسبانيون حتى اكتمل عددهم . وجعلوا جبل كلبه نقطة الزحف فقيل له جبل الفتح او جبل طارق . وسمي بحر الزقاق مضيق جبل طارق .

تجمع الاسباب

وكان اول من قاومهم حاكم الجزيرة ، ولكنه لم يصبر امامهم طويلا بل انهزم الى اشبيلية . وارسل الى عاهله رودريك يخبره بغارة المسلمين ، وخيانة جوليان . فحشد رودريك الجيوش ، وكتب الى اولاد غيطشة يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب الغزاة ، ويحذرهم من القعود .

فلم يجدوا بداً من اجابته ، فحشدوا انصارهم من القوط ، وقدموا عليه ، ولكن على نية خذله والغدر به . فولى احدهم ميمنته والآخر ميسرته لما لهم من المنزلة في نفوس القوط ، ولانه لم يخطر له في بال ان ملوكا مثلهم يخذلونه .

ولم يناحر اولا غيطشة العرب الا للتخلص من رودريك ولاعتقادهم ان العرب انفسهم لم يكونوا موطنين النفس على البقاء في اسبانية عندما اقتحمها طارق بجيوشه .

فلما انتهت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز اراد ان يجلي المسلمين عن اسبانية ، لبعدهم عن اخوانهم في الشرق ، ولانهم محاطون بشعوب غريبة تدين بغير دينهم . ولم يرجع عن رايه الا بعد ان اقنعوه بان المسلمين اقوياء في الاندلس ، وانهم منتشرون في كل مكان .

السير الى المعركة

وسار رودريك بجيشه للقاء طارق بن زياد ، قال ابن خلدون انه يبلغ اربعين الفا ، وقال ابن خلكان انه سبعون الفا ، ويجعله المقري مائة الف . ويقول كليمان هيوار : « ان جيش الاسبانيين كاد يكون خلوا من الفرسان ، وان اغلب سلاحه العصي والمقاليع ». زد على ذلك حالته المعنوية ، فمن قواد كاولاد غيطشة يريدون الغدر برودريك ، الى قلوب غير متحدة لما بين القوط واليهود والروم من النفور والتباغض .

وكتب ابناء غيطشة الى طارق يخبرونه بانهم سيناصرونه في الحرب للايقاع برودريك المغتصب ملك ابيهم ، على ان يحفظ لهم طارق ضياع والدهم ، فتسلم اليهم آمنة اذا ظفر ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة كما يقول صاحب نفح الطيب . فاجابهم الى ذلك وعاقدهم عليه .

امدادات جديدة

وكان طارق قد استنجد موسى بن نصير عندما بلغه زحف روذريك ، فامده بخمسة آلاف من البربر فبلغ جيشه اثني عشر الفا ، سلاحهم حسن ، وقلوبهم متحدة على الغزو واقتسام الغنائم .

وهنا لا بد لنا من الاشارة الى ان طارقا امر باحراق السفن قبل ان يباشر الحرب ، وخطب في جيشه خطبته الشهيرة التي يقول في اولها : « ايها الناس ، اين المفر ؟ والبحر من ورائكم والعدو امامكم فليس لكم ، والله ، الا الصدق والصبر .

وبعد ان تلقى طارق الامداد تقدم بجيشه ومعهم الكونت جوليان في حشده يدلهم على المواقع الضعيفة ويتجسس لهم الاخبار .

المعركة

وتقدم رودريك في جيشه يحمي القلب ، وعلى الجناحين ابناء الملك السالف ، فالتقى الفريقان على ضفاف وادي بكة من الجزيرة الخضراء ، فالتحموا في معركة حامية دامية ، واذا بيمنة رودريك وميسرته تتاخران ثم تنهزمان ، وفي مقدمتها ابناء

غيطشة ، فانكشف القلب من جانبية ، ولبث رودريك يقاوم حتى اثقلته الجراح فانهزم لا يلوي على شيء ، والقى بنفسه الى النهر طلبا للنجاة ، فاختطفته المياه المتدفقة وغابت به الى حيث لم يعثر له على اثر ، الا جواده الابيض الغارق في الطين ، وعليه سرج من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد ، والا احد خفية الحذاء ، وكان من ذهب مكللا بالدر والياقوت والزبرجد ، على حد قول المقري وابن الاثير .

وانهزم في اثره جيش القوط بعد قتال ثمانية ايام ، فتم النصر العظيم للمسلمين في رمضان من السنة نفسها .

موقعة اليرموك

على ضفاف نهر اليرموك ، جنوبي بحيرة طبرية ، في وادي الياقوصة وسهلها ، كانت الموقعة الفاصلة بين العرب والروم . تحطمت فيها جيوش هرقل ، فذهبت اشتاتا لا تلتم لها فلول الا لتذوب امام قلعة او مدينة ، فيدخلها العرب الفاتحون صلحا او عنوة حتى وقعت سورية باجمعها في ايديهم ، وتقلص عنها ظل بزنطة الى ما وراء جبال طوروس .

وترك هرقل انطاكية قافلا الى القسطنطينية وعيناه عالقتان بتلك الأرض التي وداع الأبد . وصارت دمشق ولاية عربية طوال عهد الخلفاء الراشدين لتصبح بعد حين عاصمة الدولة الأموية ، مملكة العرب الأولى في الاسلام .

فقد خرج الغزاة من البادية يغيرون على سواد العراق ممهدين لمعركة القادسية الحاسمة . وخرجوا في الوقت نفسه يغيرون على انحاء فلسطين ليضربوا الضربة القاضية في اليرموك .

الحملة على سوريا

بينما خالد بن الوليد يفتتح ارض العراق ، ومعه المثنى بن حارثة ، كان ابو بكر يتجه بانظاره الى سورية ، ترافقه انظار القبائل العربية من بدو وحضر ، طامحة كلها الى غزو تلك البلاد الغنية العامرة . فما كاد يستنفر للجهاد اهل مكة والطائف واليمن ، واعراب الحجاز ونجد ، ويرغبهم في غنائم الروم ، حتى سارع اليه الناس ما بين طائع لله ، وطامع في الدنيا . فعقد ثلاثة الوية ، لواء ليزيد بن ابي سفيان مكان الصحابي خالد بن سعيد ، عاملا برأي عمر بن الخطاب . ولواء لشرحبيل بن حسنة . والتحق خالد بن سعيد بجيش شرحبيل تطوعاً للجهاد . ولواء ثالثا لعمرو بن العاص . وجعل كل لواء ثلاثة آلاف مقاتل . ثم امدهم بالنجدات فبلغ اللواء سبعة الاف وخمسمئة .

وامر عمرو بن العاص ان يسلك طريق شاطىء البحر الاحمر الى أيلة (العقبة) ويزيد وشرحبيلا ان يسلكا طريق تبوك فالبلقاء . واستعمل كل قائد اميرا على ارض ترغيبا له في

الغزو . ودفعا لاحتمال وقوع الخلاف . فولى عمرا فلسطين وشرحبيلا شرقي الاردن ويزيد دمشق . وكان بدء الحملة في اواخر سنة ١٢هـ (٦٣٣م) . فقد ذكر الطبري ان ابا بكر لما قفل من الحج سنة اثنتي عشرة جهز الجيوش الى الشام .

فسار يزيد الى تبوك . ومنها قصد جنوبي البحر الميت مشرفا على وادي العربة ، فتصدى له سرجيوس بطريق قيسارية (قيصرية) فهزمه يزيد . فلجأ البطريق بجيشه الى غزة . ثم انكسر في موقعة داثن وقتل وتمزقت قواه ، فتمكنت الجيوش العربية ان تحتل بلدان فلسطين بسهولة ، عدا المدن المحصنة ، من غزة في الجنوب الى جبال حوران في الشمال .

استعدادات الروم

ولما وصل الخبر الى هرقل قيصر بزنطة ، امر الجيوش الجاهزة لديه بالمسير الى سورية ، ووضعها تحت قيادة اخيه تيودور ، ويسميه العرب « تذارق » فصاروا الى اجنادين وهي بلد من فلسطين بين بيت جبرين والرملة . وكان المسلمون قد تلقوا مددا جديداً سبعة الاف بقيادة ابي عبيدة بن الجراح .

ولكن عمرو بن العاص رأى قوة الروم عظيمة فكتب الى ابي بكر يطلعه على الامر ويطلب اليه ان يمدهم بالعساكر . فاستدعى ابو بكر خالد بن الوليد من العراق وامره ان يلتحق

بجيوش الشام ، فسار خالد بعشرة الاف على رواية الطبري ، وبثمانمائة او اقل على رواية البلاذري ، ومشى صعدا بجانب الفرات غازيا الى ما وراء قرقيسية . ثم اجتاز بادية تدمر من الشمال الى الجنوب ، وجد مسرعا نحو دمشق فغزا في طريقه قرى للغساسنة حتى جاء قيصرية في حوران واتصل بالقواد الثلاثة ابي عبيدة ويزيد وشرحبيل . فخفوا جميعا الى العربة لاحقين بعمرو بن العاص . (١٣هـ ٦٣٤م).

الزحف الى اجنادين

وزحفت الجيوش العربية الى اجنادين ، قاصدة جيوش الروم ، فنشبت بينهم المعركة في ٢٨ جمادي الاولى سنة ١٣هـ (٣٠ تموز ٦٣٤) . ويقول البلاذري ان عدد الروم يوم اجنادين كان زهاء مائة الف . وفي فتوح الشام المنسوب للواقدي ان جيش المسلمين كان يومئذ اثنين وثلاثين الفاً . وظهر فضل خالد بن الوليد في هذه الوقعة على سائر القواد ، فقد ابلى فيها خير بلاء حتى انتهت بانكسار الجيش اليوناني وهزيمته فلجأت فلوله الى دمشق ، وهرب تيودور الى حمص وكان فيها هرقل اخوه جاءها من القسطنطينية ليشرف على المعركة بنفسه . فلما شهد انهزام اخيه ، وانهيار جيشه ، سارع الى انطاكية ليجهز جيشا جديدا .

سقوط فلسطين بيد العرب

واصبحت فلسطين وجنوبي سورية بعد واقعة اجنادين في

ايدي العرب الفاتحين . وعبثا حاولت فلول تيودور ان تستأنف القتال في بيسان (٢٨ ذي القعدة ١٣هـ ، ٢٣ كانون الثاني ٦٣٥م)، فان المسلمين ساروا اليهم حتى نزلوا فحل ، وهو مكان في الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية ، فبثق البزنطيون سدود وادي الاردن ، فامتلأت الارض ماء واوحالا ، فلم يستطع العرب الوصول اليهم ، ولكن الروم عبروا الاردن وبيوتهم ليلا فقاتلهم المسلمون ، وكان قائدهم شرحبيل بن حسنة شديد الحذر يبيت على تعبية ، ويصبح على تعبية ، فلم يؤخذوا على حين غرة ، واستمر العراك طوال ليلتهم حتى ليل اليوم الثاني ، فانهزم البزنطيون ، ووحلت خيولهم ، وكذلك لقي المسلمون عناء كبيرا من الوحول والمياه . واستسلمت بيسان بعد هذه الموقعة .

فباعته العرب للروم

وسار خالد بن سعيد بتجريدة الى مرج الصفر على بعد يوم من دمشق للراجل الماشي . ففاجأه جيش يوناني ، يعد اربعة آلاف محارب ، فقاتله العرب مستبسلين ، ولكنهم خسروا في هذه المعركة خسارة جسيمة ، وقتل قائدهم خالد . ثم ارتد عنهم البزنطيون الى دمشق ليحاصروا فيها ، لان جيوش المسلمين كانت زاحفة الى عاصمة سورية وعلى راسها خالد بن الوليد .

وكان العرب قبل مجيء خالد من العراق يحاربون متساندين كل جيش واميره لا تجمعهم قيادة واحدة . فدعا خالد الامراء الى توحيد رئاسة الجيش على ان تنتقل فيهم واحدا بعد واحد لئلا يثير الحسد في نفوسهم ، فاستحسنوا رأيه وجعلوه اميرا عليهم . فكان في معركة اجنادين ابرز القوات واظهرهم شفعيا . ورأى الامراء ما عنده من البأس والخبرة وحسن الطالع والتوفيق ، فتركوا له القيادة العليا في كل حرب يباشرونها .

ولكن الواقدي والبلاذري يذكران في جملة الروايات ان ابا بكر جعله اميرا على الامراء في الحرب . ولذلك نجده يسير على رأس الجيوش الى دمشق لمحاربة البزنطيين . وكان الجيش القيصري قد استعصم باسوار دمشق ، وغلق ابوابها . فحاصرها خالد ستة اشهر من محرم الى رجب ؛ ١٤هـ ، ٦٣٥م) حتى تضايق اهلها ويئسوا من ارسال الامداد اليهم ففتحوا الابواب مستسلمين ، وقيل انها فتحت صلحا من جهة ، وعنوة من جهة اخرى ، فأمضيت كلها على الصلح .

ويروي البلاذري ان اسقف الدير الذي كان خالد معسكرا بقربه هو الذي فاوضه على صلح دمشق ، وسهل له اهل الدير دخولها . ويعلل المستشرق كليمان هيوار ذلك بقوله ان رجال الدين في العاصمة كانوا مستائين من الانظمة التي فرضها عليهم هرقل ليضع حدا للمجادلات اللاهوتية فساعدوا على تسليم القلاع للمسلمين .

هرقل يعاود الكرة

وما كان يهون على هرقل ان يتخلى عن سورية للعرب الفاتحين ، وفيه بقية امل تحفزه للدفاع عنها . فليس الجيش البزنطي الذي تشتت في اجنادين وبيسان الا جزءا يسيراً من قوات الامبراطورية ، مجموعا من الحاميات الجاهزة في الثغور . فلم يكن انهياره واحتلال دمشق ليفت في عضد القيصر ، فبادر الى حشد جيش عظيم في حمص وجعل على رأسه تيودور ، ولكنه كان خليطاً من البزنطيين والارمن والعرب المتنصرة .

وكان على الأرمن قائد يقال له فاهان ، وعلى العرب جبلة بن الايهم الغساني ، وقد استرضاه هرقل بعد ان دفع له جعالاته السنوية التي كانت مقطوعة عنه . ويقول البلاذري ان جيش الروم بلغ زهاء مئتي الف ، يرتفع به الى اكثر من ثمانين الفاً . وكان الجيش العربي اربعة وعشرين الفا على رواية البلاذري .

تراجع ستراتيجي

وتحركت القوات البزنطية من حمص في شباط ٦٣٦ (بدء سنة ١٥هـ) فبلغ خبرها خالد بن الوليد ، فاستعظم هذا الجيش الذي لم يعهدوا مثله في سوابق حروبهم مع الروم ، فامر الجنود العربية

بالتراجع عن سورية فجلوا عن دمشق وسواها من المدن المحتلة ، وانقلبوا الى ناحية الاردن ليتمكنوا من الرجوع الى البادية ان لم يكتب لهم التوفيق ، فرابطوا في الجنوب الشرقي من نهر اليرموك الذي يصب في الاردن جنوبي بحيرة طبرية ، وجعلوا الصحراء وراءهم .

وكان الجيش البزنطي يسير ببطء لكثرة عدده اولا ، ثم لما وقع بين رجاله خلال الزحف من الانتفاضات والمشاحنات ، حتى ان الارمن ثاروا ونادوا بقائدهم فاهان امبراطورا كما يقول كليمان هيوار . لذلك لم يبلغوا الاردن الا في آب ، فعبروه ، وعسكروا شرقيه في وادي الياقوصة .

تعبية ضخمة

وفي ٢٠ آب ـ ١٢ رجب خرج الروم للقتال في تعبية لم ير الراؤ ون مثلها على حد تعبير الطبري . وخرج خالد في تعبية لم تعبّها العرب قبل ذلك . فقد رأى جيش الروم لا يحارب صفا صفا كما يفعل المسلمون منذ عهد النبوة ، وانما يتألف فرقا فرقا في القلب والميمنة والميسرة . ففعل مثلهم وخرج في سنة وثلاثين كردوسا الى الاربعين . ووزع هذه الفرق على الجناحين والقلب . وجعل على كل كردوس قائدا ينظمه ويديره .

ثم حملت الروم حملة واحدة فازالت المسلمين عن

مراكزهم . فتدارك خالد جيشه بدرايته ، فشدد قواه ولمه ، وزحف به على العدو حتى تصافحوا بالسيوف . ثم اخذ يطارد قواد الروم ، فاستخذى اليه احدهم ، واسمه جرجه ، فاسلم على يده ، وانضم الى العرب . ثم انضم اليهم جبلة بن الايهم بمن معه من الغساسنة والفافهم من العرب المتنصرة . فانكشف جيش بزنطة ، وانثغرت جبهته ، ثم هبت ريح عاصفة ، هي الريح الجنوبية ، او الجنوبية الشرقية المعروفة بالخمسين ، كما يقول كليمان هيوار ، فاثارت من الغبار غماما عميت به ابصار جيوش القيصر ، فتضايقوا في قتالهم ! وارتبكوا .

ثم نهد خالد بالقلب فصدعه مخترقا خطوط الدفاع . والتف عليهم بفرسانه من الجانب الغربي ، فاحتل الجسر وقطع عنهم طريق الرجعة . فتضعضع اليونان وخرجت خيولهم لاجئة بفرسانها الى الاماكن المحصنة ، فافرج لها العرب فمرت ولم يحرجوها . ثم اقبل خالد بفرسانه على المشاة ، فاعملوا فيهم السيوف فكانت لهم مجزرة مخيفة فُني فيها خلق كثير منهم بين قتيل وغريق ألقى بنفسه إلى النهر .

سوريا كوني بسلام

قال البلاذري : « قتل من الروم زهاء سبعين الفا وهرب فلّهم فلحقوا بفلسطين وانطاكية وحلب والجزيرة وارمينية » .

وهلك تيودور في المعركة بعد ان تبدد جيشه ، وتصدع القلب عنه .

فلما بلغ هرقل نبأ اليرموك واضمحلال جيشه ، ترك انطاكية يائسا وقفل الى القسطنطينية ، فلما جاوز الدرب قال : « سوزه سورية » وسوزه كلمة يونانية معناها كوني بسلام .

واستعاد المسلمون بعد اليرموك جميع البلاد التي جلوا عنها ، وتم لهم الاستيلاء على سورية كلها بعد سقوط قلعة قيسارية جنوبي عكا سنة ١٩هـ (٦٤٠م) فأزالوا آخر سلطان لليونان على ربوع الشام ، فكانت واقعة اليرموك كارثة قاضية على امبراطورية بزنطة في الاراضي السورية .

وغير عجيب ان تصيبها هذه النكبة والمسلمون يندفعون الى الجهاد بقوة واتحاد ورغبة في الدين والدنيا . ولم تكن حالة بزنطة في سياستها وجندها وادارتها ، يوم دخل العرب سورية ، احسن من حالة الفرس يوم اجتاز المسلمون ارض العراق . فقد رأينا الجيش البزنطي منقسما على نفسه . فالارمن يشغبون وينادون بقائدهم امبراطورا . وجبلة بن الايهم وجرجه ينضمان بالعرب المسيحيين الى صفوف المسلمين ، فيقاتلون معهم ، فتصدع بخروجهم جيش الروم واصابه الشلل . فقد هربت فرسانه ، وتمزقت مشاته . واكثر البلدان السورية لم تنشط للدفاع عن ارضها بل تتحب [illegible]بها للعرب فدخلوها صلحا .

ولما ترك المسلمون دمشق ليقاتلوا في اليرموك ودعهم اهلها بحزن شديد لأنهم كانوا يكرهون حكم البزنطيين ففضلوا حكم الفاتح الجديد . والبلاد التي حاربت العرب بشدة هي التي تكاثر فيها العنصر اليوناني ، او كان فيها قوة من الجيش البزنطي . حتى اذا اضمحل هذا الجيش لم يبق لهرقل من امل في سورية لانه يعلم كرهها لسلطانه ولا يتوقع م منها معونة ودفاعا مخلصا ، فتركها وارتد الى عاصمته .

اسباب انهزام اليونانيين

وهذا الكره يعود الى اسباب دينية وسياسية ، فان السوريين كانوا في كثرتهم من اتباع الكنيسة اليعقوبية التي تقول ان اللاهوتية والناسوتية تؤلفان-طبيعة واحدة هي المسيح . وكان الى جانبها الكنيسة الملكانية التي تميز في المسيح بين طبيعتين ، الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية . والملكانية هي الكنيسة الرسمية التي يتبع عقائدها قياصرة بزنطة ، ويرون في عقائد اليعقوبية بدعة في الدين لا يصح السكوت عن مقاومتها .

فبلغت المجادلات البزنطية حدها في عهد هرقل حتى اصبح عامة الشعب يجادلون في اللاهوت ، فتقع المشاحنات بين اصحاب المذهبين في الاسواق والمجتمعات . فرأى هرقل ان يضع حدا لهذه المناقشات ، على ان يخسر صداقة اليعقوبيين ،

فلجأ الى تسوية لاهوتية ، تقول بان المسيح فيه قوة واحدة ، او ارادة واحـدة . فلقي هـذا التـوحيـد بعض النجـاح في القسطنطينية ، وسكت عنه البابا اونوريوس الاول ، الا انه لم يرض اليعقوبيين ، ولم يمح حقدهم على المجمع الخلقيدوني ، الذي اعتبرهم ملاحدة ، وانكر عقائدهم .

وفي سنة ٦٣٦ وقع القيصر النظام الذي يبين طريقة الايمان الجديد ، فثارت عليه اليعقوبية ، وحدثت لاجله معركة كان من شانها ان تبعد سورية عن بزنطة الى الابد ، كما يقول ستيفان رنسمان مؤلف كتاب « المدنية البزنطية ».

ولما غزا الفرس سورية سنة ٦١٤ ودخلوا ارضها ، تصدى لهم هرقل بجيوشه فوقعت بينهم حروب طاحنة طويلة انتهت بانكسار الفرس سنة ٦٢٨ ، ولكنها كلفت القيصر غاليا ، وتألم منها خصوصا سكان الولايات القائلة بالطبيعة الـواحدة ، لانهم ، مع ما نالهم من ويلات الحرب ، وضعت عليهم الضرائب الثقيلة ، لتسد ما اصاب بيت المـال من عجز ونقصان . وقطعت الجعالات السنوية عن قبائل العرب التي كانت تحرس الحدود وترد غزاة البادية . والغساسنة اعظم هذه القبائل واشدها خطرا . فلا غرو ان ينحاز جبلة بن الايهم الى العرب حمية مع ابناء جنسه وكرها للبزنطيين الذين قطعوا الجعالة عنه وعن آبائه ، واضطهدوا ابناء مذهبه اصحاب الطبيعة الواحدة .

هذه الاسباب ، اجتمعت كلها فجعلت سورية عونا على البزنطيين بدلا من ان تكون عونا لهم ، فتنكرت لاربابها الاقدمين ، وولتهم ظهرها ناقمة ، وفتحت صدرها مرحبة بالعرب الغزاة ومملكة الامويين .

موقعة القادسية

خرج العرب من قلب البادية واطرافها ، فاجتازوا حدود العراق ثم توغلوا في سواده ، يفتتحون البلاد ارضا ارضا ، ويخضعون السكان شعبا شعبا . على السنتهم ثلاث كلمات يرددونها في مسامع اعدائهم قبل ان يباشروا القتال : الاسلام ، واما الجزية او الحرب ! . . . ثلاث كلمات لهم فيها غنيمتان . فالكلمة الاولى تدعو الناس الى الدين الجديد . واصحاب الدعوة يرجون بها غنيمة الآخرة . والكلمة الثانية تضرب عليهم الجزية ان لم يجيبوا دعوة الاسلام . وفيها غنيمة المال تستقيم به أمور المسلمين في حياتهم المادية . ثم الكلمة الثالثة ، وهي الحرب جهادا في سبيل الدين ، وفتحا لكنوز الدنيا . فيها غنيمة الارض وغنيمة السماء .

فكان يجيب الدعوة الاولى قوم فينضمون اليهم ، واصلين حظهم بحظهم . ويرضى بالثانية غيرهم ، فيؤدون الجزية عن يد صاغرين . ويرغب في الحرب اكثرهم فما ينتفعون بها ، لانها كانت وبالا عليهم ، تتساقط فيها بلدانهم تباعا ، فيدخلها الغزاة

ظافرين مكبرين . حتى كانت موقعة القادسية ، فقررت في خلال اربعة ايام مصير دولة الشرق العظمى ، تاج ملك الملوك وايوان كسرى . وحظت بدولة العرب ممتدة الفتوح في الامصار الغريبة بعد ان كانوا منقبضين في شبه جزيرتهم لا ينهضون لمحاربة شعب خارج حدودهم .

العالم الجديد

تلك الموقعة جديرة بان تكون عبرة التاريخ لانها خاتمة عصر وفاتحة عصر . رفعت مملكة فتية على انقاض مملكة عجوز فغيرت وجه الشرق القديم ، وابدلته دينا بدين .

وكان ملك المناذرة قد تضعضع في العراق بعد مقتل النعمان ابي قابوس ، وصارت ولاية الحيرة الى اياس بن قبيصة الطائي . ولكن حكومة الفرس رأت ان تدير انحاء السواد بنفسها ، فارسلت اليها المرازبة والحكام . والسواد هي سهول بابل المنبسطة بجانب الفرات ، اطلق العرب عليها هذا الاسم ، لما فيها من الزرع والشجر والنخيل ، وهي متاخمة لشبه جزيرتهم الجرداء . فاذا خرجوا من ارضهم بدت لهم سهول العراق سوداء بزروعها واشجارها ، فسموها السواد . ولطالما طمعوا في مائها وعشبها يسلبون قراها ومزارعها ، ويعودون الى ديارهم غانمين . واشد العرب جرأة على الحدود الفارسية في السواد ، بنو ربيعة لنزولهم في اطرافه ، ولا سيما بعد ان اصاب البكريون

نصرا محليا على الفرس في يوم ذي قار . فتاهوا به على الدنيا فخرا وتغنت بامجاده شعراؤهم دهرا .

الاغارات الاولية

فلما صارت الخلافة الى ابي بكر بعد موت النبي ﷺ ، واخذ العرب يقدمون على حدود الروم في سورية ، وحدود الفرس في العراق ، كان احد فرسان بني بكر واسمه المثنى بن حارثة الشيباني ، يغير على السواد في رجال من قومه ، فبلغ خبره الى الخليفة الاول ، فدعاه اليه فاستعمله على السواد وكتب له بذلك عهدا ، فاسلم المثنى واسلم قومه معه .

ثم انطلق يوالي الغارات على اسفل الفرات . وزاده طمعا في دولة الفرس ان حالتها سيئة من سياستها الداخلية ، ولا قدرة لها على حماية الحدود . فاصاب في غزواته نجاحا سريعا نبّه خاطر الخليفة ، فأمر القائد خالد بن الوليد أن يسير إلى العراق . وكتب الى المثنى بان ينضم اليه ، ويعمل بامره . فاخترق خالد حدود العراق والتحق به المثنى بن حارثة ، فجاء الحيرة فدخلها صلحا ، ورضي اهلها بدفع الجزية ، وان يكونوا عيونا للعرب على الفرس موالاة لابناء جنسهم .

موت مملكة

وكان المالك على الفرس يوم دخل خالد ارض العراق (١٢هـ ٦٣٣م) يزدجرد الثالث ، صعد الى العرش سنة ٦٣٢ ليشهد انهيار مملكة الساسانيين بعد ان استولى عليها الضعف ، وحان اجلها المحتوم .

وكان يحكم في تلك النواحي قائد من الفرس اسمه هرمز ، فلما انتهى اليه خبر خالد جمع جيشا والتقى العرب في كاظمة على مسافة يومين من الموضع الذي بنيت فيه البصرة في خلافة عمر بن الخطاب . فاقتتلوا في اليوم الاول ، وبارز هرمز خالدا في اليوم التالي ، فسطا عليه خالد وارداه . ثم التحم الجيشان فدارت الدائرة على الفرس فانهزموا تاركين اسلابهم للمسلمين . فاخذ خالد قلنسوة هرمز ، وهي من القلانس التي يلبسها ابناء البيوتات في فارس . قيل انها كانت محلاة بالجواهر ، وتبلغ قيمتها مائة الف درهم . وسميت هذه الواقعة بذات السلاسل لان جماعة من جنود الفرس اقترن بعضهم الى بعض بالسلاسل متعاهدين ان لا يركنوا الى الفرار .

وتابع خالد غاراته ففتح الانبار وعين التمر . ولكنه لم يلبث ان استدعي الى سورية لمحاربة الروم فاستخلف المثنى بن حارثة

على الفرات ، واخذ قسما كبيرا من الجيش وصار الى بلاد الشام .

النصر للعرب

ثم بعث يزدجرد جيشا لقتال المثنى ، فهزمه العرب في خرائب بابل . فاستدعى الملك رستم بن فروخ هرمزذ قائد القواد ، وحاكم خراسان . وهو الذي ساعد يزدجرد على بلوغ العرش انتقاما من المملكة آزرميدخت التي قتلت اباه . فاضطر المثنى ان يرتد بجيشه الصغير امام الكتائب الفارسية .

وكان ابو بكر قد توفي وصارت الخلافة بعده الى عمر بن الخطاب صاحب العزيمة الفولاذية ، فلما جاءه نبأ المثنى ، لم يغفل ساعة عن تلافي الخطب ، بل عقد لابي عبيد بن مسعود الثقفي ، وامره ان يذهب بتجريدة الى العراق ، فخالف التوفيق ابا عبيد في معاركه الاولى ، فانتصر على قائدين من قواد رستم هما جابان ونرسي ، فكسر الاول في ناحية الحيرة ، والثاني في كسكر جنوبي بابل .

موتوا او تظفروا

ولكن القوات الفارسية ما لبثت ان تجمعت فصعد ابو عبيد الى الشمال يتلقاها ليقطع عليها طريق الحيرة . فخطر له ان يعبر

الجسر بجيشه الى ضفة الفرات اليسرى تاركا النهر وراءه ، فعارضه بعض قواده فلم ينتصح . فاقبلت عليهم جيوش الفرس يقودها بهمن ، ومعها الافيال تطأ الرجال باقدامها وتلفهم بخراطيمها . فتضايق المسلمون وقصر عليهم المجال ، فتاخروا وبان النصر للفرس . ثم تلقى فيل من الافيال ابا عبيد فاقتلعه بخرطومه عن ظهر جواده وخبط به الارض وداسه بيديه .

فلما رأى العرب ما نزل بقائدهم دب الذعر في نفوسهم ، فهموا بالفرار فسبقهم الى النهر رجل من ثقيف ، وقد رأى ما اصاب ابن عمه ابا عبيد ، فقطع الجسر وقال لهم : « موتوا او تظفروا ! » . وقيل بان قطعه ابو عبيد بعد عبوره منعا للفرار . ثم اخذتهم سيوف الفرس وحرابهم فتبعثروا امامهم متبددين يلقي بعضهم بنفسه الى الفرات ، ويُقتل اخرون ، حتى ذهب منهم نحو اربعة آلاف بين قتيل وغريق .

ولو لم يقف المثنى بن حارثة على رأس بني بكر يحمي ظهور الهاربين ، لكانت الخسارة اعظم . ولكنه لبث في قومه يقاتل الفرس ويدافعهم حتى عقد الجسر ثانية وعبر المسلمون عليه فعبر هو وبنو بكر بعدهم مخضبا دامي الجراح .

واقعة الجسر

ووفدت فلول الهاربين الى المدينة تحمل خبر واقعة الجسر وتنعي ابا عبيد . فتنشط عمر الى ارسال النجدات غير متوان ،

يخطب في الناس ويحضهم على الجهاد . وجعل الجيش هذه المرة تحت قيادة المثنى .

وكان بهمن قد استدعي الى المدائن عاصمة الفرس ليقمع شغبا داخليا . فخلفه على الجيش مهران الهمذاني احد ابناء البيوتات .

ورابط المثنى في البويب قرب الحيرة ينتظر قدوم مهران بعساكره حتى اقبلوا وعبروا الجسر فالتقتهم جموع المسلمين تتلاحق بهم النجدات من جهات مختلفة وفيهم نصارى من النمر وتغلب جاؤ وا يقاتلون العجم حمية مع ابناء قومهم ، فرجحت كفة العرب ، واستطالوا على الفرس .

فاسرع المثنى الى الجسر فقطعه ليمنع العدو من الفرار ، فحارب الاعجام مستميتين حتى تقطعت جيوشهم ، وهلك قائدهم مهران (١٤هـ ٦٣٥م) .

وخلا الجو للعرب بعد تشتت العساكر الفارسية فاكتسحوا جزيرة الفرات ودجلة ، وملكوا جميع ما بين النهرين .

التعبئة في المدائن

ثم علم المثنى ان رستم يعبىء الجحافل في المدائن وانه اتفق مع خصمه الفيرزان احد عظماء الفرس . فاسرع الى المدينة يطلع الخليفة على الامر ، فامده عمر بقوات كبيرة .

وجعل القيادة لسعد بن ابي وقاص احد الصحابة القدماء ، لخطورة الموقف ، ولما لاصحاب النبي من التاثير في نفوس المسلمين . على ان سعدا عرف نصيحة المثنى وسداد رأيه حين اوصاه بان ينتظر قدوم الفرس بدلا من ان يزحف الى لقائهم في ارضهم .

ولم يكن المثنى قد شفي بعد من جراحه التي اصابته يوم الجسر ، لانه لم يعطها الراحة الكافية لتندمل ، فانتقضت عليه فاودت بحياة هذا الفارس الشجاع الذي جاهد في سبيل الاسلام ثلاث سنوات متواليات ، وفتح له على الفرات الفتح المبين . مات قبل ان يشهد واقعة القادسية ، وسقوط المدائن وعرش ساسان .

في القادسية

اما رستم فسار بجيشه نحو الحيرة (١٦هـ-٦٣٧ م) وكان المسلمون قد جلوا عنها لما علموا باقترابه . فعسكر القائد الفارسي في القادسية على مقربة منها . وعسكر المسلمون بين القادسية والعذيب كما اشار عليهم المثنى قبل وفاته .

واختلف المؤرخون في عدد الجيش العربي الذي شهد القادسية ، ولكن يؤخذ من كلام المسعودي وابن خلدون انه كان بين الستين والثمانين الفا . واتفقوا على ان جيش الفرس عدده مائة وعشرون الفا معهم ثلاثون فيلا ، الا ان ابن خلدون يجعل عدده ستين الفا .

مفاوضات سلمية

وحاول رستم في بدء الامر ان يصرف العرب عن بلاده بالمفاوضات السلمية ، وكانه كره محاربتهم بعد ان رأى تفسخ جيشه وضعفه في المعارك السابقة ، فكتب الى سعد يسأله توجيه بعض اصحابه اليه . فبعث جماعة من اصحاب الرأي بينهم المغيرة بن شعبة . فهددهم رستم وتوعدهم ليبعث الهيبة في نفوسهم . ثم وعدهم بان يعطيهم ما يرضيهم اذا انصرفوا الى بلادهم ، فاصروا على كلماتهم الثلاث : الاسلام ! واما الجزية او الحرب . فغضب رستم من جرأتهم ، وامر باخراجهم .

وكان قد مضى على قدومه اربعة اشهر وهو لا يباشر حربا . فلما انقطعت المفاوضات التحم الجيشان بعد ظهر ذات يوم ، وحمي القتال .

معركة الفيلة

ودارت المعركة اربعة ايام ، فتميز اليوم الاول منها برشق النبال ، وعراك الافيال . فان الفرس اطلقوها على ميمنة الجيش العربي وميسرته كما تطلق الدبابات اليوم ، فتلقاها الرماة بالسهام ، ولكنها كانت شديدة الوطأة فتباعدت عنها الخيل وتضايق منها المقاتلون ولا سيما بنو بجيلة ، فارسل سعد الى بني اسد بان يسندوا بجيلة . فثبت بنو اسد ودافعوا

دفاع الابطال فدارت الرحى عليهم . وتشبهت بهم بنو كندة فاقتحمت وعلى راسها الاشعث بن قيس . ثم ارسل سعد الى عاصم بن عمرو سيد بني تميم ان يتدبر حيلة لهذه الافيال . وكان صاحب رأي . فاشار على الرماة بان يشاغلوا راكبيها بالسهام ، وبعث جماعة جاؤوها من خلفها وقطعوا حُزمها ، فتساقط اصحابها عن ظهورها وتساقطت صناديقها فنفرت عارية تدوس من وقع تحت اقدامها ، فتنفس بنو اسد وانفرجت بجيلة .

نجدات من سورية

وفي اليوم الثاني جاءت النجدات من سورية ، بعد اندحار الروم في اليرموك ، يتقدمها القعقاع بن عمرو ، فازداد العرب نشاطا وحمية . وامتاز القعقاع في هذا اليوم بشجاعته وسداد رأيه . فانه بارز جماعة من فرسان الاعاجم فقتلهم واحدا واحدا . واشار بان توضع البراقع على وجوه الابل وسيرها بركابها عشرة عشرة ، تدفعها الفرسان بجيادها ، فاندفعت على خيول الاعداء هادرة هائجة فبددت شملها وبعثرتها . ولم يخرج الفرس هذا النهار افيالهم لان صناديقها تكسرت ، فكابدوا من وطأة الابل اعظم مما كابد المسلمون من الافيال في اليوم الفائت .

واستمر العراك دائرا حتى انتصاف الليل . قال الطبري وابن خلدون : « كانت خسارة المسلمين الفين بين قتيل وجريح ، وكانت خسارة المشركين عشرة آلاف » .

مخطط جديد

وبات القعقاع ليلته يوصي اصحابه اذا طلعت الشمس بان يقبلوا مائة مائة يريد ان يجدد بذلك رجاء الناس ، وينشط قواهم . فلما اسفر الصبح اقبل اصحاب القعقاع مائة بعد مائة ، ففرح المسلمون وقالوا جاء المدد ، وارتفع تكبيرهم .

ثم لحق بهم هاشم بن عتبة باصحابه ، يبعثهم سبعين سبعين مقتديا بالقعقاع . وفيهم قيس بن المكشوح المرادي من الفرسان المعدودين . فاغتبط المسلمون لهذه الامداد ، واشتدت عزائمهم .

واما الفرس فانهم نظموا صفوفهم واعادوا الصناديق على ظهور الافيال ، واقاموا رجالا حولها يمنعون تقطيع حُزمها وخلفهم فرسان يحمون ظهورهم . والظاهر ان خيل المسلمين تعودت مرآها فلم تنفر منها هذه المرة .

يوم هائل

وكان اليوم الثالث عظيم الهول ، التحم فيه الجيشان على السواء . وابلى قيس بن المكشوح وعمرو بن معدي كرب

فارس زبيد ، بلاء حسنا شهدت لهما به الفرسان . وزحفت الافيال تفرق الكتائب وتبددها ، وفيها فيلان احدهما ابيض والآخر اجرب كانا اشدها وطأة واعظمها بطشا . فارسل سعد إلى القعقاع وعاصم أبي عمرو أن يتدبرا أمر هذين الفيلين . فحملا على الأبيض برمحين لينين ، ووضعاهما في عينيه فقتل الفيل وراكبه . ثم حملا على الأجرب ، ففقئت عينه وقطع خرطومه ، فمر بين الفرسان شارداً حائراً فاتبعته الأفيال خارقة صفوف الأعاجم ، متجهة نحو المدائن ، وهلك جميع ركابها .

واحتدم القتال فوصل الليل بالنهار . ويسمي العرب هذه الليلة بليلة الهرير لشدة ما ارتفع فيها من الصياح والجلبة ووقع الحديد على الحديد .

الى رستم

وخاف سعد ان يؤتى المسلمون ليلا من ورائهم بطريق مخاضة اسفل السكر فبعث اليها جماعة من الفرسان تحميها ، فاجتازها بعضهم والتفوا على الاعاجم من خلفهم فارتاع هؤلاء لهذه المباغتة . ثم زاحفهم القعقاع وقومه ، ثم حمل بنو اسد فالنُخع فبجيلة فكندة . وكبر سعد ثلاثا فتلاحق المسلمون ، واختلط الجمع بالجمع فما كان الا صليل السلاح .

وانقطعت الاخبار والاصوات عن سعد حتى منتصف الليل فسمع صوت القعقاع في جماعة من الرؤساء يتنادون : الى رستم . وما اشرق صباح اليوم الرابع حتى كان القعقاع وعمرو ابن معدي كرب وطليحة بن خويلد الاسدي وهلال بن علتفة وسواهم من الابطال يشقون قلب الجيش الى رستم ، فقاتلهم عنه الفيرزان والهرمران ، ثم انفرج القلب عن قائد القواد .

وكان رستم جالسا على سرير ومعه جماعة من اهل مشورته ، وفوقه طيارة (مظلة) ترد عنه الشمس . فهبت ريح عاصفة فقلبت الطيارة عن السرير فقام عنه يستظل بظل بغل عليه حمل ، فتناولته سيوف فرسان العرب ورماحهم فوقع الى الارض وقد امتلأ بدنه طعنا وضربا .

سقوط الراية العظمى

تضعضعت جيوش الفرس بعد مقتل قائدها وانهزمت شر هزيمة ، وسقطت في ايدي المسلمين ، الرابة العظمى ، رمز المملكة المقدس ، تلك الراية التي يتذكر بها الفرس تحرير بلادهم على يد بطلهم الاسطوري افريدون ، راية الحداد كاوي « درفشي كاويغاني » وهي غنيمة كبرى لانها كانت محلاة بالجواهر الكريمة .

وانتهت معركة القادسية بانهيار كتائب الفرس ، لتنهار بعدها

مملكة الا كاسرة . وطبيعي ان يستهين العرب بالعجم بعد هذا الانتصار العظيم الذي ما كانوا يحلمون به في جاهليتهم . فتبعوهم الى عاصمتهم المدائن وهي عبارة عن سبع مدن قائمة على ضفتي دجلة . فخاف يزدجرد على نفسه ، فترك العاصمة الى حلوان يحتمي بقلعتها . فلما بلغ العرب المدائن وعاينوا الايوان كبروا وقالوا : هذا ابيض كسرى . هذا ما وعد الله . فحاصروها ثلاثة اشهر ثم اقتحموها خائضين دجلة بخيولهم واستولوا عليها سنة ٦٣٧م بعدما جلا عنها الجيش والسكان . فدخل سعد القصر الابيض ، وصلى في الايوان .

ثم جمع ذخائر الملوك وغنائم العاصمة ، فبعث الى عمر بن الخطاب بتاج كسرى وحليته وثيابه وسيفه ، وسيف النعمان ابي قابوس .

وكان سيفه هناك منذ قتله كسرى . وقسم الغنائم بعد ان اخذ خمسها فبلغت حصة الفارس اثني عشر الف درهم وكانوا ستين الف فارس ليس فيهم راجل ، كما يقول ابن خلدون .

وتتبع المسلمون بقايا الفرق الفارسية فسحقوها في جلولاء قرب نهوند سنة ٦٤٢م فلجأ ملك الملوك الى مرو حيث وجد مقتولا سنة ٦٥١ .

هكذا زالت دولة الفرس وتم النصر للعرب .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القادس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

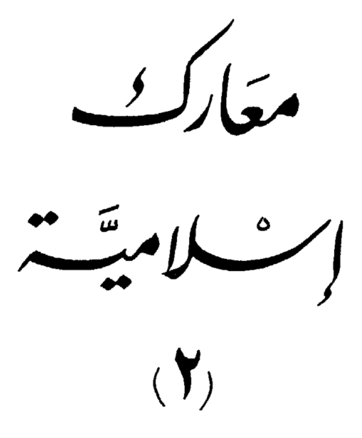
معارك إسلامية

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
اسلامية

سلسلة
مختارات
اسلامية



دار الفكر اللبناني



إمتداد فتح الأندلس في أعماق فرنسا

عبد الرحمن الثقفي وشارل مارس على ضفاف اللوار

ودع موسى بن نصير ارض الاندلس طاعة لامر الخليفة ، وودعها طارق بن زياد قافلا معه الى سورية .

وكان موسى قد خلف ابنه عبد العزيز واليا على الاندلس ، فجعل مقره في اشبيلية ليبقى قريبا من البحر لان المسلمين كانوا لا يزالون على حذر من هذا النصر العاجل الذي تسنى لهم ، فلم يأمنوا ارتداد القوط عليهم بابناء الولايات الشمالية . فآثر صاحب السلطان ان يكون سريره قرب الشواطىء فلا ينقطع خط الصلة بينه وبين افريقية . على ان عبد العزيز كان حسن السياسة والتدبير ، فحين اخذ على عاتقه عمل الاندلس عقد معاهدة صلح مع تدمير ملك القوط اعترف فيها تدمير بانه من عمال الخليفة ، ورضي بدفع الجزية . واعترف له عبد العزيز

بملكه على بلنسية واوريولة وسواهما ، وعاهده على ان لا يعتدي المسلمون على رعيته ، ولا يعارضوهم في دينهم . ثم اخذ عبد العزيز يجبي الضرائب ويرسلها الى دمشق .

الانحناء القسري

ولكن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان كارها له ناقما على ابيه ، فدس عليه من اثار به الجند فقتلوه سنة ٩٨هـ (٧١٦م) وهو في جامع اشبيلية ، متهمين اياه بانه جعل باب مجلسه صغيرا لينحني له الناس ساجدين اذا دخلوا عليه . وقد فعل هذا ارضاءء لزوجه الاسبانية ارملة رودريك ، فانها طلبت منه ان يسجد له الناس كما كانوا يسجدون لبعلها الاول ، فلم يستطع رد طلبها لشدة شغفه بها ، فلجأ الى هذه الحيلة ، لئلا يجد المسلمون في صنيعه بدعة اذا حملهم جهرا على السجود .

ولاة متعاقبون

فلما قتل بقيت الاندلس نحو ستة اشهر وبنو امية لا يبعثون اليها واليا ، فاجتمع زعماء البربر واختاروا ايوب بن حبيب اللخمي ، وهو ابن اخت موسى بن نصير ، فجعل سريره في قرطبة ، وبنى قلعة ايوب على خرائب بيبلس . الا انه ما كاد

يستقر في ولايته حتى عزله محمد بن يزيد صاحب افريقية ، وولى مكانه الحر بن عبد الرحمن الثقفي . وكانت الاندلس تابعة منذ الفتح لافريقية ، وولاتها اما يرسلهم عامل افريقية ، واما يختارهم الخليفة بنفسه .

وكان الحر فظا قاسيا ، اساء معاملة المسلمين والمسيحيين على السواء فكثرت فيه الشكايات حتى عزله الخليفة ، وولى مكانه السمح بن مالك الخولاني . وكان الحر قد غزا الفرنجة في مدة ولايته ، فاجتاز البيرينه واستولى على نربون وضمها الى الاندلس .

وقعة البلاط

فاقتفى السمح اثر سلفه ، فجهز جيشا لجبا الى تولوز وضرب عليها الحصار الخانق فكادت تستخذي اليه لو لم ينجدها الكونت اودو دوق غسقونيا بقوات ساحقة فنشبت معركة طاحنة في ١١ ايار ٧٢١م (٩ ذو الحجة ١٠٢هـ) فقتل السمح ، وتمزق جيشه ، ولو لم يتداركه القائد الحازم عبد الرحمن الغافقي فيجمع شمله جهد المستطاع ، ويرتد به الى نربون بمهارة رائعة ، لكانت الخسارة اعظم . ويقول كليمان هيوار ان هذه المعركة حدثت على طريق روماني قديم فعرفت بغزوة بلاط الشهداء . وروى

صاحب نفح الطيب عن ابن بشكوال ان هذه الوقعة مشهورة عند اهل الاندلس بوقعة البلاط .

العرب على مشارف الرون

واكبر الجند شجاعة عبد الرحمن وحزمه ، فاختاروه لولاية الاندلس . ثم جاءه تثبيت من الخليفة . فقام بها خير قيام . الا انه لم يسلم من الحساد فراحوا يرمونه بالاسراف ويشكونه الى والي افريقية حتى عزله وولى مكانه عنبسة بن شُحيم الكلبي ، فاستقامت به الاندلس وضبط امرها ، ثم غزا بنفسه ارض الفرنجة ، فاغار على شاطىء الرون حتى بلغ ليون . وفيما هو يجتاز النهر راجعا اصابه سهم فقضى على حياته .

عودة عبد الرحمن

وتتابع بعده الامراء حتى عادت الولاية الى عبد الرحمن الغافقي ، فاستبشر به اهل الاندلس ورحبوا بقدومه . فنشط في بدء امره الى تدبير البلاد وتعهد شؤونها بالرعاية والعدل . فجبى الضرائب على اساس المساواة . واصلح الجيش منظما فرقة وقواده . وحصن المواقع والثغور الشمالية . ثم اخذ يدعو الى جهاد الفرنجة ، ويحشد لهم الجيوش .

وكان عثمان بن ابي نسعة الخثعمي احد زعماء البربر عاملا على الولايات الشمالية من قبل الامير عبد الرحمن ، فحدثته نفسه بان يستقل بولايته ، وينبذ طاعة اميره لما بين العرب والبربر من الخلاف والتنافس .

فقد كان البربر يعتدون بانفسهم لان الفاتح منهم والفتح تم على يدهم ، ويرون انهم اولى من غيرهم بالاحكام . غير ان العرب لم يفسحوا لهم في المجال ، بل استاثروا دونهم بالجا بالجاه والمناصب ، فحقدوا عليهم ، وناصبوهم العداء .

نزعة استقلالية

وسمت نفوسهم الى الاستقلال بالولايات التي كان امراء العرب يستعملونهم عليها ، كما سمت نفس ابن ابي نسعة ان يستقل بالولايات الشمالية ، فحالف الدوق اودو وهادنه ليستعين به على امير الاندلس . فازوجه الدوق ابنته لمباجية ليأمن به خطر الجنوب اذا هاجمه العرب ، ويستنجده على خطر الشمال اذا عاود الكرة عليه عدوه شارل مارتل ، فهاجمه ليزيل سلطانه .

ولكن عبد الرحمن لم ينم لهذا التحالف ، ولا ارتضى بمهادنة الدوق ، فبعث جيشا من قبله يحتل الولايات الشمالية ، فقاومه عثمان امام عاصمته الباب (بيسروا) على البيرينه ، فلم يستطع

الثبات امامه فولى هاربا ، فطارده الجيش حتى ادركه عند عين ماء في الجبال ، فدافع ابن ابي نسعة عن نفسه مستبسلا . ثم رأى زوجته لمباجية تساق سبية ذليلة ، فاستولى عليه اليأس ، فالقى بنفسه في هوة عميقة قادته الى دار القرار .

المطاردة حتى بوردو

وذعر الكونت اودو حين بلغه ما نزل بصهره وحليفه ، فنادى بالنفير ليغزو الولايات الشمالية . فبادره عبد الرحمن بجيش لجب ، يبلغ ثمانين الفا او يزيد ، فاجتاز البيرينه ، وزحف الى اوش وبازاس ، فتبعه اودو يحاول رده ، فهزمه عبد الرحمن وطارده الى عاصمته بوردو ، فتحصن فيها ، الا انها لم تغن عنه شيئا فسقطت بيد الغازي ، وهرب الكونت يستجير بعدوه شارل مارتل . وكانت جموع الفرنجة اخذت تضطرب في الشمال وتحس بالخطر الداهم بعدما اصاب فرنسا الجنوبية ما اصاب . فقد وقع معظمها في ايدي الفاتحين .

التعبئة لمواجهة العرب

وكان الملك عليهم يومئذ تيودوريك الرابع . ولكن شارل مارتل وزير القصر هو صاحب السلطة الحقيقية ، يسيطر بها على

الملك المتوج ، واليه يرجع في معضلات الامور ، فهب يحشد العساكر من الفرنجة والقبائل الجرمانية المرتزقة حتى تأتي له جيش عظيم ، ولكنه مختل النظام ، فاكثره لم يزل على الفطرة يكتسي جلود الذئاب ، شعوره الشقر منسدلة على اكتافه العارية ، فيه شجاعة وجرأة على غير تدريب وترتيب .

وانضم اليهم اودو بجيشه متفقا مع عدوه على حرب المسلمين . والمسلمون في تقدم مستمر ، تتساقط امامهم القلاع والمدن ، فما تردهم الاسوار والحصون . يزحفون من الجنوب الى الشمال فيغيرون على الجانب الغربي ، يخترقون الجبال ، ويعبرون الانهر ، ويمتلكون الجسور ، فيفتتحون اقطاعة غسقونيا بجملتها ويزيلون عنها ولاية الدوق .

تور بيد العرب

ثم ينفذون صعدا في الشمال الغربي ، فيبلغون بواتيه ، فيهاجمونها ويستولون عليها ثم يقتحمون قلب فرنسا مغيرين على ضفاف اللوار ، فتعترضهم تور ، فيلقون عليها الحصار ، فلا تلبث ان تستكين لهم فيصيبها ما اصاب اختها بواتيه بالامس . ويحدق الخطر باورليان ، مهددا باريس . وشارل مارتل يسير بجيشه متباطئا ليدعهم يوغلون في البلاد ، فيبتعدون عن قواعدهم . فلما سقطت تور كان جيش الفرنجة قد بلغ اللوار ،

وجيش المسلمين يتهيأ لعبوره ، فتراجع عبد الرحمن الى السهل المنبسط بين تور وبواتيه ليتسع عليه المجال ، .وعبر شارل النهر غربي تور ، فالتقى الجيشان في تلك البقعة الفسيحة التي قدر لها ان تقرر مصير اوربة ، وتقف عندها .

اسباب التوقف

جيشان تعادلا في الجرأة والاقدام ، وتعودا خوض المعارك وتحدي كالحات المنايا . وتعادلا في كثرة العدد وحسن القيادة ، فان شارل مارتل لم يكن دون عبد الرحمن خبرة في الحروب ، ودهاء في وضع الخطط ، وتسيير حركاتها . الا ان الجيش الغربي كان اوفى تدريبا من جيش الفرنجة . فقد خلا من امثال العصابات الجرمانية التي كانت تجهل الحروب المنظمة مع ما فيها من قوة وبطش وميل غريزي الى الكفاح . على ان وجود البربر فيه اضعف معنوياته واخل بعرى اتحاده وتضامنه . كانوا يكرهون العرب وملوا الحرب بعد الغنائم فودوا لو يرجعون الى اوطانهم ، يتمتعون في طمأنينة النفس بما اصابوا من سبي ومال . وهم لا سابقة لهم في الاسلام وليس لهم ما للعرب من مثل اعلى يدفعهم الى الجهاد لرفع الراية العربية واظهار الدين الجديد .

اختلاف نفسية الجيش

وكان العرب يجرون وراءهم من الغنائم اوفر مما يجر البربر . ولكن نشوة الفتح وعز الاسلام كانا يجددان الحمية في نفوسهم

لمتابعة الغزو ، وموالاة الجهاد ، فاختلفت نفسية الجيش ، من هذه الناحية ، باختلاف اهواء عنصرية . وان اتفق العرب والبربر على استصحاب الغنائم معهم ، وابوا ان يتخلوا عن بعضها او يتركوه في المدن التي افتتحوها فيخففوا عنهم اثقالها ، فقد شغلت هذه الغنائم قسما من الجيش لحراستها . وكانت عظيمة جدا ، فيها النساء والاولاد والاموال : غنائم مدن وقرى عديدة افتتحوها في طريقهم واقتسموا اسلابها . ولم يفت عبد الرحمن ضرر وجودها في الجيش وهو يتأهب لخوض معركة طحون ، فحاول اقناعهم بترك بعضها ، فرفضوا وكادوا يشغبون عليه ، فسكت عنها على مضض ، وخال بعض الشراهون من بعض .

حشد ومارتل

وكانت مواكب الفرنجة في كثرتها لم تزل على طراوتها ما قاتلت بعد في موقعة تنهك قواها ، وتستنزف من رجالها وعتادها ، الا ما كان من عساكر الكونت اودو ، وهي لا تقاس بالجيوش العديدة التي حشدها شارل مارتل . مع ان جيش العرب في مجموعة قاتل في عدة مواقع قبل معركة بواتيه ، فبذل غير قليل من قواه ، ولقي اشد النصب ف الزحف واجتياز المدن والانهر والجبال .

ولكن لم يفتر نشاطه ، ولا ضعفت عزائمه لولا تلكؤ

البرابرة ، لان النصر تلو النصر زاده حماسة واندفاعا ، وبعث فيه قوة غريبة ، فلما اطل عليه جيش الفرنجة وعسكر ازاءه حتى باداه عبد الرحمن بالهجوم ، فحمل الجيش العربي دفعة واحدة ، فاستقبله شارل مارتل بحملة معاكسة فاشتبك الفريقان ودارت رحى القتال .

موت البطل

وكافح العرب والفرنج كلاهما بشدة واستبسال ، فلم يلح بارق النصر لاحدهما حتى هبط الليل ، فافترقا على تكافؤ لا غالب ولا مغلوب . وفي اليوم التالي عادوا الى التلاحم ، فوجه الاكوتيون اصحاب الدوق حملتهم على حرس الغنائم . وهذه غنائم بلادهم فيها نساؤهم وابناؤهم وبناتهم ، ونفائسهم . فاخترقوا خطوط دفاعها ، واوقعوا الذعر فيها ، فارتفعت الجلبة وتعالى الصياح ، فتسارعت فرسان البربر للدفاع عن اسلابها منفصلة عن الجيش المقاتل ، وتلاحقت بها فرسان من العرب ، فانثغرت الصفوف وانكشفت مقاتلها للعدو ، فاحس عبد الرحمن بنزول الكارثة فبادر يلم الجيش من ناحية ويدافع عن الغنائم من ناحية اخرى ، معرضا نفسه لاسنة الاعداء في تحوله من مكان الى اخر ، حتى سقط وقد خرقته الحراب .

فارتبكت العساكر الاسلامية بعد مقتل قائدها ، وانهارت

عزائمها ، فصارت تكافح على غير نظام ، يائسة متفككة الاوصال . وادرك شارل مارتل ما حل بها ، فرماها بنخبة فرسانه وشدد عليها الضغط ، فقاتلت صابرة مستميتة ، وفقد العرب في هذه المعركة خيرة ابطالهم وساداتهم وفجع الجيش بالعدد الاكبر من رجاله ، حتى أرخى الليل أزراره بين العسكريين فافترقا على غالب ومغلوب . وانتظر المسلمون هدأة الليل فتقهقروا تحت أستاره ، قافلين إلى مواطنهم تاركين للفرنجة ما بأيديهم من الغنائم .

موقعة الزّاب

عاد العرب والفرس فالتقيا للقتال في ارض العراق ، لا في القادسية كالمرة الاولى ، ولكن قرب الموصل ، على ضفاف الزاب الاعلى ، النهر المجنون ، كذا ينعتونه لسرعة جريانه . التقى الغالب والمغلوب لا على توحيد وشرك كما التقيا منذ ست عشرة سنة ومائة ، بل على اسلام جامع وانما تشوبه سياسة مفرقة . فقد ترك الفرس دينهم القديم ، واهملوا لغتهم الاصلية ، لينتحلوا الدين الجديد ، ويتعلموا اللغة العربية ، رجاء ان يجدوا المساواة عند العرب المنتصرين ، اذا جمعهم اليهم دين واحد ولسان واحد .

ولكن العنصرية والتمييز استمرت في النفوس . وساء الاعاجم ان يروا من خلفاء بني امية ايثاراً للعرب ، وتعصبا على العجم . فقد كان المولى منهم يساق الى الحرب ماشيا لا يعطى غنيمة ولا فيئا . فتولد في نفوسهم كره شديد للعنصر العربي .

فتألفت جماعة الشعوبية وتواطأ غير المسلمين منهم على اذية الخلافة نفسها والدس للدين . ولكنهم كانوا ضعافا في شباب الدولة الاموية فلم يرتفع لهم صوت حتى آنسوا الضعف في جسمها ، والانحلال في اعضائها ، فثار الفرس عليها ، ونصروا بني العباس في موقعة الزاب على امل ان يكونوا لهم خيرا من الامويين وابقى .

الاحزاب المتألبة

ولم تكن الشعوبية وحدها تسعى لاسقاط الامويين ، بل تألب على مناوأتهم احزاب مختلفة الاهواء ترمي الى هدف واحد ، كالخوارج والزبيريين والعلويين ، فكان العصر الاموي عهد ثورات وحروب وفتن .

ولم يلبثوا أن تسلل الضعف إليهم لتفاقم الثورات من جهة ، ثم لانغماسهم في الترف من جهة أخرى ، وقلة عنايتهم بتدبير المملكة وانتقاء عمالها وانتشار الشقاق بين أمرائهم بسبب نظام ولاية العهد فإن الخليفة كان يعقد الولاية في حياته لاثنين أو ثلاثة من أولاده أو لولده وأخيه ، فإذا استخلف ولي العهد الأول

استبد بالأمر وحاول خلع الثاني لينقل الولاية إلى بنيه ، فِعل هشام بن عبد الملك فإنه بالغ في التشنيع على إبن أخيه الوليد بن يزيد ، ورميه بالكفر والفسوق ، وتنفير الناس عنه ، لأن ولاية العهد كانت له من بعده ، وهو يريدها لإبنه .

فاساء الى سمعته حتى اذا انتهت اليه الخلافة بعد هشام ، احاطت بها الثورات والدسائس يحوك خيوطها الاهل والاقرباء ، فقتل الخليفة بعدما قل ناصروه ، فكان مقتله شؤماً على بني امية لان الناس طمعوا فيهم ، واجترأوا عليهم ، فاخذوا يثيرون بعضهم على بعض ليزيدوهم ضغينة واختلافا .

فلم يقم خليفة بعد الوليدُ الا خرج عليه بعض ابناء عمه ، وحاربوه ونازعوه الامامة ، فاضفوا سلطانهم بشقاقهم ، واعانوا اعداءهم على كسر شوكتهم وازالة ملكهم .

فاجتمعت عليهم الاحزاب المختلفة مع ما بينها من تباعد الرأي والسياسة ، فكان سبب زوال ملكهم كما قال بعض الامويين : اختلاف فيما بيننا واجتماع المختلفين علينا .

قمع الفتن

وقد استطاع الامويون ان يقضوا على حزب الزبيريين في خلافة عبد الملك ابن مروان ، وتمكنوا من قمع فتن الخوارج

المتتابعة وتقتيل زعمائهم ، ولكنهم لم يقووا على اخماد جذوة التشيع للعلويين ، ومنع اضطرامها في نفوس جماعات من الصحابة والتابعين ، مهاجرين وانصارا ، وامتداد لظاها مندلعة الالسن في العراق وخراسان ، ولا سيما بعد مقتل الحسين بن علي في كربلاء ، فقد استفظع الناس اجتراء الامويين على ابن بنت الرسول ، فتعاظم عدد المتشيعين ، وازدادوا حماسة وتعصبا لعلي وابنائه ، ونقمة على بني امية .

الا انهم لم يحفظوا وحدتهم بل انقسموا فرقا متعددة اعظمها الامامية وهي التي تحصر حق الامامة بابناء فاطمة بنت النبي . ثم الكيسانية والراوندية ، وهم القائلون بان الامامة بعد الحسن والحسين تحولت الى اخيهما محمد بن الحنفية ، ثم انتقلت من بعده الى ابنه عبد الله ابي هاشم . فخالفوا بذلك الامامية التي بايعت عبد الله بن حسن بن الحسن ابن علي .

إمامة بني عبّاس

وكان ابو هاشم عالما جليلا فوفد يوما على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فرأى منه سليمان فصاحة ولسناً ، وقوة وعلما ، فخافه لعلمه بطمعه في الخلافة ، فارسل اليه من يدس له السم في اثناء رجوعه الى المدينة .

فلما شعر ابو هاشم بالسم وهو في بعض الطريق عرج على

الحُـميمة من اعمال البلقاء في الشام وفيها ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فنزل عنده ، واوصى له بالخلافة من بعده مخافة ان يموت وتضيع البيعة وهو بعيد عن اهله .

فانتقلت الامامة من العلوية الحنفية الى بني العباس ، والتف حولهم الكيسانية والراوندية عملا بوصية ابي هاشم ، يبثون لهم الدعوة من العراق الى خراسان .

بدء الدعوة العباسية

وكان بدء الدعوة العباسية سنة ١٠٠هـ (٧١٨م) في خلافة عمر بن عبد العزيز . فان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بعد ان اخذ الوصاية من ابي هاشم انشأ يؤلف الجماعات السرية ، ويوجهها الى العراق وخراسان ، وجعل على رأسها ميسرة احد زعماء الدعوة العلوية ، فاختار اثني عشر نقيبا ، وجعل تحت ايديهم سبعين رجلا ياتمرون امرهم ، واوصاهم ان يولوا وجوههم شطر خراسان لانها اصلح من غيرها لنشر الدعوة .

وقد احسن محمد باختيار خراسان لان الامصار العربية كانت تشغلها الاحزاب السياسية وكل حزب يسعى لنفسه . اما خراسان فان الفرس فيها يكرهون العرب وبني امية ولكنهم لا يطمعون في الخلافة .

وهم شيعيون في كثرتهم ، غير انهم لا ينفرون من بني العباس لانهم هاشميون من آل البيت . وهناك الشيعة الراوندية صاحبة النفوذ تناصرهم اشد المناصرة لان الوصاية انتقلت اليهم بعد موت ابي هاشم .

وهناك ايضا قبيلة بني خزاعة العربية ، تشيع من عهد طويل للهاشميين وتتعصب لهم ، وهي تملك في خراسان قرى ومزارع كثيرة يمكن استخدامها للثورة ونشر الدعوة .

مركز الدعوة

فسار ميسرة الى الكوفة وجعلها مركزا للدعوة ، واختار مرو عاصمة خراسان ، مكان نشرها فوجه اليها رجاله ، فراحوا يبثون الدعوة سرا سنة ١٠٢هـ متظاهرين بالتجارة وطلب الرزق ، فتأدى خبرهم الى عامل خراسان ، فاستدعاهم وسألهم عن امرهم فقالوا : نحن اناس من التجار . وانكروا ان يكونوا دعاة . ثم جاء بعض اهل خراسان من ربيعة واليمن فشهدوا فيهم شهادة حسنة وكفلوهم عند الوالي فخلى سبيلهم .

وفي سنة ١٠٥هـ (٧٢٣م) قدم الكوفة بكير بن ماهان ، فلقي فيها ميسرة وغيره من الدعاة ، فذكروا له امر دعوة بني

هاشم فاتفق معهم وانضم اليهم ، فلما توفي ميسرة اقامه محمد بن علي مكانه على رأس الدعاة في العراق وخراسان ، فشرع يبعث الرسل والنقباء الى الولايات .

ابو مسلم الخراساني

ولكن الدعوة العباسية لم يكتب لها النجاح الا على يد ابي مسلم الخراساني ، وان كان الذين تقدموه مهدوا لها السبيل وهيأوا الافكار لقبولها . وابو مسلم هذا نشأ في الكوفة يتيم الاب فتعهد تربيته عيسى بن معقل العجلي ، فاشتراه منه بكير بن ماهان باربع مائة درهم سنة ١٢٤هـ (٧٤١) وضمه اليه .

وفي السنة التالية توفي محمد بن علي فانتقلت الامامة الى ابنه ابراهيم

. فوجه ابراهيم سنة ١٢٦ بكير بن ماهان الى خراسان ليدعوا الناس الى مبايعته بعد ابيه ، فسار بكير الى مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة ، فنعى اليهم الامام محمدا ودعاهم الى مبايعة ولده ابراهيم ، فبايعوه وبعثوا اليه بالهدايا والنفقات .

ثم توفي بكير بن ماهان سنة ١٢٧هـ ، فتوجه من الدعاة الخراسانيين قحطبة بن شبيب وسليمان بن كثير ولاهز بن قريط الى مكة ومعهم ابو مسلم فلقوا ابراهيم الامام بالهدايا وقدموا له ابا مسلم ، فاعجبه ذكاؤه ومعرفته ، وتحمسه للدعوة العباسية ، فبعثه سنة ١٢٩هـ (٧٤٦م) الى خراسان وجعله رأس الدعاة .

المضرية واليمانية

وكانت خراسان تابعة للعراق يرجع عمالها بشؤ ونهم الى امير البصرة ، وفيها قبائل عربية من مضر وربيعة وازد اليمن ، تتنافس كما كانت تفعل قبل الاسلام ، وتتنازع السلطان والنفوذ . وقد انحازت ربيعة الى اليمانية مع انها نزارية عدنانية كمضر الا انها كانت تكره المضرية على ما بينهما من النسب ، لان مضر كانت تفاخرها بالنبوة والخلافة ، فسخطت عليها ، لانه لا نبي منها ، ولا خلافة فيها .

وناصرت اليمانية وشدت ازرها في حروبها مع المضرية ، فاصبحت خراسان موطنا للمنافسات ال القبلية فاذا كان عاملها مضريا رفعت بنو تميم والرباب راسها ، واذا كان يمانيا اعتزت قبائل الازد واعتزت ربيعة معها .

على ان عامل خراسان لم يكن يطيب له مقام فيها الا اذا كانت عشيرته قوية تقوم معه في وجه من ينتقض عليه . فقد ولى هشام بن عبد الملك نصر بن سيار الكناني على خراسان وليست له فيها عشيرة ، فاجتمعت عليه افناء اليمن وربيعة تحاربه لتعصبه للمضرية .

الحرب بين نصر وبين ربيعة واليمن

فلما جاء ابو مسلم خراسان كانت الحرب ناشبة بين رجال

نصر بن سيار من جهة ، وربيعة واليمن من جهة اخرى ، وعلى راسها جديع بن علي الكرماني .

وكان نصر قد اساء اليه وحبسه ، فغضبت الازد وتعصبت له ، وكلمت فيه نصرا ولم تزل تسعى لخلاصة حتى اطلق سبيله ، فراح يؤلب قبائل اليمن وربيعة للفتنة عليه .

فانتهز ابو مسلم الفرصة فنزل في ضواحي مرو واخذ يكيد للعدوين عاملا في زيادة الخلاف بينهما ، يخدع المضرية بانه معها على اليمانية ، ويخدع اليمانية كما يخدع المضرية .

ويكتب الى نصر ان الامام قد اوصاه به ، ويكتب الى الكرماني بمثل ذلك ، حتى اصبح هوى الفريقين معه . وهو في الوقت نفسه يدعو الناس الى مبايعة الرضا من بيت الرسول دون ان يسمي احدا لتكون الدعوة مشتركة بين العلويين والعباسيين فيأمن معارضة الشيعة الامامية .

فاقبل الناس على دعوته وكثر اتباعه . فخشي نصر مغبة الامر وكتب الى الخليفة مروان بن محمد يخبره بحال ابي مسلم وكثرة من معه فتخاذل مروان عن انجاده وكتب اليه يقول : « ان الحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فاحسم انت هذا الداء الذي قد ظهر عندك » .

وكان مروان يومئذ في حران مشتغلا بحرب الخوارج في

الجزيرة وغيرها . وقد نهكت الثورات والفتن قوى جيوشه ، وهو لم يصل الى الخلافة الا بعد ثورة هاجها على ابن الخليفة السابق حتى خلعه وانتزع العرش منه .

مبايعة مروان

لما قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بتحريض اهله واقربائه سنة ١٢٦هـ صارت الخلافة بعده الى ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، فما كان منه الا ان اعتقل الحكم وعثمان ولدي الخليفة المقتول وحبسهما في سجن دمشق مخافة ان يطالبا بحقهما في الخلافة .

فثار مروان بن محمد على ابراهيم سنة ١٢٧هـ يعاونه يزيد بن هُبيرة ، فوجه ابراهيم سليمان بن هشام لمحاربته ، فكسره مروان وبايع للغلامين المحبوسين . ثم تابع زحفه الى دمشق فهرب منها ابراهيم ، ودخلها مروان ظافرا ، وطلب الغلامين فاذا هما مقتولان فدفنهما .

وبايعه الناس بالخلافة . ولكن حمص انتفضت عليه وابت ان تبايعه فجهز اليها جيشا ليحاربها ويخمد ثورتها .

الفرصة السانحة

وفيما هو يحاصرها وقد امتنعت عليه كان الضحاك بن قيس الشيباني ، فقيه الخوارج ورئيسهم ، يراقب اضطراب الحالة السياسية ، وضعف سلطان الامويين ، فرأى الفرصة سانحة لان ينقل الخلافة من مضر الى ربيعة ، فهاجم الكوفة فاستولى عليها من يد اميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز .

مبايعة الضحاك ومقتله

فهرب عبد الله الى واسط فتبعوه اليها ، واشتدت عليه الحرب ، فاستسلم وبايع الضحاك ، ودخل في البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك .

ثم عاد الضحاك الى الموصل يتمتع بالامامة وقد بايعه عليها اميران من البيت المالك .

فكتب مروان الى ابنه عبد الله ان يذهب لمحاربة الضحاك ويرده عن الجزيرة ، فسار اليه عبد الله فالتقاه الضحاك بنصيبين ، وضيق عليه الحصار ، فاسرع مروان لنجدة ابنه ومعه قائده يزيد بن عمر بن هبيرة ، فحصلت بين الفريقين موقعة قتل

فيها الضحاك سنة ١٢٨هـ . ثم ولي مروان قائده على العراقين فلبث يقاتل الخوارج حتى اجلاهم عن تلك الاصقاع .

وجاء كتاب نصر بن سيار الى مروان يخبره خبر ابي مسلم في خراسان ، ومروان مضطرب النفس لكثرة العصاة والخارجين حتى ابناء عمه ياتمرون به ويبايعون الغرباء . فارسل الى نصر يلقي العبء على عاتقه لانه لم يدر ماذا يصنع .

التوجيه بالخلافة لابي العباس السفاح

فكتب نصر الى ابن هبيرة امير العراقين يستنجده ، فتلكأ ابن هبيرة عن اجابة طلبه ، وما كان عليه ان يخذله وخراسان تابعة لامارته ، وهو مسؤول عنها واليه مرجع عاملها . فعاد نصر الى مروان يستصرخه ويبين له خطر الموقف ، فكتب مروان الى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامله على دمشق يامره بحبس الامام ابراهيم ، فارسل الوليد بعثا الى الحُميمة واعتقل ابراهيم سنة ١٢٩هـ . فلما قبض عليه اوصى بالخلافة بعده لاخيه ابي العباس السفاح ، وامر اهله وانصاره بالمسير الى الكوفية مركز الدعوة ومقر الشيعة الكيسانية . حُمل ابراهيم الى حران حيث كان م ان فحبس وقتل في حبسه .

شعار العباسيين

فلما بلغ ابا مسلم ما وقع للامام بعث الى الكرماني يعرض عليه حلفه فاجابه الى طلبه ، ولكن نصرا خدعه ودعاه الى الموادعة فارتضى بها ، واقبل عليه مطمئنا ، فامسكه نصر وصلبه . فثار ولده علي ، تناصره الازد ، وهاجم جيوش نصر لينتقم لابيه ، فوقعت معركة حامية في شوارع مرو سهلت لابي مسلم دخولِ العاصمة سنة ١٣٠هـ (٧٤٨م) ، وثارت معه قرى خزاعة تعاضده ، وتسند الدعوة . فنشر السواد ، شعار العباسيين ، في الزينة والاعلام ، فسودت مرو وهرب نصر منها الى نيسابور . ثم جلا عن نيسابور ، بعد انكسار ولده تميم في طوس . ثم انهار جيشه في جرجان ففزع الى همذان تاركا العراق ليس له من يدافع عنه ، ومات في ساوة سنة ١٣١هـ .

دخول الكوفة

وكان ابراهيم الامام قد ارسل الى ابي مسلم قحطبة بن شبيب الطائي ليقود الجيوش الخراسانية ، فلما هرب نصر من مرو تتبع قحطبة وابنه الحسن الجيش المنهزم ومن انضم اليه من انصار بني امية ، حتى تم له النصر في نهاوند سنة ١٣١هـ . ثم قصد العراق لمحاربة يزيد بن هبيرة وحصار الكوفة ، فالتقاه ابن هبيرة عند فم

الفرات على ثلاثة وعشرين فرسخا من الكوفة ، فانتصر عليه قحطبة ، ولكنه قتل ساعة انتصاره ، قيل انه غرق في النهر ، وقيل بل ضربه معن بن زائدة بالسيف ، وكان معن من اتباع ابن هبيرة ، فوقع في الماء ومات . وخلفه ابنه الحسن ، وهرب يزيد الى واسط فتحصن بها . ودخل الحسن الكوفة ظافرا . ١٤ محرم ١٣٢ (٢ ايلول ٧٤٩).

مبايعة ابي العباس السفاح

ثم قدم الكوفة ابو العباس السفاح واخوه ابو جعفر المنصور ، ومعهما الاهل والانصار عملا باشارة اخيهما ابراهيم . فقصد ابو العباس دار الامارة واظهر دعوته ، فبايعه الناس بمسجد الكوفة الكبير في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٢ ، ٢٨ تشرين الثاني ٧٤٩ ، ثم وجه اخاه ابا جعفر الى واسط ، فساعد الحسن بن قحطبة على حصارها ، وبطش بيزيد بن هبيرة ، وبعث برأسه الى اخيه السفاح (ذو القعدة ١٣٢).

الزحف الى الموصل

كانت هذه الاحداث تتوالى على عرش بني امية ، ومروان بن محمد في حران يتلقى كل يوم نبأ مشؤوما اما عن خراسان واما عن العراق . حتى خاف عاقبة الامر ، وقد جاء خوفه متاخرا ،

فجهز جيشا من القوات السورية ، يقول ابن خلدون انه مائة وعشرون الفا ، وزحف به الى الموصل فنزل على دجلة ، وحفر خندقا ، فسار اليه ابو عون عبد الملك بن يزيد ، فنزل على الزاب الاعلى . ثم تبعته الامداد من السفاح وعلى راسها عمه عبد الله بن علي وبلغ الجيش العباسي على قول ابن خلدون نحوا من عشرين الفا .

فتنحى ابو عون عن الرئاسة لعم الخليفة ، فوجه عبد الله حملة من خمسة آلاف ، فعبرت الزاب إلى عسكر مروان ، وقاتلت حتى المساء ، ثم ارتدت فعبرت المخاضة راجعة إلى قواعدها . ولما أصبحوا عبر مروان الجسر ، وأمر ابنه عبد الله بأن يحفر خندقاً في أسفل معسكر عبد الله بن علي .

الهزيمة

فبعث عبد الله بن علي احد قواده المخارق بن غفار في اربعة الاف ، فعسكروا على خمسة اميال من جيش عبد الله ابن مروان ، فوجه اليهم حملة بقيادة الوليد بن معاوية ، فهزمتهم واخذت منهم عددا كبيرا من الاسرى .

فزحف عند ذلك عبد الله بن علي بقوة من جيشه ، وعلى ميسرته ابو عون . وتقدم مروان ومعه ثلاثة الاف لينجو الوليد ابن معاوية . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، فطلب مروان

المودعة ، فاباها عليه عبد الله بن علي . وكان مروان يريد تاخير الهجوم منتظرا غروب الشمس ، فلم يطعه صهره الوليد بن معاوية ، بل حمل بالجيش السوري على كره من عمه .

القتال على الركب

فالتقاهم عبد الله بن علي بقواته ، ونزل الفرسان عن خيولهم ، فتقاتل الفريقان على الارض جاثين على الركب مشرعين الرماح . وكان اهل خراسان ينادون : يا لثارات ابراهيم ! وشعارهم : يا محمد يا منصور . فاشتد القتال بينهم بضعة ايام ثم اخذت العساكر السورية تتاخر ، ومروان يحضها على الحرب ، ولكنها كانت على كثرة عددها منهوكة القوى من الحروب السابقة والفتن المتوالية ، وهي في مجموعها لا تقاتل صادقة النية مع مروان بن محمد ، لان اهواء السوريين اصبحت متقسمة مع تقسم البيت المالك لا تجمعهم تلك القوة المعنوية التي التي طالما عضدوا بها الأمويين ونصروهم من أحرج مواقف القتال . وكان في جملة من تخاذل عنه صاحب شرطته . فلما رأى مروان تراجع جيوشه وتركها القتال طفق يبذل لهم الأموال بسخاء ليجدد نشاطهم ، فأخذوها منه ثم انكفأوا عنه وتركوه . فقاتل بمن بقي معه حتى تحطمت قواه بعد معركة دامت من ٢ إلى ١١ جمادي الآخرة ١٣٢ (١٦ ـ ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠) . ثم انهزم إلى حران ومنها إلى دمشق ، والعساكر الخراسانية تطارده

حتى قتل في مصر ، فأرسل رأسه السفاح . فكانت موقعة الزاب قاضية على عرش سورية لترفع عرش العراق ، فزالت الخلافة العربية الخالصة ، وقامت مكانها خلافة عربية يحوطها الأعاجم . واشتقت نفوس الفرس على شاطىء الزاب بعد أن أذلتها موقعة القادسية ، فانبسط نفوذهم في ملك بني العباس ، وتضاءل دونه النفوذ العربي . واعتز الموالي بعد مهانة فإذا بصوت الشعوبية يتعالى متحدياً أبناء العرب ، ناشراً مثالبهم ، محقراً مجتمعهم وآدابهم . وشعرت سورية بالخسارة العظمى فثارت على العباسيين ، ولكن ثورتها جاءت بعد فوات الوقت فلم تجدها نفعاً ، فتلفعت دمشق بحجابها لتسفر بعدها بغداد .

موقعة البذ

ما انفك الفرس منذ موقعة القادسية وانثلال عرش الاكاسرة يحنون الى استقلالهم الفائت واسترجاع المجد المفقود حتى كانت وقعة الزاب فانبعثت معها آمالهم ، واصبحوا وهم في بني العباس ينازعون العرب السلطان والنفوذ ، يستأثرون بالخطط العالية ، فمنهم الوزراء والامراء ومنهم القواد . وارتفعت بهم اصوات الشعوبية تشيد بمناقب الاعجام ، وتنشر مثالب العرب ، فاين ايوان كسرى من خيام الصحراء ، وحضارة آل ساسان من بداوة قحطان وعدنان وهذا الشعور فيهم شامل على السواء من اسلم منهم وحسنت عقيدته ، ومن لبث على مجوسيته القديمة ، او كان

زنديقا يبطن الكفر ويظهر الاسلام . فغير عجيب ان يتحينوا سوانح الفرس ليعودوا ، كما كانوا ، امة مستقلة لها الوجود الخاص .

وقد ظهرت نوازع اهوائهم في انتفاضات متوالية حاولوا بها فصل ولاياتهم القاصية عن جسم الخلافة الاسلامية . وحاول مجوسهم وزنادقتهم محو الخلافة وابادتها ليوقدوا ب بانقاضها بيوت النار .

فقد ثارت خراسان غير مرة على ملوك بني العباس ، فقمعوا ثوراتها بالسياسة واللين او بالقوة والحزم . واستغلت نقمة المامون على اخيه الامين ، فعضدته لتثور به على العرب وخليفتهم . . والمأمون فارسي من جهة امه ، فهم اخواله يتعصبون له على ابن زبيدة العباسية العربية . ولكن انتقال الخلافة الى المامون لم يسكن خواطر الفرس طويلا ، فقد عادت خراسان تزعج خاطر الخليفة بانتفاضها وعصيانها ونزوعها الى الاستقلال . فارسل اليها المأمون طاهر بن الحسين قائده الفارسي ، وناصره على اخيه الامين . فاقام بها يسكن ثائرها من سنة ٢٠٥ الى سنة ٢٠٧هـ (٨٢٠ ـ ٨٢٢م) ثم جاهر فجأة باستقلال خراسان ، وقطع الخطبة عن بني العباس . ففظع المأمون بهذا النبأ ، وكاد يسقط في يده لو لم يمت طاهر على الاثر ، فحمد الخليفة الله على نعمه ،

الا انه اضطر ان يعترف بولاية ابناء طاهر بعد ابيهم يتوارثون امارة خراسان . فانتقلت اولا الى ابنه عبد الله ، فكانت الدولة الطاهرية نواة مملكة فارس الاسلامية .

ولم تكن انتفاضات امراء الفرس المسلمين لتزعج الخلافة وتقض مضجعها بقدر ثورات المجوس ، ومكايد الزنادقة متفقين على قلب الخلافة وازالة سلطان الاسلام . وكانت بلاد ارمينية وتركستان واذربيجان وطبرستان مواطن صالحة للعصيان والخروج .

فثار بابك زعيم الخرمية في ارمينية واذربيجان معتصما بجبال القفقاس . وثار مازيار في طبرستان تحميه رؤ وس جبالها . ومال اليهما الافشين امير اشروسنة قاعدة تركستان . غير ان خطر الخرمية كان اشد من غيره ولم يسهل على الخلفاء دفعة في وقت قريب ، كما دفعوا خطر مازيار والافشين .

فقد ثار شهريار بن شروين في جبال طبرستان يسانده مازيار بن فارن فهزمه عسكر المامون سنة ٢٠١هـ (٨١٦م) واقتيد مازيار الى الخليفة ، فعفا عنه واعاده الى امارة طبرستان ، فراح يوالي بابك الخرمي ويؤيد ثورته حتى قتل بابك وتبددت الخرمية .

مع ثم ضد

وكان حيدر بن كاوس المعروف بالافشين قد اظهر الاسلام ودخل في خدمة المامون ، ثم صار قائد جيوش المعتصم ، فوجهه الى بابك الخرمي فقمع ثورته وقبض عليه . غير انه لم يكن صادق الخدمة للخليفة ، بل كان يتاجر بثورة الخرمية ويستغلها ، فماطل ما استطاع في محاربتهم ، وتقاضى اموالا طائلة مقابل قيامه بهذه المهمة .

قال ابن الاثير : « جعل المعتصم للافشين على كل يوم يركب فيه لحرب الخرمية عشرة آلاف درهم ، وكل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم ، سوى الانزال والمؤونة » . وكان يرسل هذه الاموال سرا الى اشروسنة كاتما بصدره خطة يدبر امورها لينفذها في وقتها .

ولكن هذه التدابير لم تفت عبد الله بن طاهر امير خراسان فاطلع عليها المعتصم ، وصادر بعض الاموال المهربة متجاهلا انها للافشين ، وسكت الافشين عنها مخافة ان يفتضح امره . وكان عبد الله بن طاهر لا يؤمن بصحة اسلامه ، ويخشى شره لعلمه بطمعه في خراسان . فكثرت سعاياته فيه لدى الخليفة حتى اوغر صدره عليه . الا ان المعتصم تغاضى عنه لحاجته اليه .

فلما قمعت الثورة الخرمية ، وانتهت معركة عمورية مع البزنطيين ، عاد الافشين الى دسائسه لاشعال ثورة جديدة يستغلها ثانية . وكان مازيار صاحب طبرستان تابعا لعبد الله بن طاهر امير خراسان ، فزين له الافشين ان يمتنع عن تقديم الخراج اليه ، وان يرسله رأساً الى المعتصم ولو ادى الامر الى الخلاف . ولم يكن الافشين يحسب ان عبد الله ينهض لمحاربة مازيار ، بل كان يأمل ان تشتعل الثورة في طبرستان فيرسله الخليفة الى اخمادها فيتسنى له عندئذ الاستيلاء على خراسان .

ولكن عبد الله لم يتلكأ عن تأديب العاصي فبعث جيشا للقبض عليه ، فانتفض ثائرا ودعا الناس الى مبايعته ، وامد المعتصم عبد الله بالجنود ، فيقبض على الثائر وشتت اصحابه ، وبعث به الى الخليفة ومعه الكتب التي ارسلها اليه الافشين يحرضه بها على العصيان . فامر به المعتصم فضرب حتى مات ثم صلبه الى جانب بابك . ٢٢٤هـ (٨٣٨م) .

اعمال الافشين السابقة

وتبين للافشين بعد هذه الحوادث ان المعتصم تغير عليه فخاف بطشه وعزم على الفرار (٢٢٥هـ) . فبلغ الخيفة خبره فامر باعتقاله فحبس مدة ثم احضره للقضاء فظهرت علاقته

بمازيار وتاكدت زندقته برسائل جاءته من اشروسنة يدعوه فيها اصحابها باله الآلهة . ووجدت عنده اصنام او كتب للمجوس فاخرجت من منزله . ودل الكشف على انه لم يختتن بعد اسلامه وانما بقي بغلفته . فارجع الى سجنه وقطع عنه الطعام والشراب حتى مات . ثم صلبت جثته على باب العامة ، واضرمت تحتها نار عالية ، فتساقطت قطعا قطعا .

ومهما يكن من امر الافشين وزندقته وخيانته للخليفة ، فان انانيته ، ومطامعه في الملك ، وحرصه على جمع المال ، جعلت منه آلة صالحة لخدمة المعتصم ، ومقاومة الخرمية التي استفحل خطبها ولبثت عشرين سنة تهدد دولة الاسلام .

الخرمية

والخرمية جماعة من المجوس المزدكيين يبيحون الاموال واعراض النساء فيجعلونها مشاعة مشتركة بينهم . ويقولون بان الاله متجسد في شخص امامهم ، وبان لا صوم ولا صلاة ولا حج . فتأويل الصوم ان يصام على ذكر الامام فلا يباح باسمه . وتأويل الصلاة هو الدعاء له . وتأويل الحج هو القصد اليه . وقد انتشر هذا المذهب وراء الجبال القفقاسية من ارمينية واذربيجان وسواهما ، وانضمت اليه عناصر باطنية حلولية كما يتبين من زعمهم ان الله حل بالامام .

بابك

ولم تشعر الخلافة الاسلامية بخطر المذهب الخرمي شعورا جديا الا حين قام على راسه بابك ، واخذ يتحرك في ارمينية سنة ٢٠٢هـ (٨١٧م) يقطع السابلة فيقتل ويسلب ، ويغير على البلاد الآمنة فيعيث فيها فسادا ، وينشر مذهبه الاباحي مرخصا للناس ان يشاركوا بعضهم في نساء بعض .

واذا عاد بالسبايا والاسرى اغتصب واصحابه السبيات امام رجالهن من اباء وازواج وابناء . وكان يرمي بثورته هذه الى مقاومة الاسلام ، واعادة السلطان للدين الفارسي القديم .

فاستولى على اذربيجان وضمها الى ارمينية باسطا نفوذه عليهما ، معتصما بما يحطيهما من الجبال المنيعة ، وما لديه من المدن الحصينة ولا سيما البذ واردبيل . وجعل خطته في الحرب ان يبيّت الاعداء ليلا فيباغتهم على غفلة وينال منهم ما يتاح له ، ثم يعود ملتجئاً الى جباله وحصونه . او يبث الكمناء في رؤ وس الجبال وفي سفوحها بين المغاور والادغال ، فاذا اقترب العسكر الآتي لمحاربته من هذه الاماكن ، انصبت عليه العصائب الخرمية كالشياطين ترشقه بالسهام ، وتدحرج عليه عجلات فيها صخور كبار ، فما تزال تأخذه من الاعالي حتى يرتبك ويتضعضع ، فتقتحمه بسيوفها وحرابها مجهزة عليه .

بابك والمأمون

ابتدأت حركة بابك الحزمى في عهد المأمون ، وخلافته لم تزل متقلقلة من جراء مقتل الامين ، فجعل مقره في خراسان لان بغداد ثائرة عليه بعدما اصابها من الخراب في حصار طاهر بن الحسين لها . والعرب غاضبون لان الكلمة العليا صارت الى الفرس في خلافة المامون ، وهم يؤثرون ابن العربية المخلوع على ابن الفارسية الخالع .

والعباسيون في العراق ناقمون على الخليفة الجديد لانه اراد ، وهو بين الفرس ، ان يتودد للشيعة ، فبايع علي الرضا وجعله وليا لعهده . ولبس الخضرة شعار العلويين وترك السواد شعار بني العباس .

فخاف هؤلاء ان تخرج الخلافة من يدهم فبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي ونصبوه خليفة في بغداد ، فحرّجوا به الحالة السياسية على المأمون ، وضافروا الفتنة فتفاقمت في العراق ، وخلقت جوا ملائما لحركة بابك الخرمي . فثار باصحابه في ارمينية ، ثم استولى على اذربيجان ، والمأمون مرتبك على عرشه المترجرج بين العراق وخراسان .

حملات فاشلة على بابك

ولكن الاقدار تداركت الخليفة الحازم فمات ولي عهده الامير العلوي سنة ٢٠٣ ، ولم يبايع المأمون علويا بعده . فارتضى

العباسيون فبايعوه بالخلافة وخلعوا عمه ابراهيم . فاتيح له بعد ذلك ان يدخل بغداد ويتبوأ عرش آبائه . الا ان الاحداث الخارجية والداخلية لم تسمح له ان يتفرغ لمقاومة الخرمية ، فكان يرسل اليها الحملة بعد الحملة ، فيلقاها بابك برجاله وينزل بها الويل والخسران . واشهرها الحملة التي قادها محمد بن حُميد الطوسي الطائي سنة ٢١٤هـ(٨٢٩م) ، فسار بها وتجاوز المضايق ، فخرجت عليه الكمائن من الجبال ، فبددت شمل جيشه ، فلبث يكافح وبعض رجاله حتى سقط قتيلا في المعمعة .

ومات المأمون (٢١٨ هـ) وبابك الخرمي يبذر الفساد في الارض ، وينشر الهول على الناس . فلما استخلف المعتصم نشط الى حرب الخرمية ، فاوقع بهم في همذان وكان لهم معسكر فيها . ولكن أنّي له منهم ما دامت ممنعة في اجحارها ؟ فوطن النفس على مواقعتها في مكامنها ، ومجابهة الاخطار مهما تكن عليه من الشدة .

فعقد للافشين سنة ٢٢٠- (٨٣٥م) ووجهه الى الجبال في جيش عديد ، وجعل تحت يده ثلاثة من كبار القواد وهم ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي ، والهيثم الغنوي ، وعلّوية الاعلاور . فزحف الافشين الى اردبيل ، وكان بابك قد جلا عنها ، وتحصن بعاصمته البذ ليحتمي عند الحاجة باسوارها . وبث كمائنه في الجبال والمنعطفات . تفتك

بالحاميات والطلائع ، وتغير على القوافل الناقلة الميرة من مختلف الجهات الى جيش الافشين فتستولي عليها ، وتسير بها الى البذ . فوجه الافشين اهتمامه في بدء الامر الى تامين ارزاق الجيش .

فنزل في برزند وجعلها معسكرا له ، وبينها وبين اردبيل خمسة عشر ميلا . بيد ان هذه التدابير على ما فيها من دقة وتنظيم لم تمنع بابك من الغارة على القوافل وانتهاب بعضها ، فيتضايق عسكر الافشين وتمسه الحاجة الى المؤونة .

غير ان القوافل المتواصلة كانت تتداركه ، فتكشف الكرب عنه ، ولا تدع الضيق يستحكم منه .

عمل الجاسوسية

وقد استطاع الافشين ان يستفيد من جواسيس الخرمية فيجعلهم عيونا له على سيدهم ، لانه كان اذا وقع في يده واحد منهم يعفو عنه ويجزل له العطاء ليصير جاسوسا له . فقد بعث المعتصم سنة ٢٢١ القائد بغا الى الافشين ومعه المال ونفقات الجيش . فعرف الافشين من جواسيسه الخرميين ان بابك سيكمن للقافلة ليأخذ المال . وكان بغا قد بلغ حصن النهر فكتب اليه الافشين ان يرجع الى اردبيل . فما كاد يرجع حتى اغار بابك على حصن النهر فقتل علوية وهزم جيشه . بيد انه لم يظفر بالمال لان بغا كان قد نجا به ا وعاد الى اردبيل . فاوقف بابك جنده

مكان جند علوية ليخدع الهيثم فيدفع اليه القافلة التي تأتي من ارشق فيغتنمها . ولكن الهيثم عرف جند بابك ، فرد القافلة عن حصن النهر ، واحتمى بحصن ارشق . فحاصره بابك وضيق عليه ، فلبث يقاوم مستبسلا الى ان جاءه الافشين فانجده ، فانهزم بابك وفاتته الغنيمة من الجانبين .

محاولات لدحر بابك

واقام الافشين طوال تلك السنة لا ياتي بعمل حاسم في محاربة الخرمية مع ما جاءه من الامداد والمؤ ن . على انه حاول محاصرة البذ فتقدم بعسكره الى دَروذ على مسافة ستة اميال من مدينة بابك ، فاحتفر خندقا وبنى سورا حوله ، وعسكر بالجيش . وكان يريد الاكتفاء بهذا الحصار لو لم يتجهز بغا على غير علم منه فيتقدم نحو البذ ويدخل ضاحيتها فتخرج اليه سرية من عساكر بابك فتقتل جيشه وتهزمه . فيتراجع الى خندقه متحصنا به . ويكتب الى الافشين يخبره بما حدث له ، فينجده بالرجال ويامره بمناجزتهم في الحرب الى يوم عينه له يخرج فيه بنفسه الى مهاجمتهم . فلما كان اليوم المعين خرج الافشين من دروذ ، يريد بابك ، فالتقته العساكر الخرمية فهزمها وتقدم الى البذ . وخرج بغا من الخندق فصعد الى جبل يطل على معسكر الافشين ، ويمكن الانحدار منه الى البذ فيحيط بها من جانب في حين يكون الافشين محيطا بالجانب الآخر .

الحظ مع بابك

فلما بلغ الجبل لاحت له من تحته اعلام الافشين وعساكره . فاطمأن وايقن بنجاح خطة الالتفاف ، فبات ليلته ينتظر الغد . فتساقط عليه الثلج واشتد البرد ، وانتشر الضباب حتى حجب الجبال والوهاد . وكان بابك يتوقع مثل هذه الليلة لينقض على عدوه فيأخذه غرة معتمدا خطة البيات التي تعودتها العساكر الخرمية . فهاجم معسكر الافشين واوقع به ، فانهزم الافشين الى حصنه وقد فلّ جيشه . وبغا معسكر في اعلى الجبل لا علم له بما حدث . فلما طلع الصبح ضرب بالطبل وعبى جيشه ميمنة وميسرة ومقدمة ، وهو لا يشك ان الافشين باق في مكانه . وتقدم حتى صار بلزق جبل البذ ولم يبق بينه وبين ان يشرف على ابيات المدينة الا صعود مقدار نصف ميل . واذا بالكوهبانية ، وهم رجال الاستطلاع ، يـاتونـه بخبر انفضـاض عسكر الافشين ، وظهور طلائع الخرمية عليهم . فتراجع بغا يطلب النجاة باصحابه ، ولكن الخرمية تتبعوهم حتى بيوتهم في الجبل فقتلوا منهم جماعة واخذوا ما معهم ، وتمكن بغا ان يهرب ببقية جنوده ، لاجئا الى خندقه .

الشتاء ومتابعة الحرب

وحال الشتاء ببرده وثلوجه في تلك الجبال الجبارة دون متابعة

الاعمال الحربية ، فانصرف الناس الى مشاتيهم حتى جاء ربيع سنة ٢٢٢هـ فتجددت الحملة . ووجه المعتصم الى الافشين الامداد والاموال مع جعفر بن دينار الخياط . فلما وصلت اليه تقدم بجيشه الى كلان روذ ، اي النهر الكبير . ثم جعل يزحف قليلا قليلا على طريق المضيق الذي ينحدر الى روذ الروذ . واقام كراديس تتناوب الحراسة على ظهور الخيل مخافة البيات . فضج الفرسان من التعب ، ومل العسكر البقاء في المضيق . ثم نزل الى روذ الروذ فعسكر بها .

واسر الكوهبانية ان يصعدوا الى رؤ وس الجبال فيختاروا فيها مواضع يتحصن بها الجنود . فاختاروا ثلاثة اجبل عليها انقاض حصون قديمة ، فارسل الفعلة اليها فحصنوا طرقها ووضعوا دونها الحجارة . واحتل الوادي الفاصل بين روذ الروذ والبذ فاصبح عسكره منتشرا في الجبال والاودية على مسافات طويلة تحجب الفرق بعضها عن بعض .

فاذا اراد الزحف جعل علامته قرع الطبول تنبيها للقواد فيزحفون لزحفه ويتوقفون اذا توقف القرع . فمضت اسابيع وهم بين زحف وتوقف ورجوع ، فتضايق الجند من مماطلة الافشين وتذمر القواد لتذمرهم .

كمناء بابك

وكان الافشين يخشى الكمناء الذين اقامهم بابك في عقبة الجبل المطل على البذ ، ولا يعلم اماكنهم ليتقي مفاجآتهم اذا اراد اقتحام المدينة . وبلغ التضجر من القواد ان صاروا يتعرضون للخرمية عن غير امره . فهاجم جعفر الخياط بالمطوعة اسوار البذ حتى ضرب بابها ، فخرجت اليه الخرمية من المكامن والاسوار ، ترميه بالنبال وتدفعه عن الباب ، فارتد منهزما . واستفاد الافشين من غارته فعرف مخابىء الكمناء .

ثم اعاد جعفر الكرة على البذ فاشتبكت الحرب امام الباب طويلا وتعلق المهاجمون بالاسوار ، فثبت الخرمية دونهم وامطروهم وابلاً من الحجارة والنبال حتى ردوا جنود جعفر من ناحية ، والمطوعة من ناحية اخرى ، وطرحوهم عن الاسوار . وكان الافشين قد نصب عرادة مما يلي جعفرا على الباب ، وعرادة اخرى مما يلي المطوعة من طرف الوادي تقذفان الحجارة على الاسوار .

الا ان ضيق المكان لم يدع لجعفر مجالا فسيحا يتحرك فيه ، فانكفأ بمن معه الى خندقهم في روذ الروذ .

الاستعدادات الاخيرة

وعاد الافشين يتجهز اسبوعين بعد معركتي الباب . فلما اكمل عدته بعث عند مغيب الشمس ألفا من الرماة ، ودفع الى بعضهم اعلاما سوداً وامرهم ، اذا رأوا اعلامه مرفوعة ، والموقعة ناشبة ، ان يركبوا هذه الاعلام في الرماح ويضربوا الطبول وينحدروا على الخرمية يرمونهم بالحجارة والنشاب .

وبعث معهم ادلاء يقودونهم في الطرق المأمونة ، فانطلقوا يصعدون جبالا منكرة صعبة المرتقى حتى صاروا خلف جبل البذ الذي يقف عليه آذين قائد الخرمية . ثم توقلوا حتى بلغوا راسه عند السحر .

ووجه الافشين في الليلة نفسها بشيرا التركي ومعه قواد وجنود من فرغانة (مدينة على نهر جيحون في حدود تركستان) وامرهم ان يسيروا في اسفل الوادي تحت ذلك الجبل . ثم بعث الى القواد ان يتهيأوا للركوب في السحر .

فلما كان السحر خرج بالعسكر والنفاطات والشمع .. وضرب الطبول ، فانكر الناس هذه التعبية المبكرة . ثم اخذ يتقدم نحو اسوار البذ حتى احدق بالجبل الذي عليه آذين . فوقف جعفر الخياط برجاله مما يلي باب البذ ، ووقف ابو سعيد مما يليه ،

وبخارا خذاه مما يلي ابا سعيد ، واحمد بن الخليل مما يلي بخارا خذاه . فصاروا جميعا حلقه حول جبل البذ .

اشتباك حربي

واذا بالضجة ترتفع من اسفل الوادي ، ذلك ان الكمين الذي تحت الجبل تصدى لبشير التركي والفراعنة فاشتبكت الحرب بينهم ، فلما سمع جيش الافشين الضجة اضطرب ولم يعلم سببها ، فابلغ الافشين القواد والجنود ان بشيرا والفراعنة يحاربون كمين الخرمية ، فاشتدت عزائمهم .

ورأى الرماة في راس الجبل حركة جيش الافشين واعلامه المرفوعة ، فركبوا اعلامهم السود في الرماح ، وانحدروا من اعلى الجبل يريدون آذين ، فوجه اليهم آذين قطعة من الجند تشغلهم .

ولم يغفل الافشين عن اعلام عساكره ، لما رأى الرايات السود تتحرك في اعلى الجبل ، ان هؤلاء هم رجاله ينجدونه على آذين ، فضاعف بذلك القوى المعنوية في القواد والجنود . فحمل جعفر الخياط بعسكره وراح يصعد الجبل الى آذين . وحمل لحملته قسم من عسكر ابي سعيد . ولكنه لم يكن يدري ان امامه آباراً محفورة ، فتتساقطت فيها فرسانه . فوجه الافشين الفعلة يهدمون حيطان المنازل ويطمون بها الآبار .

هروب بابك

ثم حمل الجيش حملة واحدة . وكان آذين قد اعد عجلات عليها صخور كبار فاخذ يدحرجها على الفرسان الصاعدة ، فافرجوا عنها حتى تدحرجت . ثم عاودوا الكرة يشددون الضغط على جبل البذ فاحاط به المهاجمون والرماة سفلاً وعلواً .

فلما رأى بابك ان الخطر محدق به ، وتيقن ان المدينة ساقطة لا محالة ، خرج من باب يلي معسكر الافشين ليطلب الامان ويستسلم .

وفيما هو آخذ بالمفاوضات جاء الخبر بان الفراعنة قد دحروا الكمين ودخلوا المدينة من بابها الغربي وصعدوا باعلامهم فرفعوها على قصور بابك .

فلم يبق بعدها مجال للمفاوضات ، فلجأ بابك الى الفرار باهله مستترا بالوادي . واشتغل عنه الافشين باقتحام البذ فدخلها بعساكره ، ولبثت الخرمية تدافع امام ابواب القصور وعلى الاسوار دفاع المستميت ، وعساكر الافشين ترميها بالنفط والنار . ثم هدمت عليها القصور حتى ابادت جموعها فاستولت على المدينة بجملتها وعاملوهم بالمثل . ولم يخدم الحظ بابك في فراره ، فإن الأرمن قبضوا عليه في بعض الجبال ، وسلموه إلى

الافشين بعدما ركبوا الفحشاء من أمه وأخته وأمرأته بين يديه ، فعلوا به كما كان يفعل بالناس إذا أسرهم مع حرمهم . فحمله الافشين إلى المعتصم ، فأمر به ، فقطعت يداه ورجلاه ثم ذبح وشق بطنه ، وأرسل رأسه إلى خراسان ، وصلب بدنه بسامراء ، ليكون عبرة لسواه . فمات شر ميتة بعد أن أزعج الخلافة عقدين من السنين وملأ جبال القفقاس رعباً وفساداً ، وبموته تبددت آمال دولة المجوس .

وقعة عمودية

كان الامويون يوالون اقتحام الدرب في كل سنة لغزو البزنطيين بكتائب الصائفة التي نظمت لهذا الغرض ، فما تنقطع غاراتها السنوية الا حين نتفاقم الفتن في المملكة العربية ، شأنها بعد مقتل الحسين وقيام خلافة الزبيريين . ثم في خلافة مروان بن محمد وانتقال الملك الى بني العباس .

وهكذا كانت حال الصوائف في خلافة العباسيين ، فقد عادت الى غزواتها على عهد المنصور ، ولكن لم تتسلسل حولياتها بسبب ثورات العلويين . ثم تابعها المهدي بعد ابيه فكانت لها مواقع موفقة بلغت في احداها خليج القسطنطينية مهددة عاصمة القياصرة .

واشتدت وطأتها في خلافة الرشيد ، فقد كان ابو الامناء ، على ما نقل الطبري وغيره ، يغزو عاما ويحج عاما ، فحين ينقطع عن الغزو يزحف بالصائفة كبار اهل بيته وقواده . فهُدم من بزنطة الشرقية في ايامه امنع حصونها ، وخربت احاسن مدنها وقراها . إلا ان الصوائف توقفت غزواتها في خلافة الامين وفي معظم خلافة المامون لاحتدام الفتنة بين الاخوين ثم لما تلاها من عصيان الامصار البعيدة ، وثورات الخارجين على السلطان .

غزوات متواصلة

ولم تقتصر غزوات الامويين و ثم العباسيين لارض الروم على الكتائب البرية وحدها بل كانت اساطيلهم تمخر في عباب المتوسط مغيرة على سواحل بزنطة وجزائرها فتوفق احيانا للنزول فيها واحتلالها ، او تاخذ الجزية منها وتعود بالاسلاب والغنائم .

على ان بزنطة لم تغفل عن الخطر المحيط بها ، وقد بلت مراس اعدائها ، فكانت تقوم بحملات منظمة للرد على غزوات الصوائف ، فتغير على الامصار الاسلامية المجاورة تثخن فيها وترجع الى بلادها غانمة ظافرة . ولا تدع الفرصة تفوتها حين تتوقف الصوائف عن الغزو بسبب الفتن والثورات الداخلية ، فتوجه الى المملكة العربية اعنف الغارات واعظمها وقعا وانتشارا .

جيش الحماية

هذه الغارات المتبادلة بين العرب والروم اضطرت بزنطة الى تنظيم جيش مسلح دائم تقيمه في بعض الولايات لحمايتها ، وتمنح قائده السلطة العسكرية والمدنية معاً . ويعد هذا الجيش نحو مائة وعشرين الفا منهم سبعون الفا لحماية الولايات الشرقية والبقية توزع على الحدود الغربية ، وفي فرق الجيش المركزي .

فاذا اجتازت الصائفة الدرب غازية ، بادر القائد المحلي الى انباء حامية الولاية ، فتستصرخ هذه الحاميات القريبة ، وتنطلق فرسانها لملاقاة المغير ومشاغلته .

واذا كانت بزنطة هي المغيرة على الاراضي الاسلامية خرج القيصر او الدمستق بجيش من القسطنطينية ، فتنضم اليه كتائب من حاميات الولايات اغلبها من المشاة ، ولا تخلو من الفرسان لان القيصر لا يغزو باقل من ثمانية الاف ومائتي فارس ، في حين ان الحرس الامبراطوري لا يعد اكثر من ستة الاف .

بابك يغري الروم

وموقعة عمورية حدثت على اثر غارة شنها القيصر على الولايات الاسلامية ، والخلافة يومئذ للمعتصم بن الرشيد .

وكانت جيوش المسلمين مشتغلة بمحاربة الخرمية في ارمينية واذربيجان ، فرأى القيصر تيوفيل بن ميخائيل الثاني ان الفرصة سانحة للنيل من المملكة العربية . ويقول الطبري وابن خلدون ان بابك الخرمي لما اشتد عليه تضييق المحاصرين كتب الى القيصر يزين له الغزو ويقول : « ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته اليه حتى وجه خياطه يعني جعفر ابن دينار ، وطباخه يعني ايتاخ . ولم يبق على بابه احد ، فان اردت الخروج اليه ، فاعلم انه ليس في وجهك احد يمنعك ». وكان مأرب بابك في استفزاز ملك الروم ان يخفف عن جيشه ضغط المسلمين بفتح جبهة ثانية تضطر المعتصم الى توزيع قوى جيوشه .

الخروج للحرب

فخرج تيوفيل بمائة الف ، فيهم من الجند سبعون الفا وبقيتهم خدم واتباع . فصار الى زبطرة سنة ٢٢٣هـ (٨٣٧م) وهي مدينة للمسلمين بين ملَطية وسميساط متاخمة بلاد الروم ، فاحرقها وفتك برجالها وسبى النساء والاولاد . ثم اناخ على ملطية وغيرها ، فاثخن فيها ومثل بمن صار في يده من الاسرى فسمل اعينهم وقطع آنامهم وآذانهم .

ثم عاد الى مملكته يجر وراءه الغنائم . فلما انتهى الخبر الى المعتصم استعظمه ، وكان في تلك الاثناء قد ظفر ببابك الخرمي

وقتله ، بعد انتصار قائده الافشين في موقعة البذ . فنشط الى حرب الروم ، فحشد لهم جيشا عظيما لم يحشد مثله خليفة من قبل .

وجهزه بانواع السلاح والدبابات والمجانيق والنفط والمؤونة وقرب الماء . وجعل على مقدمته اشناس وبعده محمد بن ابراهيم . وعلى ميمنته ايتاخ . وجعل جعفر بن دينار الخياط على الميسرة ، وعجيف بن عنبسة على القلب . فزحف اشناس بالجيش الى ارض الروم مجتازا درب طرسوس من سورية الشمالية ، وعسكر في مكان يعرف بمرج الاسقف نزولا عند امر المعتصم حتى يلحق به .

الافشين في المعركة

وزحف الافشين بجيش اخر من جهة ارمينية ، فاخترق الحدود بخطوات خفيفة ازعجت القيصر ، وكان مرابطا في عمورية قاعدة الانضول وحصنه الحصين . فاستخلف احد كبار قواده على المدينة ، وصار بقسم من الجيش لموافاة الافشين .

فخاف المعتصم على قائده ومن معه من العسكر ، فكتب إليه يأمره بالتوقف عن المسير لئلا يأخذه الحصار اذا التف عليه جيش تيوفيل من جهة ، والحاميات

المحلية من جهة اخرى . ولكن الافشين كان قد اوغل مسرعا في البلاد فما لحق به كتاب المعتصم ، ولا ادركه الجيش القيصري بزحفه البطيء .

فنفذ من الحاميات يخترق المدن والقرى ، غازياً غانماً حتى وصل بجيشه سالما الى انقرة ، وكان أشناس قد دخلها من غير قتال لجلاء الحامية واهلها عنها . ثم لحقه الخليفة بمن معه ، فانضم اليهم الافشين بقواته الضخمة فكان منها للمعتصم ، ومن جيش اشناس جحفل جرار عظيم .

فقسمه المعتصم ثلاثة جيوش احدها في الميمنة بقيادة الافشين ، والثاني في الميسرة بقيادة اشناس ، والثالث في القلب بقيادته . وجعل لكل جيش منها ميمنة وميسرة ، وترك بين الجيش والاخر مسافة فرسخين .

حول عمورية

ثم امرهم بالزحف وان يخربوا ويحرقوا في طريقهم القرى بين انقرة وعمورية . فزحف اولا اشناس حتى شارف المدينة فنزل على ميلين منها . ثم وافاها المعتصم في اليوم التالي ، ثم الافشين في اليوم الثالث ، فالتفوا عليها واحاطوا بها . وكانت الحامية قد شقت امامها خندقا عميقا متسعا يدور بها كالنطاق ، وغلّقت ابوابها ، وتحصنت بالاسوار والابراج .

ولكن هذه الاسوار كان قد تهدم جانب منها واهمل ترميمه حتى خرج القيصر من القسطنطينية الى عمورية فخاف بطريقها ان يرى الجانب المتهدم فيلومه على اهماله اياه ، فبادر الى اصلاحه مستعجلا ، فبنى ظاهرة بالحجارة وترك الخلل في باطنه . ورأى علو اسوارها وسعة خندقها ، امر بان تذبح الاغنام التي ساقها في طريقه ، وكان عددها عظيما ، وان يعطى كل جندي شاة ياكلها ، على ان يحشو جلدها ترابا ، ثم تطرح هذه الجلود في الخندق لتطمه . فذبحت الاغنام وحشيت الجلود ، وابتدر الجند الى الخندق يلقونها فيه ، فانهالت عليهم الروم من الاسوار بالحجارة ، فلم يتمكنوا من تسوية الجلود فتتساقطت مختلفة غير منضدة . فاخذوا ع يهيلون عليها التراب حتى تمهدت وانبسطت .

ثم امر المعتصم بالدبابات والمجانيق ، فنصبت مجانيق كبار على قدر ارتفاع السور يسع الواحد منها اربعة رجال ، تحتها عجلات تجري بها اذا دحرجت .

وقدمت دبابات اكبر منها تسع الواحدة عشرة رجال . فدحرج بعضها الى السور فتعلق باوعية الجلود في الخندق ، وخلص منها اصحابها بعد الجهد .

ثم اخذت المجانيق تدب الى الاسوار وتمطرها بوابل من الحجارة ، فاصيب جانب السور المنثلم فتصدع . وقيل ان رجلا

من المسلمين كان قد اسره الروم فتنصر وتزوج فيهم ، جاء الى المعتصم ، ودله على ثلمة السور فسدد اليها المجانيق .

تكتيك حربي

وامر بان تكون الحرب مناوبة بين الجيوش الثلاثة ، يحارب كل جيش يوما ويستريح يومين . فبدأ بالحرب اشناس ومعه جيش الميسرة . وكانت جبهته ضيقة فلم يتسع عليه المجال ليقوم بحركات الهجوم على الاسوار ، فدعا المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرقة حول الاسوار فجمع بعضها الى بعض . وصب قذائفها على الجانب المثلوم حتى انفرج ، فنشط الروم الى سده بالاخشاب والبراذع ، فكانوا كلما اقاموا سداً منها حطمته الحجارة ، وازالته فما يكاد يبني حتى ينهدم .

قيادة الافشين

وفي اليوم الثاني باشر الافشين القتال بجيش الميمنة ، فابلى احسن البلاء ، وهاجم الاعداء على الاسوار بالدبابات والمجانيق والسلالم ، فكانت بينه وبين البزنطيين معركة دامية ، اعجب بها المعتصم كثيرا حتى قال : ما احسن الحرب اليوم !

ثم كان اليوم الثالث فقام بالهجوم جيش المعتصم ، واكثره من الاتراك والمغاربة يتقدمهم القائد ايتاخ ، فاجادوا القتال ، واتسع لهم الموضع المنثلم بين برجين .

٥٥ يوما من الحصار

ولم تزل المعارك متداولة بين جيوش المعتصيم الثلاثة ، يقاتل كل واحد منها في يومه بعد راحة يومين ، وحامية عمورية تقاتل مبستبسلة على الاسوار والابراج ، مدافعة عن الجانب المتصدع لترد عنه هجمات المسلمين بدباباتهم وسلالمهم ، حتى مضى على الحصار خمسة وخمسون يوما . فنهكت قوى المدافعين ، وكثرت فيهم الجراحات .

وكانوا يتوقعون المدد من جيش القيصر فاذا هو ما يزال بعيدا عنهم ولا ترجى نجدته . واشتد الضيق خصوصا على البرجين اللذين بجانبي الثلمة ولم يبق بوسع القائد المدافع عنهما ، ان يتابع القتال ، ورجاله بجملتهم اثخنتهم الجراح .

الامان والحرب

وقد رأى ان البطريق ياطس وقواد الابراج الاخرى اصبحوا عاجزين عن امداده ، لاشتغالهم بالدفاع عن حصونهم المهددة ، فهم لا يستطيعون تخفيف حاميتها مخافة ان يستولي عليها المهاجمون .

فاعتزم ان يخرج في الغد الى الخليفة ويسأله الامان على المدينة ، ويسلمها اليه . فلما اصبح عهد الى عساكره في حماية الثلمة ، ونزل يريد المعتصم فما ان بلغ اليه حتى امر الخليفة بالهجوم ، فحمل الجيش بالدبابات والمجانيق والسلالم ، ووجه اعنف غارته الى ناحية الثلمة ، فازال عنها المدافعين واستولى على البرجين .

سقوط عمورية

فدخل المسلمون المدينة وانتشروا بها ، فنشبت ملحمة في الشوارع ، قاتل فيها البزنطيون مستميتين ، فكانوا طعام السيوف . ولبث القائد ياطس وجنوده يدافعون في اعالي ابراجهم ، لا يستسلمون حتى سقطت عمورية بجملتها في ايدي المسلمين . فنزل القائد الرومي من برجه مستسلما .

ورميت المدينة بالنفط والنار والتهديم ، فتداعت معالمها بين ايدي الحريق والخراب . وسيق السبي والاسرى والغنائم من كل جانب ، فافرد الاشراف للفداء ، وقتل الباقون . ثم نودي في الجيش على السبي والمغنم ، خمسة ايام ، فبيع الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة ، والمتاع الكثير جملة واحدة ، واحرق من المغانم شيء كثير لم يقع البيع عليه .

مآسي الانسحاب

وبلغ المعتصم ان تيوفيل قيصر الروم يحشد حرس الولايات ليحصر المسلمين ويقطع عليهم سبيل العودة ، فامر الجيش بالرجوع ، سالكا بهم طريقا مقفراً الى وادي الجوز بدلا من طريق الجادة ، فساروا نحو اربعين ميلا في برية لا ماء فيها ، فاصابهم العطش الشديد فهلك خلق من الناس والدواب .

وكان المعتصم قد تقدمهم وبلغ موضعا فيه ماء ، فعاد اليهم بالقِرَب الروية ، فسقاهم وانقذ حياتهم . ثم رأى ان يخفف من اثقال الاسرى عن جيشه وهم يشاركونه في مائة وغذائه .

فأمر ترجمانه الرومي بأن يميز من له القدر منهم فيعزله جانبا ، وضربت اعناق الاخرين وهم مقدار ستة آلاف اسير على حد قول الطبري .

ثم تابع المعتصم سيره في المجاهل المهجورة حتى نفذ بجيشه الى طرسوس سالما ظافراً . فاحبط مساعي قيصر الروم فما تمت له خطة التطويق وسد طريق الرجوع . وانتقم لزبطرة من عمورية ابلغ انتقام فغادرها تلتهمها السنة النار .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠٤

سلسلة مختارات اسلامية

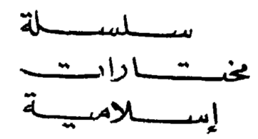
١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

ديار العرب والإسلام

(١)

دار الفكر اللبناني


سلسلة
مختارات
إسلامية

دِيَار العَرَب والإسْلام

(١)

دار الفكر اللبناني

ديار العرب والاسلام

رسخت الحضارة القديمة في رقعة الارض ، الواصلة بين المحيط الهندي وسلسلة الجبال الاوروبية ، وهذه البقعة التي تشمل البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، وما يحيط بهما من بلاد ، كانت مراكز حضارات ومبعث امم ومدنيات .

وقد تعاقبت على هذه الاقاليم صور من الحياة متباينة ، وتقلبت عليها دول مختلفة ، وعمرتها امم عديدة ، ولكن امة من هذه الامم التي نشأت في هذا الجانب من العالم ، وحكمت جزءه المعمور ، لم تحافظ على كل ما كان لها او جله ، محافظة الامة العربية . فقد عمرت هذه الامة التاريخية الجزيرة السعيدة ، منذ فجر التاريخ ، ولم يطأ عرينها اجنبي ، او ترسخ فيه قدمه ، وتجاوزت الجزيرة في موجات على دفعات متفاوتة في القدم .

ثم كانت موجتها الاخيرة ، منذ نحو اربعة عشر قرناً ، وهذه الموجة اتصلت بامواج المحيط الاطلسي ، ولم ترتد عنه ، منذ وقف على ساحله عقبة بن نافع ، قبل الف وثلاثمئة سنة .

وهذه الموجة العربية التي غمرت ما بين الخليج الفارسي ، والمحيط الاطلسي ، حملت معها رسالةً روحيةً وفكرية ، بلّغتها الى أمم غير الامة العربية . وامتدت فروع الدوحة الاسلامية شمالاً الى مصب نهر الفولجا ، وشرقاً الى هضاب الصين ، وجنوباً الى جزر المحيط الباسيفيك . وهي دوحة مترامية الاطراف متعددة الشعوب والاجناس ، ففيها الجنس السامي والتركي والفارسي والهندي والملايو والصيني والحبشي والزنجي .

ولم يسجل التاريخ ، أن امةً دخلت في الاسلام ثم خرجت منه ، راغبةً او كارهةً . ولم ترتد الموجة الاسلامية ، ولم تعان جزراً إلا في الاندلس ، بعد ان عمرتها اكثر من سبعة قرون .

والعالم الاسلامي اليوم ، يشغل حيزاً شاسعاً في وسط العالم القديم ، وهو كالاسد الرابض في جزيرة العرب ، رأسه تركيا ، وزذراعاه من بحر أورال الى المحيط الاطلسي . فهو يمتد في قارات العالم القديم الثلاث ، آسيا واوروبا وافريقيا ، في مساحة تبلغ اثني عشر مليوناً من الاميال المربعة ، اي نحو خمس العالم ، وهي مساحة قدر مساحة انجلترا نفسها مئة مرة ، وقدر مساحة المانيا ستين مرة ، وقدر مساحة الولايات المتحدة الامريكية اربع مرات .

هذه المساحة الواسعة متصلة الاجزاء ، ويفصل بين اجزائها

صحار شاسعة . ففي العالم الاسلامي اكبر صحار على سطح الكرة الارضية ، وقلما يخلو قطر اسلامي من الصحراء ، فهي تصل حتى الى سواحل المحيط الاطلسي ، في جنوب مراكش . وتفصل شمال افريقيا عن مصر ، والسودان عن غرب افريقيا .

وتوجد في الصومال وفي الحبشة والأريتريا ، وبين مصر والشام . وبين الشام والعراق ، وبين الجزيرة والهلال الخصيب . وتكثر في إيران وتركستان والصين وتفصل الهند عن بلاد العجم . ومناخ الصحراء مألوف في جميع أجزاء الديار الاسلامية ، وقد كان عاملاً قوياً في تاريخ الأمة العربية . والأمم الاسلامية الأخرى .

وكانت هذه الصحراء بحراً زاخراً ، يصل ما بين الاودية والواحات الخصيبة ، التي اشتهر بها العالم الاسلامي . ففي هذا العالم أعظم مساحات تعتمد على الري في زراعتها ، اذ ان فيه وادي النيل ، ووادي دجلة والفرات ، وحوض الاندس ، وحوض سيحون وجيحون وكانت سيطرة العرب على الصحراء وتعودهم خصائص الحياة فيها ، على ما هي عليه من شظف العيش وبعد الشقة وشدة الاحتمال ، هي العامل الأول في ربط أجزاء العالم الاسلامي ، عندما كان امبراطورية متماسكة العرى مجتمعة الكلمة ، تديرها حكومة مركزية في دمشق أو بغداد أو القاهرة . ولما كانت الصحراء من طرق المواصلات في الأيام

الغابرة ، مكنت لأمة الصحراء ، بسط نفوذها على هذه المساحات الشاسعة ، في سرعة خاطفة .

اما اليوم ، فان المواصلات البرية والبحرية والجوية قربت المسافات لتعمل على ربط اجزاء العالم الاسلامي ربطاً محكماً .

اما من حيث الثروة الطبيعية فالعالم الاسلامي يزخر بالثروات الطبيعية . وفيه مساحات شاسعة تدخل في عداد الصحاري القاحلة ومساحات اخرى واسعةكمية المطر فيها قليلة نوعا ما . اما المعادن ففي العالم الاسلامي ثروات كثيرة على جانب من الاهمية اهمها :

١ ـ الفوسفات ، وجميعه في شمال افريقيا ، في مراكش والجزائر وتونس ، وبعضه في مصر .

٢ ـ المنجنيز ، ويستخرج من القوقاز في مقاطعة جورجيا .

٣ ـ القصدير ، وجميعه في الملايا وجزر الهند الشرقية .

٤ ـ البترول وهناك الخامات الاخرى التي توجد بكميات لا بأس بها ولكنها ليست بمستوى المحصول العالمي . من هذه الخامات الفحم في تركيا والقوقاز وجزر الهند ، والحديد في شمال افريقيا ومصر ، والنحاس في الجزائر ، والرصاص في شمال افريقيا وتركيا ، والذهب في جزر الهند والملايا وتركيا ومصر والحبشة ، والفضة في تركيا وجزر الهند ، والزئبق في الجزائر ، والكروم في تركيا .

من هنا نجد أن أكثر الثروة الطبيعية نجد النفط لا تقع في وسط البلاد الاسلامية ، بل في أطرافها ، في شمال أفريقيا والقوقاز وتركيا وجزر الهند . وكذلك سكان العالم الاسلامي ، فإنهم يزدحمون في الأطراف ويقلون في الوسط . ومراكز الاحتشاد في العالم الاسلامي ثلاث مناطق : هي تركيا ومصر وجاوه . ففي جاوه عدة ملايين من المسلمين في بقعة واحدة ، غنية بالمواد المعدنية والنباتية . وكذلك في مصر يزدحم الملايين في واد ضيق غني بزراعته . وفي تركيا ملايين اخرى يكوّنون اغلبية ساحقة في رقعة من الارض لها خطورتها العالمية . اما في غير هذه المراكز ، فالازدحام اما ان يكون قليلاً جداً كما في الجزيرة العربية والصومال وايران ، واما أن المسلمين يكونون اقليةً بين سكان القطر الذي يعيشون فيه ، مثل الهند ، وغرب الصين والحبشة ، واجزاء من البلقان ، واواسط افريقيا .

ان عالماً هذا اتساعه وهذا تماسكه وهذا قدمه ، انما يستند في اساسه على دعائم قوية ، وعمل على تكوينه تاريخ حافل . ومن واجبنا عرباً كنا او مسلمين ، ان ندرس هذا العالم في نشأته وتطوره ، وان نتابع الادوار التي مرت عليه ، من حيث الادارة والتنظيم والانقسام الجغرافي والسياسي ، وأن نلم المامة وافية بالعوامل الجغرافية ، التي عملت على تكييف التاريخ الاسلامي ، وابراز خصائصه ومميزاته .

ولد العالم الاسلامي في بيئة محدودة ، هي مكة وما جاورها ، او قريش وحدها ، ثم نما فضم الحجاز واجزاء من الجزيرة العربية ، على عهد النبي ﷺ . وفي عهد الراشدين اتسعت رقعة العرب والاسلام بالفتوح الاسلامية ، في أقطار الشرق الادنى . وفي حكم بني امية ، بلغت الامبراطورية العربية اوج عظمتها ، من حيث اتساع الشقة وتباعد الاطراف ، اذ وصلت الكتائب العربية الى ما وراء النهر شرقاً ، والاندلس غرباً ، والهند جنوباً .

ثم تتابعت على العالم الاسلامي احوال وظروف ، فحيناً كان يقسم الى جزئين كبيرين ، وحيناً الى اجزاء صغيرة ، ومرة اجتاحته قبائل من اواسط آسيا ، واخرى غزته جموع الصليبيين ، وحيناً كان يتقلص في الاندلس ، وحيناً آخر يمتد في شرق اوروبا وما وراء القوقاز وجنوب ا روسيا .

وكل ما نبغيه هو ان نضع بين يدي القارىء صورة واضحة ، وان لم تكن كاملة ، لهذه الاطوار التي تبدلت على العالم الاسلامي ، وهذه الاحداث التي المت به في تاريخه الطويل . وقد جاءت هذه جالابحاث تحت عنوان ديار العرب والاسلام . لانها تدور جول الوضع الجغرافي ، وتتمشى مع الاماكن لا مع الاشخاص . فاذا فرغنا من عرض التغييرات الجغرافية في العالم الاسلامي مجتمعا ، وفي أقطاره منفردة ، فقد يساعدنا ذلك على ان ننظر الى هذا العالم ، ونحن ندرك البواعث التي آخت بين

أجزائه ، والروح التي تعمل على تقريب اطرافه بعضها من بعض ، وبالله التوفيق .

الجزيرة مهد العروبة ومبعث الاسلام

تقع جزيرة العرب في قلب العالم القديم ، وتتوسط قاراته الثلاث ، وهي (وكذلك الهند) اكبر شبه جزيرة على سطح الكرة الارضية . وبين شبه جزيرة العرب والهند اوجه تشابه ، كما ان بينهما اوجه تباين ، فهما في المساحة متقاربتان ، وكلتاهما شبه جزيرة ، يحيط بها البحر من جهات ثلاث ، ومن الجهة الرابعة صحراء في شمال بلاد العرب ، وسور حملايا العالي في شمال بلاد الهند . ولا بدْعَ اذا اطلق العرب على بلادهم اسم (الجزيرة)، لأن الصحراء في الشمال تتم حلقة البحر حولها .

وتعتبر الهند مثل بلاد العرب ، مهد اجناس بشرية عظيمة ، وديانات واسعة الانتشار . فالجنس الآري اصله في الهند ، ومنها انتشر في هضاب آسيا ، ثم اندفع الى سهول اوروبا . وكذلك جزيرة العرب فقد كانت مهد الجنس السامي ، ومنها انتشر إلى شرق أفريقيا والهلال الخصيب وشمال أفريقيا . وربما كانت بلاد العرب مَهْد الانسانية بكاملها ، فإن أحدث نظريات الانترويولوجيا ، وهو علم الأجناس البشرية ، ترجح أن الانسان ظهر أول ما ظهر في جنوب بلاد العرب .

وقد اخرجت هذه الجزيرة للعالم دين التوحيد . وهناك وجه آخر للتشابه بين بلاد العرب والهند ، وهو في طبيعة الصخور المكونة لسطحيهما ، فكل منهما نجد مرتفع تقل فيه سلاسل الجبال ، وتغطي هذا السطح في مناطق كبيرة الصخور النارية التي قذفت بها البراكين . ففي الهند صخور الدكن النارية ، وفي بلاد العرب صخور الحرات ، وتكوّن اكثر الحجاز . وكما تقع صحراء الشام في شمال جزيرة العرب ، تقع صحراء ثار في شمال الهند الغربي .

وكما يجري النيل في الركن الشمالي الغربي من بلاد العرب ، يجري الأندس وفروعه الخمسة في الركن الشمالي الغربي من الهند . ويقابل نهر الكنج في الهند ، وادي دجلة والفرات . الا ان اوجه التشابه بين شبهي الجزيرتين ، ينقطع عند هذا الحد .

اما اوجه التباين بينهما ، فلعل مرد اكثرها الى اختلاف الموقع . فالهند مكشوفة للرياح البحرية ، ولهذا تهطل الامطار الموسمية عليها بغزارة ، وتجعل منها بقعة من اغنى بلاد العالم واخصبها ، ويجتمع فيها خُمْسُ سكان الكرة الارضية .

اما الجزيرة العربية فلا تتعرض للرياح الموسمية ، لان نتوء افريقيا من جهة الصومال ، يمنع عنها هذه الرياح . اضف الى هذا ، ان ليس لجزيرة العرب ما للهند من سور الجبال العالية ، التي تبرد هذه الرياح وتمتص منها ماءها . ولهذا فاكثر سطح

الجزيرة العربية صحراء قاحلة ، وسكانها في الوقت الحاضر لا يتناسب عددهم مع اتساع رقعتها .

من حقائق علم الجيولوجيا ، ان رقعة الارض من المحيط الاطلسي الى شمال افريقيا وغرب آسيا واواسطها ، ثم الى المحيط الباسيفيك ، كانت رقعة متصلة ، ثم طرأ عليها من الطوارىء ، ما غيروجه الارض في عهودها الجيولوجية الممنعة في القدم ، واحدث فيها شقوقاً واخاديد . ولعل اعظم الشقوق هي هذه التي فصلت جزيرة العرب ، عن افريقيا في الشرق ، وعن آسيا في الغرب بعض الانفصال ، ووادي النيل هو احد هذه الاخاديد . وكذلك البحر الاحمر ، وخليج العقبة الذي يتصل باخدود الغور ، ويمتد جنوباً الى قلب افريقيا ، وكذلك الخليج الفارسي .

وهناك تشابه في طبيعة الارض وتركيب الصخور ، بين شبه جزيرة سيناء الى غرب خليج العقبة ومدين من بلاد العرب ، الى الشرق من هذا الخليج ، وهذا التشابه قائم بين جبال عمان في جنوب شرق الجزيرة العربية ، وبين جبال ايران ، على الجانب الآخر من الخليج الفارسي ، وطبيعة الساحلين المتقابلين في البحر الاحمر والخليج الفارسي ، تدل على ان الجزيرة ، كانت متصلةً بافريقيا من جهة ، وبآسيا من جهة اخرى ، ففُتِقَتا من جهة الغرب والشرق .

ان سطح الجزيرة العربية ، هضبة عريضة ، او نجد لا يقل ارتفاعه عن الف متر . والى شمال هذا النجد تقع صحراء الشام ، والى جنوبها صحراء الربع الخالي ، اما الى الغرب والى الشرق من هذه الخضبة ، فيقع البحر الاحمر والخليج الفارسي . وسبب الصحراوين في الشمال والجنوب ، .تفتت التربة بعوامل التعرية وتجمعها عند نهاية هذه الهضبة .

والهضبة تبلغ اقصى ارتفاعها عند الجنوب الغربي ، وتأخذ في الانحدار التدريجي نحو الشرق والشمال الشرقي ، حتى تهبط الى مستوى الرافدين . وطرفها المرتفع من جهة الغرب والجنوب الغربي ، يجعل لها عند هذا الطرف طبيعة البلاد الجبلية . وفي بلاد اليمن التي يطلق عليها اسم (سويسرا بلاد العرب) نجد اعلى جبل في بلاد العرب ، وهو جبل شعيب ، ارتفاعه اكثر من ثلاثة آلاف متر .

وتكثر في بلاد اليمن الاودية العميقة وسفوح الجبال السحيقة . ويمتد هذا الطرف العالي من عدن الى جبال مدين ، وتقع بينه وبين البحر تهامة ، وهي سهل ساحلي تكون من تآكل التربة في الهضبة ، ومن تجمع المرجان المتكسر . ولكن الصخور البركانية عند هذا الطرف ، وهي اقوى على مقاومة عوامل التآكل ، حالت دون تكوين صحراء واسعة كصحراء الربع الخالي وصحراء الشام .

والصحراء العربية لا تشبه الصحراء الكبرى ، فليس فيها كثبان الرمل العظيمة المتنقلة ، التي تكثر في الصحراء الكبرى ، وطبقة الرمل التي تغطيها قليلة السَّمْك. وهذه الطبقة الرملية تحيط بجزيرة العرب احاطة السوار بالمعصم ، وان كانت في الشمال والجنوب اكثر عرضاً منها في الغرب والشرق ، وتعرف بالنفوذ والدهناء او الأحقاف ، وهي قاحلة قليلة السكان غير منبتة ، وانما يتخللها في الشمال بعض الواحات ، مثل واحة الجوف وتيماء ، وهي مدينة قديمة جداً فيها آثار ضخمة ، ولعلها ارم ذات العماد ، التي ورد ذكرها في القرآن . اما في الجنوب ، حيث الربع الخالي ، فالواحات قليلة جداً ، وهذا الجزء قفر بلقع .

وفي الجزيرة عدا (النفود) ما يسمى بالحَرَّة (وجمعها حرات وحرار) وهي ارض بركانية يصعب السير عليها ، وتقف حجر عثرة امام المواصلات بين البحر الاحمر وداخل الجزيرة . ولعل الحجاز سميت كذلك ، لانها تحجز ما بين تهامة ونجد . والدهناء تختلف عن النفود بكثرة صلصالها وقلة رمالها ، وهي على قلة خصبها يوجد الماء تحت ترابها ، ومن السهل الوصول اليه بحفر غير عميقة .

ان اظهر مميزات بلاد العرب ، هي الاودية الكبيرة التي تخطط سطحها ، وليس في الجزيرة انهار ، وانما اوديتها تنقسم عند

الحافة الغربية ، فمنها القصير الذي يجري الى البحر الاحمر ، وهي تتدفق بالماء في فصل الشتاء في كل من اليمن وعسير ، ومنها الطويل الذي يجري في اتجاه الشرق الى الخليج الفارسي .

ولكن هذه الاودية تغور تحت الصحراء ، ويمر ماؤها تحت الدهناء ثم يظهر ثانية في الأحساء والبحرين ، ومن ذلك نشأت الواحات الكبرى في وسط بلاد العرب ، كالتي حول الرياض وحائل .

ومنطقة الواحات في نجد ثلاثة اقسام : هي جبل شمَّر في الشمال ، والقصيم في الوسط ، واليمامة في الجنوب ، وفيها يظهر الماء فوق سطح الارض في الاودية والواحات ، ويخرج بعد الحفر في سفوح جبال شمَّر وسلمى والعُرَيض وتوبك والعجا . والواحات تكسوها الأشجار من نخيل وغيره .

اما البراري فتكثر فيها الاعشاب في فصل الربيع ، وهي المشهورة بازهارها الجميلة الفتانة . واكبر اودية الجزيرة وادي الرمة ، وهو يمتد من خيبر شمال المدينة المنورة ، الى الخليج الفارسي . ثم وادي السرحان ، ويمتد من حوران الى صحراء النفود ، ويتصل به وادي ارجيل . وفي الجنوب وادي الدَّوابر ، وتصب فيه اودية عسير وجنوب الحجاز ، ويجري في اتجاه شمالي ، إلى حوض يشبه البحيرة ، وهي البحيرة الوحيدة على سطح الجزيرة العربية وتعرف ببحيرة سلومة .

وفي اقصى الجنوب وادي حضرموت الكبير ، ويقع بين جبال حضرموت الساحلية وصحراء الربع الخالي ، ويجري محاذياً للساحل وراء الجبال مسافة خمسمئة ميل . ويجري من نجد الى الخليج الفارسي وادي قفطان . وكان في الايام الماضية يزخر بالماء شهرين في السنة ، ولكنه الآن جاف .

وفي جنوب نجد وادي حنيف ، بين سلسلتي جبال العُرَيْض وتوبك . اما اودية اليمن وعسير التي تجري شرقاً ، فان صحراء الربع الخالي تبتلعها ، ثم تتصل هذه بوادي حنيف ، وتجري معاً تحت الارض الى الخليج الفارسي قرب خور دوان .

وبعض مياه هذه الاودية يمر تحت جبال نجد الجنوبية ، ويجري الى البحر مسبباً خصب منطقة الأحساء والقطيف . وهذه المياه الغائرة تجري تحت الماء الملح الى البحرين ، وتسبب الينابيع الوافرة في البحرين . وفي جوار البحرين يبقى الماء العذب ، لا يخالط الماء الملح ، ويؤخذ من قاع البحر بواسطة انابيب طويلة ، وهذا الماء العذب في وسط الماء الاجاج ، من اغرب الظواهر على سطح الكرة الارضية ، واليه يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : « مَرَجَ البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يَبْغِيان »

ان هذه الاودية الطويلة العريضة في وسط صحـــراء قاحلة ، تشير الى ماضٍ مجيدٍ ، كانت فيه جزيرة العرب وافرة بالماء خصبة التربة معتدلة المناخ ، في الوقت الذي كان فيه الثلج يكسو نصف الكرة الشمالي ، حتى جبال القوقاز والألب .

وليست جزيرة العرب باقاحلة كلها ، فان اكثر من نصف مساحتها ، يصلح للزراعة ، وهي في العسير واليمن والاحساء وعُمان والقصيم واليمامة ، خصبة منبتة ، وفي وادي حضرموت غنية مدهشة . وحول الجزيرة العربية تقع جزر صغيرة ، اهمها جزيرة فرسان وبريم ، في البحر الاحمر ، وكوريا موريا وسُقُطْرى ، في المحيط الهندي ، وجزر البحرين في الخليج الفارسي .

واهم هذه الجزر جزيرة فرسان وجزيرة البحرين ، وفيهما البترول ، وكذلك يوجد بترول في الاحساء عند رأس تنور . وقد عرف الحجاز منذ القدم بمعدن الذهب ، ولا يزال يستخرج منه ، ولعل معادن اخرى تكتشف في جزيرة العرب . واحسن مظهر لقوة الجزيرة هو توطيد الامن وحسن التنظيم .

وفي كل عهد نظمت فيه قوى الجزيرة وحشدت كان لها في تاريخ البشرية مركز مرموق وقول فصل ، فان هذه الجزيرة ، كما امتازت باوديتها وواحاتها وصحرائها وصخورها البركانية ، امتازت كذلك بقلاعها منذ القدم ، وتعتبر حضرموت بلاد القلاع والقصور ، واغلب قرى اليمن والعسير مسورة عالية البناء ، وكل ذلك مرده الى فقدان الامن ، وان بعض ما قام به محمد وصحبه ، انهم وطدوا الأمن في جزيرة العرب ، واستغلوا قواها المادية والروحية ، فكان لهم ما كان ، من جمع العالم القديم المتمدن ، تحت ظل العروبة والاسلام .

(الحجاز مهبط الوحي)

ظهرت المدنية في عهدها الاول على سطح هذه الكرة في الايام الخالية ، في الاودية الخصيبة واحواض الانهار في المنطقة المعتدلة . واهم مراكز الحضارة القديمة : وادي النيل وما بين النهرين وحوض الاندلس في البنجاب . واهمية جزيرة العرب منذ القدم ، هي في موقعها المتوسط بين هذه المراكز الثلاثة . وكان لطبيعة بلاد العرب وموقعها اثران ، يبدو لاول وهلة إنهما متناقضان . ولكن سرعان ما يزول هذا التناقض ، اذا أنعم النظر في جميع العوامل التي اثرت في مركز بلاد العرب .

فهذه يعزلها عن العالم ، صحراء تحيط بها من جميع جهاتها ، وبحر يحيط بها من ثلاث جهات ، ولهذا حافظت على استقلالها السياسي طول هذه العصور ، التي غمرت فيها الشرق الادنى ثقافات مختلفة وامم متباينة ، كما حافظت على طابعها الثقافي والروحي ، ولكنها في الوقت ذاته ، تاثرت بجميع تيارات المدنية التي كانت تجري حولها ، لانها كانت طريقاً للاتصال بين مراكز الحضارة التي تتوسطها .

وكما نقل الفينيقيون التجارة والثقافة ، من شرق البحر المتوسط الى غربه ، كذلك نقل العرب ، وهم من أرومتهم ، التجارة والثقافة ، من الهند الى الروم ، ومن الهند الى فارس ، ومن فارس الى مصر ، وذلك قبل ان يقبضوا على البحر المتوسط

واواسط آسيا ، وينشروا في العالم ثقافتهم وعقيدتهم وسلطانهم . كان في هذه العزلة خير لابنائها ، ومكن لها الاتصال بامم الشرق الادنى ، عندما كان في هذا الاتصال مغنى لابنائها .

تتصل افريقيا بآسيا بطرق ثلاث : الاولى برية عن طريق سيناء ، وتمر في اراضٍ سيطر عليها العرب منذ اقدم عصور التاريخ ، وقد كانوحُـمَاةَ هذه الطريق والمسيطرين عليها ، منذ غزا العمالقة مصر .

والثانية عن طريق باب المندب الضيق بين الصومال واليمن ، وكانت هذه السبيل صلة الوصل بين جنوب بلاد العرب والحبشة .

اما الثالثة فتمتد من نهر النيل عند عطفته القريبة من البحر الاحمر ، قرب طيبة عاصمة مصر القديمة ، الى القصير وهو مرفأ على البحر الاحمر ، ثم تعبر البحر الى شاطىء الحجاز . وهذه الطريق الثالثة كان لها المكانة الاولى في الحركة التجارية ما بين الجزيرة ومصر ، خلال القرن السابق لظهور الاسلام .

وأهمية بلاد العرب في الحضارة القديمة ، تقوم أولاً على مركزها المتوسط بين مراكز الحضارات القديمة ، ويعتمد في الدرجة الثانية على ما كان فيها من موادّ احتاجت إليها هذه الحضارات ، وسعت في الحصول عليها من التجار العرب .

فأول ما عُرف المعدن ، عرفه المصريون في جبال سيناء ، والسومريون في جبال عُمان . وكانت مناجم النحاس قرب الطور في سيناء من اكبر منابع الثروة التي حرص الفراعنة على استغلالها . وفي الحجاز وجد الذهب الابريز خالصاً . وفي حضرموت كانت التوابل واللبان والافاوية التي كان المصريون يستعملونها في طقوسهم الدينية وفي التحنيط . ومما زاد في اهمية البلاد العربية ، الطريق الصحراوية بين الهند ومصر .

ان البحر الاحمر صعب الملاحة ، ولا سيما في القسم الشمالي منه ، ولهذا كانت افضل طريق تجارية في العالم القديم ، هي هذه التي تبتدىء في جنوب بلاد العرب ، في حضرموت واليمن ، حيث تجتمع تجارة البلاد وتجارة الهند ، ثم تسير شمالاً الى مكة والمدينة والبتراء ، ومن هنا كانت تتفرع الى فرعين ، ينتهي احدهما في غزة على البحر المتوسط ، ويمتد الثاني في طريق الصحراء الى تيماء ودمشق وتدمر .

في الايام الاولى التي كانت هذه التجارة فيها ، تحت اشراف ملوك سبأ وحِمْيَر ، كانت مكة محطة على هذا الطريق العظيم ، وقد نشأت لوجود بئر زمزم فيها ، فلما ضعف ملوك الجنوب ، واشتد النزاع بين فارس والروم ، قوي مركز مكة التجاري . ذلك لأن تجارها تولوا تسيير التجارة ما بين الجنوب والشمال ، وكانوا اولاً يشرفون على الجزء المار ببلدهم ، او الجزء الشمالي من هذه الطريق ، فلما ضعف تبابعة حِمْيَر، حلوا مكانهم .

وقد حاولت روما عبثاً ان تحتكر هذه الطريق التجارية . فقد تغلبت على قوة ملوك حمير البحرية ، وطردت سفنهم من البحر الاحمر ، وحاولت الاستيلاء على المراكز المهمة على الطريق البرية . فجرد الامبراطور اغسطس سنة ٢٤ق .م . حملة قوامها عشرة آلاف آلاف جندي روماني ، يقودهم احد مشاهير قوادهم ، ويساعدهم حلفاؤهم الأنباط ، ولكن هذه الحملة بعد توغلها في بلاد العرب ، اضطرت الى ركوب البحر من ساحل الحجاز ، والرجوع الى مصر ، وقد اصيبت بفشل ذريع ، وكانت هذه اول وآخر محاولة لامبراطورية خارج الجزيرة ، للتغلب على حصن الصحراء المنيع .

وكان الرومان بمحاولتهم طرد العرب من البحر الاحمر ، واحتكار التجارة بين الجنوب والشمال ، قد عملوا على نقل مركز القوة العربية من الجنوب الى الشمال ، فنجاح الرومان في البحر ، اضعف دول العرب في الجنوب ، فهاجرت القبائل العربية ، ولا سيما بعد فيضان سد مأرب ، الذي زاد في الحالة الاقتصادية في جنوب بلاد العرب .

ومن قبائل الجنوب التي كان لها شأن بعد هجرتها ، الغساسنة الذين سادوا بادية الشام وحوران ، وبنو لخم وهم ملوك الحيرة ، وبنو عمرو الذين هاجروا الى المدينة ، وهم الأوس والخزرج انصار النبي ﷺ . وبالاضافة الى ضعف مركز الجنوب ، الذي

زاد في اهمية الحجاز ، كان النزاع الشديد بين الاكاسرة والقياصرة ، في العقدين الاولين من القرن السابع الميلادي ، مما وطد التجارة العربية ، ففي هذا النزاع حاولت فارس ان تقطع اتصال الروم بتجارة الهند وجنوب بلاد العرب .

والى تنافس الدولتين يعزى سعيهما الحثيث لبسط نفوذهما على جزيرة العرب ، او على الجزء الذي تمر فيه طريق القوافل العظيمة ، وقد اشرنا الى محاولة اغسطس القيصر الروماني ، غزو قلب الجزيرة ، فرُدَّ على اعقابه خاسراً . . ومن ذلك غزوة الاحباش لليمن وكانوا على دين القيصر ، ثم استنجاد اهلها بفارس ، وارسال هذه جيشاً لمساعدة سيف بن ذي يزن بطل اليمن ، الذي طرد الاحباش وحكم تحت النفوذ الفارسي .

وبتأثير هذا النزاع الشديد بين الامبراطوريتين تقلص ظلهما من البحر الاحمر ، وانقطعت التجارة المباشرة بينهما ، فاتخذت طريقاً جديدة كانت تخترق الجزيرة العربية ، من الخليج الفارسي الى الحجاز ، ومن هناك تتصل بالطريق العامة . واهمية مكة كانت في وقوعها عند تلاقي طرق التجارة الاربع ، جنوباً الى اليمن ، وشرقاً الى الاحساء ، وغرباً الى وادي النيل عبر البحر الاحمر ، وشمالاً الى الشام .

ان الحجاز منطقة جبلية تحجز بين تهامة على ساحل البحر الاحمر ونجد ، وهي هضبة الجزيرة وقلبها . وليس في الحجاز الا

ثلاث مدن ، هي مكة والمدينة والطائف . أما الطائف فأهميتها زراعية ، لانها وسط واحة منبتة الى الجنوب الشرقي من مكة ، وتشتهر بغزارة مائها واعتدال مناخها ، حيث يبلغ ارتفاعها نحو الفي متر فوق سطح البحر ، وهي اشبه شيء بغوطة دمشق لكثرة اشجارها ووفرة حاصلاتها ، وفيها العسل والبطيخ والرمان والخوخ والتين والعنب والزيتون ، كما تشتهر بوردها الذي يستخرج منه العطر .

وكذلك المدينة وهي في الهضبة العالية ، حولها ارض منبتة في سهل منبسط ، تحيط بها الجبال من الشرق والشمال والغرب والجنوب الغربي ، والى الشرق منها حرة خيبر المشهورة ، وهي طبقة من الصخور البركانية السوداء ، سمكها عشر اقدام فوق التربة الاسلاسية ، وعرض هذه الحرة عشرة اميال ، وطولها ثلاثون ميلاً ، وبين الحرة والمدينة ارض مغروسة بالنخيل ، وفي ظلال النخيل تزرع الحبوب والبقول ، وتُرْوَى الارض من آبار تحفر هناك ، وفي شمال المدينة جبل أُحد . وبين الجبال والحرة عيون جارية .

اما مكة فليست كالطائف ولا المدينة ، فهي اقرب منهما الى الساحل ، اذ تقع في تهامه لا في الهضبة ، ولا يوجد حولها ارض زراعية ، بل تقع في وادٍ غير ذي زرعٍ ، او في الجبال الحجازية المحيطة بتهامة ، وهي تبعد اربعين ميلاً عن الساحل ، وثلاثمئة ميل عن المدينة ، ونحو عشرين ميلاً عن الطائف .

وتقع مكة في وادٍ يمتد من الشمال الى الجنوب ، وهذا الوادي يتسع قليلاً في نهايته ، فيبلغ عرضه نحو كيلومتر ، وطول هذا الجزء المتسع نحو كيلومترين ، وتقع في هذه الفسحة منه مكة المكرمة ، وفي جنوبها يضيق الوادي مرة اخرى ، ويتفرع منه وادٍ آخر يتجه نحو الشمال الغربي ، وبذلك يصبح لمكة ثلاثة مخارج . شمالي الى عرفة ، ومنها الى الطائف ونجد ، ويسمى شعب مَعْبَدَة ، وجنوبي ويسمى المسفلة ، وهو يفضي الى طريق اليمن ، وفي الجنوب الغربي حَرَّة الباب ، الى طريق جدة والمدينة . وتحيط الجبال العالية بوادي مكة ، ففي الشمال جبل قضا ، وفي الغرب جبل لآلىء وجيفان والقنا ، وبينها شارع المدينة الكبير ، وفي وسط الوادي ترتفع الارض ، وهذه المرتفعات في الوسط دون الجبال العالية المحيطة بالوادي ، وسفوحها معرضة لشمس الأباطح ، ولهذا اطلق على قريش اسم (قريش الاباطح) .

ومن مرتفعات الوسط جبل اجياد وعليه قلعة ، وجبل ابي قُبَيْس المطل على الحرم وعليه مسجد بلال ، ويقابل جبل (ابي قبيس) جبل هندي وعليه قلعة . والحرم في السهل بين ابي قبيس وهندي . ووادي مكة لا ماء فيه الا ماء زمزم ، وكانت قبائل قريش تتجمع حول هذه البئر في الاباطح ، وتحيط ببيت الله الحرام .

في القرن السادس الميلادي ومستهل القرن السابع ،

اصبحت مكة مركز تجارة نامية ، وذات ثروة واسعة ، وكانت قريش صاحبة هذه التجارة ، تسوقها من اليمن الى الشام ، ومن الخليج الفارسي الى وادي النيل .

وفي مكة كان عمال تجاريون من الحبشة وفارس والروم ، وقد كان سلمان الفارسي فارسياً ، وبلال حبشيّاً ، وزيد بن حارثة شاميّاً ، وهم من الرَّهط الإسلامي الأول . وهذا المركز التجاري جعل مكة مصرفاً عاماً لتجار الجنوب والشمال ، وقد تيسر لها بذلك ، نظام اجتماعي يختلف عن نظام القبائل ، فقد كانت مكة حاضرة ، تجمع قبائل مختلفة ، زعامتها الاقتصادية لقريش ، وكانت زعامة قريش هذه تتصل اتصالاً متيناً بحياتها التجارية ، وكما هي العادة في المجتمعات التجارية ، نجد الحياة في مكة ديمقراطية من الوجهة السياسية والاقتصادية ، ولكنها أرستقراطية من الوجهة الاجتماعية .

واننا لنجد في القرآن الكريم اشارات واضحة الى الحياة في مكة ، فهو يبين ان سكان مكة ، كانوا من الحضر الناقمين على البادية ، وما تجره من خطر على تجارة قريش ، وهو يصف نعمة الله التي انعمها على قريش ، وما بسط لهم من رغد العيش ، اذ يقول (لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) ويذكرهم بعبادة الله (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

ويبدو أن النزاع بين فارس والروم ، كان من الحوادث المثيرة لاهتمام اهل مكة ، لما لنتيجته من اثر في رفاهيتها ، وقد قال الله تعالى مشيراً الى هذا النزاع : (آلم ، غُلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) . وقد صدق قوله تعالى ، اذا عاد هرقل فتح القدس ، وكسر الساسانيين في السنة الاولى من هجرة الرسول ﷺ .

(الحكومة الاسلامية الاولى في المدينة المنورة)

في مكة انزل الاسلام هدى للناس ، ودعا النبي أقرب الناس اليه ليعبدوا الله ، ولا يشركوا به احداً ، فلما أنكر هؤلاء على النبي الكريم دعوته الجديدة للحق ، واضطروه ان يرحل عن مكة مسقط رأسه ومنزل عشيرته ، الى المدينة دار هجرته ومركز شيعته ، تبدل مظهر الدعوة الاسلامية ، فبعد ان كانت دعوة روحية خلقية ، ادغمت بنظام اجتماعي وسياسي ، هو نواة الحكومة الاسلامية الاولى .

وهمنا في هذه السلة تتبع نمو هذا النظام السياسي ، الذي ولد يوم هاجر النبي وانصاره من مكة ، واستقبله اهل المدينة ، وآزروه وقبلوا دعوته وزعامته الدينية والدنيوية .

وقد بقيت المدينة المنورة مركز النظام الجديد ومجتمع قوته ، زهاء اربعين سنة ، اي منذ انتقل اليها الرسول ، حتى استتب

الامر لزعيم الشام ، معاوية بن ابي سفيان ، فنقل مركز الحركة الاسلامية الى دمشق .

خلال هذه العقود الاربعة من السنين ، استطاعت الجماعة الاسلامية الاولى ، أن تنجو من اعتداء قريش في العقد الاول ، وان تنشر الاسلام بين قبائل حجازية قوية . وفي العقد الثاني الذي بُدِئَ بفتح مكة ، والذي ازداد فيه انتشار الاسلام ، فاخذ الناس يدخلون في دين الله افواجاً ، تم توحيد كلمة الجزيرة العربية ، وتوطيد الامن فيها ، وسوق رجالها للفتوح .

وانتهى عهد المدينة بالنزاع الداخلي ، الذي ابتدأ بالثورة على عثمان ، وانتهى باستتباب الامر لمعاوية . وقد جاء وقت كان فيه مركز القوة الاسلامية ، موزعاً بين المدينة ودمشق والكوفة ، ولكن المدينة بقيت عاملاً سياسياً قوياً في حضارة الاسلام ، حتى استتب الامر لبني امية ، وظهرت للوجود امبراطوريتهم العظيمة ، وعاصمتها دمشق .

كان اول عمل في سبيل الوحدة الاسلامية قام به الرسول ، ان آخى بين انصاره ، وكانوا قبل في نزاع مستمر ، فالأوس والخَزْرج انصار النبي من قبائل اليمن ، وكانوا قد قدموا المدينة بعد الانهيار الاقتصادي الذي عقب ضعف ملوك حمير ، وهم من قبيلة عمرو .

ولكن القبيلتين تنازعتا أشد النزاع بعد هجرتهما الى الحجاز . وكان في المدينة عدا الاوس والخزرج جمهور من اليهود ، ولهم مركز مهم في خيبر وهي مجاورة لاراض زراعية ، وكان اليهود في المدينة زرّاعاً وتجاراً . وكان انقسام الاوس والخزرج ، مما قوى مركزهم . فلما آخى الاسلام بين القبيلتين المذكورتين ، ضعف مركز اليهود ، فهادنوا المسلمين حيناً ، وناصبوهم العداء حيناً آخر ، حتى غلبوا على امرهم ، واخرجوا من المدينة والحجاز ، في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب .

بعد ان نجا النبي من ظلم قريش ، وألّف بين الأنصار ، سعى في اضعاف مركز اعدائه في مكة ، وكان أقرب سبيل لذلك ، وأشد تنغيصاً لحياة قريش التجارية ، ان يمنع تجارتها بين الجنوب والشمال ، تلك التجارة التي كانت تمر بجوار المدينة . فاذا وقفت تجارة مكة ، قضي عليها لا محالة .

الى هذه الغاية انصرفت اكثر غزوات النبي واعماله الحربية ، وكان اول قتال بينه وبين مشركي مكة في (بدر) الواقعة الى الجنوب الغربي من المدينة ، وعلى بعد عشرين ميلاً منها ، وهي على طريق القوافل بين مكة والشام ، وكانت (بدر) النصر الاسلامي الاول ، وقد انتصر فيها.المسلمون على اكثر من ثلاثة اضعافهم ، وكل من اشترك فيها عرف فيما بعد ، بانه من اهل بدر الذين تميزوا عن جميع المسلمين بغنائم الحرب . وقد حاولت

قريش ان تحمي تجارتها وشريان حياتها ، فحشدت جموعاً لقهر المدينة ، ونالت بعض النصر في أُحُد في السنة التالي لغزوة بدر .

ثم جمعت اكبر جيش كان في طاقتها جمعة من رجالها ، ومن البدو المجاورين لها ، ومن الاحباش العاملين في تجارتها ، وساقت هذا الجيش الجرار ، بالنسبة الى الفئة الاسلامية القليلة العدد ، الى ابواب المدينة لتحاصرها وتحصر المسلمين فيها . وعرفت هذه الجموع بالأحزاب ، وقد انضم اليها يهود المدينة ، مع انهم كانوا متهادنين مع المسلمين . وكان مما اخرج المسلمين من هذا المأزق الحرج ، ما أشار به سلمان الفارسي على المسلمين ، بان يحفروا خندقاً حول المدينة . فضاق البدو المحاصرون ذرعاً بهذا النوع الجديد من القتال الذي لم يألفوه ، ولم يطيلوا الحصار ، بل انصرفوا بعد شهر ، ونجا الاسلام من الفناء وهو في مهده .

وبعد الاحزاب ، تغير موقف المسلمين من الدفاع الى الهجوم ، ولكنهم قبل ان يهاجموا قريشاً في معقلها ، نشروا دعوتهم بين القبائل المجاورة ، وزادوا سيطرتهم على طريق القوافل ، فكانت سَرِيَّتهم لمؤتة ، وغزوتهم لتبوك ، وقد صالحوا اهلها . ويقال ان من أسباب غزوتهم لمؤتة ، وهي من ارض الشام في البلقاء ، الحصول على سيوفها المشهورة .

اما تبوك فكانت محطة على الطريق التجاري بين المدينة

وغزة . والى نشاط المسلمين في الدعوة وتحويلهم جزأً كبيراً من تجارة مكة الى ايديهم ، يُعْزَى اقدام النبي ، ﷺ ، على دعوة قبائل غسان وأسد وكنده ولخم الى الاسلام ، وكذلك اقباط مصر . وقد نجحت هذه الدعوة ، فبعض من كاتبهم في حوران ونجد ، أوفدوا رسلاً الى المدينة بقبول الدعوة ، وبعضهم رد على الرسالة النبوية رداً حسناً . ومن هؤلاء عظيم القبط . .

وكان دخول هؤلاء في الاسلام اعترافاً منهم بان قريشاً قد خسرت مركزها التجاري ، وبأن المدينة اصبحت مركز القوة العربية ، وهذا مما شجع المسلمين على الاقدام على مهاجمة مكة ، وقد فتحها الله عليهم في السنة العاشرة من الهجرة . والوفود التي وفدت على المدينة لاظهار الطاعة لنبي الله ، اكثرها من قبائل لها صلة بتجارة المدينة ، فكان قطع تجارة مكة اكبر ضربةٍ سددت الى قريش .

وقد كان معنى فتح مكة خضوع الحجاز جميعه للمسلمين ، لان مدنه الثلاث ، مكة والمدينة والطائف ، دخلت في دين الله . وكان معناه ايضاً حرية تصرف المسلمين بالطرق التجارية الكبرى .

ولما تمت رسالة الله وتوفي رسوله ، كان النظام الذي انشأه المسلمون في المدينة ، نظاماً اجتماعياً وفكرياً وسياسياً قوياً . وهوالنظام الذي غزا الجزيرة العربية ، وجمع كلمتها ، ثم قذف برجالها الى الفتوح .

ولقد أخرجت هذه الجزيرة في ذلك العهد نفراً من الابطال أربوا في عددهم وكفاياتهم ، على ما اخرجته أية امةٍ اخرى في عهد من عهودها . فلما قبض الله نبيه ، انتخب ابو بكر اول الناس اسلاماً وصاحب الرسول ورفيقه في هجرته ، خليفة للمسلمين .

وكانت أطراف الجزيرة الحديثة العهد بالاصلام ، قذ صعب عليها ان تدخل في طاعة الحجاز ، وتقبل زعامة قريش المطلقة ، فتذرعت بموت الرسول ، لتقطع ما عاهدته عليه من ايتاء الزكاة وقبول جميع احكام الاسلام ، ولعل الحركة الاسلامية كانت قد تغلغلت في نفوس عامة الناس ، فأقبلوا عليها بكل قلوبهم .

فلما حاول زعماء القبائل ان ينقلبوا على حكومة المدينة ، لم يجرؤ وا على مناوأة الفكرة الاسلامية ، فبعضهم أبى دفع الزكاة ، وبعضهم ادعى انه الخليفة ، وبعضهم ادعى النبوة .

هذه الحركات الانقلابية ، حملت ابا بكر ، على الاسراع للقضاء عليها ، قبل استفحال امرها ، فسير اليها جماعات من المسلمين المحاربين ، امتاز من قواد هذه الجماعات خالد بن الوليد ، الملقب بسيف الله المسلول . فقد اخضع قبائل نجد وقلب الجزيرة في ستة اشهر . وكانت اشد القبائل التي حاربها واعادها الى طاعة الله ، قبائل طي واسد وغَطَفان ، ومنازلها بين جبل شَمَّر والحجاز ، وكان زعيمها طليحة . ثم بنو حنيفة في

اليمامة جنوب نجد ، وزعيمها مُسَيْلِمَة الكذاب ، ومسليمة هذا كان قد جمع تحت زعامته قبائل بني تميم النازلين شرق نجد ، في جهة الأحساء ، بعد ان تزوج بسجاج زعيمة هذه القبائل ، وقد احتاج خالد الى نجدات كبيرة ، قبل ان يتمكن من قهر مسيلمة هذا . وقد اخضع رجال ابي بكر قبائل العرب في جميع الاطراف ، مثل عُمان وحضرموت واليمن . وفي اليمن كان الأسود قد جميع كثيراً من الأتباع . ولكن حروب الردة في الاطراف كانت أضعف منها في وسط الجزيرة . وكانت ضربة خالد للقبائل القوية ، مفتاح النصر لجمع شمل الجـزيرة بكاملها ، تحت لواء حكومة المدينة . ولاول مرة في تاريخ الجزيرة العربية ، دانت جميع أطرافها لحكومة واحدة ، ودين واحد ، ولغة واحدة ، هي حكومة خليفة الرسول ، ودين القرآن ، ولغة القرآن .

فالمدينة المنورة ، هي مهد الدعوة الاسلامية ، وعاصمة اول حكومة عربية اسلامية خالصة ، دان لها الحجاز ونجد وعمان وحضرموت واليمن وتهامة وعسير ، وامتد فيضها فبلغ النيل والفرات وجبال طورس . وسنرى في الاحاديث المقبلة ، كيف تمكنت هذه الحكومة الفتية من ان تدك عرش الاكاسرة ، وتستولي على تراث امبراطوريتهم ، وتأخذ من الروم زعامة البحر المتوسط والعالم المتمدن .

(فتح الشام)

كان فجر القرن السابع الميلادي ، فاتحة حوادث خطيرة في الشرق الادنى . وكان الخصام في الربع الاول منه ، على أشده بين الفرس والروم ، وكانت الشام ميدان الحرب بين الدولتين ، بينما كان النزاع يجري في داخل كل منهما ، بين الجند والحكام ، وبين بيت مالك وبيت مناهض له ، وبين قائد وآخر ، وبين شيعة دينية واخرى من نوعها . . وكان وقت ، ضعفت فيه بيزنطية ضعفاً اطمع فيها الفرس ، ومهد كل سبيل لتدخلهم في شؤونها . . وقد انقسمت الكنيسة فيها بعد مجمع نيقية ، واضطهد النساطرة ، ولجأوا الى الفرس ، فآووهم وشجعوهم .

وكان البيت المالك في القسطنطينية منقسماً على نفسه ، وانقسم الناس من جراء ذلك الى احزاب متنافسة متنابذة ، وعمت الفوضى ، واغتصب (فوكس) احد الامراء ، العرش بعد ان قتل الامبراطورة قسطنطينة وبناتها الثلاث . وثارت ارمينيا ، واستنجدت بالفرس ، فانتصروا لها ، وزحفوا الى بلاد الروم ، واحتلوا الشام ومصر وارمينيا واكثر الاناضول ، بينما كان البلغار واحلافهم قد زحفوا الى القسطنطينية وضربوا عليها الحصار . .

وفي غمرة هذه المحنة ، ظهر بطل رومي في شمال افريقيا ،

قام يرد عن بيزنطية كيد اعدائها ، فزحف الى مصر واستنقذها ، ثم ركب البحر الى القسطنطينية ، وقتل الامبراطور المتولي اذ ذاك ، وقبض على زمام الدولة بيده القوية ، وقد وحد الصفوف ووجهها لقتال الفرس . . وبعد حروب طويلة كانت سجالاً بين الدولتين ، انقذ الشام ، وأعاد الصليب المقدس الذي نهبه الفرس من المدينة المقدسة . . وأصاب انتصاراً حاسماً على اعدائه في ارمينيا ، بعد ان هبط عليهم من اعالي القوقاز ، وهدد بغزو فارس في عقر دارها . . وكان ملك الفرس قد مات ، وخلفه ابنه ، فصالح الروم ، وأعاد اليهم كل ما احتله ابويه من الاصقاع .

هذا البطل الذي قام بكل هذا هو هرقل ، الذي لمع نجمه في برقة ، وقد بلغ الذروة ، بعد ان طرد المعتدي من جميع بلاد الروم . ولكنه لم يلبث ان ابتلى بعدو كان اشد منه مراساً واقوى شوكة ، سلبه بلاده وقهره وقضى على آماله . . هذا العدو الجديد ، بل هذا البطل الذي لا يجاري ، هو خالد بن الوليد الذي انقذ العرب في غزوة مُؤتة من هلاك محقق .

ولو ان منجماً تنبأ يوم هزم العرب في مؤتة ، وعددهم بضع مئات ، بانهم سيعودون بالآلاف ، ويصدون جيوش الروم الجرارة ، ثم يخرجونهم من الشام ، لعدت نبوءته من أبرع انواع الفكاهة المضحكة . . ولكن هذا الذي حدث . فمؤتة كانت في

السنة التي سبقت فتح مكة . واليرموك في السنة الخامسة بعد هذا الفتح . ويوم هاجر النبي كانت الشام فارسية . ويوم فتح مكة كانت بيزنطيةً . وبعد وفاته باربع سنوات ، كانت عربية مسلمة ، من رفح الى انطاكية .

ان هذا الحدث الخطير ، قد غير مجرى التاريخ تغييراً اساسياً ، وأعاد للشرق الادنى سيادته التي كانت له على عهد الفراعنة ، وأمم ما بين النهرين ، والفينيقيين . . تلك السيادة التي سلبه اياها الغرب مدة عشرة قرون ، منذ اكتسحه اسكندر ذو القرنين ، الى ان غادر هرقل ربوع الشام .

ولا أود ان اصف لكم الايام الغُرّ ، التي أبلى فيها شجعان العرب بلاءهم الحسن الذي حقق لهم النصر . . ولا اريد ان اصور مظاهر البطولة الخارقة التي أبداها هؤلاء الذين كانوا قبل عقدين من السنين ، يعيشون على حاشية البادية ، ثم اندفعوا الى قلبها ، فملكوها وبنوها ووسعوا حدودها . . ان ذلك اعظم من ان اعمد اليه في احاديثي هذه ، وروايته تناولتها كتب التاريخ المطولة ، وكتب الادب الرائعة ، وهي رواية كتبها التاريخ دماً ولحماً ، ولا يزال يكتبها منذ اربعة عشر قرناً ، ولا أظنه يفرغ منها ، فقد طُبع بطابعها الى الابد . . .

اما الذي أود أن أعرضه على مسامعكم عرضاً سريعاً خاطفاً ، فهو صورة امتداد ديار العرب ، من مكة والمدينة ، الى

الرملة والقدس وطبريا ودمشق وحمص وقنسرين . . والذي أحاول ان اجيب عنه اثناء عرض هذه الصورة امامكم ، هو هذه الاسئلة : لماذا فكر العرب في فتح الشام ؟- وفي فتحها قبل غيرها من الاقطار المجاورة لجزيرتهم ؟ وما هي العوامل التي اكسبتهم هـذا النصر المبين؟ وكيف تم اكتساحهم لقـوة الروم ، واجتياحهم لبلادهم ؟ . .

بعد حروب الردة ، اصبح الاسلام حكومة منظمة ، مركزها المدينة ، وفروعها في قلب الجزيرة واطرافها . وكانت هذه الحكومة ، اول حكومة عربية شملت جميع اجزاء الجزيرة . غير انه قد نشأت مع نشوء هذه الحكومة ، مشكلة لم يألفها العرب في نظامهم البدوي ، هي التصرف بهذه الحيوية الفياضة التي ظهرت عندما تآلفت القلوب المتنافرة ، والتـأمت القبائـل المتنازعة ، في عقد واحد ورابطة واحدة .

ان البدوي محب بطبيعته للظهور بالقوة والشجاعة ، وقد كانت الفروسية والغزوات من خصائص البداوة ومزاياها ، لانها المظهر الوحيد للنشاط والحماسة في نفس البدوي وجسمه ، فان بطل الغزو ضاق بالنظام الذي يفرض عليه ، واقبل مندفعاً على اية حرب يدعى اليها ، فكيف يكون اندفاعه اذا كان انتصاره في الحرب ينيله النعيم في الدنيا والآخرة ؟ . . .

لما أبطل الاسلام الغزو ، تحتم على رجال الحكومة الاسلامية

الاولى ان يجدوا ما يقوم مقامه ، والا تعذر حفظ النظام في البلاد ، والحكومة لا تزال فتية فقيرة كحكومة ابي بكر . . ولم يكن ابو بكر اول من فكر في سوق العرب الى الغزوات الخارجية ، بعد ان ابطل الغزوات الداخلية . . فقد سبقه النبي بغزواته في مؤتة وتبوك وغيرهما ، كما سبقه الى ذلك ايضاً خالد بن الوليد ، اذ ان خالداً عندما وصل برجاله في حروب الردة الى اطراف العراق ، وصالح قبائل بكر بن وائل الضاربة في تلك الانحاء ، زين له زعيم احدى هذه القبائل ، وهو المثنى بن حارثة امير شيبان غزو الحيرة ، ففعل واشترك مع المثنى في ذلك . وشيبان هي القبيلة التي أحرزت للعرب انتصارها الاول على الاعاجم ، وهزمت الفرس في (ذي قار) ـ وذلك قبل الاسلام .

فتفكير ابي بكر بغزو الشام ، لم يكن بالشيء الجديد ، وانما هو حلم العرب القديم ، اثارته في نفس ابي بكر سُنَّةُ الرسول ، ثم الغارة الناجحة التي قام بها المثنى وخالد على الحيرة . ولكن الجديد في عمل ابي بكر ، هو ان يشرك جميع القبائل العربية ، ولا سيما القبائل اليمانية والنجدية في غزوة الشام . وقبل ذلك لم يغز العرب الا وهم جماعات قليلة . .

ويروى ان ابا بكر دعا اهل المدينة للتأهب لغزو الروم ، فخرج الناس وعسكروا خارج المدينة ، يتخذون اهبتهم

للمسير ، وخرج اليهم ابو بكر ومعه عمر وآخرون ، ولم يرض ابو بكر عن هذه الجموع للروم ، فقال لاصحابه : اترون ان نشخصهم للشام في هذه العدة ؟ فقال عمر ما ارضى هذه العدة لجموع بني الاصفر . فقال ابو بكر : أفلا نكتب الى اهل اليمن وندعوهم الى الجهاد ؟ فقالوا نعم . فكتب ابو بكر يستنفر القبائل اليمنية ، وبعث كتابه مع أنس بن مالك ، فكان يجيء مضارب القبائل ، ويقرأ عليها كتاب ابي بكر .

وقد لاقت هذه الدعوة عند اكثرهم اذناً صاغية ، ورغبة صادقة ، واقبلت القبائل من كل جهة ، فجاءت حمير والأزد وبنو كنانة ، كما اقبلت قبائل الحجاز ونجد وبادية الشام ، وفيها بنوطي وقيس وجشم وخشعم وقُضاعة وكلب وغيرها . اما ربيعة وتميم وأسد فكانت دارهم عراقية ، وقل من شهد منهم فتوح الشام . ولهذا فقد كان اكثر اهل اليمن في الشام ، لان بعض القبائل اليمانية ، مثل غسان وتنوخ كانت فيه قبل الاسلام ، وبعضها كانت في طليعة من اجاب دعوة الخليفة .

وكان فتح الشام غزوة بدوية كبرى ، لا تختلف عن الغزوات الصغرى ، بين قبيلة واخرى ، الا في عدد المحاربين ، وكثرة القبائل ، واختلاف الغاية . وكان الخليفة يستقبل القبائل في المدينة ، ثم يودعها داعياً لها ، ومباركاً في نخوتها ، وموصياً اميرها بما عرف عنه من وصايا الحرب المليئة بالعظة .

وكان اذا رأى عدد القبيلة صغيراً جمع قبلتين او اكثر ، وامر عليهم اميراً من قريش ، وعبأ الجميع في قيادات كبيرة ، عقدها لاربعة من رجال المدينة ، هم عمرو بن العاص ، ويزيد بن ابي سفيان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة .

وقد اختار ابو بكر فتح الشام قبل غيرها ، لصلة الحجاز القديمة بالشام ، واهمية الطريق التجاري في حياة المدينة ، وكانت قد انتزعت الزعامة من مكة ، ومدت سلطانها على اكثر قبائل العرب ، وصار لا بد لها من التحكم بالطريق التجاري جميعه ، ولا سيما حيث ينتهي في اطراف الشام : في بصرى وغزة وتيماء وتدمر ، وكانت مراكز للتجارة والهجرة العربية قبل الاسلام دهراً طويلاً .

ومما يدل على عدم اهتمام ابي بكر بغير الشام ، أن خالداً لما بعث يطلب نجدات لغزواته في العراق ، رفض ابو بكر ان ينجده ، وطلب اليه ان يكل امر العراق لقبائله ، وان يسير هو ومن معه من جنود المسلمين ، الذين صحبوه من الحجاز ونجد ، ومن ينضم اليهم فيما بعد على الطريق ، الى الشام ، حيث يتولى زعامة جنودها ، ويتولى تصريف الحرب فيها .

وقد ساعد العرب في فتوحهم امور كثيرة ، اهمها اسلوبهم الحربي ، الذي كان يوافق طبيعة الصحراء ، فقد كانوا اقدر من عدوهم على الحركة ، وانشط منهم فرساناً ، واشدهم مراساً على

ركوب الخيل . ولم يتقن الروم الفروسية ، ولم يبرعوا فيها ، وانما مدار قوتهم الحربية ، كان على كتائب المشاة والرماة .

وقد امتاز العرب باستعمال الجمال ، لانها مكنت لهم التنقل السريع ، فالجمال كانت تحمل الرجال والارزاق والنساء والمتاع ، بسرعة لا تقل عن اربعين ميلاً في اليوم ، وهي سرعة تَنَقُّل ، لم تصل جموع الروم الغفيرة الثقيلة الى نصفها . فالخيل والجمال كانت من عوامل النجاح في شؤون الحرب ، وكان لها ما للسيارات والدبابات في الحرب الحديثة . . ولعل رحلة خالد المشهورة من العراق عبر الصحراء ، وظهوره خلف الروم ، من أروع الامثلة ، على ما كان لتنقل العرب من أثر في بلبلة الروم ، وقطع مواصلاتهم ، واختراق صفوفهم ، واثارة الفزع في نفوسهم .

وكانت جيوش الروم تعتمد في حركاتها على المدن الكبرى ، فاذا قطعت مواصلاتهم سقط في ايدي قادتهم ، واسرعوا في التقهقر . اما العرب فكان متاعهم معهم ، وكانت نساؤهم يصحبنهم ، ويعددن لهم الطعام ، ويثرن فيهم الحماسة ، ويعتنين بجرحاهم ومرضاهم . اضف الى هذا ان قبائل العرب التي كانت مجاورة للروم ، او كانت تحت سلطانهم ، كانت تكرههم ، لان هرقل قطع عن امراء هذه القبائل المرتبات المالية التي كان ينفحهم بها ، فنقموا عليه ، وساعدوا الغزاة المسلمين .

وأضف كذلك الى هذه الاسباب ، حسن معاملة العرب للناس ، بازاء تعسف الروم ، وشجاعة العرب وحسن بلائهم بازاء تخاذل الروم وترددهم وخوفهم . وقد خطب هرقل في قواته يوماً ، يصف العرب ، فقال : انهم احرص على الموت ، منكم على الحياة . ثم اضف الى هذا كله عبقرية خالد ، التي وجهت الحرب خير توجيه ، واخرجت العرب من اكثر من مأزق حرج . . وفي حديثنا التالي ، سوف نرى كيف عملت هذه الاسباب على ضمان النصر المبين ، وكيف تم نشر الراية العربية على الشام ، في اقل من ثلاث سنوات .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

ديار العرب والإسلام

(٢)

دار الفكر اللبناني

سلسلة

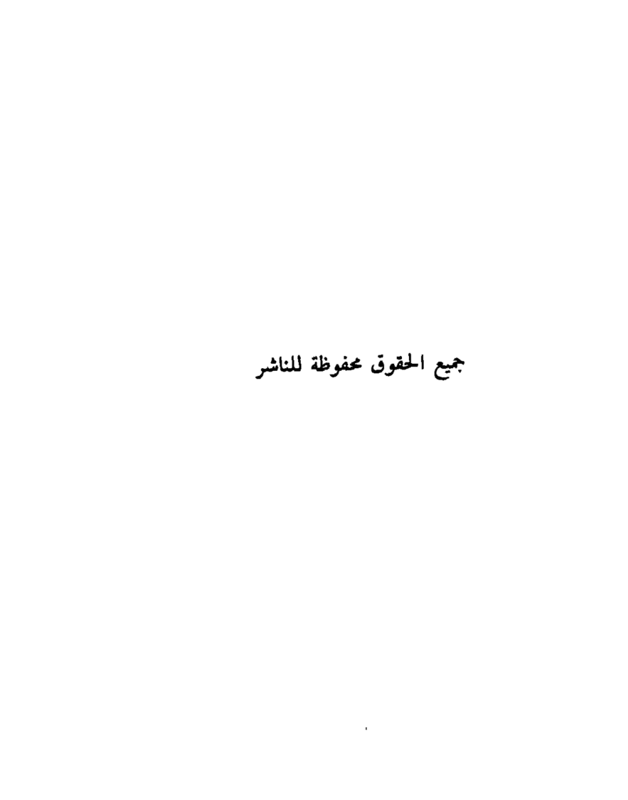
مختارات

إسلامية

ديار العرب والاسلام

(٢)

دار الفكر اللبناني



(بطل اليرموك)

لما عقد ابو بكر مجلساً للشُّورى من كبار الصحابة ، وقرر توجيه الغزوات الى الشام ، استشارهم في الطريقة المثلى التي ينبغي للعرب ان يختطُّوها في مسيرهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف : ان بني الأصفر (يريد الروم) حدٌّ حديد وركن شديد ، والله ما أرى ان تقحم الخيل عليهم إقحاماً ، ولكن تبعث فتغير ، ثم ترجع اليك . فاذا فعلوا ذلك مراراً ، أضر بعدوهم ، وغنموا من ارضهم وتعودوا قتالهم . .

وهذا القول ينطبق كل الانطباق على طريقة العرب ، في الدور الاول من حملتهم . اذ ان فتحهم للشام ، كان على مرحلتين ، سلكوا في الاولى منهما طريقة الغزو على القرى وطرق المواصلات والقلاع ، وكانوا كلما توغلوا وقابلتهم قوات كبيرة من الروم ، ارتدوا نحو الشرق ، قبل ان يسبقهم الروم ، ويحولوا بينهم وبين الصحراء ، معقلهم الحصين . وكانت هذه المرحلة قبل اليرموك . اما بعد اليرموك ، وهي المرحلة

الاخرى ، فكان فتحهم للشام ، يسير بنظام دقيق وبخطة مرسومة .

ومما يدلنا على ان العرب سلكوا في المرحلة الاولى طريقة الاغارة فقط ، انهم وصلوا في تقدمهم إولاً الى الانحاء الشمالية من البلاد ، ففتحوا دمشق (وهو الفتح الاول) في شهر آب سنة ٦٣٥ وبلغوا حمص ، وكل ذلك قبل معركة اليرموك بسنة ، ثم تراجعوا .

وبعد انتصار اليرموك ، عادوا ففتحوا دمشق وحمص من جديد . وكانت المعارك الفاصلة التي خاضوها ضد الروم ، في أجنادين (على طريق بيت جبرين)، وفي (فحل) الواقعة الى الجنوب من بيسان ، وعلى اليرموك شمالي بيسان بقليل . وبيسان هذه قريبة من الصحراء ، وهي مركز اتصال طبيعي خطير بين فلسطين وسوريا ، والطريق بين البحر وحوران ، والجسر التي عبرت عليه جيوش الفاتحين من اقدم عصور التاريخ ، وفيه قرر مصير الحثيين والروم والمغول والاتراك .

وعلم العرب ، وكانوا في الجهة الشمالية من سوريا ، بتقدم الروم نحوهم بجيوش جرارة من انطاكية ، فعقد ابو عبيدة ، وكان قائد المسلمين في حمص ، مجلساً للشورى ، قال فيه احد قواده : ننزل عيالنا في مدينة حمص ، ونقف للروم امامها . . فقال ميسرة بن مسروق ، وهو فاتح شمال سوريا : لسنا

باصحاب القلاع ، ولا الحصون ولا المدائن ، وانما نحن اصحاب البر والبلد القفر ، فأخرجنا من بلاد الروم الى بلادنا او ما يشبه بلادنا ، ثم ضم اليك قواصيك ، وابعث الى امير المؤمنين ليمدك . . فقال الجميع : الرأي ما رآه ميسرة . .

ونتقدم الآن بوصف صورة الفتح : فالرواية الغالبة ، هي ان امراء الجيوش كانوا اربعة ، وهم يزيد بن ابي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص ، وابو عبيدة بن الجراح ـ وكان كبير القواد او القائد العام ، ولكن المشهور هو ان ابا عبيدة ، لم يل القيادة العامة في عهد ابي بكر ، بل وليها في عهد عمر . . وقد سلك يزيد وشرحبيل طريق سكة حديد الحجاز الحالية ، اي الى مدائن صالح وتبوك ومعان . وسلك عمرو بن العاص الطريق الساحلية الى العقبة وطريق غزة . وكان يزيد اول من اشتبك في معركة مع الروم .

وكان الروم بعد مؤته ، وقطع مرتباتهم المالية عن القبائل العربية ، قد عهدوا الى جندهم النظامي ، في الدفاع عن حدود الصحراء ، غير ان اكثر حصونهم على هذه الحدود ، كانت في حالة رديئة لكثرة اهمالها . وكان حاكم قيسارية على رأس قوة رومية في وادي عربة في جنوب البحر الميت ، فقاتله يزيد وغلبه ، فانهزم الى غزة ، وكان ذلك في شهر شباط سنة ٦٣٤ . ولكن يزيد لم يتعقب فلول الروم ، وتراجع الى ما وراء البحر الميت .

وقبل ان يشتبك العرب مع الروم في اجنادين ، كان خالد بن الوليد ، قد تلقى امر الخليفة بالشخوص الى الشام ، مع من معه من اهل الحجاز . . فسار خالد من الحيرة ، واغار على الأنبار ، ثم انحط الى عين التمر ، ومنها الى دَوْمَة الجندل وهي بلدة الجوف الحاضرة .

وقد كان في امكانه ان يسلك طريق وادي السرحان الى بصرى مدينة حوران ومفتاح الشام الاول ، ولكنه عدل عن هذا الطريق ، لوجود الحصون الرومية فيه ، وسار شمالاً ، فاغار على (قراقر) وهو ماء لقبيلة كلب ، ثم فوز الى (سوى) وهو ماء لكلب ايضاً ، و(سوى) قرب بلدة سبع بيار الحاضرة ، في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق وتعد مفتاح الشام الثاني (وسبع بيار هذه تحريف سبع آبار) . .

وقد ترك خالد الحيرة في آذار ، وظهر في الغوطة وراء جيوش الروم المتقدمة نحو جنوب فلسطين في نيسان ، بعد رحلة قصيرة لم تتجاوز العشرين يوماً ، نصفها في قفر لا ماء فيه . وكان في صحبة خالد نحو ثمانمئة رجل ، فأغار بهم على حوران وعلى منازل بني غسان ، في جانب مرج راهط ، في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق . وقد مر بثنية العُقاب في الغوطة ، والتقى بجيوش المسلمين امام بُصرى ففتحوها .

في هذا الوقت الذي اصبحت فيه الغوطة وحوران وشرق

الاردن ، تحت رحمة الغزاة ، كان هرقل في حمص يجمع جيشاً جديداً . ولما تحرك هذا الجيش تراجع العرب ، واجتمعوا كلهم في وادي عربة . وقد فعلوا ذلك ليكونوا حشداً واحداً لا متفرقين ، وليختاروا المكان الذي يريدونه ، والزمان الذي يهجمون فيه . وساعدهم تنقلهم السريع على ذلك .

فهاجموا اجنادين في ٣٠ تموز سنة ٦٣٤ وانتصروا على الروم انتصاراً باهراً ، وبذلك فتحت الطريق امامهم الى غزة والقدس وقيسارية ، ولكنهم لم يتتبعوا فلول الروم في هذه الطريق ، وساروا الى ما وراء الاردن . وقد توفي ابو بكر بعد هذا النصر العربي الاول ، باربع وعشرين ليلة .

وبعد معركة أجنادين بستة اشهر ، جمع الروم جيشاً كبيراً ، وقابلوا العرب في مكان يقال له (فحل) وقد سبق ذكره ، وهو واقع على الضفة الشرقية من الاردن التي تقابل بيسان ، وهو مجاز مهم إلى جنوب الشام ، وكان ذلك في كانون الثاني سنة ٦٣٥ . ٦٣٥ .

وقبل المعركة انضم الى المسلمين رجال كثيرون من قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة وقضاعة ، فكان في ذلك عون لهم . . وقد أغار المسلمون قبل المعركة على القرى المجاورة ، وقطعوا المدد والميرة عن الروم ، ثم نشبت بين الفريقين المعركة ، وانتصر العرب ، وانهزم الروم ، والتجأ جمهور منهم الى القدس

وقيسارية ، ولحق الباقون بجيشهم في الشمال . . والذي يبدو ، ان الاكثرية من الروم تراجعت الى قيسارية والقدس لاهميتهما ، ولخوف الروم من ان يهجم العرب عليهما .

غير ان خالداً لم يتتبع الجنود المنسحبين ، بل تقدم نحو دمشق ، واخضع في طريقه البقاع وبعلبك وحمص ، ثم نزل على دمشق وحاصرها ، الى ان استسلمت له ، واعطى اهلها عهداً ، كان مثالاً نسج عليه المسلمون في عهودهم العادلة ، التي قطعوها لما فتحوه من المدن بعد ذلك .

ورأى الروم في قيسارية والقدس ما حل بقواتهم المحاربة ، فأرسلوا الى هرقل يستنجدونه . ورأى هرقل ان المحنة التي تستهدف لها بيزنطية الان ، لا تقل عن المحنة الاولى ، يوم احتل الفرس البلاد ، وادرك الخطر الذي يتهدده ، فجمع جيشاً جراراً من الاناضول وأرمينيا والقوقاز .

ولما علم المسلمون بذلك ، وشعروا بتقدم هذا الجيش اللجب نحوهم ، عقدوا مجلسهم للشورى في حمص ، وهو الذي أشرنا اليه في اول الحديث ، واستقر رأيهم ان ينسحبوا الى الجنوب ، ليكونوا على مقربة من خط تراجعهم النهائي ، وطريق امدادهم . . وكان خالد اذ ذاك في دمشق ، فلم يرض بالانسحاب الى اكثر من حدود الشام ، ووقع اختياره على موقع اليرموك .

وكان رأي يزيد الانسحاب الى العقبة ، ورأي عمرو بن العاص الانسحاب الى وادي القرى ، على طريق المدينة . . فقال لهم خالد : ان كنا تقاتل بالكثرة ، فالقوم اكثر منا ، وان كنا نقاتلهم بالله ولله ، فما أرى جماعتهم ، ولو كانوا اهل الارض جميعاً ، انها تغني عنهم شيئاً .

اختار خالد المكان الذي يقاتل فيه عدوه . وعسكر الجيشان في جهتين متقابلتين . وكانت تجري بينهما مناوشات . وكان فرسان العرب ينتشرون هنا وهناك ، يجوسون خلال البلاد ، ويقطعون الامداد والارزاق عن الروم ، وكثيراً ما كانوا يغيرون على القرى ، وينكلون بجماعات الروم الصغيرة التي يقابلونها .

ولم يعزم خالد على دخول المعركة الفاصلة ، الا بعد ان ايقن بنجاحه ، في اثارة الاضطراب في صفوف اعدائه ، وقد تولاهم الملال من هذه الحرب التي لم يألفوها من قبل ، فعرضوا على خالد الصلح ، على ان يطلقوا يد العرب في ما وراء الاردن وبادية الشام . ولكنه رفض ، وعبأ جنده اصلح تعبئة ، وانتظر حتى تحين الساعة ، وقد اختار لها يوماً من ايام آب الشديدة الحر الكثيرة الغبار . . وما انبثق فجر هذا اليوم، حتى بادر فرسان العرب بقيادة خالد الى الاغارة على جناحي العدو وفيهما فرسانه .

وكان فرسان العرب ، أقدر على الكرّ والفرّ وأبرع

فروسية ، ولكن كثرة الروم ، وكانوا خمسة اضعاف العرب ، كادت تكون الظافرة . . وقد اندفع الروم نحو ميسرة المسلمين بعد ان هزموا الفرسان ، وعلا الهرج والمرج في صفوف المسلمين . فما كان من خالد ، الا ان حمل على القوم وهو يكبّر ، وصاح بقواده ان يحملوا حملة صادقة ، فكانت حملته مفتاح النصر ، اذ هزمت فرسان الروم هزيمة منكرة ، وانكشفت صفوفهم لخيول العرب ، فاعملوا فيهم السيوف والرماح ، وعمتهم الفوضى ، فذعروا وارتبكوا ، ولاذوا بالفرار ، ولكن أنىّ لهم ذلك ، وقد تراصت صفوفهم وتكدست ، واخذت تتساقط وهي راجعة عشرات ومئات ، في وادٍ من اودية اليرموك يعرف بوادي الرقاد ، حتى امتلأ بهم فسمي وادي الواقوصة من ذلك الحين ، لانهم وقِصُوا فيه اي سقطوا ودقت اعناقهم . .

وكان هذا اليوم من ايام التاريخ الاسلامي المشهورة . . ورأى خالد مبلغ النجاح الذي اصابه ، فلم يترك الاعداء يفلتون هذه المرة ، كما كان يصنع في المعارك السابقة ، فتتبعهم وفتك بهم ، الا من نجا منهم الى قيسارية او القدس ، وتعقب العرب فلولهم الاخرى الى دمشق وحمص ، ثم تقدموا في الانحاء الشمالية ، يحاربون ويغنمون ، الى ان بلغوا جبال طورس ، وهي الحد الفاصل بين الشام والاناضول .

وحاصر المسلمون القدس الى ان تم فتحها صلحاً سنة ٦٣٨

على يد الخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، وكان قد قدم الشام وقتئذ ، ونزل في الجابية حيث كان معسكر العرب ، قريباً من دمشق ، فلما طلب البطريرك تسليم المدينة المقدسة اليه ، جاء عمر وتسلمها ، ثم واصل مسيرة راجعاً الى المدينة المنورة ، عن طريق غزة والعقبة .

كانت عبقرية خالد ، هي التي فتحت على المسلمين باب النصر ، وسحقت قوة الروم الحربية ، فهو بحق انبغ رجال العرب في فنون الحرب ، ويعد من ابطال المعامع الذين ذاعت شهرتهم في العالم . . وكما كان خالد عبقرية عسكرية ، كان ابو عبيدة ادارياً عظيماً من الطراز الاول ، وقد اتم الرسالة التي تسلمها من خالد ، وبلغ بجيشه الباسل حدود الاناضول .

(الشام ـ موقعها وحدودها)

تعقب خالد بن الوليد الروم ، بعد هزيمتهم في اليرموك ، وسحق مقاومتهم في كل مكان ، الا في المدينتين المصطبغتين بالروح الرومية في ذلك الوقت ، وهما القدس وقيسارية . وكانت الاولى مركز الروم الروحي ، والاخرى عاصمتهم المدنية ، وموئل مَدَنيَّتهم في القطر الشامي ، لا يدانيها في ذلك ، الا انطاكية في الشمال .

وقد سقطت القدس بعد اليرموك بنحو سنتين . واما قيسارية ، فقد حاصرها معاوية بن ابي سفيان سبع سنوات ، حتى تمكن اخيراً من تحطيم مقاومتها والتغلب عليها . ولم تثبت قيسارية كل هذه المدة الطويلة ، الا لمناعة حصونها ولاتصالها البحري ببلاد الروم . . وكان المسلمون بعد اليرموك قد اندفعت جموعهم تقتفي آثار الروم ، حتى بلغت جبال طورس ، وهي الحد الطبيعي الحصين بين الشام والاناضول .

وغمرت هذه الجموع الجزيرة واعالي الفرات ، ثم هبطت العراق . وكان كل ذلك سبباً في تسهيل الاعمال الحربية في تلك الانحاء . وقد اندفع احد القواد المغامرين ، وهو عياض بن غنم ، الى ارمينيا ، فبلغ بحيرة وان ، ثم عاد الى الرقة على الفرات .

وظل العرب متصلين بالروم ، وظلت الحروب متصلة بين الامتين دهراً طويلاً . وكان الروم قد ودعوا الشام وداعاً لا رجعة بعده ، واصبحت الشام كلها للعرب ، واتخذتها جيوشهم قاعدةً جديدة لحركاتها ، وقد تمكنت من التوسع الكبير شرقاً وشمالاً .

نعم انها لم تتقدم كثيراً في اتجاه الشمال ، نحو الاناضول ، ولكن الحدود بين ديار العرب وديار الروم ، ظلت مسرحاً لحروب وغزوات كثيرة ، غزت التاريخ والادب العربي ، ثمانية قرون طوال ، حتى كان عهد الدولة التركية العثمانية ، وجاءت

جيوشها فاجتازت الاناضول ، من الشرق لا من الجنوب ، وقضت على الدولة البيزنطية ، ثم زحفت جنوباً ، فازالت الحدود التي كانت على الدوام مثاراً للنزاع بين الروم والمسلمين . منذ أسس العرب ملكهم في الشام وغيرها، الى ان ورث الاتراك عنهم هذا الملك .

وقد امتازت الشام عن باقي الديار العربية والاسلامية ، وكانت بحق مركز القوة العربية ، منذ امتدت الى اسبانيا والصين ، وفيها قامت اول امبراطورية عربية . . ويبدو أن صلة العرب القديمة بالشام ، وقرب ديارهم الاولى منها ، جعلت هجرتهم إليها بعد الفتح سريعة وكثيرة ، فلم يمض زمن طويل حتى أصبحت الشام منزل أكثر القبائل العربية ، واليمنية خاصة .

لم يكن للثقافة الاغريقية اثر كبير في سكان الشام ، فقد حافظ هؤلاء على لغتهم الآرامية ، وشعورهم السامي ، وخالفوا حكام الروم حتى في المذهب الديني ، فكانوا القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح عليه السلام ، بخلاف الرأي الذي اخذت به الكنيسة الرومية الرسمية . وقد ظهر حب سكان الشام للفاتحين العرب ، وإعراضهم عن الذين كانوا بالامس اولياء امورهم من الروم ، اوضح مظهر في مدينة شيزر الواقعة بين حماة واللاذقية ، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في شعره . فان هؤلاء استقبلوا العرب في ظاهر مدينتهم بالاغاني والأهازيج .

ولا ينكر احد ، ما للحجاز من المقام العظيم ، لانه مبعث الاسلام ، غير ان الشام قد اصبحت الان ـ بعد استيلاء العرب عليها ـ العضو الاول في الامبراطورية العربية خارج الجزيرة ، وقد آلت اليها من الحجاز زعامة الديار الاسلامية في فترة قصيرة ، وفيها رسخت القوى العربية ، حتى استتب للعرب نشر سلطانهم على جميع الديار ، من السند وفرغانة شرقاً ، الى الاندلس والاطلس غرباً ، وقد بلغ اتساع هذه الديار معظمه في عهد الشام .

وانفردت الشام بخصائص لم تكن سواها . فمن ذلك قُربهُا من الجزيرة واتصالها بالحجاز اتصالاً طبيعياً سهلاً . ومنها توسطها بين الاقطار الاسلامية : مصر وافريقيا من جهة ، والعراق وفارس وخراسان وما اليها من جهة اخرى . ومنها جوارها للروم ، وهي الدولة الوحيدة التي ظل الصراع بينها وبين العرب دهراً طويلاً .

وقد أعادت الشام فتح البلاد العربية بكاملها ، بعد ان استتب الامر لبني امية فيها . وكان ابو عبيدة قبل ذلك هو اول من وليها من عمال العرب ، وقد توفي بعد الفتح بقليل في عمواس بالطاعون ، الذي انتشر في فلسطين في ذلك الزمن . . وخلف ابا عبيدة في الولاية ، يزيد بن ابي سفيان ، وهو لم يلبث ان توفي كذلك بالوباء المذكور ، فآل الحكم بعده لاخيه معاوية ، وهو الذي جعل من الشام مركز قوة عربية ، برية وبحرية .

ولما نشب الخلاف على الخلافة في المدينة ، واثيرت العصبية بين بني هاشم وبني امية ، اتخذ معاوية من الشام مركزاً لحزب بني امية . . ومن الشام فتح بنو امية مصر ، وفتحوا الحجاز ، وفتحوا العراق ، ثم وسعوا رقعة الدولة شرقاً وغرباً ، وفتحوا افريقيا وخراسان ، وحافظوا على حدودهم الشمالية اتم محافظة ، بينما كان الروم يتطلعون بلهفة الى املاكهم الضائعة ، ويتحينون كل فرصة لاستردادها . . ولكن عبقرية معاوية ، قضت على كل آمالهم .

وان معاوية ، هو الذي حشد في الشام اكثر القبائل العربية واقواها ، واتخذ من السكان الاصليين اعواناً وعمالاً لبناء الاسطول العربي الاول ، الذي قضى معاوية به على تفوق الروم البحري ، وفتح قبرس ، وحاصر القسطنطينية . .

ومن خصائص الشام أيضاً ان العرب فيها حافظوا على عروبتهم وطبائعهم البدوية النقية ، فلم يختلطوا بالاعاجم ، ولم تطغ عليهم مدنية الاغريق . . ولكنهم لما انقلب الامر ، وانتقل مركز القوة الى العراق ، ضعفت العصبية العربية فيهم ، وفشت الشعوبية .

هذه المميزات التي تفردت بها الشام ، تحدونا على ان نواصل حديثنا عنها ، وان نذكر شيئاً عن ادارتها وبعض شؤونها في العهد العربي ، قبل ذكر الفتوح في البلاد الاخرى . . فقد اطلق

الاغريق على البلاد المجاورة لصور اسم (سوريا). ثم عم استعمال هذا الاسم لجميع القطر ، الذي يُكَوِّن مع فلسطين وحدة جغرافية واحدة ، عرفت عند العرب باسم واحد هو (الشام)، وهو مأخوذ من موضع هذا القطر بالنسبة الى الحجاز . فان الواقف في الحجاز ، اذا اتجه نحو مطلع الشمس ، كانت الشام عن شماله ، واليمن عن يمينه .

أما (المقدسي) وهو العالم الجغرافي العربي ، الذي نشأ في القدس ، ووضع في اواخر القرن العاشر للميلاد كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم)، المبني على خبرة واسعة وحسن اطلاع ، بعد رحلات طويلة قام بها في بلاد الاسلام ، فانه يذكر سبباً ثانياً لتسمية هذا القطر بالشام ، وهو سبب طريف يظهر مكانه الشام عند العرب . . فالمقدسي يرى ان جمال الشام هو كنسبة جمال (الشامة) في خد الحسناء ، ولعل اسم (الشام) اشتق من هذا التشبيه ، وأن الغوطة في صحراء الشام لاجمل - على رأي المقدسي - من الشامة في الوجه الصبيح .

ويقسم المقدسي الشام طبيعياً إلى أربعة أقسام ، وهي السهل الساحلي الذي تتخلله الأراضي المزروعة ، ومن مدنه الرملة وجميع مدن الساحل . والقسم الثاني هو القسم الجبلي وفيه الغابات والينابيع ، وتكثر فيه القرى والمزارع ، ومن مدنه بيت جبرين والقدس ونابلس واللجون ومدن البقاع وإنطاكية وغيرها .

ثم غور الاردن ، وتكثر فيه القرى والجداول ، ومن مدنه لعقبة (واسمها القديم ايلة) وتبوك واريحا وبيسان وطبريا وبانياس . اما القسم الرابع فهو المنطقة المجاورة للصحراء ، وهي جبال عارية عالية ، مناخها كمناخ البراري ، ولكن فيها القرى والينابيع والغابات ، ومن مدنها مؤاب وعمان واذرع او أذرعات (درعا) ودمشق وحمص وتدمر وحلب .

ومما يذكره المقدسي عن الغور قوله : كنت مقيماً يوماً في اريحا ، فقال لي الحكيم غسان : أترى هذا الوادي ؟ انه يمتد من هنا الى الحجاز ، ثم الى اليمامة وعُمان ، ثم الى البصرة وبغداد ، الى ان يصل الى الرِّقَّة في غرب الموصل ، وهو دائماً وادي الحرارة والنخيل . . فما ابلغ هذه الصورة العامة لهذا الوادي ، الذي يطوق الشام وبعض العراق والجزيرة .

ويقول المقدسي أن أبرد مكان في الشام هو بعلبك ويقال أن أحدهم سأل البرْد : أين نجدُك فقال : في البلْقاء . فقال السائل : وإذا لم نجدك هناك ؟ فأجاب البرد : حقاً أن موطني في بعلبك . . وقال المقدسي أيضاً في وصف فلسطين : انها انفردت بأنها جمعت من الحاصلات في رقعة صغيرة ، ما لم يوجد مجتمعاً في رقعة أخرى على سطح الأرض ـ وهو في ذلك صادق ، لأن فلسطين قد جمعت المناخ المعتدل والحار والبارد ، كما جمعت السهل والجبل والغور .

ويذكر المقدسي ايضاً : ان في فلسطين سبعة أشياء لا توجد في غيرها وهي حب قريش والتفاح الصيداوي والزبيب العينوني والزبيب الدوري والخوخ الكافوري والتين السبيعي وتين دمشق . .

ويذكر المسعودي ، الذي سبق المقدسي بقليل : ان شجرة النارنج والأترج المدور ، وهو البرتقال ، جيء بها من الهند سنة ٣٠٠هـ اي قبل الف سنة واكثر ، وانها غرست اولاً في عمان ، ثم حملت الى البصرة والى العراق وسوريا . ويقول المسعودي : انها تكثر الآن في جميع مدن الساحل ، وفي شمال سوريا ومصر .

وقبل ان اختم هذه الكلمة عن الشام وموقعها ، أذكر الحدود التي اوردها ابن حوقل ، والاصطخري وقد كتب ذلك في القرن العاشر الميلادي ، قبل المقدسي بقليل ، وهي كما يلي : من المغرب بحر الروم ، وهو البحر المتوسط . ومن الشرق الصحراء ، من العقبة الى الفرات ، ويسير الحد مع الفرات الى حدود الروم . والحد الشمالي بلاد الروم . والجنوبي مصر وصحراء التيه .

وآخر نقطة في جنوب الشام ، هي رفح . وآخر الحدود في الشمال ـ الثغور او القلاع ، ومنها ملطية والحدث ومرعش وأَطَنَةَ وطرسوس . . وفي القرن الرابع عشر ، بعد انتهاء الحروب

الصليبية ، كتب ابو الفداء المؤرخ المشهور عن الحد الشمالي للشام فقال : انه يمتد من (باليس) على الفرات ، الى قلعة النجم والبيرة وقلعة الروم وحصن منصور ومرعش ، ثم الى ارمينيا وطرسوس على البحر .

(الأجناد)

كان أهم ما انصرفت اليه الافكار ، على اثر احتلال الشام ، او في اثنائه ، هو كيف يجب ان تكون علاقة العرب بسكان البلاد الاصليين ، فارتأت جماعة من أولي الكلمة من العرب ، ان يفرضوا عليهم الجزية ، ويتركوهم في أعمالهم وزراعتهم . ورأت جماعة اخرى ان يقتسموهم . وكتب ابو عبيدة بذلك الى عمر ، فأجابه ، أن يقر اهل البلاد في ارضهم ، على ان يؤدوا الجزية للمسلمين . ومن كلامه لابي عبيدة في هذا الشأن ، والاشارة هنا الى اهل البلاد : أتركهم عماراً للارض ، فهم أعلم بها وأقوى عليها ، وكف عنهم السبي ، وامنع المسلمين عن ظلمهم ، والاضرار بهم ، وأكل اموالهم . .

وكان السبي ، هو ما ألفه الناس في حروب ذلك الزمان ، فكان للغالب الحق المطلق في سبي النساء والاولاد ، وقتل الرجال ، ومصادرة الاموال . فوضع عمر شرعة جديدة بالكف عن السبي . وقد جعل الجزية أقل من الضرائب التي اعتاد اهل

البلاد دفعها للروم . واذا اضفنا الى ذلك تسامح العرب الديني ، بالمقابلة مع اضطهاد الروم للنساطرة واليعاقبة ، ادركنا سر ترحيب الشام ومصر بالعرب الفاتحين . ولعل قدوم عمر الى معسكر المسلمين في الجابية ، بعد معركة اليرموك ، انما كان لهذه الغاية ، ولوضع اسس السياسة الجديدة التي يجب ان يتخذها العرب في البلاد التي يستولون عليها ، واخراج الاجانب منها ، او ابقائهم على ما كانوا عليه . .

وجرياً على هذه السياسة ، اخرج عمر غير المسلمين من الجزيرة ، فهاجر يهود خيبر الى اريحا ، ورحل نصارى نجران الى الشام والعراق . وقد حظر عمر على العرب العمل في الارض خارج الجزيرة ، وامر باتخاذ معسكرات عربية صبرفة في مراكز مختلفة في البلاد التي يفتحونها ، تكون بعيدة عن مدن الاقاليم ما امكن ، واصبحت هذه المعسكرات مع الايام ، هي مراكز الحكم والادارة وسميت اجناداً ، وكان اشهرها : الجابية وحمص وعمواس وطبريا واللد ، وقد نقل معسكر اللد فيما بعد الى الرملة . وكان في مصر معسكر الفسطاط . وفي العراق الكوفة والبصرة . وفي افريقيا القيروان .

وكانت الشام في عهد الروم ، مقسومةً الى خمسة اقسام ادارية : هي : (١) فلسطين الاولى ، وحاضرتها قيسارية ، على الساحل بين حيفا ويافا ، وتشمل جبل القدس وجبل نابلس

وما اليهما الى غزة . (٢) فلسطين الثانية ، وحاضرتها بيسان ، وتشمل الجليل . (٣) فلسطين الثالثة ، وتشمل شرق الأردن والبتراء . (٤) فينيقية ، وحاضرتها صور ، وتشمل لبنان . (٥) سوريا ، الى الشمال من فينيقية ، وحاضرتها انطاكية . . وحافظ العرب على هذا التقسيم ، مع ادخال بعض التعديل عليه ، مما يوافق طبيعة البلاد ، فاتخذوا الغور مثلاً ، وهو الممتد من بحيرة لوط الى البقاع ، فاصلاً بين الاقسام الشرقية والغربية ، وجعلوا مرج ابن عامر والبقاع واول جبال طورس حدوداً بين الاقسام من الجنوب الى الشمال ، وجعلوا الشام كلها خمسة أجناد وهي .

الاول : جند فلسطين ، وهو القسم الواقع بين الصحراء جنوباً ومرج ابن عامر شمالاً ، وبين البحر ونهر الاردن . وكانت اللد حاضرته . ولما اختط الخليفة سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة ، بالقرب من اللد والى الجنوب منها ، نقل مركز الجند اليها . وقد ذكر الاصطخري وابن حوقل جند فلسطين فيما كتباه ، انه يمتد من اللجون شمالاً الى رفح جنوباً ، وأن طوله مسير يومين على الخيال ، او اكثر قليلاً ، وعرضه من يافا الى اريحا ، قدر طوله تقريباً ، وقد جعلا اقليم الشراة الواقع بين العقبة وجبال مؤاب ملحقاً به .

ويقول اليعقوبي : ان سكان فلسطين على عهده (في القرن

التاسع) اكثرهم من قبائل لخم وجذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة . . وعلى عهد ابن حوقل كانت الرملة عاصمة البلاد . . اما ياقوت (في القرن الثالث عشر) فيذكر أن عاصمة فلسطين هي القدس . . وقد اشار الله تعالى الى فلسطين في سورة الانبياء ، اذ قال عن ابراهيم : (يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ، وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الاخسرين ، ونجيناه ولوطاً الى الارض الت باركنا فيها للعالمين) . . ويقول ياقوت : ان فلسطين هو ابن سام ابن ارام بن سام بن نوح . . ويقول الاصطخري عن التيه ، وكان تابعاً لفلسطين ، انه ارض عرضها اربعون فرسخاً ، وطولها كذلك ، تملأها الرمال ، الا ان بها عيوناً ونخيلاً في بعض الاماكن ، وتمتد من الجفار الى سيناء . . ويعرِّف الادريسي التيه ، بانه يمتد بين البحر الاحمر والبحر الشامي . . ويذكر الدمشقي (في القرن الرابع عشر) في جملة ما ذكره من مدن التيه ، مدينة السبعة ، وهي بئر سبع الحالية . . وقال الاصطخري عن الجفار ، وهو النقب اليوم ، انه واقع بين بحيرة التنين في مصر وحدود فلسطين ، وهو بلاد الرمال ، الملونة بالوان زاهية ، وفيها القرى والنخيل ، وحدودها البحر المتوسط وصحراء التيه وجزء من مصر يمتد الى السويس ، وكان فيها على عهد الفراعنة مدن عامرة .

الثاني : جند الاردن ، ويشمل الغور والبحر الميت وشمال فلسطين ، وحاضرته طبريا . قال ابن الفقيه (في القـرن

العاشر) : إن من اعمال الاردن طبريا ونابلس وبيسان وجرش وعكا وصور . . وقال ابن حوقل عن الغور : انه يمتد الى العقبة . وقال الادريسي : ان الاردن يجري في الغور ، وتصب فيه الجداول من جهات طبريا وبيسان ونابلس وغيرها . وكان في جنوب بحيرة لوط ، مدينة يقال لها مدينة الشمس (ولعلها صُوغَر) ، وقد سميت البحيرة باسمها في كتاب الادريسي .

الثالث : جند دمشق ، وفيه قرى الغوطة ، وجميع الاقاليم التي تقع شرقي الاردن ، ومنها البلقاء ، ويضيف ابن الفقيه الى هذا الجند اقاليم جبيل وبيروت وصيدا وطرابلس والجولان وغيرها ، ويقول انها كانت في عهده (في القرن العاشر) من جند دمشق ، وقد جعل مدينة صور حداً بين جند دمشق وجند الاردن . . وفي عهد ياقوت (في اواخر القرن التاسع) كان في الغوطة قبائل من اصل غساني ، وكان الغساسنة قد سكنوا الغوطة وحكموها قبل الاسلام . والغوطة ، كما يقول ياقوت ، احدى جنات الدنيا الاربع . . وكانت بانياس حاضرة الجولان ، وهو احد اقاليم جند دمشق ، وبُصْرى حاضرة حوران ، وعمان حاضرة البلقاء ، واذرع حاضرة الشراة وهي جبال مؤاب ، وكلها من اقاليم جند دمشق .

الرابع : جند حمص ، وحاضرته حمص ، ومن مدنه سليمة وتدمر وكفرتاب واللاذقية وجبالة . وقد قسم هذا الجند فيما بعد

الى جندين وهما قنسرين (الى الجنوب من حلب) والعواصم (الى الشمال من حلب)، وصارت الاجناد بذلك خمسة . . وقد تم هذا التقسيم في عهد المنصور او الرشيد ، بعد ان اتسعت حدود الشام الشمالية بالفتوح ، التي جرت في عهد الخلفاء الاولين من بني العباس . وميزت (العواصم) عن بلاد الحدود التي عرفت فيها بعد باسم (الثغور). وقد كان لهذين الاقليمين (العواصم والثغور) اهميتهما واثرهما في تاريخ العرب والاسلام ، مما سنفرد له حديثاً خاصاً ان شاء الله .

وبقي هذا التقسيم في القطر الشامي حتى الحروب الصليبية ، فغير الصليبيون وبدلوا ، وأنشأوا في الاقاليم التي احتلوها ممالك ، اختلفت اسماؤها وحدودها . فلما انتهى امرهم ، بفضل ما قام به صلاح الدين الايوبي ، من اعمال البطولة التي لن ينساها احد . تجزأت الشام بعده الى تسع ممالك ، كانت حدودها في تغيير وتبديل ، الى ان كان عهد الاتراك العثمانيين .

وكانت الاقسام الادارية في اواخر العهد العثماني . قريبة الشبه بالأجناد العربية القديمة ، فكانت ولاية حلب في الشمال . والى الجنوب منها ولاية الشام شرقاً ، وولاية بيروت غرباً . وكانت القدس متصرفيةً قائمة برأسها ، وتشبه تماماً جند فلسطين الذي سبق ذكره . وكانت متصرفية قائمة برأسها ، وتشبه تماماً جند فلسطين الذي سبق ذكره . وكانت متصرفية عكا (وهي من

ولاية بيروت) تشبه جند الاردن ، وفيها نابلس وطبريا ، وولاية الشام تشبه جند دمشق .

ولقد وطد العرب اقدامهم في الشام بعد الاستيلاء عليها ، بعملين كبيرين : هما فتح البلاد المجاورة لها في الجنوب والشرق ، واقامة الحصون والحاميات على الحدين الاخرين ، وهما الشمالي من جهة الاناضول ، والغربي على ساحل البحر . . وأختم حديثي هذا ، بالوصف الشائق الذي اثبته المقدسي للحصون الساحلية ، وكانت تعرف (بالرِّباطات) تمييزاً لها عن حصون الشمال التي اطلقوا عليها اسم (الثغور) قال في وصف هذه الرِّباطات : إنها تقع على سواحل فلسطين ، وفيها مراكز المراقبة حيث كانت تـجمع العساكر ، والواحد منها رباط . . وتاتي سفن الروم الى الموافي على الساحل ، وعليها اسرى المسلمين الذين كان يغنمهم الروم في حروب الثغور . . ويُعَرض هؤلاء الاسرى في (المراكز) للفداء ، كل ثلاثة اسرى بمئة دينار . . فيتسابق المسلمون في تقديم الاموال ، ليستنقذوا بها الاسرى . . وفي كل رباط جماعة من المسلمين يعرفون لغة الروم ، فعندما تظهر سفينة رومية امام رباط ، تقرع اجراسها ، فان كان الوقت ليلاً تضاء ساريتها ، وان كان نهاراً توقد عليها نار لها دخان ، وقد اقيمت من هذه المراكز الى الرملة (العاصمة) مآذن عالية ، يكون في كل منها نفر من الرجال . فاذا جاءت سفينة الروم ، اضيئت المآذن التي يشاهدونها منها ، فتضاء المآذن

التي تشاهد ضوء هذه ،ـ وهكذا حتى يصل الخبر الى كل مكان بسرعة ، لا تتجاوز الساعة ، وتضرب الطبول حالاً في العاصمة ، فيهرع الناس الى الرباطات ، ومعهم اسلحتهم . . ويذكر المقدسي ، من هذه المراكز التي كان يجري فيها التفادي ، ويقوم الجند على حراستها ، المدن الآتية : غزة وميماس وعسقلان واشدود ويُبْنة ويافا وأرسوف .

(فتح العراق)

تقع في شمال جزيرة العرب صحراء السماوة ، وتمتد شمالاً بين منطقتين مخصبتين ـ هما الشام والعراق ، وتتصل بالبحر الأبيض المتوسط ـ وكانت صلة العرب بالأمم التي عمرت ما بين نهري دجلة والفرات ، قديمةً متينةً ، كالصلة التي كانت لهم بامم الشام ، وفي التاريخ القديم ، هاجر بعض سكان الجزيرة الى ما بين النهرين ، كما هاجر غيرهم الى مصر والشام .

وقد كانت اول مدنية ازدهرت في تلك البقعة الخصبة ، بين أعظم نهرين في غرب آسيا ، سامية الأصل ، وأول مشترع في التاريخ ، وهو حمورابي ، من اصل عربي قديم .

وكانت القبائل العربية قبل الاسلام بقليل ، مرتبطةً بغيرها من الأمم المجاورة . فمنها ما كانت صلته بالروم ، وتجارته مع الشام ، ومن هؤلاء الأنباط والغساسنة وعرب الحجاز

والأردن ، ومنها ما كانت داره العراق ، وصلته بالأكاسرة ، وتجارته مع فارس ، ومن هؤلاء امراء الحيرة ، اللخميون ، الذين مدحهم الحارث بن حلزة وطرفة والنابغة ، وفاخرهم عمرو بن كلثوم ، وقد عرفوا بالمناذرة .

ومن القبائل المتاخمة للحيرة ، والتي كان لها اتصال بآل ساسان ، قبائل بكر بن وائل الكبيرة ، ثم بنو أسد ، وقد قتل هؤلاء عاملهم الكندي بتحريض المناذرة ، وهب ابن القتيل ، وهو أمرؤ القيس المشهور ، يستنجد الروم على اعدائه الموالين لأعداء الروم . وكان اشتراك العرب في النزاع بين الفرس والروم ، من أبرز الاعمال السياسية التي قام بها العرب قبل الاسلام .

وقد دخل المنذر ملك الحيرة القدس سنة ٦١٤ يوم احتلها الفرس . ودروز الجبل يرجعون في اصولهم الى تنوخ ـ من امراء الحيرة اللخميين ، وكانوا قد اختلفوا مع الفرس بعد واقعة ذي قار ، فألغى الفرس امتيازات الحيرة ، ونصبوا على الاقليم التابع لهم ، اميراً تحت اشرافهم المباشر ، هو إياس بن قبيصة .

وبقي اشراف الفرس على أطراف الجزيرة ، حتى جاءت الجيوش العربية ، قد كت عرش الأكاسرة ، وازالت ملكهم من الوجود . وهذا النفور الذي نشأ بين الفرس ، وقبائل العرب المتاخمة لملكهم ، بعد طردهم ملوك الحيرة ، كان من اول العوامل التي حملت العرب على غزو فارس .

كان خالد بن الوليد ، في حروب الرِّدَّة ، قد بلغ شرقي نجد ، فاقترح عليه المثنى بن حارثة ، امير شيبان ـ من قبائل بكر بن وائل ، ان يشترك معه في غزو اطراف العراق ، كما كان يفعل غزاة العرب . واستشار خالد ابا بكر ، فأقره على ذلك ، واشترك مع المثقنى في غزوة ، كانت أول غزوة اسلامية كبيرة خارج الجزيرة ، وذلك في اوائل سنة ٦٣٤ .

وقد نجح خالد والمثنى في غارتهما المفاجئة على الحيرة ، وهزما الحامية الفارسية ، وحاصرا المدينة مدةً ، الى ان قبل حاكمها العربي ان يؤدي جزيةً مقدارها ستون الف درهم ، اي نحو ثلاثة آلاف جنيه ، وهو مبلغ قليل ، ولكن العرب استكثروه وقتئذ ولم يطلبوا عليه مزيداً .

في هذه الاثناء ، كان رجال المدينة يفكرون في غزو الشام . فلما استقر رأي ابي بكر على ذلك ، انتدب له اقدر قائد مسلم ، هو خالد بن الوليد ، وكتب اليه يامره بالشخوص الى الشام ، ليتولى قيادة البعوث الاسلامية فيها ، وقد قال له في كتابه : « أما بعد ، فاذا جاءك كتابي هذا ، فدع العراق ، وخلِّفْ فيه اهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، وامض متخففاً في اهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك الى اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتي الشام ، فتلقى

ابا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، فاذا التقيتم ، فأنت امير الجماعة والسلام عليك ».

وهكذا اضطر خالد ابن ان يترك حليفه المثنى منفرداً . فجمع الفرس جيشاً كبيراً ، وانتظروا المثنى حتى اذا قطع الفرات ، بعد أن اخضع اكثر البلاد غربي النهر ، قابلوه في معركة عرفت بموقعة الجسر ، لانها كانت قرب معبر على الفرات ، وفيها غلب رجال المثنى وقتل اكثرهم وفر الباقون .

فاضطر المثنى الى طلب نجدات من الخليفة عمر ، وكان فتح الشام قد قارب النهاية ، فسارت فصائل من الجيوش العربية بقيادة عياض بن غنم الى جزيرة ابن عمر وشمال العراق ، وأخضعت القبائل العربية في اعالي الفرات ، بينما أرسل عمر نجدات جديدةً الى العراق ، كان أكبرها بقيادة سعد بن ابي وقاص احد ابطال بدر . وعندما وصل سعد ، كان المثنى قد توفي متاثراً بجراحه .

كان الفرس ينظرون الى غزوات المثنى ، نظرهم الى غزوات البدو الاعتيادية الموقتة ، فلم تثر في نفوسهم قلقاً ، وما وجهوا لكبحها عنايةً ، ولكنهم اذ علموا بانتصار العرب الحاسم في الشام ، ورأوا قوات المسلمين تواجههم على جميع حدودهم الغربية ، من خليج العجم الى اعالي الفرات ، فطنوا لفداحة الامر . وكان يشغلهم اختلاف على الحكم بعد موت كسرى ،

فولوا ابنته بوران ، وهذه انتدبت القائد رستم ، وكان في خراسان ، واشتهر بقوته الحربية ومقدرته على التنظيم وعهدت اليه في أن يتولى الادارة العامة بالنيابة عنها . فجمع رستم جيشاً قوياً ، وأخذ يتحين الفرص ، ليضرب العرب في معركة قاضية .

ولكن سعد ابن ابي وقاص ، لم يقدم على مقابلة الفرس في معركة حاصمة ، لعلمه بتفوقهم في العدد والعُدَد ، وقربهم من ديارهم ، وانما لجأ الى الخطة التي سار عليها خالد قبل اليرموك . فأخذ يغزو ويرتد الى الصحراء ، فيصيب الفرس في رجالهم وفي اموالهم ، ويفسد عليهم خططهم .

ولما يئس القائد رستم من اجتياز العرب للفرات ، عبر هو بقوته النهر ، الى اطراف الاراضي الزراعية عند حافة الصحراء ، وعسكر مقابل معسكر العرب في اوائل صيف سنة ٦٣٧ . ولا شك ان رستم المحنك كان يدرك انه لا يستطيع ان ينال من العرب ، وهم على مقربة من معقلهم الصحراء ، نصراً حاسماً ، وكأنه أراد ان يخدعهم . فأرسل الى سعد يطلب المفاوضة ، فأرسل سعد اليه المغيرة بن ابي شعبة ، فقال له رستم من كلام : قد علمت انه لم يحملكم على ما انتم فيه ، الا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تستفيدون به ونصرفكم ببعض ما تحبونه .

فقال المغيرة : نحن ندعوك الى عبادة الله وحده ، فان فعلت ، والا فالسيف بيننا وبينكم . . فغضب رستم وأقسم ان يبيد العرب قبل ضحى غده . . وكانت معركة القادسية ، الفاصلة في فتح العراق ، وقد دامت ثلاثة ايام بي بلياليها .

ومن جميل ما يروى اثناء هذه المعركة الحامية ، ان الفرس استعملوا في اولها الفيلة ، فوجفت خيوَل العرب منها خيفة ، وكادت تلوي راجعةً ، فلما كان من فرسان العرب ، وفي طليعتهم عمرو بن معدي كرب ، الا أن ترجلوا وضربوا بسيوفهم خراطيم الفيلة ، فأدبرت وداست باقدامها رجال الفرس .

ثم عمد فرسان اسد الى حيلةٍ اخرى ، وهي انهم ركبوا جمالاً مجللةً ، وتقدموا بها نحو خيل الفرس ، فازورّت ، وتبعتها خيل العرب ، فانكشف امامها مشاة الفرس . .

ومن طرائف ما يحكى عن معركة القادسية ، أن أبا محجن الثقفي ، حبسه سعد بن ابي وقاص في قصرة لشربه الخمر . فلما اشتد القتال ، طلب من زوجه سعد أن تسمح له بفرس سعد (البلقاء) ليركبها الى حيث تدور رحى الحرب ، ووعدها ان يعود الى قيده ، بعد القتال ، فأذنت له ، وخاض ابو محجن المعركة ، وابلى فيها بلاء حسناً لفت اليه الأبصار .

وكان سعد يراقب سير المعركة فقال : لولا أن ابا محجن في

الحبس ، ولولا ان فرسي في مربطها ، لقلت ما يصنع مثل هذا غير فارس مثل ابي محجن ، وفرس مثل البلقاء !. . ولما عاد ابو محجن ، وقابل سعداً قال له : والله لا حبستك أبداً ! فقال له : والله لا شربتها ابداً . .

وفي آخر ليلة من المعركة ، خاض العرب مخاضةً على الفرات ، وجاءوا الفرس من خلفهم ، فارتبكت صفوفهم ، وعمت فيها الفوضى ، وكثر القتل ، واختلط الناس ، واستطاع احد فرسان العرب (هلال بن علقمة) ان يصل الى سرير رستم ، ففرَّ رستم وقد كسر ظهره ، وألقى بنفسه في النهر . ولحق هلال به ، فأمسك برجله وقتله . ثم صعد سريره وصاح : قتلت رستم ورب الكعبة !. وبذلك تم نصر الله للمسلمين .

ويقال إن من امراء الفرس الهاربين بعد نصر القادسية ، كان الهرمزان الذي دبر مقتل الخليفة عمر . وهكذا فان هذا الفارسي ، بعد ان شهد هزيمة قومه في الميدان ، اراد ان يتخذ من الغدر سلاحاً ، لينتقم لنفسه ولقومه ، ولكن هيهات ان ينصر الله الغادرين المغتالين .

فلم تقم للفرس في العراق بعد ذلك قائمة ، وأصبح العراق كله بعد هذه المعركة التي وقعت على حدود الصحراء (قرب النجف الاشرف الان) تحت تصرف جيش سعد بن ابي

وقاص ، وقد تتبع فلول الفرس حتى نهاية سهل دجلة ، عند أول الجبال في شرق العراق . وهنا ، في جلولاء قرب خانقين ، حاول الفرس ان يثبتوا ، وكان ذلك في أواخر سنة ٦٣٧ ، ولكن ثباتهم لم يدم طويلاً ، وهزموا نهائياً .

وبعد ذلك تقدمت القوة التي قادها من شمال سوريا عياض بن غنم ، فافتتحت تكريت والموصل . ولم يقف العرب عند حدود الجبال الفاصلة بين العراق وبلاد فارس ، كما وقفوا عند جبال طورس بين الشام والاناضول ، بل جدوا في اللحاق بالعدو المنهزم ، الى ان سحقوا مقاومته في معارك اخرى ضمنت لهم فتح بلاد فارس وخراسان ، والقضاء على مُلْكِ الاكاسرة القضاء المبرم ، بعكس الامبراطورية البزنطية ، التي ظلت تكافح المسلمين في الاناضول ، اكثر من ثمانية قرون .

كانت المدائن عاصمة الفرس قرب موقع بغداد ، فلما هزموا هزيمتهم الشنعاء في القادسية ، تقهقروا مرتدين اعن العاصمة ، بسرعة لم يستطيعوا معها ان يحملوا اموالهم ، فوقعت جميع قصور المدائن بما فيها من نفائس وكنوز ، غنيمةً باردة في ايدي المسلمين ، واصبح ايوان كسرى المشهور ، تحت تصرف سعد .

لقد رحب سكان العراق ، واكثرهم من الآراميين الساميين ، بالعرب ـ ترحيب اهل الشام بهم . وكانت هجرة العرب الى هذا القطر الغني الخصب سريعةً ، كما كانت هجرتهم

الى الشام بعد اليرموك . وفي وقت قليل أصبح العراق قطراً عربياً قوياً ، ومركز الفتوح في الشرق ، فيه كان معسكرهم الكبير (في الكوفة والبصرة) ومنه كانوا يزحفون .

وفي أقل من سبع سنوات ، اصبح العرب سادة (الهلال الخصيب)؛ من جبال بلاد فارس الى البحر الابيض المتوسط . ومن هنا أجهزوا على الفرس بفتوحهم ، التي امتدت الى حدود الصين ، وأضعفوا بيزنطية بضربات قاصمة انزلولها بقوتها المادية وقوتها المعنوية ، وسلخوا عنها جميع املاكها في افريقيا ، كما انتزعوا منها سيادة البحر المتوسط . ثم حصنوا الحدود الشمالية للشام ، واتخذوا فيها ثغوراً ، يتحصنون بها في الشتاء ، ويغزون منها في الصيف .

رحم الله المثنى ، ورحم الله سعداً ، فقد ضما بلاد الرافدين الى حظيرة العرب والاسلام . وكان لهذا القطر شأنه الخطير في حضارة العرب على عهد العباسيين ، ولا يزال من مفاخر ديار العرب والاسلام .

(فتح مصر)

تمت الفتوح العربية في اقطار الشرق الادنى في مرحلتين ، كانت الاولى منها بين اوائل سنة ٦٣٤ وصيف سنة ٦٣٧ ميلادية ، واتخذت فيها اعمال العرب الحربية شكل الغزوات ،

فكانوا يغيرون على القرى والقلاع المجاورة للصحراء ، ثم يرتدون كلما قوبلوا بقوات كبيرة ، الى معقلهم في الصحراء . وفي هذه الفترة كانت المناوشات على حدود الشام ، واحتلال الحيرة وشرق الاردن واطراف الغوطة .

وانتهت هذه الفترة بالانتصارين الباهرين اللذين فتحا امام الجيوش العربية الشام والعراق ، الاول في اليرموك في صيف سنة ٦٣٦ ، والآخر في القادسية في صيف سنة ٦٣٧ . وقد قويت بعدها شوكة العرب ، وسحقت امامهم كل مقاومة قام بها الفرس والروم ، فساروا في فتوحهم على منهج جديد ، هو الفتح المنظم ، لا الغزو المتقطع ، وكان فتح مصر في هذا الدور من التنظيم ، وكانت بواعثه كثيرة ، نُجْمِل اهمها في هذا الحديث .

كان البحر الاحمر طريقاً للتجارة الواسعة بين الشرق والغرب ، وهي التي ادت الى نشوء الدول العربية القديمة في اليمن وحضرموت ، ووطدت مركز مكة وقريش . وقد كانت السيادة في هذا البحر لملوك سبأ وحمير . فانتزعها منهم الروم ، وأنشأوا في القُلْزُم (اي السويس) قاعدة بحرية عظيمة ، اخذت تهدد تجارة العرب ، واصبحت مصدر خطر على حكومة الاسلام الاولى في الحجاز . فلو عجز العرب عن فتح مصر ، لاستطاع الروم ان يجردوا حملة قوية على سواحل البحر الاحمر العربية .

وقد ادرك العرب اهمية السيادة البحرية بعد انتصارهم في الشام ، فان قيسارية مثلاً ، وكانت قاعدة الروم البحرية وحاضرتهم في جنوب الشام ، قاومت الفتح العربي سبع سنوات ، لاتصالها البحري ببلاد الروم ، وكان الروم يعتمدون على قيسارية والاسكندرية ، لغزو الشام من مصر ، حالما تتهيأ لهم الاسباب لذلك .

فلو عجز العرب عن فتح هاتين المدينتين ، وعجزوا عن انتزاع السيادة البحرية في البحر المتوسط ، لما استتبت لهم الامور طويلاً في الشرق الادنى . ومع ان خسارة الشام كانت ضربة اليمة للروم ، الا ان دولتهم ظلت قويةً في الاناضول وفي البحر وفي شمال افريقيا ، فكان لا بد للعرب من القضاء عليها ، او اصابتها بضربات اخرى ، قبل ان يطمئنوا الى ما احرزوه من الانتصار في الشام .

وقد تم لهم ذلك فعلاً ، وانزلوا الضربات الشديدة بالامبراطورية الرومية ، وانتزعوا منها قواعدها البحرية في السويس والاسكندرية وقيسارية وقبرس ، وسلخوا عنها مصر وشمال افريقيا ، ولكنهم فشلوا في انزال الضربة القاضية بها ، اذ وقفت في وجههم جبال طورس برا ، واستعصت عليهم القسطنطينية بحراً .

وهناك اسباب اخرى ، حملت العرب على غزو مصر . منها

طمعهم في ثروتها وخيراتها ، وتهاونهم بامرها ، لان سكانها ، والسواد الاعظم منهم قبط ، كانوا كسكان الشام ، كارهين للروم ، راغبين في التحرر من رقهم ، وكان فتح مصر اسهل على العرب من فتح الشام ، اذا استثنينا الاسكندرية ، التي دافع عنها الروم ، كما دافعوا عن قيسارية ، لاهميتها البحرية ، ولان سكانها ، مثل سكان قيسارية ، كان معظمهم من الروم ، لا من سكان البلاط الأصليين .

والمتواتر في الاسفار التاريخية العربية ، أن عمرو بن العاص ، هو الذي اشار على الخليفة عمر بن الخطاب بفتح مصر ، ولعل الذي حمله على ذلك ، انه عرف مصر ، واتصل بها في الجاهلية ، وكان مغامراً ، محباً للسيادة ، مولعاً بالامارة ، ولا سيما في مصر .

وقد فتحها اولاً لعمر بن الخطاب ، ثم فتحها لمعاوية بن ابي سفيان . وكان سلوكه في مصر ، ونزوعه الى الأثرة والاستقلال ، مما حمل الخليفة على التدخل في امور مصر . . وقد اعتزل عمرو هذه الامارة ، عندما عين عثمان بن عفان ، عبد الله بن ابي سرح ، عاملاً للخراج ، مستقلا عن ابن العاص ، اذ عد عمرو ذلك تجاوزاً على سلطته ، وكتب الى الخليفة يقول : ان مثلي مع ابن سرح ، مثل من يمسك بقرني البقرة ، ليحلبها غيره . . وقد تنحى عمرو عن السياسة حيناً ، وسكن في

جنوب فلسطين . فلما ثارت الفتنة الداخلية ، انضم الى معاوية ، على ان يستقل بمصر . وقد ساعد معاوية كثيراً بدهائه ، وأعاد مصر الى سلطانه .

ظهر عمرو بن العاص ، يوم كان زاحفاً الى مصر لفتحها سنة ٦٣٩ في حدودها الشرقية ، ومعه اربعة آلاف جندي ، سار بهم على الطريق الساحلي ، الذي تمتد فيه اليوم سكة حديد القنطرة وغزة ، حيث تكثر المياه ، وقابل اول حامية رومية في (الفرما) قرب القنطرة . فاحتل هذا الموقع ، ثم انثنى عن الطريق الساحلي نحو حدود الصحراء الشرقية ، مؤثراً ذلك على سلوك الاراضي العامرة ، جرياً على اساليب العرب .

كانت مراكز الروم في مصر السفلى ، تقع في الاسكندرية عاصمة القطر في ذلك الحين ، وقاعدتها البحرية ، ومظهر الحضارة الاغريقية في الشرق ، وفي حصن بابليون ، حيث القاهرة الآن ، وكان موقعاً حربياً خطيراً ، وفيه احتشدت قوات الروم التي كانت خارج الاكسندرية ، وعلى رأسها الحاكم العام وامير البلاد ، وهو المعروف عند العرب باسم المقوقس .

ورأى عمرو ان يكون زحفه الى هذا الحصن ، حتى اذا قضى على حاميته ، هان عليه الباقي . فكتب الى الخليفة يعلمه بالامر ويستنجده ، وتابع مسيره ، وهو يقاتل هنا وهناك ، حتى بلغ

عين شمس (هليوبوليس)، قرب مصر الجديدة ، واحتلها ، وكان ذلك في شهر تموز سنة ٦٤٠ .

وفي هذا الوقت وصلت اليه نجدة من الخليفة ، قوامها اربعة آلاف رجل ، بقيادة الزبير بن العوام ، ومعه فرسان مجربون ـ وسار عمرو من عين شمس ، حتى اتى الحصن ، وحاصره مدة طويلة .

ورأى المقوقس ان لا قبل له بمقاومة العرب ، فأظهر رغبته في الصلح ، وطلب المفاوضة ، فعرض عليه العرب ان يختار بين الاسلام والجزية . فتردد طويلاً ، ثم قبل ، على ان يسمحوا له بعرض الامر على الامبراطور هرقل . . ولم يلبث ان شخص الى الاسكندرية ، ومنها الى القسطنطينية .

غير أن هرقل لم يرض برأي المقوقس ، لأنه كتن ، كما يظن ، عازماً على محاربة العرب ، واسترداد الشام منهم . وكان في نيته ، أن يهاجم العرب من الأناضول من جهة الشمال ، ومن البحر من الغرب . ومن مصر من الجنوب ، ورأى في إستسلام المقوقس ، ما يقلب خططه رأساً على عقب ، فرفض شروطه وعزله .

غير ان العرب لم ينتظروا قبول هرقل بشروطهم . وجاء الزبير بن العوام بسلم نصبه على احد جدران الحصن المنيع ، حتى اذا اعتلى الجدار ، كَبَّرَ ـ كبَّرَ معه العرب بصوت كهزيم الرعد .

فذعر الروم وهربوا الى جزيرة الروضة ، وكانت بجوار الحصن ، وظل الاقباط في الحصن ، وكان رئيسهم الديني ، قد امرهم بالاستسلام ، وبتسهيل مهمة العرب ، ففعلوا ، وكانوا عوناً للفاتحين . وقد تم تسليم حصن بابليون في نيسان سنة ٦٤١ .

واصبحت البلاد بذلك ، تحت تصرف العرب ، وقد ساروا فيها شمالاً الى ان بلغوا الاسكندرية وحاصروها .

وكان هرقل قد مات قبل سقوط حصن بابليون ، وكان ابنه صغيراً ، فتسلمت مقاليد الامور بالنيابة عنه ، امه الامبراطورة ، وكان من أمرها ، انها رغبت في وضع حد للحرب في مصر ، فأعادت إليها المقوقس ، وعهدت إليه في مصالحة العرب ، بالشروط التي يرضاها .

وعاد المقوقس الى الاسكندرية في ايلول سنة ٦٤١ ، وهو يرجو ان يصالح العرب ، على ان يقرّه على ولاية مصر تحت اشرافهم ، ويستقل عن القسطنطينية . ورضي عمرو بن العاص ان يعقد معه صلحاً بشروط عادلة ، فيها كل الرعاية والرحمة للاقباط ، بشرط ان يترك الروم الاسكندرية قبل شهر ايلول من سنة ٦٤٢ . ومات المقوقس قبل ان يجني ثمار صلحه .

ويذكره العرب بالخير ، لانه مهد لهم فتح اكبر قاعدة بيزنطية في الشرق بعد القسطنطينية . ولا شك انه لولا مساعدة المقوقس

في هذا السبيل ، لطال حصار الاسكندرية . ومن الدلائل على ان الروم كانوا يحرصون على ابقاء هذه المدينة قاعدة لهم . لاستعمالها ضد العرب في المستقبل ، أنهم حاولوا استردادها بعد ذلك بثلاث سنوات .

وكان معظم سكانها من الروم لا من الاقباط ، فليس بعجيب ان يكونوا شديدي التعلق ببزنطية ، وكانت الاسكندرية واحة افريقية في ارض مصرية . ولما رأى هؤلاء السكان اسطولاً رومياً يدنو من ساحلهم ، ثاروا على الحامية العربية الصغيرة في المدينة ، وسهلوا للروم الاستيلاء عليها . الا انهم لم يمكثوا فيها طويلاً ، واعاد عمرو فتحها من جديد ، قبل ان تمضي سنة على نزول الروم فيها .

وجرياً على عادة العرب في الشام والعراق ، نقلوا عاصمة القطر ، من الاسكندرية لصبغتها الاعجمية ، الى مقر معسكرهم الذي اتخذوه قرب حصن بابليون ، حيث اختط عمرو مدينته التي عرفت باسم الفسطاط اي السرادق او الخمية الكبيرة ، وبنى فيها جامعة المعروف بجامع عمرو . . وملك مصر يصلي فيه اخر جمعة من رمضان في كل سنة ، وهو قريب من مقياس الروضة .

وقد كانت اكثر القبائل التي اشتركت في فتح مصر ، من جنوب بلاد العرب ، كما جرى في الشام . وقد اتخذ العرب من

مصر قاعدة جديدة ، وجهوا منها زحوفهم التالية ، فاحتلوا شمال افريقيا ، وبنوا اسطولاً ، استعملوه لحماية سواحل مصر والشام ، ثم لانتزاع قبرس وارواد من الروم ، والاغارة على كريت والجزر الاخرى ، حتى تمت لهم سيادة البحر الابيض المتوسط .

واني بمناسبة فتح مصر اود ان اشير الى اكذوبة اوردها عبد اللطيف البغدادي ، في القرن الثالث عشر ، وتناولها المؤرخون ، حتى قامت الادلة على بطلانها ، واعني بها ما رواه ، من ان عمر بن الخطاب ، اشار على عمرو بن العاص ، او امره ، باحراق مكتبة الاسكندرية ، فكانت كتبها وقوداً لحمامات المدينة ، مدة ستة اشهر كاملة . . والروايات الدقيقة التي اثبتها المؤرخون الاجانب انفسهم ، تدل على ان مكتبة الاسكندرية ، قد احرقت قبل فتح العرب ، بزمن طويل ، كما انها تدل على ان رواية البغدادي ، لا تقوم على اساس من الصحة .

ان سهولة فتح مصر ، توضح خطورة الانتصار الذي احرزه العرب في اليرموك ، اذ ان خالداً بعد ان هزم اكبر جيش استطاع هرقل حشده ، لم يتمكن الروم من الوقوف امام العرب بقوات كبيرة تماثل ما حاولوا الوقوف به في اليرموك . . وبعد معركة خالد الخالدة ، عجز الروم عن خوض معركة برية ناجحة . . وبعد

سقوط قيسارية والاسكندرية وفيرس ، ضعفت شوكتهم البحرية ، وقل خطرها علىٰ الاسلام .

ثم جاء الاسطول العربي ، فطردهم من البحر المتوسط ، كما طردوا من البلدان الواقعة في جنوبه وشرقه . وعندما توفي الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) كانت ديار العرب ، تمتد من طرابلس غربا ، الى جبال البرزخ في شرق ايران ، والى أعالي الفرات شمالاً . . والنزاع بين العرب والروم بعد فتح مصر ، اتخذ ثلاثة اوجه نفصلها في المستقبل ان شاء الله وهي : (١) حوادث الحدود بين الشام والاناضول) (٢) التنازع على سيادة البحر المتوسط وجزره (٣) محاولة العرب القضاء على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

ديار العرب والإسلام

(٣)

دار الفكر اللبناني

سلسلة

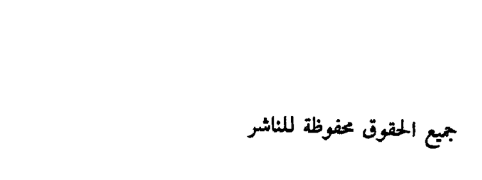
مختارات

إسلامية

ديار العرب والإسلام

(٣)

دار الفكر اللبناني



(فتح فارس وخُراسان)

بلغ الزحف العربي بعد القادسية وجلولاء الخط الفاصل بين الجنس السامي والجنس الآريّ ، قرب الحدود التي تفصل اليوم بين العراق وإيران . واتخذت أعمال العرب العسكرية بعد جلولاء (سنة ٦٣٧) شكلاً جديداً ، اقتضته طبيعة الأرض هناك ، بين وادي دجلة والفرات من جهة ، وهضبة فارس وجبال كردستان من جهة أخرى . وكانت فتوح العرب في فارس وخراسان وما وراء نهر جيحون طويلة شاقة ، استغرقت زهاء أربعة عقود من السنين . وقد نجح العرب ، وتغلبوا على كل ما قام في وجههم من العقبات ، ومدوا سلطانهم إلى ما وراء سيحون وحدود الصين . غير أن اللغة العربية ، والثقافة العربية ، لم تتعديا جلولاء . وبقيت هذه حدّاً بين العرب الساميين ، والعجم الآريين .

ولا بد لنا قبل الاسترسال في وصف أعمال العرب العسكرية ، من الوقوف قليلاً ، لنصف طبيعة البلاد التي كانت

مسرحاً لنشاطهم ، والتي قدّر لها أن تكون في جملة ديار الاسلام .

وأوّل ما نذكره من ذلك ، تلك الهضبة العالية جداً المنبسطة ، الواقعة في شمال حملايا في قلب آسيا ، وتعرف بعُقْدَة بامير ، أو سقف العالم ، وهو ما يدل على ارتفاعها العظيم . ومنها تتفرع سلاسل الجبال إلى كل جهة . وقد وقف الاسلام عند هذه العقدة ، لم يتجاوزها شرقاً ، فلم تبق حاجة والحالة هذه ، لوصف طبيعة البلاد الواقعة إلى الشرق منها . أما من جهة الغرب ، فتتفرغ من هذه العقدة ، سلسلتان من الجبال ، أحداهما شمالية ، وتفصل بين الجنس الآري والجنس المغولي ، والأخرى جنوبية وتفصل بين الهند وهضبة ايران . . وتتفرع السلسلة الشمالية شرقي بحر قزوين إلى فرعين أيضاً ، جنوبي وشمالي ، ينقطع الشمالي منها عند بحر قزوين ، ثم تمتد جبال القوقاز كأنها منه ، ويسير الجنوبي في شمال إيران ، ثم يعود فيلتقي بالسلسلة الجنوبية التي تفصل بين إيران والهند ، ثم بين إيران والعراق . ونقطة التقاء السلسلتين الكبيرتين تسمى عقدة أرمينيا ، وفيها جبل أراراط العالي ، الذي تواترت الأقوال بأن سفينة نوح عليه السلام ، استوت عليه بعد الطوفان .

عند هذه العقدة أيضاً ، وقفت فتوح العرب . ومنها تخرج السلسلتان الجبليتان من جديد ، كل واحدة إلى جهة ، فتضمان

بينها الأناضول . والجنوبية من هاتين السلسلتين هي جبال طورس ، التي وقفت عندها فتوح العرب شمالاً . والشمالية تسير في إيران وأفغانستان وبلوخستان . والهضبة بين السلسلتين هي موطن الجنس الآري . ثم تأخذ الأرض شماليَّ الفرع الأعلى ، في الانحدار التدريجي إلى سهول سيبيريا ، وفيها موطن الجنس المغولي ، بينما تنبسط الأرض جنوبي الفرع الأدنى ، وهو الجنوبي ، فتصبح سهولاً ، وهي العراق وسوريا والجزيرة العربية ، ـ وكلها موطن الجنس السامي .

وظلت هذه الحدود الطبيعية ، هي الحدود الفاصلة ، بين مناطق مختلفة ، وأجناس مختلفة ، وحضارات مختلفة ، لم تتبدل بتبدل العصور والادهار ، مع أن الجيوش الكبيرة التي وطئتها ، قد اكتسحتها ، وجمعت بين أطرافها . . فالاسكندر المكدوني وقف عند نهر سيحون ، وهو الحد الفاصل بين الهضبة والجبال . وهنا وقف قتيبة بن مسلم ، الفاتح العربي العظيم . ومن هنا سار السلاجقة والمغول والتتر ، حتى بلغوا البحر المتوسط .

كانت البلاد الواقعة بين (عُقد بامير) وبحر قزوين ، مبعث الحركات الآسيوية الكبرى ، وهي بلاد صحراوية في طبيعتها ، كصحراء العرب ، ولكنها باردة ، وتشبه الصحراء العربية بقلة المطر وجفاف الهواء . وسكانها قبائل رُحَّل ، وعندهم الإبل والخيل ، والرجل منهم يقضي نهاره ممتطياً جواده ، وقد يقضي

عمره كذلك . . وإن هذه الصحراء الباردة قد قذفت (كما فعلت الصحراء الحارة) بموجات بشرية عظيمة ، اتجهت إلى الغرب أو إلى الشمال الغربي . . فالقبائل المغولية الشرقية ، التي خرجت من جبال (آلْتاي) ، غزت سكان الغرب في الهضبة ، وساقتهم أمامها ، فارتحلوا إلى بلاد الساميين ، وبعضهم اجتازوا الحدود بين آسيا وأوروبا . وأن جميع شعوب أوروبا ، وأكثرها من أصل آسيوي ، من هضبة إيران ، قد امتزج بعضها القبائل الغازية ، وسار البعض الآخر أمامها في الممر الواسع الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين ، وهو الذي أطلق عليه بعضهم اسم (بَوَّابة أوروبا) . ـ منه عبرت القبائل الآرية إلى سهول روسيا ، فبقي فيها بعضها ، ولم يحتمل البعض الآخر بردها الشديد ، فيمموا سواحل البحر المتوسط . ودفع الهونيـون (وهم من تلك الأجناس) قبائل القوط والفندال أمامهم إلى غرب أوروبا ، كما دفع المغول السلاجقة والأتراك إلى الأناضول وسواحل البحر المتوسط الشرقية . ومن المتفق عليه ، أن شعوب فنلندا والمجر والبلغار ، وهي من أصل آسيوي أيضاً ، قد استقرت في أوروبا قبل ظهور الاسلام بقليل .

ونعود الآن ، بعد هذه المقدمة ، وهذا الوصف الجغرافي الذي لا بد منه ، إلى ذكر الأعمال العسكرية التي قام بها العرب في بلاد فارس ، وكانت امبراطورية عظيمة ، تمتد من الفرات إلى حدود بلاد المغول ، وكانت في جوار البلاد العربية ، كما كانت

الأناضول في جوار الشام . وقد عجز العرب عن فتح الأناضول ، ونجحوا في فتح فارس ، كما نجحوا في نشر الاسلام هنا وهناك .

اتخذ العرب في العراق بعد فتحه ، مراكز عسكرية في البحرين والكوفة والبصرة ، كانت مدداً لغزواتهم وحملاتهم في فارس وخراسان . وقد زحفوا أولاً إلى الجانب الشرقي من شط العرب ، وهو الجزء المنخفض الواقع على الخليج الفارسي التابع اليوم لإيران ، وقد كان قديماً موطناً لمملكة عيلام ، وتخماً من تخوم مملكة مادي وفارس ، واسمه اليوم عربستان ، وأكثر سكانه عرب ، وحاضرته الأهواز ، وكان يعرف إبّان الفتح العربي باسم خوزستان . وكان العرب يغيرون على خوزستان هذه ، من البحرين ومن البصرة ، ثم شفعوا هذه الغزوات بحملات ، وجهوها عن طريق خانقين إلى همذان .

وإن الذي قام به سعد بن أبي وقاص في ذلك الوقت ، ليشبه الخطة الحربية التي قام بها الجنرال وَيْفِل في الحرب الحاضرة . فقد تقدمت القوات البريطانية إلى إيران ، من البصرة والخليج الفارسي ، عن طريق عبادان ، ومن بغداد عن طريق خانقين . . وكانت الأعمال العربية الأولى تتقدم بسهولة ، دون أن تلقى مقاومة تذكر . غير أن يزدجرد ملك فارس ، لم يلبث أن جمع من فارس وخراسان قوات كبيرة ، وزحف بها لمقابلة العرب ، واشتبك الفريقان في المعركة الفاصلة الكبيرة ، التي

أطلق عليها العرب اسم (فتح الفتوح) ، لأنها فتحت أمامهم جميع الشرق . ولولا النزاع الأهلي الداخلي بينهم ، لاستطاعوا بلوغ أمنيتهم القصوى في تلك الأنحاء بسرعة عجيبة .

وقعت معركة فتح الفتوح هذه ، في نِهاوَنْد الواقعة إلى الجنوب من همذان ، وكان ذلك سنة ٦٤١ أي بعد القادسية بأربع سنوات . وقاد المسلمين فيها النُّعمان بن مُقَرِّن المُزَنيّ وكان على جند الكوفة . وكانت القوات العربية قد احتشدت في جهات الأهواز وأصبهان ، لتقطع على الفرس خط الرجعة . وكان الفرس قد حشدوا لقتالهم مئة وخمسين ألفاً من الرجال ، وتحصنوا في الخنادق ، وكان كثيرون منهم قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل مخافة الهرب . . وعجز العرب عن اقتحام تلك الخنادق ، إذ لم يعتادوا هذا النوع من الحرب ، لأن فنَّهم العسكري إنما كان يقوم على الحركة ، لا على الخنادق والحصون ، فكان لا بد من إخراج الفرس من خنادقهم ، فتظاهروا بالانكسار والهزيمة ، فخرج الفرس يريدون اللحاق بهم ، فأنثنى العرب عليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ثم زحفوا إلى همذان والرَّيّ ، وكانت غنائمهم في الرَّيّ مما لا يحصى ، وهي كغنائمهم في المدائن . وقد فتحوا بعد ذلك أذربيجان وأرمينيا ، وتقدموا شرقاً إلى نهر جيحون ، وجنوباً إلى كرمان وحدود الهند . ولكنهم لم يلبثوا أن ابتلوا بنزاعهم الداخلي ، واشتدت الفتنة بينهم ، فلم يستتب الأمر لهم

في خراسان ، إلى أن كان عهد الحجاج أمير العراق ، فأعاد إلى البلاد طمأنينتها التي فارقتها قرابة نصف قرن . وكان الحجاج قد وَلّىَّ على خراسان القائد النابغة قتيبة بن مسلم الباهليّ ، فجمع العرب ، وكانوا منقسمين إلى يمنية زعامتها للأزد ، وقيسية وزعامتها لتميم . واتخذ مدينة مرو ، قاعدة لفتوحه الشرقية ، التي بلغ بها أقصى ما بلغته الجيوش العربية من تقدم . واستقرت الأمور في خراسان بعد ذلك ، وهاجر إليها من البصرة والكوفة نحو خمسين ألف أسرة ، وكانت هجرتها من أكبر أسباب ذلك الاستقرار .

وأختم حديثي الليلة ، بكلمة الخليفة عمر بن الخطاب ، التي ألقاها على الناس عندما جاءه رسول الأحنف بن قيس ، يبشره بنصر نهاوند ، قال : ألا وإنَّ ملك المجوس قد ذهب ، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً . ألا وان الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم ، لينظر كيف تعملون ، فلا تُبَدِّلَوا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلاَّ من قبلكم . . . ولقد صدق عمر الذي كان خير وزير حربية ، وخير سياسي ، وخير حاكم أخرجته جزيرة العرب . . رسم خطط الفتح ، ووضع دستور الامبراطورية ، ونظام إدارتها ، وترك لمن جاء بعده ميراثاً عظيماً ، فحافظوا عليه إلى حدّ كبير ، ولكنهم لم يتمُّوا رسالة عمر بأكملها ، ووقع ما كان يخشاه .

(تغلغل الاسلام في قلب آسيا)

آسيا هي القارة الجبارة بين قارات العالم السِّتّ ، وفيها أضخم التضاريس الطبيعية وأبرزها ، ومساحتها لا تقل عن ثلث مساحة اليابسة كلها ، وفيها أوسع السهول وأعلى الجبال وأكبر البحيرات والأودية . وقلب هذه القارة الماردة ، لا يزال بعيداً عن البحث العلمي الدقيق ، ومعرفتنا به لا تتناسب مع ما لأواسط آسيا ، من أثر بعيد في تاريخ البشرية . فهذا القلب ، هو موطن الجنس المغولي والجنس الآري ، وكلاهما يملآن اليوم أوروبا وأميركا واستراليا ، فضلاً عن معظم آسيا ، وذلك بعد الموجات البشرية العظيمة ، التي اعتاد قلب آسيا ان يدفعها إلى جميع الأنحاء ، كما يدفع القلب الدم إلى جميع أطراف الجسم .

هذا القلب العظيم في هذه القارة العظمى ، يؤلّف الأجزاء الآتية : (١) تركستان الروسية ، وهي مقاطعات التركمان والأزبك والكُرْج . (٢) تركستان الصينية . (٣) منغوليا أو بلاد المغول . (٤) التُّبَّت أو تيبت . أما تركستان الروسية وتركستان الصينية ، فهما إسلاميّتان بكاملهما . وأما منغوليا ففيها أكثرية إسلامية ، وإليها يهاجر اليوم مسلمو الصين . وكان الصينيون القدماء قد بنوا سورهم الكبير المشهور ، اتّقاء لغزوات سكان منغوليا . . وغرضي في هذا الحديث اليوم ، أن أضع صورة واضحة مختصرة لقلب آسيا الاسلامي ، وأن أبيِّن كيف تم تغلغل الجيوش العربية في تلك الربوع .

إن قلب آسيا هذا يقسم إلى ثلاثة أقسام ، تمتد بين (عقدة بامير) وهضبة تيبت من جهة ، وبحر قزوين من جهة أخرى . ففي الوسط حوض واسع من الصحراء الباردة ، تتخلله الواحات ، وتحيط به الجبال من الجنوب والشرق . وإلى الغرب من هذا الحوض ، في نجد إيران ، يسكن شعب متحضر آرامي الأصل . وإلى الشمال منه في منحدرات جبال الكرج أو كرجستان ، يسكن الأتراك المغول وهم لا يزالون على البداوة ، ودأبهم التنقل من مكان إلى آخر مسافات شاسعة على ظهور الخيل . وفي هذا الحوض امتزج الجنسان والثقافتان . . وقد تقدم أنه صحراء باردة قليلة المطر كثيرة الرمال ، وأكثر سكانه قبائل رحَّل . ويجري فيه نهر جيحون ونهر سيحون ، ويصبان في بحر (أو بحيرة) أورال . وفي أواسط آسيا أنهار كثيرة ، لا يصل أكثرها إلى البحر ، بل تغوص في الرمال ، أو تصب في بحيرة أو أكثر في ذلك الحوض . وأودية هذه الأنهار واحات في الغالب ، تزدهر فيها زراعة الحبوب والقطن والفواكه .

والغالب على سكان الحوض ، أن يكونوا ودوابُّهم على الجبال المحيطة بصحرائهم صيفاً ، وعلى ضفاف الأنهار وحافات الواحات شتاء . وهناك بحيرات مِلْحَةٌ، وكثبان رمل ، كما في دهناء الجزيرة العربية ، وبقاع أخرى كثيرة ، تكسوها طبقة رقيقة من التراب الذي تذروه الرياح ، فإذا نزل المطر في الربيع ، اكتست تلك البقاع عشباً ، وأصبحت مراعي صالحة .

وفي واحات الصحراء المدن الكبرى تفصل الواحدة عن الأخرى مسافات بعيدة ، وبينها قفر واسع ، وأكثرها واقع على الطريق التجارية ، التي تخترق آسيا من الشرق إلى الغرب ، وعليها سارت التجارة الاسلامية فيما مضى ، من بكين عاصمة الصين ، إلى بغداد عاصمة العالم الاسلامي ، مارَّة بكشغر وطشقند وسمرقند وبخاري وفارس . وأصبحت اليوم في موقع هذه الطريق سكة حديد تركستان الروسية .

وكان في هذا الحوض فيما مضى من الدهر ، بحيرات كثيرة ، وقد تبخرت لكثرة الجفاف ، وأصبح أكثرها قيعاناً مخصبة ، بالنسبة إلى ما حولها من الصحراء المجدبة . والهواء هناك جاف ، يخفف من حدة البرد في الشتاء والحرِّ في الصيف ، ويجعل المناخ محتملاً على رغم شدة تغير درجة الحرارة . . ومما يستفاد من الأبحاث الجيولوجية في هذا الحوض ، انه تعاقبت عليه أدوار من القحط تارة والخِصْب طوراً ، مما جعل الهجرة منه وإليه مستمرة ، والاضطراب فيه متعاقباً . فقد اجتاحت تلك البلاد مثلاً موجة من القحط في القرن الخامس ، وسرت فيها موجة من الخصب في القرن التاسع ، وقس على ذلك ما حدث فيها من هذا وذاك في الأدوار المختلفة . . وفي البلاد اليوم آثار كثيرة لمدن كانت في غابر الزمان ، عامرة بالحياة والمدنية ، ثم انتابتها الزلازل والسيول والطوفان وأعمال التخريب الأخرى .

لم تمتد إلى هذه البلاد سلطة الساسانيين ، بل وقفت عند بلخ الواقعة شرقي خراسان . وفي القرن الخامس نزلت تلك الربوع ، قبائل الهيطل وامتزجت بسكانها . ثم امتدت إليها سلطة خانات الترك الغربيين ، فانتقلت سلطة الهيطل إلى الجنوب . . ولما تتبع العرب فلول الفرس بعد نصر نهاوند ، وقفوا عند حافة هضبة فارس الشرقية العالية ، حيث الحدُّ الجغرافي بين النجد والحوض المنخفض . وكان الوادي الواسع الممتد أمامهم ، ينقسم إلى شطرين مختلفين ، شمالي وجنوبي ، بينهما سلسلة من الجبال تخترقها بعض الطرق ، وتقوم عليها بعض الحصون . وفي الشطر الشمالي من الوادي المذكور ، بلاد الصغد وفيها بخاري وسمرقند وكيش ، وفي الجنوبي نهر جيحون ، بين بامير والهضبة ، وفيه بلخ وهرات وتركستان السفلى .

كان هذا الحوض من أرقى البلاد التي فتحها العرب . وقد تم لهم ذلك بمعركتين حاسمتين ، جرت إحداهما في أول الحوض عند بلخ . والأخرى في الشرق وراء سيحون ، وبها أبعدوا خطر الترك عن الحوض . ثم قاموا بغارات في الجهات الشرقية من الحوض ، في فَرْغانة وبلاد الشاش ، ولكن هذه لم تخضع لسلطانهم .

وأول مقاومة جدية لقيها العرب بعد نهاوند ، كانت إلى

الشرق من مدينة مرو ، حيث اضطرَّ الأحنف بن قيس ، أن يعود إلى هذه المدينة ، بعد أن جاوزها شرقاً . وقضى العرب مدة ، يغزون مدن حوض جيحون ويرتدون ، لأن سلطانهم هناك لم يكن قد توطد ، وذلك لثلاثة عوامل : أحدهما عدم استقرار الحكم العربي في خراسان . والثاني النزاع الأهلي الداخلي بينهم . والثالث الخوف من تدخل قبائل الترك القوية وامبراطور الصين . وكانوا كلما تقدموا في بلاد الصُّغْد والهيطل وطخارستان ، اضطرتهم المنازعات الداخلية إلى التراجع ، إلى أن تستتب الحالة في البلاد ، فيعودون إلى ما كانوا عليه من الزحف والغزو .

فعبد الله بن عامر والي البصرة على عهد عثمان بن عفان ، قد قضى على مقاومة الفرس قضاء مبرماً . وعاد إلى البصرة ومعه ألف من أشد رجال بخارى ، جعلهم حرساً خاصاً له . ثم كان النزاع بين علي ومعاوية ، مما اضطر إبن عامر المذكور ، أن يعيد فتح خراسان على عهد معاوية من جديد . وكان زياد إبن أبيه ، أوَّل من نظم إدارة خراسان ، ووحد السلطة في يد العامل المقيم في مرو ، بعد أن كانت البلاد مناطق تقاسمتها القبائل العربية . وسار عبيد الله بن زياد سيرة أبيه . . وعادت الفتوح فتقدمت شرقاً ، إلى أن حالت دونها الفتنة الجديدة ، وخرج إبن الزبير على بني أمية . وظلَّت الحال على ما وصفنا ، حتى ولي الحجاج أمر العراق ، فولَّى المُـهَلَّبَ بن أبي صُـفْرة الأزدي خراسان . ولم

يلبث المهلب أن جمع كلمة العرب ، ووطد سلطانهم في تلك الأصقاع . غير أنه لم يتمكن من القيام بغزوات جديدة في ٰلشرق ، لانصرافه إلى حرب الخوارج . ثم صار أمر خراسان لقتيبة بن مسلم الباهلي ، ولاه الحجاج أمرها ففتح بخارى وسمرقند وفرغانة ، وسار براية الاسلام ورسالة الاسلام إلى حدود الصين .

ويعزى انتصار العرب الباهر في حروب قتيبة ، إلى نبوغ الحجاج وبطولة قتيبة ، فالحجاج كان يضع خطط الفتح ، وقتيبة ينفذها خير تنفيذ ، فكانت عبقرية الحجاج في هذا ، لا تنقص عن عبقرية عمر بن الخطاب ، غير أن قتيبة كان دون خالد بن الولْيد .

استطاع قتيبة أن يجمع كلمة العرب في خراسان وكانوا منقسمين بين أزد وتميم ، وكانت عشيرته قليلة وعصبيته ضعيفة ، فرضي به الفريقان رئيساً ، مع انه كان من قيس . وقد اكتسب قتيبة كذلك حب الفرس واحترامهم ، وأدخلهم في جيشه واتخذ منهم بطانة . وبرزت عبقرية قتيبة في معاملته لسكان البلاد المغلوبة ، فقد كان معهم لَيِّن الجانب كثير التساهل ، وعقد معهم صلحاً على شروط سخيَّة . ولكنه أخذهم بالعنف والقسوة حين نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه . وكانت مدينة (بايْكَنْد) من المدن التي صالحته ثم خرجت عليه ، فضربها بشدة أوقعت الرُّعْبَ في نفوس سكان المدن الأخرى وأمرائهم .

وكانت شدته في موضع الشدة ، ولينه في موضع اللين ، من مكـمِّـلات صفاته الحربية .

واستمرت حروب قتيبة أكثر من عشر سنوات(بين سنة ٧٠٥ وسنة٧١٦) تمكن من خلالها من تثبيت الحكم العربي في صخارستان والحوض الجنوبي . ثم احتل بخارى بعد معركة فاصلة . ووطد سلطان العرب في جميع بلاد الصُّـغْد . وقام فيما عدا ذلك بغزوات جريئة في فرغانة وبلاد الشاش . وأبعد خطر القبائل التركية عن البلاد التي فتحها . ولكن الفتنة ، لم تلبث أن عادت إلى الظهور بعد موت قتيبة ، وذلك بتحريض خان الترك ، وخروج بعض الفئات العربية على سلطان بني أمية . غير أن عمر بن هبيرة عامل الخليفة عمر بن عبد العزيز ، استطاع أن يعيد الأمن إلى نصابه ، وجرياً على سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وبفضل سياسته وحسن عقيدته ، استطاع أن يستميل إليه دهاقين البلاد وحكامها ، فأحبوا الاسلام وأسلموا ، وأصبحوا من أحسن الناس إخلاصاً ووفاء . وأصبح إقليمهم من مفاخر ديار الاسلام ، وفيـه ظهرت الـدولة السامانية ، وظهرت بخارى وسمرقند في حالة من السؤدد والجاه ، لا تقلُّ عن بغداد . وفي بخارى ظهرت عبقرية الرَّازي وابن سينا ، اللذين وضعا للطب كتباً ، أزالت عن بصائر أوروبا غشاوة القرون الوسطى .

(توطيد الحكم العربي في شمال أفريقيا)

كان للسلاح العربي أيام بيض ومعارك غُـرٌّ ، نشرت راية العروبة والاسلام ، في قارات العالم القديم الثلاث ـ آسيا وأفريقيا وأوروبا . وقد اختلفت هذه القارات في التأثُّر بهذا الفتح . فأوروبا ناوأت الفتح العربي ، ووقفته عند أطرافها الثلاثة : في الشرق عند القسطنطينية ، وفي الجنوب في سواحل إيطاليا ، وفي الغرب في سهل (تُور) في غرب فرنسا . وقضت أوروبا على مدنية العرب التي شادوها جنوبيَّ (البرانس) في الأندلس الخضراء ، بعد أن عمروها ثمانية قرون . فأوروبا والحالة هذه ، أقلُّ القارات محافظة على آثار الفتح العربي والحضارة العربية ، ولم يبق لنا فيها إلاَّ آثار (الحمراء والزهراء) وما كان لمدنية الأندلس من أثر في عمارة أوروبا ونهضتها الحديثة .

وفي آسيا بقيت جميع البلاد التي أخضعتها جيوش العرب ، محافظة على الاسلام ، وعلى صلتها ببلاد العرب مهد الاسلام . ولكن البلاد الواقعة شرقي العراق وشمالي الشام ، لم تصطبغ بالصبغة العربية ، ولم تتأصل فيها اللغة العربية ، أو القومية العربية .

أما أفريقيا ، فإن البلاد التي دانت للفاتحين العرب ، حافظت

على طابعها الاسلامي ، واندمجت في الوطن العربي والقومية العربية . وقد هاجر إليها العرب أفواجاً وقبائل ، كما هاجروا إلى الشام والعراق ، وكما هاجروا إلى مصر وهي إقليم من أقاليم أفريقيا . . وتقدم العرب في هذه القارة الواسعة ، في اتجاهين مختلفين وأسلوبين مختلفين . ففي الشمال ساروا غرباً على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، غزاة فاتحين أولاً ، ثم بناة مرشدين ثانياً . وفي الشرق ساروا تجاراً مبشرين على ساحل أفريقيا الشرقي ، وحملوا مع تجارتهم اللغة العربية والدين الاسلامي . وتعاون الأسلوبان على إحاطة أفريقيا بهالة عربية إسلامية ، تطوقها من زنجبار على المحيط الهندي ، إلى مراكش على المحيط الأطلسي ، وصارت لهم ولغيرهم أعظم طريق للقوافل في قلب أفريقيا ، من مصوّع إلى تمبكتو وساحل المحيط ، تسير في بلاد عربية إسلامية ، وتغصّ بقوافل التجارة العربية ، وحجاج بيت الله الحرام .

تسمى أفريقيا (القارّة السوداء) . والحق أن سكان أواسط أفريقيا ، إلى الجنوب من الصحراء الكبرى ، هم من الزُّنوج . أما سكان الشمال ، حيث مصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، ـ فمن الحاميين ، من الجنس الأبيض لا الأسود ، والصحراء تفصل بين الجنسين . وقد كان شمال أفريقيا على الدوام جزءاً من البحر المتوسط ، لا من أفريقيا ، فمن مَلَك السيادة على هذا البحر ، رسخت قدمه في شمال أفريقيا لا

محالة . وكان العرب أول من مد سلطانه إلى قلب أفريقيا ، وجمع بين الجنسين الأبيض في الشمال ، والأسود في الجنوب ، في وحدة دينية وتجارية .

ومعلوم أن الرومان ، بعد أن قهروا الفينيقيين على أثر حروب طويلة ومعارك طاحنة ، كان همهم انتزاع السيادة البحرية من قرطاجنة ، ليتسنى لهم التوسع في استعمار أفريقيا . غير أن الحكم الروماني ، لم يجاوز سواحل هذه القارة ، وبقي سكان البلاد الأصليون ، وهم البربر ، مناوئين للرومان وللبزنطيين ، لم يتأثروا بدينهم ولا بثقافتهم . . والبربر قوم رحَّل كالعرب ، فطروا على الحرية والشجاعة وبساطة العيش ، فكان تقارب مزاجهم ومزاج العرب ، خير وسيلة لامتزاج الشعبين واندماجهما ، وبذلك نجح العرب في أقل من قرن ، في بلوغ ما أخفقت فيه روما في أكثر من تسعة قرون . ولا يزال تمسك شمال أفريقيا بالعروبة والاسلام ، شاهداً على قوة البناء الذي أسسه عقبة بن نافع المزني ، وحسان بن نعمان الغسَّاني .

ما كاد العرب يستولون على مصر ، حتى أدركوا الخطر الذي يتهددهم من الامبراطورية البيزنطية في الغرب في برقة ، وفي الشمال في البحر الذي كانت سيادته للروم . وكان في الجنوب دولة (النوبة) في السودان ، وهي مشايعة لبيزنطية . ولهذا بادر عمرو بن العاص ، بعد فتح الاسكندرية ، إلى إرسال حملة على برقة ، فاكتسحتها واستولت على (سرين) وكانت مدينة

مشهورة بتجارتها وثقافتها . ووقفت هذه الحملة عند حدود طرابلس الغرب . إلى أن كان عهد عبد الله بن أبي سرح ، عامل الخليفة عثمان بن عفان في مصر ، فانتزع - بالتعاون مع معاوية أمير الشام - سيادة البحر من الروم ، ثم قام بحملات جريئة في شمال أفريقيا ، وعقد صلحاً مع النوبيين .

أما فتح أفريقيا ، فيما وراء طرابلس ، فلم يباشر ، إلا بعد أن اختطَّ عقبه بن نافع ، عامل معاوية ، مدينة القيروان في تونس ، بالقرب من قرطاجنة ، وذلك سنة ٦٧٠ أي بعد فتح مصر بثلاثين سنة . ومن هذه القاعدة ، تقدَّم العرب غرباً ، وفي طليعتهم عقبة بن نافع ، حتى بلغ بهم أمواج المحيط الأطلسي . ثم لقي حتفه بعد ذلك (سنة ٦٨٣) في حروبه مع البربر ، في الجزائر ، ولا يزال قبره فيها مزاراً للناس إلى هذا اليوم .

وأدرك العرب أنَّ مناوأة الروم والبربر في وقت واحد لا تجدي ، وأنها من خطل السياسة ، فتفرغوا للروم أولاً ، ولم يهتموا بإخضاع البربر ، إلاَّ بعد أن فازوا بسيادة البحر ، وطردوا الروم من حصنهم في قرطاجنة ، وقد فتحوها سنة ٦٩٥ . ثم خسروها سنة ٦٩٧ . ولكنهم لم يلبثوا أن أعادوا فتحها في السنة التالية . وفي هذه الأثناء ، كان الأسطول الرومي قد توارى من عرض البحر ، وكان الجيش العربي والأسطول العربي ، قد وقفا

على أبواب القسطنطينية . وكانت قبرس ورودس قد أصبحتا في حوزة العرب . وبذلك ختمت سيادة البيزنطيين على شمال أفريقيا وشرق البحر المتوسط ، وانحصر حكمهم في البحر في صقلية وجنوب إيطاليا ، ثم خسروا صقلية ، ومدينة (سالرنو) الواقعة جنوبي (نابلي) مدة من الزمن .

وبعد القضاء على سلطان الروم في أفريقيا ، تفرغ حسان بن نعمان الغساني للبربر . وكانوا قد تجمعوا حول أمرأة مغامرة قوية اجتذبت قلوبهم ، بما كان لها من سلطان ديني ، وعرفت عند العرب باسم (الكاهنة) . وقد اعتصمت بالجبال ، ومن حولها رجالها ، وكانوا ألوفاً مؤلفة . فسار حسان إليها ، واشتبك معها في معركة كان النصر فيها حليف البربر ، ودارت الدائرة على العرب فانهزموا ، وكتب حسان إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يقول : أن أمم المغرب ، كلما بادت منهم أمة خلفتها أمم . . فأجابه الخليفة يأمره بالكف عن القتال والانسحاب إلى القيروان .

وخلا الجو للكاهنة مدة خمس سنوات ، كانت خلالها سيدة أفريقيا بلا منازع ، وقد أعملت في البلاد طولاً وعرضاً يد التخريب والتهديم ، حتى ييأس العرب من أفريقيا ، فيتركوها وشأنها . وكان بين الأسرى العرب الذين وقعوا في أيدي البربر خالد بن يزيد ، ويقال أنه استطاع أن يكاتب حساناً بعورات

البربر ، ويحضّه على ملاقاتهم . وأرادت الكاهنة أن تخدع حساناً ، فأرسلت خالداً ومعه أولادها ليستأمنوه . ثم تقدمت بجندها للقتال ، تريد أن تفاجىء العرب من حيث لا يدرون . فقاتلها حسان وهزم جندها وقتلها ، ثم استولى على بلاد البربر كلها . وقد أُتيح له أن يوطد الحكم العربي في جميع أنحاء الغرب ، وكانت معاملته للبربر على أعظم جانب من الحسنى ، لأنه ترك لهم استقلالهم الداخلي ، وساوى بينهم وبين العرب . وكان هذا وغيره مما قرَّب بين الفريقين ، فامتزجا ، واعتنق البربر الإسلام ، فازدادت صلتهم بالعرب وازداد إقبالهم على لغة العرب .

وما استتب الأمن في أفريقيا ، حتى أخذ العرب يهاجرون إليها . وهاجر إليها من المدينة أناس كثيرون ، هرباً من وجه مسلم بن عقبة ، قائد جيش يزيد بن معاوية . وكان قد زحف إلى الحجاز في فتنة عبد الله بن الزبير . فقد التحق جميع من نجا من (معركة الحرَّة) بجند أفريقيا . وكان بين هؤلاء المهاجرين جمهور من الخوارج ، لم يكن همهم فيها إلاَّ تثقيف البربر بأصول الدين . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز أكثر الناس اهتماماً بأمر الاسلام ، ونشر تعاليمه وفضائله بين تلك القبائل .

ولم يجن حسان ثمرة جهاده العظيم في تلك الربوع . فقد كانت أفريقيا تابعة لمصر ، وكان أمير مصر في ذلك العهد عبد

العزيز بن مروان . وحدث أن موسى إبن نصير مولى عبد العزيز ، قد غضب عليه الخليفة عبد الملك بتهمة اختلاس من بيت المال في خراسان وأراد عقابه ، فشفع عبد العزيز إلى أخيه في موسى ، ودفع عنه الأموال المطلوبة ، ثم استقدمه إليه إلى مصر ، وولاّه أفريقيا خليفة لحسان . . ويقال أن عبد الملك أراد أن يعيد حساناً إلى عمله فأبى وقال : لا ألِي لبني أمية . . وولي موسى أفريقيا ، ورأى تعاون العرب والبربر فيها ، فاستغلَّ ذلك بمهارة وحذق ، وقام بحملته المشهورة في إسبانيا ، ـ وكان انتصاره تاج الانتصارات العربية على الاطلاق .

وهكذا تم للعرب نشر سلطانهم في شمال أفريقيا في اثنتين وسبعين سنة . فقد اجتاز عمرو بن العاص حدود فلسطين إلى عريش مصر سنة ٦٣٩ . واجتاز طارق بن زياد المضيق بين أوروبا وأفريقيا ، والذي عرف بعد ذلك باسمه ، سنة ٧١١ .

ولئن كانت هذه الفترة من الزمن طويلة ، غير أن العرب قد حصلوا فيها على أعظم النتائج ، وأصبحت البلاد كلها ، الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي ، بلاداً عربية دماً ولحماً ولساناً وديناً ، وأصبح الساحل الجنوبي والشرقي ثم الغربي من البحر المتوسط وما بينهما ، بلاداً واحدة تخفق راية العروبة عليها ، على هيئة (ن) عظيمة ، طرفها الشرقي في أطنه (في الأناضول) والغربي في البرانس (بين أسبانيا وفرنسا) ، وكانت

(نقطة النصر) ، أي نقطة هذه النون ، جزيرة صقلية .

وسنرى كيف أن هذه (النون) قد أصبحت معجماً لمآثر العرب ومفاخرهم وحضارتهم ، التي زخرت بها البلدان ، ونعمت الأمم ، من دمشق والقاهرة ، إلى القيروان وقرطبة ، فنعم ما صنع الأجداد ، ونعم ما تركوا .

(كيف تمت سيادة العرب على البحر المتوسط)

بقي البحر الأبيض المتوسط مركز الحضارة والتجارة ، منذ كان للانسان حضارة وتجارة ، إلى أن نازعه المحيط الأطلسي هذا المركز ، واحتل المقام الأول في تجارة العالم . وكان البحر المتوسط الهدف الأكبر لجميع الأمم ، التي بسطت سيطرتها على سواحله ، ولم تستطع أمة منها ، تثبيت أقدامها على هذه السواحل ، إذا هي عجزت عن امتلاك تلك السيادة . . فقد ملك الفرس يوماً الساحل الممتد من القسطنطينية حتى حدود مصر ، ولكن سيادة اليونانيين البحرية قضت على نفوذهم ، فلم ترسخ أقدامهم على ذلك الساحل . وهذا ما جرى للأشوريين والحثيين ، فلم يثبت بنيانهم أمام أعاصير الزمن ، لأنه بنيان لم تؤيده السيادة البحرية .

كان المصريون ، وهم في أوج عظمتهم ، سادة البحر المتوسط

والبحر الأحمر . ثم انتقلت هذه السيادة إلى اليونانيين ، وبها نشروا ثقافتهم ومدنيّتهم ، من أقصى الشرق إلى صقلية وحبل طارق . وآلت هذه السيادة بعدهم ، حيناً من الدهر ، إلى الفينيقيين ، حتى ظهرت عليهم روما ، ثم بيزنطية . ومن الروم انتقلت سيادة البحر إلى العرب ، وظلت في أيديهم إلى ما بعد الحروب الصليبية، ثم أورثوها المماليك في مصر ، والأتراك العثمانيين في الدولة العثمانية ، وقد ضمنت هذه السيادة للعرب ، توطيد أقدامهم في البلاد التي فتحوها على السواحل .

لما اجتاح العرب الشام ومصر ، ورثوا في هذين القطرين ، مراكز تجارية ، ودور صناعة للسفن . فقد كانت الاسكندرية أغنى مدينة في العالم في ذلك العهد ، وكانت قاعدة بحرية عظيمة للروم ،، وكانت لهم قواعد أخرى في قيسارية والقلزم وغيرهما . وقد أدرك العرب أهمية السيادة البحرية ، عندما نزل الروم إلى الاسكندرية ، وكانت في أيدي العرب مدة ثلاث سنوات ، كما لمسوا أهمية التجارة في البحر المتوسط ، ورأوا ما يحول دونها من الصعوبات ،والأخطار ، ما دام الأسطول الرومي واقفاً لهم بالمرصاد ، يقطع عليهم الطرق البحربة ، ويتهددهم بكل ويل . وكان الأمر كذلك ، بعد أن احتل العرب قرطاجنة ، وعاد الروم فانتزعوها منهم . وقد أيقن العرب من كل ذلك ، إن لا سلامة لهم في الأقطار التي اكتسبوها ، إلاّ إذا تسنى لهم التغلب على أسطول الروم ، وطرده من البحر .

إن شرف إنشاء النواة الأولى للأسطول العربي الأول ، وكسب أول معركة بحرية ، يعود إلى معاوية بن أبي سفيان (وكان وقتئذ أميراً للشام) ، وإلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، أمير مصر ، وشقيق عثمان بن عفان في الرضاعة . وكان معاوية أول من فكر في اقتحام البحر ، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك ، وقال له في جملة ما كتب : إن الواقف على ساحل البحر في إقليم حمص ، يسمع صياح الديكة في أقرب الجزر إلى الساحل الشامي ، وهي (يريد الجزر) لا تزال في أيدي الروم ، وهم منها يقدرون أن يغيروا على الشام . . وكان الخليفة يوجس خيفة من البحر ، فخشي أن لا يدرك العرب فيه النجاح الذي حالفهم في المعارك البرية ، لأنهم لم يألفوا مثل ذلك . ويقال أنه استشار عمرو إبن العاص في ذلك وسأله أن يصف له البحر ، فقال عمرو في وصفه : انه البحر ، سماء وماء ، الراكب فيه ، دود على عود ، فالخارج منه مولود ، والداخل إليه مفقود . . فأبى الخليفة أن يأذن لمعاوية في ركوب البحر . وبقيت هذه الرغبة في نفس معاوية ، وهو يتحين الفرص لتحقيقها ، إلى أن كان عهد عثمان بن عفان ، فعرض الأمر عليه ، ورضي عثمان بذلك ، على أن يخير الناس في ركوب البحر ، وأن لا يؤخذوا إليه قسراً . . وتم لمعاوية ما أراد ، وبنى أسطوله ، وقام به بحملات صغيرة كثيرة على شواطىء الروم ، كان أشهرها فتح قبرس سنة ٦٥٤ .

وكان عبد الله بن أبي السرح من رأي معاوية في أهمية السيادة البحرية ، وكانت الحملة الأولى على قبرس بقيادة إبن سرح نفسه ، واشترك فيها أسطول الشام وأسطول مصر . . وفي هذه الحملة لم يمكث العرب طويلاً في قبرس ، بل صالحوا أهلها ، على أن يؤدُّوا للعرب جزية مقدارها سبعة آلاف دينار كل سنة ، وللروم مثلها ، وأن ينبؤا المسلمين بكل تعدٍّ للروم عليهم ، وأن ينزل العرب على أهل الجزيرة ، كلما وقعت حرب بينهم وبين الروم . . غير أن الروم لم يعبأوا بشيء من كل هذه الشروط ، وعادوا فاستردُّوا الجزيرة ، ولم يعد العرب إليها ويمتلكوها ، إلاَّ في القرن التاسع .

وأخذ العرب بعد حملتهم الأولى على قبرس ، يحاولون بسط سيادتهم على البحر المتوسط . وقد تمْ لهم ذلك بعد هذه الحملة بربع قرن ، وأصبحت لهم السيادة التي أرادوها . وقد شجعهم هذا على إرسال أسطول ضخم ، تبلغ سفنه الألف ، إلى القسطنطينية لحصارها . وكانت أهم معركة مهدت لهم كل هذا ، المعركة المعروفة بذات الشَّواري ، التي حدثت بعد فتح قبرس بقليل ، على عهد امبراطور البيزنطيين في ذلك الوقت قسطنطين الثاني إبن هرقل .

وقد أُطلق عليها هذا الاسم ، ـ إمَّا لكثرة السفن واختلاطها بعضها ببعض أثناء القتال ، أو لكثرة ما غرق من سفن اليوم

فيها ، وبقاء سواري هذه السفن ظاهرة فوق سطح الماء ، أو لأنها وقعت تجاه ساحل الأناضول ، حيث تغطي الأشجار الكثيفة ، سفوح الجبال القريبة من مكان المعركة ، فتظهر كأنها سوار .

كان للعرب في هذه المعركة ، أسطولهم المصري وأسطولهم الشامي . وهم إنما تمكنوا من بنائهما وتجهيزهما بهذه السرعة ، بفضل القواعد البحرية التي انتزعوها من الروم ، وبفضل مهرة العمال من سكان مصر والشام ، الذين اشتغلوا بإخلاص في بناء هذه السفن وتجهيزها وخدمتها ، وكانوا بحارتها ، في حين أن العرب لم يكونوا فيها إلّا جنوداً محاربين . وكان نجاحهم أنهم استطاعوا أن يحولوا المعركة (في البحر) إلى معركة برية . وذلك أنهم اقتربوا بسفنهم حتى حاذت سفن الروم ، ثم ربطوا هذه بتلك ربطاً محكماً بالحبال ، وشرعوا في القتال على ظهور تلك السفن ، التي أصبحت ميداناً ، وأخذ الفريقان يناجزان بعضهما بعضاً بالسيوف والحراب . ولم تلبث المعركة أن أصبحت على هذه الصورة ، مجزرة هائلة ، سالت فيها الدماء غزيرة ، حتى صبغت وجه البحر ، وحتى أصبح البحر لكثرة ما غرق فيه من السفن ، أشبه بغابة احترقت أشجارها . . وكان الأسطول الرومي يقوده الامبراطور ، وقد نجا بنفسه مثخناً بالجراح ، بعد أن فقد أسطوله ورجاله .

كانت هذه المعركة نصراً مبيناً للعرب ، تشبه نصرهم في

اليرموك . . ففي اليرموك ، أحرز العرب نصرهم الأول على الروم في البرّ ، وفي هذه ، أحرزوا نصرهم الأول في البحر . وبين المعركتين نحو عشرين سنة . غير أن خالد بن الوليد ، بطل اليرموك ، عرف كيف يستثمر نصره إلى أقصى حد ، بينما إبن سرح لم يتسن له شيء من ذلك ، ـ وليس اللوم على هذا القائد الباسل ، فاتح برقة وطرابلس وقبرس ، وإنما عِلّة ذلك ، هي الفتنة التي ثارت على الخليفة عثمان بن عفان ، وانتهت بقتله ، وآلت إلى إنقسام الأمة ، وإلى الحروب الأهلية التي نشبت بين أحزابها . . وقد كان علي في الحجاز ، وعائشة في العراق ، ومعاوية في الشام ، واستدعي إبن سرح من مصر . . وإن هذه الحوادث المؤسفة ، قد أخرت العرب عن متابعة أعمالهم البحرية ، ولم يعودوا إليها ، إلاّ بعد أن استتب الأمر لمعاوية ، فعاد إلى ما انقطع منها ، بهمته المعروفة وطموحه العجيب ، وعاد إلى مهاجمة الروم في البحر ، وأرسل إلى القسطنطينية سنة ٦٦٩ أسطولاً بقيادة ابنه يزيد ، وجيشاً بريّاً بقيادة فضل الله بن عبيد الأنصاري ، على أن تلتقي القوتان أمام أسوار العاصمة الحصينة .

ووصلت القوتان إلى أسوار عاصمة الروم في ربيع تلك السنة ، وضربتا عليها الحصار . وقد أظهر يزيد بن معاوية في ذلك ضروريًا من الشجاعة والبطولة ، ما لُقِّبَ لأجله بفتى العرب . وتوفي في أثناء هذا الحصار قائد الجيش البري أبو أيوب

الأنصاري ، حامل راية النبيّ ﷺ . وكان أبو أيوب هذا ، هو أول من نزل النبي في داره في المدينة ، يوم هاجر إليها من مكة . توفي أبو أيوب ودفن تحت أسوار القسطنطينية ، وبقي قبره مزاراً للنصارى في بلاد الروم . ثم بنى عليه الأتراك العثمانيون جامعاً ، كان يتقلد فيه سلاطينهم سيوف الخلافة . . فسبحان من جعل هذا الأنصاري الوقور ، موضع تبجيل العرب والروم والترك على السواء .

وجهَّز معاوية في أواخر أيامه ، حملة بحرية قوية ، قهرت الأسطول الرومي ، وهزمته إلى بحر مرمرة . ثم حاصرت عاصمة البيزنطيين حصاراً دام سبع سنين ، وكان أطول حصار عرفه التاريخ . واستطاع العرب في أثنائه أن يحتلوا رودس وكريت . ولم يعودوا من هذا الحصار ومن هذه الأعمال الباهرة ، إلاَّ لما تفاقم في بلادهم من الحوادث والفتن ، على أثر وفاة معاوية . وبقيت حالة الاضطراب هذه ، ضاربة أطنابها في البلاد ، إلى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان . وفي عهد سليمان ، عاد العرب فقاموا بحملة جديدة على عاصمة الروم ، وكانت آخر حملاتهم عليها . . وباحتلال العرب صقلية في القرن التاسع ، وببسط سيادتهم على اسبانيا ، أصبح البحر المتوسط جميعه في قبضتهم ، وقد اتخذوا في سواحل إيطاليا ، مراكز تجارية خطيرة ، واحتكروا تجارة البحر من شرقه إلى غربه .

وقد أثبت العرب بكل هذا الذي قدمناه ، أنهم أمة جبارة في البر والبحر ، كما أنهم كذلك في التجارة أيضاً . وكانت لهم رحل وأسفار في بحار الهند والصين ، وفي كنتون وشنغاي وجزر المحيط الهادىء ، وقد كثرت جالياتهم واتسعت تجارتهم ، ومخرت سفنهم في كل مكان . وإن الجاليات العربية في جاوة والملايا وجزر الفيلبين والجزر الأخرى في المحيط الباسيفيك ، لتشهد بحذقهم وبراعتهم في كل فنّ .

(فتح الأندلس)

أشباه الجزر في جنوب أوروبا ثلاثة : اليونان وإيطاليا وإيبريا ، وهذه أكبرها ، وتشمل اسبانيا والبرتغال ، وتختلف عن إيطاليا واليونان ، بموقعها الجغرافي ، كما تختلف بتاريخها . فإيطاليا واليونان بلدان جبليان ، تخترقهما سلاسل الجبال . أما إسبانيا فسطحها نجد عال ، تخترقه أو تحيط به ، سلاسل جبال ، لا يبرز ارتفاعها إلاّ عندما تهبط فجأة إلى السهل أو شاطىء البحر . وشكل إسبانيا يشبه المربع ، فلهذا قلبها بعيد عن البحر ، وهو لهذا كثير الحر نهاراً ، والبرد ليلاً ، مع اختلاف كبير كذلك في درجة الحرارة صيفاً وشتاء . وجبال البرانس تفصل اسبانيا عن باقي أوروبا ، وقديماً قيل إن أوروبا تبتدىء من البرانس ، لا من جبل طارق .

هذا الاختلاف في الموقع والمناخ بين أسبانيا وباقي أوروبا ، يتممه الاختلاف في تاريخ هذه البلاد عن تاريخ أوروبا . ففي أسبانيا أسَّس العرب حضارة عربية قلباً وقالباً ، زخرت بها البلاد طوال ثمانية قرون ، تركت أثرها في لغة البلاد ، وفي دم أهلها وتاريخها ، كما أن مفاخر العمارة العربية ، لا تزال آية الفنّ في قرطبة وغرناطة ، وقنوات الماء العربية ، لا تزال تسقي أشجار البرتقال في بلنسية ، وهي الأشجار التي نقلها العرب إلى تلك البلاد .

وجد العرب في اسبانيا مناخاً شبيهاً بمناخ بلادهم في الجزيرة ، وكذلك في الشام ومصر ، وفي شمال أفريقيا ، وإليها نقلوا أنواعاً كثيرة من أشجار الشرق الأدنى المثمرة ، كما نقلوا نظام الري في مصر والعراق . وقد أطلقوا عليها إسم (الأندلس) نسبة إلى قبائل الفندال التي نهبت روما ، واجتاحت شمال أفريقيا ، ثم عبرت البحر إلى اسبانيا وانتشرت فيها . واليوم ينحصر إسم الأندلس (فندالوسية) في مقاطعة الجنوب ، حيث قرطبة وغرناطة وأشبيلية . . ونجد الأندلس تحيط به حافات من الجبال ، كما يحيط مثلها بنجد الجزيرة العربية ، وبالحجاز واليمن وحضرموت . وقد أطلقوا على الجبال في إسبانيا إسم (سيرا) ، فمنها في الشمال سيرا نفادا ، وفي الجنوب سيرا مورينا . و(سيرا) عربية الأصل ، لأن العرب كانوا قد أطلقوا على تلك الجبال إسم جبال السَّراة ، وحمل الاسبان هذا الاسم إلى

اميركا ، فأطلقوه على بعض الجبال فيها . . وكذلك معظم الأنهار في اسبانيا ، لا تزال تحتفظ بأسمائها العربية ، فمن ذلك : الوادي الكبير الذي عليه أشبيلية ، والوادي اليانع ، ونهر التاج وعليه طليطلة . . وفي أحواض الأنهار ، حيث الصيف الحار والتربة الخصبية ، عرف العرب كيف يستغلون ثروة البلاد ، حتى جعلوا منها جنة الله في أرضه .

إن حوض الإيبر في الشرق ، وحوض الأندلس (فندالوسية) في الجنوب ، تطبق عليهما الجبال . فإذا نزل أحد إلى البر من جهة جبل طارق ، اعترضته جبال شاهقة ، فإذا اجتازها بلغ الحوض ، ثم النجد الآخر . والأمطار في الوسط وفي أحواض الأنهار قليلة ، ولولا مهارة العرب في نظام الري ، لما تمكنوا من الانتفاع بخصب البلاد الطبيعي . وفي الأندلس نزل العرب بلاداً تشبه بسمائها الصافية ومناخها المتقلّب ، وكذلك بكرومها وزيتونها وبرتقالها ونخيلها وغلالها ، ما ألفوه في الشام والعراق ومصر .

وقد استهدفت بلاد الأندلس ، قبل مجيء العرب إليها بقرنين ، لهجوم البرابرة . فقد اجتاحوا الأمبراطورية الرومانية ، ثم زحفوا إلى اسبانيا وعاثوا فيها فساداً ، حتى جعلوها خراباً يباباً . وكانت أسبانيا تابعة لامبراطورية روما ، فلما فسدت هذه ، دب الفساد إلى اسبانيا أيضاً ، فكثر فيها العبيد ، وانتشر الفجور ، وعمَّ الجور وفقد الأمن . وجاءها ، وهي في هذه

الحالة ، القوط (سنة ٤٥٦) فطردوا الفندال وحكموا البلاد ، إلى أن جاء العرب واستولوا عليها ، وتنفس الناس الصعداء ، بعد الذي عانوه من ظلم الحكام وعسف الرؤساء . وتم هذا في عهد عبد العزيز بن مروان أمير مصر .

وكان عبد العزيز بعد أن ولي مصر لأخيه عبد الملك ، قد استقدم إليه موسى بن نصير ، وكان في خدمة بني أمية ، وولاه أفريقيا ، وكانت بادراتها تابعة لمصر ، وكان الأمن قد استتب فيها ويطل النزاع بين العرب والبربر . ولما قدم موسى إلى القيروان ، كانت طنجة وسواحل المحيط الأطلسي ، لا تزال في أيدي البيزنطيين ، فاحتلها موسى ، ولم يبق خارج الحكم العربي منها إلاّ مدينة (سبتة) الواقعة على الساحل الافريقي في الجهة المقابلة لجبل طارق ، وكانت علاقتها بالروم قد تراخت ، بعد الذي حل بهم من الانحدار في البحر ، وأصبحت علاقتها باسبانيا أشد وأمتن .

وكانت سبتة هذه نقطة الاتصال بين العرب وأسبانيا ، وكان أميرها (جوليان) ينقم على رذريق ، الذي قتل ملك القوط واغتصب عرشه ، ولعله كان ينقم عليه لأمور أخرى ، فصحت عزيمته على الانتقام منه ، ولم ير إلاَّ أن يرميه بجيش العرب ، وهو يعلم أن رذريق مهما كان قوياً ، فإنه لا يستطيع الثبات أمام العرب ، أو يقوى على مقاومتهم . ومما زاده تصميماً على ذلك ،

أن أبناء الملك القتيل واخاه ، كانوا يطلبون الانتقام كذلك ، ويدبرون المكايد لرذريق . . وكان موسى بن نصير في ذلك الوقت ، قد خلّف على طنجة طارق بن زياد ، قائد حرسه ، وعاد إلى القيروان .

إن قرب أسبانيا من ساحل افريقيا ، ووجود سبتة بين العرب والقوط وموالاتها للعرب ، وهجرة اليهود إلى أفريقيا لكثرة ما كان يقع عليهم من الحيف والاضطهاد في اسبانيا ، ـ كل ذلك قد هوّن على العرب أمر أسبانيا ، ومهد لهم السبيل إليها . . ويقال أن موسى بن نصير ، استشار الخليفة الوليد في ذلك . وكان الخليفة متحفظاً في جوابه ، فلم يمنع موسى من التحرش بالقوط ، ولم ينصح له بقذف الجيش العربي إلى ما وراء البحر ، وإنما أشار عليه بأن يرسل السرايا في حملات صغيرة ، لتناوش القوط ، وتقف على مبلغ قوتهم ، وتلقي الرعب في قلوبهم .

والبعثة الحربية الأولى التي أرسلها لهذا الغرض ، كانت بقيادة أبي الزوراء طريف ، وقوامها خمسمئة جندي ، ربعهم من الفرسان . واسم (طريف) هذا ، سميت به فيما بعد مدينة صغيرة على ساحل الأندلس ، غربي جبل طارق . وكان أمير سبتة قد جهّز سفناً ، نقل عليها هذه الحملة ، وذلك في شهر تموز سنة ٧١٠ . ولم تلبث الحملة أن عادت بعد أن قامت بمهمتها خير قيام . . وفي السنة التالية أرسل موسى حملة أخرى أكبر من

الأولى ، بقيادة طارق بن زياد حاكم طنجة ، وكان بربرياً من موالي موسى . وكان جيشه سبعة آلاف رجل ، اجتاز بهم المضيق ، وعرضه نحو ثلاثة عشر ميلاً ، ونزلوا في الساحل الاسباني عند الصخرة التي عرفت فيما بعد بجبل طارق . وكانت هناك مدينة في موضع (الجزيرة الخضراء) ، فاحتلها طارق ، ثم تقدم شمالاً في سهل الأندلس . ونمي إليه أن رذريق القوطي قد هبَّ لملاقاته بجموعه الجرارة ، فلم يرهبه ذلك ولم يثنه عن عزمه ، فأرسل إلى موسى يطلب نجدة ، وسارع لمقابلة القوط بجيشه الصغير .

ولم يتأخر موسى بن نصير عن إمداد طارق ، فأرسل إليه نجدة من خمسة آلاف جندي ، أصبح لطارق بهم جيش من اثني عشر ألفاً ، قذف بهم في المعركة الأولى ، التي نشبت بين العرب والقوط في اسبانيا ، وكانت حامية ، بل كانت الفاصلة ، لأنها فتحت أمام العرب بلاداً عظيمة مساحتها قدر مساحة فرنسا . وقد وقعت هذه المعركة الخالدة (في ٩ تموز سنة ٧١١) عند وادٍ سماه العرب فيما بعد (وادي بكة) . ويجري الماء في هذا الوادي إلى أن يصب في البحر عند رأس (الطرف الأغرّ) ، وهو المكان الذي قهر فيه الأميرال نلسون الانكليزي ، أسطول فرنسا وأسطول أسبانيا معاً سنة ١٨٠٥ ، وقضى بذلك على سيادة نابوليون البحرية .

كان لرذريق في هذه المعركة جيش عظيم ، لا نسبة بينه وبين

جيش العرب الصغير ، ولكن كان ينقصه كثير من المزايا الحربية والمعنوية . وقد أقام على ميمنة جيشه وميسرته أميرين من القوط ، هما ولدا الملك الذي قتله رذريق واغتصب ملكه ، وإنما جعلهما قائدين ليترضاهما ، ولكنهما خذلاه في أحرج المواقف . وكان معظم رجال هذا الجيش ، من العبيد والفلاحين الناقمين على حكم القوط وسوء إدارتهم ، بخلاف جيش طارق، فقد كان على قلّته قوياً باسلاً مدرباً ، اندفع إلى ميدان القتال اندفاع السيل ، وفي مقدمته طارق البطل ، الذي أظهر من الجرأة والاقدام والعبقرية الحربية ، ما يجعله شبيهاً بخالد .

وكان موسى بن نصير ، يخشى أن يتوغل طارق في البلاد ذلك الجيش الصغير ، فأرسل يستدعيه إلى أفريقيا . غير أن طارقاً كان يرى ، أن الفرصة التي سنحت له الآن ، قد لا تسنح مرة أخرى . فاسبانيا بلا جيش يدافع عنها ، وبلا ملك يحسن تدبيرها ويجمع كلمتها . ولهذا لم يذعن لأوامر موسى ، وتابع تقدمه . . وكان يهود أسبانيا ، يضمرون منذ زمان طويل ، كل عداء للقوط ، للأسباب التي تقدمت ، وقد عزموا على إعلان ثورة عامة في البلاد ، والاشتراك مع العرب في إنزال الضربة القاضية بالطغاة . وكان الاضطهاد الذي مني به اليهود في اسبانيا القوطية ، من أفظع ما سجله التاريخ ، ولا يدانيه إلّا ما لقيه اليهود والعرب معاً ، بعد ثمانية قرون ، عندما دارت الدائرة عليهم .

كانت عاصمة القوط في طُلَيْطلَة ، وهي واقعة على نهر التاج ، في مركز حربي خطير في قلب البلاد . فلما احتل طارق قرطبة وأشبيلية ، وبلاداً أخرى سلمت بلا مقاومة ، ترك القلاع والحصون ، واتجه نحو العاصمة . . وفي هذه الأثناء نزل موسى بن نصير إلى برّ اسبانيا بجيش ، قوامه عشرون ألفاً ، أكثرهم من جند الشام المدربين . ففتح جميع الحصون التي عجز عنها طارق ، ثم لحق بطارق قرب طُلَيْطِلَة . ولما دنت جموع العرب من العاصمة ، قام اليهود بثورتهم ، فذعر الناس وعمهم الرُّعب ، وقد خرجوا من العاصمة ، ولاذوا بالفرار إلى الجبال القريبة ، وسلمت المدينة ، ودخلها موسى ، وعينَ عليها حاكماً ، أحد أبناء الملك الذي قتله رذريق . وكانت أسرته كلها تميل إلى العرب ، وقد آثرت البقاء في العاصمة ، فأعاد موسى إليها أملاكها السابقة ، وأضاف إلى ذلك أملاك أمراء القوط الآخرين . . ولم يلقَ العرب بعد فتح طليطلة مقاومة تذكر ، وقد تقدموا في الجهات الشمالية الشرقية ، فاحتلوا سيراقوزا وفي الجهات الشمالية الغربية ، حتى بلغوا خليج يسكاي .

بعد أن تم لموسى فتح الأندلس ، استدعاه الوليد بن عبد الملك ، فجاء سنة ٧١٥ وفي حاشيته أربعمئة أمير من أمراء القوط ، وآلاف كثيرة من خدمهم ، وأسرى الحرب ، وأحمال الغنائم التي لا تحصى . وقد استقبل الخليفة هذا القائد العظيم في جامع دمشق ، ـ فكان منظراً لم تر روما مثله في أعز أيامها . .

وتوفي الوليد بعد ذلك بقليل ، تاركاً لأخيه سليمان ، هذه الامبراطورية العظيمة ، من حدود الصين إلى حدود فرنسا .

(الامبراطورية العربية في أوج عظمتها)

في الشهر الثاني من سنة ٧١٥ كانت دمشق ، عاصمة الأمويين ، تستقبل الفاتح العربي ، موسى بن نصير ، الذي قدم من الأندلس ، وفي حاشيته أربعمئة أمير قوطي ، وثلاثون ألف أسير من خدم هؤلاء الأمراء . ورأى أهل دمشق ، ما لم تر مثله هذه المدينة في حياتها الطويلة ، (وهي كما هو معلوم أقدم مدينة في العالم) . . رأوا أمراء القوط بشعرهم الأشقر المسترسل ، وبتيجانهم الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة ، وبأحزمتهم المزركشة وهي من الذهب الخالص . . ورأوا الغنائم التي مرّت أمامهم ، في ذلك الموكب العظيم ، الذي لم تحظ بمثله روما في أوج عزها .

وكان في استقبال هذا القائد ، الخليفة نفسه (الوليد بن عبد الملك) ، وهو الذي استدعاه ، فسار إليه من طليطلة إلى دمشق ، وبينهما مسير ثلاثة أشهر . . ومثل موسى بين يدي أمير المؤمنين ، في جامع دمشق الكبير . . وكان هذا آخر عمل قام به الوليد ، وقد قرّت عيناه قبل موته ، بعظمة ما فتح الله به على المسلمين في عهده . وبايع الناس بعده ، أخاه سليمان .

وكان سليمان بهيّ الطلعة فصيح اللسان طموح النفس . وخؤولته من بني عبس ، قبيلة عنترة فارس العرب . وقد ربِّي في البادية ، شأن أكثر أمراء بني أمية . ومات في أوائل العقد الخامس من عمره ، وكان حكمه القصير الذي لم يزد على ثلاث سنوات ، مملوء بالأعمال الجليلة ، وكانت خاتمة أمجاد العرب .

فقد وقف الفتح بعد سليمان ، وفقد الملك بعد بني أمية عربيته الخالصة . . وفي عهد سليمان تم بناء مدينة الرَّملة ، عاصمة فلسطين إذ ذاك ، وكان قبل خلافته ، والياً على فلسطين ، ومقرُّ ولايته مدينة اللِّدّ . فلما رقي عرش الخلافة ، أراد أن يكون له ما كان لأبيه عبد الملك ، ولأخيه الوليد ، من الفضل في الفتح والعمارة ، فأمر ببناء الرملة . . ويقول المقدسي المؤرخ المشهور في القرن العاشر الميلادي : ان مسجد الرملة ، أجمل من مسجد دمشق ، ويسميه الجامع الأبيض ، لأنه كان من الرُّخام الناصح البياض ، وإن محرابه ، أجمل محراب في بلاد الاسلام ، بعد محراب الحرم الشريف .

وأما الفتح ـ فقد عمد سليمان إلى تتويج الفتوح العربية بعمل ، لو تم لغيَّر مجرى التاريخ . فقد وضع هذا الخليفة الطموح خطة ، كانت غاية في الدقة والإحكام ، لِحَمْلَةٍ برية وبحرية على القسطنطينية . ولكن الوفاة عاجلته فلم تتم ، وعادت جيوشه ، لأن أمر الخلافة كان الشغل الشاغل لأمراء

العرب وقوادهم ، على أثر وفاة كل خليفة ، ولا سيما ، وان إبن سليمان كان صغيراً ، والناس يخشون أن يثور النزاع بين الأمراء الطامحين إلى العرش .

وفي سنة ٧١٧ ظهر أمام القسطنطينية ، جيش عربي عظيم ، يقوده مسلمة إبن عبد الملك ، أشجع رجال بني أمية وأبرزهم فروسية . وقد اجتاز مسلمة بقواته الأناضول في طريق الساحل أولاً ، ثم سار في جهة الشمال الغربي يريد البوسفور ، وكان جيشه ثمانين ألفاً ، وهو أكبر جيش ساقه العرب في فتوحهم ، وكان هدفه ، أعظم هدف سعت إليه قوة عربية . . وفي أوائل أيلول من تلك السنة ، اجتاز بحر مرمرة ، أسطول عربي ، قيل أن سفنه كانت ألفاً وثمانمئة . وقامت هاتان القوتان العربيتان ، بأكبر حصار استهدفت له القسطنطينية في تاريخها . واستمرَّ الحصار طويلاً ، وقاومت عاصمة الروم هذه المحاولة ، فثبتت ولم تُسَلِّم، وساعدها على ذلك عدة أمور ، منها أنها كانت مركزاً تجارياً عامراً ، وقد حاصرها العرب قبلاً بقيادة يزيد بن معاوية سبع سنوات كاملة ، فاتخذت لمثل هذا الحصار كامل اهبتها من الزاد والذخيرة . ومنها أن مرفأ العاصمة البيزنطية ، كانت تسده جنازير الحديد الضخمة ، في أضيق مسافة بين المدينة وشاطىء آسيا ، ومن جرَّاء ذلك ، عجزت السفن عن بلوغها ، كما عجزت عن سد طريق البحر الأسود إليها ، فبقي هذا الطريق مفتوحاً ، كما بقي إتصال العاصمة بموانىء البحر الأسود سالماً

ومن ذلك أيضاً النار اليونانية التي اخترعها الروم من مواد سريعة الالتهاب ، فيها الكلس والكبريت والنفط وغيرها ، فكان الروم من سفنهم وأسوار مدينتهم ، يقذفون سفن العرب بها . . ومن ذلك أيضاً وفاة الخليفة سليمان . . ولعل هذا كان أكبر حافز للعرب على ترك عاصمة الروم وشأنها ، والاسراع بالعودة إلى الشام ، وهم لو ظلُّوا على حصارها ، لفتحوها لا محالة ، ولو طال أمد الحصار .

وكان امبراطور الروم في ذلك الوقت (واسمه لاون) من أقدر قياصرة الروم ، الذين ولوا الحكم بعد هرقل . وقد استطاع بحسن حيلته ، أن يحصل على معاونة قبائل البلغار ، فأمدوه بأكثر من عشرين ألفاً من رجالهم . ومما كان عوناً للروم أيضاً ، أن شتاء تلك السنة ، كان شديد الوطأة ، فأصاب الأسطول العربي برزايا كثيرة ، كان أشدها فتكاً تلك العاصفة الهوجاء ، التي ثارت عليه في بحر إيجة وهو عائد إلى بلاده . . ولم يحاول العرب بعد هذه الحملة اقتحام القسطنطينية براً ، ولا بحراً .

وبعد أربع عشرة سنة من ذلك التاريخ ، ارتدَّت الموجة العربية في الغرب عن سهول فرنسا . وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك . وكان العرب قد قطعوا جبال البرانس ، بين أسبانيا وفرنسا ، أيام سليمان بن عبد الملك ، واحتلوا على حدود فرنسا الجنوبية بعض المواقع التي اتخذوها قاعدة لزحفهم إلى قلب أوروبا . وفي سنة ٧٣٢ وصل عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس

إلى سهل تور ، بعد أن احتل العرب مدينة بوردو على ساحل فرنسا الغربي ، وهي عاصمة فرنسا الثانية ، وإليها انتقلت الحكومة الفرنسية يوم وقعت باريس في أيدي الغزاة في حرب السبعين ، والحرب العالمية الحاضرة .

أمام تور هذه ، تقابل الجيشان ، العربيُّ بقيادة عبد الرحمن الغافقي ، والفرنجي بقيادة شارل مارتل ، وكان سلاح الفرنجة الفؤوس الطويلة الضخمة ، غير أن فرسان العرب كانوا أسرع منهم حركة وأدرى بفنون الحرب . ولولا أن أصيب العرب بنكبتهم ، لفازوا ونالوا من أعدائهم ما أرادوا ، فقد قتل قائدهم عبد الرحمن ، واختلف أمراء الجيش فيما بينهم ، وكان من أمرهم أنهم تركوا ميدان القتال ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة في فرنسا . وهم لو اتفقت كلمتهم ، وواصلوا زحفهم ، لكان القسم الجنوبي من فرنسا ، وإيطاليا برمتها ، في متناول أيديهم . وانتهى عهد بني أمية ، وحدود الامبراطورية العربية ، جبال البرانس في أسبانيا ، وجبال طورس شمالي الشام ، ونهر سيحون بين بلاد فارس وبلاد المغول .

هذا الفتح العظيم ، تم للعرب في أقل من قرن ، كانت المرحلة الأولى منه في الشام ، بقيادة بطل اليرموك . ثم اتسعت دائرة الفتح في مرحلته الثانية ، فبلغت حدود الدولة قرطاجنة غرباً وبلخ شرقاً . وفي المرحلة الثالثة ، بلغ الفتح أقصى

الغرب ، على سواحل المحيط الأطلسي ، وشمال فرنسا في أوروبا ، وقلب آسيا شرقاً ، من سيحون شمالاً إلى السِّند جنوباً . وقد تمت المرحلة الأولى من هذه المراحل الثلاث ، في عهد عمر بن الخطاب . وكان أبطال الحلقتين الآخريين خلفاء بني أمية . وكان الفتح يسير بخطى حثيثة في كل مكان ، إلّا إذا ثارت فتنة أو ثورة في البلاد .

والقرن الأول الهجري ، هو العصر العربي من تاريخ الاسلام . فهذه الفتوح العظيمة ، قام بها السلاح العربي ، وهذه المعارك التاريخية الحاسمة كسبها قواد عرب أفذاذ ، أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص والمثنّى وسعد بن أبي وقاص وقتيبة بن مسلم وعقبة بن نافع وعبد الله بن عامر ، وكان الجيش في كل مكان ، من أبناء القبائل العربية ، وقد قاموا بأمور عظيمة لا تجارى : كوّنوا أمبراطورية ، دخل في حوزتها معظم العالم المتمدن المعروف وقتئذ . ونشروا في أرجائها دين العرب ولغة العرب .

وكانت الدَّواوين على عهد سليمان بن عبد الملك ، قد أصبحت كلها عربية بعمالها ولغتها ، وأصبحت اللغة العربية ، هي اللغة الرسمية لجميع البلاد ، وضربت الدراهم والدنانير على طراز خاص ، واستعاض الناس بها عن النقود الأخرى (الأجنبية) التي كانوا يتعاملون بها قبلاً ، وانتشرت المدارس

العربية شيئاً فشيئاً في المعسكرات والمدن ، وعمَّ تعليم القرآن ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وكثر اعتناق الموالي له ، واختلاطهم بالعرب ، مما أضعف العصبية العربية ، وقضى عليها في بعض الأطراف ، ولكنها بقيت محافظة على الاسلام ، إلاّ اسبانيا .

وإن العرب ، قد تبوّأوا هذا المركز الممتاز ، في تاريخ البشرية ، بما خصَّهم الله به من المزايا والصفات ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

سلسلة مختارات إسلامية

كلمات ومواقف خالدة

دار الفكر اللبناني

سلسلة
مختارات
إسلامية

كلمات ومواقف خالدة

دار الفكر اللبناني



بسم الله الرحمن الرحيم

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً ، وَلَيَنْصُرَونَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌ عَزِيزٌ * » .

صدق الله العظيم

كلمات خالدة

عبور دجلة

عندما وصل سعد بن ابي وقاص الى شاطىء دجلة رأى على مد البصر من الشاطىء الاخر : « المدائن » معقل كسرى وقصرة الابيض في بهائه .

ولم يجد سبيلا ، الا ان يعبر مع رجاله على خيولهم ، وتقدم عاصم بن عمرو ومعه ستمائة من اهل النجدة فساروا حتى بافوا شاطىء دجلة ، يريدون أن يعبرون أولاً ليحموا الشاطىء من الجانب الاخر ، فلما وجد بعض رجاله يترددون تلا قوله تعالى « وما كان لنفس ان تموت الا بأذن الله كتابا مؤجلا » ثم رفع رأسه فاقتحم النهر واقتحمه زملاؤه فلما رأى القعقاع بن عمرو « الكتيبة الاولى » يتقدم في سحبها ونظر فاذا جنود العدو على الجانب الاخر يتاهبون لردها ، امر سائر اصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم الى النهر ، فدخلوه كما دخله عاصم واصحابه .

وتولى العدو العجب لهذا الصنيع فلما رأوا عاصما واصحابه

يتوسطون النهر ارسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج وليقاتلوهم في الماء ورأى عاصم ذلك فقال لاصحابه :

الرماح ، الرماح ، اشرعوها وتوخوا العيون وخرجت كتيبة الاهوال سالمة .

أجود منك

روى معن بن زائدة : قال :

لما هربت من الخليفة المنصور خرجت من باب حرب . بعد ان اقمت اياما ، وخففت لحيتي وعارضتي ، ولبست جبة صوف غليظة .

قال فتبعني اسود متقلدا سيفا ، حتى اذا غبت عن الحي ، قبض على خطام الجمل فاناخه وقبض علي وقال :

ـ انت معن بن زائدة ، قلت يا هذا ، اتق الله ، اين انا من معن ، قال : دع عنك هذا فانا والله اعرف بك .

قلت : فهذا جوهر حملته معي باضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي فخذه ولا تسفك دمي .

قال هاته فنظر اليه ساعة ثم قال :

ان الناس قد وصفوك بالجود فاخبرني :

هل وهبت قط مالك كله . قلت لا . قال فنصفه ، قلت لا ، قال فثلثه : قلت لا ، حتى بلغ العشر فاستحييت ، فقال : ما ذاك بعظيم ، انا والله رجل ورزقي عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته الف دينار وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك لجودك المأثور بين الناس ولتعلم ان هناك من هو اجود منك .

خذ ثأرك

قال ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك :

هربت من عدوى فمررت على الكوفة فاذا باب كبير ورجل وسيم ما ان راني حتى سالني عن امري .

فقلت : رجل خائف وم ومستجير بك فاجارني . وقدم لي خير ما عنده .

وكان يركب كل يوم في الفجر ولا يرجع الا في المساء .

فسالته ذات يوم ، فقال ان ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك قتل ابي ظلما ، وانا اطلبه لادرك ثأري .

فقلت له يا هذا قد وجب حقك ، انا ابراهيم فخذ ثارك .

فتبسم وجهه واحمرت عيناه وفكر طويلا ثم قال :

لن انقض عهدي واخرج عني فلست امن على نفسي واعطاني الف دينار فرفضتها .

علمي معي

قال الامام الشافعي :

لما ختمت القرآن دخلت المسجد اجالس العلماء واحفظ الحديث وكان منزلنا بمكة في شعب الحفيف . وكنت فقيرا بحيث لا املك ما اشتري به القراطيس فكنت اخذ العظم واكتب فيه حتى ملأت حجرة كبيرة بهذه العظام ثم صبرت على نفسي عاما كاملا فحفظت ، كتبت على هذه العظام عن ظهر قلب وقلت في ذلك شمرا :

علمي معي اينمـا يممت بنفسـي
قلبي وعـاه لـه لا بــطن صنـدوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي
وان كنت في السوق كان العلم في السوق

لا تعصين له امراً

اوصت امرأة مسلمة ابنتها ليلة زفافها فقالت :

يا بنية : انك قد خلفت العش الذي درجت فيه والموضع

الذي خرجت منه الى وكر لم تعرفيه وقرين لم تالفيه ، كوني له أمة يكن لك عبدا واحفظي عني خصالا عشرا يكن لك دركا وذكرا .

اما الاولى والثانية . فحسن الصحبة بالقناعة وجميل المعاشرة بالسمع والطاعة ، ففي حسن المصاحبة راحة القلب ، وفي جميل المعاشرة رضا الرب .

والثالثة والرابعة . التفقد لموضوع عينه والتعاهد لموضع انفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم انفه منك الا اطيب ريح ، واعلمي ان الكحل احسن الحسن المودود ، وان الماء اطيب الطيب الموجود .

والخامسة والسادسة ، فالحفظ لماله والرعاية لحشمه وعياله ، واعلمي ان الاحتفاظ بالمال حسن التقدير والارعاء على الحشم حسن التدبير .

والسابعة والثامنة . التعاهد لوقت طعامه والهدأة عنه وقت منامه ، فحرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغصبة .

والتاسعة والعاشرة : لا تفشين له سرا ولا تعصين له امرا فانك ان افشيت سره لم تأمني غدره وان عصيت امره اوغرت صدره .

لئلا يظن ان ظلمته

كان السلطان نور الدين محمود يلعب الكرة في دمشق ليروض خيله ويمرنها فرأى رجلا يحدث آخر ويشير بيده الى نور الدين فأرسل اليه يسأله عن حاله .

قال : لي مع الملك العادل حكومة وهذا غلام القاضي .

فألقى نور الدين « الجوكان » من يده وخرج من الميدان وسار الى القاضي وهو حينئذ « كمال الدين الشهر زورى » .

وأرسل الى القاضي يقول : انني قد جئت محاكما فاسلك معي ما تسلكه مع غيري ، فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين .

فقال نور الدين حينئذ للقاضي ، ولمن حضر :ـ هل ثبت لك عندي حق . . قالوا : لا

قال : اشهدوا انني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه وهو له دوني ، وقد كنت اعلم ان لا حق له عندي ، وانما حضرت معه لئلا يظنَ اني قد ظلمته .

هيبة السلطان

قدم عمر بن الخطاب الى الشام على حماره فتلقاه معاوية في موكب نبيل فأعرض عنه عمر ، فجعل يمشي الى جنبه

راجلا ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف :
اتعبت الرجل ، فاقبل عليه وقال :

يا معاوية : انت صاحب الموكب مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك .

قال : نعم يا امير المؤمنين .

قال : ولم ذلك ؟!

قال : لاننا في بلاد لا تمنع من الجواسيس ولا بد لهم ما يرعوهم من هيبة السلطان فان امرتني بذلك اقمت عليه وان نهيتني عنه انتهيت

قال : ان كان الذي قلت حقا فانه رأى اريب وان كان باطلا فانها خدعة اديب .

لا آمرك ولا أنهاك

العقد المعار

قال علي بن أبي رفع ؛ كنت على بيت مال علي بن أبي طالب وكاتبه . فكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان قد أصابه يوم البصرة فأرسلت إلى بنت علي بن أبي طالب تقول بلغني أن في بيت المال عقد لؤلؤ وهو في يدك وأنا أحب أن تعيرني أتجمل به في يوم الأضحى ـ فأرسلته إليها عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه فسألها عنه فقالت له . فأرسل إلي فقال : أتخون المسلمين يا إبن أبي رافع قلت معاذ الله . قال

كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير ألفي ورضاهم . فقلت قد وعدت بأن ترده سالماً إلى موضعه . فقال رده من يومك وإياك أن تعود لمثله فتنالك عقوبتي . ثم قال : ويل لابنتي لو كانت أخذت العقد على غير عارية مضمونة مردودة فكانت إذن أول هاشمية قطعت يدها في سرقة » .

مواقف

شجاع امام المطرب

احبط « الحجاج بن يوسف الثقفي » مؤامرة عبد الرحمن بن الاشعث لخلع عبد الملك بن مروان خليفة المسلمين ، وبعث من يحاربه ويخمد فتنته في ارض العراق . ولما احس « ابن الاشعث » بسوء مصيره ، القى بنفسه من اعلى برج فمات منتحرا قبل ان يظفر به الحجاج .

وجلس الحجاج في دار امارته بمدينة الكوفة ليحاكم اعوان ابن الاشعث الذين زينوا له الخروج على طاعة خليفة المسلمين في فترة حرجة من ايام المسلمين حيث الفرس يناولونهم في الشرق ، والرومان يتربصون بهم الدوائر في الغرب .

وكان الحجاج على قسوته وبطشه باعداء الاسلام ومناوئى دولة بني امية يحب ان يسمع دفاع كل واحد عما اتاه من عصيان لطاعة خليفة المسلمين .

ـ ابن الاشعث ـ فقام وتقدم الى حيث يجلس ـ الحجاج ـ ثم قال : ايها الامير . ان لي عليك حقا ويدا .
قال الحجاج : وما حقك علي ؟
قال الرجل : سبك ابن الاشعث وشتمك يوما فرددت عنك
قال الحجاج : ومن يعلم ذاك ؟

قال الرجل وهو يتفرس في وجوه الحاضرين من زملاء المؤامرة : انشد الله رجلا فيكم سمع مقالتي دفاعا عن الامير الا شهد به .

وجاء الدور على رجل من اعوان فقام رجل من الاسرى فقال : قد كان ذاك ايها الامير .

قال الحاج : اذن يخلى سبيلي لصدقه .

ثم التفت الحجاج الى الرجل الاخر يخاطبه : فما منعك ان تنكر كما انكر صاحبك ؟

قال الرجل : لقديم بغضى اياك ايها الامير وكراهتي ان يذكرك احد بخير وضحك الحجاج ثم قال : ويخلى سبيل هذا لشجاعته امام الموت .

مواقف

أول العدل

كان « يحيي بن اكتم ـ الوزير يماشي « المأمون » الخليفة العباسي يوما في بستان مؤنسة بنت المهدي خارج مدينة بغداد ، والشمس عن يسار يحيي والمأمون في الظل وقد وضع يده على عاتق يحيي وهما يتحادثان حتى بلغ المأمون حيث اراد ، ثم كر راجعا من نفس الطريق التي بدأ فيها فقال ليحيي .

ـ كانت الشمس عليك لانك كنت عن يساري ، وقد نالت منك ، فكن الان حيث كنت ، واتحول انا حيث كنت انت .

قال يحيي الوزير :

ـ والله يا امير المؤمنين لو امكنني ان اقيك هول المطلع بنفسي ففعلت .

فقال المامون :

ـ لا والله ما بد من ان تاخذ الشمس مني مثل ما اخذت منك .

ولما لم يكن الخليفة « المأمون » يحب ان يراجعه في الحق احد ، فقد تحول يحيي واخذ من الظل مثل الذي اخذ منه المأمون .

وقال المأمون معقبا :

ـ اول العدل ان يعدل الرجل على بطانته ، ثم على الذين يلونهم حتى يبلغ العدل الطبقة الدنيا .

حسين الطوخي

مواقف

عمر يحارب الروتين

■ حين ولى خلافة المسلمين « عمر بن عبد العزيز » تأمن خلفاء بني امية ، كانت امور الدولة الاسلامية قد اصابتها بعض الشروخ ، وبعض من سوس الفساد والاهواء قد عرف الطريق الى اساليب الحكم منذ خلافة يزيد بن معاوية التي اريقت خلالها دماء المسلمين انهارا منذ مقتل الحسين ابن علي رضي الله عنهما .

غير ان « عمر بن عبد العزيز » اعلى وارشد خلفاء بني امية ، لم يأل جهدا في رأب الصدع ، وتقويم ما اعوج من امور الدولة الناشئة ، واختار لنفسه ان يركب الصعب ، وان يرضى رب العباد قبل ان يستجلب رضاء العباد .

ورغما عن قصر مدة خلافته التي لم تزد عن عامين وبضعة اشهر ، فقد كان يحارب الفساد في كل موضع ، ويحاسب عماله وامراء ولايات الدولة ادق حساب ، فيعزل على الفور من تثبت عليه تهمة الرشوة والاثراء الحرام من اموال المسلمين ولم تكن تاخذه في الحق لومة لائم . .

وكان قد اقام على المظالم رجلا من خيار المسلمين واعفهم قلبا وانظفهم نفسا ويدا وهو « عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ».

غير ان « عبد الحميد » بسبب خشيته من شدة حساب الخليفة له ، كان يراجعه فيما يصدره اليه من اوامر وتعليمات حتى لا يقع في خطأ او يكبوبه تصرف ما . .

وكان ان تضايق منه الخليفة لما كثرت مراجعته له التي تعطل بدورها قضاء امور المسلمين ، فبعث اليه « عمر » كتابا يقول فيه :

« انه ليخيل الي اني لو كتبت اليك ان تعطي رجلا شاة لكتبت إلّي : أضان أم ماعز ، ولو كتبت إليك باحدهما لكتبت الي : اصغير ام كبير . فاذا اتاك كتابي هذا فلا تراجعني في مظلمة .

من ادب النبوة

التواضع

قال رسول الله صلي الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه » .

لا يعرف الناس فضيلة تجعل صاحبها حبيبا الى الناس اثيرا لديهم ، كما يعرفون ذلك لفضيلة التواضع . . ولذلك كان

اسلافنا الصالحون حرصاء اشد الحرص على ان يطاردوا بكل ما يستطيعون رذيلة الكبر في صدورهم التماسا لرضوان الناس وحسن ثواب الله .

وليس كل احد قادرا على قهر شهوة الكبر بين جنبيه الا ان يمنحه الله من عونه وتأييده ما يستطيع به الانتصار على نفسه ، والانتصار على النفس هو اصعب ضروب الانتصار على الاطلاق .

واكثر الذين حرصوا على تحصيل فضيلة التواضع وتجنب رذيلة الكبر كانت لهم وسائل ميسورة ، غير ان هناك وسيلة لا تكاد تخطر على قلب بشر الا ان يكون صاحب عزمة صارمة وخوف من الله شديد ، وهي الوسيلة التي لجأ اليها امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وليس سواه يستطيع ان يصنع في هذا الباب مثل هذا الصنيع .

كان للمسلمين نداء اذا استمعوا اليه قاموا الى مسجد رسول الله مسارعين .

وذات يوم استمعوا الى المنادي يقول : الصلاة جامعة . فعرفوا ان ثمة أمرا خطيرا يريد ان يتحدث به الى المؤمنين امير المؤمنين ، فنهضوا الى المسجد حتى اذا امتلأ بهم جاء عمر فرقى المنبر والافكار حائمة حوله ، والابصار متطلعة اليه ، ماذا

يريد أن يقول ؟ وأي نازلة دعت أمير المؤمنين أن يجمعهم على غير ميعاد وأن يجيء فيجلس على منبر رسول الله في نظرة خاشعة ورأس منكس وتأمل عميق .

ولم يطل الامر بعمر حتى وقف فحمد الله واثنى عليه وقد كاد الناس يحبسون انفاسهم حتى لا تفوتهم كلمة مما سيقوله امير المؤمنين . وقال عمر : ايها الناس : لقد كنت في الجاهلية ارعى الغنم لخالاتي في قميص لا يجاوز ركبتي ، فاذا اقبل المساء رحت بالغنم فقبض لي قبضات من التمر اتبلغ بهن ماشاء الله . وها أنذا اليوم امير المؤمنين وليس فوق سلطاني سلطان الا لله رب العالمين .

وازدادت الافكار انطلاقا حوله ، والابصار تطلعا اليه . ماذا بعد ذلك ؟

وهم ينتظرون ما وراء ذلك ، ولكن عمر لم يكن يريد شيئا وراء الذي قال ، فنزل عن المنبر . .

لم يقل سوى هذه الكلمات التي استمع اليها الناس ، وكان استعجابهم منها اعظم من اعجابهم بها ، ولم يجرؤ واحد منهم ان يسأل عمر عما قال ، ولا لماذا قال ما قال . . الا عبد الرحمن بن عوف من السابقين الى الاسلام ، فقام اليه يقول له :

ما هذا الذي صنعته بنفسك يا أمير المؤمنين ؟ . انك لم تزد على أن حقرت لنا نفسك .

فالتفت اليه عمر في رزانة المؤمن الواثق بحسن تصرفه وبأنه انما يتفيأ رضوان الله ، ولا يبالي امر الناس . ثم قال : يا ابن عوف . لقد رأيت نفسي تكاد تجمح بي الى آفاق بعيدة فيها هلاك الدين ، فأحببت ان اذكرها بما كانت فيه وبما صارت اليه فقلت ما سمعتم .

هـذا لون من مـراقبة الانسـان الكبير نفسـه لا يقدر عليه ولا يجد السبيل إليه إلاّ مثل عمر ، ممن آمن بالله اوثق الايمان ، وخشى الله اعظم الخشية ، ونظر الى الدنيا بكل ما فيها ومن فيها على انها طريق الى رضوان الله ، ومطية الى حياة خالدة لا يزول نعيمها ولا يبلى جديدها . والمعصوم من عصم الله .

النبوة

القهقهة

كان رسول الله ﷺ يضحك مما يضحك منه الناس ، وكان جل ضحكة التبسم حتى تبدو نواجده ، وربما ذكر الناس عنه أن كثرة الضحك تميت القلب .

هذا الحديث أصل يرجع إلى الأخذ به والتأدب بأدبه الكبار

والقادة وأهل الوقار فهؤلاء جميعلاً لا يليق بهم الاغراق في الضحك حتى يبلغ بهم درجة القهقهة التي تكون عادة عند الذين تستخفهم الملحة أو النكتة أو النادرة ، والخفة مما يستعصم منه الكبار في كل زمان ومكان . .

وليس يستطيع المرء مجاوزة هذه الصورة دون ان يتمثل ما قرره فقهاء الحنفية من ان القهقهة في الصلاة تبطل الصلاة . وتفسد الوضوء مما . فيسائل المرء نفسه او جلساءه او الحنفيين من اهل العلم عن العلاقة بين القهقهة وبين فساد الوضوء . . فان من الميسور تعليل فساد الصلاة بانها سوء ادب بين يدي الله . ولهذا بطلت بالقهقهة . ولو ان بطلان المقاصد كان مفسدا للوسائل لامكن قسور انتقاض الوضوء في يسر وسهولة من حيث كان الوضوء وسيلة الى الصلاة . . فلما بطلت الصلاة فسد الوضوء . . ولكن احدا لم يقرر ـ فيما نعلم ـ ان بطلان المقاصد مفسد للوسائل . .

الصوم في غير رمضان

قال رسول الله ﷺ « لا تصوم المرأة ـ وزوجها شاهد ـ يوما من غير رمضان الا باذنه »

اول ما ينبغي التنبه له ، والتنبيه اليه هو كلمة : « شاهد » في هذا الحديث فان معناها حيث وردت في كلام فصيح هو الحضور وعدم الغياب .

وعلى هذا يكون معنى الحديث ان الزوجة لا يجوز لها شرعا ان تصوم في غير رمضان صيام تتطوع اذا كان زوجها مقيما غير مسافر وحاضرا غير غائب ، مالم يأذن لها زوجها في هذا الصيام .

وعلى هذا المعنى نفسه قول الله تعالى « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » يعني ـ جل ثناؤه ـ ان من حضر مقيما غير مسافر شهر رمضان فعليه ان يصوم فيه ، فليس المراد من شهود الشهر مشاهدته بحاسة البصر كما يفهم هذا كثير من الناس على طريق الخطأ ، فان المريض والمسافر يرى كل منهما الشهر ولا يكلفه الله صيامه فالامر بالصيام راجع الى الحضور بغير سفر والصحة بغير مرض وليس راجعا الى المشاهدة ونهى الرسول المرأة عن صيام التطوع الا بأذن زوجها ، يقويه ويؤيده ما قاله رسول الله في حديث آخر في مجلس له بين اصحابه .

فقد جاءت امرأة شاكية اليه زوجها ـ وكان زوجها في مجلس النبي ـ فقالت : زوجي يمنعني اذا صمت ، وينهرني اذا صليت ، ولا يصلى الصبح حتى تطلع الشمس .

واستمع النبي الى الشكوى كما استمع مجلسه اليها ، وابتدر الزوج يقول : نعم يا رسول الله ، اما قولها انني امنعها اذا صامت فانها تنطلق تصوم وانا رجل شاب واما قولها انني انهرها اذا صلت فانها تقوم الى الصلاة فتطيل القراءة ، واما

قولها انني لا اصلي الصبح حتى تطلع الشمس فاني من قوم قد عرف لنا ذلك فلا نصلي حتى تطلع الشمس .

فقال النبي للزوجة ، لا صيام للمرأة بغير اذن زوجها ، ثم قال لها لو قرأت في صلاتك سورة واحدة قصيرة لكفاك ذلك . ثم قال للرجل واما انت فاذا استيقظت فقم الى الصلاة .

وبهذا يستبين على اوضح وجهٍ ان الاسلام هو دين الفطرة وأن الامر فيه كله قائم على التيسير دون التعسير .

البر . .

قال رسول ﷺ « البر حسن الخلق » .

كل عمل صالح يستجلب حب الناس ورضوان الله يسميه اهل اللغة برا ، فالكلمة اللينة في مواجهة السفهاء بر ، والاغضاءة الكريمة عن تفاهة التافهين بر ، وكل عمل تستقر به في الجماعة السكينة ويسود السلام بر . وقد اعطى الله تعالى نبيه جوامع الكلام فجمع معاني البر في كلمتين « حسن الخلق » .

وهكذا كان ﷺ بعلم اصحابه كلما وجد الى تعليمهم سبيلا ، فهو المعلم ، وهو المربى ، وهو القائد في الجيش ، وهو القاضي في المسجد ، وهو الامام في الصلاة ، وقبل ذلك

كله وبعد ذلك كله هو روح اصحابه الذين كان يحيا بينهم فيحيون به في نعيم مقيم .

وكما كان عليه السلام يعلم بالكلمة تبلغ اعماق نفوس اصحابه فيلتزمون حدودها ، ويتقيدون بمواردها ومصادرها ، كان يعلمهم بالاغضاءة عنهم او التبسم لهم او القيام من مجلسهم ، فكل حركة من حركاته ، وكل سكنة من سكناته ، كانت بينهم ولهم ذات دلالات يقفون عندها ، ويستنتجون منها ، ويتبادرون الى العمل بما تستوجبه وتشير اليه .

فاذا انبسطت اسارير وجهه الشريف لكلمة يقولها قائل اقبلوا عليها واخذوا بها وحرصوا على تردادها . واذا غضب غضبة تغير لها وجهه تجنب الناس كل سبيل اليها ، فكان عليه السلام معلما ومؤدبا بكل قول يقوله وكل خلجة يختلج بها وجهه .

غير ان التأديب والتعليم من طريق القول شيء ومن طريق التزام ما يستوجبه هذا القول شيء اخر ، فليست العبرة بقول قائل يتشدق بما يقول ، ولكن العبرة كل العبرة في التزام يدعوه الى ان يحققها في نفسه قبل ان يدعوهالآخرين الى تحقيقها في نفوسهم . فالقد فالقدوة وحدها هي الطريق الى التربية والتأديب .

وما اكثر ما نرى على وجه الارض امما سيدة في دنيا

الناس ، وليس لها قوانين مكتوبة وانما لها تقاليد يحترمها الكبير وينشأ عليها الصغير ، فالتربية بالقدوة فيها أجدى من التربية بالحديث عنها . .

وقد اجمع الناس من قبلنا على الصدق الصادق في القاعدة المسلمة التي جاء بها القرآن الكريم :

« لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »، فهذه الاسوة اكرم ثمرا واجمل عاقبة ، وايسر سبيلا واقرب استجابة من التربية والتأديب بالمقالات والخطب والشعارات .

النصيحة

قال رسول الله ﷺ « الدين النصيحة »

يقول العربي : نصح الخياط الثوب ، يعني انه لم يترك فيه فتقا ولا خللا .

فالنصيحة ـ حيثما وردت في كلام فصيح ـ تدور حول الصلاح والاستصلاح ، ولكل باب من ابواب الخير آداب يبلغ المرء برعايتها غايته المنشودة من النصح ، فقد روينا عن الاسلاف ان النصيحة في الملأ فضيحة ، فاذا اردت أن تنصح انسانا يعنيك مرة فلا تبذل له نصحك علانية او خشونة

وفظاظة ، فان ذلك ربما حمله على العناد . والعناد دائما شر مطايا السوء .

ثم ان الناس امام النصح صنفان : فمنهم الكبير الشريف ، ومنهم الصغير الخسيس ، ويمتاز الصنف الاول بحسن الادب في تلقي النصح ، وحسن الاستماع الى بذل النصيحة ، و ويمتاز الصنف الثاني بسوء الادب والتسافه على الناس .

ونضرب لك مثالين يتضح بهما الفرق بين الكبير والصغير ، والشريف والخسيس :

المثال الاول : دخل احد اصحاب النبي على سيدنا معاوية ـ وهو امير المؤمنين ـ فقال له معاوية : ما أنعمنا بك يا ابا فلان ، يعني ما الذي جعلك تسعدنا بزيارتك هذه ؟

فقال صاحب النبي : حديث سمعته من رسول الله وهو يقول : « من ولاة الله شيئا من امور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وفقرهم ، احتجب الله دون حاجته وفقره يوم القيامة » .

واستمع الرجل الكبير الشريف معاوية الى هذه النصيحة الغالية في ادب كريم ، ثم امر بتأسيس ديوان يتلقى شكايات الشعب حتى لا يحتجب الله عنه يوم القيامة .

المثال الثاني : دخل احد اصحاب النبي على عبيد الله بن

زياد ـ وكان حاكم اقليم وليس أمير المؤمنين ـ فقال له : « يا بني سمعت رسول الله يقول : « إن شر الرعاة هم الذين يسرقون رعاياهم سوقاً عنيفاً يبلغ بهم نهاية الجهد » .

فلم يكن من هذا الامير الصغير الخسيس الا ان قال له : اجلس فانما انت من نخالة اصحاب رسول الله .

وخجل الصاحب الكريم رضي الله عنه ثم قال : ان اصحاب النبي لم تكن فيهم نخالة ، انما النخالة بعدهم وفي غيرهم .

ولست ترتاب ـ حفظك الله ـ في أن الناصح دائما رابح لانه قد أدى الذي عليه ، واما المنصوح فانه ربما ظفر بالخير الكثير اذا انتصح واستجاب كما فعل سيدنا معاوية ، وربما باء بالاثم الكبير كما فعل عبيد الله بن زياد .

ابناء الانبياء

هود

بعد حادث الطوفان واستئصال شأفة الوثنية باغراق الكافرين من قوم نوح . لم ينقطع امل الشيطان ولا عمله في اغراء الباقين من ذرية نوح بالوثنية والشرك .

وظهر اثره اول ما ظهر بعد هذا الحادث في قوم عاد ، وكانوا عربا يسكنون الاحقاف ـ وهي جبال مكونة من الرمل المنعقد ـ

باليمن بين عمان وحضرموت . تطل على البحر . وتسمى الشحر .

فبعث الله فيهم هودا رسولا اليهم . يدعوهم الى اخلاص العبادة له ، ويذكرهم بانه لا اله غيره ، (قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ، ابلغكم رسالات ربى وانا لكم ناصح امين .

أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم . واذكروا اذا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا الاءالله لعلكم تفلحون ، قالوا اجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤ نا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) .

وغرهم ما كانوا عليه من قوة فقالوا : من أشد منا قوة ؟ ولم يذكروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة ، ولما قال لهم هود (أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله واطيعون . واتقوا الذي امدكم بما تعلمون . امدكم بانعام وبنين . . وجنات وعيون اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، فاتقوا الله واطيعون ، قالوا سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين) .

لذلك امسك الله عليهم المطر فاصابهم الجدب ثلاث سنين ـ كما قيل ـ وارسل في سمائهم سحابة ظنوها تحمل لهم الخير والغيث ، واستبشروا بمقدمها . وقالوا (هذا عارض ممطرنا). فكان الجواب (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم ، تدمر كل شيء بامر ربها) . . ثم كان امرهم كما يقول الله : (فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم)

كانت الريح تنتزعهم وتقتلعهم من مساكنهم وتكبهم على وجوههم جثثا هامدة . والسماء تمطرهم بالعذاب . والصواعق تنقض عليهم وظل هذا العقاب كما يقول الله : (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فترى القوم فيها صرعى كانهم اعجاز نخل خاوية).

وقد اعتزلهم هود ومن معه من المؤمنين في مكان صانه الله وحماه . كما يقول الله : (ولما جاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) . .

وبناء البيت

اذا أطلق اسم البيت كان المراد به بيت الله الحرام ، فهو كما يقول الله فيه : « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين » وقد قرن الله به اليمن والامن واشار اليه بما ينم عن عظمة قدره حيث قال : « فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ».

وقد كان هذا البيت موجوداً قبل ابراهيم بدليل رحلته اليه مع زوجه هاجر . ووليده الوحيد اسماعيل ، ثم تركهما عنده ودعائه عند مغادرته بقوله : « ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

ويظهر من قوله تعالى : « وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل آن طهراً يبني للطائفين والعاكفين والركع السجود » وقوله : « وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل » ان عملهما كان تجديداً وإعادة بناء ، ولم يكن بدء إنشاء ، وإن كان بعض المفسرين يرى غير هذا الرأي ويؤ ول قوله تعالى : « ان أول بيت وضع للناس » . بأنه أول بيت وضع لعموم الناس في تقدير الله وعلمه .

وايا ما كان الرأي فالاتفاق منعقد على ان ابراهيم واسماعيل كانا يرفعان قواعد البيت ويقولان « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم » .

وقد استجاب الله دعاءهما فجعل من ذريتهما أمة مسلمة

ويبعث في هذه الامة رسولا منها اليها والى الناس كافة . فكان كما يقول الله فيه : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » وكما يقول الله فيه : « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ».

كما اراهما مناسك الحج ، واماكن العبادة ، وفرض على الناس حج هذا البيت كما يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » وجعله قبلة المسلمين في كل صلاة يؤدونها لله كما يفهم من قوله : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ».

مع الملك

خرج ابراهيم من محنة القائه في النار سالما منتصرا على قومه . كما يقول الله : « وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين »، وعظم امره وخطره حتى هز جوانب الملك فاستدعاه الملك او امر باحضاره اليه .

وكان قد طغى وبلغ به الطغيان ذروة التكبر والتجبر فادعى لنفسه الربوبية ، فلما احضر اليه ابراهيم سأله عن ربه . فقال : « ربى الذي يحيي ويميت ».

قال الملك : انا احيي واميت ، ويذكر بعض المفسرين انه

امر باحضار رجلين حكم عليهما بالقتل فعفا عن احدهما وقتل الآخر ، وقال : انا أمت هذا واحييت ذاك .

ورأى ابراهيم في ذلك المنطق مغالطة قد تنطلى على السامعين والحاضرين ممن تاثروا بقدرة الملك ، ودانوا له بالخضوع والطاعة فلجأ الى دليل اخر يفحمه ، ويقطع عليه طريق المغالطة والادعاء . وقال : « ان الله ياتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ».

فالشمس مسخرة محكومة بنظام وهي تطلع كل يوم من المشرق . وتسير في فلك لا تحيد عنه ، فان كنت ـ كما تزعم ـ قادرا لا تعجز حكيما لا تخطىء ، حقيقا بان تدعى ربا او الها . فأت بها من المغرب بدل المشرق وانشىء لها نظاما اخر يدل عليك ، ويظهر قدرتك . . . ؟

ولم يجد الطاغية جوابا لهذا السؤال ، ولا قدرة على مواجهة هذا التحدي الا الصمت والحيرة كما يقول الله : « فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ».

اما ابراهيم عليه السلام ، فقد رأى ان يهاجر من هذه الارض مع زوجه ، وابن اخيه لوط . الى ارض اخرى يجد فيها متنفسا لدعوته . ووجهته الحجاز كما جاء في القرآن الكريم « وقال أني ذاهب إلى ربي سيهدين » .

الاعتقاد

سلامة القلب شرط لسلامة الاعتقاد (اذا جاء ربه بقلب سليم) والقلب في لغة القرآن الكريم ، ولغة العرب قبل ان تسرى إليها ظنون الشعوب غير العربية بسوء الاستعمال يعني اللب ، ويعني جهاز العلم والفقه ، فالقلب مصدر الايمان النابع من العلم والعقل وفي هذا يقول الله (لهم قلوب لا يفقهون بها) ويقول (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ويقول (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) .
لهذا فان المؤمنين على عهد الرسول الكريم لم يسألوه وقد امنوا بقلب سليم ـ الا القلة التي كشف الله نفاقها ـ عما لا قدرة للعقل بتحديد بعد ان آمن القلب ، وآمنت النفس ونشطت الحواس والايدي والابصار للعمل في سبيل الله .

ولهذا ـ من منطلق اليقين ـ خمدت في حياة المسلمين الاولى الواعية بالهدى ، والمتدبرة للقرآن والذكية باللغة كل فلسفات الظن ، ووساوس الفضول ، وانتصرت كلمة الله بهم ولم تهن ، وازدادت عرى وحدتهم ولم تنفك .

لقد نشطوا لعمل كثير دعا الله اليه . . نشطوا لتحرير اخوانهم في الشام والعراق واليمن ومصر . ولتقديم صورة الايمان مجسدة . ولاسقاط ربوبية البشر حتى ولـو كان

قسطنطين الاعظم . او هرقل . . لكي تكون الربوبية حقا لله وحده .

كانت اجسادهم على قوتها دون نشاط انفسهم المؤمنة . . النفس قوية . . . والجسد محدود . . لذلك عملوا حتى الموت . . حتى الاستشهاد بغير حد !

لذلك لم ينشأ فيهم سفهاء علم الجدل والكلام . . ولا أولئك الذين قالوا بفلسفاتهم وهم يمنون على الله اسلامهم (لقد آمنا بك . . فقل لنا من انت . . من انت يا رب . . حتى نعمل بما امرت) واذا لم يقل الله لهم من هو لانهم لم يعرفوه ولم يبصروه بالعقل . . فقد حاولوا ان يعرفوه بالجدل . . بالفلسفة على الورق !

المنافقون

ليس النفاق دينا او مذهبا ، ولكنه الحال الذي يظهر فيه شكل الدين او المذهب بينما يختفي مضمونه . لذلك كان النفاق قناعا زائفا من الايمان الذي يخفى وراءه فتنة الكفر والشك . .

ولذلك فالنفاق في خطره الذي هو اشد من خطر المجاهرة بالكفر هو موقف احباط خفي داخل جماعة المؤمنين يستوجب الحذر والتقصي والتعقب لانه المنبع الذي لا يراه احد لتكاثر

جميع الخلافات في الرأي ، والتشكيكات في العقيدة ومذاهب الابتداع المتنوعة التي تقوض وتفك وحدة الامة حول دينها الحق .

المنافقون هم اذن المعترضون الذين يتحركون في الظلام ليتاح لهم اكبر قدر من حرية الحركة لترويج الآراء الخلافية ، والافكار الهدامة فالمنافقون اخوان الكفار يصارحونهم بالولاء وفي هذا يقول الله : « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا ».

والمنافقون يلبسون الأقنعة على نفاقهم وهم يظهرون الايمان وفي هذا يقول الله : « ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم ».

والمنافقون يحاولون ان يخدعوا الله عن نشاطهم الخفي لهدم دعوته وفي هذا يقول عنهم : « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ».

لذلك فان امرهم لا يلبث ان ينكشف ، واقنعتهم تتمزق ، ويأمر الله رسوله بقتالهم في قوله : « يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »..

لقد عاش المنافقون يرون ان « الظاهر » قياسا على انفسهم هو خلاف « الباطن »، وهكذا عندما اتيحت فرصة اخرى

لظهور المنافقين في الدولة الاسلامية الكبيرة ـ بعد الخلفاء الراشدين ـ برزت تلك الفرق الباطنية التي تؤسس بتأويل الظاهر في آيات القرآن تأويلا باطنيا مذاهب عديدة تخالف الشرع وتوافق النفاق !

الجبرية

من قبيل القول في القدر ، والزيغ به ما قالت به « الجبرية » التي نزعت الى نفي الفعل عن ارادة الانسان واحالته على الله ، فالانسان عندهم لا يوصف بالاستطاعة والقدرة والارادة ، وانما هو في نظرهم « مجبور في افعاله ».

مثل هذا القول فتنة لانه ينتهي الى ان الانسان (مجبور على المعاصي) وهذا اقبح ما يقال في حق الله الذي يدعو الى الهدى ، ويثيب عليه . .

وقد كان أول شيوع هذه الفتنة في أقوال « الجبرية » في أول العصر الاموي ثم نفخ فيها اهل الزيغ والمجادلة من اعداء الامة واعداء الله حتى صارت مذهبا في اخر عصر الامويين .

ومما يروى في حظر هذا المعتقد على الايمان السليم ما ذكر من الكلام عبد الله بن عباس يخاطب به جبرية أهل الشام وهو يقول لهم : « أما بعد أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل

المتقون ، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون ، يا ابناء سلف المنافقين ، واعوان الظالمين ، هل منكم الا مفتر على الله ، يجعل اجرامه عليه سبحانه ، وينسبه علانية اليه ».

وفي تاريخ ظهور هذه النحلة الغاوية تظهر اصابع اليهود ، فقد تبين في اشهر الاقوال ان اول من دعا بذلك القول بين االمسلمين في العصر الاموي هو « الجعد بن درهم » الذي تلقاه عن يهودي بالشام هو « ابان ابن سمعان » وان أبان هذا قد تلقاه عن طالوت بن اعصم اليهودي ايضا وان الجعد قد نشر هذا بالبصرة ، وان ابرز من تلقوه عنه كان الجهم بن صفوان .

واذا كان مصدر هذا المذهب يهوديا فقد كان زعيمه الذي نشط به وهو الجهم بن صفوان خراسانيا ، اتخذ خراسان ميدانا لدعوته ، فلما قتل اتخذ أتباعه من نهاوند مركزاً لنشاطهم وقد ظل هذا المذهب سائدا هناك حتى تغلب عليه مذهب اخر هو مذهب ابو منصور الماتريدي . . .

لم يكن القول بالجبر هو وحده كلام الجهم وتفلسفه في دعوته بل قال باشياء غريبة اخرى زعم فيها ان الجنة والنار تفنيان ، وان الخلود المذكور في القرآن هو طول البقاء والمكث ثم ياتي بعده الفناء . .

ولذا تقدم السابقون واللاحقون بالرد على هذه النحلة ودحضها كثير من الفقهاء واهل الحديث .

القدرية

كما غالى « الجبرية » في قولهم بنفى العقل تماما عن الانسان جاء « القدرية » معهم ـ فيما اصاب المسلمين من عمل اعدائهم فقالوا بنفى الفعل تماما عن الله . فالارادة والقدرة والفعل كلها في زعمهم للانسان . بل انهم بهذا اعطوا للانسان سلطانا على القدر ، ونفوه عن الله العالم الازلي

ولقد سماهم الناس « القدرية » مع انهم ينفون القدر عن الله ، فقيل ان ذلك من قبيل تسمية الاشياء باضدادها ، وقيل بل ان مخالفيهم سموهم بذلك لينطبق ما ورد عنهم في الاثر « القدرية مجوس هذه الامة ».

وقد كان اول ظهور هذه النحلة في البصرة . . ظهرت كما ظهر غيرها في مضطرب الافكار ، وسوق البيع للاخرة ، والشراء للدنيا . .

وقيل ان اول من صاغ لهذا القول شكلا هو معبد الجهني وغيلان الدمشقي اللذان اخذا هذا القول من رجل من غير المسلمين في العراق وهكذا حمل أوزار هذه الدعوة في العراق معبد الجهني ، وحملها في الشام غيلان .

ولقد بلغ من مغالاة غيلان بنفسه ان كتب الى الخليفة الاموي العادل عمر بن عبد العزيز يدعوه الى مذهبه في رسالة

حماسية جوفاء فاستدعاه عمر بن عبد العزيز وناقشه فيما يدعيه وقطع حجته ، حتى وعد ان يرجع عن كل ما قال به ويروى في هذا انه قال لعمر بن عبد العزيز بعد ان بهته برهان الحق « يا امير المؤمنين . . لقد جئتك ضالا فهديتني ، واعمى فبصرتني ، وجاهلا فعلمتني ، والله لا اتكلم في شيء من هذا الامر ».

ولكن غيلان القدرى يعود بعد موت عمر بن عبد العزيز الى نفس نشاطه الاول فياتي به هشام ابن عبد الملك في عهده ، يقطع حجته في مناظرة مشهورة مع فقيه الشام الامام الأوزاعي وبذلك ملك الحجة لقتله .

ولكن المذهب لم يمت بموت غيلان بل رجع عند بعض اتباعه الى ما يشبه جذوره الاولى وهي « الثنوية » التي تجعل العالم محكوما بقوتين النور والظلمة ، والتي تنسب لله فعل الخير ولانفسهم فعل الشر بغير ارادة . . كما زعموا .

الانصار

اذا كانت الهجرة على الجهاد في سبيل الله قد منحت المهاجرين الدرجة العظمى في الايمان بالله ورسوله فان النصرة لله ورسوله تآتي لاؤلئك الذين « أووا ونصروا » في المدينة بدرجة السابقين الى الله بعد المهاجرين ليكونوا معهم عماد

الدعوة ، وطلائع الحق والنصر فالله يقول « والذين اووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا » ويقول : « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار . . ».

فالنصرة لرسول الله ، وقبل ذلك لكل الانبياء ، هي الواجب العام على كل المؤمنين ، اولئك الذين لا يصح قولهم بالايمان الا اذا نشطوا الى نصرة الله ورسوله بكل ما يملكون من مال ونفس ، والله يقول : « يا ايها الذين آمنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من انصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله ».

والهجرة في حد ذاتها هي نصرة لله ورسوله ، ولكنها في مقام العمل الصالح ، والجهاد الصادق تاتي في القمة من جهد هذا الانتصار لله ورسوله والحق الذي دعا اليه .

ولقد فاز المهاجرون الى المدينة من قريش بهذه الدرجة ، وكان وراءهم على السبق انصار المدينة من الأوس والخزرج ، أولئك الذين بايعوا رسول الله ـ قبل الهجرة ـ بيعة العقبة الاولى في خفية من قريش في احد مواسم الحج والذين بايعوه في العام الذي يلي ذلك بيعة العقبة الكبرى التي عاهدوا لله فيها ان يمنعوا النبي مما يمنعون منه نساءهم وابناءهم . . وعلى الا يسلموا رسول الله اي لا يخذلوه ويدعوه لاعدائه مهما بلغ من شدة الحرب عنه وعن دعوته الى الله من خسارة الاموال وقتل القادة منهم والرجال . .

كانت هذه البيعة مع قادة الأوس والخزرج وشيوخهما اول عزة المؤمنين ، واول انفتاح الطريق الى الهجرة ، واول الخطى في تلك المسيرة العظيمة التي انتهت الى فتح مكة وسقوط راية الشرك ، بعد ان انتهت الى وحدة الاوس والخزرج ، وسقوط حصون اليهود وسكون رياح الفتنة التي هبت طويلا منهم على العرب ليقتلوا ويتمزقوا ويذلوا . .

واذا أتم الله على نبيه فتح مكة ، وتطهير بيت الله ، والعفو عن عشيرته . . كان على الانصار ان ينظروا اليه وقد ازفت عودتهم « ايعودون بالنبي ام يؤثر الوطن الاول » . . . ولكن الرسول يقول لانصار الله في اعظم وفاء لهم « معاذ الله . . . المحيا محياكم . . . والممات مماتكم » .

المعتزلة

نشأ المعتزلة في العصر الأموي ولكن أبرز ما يروى عنهم وما شغلوا به الفكر الاسلامي كان في العصر العباسي فإليهم يعزى تأييد القول بخلق القرآن ، وما تعرض له بعض أئمة الفقهاء ، وأهل السنة والحديث وعلى رأسهم أحمد بن حنبل من تنكيل المأمون وإيذائه .

وأكثر المؤرخين للفكر الاسلامي على أن رأس المعتزلة هو « واصل إبن عطاء » وانه كان ممن يحضرون مجلس « الحسن البصري » لمذاكرة العلم فثارت مسألة الحكم على من يرتكب

« الكبيرة » أمؤمن هو أو كافر . . قال واصل بخلاف رأي الحسن « ليس بمؤمن مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين » يعني بين الايمان والكفر . . ثم اعتزل مجلس الحسن ، واتخذ له حلقة أخرى في المسجد .

فهل استطاع المعتزلة على طول ما شغلوا المسلمين وأضجروهم بالكلام أن يسموا لهم هذه « المنزلة بين المنزلتين » ؟ . . وإن يقربوهم إلى فهمها ؟ . .

لم يفعلوا . . بل ساروا على ترفعهم واعتزالهم الجماعة ، وجعلوا الايمان برأيهم عن هذه « المنزلة بين المنزلتين » أصلاً من أصول مذهبهم الخمسة ، أي مع التوحيد والعدل ، والوعد ، والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر !

ولكن بعض العلماء لهم في تسميتهم بالمعتزلة قول آخر . فقد ذكر المقريزي في خططه أنه كان منتشراً في عصر ظهور المعتزلة طائفة من اليهود اسمهم « الفروشيم » ومعنى ذلك « المعتزلة » . . وإن هذه الطائفة تشبه في بعض أقوالها أقوال المعتزلة ، فلا يبعد أن يكون بعض من أسلموا من اليهود قد أطلقوا هذا الاسم عليهم لوجوه الشبه .

ولقد كان حقاً أن أوجه الشبه بين الطائفتين أن معتزلة اليهود كانوا يفسرون التوراة على مقتضى منطق الفلاسفة ، وكان

المعتزلون كذلك يتناولون كل ما في القرآن من أوصاف على مقتضى منطق الفلاسفة .

ما كان المعتزلة ليذكرهم أحد هذا الذكر لولا ما التصق بهم في تاريخ المفكرين الاسلاميين من قولهم بخلق القرآن ودعوتهم لمن تتلمذوا عليهم من خلفاء العباسيين أن يخرجوا من الاسلام من لم يقل بخلق القرآن مثلهم ، وأن يقتلوه بالسيف .

فهؤلاء الذين كان أول أمرهم أن يجعلوا مرتكب الكبيرة « في منزلة بين المنزلتين » وسوسوا للخليفة المأمون ـ بعد أن ساعدهم بتقريبه لهم وتتلمذه عليهم ـ ليجعل القول بأن القرآن كلام الله ، كما هو بنص القرآن ، إنكار أن القرآن مخلوق فليس بكلام الله عملاً فوق الكبيرة يستحق محنة السيف .

بدأ الخوض في مسألة « خلق القرآن » في عهد الرشيد ، ولكن الرشيد لم يقبل ذلك ، ومنع الجدل في العقائد .

ثم جاء المأمون فجعل أكثر حاشيته منهم ، وكان يكرمهم ويبالغ في إكرامهم ، ولكنه لم يتدخل في حرية اعتقاد الناس حتى كان عام ٢١٢ هجرية وكان زعماء المعتزلة قد نجحوا في أن يزينوا له اعلان القول بخلق القرآن . فأعلنه وفتح مجال المناظرات عليه في مجلسه ، وكان هو يناظر فيه ويدلي بحجته ، فكان ذلك أول إشارة إلى قيام الأمير العباسي نصير المعتزلة بقيادة فعلية لأخطر

آرائهم وهو إنكار أن القرآن كلام الله ، لأن الله لا يتكلم فالقرآن مخلوق .

ثم تصاعد الأمر حتى كنت سنة ٢١٨ هجرية التي بدأ فيها للمأمون بوسوسة المعتزلة أن يعلن تدخل الدولة في شأن كل من لم يؤمن بخلق القرآن .

ثم كانت المحنة العظمى للامام الورع الباسل ، الأسوة في صدق إيمانه ، أحمد بن حنبل الذي سيق مع ثلاثة من الفقهاء لعرضهم على السيف أو يرجعوا عن إصرارهم على رفض بدعة خلق القرآن .

أما الأول فضعف أمام المسألة والاستجواب وأقر لهم فأطلقوه من قيوده ، وفي اليوم الثاني ضعف ثالث الثلاثة فأطلقوه ، وبقي اثنان سيقا في الحديد إلى المأمون في طرطوس ، أما احدهما وهو محمد إبن نوع فقد استشهد في الطريق ، وأما الآخر وهو أحمد بن حنبل فقد بقي على إيمانه الثابت ومع ذلك أطلقوه إلى حين . . فقد مات المأمون ! .

القدر

قبل الاسلام كانت الوثنيات القديمة تتكلم في القدر وتجادل فيه . وفي سقطة المجتمع البشري عن مرتبة الايمان السليم اصبح الجدل سمة المتكلمين في الدين وتجارتهم قبل الاسلام .

وعندما ضعف سلطان الدولة الرومانية الغربية وانقسمت الى شرقية وغربية بدأ شكل التحلل ياخذ ظواهر هذه المباحث السفسطائية التي يتلاعب فيها المنطق الخادع بالعقول ، ولم تشذ المجوسية وراء نهر الفرات عن ذلك . .

ووصل القول بالقدر والادعاء والتنصل من المسؤولية عن الأعمال أمام الله إلى بعض المشركين من العرب الذين جاسوا بتجارتهم وقوافلهم خلال العالم القديم كله وحيث كانت لقريش رحلة شتاء إلى الشام الخاضع للروم ، ورحلة الصيف إلى اليمن الخاضع للفرس ويقص علينا القرآن الكريم جدل المشركين عن أنفسهم في تبرير شركهم حيث يقول الله .

« سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا نحن ولا آباؤ نا ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » .

وبمثل هذا الاعتذار الخادع لا يزال يتكلم حتى اليوم اولئك الذين يركنون في تبرير ذنوبهم الى القول بجبرية القدر .

ولكن الرسول صلى ﷺ أوضح ان الايمان بالله يعني الايمان بالقدر « خيره وشره » والذي هو خير كله وان بدا للبعض ان بعضه خير وبعضه شر . . ثم نهى عن الخوض فيه .

الا ان المناقشات والمجادلات نشطت مرة اخرى بعد ان اختلط المسلمون العرب بغيرهم من الشعوب غير العربية التي

لم تلبث ان تحركت مع الزمن اسئلتها ووساوس دياناتها القديمة ، فكان ذلك مبعثا لعديد من الفرق الاسلامية . . . . والوان من الجدل والكلام . .

لقد بدأ الجدل حول القدر والخلاف فيه حتى ظن فريق من هذه الفرق ان الايمان بالقدر يمنع من التدبير ومن الحذر ومن استعمال العقل . وهي قضية اجاب عنها عمر بن الخطاب جوابا حاسما شافيا حين امتنع عن الدخول الى مدينة بها طاعون فقيل له « افرارا من قدر الله » . . فقال « انما نفر من قدر الله الى قدر الله » !

المهاجرون

لم يعرف الاسلام الطبقة ـ في دعوة القرآن ـ وهي الجماعة المتميزة في المجتمع بمصالحها التي تتناقض مع طبقة اخرى في المجتمع نفسه وتخضع لها . . ولكنه عرف « الدرجة » التي لا تعني الا امتيازا بالعمل ، وسبقا الى الجهد والجهاد والفداء في سبيل مصلحة الجميع ، في مجتمع يقوم بالايمان على اساس العلاقات المتساوية بين افراده وليس العلاقات المتناقضة .

ومنذ هاجر الرسول الكريم وصاحبه ابو بكر « ثاني اثنين اذ هما في الغار » وقد اصبحت الهجرة الى الله ورسوله ، والجهاد

في سبيل الله بالمال والنفس لبناء دار المسلمين الاولى ، ومجتمع المؤمنين الاول ـ درجة فوق ما يليها من درجات الايمان والمؤمنين . . وفي هذا يقول الله : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله » .

وهذه الدرجة هي بسبب احتمالهم مع الجهاد بالنفس والمال معاناة ترك الاوطان والاهل والاحباب والاموال في سبيل الله وذلك اسوة بالمثال المرفوع امام جميع المسلمين في هجرة ابراهيم الذي يقول الله عنه : « وقال اني مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم » .

وامتثالا كذلك لامر الله الذي لا يغفر للمستضعفين خطيئة الكفر ما دامت الهجرة والفرار الى الله في وسعهم وذلك في قوله : « قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

وقوله : ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله . .

لذلك فالذين آمنوا في مكة قبل الفتح ولم يهاجروا كانوا اقل درجة ، وقد منع الله المؤمنين من ولايتهم في قوله : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا » .

ولذلك فانه في يوم السقيفة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام عندما اختلط الامر على المؤمنين في شأن الخلافة من بعده وقف عمر فقال « اسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، والعرب لا تعرف هذا الامر الا لهذا الحي من قريش ، فمنا الامراء ومنكم الوزراء » أقر الانصار قوله ، وغاضت الفتنة ، وتمت البيعة لابي بكر .

المؤمنون

المؤمنون هم عامة المصدقين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر من غير خلاف فيما امر الله به من طاعته وطاعة رسوله .

فالمؤمنون هم الذين علموا يقينا ان الله احياهم بالايمان من موات الكفر ، وانه جعل لهم اذ اخرجهم من الظلمات نورا يمشون به في الناس ، فليسوا كمن افتقدوا الايمان السليم في ظلمات يتتابع بعضها فوق بعض بلا نهاية .

لذلك فانهم اذا استمعوا الى الآيات المحكمات في القرآن الكريم آمنوا بها قولا وعملا ، فاذا وردوا المتشابه من آياته لم تزغ قلوبهم ، فيتبعوا المتشابه بالتأويل ابتغاء الفتنة به والخلاف ، بل كانوا الراسخين في العلم بصدق ايمانهم اذ يدركون ان المتشابه لا يتناقض بداهة مع المحكم ، ولذلك فانهم « يقولون آمنا به كل من عند ربنا » .

ولذلك ايضا فانهم هم الذين آمنوا اقتداء بايمان الرسول واستقاموا معه كما امر الله : « فاستقم كما امرت ومن تاب معك ولا تطغوا ».

ولذلك فانهم في شدقهم وتورعهم وتطهرهم لم يوالوا الذين ظلموا ولم يركنوا اليهم في خلافاتهم على الدين الحق ، وتأويلاتهم لشريعة الله وكتابه فسمعوا لامره في قوله : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار »...

ولذلك فقد حفظوا انفسهم بان يكونوا اولياء بعضهم البعض ، فلا يغفلوا فيما بينهم عن مداومة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على طاعة الله وعبادته كما رأوا رسول الله يفعل وذلك في قوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ».

ولذلك فهم اصدق الناس تقربا الى الله بطول العبادة واخلاص الخضوع فيها له كما يصفهم في قوله عن عباد الرحمن : « والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ».

ولذلك اخيرا فانه ليس للشيطان عليهم من سلطان ».

كما وعد الله « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ».

المؤلفة قلوبهم

المؤلفة قلوبهم جماعة يراد جمع قلوبهم على الاسلام وتبتغي هدايتهم او تثبيت ايمانهم وتدعيم اسلامهم لانهم في الغالب يكونون حديثي عهد بالاسلام ويخشى عليهم من الشيطان وما يوسوس به لهم . او هم اناس يخشى شرهم على المسلمين فيعطوا من الزكاة لكف شرهم .

وقد قسم الفقهاء المؤلفة قلوبهم الذين يستحقون الصدقة الى مسلمين وكفار وجعلوا المسلمين منهم اربعة اقسام والكفار قسمين :

والمؤلفة قلوبهم من المسلمين هم :

١ ـ قوم من سادة المسلمين مع حسن اسلامهم اعطوا لمكانتهم في قومهم .

٢ ـ زعماء ضعفاء الايمان من المسلمين مطاعون في اقوامهم يرجى باعطائهم تقوية ايمانهم وضمان اخلاصهم كالذين اعطاهم الرسول من غنائم هوازن وهم طلقاء .

٣ ـ قوم من المسلمين في الثغور يدافعون عن الاسلام والمسلمين .

٤ ـ قوم من المسلمين يحتاج اليهم لجباية الزكاة ، واخذها ممن لا يعطيها ، الا بنفوذهم وتاثيرهم ـ الا أن يقاتلوا ـ فيختار بتأليفهم المساعدة على تحقيق الصالح العام
اما الكفار فهما :

١ ـ من يرجى ايمانهم بتأليفهم كصنوان بن امية الذي امنه الرسول يوم الفتح واعطاه ابلا كثيرة محملة وامهله اربعة اشهر .

٢ ـ ٢ ـ من يخشى شره فيرجى باعطائه كف الاذى وفي ذلك قال ابن عباس : ان قوما كانوا يأتون النبي فان اعطاهم مدحوا الاسلام ، وقالوا هذا دين حسن ، وان منعهم ذموا ، وعابوا .

ويرى الاحناف ان سهم المؤلفة قلوبهم قد سقط باعزاز الله لدينه ـ واجاز البعض التأليف عند الحاجة ويقول الشافعي : لا تتألف كافرا ، فاما الفاسق فيعطى من سهم التاليف .

اهل البيت

البيت في القرآن الكريم هو بيت الله الذي اقام قواعده بامر الله ابراهيم واسماعيل عند مكة ، بعد هجرة ابراهيم وبلوغ اسماعيل ليكون (مثابة للناس وامنا » ومحجا لمن استطاع من المسلمين .

فأهل البيت هم ابناء اسماعيل الذين عاشوا في اسباطهم وعشائرهم من حوله ، حتى كانت قريش التي الفها الله للدين ، وحتى ظهر من قريش خاتم النبيين محمد ﷺ الذي نزل عليه القرآن المبين ، وانتصر به الدين الحق .

يقول الله في تاليف قريش « فليعبدوا رب هذا البيت . . . » ويقول الله في بناء البيت : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . . » .

ويقول في دعاء ابراهيم واسماعيل بظهور محمد ليهدى قومه حول البيت : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم »

ويقول في دعاء ابراهيم لمكة البلد الامين بعد بناء البيت : « واذا قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنى ان نعبد الاصنام ».

ويقول في ان ابراهيم وذريته من المؤمنين هم اهل البيت عندما تعجبت زوج ابراهيم من ان تلد وهي عجوز : « قالوا اتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت ».

ويقول فيما دعا به نساء النبي - بعد هجرة الرسول الى المدينة - الى ما كرمهن به وما هو اوجب لهن وهن الذرية المؤمنة لاسماعيل وابراهيم ، وازواج خاتم النبيين الذي هو

خاتم المصطفين من ذريتهما فلا يليق بهن ما نزع إليه النساء في الجاهلية ، وكان بعضه فاشياً في المدينة قبل ظهور الدين وأكتماله : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

لهذا فانه بعد وفاة الرسول الكريم استقر الرأي بعد مؤتمر السقيفة على ان يكون الامر للمهاجرين اي لقريش ذرية اسماعيل التي عاشت في سدانة البيت نحو ستة وعشرين قرنا ولم يكن ذلك للانصار . .

ولهذا ايضا فانه عندما انشقت الوحدة ودب الخلاف بين قريش ـ قبل غيرها ـ على الخلافة ، ونشطت المنافسة العشائرية القديمة بين بيتي هاشم وامية مال الذين لم يتعصبوا للعروبة وظنوا انهم يتعصبون للدين الى ان يعطوا هذا الشرف . . شرف الخلافة عن رسول الله الى ذرية النبي الخاصة من ابنته الزهراء وابن عمه الامام علي وسموهم هذه المرة « آل البيت » . . وبذلك يبقى هذا الشرف للذرية المؤمنة من أبناء اسماعيل وإبراهيم .

شروط عمر
. . للموظفين

روى ابو يوسف ـ صاحب ابي حنيفة ـ رضي الله عنهما ـ ان عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان اذا استعمل رجلا ،

أشهد عليه رهطا من الانصار ، وغيرهم ، واشترط عليه شروطا : الا يركب برذونا ، ولا يلبس ثوبا رقيقا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يغلق بابا دون حوائج الناس ، ولا يتخذ حاجبا .

قال : فبينا عمر يمشي في بعض طرق المدينة اذ هتف به رجل : يا عمر : اترى هذه الشروط تنجيك من الله ، وعاملك « عياض بن غنم » على مصر ، وقد لبس الرقيق واتخذ الحاجب ؟

فدعا عمر محمد بن مسلمة ، وكان رسوله الى عماله ، فبعثه الى عياض . وقال له : آتني به على الحال التي تجده عليها . . فاتاه محمد بن مسلمة ، فوجد على بابه حاجبا ، فقال : اجب امير المؤمنين .

فقال : دعني حتى أطرح على قبائي .

فقال : لا ، الا على حالك هذه !

فقدم به على عمر ، فلما رآه ، قال : انزع قميصك ، ودعا بمدرعة صوف ، وبقطيع ، من غنم ، وعصا ، وقال له : البس هذه المدرعة ، وخذ هذه العصا ، وارع هذه الغنم . واشرب ، واسق من مر بك ، واحفظ الفضل علينا . . . أسمعت ؟

قال : نعم والموت خير من هذا !!

فجعل عمر يرددها عليه ، وهو يردد : الموت خير من هذا . .

فقال عمر : ولم تكره هذا ، وانما سمى أبوك غنما لانه كان يرعى الغنم ؟ اترى عندك خبر ؟

قال : نعم يا امير المؤمنين !

قال : انزع !

ورده الى عمله . . فلم يكن له عامل يشبهه !!

خواطر رمضانية

سلام هي . . حتى مطلع الفجر

القرآن الكريم هو دستور الخالق لاصلاح الخلق وقانون السماء هداية لهداية الارض ، اليه ينتهي كل تشريع ولذلك جعل الله ليلة نزوله ذات شرف وقدر وعظمة ، وجلال ، لانها اكتسبت تلك الفضائل من ذلك الكتاب الحكيم الذي يرشد الضال ، ويهدي المنحرف ، ويقوم المعوج ، ويضع موازين الحق ، ويرسم معالم الحرية ويثبت دعائم العدل ، ويكفل للانسان معنى الانسانية .

وليلة القدر هي الليلة المباركة التي بدأ فيها نزول أول شذرة قرآنية . . وأول فيض من ربك غيث الرحمة الالهية (إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علّم بالقلم علّم الانسان ما لم يعلم) . بالدعوة الصريحة إلى طرق أبواب العلوم والمعرفة ، وتحطيم أسوار الجهالة والتخلف والاستضاءة بنور هذا الكتاب الهادي لتحقيق وسائل السعادة للبشر . وتطبيق مبادىء الحق وقيمه في هذا الوجود .

وهذه الليلة التي جعلها الله سبحانه وتعالى خيَرا من الف شهر يطلب من المسلم فيها ان يسلم نفسه الى خالقه . . وان يشغلها بالذكر والدعا والضراعة والعبادة . . وان يشكر الله على نعمة الظاهرة والباطنة . وأن يلوذ بكنف الله . ويحتمي بحماه وان يطلب منه نصر أوليائه على اعدائه . . . فهي ليلة قبول واجابه . . . وموسم توبة وانابةً . . وهي ليلة أمن ورحمة ومغفرة (سلام هي حتى مطلع الفجر) . .

وقد روى اصحاب السنن في فضلها قول الرسول ﷺ . . من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

مربي
الغرائز

أن السلوك متأثر بمدى تحكم الغرائز في الانسان ، وابرز ما يتغلب عليه منها غريزة الجنس ، والمقاتلة والتملك .

ولقد شاءت ارادة الله العليم الحكيم ـ تبارك وتعالى ـ ان تطبب النفس باعلاء هذه الغرائز حتى يحد من حدتها ، فكان رمضان خير طبيب ومرب ، فالجوع والعطش يكسران حدة الشهوة ، ولقد جعل الرسول ـ ﷺ ـ الصوم وقاية للشباب لمصادرة هذه الشهوة .

لقد عد النفسيون المحدثون الاعلاء ، والابدال ، والقلب طرق تربية هذه الغريزة ، فما اعظم هذا الدين !

اما « المقاتلة »، فالباعث عليها « حدة الغضب » والانفعال المؤدي إلى زلل اللسان . فكان التطبيب لها هو الاعتراف باثر الصوم بالقولة الماثورة : « اللهم اني صائم »، وفيه التفكر الداعي الى تذكر الواجب نحو من هدأت نفسه ، فكان حليما !

وغريزة « حب التملك » طاغية تدفع الى الشح ، والطمع ، والاستلاب وكلها امراض نفسية كان طبيبها « اخراج الزكاة المفروضة » على المال والبدن ، ثم الصدقة الجارية المستحبة في المجازاة بعشر امثالها من صاحب الفضل العظيم .

ان التأمل في حكمة التشريع يتجلى فيه مدى العناية السامية في « اصلاح النفوس »، ليقوم بناؤ ها على اسس سليمة تحقق لها انسانيتها في هذا الوجود .

ولقد تجلت « وحدة المجتمع » في الصوم من حيث المساواة عند الامساك والافطار من دون تفاضل في التوقيت والاشتراكية في اعطاء الفقراء حقهم من الاغنياء وبهذا كله يتبين معنى « الصلاح » لدى كل نفس بارة نقية موصولة برضا المولى جل علاه .

امثل صورة . . للذكر

حياة الايمان في قلوب المؤمنين بالله ، رهن بدكر الله ذكرا متصلا ، في كل حال من احوال المؤمن . قائما ، وقاعدا عاملا وفارغا من عمل . . وبهذا الذكر تصح نسبة المؤمن الى المؤمنين ، الذين يقول الله تعالى فيهم : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . . .

والصلوات الخمس المفروضة على المؤمنين في كل يوم وليلة ، هي امثل صورة واكملها لذكر الله ، ولهذا كانت دعوة ابراهيم عليه السلام لربه ان يجعله مقيما للصلاة هو ومن يهديهم الله من ذريته ،

والصلاة في شريعة الاسلام هي الركن الاول من اركان

العبادات التي تعبد الله تعالى بها امة محمد ، بعد الايمان بالله . ولهذا يقول الرسول الكريم عنها :

« الصلاة عماد الدين . فمن اقامها فقد اقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين » . . وهي خمس صلوات كل يوم وليلة ، كل صلاة منها مقيدة بوقت معلوم محدود من النهار او الليل ، كما يشير الى ذلك قوله تعالى : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » اي فرضا مؤقتا بوقت من الزمن لكل صلاة . . اشبه بموسم الزرع لكل ثمر . . اذا فات اوان غرسه لم يخرج نباتا ، او يطلع زهرا او ثمرا .

وامر من امر الصلاة يتصوره كثير من المسلمين على غير حقيقته ، وهو ان كثيرا منهم لا يؤدون الصلاة الا في رمضان ، حين يصومون مع الصائمين ، ظنا منهم ان صومهم لا يقبل الا مع الصلاة ، وان فريضة الصلاة اكد والزم في شهر الصوم . . وهذا حق وباطل معا . . اما انه حق فان الصلاة من شانها ان تنهي عن الفحشاء والمنكر ، فاذا صام الصائم وهو حريص على اداء الصلاة في اوقاتها ، كان على صيامه ـ في ظل الصلاة ـ حارس يحرسه من اللغو ، ومن قول الزور والعمل به . . واما انه باطل ، فلأن الصلاة هي الصلاة ، في رمضان ، وفي غير رمضان ، فريضة مؤكدة اوثق التوكيد ، في كل زمان ومكان ، لا تسقط عن المسلم ابدا ، الا عن المرأة

في حال حيضها او نفاسها ، ولا يجزي عن المسلم شيء عنها من صيام ، او صدقة ، او نسك . . وقد توعد الله المصلين الذين يؤدون الصلاة في حال ، ويسهون عنها في حال توعدهم بالويل والعذاب ، فقال سبحانه : « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » . .

وان من السهو ان يؤدي المسلم الصلاة في رمضان ثم يدعها ويغفل عنها في غير رمضان . .

رذاذ الكلمات التي تقتل

ان التأييد الكامل اسي يقدمه الدين في شريعته لتاكيد سيادة القانون على سلوك الافراد ليضبط حريتهم بحدود حريات الآخرين نحو صالح المجتمع هو احدى ظواهر التميز في الحضارة الاسلامية التي نفذت بضوء الدين ، وبخوف الله وحبه وطاعته ، الى ضمير الفرد والمجتمع على السواء ، فكان من رقابة المجتمع بعضه لبعض ، ومن حنوه بعضه على بعض ما اعطى مثالا فريدا ومجسدا لقدرة الدين الكاملة . . . الدين الحق . . على بناء المجتمع الحر النامي السليم . .

ان الدين يعمد بحق الحسبة الى استمرار تيار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في ايجاد رأي عام فاضل ، يجتذب قوى الفرد والجماعة الى معاني الكمال ، وينفر ويقاوم

الانحراف بكل صورة . . حتى ما كان تمجيدا لبعض الرذائل في اغنية عابرة . . تظهر وتموت . . كتلك الاغنية مثلا ، التي تقول . . « حلو وكذاب » . . !

ان رذاذ الكثير من الكلمات التي قد تقال بسذاجة . . وبحسن نية . . يقتل احيانا . . فعندما يخلو الانسان الفرد بنفسه في لحظات الاستجمام . . او قبيل النوم . . تلفو فوق ضميره او تترسب عليه كلمات ونماذج وصور وانماط من السلوك قد تميت هذا الضمير الحي بالدوام والاستمرار . . وقد تعذبه في مراحل مقاومة طويلة قبل الموت . . لهذا حرص الاسلام على ضمان سلامة كل القوى التي تبني الرأي العام كل كمال النفس والجسد على صورة عامة لفضائل الانسان وحيوية ايمانه . . وبذلك وحدة تنطلق قوى الافراد للعمل المثمر . . ولا تموت او تتعذب ضمائر المناضلين عن الامانة والحق والخير . .

ان جرائم الاحداث هي ثمرة لما قد يصيب تكوين الراي العام الذي يحمي الاخلاق والفضائل من ضعف وتخلخل يؤديان الى الاستهانة بسلطة الدولة والقانون . .

ان الغرب الذي يستهين بحرية من يسميهم الملونين وحقوقهم يحاول ان يشيد في مجتمعه كيانا لرأي عام ينشط الشفقة والبر ومساعدة المحتاج . ويدفع الى مواساة حتى

الحيوان الجريح . . فاذا كنا نراه مع ذلك لا يهتز لمواساة ونصرة شعب مظلوم فان علينا ان نهتز نحن لمواساة ونصرة انفسنا ، وذلك بأن نبني مجتمعنا على أساس من احياء ضميرنا الديني المسئول امام الله ، وان نكفل افاضة ذلك في كل مجالات نشاطنا وعملنا من اجل معركتنا الواحدة للتحرير والتقدم .

قالوا . . عن الجوع

ليس المراد من الجوع بالصيام تعذيب النفس بل تعويدها الكف عن الشهوات وخفة الجوارح للطاعات . ولذلك كان الجوع من صفات الصوفية . والركن الاساسي للمجاهدة في الطاعة . ولقد ورد الكثير من اخبار الجائعين طلبا لينابيع الحكمة :

فقد قيل ان سهل بن عبد الله كان لا يأكل الطعام الا في كل خمسة عشرة يوما تقليلا للاكل . فاذا دخل رمضان كان لا ياكل طعاما حتى يرى هلال شوال وكان يفطر كل ليلة على الماء الصافي تحرزا من كراهة الوصال وطلبا للخفة في الطاعة .

وقد قال يحيي بن معاذ : « لو ان الجوع يباع في الاسواق لما كان ينبغي لطلاب الاخرة اذا دخلوا السوق ان يشتروا غيره » .

وقال ايضا : (الجوع للمريدين رياضة) ففيه التقوية على رياضة انفسهم (وللتأبين تجربة) بتعود انفسهم الجوع وانسهم به (وللزهاد سياسة) فيسوسوا انفسهم فلا يلتفتوا لامور الدنيا (وللعارفين مكرمة) يكرمهم الله بها ليشغلوا انفسهم بمناجاته ويتلذذوا بها عن المطاعم والمشارب .

ولقد اشتهى ابو الخير العسقلاني السمك سنين طويلة . وكان قد عود نفسه على ترك شهواتها . وبقي على ذلك مدة طويلة يجاهد نفسه لا يعطيها ما تطلب ولا ينقض عهده مع الله تعالى . ثم جاءه السمك من طريق حلال فلما أراد الأكل أخذت شوكة أصبعه فذهبت يده تأديباً له لعدم وفائه بما عزم عليه من ترك شهوته فقال يا رب : هذا جزاء من مد يده تأديباً له لعدم وفائه بما عزم عليه من ترك شهوته فقال يا رب : هذا جزاء من مد يده بشهوة إلى حلال . فكيف بمن مد يده بشهوة إلى حرام . هكذا كانوا !!

عبد الجواد مسعود

السيئة . . بالسيئة

في هذه الآية الكريمة تحريك لمشاعر أولئك الذين بغى عليهم اهل البغى ، ان يأخذوا بحقهم منهم وألا يتحرجوا من رد الاساءة بمثلها ، فذلك حق مشروع ، وقصاص عادل .

وانه اذا كان العفو سنة كريمة ، وعملا مبرورا ، فانه لا يكون على هذا الوصف الا اذا جاء عن قدرة على الباغي ، وتمكن من الانتقام منه ، فيكون العفو عندئذ عن تفضل واحسان الامر الذي يرى منه الباغي ان يدا قادرة قاهرة ، تمسك به ، وتنزله منزل الذلة والصغار ، ثم تطلقه تكرما وتفضلا . .

وقد وصف رد العدوان ، ودفع السيئة بانه سيئة ، في قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها »ـ في هذا اشارة الى أن من اساء الى الناس لا ينبغي للناس ان يتحرجوا من الاساءة اليه ، والحاق الضرر به ، كما أساء هو اليهم ، والحق الضرر بهم . فالسيئة هنا انما هي سيئة بالاضافة الى من بدأ بالاساءة ، فما هي الا عمله رد اليه « سيئة مثلها » اي من جنس عمله .

وفي قوله تعالى : « فمن عفا واصلح فاجره على الله » . . اشارة الى امرين :

اولهما : طلب الغلب على المسيء والتمكن منه ، وذلك باعداد القوة التي تقهره حتى يكون للعفو عنه موضع .

وثانيهما : ان العفو عن المسيء اولى من مقابلة اساءته بالاساءة ، وذلك على شريطة أن يكون للعفو موضع عنده ، بحيث يصلحه ، ويضعه امام نفسه موضع الخزى والندم . .

وهذا ما يشير اليه الجمع بين العفو والصلح في قوله تعالى : « فمن عفا واصلح » اي كان عفوه عن المسيء اصلاحا له ، ودرساً نافعا يتلقى منه العبر والعظة والا لم يكن للعفو موضع ، فان العفو في غير موضعه اغراء للمفسدين ، وتحريض لأهل السوء .

رد العدوان . . بالعدوان

هذه الآيات معطوفة على آيات قبلها ، تكشف جميعها عن صفات المؤمنين ، وترسم الصورة السوية للمجتمع المؤمن ، الذي تنتظمه هذه الصفات افرادا وجماعات .

ومن صفات المؤمنين انهم لا يصبرون على ضيم ، ولا يبيتون على جور ، ولا ينـزلون على حكم اهـل البغى والعدوان . . « اذا أصابهم البغى هم ينتصرون » . . انهم حرب على الظلم والظالمين ، يبذلون في سبيل ذلك اموالهم وانفسهم ، ويبيعون حياتهم بيع السماح ، انتصارا للحق ، ودفعا للظلم ، وانفة من قبول الضيم والذل . . فالمؤمن عزيز بايمانه بالله ، فمن لم يجد هذه العزة في نفسه فليس على ايمان صحيح ، فانه لن يجتمع ايمان بالله ، مع هوان نفس ، وصغار ذات ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . .

وفي قوله تعالى : « هم ينتصرون » وفي الآتيان بضمير الفصل « هم » ـ اشارة الى ان من وقع عليه عدوان يجب أن يكون هو أول المنكرين له ، المتصدين لدفعه ، لا ينتظر من يتولى عنه اخذ حقه ، والانتصاف له ، وقد ضيعه اذ مكن خصمه منه أولا ، ثم لم يقم بعد هذا باستخلاصه من يده ثانيا . .

وفي اسناد دفع الظلم الى من وقع عليه الظلم ـ هو اعلان لانكار هذا المنكر ممن وقع عليه ، والا كان سكوته قبوله للضيم ، ورضى بالظلم الامر الذي لا يقيم له حجة لغيره ان ينتصر له ، ويقف في المعركة معه .

وفي قوله تعالى : « ينتصرون » اشارة الى ان المظلوم المبغى عليه ، اذا هو استنكر ما وقع عليه ، كان على وعد مع النصر ، لانه يلقى عدوه بمشاعر مشحونة بالحنق والنقمة ، وهذا من شانه ان يمده بقوى نفسية ومادية تمكن له من النصر . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ومن بغى عليه لينصرنه الله » فهذا وعد من الله تعالى يحفز همم المستضعفين ، ويشد عزائم الجبناء ليلقوا العدو الذي بغى عليهم ، وهناك يجدون ما وعدهم الله من تأييده ونصره . .

الصلاة . . وشارب الخمر

المطلوب من المؤمن ، هو أن يتجنب المحرمات ،

ويستعصم بإيمانه من ارتكابها . . فلا يسرق ، ولا يقتل ، ولا يزني ، ولا يشرب الخمر . . الى غير ذلك مما نهى الله عنه من فواحش ومنكرات . .

ولكن المطلوب شيء ، والواقع شيء آخر ، فما أكثر العصاة من المؤمنين . . ففي مجتمع المؤمنين من يسرق ، ومن يقتل ، ومن يزني ، ومن يشرب الخمر ، ويشهد الزور . . ومن ، ومن . . بل وفي مجتمع المؤمنين من يأتي هـذه المنكرات جميعها . . ثم هو مع هذا في حساب المؤمنين بالله . .

والوصف الذي يوصف به من يأتي منكراً من المؤمنين ، هو انه مؤمن عاص ، في معرض غضب الله وسخطه . . ومع ذلك فان عصيانه هذا لا يسقط عنه فرضا .

وقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » هو قيد وارد على امر المؤمنين بالصلاة ، وهو ألا يكون المصلي قد غلبه هواه ، وغلبت عليه شقوته فشرب الخمر ، حتى سكر ، واختلط عقله ، فلا يدري ما يقول . . فاذا كان المؤمن على تلك الصفة فلا يقرب الصلاة ، ولا يقف فيها بين يدي الله ، حتى يعود اليه عازب عقله ، وكامل ادراكه ، او بمعنى آخر حتى تعود اليه آدميته التي يستأهل بها ان يخاطب ربه ويناجيه .

نقول هذا ، لان المفسرين يكادون يجمعون على أن هذا المقطع من الاية منسوخ بآية الخمر في قوله تعالى : « انما

الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ».. وينبني على هذا ان شارب الخمر لا تصح منه صلاة حتى ولو صحا من سكره .. كما يذهب الى ذلك كثير من الفقهاء .. ولو صح هذا لانسحب على كل من ارتكب منكرا ، فلا تصح صلاة لسارق ، اوزان ، او شاهد زور او نحو ذلك ، فلم يختص شارب الخمر من بين مرتكبي المنكرات بقطعة عن الصلاة اذا صحا من سكره ؟

والامر على خلاف هذا ، فان عصاة المؤمنين ـ وما اكثرهم ـ لا يحول بينهم وبين الصلاة حائل الا ان يكون شارب الخمر في حال سكر ..

ثم كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر اذا سد بابها دون من ياتون الفحشاء والمنكر ؟ انها هي الدواء الذي تداوى به تلك النفوس المريضة المتهالكة على الفحشاء والمنكر ، وبالحرص على الصلاة والمداومة عليها يستشفى هؤلاء المرضى من عللهم وامراضهم ، فما تزال بهم الصلاة حتى تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ..

دموع الأوابين

ان للخطيئة في الضمير الحي وخزا كوخز الابر يجرح ويدمي ، ويرعش الاعصاب كلها ، بل الجسد كله لا من خشية

الله وحده بل منها ومن حساب الضمير ، ولا يملك العجز الانساني عندئذ غير الندم الذي يطلق اللسان بالتوبة والاستغفار ، ويملك مع الندم وما يكسبه ليطهر به جرح الخطيئة .

ولم تكد النفس تستشعر طهرها وتنعم به حتى تتحرك حولها حبائل شياطين الهوى والانس والجن والفتنة لتوقعها في خطيئة بل خطايا فيقف ذلك التائب في صراع مع الشياطين ، وقد يهرع في ربه فيتعلق بسبب من أسباب الغلبة : بالصلاة او القرآن او الاستعاذة او الدعاء ليفر من شراك الخطيئة .

وقد ينهزم ضميره امام نفسه الامارة بالسوء ، وامام ما سولت له الشياطين ، فيتردى في الخطيئة فاذا سقط فزع الى الله ينشره الالم والاسى ويطويه اليأس ، وهو لا يدري اتقبل توبته ان تاب ، ويحط عنه ذنبه ام سيطارده غضب الله . . ؟

وفي آذانه يدوى صوت السماء : عبدي احببتنا فاحببناك وعصيتنا فكرهناك ، وان رجعت الينا قبلناك ، ويستعرض قول الله : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » وقوله : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم » . .

فاذا أنس من وعد الله ، وما قطعه على نفسه بكى وتاب وخر راكعا واناب ، فوسعته رحمة الله التي وسعت كل شيء .

من ذا الذي يعفو عمن عاد الى الذنب ، ويصفح عمن افرط في اقتراف الخطيئة ثم يتبعها الندم والتوبة والانابة ؟

ليس غير الله وحده العفو الغفور الرحمن بعباده (غافر الذنب وقابل التوب).

ايها الاوابون الى الله ، الطارقون ابواب رحماته ورضاه ! طهروا بالدمع جراح الخطايا فرب دمع يتفتح له من أبواب الرحمة ما لا يتفتح لنداء او دعاء .

والانابة مع الصوم الخالص تغسل النفوس من ادران خطاياها وتمحو عنها ما شابها من اوضار الذنوب وشوائب الاوزار .

فليت العاصي ينيب الى ربه ، ويتخفف من ذنبه ، ويحط عن كاهله الاحمال قبل ان يزل بالاثقال ، وليعلم ان الله غفار للاوابين ولن يرد عن ابوابه المنيبين .

هتاف
من جديد

ودارت الايام ، وطويت صفحات من عمر الزمن ، واقبل رمضان وبعد ايام قلائل يودعنا ، فما اجمل ايامه فيها تصفو النفوس ، وتأخذ من عطرها وشذاها راحة للنفس ،

وتحلق ارواحنا في عالم علوي كريم . وتشدنا الذكرى الى انتصارات المسلمين الاول في ايامه الخالدة . التي تضيء الان أمام العرب والمسلمين طريق الجهاد والصبر حتى ينتصر الحق على الباطل ، كما انتصر في (بدر) ، ويعود العرب الى اوطانهم كما عاد رسول الاسلام الى وطنه الحبيب (مكة) فكان هذا الفتح انتصارا للحق وقضاء على دولة الشرك .

وفي أيامك يا رمضان كان النصر في (عين جالوت) على من ظنوا ان القدر يأتمر بامرهم ، والنصر يمشي في ركابهم ، وأضيئت جنبات عالم مظلم في أوربا يوم أن حمل المسلمون مشاعلك في الاندلس .

فأيامك يا رمضان جزء من التاريخ حيث ارخت للحياة ومنحتها اجمل زاد على طريق مسيرتها ، وذكرت القلوب بالايات البينات ، وانرت الدنيا بضياء التنزيل ، واسعدت البشرية بسفارة جبريل ورسالة الامين التي بددت الظلام والضلال وصانت السلوك الانساني من الانزلاق مع التيارات المنحرفة التي تعوق تقدمه .

هذه ذكريات يثيرها في نفوسنا شهر رمضان حين يقبل وحين يدبر لنتخذ منها العظات والعبر . . واذا كان الماضي لا يموت . والحاضر قد استدار له فليس من شك في ان أيامنا الثائرة تسير الان الى غد مشرق عزيز يبزغ فيه فجر الوحدة

الشاملة لنرى امة عربية قوية منتصرة . . وعندئذ يعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون .

ومن جديد يملأ سمع الدنيا كلها هتاف . . الله أكبر .

قضاء رمضان

اذا كان الله تبارك وتعالى قد اجاز للبعض ان يفطروا في رمضان ثم يقضوا ما عليهم عند الاستطاعة ، فان القضاء لا يجب ان يكون على الفور ، بل انه يجب وجوبا موسعا بمعنى امكان القيام به في اي وقت يستطيعه الانسان وكذلك الكفارة .

وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها انها كانت تقضي ما عليها من رمضان في شهر شعبان من العام التالي . والقضاء يكون اداء فلا يصوم الانسان الا الايام التي اضطر الى الافطار فيها .

ولا يلزم في القضاء ان يكون الصوم متتابعا بل يصوم الانسان بقدر استطاعته عدة الايام متفرقات او متتابعات لقوله تعالى : ومن كان مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر ولقول الرسول : « ان شاء فرق وان شاء تابع ».

واذا لم يتسطع الانسان القضاء ثم حل رمضان في العام التالي صام رمضان ثم يقضي ما عليه بعد انتهاء صوم رمضان ولا وزر عليه او فدية سواء اكان التاخير لعذر او لغير عذر كما

يرى الاحناف والحسن البصري اما مالك والشافعي واحمد فقد وافقوهم على انه لا فدية عليه ولكن خالفوهم اذا كان التاخير بدون عذر . وقالوا عليه ان يصوم رمضان الحاضر ثم يقضي ما عليه بعده ، ويفدي عما فاته من كل يوم . .

قصة انسان

كل يوم ورقة . . وبكل ورقة احاسيس ومشاعر . . واذا اختلفت المشاعر وتغيرت تجاه المخلوق . . فهي واحدة لا تتغير تجاه الخالق الرحمن الرحيم .

نحن بنى الانسان نسعى . . والسعي حق . . ومن اضاع حقه فقد اضاع نفسه . . ومن اضاع نفسه فقد فقد دينه ودنياه . . ولم يعد له الا الله الواهب العاطي . . الرحمن الرحيم . .

ولقد حدثتنا السطور التي في بطون الكتب . . ان واحدا من بنى الانسان اضاع نفسه . . ولم ينتبه لهذا الضياع الا وهو في النزع الاخير . . فاوصى بألا يدفن جسده . . بل يحرق . . ويذرى رماده في الهواء . . ولما سئل عن سبب ذلك اجاب ودمعه هطال : « خجلان ان اقابل ربي ولم احسن استعمال عيني فعميت . . ولم احسن استعمال قلبي فغويت . . ولم

احسن استعمال يدي فاثمت . . لم احسن استعمال قدمي فتهت . . ضعت . .

فواسواتاه . . واسواتاه . . !

وكان هذا الواحد من بنى الانسان صادقا في ندمه غير مراء في خجله . . فنودى عليه من السمـاء : « انت ايهـذا الادمى . . لقد غفر لك . . لصدقك في ندمك وخجلك . . وان الله قد قبل توبتك . . انه . . الرحمن الرحيم . .

يا رحمن يا رحيم . . من لنا سواك . .

مطابع يوسف بيضون
طباعة وتصوير هاتف ٢٧٠٤٠١

سلسلة مختارات اسلامية

١ ـ أبو بكر الصديق
٢ ـ عمر بن الخطاب
٣ ـ عثمان بن عفان
٤ ـ علي بن أبي طالب
٥ ـ رمضانيات (١)
٦ ـ القدس في البال
٧ ـ الجيش في الإسلام
٨ ـ أعياد وتواريخ إسلامية
٩ ـ أحاديث إسلامية في الأخلاق والآداب
١٠ ـ أحكام الحج إلى بيت الله الحرام
١١ ـ أدعية وابتهالات
١٢ ـ كلمات ومواقف خالدة
١٣ ـ تأملات في الإسلام
١٤ ـ رمضانيات (٢)
١٥ ـ معارك إسلامية (١)
١٦ ـ معارك إسلامية (٢)
١٧ ـ أحاديث رمضانية
١٨ ـ قصص إسلامية (١)
١٩ ـ قصص إسلامية (٢)
٢٠ ـ الإسلام وشهر الصوم (١)
٢١ ـ الإسلام وشهر الصوم (٢)
٢٢ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (١)
٢٣ ـ التربية والتعليم في العصور الإسلامية (٢)
٢٤ ـ من قاموس الصائم
٢٥ ـ من روائع الفن الإسلامي (١)
٢٦ ـ من روائع الفن الإسلامي (٢)
٢٧ ـ من روائع الفن الإسلامي (٣)
٢٨ ـ ديار العرب والإسلام (١)
٢٩ ـ ديار العرب والإسلام (٢)
٣٠ ـ ديار العرب والإسلام (٣)

مختارات إسلامية